

العقل البشري و فلسفة القرآن

الله العالم الإنسان

بحث مقارن ومحاولة لفهم النصوص القرآنية

حسن إسماعيل

العقل البشري وفلسفة القرآن

بحث مقارن ومحاولة لفهم النصوص القرآنية

كلام من القلب

عملت على هذا البحث مرتين المحاولة الأولى كانت قبل حوالي 25 سنة مضت ، قضيت سنتين أتجول في حلب للبحث عن المراجع والمصادر ما بين دار الكتب الوطنية والمراكز الثقافية وبعض المكتبات العامة والخاصة ولم يكن ممكناً لي وقتها أن استغل الانترنت والمعلوماتية لتسهيل عملية البحث المصنية والشاقة لذلك كنت الأقي صعوبات كثيرة في الحصول على ما أريده من هذه المراجع والمصادر وفي نهاية المطاف أجزت مخطوطا من حوالي 650 صفحة وانتظرت 10 سنوات انحت عن جهة تكلف بإنجاز المشروع ونشره وتوزيعه لكن بدون فائدة وذلك بسبب أن أغلبية دور الطباعة والتشرك كانت نهتم بالكتب السلفية وتقوم باستمرار على إعادة طباعتها ونشرها بنسخ جديدة ومثل هذا البحث الذي يقوم على قراءة عقلية حديثة للنص القرآني ويقوم بتقد العقل الديني يعتبر ذلك نوعاً من البدع وإن لم يكن ضرباً من نشر الكفر والألحاد في اعتقادهم فمثل هذه الأفكار كانت بتظهيرهم علمانية ذات أهداف غريبة استعمارية .

وضعت المخطوط بعد إنجازه بشق الأنفس - والله على ما أقول شهيد - وضعت في كيس نائلون ووضعت الكيس في كرتونة وألقيت به في سقيفة شقبي الكائنة في حلب المدينة التي هربنا منها في عام 2011 بسبب الأحداث التي تحولت الى حرب طاحنة وولقد نفذنا بريشنا ولم يتسن لنا سوى اخراج بطاقتنا الشخصية وبعض الأوراق الرسمية وتركنا كل شيء على حاله .

منذ حوالي سنة طلبت من قريب لي في حلب الذهاب إلى منزلي لتتقد أوضاعه وطلبت منه أن يصعد السقيفة ويبحث عن تعب عمري هناك وهو مخطوط البحث الذي أتحدث عنه استطاع أن يصل إلى

هُنَاكَ وَقَامَ بِتَصْوِيرِ مَشَاهِدِ عِدَّةٍ لِأَثَارِ الدَّمَارِ وَالسَّرَقَاتِ وَالتَّخْرِيبِ الَّذِي لَحِقَ بِشِقْتِنَا وَقَدْ دَهَشْتِ
عِنْدَمَا رَأَيْتِ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَى مِنْ ذَلِكَ الْبَيْتِ سِوَى جُذْرَانِهِ وَكَمَا يُقَالُ أَصْبَحَ عَلَى الْهَيْكَلِ فَلَقَدْ سَرَقَ كُلُّ
مَا فِيهِ مِنْ أَمْعَةٍ وَتَجْهِيزَاتٍ وَتَمْدِيدَاتِ الْكَهْرَبَاءِ وَالْمَاءِ وَلَمْ يَبْقَ سِوَى الْجُذْرَانِ وَالْبَلَاطِ وَحَدَّثْتَنِي أَنَّ كِتَابِي
المَخْطُوطَ قَدْ حَرَقُوهُ لِأَنَّهُمْ عَرَفُوا أَنَّهُ لَا يَنْتَمِي لِفِكْرِهِمْ وَعُقُولُهُمْ بَلْ لِأَجْلِ التَّدْفِئَةِ فَلَقَدْ تَنَاوَبَ عَلَى سَكَنِ
شِقْتِي فِي بَدَايَةِ الْحَوَادِثِ جَمَاعَةٌ مِنَ الْفَصَائِلِ الْمُسَلَّحَةِ وَثَلَّةٌ مِنْ قَوَاتِ النِّظَامِ وَاتَّخَذُوهُ مُقَرَّأً لَهُمْ وَعَلَى
مَا يَبْدُو فَانِ الْجَمَاعَةَ لَمْ يَتَحْمَلُوا بَرْدَ الشِّتَاءِ الْفَارِصِ فَحَرَقُوا كُلَّ شَيْءٍ مِنْ ثِيَابٍ وَفُرْشٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَقَدْ
حَصَلَ هَذَا بِجَمِيعِ الشَّقِيقِ السَّكِينَةِ فِي بِنَاتِنَا .

لَمْ أَغْضَبْ وَأَحْزَنْ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ فَقَدْتَهُ فِي بَيْتِي سِوَى هَذَا الْمَخْطُوطِ فَكُلُّ شَيْءٍ مُمْكِنٌ تَعْوِيضُهُ وَشِرَاءُ
أَفْضَلُ مِنْهُ لَكِنِ الْكُتُبَ وَالْمَذَكِرَاتِ فَمِنْ الصَّعْبِ جِدَا إِعَادَةُ كِتَابَتِهَا بِنَفْسِ الرُّوحِ وَالْأَسْلُوبِ وَالْأَفْكَارِ .
مُنْذُ حَوَالِي سَنَةٍ تَقْرِيْبًا رَاوَدْتَنِي فِكْرَةُ كِتَابَةِ وَإِعَادَةِ إِحْيَاءِ مَخْطُوطِي الْمَحْرُوقِ مِنْ جَدِيدٍ وَصَارَ ذَلِكَ
هَاجِسًا فِي رَأْسِي يَلَاحِقْنِي وَأَنَا فِي بِلَادِ الْغُرْبَةِ وَاللَّجْوِ لَكِنِ كَيْفَ وَقَدْ اخْتَلَفْتُ أُمُورًا كَثِيرَةً جِدًّا فَالْيَوْمَ
أَنَا عَلَى مَشَارِفِ السَّبْعِينَ مِنْ عُمْرِي وَفَوْقَ ذَلِكَ تَعَرَّضْتُ لِحُلَّةِ قَلْبِيَّةٍ وَلَازَلْتُ أَتَلَقَّى الْعِلَاحَ مُنْذُ سَنَوَاتٍ
بَصْرِي قَدْ خُفَّ وَسَمِعِي قَدْ ثَقَلَتْ وَخُلُقِي قَدْ ضَاقَ وَظُرُوفُ الْمَعِيشَةِ أَثْقَلَتْ عَلَيَّ وَذِكْرِيَاتِي صَارَتْ
كَابُوسًا يَجُثُّ عَلَيَّ صَدْرِي الشَّيْءَ الْوَحِيدَ الَّذِي يُعَدُّ فِي خَانَةِ الْإِجَابِيَّاتِ فِي هَذِهِ الْفِتْرَةِ الزَّمْنِيَّةِ الطَّوِيلَةِ هُوَ
اتِّسَاعُ مَعْرِفَتِي وَثِقَافَتِي وَوَعْيِي وَقَرَأْتُ مِنَ الْكُتُبِ وَالْأَبْحَاثِ فِي رُبْعِ قَرْنٍ مَاقْرَأْتُهُ فِي حَيَاتِي كَمَا بَفَضْلِ
تَقْنِيَّاتِ اللَّابْتُوبِ وَالْبَحْثِ وَكَثْرَةِ الْمَوَاقِعِ الَّتِي تَهْتَمُّ بِنَشْرِ الْكُتُبِ الْإِلِكْتْرُونِيَّةِ أَنَا الْيَوْمَ لَسْتُ كَمَا كُنْتُ قَبْلُ
25سَنَةً قَطْعًا بَلْ أَكَادُ أَجْزَمَ بِأَنِّي مُخْتَلَفٌ كَثِيرًا وَكَثِيرًا جِدًّا وَفِي كُلِّ شَيْءٍ فَالحَيَاةُ لَمْ تَعُدْ تَسْتَفْرِزْنِي أَوْ

تُرهِقُنِي أَوْ تَسْتَهِينِي لِأَرْكُضَ وَرَاءَهَا لَقَدْ تَعَبْتُ مِنَ اللَّحَاقِ بِهَا أَنَا الْيَوْمَ شَيْخٌ مَمْتَلِي بِالْخُبْرَةِ وَالْوَعْيِ وَالثَّقَافَةِ
وَصَارَ أَكْثَرَ حِلْمًا وَهَدُوءًا فَلِمَاذَا لَا أُعِيدُ كِتَابَهُ مَا كَتَبْتُ وَأُعِيدُ أَحْيَاءَ بَحْثِي مِنْ جَدِيدٍ .

عَقِدْتُ الْعَزْمَ عَلَى ذَلِكَ وَتَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ صَعُوبَاتٌ مَجْثِيَةٌ تَعْرِضُنِي فَأَنَا بِكِبْسَةِ زَرٍّ وَاحِدَةٍ
أَسْتَطِيعُ الْحُصُولَ عَلَى الْمَثَاتِ مِنَ الْمَصَادِرِ وَالْمَرَاJِعِ وَالدرَاسَاتِ وَالْأَبْحَاحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَأَسْتَطِيعُ إِذْ
أَخَذَ مِنْهَا مَا تَطْلُبُهُ مَوَاضِيعَ هَذَا الْبَحْثِ وَفُضُولُهُ مِنْ شَوَاهِدٍ وَأَدْلَةٍ بِسُهُولَةٍ أَيْضًا هِيَ عَمَلِيَّةٌ لَا تَسْتَعْرِقُ
سِوَى دَقَائِقٍ وَبِالرَّغْمِ مِنْ وَضْعِي الصَّحِي وَالْمَرْضِي وَالْعَمْرِي فَلَقَدْ أَنْجَزْتُ الْكِتَابَ فِي وَقْتٍ قِيَاسِيٍّ
وَكَذَلِكَ قُمْتُ بِعَمَلِيَّةٍ تَدْقِيقَهُ وَمُرَاجَعَتَهُ وَتَصْمِيمَ غِلَافِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَتَحْوِيلَهُ إِلَى كِتَابِ الْإِكْرُونِي نَشْرَتَهُ
عَلَى مَوَاقِعٍ عِدَّةٍ تَسْمُحُ بِنَشْرِ الْكُتُبِ الْإِلِكْرُونِيَّةِ مَجَانًا كَمَا بَعَثْتُ لِصَحْبِي وَمَعَارِفِي نُسخَةَ مِنْهُ وَالتَّشْرُ
عَلَى الْإِنْتَرْنِتِ فِي أَيَامِنَا وَوَقْتِنَا وَوَضَعْنَا الْحَالِي هُوَ أَمْرٌ سَهْلٌ وَغَيْرُ مَعْقَدٍ وَلا يَحْتَاجُ إِلَى مُوَافَقَةِ وَزَارَةِ
الْإِعْلَامِ وَالْجِهَاتِ الْأُمْنِيَّةِ عَلَى طِبَاعَتِهِ وَلَمْ أَكُنْ بِحَاجَةٍ لِسُؤَالِ دُورِ النَّشْرِ وَالطَّبَاعَةِ لِطِبَاعَتِهِ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ
إِلَيَّ سَخَّرَ لَنَا هَذِهِ التَّكْنُولُوجِيَا الْمَجَانِيَّةَ فَلَقَدْ نَشَرْتُ الْكِتَابَ بِدُونِ مُوَافَقَةِ رِقَابَةٍ أَوْ تَكَالِيفٍ أَوْ مُوَافَقَاتِ
وَغَيْرِ ذَلِكَ .

والمفارقة الغريبة التي حصلت معي أن هذه النسخة من كتاب العقل البشري وفلسفة القرآن هي أكثر
شُمُولِيَّةً وَعُمُقًا وَنُضْجًا وَفَهْمًا مِنْ تِلْكَ النُّسخَةِ الْحَرْوَقَةِ وَلَقَدْ قُتِحَتْ فِيهَا مُحَاوِرٌ جَدِيدَةٌ كَمَا أَنَّ قِنَاعِي
الْفِكْرِيَّةَ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ قَدْ تَغَيَّرَتْ كَثِيرًا فَهَنَّاكَ قِنَاعَاتِ كُنْتُ اعْتَبَرْتُهَا فِي تِلْكَ الْمُرْجَلَةِ مِنَ الْمُسَلَّمَاتِ
وَالبَدِيهَاتِ صَارَتْ الْيَوْمَ مِنَ الْمَشْكُوكِ فِيهَا وَبَعْضُهَا وَضَعْتُ فِي الْمُهْمَلَاتِ وَمَا كُنْتُ اعْتَبَرْتُهُ مُصَدَّرًا مِنْهُمَا
مُؤْتَوَقًا الْيَوْمَ أَرَاهُ مُصَدَّرًا مُحَرَّفًا أَوْ مَشْكُوكًا فِي أَمْرِهِ تَوَضَّحْتُ لِي الصُّورَ وَالرُّؤْيَى بِشَكْلِ أَفْضَلِ بَكِيرٍ .

لَا أَدْعِي إِيَّانِي أَقْدَمَ تَفْسِيرًا جَدِيدًا لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فَهَذَا أَمْرٌ لَا أَضَعُ نَفْسِي فِي خَانَةِ الْمُؤَهِّلِينَ لِفِعْلِهِ

وَلَا أَدْعِي إِيَّانِي سَلَكْتَ مِنْهَا جَدِيدًا لَمْ يَسْلُكْهُ أَحَدًا مِنْ قَبْلِي وَأَقُولُ عَنْهُ أَنَّهُ مُبْتَكِرًا كُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ
إِيَّانِي اتَّخَذْتَ الْأُسْلُوبَ الْوَاضِحَ الْمَرْنُ الْبَسِيطَ فِي اسْتِخْلَاصِ مَفَاهِيمِ عَامَّةٍ مِنَ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ أَطْلَقْنَا
عَلَيْهَا اصْطِلَاحًا اسْمُ فِلْسَفَةِ الْقُرْآنِ وَكَانَ اسْمُوتِي فِي ذَلِكَ الْأَعْرَابِيِّ الَّذِي قَالَ الْبُعْرَةُ تَدُلُّ عَلَى الْبُعِيرِ
حِينَمَا سَأَلُوهُ عَنْ كَيْفَ عَرَفَ اللَّهُ لَمْ يَكُنْ يَحْتَاجُ إِلَى كُلِّ هَذَا الْجَدَلِ أَوْ زِيَادَةٍ فِي كَثْرَةِ الْجُمَلِ وَالْكَلِمَاتِ
وَالنَّفْسِيَّاتِ وَالتَّوْضِيحَاتِ لِلرَّدِّ قَالَهَا بِبَسَاطَةِ رُوحِهِ وَسَلَامَةِ عَقْلِيَّةٍ وَقُوَّةِ بَصِيرَتِهِ .

أَنْ عَقْلِيٌّ مُنْفَتِحٌ وَهُوَ حُرٌّ بِهَذَا الْمَعْنَى أَيُّ لَا أَحْضَرُهُ فِي خَانَةِ ضَيْقَةٍ أَوْ أَتْرَكُهُ يَسْتَسَلِمُ لِتِيَارِ مُعَيَّنٍ أَوْ فِكْرٍ
أَوْ رَأْيٍ بَلْ هُوَ مُنْفَتِحٌ عَلَى جَمِيعِهَا لَا أَطْلُقُ عَلَى نَفْسِي سَلْفِي أَوْ قُرْآنِي سِنِي أَوْ شِيعِي أَوْ دِيمُقْرَاطِي أَوْ
لِيْبِرَالِي أَوْ عِلْمَانِي أَوْ إِسْلَامِي أَنَا اتَّمِي لِعَقِيدَتِي وَدِينِي وَلِفِكْرِي وَوَعِي وَثِقَاتِي وَفِلْسَفَتِي فَقَدْ أَكُونُ كُلُّ
هَؤُلَاءِ أَوْ جُزْءٌ مِنْهُمْ أَوْ لَا أَكُونُ .

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

حَسَنُ عَبْدِ اللَّهِ إِسْمَاعِيلِ

تركيا - أيلول 2023

hassnismael666@gmail . com لِطَلَبِ نُسْخَةِ إِكْتِرُونِيَّةٍ مَجَّانِيَّةٍ مِنَ الْكُتَابِ

hassnismael555@hotmail . com الْحُصُولِ عَلَى نُسْخِهِ مَجَّانِيَّةٍ مِنَ الْمَوَاقِعِ

التَّالِيَةِ عَبْرَ الرُّوَابِطِ

العقل البشري و فلسفة القرآن

مُقَدِّمَةٌ وَمَدْخَلٌ

يُطْلَقُ عَلَى عَصْرِنَا الْيَوْمِ عَصْرُ الْمَعْرِفَةِ وَتَكْنُولُجِيَا الْمَعْلُومَاتِ وَالَّذِي بَدَأَ مَعَ أَوَاخِرِ الْقَرْنِ الْمَاضِي عَقِيدَتَهُ هِيَ الْفَلْسَفَةُ الْمَادِّيَّةُ بِامْتِيَازٍ هَذِهِ الْفَلْسَفَةُ الَّتِي شَمَلَتْ كُلَّ مَعَالِمِ الْحَيَاةِ الْحَدِيثَةِ فَالْعَالِمِ الْيَوْمِ تَحْكُمُهُ مَبَادِي الْمُنْفَعَةِ وَالْفُرْدِيَّةِ وَالْحُرِّيَّةِ وَالْدِيمُقْرَاطِيَّةِ وَالْعِلْمَانِيَّةِ وَحُقُوقِ الْإِنْسَانِ وَهِيَ أَهَمُّ مَظَاهِرِ الْمَادِّيَّةِ كُلُّ ذَلِكَ جَاءَ عَلَى حِسَابِ الْمَبَادِي وَالْقِيَمِ الْمَثَالِيَّةِ الَّتِي كَرَسَتْهَا الْأُذْيَانِ السَّمَاوِيَّةِ وَصَارَ الْإِعْتِقَادُ الدِّينِي مَادَّةَ قَانُونِيَّةٍ فِي الدَّسَاتِيرِ الْحَدِيثَةِ تَصْنَفُ تَحْتَ بَنْدِ حُرِّيَّةِ الْإِعْتِقَادِ مِثْلًا مِثْلُ الْإِلْحَادِ وَاللَا أَدَارِيَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

أَنَّ هَذَا الصَّرَاعَ بَيْنَ الْمَثَالِيَّةِ وَالْمَادِّيَّةِ مُزْمَنٌ يَرْجِعُ إِلَى بَدَايَاتِ تَكُونِ الْفَلْسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ حَيْثُ ظَهَرَ بوضوح وقتها تقسيم الفلسفة إلى مادّية ومثالية .

لَقَدْ سَيَّطَرَ الْمَذْهَبُ الْمَادِي عَلَى كُلِّ أَدْوَاتِ الْمَعْرِفَةِ وَتَكْنُولُجِيَا الْمَعْلُومَاتِ وَسَخَّرَهَا لِصَالِحِهِ وَلَمَّا يَبْقَ أَمَامَ أَنْصَارِ الْمَثَالِيَّةِ وَالْأُذْيَانِ سِوَى الصُّمُودِ وَالِدَّفَاعِ وَصَدَّ هَذَا الْهُجُومَ الْكَاسِحَ وَنَرَى شَكْلًا مِنْ أَشْكَالِهِ وَاضِحًا عَلَى الْفَضَائِيَّاتِ وَالْإِنْتَرْنِيَّتِ الَّذِي أَصْبَحَ دَمُّ الْعَصْرِ الَّذِي يَمُدُّهُ بِالْمَعْلُومَاتِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالْعُلُومِ وَعَلَى وَسَائِطِ التَّوَاصُلِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَالْمَدُونَاتِ وَالصُّخُفِ وَالْمَوَاقِعِ الْإِلِكْتْرُونِيَّةِ وَصُورًا إِلَى وَقْتِنَا الْحَالِي لَمَّا مَا يَعْرِفُ بِالذِّكَاءِ الْإِصْطِنَاعِي .

لَمْ يَبْقَ إِمامُ الْأُذْيَانِ وَالْعَقَائِدِ مِثْلَةُ بَعْقَلِهَا الدِّينِي وَالْفَلْسَفَاتِ الْمَثَالِيَّةِ سِوَى إِعَادَةِ تَرْتِيبِ عَقْلِهَا وَفِكْرِهَا الدِّينِي وَتَجْدِيدِهِ وَاتِّقَانِ وَفَهْمِ طَبِيعَةِ الْعَصْرِ وَأَدَاوَتِهِ لِكَيْ تَعَزَّزَ مَوْقِفُهَا وَتَنْظِمَهُ لِمُوَاجَهَةِ الْإِلْحَادِ وَالْفِكْرِ الْإِلْحَادِيِّ .

لكن العقل الديني يعاني ويكابد بسبب انشغاله بالمواجهات البينية وتسمر بعض تياراته وتسييس الدين
واليهودية تعمل خارج سرب الأديان السماوية نتيجة تحولها إلى مادية فرطية ومن ثم إلى عقيدة صهيونية
ماسونية عالمية ليس الله هدفها بل المال والاقتصاد والسياسة ومن ثم السيادة والزعامة وهي العدو
اللدود للديانتين السماويتين المسيحية والإسلام وهو عداء تاريخي مؤمن إذ ان عقيدتها الدينية تقوم على
انكار كل ديانة او نبي او كتاب سوى أنبياءها وكتبها .

أما المسيحية فلقد كشفت العلوم ووسائل المعرفة الحديثة عوراتها وصار الاعتقاد بالكتاب المقدس
بعهديه القديم والجديد ضعيف وواهن نتيجة انهيار النصوص أمام المكتشفات العلمية مما أدى الى نمو
وأزدهار الفكر الالحادي والملحد في أوروبا والغرب على حساب المؤمنين المسيحيين كما
يصفوا أنفسهم والهدف من وراء ذلك القضاء على عقيدة الايمان بالله من جذورها بعد الإعلان عن
موت الاله وتكريس نظرياتهم المتعلقة بالخلق الذاتي وأزلية المادة ونظرية التطور والانتقاء الطبيعي وغير
ذلك .

إما عن العقل الديني الإسلامي الذي وضع نفسه ممثلاً عن الدين الإسلامي وهو ديننا ومنهجنا وشرعنا
وعقيدتنا فما هو موقعه وواقعة اليوم في هذه المواجهة العصرية القوية بين الايمان والالحاد ؟
أن الخطاب الديني قد اتخذ صوراً متنوعة ومتناقضة فنشاهده خطأً عسرياً عند القرآنيين والعقلانيين
مفتوحاً متسامحاً واعياً وعند السلفيين نراه رجعيًا مُشددًا ذو ذهنية عدائية مُعادية أحياناً ساعدت في
تشكيل مجموعات وجماعات تؤمن بالمواجهة العسكرية وأعدت العدة لذلك نعتت فيما بعد
بالإرهابية .

ونستطيع أن نصنف إشكال وصور هذا الخطاب فيما يلي :

الشكل الأول : يُمثله أصحاب المذهب السنّي الذي يترجمه تيارًا تاريخيًا يُدافع عن السلفيّة والتراث الفكري دفاعًا مستميتًا ويُعادي التيارات المستحدثة العقلانية الجديدة والتي تُرفض بشدّة التراث النقلي وتضع الشُروط للأخذ به وبالحدّث التنبوي فتكاد تُلغى أكثره من الوجود وأصحاب هذا الخطاب أطلقوا على أنفسهم بالقرّائين أو الأصلاحيين الذين يرون أنّ القرآن الكريم هو الأصل وفيه الفصل .

الشكل الثاني : يتمثل في خطاب الكراهية ونفي الآخر المُبادل بين السنّة والشيعية لتصفية الحسابات التاريخيّة فيما بينهم ويُمثل جبهة عريضة وقوية وعلى مستوى عالٍ من الجدال والتّقاش والخُصومة واستغلّ الطرفين كل أدوات المعرفة والمعلوماتية والانترنت والبت الفضائي لهذه المواجهة العقائدية الطائفية فيما بينهم فتفرّعت من هذا الطرف وذاك أحزاب ومجموعات نشطت على المحطّات الفضائية ومواقع ومدونات وصفحات ومجموعات وصُحف الإلكترونيّة وقنوات بت مباشر على اليوتيوب وغيره من منصات التّواصل الاجتماعي في خدمة هذه الحرب المذهبيّة .

لقد فضحت هذه المواجهة العنيفة الشاملة الطرفين وعرّتهم وهم أتباع دين واحد فيفاخر كل طرف بأنه الفرقة التاجية والصائبة وخصومهم هم على الباطل وهم يعلمون أنّه بهذه المواجهة قد مسوا الدين ذاته بعقيدته وأركانها وشوهوا صورته وشككوا في مصداقيه الرسالة كلّها ونشروا غسيلهم وفضائحهم وخرافاتهم وهرطقاتهم دُفعةً واحدةً أمام الملا حتى صار الآخر يُشك في أصول عقيدتنا وأسلامنا

وَوَصَلَ هَذَا الشُّكُّ وَهَذِهِ الرِّبِيَّةُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْفُسِهِمْ وَرَاحُوا يَتَسَاءَلُونَ أَيْعَقِلُ أَنْ يَكُونَ دِينَنَا بِهَذَا الشُّكْلِ
الْمُرِيبِ وَقَدْ وَصَلَتِ الْمُوَاجَهَةُ بَيْنَ هَذَيْنِ التِّيَارَيْنِ إِلَى حَدِّ الْحُرُوبِ وَسَفْكَ الدَّمَاءِ كَمَا هُوَ الْحَالُ فِي
الْعِرَاقِ وَبُنَّانِ وَسُورِيَا وَالْيَمَنِ ؟

الشُّكْلُ الثَّلَاثُ : فَهُوَ أخطرُ تياراتِ الخُطَابِ الدِّينِيِّ لِأَنَّهُ يَقُومُ عَلَى مَبْدَأِ العُنْفِ وَالْمُوَاجَهَةِ وَيَسْتَرْجِعُ
الجِهَادَ وَيُشْرَعَهُ وَيُحْضِرُ عَلَيْهِ وَأَدَّتْ أفعالُ هَذَا التِّيَارِ إِلَى تَتَابُجِ مَدْمَرَةٍ إِذْ عَمَلُ أَصْحَابِهِ وَهُمْ جَمِيعًا
يُتِمُّونَ لِلتِّيَارِ السَّلْفِيِّ المُتَشَدِّدِ عَمَلًا عَلَى تَشْكِيلِ مَجْمُوعَاتِ بَلِ جَيْوشِ مُسَلَّحَةٍ وَأَعْلَنُوا الحَرْبَ وَالتَّغْيِيرَ
ضِدَّ مَا سَمَوْهُ بِالْكَفْرِ المِثْلِ بِأَمْرِيكَا وَالْعَرَبِ الكَافِرِ وَالْأَنْظِمَةَ الكَافِرَةَ وَفَقَّ تَغْيِيرِهِمْ وَيَالِيَتِهِمْ اسْتَعْمَلُوا
أدْوَاتِ الدَّعْوَةِ وَالْعُقْلِ وَالْمَنْطِقِ بَلِ اسْتَعْمَلُوا القُوَّةَ وَالْحَرْبَ وَالْمُوَاجَهَةَ الدَّمَوِيَّةَ فَنَفَذُوا عَمَلِيَّاتِ تَدْمِيرِيَّةَ هُنَا
وَهُنَاكَ كَانَ أَكْثَرُهَا مَأْسَاوِيَّةَ إِحْدَاثِ أَيْلُولِ حِينِ قَادِ ابْنِ لَادِنِ الحَرْبِ الحَدِيثَةِ ضِدَّ الصَّلِيبِيِّينَ لَكِنَّ هَذِهِ
الْمَرَّةَ نَقَلَهَا إِلَى عَقْرِ دَارِ الصَّلِيبِيِّينَ وَفَقَّ تَغْيِيرِهِ وَقَدْ دَفَعَ الدِّينَ الإِسْلَامِيَّ وَالْمُسْلِمِينَ أَثْمَانًا بَاهِضَةً جَدًّا
لِقَاءِ هَذِهِ الْمُوَاجَهَةِ المَجْنُونَةِ فَحُورِبَتْ دَوْلٌ وَغَزِيَتْ دَوْلٌ وَتَشَرَّدَتْ شُعُوبًا بِأَكْمَلِهَا وَأَلْصَقَ بِالدِّينِ الحَنِيفِ
نُهْمَةُ الأَرْهَابِ الَّتِي انْتَشَرَتْ بِسُرْعَةٍ غَرِيبَةٍ وَلَازَلْنَا إِلَى سَاعَتِنَا هَذِهِ نَدْفَعُ أَثْمَانَ هَذِهِ الْمُوَاجَهَةِ المُشْكُوكِ
فِي نَوَايَا مِنْ شَنْهَا وَحَرَضَ عَلَيْهَا وَكَانَ مِنْ تَتَابُجِهَا قِيَامُ جَمَاعَاتٍ تُعْلِنُ انْتِمَاءَهَا لِبْنِ لَادِنِ بِغَزْوِ مَنَاطِقٍ مِنْ
الْعِرَاقِ وَسُورِيَا وَأَسَسُوا فِيهَا مَا يُعْرَفُ بِدَوْلَةِ العِرَاقِ وَالشَّامِ وَالْكُلِّ عَاصِرٍ وَشَاهِدِ كَيْفَ دَمَرَتْ دَاعِشُ
هَاتَيْنِ الدَّوْلَتَيْنِ وَقَضَّتْ عَلَى أَهْلِ السُّنَّةِ قَبْلَ غَيْرُهُمْ وَكَيْفَ انْتَهَكَتْ أَعْرَاضَ المُسْلِمِينَ وَلَيْسَ الكُفَّارُ
وَكَيفَ سَرَقَتْ أَمْوَالَهُمْ وَاسْتَبَاحَتْ أَعْرَاضَهُمْ .

الشكل الرابع من إشكال الخطاب الديني هو عصري ومتجدد ورواده ومثليه ومنظريه يحاولون اليوم بقدر ما استطاعوا أن ينقدوا سمعه المسلمين ومكانة الدين بعد أن لوثته التيارات الإسلامية والجماعات التكفيرية وكادت أن تدمره لولا إرادة الله التي اقتضت بحفظ كتابه ورسالته إلى يوم الدين ورواد هذه الجبهة أغلبهم واعيين ومنفتحين ومتقنين ويمتلكون أدوات المعرفة الحديثة والمنطق يرفضون الملية والفرقية والسلفية والمذهبية والطائفية ويعتبرون أن القرآن الكريم هو أصدق الكلام وفيه أصدق الحديث والقصص وهو الوحيد القادر على إشتال الأمة الإسلامية من شفا حفر النار ويعملون وفق أساليب وطرق الدعوة الحق ووفق مبدأ الدعوة السامي والذي يدعو بالعقل والسلام وبالتي هي أحسن إلى الحوار والجدل الثمر المفيد هؤلاء هم العقلاء ولا أقول العقلانيين فرائهم يدافعون عن قيمهم ودينهم بإثبات معجزات علمية جديدة آتا بها الكتاب الكريم ويتحدثون عن أسس العقيدة الصحيحة وأخلاق الإسلام ويدعمون قولهم بنص قرآني أو بمنطق عقلي لايعارض مع العلم أو المعرفة يضم هذا التيار آلاف المفكرين وملايين من المتعلمين والمتقنين تراهم منتشرين في كل مكان واتخذوا من مواقع التواصل الاجتماعي وأدوات الانترنت والمدونات وغير ذلك مكانا لهم يعملون ليل نهار ليرفعوا اسم الله من جديد ويعيدوا الإسلام إلى مكانه الصحيح ودوره الريادي والقيادي في هذا العالم .

والسؤال الآن بعد هذا المدخل الوجيز كيف لنا كمسلمين أولاً وكمفكرين ثانياً إن تتجاوز هذه المرحلة كيف يمكننا صنع منهج فكري جديد حديث ومعاصر نستغل في إعداده وتكوينه كل الوسائل العظيمة التي بين أيدينا وسائل وأدوات هذا العصر ؟

كَيْفَ يُمَكِّنَا أَنْ نُظْهِرَ لِنَفْسِنَا وَلِلْآخَرِينَ حَقِيقَةَ دِينِنَا وَمَنْهَجِنَا وَشَرْعِنَا كَمَا هُوَ وَلَيْسَ كَمَا وَصَلَ إِلَيْنَا
كَيْفَ لَنَا أَنْ تَرْفَعَ تَهْمَةَ الْإِرْهَابِ الَّتِي لَصِقَتْ بِنَا كَيْفَ لَنَا نَوَاجِهُ الْآخِرِ بِمَنْطِقِ وَوَعْيِ وَمَعْرِفَةٍ وَكَيْفَ لَنَا أَنْ
نَكُونَ دَعَاةَ حَقِيقِينَ وَأَصْحَابَ آخِرِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ الْمُكَلِّفِينَ بِخِدْمَةِ الرِّسَالَةِ وَإِصَالِهَا إِلَى النَّاسِ جَمِيعًا
وَنُشْرَ الْوَعْيِ الدِّينِيِّ وَالثَّقَافَةِ الدِّينِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ الْخَالِصَةِ وَمَا هُوَ سُكْلٌ وَوَصَفٌ هَذَا الْخِطَابُ الَّذِي
سَنَسِيرُ عَلَيْهِ وَنَسْلُكُهُ ؟

قَبْلَ أَنْ نُجِيبَ عَلَى هَذِهِ التَّسَاوُؤَاتِ عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ مَا هُوَ الْخِطَابُ الدِّينِيُّ بِشَكْلِ عَامٍّ وَمَا الْمُتَقْصُودُ مِنْهُ
وَهَلْ لَهُ مَعْصُومِيَّةٌ وَخُطُوطٌ حَمْرَاءٌ مِنْ يَحْتَازُهَا أَوْ يَتَجَاوَزُهَا يَكْفُرُ وَيُلْعَنُ ؟

الْخِطَابُ الدِّينِيُّ بِشَكْلِ عَامٍّ هُوَ مَا يُفْهَمُهُ أَوْ يَسْتَنْبِطُهُ الْفَقِيهَ وَالْعَالِمَ وَالْمُفَكِّرَ مِنَ التَّصِّ الدِّينِيِّ ، أَوْ مِنْ
مَصَادِرِ الْاجْتِهَادِ وَالِاسْتِنْبَاطِ الْمُعْتَمَدَةِ ، فَلَا قَدَاسَةَ وَلَا عِصْمَةَ أَذِنَ لَهُ فَالْاجْتِهَادُ قَدْ يُصِيبُ وَقَدْ يُخْطِئُ
وَالْمُجْتَهِدُ يَعْبُرُ عَنْ مَقْدَارِ فَهْمِهِ وَإِدْرَاكِهِ وَقَدْ يَتَأَثَّرُ بِتَأْجِهِ بِمُخْتَلِفِ الْعَوَامِلِ التَّنَفُّسِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي
تُنْعَكِسُ عَلَى آرَائِهِ وَتَصَوُّرَاتِهِ . كَمَا أَنَّ قِسْمًا كَبِيرًا مِنَ الْخِطَابِ الدِّينِيِّ الْمَعَاصِرِ لَا يُصْدَرُ عَنْ فُقَهَاءٍ
مُجْتَهِدِينَ ، بَلْ عَنْ وَعَاظٍ وَخُطَبَاءٍ مُحْتَرِفِينَ ، وَجِهَاتٍ تَمْتَهِنُ التَّصَدِّي لِلشَّانِ الدِّينِيِّ ، بَغْضِ التَّنْظَرِ عَنِ
الْكَفَاءَةِ وَالتَّزَاهَةِ .

إِنَّ الْفِكْرَ هُوَ الَّذِي يَصُوغُ مُسْتَوَى وَمُحْتَوَى وَهَيْئَةَ الْخِطَابِ ، فَإِذَا مَا كَانَ الْفِكْرُ عَرِضَهُ لِلْبَسَاطَةِ وَالْحِرَافَةِ
أَوْ لِلتَّشَدُّدِ وَالتَّحَجَّرِ فَإِنَّ الْخِطَابَ سَيَكُونُ بِمُسْتَوَى مِنَ الْهَبُوطِ الْعِلْمِيِّ وَالْأَخْلَاقِيِّ يَكْشِفُ مَحْتَوَاهُ .
أَمَّا الْفَارِقُ بَيْنَ الْخِطَابِ الدِّينِيِّ وَالتَّصِّ الدِّينِيِّ فَيَمْتَثِلُ فِي أَنَّ التَّصَّ الدِّينِيَّ هُوَ كُلُّ مَا ثَبَتَ صُدُورُهُ عَنِ اللَّهِ
وَعَنِ رَسُولِهِ ، أَيْ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، بَيْنَمَا الْخِطَابُ الدِّينِيُّ فَهُوَ الْأَدَاةُ الْاجْتِهَادِيَّةُ الْمُبْرَزَةُ لِلتَّصِّ الدِّينِيِّ ،

وَيَكْمُنُ الْفَرْقُ الْجَوْهَرِيَّ بَيْنَهُمَا فِي عِصْمَةِ النَّصِّ دُونَ الْخَطَابِ : فَالنَّصُّ الدِّينِيُّ أَمِي : الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ -
فَوْقَ الْخَطَا وَالْإِشْبَاهِ ؛ إِذِ إِنَّمَا يَحْكِيَانِ عَنِ اللَّهِ ، وَعَنْ وَحْيِهِ الْأَمِينِ ، وَعَنْ الْمَصْدَرِ الْمَعْصُومِ ، وَلَيْسَ
هُنَاكَ أَمِي شَكٌّ أَوْ رَيْبٌ عَلَى اعْتِبَارِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ نَصًّا مَعْصُومًا إِلَّا أَنَّهُ وَمُنْذُ عُقُودِ نَشْأَتِيَارًا بَدَأَ يَتَّسِعُ لَا
يَأْخُذُ بِالْأَحَادِيثِ الْمُنْسُوبَةِ لِلرَّسُولِ الْكَرِيمِ وَالَّتِي وَصَلَتْ إِلَيْنَا بِالتَّوَاتُرِ أَوْ دَعْنَا نَقُولَ أَنَّهُ يَرْفُضُ أَغْلِبَهَا
وَبِالتَّالِي فِيهِ عَرَضَهُ لِلْبَحْثِ وَالتَّمْحِيصِ وَلَا تَدْخُلُ وَفُقَ رَأْيُهُمْ بِخَانَةِ النَّصِّ الْمَعْصُومِ بِسَبَبِ الشُّكِّ فِي
صِحَّتِهَا وَنَسَبِهَا لِلرَّسُولِ الْكَرِيمِ .

لَقَدْ بَدَأَتْ مُنْذُ بَدَايَاتِ الْقُرْنِ الْمَاضِي مَحَاوِلَاتٌ عَدِيدَةٌ لِتَغْيِيرِ شَكْلِ الْخَطَابِ الدِّينِيِّ وَمَضْمُونِهِ وَجَرَّهُ قَدْرُ
الْإِمْكَانِ إِلَى عَصْرِهِ وَاتِّشَالِهِ مِنْ سِيَاقِهِ التَّارِيخِيِّ هَذَا الْمَحَاوِلَاتُ ظَهَرَتْ تَحْتَ مُسَمِّيَاتٍ تَجْدِيدِ الْفِكْرِ
الْإِسْلَامِيِّ أَوْ حَرَكَاتِ الْإِصْلَاحِ وَالَّذِي يُعْرَفُ أَيْضًا بِالْإِسْلَامِ التَّقْدِيمِيِّ أَوْ بِالْإِسْلَامِ التَّقْدِيمِيِّ الْإِصْلَاحِيِّ أَوْ
التَّجْدِيدِ الْإِسْلَامِيِّ تَدْعُو لِإِصْلَاحِ الْخَطَابِ الدِّينِيِّ وَتَبْدَأُ الْخِلَافَ الْمَذْهَبِيَّ وَالتَّعَصُّبَ الطَّائِفِيَّ ، وَالْإِتْبَاعَ
عَنِ التَّقَالِيدِ الْمُمْتَرِجَةِ بِالْخِرَافَاتِ وَالْأَفْكَارِ الدَّخِيلَةِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَفِي نَفْسِ الْوَقْتِ كَانَتْ تِلْكَ الْحَرَكَةُ
تَدْعُو لِفَهْمِ الْإِسْلَامِ فَهْمًا جَدِيدًا ، عَنْ طَرِيقِ إِعَادَةِ فَهْمِ وَتَفْسِيرِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ ، وَاسْتِخْدَامِ الْأَدْوَاتِ
الْفِقْهِيَّةِ التَّقْلِيدِيَّةِ مِثْلَ الْإِجْتِهَادِ وَالْفِيَّاسِ وَالْإِجْمَاعِ وَغَيْرِهَا مِنْ أَجْلِ صِيَاغَةِ مَشْرُوعِ إِصْلَاحِيٍّ عَلَى ضَوْءِ
الْمَعَايِرِ الْعِلْمِيَّةِ الْعَقْلَانِيَّةِ ، وَالتَّظَرِّيَّةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْحَدِيثَةِ .

إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الْمَحَاوِلَاتُ لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَحْرِقَ الذَّهْنِيَّةَ الْعَامَّةَ وَتَحْدِثَ ثَوْرَةً أَوْ تَوْعَاً مِنْ التَّغْيِيرِ وَذَلِكَ بِسَبَبِ
رُدُودِ الْفِعْلِ الْقُوَّةِ عَلَيْهَا مِنْ قِبَلِ الْمَوْسَسَّاتِ الْفِقْهِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْمَذَاهِبِ السُّلْفِيَّةِ الْحَاكِمَةِ لِلنَّظْمِ
السِّيَاسِيَّةِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى نَفْسِي الْأُمِّيَّةِ وَالْجَهْلِ فَالْعُقْلِ الْعَرَبِيِّ وَالْمُسْلِمِ الْحَدِيثِ وَالْمَعَاصِرِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ

لَمْ يَكُنْ قَدْ نُضِجًا بَعْدَ كُلِّ هَذَا النُّضِجِ الَّذِي بَدَأَ يَسِيرُ مَتَسَارِعًا مُؤَخَّرًا مَعَ امْتِنَاكِ أَدْوَاتِ التَّطَوُّرِ
التَّكْنُولُوجِي كَالْتَلْفِزِيُونِ وَمَنْ تَمَّ الْكَمْبِيُوتِرُ وَالْإِنْتَرْنِيْتُ وَصُورًا إِلَى يَوْمِنَا هَذَا الَّذِي تَرَى فِيهِ تَغْيِرَاتٌ كَبِيرَةٌ
وَجَذَرِيَّةٌ حَدَثَتْ فِي آيَةٍ وَعَمِلَ هَذِهِ الذَّهْنِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ الْمُسْلِمَةُ وَجَعَلَتْهَا تَتَحَرَّرُ فِكْرِيًّا وَعَقْلِيًّا وَذَهْنِيًّا مِنْ
التَّسَلُّطِ الْمَاضِيِّ السَّلْفِيِّ وَمِنْ جِهَةٍ جَعَلَتْهَا تُحَاوِلُ التَّحَرُّرَ سِيَاسِيًّا مِنْ بَرَاثِنِ السُّلْطَاتِ الْحَاكِمَةِ
الِدِيكَتَاتُورِيَّةِ حَتَّى إِنْ بَوَادِرِ التَّحَرُّرِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَالْقِيَمِيِّ بَدَأْنَا نَشَاهِدُ مَفَاعِيلَهَا فِي وَسَائِلِ التَّوَاصُلِ
الْاجْتِمَاعِيِّ وَالْمَدُونَاتِ وَالْقَنَوَاتِ التَّلْفِزِيُونِيَّةِ الْخَاصَّةِ .

نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ الْيَوْمَ أَنَّ الْغِطَاءَ قَدْ رَفَعَ عَنِ السُّؤَالِ وَالتَّسَاوُلِ وَالشُّكِّ وَالظَّنِّ فِي مَسَائِلِ تَفْسِيرِ الْعَقِيدَةِ
وَأَوَّلِيهَا عِنْدَ الْبَعْضِ وَصَارَ تَجَاوَزَ الْخُطُوطَ الْحُمْرَاءَ وَالسُّدُودَ الَّتِي وَضَعَهَا التَّرَاثُ وَالسَّلْفُ فِي وَجْهِ
الْعَقْلِ مُمَكِّنًا وَسَهْلًا بَلْ وَمُسْتَحَبًّا وَمَطْلُوبًا بِسَبَبِ تَوَسُّعِ الْوَعْيِ وَتُسَارِعِ وَتِيْرَةِ الْحُصُولِ عَلَى الْمَعْلُومَاتِ
فَهَنَّاكَ كَمْ هَائِلٌ مِنْ الْإِنْتِاجِ الْفِكْرِيِّ وَالْعَقْلِيِّ وَالِدِينِيِّ الْبَشَرِيِّ بِكُلِّ إِشْكَالِهِ الْأَدْبِيَّةِ وَالتَّارِيخِيَّةِ وَالْفَلْسَفِيَّةِ
وَالْعِلْمِيَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ صَارَ هَذَا الْإِنْتِاجُ بَيْنَ يَدَيْ الْجَمِيعِ وَيُمْكِنُ لِأَيِّ شَخْصٍ الْحُصُولُ عَلَى الْمَعْلُومَةِ الَّتِي
يُرِيدُهَا فِي دَقَائِقِ مَعْدُودَةٍ وَصَارَ الْحَدِيثُ وَالتَّقْدِ مَتَاحًا وَمَمْلُوكًا فِي مُتَنَاوَلِ الْجَمِيعِ دُونَ اسْتِثْنَاءٍ وَلا رِقَابَةٍ
عَلَيْهِ وَلا سُلْطَةٍ .

ان هَذَا الْإِنْفِتَاحُ الْهَائِلُ عَلَى الْمَعْرِفَةِ وَالْمَعْلُومَاتِيَّةِ لَهُ نَتَائِجٌ سَلْبِيَّةٌ خَطِيرَةٌ أَيْضًا إِذْ سَيُؤَدِّي إِلَى تَأْجِيحِ
الصَّرَاعَاتِ الْفِكْرِيَّةِ وَالْعَقَائِدِيَّةِ وَالْإِنْفِصَامَاتِ الْمَذْهَبِيَّةِ بِسَبَبِ الْجَهْلِ أَوَّلًا وَبِسَبَبِ هَيْمَنَةِ الْكَهْنُوتِ
وَالْكُهَّانِ عَلَى الدِّينِ وَالْحُطَابِ الدِّينِيِّ مِنْ جِهَةٍ ثَانِيَّةٍ لَقَدْ اسْتَطَاعَتْ هَذِهِ الطَّبَقَةُ الشُّيُورَاطِيَّةُ، بِضَمِّ الْيَاءِ
أَوِ الشُّيُورَاطِيَّةِ وَتَعْنِي حُكْمَ رِجَالِ الدِّينِ أَوِ الْحُكُومَةَ الدِّينِيَّةَ أَوِ الْحُكْمَ الدِّينِيَّ إِنْ تَحَكَّمَ فِي الظِّلِّ وَشَكَلَتْ

توأماً حَاكِمًا كَمَا وَلَدَتْ أَحْزَابٌ وَحَرَكَاتٌ مَذْهَبِيَّةٌ طَائِفِيَّةٌ جَدِيدَةٌ مِثْلَ حِزْبِ اللَّهِ فِي لُبْنَانَ وَالْعِرَاقِ وَ
دَخَلَتْ السِّيَاسَةَ بَعْمَقٍ .

فمن الطبيعي أن يستغل كل هؤلاء هذا الانفتاح وتوجهه نحو عقائدهم المذهبية وسينتج عن ذلك أن
تفعل الطائفة المنافسة درجة الاستنفار للمواجهة هي الأخرى ولا ننسر ان الجهل والتخلف الفكري
وحالة اللاوعي التي لازالت قائمة في مجتمعاتنا العربية والإسلامية وإن بنسبة أقل ما كانت عليه منذ
عقودٍ سيلعب دوراً مقاوماً لأي محاولة تجديدية وخاصة بعد أن تهيأ للجهل والتخلف الفكري هو الآخر
ذات أدوات العصر والمعلوماتية للتعبير والتقاش وبث السموم وسقي بذور الفرقة .

وبشكل عام وبصورة عامة نستطيع القول أن تكنولوجيا المعلومات وعصر الانترنت أحدث ثورة فكرية
عامة على كافة المستويات في مجتمعاتنا العربية والإسلامية لكنها للأسف الشديد إذا كانت عند القلة
ثورة لتقد الماضي والذات وبناء فكر ديني عصري فهي عند الغالبية الجاهلة فرصة لتأجيج الصراعات
وفرز الذات ولو بالقوة .

لذلك فلاغربة ولاعجب أن ترى اليوم هذه الصراعات العنيفة بين التيارات الفكرية والعقائدية وقد تعدد
جهاؤها وتنوعت مواضيعها فنرى مثلاً الجبهة المشتعلة بين التيار السلفي من جهة وبين التيار المحدث
والمجدد وبين ما سُميوا بالقرائنين والعلمانيين من جهة وبين الذين هم على سيرتهم الأولى الممسكين
بالحديث النبوي وكذلك الصراع الذي يدور اليوم بين أهل السنة والجماعة وبين الشيعة وقرقها .

الآن يمكننا الإجابة على التساؤلات التي أثارناه هنا في مدخلنا هذا ونقول بجرأة وصدق وصراحة بأن
هناك ضرورةً مصيريةً وحاجاتٍ عصريةً ملحه تدفعنا إلى ضرورة التفكير بموضوعية وعلمية لأحداث

عملية واسعة للتغيير والتجديد والتحديث تغيير خطابنا الديني وتجديد إيماننا وإسلامنا على المستوى الفردي أو الجماعي وتحديث منهجنا وسلوكنا ليتطابق تمامًا مع منهج النص القرآني باعتبار النص الثابت في كلماته والمتحرك في معناه أي القابل للتكيف بمعناه وتفسيره وأن كل الذي أصاب هذه الأمة من مصائب وويلات وفرقة وانقسام يعود سببه الأول والأخير إلى تخليتنا عن النص المقدس وفشل العقل الديني العربي خاصة والمسلم عامة على خلق تصور أو نظرية أو فلسفة تظهر المبادئ الأساسية السامية للمنهج القرآني كنظرية حقيقية واقعية لا غبار عليها ولا ينبغي الاختلاف عليها هناك محاولات فردية في هذا الشأن لكنها لا تسمن ولا تغني عن جوع من هنا أو هناك.

في ظل هذه الأوضاع المعقدة يأتي مشروعنا الفكري هذا والذي سميناه العقل البشري وفلسفة القرآن والذي ينتمي إلى الجناح التجديدي العقلاني في الخطاب الديني لكنه مختلف كثيرًا في مواضيعه ومنهجه وسنوضح ذلك في التقاط الآتية :

الثقفة الأولى : أن هذه المحاولة هي فكرية نسعى بها إلى استخلاص الجواهر العامة في النص القرآني أي المنطلقات النظرية والأسس والمفاهيم والتي سنقدمها بشكل واضح ومبسط وميسر ومفهوم عن نظرة القرآن وفكرته عن الله والكون والإنسان لذلك هذه النظرة عامة وشمولية ومعرفية غير معنية بالضوابط الفقهية والتشريعية والتفسيرية الموضوعية والمعروفة وسيوضح سبب ذلك لاحقًا والمقصود هنا بمصطلح الضوابط القيود تلك التي وضعت إمام الفكر للحيلولة دون الوصول إلى النص من قبل كاتبنا من كان وبالتالي ستحول عملية فهم النص وتفسيره إلى عملية احتكارية خاصة بهم بمن أطلقوا على أنفسهم الأمة وفقهاء وعلماء بل الراسخون في العلم وآيات الله وحججه وغير ذلك من الصفات والألقاب

النقطة الثانية : أطلقنا على هذه المحاولة جوازاً صفة الفلاسفة لا بتعريفها الخاص إنما بتعريفها العام أو مفهومها العام وهو دراسة الأسئلة الأساسية التي تتعلق بالوجود والحقيقة والقيم والمعرفة والوجود الإنساني . ونهدف إلى فهم العالم والإنسان والعلاقة بينهما من خلال النظر في الأفكار والمفاهيم التي يتم تناولها في هذا المجال إذن فهدفنا هنا الوصول إلى تصور لفهم الله والعالم والإنسان والعلاقة بينهم واستنباط ذلك ليس من نظرية أو فكر بشري وإنما من القرآن الكريم أو بتعبير آخر من كلام الله وليس من كلام بشر ولقد سبقنا المرحوم العقاد هذه التسمية فأطلق على مؤلف له اسم الفلاسفة القرآنية .

النقطة الثالثة : في الجهة المقابلة لفلسفة القرآن وضعنا ما أطلقنا عليه تعبير العقل البشري وقصد به الفكر الذي أنتجه هذا العقل على المستوى البشري ومن الطبيعي أننا لا نستطيع حصر كل هذا الفكر عملياً فهذا يحتاج إلى فريق عمل ومجلات لإنجازه وسيقتصر عملنا على جانب واحد وهو الفكر الديني أي الذي أنتجه العقل البشري من فلسفات دينية وتفسير وعقائد وأسفار وفقه وغير ذلك وسنمر على أهم إنجازات العقل البشري في هذا المجال مروراً سريعاً لأخذ تصور مختصر يفيدنا في الوصول إلى مبتغانا وهدفنا وهو أن القرآن الكريم يقدم لنا حقيقة الأمور وكل ما يتعلق بالله ووجوده وقدرته والغاية من خلق هذا الإنسان هذا الكائن المفكر وطبيعة تكوينه وهدفه في هذه الحياة .

النقطة الرابعة : أثناء بحثنا في محور تكوين العقل الديني العربي فلقد انتهزنا هذه الفرصة وتوسعنا كثيراً في مسألة معقدة متجذرة خلافاً وهي مسألة تخص العرب تسميتهم نسبهم مرجعيتهم ولقد أطلقنا عملية البحث التاريخي فيها بهدف الوصول إلى تصور حقيقي مبني على الأدلة التاريخية والمصادر الحديثة والدراسات الأيركولوجية ما أمكن لأن كشف حقيقة النسب والانتماء ستفيدنا كثيراً وكثيراً جداً في فهم

العقل العربي الخالص لانتنا في الواقع نعيش حالة انقسام شعوبي بين شعبين لا تثبت وقائع التاريخ انهم يشكلان امة واحدة لا في الماضي ولا في الحاضر هذا الانقسام لم يكن انقساما عرقيا او نسبيا فقط بل كان انقساما عقليا وفكريا ساهم في خلط الكثير من الامور وكان دافعا لحروب تاريخية امتدت آثاره إلى العهود الإسلامية بل وحتى يومنا هذا .

النقطة الخامسة : أن هذا البحث أو الدراسة لا يستند إلى أي تصور مسبق أو خلفية ذهنية مخزنة فجاء متحررا من أي قيد من القيود وبمعنى آخر لم يكن في ذهنية الكاتب تصورا معينًا أو رأيا أو مذهبا أو اتجاهًا فكريًا أو عقائديا يريد إثباته ونفي الضد الآخر فهو موضوعي بامتياز .

النقطة السادسة : لايعتبر كل ماجاء في هذا الكتاب تأويلا أو تفسيرًا للنص القرآني بل هو محاولة لقراءة سهلة وبسيطة لهذا النص وبمعنى آخر لم نحاول الحفر والتقيب للوصول إلى المعنى المطلوب ولم نحمل النص أكثر مما يحتمل ونلوي ذراع الكلمات وعصرها فندخل في المتاهات التي دخل فيها أصحاب التأويل أو قسما من المفسرين منهجنا في ذلك هو قراءة النص القرآني كما جاء وكما كان القصد والهدف منه ولم نحتاج كثيرا في ذلك إلى قاموس أو كتاب آخر يعيننا على الفهم فالمفهوم مفهوم لا يحتاج إلا لدوي عقل يقرأ ويفهمه وكان دليلنا نحو ذلك كله هو أن كتاب الله يفسر بعضه بعضا ولا يحوي الغاز وطلاسيم تطلب علما جبارا لفك رموزها وعقدتها .

النقطة السابعة : أن هذه القراءة المبسطة للنص القرآني تأتي من قبلنا بصفتنا من الطبقة الواعية المثقفة

ولا تدخل في مجال اختصاصنا وهذا لا يعيبنا اذ حاولنا فهم النصوص القرآنية ويفترض أيضا أن لا تترك مجالاً للطعن أو التقدير أو تفتح أبواب القيل والقال والبحث عن النوايا والدوافع فهي قراءة موجهة لجميع الحالات والأطراف فسيفهمها القارئ البسيط الذي يعرف القراءة والكتابة وسيعيها المثقف والناقد والمختص وأكثر من ذلك فهي موجهة للغير للآخرين لأولئك الذين ما فتوا يطعنون في قرآنا وبعثوه بالحرص على الإزهاب أو المتناقض مع ذاته .

النقطة الثامنة والأخيرة : أن هذا البحث أو الدراسة لم تأتي من فراغ وهي ليست وليدة إلهام أو نتاج ذكي بل هي نتيجة تراكمات معرفية تشكلت وتكونت لدينا بعد عقود من القراءة والإطلاع والتثقيف بالإضافة ما لدينا من خبره واسعة سواء أكان عملنا في القانون أو في الصحافة والإعلام والبحث وبشكل عام خبرتنا في الحياة التي قضينا أكثر سنواتها في العلم والتعلم ولازلنا نقول وقول ربي زدني علماً وربما بل من المؤكد أن تهماً بعض الأطراف بعدم الاختصاص الفقهي في هذا المجال والحيز الذي دخلنا فيه مدعين ومتوهمين بنفس الوقت بمقولة أن هذا العلم هو علم الخاصة هو خاص بالفقهاء والعلماء وأهل الذكر هؤلاء المعترضين هم دائماً ذواتهم الذين ينهاضون كل من يحاول هدم هياكلهم هكذا اتهموا الدكتور نصر حامد أبو زيد وشككوا في نوايا الدكتور عبدالحليم محمود وحاربوا طه حسين وكفروه واتهموا المهندس الدكتور الشحرور بالإلحاد والأمثال كثيرة على حربهم الطويلة ضد التحرر والافتتاح والإصلاح .

أَرْجُو مِنْ اللَّهِ الْعَلِيِّ الْقَدِيرِ أَنْ يَجَازِيَنِي عَلَى قَدْرِ بَيْتِي وَجَهْدِي فِيَمَا بَدَلْتَهُ لِتُكُونَ كَلِمَةً لِلَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَقَوْلُهُ
هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ وَأَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ وَالتَّجَاحَ وَآخِرَ دَعْوَانَا أَنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

حسن عبدالله إسماعيل

العقل الديني البشريّ

ماذا نقصد بمصطلح العقل الديني البشريّ

يتضمن هذا العنوان ثلاث مصطلحات وهي العقل ثم الديني وأخرها البشري

العقل

وَضَعَ الفلاسِفةُ وَعُلَماءُ النَّفسِ تَعْرِيفاتٍ عَدِيدَةً لِمَفْهُومِ «العقل» لِمَا لَهُ مِنْ شَأْنٍ فِي تَوْضِيحِ نَظَرِيَّةِ المَعْرِفَةِ مُنْذُ القَدَمِ .

فالعقل هو رمز التفكير الخاص بالإنسان ، وإليه تُسببُ العمليّات الذهنيّة العليا كالحكم على الأشياء ، والتّمييز بين الحقّ والباطل ، وبين الصّواب والخطأ ، وبين الخير والشرّ .

ولهذا فهو الجوهر الكامن وراء قدرة الإنسان على التفكير . وقد ميّز الله الإنسان عن سائر المخلوقات بالعقل ، وكان لهذه النعمة الكبرى على الإنسان إثر بالغ في تقدّم البشريّة عبر العصور المتعاقبة .

وعن طريق العقل خاطب الله سبحانه وتعالى عبادة لبيدّهم إلى فهم دينهم وعبادته بالإقناع والمنطق قال تعالى (إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) (يوسف 2) .

قال تعالى (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون) (النور 61) .

قال تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [المؤمنون : 80]

وعلماء النفس يسمون «العقل» «الدّهن» ويعرفونه من وجهه نظرهم بأنه المجموع الكلّي للعمليات

الذهنيّة الواعية واللاواعية .

وَيُعَدُّ الْعَقْلُ مَكَانَ الْإِدْرَاكِ ، وَبِهِ يَسْتَعِينُ الْإِنْسَانُ عَلَى التَّفْكِيرِ وَتَكْوِينِ الْعَلَاقَاتِ وَالْمَبَادِيءِ .

وَبِهَذِهِ الْقُدْرَةُ الْعَقْلِيَّةُ الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى الْإِنْسَانِ تَمَكَّنَ مِنَ الْإِبْدَاعِ وَالِاخْتِرَاعِ وَسَاهَمَ فِي تَقَدُّمِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَتَمَكَّنَ كَذَلِكَ مِنْ تَحْلِيلِ وَفُهُمِ الظُّوَاهِرِ الطَّبِيعِيَّةِ مِنْ حَوْلِهِ ؛ وَغَيْرِ ذَلِكَ كَثِيرٌ .

تعريف آخر

الْعَقْلُ هُوَ مَجْمُوعُهُ مِنَ الْقُوَى الْإِدْرَاكِيَّةِ الَّتِي تَتَضَمَّنُ الْوَعْيَ ، الْمَعْرِفَةَ ، التَّفْكِيرَ ، الْحُكْمَ ، اللُّغَةَ وَالذَّاكِرَةَ . هُوَ غَالِبًا مَا يُعْرَفُ بِمِلْكِهِ الشَّخْصِ الْفِكْرِيَّةِ وَالِإِدْرَاكِيَّةِ . يَمْلِكُ الْعَقْلُ الْقُدْرَةَ عَلَى التَّحْيِيلِ ، التَّمْيِيزِ ، وَالتَّقْدِيرِ ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنِ مُعَالَجَةِ الْمَشَاعِرِ وَالِانْفِعَالَاتِ ، مُؤَدِيًا إِلَى مَوَاقِفِ وَأَفْعَالٍ . هُنَالِكَ جِدَالٌ فِي الْفُلْسَفَةِ ، الدِّينِ ، وَالْعُلُومِ الْاسْتِعْرَافِيَّةِ حَوْلَ مَا هِيَ الْعَقْلُ وَصِفَاتِهِ الْمُمَيِّزِ .

الديني

هُوَ الْإِتِّجَاعُ الْمَعْرِفِيُّ التَّرَاكُمِيُّ لِلْعَقْلِ أَثْنَاءَ مُعَالَجَتِهِ لظَاهِرَةٍ أَوْ مَسْأَلَةٍ أَوْ قَضِيَّةٍ دِينِيَّةٍ وَبِشَكْلِ أَوْضَحٍ مَا أَتَجَهَّ هَذَا الْعَقْلُ الدِّينِيُّ فِي مَسْأَلَةِ الْخَالِقِ وَالْخَلْقِ وَفِي مَسْأَلَةِ الْأَدْيَانِ وَالْمَعْرِفَةِ الدِّينِيَّةِ وَالِاعْتِقَادِ الدِّينِيِّ وَالْفِرْقِ وَالْمَذَاهِبِ وَالْفُلْسَفَاتِ مُنْذُ تَصَوُّرَاتِهِ الدِّينِيَّةِ الْأَبْتَدَائِيَّةِ وَأَسَاطِيرِهِ الْأُولَى حَتَّى يَوْمِنَا هَذَا وَالْهَدَفِ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ كُلِّهِ إِجْرَاءَ مُقَارَنَةٍ بَيْنَ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ الدِّينِيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ وَبَيْنَ الْيَقِينِيَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ كَمَا وَرَدَتْ مُفْضَلًا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَسُنَنِ كَيْفِ كَانَ مَوْقِفُ هَذَا الْعَقْلِ الدِّينِيِّ الْمَعْرِفِيِّ مَعَ النَّازِعِ الْإِيمَانِيِّ الْفِطْرِيِّ وَكَيْفِ تَعَامَلُ مَعَ الْيَقِينِيَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْكَتَبِ السَّمَاوِيَّةِ وَكَيْفِ وَضَعُ الدِّيَانَاتِ الْوَضْعِيَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ قَضَايَا وَأُمُورٍ وَنَحْنُ لَنْ نَتَطَرَّقَ فِي بَحْثِنَا إِلَى مَفْهُومِ الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ وَأَيَاتِهِ وَأَدْوَاتِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَدْخُلُ فِي عُلُومِ

الْفُلسَفَةُ وَالنَّفْسُ وَالتَّحْلِيلُ النَّفْسِيَّ وَغَيْرِ ذَلِكَ نَحْنُ فَقَطْ سَنُرَكِّزُ عَلَى الْإِتِّجَاعِ الْمَعْرِفِيِّ لِهَذَا الْعَقْلِ أَيَّ مَا
أَتَّجَعَهُ هَذَا الْعَقْلُ مِنْ فِكْرٍ وَمَعْرِفَةٍ وَفُقِ مَا بَيَّنَّا أَعْلَاهُ .

البشري

والمصطلح الثالث والأخير هو كلمة البشري لقد وضعنا هذه الكلمة للتمييز والتخصيص فنريد بها للدلالة
على الانسان من جهة ومن ناحية أخرى فنحن لا نضمنها البشر عامة او البشرية لأنه من المستحيل
حصر كل ما أنتجته البشرية في ظاهرة الدين والتدين والأساطير والفلسفات الدينية في مجلد واحد كما
ذكرنا من قبل او يستطيع فرد إنجازها لذلك حصرنا كلمة البشري هنا في إنتاج أربع منظومات معرفية
بشرية وهي على التوالي العقل الديني القديم و الأسطوري والعقل الديني اليهودي ثم العقل الديني المسيحي
وبعدده العقل الديني العربي باعتباره حامل الرسالة الإسلامية .

أولا

العقل الديني القديم وصناعة الأساطير

نعود أقدم الأدلة على الاعتقادات الدينية إلى الوراثة عشرات الآلاف من السنين وخاصة في العصر الحجري الأوسط والأسفل . يشير علماء الآثار إلى المدافن العالمية القديمة للإنسان البدائيين على أنها أدلة على وجود الأديان منذ سالف الأزمان . وهناك دليل آخر يمثّل في القطع الأثرية الرمزية البدائية القديمة

لمواقع العصر الحجري الأوسط التاريخية بإفريقيا . مع ذلك ، فتفسير القطع الأثرية الرمزية من العصر الحجري القديم على أنها أفكار دينية يُبقي الأمر مثار جدل . لكن دليل علماء الآثار الذي جاؤا به من العصور المتأخرة يُعبّر الأقل إثارة للجدل . وقد فسّر العلماء -بشكل عام- عدداً من القطع الأثرية من العصر الحجري الأعلى على أنها تمثّل أفكار دينية . ومن أمثلة بقايا العصر الحجري الأعلى التي ترتبط بالأفكار الدينية الرجل الأسد وتماثيل فينوس والصور المرسومة على جدار كهف شوفيت ومراسم الدفن المُتقنة لسونجير .

أن ديانا شعوب العصر الحجري تزودنا بدليل عن بعض الديانات الوضعية التي كانت موجودة في ذلك الوقت متابعاً لثورة العصر الحجري ، فإن سرعة التقدم والتطور التقني قد تكثفت . وكلما أصبح المجتمع البشري أكثر تعقيداً ، أصبحت أنظمة المحاسبة المتطورة أكثر ضرورة . ولقد ابتكر المصريون القدماء والسومريون الكتابة كوسيلة لتسجيل حسابات الصفقات وذلك عام 3000 ق . م . وكانت أول النصوص الدينية العلامة الأولى لبداية التاريخ الديني . فنصوص الأهرام من مصر القديمة تُعبّر واحدة من أقدم النصوص الدينية المعروفة حول العالم والتي يبلغ عُمرها 2400-2300 ق . م . ولقد لعبت الكتابة

دوراً رئيساً في تحمّل الديانة الوضعية وذلك عن طريق توحيد الأفكار الدينية في أي زمان ومكان ،
بحيث يكون الدين الوضعي مجدي عملياً .

أذنان ما قبل التاريخ هو مصطلح عام يُشير إلى كل المعتقدات والممارسات الدينية التي كانت موجودة
في عصر ما قبل التاريخ . وتحديدًا ، يشمل ذلك المصطلح كلاً من ديانات العصر الحجري القديم
وديانات الحقب الميزوليتية وديانات العصر الحجري الحديث وديانات العصر البرونزي وتعدّ عملية الدفن ،
وخصوصاً إذا تمّ الدفن مع متاع القبر ، أحد الصور الأولى للممارسات الدينية (عملية الدفن نفسها
مؤشر رسمي لبداية الحداثة السلوكية) لأنها ، قد تدلّ على « بداية الاعتقاد بأن الميت يسمو عن
الحياة اليومية . » .

يفترض بعض علماء الآثار أن مجتمعات العصر الحجري الأوسط ، قد مارست أول أشكال العبادة
الطوطمية أو عبادة الحيوان ويرجح بناءً على دليل أثري من العصر الحجري القديم الوسيط انتشار عبادة
الدّب بين أجناس النسان الأول في العصر الحجري القديم الوسيط .

أما في العصر الحجري القديم العلوي ، فقد اختلطت عبادة الحيوان بطقوس الصيد . فعلى سبيل
المثال ، تؤكد الأدلة الموجودة في الفنون وبقايا الدبة التي تم العثور عليها إن عبادة الدّب كانت
تصاحبها بعض الطقوس الدينية ، حيث يتمّ اضطياد الدّب بالسهم ، ثمّ يتمّ قتله بسهم في الرقبة ، ثمّ
يدفن بشكل شعائري بجانب تمثال من الطين على شكل دبّ مغطى بفراء دبّ ، وتُدفن عظام الدّب
وجسم الدّب منفصلين عن بعضهما البعض .

المعتقدات الدينية للحضارات الكنعانية والبابلية

الدين في بلاد ما وراء النهرين

يعرف الباحثون مُصطلح "ديانة بلاد ما بين النهرين" بأنها المعتقدات والممارسات الدينية التي كان يُؤمن بها كل الأقاليم التي سكنت العراق وابل قديمًا ، من السومريين والأكاديين الساميين الشرقيين والأشوريين والبابليين ، ومن ثم آمن بها المهاجرون الآراميون والكلدان الذين كانوا يعيشون في بلاد ما بين النهرين (منطقة تشمل العراق الحديث وجنوب شرق تركيا وشمال شرق سوريا) التي كانت تحكم المنطقة لمدة 4200 سنة ، منذ الألفية الرابعة قبل الميلاد في جميع أنحاء بلاد ما بين النهرين وحتى القرن العاشر تقريبًا بعد الميلاد في آشور .

كان الدين في العراق القديم تمامًا كما كان في مصر ، من حيث خضوعه للتأثيرات السياسية بالمقام الأول ، وكان يمثل درجة عالية من التعليم والالتزامات الأخلاقية وكان له عند العراقيين والمصريين على حد سواء المكان الأول في حياتهم العامة والخاصة .

كما كان للعامل الجغرافي والاجتماعي تأثيرهما مثل بداية الديانة المصرية والإغريقية ، إذ كان لكل مقاطعه من المقاطعات العراقية آلهة تحرسها ، ولكل آله اسم خاص في كل مقاطعه من تلك المقاطعات ، ففي مدينة أريدو كان الآله الأعلى يُسمى "أيا- أو- أنكي" ، وفي نيبور "أنليل أو- بعل" ، وفي أور "سن" ، وفي لكش "نين جيسوا" .

الدين في العراق القديم كان وضعي متعدد الآلهة بطبيعة الحال ، وبذلك فإن معتقد الألوهية كان عندهم يخضع للتفريد وليس التوحيد ، فكانوا يفضلون إله عن الآخرين ، دون تركهم ، حيث كانت مكان آلهتهم

مُتَقَاوِئَةٌ ، تَبَعًا لِتَفَاوُتِ المَقَاطِعَاتِ السِّيَاسِيَّةِ وَلسِيطَرَةِ بَعْضِ المَقَاطِعَاتِ عَلَى الأُخْرَى تَبِيحَةَ الحُرُوبِ الَّتِي كَانَتْ تَدُورُ بَيْنَهَا وَبالتَّالِي تَرْتَفِعُ مَكَانَهُ إِلَهُ المَقَاطِعَةِ المُنْتَصِرَةِ .

ثُمَّ أَصْبَحَ العِرَاقُ القَدِيمُ يُحْكَمُ مِنْ ثَلَاثِ آلِهَةٍ وَهُمْ "أَدُومٌ أَوْ أُنُو" إِلَهُ السَّمَاءِ ، وَ"أَنْلِيلٌ أَوْ بَعْلٌ" إِلَهُ الهَوَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَ"أَنْكِي أَوْ أَيَا" إِلَهُ البِحَارِ وَالحِيطَاتِ وَكَانَتْ هُنَاكَ مَجْمُوعَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ الآلِهَةِ عَدَا هَؤُلَاءِ لَهَا اخْتِصَاصَاتٌ أُخْرَى فِي الكُونِ .

وَالآلِهَةُ فِي بَابِلٍ تَرْجِعُ مِنْ جِهَةِ أَصْلِهَا إِلَى قُوَى الطَّبِيعِيَّةِ ، كَمِثْلَاتِهَا عِنْدَ المِصْرِيِّينَ ، حَيْثُ اخْتَارَ العِرَاقِيُّونَ أَهَمَّ الظُّوَاهِرِ الطَّبِيعِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ لَهَا أَثَرٌ قَوِيٌّ فِي حَيَاتِهِمْ ، وَشَخْصُوهَا عَلَى هَيْئَةِ آلِهَةٍ ، وَبَيَّنَتْ صِفَةَ الظُّوَاهِرِ الطَّبِيعِيَّةِ بَارِزَةً فِي آلِهَةِ العِرَاقِ حَتَّى بَعْدَ أَنْ تَطَوَّرَتْ وَابْتَعَدَتْ عَنِ نَشَأَتِهَا الأُولَى ، لَكِنْ وَعَلَى عَكْسٍ لَمْ تَكُنْ لِلْحَيَوَانَاتِ فِي بَابِلٍ أَيُّ قُدْسِيَّةٍ - عَلَى عَكْسِ الدِّيَانَةِ المِصْرِيَّةِ - .

لَمْ تَكُنْ لِلدِّيَانَةِ البَابِلِيَّةِ كِتَابًا المُقَدَّسَةَ ، لَكِنْ كَتَبُوا المَلَاحِمَ وَالْقَصَائِدَ الشَّعْرِيَّةَ الَّتِي تَمَكَّنَتْ الكَشُوفَاتُ مِنَ التَّوَصُّلِ إِلَيْهَا ، كَمَلْحَمَةِ "كَلْكَمَاش" وَمَلْحَمَةِ الخَلْقِ البَابِلِيَّةِ "الْإِنُومَا إِيلِش" الَّتِي جَمَعَتْ مُعْتَقَدَاتِهِمْ وَفلسفَاتِهِمْ وَأَسَاطِيرَهُمْ .

إِنَّمَا عَنِ نَظَرِيَّةِ بَدَأِ الخَلْقِ البَابِلِيَّةِ ، فَكَانَ النَّاسُ يُعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ خُلِقُوا مِنْ طِينَةِ الأَرْضِ وَشَكَلُوا حَتَّى يَشْبَهُوا الآلِهَةَ ، وَأَنَّهُمْ مَا خُلِقُوا إِلَّا لِعِبَادَتِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ وَلِذَلِكَ أُعْتَبِرَ النَّاسُ أَنفُسَهُمْ مِلْزَمِينَ تَجَاهَ تِلْكَ الآلِهَةِ بِالخُشُوعِ وَالعِبَادَةِ وَتَقْدِيمِ القَرَابِينِ ، الَّتِي لَمْ تَكُنْ غَايَتُهَا لِلحُصُولِ عَلَى الحَيَاةِ الخَالِدَةِ ، بَلْ طَمَعًا فِي التَّعَمُّقِ المَادِّيَّةِ المَلْمُوسَةِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا .

وَفِيْمَا يُخْصُ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةَ الْآخَرَى ، فَإِنَّ الْاِعْتِقَادَ بِالْحَيَاةِ الْآخَرَى تَمَا نَمَوْا بَطِيئًا جَدًّا فِي الدِّيَانَةِ الْبَابِلِيَّةِ ، لَكِنَّهُ تَأَثَّرَ بِالْمَعْتَقِدِ الْمِصْرِيِّ عَنِ الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ ، لَمْ يُشَكِّ الْبَابِلِيُّونَ فِي حَتْمِيَّةِ الْمَوْتِ وَفَرَضُهُ عَلَى الْبَشَرِ وَجَمِيعِ الْإِحْيَاءِ وَلَكِنْ يَدُّوْا أَنْ فَكَّرَهُ الْبُعْثُ بَعْدَ الْمَوْتِ وَمَا بَعْدَهَا ، لَمْ يَعْرِفُوْهَا فِي بَدْءِ أَمْرِهِمْ عَلَى خِلَافِ الْمِصْرِيِّينَ الْقَدَمَاءِ .

الدِّيَانَةُ الْبَابِلِيَّةُ تَأَثَّرَتْ بِشَكْلِ كَبِيْرٍ بِالْدِّيَانَةِ الْمِصْرِيَّةِ ، لَكِنَّهَا بِالْمُقَابِلِ أَثَّرَتْ عَلَى عَدَدٍ كَبِيْرٍ مِنَ الدِّيَانَاتِ التَّابِعَةِ لِلْحَضَارَاتِ الْآخَرَى .

كَانَتْ عَقِيْدَتِهِمْ فِي الْحَيَاةِ أَنَّ الْإِنْسَانَ مَا دَامَ يَعْمَلُ صَالِحًا ، فَقَدْ اسْتَحَقَّ رِضَى الْإِلَهِ ، وَعَاشَ مَمْتَعًا بِالسَّعَادَةِ ، أَمَّا إِذَا أَذْنَبَ - بِقَصْدٍ أَوْ دُونَ قَصْدٍ - فَإِنَّ الْإِلَهِ حَامِيَهُ يَتَخَلَّى عَنْهُ فَتَتَلَفَهُ مَخْلُوقَاتُ الشَّرِّ وَيَتَرَدَّى فِي عَالَمِ الرَّذِيْلَةِ ، وَعِنْدَمَا يَأْتِي الْمَوْتُ تَنْفَصِلُ الرُّوحُ عَنِ الْجِسْمِ ، وَتَنْتَقِلُ إِلَى طَوْرٍ جَدِيْدٍ مِنَ الْوُجُودِ إِذْ تَنْحَدِرُ بَعْدَ وَضْعِ الْجِسْمِ فِي الْقَبْرِ إِلَى عَالَمِ الْأَرْوَاحِ وَهُوَ الْعَالَمُ السُّفْلِيُّ وَتَعِيْشُ هُنَاكَ إِلَى الْإَبَدِ حَيْثُ لَا قِيَامُهُ وَلَا جَنَّةٌ وَلَا نَارٌ .

انْتَقَلَتْ بَعْدَ ذَلِكَ بَعْضُ الْمَعْتَقِدَاتِ الْمِصْرِيَّةِ إِلَى بَابِلٍ ، بِشَأْنِ عَوْدِهِ الرُّوحِ إِلَى الْجِسْمِ فِي الْقَبْرِ ، وَالْحِسَابِ وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ نَعِيمٍ أَوْ عَذَابٍ ، وَطُرُقِ الدَّفْنِ لَدَيْهِمْ ، وَمَا نَجِدُ فِي قُبُورِهِمْ مِنَ الْأَثَاثِ وَاللُّوْازِمِ الْخَاصَّةِ بِالْمَيِّتِ ، تَدَلُّنَا عَلَى ذَلِكَ ، كَذَلِكَ وَرَدَ فِي اللُّوْحِ الثَّانِي عَشَرَ مِنْ مَلْحَمَةِ جُلْجَامِش "أَنْ بَعْضُ الْمَوْتَى مَمَّنْ خَلَفُوا الْحَسَنَاتِ وَالْمَأَثَرَ الصَّالِحَةَ . . . يَعِيْشُ فِي هَذَا "الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ" عِيْشًا فِيهِ بَعْضُ الرَّاخَةِ حَيْثُ يَمْنَحُ الْمَاءَ وَالطَّعَامَ " .

اِحْتَلَّتْ عِشْتَارُ مَكَانًا بَارِزًا فِي دِيَانَةِ وَادِي الرَافِدِينَ وَانْتَشَرَتْ عِبَادَتُهَا إِلَى جَمِيعِ أَنْحَاءِ الشَّرْقِ الْأَدْنَى
وَأَنْحَاءِ أُخْرَى مِنَ الْعَالَمِ .

مِنَ الْوَاضِحِ فِيمَا سَبَقَ أَنَّ الدِّيَانَةَ الْبَابِلِيَّةَ تَأَثَّرَتْ بِشَكْلِ كَثِيرٍ بِالدِّيَانَةِ الْمِصْرِيَّةِ ، لِكِنَّهَا بِالْمُقَابِلِ أَثَّرَتْ عَلَى
عَدَدٍ كَثِيرٍ مِنَ الدِّيَانَاتِ التَّابِعَةِ لِلْحَضَارَاتِ الْأُخْرَى كَمَا ذَكَرْنَا ، كَاللَّهِ الْقَمَرِ كَانَ اسْمُهُ عِنْدَ السُّومَرِيِّينَ
وَالْبَابِلِيِّينَ "سِين" وَمَعْنَاهُ رَجُلُ السَّمَاءِ ، الَّذِي عَبَدَهُ الْفِينِيقِيُّونَ وَالْعَرَبُ الْأَوَائِلُ الَّذِينَ اسْمُوا
"سِينَاء" بِاسْمِهِ ، وَانْتَقَلَتْ عِبَادَةُ الْقَمَرِ إِلَى جِهَاتٍ سُورِيَا وَشَدِيدٌ لَهُ مَعْبَدٌ فِي "حِرَانَ" ، ثُمَّ إِلَى الْفِينِيقِيِّينَ ،
وَقَدْسَهُ الْبَدُو الْأَرَامِيُّونَ وَالْبَدُو الْعَرَبُ .

اِحْتَلَّتْ عِشْتَارُ مَكَانًا بَارِزًا فِي دِيَانَةِ وَادِي الرَافِدِينَ وَانْتَشَرَتْ عِبَادَتُهَا إِلَى جَمِيعِ أَنْحَاءِ الشَّرْقِ الْأَدْنَى
وَأَنْحَاءِ أُخْرَى مِنَ الْعَالَمِ ، وَأَخَذَ عِبَادَتُهَا الْإِغْرِيْقُ وَسَمَّوْهَا بِاسْمِ "أَفْرُودِيْت" وَعَبَدُهَا الرُّومَانُ بِاسْمِ
"فِينُوس" وَقَدْ سَمَّاهَا السُّومَرِيُّونَ بِاسْمِ "إِينَانَا" ، وَالسَّامِيُّونَ بِاسْمِ "عِشْتَار" وَعَرَفَتْ بِاسْمِ "عِشْتَارُوتِ"
وَعِشْتَارُوتِ عِنْدَ الْأَقْدَامِ السَّامِيَّةِ الْأُخْرَى لَا سِيَّمَا فِي جِهَاتِ سُورِيَّةِ ، وَعَبَدُهَا الْعَرَبُ فِي الْجَنُوبِ .

الدِّينُ عِنْدَ الْكَنْعَانِيِّينَ

يُعْتَبَرُ الْكَنْعَانِيُّونَ الَّذِينَ أُطْلِقَ عَلَيْهِمُ الْإِغْرِيْقُ اسْمَ الْفِينِيقِيِّينَ ثَانِي جَمَاعَةً لَعِبَتْ دَوْرًا مَهْمًا فِي تَارِيخِ بِلَادِ
الشَّامِ بَعْدَ الْأَمُورِيِّينَ ، فَكَانَتْ هِجْرَتُهُمْ فِي بَدَايَةِ الْأَلْفِ الثَّلَاثَةِ قَبْلَ الْمِيلَادِ إِلَى فِلَسْطِينَ مِنْ أَوَّلِ الْهَجْرَاتِ
الْبَشَرِيَّةِ ، وَيَقُولُ بَعْضُ التَّوَرِّخِيِّينَ أَنَّهُمْ قَبِيلَةٌ عَرَبِيَّةٌ تَنْمِي إِلَى الشُّعُوبِ السَّامِيَّةِ ، هَاجَرَتْ مِنَ الْجَزِيرَةِ
الْعَرَبِيَّةِ مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ 4 أَلْفِ سَنَةٍ ق . م ، وَاسْتَقَرَّتْ فِي جَنُوبِ سُورِيَا وَلُبْنَانَ وَالْأُرْدُنَ وَفِلَسْطِينَ فَوْقَ

أَحَدُ جِبَالِ الْقُدْسِ ، الْمَوْقِعِ الَّذِي وَفَرَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَالْحِمَايَةَ ، فِي الْعَصْرِ الْحَجْرِيِّ الْحَدِيثِ نَحْوَ 3000-
1200 ق . م ، كَمَا أَنَّ آخَرَ وَفَدَ كَنْعَانِيٌّ أَتَى إِلَى فِلَسْطِينَ قَبْلَ مَجِيءِ الْيَهُودِ إِلَيْهَا بِ50 عامًا .

فِيمَا تَوَكَّدَ بَعْضُ الْأُبْحَاثِ وَالْاِكْتِشَافَاتِ أَنَّ مَدِينَةَ كَنْعَانَ أَقْدَمُ مِنْ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، أَيْ أَنَّهُمْ لَيْسُوا
عَرَبًا ، وَهُنَاكَ دِرَاسَاتُ وَأُبْحَاثٌ تُقُولُ إِنَّ الْكَنْعَانِيِّينَ أَوَّلَ الشُّعُوبِ السَّامِيَّةِ الَّتِي اسْتَقَرَّتْ فِي الشَّرْقِ
الْأَوْسَطِ وَذَلِكَ بَعْدَ وُصُولِهِمْ إِلَى إِفْرِيْقِيَا عَبْرَ مِصْرَ ، وَاسْتَقَرُّوا فِي فِلَسْطِينَ بَعْدَ أَنْ سَقَطَتْ الْحَضَارَةُ
الْغَسُولِيْنِيَّةُ بِهَذِهِ الْمِنْطَقَةِ فِي 3300 ق . م وَالْحَقْبَةُ الْغَسُولِيْنِيَّةُ أَوْ الْغَسُولِيَّةُ أَوْ الْغَازُولِيَّةُ هِيَ مَرَحَلَةٌ ثَقَافِيَّةٌ
وَتَارِيخِيَّةٌ تَعُودُ إِلَى أَوَاسِطِ الْعَصْرِ النِّحَاسِيِّ فِي جَنُوبِ بِلَادِ الشَّامِ خِلَالَ الْفَتْرَةِ (3800-3350 ق .
م .) ، وَتُعْتَبَرُ مُوَازِيَةً لِحَضَارَةِ حِلْفٍ فِي شِمَالِ سُورِيَا وَبِلَادِ الرَّافِدِيْنَ ، وَمَوْقِعُهَا الْأَبْرَزُ هُوَ « تَلِيْلَةُ
الْغُسُولِ » ، حَيْثُ يَتَوَاجَدُ فِي وَادِي الْأَرْدُنِّ بِالْقُرْبِ مِنَ الْبَحْرِ الْمَيْتِ فِي الْأَرْدُنِّ ، وَتَمَّ اكْتِشَافُهُ فِي
ثَلَاثِيْنِيَّاتِ الْقُرْنِ الْمَاضِي . . .

كَانَتْ دِيَانَةُ الْكَنْعَانِيِّينَ تَقُومُ عَلَى تَقْدِيْسِ مَظَاهِرِ الطَّبِيعَةِ وَالْكَوْنِ مِثْلَ بَاقِيِ الدِّيَانَاتِ الْقَدِيْمَةِ ، وَتَنَوَّعَتْ
الْآلِهَةُ الَّتِي عَبَدُوهَا عَلَى حَسَبِ التَّقْسِيْمِ الْجُغْرَافِيِّ وَعَلَى حَسَبِ مَكَاتِبِهَا وَقُوَّتِهَا ، وَكَبِيْرِهِمْ هُوَ الْآلَهُ "إِيلِ
الْأَبِ" ، الَّذِي كَانَ يُعْرَفُ بَعْدَ اسْمَاءٍ وَصِفَاتٍ عِنْدَ الْكَنْعَانِيِّينَ ، وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى مَكَاتِبِهِ الْمُبْجَلَةِ
عِنْدَهُمْ ، فَسَمَّوْهُ بِاسْمِ بَعْلُ لُبْنَانَ ، وَشَمِيْمَ أَيْ سَيِّدَ السَّمَوَاتِ ، وَظَهَرَ أَيْضًا بِاسْمِ بَعْلُ حَمُونِ ، وَبَعْلُ
صَافُونِ .

أَمَّا الْآلَهُ "يَمِ" هِيَ الْأُمُّ لَدَى الْكَنْعَانِيِّينَ ، وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ هُوَ اعْتِقَادُهُمْ بِأَنَّ الْمَاءَ هِيَ الْأُمُّ الْأَوَّلَى الَّتِي
خُلِقَتْ الْكَوْنُ ، وَ"عَشْتَارُ أَوْ عَشْتَرُوتُ" فِيهِ آلَهُ الْحَبِّ وَالْإِخْصَابِ ، وَالرَّبِيعُ فَعَرَفَتْ بِاسْمِ تَائِيْتِ ،

وَمِنَ الْآلِهَةِ الْفِينِيقِيَّةِ الْمُهَمَّةِ الْآخَرَى الْآلَهُ "أَشْمُون" وَهُوَ إِلَهُ الشِّفَاءِ ، وَكَذَلِكَ الْآلَهُ "رَشْف" وَهُوَ إِلَهُ الْحَرْبِ
وَسَيِّدِ الصَّوَاعِقِ ، وَ"شَم أَوْ شَمِيم" إِلَهُ السَّمَاءِ الْأَوَّلِ فِي عَقِيدَتِهِمْ ، وَ"أَدِيم أَوْ أَدِمَة" هِيَ إِلَهُ الْأَرْضِ .

تَبَيَّنَ مِنْ أَكْشَافَاتِ عَامِ 1929 عَلَى يَدِ الْمُنْقَبِينَ ، لِأَلْوَا حِ طِينِيَّةٍ مِنْ الْكُنُوزِ الْأَوْغَارِيَّةِ فِي صُورِ وَقَبْرِصِ
وَقَرَطَا حِ ، الْكَثِيرِ مِنْ مَلَا حِ الْمِيْثُولُوجِيَا الْكَنْعَانِيَّةِ وَعِلَا قَاةِ الْآلِهَةِ عِنْدَهُمْ وَأَنْسَابِهِمْ ، وَاعْتَبِرَتْ هَذِهِ
الْاِكْشَافَاتِ الْمُرْجِعَ الْأَكْثَرَ عِرَاقَةَ ، حَيْثُ يُعَوِّدُ تَارِيْحُهَا إِلَى الْقُرْنِ الـ 15 قَبْلَ الْمِيْلَادِ .

لَا يُوجَدُ تَسْلَسُلٌ دَقِيْقٌ لِمَرَا حِ الْخُلُقِ وَالتَّكْوِينِ الْكَنْعَانِيَّةِ وَذَلِكَ تَبِيْحَةٌ لِلتَّلَفِ الَّذِي أَصَابَ الْأَلْوَا حِ الْفِيْحَارِيَّةِ
، خَاصَّةً فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِأَسَا طِيرِ بَعْلٍ .

تَبَيَّنَ بِالْاِكْشَافَاتِ أَنَّ الْحَيَاةَ كَانَتْ مُنْبَعِ اعْتِقَادِهِمِ الدِّيْنِيِّ ، فَكَانَتْ الْعَنَا صِرَ الْأَرْبَعِ الْمُكُونَةَ لِلْحَيَاةِ فِي
اعْتِقَادَاتِهِمْ - الَّتِي أَخَذَهَا الْإِغْرِيقُ عَنِ الْكَنْعَانِيِّينَ - دُورِ فِي تَصَوُّرِ أَرْبَابِ وَالْهَةِ لِتِلْكَ الْعَنَا صِرِ (النَّارِ ،
الرَّابِ ، الْهُوَاءِ ، الْمَاءِ) ، وَالدَّلِيلُ الَّذِي يُؤَكِّدُ أَخْذَ الْإِغْرِيقِ عَنِ الْكَنْعَانِيِّينَ اعْتِقَادَاتِهِمْ وَأَهْتَمُّهُمْ ، هِيَ
الْمُقَابَلَةُ فِي ذَلِكَ الْعَدَدِ الْهَائِلِ مِنْ أَسْمَاءِ الْآلِهَةِ فِي الْحَضَارَتَيْنِ الْكَنْعَانِيَّةِ وَالْإِغْرِيقِيَّةِ ، وَكُونِ الْحَضَارَةِ
الْكَنْعَانِيَّةِ قَدْ سَبَقَتْ الْحَضَارَةَ الْإِغْرِيقِيَّةَ بِزَمَنِ طَوِيلٍ ، قَبَاتِ مِنْ الْمُؤَكِّدِ اسْتِعَارَةً وَتَبْنِي تِلْكَ الْاِعْتِقَادَاتِ
الْكَنْعَانِيَّةِ مِنَ الْإِغْرِيقِ الَّذِينَ تَعَرَّضُوا لِاجْتِيَا حِ كَنْعَانِي حَرْبِيٍّ وَتِجَارِيٍّ .

إِمَّا عَنِ نَظَرِيَّةِ الْخُلُقِ ، فَتَصْنَفُ الْأَلْوَا حِ الْفِيْحَارِيَّةِ الَّتِي قَدُمَتْ لَنَا الْأَسْطُورَةُ الْكَنْعَانِيَّةُ ضَمِنَ ثَلَاثِ
مَجْمُوعَاتٍ : الْأُولَى تُضَمُّ الْأَسَا طِيرَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِالْآلِهِ بَعْلٍ ، وَعِلَا قَتَهُ مَعَ بَقِيَّةِ آلِهِ الْمَجْمَعِ الْفِينِيقِيِّ ، وَنَظْمِي
ضَمِنَهَا أُسْطُورَةَ التَّكْوِينِ الْكَنْعَانِيَّةِ ، الْمَجْمُوعَةَ الثَّانِيَّةُ تُضَمُّ مَلْحَمَةَ "كِرْت" ، وَالْمَجْمُوعَةَ الثَّلَاثَةَ تُضَمُّ
مَلْحَمَةُ "أَقْهَات" .

على غرار التكوينين الكنعاني والبابلي ، وقَبِلَ بِدَايَةِ الْكُونِ كَانَتْ حَالَةَ الْعَمَاءِ الَّتِي يُمَثِّلُهَا هُنَا "يم" ، وَلأنَّهُ
كَانَ لَا بُدَّ فِي لَحْظَةٍ مَا إِنْ يَنْشَأُ شَيْءٌ مِنَ الْعَدَمِ ، كَانَ هُنَاكَ "بعل" إله الخصب الذي يُلَعَبُ بِهِ
الأسطورة نفس الدور الذي لعبه مُرْدُوخ فِي "الأيнома إيليش" البابلية فِي قَهْرِ الْمِيَاهِ الْأُولَى وَإِحْلَالَ نِظَامِ
الْكَونِ .

بَعْدَ انْتِصَارِ بَعْلٍ يَبْدَأُ رِحْلَتَهُ بِتَنْظِيمِ الْكُونِ وَوَضَعَ أَسْوَاسَ الْحَضَارَةِ ، لَكِنْ يَتَوَجَّبُ عَلَيْهِ بِنَاءُ بَيْتٍ خَاصٍّ بِهِ
، حَيْثُ يُطَلَّبُ مُسَاعَدَةٌ مَحْبُوبَتُهُ عِنَاهُ لِلْحُصُولِ عَلَى الْبَيْتِ الْمُنْشُودِ .

أَمَّا الْمَوْتُ وَالْحَيَاةُ الْأُخْرَى عِنْدَ الْكَنْعَانِيِّينَ ، فَهَمْ اعْتَقَدُوا بِوُجُودِ حَيَاةٍ أُخْرَى بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَكَانُوا يُقِيمُونَ
طَقُوسًا جِنَائِزِيَّةً خَاصَّةً ، هَدَفَهَا حِمَايَةُ الْمَيِّتِ مِنْ قِبَلِ الْإِلَهَةِ عِنْدَ انْتِقَالِهِ إِلَى الْعَالَمِ الْأَخْرَى ، وَكَانُوا
يَضَعُونَ الْمَيِّتَ مَعَ ذَبِيحَةٍ فِي قُبُورِ مُرْتَبَةِ بِنُصْبِ جِنَائِزِيٍّ ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَلْوَابُ تُثَبَّتُ بِالطِّينِ إِمَامَ الْقُبُورِ ،
وَأَحْيَانًا تَمَثَّلُ الْأَلْوَابُ وَجْهَ الْمَيِّتِ أَوْ تَكُونُ اللَّوْحَةُ مَزخرفة عَلَى شَكْلِ مُثَلَّثٍ .

المعتقدات الدينيّة في الحضارة المصريّة

ظَلَّتْ الْحَضَارَةُ الْمِصْرِيَّةُ الْقَدِيمَةُ ، مُنْذُ تَارِيخِ تَوْحِيدِ قَطْرِيهَا فِي الْعَامِ 3100 ق . م ، حَتَّى غَزْوِ الْإِسْكَانْدَرِ
الْأَكْبَرِ لَهَا فِي عَامِ 332 ق . م ، وَبِذَلِكَ فَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ حَضَارَاتِ مِصْرٍ الْقَدِيمَةِ فِي شِمَالِ شَرْقِ إِفْرِيْقِيَا ، وَاعْتَبَرَ نَهْرُ النَّيْلِ الشَّرِيانَ
30 قَرْنًا مِنَ الزَّمَنِ ، وَقَدْ قَامَتْ حَضَارَةُ مِصْرٍ الْقَدِيمَةِ فِي شِمَالِ شَرْقِ إِفْرِيْقِيَا ، وَاعْتَبَرَ نَهْرُ النَّيْلِ الشَّرِيانَ
الرَّيْئِيسِيَّ لِلْحَيَاةِ فِيهَا ، خَاصَّةً بِسَبَبِ التُّرْبَةِ الْخُصْبَةِ النَّاتِجَةِ عَنِ فَيْضَانِهِ السَّنْوِيِّ ، وَمَا زَالَتْ الْبَشَرِيَّةُ
تَسْتَفِيدُ مِنْ إِتْكَارَاتِ الْمِصْرِيِّينَ الْقَدَمَاءِ مِثْلَ : الْوَرَقِ ، وَالْحَبْرِ ، وَالشَّرْطَةِ ، وَالطَّالُوتِ ، وَالْتَقْوِيمِ ،
وَالْمِخْرَاطِ الزَّرَاعِيِّ ، وَالسَّاعَةِ .

طَبِيعَةُ دِيَانَةِ مِصْرَ الْقَدِيمَةِ

تَمَيَّزَتْ دِيَانَةُ الْمِصْرِيِّينَ الْقَدَمَاءِ بِمَا يَلِي :

أَمِنَ الْمِصْرِيُّونَ الْقَدَمَاءُ بِتَعَدُّدِ الْآلِهَةِ ، وَاسْتَمَرَّتْ دِيَانَتُهُمْ لِأَكْثَرِ مِنْ 3000 عَامٍ ، وَكَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْآلِهَةَ تَمَثَّلُ بِالْقُوَى الطَّبِيعِيَّةِ وَتَحْكُمُ بِهَا كَانَتْ حَيَاةُ سُكَّانِ الْحَضَارَةِ الْمِصْرِيَّةِ مَتَّارَةً إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ بِمَعْتَدَاتِهِمُ الدِّينِيَّةِ ، وَكَانُوا يَجْتَهِدُونَ لِتَبَلُّغِ رِضَا الْآلِهَةِ مِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِ مَصَالِحِهِمْ .

تَخْتَلَفُ أَنْوَاعُ الْآلِهَةِ فِي الْحَضَارَةِ الْمِصْرِيَّةِ الْقَدِيمَةِ ؛ حَيْثُ وُجِدَتْ آلِهَةٌ ذَاتُ أَدْوَارٍ رِئِيسِيَّةٍ فِي الْكُونِ ، وَآلِهَةٌ ذَاتُ أَدْوَارٍ ثَانَوِيَّةٍ (أَوْ شَيَاطِينِ) ، وَآلِهَةٌ غَيْرُ مِصْرِيَّةٍ (أَجْنِبِيَّةٍ) ، كَمَا كَانَ بَعْضُ الْبَشَرِ يُعَدُّونَ مِنْ الْآلِهَةِ أَحْيَانًا ، وَلَا سِيَّمَا الْفِرَاعِنَةَ الَّذِينَ تَوَفَّوْا .

فِي الْفِتْرَةِ الَّتِي هَيَمَنَ فِيهَا الْفِرَاعِنَةُ عَلَى مِصْرَ الْقَدِيمَةِ ، رُكِّزَتْ الْمُمَارَسَاتُ الدِّينِيَّةُ عَلَى الْفِرَعُونَ ، لِاعْتِقَادِهِمْ بِقُدْسِيَّتِهِ وَأَنَّهُ وَسِيطٌ بَيْنَ النَّاسِ وَالْآلِهَةِ ، وَأَنَّهُ مِنْ يُدْعَمُهُمْ لِلْحِفَاطِ عَلَى النَّظَامِ فِي الْكُونِ ، وَذَلِكَ لِتَمَكِينِ الدَّوْلَةِ مِنْ إِتْفَاقِ مَوَارِدِهَا بِسَخَاءٍ عَلَى بِنَاءِ الْمَعَابِدِ ، وَإِقَامَةِ الطُّقُوسِ .

بَعْدَ تَرَاجُعِ سُلْطَةِ الْفِرَعُونَ ، أَصْبَحَ النَّاسُ يَتَقَرَّبُونَ بِشَكْلِ مُبَاشَرٍ لِلْآلِهَةِ لِتَحْقِيقِ مَطَالِبِهِمُ الشَّخْصِيَّةِ عَنْ طَرِيقِ الصَّلَاةِ ، أَوْ السَّحْرِ ، وَقَدْ شَهِدَتْ هَذِهِ الْمُمَارَسَاتُ شَعْبِيَّةً أَكْثَرَ لِاحِقًا .

لِجَأِ الْمِصْرِيِّينَ الْقَدَمَاءِ لِلدِّينِ مِنْ أَجْلِ تَفْسِيرِ الظُّوْهِرِ الْحَاصِلَةِ فِي مَحِيطِهِمْ مِثْلَ : الْفَيْضَانَاتِ ، وَشُرُوقِ الشَّمْسِ ، وَغُرُوبِهَا ، كَمَا جَعَلُوا آلِهَتَهُمْ ذَاتَ صِفَاتٍ بَشَرِيَّةٍ ؛ تَعِيشُ ، وَتَمُوتُ ، وَتَأْكُلُ ، مِمَّا يَقْدِمُهُ الْبَشَرُ

لَهَا فِي الطُّقُوسِ ، وَكَانَتْ بَعْضُ الطُّقُوسِ تُقَامُ لِلآلِهَةِ بِمَعْدَلٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي الْيَوْمِ مِنْ قَبْلِ الْفِرْعَوْنَ ، أَوْ كَهْنَتِهِ .

كَانَتِ الْمَعَابِدُ وَسِيلَةَ الْحَضَارَةِ الْمِصْرِيَّةِ ، لِتَوْقِيرِ الْآلِهَةِ ، وَكَانَتْ تُصَمَّمُ تَمَاثِيلُهُمُ الَّتِي تُعْبَرُ عَنْ صُورِهِمْ الْمَادِّيَّةِ ، فَلَمْ يَكُنْ يُسْمَحُ لِلْجَمِيعِ بِدُخُولِ الْمَعَابِدِ بِاتِّظَامٍ ، وَلَمْ يُسْمَحْ لِلأَشْخَاصِ الْعَادِيْنَ بِدُخُولِهَا أَبَدًا ، وَكَانَ يُسْمَحُ لَهُمْ بِدُخُولِهَا فَقَطُّ فِي الْأَعْيَادِ ، وَكَانَ دُخُولُهُمْ مُحْصُورًا فَقَطُّ فِي فِتَاءِ الْمَعْبَدِ .

أَهْمُ الْآلِهَةِ الْمِصْرِيَّةِ

يُذَكَّرُ مِنْهَا أُوزِيرِيسُ (Osiris)

عُبد أُوزِيرِيسُ ، كِإِلَهٍ لِلْحَيَاةِ الْآخِرَةِ ، وَاعْتَبَرَ الْإِنِّ الْأَكْبَرَ لِأَنَّ الْأَرْضَ جُبَّ وَالْهَيْ السَّمَاءِ نَوْتِ .

يُصَوَّرُ أُوزِيرِيسُ غَالِبًا بِاللَّوْنِ الْأَخْضَرِ ، فِي إِشَارَةٍ لِارْتِبَاطِهِ بِالتَّجْدِيدِ وَالتَّمُورِ وَباعتباره إِلَهَ الْحَيَاةِ التَّنْبَاتِيَّةِ ، وَالْمَسْئُولِ عَنِ الْفَيْضَانَاتِ ، الَّتِي تَزِيدُ خُصُوبَةَ التُّرْبَةِ عَلَى ضِفَافِ تَهْرِ النَّيْلِ .

حَسَبَ الْأَسْطُورَةِ ، تَزَوَّجَ أُوزِيرِيسُ مِنْ شَقِيْقَتِهِ إيزيسَ ، وَقَتَلَ عَلَى يَدِ شَقِيْقَتِهِ سِتَّ ، وَاسْتَطَاعَتْ إيزيسُ إِعَادَتَهُ لِلْحَيَاةِ لِيَنْجِبَ طِفْلًا هُوَ حُورَسُ ، الَّذِي انْتَمَ لِحَقًّا مِنْ قَاتِلِ وَالِدِهِ وَأَصْبَحَ فِرْعَوْنًا جَدِيدًا عَلَى مِصْرَ ، بَيْنَمَا أَصْبَحَ وَالِدُهُ أُوزِيرِيسُ إِلَهَ الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ الْمَسْئُولُ عَنِ الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ لِلْفِرَاعِنَةِ وَالنَّاسِ .

أَمُونُ رَعِ (Amun-Ra) كَانَ أَمُونُ رَعِ كَبِيرُ الْآلِهَةِ الْمِصْرِيَّةِ الْقَدِيمَةِ ، وَكَانَ يُعْتَقَدُ أَنَّهُ وَالِدُ الْفِرَاعِنَةِ ، وَكَانَ يُعْبَدُ دَاخِلَ مِصْرَ وَفِي خَارِجِهَا أَيْضًا .

في بدايات الحضارة المصرية ، كان أمون رع يُعبد كإلهين مُنفصلين ؛ أمون ورع ، وكان أمون يُمثل الإله الذي خلق الكون ، وكان رع إلهًا للشمس والنور ، وكان يُسافر يوميًا عبر السماء في قاربٍ مُحترق .
توحد الإلهان أمون ، ورع ، في عصر المملكة المصرية الحديثة بين القرنين السادس عشر ، والحادي عشر قبل الميلاد .

موط (Mut)

موط ؛ معناها الأم ، وكانت هذه الآلهة أم الآلهة الأخرى ، وكانت ترتدي تاجين على رأسها يمثلان مضر العليا ، ومضر السفلى .

كان يتم تصوير الآلهة موط على هيئة امرأة مع أجنحة نسر ، وتُحمل في يديها العنخ (مفتاح الحياة) ، وتوثبها باللون الأحمر ، أو الأزرق الفاتح ، وعند قدميها توجد ريشة للإلهة ماعت .
كانت موط تُعبد من قبل الفراعنة المختلفين ، وتصور بأشكال حيواناتٍ مختلفة ، هي القطعة ، والبقرة ، والكوبرا ، واللبؤة ، والنسر .

تحوت (Thoth)

كان يُعتقد أن الآلهة تحوت هو من أوجد التقويم المؤلف من 365 يومًا ، وأنه الحكم الذي يحسم الخلافات بين الشر والخير ، وسيد القوانين الدنيوية والالهية ، وكان يحفظ نظام الكون مع الآلهة ماعت ، من خلال إبقائه للحسابات ، وإليه يُنسب وضع العلم ، والفلسفة ، والسحر ، واعتبر أيضًا إله القمر الذي من خلاله يُحتسب الوقت عند مغيب الشمس .

عَبَدَ الْمِصْرِيُّونَ الْقُدَمَاءُ تَحْتَ كَالَّةٍ لِلْمَعْرِفَةِ ، وَمَخْتَرَعٌ لِلْكِتَابَةِ ، وَقُرُوعِ الْمَعْرِفَةِ الْمُخْتَلَفَةِ ، وَاسْتَمَرَّتْ عِبَادَتُهُ حَتَّى عَصَرَ الْأَسْرَ الْمِصْرِيَّةَ .

يَتِمُّ تَصْوِيرُ الْآلَةِ تَحْتَ فِي هَيْئَةٍ بَشَرِيَّةٍ بِرَأْسِ طَائِثٍ أَبُو مِجَلِّ الْمَقْدِسِ وَالْمُرْتَبِطِ بِالْحِكْمَةِ ، وَيُحْمَلُ فِي بَعْضِ الْأَخْيَانِ الْعِنخِ (رَمَزِ مِفْتَاحِ الْحَيَاةِ) ، أَوْ لَوْحِ كِتَابِهِ وَقَلَمًا ، وَيَكُونُ مَرْتَدِيًا تَاجِ الْأَنْفِ ، الَّذِي يَرْتَدِيهِ أُوزِيرِيسُ غَالِبًا .

الْمُعْتَقَدَاتُ الدِّينِيَّةُ الْآخَرَى فِي الْحَضَارَةِ الْمِصْرِيَّةِ

مِنْ أَهَمِّ الْمُعْتَقَدَاتِ الَّتِي آمَنَ بِهَا الْمِصْرِيُّونَ الْقُدَمَاءُ :

الْكُونِيَاتُ : حَسَبَ الْمُعْتَقَدَاتِ الْمِصْرِيَّةِ الْقَدِيمَةِ يَتَمَحَوَّرُ الْكُونُ حَوْلَ مَاعَتِ (Ma'at) ، الَّذِي يُشِيرُ إِلَى النِّظَامِ الْكُونِيِّ (ماعَتِ أَيْضًا إِلَهَةٌ مِصْرِيَّةٌ قَدِيمَةٌ) الَّذِي يَزْتَكِرُ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، وَالْعَدَالَةِ ، وَالنِّظَامِ ، وَلَوْلَاهُ كَانَ الْعَالَمُ سِينِهَارًا ، حَيْثُ يَشْمَلُ سُكَّانَ الْكُونِ كَلًّا مِنَ الْآلِهَةِ ، وَأَرْوَاحِ الْمَوْتَى ، وَالْإِحْيَاءِ ، وَالْفِرَاعِنَةِ ، وَيَجِبُ أَنْ يَتَعَاوَنُوا جَمِيعًا لِمَنْعِ إِخْلَالِ النِّظَامِ الْكُونِيِّ ، وَيَجِبُ أَنْ تَعْمَلَ الْآلِهَةُ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ بِتَوَازُنٍ لِلتَّجْدِيدِ خِلَالَ الْأَحْدَاثِ الْمُتَكَرِّرَةِ مِثْلَ : الْفَيْضَانِ السَّنَوِيِّ لِلنَّيْلِ .

الْأَسَاطِيرُ : عَرَفَتْ الْأَسَاطِيرُ الْمِصْرِيَّةُ مِنْ خِلَالِ التَّرَاتِيلِ ، وَالتُّصُوصِ الشِّعَائِرِيِّ ، وَالْجِنَائِزَةِ ، وَتِلْكَ الْمُرْتَبِطَةُ بِالسَّحْرِ ، وَكِتَابَاتِ الْإِغْرِيقِ ، وَالرُّومَانِ ، كَمَا تُعْتَبَرُ أُسْطُورَةُ الْخَلْقِ ، مِنْ أَهَمِّ الْأَسَاطِيرِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَيُرَدُّ فِيهَا أَنَّ الْعَالَمَ ظَهَرَ فِي وَسْطِ الْفَوْضَى ، وَظَهَرَ مَعَهُ الْآلَةُ رَعِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ ، كَمَا وَرَدَ فِي رَوَايَاتٍ أُخْرَى لِهَذِهِ الْأُسْطُورَةِ أَنَّ الْآلَةَ أَتَوْا ، تَحَوَّلَ إِلَى عَنَاصِرِ هَذَا الْعَالَمِ .

صُعُودٌ وَسُقُوطُ الْآلِهَةِ : هُنَاكَ آلهَةٌ مِصْرِيَّةٌ اكْتَسَبَتْ مَكَانَةً مُهِمَّةً بِمُرُورِ الْوَقْتِ ، ثُمَّ سَقَطَتْ ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ تَفُوقِ آلهَةٍ أُخْرَى عَلَيْهَا ، مِثْلُ : إِلَهِ الشَّمْسِ رَع ، وَآلِهِ الْخَلْقِ أُمُون ، وَآلِهِ الْأَمِّ إِيْزِيس .

الدِّينُ فِي رُومَا الْقَدِيمَةِ

عِبَادَةُ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ

لَقَدْ كَانَتْ الْأَسِرَّةُ الرُّومَانِيَّةُ رَابِطَةً بَيْنَ الْأَشْخَاصِ وَالْأَشْيَاءِ ، كَمَا كَانَتْ رَابِطَةً بَيْنَ الْأَشْخَاصِ وَالْأَشْيَاءِ مِنْ جِهَةٍ وَالْآلِهَةِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى . وَكَانَتْ هِيَ الْمُرْكَزَ الَّذِي يَلْتَفُّ حَوْلَهُ الدِّينُ ، وَالْخَلْقُ ، وَالنَّظَامُ الْاِقْتِصَادِيّ ، وَكِيَانُ الدَّوْلَةِ بِأَجْمَعِهَا ، كَمَا كَانَتْ هِيَ الْمَنْبِعُ الَّذِي تُسْتَمَدُّ مِنْهُ هَذِهِ الْمُقَوِّمَاتُ كُلُّهَا . وَكَانَ كُلُّ جُزْءٍ مِنْ أُمَّلَاكِهَا مَهْمَا صَغَرَ وَكُلَّ مَظْهَرٍ مِنْ مَظَاهِرِ وُجُودِهَا يَرْتَبِطُ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا جَدِيدًا بِالْعَالَمِ الرُّوحِيّ ؛ فَكَانَ الطِّفْلُ يَعْلَمُ بِالْقُدُورَةِ الصَّامِتَةِ الْفَصِيحَةِ أَنَّ نَارَ الْمُوقِدِ الَّتِي لَا تَحْمَدُ لَيْسَتْ إِلَّا رَمَزَ الْآلِهَةِ فِيسْتَا Vesta ومادتها ، وَأَنَّهَا هِيَ الشُّعْلَةُ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي تَرْمِزُ إِلَى حَيَاةِ الْأَسِرَّةِ وَإِلَى دَوَامِهَا ؛ وَمِنْ أَجْلِ هَذَا كَانَ مِنْ أَوْجَبِ الْوَاجِبَاتِ إِلَّا تَنْطَفِئُ هَذِهِ النَّارُ ، وَإِنْ يُعْنَى بِهَا الْعِنَايَةُ "المقدسة" .

وَلَمْ يَكُنْ الرُّومَانِيّ ، كَمَا كَانَ الْإِغْرِيْقِيّ ، يُفَكِّرُ فِي آلهَتِهِ يَجْعَلُ لَهَا صُورًا كَصُورِ الْأَدَمِيّينَ ، وَلَمْ يَكُنْ يُسَمِّيْهَا إِلَّا مُونِينَا Munina أيُّ الْأَرْوَاحِ ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْآلِهَةُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ مَعْنُويَاتٍ مُجَرَّدَةً كَالصِّحَّةِ ، أَوْ الشَّبَابِ ، أَوْ الذَّاكِرَةِ ، أَوْ الْحِظِّ ، أَوْ الشَّرْفِ ، أَوْ الْأَمَلِ ، أَوْ الْخَوْفِ ، أَوْ الْفُضِيلَةِ ، أَوْ الْعَفَافِ ، أَوْ الْوَفَاقِ ، أَوْ النَّصْرِ وَكَانَ مِنْهَا أَرْوَاحٌ لِلْمَرَضِ يَصْعَبُ اسْتِرْضَاؤُهَا كَالْأَطْيَافِ وَأَرْوَاحٌ الْمَوْتَى وَمِنْهَا أَرْوَاحُ فُصُولِ السَّنَةِ ، مِثْلُ رُوحِ شَهْرِ مَآيُو وَمِنْهَا آلهَةُ الْمَاءِ مِثْلُ نَيْتُونِ ، وَأَرْوَاحُ الْغَابَاتِ أَوْ الْآلِهَةِ الَّتِي تَسْكُنُ الْأَشْجَارَ مِثْلُ سِيلْفَانَس S . وَكَانَ بَعْضُهَا يَتَقَمَّصُ الْحَيَوَانَاتِ الْمُقَدَّسَةَ كَالْحِصَانِ أَوْ الْحَيَوَانَاتِ

الذبيح ، أو الأوز المقدس الذي كان الممتقون يحتفظون بها فوق الكبتول لا يتأله أحدٌ بأذى ، ومنها أرواح
التناسل والإنتاج : تومس يُشرفُ على الحمل ، ولوسينا تحمي الحيض والولادة ، وكان يرباس الهاً
للإخصاب عند اليونان ، ولكنه سرعان ما سكن رومًا ، وكانت العذارى والامهات .

وكانت صور خليعة فاحشة لهذا الآلة تزين كثيرا من الحدائق ، وجُملة القول إننا لا نعرف قط دينا يبلغ
فيه عدد الآلهة ما بلغه عند الرومان ، ويقدرها المؤرخ فارو بثلاثين ألفاً ، ويشكو برونوس من أن بعض
المدن الإيطالية كان فيها من الآلهة أكثر ممن فيها من الرجال ؛ لكن الذين يسميهم برونوس *ideus*
يكونوا كلهم آلهة ؛ لأن كلمة *ideus* كانت تعني عند الرومان قديساً أو الهاً .

وكان يكمن تحت هذه الأفكار الأساسية حشد من العقائد الشعبية المتعددة الأشكال ، من عبادة
الطبيعة ، ، والطوطمية ، والإيمان بالسحر ، والمعجزات ، والرقي ، والخرافات ، والمحرّمات ،
ومعظمها عقائد باقية من أيام سكان إيطاليا فيما قبل التاريخ ، ولعلها باقية من أيام أسلافهم الهندوربيين
جاءوا بها من موطنهم القديم في قارة أسيء . وكان الكثير من الأشياء والأماكن والأشخاص مقدساً (*sacer*
) محرماً مسه أو تدنسيه ، ومن هؤلاء الأشخاص الأطفال حديثو الولادة ، والنساء في وقت
الحيض ، والمجرمون إذا أدينوا . وكانت مئات من الصيغ اللفظية أو المبتكرات الالئية تُستخدم للوصول إلى
غايات طبيعية بوسائل خارقة للطبيعة . فكانت التمام شائعة بينهم لا يكاد يخلو منها واحد منهم .
ويلوح أن الرومان جميعاً ، إلا قليلاً من المشككين ، كانوا يؤمنون بالمعجزات ، وبالفال والطيرة ، وبأن
التمثيل تتحدث وتعرق ، وبأن الآلهة تنزل من جبل أولمبس Olympus لتحارب في صف الرومان ،
وبأن الأيام الفردية الأسماء محظوة ، والزوجية الأسماء منحوسة ، وبأن الحوادث الغريبة تُنبئ

بالمستقبل . ويحتوي تاريخ ليفي على عدّة مئات من أمثال هذا الأبناء يسجلها كلها بوقاره الفيلسفي .
وفي مجلّدات بلني الأكبر Pliny من التنبؤات ووسائل العلاج السحري ما يصح لنا معه إن نسمي تاريخه
"تاريخ خوارق الطبيعة" . وكثيراً ما كان يحدث أن يُوجّل أهم الأعمال التجارية أو الحكومية أو الحزبية
أو تُلقى إلقاء تاماً إذا تشاء الكاهن بأن وجد شيئاً غير مألوف في أمعاء ذبيحة ، أو سمع قصف
رعد في السماء . وكانت الدولة تبذل كل ما في وسعها لتحديد من الإسراف في هذه العادات .

وكان يُطلق عليها اللفظ الذي يُعبّر عنها أدق تغيير وهو لفظ Supersitis أي العقائد الدينية
المفرطة . ولكنها كانت لا تتعدّد قط عن استغلال تقوى الشعب لتثبيت دعائم الحكم والنظام
الاجتماعي فكيف آلهة الزيف لتوائم حياة الحذر ، وشادت موقداً قومياً للإلهة فستا ، وعيّنت طائفة
من العذارى الفسيات لتقوم على خدمة نار المدينة المقدسة ، وأخرجت من مجموع آلهة الأسرة
والمزرعة والقرية الآلهة القومية .

للدولة ونظمت لهذه الآلهة عبادة جديدة جميلة المنظر تقوم بها الدولة باسم جميع المواطنين . وكان
أحب هذه الآلهة القومية الأولى إلى قلوب الشعب الآلة جوبتر أو جوف Jupiter or Jove لولإن لم
يكن هذا الآلة قد أصبح ملكها كما أصبح زيوس عند اليونان ، بل كان في القرون الأولى من حياة روما
لا يزال قوة نصف مغنوية تمثل رقة السماء المثلثة وضيء الشمس القمر وقصف الرعد .

الكهنة والنظام البابوي الروماني

واستخدمت إيطاليا نظاماً من الكهنوت مُحكم الوضع لتضمن به معونة هؤلاء الأرباب . وكان الأب في
منزله كاهناً ، ولكن الصلوات العامة كان يرأسها جماعات من الكهنة ، تملأ كل منها ما يخلو في صفوفها

من الأماكن ويرأسها كلها حبر أعظم تختاره الجمعية المؤية . ولم تكن عضوية هذه الكليات المقدسة تحتاج إلى تدريب خاص بل كان في وسع كل مواطن أن ينضم إليها أو يخرج منها ولم تكن تؤلف مرتبة أو طبقة منفصلة عن سائر المراتب أو الطبقات ، ولم يكن لها أي سلطان سياسي عدا أن الدولة كانت تستخدمها أداة من أدواتها . وكانت تستولي على إيراد بعض أراضي الدولة لتستعين به على العيش ، وكان لها عبيد يقومون على خدمتها ؛ وقد أصبحت بتوالي الأجيال عظمة الثراء بما كان يحسبها عليها اتقياء الناس من الأموال . وكانت الكلية الدينية الكبرى في القرن الثالث قبل المسيح تضم تسعة من الأعضاء ، يحتفظون بالحوليات التاريخية ، ويسجلون القوانين ، ويقرون العيوب ، ويقربون القرابين ، ويظهرون رومًا مرة في كل خمس سنوات . وكان يساعد هؤلاء الأحياء في القيام بالمراسم الرسمية خمسة عشر كاهنًا آخر يُسمون فلميني flamine أي موقدي نيران الأضاحي .

وكان ثمة طوائف من الأحياء أقل من هؤلاء شأنًا يُؤدون واجبات خاصة : فالساليون أو القافزون كانوا يستقبلون العام الجديد بنوع من الرقص المقدس للمريخ ، والفتيالي يصدقون على عقد الصلح ، وإعلان الحرب ، واللورسي أو أخوان الذئاب يقومون بطقوس لوبركاليا العجيبة . وكانت طائفة العذارى الفستية تعني بموقد الدولة وترشه في كل يوم بالماء المقدس تأخذه من عين الحورية المقدسة أجريًا ؛ وكان هؤلاء الراهبات ذوات الثياب البيض والخمر البيض يُخرتن من بين الفتيات اللاتي تتراوح سنهن بين السادسة والعاشرة ، وكُن يقسمن بأن يظللن عذارى في خدمة الآلهة فستا ثلاثين سنة ، وينلن في نظير هذا ضروبًا من الامتيازات والتكريم وإذا اقترفت إحداهن جريمة العلاقات الجسدية ضربت بالعصى ودُفنت وهي على قيد الحياة ، وقد سجل المؤرخون الرومان اثنتي عشرة جريمة من هذا النوع ، فإذا

قضين الثلثين عاماً كان لهن أن يتركن خدمة الآلهة ويتزوجن ، ولكن قل منهن من كانت تباح لها هذه
الفرصة أو تغتمها إذا أتحت لها .

وكانت أعظم طوائف الكهنة نفوذاً طائفة العرافين التسعة الذين كانوا يدرسون إدارة الآلهة ومقصدهم
باتجاه الطيور في الأيام الأولى ، وبالفحص عن أحشاء الحيوانات المضحاة فيما بعد . فكان كبار
الحكام "يستطلعون الطلع" قبل كل عمل هام من أعمال السياسة أو الحكم أو الحرب ، ثم يفسر العرافون
ما يحده الحكام ، أو يفسره لهم مفتشو الأكياد الذين تلقوا عنهم هذا من بلاد الكلدان أو من أمم قبلهم
عن طريق إتروريا . ولم يكن الكهنة على الدوام بمنجاة من الإغراء بالمال ، ولذلك كانوا في بعض
الأحيان يوقعون بين أقوالهم وبين حاجات من يذهب لاستشارتهم . من ذلك أن أي قانون لا يتفق مع
مصلحة طائفة أو جماعة من الناس كان يمكن تعطليه إذا قيل إن اليوم الذي ينظر فيه القانون يوم مشؤم
لا يصلح العمل فيه ،

وكان في الاستطاعة إقناع الجمعية بالموافقة على إعلان الحرب إذا قيل لها أن اليوم الذي يطلب إليها
إعلانها فيه يوم سعيد . وكانت الحكومة في الأزمات الخطيرة تدعى أنها تعرف ما تريده الآلهة بالرجوع
إلى الكتب السبيلية ، وهي الكتب التي سجلت فيها نبوءات سيبيل أو كاهنة أبلون في كومية وكان في
وسع الأغنيان إن يؤثروا في الشعب بهذه الوسائل وبالرسل الذين كانوا يرسلونهم وبذلك يوجهونهم في أي
اتجاه يشاءون ، ويكادون يبلغون كل غاية يبغيونها . ولم يكن يقصد بطقوس العبادات إلا أن تقدم هديته
أو ضحية للآلهة لكسب عونها أو اتقاء غضبها . وكان الكهنة يقولون إن الاحتفالات التي تقام لهذا
الغرض لا تثمر ثمرتها إلا إذا روعي فيها منتهى الدقة في الأقوال والحركات ، وهي دقة لا يستطيع غير

الْكُهْنَةُ أَنْ يَشْرَفُوا عَلَيْهَا . وَإِذَا وَقَعَ فِي طَقْسٍ مِنْ هَذِهِ الطَّقُوسِ أَيَا كَانَ نَوْعُهُ وَجَبَتْ إِعَادَتُهُ مِنْ جَدِيدٍ
وَلَوْ تَطَلَّبُ ذَلِكَ ثَلَاثِينَ مَرَّةً . وَكَانَ مَعْنَى لَفْظِ هُوَ آدَاءُ الطَّقْسِ الدِّينِيِّ بِالْعِنَايَةِ الَّتِي يَحْتَمِلُهَا الدِّينُ .
الْأُضْحِيَّةُ .

وَكَانَ أَهَمُّ مَا فِي الْإِحْتِقَالِ هُوَ التَّضْحِيَّةُ وَمَعْنَى اللَّفْظِ مُشْتَقٌّ مِنْ كَلِمَةِ Cacer اللاتينية وَمَعْنَاهَا مَلِكٌ
لِللَّهِ . وَكَانَتِ التَّضْحِيَّةُ فِي الْبَيْتِ تَتَّخَذُ عَادَةً شَكْلَ قِطْعَةٍ مِنْ كَعْكَةٍ تُوَضَّعُ عَلَى الْمُوقَدِ أَوْ كَمِيَّةٍ مِنَ
التَّبِيذِ تُتَلْقَى فِي نَارِ الْبَيْتِ ، وَتَكُونُ فِي الْقَرْيَةِ أَوَّلَ ثَمَرَةٍ تُخْرِجُهَا الْأَرْضُ ، وَقَدْ تَكُونُ كَبْشًا أَوْ كَلْبًا أَوْ
خَنْزِيرًا ، وَتَكُونُ فِي الْمُنَاسَبَاتِ الْأَهَمَّةِ فَرَسًا أَوْ خَنْزِيرًا أَوْ شَاةً أَوْ ثورًا ، وَكَانَتِ الثَّلَاثَةُ الْحَيَوَانَاتِ الْأَخِيرَةَ
تُدْبَحُ فِي أَكْبَرِ الْمُنَاسَبَاتِ أَهَمِّيَّةٍ فِي السُّو (أَيِ عِيدِ الْخَنْزِيرِ وَالشَّاةِ وَالثَّورِ) . وَكَانُوا يَعْتَدُونَ أَنَّهُ إِذَا
تَلَيْتِ صَيْغَ خَاصَّةً عَلَى التَّضْحِيَّةِ اسْتَحَالَتْ إِلَى الْأَلَّةِ الَّذِي يُرَادُ مِنْهُ أَنْ يَقْبَلَهَا ؛ وَعَلَى هَذَا الْإِعْتِبَارِ كَانَ
الْأَلَّةُ نَفْسُهُ هُوَ الَّذِي يُضْحِي بِهِ ؛ وَإِنْ كَانَتْ أَحْشَاءُ الْحَيَوَانَاتِ وَحَدَّهَا هِيَ الَّتِي تَحْرَقُ عَلَى الْمَذْبَحِ ؛
وَكَانَ الْكُهْنَةُ وَالنَّاسُ يَأْكُلُونَ .

كُلُّ مَا بَقِيَ مِنْهُ ، فَقَدْ كَانَ هَوْلًا يَأْمَلُونَ أَنْ نَثَقَلَ قُوَّتُهُ وَمَجْدُهُ إِلَى عِبِيدِهِ الْمُحْتَفِلِينَ بِعِيدِهِ . وَكَانَ يُضْحِي
بِالْأَدْمِيَّةِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ ؛ وَمِمَّا يُجَدَّرُ ذِكْرُهُ أَنَّهُ كَانَ لِأَبَدٍ مِنْ صُدُورِ قَانُونِ فِي عَامِ 97م لِتَحْرِيمِ هَذِهِ
الْعَادَةِ .

وَكَانَ إِحْتِقَالُ التَّطْهِيرِ أَكْثَرَ مِنْ هَذِهِ الطَّقُوسِ مُنْعَةً ؛ وَكَانَ هَذَا التَّطْهِيرُ يُحَدِّثُ لِلْمَحْصُولَاتِ الزَّرَاعِيَّةِ أَوْ
لِقِطْعَانِ الْمَاشِيَةِ أَوْ الْمَدِينَةِ . وَكَانَتِ الطَّرِيقَةُ الْمُتَّبَعَةُ فِي هَذَا الْإِحْتِقَالِ أَنْ يُطَوَّفَ مُوَكَّبٌ بِالشَّيْءِ الْمُرَادِ
تَطْهِيرُهُ ، وَيُقَدَّمُ لَهُ الصَّلَوَاتُ وَالذَّبَائِحُ ، فَيَطْهَرُ بِذَلِكَ مِنَ الْمُؤَثَّرَاتِ السَّيِّئَةِ وَيُرَدُّ عَنْهُ الشَّرُّ . وَلَمْ تَكُنْ

الصَّلَوَاتِ قَدْ خَلَصَتْ كُلَّ الْخُلَاصِ مِنَ الرَّقِيِّ السَّحَرِيَّةِ ؛ وَكَانَ اللَّفْظُ الَّذِي يُطْلَقُ عَلَيْهَا وَهُوَ كَارْمِن
Carmen يُعْنِي الْأَنْشُودَةَ وَالرُّقِيَّةَ جَمِيعاً ؛ وَيُعْتَرَفُ بِلِي صِرَاحَةً بِأَنَّ الصَّلَاةَ ضَرْبٌ مِنَ الْأَقْوَالِ السَّحَرِيَّةِ .
وَإِذَا مَا تُبَلِّتِ الصَّبِيغَةَ حَسَبَ الْأُصُولِ الْمَرْعِيَّةِ وَوُجَّهَتْ إِلَى الْآلَةِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تُوَجَّهَ إِلَيْهِ حَسَبُ سَجَلِ
الْآلَةِ indigitamenta الَّذِي جَمَعَهُ الْكَهَنَةُ وَاحْتَفَظُوا بِهِ ، فَإِنَّ الرَّجَاءَ لَا بُدَّ أَنْ يُجَابَ ؛ فَإِذَا لَمْ يَجِبْ
فَإِنَّ غَلَطَهُ مَا قَدْ حَدَّثَتْ فِي الطَّقُوسِ الْمَرْعِيَّةِ .

وَقَرِيبٌ مِنَ السَّحْرِ وَذُو صِلَةٍ بِهِ الْفَوْتَا vota أو التَّذُورِ الَّتِي كَانَ يَطْلُبُونَ بِهَا مَعُونَةَ الْآلَةِ ؛ وَكَانَتْ هِيَ مِثْلَ
عَظَمِيَّةِ تَشَادٍ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ وَفَاءً بِهَذِهِ التَّذُورِ . وَتُوْحِي التَّذُورِ الْكَثِيرَةَ الَّتِي كَشَفَتْ بَيْنَ مُخْلَفَاتِ
الرُّومَانِ عَلَى أَنَّ الدِّينَ كَانَ يَمَلَأُ قُلُوبَهُمْ ، وَعَلَى أَنَّهُ كَانَ يَمْتَنِّجُ بِهِ وَيُلَطِّفُهُ تَقِيًّا وَشُكْرًا عَلَى النِّعَمِ ، وَشُعُورًا
بِالصِّلَةِ الْقَوِيَّةِ بَيْنَ النَّاسِ وَبَيْنَ قُوَى الطَّبِيعَةِ الْخَفِيَّةِ ، وَرَغْبَةً أَكِيدَةً فِي أَنْ يَكُونَ النَّاسُ عَلَى وَفَاقٍ مَعَ هَذِهِ
القُوَى جَمِيعِهَا . هَذَا مَا كَانَ لِلدِّينِ مِنْ أَثَرٍ فِي قُلُوبِ الشَّعْبِ ، أَمَّا دِينُ الدَّوْلَةِ فَكَانَ عَلَى التَّقْيِضِ مِنْ
هَذَا ، كَانَ شَكْلِيًّا جَامِدًا ، لَا يَعْدُو أَنْ يَكُونَ نَوْعًا مِنَ الْعَلَاقَةِ الْقَانُونِيَّةِ التَّعَاقُدِيَّةِ بَيْنَ الْحُكُومَةِ وَالْآلَةِ .
وَلَمَّا أَنْ تَسَرَّبَتْ إِلَى الْبِلَادِ أُذْيَانٌ جَدِيدَةٌ مِنَ الشَّرْقِ الْمَغْلُوبِ ، كَانَ أَوَّلَ مَا تَضَعُضَعُ فِي الدَّوْلَةِ الرُّومَانِيَّةِ
هُوَ هَذَا الدِّينَ الرَّسْمِيِّ ، أَمَّا الْإِيمَانُ الْعَمِيقُ ذُو الْمُظَاهِرِ الْجَمِيلَةِ الْجَذَابَةِ ، وَالطَّقُوسِ الْمُتَشَرِّةِ فِي
الرِّيفِ ، فَقَدْ ظَلَّتْ تَقَاوِمِ الْأَغْلَالِ فِي صَبْرٍ وَعِنَادٍ طَوِيلِينَ . وَلَمَّا تَغَلَّبَ الدِّينُ الْمَسِيحِيُّ فِي آخِرِ الْأَمْرِ
اسْتَسَلَّمَ بَعْضُ الْإِسْتِسْلَامِ إِلَى هَذَا الْإِيمَانِ الرِّيفِيِّ الْقَدِيمِ فَأَخَذَ عَنْهُ كَثِيرًا مِنْ عَقَائِدِهِ وَطَّقُوسِهِ ، وَكَانَ
ذَلِكَ الْآخِذِ عَنْ حُكْمِهِ وَأَصَالَةِ رَأْيِي ، وَلَا تَزَالُ هَذِهِ الطَّقُوسُ بَاقِيَةً فِي الْعَالَمِ الْمَسِيحِيِّ إِلَى هَذِهِ الْأَيَّامِ ،
وَإِنْ تَشَكَّلَتْ بِإِشْكَالٍ جَدِيدَةٍ وَعَبَّرَ عَنْهَا بِالْفَاظِ غَيْرِ الْفَاظِ الْقَدِيمَةِ .

وَقَصَارَى الْقَوْلِ أَنَّ شُعُوبَ الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمَوْسَطِ لَمْ تَنْقَطِعْ قَطُّ عَنْ عِبَادَةِ قُوَّةٍ مُقَدَّسَةٍ خَلَقَتْ

وَكَانَتْ عِبَادَةَ مِثْرَاسِ Mithras آِلَآةِ الذِّكْرِ تَنْقَلُ فِي هَذِهِ الْآثْنَاءِ مِنْ فَارِسَ إِلَى أَقْصَى تَحُومِ

الْإِمْبْرَاطُورِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ ؛ وَكَانَ مِثْرَاسُ هَذَا فِي الْمَرَاكِلِ الْمَتَّآخِرَةِ مِنَ الدِّينِ الزَّرَادَشْتِي ابْنِ أَهْوَرَا - مَزْدَا إِلَهَ

النُّورِ ، وَكَانَ هُوَ أَيْضاً إِلَهاً لِلنُّورِ ، وَالْحَقِّ ، وَالطُّهْرِ ، وَالشَّرَفِ ؛ وَكَانَ يُقَالُ أحياناً أَنَّهُ هُوَ الشَّمْسُ ، وَأَنَّهُ

يُقُودُ الْحَرْبَ الْعَالَمِيَّةَ ضِدَّ قُوَى الظُّلْمَةِ ، وَأَنَّهُ يُشْفَعُ عَلَى الدَّوَامِ لِأَتْبَاعِهِ عِنْدَ أَبِيهِ ، وَيُحْمِيهِمْ ، وَيُسَبِّحُهُمْ

فِي كَهَاتَمِهِ الدَّائِمِ لِلشَّرِّ وَالْكَذِبِ ، وَالذَّنْسِ ، وَغَيْرِهَا مِنْ أَعْمَالِ أَهْرَمَانَ أَمِيرِ الظُّلَامِ . وَلَمَّا أَنْ نَقَلَ جُنُودَ

بَنِي هَذَا الدِّينِ مِنْ كَبْدُوكِيَا إِلَى أُورُبَا صَوَّرَ قَتَانَ يُونَانِيَّ مِثْرَاسَ رَاكِعاً عَلَى ظَهْرِ ثَوْرٍ يَطْعَنُهُ فِي خَنْجَرٍ

فِي عُنُقِهِ ، وَأَضْحَتْ هَذِهِ الصُّورَةُ هِيَ الرِّمَزُ الرَّسْمِيُّ لِذَلِكَ الدِّينِ .

وَكَانَ الْيَوْمُ السَّابِعُ مِنْ كُلِّ أُسْبُوعٍ يَوْمًا مُقَدَّساً لِآِلَآةِ الشَّمْسِ ، وَكَانَ اتِّبَاعُهُ يَحْتَفِلُونَ فِي الْآيَّامِ الْآخِيرَةِ مِنْ

دَيْسَمْبَرٍ بِمَوْلِدِ مِثْرَاسِ "الشَّمْسِ الَّتِي لَا تُغْلَبُ" وَالْإِلَهِ الَّذِي نَالَ نَصْرَهُ السَّنَوِيُّ عَلَى قُوَى الظُّلْمَةِ فِي يَوْمِ

الْإِتْقَابِ الشِّتَائِيِّ ، وَالَّذِي بَدَأَ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ يُفِيضُ عَلَى الْعَالَمِ ضِيَاءً يَزْدَادُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ . وَيُحَدِّثُنَا

تَرْتِيلِيَانُ Tertullian عَنْ كَهَنَةِ مِثْرَاسِيِّينَ عَلَى رَأْسِهِمْ "حَبْرَ أَكْبَرَ" ، وَعَنْ عَزَابِ وَعِذَارِي فِي خِدْمَةِ

آِلَآةِ ؛ وَكَانَتْ الْقَرَابِينُ تَقْرَبُ إِلَيْهِ عَلَى مَذْبَحَةٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، كَمَا كَانَ عِبَادَةٌ يَشْتَرِكُونَ فِي تَنَاوُلِ طَعَامِ

مُقَدَّسٍ مِنَ الْخُبْزِ وَالْتَبِيدِ ؛ وَكَانَتْ الْإِشَارَةُ الَّتِي يَحْتَمُّ بِهَا عِيْدُهُ هِيَ دَقَاتُ نَاقُوسٍ . وَكَانَ يُحْتَفَظُ عَلَى

الدَّوَامِ بِنَارٍ مُتَّقَدَةٍ أَمَّا الْقَبُورُ الَّذِي يُمَثِّلُ فِيهِ آِلَآةُ الشَّابِّ يَطْعَنُ الثَّوْرَ بِخَنْجَرِهِ . وَكَانَ الدِّينُ الْمِثْرَاسِيُّ يَحْضُرُ

عَلَى الْخُلُقِ الْكَرِيمِ ، وَيَطْلُبُ إِلَى "جَنُودِهِ" إِلاَّ يَنْقَطِعُوا طُولَ حَيَاتِهِمْ عَنْ مُحَارَبَةِ الشَّرِّ فِي جَمِيعِ أَنْوَاعِهِ .

وَيَقُولُ كَهَنَتُهُ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ سَيَحْشَرُونَ لَأَ مَحَالَةَ إِمَامِ مِثْرَاسِ لِيُحْكَمَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ تَسَلَّمَ الْأَرْوَاحُ الدَّنَسَةُ إِلَى

أهرمان لُعَذِبَ عَلَى يَدَيْهِ عَذَابًا أَبَدِيًّا ، أَمَّا الْأَرْوَاحُ الطَّاهِرَةُ فَتَرْتَفِعُ خِلَالَ طَبَاقِ سَبْعَةٍ حَتَّى تَصِلُ إِلَى
بِهَاءِ السَّمَاءِ حَيْثُ يَسْتَقْبِلُهَا أَهْرَاقُ مَزْدَا نَفْسِهِ . وَاتَّشَرَّتْ هَذِهِ الْأَسَاطِيرُ الَّتِي تُبْعَثُ فِي نَفْسِ أَصْحَابِهَا
الْأَمَلِ وَالْقُوَّةِ فِي الْقَرْنَيْنِ الثَّانِيِ وَالثَّلَاثِ مِنَ التَّارِيخِ الْمِيلَادِيِّ فِي غَرْبِي آسِيَةِ ، وَانْتَقَلَتْ مِنْهُ إِلَى أَوْرُبَا
(مَتْخَطِيَةِ بِلَادِ الْيُونَانِ) ، وَشَادَتْ مَعَابِدَهَا مُتَّجِهَةً نَحْوَ الشَّمَالِ حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى سُورِ هَدْرِيَانَ .

الشَّعْوَذَةُ وَالْمُبَشِّرِينَ

إِلَى جَانِبِ هَؤُلَاءِ الْمَشْعُودِينَ آلَافٌ مِنَ الْمُبَشِّرِينَ الْمُخْلِصِينَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْعَقَائِدِ الْوَثْنِيَّةِ . وَقَدْ صَوَّرَ
فِيلُوسْتَرَاتَسُ فِي أَوَائِلِ الْقَرْنِ الثَّلَاثِ صُورَةَ مِثَالِيَّةٍ لِأَحَدِ هَؤُلَاءِ الْمُبَشِّرِينَ فِي كِتَابِهِ حَيَاةِ أَبُولُونِيُوسِ
الْتِيَانَايِ ؛ فَوَصَفَهُ بِأَنَّهُ حِينَ بَلَغَ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِ قَيَّدَ نَفْسَهُ بِقِيُودِ الْإِخْوَانَ الْفِيثَاغُورِيِّينَ
الصَّارِمَةِ ، فَحَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ الزَّوْاجَ ، وَأَكَلَ اللَّحْمَ ، وَشَرِبَ الْخَمْرَ ، وَلَمْ يَخْلُقْ لِخَيْتِهِ قَطًّا ، وَامْتَنَعَ عَنِ
الْكَلَامِ خَمْسِ سِنِينَ كَامِلَةٍ ، وَوَزَعَ الْمَالِ الَّذِي تَرَكَهُ وَالِدُهُ عَلَى أَقَارِبِهِ ، وَأَخَذَ يَطُوفُ ، كَمَا يَطُوفُ
الرُّهْبَانُ الْمَعْدُمُونَ ، فِي فَارِسَ وَمِضَرَ ، وَغَرْبِي آسِيَةِ ، وَبِلَادِ الْيُونَانَ ، وَإِيطَالِيَا ؛ وَاتَّقَنَ عُلُومَ الْمَجُوسِ ،
وَالْبَرَاهِمَةِ ، وَالزَّهَادِ الْمِضْرِيِّينَ . وَكَانَ يُرُورُ هِيَآكِلَ الْأُذْيَانِ عَلَى اخْتِلَافِهَا ، وَيَدْعُو كَهْنَتَهَا إِلَى الْإِمْتِنَاعِ عَنِ
التَّضْحِيَةِ بِالْحَيَوَانَ ، وَيَعْبُدُ الشَّمْسَ ؛ وَيُؤْمِنُ بِجَمِيعِ الْأَلِهَةِ ، وَيُعَلِّمُ النَّاسَ أَنَّ مَنْ وَرَائِهَا كُلُّهَا إِلَهُ وَاحِدٌ
أَعْلَى لَا يُحِيطُ بِهِ الْعُقْلُ ، وَكَانَتْ حَيَاةُ التَّقَى وَإِنْكَارِ الذَّاتِ الَّتِي فَرَضَهَا عَلَى نَفْسِهِ مِمَّا جَعَلَ اتِّبَاعَهُ
يَدْعُونَ أَنَّهُ ابْنُ إِلَهٍ ، أَمَّا هُوَ فَلَمْ يَكُنْ يَصِفُ نَفْسَهُ بِأَكْثَرِ مِنْ أَنَّهُ ابْنُ أَبُولُونِيُوسِ . وَتَعَزَّوْا إِلَيْهِ الرُّوَايَاتِ
الْمُتَوَاتِرَةَ كَثِيرًا مِنَ الْمُعْجَزَاتِ : فَقَدْ كَانَ النَّاسُ يَقُولُونَ إِنَّهُ مِنْ خِلَالَ الْأَبْوَابِ الْمَغْلَقَةِ ، وَيُنْفِثُ جَمِيعَ
اللُّغَاتِ ، وَيَطْرُدُ الشَّيَاطِينَ ، وَأَنَّهُ رَفَعَ بِنْتًا مِنْ بَيْنِ الْأَمْوَاتِ . لَكِنَّهُ فِي وَاقِعِ الْأَمْرِ كَانَ فِيلُوسُوفًا أَكْثَرَ مِنْهُ

ساحراً ، يُعَرِّفُ الأَدَبَ اليُونَانِي وَيُحِبُّهُ ، وَيَدْعُو إِلَى مَبَادِي أَخْلَاقِيَّةٍ بَسِيطَةٍ وَلَكِنَّهَا صَارِمَةٌ . وَكَانَ يُوسِّلُ إِلَى الآلِهَةِ بِقَوْلِهِ : "عَلِمَنِي أَلَّا يَكُونُ لِي أَلَّا القَلِيلُ وَإِلَّا أَرُغِبُ فِي شَيْءٍ" وَلَمَّا سَأَلَهُ أَحَدُ المُلُوكِ أَنَّ يُخْتَارَ لِنَفْسِهِ هَدِيَّةً يُهْدِيهَا إِلَيْهِ أَجَابَهُ بِقَوْلِهِ : "الفاكهة اليابسة والحبز" . وَكَانَ يُبَشِّرُ بِتَجَسُّدِ الرُّوحِ بَعْدَ مُفَارَقَتِهَا الجَسَدِ ، وَلِهَذَا أَمَرَ اتِّبَاعَهُ إِلا يُوذُوا مَخْلُوقاً حَيّاً ، وَإِنْ يَمْتَنِعُوا عَنْ أَكْلِ اللِّحْمِ ؛ وَحَضَّهُمْ عَلَى تَجَنُّبِ العَدَاءِ ، وَأَغْيَابِ النَّاسِ ، وَالغَيْبَةِ ، وَالكَرَاهِيَةِ ؛ وَمَنْ أَقْوَالِهِ لَهُمْ : "إِذَا كُنَّا فَلَاسِفَةً ، فَلَنْ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَكْرَهُ بَنِي جَنسِنَا" . وَيَقُولُ فيلوسُترَاسُ أَنَّهُ "كَانَ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ يُنَاقِشُ المَبَادِي الشُّيُوعِيَّةَ وَيُعَلِّمُ النَّاسَ أَنَّ مَنْ وَاجِبُهُمْ أَنْ يُعَيِّنَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً" . وَلَمَّا أَتَاهُمْ بِأَنَّهُ يُبَشِّرُ بِتَمَيُّنِ الفِتْنَةِ ، وَيُعَلِّمُ النَّاسَ السَّحْرَ ، جَاءَ طَائِعاً إِلَى رُومًا يُبَشِّرُ نَفْسَهُ إِمامَ دُومِثِيانَ مِنْ هَاتَيْنِ التَّهْمَتَيْنِ ، فَسُجِنَ ، وَلَكِنَّهُ قَرَّ مِنْ سِجْنِهِ . وَمَاتَ حَوَالِي سَنَةِ 98م . بَعْدَ أَنْ عَمَّرَ طَوِيلًا . وَادَّعَى اتِّبَاعُهُ أَنَّهُ ظَهَرَ لَهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِ وَأَنَّهُ رَفَعَ بَعْدَئِذٍ إِلَى السَّمَاءِ .

تَرَى مَا هِيَ الصِّفَاتُ الَّتِي جُعِلَتْ نِصْفَ رُومًا وَنِصْفَ الإمبراطوريةَ يَنْضَوِيانَ تَحْتَ الأَوِيَّةِ هَذِهِ الأَدْيَانِ الجَدِيدَةِ ؟ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ مَا تَنْظُوِي عَلَيْهِ هَذِهِ الأَدْيَانِ مِنْ عَدَمِ التَّفَرُّقَةِ بَيْنَ الأَجْنَاسِ وَالطَّبَقَاتِ ؛ فَقَدْ كَانَتْ تُقْبَلُ بَيْنَ اتِّبَاعِهَا خَلَائِقَ مِنْ جَمِيعِ الأُمَّمِ ، وَجَمِيعِ الأَحْرَارِ ، وَجَمِيعِ الأَرْقَاءِ ، وَلَا تُقْبَلُ بِالأَلَى مَا بَيْنَ النَّاسِ مِنْ فُرُوقٍ فِي الأَنْسَابِ أَوْ الثَّرَاءِ ، وَكَانَ هَذَا مِنْ أَسْبَابِ السَّلْوىِ لَهُؤُلَاءِ الاتِّبَاعِ . وَقَدْ بُنِيَتْ هِيَائِهَا بِحَيْثُ تَسَعَّ لِكُلِّ مَنْ يَوْمِهَا مِنَ الخَلَائِقِ العِبَادِ وَالمَلَأَةِ المَعْبُودِ . وَكَانَتْ سِيبِيلُ وَإِيزِيسُ الهَتِينِ آمِينَ تَأْكُلَتَيْنِ ذَاقَتَا مَرَارَةَ الحُزْنِ كَمَا ذَاقَتْهُ مِلايِينُ الأُمَّهَاتِ الثَّاكِلَاتِ ، وَكَانَ فِي مَقْدُورِهِمَا أَنْ تَدْرِكَا مَا لَأَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَدْرِكَهُ الآلِهَةُ الرُّومَانِيَّةُ- إِلا وَهُوَ فَرَاغَ قُلُوبِ المَغْلُوبِينَ . أَنَّ الرُّغْبَةَ فِي العُودَةِ إِلَى أَحْضَانِ الأُمَّ

أَقْوَى مِنْ غَرِيْزَةِ الْاِعْتِمَادِ عَلَى الْاَبِ ، وَاسْمُ اَلْاُمِّ هُوَ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ اِلَى الشَّفَقَتَيْنِ اِذَا مَا صَادَفَ الْاِنْسَانَ سُرُورٌ عَظِيْمٌ اَوْ حَلَتْ بِهِ كَارِثَةٌ اَلِيْمَةٌ . وَمِنْ اَجْلِ هَذَا كَانَ النَّاسُ رِجَالَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ عَلَى السَّوَاءِ يَجِدُوْنَ لَهُمْ سَلْوَى وَمَلْجَأً فِي اِيْزِيْسٍ وَسِيْبِيْلٍ ، بَلْ اِنْ الْعَابِدِ التَّقِيَّ فِي بِلَادِ الْبَحْرِ الْاَبْيَضِ الْمَوْسَطِ فِي هَذِهِ الْاَيَّامِ يَلْجَأُ اِلَى مَرْيَمَ اَكْثَرَ مِمَّا يَلْجَأُ اِلَى الْاَبِ اَوْ الْاُمِّ ، وَاِنَّ الصَّلَاةَ الْحَبِيْبَةَ الَّتِي يُرَدِّدُهَا اَكْثَرَ مِنْ سَائِرِ الصَّلَاةِ هِيَ الصَّلَاةُ الَّتِي لَا يُوجِّهُهَا اِلَى الْعُذْرَاءِ بَلْ اِلَى الْاُمِّ الَّتِي بُورِكَ فِيهَا بِمَنْ وُلِدَتْ مِنْ بَطْنِهَا .

وَلَمْ تَكُنْ قُوَّةَ الْاَدْيَانِ الْجَدِيْدَةِ مَقْصُوْرَةً عَلَى اَنِّهَا اَعْمَقُ اَثْرًا فِي قُلُوْبِ النَّاسِ بَلْ كَانَ مِنْ اَسْبَابِ قُوَّتِهَا فَوْقَ ذَلِكَ اَنِّهَا اَعْظَمُ اَثْرًا فِي خَيَالِ النَّاسِ وَحَوَاسِمِهِمْ لِمَا فِيهَا مِنْ مَوَاقِبَ ، وَتِرَانِيْمٍ ، تَنْقَلُ مِنَ الْحُزْنِ اِلَى السُّرُورِ ، وَمَا تَحْتَوِيهِ مِنْ طَقُوسِ ذَاتِ رُمُوزٍ تَنْطَلِعُ فِي الْخَيَالِ وَتَبْعَثُ الشَّجَاعَةَ مِنْ جَدِيْدٍ فِي النُّفُوسِ الَّتِي اَنْقَلَبَتْ اِلَى الْحَيَاةِ الرَّيْبِيَّةِ الْمَمْلَةِ . وَلَمْ تَكُنْ مَنَاصِبَ الْكِهَانَةِ الْجَدِيْدَةِ يَمْلُؤُهَا سَاسَهُ يَرْتَدُونَ الْبِيَابَ الْكَهْنُوْتِيَّةَ مِنْ حِيْنٍ اِلَى حِيْنٍ ، بَلْ كَانَ يَشْغُلُهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ مِنْ كَافَّةِ الطَّبَقَاتِ ، يَتَدَرَّجُونَ فِيهَا مِنْ الْمُبْتَدِيِّ الْمَقْشَفِ الرَّاهِدِ اِلَى الْخَادِمِ الدِّيْنِيِّ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ عَنْ مُوَاسَاةِ النَّاسِ . وَكَانَ فِي مَقْدُوْرِ الرُّوحِ الَّتِي تُدْرِكُ مَا ارْتَكَبْتُهُ مِنْ ذُنُوْبٍ اَنْ تَطْهَرَ مِنْهَا ، وَكَانَ يُسْتَطَاعُ فِي الْاَحْيَانِ شِفَاءُ الْجِسْمِ الَّذِي اَنْهَكَهُ الْعِلَّةُ ، بِكَلِمَةٍ اَوْ طَقْسٍ مَوْجٍ ؛ وَكَانَتْ الْمَرَاسِمُ السَّرِيَّةُ الْخَفِيَّةُ الَّتِي يَمَارِسُونَهَا تَرْمِزٌ اِلَى مَا يَرَدُّدُ فِي صُدُوْرِ النَّاسِ مِنْ رَجَاءٍ فِي اَنْ يَتَغَلَّبُوا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى الْمَوْتِ نَفْسِهِ .

لَقَدْ سَمَّا النَّاسُ فِي وَقْتٍ مِنْ الْاَوْقَاتِ بِمَا كَانُوا يَتَوَقَّعُونَ لَهُ مِنْ عَظْمِهِ وَخُلُوْدِهِ ، فَجَعَلُوْهُمَا مَرْتَبَطِيْنِ بِمَجْدِ الْاَسْرَةِ وَالْقَبِيْلَةِ وَالْاِنْتِقَاءِ عَلَيْهِمَا ، ثُمَّ اَنْتَقَلُوا بِهِمَا اِلَى مَجْدِ الدَّوْلَةِ الَّتِي كَانَتْ مِنْ صُنْعِهِمْ وَالَّتِي هِيَ نَفْسُهُمْ

مُجْتَمَعَةٌ . أَمَّا فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَحَدَّثَتْ فَكَانَتْ الْحُدُودُ الْفَاصِلَةَ بَيْنَ الْقَبَائِلِ تَذُوبٌ فِي حَرَكَةِ السَّلْمِ الْجَدِيدِ ، وَلَمْ تَكُنْ الدَّوْلَةُ الْإِمْبْرَاطُورِيَّةُ تُعْبَرُ إِلَّا عَنِ الطَّبَقَاتِ الْعُلْيَا السَّائِدَةِ ، وَلَمْ تَكُنْ تَمَثِّلُ جَمَاهِيرُ الشَّعْبِ الَّتِي لَا حَوْلَ لَهَا وَلَا طَوْلَ . وَكَانَ عَلَى رَأْسِ الدَّوْلَةِ مَلِكِيَّةٌ مُطْلَقَةٌ تَحَوَّلَ بَيْنَ الْمَوَاطِنِ وَبَيْنَ اندماجهِ فِيهَا وَاشْتِرَاكِهِ فِي أَعْمَالِهَا ، وَكَانَتْ تَخْلُقُ بَعْمَلِهَا هَذَا الْفُرْدِيَّةَ فِي أَسْفَلِهَا وَتَشِيَعُهَا بَيْنَ الدَّهْمَاءِ مِنَ السُّكَّانِ ، وَكَانَ مَا فِي الْأَذْيَانِ الشَّرْقِيَّةِ وَمَا فِي الْمَسِيحِيَّةِ ، الَّتِي أَخَذَتْ مِنْهَا خُلَاصَتَهَا ثُمَّ امْتَصَّتْهَا وَقَضَتْ عَلَيْهَا مِنْ وَعَدَ بِالْخُلُودِ الشَّخْصِيِّ ، وَبِالسَّعَادَةِ الدَّائِمَةِ بَعْدَ حَيَاةِ الْمَدْلَةِ ، وَالْفَاقَةِ ، وَالْمِحْنِ ، وَالْكَدْحِ ، كَانَ هَذَا كُلُّهُ إِغْرَاءً لَا تَسْتَطِيعُ الدَّهْمَاءُ مُقَاوَمَتَهُ ، وَلَاحَ أَنْ الْعَالَمَ كُلَّهُ أَخَذَ يَمِيلُ إِلَى الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

الدِّيَانَةُ الْيُونَانِيَّةُ الْقَدِيمَةُ (الْإِغْرِيْقِيَّةُ)

تَشْمَلُ الدِّيَانَةُ الْإِغْرِيْقِيَّةُ الْقَدِيمَةُ مَجْمُوعَهُ مِنَ الْمُعْتَقَدَاتِ وَالطَّقُوسِ وَالْأَسَاطِيرِ الَّتِي نَشَأَتْ فِي الْيُونَانَ الْقَدِيمَةَ فِي هَيْئَةٍ دِيْنِيَّةٍ الْعَامَّةِ الْمَفْضَلِ وَمُمَارَسَاتِ الطَّوَائِفِ . عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ مُعْظَمَ الْمُعْتَقَدَاتِ وَالطَّقُوسِ كَانَتْ مُشَابِهَةً بِشَكْلِ كَثِيرٍ ، إِلَّا أَنَّهَا اخْتَلَفَتْ بِمَا فِيهِ الْكُفَايَةُ حَتَّى يُمَكِّنُ التَّحَدُّثُ عَنِ الْأَذْيَانِ الْيُونَانِيَّةِ أَوْ « الطَّوَائِفِ » فِي صِيغَةِ الْجَمْعِ .

عُرِفَ مُعْظَمُ الْإِغْرِيْقِيِّ الْقَدَمَاءِ الْآلِهَةِ وَالْإِلَهَاتِ الْإِثْنَيْ عَشَرَ الْأَوْلَمْبِيُونِ : (زِيُوسُ ، هِيرَا ، بوسيدون ، ديميتير ، أثينا ، آريز ، أفروديت ، أبولو ، آرتميس ، هيفايستوس ، هيرميز ، وَأَمَّا هِيستيا أَوْ ديونيسوس) . عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْفَلْسَفَاتِ مِثْلَ الرَّوَاقِيَّةِ وَبَعْضِ إِشْكَالِ الْأَفْلَاطُونِيَّةِ تُسْتَحْدَمُ لُغَةً يَبْدُو أَنَّهَا تَحْمِلُ إِلَهَا

واحدًا متعالمًا ، فغالبًا ما كانت المُدُنُ المُخْتَلَفَةُ تَعْبُدُ نَفْسَ الْإِلَهَةِ ، وأحيانًا بكنية تميزهم وتحدد طبيعتهم المحلّية .

الْإِلَهِيَّات

كَانَتِ الْإِلَهِيَّاتُ الْإِغْرِيْقِيَّةُ الْقَدِيْمَةُ شَائِعَةً ، وَذَلِكَ اسْتِنَادًا إِلَى افْتِرَاضِ وُجُودِ الْعَدِيْدِ مِنَ الْإِلَهَةِ وَالْإِلَهَاتِ .
كَانَ تَرْتِيْبُ الْإِلَهَةِ هَرْمِيًّا فِي الْآسَاسِ ، حَيْثُ يَعْلوهُ مَلِكُ الْإِلَهَةِ زِيوس ، وَالَّذِي لَدَيْهِ السَّيْطَرَةُ الْمُطْلَقَةُ عَلَى جَمِيْعِ الْإِلَهَةِ الْآخَرِيْنَ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ الْجَبَّارَ الْمَسِيْطِرَ . كَانَ لِبَعْضِ الْإِلَهَةِ السِّيَادَةُ عَلَى جَوَانِبِ مُعَيَّنَةٍ مِنَ الطَّبِيْعَةِ . فَعَلَى سَبِيْلِ الْمِثَالِ ، كَانَ زِيوس إِلَهَ السَّمَاءِ ، حَيْثُ بِإِمْكَانِهِ إِرْسَالُ الرَّعْدِ وَالْبُرْقِ ، كَانَ بوسيدون حَاكِمَ الْبَحَارِ وَالزَّلَازِلِ ، وَهِيْمَنْتُ قُوَّةُ هَادِيْسِ الْإِلَاقَةِ فِي جَمِيْعِ أَنْحَاءِ عَوَالِمِ الْمَوْتِ وَالْعَالَمِ السُّفْلِيِّ ، كَمَا كَانَ يَسِيْطِرُ هِيْلِيوسُ عَلَى الشَّمْسِ . سَيْطَرَتِ الْإِلَهَةُ الْآخَرَى عَلَى الْمَفَاهِيْمِ الْمَجْرَدَةِ . عَلَى سَبِيْلِ الْمِثَالِ كَانَتْ أَفْرودِيْتِ الْمَسِيْطَرَةُ عَلَى الْحُبِّ . تَمَّ تَصْوِيْرُ كُلِّ الْإِلَهَةِ الْهَامَّةِ عَلَى أَنَّهَا « أَنْسَانِيَّةٌ » فِي الشَّكْلِ ، رَغْمَ أَنَّهُ بِإِمْكَانِ الْإِلَهَةِ التَّحَوُّلُ إِلَى حَيَوَانَاتٍ أَوْ ظَوَاهِرٍ طَبِيْعِيَّةٍ .
عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كَوْنِهَا خَالِدَةً ، إِلَّا أَنَّ الْإِلَهَةَ لَمْ تَكُنْ بِالتَّأَكِيْدِ كُلُّهَا مُحَسَّنَةً أَوْ حَتَّى قَوِيَّةً . كَانَ عَلَى الْإِلَهَةِ أَنْ يُطْبِعُوا الْقَدْرَ ، الْمَعْرُوفِيْنَ فِي الْمِيْثُولُوجِيَا الْإِغْرِيْقِيَّةِ بِاسْمِ مَوِيْرَايِ ، وَالَّتِي تَجَاوَزَ قُدْرَاتِهِمُ الْإِلَهِيَّةَ أَوْ إِرَادَتِهِمْ . عَلَى سَبِيْلِ الْمِثَالِ ، فِي إِحْدَى قِصَصِ الْمِيْثُولُوجِيَا ، كَانَ مَصِيْرُ أُوْدِيْسِيوسَ أَنْ يَعْوْدَ إِلَى مَوْطِنِهِ إِثَاكَا بَعْدَ حَرْبِ طَرْوَادَةِ ، وَكَانَ بِإِمْكَانِ الْإِلَهَةِ فَقطُ إِذْ تُطْبِلُ رِحْلَتَهُ وَتُجْعَلُ الْأَمْرُ أَكْثَرَ صُعُوبَةً بِالنَّسْبَةِ لَهُ ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا مَنَعَهُ .

تَصَرَّفَتِ الْإِلَهَةُ مِثْلَ الْبَشَرِ وَكَانَ لَدَيْهِمْ رَدَائِلُ بَشَرِيَّةٍ . كَانُوا يَتَوَاصَلُونَ مَعَ الْبَشَرِ ، وَفِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ
يَنْجَبُونَ الْأَطْفَالَ مِنْهُمْ . فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ كَانَتْ بَعْضُ الْإِلَهَةِ تَعَارِضُ بَعْضَهَا الْبَعْضُ ، مُحَاوَلَةَ التَّقْوُقِ عَلَى
بَعْضِهِمُ الْبَعْضُ . فِي الْإِلْيَاذَةِ ، كَلَّا مِنْ أَفْرودَيْتِ وَآرِيْزِ وَأَبُولُو دَعَمَا جَانِبِ طِرْوَاذَةِ فِي حَرْبِ طِرْوَاذَةِ ،
بَيْنَمَا دَعَمَ كُلُّ مَنْ هِيرَا وَأَثِينَا وَبُوسِيدُونِ الْإِغْرِيقِ .

ارْتَبَطَتْ بَعْضُ الْإِلَهَةِ بِشَكْلِ خَاصٍّ بِمَدِينَةٍ مُعَيَّنَةٍ . كَمِثَالِ : ارْتَبَطَتْ أَثِينَا بِمَدِينَةِ أَثِينَا ، وَأَبُولُو مَعَ دَلْفِي
وَدِيلُوسُ زِيُوسَ مَعَ أُولِيمْبِيَا وَأَفْرودَيْتِ مَعَ كُورِنْثِ . ارْتَبَطَتْ إِلَهَةٌ أُخْرَى مَعَ دُولُ خَارِجِ الْيُونَانِ . حَيْثُ
كَانَ بُوسِيدُونُ مَرْتَبَطًا بِأَثِينَا وَطِرْوَاذَةِ ، وَكَانَ آرِيْزُ مَرْتَبَطًا بِتْرَاقِيَا .

هُوَ يَهِيَ الْأَسْمَاءُ لَمْ تَكُنْ ضَمَانًا لِطَائِفَةٍ مُشَابِهَةٍ ، كَانَ الْإِغْرِيقُ أَنْفُسِهِمْ يُدْرِكُونَ جِيدًا أَنْ أَرْتَمِيْسَ كَانَ يُعْبَدُ فِي
أَسْبْرَطَةَ عَلَى أَنَّهَا الصِّيَادَةُ الْعُذْرَاءُ ، كَانَتْ إِلَهَا مَحْتَلَفًا لِلْغَايَةِ عَنْ أَرْتَمِيْسِ الَّتِي كَانَتْ إِلَهَةُ طَقُوسِ الْخُصُوبَةِ
فِي أَفْسَسِ . عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ عُبَادَةَ الْإِلَهَةِ الرَّئِيسِيَّةِ انْتَشَرَتْ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخِرِ ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ
مُعْظَمَ الْمُدُنِ الْكَبِيرَةِ كَانَتْ تُضَمُّ مَعَابِدَ لِإِلَهَةٍ كَبِيرَةٍ ، إِلَّا أَنَّ التَّعْرِفَ عَلَى إِلَهَةٍ مُخْتَلَفَةٍ بِأَمَاكِنِ مُخْتَلَفَةٍ ظَلَّ
مَوْجُودًا حَتَّى وَقْتُ طَوِيلٍ .

الْحَيَاةُ الْآخَرَى

اعْتَقَدَ الْإِغْرِيقُ فِي وُجُودِ عَالَمٍ سُفْلِيٍّ حَيْثُ تَذْهَبُ إِلَيْهِ أَرْوَاحُ الْمَوْتَى بَعْدَ الْمَوْتِ . وَاحِدَةً مِنْ أَكْثَرِ
الْمَنَاطِقِ انْتَشَرًا فِي هَذَا الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ كَانَ يُحْكِمُهُ هَادِيْسُ ، شَقِيْقُ زِيُوسِ ، وَكَانَ هَذَا الْمَكَانُ يُعْرَفُ
بِاسْمِ هَادِيْسِ (يَسْمَى فِي الْأَصْلِ « مَكَانَ هَادِيْسِ ») . الْمُنْطَقَةُ الْمَعْرُفَةُ الْآخَرَى هِيَ تَارْتَارُوسُ ،
مَكَانَ الْعَذَابِ لِلْمُدْنِيِّينَ ، وَالْيَسِيُونِ ، مَكَانَ الْمَلَدَّاتِ لِلطَّيْبِيِّينَ . فِي أَوَائِلِ الدِّيَانَةِ الْمِيْسِيْنِيَّةِ كَانَ جَمِيعُ

الموتى يذهبون إلى هاديس ، لكن صعود الطقوس الغامضة في العصر القديم أدى إلى ظهور أماكن مثل تارتاروس واليسيون .

بعض اليونانيين ، مثل أخيل ، الكمين ، أمفiras ، غانيمادس ، إينو ، مالشيتيز ، مينلاوس ، بيليوس ، وعدد كبير من الذين قاتلوا في حروب طروادة وثيفا ، تم إعتراهم مخلدين جسديًا وجلبوا للعيش إلى الأبد أما في اليسيون أو جزيرة المباركين أو الجنة أو المحيط أو تحت الأرض . يتم العثور على هذه المعتقدات في أقدم مصادر يونانية ، مثل هوميروس وهسيودوس . هذا الاعتقاد بقي قويًا حتى في العصر المسيحي . بالنسبة لمعظم الناس في لحظة الموت ، لم يكن هناك أي أمل في أي شيء سوى استمرار الوجود كنفس بلا جسد .

بعض اليونانيين ، مثل الفلاسفة فيثاغورس وأفلاطون ، تبنا فكره تناسخ الأرواح ، على الرغم من أن هذا لم يقبل إلا من قبل عدد قليل . اعتقد إبيقور أن النفس كانت ببساطة ذرات والتي تذوب عند الموت ، لذلك لم يكن هناك وجود بعد الموت .

المثولوجيا

لدى الديانة اليونانية مثولوجيا واسعة . تتألف إلى حد كبير من قصص الآلهة وكيف تفاعلوا مع البشر . غالبًا ما كانت الأساطير تدور حول الأبطال وأفعالهم ، مثل هرقل والأثني عشر عملاً ، أوديسيوس ومنزلة المرتحل ، وجاسون وبخه عن الصوف الذهبي ويسيوس ومينوتور .

ظهرت العديد من الأنواع في الأساطير اليونانية . كان من بين هؤلاء الآلهة والبشر ، على الرغم من أن التيتان (الذين سبقوا الآلهة الأولمبية) ظهرُوا أيضًا في الأساطير اليونانية . الأنواع الأقل شملت القنطور

وَهُوَ نِصْفُ رَجُلٍ نِصْفَ خَيْلٍ ، الْحَوْرَاءُ الْمُمَثِّلِينَ لِلطَّبِيعَةِ (حوراء الشجر تُسمى الجنيّة ، الحوريات
البحريّة تُسمى نيريد) وَنِصْفُ الرَّجُلِ نِصْفَ مَا عَزَّ وَالَّذِي يُسَمَّى سَاتِير . كَانَتْ بَعْضُ الْمَخْلُوقَاتِ فِي
الْأَسَاطِيرِ الْيُونَانِيَّةِ وَحَشِيَّةً ، مِثْلَ سَايْكَلُوبِ الْعِمْلَاقِ ذَا الْعَيْنِ الْوَاحِدَةِ ، وَحُشِّ الْبَحْرِ سُلْمًا ، وَالِدَوَامَةِ
كَارِبِيدِيس ، غُورغُون ، الْمِينُوتُورِ وَهُوَ نِصْفُ رَجُلٍ نِصْفَ ثُورٍ .

لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ اجْتِمَاعٌ يُونَانِيٌّ عَلَى نَشْأَةِ الْكُونِ ، أَوْ أُسْطُورَةِ الْخَلْقِ . اعْتَقَدَتِ الْجَمَاعَاتُ الدِّيْنِيَّةُ
الْمُخْتَلِفَةُ أَنَّ الْعَالَمَ قَدْ تَمَّ إِنشَاؤُهُ بِطَرِيقٍ مُخْتَلِفَةٍ . تَمَّ ذِكْرُ أُسْطُورَةِ خَلْقِ يُونَانِيَّةٍ وَاحِدَةٍ فِي ثِيُوغُونِيَا وَالَّذِي
كَتَبَهَا هَسِيُود . ذَكَرَتْ أَنَّهُ فِي الْبِدَايَةِ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ سِوَى الْآلَةِ الْبِدَائِيَّةِ الَّذِي يُدْعَى كَاوس ، الَّذِي أَنْجَبَ
الْعِدِيدَ مِنَ الْآلِهَةِ الْبِدَائِيَّةِ الْآخَرَى ، مِثْلَ غَايَا وَتَارْتَارُوسِ وَإِيُروس ، الَّذِينَ أَنْجَبُوا بَعْدَ ذَلِكَ الْمَزِيدَ مِنَ الْآلِهَةِ
، التِيَانِ ، الَّذِينَ وُلِدُوا بَعْدَ ذَلِكَ الْأُولَمِبِيِّينَ الْأَوَّالِ .

نَجَتْ الْأَسَاطِيرُ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ وَأُضِيفَتْ مِنْ أَجْلِ تَشْكِيلِ الْأَسَاطِيرِ الرَّومَانِيَّةِ الْلَاْحِقَةِ . كَانَ الْإِغْرِيقُ
وَالرُّومَانُ مُجْتَمَعِينَ يَعْرِفُونَ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْأَسَاطِيرِ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ مِشَارِكَتِهَا فِي الْبِدَايَةِ
شَفْهِيًا ، تَمَّ تَدْوِينُهَا فِي إِشْكَالٍ مِنَ الشَّعْرِ الْمَلْحَمِيِّ (مِثْلَ الْإِلْيَاذَةِ ، الْأُودِيسَةِ وَالْأَرْجُونُوتِيكَا)
وَالْمَسْرُوحِيَاتِ (مِثْلَ الْبَاكُوسِيَاتِ لِيُورِبِيدِيسِ وَمَلْهَاةِ الضَّفَادِعِ لَأَرِيَسْتُوفَانِ) . أَصْبَحَتْ الْأَسَاطِيرُ شَائِعَةً
فِي أُرُوبَا الْمَسِيحِيَّةِ بَعْدَ عَظْرِ النَّهْضَةِ ، حَيْثُ كَانَتْ تُسْتَحْدَمُ فِي الْغَالِبِ كَأَسَاسٍ لِأَعْمَالِ فَنَانِينَ مِثْلِ
بُوتِيَتَشِيلِي وَمِيكِيْلَانْجِيلُو وَرُونَسِ .

الْأَخْلَاقُ

وَاحِدَةٍ مِنْ أَهَمِّ الْمَفَاهِيمِ الْأَخْلَاقِيَّةِ لِلْيُونَانِيِّينَ كَانَ الْخَوْفُ مِنْ ارْتِكَابِ خَطِيئَةِ التَّكْبَرِ . شَكْلُ التَّكْبَرِ
أَشْيَاءَ كَثِيرَةً ، مِنْ الْاِغْتِصَابِ إِلَى تَدْنِيْسِ الْجُثَّةِ ، وَكَانَ جَرِيْمَةً فِي دَوْلَةِ مَدِيْنَةِ أَثِيْنَا . عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ
التَّقَاخُرَ وَالْعُرُوْرَ لَمْ يَتِمَّ اِعْتِبَارُهُمَا خَطِيئَةً ، فَقَدْ اَكَّدَ الْيُونَانِيُّوْنَ عَلَى الْاِغْتِدَالِ . اَصْبَحَ التَّقَاخُرُ مُجْرَدَ
تَكْبَرٍ عِنْدَمَا يُصَلِّ إِلَيَّ اَقْصَى حِدَةٍ ، مِثْلُ أَيِّ خَطِيئَةٍ أُخْرِي . نَفْسُ الشَّيْءِ يَنْطَبِقُ فِي الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ .
أَيُّ شَيْءٍ تَمَّ الْقِيَامُ بِشَكْلِ مُفْرَطٍ لَا يُعْبَرُ مَنَاسِبًا . وَضَعَ الْيُونَانِيُّوْنَ الْقُدْمَاءَ ، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ ، أَهْمِيَّةَ
الْمَسَاوَاةِ فِي الْعَابِ الْقَوِي وَالْعَقْلِ . فِي الْوَاقِعِ الْعَدِيْدِ مِنَ الْمَسَابِقَاتِ شَمَلَتْ كُلَّ مِنَ التَّقَاخُرِ وَالْعُرُوْرِ .
لَكِنْ التَّقَاخُرُ لَا يُصْبِحُ خَطِيئَةً حَتَّى يُسْتَهْلَكَ صَاحِبِهِ أَوْ يُؤْذِي الْأُخْرَيْنَ .

النُّصُوصُ الْمُقَدَّسَةُ

لَمْ يَكُنْ لَدَى الْإِغْرِيْقِ نُّصُوصٌ دِيْنِيَّةٌ اَعْتَبَرُوْهَا مِنْ الْكُتُبِ الْمُقَدَّسَةِ « ذَاتِ الْأَصْلِ الْمُقَدَّسِ » ، وَلَكِنْ
النُّصُوصُ الْقَدِيْمَةُ جَدًّا بِمَا فِي ذَلِكَ الْإِلْيَاذَةُ وَالْأُوْدِيْسَةُ مِنْ تَأْلِيْفِ هُومِيْرُوسِ ، وَتِرَانِيْمِ هُومِيْرُوسِ (تَعْبَرُ
كَاتَاخُ مَتَاخِرُ الْيَوْمِ) ، ثِيُوغُونِيَا وَالْأَعْمَالُ وَالْأَيَّامُ مِنْ تَأْلِيْفِ هَسِيُوْدُوسِ ، وَالْقَصِيْدَةُ الْغِنَائِيَّةُ لِبَنْدَارِ ، تُعْبَرُ
لَهَا سَلْطَةٌ وَرُبَّمَا تَكُوْنُ مُصَدَّرُ الْهَامِّ عَادَةً مَا تَبْدَأُ بِاسْتِدْعَاءِ الْفَرَسَانِ لِإِلْهَامِهِمْ . أَرَادَ أَفْلَاطُونُ حَتَّى
اِسْتِبْعَادَ الْأَسَاطِيْرِ مِنْ حَالَتِهِ الْمَثَالِيَةِ الْمُصَوَّفَةِ فِي الْجُمْهُورِيَّةِ بِسَبَبِ لَهْجَتِهَا الْأَخْلَاقِيَّةِ الْمُنْخَفِضَةِ .

كَانَ الدِّيْنُ عَامِلًا مِنْ عَوَامِلِ التَّفْرِقَةِ بَيْنَ الْيُونَانِيِّينَ بِقَدْرِ مَا كَانَ فِي وَحْدَتِهِمْ . فَقَدْ كَانَ مِنْ وَّرَاءِ عِبَادَةِ آلِهَةِ
الْأَوْلِيْسِ الْعَامَةِ الْبَعِيْدَةِ ، وَهِيَ الْعِبَادَةُ الَّتِي كَانَ فِيهَا قَسْطٌ كَبِيْرٌ مِنَ الْأَدْبِ وَالْجَامِلَةِ ، عِبَادَةُ أَقْوَى مِنْهَا
لِلْآلِهَةِ وَالْقَوِي الَّتِي تَدِيْنُ بِالطَّاعَةِ لَزِيُوسِ . وَكَانَتِ النَّزْعَةُ الْاِنْفِصَالِيَّةُ الْقَبِيْلِيَّةُ وَالسِّيَاسِيَّةُ تَغْذِي الشَّرْكَ وَتَجْعَلُ
التَّوْحِيْدَ مَسْتَحِيلًا . فَقَدْ كَانَ لِكُلِّ أُسْرَةٍ فِي أَيَّامِ الْيُونَانِ الْقَدِيْمَةِ إِلَهًا الْخَاصِّ ، تَوْقَدُ لَهُ فِي الْبَيْتِ النَّارَ الَّتِي لَا

تنطفئ أبداً، وتقرب له القربان من الطعام والخمر قبل كل وجبة. وكان هذا الاقسام المقدس للطعام بين
الآدميين والآلهة أول الأعمال الدينية الأساسية التي تعمل في البيت. وكان المولد والزواج والموت تُخلع
عليها هالة من القداسة بالطقوس القديمة أمام النار المقدسة، وبهذه الطريقة كان الدين عاملاً في خلق
الشعر الصوفي وفي إكساب الحوادث الرئيسية في الحياة البشرية مسحة من الوقار أعانت على استقرارها
وثباتها. وكذلك كان لكل جماعة بطناً كانت أو عشيرة أو قبيلة أو مدينة إلهها الخاص، بها فكانت
مدينة أثينة تعبد الإلهة أثينا؛ والوسيس تعبد دمتر، وساموس تعبد هيرا، وإفسوس تعبد أرتميز،
وبوسيدونيا تعبد بوسيدون. وكان وسط المدينة وأعلى مكان فيها ضريح إلهها، وكان الاشتراك في
عبادة إلهها رمز مواطنيها وميزتهم والواجب المفروض عليهم. وإذا ما خرجت المدينة للحرب حملت
معها في مقدمة جيوشها صورة إلهها وشعاره، ولم تكن تخطو خطوة خطيرة إلا بعد استشارته بسؤاله عما
يخبئه الغيب لها. وكان لها عليه في نظير هذا أن يحارب في صفها، وكان يبدو لأهلها أحياناً أنه قد
يتجلى لهم في مقدمة الجيش أو فوق رماح الجنود. ولم يكن النصر مقصوراً على غلبة مدينة لمدينة بل كان
يشمل فوق ذلك غلبة إله لإله. وكانت المدينة، كما كانت الأسرة وكما كانت القبيلة، تحتفظ على الدوام
بنار مقدسة موقدة عند مذبح عام في بهو المدينة، ترمز لحياة منشئها وأبطالها القوية الخالدة؛ وكان
مواطنوها يجتمعون في مواسم معينة ليطلعوا جميعاً أما هذه النار. وكما كان أب الأسرة هو أيضاً
كاهنها، كذلك كان حاكم المدينة الأكبر أو أركانها كبير كهنة قبي الدولة، وكان الآلهة يخلع على
سلطانها وأعمالها كلها ثوباً من القداسة. وهكذا استحال الإنسان بفضل تجنيد الآلهة على هذا النحو
من صياد جوال إلى مواطن مُستقر.

وَحَرَّرَ الْإِسْتِقْلَالَ الْمَحَلِّيَّ خَيَالَ الْيُونَانِ الدِّينِيِّ مِنَ الْفُيُودِ فَأَخْرَجَ لِلْعَالَمِ أُسَاطِيرَ دِينِيَّةَ مُؤَفَّرَةً وَمَجْمُوعَهُ
 كَبِيرَةً مِنَ الْآلِهَةِ . فَكَانَ كُلُّ شَيْءٍ وَكُلُّ قُوَّةٍ فِي الْأَرْضِ أَوْ السَّمَاءِ ، وَكُلُّ نِعْمَةٍ أَوْ نِقْمَةٍ ، وَكُلُّ صِفَةٍ - وَهُوَ
 كَانَتْ رَذِيلَةً - مِنْ صِفَاتِ الْإِنْسَانِ ، تَمَثَّلُ لَهَا فِي صُورَةٍ بَشَرِيَّةٍ عَادَةً . وَلَيْسَ ثَمَّةَ دَيْنٍ يَقْرُبُ إِلَهَهُ مِنْ
 الْأَدَمِيِّينَ قَرَبَ آهَةِ الْيُونَانِ . وَكَانَ لِكُلِّ حِرْفَةٍ ، وَلِكُلِّ مِهْنَةٍ ، وَلِكُلِّ فَنٍّ ، إِلَهٌ خَاصٌّ أَوْ رِجَالٌ حَارِسُونَ ؛ بَلَّغَهُ
 هَذِهِ الْأَيَّامُ . وَكَانَ عِنْدَ الْيُونَانِ فَضْلًا عَنْ هَذَا شَيْطَانِينَ ، وَنِسَاءً مَجْنُوحَاتٍ ، وَإِلَهَةً انْتِقَامٍ ، وَجِنِّ ، وَأَرْبَابَ
 بَشَعَةَ الْمُنْظَرِ ، وَالْإِهَاتِ ذَوَاتِ صَوْتٍ شَجِيٍّ يَسْلُبُ الْعُقُولَ ، وَحُورٍ عَيْنٍ فِي الْبَحَارِ وَالْغَابِ لَا يُقَلُّ
 عَدَدُهُنَّ عَنْ سُكَّانِ الْأَرْضِ مِنَ الْأَدَمِيِّينَ . وَفِي هَذِهِ الْبِلَادِ بِنُوعٍ خَاصٍّ لَا تَبْقَى حَاجَةٌ لِلِسُّؤَالِ الْقَدِيمِ "هَلِ
 الدِّينِيُّ مِنَ وَضْعِ الْكَهَنَةِ ؟" . ذَلِكَ أَنَّ مَنْ غَيْرِ الْمُعْقُولِ إِنْ آتَى مُؤَامَرَةً يُدْبِرُهَا رِجَالُ الدِّينِ الْأَوَّلُونَ تَسْتَطِيعُ
 أَنْ تَخْرُجَ هَذِهِ الْكَثْرَةُ مِنَ الْآلِهَةِ . وَمَا مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ مِنْ أَكْبَرِ النِّعَمِ الَّتِي يَنْعَمُ بِهَا هَؤُلَاءِ الْأَقْوَامِ أَنَّ يَكُونَ
 لَهُمْ كُلُّ أَوْلِيَاءِ الْآلِهَةِ ، وَكُلُّ هَالَةِ الْقِصَصِ الْفَتَانَةِ السَّاحِرَةِ ، وَكُلُّ هَذِهِ الْأَضْرَحَةِ الْمُقَدَّسَةِ وَالْحَفَلَاتِ الْمَهِيْبَةِ
 الْمَرْحَةِ . لَقَدْ فَطَرَ الْإِنْسَانُ عَلَى أَنْ يُعْبَدَ آهَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ كَمَا فَطَرَ عَلَى الزَّوْجِ مِنْ نِسَاءٍ مُتَعَدِّدَاتٍ ، وَلَا يُقَلُّ
 عُمُرَ فِطْرَتِهِ الْأُولَى عَنْ فِطْرَتِهِ الثَّانِيَةِ ، لِأَنَّهَا تَوَاتَمَ كُلُّ الْمَوَاقِمِ مَا فِي الْعَالَمِ مِنْ تِيَارَاتٍ مُتَعَارِضَةٍ . وَإِنْ
 مَسِيحِيَّةَ الْبَحْرِ الْمُتَوَسَّطِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ لَا يُعْبَدُ فِيهَا إِلَهُ بِقَدْرِ مَا يُعْبَدُ فِيهَا الْأَوْلِيَاءُ وَالْقَدِيسُونَ . ذَلِكَ أَنَّ
 الشَّرْكَ هُوَ الَّذِي يُوجِي إِلَى حَيَاةِ السَّدَجِ .

بِالْأَسَاطِيرِ وَمَا فِيهَا مِنْ خَيَالٍ وَسُلُوبٍ ؛ وَيَهَبُ النَّفْسَ الذَّلِيلَةَ الْمُعْوَنَةَ وَالرَّاحَةَ وَاللِّتِينَ لَا تَجْرُؤُ عَلَى
 انْتِظَارِهَا مِنْ كَائِنٍ أَعْلَى رَهِيْبٍ بَعِيدٍ لَا تَسْتَطِيعُ الْوُصُولَ إِلَيْهِ .

وَقَدْ أَصْبَحَتْ هَذِهِ الْأَسَاطِيرُ الَّتِي نَشَأَتْ نَشْأَةً تَلْقَائِيَّةً مِمَّا فِي الْمَكَانِ وَمِمَّا لَدَى النَّاسِ مِنْ مَعَارِفٍ ، أَوْ
 كَانَتْ مِنْ وَضْعِ الشُّعْرَاءِ الدَّوَابِّينِ وَزَخْرَفِهِمْ ، أَصْبَحَتْ هَذِهِ الْأَسَاطِيرُ عَقِيدَةً الْيُونَانِ الْأَوَّلِينَ ، وَفَلَسَفَتِهِمْ
 ، وَآدَابِهِمْ ، وَتَارِيخِهِمْ ، جَمِيعاً . فَمِنْهَا اسْتَمَدُوا الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي زَيَّنُوا بِهَا مَزْهَرِيَاتِهِمْ ، وَهِيَ الَّتِي
 أَوْحَتْ إِلَى الْفَنَّانِينَ مَا لَا يُحْصَى مِنَ الرُّسُومِ ، وَالنَّمَاثِيلِ ، وَالنُّقُوشِ . وَقَدْ ظَلَّ النَّاسُ إِلَى آخِرِ أَيَّامِ
 الْحَضَارَةِ الْهِيلِينِيَّةِ يَخْلُقُونَ الْأَسَاطِيرَ ، بَلْ يَخْلُقُونَ الْإِلَهَةَ أَنْفُسَهَا ، رَغْمَ مَا أُتِّجَتْ بِجَوْثِمِ الْفَلَسَفِيَّةِ ، وَرَغْمِ
 مَحَاوَلَاتِ عَدَدٍ قَلِيلٍ مِنْهُمْ دَعْوَةَ النَّاسِ إِلَى التَّوْحِيدِ . لَقَدْ كَانَ فِي وَسْعِ رِجَالٍ مِنْ أَمْثَالِ هِرَقْلِسِ أَنْ
 يُعَدُّوا أَمْثَالَ هَذِهِ الْأَسَاطِيرِ مُجَرَّدَ مَجَازَاتٍ وَتَشَابِيهِ ، وَفِي وَسْعِ آخَرِينَ أَمْثَالَ أَفْلَاطُونِ أَنْ يَعْدِلُوهَا
 وَيُوقِفُوا بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَا تَقْبَلُهُ الْعُقُولُ ، وَفِي مَقْدُورِ رِجَالٍ مِنْ أَمْثَالِ زَنُوفَانِيزِ أَنْ يَنْدَدُوا بِهَا وَيَنْبَذُوهَا ؛ غَيْرِ
 أَنْ بوزنِياسَ ، حِينَ طَافَ بِبِلَادِ الْيُونَانِ بَعْدَ خَمْسَةِ قُرُونٍ مِنْ عَهْدِ أَفْلَاطُونِ ، وَجَدَ الْخُرَافَاتِ وَالْأَسَاطِيرَ
 الَّتِي كَانَتْ تُثِيرُ الْحَمِيَّةَ فِي قُلُوبِ الْأَهْلِينَ فِي عَضْرِ هومِرَ لَا تَزَالُ حَيَّةً قَوِيَّةً . ذَلِكَ أَنَّ عَمَلِيَّةَ تَشْعِيرِ
 الْأَسَاطِيرِ ، وَتَشْعِيرِ الدِّينِ عَمَلِيَّةً طَبِيعِيَّةً ، تَحْدُثُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ كَمَا كَانَتْ تُحْدِثُ عَلَى الدَّوَامِ فِي
 الْعُصُورِ الْخَالِيَةِ ؛ وَثَمَّةَ نَسَبِهِ لِلوَفِيَّاتِ وَنَسَبِهِ لِلمواليدِ بَيْنَ الْإِلَهَةِ . فَالْإِلَهِيَّةُ كَالطَّاقَةِ تَبْقَى كَمِّيَّتَهَا مَهْمَا
 تَغَيَّرَتْ صُورَتُهَا لَا تَكَادُ تَنْقُصُ أَوْ تَزِيدُ خِلَالَ الْأَجْيَالِ الْمُتَعَابِقَةِ .

العقل الديني المجوسي

ماهي المجوسية

وقد عرفت المجوسية بانها ديانة الفرس ، لان معظم الفرس كانوا يدينون بها منذ ظهرت في بلادهم خصوصا (الزرادشتية) . التي كانت الدين الرسمي (للدولة الساسانية) التي تأسست عام ٢٢٦ ق . م وإن كانت بدايتها أسبق من نشأة هذه الدولة بكثير ، فشان المجوسية شأن غيرها من الأديان قديمة جابت أرجاء المعمورة في مصر واليونان والصين والهند والعراق وغيرها ، لكنها لم تقتصر على بلاد الفرس وحدها ، حيث إن بعض العرب دانوا بها في هجر وحضرموت وعمان .

وللمجوس كتاب مقدس يسمى "الأوفستا" أو "الأبستاق" يزعمون أنه نزل على نبيهم "زرادشت" الآلة وعمل "زرادشت" تفسيرا له سماه "زندا" والمجوس يؤمن باليوم الآخر والبعث والحساب والجنة والنار والصراط بيد أنه كان إيمانا شائها ، وهم يرون أن البعث للأرواح دون الأجساد فهم يعتقدون أن الروح أبست الجسد من أجل محاربة "أهرمن" وجنوده من الشياطين ، فإذا قضى عليهم فإن الروح تخلص من الجسد فيكون البعث بها فقط ، ولهم مرائي عجيبة في مصير الروح بعد مفارقتها الجسد ، وبعض فرق المجوس تعتقد في الناسخ ، شائها في ذلك شأن معظم الأديان الوضعية القديمة .

وَهِيَ فِرْقَةٌ تَسْمَى التَّاسُخِيَّةُ تَقُولُ : بِنَاسِخِ الأَرْوَاحِ فِي الأَجْسَادِ وَالأَنْتِقَالِ مِنْ شَخْصٍ إِلَى شَخْصٍ
آخَرَ . وَالمَجُوسِيَّةُ تُؤْمِنُ بِالمَهْدِيَّةِ عَنِ "زَرادشت" قَوْلُهُ فِي كِتَابِهِ "زَنْدِ أَوْسْتَا" سَيُظْهِرُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ
رَجُلٌ اسْمُهُ "أَشِيرِيكَا" وَمَعْنَاهُ الرَّجُلُ العَالِمُ يُزِينُ العَالِمَ بِالدِّينِ وَالْعَدْلِ ، ثُمَّ يَظْهِرُ فِي زَمَانِهِ (بِتْيَارِهِ) فَيُوقِعُ
الأَافَةَ فِي أَمْرِهِ ، وَمَلَكَةَ عِشْرِينَ سَنَةً ، ثُمَّ يَظْهِرُ بَعْدَ ذَلِكَ (أَشِيرِيكَا) عَلَى أَهْلِ العَالِمِ وَيُحْيِي العَدْلَ ،
وَيُمِيتُ الجُورَ ، وَيُرِدُّ السُّفْنَ المُغِيرَةَ إِلَى أَوْضَاعِهَا الأُولَى وَنُقَادَ لَهُ المُلُوكُ ، وَتَيْسِرُ لَهُ الأُمُورَ ، وَيَنْصُرُ
الدِّينَ وَالْحَقَّ ، وَيَحْصُلُ فِي زَمَانِهِ

وَللمَجُوسِيَّةِ شَعَائِرُهَا الضَّالَّةُ الَّتِي فِيهَا :

١- عِبَادَةُ النَّارِ

٢- تَعْظِيمُ المُلُوكِ وَرَفْعُهُمْ إِلَى مَرْتَبَةِ الأُلُوهِيَّةِ .

٣- الصَّلَوَاتُ وَالزَّمْرَمَةُ

٤- شَرِبَ الخُمُرِ

٥- الوَلعُ بِالعِغْنَاءِ وَالمَعَارِزِ

٦- اسْتِحْلَالُ المَحَارِمِ

المَجُوسِيَّةُ هِيَ دِيَانَةٌ وَثَنِيَّةٌ تَقُومُ عَلَى عِبَادَةِ النَّارِ ، وَهِيَ دِيَانَةٌ أَثْنِيَّةٌ أَيُّ إِذْ المَجُوسُ يُؤْمِنُونَ بِوُجُودِ إِلَهَيْنِ
أَحَدُهُمَا إِلَهُ الخَيْرِ وَالأَخْرُ إِلَهُ الشَّرِّ بِحَسَبِ مَا يُؤْمِنُونَ ، وَيُصَدِّقُونَ أَنَّ نَهَايَةَ الحَيَاةِ سَتُكُونُ عِنْدَمَا يَفُوزَ
إِلَهُ الخَيْرِ عَلَى إِلَهِ الشَّرِّ فِي الحَرْبِ الأَبَدِيَّةِ بَيْنَهُمْ ، وَبِالطَّبَعِ كُلُّ هَذِهِ المُعْتَقَدَاتِ لَيْسَ لَهَا أَسَاسٌ مِنْ

الصَّحَّةِ فَسُبْحَانَ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ ، وَلِكِنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ تَمَامًا بِكُلِّ مُعْتَقِدَاتِهِمْ ، وَلِأَنَّ عَدَدَ الْمَجُوسِ يُبْلَغُ حَوَالِي اثْنَيْنِ وَنِصْفِ مِليُونِ نَسَمَةٍ ، وَهُوَ عَدَدٌ لَيْسَ بِالْقَلِيلِ ، فَسَوْفَ نَلْقَى الضُّوْءَ الْيَوْمَ عَلَى هَذِهِ الدِّيَانَةِ وَكُلُّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا .

سَبَبُ تَسْمِيَةِ الْمَجُوسِيَّةِ بِهَذَا الْاسْمِ

يُطْلَقُ أَيْضًا عَلَى الْمَجُوسِيَّةِ اسْمُ الزَّرَادَشْتِيَّةِ ، وَيُقَالُ إِنَّ هَذِهِ الدِّيَانَةَ الْوَثْنِيَّةَ سُمِّيَتْ بِهَذَا الْاسْمِ نَسْبَهُ لِقَبِيلَةٍ مِنْ قَبَائِلِ الْفَرَسِ كَانَتْ تُسَمَّى بِهَذَا الْاسْمِ ، وَهُنَاكَ أَقَاوِيلٌ أُخْرَى تَقُولُ إِنَّ الْمَجُوسِيَّةَ كَلِمَةٌ مَعْنَاهَا عُبَادَةُ النَّارِ فِي اللُّغَةِ الْفَارْسِيَّةِ ، وَأَخْرُونَ يَرَوْنَ أَنَّهَا سُمِّيَتْ بِهَذَا الْاسْمِ نَسْبَهُ لِرَجُلٍ كَانُ يُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْمُ مَجُوسٍ .

مَعْتَقَدَاتُ الْمَجُوسِ

1- يُؤْمِنُونَ بِالْهَيْئِ أَحَدُهُمَا خَيْرٌ يُقَوْمُ بِكُلِّ الْأَفْعَالِ الطَّيِّبَةِ ، وَاللَّهِ لِلشَّرِّ يَقَوْمُ بِفِعْلِ الشَّرِّ فِي الْكُونِ ، وَالْإِلَهَانِ يَتَصَارَعَانِ دَائِمًا ، وَلِكِنَّهُمْ يَسَاجِدُونَ إِلَهَ الْخَيْرِ فِي هَذِهِ الْحَرْبِ .

2- يَعْتَقِدُونَ أَنَّ نَهَايَةَ الْحَيَاةِ وَالْكَوْنِ سَتَكُونُ عِنْدَمَا يَنْتَصِرَ إِلَهُ الْخَيْرِ عَلَى إِلَهِ الشَّرِّ فِي حَرْبِهِمُ الْأَبَدِيَّةِ ، وَمَعَ نِهَايَةِ الْحَرْبِ بَيْنَهُمْ سَتَنْتَهِي كُلُّ الْحُرُوبِ فِي كُلِّ الْعَالَمِ .

3- يَرَوْنَ أَنَّ النَّارَ هِيَ مَا تَضِي لِهِمْ حَيَاتِهِمْ وَلِهَذَا يَعْبُدُونَ النَّارَ وَيَقْدَسُونَهَا .

4- يُؤْمِنُونَ أَنَّ لِكُلِّ رُوحٍ أَكْثَرَ مِنْ حَيَاةٍ أَيْ أَنَّهُ بَعْدَ مَوْتِ شَخْصٍ مَا نَتَقَلُّ رُوحَهُ مِنْ جَسَدِهِ لِنَعِيشِ فِي جَسَدٍ آخَرَ حَيَاةً أُخْرَى .

5-يؤمنون أَنَّ الْإِنْسَانَ يُوجَدُ دَاخِلَهُ قُوَّتَيْنِ هُمَا :

-القوة المُقدَّسة وَالتِّي تَدْفَعُ الْإِنْسَانَ لِلْقِيَامِ بِالْخَيْرِ حَيْثُ إِنِّهَا تَعْتَمِدُ عَلَى سَبْعِ صِفَاتٍ وَهِيَ الْحِكْمَةُ وَالشَّجَاعَةُ وَالْإِحْلَاصُ وَالْعَمَلُ وَالْأَمَانَةُ وَالْكَرَمُ وَالْعِفَّةُ .

-قوة الدُّنْيَا وَالتِّي تَدْفَعُ الْإِنْسَانَ لِارْتِكَابِ الرَّذَائِلِ وَتَدْفَعُهُ نَحْوَ الْقَتْلِ وَالظُّلْمَةِ وَالْمَكْرِ وَالْخِدَاعِ حَيْثُ تَعْتَمِدُ هَذِهِ الْقُوَّةُ عَلَى سَبْعِ صِفَاتٍ دَاخِلِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ وَهِيَ الْقَتْلُ وَالظُّلْمُ وَالْبُخْلُ وَالْتَفَاقُ وَالْخِيَانَةُ وَالْجُبْنُ وَالْمَكْرُ ، وَكُلُّ هَذِهِ الصِّفَاتِ تَدْفَعُهُ نَحْوَ الشَّرِّ .

وَيُؤْمِنُونَ أَنَّ كِلْتَا الْقُوَّتَانِ تَظْلَانِ فِي صِرَاعٍ حَتَّى تَنْتَصِرَ فِي التَّهَيَّاتِ الْقُوَّةُ الْمُقَدَّسَةُ .

6-يؤمنون بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْحِسَابِ ، وَصَدَقُونَ أَنَّ الْجَسَدَ فَقَطُ هُوَ الْفَانِي أَمَّا الرُّوحُ خَالِدَةٌ ، وَيُؤْمِنُونَ أَنَّ هُنَاكَ مَنْ سَيَكُونُ مَصِيرُهُ النَّارَ وَهُنَاكَ مَنْ سَوْفَ يَكُونُ مَصِيرُهُ الْجَنَّةَ وَهَذَا بِحَسَبِ مِيزَانِ كُلِّ شَخْصٍ .

7-يرون أَنَّ جَهَنَّمَ مِنْطَقَةٌ بَارِدَةٌ مُظْلِمَةٌ وَمَوْحِشَةٌ وَمَلِيئَةٌ بِالْحَيَوَانَاتِ الْمُتَوْحِشَةِ وَالتِّي يَكُونُ عَمَلُهَا عِقَابَ كُلِّ شَخْصٍ عَلَى جَرَائِمِهِ .

8-يقدسون الْمَاءَ وَالنَّارَ وَتَجِدُ جَمِيعَ مَعَابِدِهِمْ مُخَوَّيَّةً عَلَى الْمَاءِ وَالنَّارِ ، وَيَرَوْنَ أَنَّ النَّارَ تُعْطِي الْإِنْسَانَ الْحِكْمَةَ وَأَنَّ الْمَاءَ هِيَ مَا يَزُودُ النَّارَ بِهَذِهِ الْحِكْمَةِ .

طُقُوسُ الدِّيَانَةِ الْمَجُوسِيَّةِ

I-طُقُوسُ النَّارِ حَيْثُ إِنَّ النَّارَ تَرْمِزُ لِأَلَّةِ الْخَيْرِ وَابْنُهُ وَيُسَمُّونَ إِلَهَ الْخَيْرِ بِأَهْوَرَامَازدا ، وَهَذِهِ النَّارُ الْمُقَدَّسَةُ بِالتَّسْبِيَةِ لَهُمْ يَبْقَوُهَا بَعِيدًا عَنِ الْأَنْظَارِ وَبَعِيدًا عَنِ التَّلَوُّثِ وَلَا يَجِبُ أَنْ يَرَاهَا شَخْصٌ غَيْرُ مُؤْمِنٍ ،

وَهَذِهِ التَّيْرَانِ الْمُقَدَّسَةَ تَكُونُ مُوجُودَةً فِي الْمَعَابِدِ الْخَاصَّةِ بِهِمْ يَحْرُسُهَا الْكَهَنَةُ ، وَأَشْهَرُ هَذِهِ التَّيْرَانِ هِيَ نَارُ بُهْرَامَ وَعِنْدَمَا يَقُومُوا بِزِيَارَةِ النَّارِ الْمُقَدَّسَةِ لِأَدَاءِ الطَّقُوسِ يَقُومُونَ بِوَضْعِ الرَّمَادِ عَلَى جِبَاهِهِمْ لِيَدُلَّ هَذَا الرَّمَادُ عَلَى التَّوَاضُعِ وَالْمَسَاوَاةِ بَيْنَ الْجَمِيعِ .

2- طَقُوسُ التُّرْبَانِ ، حَيْثُ يَكُونُ التُّرْبَانُ بِالنَّسْبَةِ لَهُمْ تَبْتَهُ يَتَمَّ سَخَطُهَا وَشُرْبُ عَصِيرِهَا وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ عَصِيرِهَا عَصِيرُ الْخُلُودِ ، حَيْثُ إِنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ هَذِهِ النَّبَاتَ هِيَ إِلَهٌ أَيْضًا وَيُسَمَّى الْهُومَا ، وَيُؤْمِنُونَ أَنَّ هَذَا التُّرْبَانَ مَا سَوْفَ يَجْعَلُهُمْ خَالِدِينَ يَوْمَ نَهَايَةِ الْعَالَمِ .

سِمَاتُ الْعَقْلِ الدِّينِيِّ الْقَدِيمِ وَالْأَسْطُورِيِّ

أَنَّ كُلَّ مَا تَمَّ ذِكْرُهُ مِنْ أَدْيَانِ وَعَقَائِدِ تَأَثَّرَتْ بِهَا الْحَضَارَاتُ الْقَدِيمَةُ ، تَدُلُّ عَلَى أُمُورٍ كَثِيرَةٍ وَاضِحَةٍ فِي أَغْلِبِهَا ، وَهِيَ أَنَّ الْإِنْسَانَ كَانَ دَائِمًا مَا يُبْحَثُ عَنْ سِرِّ وَجُودِهِ وَسِرِّ اخْتِفَائِهِ ، وَدَوْرُهُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ ، وَعَنْ الْقُوَى الْإِلَهِيَّةِ الْمُدِيرَةِ لِلْكَوْنِ وَمَا عَلَيْهِ ، وَعَلَى نَقِيضِهِ أَمْرٍ آخَرَ يَكْمُنُ فِي اسْتِغْلَالِ بَعْضِ الْجَمَاعَاتِ أَوْ الْأَشْخَاصِ لِحَاجَةِ النَّاسِ الْأُولَى لِمَصَالِحِ اقْتِصَادِيَّةٍ وَسِيَاسِيَّةٍ .

وَالْيَوْمَ وَبَعْدَ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ بِ1440 عَامًا ، كَوْنَهُ آخِرَ الدِّيَانَاتِ السَّمَاوِيَّةِ التَّوْحِيدِيَّةِ ، يُوجَدُ نَحْوُ 4200 دِيَانَةٍ وَعَقِيدَةٍ فِي كَوْكَبِ الْأَرْضِ ، مَا بَيْنَ مَلَلٍ وَفَرْقٍ وَكَنَائِسٍ وَطَوَائِفٍ وَمَذَاهِبٍ وَعَشَائِرٍ ، يُعْتَقَدُ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ أَنَّ عَلَى صَوَابٍ تَامٍ وَنَسْتِطِيعُ أَنْ نُجْمِعَ هُنَا سِمَاتَ عَامَّةِ لِلْعَقْلِ الدِّينِيِّ الْقَدِيمِ :

أَوَّلًا : أَنَّ هُنَاكَ أَدْلُهُ عَلَى وُجُودِ الْأَدْيَانِ مُنْذُ الْقَدِيمِ وَالِاعْتِقَادِ بِوُجُودِ قُوَّةِ رُوحِيَّةٍ مَاورَاءَ الطَّبِيعَةِ وَالْأَشْيَاءِ لَدَى الْبَشَرِ كَانَ مُبَكَّرًا جَدًّا .

ثانيًا : هُنَاكَ إِشْكَالٌ مُعَدَّدَةٌ لِلدِّيَانَاتِ الْوَضْعِيَّةِ وَلِعِبَادَاتِ وَالطُّقُوسِ يَكَادُ لَا يُحْصَى حَيْثُ سَاعَدَ ظُهُورُ
الْكِتَابَةِ تَوْحِيدِ الْعِبَادَاتِ فِي مَنْطِقِهِ زَمْنِيَّةٌ وَمَكَانِيَّةٌ مُحَدَّدَةٌ وَخَاصَّةٌ فِي الْمَدُنِ وَالْحَضَارَاتِ الْقَدِيمَةِ .

ثالثًا : أَمَّا أَرْكَانُ الْعَقَائِدِ فِي الْمُجْتَمَعَاتِ الْقَبْلِيَّةِ فَسَيَسْتِطِيعُ أَنْ نَجْمَلَ سَمَاتِهَا فِي "الْخُلُقِ - السَّحْرِ -
الْأَصَاحِي" حَيْثُ كَانَتْ تُرَوَى أَسَاطِيرُ عَنْ خُلُقِ الْكُونِ وَخُلُقِ الْبَشَرِ وَإِنَّ الْقُوَى الْخَارِقَةَ هِيَ الْمَوْجِدَةُ
لِلْكَوْنِ وَالْبَشَرِ ، وَأَنَّهُ حَصَلَتْ فَوْضَى بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ تَبَّحَ عَنْهَا الْإِلَهَةُ الَّتِي جَاءَ مِنْهَا الْبَشَرُ ، وَكَانَتْ
الْأَسَاطِيرُ تُفَسِّرُ خُلُقَ الْبَشَرِ بِأَنَّهُ تَبَّحَ عِلَاقَةً بَيْنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالْبَشَرِ وَقُوَى كُونِيَّةٍ خَارِقَةٍ ، أَمَّا السَّحْرُ
فَكَانَتْ أَعْمَالُهُ تَوْثِقُ الصَّلَةَ بَيْنَ أَهْدَافِ الْبَشَرِ وَأَفْعَالِهِمْ وَالْقُوَى الْكُونِيَّةِ الْخَارِقَةَ ، وَكُلُّ مُجْتَمَعٍ بَدَائِيٍّ لَدَيْهِ
مَجْمُوعٌ مِنَ السَّحَرَةِ عَلَى اعْتِبَارِ الْأَقْدَرِ فِي فَهْمِ سُلوُكِ الْقُوَى الْخَارِقَةَ وَالْكَشْفِ عَنْ مَكْنُونِهَا أَوْ
إِرْضَائِهَا ، وَبِخُصُوصِ الْأَصَاحِي فَإِنَّهَا قَرَابِينَ تَقَدَّمُ إِلَى الْقُوَى الْخَارِقَةَ لِإِرْضَائِهَا وَمَعَ شُرُورِهَا بِحَيْثُ يَعْنِي
تَقْدِيمِهَا فَتَحَّ بَابُ الصَّلَةِ مَعَ الْقُوَى ، وَلِإِزَالَةِ الْقَبَائِلِ الْبَدَائِيَّةِ فِي إِفْرِيقِيَا تَقَدَّمُ الْبَشَرُ الْكَثِيرِينَ ، فِي حِينِ
تَقَدَّمَ الْمَشْرُوبَاتِ الرُّوحِيَّةِ وَالِدَوَاجِنِ عِنْدَ جَمَاعَاتِ جُنُوبِ شَرْقِي أُسِيءَ ، أَمَّا جَمَاعَاتُ الْهِنُودِ فِي
الْأَمْرِيكَيْنِ فَتَقَدَّمُ الْأَصَاحِي الْبَشَرِيَّةُ مِنَ الْأَسْرَى وَالْعَبِيدِ لِإِرْضَاءِ الْقُوَى الْكُونِيَّةِ ، وَأَحْيَانًا بَعْضُ الْأَبْنَاءِ
كَمَا كَانَتْ تَفْعَلُ جَمَاعَاتُ هِنُودِ النَّاتَشِيَزِ الْأَمْرِيكِيَّةِ . .

رابعًا : عِبَادَةُ النُّجُومِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالْأَرْوَاحِ وَالْتَّمَاثِيلِ .

خامسًا : سَيْطَرَةُ الْكُهَّانِ وَالْمَشْعُودِينَ وَالسَّحَرَةَ عَلَى الطُّقُوسِ الدِّينِيَّةِ وَوَضْعَهَا فِي خِدْمَةِ الْحَاكِمِ

سادسًا . إِبْدَاعُ الْأَدْبَاءِ فِي خُلُقِ الْمَلَا حِمِ الْأَسْطُورِيَّةِ وَالصَّرَاعَاتِ بَيْنَ الْإِلَهَةِ .

سَابِعًا : اِهْتِمَامُهَا بِالسُّلُوكِ الْأَخْلَاقِيِّ وَأُصُولِ الْمُعَامَلَاتِ وَتَضَمُّنِهَا لِقَوَاعِدِ تَحَدُّدِ ذَلِكَ .

ثَامِنًا وَأَخِيرًا : الْمُعْتَقِدُ ، أَيُّ الْجَانِبِ الْفِكْرِيِّ وَالْأَفْكَارِ الدِّينِيَّةِ ، وَالْأَسْطُورَةَ ، أَيُّ الْحِكَايَةِ وَالْمُرُويَاتِ الْمُقَدَّسَةِ ، وَالطَّقْسَ ، أَيُّ الشَّعِيرَةِ وَالْجَانِبِ الْعَمَلِيِّ مِنَ الدِّينِ ، وَالْأَخْرُويَاتِ ، أَيُّ كُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْمُوتِ وَمَا بَعْدَ الْمُوتِ . .

ثانيا

العقل الديني اليهودي

من هم اليهود وما هي الديانة اليهودية

حديثا في هذا الفصل سيكون عن العقل الديني اليهودي وكيف ساهم في بناء دينهم ومعتقداتهم .

كلمة يهود أصلها من هاد يهود هوذا ، وتهود الرجل معناه تاب ورجع إلى الحق ، وقد اختلف في سبب تسمية أمة موسى عليه السلام بهذا الاسم ومما ذكر في المقام :

I- إنما لزمهم هذا الاسم لقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام : إنا هذنا إليك (الاعراف/155) أي
بتنا ورجعنا .

2- أنهم سموا باليهود نسبة إلى يهوذا وهو السبط الرابع ليعقوب عليه السلام .

3- ما ذهب إليه بعض الباحثين أن يكون قورش ملك الفرس هو من سماهم باليهود ، وأنه هو من أطلق على ديانتهم اليهودية .

واليهود هم أمة موسى عليه السلام ، وكتابهم المقدس هو التوراة وهو أول كتاب أنزل من السماء لأن ما أنزل على إبراهيم عليه السلام سمي ضحفاً .

وتكون التوراة من عدة أسفار فصل فيها الحديث عن بدء الخلق وذكر الأحكام والحدود وبعض
المواعظ والأذكار ، إلى جانب الحديث عن بعض الأحداث التاريخية التي عاشها اليهود خلال علاقتهم
بالشعوب التي خالطوا أمّا في حالة السلم أو الحرب .

العبريون أو العبرانيون

من الأسماء التي عُرفت بها أمة موسى عليه السلام اسم العبري ، إمّا عن سبب تسميتهم بها الاسم
فمما ذكر في المقام :

1- أنهم سُموا بهذا الاسم نسبةً إلى عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سان بن نوح عليه السلام ، وهذا
ما جاء في سفر التكوين من التوراة الذي رفع نسبهم إلى عابر .

2- أنهم سُموا بهذا الاسم لعبورهم الصحراء أو لعبورهم نهر الفرات .

3- أن كلمة عبري هي تحريف لكلمة حبرو -HABIRU- التي كانت تُطلق في سنة 1000 قبل الميلاد

على القبائل الهمجية التي كانت تتغير على غيرها ، وهي تُعادل في التراث المصري والبابلي القديم

كلمة - KHEBIRRU - التي يُعبر بها عن اللصوص والمترقة وقطاع الطرق والمتخلفين حضارياً

ولعلّ المطابق لمعنى عبري هو هذا الرأي الأخير بدليل أن التوراة قد تنكرت للعبريين .

بنو إسرائيل

وَقَدْ سُمِّيَ الْيَهُودُ أَيْضًا بَنِي إِسْرَائِيلَ نِسْبَةً إِلَى يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي اتَّفَقَتِ التَّوْرَةُ وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَلَى تَسْمِيَّتِهِ بِذَلِكَ مَعَ اخْتِلَافِ بَاطِنٍ مِنْ حَيْثُ التَّعْلِيلَاتِ ، وَبَيَانُهُ مِنْ وَجْهَيْنِ :

I- أَنَّ الرِّوَايَةَ التَّوْرَاتِيَّةَ تَرَى أَنَّ سَبَبَ تَسْمِيَةِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَذَا الْاسْمِ إِنَّمَا هُوَ الْاِتِّصَارُ الَّذِي حَقَّقَهُ بَعْدَ أَنْ صَارَعَ مَوْجُودًا قَابِلَهُ فِي الطَّرِيقِ ، وَنَظَرًا إِلَى مَا وَجَدَهُ هَذَا الْأَخِيرُ مِنْ قُوَّةٍ مِنْ يَعْقُوبَ فَقَدْ نَوَّسَلَ إِلَيْهِ أَنْ يُخَلِّيَ سَبِيلَهُ ، وَلَكِنْ يَعْقُوبَ لَمْ يُجِبْهُ إِلَى طَلْبِهِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ اشْتَرَطَ عَلَيْهِ أَنْ يَبَارِكَهُ ، فَكَانَ ثَمَنَ هَذِهِ الْبُرْكَاتِ إِنْ تَفَضَّلَ عَلَيْهِ بِتَغْيِيرِ اسْمِهِ مِنْ يَعْقُوبَ إِلَى إِسْرَائِيلَ ، حَيْثُ يَقُولُ النَّصُّ مِنْ سَفَرِ التَّكْوِينِ :

"فَقَالَ لَهُ لَا يَكُونُ اسْمُكَ يَعْقُوبَ بَلْ إِسْرَائِيلَ وَعِنْدَ ذَلِكَ أَطْلَقَ يَعْقُوبَ عَلَى الْمَكَانِ اسْمَ فَنِيئِيلَ وَقَالَ : نَظَرْتُ اللَّهَ وَجْهًا لَوْجِهِ وَنَجِيتُ نَفْسِي " .

2- الرِّوَايَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الَّتِي أُطْلِقَتْ عَلَى يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِسْرَائِيلَ وَعَلَى اتِّبَاعِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلُ فَاتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : 93] وَالْفَارِقُ بَيْنَ الرِّوَايَتَيْنِ ، أَنَّ يَعْقُوبَ فِي التَّصَوُّرِ الْإِسْلَامِيِّ هُوَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى وَنَبِيِّ كَرِيمٍ ، فَهُوَ مِنَ الصَّفْوَةِ الْأَخْيَارِ الَّذِينَ خَصَّهُمْ بِفَضْلِ النُّبُوَّةِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : وَادْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ ٤٤ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرِي الدَّارِ ٤٥ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ (ص/44-46)

وُخْلاَصَةُ مَا تَقَدَّمَ فَإِنَّ الْيَهُودَ هُمْ اتِّبَاعُ التَّوْرَةِ وَالتَّلْمُودِ ، سَوَاءً أَكَانُوا مِنَ الْيَهُودِ أَوْ مِنْ بَقَايَا الْعِبْرَانِيِّينَ أَوْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْ مِنْ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَجْنَاسِ ، لِأَنَّ الْيَهُودِيَّةَ تَأْخُذُ اتِّبَاعَهَا بِالتَّحْوِيلِ : "فَالْيَهُودِي مِنْ كَانَتْ أُمَّةً يَهُودِيَّةً" و : "وَالْيَهُودِي مَنْ كَانَ أَبُوهُ يَهُودِيًا" ، كَمَا يُنْصَّ عَلَى ذَلِكَ دَسْتُورِهِمْ .

أصول الديانة اليهودية

الأصل الأول : العهد القديم أو التوراة :

العهد القديم هو التسمية العلمية لأسفار اليهود ، والتوراة جزء من العهد القديم ، وقد تطلق التوراة ويراد بها جميع أسفار العهد القديم من باب إطلاق الجزء على الكل ، وكلمة توراة يراد بها الشريعة أو الأحكام الدينية .

والعهد القديم مقدس عند كل فرق اليهود بالرغم من الاختلاف الحاصل بينها من حيث عدد الأسفار المعتمدة ، فنسخه الكنيسة الكاثوليكية تزيد عن نسخة الكنيسة البروتستانتية سبعة أسفار ، أما اليهود السامرة فتكتفي بأسفار موسى الخمسة وقد تزيد في بعض الأحيان سفر يشوع بن نون وسفر القضاة .

والعهد القديم يعبر عنه بالعبرية بكلمة : تنخ وفك هذه الرموز حسب ما يلي :

ت : ويرمز بها إلى توراة موسى عليه السلام .

ن : وتشمل أسفار الأنبياء الأولين والآخرين .

خ : ويعبر بها عن الكتابات .

وَتَفْصِيلُهُ :

I- تَوْرَاةُ مُوسَى : وَتَشْمَلُ خَمْسَةَ إِسْفَارٍ وَهِيَ : سِفْرُ التَّكْوِينِ ، سِفْرُ الْخُرُوجِ ، سِفْرُ اللاوِينِ ، سِفْرُ الْعَدَدِ ، سِفْرُ التَّنْبِيَةِ .

2- أَسْفَارُ الْأَنْبِيَاءِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَتُنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ :

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ : قِسْمُ الْأَنْبِيَاءِ الْأَوَّلِينَ ، وَيُضَمُّ سِفْرَ يَشُوعَ ، سِفْرَ الْقِضَاةِ ، سِفْرَ صَمُوئِيلِ الْأَوَّلِ ، سِفْرَ صَمُوئِيلِ الثَّانِيِ ، سِفْرَ الْمُلُوكِ الْأَوَّلِ ، سِفْرَ الْمُلُوكِ الثَّانِيِ .

الْقِسْمُ الثَّانِي : قِسْمُ الْأَنْبِيَاءِ الْآخِرِينَ ، وَيَتَكَوَّنُ مِنْ : سِفْرِ إِشْعِيَا ، سِفْرِ إِزْمِيَا ، سِفْرِ حَرْقِيَالِ ، سِفْرِ هُوشَعَ ، سِفْرِ يُوئِيلِ ، سِفْرِ عَامُوسَ ، سِفْرِ عَوْبَدِيَا ، سِفْرِ يُونَانَ -يونس- ، سِفْرِ مِيخَا ، سِفْرِ نَاخُومَ ، سِفْرِ حَبْقُوقَ ، سِفْرِ صَفْنِيَا ، سِفْرِ حُجِّي ، سِفْرِ زَكَرِيَّا ، سِفْرِ مَلَاخِي .

3- الْكِتَابَاتُ : وَتُنْقَسِمُ بِدَوْرَهَا إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ وَهِيَ :

4- الْكُتُبُ الْعَظِيمَةُ : وَتَشْمَلُ سِفْرَ الْمَزَامِيرِ الزَّبُورِ ، سِفْرَ الْأَمْثَالِ أَمْثَالَ سُلَيْمَانَ ، سِفْرَ آيُوبَ .

5- الْمَجَلَاتُ الْخَمْسُ وَهِيَ : سِفْرُ نَشِيدِ الْأَنْشَادِ ، سِفْرُ رَاعُوثَ ، سِفْرُ الْمَرَاثِيِ مَرَاثِيِ إِزْمِيَا ، سِفْرُ الْجَامِعَةِ ، سِفْرُ أُسْتِيرَ .

6- الْكُتُبُ : وَتَتَكَوَّنُ مِنَ الْأَسْفَارِ الْآتِيَةِ : سِفْرُ دَانِيَالِ ، سِفْرُ عِزْرَا ، سِفْرُ نَحْمِيَا ، سِفْرُ إِخْبَارِ الْأَيَّامِ الْأَوَّلِ ، سِفْرِ إِخْبَارِ الْأَيَّامِ الثَّانِيِ .

وَيُبَلِّغُ عَدَدَ الْإِسْفَارِ السَّابِقَةَ تِسْعًا وَثَلَاثِينَ سَفَرًا ، وَهِيَ الْإِسْفَارُ الْمُعَمَّدَةُ عِنْدَ الْكَنِيسَةِ الْبَرْوَتَانْتِيَّةِ ،
أَمَّا الْكَنِيسَةُ الْكَاثُولِيكِيَّةُ فَهِيَ تَضَيِّفُ سَبْعَةَ إِسْفَارٍ هِيَ ، سَفَرُ طُوبِيَا ، سَفَرُ يَهُودِيَّةِ ، سَفَرُ الْحِكْمَةِ ،
سَفَرُ يَسُوعَ بْنِ سِيرَاخَ ، سَفَرُ بَارُوخَ ، سَفَرُ الْمَكَابِيِّينَ الْأَوَّلِ ، وَسَفَرُ الْمَكَابِيِّينَ الثَّانِيِ ، فِي حِينِ أَنْ الْيَهُودَ
السَّامِرَةَ فَهِيَ لَا تُوَمِّنُ إِلَّا بِأَسْفَارِ مُوسَى الْخَمْسَةِ ، وَقَدْ تَضَيِّفُ سَفَرِ يَسُوعَ وَسَفَرِ الْقِصَّةِ وَيَجْعَلُونَ مِنْهَا
كِتَابَهُمُ الْمُقَدَّسَ .

مُلَخَّصٌ عَنِ مِضَامِينِ الْإِسْفَارِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ

I- إِسْفَارُ التَّوْرَةِ الْمُنْسُوبَةِ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ :

سِفْرُ التَّكْوِينِ: وَسَبَبُ تَسْمِيَةِ بِهَذَا الْإِسْمِ هُوَ اشْتِمَالُهُ عَلَى تَكْوِينِ الْخَلْقِ : خَلْقُ الْعَالَمِ وَخُلُقِ
الْإِنْسَانِ الْأَوَّلِ ، وَالسَّفَرُ يَرْوِي قِصَّةَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْجَنَّةِ وَمَا تَبِعَ ذَلِكَ مِنْ تَفَاصِيلِ نُزُولِهِ إِلَى
الْأَرْضِ ، ثُمَّ قِصَّةَ اسْتِقْرَارِهِ عَلَيْهَا مَعَ أَبْنَائِهِ وَمَا صَاحِبُ ذَلِكَ مِنْ أَحْدَاثِ بَارِزَةٍ وَبِخَاصَّةِ قِصَّةِ الطُّوفَانِ
وَأَسْتِنَافِ حَيَاةِ الشُّعُوبِ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَيَحْوِي السَّفَرُ أَيْضًا قِصَّةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَرْحَالِهِ مِنْ مَكَانٍ
إِلَى آخَرَ وَسِيرَةَ أَبْنَائِهِ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ثُمَّ أَبْنَاءَ يَعْقُوبَ - الْأَسْبَاطِ - وَمَا تَعَرَّضَ لَهُ يُوسُفُ
عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى يَدِ إِخْوَتِهِ وَعَلَى يَدِ عَزِيزِ مِصْرَ وَزَوْجَتِهِ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ يَرْوِي لَنَا السَّفَرُ رِوَايَةَ نُزُولِ يَعْقُوبَ
مَعَ جَمِيعِ أَبْنَائِهِ إِلَى أَرْضِ مِصْرَ وَلِيُنْتَهِيَ بِالْحَدِيثِ عَنِ مَوْتِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

- **سَفَرُ الْخُرُوجِ:** وَهُوَ سَفَرٌ يَتَحَدَّثُ عَنِ خُرُوجِ الْيَهُودِ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ بِقِيَادَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، كَمَا
أَنَّ السَّفَرُ فِيهِ أَيْضًا ذِكْرُ لِمَعَانَاتِهِمْ بِأَرْضِ مِصْرَ قَبْلَ الْخُرُوجِ وَمَا تَعَرَّضُوا لَهُ مِنْ إِشْكَالِ الدَّلِّ وَأَصْنَافِ
الْهُوَانِ عَلَى يَدِ الْفِرْعَانَةِ ، وَكَمَا يُعْرِضُ السَّفَرُ الْوَصَايَا الْعَشْرَ الَّتِي أَوْصَى بِهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ

السَّلَامُ ، هَذَا فَضْلاً عَلَى بَعْضِ التَّشْرِيعَاتِ الْخَاصَّةِ بِاللَّهِ الْيَهُودِ يَهُوهَ أَوْ يَهُوفا مِنْ مِثْلِ وَصْفِ خَيْمَةِ
الْاجْتِمَاعِ وَتَأْبُوتِ الْعَهْدِ وَتَمَرْدِهِمْ عَلَى هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ غِيَابِ مُوسَى وَكُفْرِهِمْ بِعِبَادَتِهِ الْعِجَلِ .
- سَفَرُ اللّٰوِيِّينَ أَوْ سَفَرِ الْأَخْبَارِ: وَيَتَضَمَّنُ هَذَا السَّفَرَ الْأَحْكَامَ الْكَهْنُوتِيَّةَ الَّتِي اخْتَصَّ بِهَا سِبْطُ
لَاوِي أَوْ لِيْفِي عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّهُمْ سَدَنَةُ الْبَيْتِ ، مَعَ ذِكْرِ بَعْضِ كَفَارَاتِ الذُّنُوبِ وَالْأَطْعَمَةِ الْحَلَالِ وَالْأَنْكِحَةِ
الْحَرَامِ وَالتَّذْرِ وَالطَّهَارَةَ وَالْأَعْيَادَ . . .

- سَفَرُ الْعَدَدِ: وَيَتَحَدَّثُ عَنِ إِعْدَادِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَتَقْسِيمِهِمْ بِحَسَبِ أَسْبَاطِهِمْ ، وَبِهِ أَيْضًا ذِكْرُ
لِتَفَاصِيلِ عَنِ حَيَاتِهِمْ فِي صَحْرَاءِ سَيْنَاءَ ، وَمَا صَدَرَ مِنْهُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ وَالْخُرُوجِ
والتَّمْرِدِ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ .

- سَفَرُ التَّنْبِيَةِ أَوْ التَّنْبِيَةِ الْاِشْتِرَاعِ: وَمَعْنَاهُ إِعَادَةُ الشَّرِيعَةِ ، فِي هَذَا السَّفَرِ تَمَّ إِعَادَةُ عَرْضِ
الْوَصَايَا الْعَشْرَ وَإِعَادَةُ الْحَدِيثِ عَنِ الْأَطْعَمَةِ الْحَلَالِ وَالْأَطْعَمَةِ الْحَرَامِ وَعَنِ نِظَامِ الْقَضَاءِ وَالْمَلِكِ عِنْدَ بَنِي
إِسْرَائِيلَ عَنِ الْكِهَانَةِ وَالتَّنْبُوءِ ، وَيَخْتَمُ السَّفَرُ بِالْحَدِيثِ عَنِ بَخْبَرِ وَفَاةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَدَفْنِهِ فِي جَبَلِ
مُؤَابِ .

- سَفَرُ يَشُوعَ: وَيُنْسَبُ هَذَا السَّفَرُ إِلَى يَشُوعَ بْنِ نُونٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَتَذَكَّرُ التَّوْرَةُ أَنَّهُ كَانَ خَادِمًا
لِمُوسَى فِي أَوَّلِ حَيَاتِهِ ، ثُمَّ بَعْدَ تَوَلَّى قِيَادَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِهِ ، السَّفَرُ فِيهِ وَصْفٌ لِلْأَسَالِبِ الْخَبِيثَةِ
الَّتِي اسْتَعْمَلَهَا يَشُوعَ لِاحْتِلَالِ أَرْضِ فِلَسْطِينَ وَأَبَادَةِ سُكَّانِهَا الْأَصْلِيِّينَ ، مِنْ مِثْلِ اعْتِمَادِ أُسْلُوبِ الْحِيَلَةِ
والتَّجَسُّسِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِبَعْضِ بَغَايَا مَدِينَةِ أَرِيحَا لِفَتْحِ أَبْوَابِ الْمَدِينَةِ الْمُحَصَّنَةِ ، وَمَا ارْتَكَبَ فِي حَقِّ أَهْلِهَا
الْجَازِرِ انْتَهَتْ بِإِبَادَتِهِمْ وَسُقُوطِ الْمَدِينَةِ ، وَيُفْصِلُ السَّفَرُ فِي ذِكْرِ دَقَائِقِ هَذِهِ الْجَرِيمَةِ الَّتِي ارْتَكَبَهَا يَشُوعَ

فِي حَقِّ أَصْحَابِ الْأَرْضِ الْمُحْتَلَّةِ هَذِهِ الْجَرِيمَةِ الَّتِي عَبَّرَ عَنْهَا بَعْضُ الْمُسْتَشْرِقِينَ بِقَوْلِهِمْ وَسَأَلَتْ دِمَاءَ
الْقَتْلَى أَهَارًا ، وَبَعْدَ ذَلِكَ يَتَحَدَّثُ السَّفَرُ عَنْ تَقْسِيمِ الْأَرْضِ الْمُغْتَصَبَةِ عَلَى الْأَسْبَاطِ لِيُنْتَهِيَ بِالْحَدِيثِ عَنْ
وَفَاةِ يَشُوعَ وَدَفْنِهِ بِجَبَلِ إِفْرَائِيمَ .

– **سَفَرُ الْقُضَاةِ:** الَّذِي تَوَلَّى أَمْرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ يَشُوعَ بْنُ نُونٍ مَجْمُوعِهِ مِنَ الْقَادَةِ تَوَلَّوْا مَنْصِبَ
الْقُضَاةِ ، وَقَدْ اسْتَمَرَ الْوَضْعُ عَلَى هَذَا الْحَالِ إِلَى آخِرِ الْقُضَاةِ وَهُوَ صَمُوئِيلَ ، وَالسَّفَرُ الْقُضَاةَ يَتَحَدَّثُ
عَنْ أَشْهُرٍ هُوَ لَاءِ الْقُضَاةِ وَمِنْهُمْ جِدْعُونَ وَيَفَاتِحُ وَشَمَشُونَ صَاحِبُ الْقِصَّةِ الْمَشْهُورَةِ مَعَ دَلِيلِهِ ، كَمَا أَنَّ
السَّفَرَ فِيهِ ذِكْرٌ لِفُسُوقِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَتَمَرْدِهِمْ عَنِ آلَةِ يَهُوهَ وَشُرَكَائِهِمْ مَعَ آلِهَةٍ أُخْرَى مِنَ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ
وَالْحَيَوَانَ ، يَتَحَدَّثُ السَّفَرُ أَيْضًا عَنْ أَنْوَاعِ الْعُقُوبَاتِ الَّتِي أَنْزَلَهَا بِهَا إِلَهُهُمْ لِسَبَبِ هَذَا الْفُسُوقِ بِأَنَّ سُلْطَانَ
عَلَيْهِمْ أَعْدَاءَهُمْ وَأَنْزَلَ بِهِمُ الْمَصَائِبَ وَالْمَحَنَ ، وَلَمَّا شَاحَ صَمُوئِيلُ سَلَّمَ أَمْرَ الْقُضَاةِ إِلَى أَوْلَادِهِ وَنَظَرَ إِلَى
مَا تَسَبَّبَ فِيهِ هُوَ لَاءِ الْأَوْلَادِ مِنْ ظَلَمِ النَّاسِ وَإِسْاعَةَ الْفَسَادِ فَضَلًّا عَلَى مَا عَرَفَ عَنْهُمْ بِهِ مِنْ سُوءِ
الْأَخْلَاقِ ، فَقَدَ التَّمَسُّ شُيُوخُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ صَمُوئِيلَ أَنْ يُعَيِّنَ لَهُمْ مَلِكًا كَمَا هُوَ حَالُ الْأُمَمِ مِنْ حَوْلِهِمْ
وَبِذَلِكَ سَيَبْدَأُ عَهْدَ الْمُلُوكِ عِنْدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ .

– **إِسْفَارُ الْمُلُوكِ الْأَرْبَعَةِ:** وَهَذِهِ الْإِسْفَارُ يُقَابَلُهَا فِي الْكَنِيسَةِ الْبَرُوتِسْتَانِيَّةِ سَفَرُ صَمُوئِيلَ الْأَوَّلِ
وَسَفَرُ صَمُوئِيلَ الثَّانِي ، وَسَفَرُ الْمُلُوكِ الْأَوَّلِ وَسَفَرُ الْمُلُوكِ الثَّانِي ، وَهِيَ إِسْفَارُ أَفْرَدَ فِيهَا الْحَدِيثَ عَنْ
أَشْهُرِ مُلُوكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَالْبِدَايَةَ مَعَ أَوَّلِ مُلُوكِهِمْ شَاءُولَ وَهُوَ طَالُوتُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَيُنْتَهِي عَهْدَ
شَاءُولَ لِيَعْقِبَهُ عَهْدَ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، وَبَعْدَهُمَا يَدْخُلُ الْيَهُودُ فِي عَهْدِ الْمُلُوكِ الثَّانِي حَيْثُ

سينقسم ملك سُليمانَ إلى قِسْمَيْنِ ، مَمْلَكَةٌ يَهُودًا فِي الْجَنُوبِ وَعَاصِمَتُهَا أُورُشَلِيمُ وَمَمْلَكَةٌ إِسْرَائِيلَ فِي الشَّمَالِ وَعَاصِمَتُهَا شَكِيمُ نَابِلُسَ حَالِيًا .

– سَفَرُ إِحْبَارِ الْأَيَّامِ الْأَوَّلِ وَأَحْبَارِ الْأَيَّامِ الثَّانِي: وَمُخَوِّمَى هَذِهِ الْأَسْفَارِ هُوَ تَكَرَّرًا لَمَّا وَرَدَ فِي إِسْفَارِ مُوسَى الْخَمْسَةَ وَأَسْفَارِ الْمُلُوكِ السَّابِقَةَ .

– سَفَرُ عِزْرَا وَنَحْمِيَا: وَعِزْرَا هُوَ أَحَدُ الْكَهَنَةِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْهِمْ بِحَسَبِ رِوَايَةِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ ، لَمَّا أَنَّ الْوَحْيَ عَنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ يَنْزِلُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْكَاهِنِ وَكَمَا كَانَ يَنْزِلُ عَلَى الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ عِزْرَا هُوَ الْعِزْرِي فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَخُلَاصَةُ هَذَا السَّفَرِ أَنَّهُ يَرْوِي قِصَّةَ عَوْدِهِ بَعْضَ الْمَسِيحِيِّينَ مِنْ بَابِلَ إِلَى أَرْضِ فِلَسْطِينَ ، وَسَفَرِ نَحْمِيَا هُوَ مُكْمَلٌ لَمَّا جَاءَ فِي سَفَرِ عِزْرَا .

– سَفَرُ أَسْتِير: وَأَسْتِيرُ هُوَ اسْمُ امْرَأَةٍ يَهُودِيَّةٍ وَهِيَ عِنْدَهُمْ تُعَدُّ مِنَ النَّبِيَّاتِ ، وَقَدْ لَعِبَتْ دَوْرًا مَهْمًا فِي تَارِيخِ الْيَهُودِ لِأَنَّهَا اسْتَطَاعَتْ الْوُصُولَ إِلَى مَلِكِ الْفَرَسِ قورَشَ وَبِفَضْلِهَا مَشُورَتَهَا تَمَّ الْقَضَاءُ عَلَى أَعْدَاءِ الْيَهُودِ فِي مَمْلَكَةِ فَارِسَ ، كَمَا أَنَّهَا كَانَتْ السَّبَبَ فِي انْتِزَاعِ الْأِذْنِ مِنْ هَذَا الْمَلِكِ بِعَوْدِهِ الْيَهُودَ إِلَى أَرْضِ فِلَسْطِينَ بَعْدَ أَنْ تَمَّ اجْتِثَاثُهُمْ مِنْهَا عَلَى يَدِ الْأَشُورِيِّينَ وَالْبَابِلِيِّينَ بِالتَّشْرِيدِ وَالتَّقْتِيلِ ، إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الْعَوْدَةَ كَانَتْ عَوْدَةَ مَجْمُوعَاتٍ صَغِيرَةٍ وَلَمْ تَكُنْ عَوْدَةَ كِيَانٍ بَكَامِلَةٍ .

– الْإِسْفَارُ الْبَابِقِيَّةُ: وَهِيَ سَفَرُ مَزَامِيرِ دَاوُدَ ، وَسَفَرُ أَمْثَالِ سُليمانَ ، وَسَفَرُ أَيُّوبَ ، وَسَفَرُ نَشِيدِ الْإِنْشَادِ ، وَسَفَرِ الْمَرَاثِي ، وَسَفَرِ الْجَامِعَةِ ، وَبَعْضُ هَذِهِ الْأَسْفَارِ يَغْلِبُ عَلَيْهَا الطَّابِعُ الْأَدْبِيُّ مِنْ شَعْرِ وَنَثَرٍ ، وَبَعْضُهَا عِبَارَةٌ عَنْ قِصَصٍ وَخُرَافَاتٍ يَوَارِثُهَا الْأَجْيَالُ ، فِي حِينِ أَنَّ الْجُزْءَ مِنْهَا يَعُودُ لِيَتَحَدَّثَ عَنْ

الكيان السياسي لليهود بأرض فلسطين وعن بطولات بعض زعمائهم وكذا عودتهم من السبي بعد أن أذن لهم قورش مبراطور فارس .

- الأسفار التي أضفتها الكنيسة الكاثوليكية: وهي سفر طوبيا وسفر يهوديت وسفر الحكمة وسفر يسوع بن سيراخ وسفر باروخ وسفر المكابيين الأول وسفر المكابيين الثاني ، وهذه الأسفار قد اعترفت بها الكنيسة الكاثوليكية بعد سنة 546م أي بعد انتهاء زمن العهد القديم ، وهي تتفاوت من حيث .

الأهمية ، فبالنسبة لسفري المكابيين الأول والمكابيين الثاني فهما على درجة لا بأس بها من الأهمية لما أتت أسفار يغلب عليها الطابع التاريخي ، أما بالنسبة لباقي الأسفار الأخرى فهي عبارة عن قصص وأساطير من نتج خيال كُتبه العهد القديم .

الأصل الثاني من أصول الديانة اليهودية التلمود

إلى جانب الأصل الأول السابق للديانة اليهودية فقد سلّمت بعض فرق اليهود وبخاصة فرقة الربيين بقدسية التلمود كتاباً مقدساً لهم ، حيث آمنت أنه إلى جانب العهد القديم الذي أنزل باللفظ والمعنى على موسى عليه السلام ، قد أوحى الله إليه روايات شفوية تناقلها رجال دينهم جيلاً بعد جيل وهذه الروايات قد اصطُحح عليها بالتلمود .

وبداية هذه الروايات الشفوية يعود تاريخها إلى سنة 166م بعد ميلاد المسيح عليه السلام ، و : "الذي بدأ جمعها - هو- الحبر شمعون جمليل و-قد- أتمها الربّي يهوذا الناسي سنة 216م وعنوانها ذلك كتاب سَمَاهُ "المشناه" .

وَكَلِمَةٌ مَشْنَاهُ مَعْنَاهَا الشَّرِيعَةُ الْمَكْرَرَةُ ، عَلَى اغْتِبَارِ أَنَّ إِنَّمَا هِيَ تَكَرُّارُ الْمَشْنَأِ تَكَرُّارًا لِمَا وَرَدَ فِي تَوْرَةِ
مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَبَعْدَ هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ اجْتَهَدَ حَاخَامَاتُ الْيَهُودِ سَوَاءً فِي بَابِلٍ أَوْ فِلَسْطِينَ فِي إِدْخَالِ
كَثِيرٍ مِنَ الزِّيَادَاتِ عَلَى النُّسْخَةِ الْأُولَى ، وَبَعْدَهُ سَيَعْمَلُ الرَّبِّي "يَهُودَا النَّاسِي" لِیُضِیْحَ مَعْنَى الْمَشْنَأِ جَامِعًا
لِمَا كَتَبَ مِنْ عَهْدِ شَمْعُونِ جَمَلِيلٍ عَهْدَ إِلَى الرَّبِّي يَهُودَا .

وَبَعْدَ هَذَا سَيَجْتَهِدُ عُلَمَاءُ الْيَهُودِ فِي وَضْعِ شُرُوحَاتٍ وَحَوَاشِيٍّ عَلَى الْمَشْنَأِ لِتَعْطِينَاهُ كِتَابًا جَدِيدًا اسْمُهُ
"الْجَمَارَا" ، وَبِذَلِكَ أَصْبَحَ التَّلْمُودُ هُوَ مَجْمُوعٌ مَا تَكُونُ مِنَ الْمَشْنَأِ وَالْجَمَارَا ، وَالتَّلْمُودُ الَّذِي فِيهِ زِيَادَاتٌ
لِحَاخَامَاتِ فِلَسْطِينَ سَيَسْمَى بِتَّلْمُودِ أُورُشَلِيمَ ، أَمَّا الْمَشْنَأُ وَالْجَمَارَةُ الَّتِي وُضِعَتْ عَلَيْهَا زِيَادَاتٌ
وَشُرُوحَاتٌ لِحَاخَامَاتِ بَابِلٍ فَتَسْمَى تَّلْمُودِ بَابِلٍ .

وَبَعْدَ التَّلْمُودِ كِتَابًا مَقْدَسًا عِنْدَ أَكْثَرِ فِرْقِ الْيَهُودِ ، بَلْ إِنْ بَعْضَ هَذِهِ الْفِرْقِ تُنَزِّلُهُ مَنَزَلَةً أَعْلَى مِنْ مَنَزَلِهِ
التَّوْرَةَ وَهُمْ يُؤْمِنُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَكْتُوبَةً وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ التَّلْمُودَ
شِفَاهًا ، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ الْإِيمَانَ الْكَامِلَ هُوَ مَا كَانَ أَسَاسَهُ التَّوْرَةَ وَالتَّلْمُودَ مَعًا .

مُلَخَّصٌ عَنِ مَضَامِينِ الْأَصْلِ الثَّانِي مِنَ أُصُولِ الدِّيَانَةِ الْيَهُودِيَّةِ

- نَظَرَهُ التَّلْمُودُ إِلَى الذَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ: تُجِيزُ التَّلْمُودُ الْعَجْزَ وَالتَّقْصُ وَالْإِفْتِقَارَ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى- تَعَالَى اللَّهُ عَنْ هَذَا عُلُوًّا كَبِيرًا- وَهِيَ تَقُولُ بِعَقِيدَةِ الْبَدَاءِ ، بِمَعْنَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَلِعَجْزِهِ
وَعَدَمِ إِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِالْأَشْيَاءِ فَإِنَّهُ يَقْضِي بِأَمْرٍ تَمَّ يَرَاغَبُ عَنْهُ ، وَمِمَّا جَاءَ فِي التَّلْمُودِ مُنْسُوبًا إِلَيْهِ تَعَالَى
قَوْلُهُ: "تَبَا لِي لِأَنِّي صَرَخْتُ بِخَرَابِ بَيْتِي وَإِحْرَاقِ الْهَيْكَلِ وَهَبَّ أَوْلَادِي" ، وَفِي تَوْرَةِ مُوسَى وَرَدَّ قَوْلُهُ:
"فَنَدِمَ الرَّبُّ عَلَى الشَّرِّ الَّذِي قَالَ إِنَّهُ يَفْعَلُهُ بِشَعْبِهِ" .

- نَظَرَهُ التَّلْمُودُ إِلَى مَا هِيَئَةَ الْإِنْسَانِ الْيَهُودِيِّ: تَعْتَدُ التَّلْمُودُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ خَصَّ الْإِنْسَانَ الْيَهُودِيِّ بِطَبِيعَةٍ تَمَيَّزَتْ بِهَا عَنْ بَاقِي الْأَجْنَاسِ الْبَشَرِيَّةِ ، ذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ الْيَهُودِيِّ جُزْءٌ مِنَ الذَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَعَلَيْهِ فَإِنَّ رُوحَهُ تَمَيَّزَتْ عَنْ بَاقِي الْأَرْوَاحِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَمِنْ ثَمَّةٍ فَإِنَّ أَرْوَاحَ الْيَهُودِ لَيْسَ لَهَا أَيْ قُدْسِيَّةٌ بِحَسَبِ التَّلْمُودِ ، فَمِمَّا جَاءَ فِي التَّلْمُودِ : "مُحَرَّمٌ عَلَى الْيَهُودِيِّ أَنْ يُنْجِي أَحَدًا مِنَ الْآمِينَ مِنَ الْهَلَاكِ أَوْ يُخْرِجُهُ مِنْ حُفْرَةٍ يَقَعُ فِيهَا" ، كَمَا نَتَّصُ التَّلْمُودُ عَلَى أَنَّهُ مِنْ الْعَدْلِ أَنْ يُقْتَلَ الْيَهُودِيُّ كُلُّ أُمَّمٍ لِأَنَّهُ بِذَلِكَ إِنَّمَا يُقْرَبُ قُرْبَانًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى .

وَمِمَّا تَسَلَّمَ بِهِ التَّلْمُودُ أَيْضًا عَقِيدَةٌ تَنَاسُخُ الْأَرْوَاحِ ، وَهِيَ مِنَ الْمُعْتَقَدَاتِ الَّتِي تَسَرَّبَتْ إِلَيْهِمْ مِنَ الْحَضَارَاتِ الْقَدِيمَةِ الَّتِي عَاشَ بَيْنَهَا الْيَهُودُ ، وَبِخَاصَّةِ الْحَضَارَةِ الْبَابِلِيَّةِ وَالْحَضَارَةِ الْهِنْدِيَّةِ .

- نَظَرَهُ التَّلْمُودُ إِلَى السُّلْطَةِ وَالتَّمْلُوكِ : تَمَثَّلَ السُّلْطَةُ وَالتَّسَاطُطُ عَلَى الْأُمَّمِ مُرْتَكِّزًا هَامًا فِي التَّصَوُّرِ الْيَهُودِيِّ ، لِذَلِكَ تَنَصَّحُ التَّلْمُودُ اتِّبَاعَهَا بِبَدَلِ الْجُهودِ لِلْحَيْلُولَةِ دُونَ تَمَلُّكِ الشُّعُوبِ السُّلْطَةَ حَتَّى يَتَحَقَّقَ لِلْيَهُودِ السَّيْطَرَةُ عَلَى الْعَالَمِ كُلِّهِ ، وَمَتَى لَمْ يَتَحَقَّقْ لَهُمْ هَذَا الْمَقْصِدُ أُعْتَبِرَ الْيَهُودُ أَنْفُسَهُمْ فِي حَالَةٍ نَفْسِيٍّ وَسَبْيِيٍّ دَائِمٍ ، وَبِنَاءِ عَلَيْهِ فَعَلَى الْيَهُودِيِّ أَنْ يَعِيشَ فِي حَالَةٍ حَرْبٍ مُسْتَمِرَّةٍ مَعَ شُعُوبِ الْأَرْضِ حَتَّى يَتَحَقَّقَ لَهُ الثَّرَاءُ وَالسُّلْطَةُ ، وَهَذِهِ الْوَسِيلَةُ هِيَ مِنْ أَفْضَلِ الْوَسَائِلِ لِإِغْرَاءِ النَّاسِ وَإِرْغَامِهِمْ عَلَى الدُّخُولِ فِي الدِّيَانَةِ الْيَهُودِيَّةِ ،

وَتَمَاشِيًا مَعَ مَنَطِقِ الْعُنْصَرِيَّةِ وَالْأَفْضَلِيَّةِ الْمَزْعُومَةِ لِأَرْوَاحِ الْيَهُودِ وَأَنَّهَا جُزْءٌ مِنَ الْعِزَّةِ الْإِلَهِيَّةِ ، فَإِنَّ الْيَهُودَ يُعْتَبِرُونَ أَنْفُسَهُمْ مَالِكِينَ لِمَا فِي الْعَالَمِ مِنَ الْمَالِ وَالثَّرَوَاتِ بَيَّابَةً عَنِ اللَّهِ الْكَوْنِ ، وَإِنَّ اللَّهَ : "وَهَب . . . الْيَهُودَ حَقَّ السَّيْطَرَةِ وَالتَّصَرُّفِ بِدِمَاءِ جَمِيعِ الشُّعُوبِ وَمَا مَلَكَتْ" و : "أَيْنَمَا حَلَّ الْيَهُودُ ، عَلَيْهِمْ أَنْ

يفرضوا أنفسهم أسيادا على من يعتبرون أنفسهم أسيادا عليهم"، ومما جاء في وصايا موسى عليه السلام: "لا تسرق مال القريب" وتفسير هذه الوصية عند مفسري التلمود جواز سرقة مال الغريب أي غير اليهودي، لأن العملية بحسب التلمود إنما هي استرجاع لأموالهم المسلوقة من يد سالبها، ومن الأساليب التي تنصح بها التلمود لاسترداد هذه الأموال الغش والربا والسرقه ويمين الزور وعدم رد الأمانات إلى أهلها، وفي العهد القديم ما يوصل لمثل هذه المعاملات حيث جاء على لسان الرب: ". . . فيكون حينما تمضون إنكم لا تمضون فارغين، بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها، أميعة فضة وأميعة ذهب، وثيابا، وتضعونها على بنيكم وبناتكم، فتسلبون المصريين".

– **مقام الإنسان اليهودي في التلمود**: نظرا إلى كون أرواح اليهود جزء من العزة الإلهية، فإن التلمود قد وضعها في مقام أعلى من مقام الملائكة، وعليه فإن الاعتداء على اليهود هو اعتداء على العزة الإلهية، والفرق بين اليهودي وباقي البشر كالفرق بين الإنسان والحيوان، وتوصي التلمود بعدم الرحمة أو الشفقة أو التصدق على أي جنس بشري، ولليهودي أن يطعم الكلب في الأغنياء وليس له أن يطعم غير اليهودي، وتعتبر التلمود البشر جميعا أعداء لليهود وهي تمنع اتباعها بنسج علاقات إنسانيه أو اجتماعية مع غيرهم، وفي حالة إذا حصول ذلك فإن أساس هذه العلاقات كما تنصح به التلمود يجب أن يكون التفاف والغش والكذب والزور والنهب والسرقه

وعليه تجيز التلمود لاتباعها في جميع معاملاتهم مع جميع الشعوب اعتماد اليمين الكاذب، بناء على أصلهم الفاسد في التفاوت بين مقامات الأجناس البشرية، لأن اليهودي عندما يقسم كذبا لغير اليهودي

فَكَاتَهَا أَقْسَمَ لِحَيَوَانٍ ، وَالْقِسْمَ مَعَ الْحَيَوَانَاتِ لَا يُعَدُّ قِسْمًا ، زِدْ عَلَيَّ ذَلِكَ فَإِنَّ التَّلْمُودَ تَعَيَّنَ يَوْمًا فِي

السَّنَةِ تَسْمِيَةً بَعِيدُ الْغُفْرَانِ تُغْفَرُ فِيهِ الذُّنُوبُ الَّتِي ارْتَكَبَهَا الْيَهُودِيُّ طَوَالَ السَّنَةِ وَمَنْ بَيَّنَّهَا يَمِينُ الزُّورِ .

- نَظَرَهُ التَّلْمُودَ إِلَى الْمَرْأَةِ غَيْرِ الْيَهُودِيَّةِ: مِمَّا ثَبَتَ فِي وَصَايَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: "لَا تَنْسَهُ

امْرَأَةً قَرِيبِكَ" ، وَتَفْسِيرُ هَذِهِ الْوَصِيَّةِ عِنْدَ مَفْسِرِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ أَنَّ مَنْ اغْتَدَى مِنْ الْيَهُودِ عَلَى عَرْضِ غَيْرِ

الْيَهُودِيَّةِ فَهُوَ غَيْرُ مُذْنِبٍ ، مَا دَامَتْ هَذِهِ الْأَخِيرَةُ هِيَ فِي حُكْمِ الْبَهِيمَةِ ، وَالْعَقْدُ مَعَ الْبَهَائِمِ غَيْرِ جَائِزٍ وَمَنْ

ثَمَّ أَجَازَ حَاخَامَاتِ الْيَهُودِ إِغْتِصَابَ النِّسَاءِ غَيْرِ الْمُؤْمِنَاتِ أَيَّ غَيْرِ الْيَهُودِيَّاتِ .

وَقَدْ كُتِبَ مُعْظَمُ الْأِسْفَارِ الْمُقَدَّسَةِ بَيْنَ الْقَرْنَيْنِ الثَّامِنِ وَالسَّادِسِ قَبْلَ الْمِيلَادِ ، أَيْ خِلَالَ الْفَتْرَةِ الْمُمْتَدَّةِ

بَيْنَ زَمَنِ النَّبِيِّينِ إِسْعِيَا وَإِرْمِيَا ، وَعَلَى مَدَى الْقَرْنَيْنِ الْمَاضِيَيْنِ ، ظَنَّ مُعْظَمُ عُلَمَاءِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ أَنَّ

غَالِبِيَّةَ الْأِسْفَارِ الْعِبْرَانِيَّةِ كُتِبَتْ وَجُمِعَتْ فِي الْحَقْبَتَيْنِ الْفَارِسِيَّةِ وَالْهَلِينِسْتِيَّةِ (مِنَ الْقَرْنِ الْخَامِسِ حَتَّى

الْقَرْنِ الثَّانِي قَبْلَ الْمِيلَادِ) .

وَهُنَاكَ رَأَى يَرَى أَنَّهُ بِاسْتِثْنَاءِ سَفَرِ أَيُّوبَ فَإِنَّ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ كُتِبَ خِلَالَ 1600عَامًا ، كَتَبَ مُوسَى أَوَّلُ

خَمْسَةَ إِسْفَارٍ نَحْوَ 500ق . م ، وَكَتَبَ يُوْحَنَّا الْحَبِيبُ آخَرَ سَفَرٍ وَهُوَ سَفَرُ الرُّؤْيَا سَنَةَ 96م .

كُتِبَ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ .

وَقَامَ حِوَالَى أَرْبَعُونَ رَجُلًا مِنْ خَلْفِيَّاتٍ مُخْتَلَفَةٍ بِتَدْوِينِ الْأِسْفَارِ الْكِتَابِيَّةِ عَبْرَ مُدَّةٍ زَمْنِيَّةٍ تُقَدَّرُ بـ 500عَامٍ

فِي مَا يَلِي قَائِمَةُ الْأِسْفَارِ الْكِتَابِيَّةِ وَأَسْمَ كَاتِبِ كُلِّ مِنْهَا بِحَسَبِ مَا هُوَ مُتَقَقُّ عَلَيْهِ مِنْ قِبَلِ عُلَمَاءِ الْكِتَابِ

الْمُقَدَّسِ ، وَكَذَلِكَ التَّارِيخُ التَّقْرِيْبِيُّ لِلتَّدْوِينِ :

التكوين ولاويين وإعداد وتثنية = موسى 1400 قبل الميلاد

يشوع = يشوع 1350 قبل الميلاد

قضاة وراعوث وسموئيل الأول والثاني = سموئيل/ناتان/جاد 1000-900 قبل الميلاد

ملوك الأول وملوك الثاني = إرميا 600 قبل الميلاد

إخبار الأيام الأول والثاني وعزرا ونحميا = عزرا 450 قبل الميلاد

إستير = مردخاي 400 قبل الميلاد

أيوب = موسى 1400 قبل الميلاد

مزمير = كتاب مخطفون ولكن معظمه دونه داود 1000 - 400 قبل الميلاد

أمثال ، وجامعه ونشيد الأئساد = سليمان 900 قبل الميلاد

أشعيا = أشعيا 700 قبل الميلاد

إرميا ، مراتي إرميا = إرميا 600 قبل الميلاد

حزقيال = حزقيال 550 قبل الميلاد

دانيال = دانيال 550 قبل الميلاد

هوشع = هوشع 750 قبل الميلاد

يوئيل = يوئيل 850 قَبْلَ المِيلَادِ

عاموس = عاموس 750 قَبْلَ المِيلَادِ

عوبديا = عوبديا 600 قَبْلَ المِيلَادِ

يُونان = يُونان 700 قَبْلَ المِيلَادِ

ميخا = ميخا 700 قَبْلَ المِيلَادِ

ناحوم = ناحوم 650 قَبْلَ المِيلَادِ

حَبَقُوق = حَبَقُوق 600 قَبْلَ المِيلَادِ

صفنيا = صفنيا 650 قَبْلَ المِيلَادِ

حجى = حجى 520 قَبْلَ المِيلَادِ

زَكَرِيَّا = زَكَرِيَّا 500 قَبْلَ المِيلَادِ

ملاخى = ملاخى 430 قَبْلَ المِيلَادِ

وَفَقًا لِلتَّرَاثِ الدِّينِيِّ الْيَهُودِيِّ ، فَإِنَّ التَّبِيَّ مُوسَى صَعَدَ إِلَى جَبَلِ طُورِ سَيْنَاءَ ، قَبْلَ حَوَالِي 3500 عَامٍ ،
وَتَلَقَى مِنْ الرَّبِّ مُبَاشَرَةً لَوْحِي الْعَهْدِ ، اللَّذِينَ حُفِرَتْ عَلَيْهِمَا الْوَصَايَا الْعَشْرُ ، وَكَذَلِكَ الْأَسْفَارُ الْخَمْسَةُ
الْأُولَى وَالتَّلْمُودُ وَالْمِشْنَةُ وَالْأَحَادِيثُ الدِّينِيَّةُ الْمُنْقُولَةُ . وَجَرَى ذَلِكَ فِي السَّادِسِ مِنْ شَهْرِ تَيْسَانَ الْعِبْرِيِّ ،

وَهُوَ التَّارِيخُ الَّذِي يَحْتَفِلُ فِيهِ الْيَهُودُ بِعِيدِ "شَفْعَوَاتٍ" أَيْ عِيدِ نُزُولِ التَّوْرَةِ ، وَيُسَمَّى أَيْضاً عِيدِ الْبَوَاكِرِ ،
الَّذِي صَادَفَ فِي مَطَلَعِ الْأُسْبُوعِ الْمَاضِي .

إِلَّا أَنَّ الْبُحْثَ الْعِلْمِيَّ فِي التَّوْرَةِ وَتَارِيخِهَا تَوَصَّلَ إِلَى "حَقِيقَةٍ" أَنَّ مُوسَى لَمْ يَكْتُبِ التَّوْرَةَ ، وَلَا الْإِسْفَارَ
الْخَمْسَةَ الْأُولَى ، وَهِيَ التَّكْوِينُ وَالْخُرُوجُ وَاللَّوِينُ وَالْعَدَدُ وَالنَّبِيَّةُ ، وَإِنَّمَا كَتَبَهَا أَشْخَاصٌ يَحْمِلُونَ أَفْكَارًا
مُخْتَلِفَةً وَمْتَنَعَةً .

وَالسُّؤَالُ الْأَسَاسُ فِي هَذَا السِّيَاقِ هُوَ مِنْ هُمْ كَتَبَهُ التَّوْرَةَ وَمَاذَا كَانَتْ أَهْدَافُهُمْ ؟

يُسْتَدَلُّ مِنْ نُصُوصِ التَّوْرَةِ نَفْسَهَا أَنَّهَا لَمْ تُنْزَلْ فِي سَيْنَاءَ ، إِذْ هُنَاكَ وَصِفَ لِقِصَّةِ تَلَقُّفِ الْوَصَايَا الْعَشْرِ ،
لَكِنَّ النَّصَّ التَّوْرَاتِيَّ لَا يُذَكِّرُ أَنَّ مُوسَى حَصَلَ عَلَى كِتَابِ التَّوْرَةِ . وَرَغَمَ أَنَّ كَلِمَةَ "تَوْرَةَ" مَذْكُورَةٌ فِي
النَّصِّ ، إِلَّا أَنَّ الْمَقْصُودَ هُوَ "الْأَوَامِرُ" ، بِمَعْنَى الْقَوَانِينِ وَالشَّرَائِعِ . كَذَلِكَ فَإِنَّ الْإِسْفَارَ الْخَمْسَةَ لَمْ نَتَحَصَّرْ
فِي جَبَلِ طُورِ سَيْنَاءَ ، وَإِنَّمَا تَتَحَدَّثُ عَنْ سَنَوَاتٍ التَّيْهِ كُلِّهَا ، الَّتِي اسْتَمَرَّتْ 40 عَامًا ، وَقَبْلَ أَنْ يَصِلَ
"أَبْنَاؤُ إِسْرَائِيلَ" إِلَى طُورِ سَيْنَاءَ .

وَوَاضِحٌ مِنَ النَّصِّ التَّوْرَاتِيِّ أَنَّ أَجْزَاءَ مِنَ التَّوْرَةِ لَمْ يَكْتُبَهَا مُوسَى ، إِذْ أَنَّهُ مَذْكُورٌ هُنَاكَ إِنَّهُ كَتَبَ مَقَاطِعَ
مُعَيَّنَةً ، مَا يَعْنِي أَنَّ هَذِهِ الْإِطْلَاقَ لَمْ تَكُنْ ضَرُورِيَّةً لَوْ أَنَّ مُوسَى كَتَبَ النَّصَّ كُلَّهُ . أَضَافُهُ إِلَى ذَلِكَ ،
فَإِنَّ قِصَّةَ مُوسَى كَتَبَهَا مُؤَلِّفٌ يَتَحَدَّثُ عَنْهُ مِنْ خِلَالِ ضَمِيرِ الْغَائِبِ ، مِثْلَمَا يَتَحَدَّثُ عَنِ الشَّخْصِيَّاتِ
الْأُخْرَى ، وَمِثَالٌ عَلَى ذَلِكَ : "وَأَمَّا الرَّجُلُ مُوسَى فَكَانَ حَلِيمًا جِدًّا أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ الَّذِينَ عَلَى
وَجْهِ الْأَرْضِ" (عدد 12، 3) .

كَذَلِكَ فَإِنَّ كِبَارَ حَاخَمِي الْيَهُودِ ، الَّذِينَ وَضَعُوا الْأَحَادِيثَ الدِّيْنِيَّةَ الْمُنْقُولَةَ (الشفهية) بِحُلُولِ الْقُرْنِ
السَّادِسِ الْمِيلَادِيِّ ، وَكَانُوا يَلْتَزِمُونَ بِأَنَّ مُوسَى كَتَبَ التَّوْرَةَ ، وَاجْهَوْا صُعُوبَةً فِي تَصْدِيقِ أَنَّهُ كَتَبَ الْآيَاتِ
الَّتِي فِيهَا الْآيَاتِ مِنْ سَفَرِ التَّثْنِيَّةِ ، الَّتِي تَصِفُ مَوْتَ مُوسَى وَدَفْنَهُ . وَيُعَبَّرُ التَّلْمُودُ عَنْ هَذِهِ الصُّعُوبَةِ :
"هناك مَنْ يَقُولُ إِنَّ مُوسَى كَتَبَ هَذِهِ الْآيَاتِ أَيْضًا ، وَآخَرُونَ يَقُولُونَ إِنَّهُ كَتَبَهَا خَلِيفَتُهُ ، يَهُوشَعَ بْنِ نُونٍ" .
وَاسْتَمَرَ هَذَا التَّقَاشُ بِصُورَةٍ هَادِيَةٍ فِي الْقُرُونِ الْوَسْطَى .

وَفِي بَدَايَةِ عَصْرِ التَّنْوِيرِ ، فِي أوروْبَا ، بَدَأَ مَفْكَرُونَ وَفَلَسْفِيَّةٌ يَشْكُكُونَ عَلَنًا بِأَنَّ مُوسَى كَتَبَ التَّوْرَةَ .
وَكَتَبَ الْفَيْلسُوفُ الْهَوْلَنْدِي الْيَهُودِي بَارُوخ سَبِينوزَا ، فِي مُؤَلَّفِهِ الْهَامِ "رِسَالَةٌ فِي اللَّاهُوتِ وَالسِّيَاسَةِ" ،
فِي الْعَامِ 1670، أَنَّهُ "وَاضِحٌ كَالشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ إِنَّ مُوسَى لَمْ يَكْتُبِ الْإِسْفَارَ الْخُمْسَةَ الْأُولَى فِي
التَّوْرَةِ ، وَإِنَّمَا كَتَبَهَا شَخْصٌ عَاشَ بَعْدَهُ بِسَنَوَاتٍ كَثِيرَةٍ" .

كَذَلِكَ تَوَصَّلَ إِلَى تَبِيحَةِ مُشَابَهَةِ الْفَيْلسُوفِ الْإِنْجِلِيزِيِّ تُوْمَاسِ هُوبِزِ ، الَّذِي عَاشَ فِي الْفُتْرَةِ نَفْسِهَا .

قِصَّةٌ وَاحِدَةٌ لِنَصَّانٍ مُخْتَلِفَانِ

دَفَعَتْ كِتَابَاتُ سَبِينوزَا وَهُوبِزِ الطَّبِيبِ وَالبَاحِثِ الْفَرَنْسِيِّ ، البرُوفِيسُورِ جَانِ أَسْتِرُوكِ ، إِلَى اسْتِخْدَامِ
عِلْمِ التَّقْدِ ، الَّذِي اسْتُخْدِمَ حَتَّى ذَلِكَ الْحِينِ فِي دِرَاسَةِ تَطَوُّرِ النُّصُوصِ الْإِغْرِيقِيَّةِ وَاللَاتِينِيَّةِ ، فِي دِرَاسَةِ
التَّوْرَةِ . وَكَانَ أَسْتِرُوكُ يَأْمُلُ بِأَنَّ يَفْندَ "كُفْرَ" الْفَيْلسُوفِينَ ، لَكِنَّهُ فُوجِئَ عِنْدَمَا اكْتُشِفَ أَنَّ سَفَرَ التَّكْوِينِ
مُؤَلَّفٌ مِنْ نَصَّيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ مَتَدَاخِلِينَ وَيَشْكَالَانِ نَصًّا وَاحِدًا . وَقَدْ نُشِرَ اسْتِنَاجَاتُهُ فِي الْعَامِ 1753،
بِمَقَالٍ غَيْرِ مَوْقِعٍ .

وَتُوصلُ أَسْتَرُوكَ إِلَى قَنَاعَةٍ ، وَيُؤَمِّنُ بِهَا الْبَاحِثُونَ الْيَوْمَ ، بِأَنَّ التَّوْرَةَ لَمْ يَكْتُبَهَا شَخْصٌ وَاحِدٌ وَإِنَّمَا عِدَّةُ أَشْخَاصٍ ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ أَرْبَعَةِ مِمِيزَاتٍ فِي نُصُوصِ سَفَرِ التَّكْوِينِ وَالْإِسْفَارِ الْأُخْرَى ، وَهِيَ : تَكَرُّرٌ لَّا حَاجَةَ لَهُ ، تَنَاقُضَاتٌ دَاخِلِيَّةٌ ، اِخْتِلَافَاتٌ فِي الْأُسْلُوبِ وَاللُّغَةِ ، اِخْتِلَافَاتٌ إِيْمَانِيَّةٌ وَفِكْرِيَّةٌ .

وَمِثَالٌ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ لَّا تُوجَدُ فِي التَّوْرَةِ قِصَّةٌ خَلِيقَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَإِنَّمَا هُنَاكَ قِصَّتَانِ : الْقِصَّةُ الْأُولَى تَتَحَدَّثُ عَنِ خُلُقِ الْعَالَمِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَتُنْتَهِي بِاسْتِرَاحَةٍ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ ، حَسْبَمَا وَرَدَ فِي سَفَرِ التَّكْوِينِ ، فِي الْإِصْحَاحِ الْأَوَّلِ وَالآيَاتِ I-3 فِي الْإِصْحَاحِ الثَّانِي . وَبَعْدَ ذَلِكَ هُنَاكَ قِصَّةٌ خَلِيقَةٌ مُخْتَلِفَةٌ فِي سَفَرِ التَّكْوِينِ نَفْسِهِ ، فِي الْإِصْحَاحِينَ الثَّانِي وَالرَّابِعِ ، وَهَذَا مِثَالٌ عَلَى تَكَرُّرِ زَائِدٍ . وَتَرْتِيبِ الْخَلِيقَةِ فِي الْقِصَّةِ الْأُولَى يَبْدَأُ بِالتَّبَاتَاتِ ثُمَّ الْحَيَوَانَاتِ وَالْإِنْسَانَ فِي التَّنْهَائَةِ . بَيْنَمَا فِي الْقِصَّةِ الثَّانِيَّةِ ، يَخْلُقُ الرَّبُّ آدَمَ أَوَّلًا ، ثُمَّ التَّبَاتَاتِ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ الْحَيَوَانَاتِ ، وَفِي التَّنْهَائَةِ يَخْلُقُ حَوَاءَ مِنْ ضِلَعِ آدَمَ . وَهَذَا مِثَالٌ عَلَى التَّنَاقُضِ .

فِي الْقِصَّةِ الْأُولَى يُوصَفُ الْخَالِقُ بِأَنَّهُ "اللَّهُ" وَتُسَمَّى الطُّيُورُ بـ"طَائِرِ ذِي جَنَاحٍ" ، بَيْنَمَا فِي الْقِصَّةِ الثَّانِيَّةِ يُسَمَّى الْخَالِقُ "الرَّبُّ الْإِلَهُ" وَالطُّيُورُ بـ"طُيُورِ السَّمَاءِ" . وَهَذَا مِثَالًا عَلَى تَغْيِيرِ فِي التَّنْصِ وَالْأُسْلُوبِ . وَالْخَالِقُ فِي الْقِصَّةِ الْأُولَى غَيْبِيٌّ وَمُنْفَصِلٌ عَنِ الْعَالَمِ ، لَكِنَّهُ فِي الْقِصَّةِ الثَّانِيَّةِ هُوَ اللَّهُ مُقِيمٌ فِي الْعَالَمِ وَيَتَجَوَّلُ فِي الْجَنَّةِ وَيَتَحَدَّثُ مَعَ الْبَشَرِ .

كَذَلِكَ فَإِنَّ يَوْمَ السَّبْتِ كَيَوْمِ رَاحَةِ مَذْكَورٍ فِي الْقِصَّةِ الْأُولَى فَقَطْ ، وَغَائِبٌ عَنِ الْقِصَّةِ الثَّانِيَّةِ .

وَهَذِهِ جَمِيعًا أَمْثَلَةٌ عَلَى تَغْيِرَاتٍ تَتَعَلَّقُ بِأَرْكَانِ الْإِيمَانِ (قَدْسِيَّةِ يَوْمِ السَّبْتِ ، وَطَبِيعَةِ اللَّهِ) تَتَعَكَّسُ مِنْ خِلَالِ النَّصِّ وَبِصُورَةٍ مُشَابِهَةٍ تَتَدَاخَلُ رِوَايَتَانِ فِي قِصَّةِ الطُّوفَانِ وَيُصَادِفُ الْقَارِئُ لِقِصَّةَ الطُّوفَانِ الْإِشْكَالِيَّاتِ الْأَرْبَعِ الَّتِي صَادَفَهَا فِي قِصَّةِ الْخَلِيقَةِ ، لَكِنْ فِي قِصَّةِ الطُّوفَانِ لَا تُوجَدُ رِوَايَتَانِ الْوَاحِدَةَ بَعْدَ الْأُخْرَى ، وَإِنَّمَا تَظْهَرَانِ كَقِصَّةٍ وَاحِدَةٍ مَلِيَّةٍ بِالْتَّكْرَارِ وَالتَّنَاقُضَاتِ وَالتَّغْيِرَاتِ اللَّغَوِيَّةِ وَالْفِكْرِيَّةِ .

عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ ، الطُّوفَانُ يَسْتَمِرُّ 370 يَوْمًا ثُمَّ يُقَالُ إِنَّهُ اسْتَمَرَ 40 يَوْمًا ، وَيُسَمَّى الرَّبُّ "اللَّهُ أَحْيَانًا" وَ"الرَّبُّ إِلَهُ" أَحْيَانًا أُخْرَى . وَيُوكِّدُ ذَلِكَ عَلَى وُجُودِ رِوَايَتَيْنِ تَظْهَرَانِ بِالْكَامِلِ ، مِنْ دُونِ شَطْبِ تَفَاصِيلِ مَنْ نَصِيهَمَا . فَبِئْسَ إِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ يُرْسَلُ نُوحٌ حَمَامَةً ، وَيُرْسَلُ فِي الثَّانِيَةِ غُرَابًا .

بِرَغْمِ ذَلِكَ ، فَإِنَّ قِصَّةَ الطُّوفَانِ مِثْلًا مَعَ قِصَّةِ الْخَلِيقَةِ ، إِذْ تُسَمَّى إِحْدَى رِوَايَتِي الطُّوفَانِ الْخَالِقِ بِ"الرَّبِّ إِلَهُ" وَتَقُولُ أَنَّهُ يُعَلِّقُ السَّفِينَةَ وَيَسْمُ رِوَايَةٍ وَيَنْدَمُ ، وَهَذَا مُشَابِهٌ ل"الرَّبِّ إِلَهُ" الَّذِي يَتَحَدَّثُ مَعَ الْبَشَرِ فِي قِصَّةِ الْخَلِيقَةِ . وَفِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى لِلطُّوفَانِ ، كَمَا فِي قِصَّةِ الْخَلِيقَةِ الْأُولَى ، يَمَّ تَسْمِيَةَ الْخَالِقِ ب"اللَّهُ" .

خِلَافًا لِلانطباعِ الَّذِي قَدْ يَنْشَأُ مِنَ الرِّوَايَاتِ الْمزدوجَةِ الْمذْكُورَةِ أَعْلَاهُ ، فَإِنَّ التَّوْرَةَ لَيْسَتْ مُؤَلَّفَةً مِنْ مَصْدَرَيْنِ وَإِنَّمَا مِنْ أَرْبَعَةِ مَصَادِرٍ . وَدَرَجَ الْبَاحِثُونَ ، فِي أَعْقَابِ اسْتِرْكَاعِ ، عَلَى دَرَسِ التَّوْرَةِ دِرَاسَةً تَقْدِيَّةً ، وَفِي الْعَامِ 1805 ، بَيْنَ بَاحِثِ التَّوْرَةِ الْأَلْمَانِيِّ فِيْلِهْلَمْ دِي - فَيْتِيهِ أَنْ لِسَفَرِ التَّثْنِيَّةِ مَصْدَرًا مُنْفَصِلًا عَنِ الْإِسْفَارِ الْأَرْبَعَةِ الْأُخْرَى الْأُولَى فِي التَّوْرَةِ . كَمَا أَظْهَرَتْ دِرَاسَاتٌ لَاحِقَةٌ أَنَّهُ يُوجَدُ لِلتَّصُوصِ الَّتِي تُسَمَّى الْخَالِقِ "اللَّهُ" أَكْثَرَ مِنْ مَصْدَرٍ وَاحِدٍ ، بَلْ إِنَّ هُنَاكَ مَصْدَرَيْنِ . وَجَمَعَ الْبَاحِثُ الْأَلْمَانِيُّ يُولْيُوسُ فِلْهَافَا وَزْنَ هَذِهِ الدِّرَاسَاتِ وَوَحْدَهَا فِي مَا بَاتَ يُعْرَفُ بِاسْمِ "نَظْرِيَّةِ الْمَخْطُوطَاتِ" .

ووفقاً لهذه النظرية ، أو الفرضية ، فإن التوراة مكونة من أربع مخطوطات دجها محرر ، في فترة متأخرة ، لتشكيل وحده واحدة . وتعتبر المخطوطات عن المصدر اليهودي (يهوى) ، الذي يستخدم تسمية "الرب الإله"؛ المصدر الذي يستخدم تسمية "الله"؛ المصدر التثوي ، المسؤول عن سفر التثية كله ؛ المصدر الكهني ، وهو المصدر الأكبر في التوراة ، ويسمى الخالق بـ "الله" حتى ظهور الرب لموسى وعندها يبدأ هذا المصدر باستخدام "الرب الإله" . وهذه النظرية مقبولة على الغالبية العظمى من الباحثين المعاصرين مع تغييرات طفيفة . فقد جرى التعرف ، في القرن العشرين ، على مقاطع عديدة في التوراة تشكل مصادر بحد ذاتها ، مثل "قانون القداسة" في سفر اللاويين .

أن كتبه التوراة كثيرون ، ويتجاوز عددهم الخمسة ، كعدد مصادر التوراة . والاعتقاد السائد أن عزرا الكاتب ، ويعرف أيضاً باسم عزرا الكاهن ، الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد ، هو الذي جمع وحرر نصوص التوراة . ويعتقد الباحثون أن نصوص التوراة لم تكتب كقطعه واحدة ، وإنما هي ثمرة عمل أجيال من الكتبة ، الذين أضافوا "طبقات على ظهر طبقات" من النصوص . ولا يستبعد الباحثون احتمال استمرار تعديل النص التوراتي بعد تحريره حتى أصبح بالشكل الذي نعرفه اليوم .

هناك جانب آخر ينبغي الالتفات إليه ، هو أن مفهوم الكتبة في العصور القديمة يختلف عن مفهومه اليوم . فقد كانت هناك مخطوطات يُحفظ بها في المعابد . كما أن عناصر القراءة والكتابة كانت مؤهلات نادرة جداً . وكان تأهيل الكاتب يستمر لسنة أو اثنتين ، وشمل تعليماً أساسياً فقط على الكتابة والقراءة ، من خلال نسخ كتابات ونصوص قديمة وتعلم تفسيرها على أيدي كتبه متخصصين . كذلك تعلم الكتبة لغات أجنبية ، وكتب التوراة تعلموا اللغة الآرامية بالأساس . وبعد اكتساب هذه

المهارات ، كان الكُتبة يتجهون إلى العمل في المعابد ، أو كمستقلين ، أو في خدمة أثرياء أو لدى الملك
كمستشارين ووزراء ودبلوماسيين .

وبعد تطوّر الكتابة في العصور القديمة ، بدأ الكُتبة ينسخون قصصا وقصائد كانت تُداول شفهيًا جيلاً
بعُدَ جيلٍ .

ورغم الاحتفاظ بالمخطوطات بجرص شديد في المعابد ، إلا أنها كانت تتلف وتبلى مع مرور الزمن ،
ولذلك كانت هناك حاجة إلى أعدادٍ نسخٍ أخرى منها كي تحلّ مكانها . وكانت هذه النسخ مطابقة ،
أحياناً ، للنسخة السابقة ، لكن بصورة عامة كانت تختلف عنها قليلاً ، لأن الكاتب لم يكن ينسخ كلمةً
بكلمة ، وإنما يُكتب من خلال السمع والذاكرة . وكان يدمج الكُتبة في النص الجديد ، أحياناً ، مقاطع
من التراث الشفهي أو من مخطوطات أخرى ، وبهذه الطريقة تطوّرت المخطوطات في الشرق القديم مع
مرور السنين .

مصادر التوراة المكتوبة

يُرجح الباحثون أن المصدر الذي استخدم تسمية "الله" في النصوص التوراتية هو المصدر الأقدم .
ووفقاً لمضمون هذه النصوص ، حيث الأماكن المذكورة فيها تقع كلها تقريباً داخل "مملكة إسرائيل" (في
القسم الشمالي من فلسطين) ، يعتقد الباحثون أنها كتبت بأيدي كهنة هذه المملكة في نهاية القرن التاسع
قبل الميلاد وبالأساس خلال القرن الثامن قبل الميلاد . وفي إغقاب خراب "مملكة إسرائيل" على أيدي
الآشوريين ، في العام 722 قبل الميلاد ، هاجر قسم من الكُتبة إلى يهوذا (المنطقة الواقعة بين القدس
والخليل) ، حاملين معهم مخطوطاتهم المقدسة وانخرطوا في ثقافة هذه المنطقة . وبحسب علماء

آثار ، فإن "مملكة يهودا" ، التي حُكِمَها حينذاك حزقيا هو ، كانت تتسع وتزدهر اقتصاديًا وثقافيًا في أعقاب هجرة "نوعية" من مملكة الشمال التي كانت متطورة نسبيًا وبسبب اندماجها في الاقتصاد الدولي .

ويحتوي المصدر اليهودي على التقاليد القديمة لـ "مملكة يهودا" الصغيرة والأكثر تَخَلُّفًا . ويُعَبَّرُ الباحثون إنَّ الأماكن التي يذكُرُها هذا المصدر في النصوص التوراتية تُشكِّلُ شهادة مُقنِعَةٍ على المكان الذي كُتِبَ فيها نصوص هذا المصدر . ويُرجَّحُ أنه جرى تدوين التراث الشفهي الموجود في هذه النصوص في معبد في القدس ، في القرن الثامن قبل الميلاد ، ورُبَّمَا بَعْدَ وُصُولِ المهاجرين من مملكة الشمال . وتم دمج هذين المصدرين في نص واحد في نهاية فترة "مملكة يهودا" ، وقريبًا من العام 586 قبل الميلاد ، وهو عام خراب الهيكل الأول وفقًا للتراث اليهودي .

وتطور المصدر التنبؤي بصورة تدريجية ، وتكمن أهميته في كونه يتضمَّنُ مجموعَ التشريعات والقوانين اليهودية . ولأهميته ، يُسمَّى أحيانًا "التوراة" . وكانت التوراة القديمة لسفر التثنية مكتوبة بأسلوب ولغة تحالف بين ملك وملك آخر تابع له ، ولكن بدلًا من الحديث عن حلف بين ملكين ، وصفت هذا التوراة حلفًا بين الله وشعب إسرائيل . ويتحدث سفر الملوك الثاني عن "العشور" على سفر التثنية في العام 622 قبل الميلاد تقريبًا ، عندما كان الكهنة يُرتَبون المعبد .

ويبدو أنه تم إجراء تعديل على نص سفر التثنية بعد العشور على مخطوطته لغايات سياسية ، إذ أنَّ مضمون المخطوطة الجديدة يتناقض بالكامل مع تقاليد "مملكة يهودا" ، وخاصة فيما يتعلق بفريضة تركيز الشعائر الدينية في الهيكل في القدس ، بينما اعتاد سكان "يهودا" على مر الأجيال على إقامة هذه

الشعائر في منابر ومعابد وأماكن مقدسة أخرى منتشرة في أنحاء المملكة . ووفقا للتص الجديد فإن الملك ياشياهو شكك في مصداقية المخطوطة ، واستشار خلدَةَ النبيه حول ذلك ، فقالت إن التص أصلي . وفي إعقاب ذلك أمر ياشياهو بإجراء إصلاحات دينية شاملة . لكن النبي إرميا ، الذي عاش في تلك الفترة ، لم يكن مقتنعا بأصلية هذا التص .

ويُرجح الباحثون أن كُتِبَ سفر التثنية هم كهنة من "مملكة إسرائيل" . وتوجد في هذا السفر أوجه شبه عديدة مع المصدر الذي يُستخدم تسمية "الله من حيث الأسلوب اللغوي" ، إذ يُستخدمون اسم "جبل حوريب" خلافا للمصادر الأخرى التي تستخدم "سيناء" ، وكذلك هناك تشابه مع مجموعة القوانين . ويولي سفر التثنية أهمية كبيرة للاويين . ويبدو أن الإصلاحات التي قادها ياشياهو شملت تقاسم عمل بين كهنة "الهيكل في القدس" ، الذين اعتبروا أنهم من نسل هارون ، شقيق موسى ، وبين كهنة مملكة الشمال الذي اعتبروا أنفسهم مكملين طريق موسى . وكانت مهمة كهنة القدس تقديم القرابين وإقامة طقوس العبادة ، بينما كانت مهمة الكهنة الشماليين ، الذين أصبحوا لاويين ، المسؤولية عن نصوص "الهيكل" ، وبضمن ذلك الحفاظ على المخطوطات المقدسة وغناء المزامير .

واستمر اللاويون في تطوير سفر التثنية من تلك التواة الأولى وحتى نهاية فترة "الهيكل الأول" وفترة سبي بابل . وفي نهاية عملية تطويره ، أصبح سفر التثنية الجزء الأول من التاريخ التثوي ، الذي يشمل إسفار يشوع والقضاة وشموئيل والملوك ، وجميعها مكونة بالأسلوب واللغة نفسيهما وتُحمل الأيديولوجية نفسها .

وَيُرَجَّحُ أَنَّ الْمُصَدَّرَ الْكَهَنِيِّ هُوَ الْمُصَدَّرُ الْأَخِيرُ زَمَنِيًّا ، وَأَنَّهُ كَتَبَهُ كَهَنَةُ "الهيكل" بِسَبَبِ كَثْرَةِ التَّفَاصِيلِ الَّتِي تَضَمَّنَهَا حَوْلَ الطُّقُوسِ وَتَقْدِيمِ الْقِرَائِينَ فِي "الهيكل" . وَتَمَّتْ كِتَابَةُ الْأُسْفَارِ الَّتِي مُصَدَّرَهَا كَهَنِي خِلَالَ فِتْرَةٍ سَبْعِيٍّ بَابِلَ ، الَّتِي امْتَدَّتْ لِخَمْسِينَ عَامًا تَقْرِيْبًا فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ قَبْلَ الْمِيلَادِ . وَيُظْهِرُ فِي أَمَاكِنَ عَدَّةٍ فِي النَّصِّ التُّورَاتِيِّ أَنَّ الْمُصَدَّرَ الْكَهَنِيَّ يُحَاكِي مَصَادِرَ أُخْرَى وَتَقَالِيدَ أُجْنَبِيَّةٍ أُخْرَى وَرُبَّمَا أَنَّهُ نَطَّلَعَ إِلَى تَغْيِيرِهَا . وَيَتَنَاوَلُ هَذَا الْمُصَدَّرُ بِإِيْجَازٍ قِصَصَ الْخَلِيقَةِ وَالطُّوفَانِ وَالْأَنْبِيَاءِ حَتَّى يَصِلَ إِلَى قِصَّةِ الْخُرُوجِ مِنْ مِصْرَ . عِنْدَهَا تُصْبِحُ وَتَبْرَةُ الْأَحْدَاثِ بَطِيئَةً وَمَلِيئَةً بِالتَّفَاصِيلِ ، وَتُشَكِّلُ إِطَارًا لِعَدَدٍ كَبِيرٍ مِنَ الْقَوَائِنِ الدِّيْنِيَّةِ . وَيَمْنَحُ هَذَا الْمُصَدَّرُ دَوْرًا هَامًا لِهَارُونَ ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي بِالْكَادِ تَذَكَّرَهُ الْمَصَادِرُ الْأُخْرَى .

دَوَافِعُ جَمْعِ الْمَخْطُوطَاتِ وَصَنَعِ التُّورَاةِ الْمَكْتُوبَةِ

تَمَّ جَمْعُ الْمَخْطُوطَاتِ وَتَحْرِيرُهَا وَبَلُورَةُ التُّورَاةِ بَعْدَ سَبْعِيٍّ بَابِلَ ، أَوْ مَا يُسَمَّى فِي التُّرَاثِ الْيَهُودِيِّ بِ"شِيْفَاتِ تَسِيُونِ" ، أَيْ "الْعُودَةُ إِلَى صِهْيُونِ" .

فِي الْعَامِ 538 قَبْلَ الْمِيلَادِ ، سَمَحَ مُلْكُ فَارِسَ ، كُورَشَ ، لِلْيَهُودِ بِالْعُودَةِ إِلَى مِثْلَقَةِ يَهُودَاً وَإِقَامَةِ حُكْمٍ ذَاتِيٍّ فِيهَا . وَكَانَ هَذَا الْحُكْمُ الذَّاتِيُّ بِحَاجَةٍ إِلَى قَانُونٍ وَمَحَاكِمٍ وَتَارِيخٍ جَامِعٍ ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَتْ فِيهِ النُّحْبَةُ مُنْقَسِمَةً وَمِتَنَازَعَةً وَتَسْوَدَّ الْمُنَافَسَةُ بَيْنَ تَقَالِيدٍ مُخْتَلَفَةٍ . وَمِنْ أَجْلِ تَوْحِيدِ هَذِهِ النُّحْبَةِ ، كَانَتْ هُنَاكَ حَاجَةٌ إِلَى التَّقَالِيدِ فِي قِصَّةِ تَارِيحِيَّةٍ وَاحِدَةٍ وَقَانُونٍ مُوَحَّدٍ مُقْبُولٍ عَلَى جَمِيعِ الْأَطْرَافِ .

وَيَبْدُو أَنَّهُ تَمَّ تَكْلِيفُ عَزْرَا الْكَاتِبِ ، وَكُتِبَ عَمَلُوا تَحْتَ إِمْرَتِهِ ، بِتَنْفِيدِ هَذِهِ الْمُهْمَةِ . وَمَوْجِبُ تَغْيِينِ مَنْ
مَلِكِ فَارِسِ أَرْتَحَشْتَا ، جَمْعُ عَزْرَا الْكِتَابَاتِ الْعِبْرِيَّةِ الْقَدِيمَةِ ، وَصَنَعَ كِتَابًا وَاحِدًا مَنَحَ فِيهِ الْأَوْلَوِيَّةَ لِلْمُصَدَّرِ
الْكهنِيِّ ، لِأَنَّهُ كَانَ كَاهِنًا بِنَفْسِهِ .

وَيُرَجَّحُ الْبَاحِثُونَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبِيلِ الصَّدَقَةِ ، أَنَّهُ فِي مَرْكَزِ التَّارِيخِ الْيَهُودِيِّ الَّذِي صَنَعَهُ عَزْرَا ، الَّذِي
يُفَرِّضُ فِيهِ أَنَّ يَجْمَعُ الْعَائِدِينَ مِنْ بَابِلِ ، كَانَتْ قِصَّةُ الْخُرُوجِ مِنْ مِصْرَ ، عَلَى أَنَّهَا قِصَّةُ الْعَائِدِينَ مِنْ
الْشَّتَاتِ ، وَالرَّحْلَةَ إِلَى فِلَسْطِينَ وَتَلَقَّفَ الْقَانُونَ مِنْ زَعِيمٍ لَدَيْهِ كَرِيْمَا ، إِلَّا وَهُوَ مُوسَى .

ووفقًا لِلرَّوَايَةِ التَّوْرَاتِيَّةِ ، فَإِنَّهُ عِنْدَمَا حَضَرَ عَزْرَا ، عَلَى رَأْسِ مَجْمُوعِهِ مِنَ الْعَائِدِينَ مِنْ بَابِلِ ، إِلَى الْقُدْسِ
، جَرَى اسْتِقْبَالٌ كَبِيرٌ ، عَرَضَ عَزْرَا خِلَالَهُ "كِتَابَ التَّوْرَةِ" . وَجَاءَ فِي سَفَرِ نَحْمِيَا ، الْآيَةِ 2-3 مِنْ
الْإِضْحَاحِ الثَّامِنِ : "فَاتَى عَزْرَا الْكَاتِبَ بِالشَّرِيعَةِ إِمَامَ الْجَمَاعَةِ . . . وَقَرَأَ فِيهَا إِمَامَ السَّاحَةِ الَّتِي أَمَامَ
بَابِ الْمَاءِ مِنَ الصَّبَاحِ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ إِمَامَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَكَانَتْ أَذَانُ كُلِّ الشَّعْبِ نَحْوَ سَفَرِ
الشَّرِيعَةِ" . هَكَذَا وُلِدَتِ التَّوْرَةُ كَمَا نَعْرِفُهَا الْيَوْمَ تَقْرِيْبًا .

المحتويات

تَبْدَأُ التَّوْرَةُ مِنْ بَدَايَةِ خَلْقِ اللَّهِ لِلْعَالَمِ ، مَرُورًا بِبَدَايَاتِ شُعْبِ إِسْرَائِيلَ ، وَنُزُولِهِمْ إِلَى مِصْرَ ، وَإِعْطَاءِ
التَّوْرَةَ عِنْدَ جَبَلِ سَيْنَاءِ التَّوْرَاتِي . وَيُنْتَهِي بِمَوْتِ مُوسَى قَبْلَ عُبُورِ شُعْبِ إِسْرَائِيلَ إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ
الْمَوْعُودَةِ . يَتَخَلَّلُ السَّرْدُ الْعَالِمِ الْمُحَدَّدَةَ (الالتزامات الدينيَّة والقوانين المدنيَّة) الْمُقَدَّمَةَ صِرَاحَةً (أَيِ
الْوَصَايَا الْعَشْرَ) أَوْ مُضْمَنِهِ ضَمْنِيًّا فِي السَّرْدِ (كَمَا فِي خُرُوجِ I2 و I3 مِنْ قَوَانِينِ الْإِحْتِفَالِ بَعِيدُ الْفَصْحِ)

باللغة العبرية ، يتم تحديد الكتب الخمسة في التوراة من خلال الاقتراحات في كل كتاب ؛ والأسماء الإنجليزية الشائعة للكتب مشتقة من الترجمة السبعينية اليونانية وتُعكس الموضوع الأساسي لكل كتاب

كتاب التكوين هو أول كتاب في التوراة . أنه قابل للقسم إلى جزأين ، التاريخ البدائي (الفصول I-II) وتاريخ الأجداد (الفصول I2-50) . يُحدّد التاريخ البدائي مفاهيم المؤلف (أو المؤلفين) عن طبيعة الآلة وعلاقة الجنس البشري مع خالقه : الله يخلق عالماً صالحاً ومناسباً للبشرية ، ولكن عندما يُفسده الإنسان بالخطيئة الله يُقرر تدمير خليقته ، وينقذ فقط نوح الصالح لإعادة العلاقة بين الإنسان والله . يُخبرنا تاريخ الأجداد (الفصول I2-50) عن عصور ما قبل التاريخ لإسرائيل ، شعب الله المختار . بأمر من الله ، يُسافر إبراهيم ، نسل نوح ، من منزله إلى أرض كنعان التي وهبها الله ، حيث يسكن كغريب ، كما يفعل ابنة إسحاق وحفيده يعقوب . تم تغيير اسم يعقوب إلى إسرائيل ، ومن خلال وكالة ابنه يوسف ، نزل بنو إسرائيل إلى مصر ، 70 شخصاً مع منازلهم ، ووعدهم الله بمستقبل رائع . ينتهي سفر التكوين بإسرائيل في مصر ، استعداداً لمجيء موسى والخروج . تتخلل السرد سلسلة من العهود مع الله ، تضيق نطاقها تبعاً من البشرية جمعاء (العهد مع نوح) إلى علاقة خاصة مع شعب واحد فقط (إبراهيم ونسله من خلال إسحاق ويعقوب) .

شيموت / الخروج

كتاب الخروج هو ثاني سفر من التوراة ، مباشرة بعد سفر التكوين . يروي الكتاب كيف ترك الإسرائيليون القدماء العبودية في مصر بقوة الرب ، الإله الذي اختار إسرائيل لشعبه . يلحق الرب أذى مروع مجاطفهم من خلال الصّربات الأسطورية في مصر مع النبي موسى كزعيم لهم ، يسافرون عبر البرية

إلى جَبَلِ سَيْنَاءِ التوراة ، حَيْثُ وَعَدَهُمُ الرَّبُّ بِأَرْضِ كَنْعَانَ («أَرْضُ الْمُوعَدِ») مُقَابِلِ إِخْلَاصِهِمْ .
يَدْخُلُ إِسْرَائِيلُ فِي عَهْدٍ مَعَ الرَّبِّ الَّذِي أَعْطَاهُمْ قَوَانِينَهُمْ وَتَعْلِيمَاتِهِمْ لِبِنَاءِ خَيْمَةِ الْجَمَاعَةِ ، وَهِيَ الْوَسِيلَةُ
الَّتِي سَيَأْتِي بِهَا مِنَ السَّمَاءِ وَيَسْكُنُ مَعَهُمْ وَيَقُودُهُمْ فِي حَرْبٍ مُقَدَّسَةٍ لِامْتِلَاقِ الْأَرْضِ ، وَمِنْ تَمَّ يَمْنَحُهُمْ
السَّلَامَ .

تُنسَبُ الدِّرَاسَاتُ الْحَدِيثَةُ إِلَى مُوسَى بِشَكْلِ تَقْلِيدِيٍّ ، وَتُعْتَبَرُ الْكِتَابُ فِي الْبِدَايَةِ تَاجًا لِلْمَنْفَى الْبَابِلِيِّ
(الْقُرْنُ السَّادِسُ قَبْلَ الْمِيلَادِ) ، مِنْ التَّقَالِيدِ الْمَكْتُوبَةِ وَالشَّفُوفِيَّةِ السَّابِقَةِ ، مَعَ التَّفْصِيحَاتِ النَّهَائِيَّةِ فِي قَتْرَةِ مَا
بَعْدَ الْمَنْفَى الْفَارِسِيَّةِ (الْقُرْنُ الْخَامِسُ قَبْلَ الْمِيلَادِ) . تُشِيرُ كَارُولُ مَائِرِزُ ، فِي تَعْلِيْقِهَا عَلَى سَفَرِ الْخُرُوجِ ،
إِلَى أَنَّهُ يُمَكِّنُ الْقَوْلُ أَنَّهُ أَهَمُّ كِتَابٍ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ ، لِأَنَّهُ يَعْرِضُ السَّمَاتِ الْمُحَدَّدَةَ لِهَوِيَّةِ إِسْرَائِيلِ :
ذِكْرِيَاتُ الْمَاضِي الَّذِي تَمَيَّزَتْ بِهِ الْمَشَقَّةُ وَالْهُرُوبُ ، وَهُوَ عَهْدٌ مُلْزَمٌ مَعَ اللَّهِ ، الَّذِي يُخْتَارُ إِسْرَائِيلَ
وَأِرْسَاءَ حَيَاةِ الْمُجْتَمَعِ وَالْمَبَادِيِ التَّوْحِيْدِيَّةِ لِاسْتِدَامَتِهَا .

اللاويين

يَبْدَأُ سَفَرُ الْلاوِيِّينَ بِتَعْلِيمَاتِ لِبْنِيِّ إِسْرَائِيلَ حَوْلَ كَيْفِيَّةِ اسْتِخْدَامِ خَيْمَةِ الْجَمَاعَةِ الَّتِي بَنَوْهَا لِلتَّو (اللاويين I-
IO) . وَيُبْعُ ذَلِكَ قَوَاعِدُ الطَّهَارَةِ وَالتَّجَسُّسِ (اللاويين II-15) ، وَالَّتِي تَتَضَمَّنُ قَوَانِينَ الذَّبْحِ وَالْحَيَوَانَاتِ الَّتِي
يُجُوزُ أَكْلُهَا (انظر أيضًا : كَشْرُوت) ، وَيَوْمَ الْكُفَّارَةِ (اللاويين I6) ، وَمُخْتَلَفُ الْقَوَانِينِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالطَّقْسِيَّةِ
أَحْيَانًا . يُسَمَّى قَانُونُ الْقُدَّاسَةِ (اللاويين I7-26) . يُقَدِّمُ الْلاوِيِّينَ 26 قَائِمَةً مُفَصَّلَةً بِالْمَكَافَاتِ لِاتِّبَاعِ وَصَايَا
اللَّهِ وَقَائِمَةً مُفَصَّلَةً بِالْعُقُوبَاتِ لِعَدَمِ اتِّبَاعِهَا . يُؤَسِّسُ سَفَرُ الْلاوِيِّينَ I7 الذَّبَائِحَ فِي خَيْمَةِ الْجَمَاعَةِ

باعتبارها مرسوماً أبدياً ، ولكن تم تغيير هذا المرسوم في الكتب اللاحقة مع كون الهيكل هو المكان الوحيد الذي يُسمح فيه بتقديم الذبائح .

العَدَد

سَفَرُ الْعَدَدِ هُوَ رَابِعُ سَفَرٍ مِنَ التَّوْرَةِ . لِلْكِتَابِ تَارِيخٌ طَوِيلٌ وَمَعْتَدٌ ، لَكِنْ شَكْلُهُ النَّهَائِي رُبَّمَا يَرْجِعُ إِلَى التَّتَبُّعِ الْكَهْنَوِيِّ (أَيِ التَّحْرِيرِ) لِمُصَدِّرٍ يَهُودِيٍّ فِي وَقْتٍ مَا فِي الْفَتْرَةِ الْفَارِسِيَّةِ الْمُبَكَّرَةِ (الْقَرْنِ الْخَامِسِ قَبْلَ الْمِيلَادِ) . يَأْتِي اسْمُ السَّفَرِ مِنَ الْعَدَادِينَ الَّذِينَ أُجْرِيَا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ .

تَبَدُّ الأَرْقَامِ فِي جَبَلِ سَيْنَاءَ ، حَيْثُ حَصَلَ الإِسْرَائِيلِيُّونَ عَلَى شَرَائِعِهِمْ وَعَهْدِهِمْ مِنَ اللَّهِ وَإِقَامِ اللَّهِ بَيْنَهُمْ فِي الْحَرَمِ . الْمُهَمَّةُ الَّتِي إِمَامُهُمْ هِيَ الْاسْتِيْلَاءُ عَلَى أَرْضِ الْمُوعَدِ . يَتِمُّ عَدَّ النَّاسِ وَالِاسْتِعْدَادَاتِ لِاسْتِنْفَافِ مَسِيرَتِهِمْ . يَبْدَأُ الإِسْرَائِيلِيُّونَ الرَّحْلَةَ ، لَكِنَّهُمْ « يَتَذَمَّرُونَ » عَلَى الْمَصَاعِبِ عَلَى طُولِ الطَّرِيقِ ، وَبِشَأْنِ سُلْطَانِ مُوسَى وَهَرُونَ . مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ ، يَدْمُرُ اللَّهُ مَا يَقْرُبُ مِنْ 15000 مِنْهُمْ بِوَسَائِلِ مُخْتَلِفَةٍ . وَصَلُوا إِلَى حُدُودِ كَنْعَانَ وَأَرْسَلُوا جَوَاسِيسَ إِلَى الْأَرْضِ . عِنْدَ سَمَاعِ رِوَايَةِ الْجَاسُوسِينَ الْمَخِيفَةِ عَنِ الْأَوْضَاعِ فِي كَنْعَانَ ، رَفَضَ الإِسْرَائِيلِيُّونَ الْاسْتِيْلَاءَ عَلَيْهَا . يَحْكُمُ عَلَيْهِمُ اللَّهُ بِالْمَوْتِ فِي الْبَرِّيَّةِ حَتَّى يَكْبُرَ جِيلٌ جَدِيدٌ وَيَقُومَ بِالْمُهَمَّةِ . يَنْتَهِي السَّفَرُ بِجِيلٍ جَدِيدٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي سَهْلِ مَوَابِ مُسْتَعِدِينَ لِعَبُورِ نَهْرِ الْأَرْدُنِّ .

الأَرْقَامُ تَتَوَجَّأُ لِقِصَّةِ خُرُوجِ إِسْرَائِيلَ مِنَ الْاضْطِهَادِ فِي مِصْرٍ وَرِحْلَتِهِمْ لِلْاسْتِيْلَاءِ عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي وَعَدَ بِهَا اللَّهُ آبَاءَهُمْ . عَلَى هَذَا النَّحْوِ ، فَإِنَّهُ يَصِلُ إِلَى اسْتِنْتِاجِ الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي تَمَّ تَقْدِيمُهَا فِي سَفَرِ التَّكْوِينِ وَالَّتِي تَمَّ عَرْضُهَا فِي سَفَرِ الْخُرُوجِ وَاللَّوِينِ : لَقَدْ وَعَدَ اللَّهُ شُعْبَ إِسْرَائِيلَ بِأَنَّهُمْ سَيَصْبِحُونَ أُمَّةً عَظِيمَةً

(أي عديدة) ، وَأَنْ تَكُونَ لَهُمْ عِلَاقَةً خَاصَّةً مَعَ الرَّبِّ إِلَهُهُمْ ، وَإِنْ يَمْلِكُوا أَرْضَ كَنْعَانَ . تُظْهِرُ الْأَرْقَامُ
أَيْضًا أَهْمِيَّةَ الْقِدَاسَةِ وَالْأَمَانَةِ وَالثِّقَةِ : عَلَى الرَّغْمِ مِنْ حُضُورِ اللَّهِ وَكَهْنَتِهِ ، يَنْقَرِ إِسْرَائِيلُ إِلَى الْإِيمَانِ وَتُرِكَ
مِلْكِيَّةُ الْأَرْضِ لِحِيلِ جَدِيدٍ .

التَّشْبِيهُ

سَفَرُ التَّشْبِيهِ هُوَ الْكِتَابُ الْخَامِسُ فِي التَّوْرَةِ . تَتَكُونُ الْإِصْحَاحَاتُ مِنْ II إِلَى 30 مِنَ الْكِتَابِ مِنْ ثَلَاثِ
عِظَاتٍ أَوْ خَطَبٍ أَلْقَاهَا مُوسَى لِلإِسْرَائِيلِيِّينَ فِي سَهْلِ مَوَّابِ ، قَبْلَ دُخُولِهِمْ أَرْضَ الْمُوعَدِ بِوَقْتِ قَصِيرٍ .
تَرْوِي الْعِظَةُ الْأُولَى أَرْبَعِينَ عَامًا مِنَ التَّجَوُّلِ فِي الْبَرِّيَّةِ الَّتِي آدَّتْ إِلَى تِلْكَ اللَّحْظَةِ ، وَتَنْتَهِي بِنِصَائِحِ
لِمُرَاعَاةِ الشَّرِيعَةِ (أَوْ التَّعَالِيمِ) ، وَالَّتِي يُشَارُ إِلَيْهَا فِيمَا بَعْدُ بِاسْمِ شَرِيعَةِ مُوسَى ؛ وَالثَّانِي يُذَكِّرُ بِنِي
إِسْرَائِيلَ بِالْحَاجَةِ إِلَى اتِّبَاعِ الرَّبِّ وَالْقَوَانِينِ (أَوْ التَّعَالِيمِ) الَّتِي أَعْطَاهُمْ ، وَالَّتِي تَعْتَمِدُ عَلَيْهَا مِلْكِيَّتُهُمْ لِلْأَرْضِ
؛ وَالثَّلَاثُ يُقَدِّمُ الرَّاحَةَ الَّتِي حَتَّى إِذَا أُثْبِتَتْ إِسْرَائِيلَ عَدَمَ إِخْلَاصِهَا وَفَقَدَتْ الْأَرْضَ ، مَعَ التَّوْبَةِ يُمَكِّنُ
إِسْتِعَادَةَ كُلِّ شَيْءٍ . تَحْتَوِي الْإِصْحَاحَاتُ الْأَرْبَعَةُ الْأَخِيرَةَ (31-34) عَلَى نَشِيدِ مُوسَى ، وَبَرَكَةِ
مُوسَى ، وَرَوَايَاتٍ تَرْوِي اتِّقَالَ عِبَادَةِ الْقِيَادَةِ مِنْ مُوسَى إِلَى يُسُوعِ ، وَأَخِيرًا مَوْتِ مُوسَى عَلَى جَبَلِ نَبُو

مُقَوِّمَاتُ التَّوْرَةِ

لَا تَتَكُونُ مِنْ نِظَامِ تَشْرِيْعِيٍّ مُتَكَامِلٍ أَوْ مَنْظَمٍ بَلْ تَتَكُونُ مِنْ خُطُوطِ فُلْسُفِيَّةٍ عَرِيضَةٍ ذَاتِ عِلَاقَةٍ بِالَّذِينَ
الْيَهُودِيِّينَ ، فَضْلًا عَنْ اِحْتَوَائِهَا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْقَوَانِينِ وَالسُّنَنِ الْوَاضِحَةِ وَالْمُحَدَّدَةِ وَالَّتِي تَحْكُمُ تَصَرُّفَاتِ
الْبَشَرِ ، وَتَتَشَابَهُ هَذِهِ الْقَوَانِينُ التَّوْرَاتِيَّةُ بِالْقَوَانِينِ وَالسُّنَنِ مِنَ الشَّرْقِ الْأَدْنَى الْقَدِيمِ .

لَا يَخْتَلِفُ الْيَهُودُ أَنَّ التَّوْرَةَ هِيَ الْكَلِمَةُ الْفُضْلُ عِنْدَمَا يَعْلَقُ الْأَمْرُ بِالذِّيَانَةِ الْيَهُودِيَّةِ أَوْ كَمَرْجِعٍ يَرْجِعُ إِلَيْهِ الْيَهُودُ فِي الْأُمُورِ الْعَقَائِدِيَّةِ ، وَيَنْظُرُ الْيَهُودُ وَالْمَسِيحِيُّونَ إِلَى التَّوْرَةِ عَلَى أَنَّهَا كَلَامُ اللَّهِ وَإِنَّهُ غَيْرُ مُحَرَّفٍ عَلَى خِلَافِ الْمُسْلِمِينَ (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ أَنَّ التَّوْرَةَ قَدْ حُرِفَتْ) وَإِنَّ اللَّهَ أَمَلَهُ عَلَى نَبِيِّهِ مُوسَى فِي طَوْرِ سَيْنَاءَ .

حَرَكَةُ التَّجْدِيدِ الدِّينِيِّ الْيَهُودِيِّ

تَحْرِيفُ الْمَحْرَفِ وَتَعْدِيلُهُ

لَقَدْ دُفِنَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَدُفِنُوا شَرِيعَتَهُ مَعَهُ . فَقَدْ نَظَرُوا لِلتَّوْرَةِ وَمَا فِيهَا عَلَى أَنَّهَا شَرِيعَةٌ تُنَاسِبُ مُجْتَمَعًا قَبْلِيًّا رَعُويًا ، وَلَا تَصْلُحُ وَلَا تَنَاسِبُ مَعَ الْحَيَاةِ الْمَدِينِيَّةِ وَالْمَسْتَجِدَاتِ الَّتِي طَرَأَتْ عَلَى حَيَاتِهِمْ بَعْدَ اسْتِقْرَارِهِمْ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ ، لِكِنَّهُمْ لَمْ يَشْعُرُوا بِالْحَاجَةِ الْمَاسَةِ إِلَى تَجْدِيدِ الْخَطَابِ الدِّينِيِّ إِلَّا عِنْدَمَا قَامَ الْمَلِكُ نَبُوخَدَنْصُرُ مَلِكُ بَابِلَ فِي الْقُرْنِ الْخَامِسِ (ق . م) بِتَهْجِيرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى بَابِلَ ، وَهُوَ مَا يُعْرَفُ فِي التَّارِيخِ الْيَهُودِيِّ بِالسَّبْيِ الْبَابِلِيِّ ، فَقَدْ حَدَّثَتْ لَهُمْ هُنَاكَ صَدْمَةٌ حَضَارِيَّةٌ ، إِذْ وَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ فِجَاءَةً فِي مُجْتَمَعٍ بَلَغَ قِمَّةَ التَّحَضُّرِ سِيَاسِيًّا وَاقْتِصَادِيًّا وَاجْتِمَاعِيًّا وَدِينِيًّا ، هَذَا مِنْ نَاحِيَةِ . وَمِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى ، شَعَرُوا أَنَّ هَذَا التَّهْجِيرَ عِقَابٌ مِنَ الرَّبِّ لَهُمْ ، لِذَلِكَ رَاحَ عُلَمَاءُ الدِّينِ يُجَدِّدُونَ شَرِيعَةَ مُوسَى (ع) وَاتَّخَذُوا مِنْ تَشْرِيعَاتِ بِلَادِ الرَّاغِدِينَ نَمُودَجًا وَقُدُوةً . وَبَدَأَتْ أُولَى لِبَنَاتِ الدِّينِ الْجَدِيدِ الَّتِي أُطْلِقُوا عَلَيْهِ اسْمُ الدِّينِ الْيَهُودِيِّ (دَت يَهُودِيَّت) عَلَى أَرْضِ بَابِلَ ، وَوَضَعَتْ تَشْرِيعَاتَ هَذَا الدِّينِ فِي كِتَابٍ يُسَمَّى « الْمَشْنَا » ، وَمِنْ مَعَانِي هَذَا الْاسْمِ : الْإِعَادَةُ أَوْ التَّكْرَارُ أَوْ التَّثْنِيَّةُ !

وَيَبْدُو أَنَّ فِي اخْتِيَارِ هَذَا الْاسْمِ دَلَالَةً عَلَى أَنَّ دِينَهُمُ الْجَدِيدَ الَّذِي وَضَعُوهُ هُوَ تَثْنِيَّةٌ لِشَرِيعَةِ مُوسَى (ع) ، أَيْ أَنَّهُ بُدِّلَ لَهَا ، وَهُنَاكَ بَعْضُ الْأَدِلَّةِ عَلَى ذَلِكَ .

فَقَدْ مَيَّزَ عُلَمَاءُ الدِّينِ الْيَهُودِيِّ فِي كِتَابِهِمْ هَذَا بَيْنَ شَرِيعَتَيْنِ أَوْ دِينَيْنِ : (دت موشيه) أَيْ دِينُ مُوسَى (ع) ،
(دت يهوديت) الدِّيانَةُ الْيَهُودِيَّةُ ، وَفِي حِينِ حَصْرُوا « دِينُ مُوسَى » فِي أَحْكَامِ الطَّهَارَةِ وَالتَّجَاسَةِ
وَإِخْرَاجِ الْعُشُورِ وَالْوَفَاءِ بِالْتُّدُورِ ، جَعَلُوا الدِّيانَةَ الْيَهُودِيَّةَ تَشْمَلُ جَمِيعَ أَوْجُهِ الْحَيَاةِ وَالْمَعَامَلَاتِ وَآدَابِ
السُّلُوكِ .

لَمْ يَكْتَفِ عُلَمَاءُ الدِّينِ الْيَهُودِيِّ ، الَّذِينَ وَضَعُوا الْمَشْنَأَ بِهَذَا ، بَلْ لَقَدْ قَسَمُوا أَنْسَابَ الْيَهُودِ ، وَجَعَلُوا
نُسْبَ الْكَهَنَةِ يَأْتِي عَلَى رَأْسِ تِلْكَ الْأَنْسَابِ الْعَشْرَةِ الَّتِي وَضَعُوهَا ، ثُمَّ يَلِيهِ نُسْبُ لَأَوِي ، أَيْ أَنَّهُمْ جَعَلُوا
أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ مِنْ يَنْتَسِبُونَ لِهَارُونَ (ع) أَعْلَى مِمَّنْ يَنْتَسِبُ لِمُوسَى (ع) ، أَيْ جَعَلُوا أَنْفُسَهُمْ وَكِتَابَهُمْ فِي
الصَّدَارَةِ ، ثُمَّ يَلِيهِمْ مُوسَى وَشَرِيعَتَهُ .

وَعِنْدَمَا تَأَثَّرَ عُلَمَاءُ الْيَهُودِ بِفِكْرِهِ الْخَلَّاصِ عِنْدَ الْبَابِلِيِّينَ وَالْفَرَسِ ، تَصَوَّرُوهُ خَلَّاصاً مَادِياً وَلَيْسَ رُوحِيّاً ،
كَمَا فِي الزَّرَادَشْتِيَّةِ ، وَجَعَلُوا الْمُنْخَلَصَ مَسِيحاً أَيْ مَسُوحاً بِالزَّيْتِ الْمُقَدَّسِ ، (إِذْ كَانَتْ عَادَةٌ مَسَحَ
الْمُلُوكَ وَالْكَهَنَةَ بِالزَّيْتِ الْمُقَدَّسِ شَائِعَةً بَيْنَ شُعُوبِ الشَّرْقِ الْأَدْنَى الْقَدِيمِ) ، وَلَمْ يَخِيلُوهُ مِنْ سِبْطِ لَأَوِي ،
أَيْ لَمْ يَنْسَبُوهُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَلَكِنْ تَصَوَّرُوهُ مَلِكاً مِنْ نَسْلِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ أَيْ مِنْ سِبْطِ يَهُوذَا ،
وَتَمَّ تَأْوِيلُ بَعْضِ فَقَرَاتِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ وَنَفْسِيرُهَا عَلَى أَنَّهَا تُشِيرُ إِلَى الْمَسِيحِ الْمُنْخَلَصِ مِنْهَا (التَّكْوِينِ :
49/10) ، (إِسْعِيَاءُ : 9-II/I) .

فَعَلَّ عُلَمَاءُ الْيَهُودِيَّةِ الشَّيْءَ نَفْسِهِ عِنْدَ تَحْدِيدِ مَكَانِ الْعِبَادَةِ ، فَلَمْ يَتَأَسَّوْا بِمُوسَى (ع) إِذْ كَانَ الْوَحْيُ
يَنْتَزِلُ عَلَيْهِ فِي « خَيْمَةِ الْجَمِيعِ » ، بَلْ أَرَادُوا أَنْ تَكُونَ لَهُمْ دُورٌ عِبَادَةٌ مِثْلَ مَعَابِدِ بِلَادِ الرَّافِدِينَ
وَمِصْرَ . لِذَلِكَ تَأَسَّوْا بِسُلَيْمَانَ وَبِالْمَعْبَدِ الَّذِي بَنَاهُ لِلرَّبِّ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ بَيْتَ الرَّبِّ الَّذِي بَنَاهُ

سُلَيْمَانَ كَانَ نِصْفَ مَسَاحَةِ الْقَصْرِ الَّذِي بَنَاهُ لِنَفْسِهِ (الملوك الأول : 6/I، 7/I) . وَرَغِمَ أَنْ سُلَيْمَانَ قَدْ
 بَنَى بِرَعْمِهِمْ دَوْرًا لِعِبَادَةِ الْآلِهَةِ الْوَثْنِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْبُدُهَا زَوْجَاتِهِ أَيْضًا ، فَبَنَى بَيْتًا لـ « كموش » وَثْنِ
 الْمُوَابِينِ ، وَلـ « موك » وَثْنِ بَنَى عَمُونَ ، وَكَانَتْ نِسَاؤُهُ الْغَرِيبَاتِ تَوْقُدُ وَتَذْبَحُ لِآلِهَتِنَ (الملوك الأول :

-II/7

مَا هُوَ النَّمُودَجُ الَّذِي اقْتَدَوْا بِهِ عِنْدَ وَضْعِ الشَّرِيعَةِ الْيَهُودِيَّةِ الْجَدِيدَةِ ؟

أَنَّ عُلَمَاءَ الْيَهُودِ اضْطُرُّوا إِلَى التَّجْدِيدِ أَثْنَاءَ فِتْرَةِ التَّهْجِيرِ فِي بَابِلَ فِي الْقَرْنِ الْخَامِسِ (ق . م) ، لِلرَّدِّ
 عَلَى أَسْئَلَةِ الْيَهُودِ وَاسْتَفْسَارَاتِهِمْ عَنِ الْمُسْتَجَدَّاتِ الَّتِي طَرَأَتْ عَلَى حَيَاتِهِمْ وَاسْتَفْسَارَاتِهِمْ عَنِ
 الْمُعْتَقَدَاتِ الْغَرِيبَةِ الَّتِي يُؤْمِنُ بِهَا سُكَّانُ بِلَادِ الرَّافِدِينَ ، وَأَسْوَاقِ مَثَلًا عَنِ الْمَلَائِكَةِ . فَلَمْ تَتَحَدَّثْ كَتَبُ
 التَّوْرَةِ عَنِ طَبِيعَةِ الْمَلَائِكَةِ أَوْ هَيْئَتِهِمْ أَوْ وَظِيفَتِهِمْ ، بَيْنَمَا صَوَّرَ سُكَّانُ بِلَادِ الرَّافِدِينَ عَلَى جُدْرَانِ
 مَعَابِدِهِمْ وَقُصُورِهِمْ كَأَنَّاتِ خُرَافِيَّةٍ تَحْرُسُ الشَّجَرَةَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي هِيَ مَزِيحٌ مِنْ نَخْلَةٍ وَبَبَاتٍ مَخْرُوطِي ،
 وَجَعَلُوهَا تُحْفَ بِالشَّجَرَةِ مِنَ الْيَمِينِ وَمِنَ الشَّمَالِ ، وَجَعَلُوهَا لَهَا رَأْسَ إِنْسَانٍ أَوْ نَسْرٍ ، وَجَعَلُوهَا ذَوَاتِ
 أَجْنِحَةٍ ضَخْمَةٍ ، فَبَدَأَ الْيَهُودُ فِي بَابِلَ يَسْتَفْسِرُونَ عَنِ الْمَلَائِكَةِ الْوَارِدِ ذِكْرَهَا بِالْعَهْدِ الْقَدِيمِ ، هَلْ كَانَتْ
 عَلَى هَذِهِ الْهَيْئَةِ الَّتِي عَلَيْهَا الْكَائِنَاتُ الَّتِي تَحْرُسُ مَعَابِدَ بَابِلَ ؟ وَمَا طَبِيعَتُهُمْ هَلْ خُلِقَتْ مِنْ نُورٍ أَمْ مِنْ
 نَارٍ أَمْ مِنْ طِينٍ ؟ وَمَتَى خُلِقَتْ ؟ أَى فِي أَيِّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْخَلْقِ السَّتَّةِ خُلِقَتْ الْمَلَائِكَةُ ؟ وَمَا
 وَظِيفَتُهُمْ ؟ وَمَا عِلَاقَتُهُمْ بِبَعْضِهِمُ الْبَعْضُ ؟ وَمَا عِلَاقَتُهُمْ بِالْبَشَرِ ؟ وَمَا عِلَاقَتُهُمْ بِالرَّبِّ أَوْ بِعَرْشِ الرَّبِّ ؟
 وَمَنْ هُمُ الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ؟ وَهَلْ لِلْمَلَائِكَةِ أَسْمَاءٌ وَلِمَاذَا ؟ وَمَنْ هُوَ الْمَلِكُ الَّذِي زَارَ إِبْرَاهِيمَ (ع)
 وَبَشَرَهُ بِإِسْحَاقَ ، وَمَنْ هُوَ الْمَلِكُ الَّذِي قَبِضَ رُوحَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ؟ وَغَيْرِهَا مِنْ الْأَسْئَلَةِ الَّتِي كَانَتْ

عَلَى عُلَمَاءِ الدِّينِ أَنْ يُجِيبُوا عَنْهَا ، وَاضْطَرُّوا فِي إِجَابَاتِهِمْ لِلإِسْعَانَةِ بِمَا هُوَ مُوجُودٌ وَمُصَوَّرٌ فِي بِلَادِ
الرَّافِدِينَ ، لَكِي يَسْتَكْمِلُوا المَعْلُومَاتِ الكَثِيرَةَ الَّتِي سَكَتَ النَّصُّ عَنْهَا أَوْ لَمْ يَجِدُوا أَجَابَةً مُتَعَبَةً لَهَا فِي
نَصِّ التَّوْرَةِ

وَذَكَرَ التَّلْمُودُ وَكَبَّ التَّفَاسِيرِ اليَهُودِيَّةِ (المدراسيم) أَنَّ عُلَمَاءَ اليَهُودِ أَخَذُوا أَسْمَاءَ المَلَائِكَةِ مِنَ البَابِلِيِّينَ ،
أَمَّا المَعْبَدُ مِنْ حَيْثُ تَصْمِيمِهِ وَبِنَائِهِ وَطُقُوسِ الخِدْمَةِ وَالطَّهَارَةِ وَالْحَجِّ فَلَقَدْ اسْتَكْمَلُوهَا مِنَ الكَهَنُوتِ
المِصْرِيِّ القَدِيمِ وَشَغَلَتْ حيزًا كَبِيرًا مِنْ كِتَابِهِم الدِّينِي الَّذِي وَضَعُوهُ ، أَيْ كِتَابِ « المَشْنَا » الَّذِي بَدَأَتْ
إِرْهَاصَاتُهُ فِي القَرْنِ الخَامِسِ (ق . م) فِي بَابِلِ ، وَتَبَلَّوْا فِي سِتَّةِ أَجْزَاءِ القَرْنِ الثَّلَاثِ المِيلَادِيِّ فِي
فِلَسْطِينَ . فَالمَشْنَا عَمَلٌ جَمَاعِي لَمْ يَقُمْ بِهِ فَرْدٌ ، وَلَكِنَّهُ جَهْدُ عُلَمَاءَ كَثْرٍ عَلَى مَدَى عِدَّةِ قُرُونٍ ، وَلَمْ يَنْتَهِ
الأَمْرُ عِنْدَ هَذَا الحَدِّ ، بَلْ وَجِدَ عُلَمَاءُ اليَهُودِ الَّذِينَ جَاءُوا بَعْدَ ذَلِكَ ، بَيْنَ القَرْنَيْنِ الرَّابِعِ وَالسَّابِعِ
المِيلَادِيِّينَ ، أَنَّ هَذَا الكِتَابَ صَعْبٌ وَغَيْرُ مَفْهُومٍ ، فَلَقَدْ مَاتَتْ لُغَتُهُ العِبْرِيَّةُ إِضَافَةً لِكُونِهِ يَعْتمِدُ الإِبْجَازَ
لِدَرَجَةِ الغُمُوضِ ، فَراحُوا يَشْرَحُونَ هَذَا الكِتَابَ بَلَّغْتَهُمُ الَّتِي يَتحدَّثُونَهَا وَهِيَ الأَرَامِيَّةُ ، وَجَاءَ الشَّرْحُ
بِمَثَابَةِ تَسْجِيلِ حَيِّ لِحَلَقَاتِ الدَّرْسِ وَالتَّنَاقُشِ الَّتِي قَامَتْ عَلَى أُسَاسِ الكِتَابِ بِمَدَارِسِ بَابِلِ الدِّينِيَّةِ
وَمَدَارِسِ فِلَسْطِينَ . لِذَلِكَ ظَهَرَ تَلْمُودَانِ : أَحَدُهُمَا بَابِلِي نَسَبَهُ لِمَدَارِسِ بَابِلِ وَهُوَ الأَكْبَرُ حِجْمًا وَالَّذِي
اسْتَمَرَ العَمَلُ فِيهِ فَتْرَةً أَطْوَلَ ، وَالثَّانِي أورشليمي نَسَبَهُ لِمَدَارِسِ فِلَسْطِينَ وَهُوَ أَقَلُّ حِجْمًا ، وَأَنْتَهَى العَمَلُ
فِيهِ بَعْدَ فَتْرَةٍ قَصِيرَةٍ مِنَ البِدَايَةِ . لِذَلِكَ عِنْدَمَا يَذْكَرُ اسْمَ « تَلْمُودِ » فَقَطْ ، يُفْصَدُ بِهِ التَّلْمُودُ البَابِلِي .

لَمْ تَتَوَقَّفْ مَسِيرَةَ تَجْدِيدِ الْخُطَابِ الدِّينِيِّ عِنْدَ وُضْعِ كِتَابِ « الْمَشْنَا » ثُمَّ شَرَحَهُ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَفِي نَهَائِهِ الْقُرْنِ الثَّامِنِ الْمِيلَادِيِّ ، تَعَرَّضْتَ الْيَهُودِيَّةَ لِاخْتِبَارِ صَعْبٍ ، فَقَدْ تَلَقَّتْ ضَرْبَهُ فِي مَقْتَلٍ ، وَجَاءَتْ الضَّرْبَةَ مِنْ الدَّاخِلِ ، وَكَانَتْ بِمَثَابَةِ الدَّافِعِ الْحَقِيقِيِّ لِتَجْدِيدِ الْخُطَابِ الدِّينِيِّ مَرَّةً ثَابِتَةً .

فِي الْقُرْنِ الثَّامِنِ الْمِيلَادِيِّ ، كَانَ الْإِسْلَامُ اتَّشَرَ مِنَ الْمُحِيطِ الْهِنْدِيِّ إِلَى الْمُحِيطِ الْأَطْلَسِيِّ ، وَبَدَأَ تَدْوِينِ التَّرَاثِ الْإِسْلَامِيِّ ، وَخَشَى عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنَ اللَّحْنِ بَعْدَ دُخُولِ الْكَثِيرِ مِنْ أَهْلِ الْأُمُصَارِ الْمَفْتُوحَةِ فِي الْإِسْلَامِ ، وَبَدَأَ الْإِهْتِمَامُ بِضَبْطِ الْقُرْآنِ وَعِجْمِهِ ، كَمَا تَمَيَّزَ الْقُرْنُ الثَّامِنُ الْمِيلَادِيُّ بِنَشَاطِ عِلْمِ الْكَلَامِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي ظَهَرَ دِفَاعًا عَنِ الْإِسْلَامِ ضِدَّ هُجُومِ الْفَلَسَافَةِ . وَسَطَ هَذِهِ الطُّرُوفِ ، انْشَقَّ عِنَانُ بَنِي دَاوُدَ وَهُوَ مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِيَّةِ ، نَتِيجَةَ خِلَافَاتِ بَيْنُهُ وَبَيْنَ الْعُلَمَاءِ عَلَى الزَّعَامَةِ الدِّينِيَّةِ فِي بَابِلِ ، أَيْ عَلَى مَنْصِبِ « رَأْسِ الْجَالُوتِ » وَكَانَ أَحَقَّ الْمُرْشَحِينَ لَهُ ، وَرَعَمَ ذَلِكَ تَحْطُوهُ وَعَيْنُوا أَحَاهُ الْأَصْغَرَ ، فَانْشَقَّ عَلَيْهِمْ وَاتَّخَذَ لِنَفْسِهِ مَذْهَبًا عَرَفَ بِاسْمِ الْمَذْهَبِ « الْقِرَائِي » وَأَعْلَنَ أَنَّهُ يُؤْمَنُ بِأَسْفَارِ مُوسَى الْخَمْسَةِ وَأَسْفَارِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ جَاءُوا بَعْدَهُ فَقَطُّ ، وَيَرْفُضُ كِتَابِي الْمَشْنَا وَالتَّلْمُودَ ، وَيَبْدُو مِنْ مَوْقِفِ عِنَانِ هَذَا تَأَثُّرَهُ بِالْمُعْتَزَلَةِ وَمَوْقِفِهِمْ مِنَ الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ ، فَاهِمٌ مَا كَانَ يُمَيِّزُ الْمُعْتَزَلَةَ فِيمَا يَتَّصِلُ بِأُصُولِ الدِّينِ ، عَدَمُ الْأَخْذِ بِالرُّوَايَاتِ ، وَالتَّحْرِجُ مِنْ اِعْتِبَارِهَا مَصْدَرًا أُسَاسِيًّا لِلتَّشْرِيعِ الْإِسْلَامِيِّ ، وَكَانَتْ حُجَّتُهُمْ فِي ذَلِكَ أَنَّ كِتَابَ اللَّهِ ، الْقُرْآنَ ، يُسْتَعْنَى بِنَفْسِهِ عَنِ التَّكْمِلَةِ بِشَيْءٍ آخَرَ فَقَدْ جَاءَ فِيهِ « مَا قَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » وَوَقَفُوا مِنَ الْمُرَايَاتِ الشَّفَوِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مَوْقِفَ الْحَذَرِ الشَّدِيدِ . وَيَبْدُو أَنَّ عِنَانَ بَنِي دَاوُدَ قَدْ أَخَذَ وَجْهَةً نَظَرَ الْمُعْتَزَلَةَ ، وَكَانَ الْأَمْرُ سَهْلًا لِإِمَامِ عِنَانَ

فمرويات التلمود لا ترتفع أبداً بسند متصل إلى موسى أو الأنبياء (ع) من بعده ، وتناقض تناقضاً صارخاً فيما بينها ، وفيما بينها وبين التوراة .

مَا زَادَ حُطُورَهُ الْحَرَكَةَ الْقَرَائِيَّةَ بِالنِّسْبَةِ لِلْيَهُودِيَّةِ هُوَ تَبَحَّرَ عِنَانُ بْنُ دَاوُدَ زَعِيمِ الْقَرَائِيَّةِ فِي التَّلْمُودِ وَكَثْرَةَ رُجُوعِهِ لِنُصُوصِهِ بِقَصْدِ تَفْنِيدِهِ وَهَدْمِهِ ، وَأَنَّهُ اتَّخَذَ مِنَ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ نَمُودَجاً فِي كُلِّ الْأُمُورِ الَّتِي سَكَتَ عَنْهَا نَصُّ التَّوْرَةِ ، الْأَمْرَ الَّذِي جَعَلَ الْيَهُودِيَّةَ الْقَرَائِيَّةَ تَبَدُّو ، وَكَانَتْ فِرْقَةً إِسْلَامِيَّةً أَكْثَرَ مِنْهَا فِرْقَةٌ يَهُودِيَّةٌ . فَقَدْ اِهْتَمَّ الْقَرَاءُونَ (الْقَرَائِم) بِأَسْفَارِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَوَضَعُوهَا فِي مَنْزِلَةِ الْقُرْآنِ ، وَرَاحُوا يَحَاكُونَ عُلَمَاءَ الْمُسْلِمِينَ فِي رُؤْيَتِهِمْ لِلْقُرْآنِ (وَحِيّاً) ، وَبَدَأَتْ مَحَاوَلَاتُ ضَبْطِ وَنَقْطِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ وَوَضْعِ عِلَامَاتِ التَّبَرُّ وَالنَّعِيمِ الَّتِي تَبَلَّوْرَتْ فِي طَبْرِيَّةِ بِلَسْطِينِ فِي الْقَرْنِ الْعَاشِرِ الْمِيلَادِيِّ عَلَى يَدِ عَائِلَةِ بَنِ أَشْرَ ، وَهُمْ مِنَ الْقَرَائِمِ .

ظُهُورُ الْحَاجَةِ إِلَى تَجْدِيدِ الْخَطَابِ الدِّينِيِّ وَالتَّحْرِيفِ مَرَّةً أُخْرَى

وَسَطَ هَذِهِ الظُّرُوفِ الْعَصِيبَةِ ، وَاحْتِدَامِ الصَّرَاحِ بَيْنَ الْقَرَائِمِ وَعُلَمَاءِ الْيَهُودِيَّةِ الَّذِينَ أَصْبَحُوا يُعْرِفُونَ بِ « الرِّبَانِيِّينَ » ، وَمَعَ تَكْفِيرِ رَيْسِ كُلِّ طَائِفَةٍ لِأُخْرَى وَتَحْرِيمِ التَّعَامُلِ مَعَهَا ، وَمَعَ تَقَرُّبِ الْقَرَائِمِ مِنَ الْحُكَّامِ الْمُسْلِمِينَ ، وَمَعَ نَظَرِهِ الْمُسْلِمِينَ لِلرِّبَانِيِّينَ ، بِتَأْثِيرِ الطَّائِفَةِ الْقَرَائِيَّةِ ، عَلَى أَنَّهُمْ قَدْ حَرَفُوا شَرِيعَةَ مُوسَى (ع) ، بَلْ لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ عَلَى أَنَّهُمْ خَارِجُونَ عَلَى شَرِيعَةِ مُوسَى ، كَانَ لِرِزَامًا عَلَى الرِّبَانِيِّينَ الدَّفَاعِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَالْإِتْيَانِ بِدَلِيلٍ عَلَى أَنَّ شَرِيعَتَهُمْ ، أَيْ الْمَشْنَأَ وَالتَّلْمُودَ ، تُرْتَقَى إِلَى مُوسَى فَبَدَأُوا الدَّفَاعَ عَنْ

شَرِيحَتِهِمْ بِوَضْعِ سِلْسِلَةِ لِرُوَاةِ الشَّرِيعَةِ ، وَوَصْلُهَا بِمُوسَى وَاسْتَهْلُوهَا : « تَلَقَى مُوسَى التَّوْرَةَ مِنْ سَيِّئَاءِ
وَسَلَمَهَا لِيَشُوعَ ، وَيَشُوعَ لِلشُّيُوخِ ، وَالشُّيُوخَ لِلأَنْبِيَاءِ ، وَالأَنْبِيَاءَ سَلَمُوهَا لِرِجَالِ المَجْمَعِ الدِّينِيِّ الكَبِيرِ » ،
وَنَسَبُوا إِلَى كُلِّ رَاوٍ مِنْهُمْ مِنَ الصِّفَاتِ وَالأَقْوَالِ المَأثُورَةِ وَالأمثالِ بِحَيْثُ يَبْدُو وَكَانَهُ رَاوٍ ثِقَةً ، وَأَطْلَقُوا عَلَى
هَذِهِ السِّلْسِلَةِ اسْمَ « الأَبَاءِ » (آفوت) وَأَدْرَجُوهَا ضَمِنَ أَبْوَابِ التَّلْمُودِ ، رَغِمَ أَنَّهَا لَا تَنتمي لِلتَّلْمُودِ مِنْ
حَيْثُ مَاذَنِيهَا أَوْ تَارِيخِيهَا ، فَلَقَدْ وُضِعَتْ تِلْكَ المَادَّةُ عَلَى الأَرَجِحِ بَعْدَ ظُهُورِ عِنَانِ بَنِ دَاوُدَ أَيْ فِي القَرْنِ
التَّاسِعِ المِيلَادِيِّ .

وَتَخَلَّفَ فِي مَضْمُونِهَا عَنِ نَسِيحِ التَّلْمُودِ . فَمِنَ التَّلْمُودِ وَهُوَ المَشْنَأُ عِبَارَةٌ عَنِ تَشْرِيعَاتِ وَأَحْكَامِ أَمَّا
فُصُولُ الأَبَاءِ تِلْكَ فَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ حُكْمِ وَأَقْوَالِ مَأثُورَةٍ بَعْضُهَا فِلْسَافِيٌّ ، كَمَا تَتَضَمَّنُ نَبَأً عَلَى الشَّرِيعَةِ ،
وَالإِعْلَاءِ مِنْ قَدْرِ دَارِسِيهَا .

لَمْ تَنبَجِ هَذِهِ السِّلْسِلَةُ فِي تَحْقِيقِ المَهْدَفِ المَرْجُوعِ مِنْهَا ، فَقَدْ جَاءَتْ ضَعِيفَةً وَمَقْطُوعَةً ، فَهَنَّاكَ فَتَرَاتِ
زَمْنِيَّةٌ شَاسِعَةٌ تَفْصِلُ بَيْنَ الرُّوَاةِ تَصِلُ إِلَى عِدَّةِ قُرُونٍ ، وَهَنَّاكَ مَتَهودُونَ مِنْ بَيْنِ الرُّوَاةِ الَّذِينَ يَشْكُلُونَ
حَلَقَاتِ السِّلْسِلَةِ ، بَلْ قَامَ هَؤُلَاءِ المَتَهودُونَ بِدُورِ بَارزٍ فِي صِيَاغَةِ أَحْكَامِ المَشْنَأِ وَبِلُورَتِهَا وَتَبْوِيهِهَا .
فَالرَّبِّيُّ المِيسِرَ الَّذِي يُنْسَبُ إِلَيْهِ هُوَ والرَّبِّيُّ عَقِيفًا ، أَوَّلُ مُحَاوَلَةِ تَبْوِيْبِ وَتَرْتِيبِ المَشْنَأِ كَانِ مَتَهودًا ، وَكَانَ
عَقِيفًا مِنْ أبٍ مَتَهودٍ . وَنَقَلَ « هُلَيْلُ وَشَمَائِي » ، أَشْهُرُ فَتِيهَيْنِ فِي المَشْنَأِ عَلَى الإِطْلَاقِ ، أَحْكَامُهُمَا عَنِ
« شَمَعِيَا وَأَبْطَلِيونَ » ، وَهُمَا مَتَهودَانِ يَشْكُلَانِ حَلَقَةً مِنْ سِلْسِلَةِ الرُّوَاةِ .

يَبْدُو أَنَّهُ لَوَّلًا ظُهُورُ مُوسَى بَنِ مِيمُونٍ ، وَالدُّورَ الَّذِي اضْطَلَعَ بِهِ ، لِمَا قَامَتْ لِلْيَهُودِيَّةِ الرِّبَائِيَّةِ (المَخَاحِمِيَّةِ)
قَائِمَةٌ بَعْدَ ذَلِكَ . فَقَدْ تَرْتَبَ عَلَى الصِّرَاعِ وَالاِنْتِسَامَاتِ فِي صُفُوفِ اليَهُودِيَّةِ أَنَّ إِتْهَارَتِ المَدَارِسِ الدِّينِيَّةِ

فِي بَابِلَ ، وَبَدَأَ الْعُلَمَاءُ وَالِدَارِسُونَ يَهْجُرُونَهَا وَيَنْزَحُونَ إِلَى بُدَانَ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ الْمُخْتَلَفَةِ ، وَخَاصَّةً
الْأَنْدَلُسَ ، حَيْثُ وُلِدَ مُوسَى بْنُ مَيْمُونٍ (II35 - 1204م) فِي قَرْطَبَةَ ، وَقَدَّمَ لِلْيَهُودِيَّةِ الرِّبَايَّةِ فِي الْقَرْنِ
الثَّالِثِ عَشَرَ الْمِيلَادِيِّ أَقْصَى مَا يَسْتَطِيعُ بَشَرٌ أَنْ يُقَدِّمَهُ لِذَيْنِ مِنَ الْأَذْيَانِ .

جَدَّدَ مُوسَى بْنُ مَيْمُونٍ الْخَطَابَ الدِّينِيَّ لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ ، وَقَامَ بِمُفْرَدِهِ بِمَا قَامَتْ بِهِ أَجْيَالٌ عَدِيدَةٌ مِنْ
المشرعين على مدى سبعة عشر قرناً ، بَيْنَ الْقُرُونِ الْخَامِسِ (ق . م) إِلَى الثَّانِيِ عَشَرَ ، وَاسْتَحَقَّ بِذَلِكَ
عَنْ جَدَارَةِ مَقُولَةٍ : « مِنْ مُوسَى (ع) إِلَى مُوسَى (بن ميمون) لَمْ يَأْتِ مِثْلُ مُوسَى ! »

فِرْغَمَ شَهْرِهِ مُوسَى بْنُ مَيْمُونٍ بِوَضْفِهِ فَيْلسُوفًا ، فَإِنَّ مَا قَامَ بِهِ عَلَى الْمُسْتَوَى الدِّينِيِّ أَهَمٌّ وَأَخْطَرُ مِمَّا
قَدَّمَهُ فِي مَجَالِ الْفَلْسَفَةِ . فَقَدْ أَدْرَكَ الْخَطَرَ الْحَدِيقَ بِالْيَهُودِيَّةِ الرِّبَايَّةِ ، وَأَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يُجَدِّدَ الْخَطَابَ
الْيَهُودِيَّ ، مُسْتَحْدِمًا الْأَسَاسَ الْعَقْلِيَّ نَفْسَهُ الَّذِي اعْتَمَدَ عَلَيْهِ الْقُرَّاءُونَ فِي مَذْهَبِهِمْ ، وَمُقْتَفِيًا أَثْرَ الْفِقْهِ
الْإِسْلَامِيِّ ، كَمَا فَعَلَ عِنَانُ بْنُ دَاوُدَ ، وَمَجْدِدًا التَّشْرِيْعَاتِ وَالْأَحْكَامَ الَّتِي جَاءَتْ فِي التَّرَاثِ الْيَهُودِيِّ الَّذِي
يُؤْمَنُ بِهِ الرِّبَايُونَ ، أَمَّا الْمَشْنَأُ وَالتَّلْمُودُ وَكُتُبُ الْأَحْكَامِ وَالْفَتَاوَى الَّتِي وَضَعَهَا عُلَمَاؤُهُمْ حَتَّى عَصَرَ بْنِ
مَيْمُونٍ .

مِنْ الْأَدِلَّةِ الْمُؤَيَّدَةِ لِوَجْهِهِ النَّظَرِ هَذِهِ إِنَّ مُوسَى بْنَ مَيْمُونٍ وَضَعَ كِتَابَهُ التَّشْرِيْعِيَّ فِي أَرْبَعَةِ عَشَرَ مَجْلَدًا مِنْ
الْقُطْعِ الْكَبِيرِ ، وَأَطْلَقَ عَلَيْهِ « مِشْنَةَ تَوْرًا » أَمَّا تَنْبِيْهُ التَّشْرِيْعَةِ ، وَعَلَّلَ مُوسَى بْنُ مَيْمُونٍ فِي الْمَقْدَمَةِ
تَسْمِيَةَ الْكِتَابِ بِقَوْلِهِ : « لَكِي يُقْرَأَ الْفُرْدُ تَوْرَاةَ مُوسَى أَوْلَا ثُمَّ يُقْرَأُ بَعْدَ ذَلِكَ هَذَا الْكِتَابِ فَيُعْرَفُ مِنْهُ
التَّشْرِيْعَةُ الشَّفَوِيَّةُ كُلُّهَا وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى كِتَابٍ آخَرَ بَعْدَ ذَلِكَ » . وَتَضْيِيفُ مُؤَلَّفِهِ هَذِهِ الدِّرَاسَةَ لِقَوْلِ مُوسَى

ابن ميمون ، أن الاسم يعني تكرار الشريعة أو إعادة الشريعة ، أي التجديد الثاني للشريعة ، ولا يعني ما ذكره ابن ميمون في مقدمته .

كان موسى بن ميمون يضع المذهب القرائي نصب عينيه وهو يصنف كتابه ، فقد ألف عنان بن داود مصنفاً عديدة منها كتاب الفرائض « سيفر هم تصفوت » ، وهو كتاب فقه وتشريع ، وضمنه جميع .

الأحكام المفروضة على اليهود القرائين في المأكل والملبس والطقوس الدينية ، وكيفية تحديد أوائل الشهور ، والطهارة من النجاسة .

ذكر موسى بن ميمون في مقدمة كتابه سبب تأليف الكتاب فقال : « تتابعت المصائب وضغطت بشدة في هذا العصر على الجميع ، وضاع علم علمائنا ، واختفت بآهة نابغينا ، لذلك فإن تلك التشريعات والتفاسير التي ألفها العلماء السابقون ، أصبحت صعبة في أيامنا ولا يفهم أحد مضمونها كما ينبغي إلا قلة قليلة ، وعنى عن الذكر إن هذا هو حال التلمود نفسه البابلي والأورشليمي وسفراً وسفري والتوسفتا . . . ومن أجل ذلك شمرت عن ساعدي أنا موسى بن ميمون الأندلسي ، واستعنت بالرب تبارك ، وفهمت كل تلك الأسفار ، ورأيت أن أضع كل ما تجمع لي من تلك المؤلفات في موضوع الحلال والحرام والتنجس والطاهر وسائر أحكام الشريعة . . . »

حاول ابن ميمون في مقدمة كتابه أن يرفع شأن التراث الديني الشفهي الذي يؤمن به الربانيون ويرفضه القراءون ، وإن ينسبه لموسى (ع) مستنداً في ذلك إلى تأويل ما جاء بسفر الخروج (24/12) على لسان الرب موجهاً حديثه إلى موسى « . . . فأعطيك لوحى الحجارة والشريعة والوصية التي كتبتها لتعليمهم » ثم أورد موسى بن ميمون في مقدمته بعد ذلك سلسلة رواه الشريعة الشفهية ، وضمنها

أَسْمَاءُ شَيْخِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقَضَاتِهِمْ ثُمَّ الْأَنْبِيَاءُ الَّذِينَ جَاءُوا بَعْدَ مُوسَى (ع) وَرَبَّتُهُمْ تَنَازِلًا وَصَوْلًا إِلَى
عُلَمَاءِ الْمَشْنَأِ ثُمَّ شُرَاحِ التَّلْمُودِ وَأَنهَاهَا بِالرَّبَانِيِّ أَسَى الَّذِي نُسِبَ إِلَيْهِ ابْنُ مَيْمُونٍ تَأْلِيفَ التَّلْمُودِ الْبَابِلِيِّ .
ثُمَّ عَادَ وَكَرَّرَ سِلْسِلَةَ الرُّوَاةِ فِي أَرْبَعِينَ جِيلًا وَرَبَّتَهَا تَرْتِيبًا تَصَاعِدِيًّا مِنَ الرَّبَانِيِّ أَسَى إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ
السَّلَامُ تَعَمَّدَ مُوسَى بْنُ مَيْمُونٍ فِي مُؤَلَّفِهِ أَنْ يَذُكَرَ الْأَحْكَامُ وَلَا يَذُكَرَ اسْمُ الْمَشْرِعِ الَّذِي وَضَعَ التَّشْرِيحَ وَلَا
مَكَانَ التَّشْرِيحِ فِي كِتَابِ التَّرَاثِ الْيَهُودِيِّ ، وَعِنْدَمَا سُئِلَ عَنْ سَبَبِ ذَلِكَ قَالَ فِي رَدِّهِ عَلَى أَحَدِ
الْخَطَابَاتِ : « حَتَّى لَا نُمَكِّنَ الْكُفَّارَ مِنَّا ، وَحَتَّى لَا يَقُولُوا أَنْكُمْ تَعْتَمِدُونَ فِي رِوَايَةِ تَشْرِيعَاتِكُمْ عَلَى
أَفْرَادٍ » اتَّبَعَ مُوسَى بْنُ مَيْمُونٍ فِي تَبْوِيبِ كِتَابِهِ وَتَسْلُسُلِ عَرْضِ الْأَحْكَامِ كُتُبَ الْفِقْهِ الْإِسْلَامِيِّ عَمُومًا ،
وَكِتَابَ « الْمَحَلِّيِّ » لِابْنِ حَزْمٍ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ ، وَخَالَفَ تَبْوِيبَ الْمَشْنَأِ وَالتَّلْمُودِ . وَعَلَى حِينٍ بَدَأَ
ابْنُ حَزْمٍ كِتَابَهُ بِمُقَدِّمَةٍ حَدَّدَ فِيهَا الْهَدَفَ مِنْ تَأْلِيفِ الْكِتَابِ وَجَاءَ مِنْهُجِهِ مُتَّفَقًا مَعَ هَدَفِهِ وَمَعَ مَذْهَبِهِ
الْفِقْهِيِّ وَهُوَ الْمَذْهَبُ الظَّاهِرِيُّ ، بَدَأَ مُوسَى بْنُ مَيْمُونٍ كِتَابَهُ بِمُقَدِّمَةٍ أَيْضًا ضَمِنَتْهَا هَدَفَهُ مِنْ تَأْلِيفِ
الْكِتَابِ ، وَلَكِنْ لَمْ يَتَّفِقْ مِنْهُجِهِ مَعَ هَدَفِهِ ، وَلَا مَعَ الْمَذْهَبِ الَّذِي يُؤْمِنُ بِهِ وَهُوَ الْمَذْهَبُ الرِّبَانِيُّ .
فَفِي حِينٍ اسْتَدَلَّ ابْنُ حَزْمٍ عَلَى فِقْهِهِ وَالْأَحْكَامِ الَّتِي يَأْتِي بِهَا بِآيَةٍ أَوْ حَدِيثٍ وَيُسَوِّقُهُ بِسَنَدِهِ إِلَى النَّبِيِّ
(ص) ، لَمْ يَأْتِ ابْنُ مَيْمُونٍ بِرِوَاةِ الشَّرِيعَةِ الشَّفَوِيَّةِ فِي كِتَابِهِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَكَتَفَى بِأَنْ أُوْرِدَ بِالْمُقَدِّمَةِ
سِلْسِلَةَ الرُّوَاةِ ، وَحَاوَلَ أَنْ يَجْعَلَهَا مُتَّصِلَةً بِمُوسَى (ع) ، وَتَجَنَّبَ ذِكْرَ هَؤُلَاءِ الرُّوَاةِ فِي مَنِّ الْكِتَابِ ، وَلَمْ
يُنْسِبْ كُلَّ تَشْرِيعٍ لِقَائِلِهِ ، بَلْ سَمَحَ ابْنُ مَيْمُونٍ لِنَفْسِهِ أَنْ يُنْقَلَ مِنْ كُتُبِ الْفِقْهِ الْإِسْلَامِيِّ وَأَنْ يُضَيَّفَ
لِتَشْرِيعَاتِ الْمَشْنَأِ وَالتَّلْمُودِ أَوْ يَقُومَ بِتَعْدِيلِهَا ، أَوْ يَأْتِيَ بِتَشْرِيعَاتٍ تَتَنَاقَضُ مَعَهَا ، وَلَكِي يَسُوِّغَ ذَلِكَ ، لِحَاجِ
لِتَأْوِيلِ نَصِّ التَّوْرَةِ ، وَتَحْمِيلِهِ مَعَانِي لَا يَحْتَمِلُهَا .

وَفِي حِينٍ يَبْدَأُ ابْنُ حَزْمٍ الْجُزْءَ الْأَوَّلَ مِنْ « الْمَحَلِّيِّ » بِمَوْضُوعِ التَّوْحِيدِ ، ثُمَّ يُثْنِيهِ بِأُصُولِ مَذْهَبِهِ
الْفِقْهِيِّ ، يَبْدَأُ ابْنُ مَيْمُونِ الْجُزْءَ الْأَوَّلَ مِنْ كِتَابِهِ بِمَوْضُوعِ التَّوْحِيدِ أَيْضًا وَيُثْنِيهِ بِالِدَفَاعِ عَنِ الْمُرَوِّياتِ
الشفهية التي يعمد عليها المذهب الرناني ، وهو يتابع في ذلك ابن حزم ويخالف المشنا والتلمود اللذين
لم يناقشا موضوع التوحيد ، وبالتالي لم يفردا له بابًا أو فصلًا .

وَبَيْنَمَا تَنَاقَلَ ابْنُ حَزْمٍ فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنْ كِتَابِهِ بَعْدَ التَّوْحِيدِ وَبَعْدَ الْأُصُولِ ، كِتَابُ الطَّهَارَةِ ، عَلَى
اِعْتِبَارِ أَنَّ الطَّهَارَةَ تُسَبِّقُ الصَّلَاةَ ، وَأَنَّ الْوُضُوءَ لِلصَّلَاةِ فَرَضٌ لَا تُجْزِي الصَّلَاةَ إِلَّا بِهِ لَمَنْ وَجَدَ الْمَاءَ ،
يَتَنَاقَلُ ابْنُ مَيْمُونٍ فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنْ كِتَابِهِ الصَّلَاةِ وَالطَّقُوسِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا الْيَهُودِيُّ قَبْلَ الدُّخُولِ إِلَى الصَّلَاةِ
، وَهُوَ يَتَابِعُ ابْنَ حَزْمٍ فِي هَذَا التَّرْتِيبِ أَيْضًا ، وَيُخَالَفُ تَرْتِيبَ الْمَشْنَا وَالتَّلْمُودِ بِرِغْمِ أَنَّ الصَّلَاةَ لَيْسَتْ
فَرِيضَةً توراتية ، وَلَمْ يَأْمُرْ بِهَا مُوسَى بِرِغْمِهِمْ ، وَقَدْ وَضَعَهَا عُلَمَاءُ الْيَهُودِيَّةِ أَثْنَاءَ التَّهْجِيرِ الْبَابِلِيِّ ، وَكَانَ
مُوسَى (ع) يَتَقَرَّبُ إِلَى الرَّبِّ بِالْقَرَابِينِ ، لِذَلِكَ رَبَطَ عُلَمَاءُ الْيَهُودِيَّةِ ، عِنْدَ تَجْدِيدِ الْخُطَابِ الدِّينِيِّ فِي بَابِلِ
، بَيْنَ مِيقَاتِ الْقَرَابِينِ وَمِيقَاتِ الصَّلَاةِ وَجَعَلُوا الصَّلَاةَ بِمِثَابَةِ بُدِيلٍ عَنِ الْقَرَابِينِ الَّتِي كَانَتْ يُقَدِّمُهَا مُوسَى .
لِذَلِكَ لَمْ يَجِدْ مُوسَى بْنُ مَيْمُونٍ ، عِنْدَ تَجْدِيدِ الْخُطَابِ الدِّينِيِّ لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ ، لَمْ يَجِدْ حَرَجًا فِي أَنْ يَنْقَلِ
الْكَثِيرُ مِنْ أَحْكَامِ الصَّلَاةِ عَنْ كُتُبِ الْفِقْهِ الْإِسْلَامِيِّ ، وَعَنِ الْمَحَلِّيِّ لِابْنِ حَزْمٍ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ ، فَقَدْ
سَبَقَهُ عَنَانَ ابْنِ دَاوُدَ وَنَقَلَ أَحْكَامَ الصَّلَاةِ فِي كِتَابِهِ عَنِ الْإِسْلَامِ أَيْضًا .

وَفِيمَا يَلِي بَعْضَ أَمْثَلَةٍ نَسَقَهَا مِنْ تَشْرِيعَاتِ الصَّلَاةِ عِنْدَ ابْنِ مَيْمُونٍ دَلِيلًا عَلَى تَجْدِيدِ الْخُطَابِ الدِّينِيِّ
الْيَهُودِيِّ لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ عَلَى يَدِ مُوسَى بْنِ مَيْمُونٍ ، وَدَلِيلًا عَلَى اِعْتِمَادِهِ الْفِقْهَ الْإِسْلَامِيَّ بِصِفَةِ عَامَّةٍ وَكِتَابِ
« الْمَحَلِّيِّ » لِابْنِ حَزْمٍ بِوَجْهِ خَاصٍّ . وَسَنَسُوقُ كُلِّ مِثَالٍ وَمَوْقِعِيهِ فِي كِتَابِي ابْنِ مَيْمُونٍ وَابْنِ حَزْمٍ .

I قَسَمَ ابْنُ مَيْمُونٍ الصَّلَاةَ قَسْمَيْنِ فَرَضَ وَنَقَلَ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الصَّلَاةَ مِنْ وَضْعِ الْعُلَمَاءِ (الفصل الأول ،
التَّشْرِيعِ : 5 ، 6) ، وَهُوَ نَفْسُ تَقْسِيمِ ابْنِ حَزْمٍ ، فَالصَّلَاةُ : فَرَضٌ وَتَطَوُّعٌ (الْمَسْأَلَةُ 274) .

2 أَجَازَ ابْنُ مَيْمُونٍ لِلْمُصَلِّي أَنْ يُقَصِّرَ صَلَاتَهُ فِي السَّفَرِ وَالْخَوْفِ (الفصل الثاني ، التَّشْرِيعِ : 2) تَقَالًا عَنْ
الْمَسْأَلَةِ (264) عِنْدَ ابْنِ حَزْمٍ .

3 قَالَ ابْنُ مَيْمُونٍ بِضُرُورَةِ غَسْلِ الْيَدَيْنِ قَبْلَ الصَّلَاةِ ، وَهُوَ تَشْرِيعٌ مِنْ وَضْعِ الْعُلَمَاءِ أَيْضًا وَلَمْ يَأْتِ فِي التَّوْرَةِ
، وَأَجَازَ لِمَنْ لَمْ يَجِدْ مَاءً إِنْ يَتِيمَمَ ، وَيَمْسَحُ يَدَيْهِ بِحَجَرٍ أَوْ تُرَابٍ ، أَوْ بِجَذَعِ شَجَرَةٍ ثُمَّ يُصَلِّي (الفصل
الرَّابِعِ ، تَشْرِيعِ : 2) ، مَتَأَثِّرًا بِالتَّيْمَمِ عِنْدَ ابْنِ حَزْمٍ (مَسْأَلَةُ 224) .

4 نَقَلَ ابْنُ مَيْمُونٍ (المَسْأَلَةُ 299) عِنْدَ ابْنِ حَزْمٍ : لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يُصَلِّيَ إِلَّا وَاقِفًا إِلَّا لِعُذْرٍ ، كَمَا نُقِلَ
(المَسْأَلَةُ 300) : لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يُصَلِّيَ الْفُرْضَ رَاكِبًا وَلَا مَاشِيًا إِلَّا فِي حَالِ الْخَوْفِ ، وَجَاءَتْ
الْمَسْأَلَتَانِ بِكِتَابِ ابْنِ مَيْمُونٍ (الفصل الْخَامِسِ ، تَشْرِيعِ : I ، 2) .

5 كَمَا نُقِلَ ابْنُ مَيْمُونٍ الْمَسْأَلَةَ (304) عِنْدَ ابْنِ حَزْمٍ : مَنْ كَانَ رَاكِبًا عَلَى مَحْمَلٍ أَوْ فَيْلٍ أَوْ كَانَ فِي عَرَفَةِ
أَوْ فِي أَعْلَى شَجَرَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ ، فَقَدَرَ عَلَى الصَّلَاةِ قَائِمًا فَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَ الْفُرْضَ حَيْثُ هُوَ قَائِمًا ، وَقَدْ
جَاءَتْ فِي كِتَابِ ابْنِ مَيْمُونٍ (الفصل الْخَامِسِ ، تَشْرِيعِ : 8) .

سَأَلْتَنِي بِهَذِهِ الاسْتِشْهَادَاتِ مِنْ أَحْكَامِ الصَّلَاةِ « هَلْخَوْتُ تَقَالًا » عِنْدَ ابْنِ مَيْمُونٍ لِأَعْرَضَ أَمِثْلَهُ عَلَى
تَجْدِيدِ الْخُطَابِ الدِّينِيِّ فِي بَابِ آخَرَ مِنْ أَبْوَابِ التَّشْرِيعِ : بَابُ أَحْكَامِ النِّكَاحِ . فَعِنْدَ تَجْدِيدِ الْخُطَابِ
الدِّينِيِّ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ وَكَانَ ذَلِكَ بَارِضٍ بِأَبْلِ ، وَضَعَ عُلَمَاءُ الْيَهُودِيَّةِ أَحْكَامًا لِلنِّكَاحِ ، وَجَاءَتْ مُوزَعَةً بِثَلَاثَةِ

أَبْوَابِ مَنْ كَتَبِ الْمَشْنَأُ : بَابُ « كَتُوبَتِ » أَيْ بَابُ عُقُودِ الزَّوْجِ ، وَبَابُ « قِيدُوشِينِ » أَيْ بَابُ عَقْدِ
عُقْدَةِ النِّكَاحِ ، وَبَابُ « يَفَامُوتِ » أَيْ بَابُ الْخِلَافَةِ عَلَى الْأَرَامِلِ ، فِي حِينِ أَنْ كُلَّ مَا جَاءَ فِي التَّوْرَةِ عَنْ
النِّكَاحِ وَطُرُقِهِ وَمَحَارِمِهِ لَا تَزِيدُ عَلَى 15 تَشْرِيحاً .

نَاقَشَ الْعُلَمَاءُ فِي بَابِ عُقُودِ الزَّوْجِ مَضْمُونُ الْعَقْدِ الَّذِي يَكْتُبُهُ الزَّوْجُ لِزَوْجَتِهِ عِنْدَ الْعَقْدِ عَلَيْهَا أَوْ عِنْدَ
الدُّخُولِ بِهَا ، وَالْأَسَاسُ فِي الْعَقْدِ هُوَ مَبْلَغُ « الْكُتُوبَا » الْمَنَاطِرِ لِمُوخِرِ الصَّدَاقِ فِي الْإِسْلَامِ ، وَيَتَعَهَّدُ
الزَّوْجُ أَنْ يَدْفَعَهُ لِزَوْجَتِهِ عِنْدَ الطَّلَاقِ أَوْ يَدْفَعَهُ وَرَثَتِهِ عِنْدَ وَفَاتِهِ ، كَمَا نَاقَشُوا الشُّرُوطَ الَّتِي يَشْتَرِطُهَا كُلُّ
طَرَفٍ مِنْهُمَا عَلَى الْآخَرِ ، وَيَخْتَلِفُ عَنِ الْعَقْدِ الَّذِي تَتَعَدَّى بِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ . وَحَرَّمَ عُلَمَاءُ الْمَشْنَأِ عَلَى
الْمَرْأَةِ أَنْ تُقِيمَ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا دُونَ « عَقْدِ كُتُوبَا » وَمَنْ تَفَعَّلَ ذَلِكَ تَعَدَّى زَانِيَةً .

نَاقَشَ عُلَمَاءُ الْمَشْنَأِ فِي بَابِ « قِيدُوشِينِ » أَيْ عَقْدَ عُقْدَةِ النِّكَاحِ : طُرُقَ النِّكَاحِ ، وَالْوَكَاةَ فِي النِّكَاحِ ،
وَمَقْدَارَ الصَّدَاقِ أَوْ الْمَالِ الَّذِي تَنْكُحُ بِهِ الْمَرْأَةُ ، وَالغُرْرَ فِي النَّسَبِ أَوْ قِيَمَةَ الصَّدَاقِ أَوْ صِفَتِهِ ، وَتَقْسِيمَ
أَنْسَابِ الْيَهُودِ إِلَى عَشْرَةِ أَنْسَابٍ وَتَقْسِيمَ هَذِهِ الْأَنْسَابِ لِثَلَاثِ مَجْمُوعَاتٍ وَيَحِلُّ لِأَفْرَادِ كُلِّ مَجْمُوعَةٍ الزَّوْجِ
مِنْ بَعْضِهِمْ ، وَلَا يَحِلُّ لَهُمُ الزَّوْجُ مِنَ الْمَجْمُوعَاتِ الْآخَرِي .

بَابُ الْخِلَافَةِ عَلَى الْأَرَامِلِ « يَفَامُوتِ » يُنَاقَشُ الْفُضْلُ الْأَوَّلُ مِنْهُ مَحَارِمُ الزَّوْجِ وَقَسَمَهَا لِمَحَارِمٍ مِنْ
الدَّرَجَةِ الْأُولَى ، وَهِيَ مَا نَصَّتْ عَلَيْهَا التَّوْرَةُ ، وَمَحَارِمُ مِنَ الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ وَضَعَهَا الْعُلَمَاءُ . مِنْ الْفُرُوقِ
الْوَاضِحَةِ بَيْنَ الرَّبَّانِيِّينَ وَالْقِرَائِنِ فِي النِّكَاحِ إِنَّ الرَّبَّانِيِّينَ يُحِلُّونَ نِكَاحَ الْبُنْتِ مِنْ عَمَّهَا وَخَالَهَا ، وَسَنَدُهُمْ
فِي ذَلِكَ أَنَّ التَّوْرَةَ لَمْ تَحْرُمْ عَلَى الرَّجُلِ الزَّوْجِ مِنْ ابْنِهِ أَخِيهِ أَوْ ابْنَةِ أُخْتِهِ ، أَمَّا الْقِرَائِنُ فَقَدْ حُرِّمُوا
ذَلِكَ تَأْثُرًا بِالْإِسْلَامِ .

عِنْدَمَا قَامَ مُوسَى بْنُ مَيْمُونٍ بِتَجْدِيدِ الْخُطَابِ الدِّينِيِّ مَرَّةً أُخْرَى ، ضَمَّ هَذِهِ الْأَبْوَابَ بِبَابٍ وَاحِدٍ ، أُطْلِقَ عَلَيْهِ اسْمُ « هَالخوت إيشوت » ، أَيْ أَحْكَامَ النِّكَاحِ . وَسَارَ فِي تَقْسِيمِ الْمَوْضُوعَاتِ وَطَرِيقَةِ عَرْضِ كُلِّ مَسْأَلَةٍ عَلَى خَطَى كُتُبِ الْفِقْهِ الْإِسْلَامِيِّ ، وَسَوْفَ نُورِدُ بَعْضَ الْأَمْثَلَةِ مِنْ هَذَا الْبَابِ لِلتَّدْلِيلِ عَلَى التَّجْدِيدِ مِنْ نَاحِيَةٍ ، وَعَلَى مُخَالَفَةِ مُوسَى بْنِ مَيْمُونٍ لِمَشْنَاهُ ، وَتَأَثُّرِهِ بِالْفِقْهِ الْإِسْلَامِيِّ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى .

فَقَدْ جَاءَ فِي كِتَابِ الْمَشْنَاهُ فِي بَابِ قِيدُوشِينَ ، التَّشْرِيحِ الْأَوَّلِ : « تَمَلَّكَ الْمَرْأَةُ بَثَاثِ طُرُقٍ ، وَتَمَلَّكَ أَمْرٌ نَفْسَهَا بِطَرِيقَتَيْنِ . . . تَمَلَّكَ بِالْمَالِ وَبِالْعَقْدِ وَبِالْوَطْءِ » ، فِرْعَمُ أَنَّ النِّكَاحَ بِالْوَطْءِ هُوَ الطَّرِيقَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي نَصَّتْ عَلَيْهَا التَّوْرَةُ فِي (التثنية : 24/1)(IO) ، فَقَدْ قَدَّمَ عُلَمَاءُ الْمَشْنَاهُ الطَّرِيقَتَيْنِ الْأُخْرَيَيْنِ عَلَيْهَا .

أَمَّا ابْنُ مَيْمُونٍ فَقَدْ حَرَّمَهَا وَاعْتَبَرَهَا زِنِي ، وَقَالَ : « كُلُّ مَنْ يَطَأُ امْرَأَةً بِدُونِ عَقْدٍ عُقْدَةُ النِّكَاحِ يُجَدِّدُ »

الْمِثَالِ الثَّانِي عَنْ تَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ . فَقَدْ أَحَلَّتِ التَّوْرَةُ تَعَدُّدَ الزَّوْجَاتِ وَلَمْ تَضَعْ حَدًّا أَقْصَى لِعَدَدِ الزَّوْجَاتِ ، وَقَدْ أَنَاخَ عُلَمَاءُ الْمَشْنَاهُ تَعَدُّدَ الزَّوْجَاتِ دُونَ حَدِّ أَقْصَى كَذَلِكَ ، فَبَجَاءَ فِي (باب قِيدُوشِينَ : 2/ن) : « الرَّجُلُ الَّذِي عَقَدَ عُقْدَةَ النِّكَاحِ عَلَى خَمْسِ نِسَاءٍ فِي أَنْ وَاحِدٍ . . . » وَجَاءَ فِي (باب كُوبُوت : IO/هـ) : « مَنْ كَانَ مَتَزَوِّجًا مِنْ أَرْبَعِ نِسَاءٍ ثُمَّ مَاتَ . . . » . أَمَّا مُوسَى بْنُ مَيْمُونٍ فَقَدْ أَنَاخَ تَعَدُّدَ الزَّوْجَاتِ وَقَالَ فِي أَحْكَامِ النِّكَاحِ (d/I4) : « يَجِبُ إِلَّا يَجْمَعَ الرَّجُلُ بَيْنَ أَكْثَرِ مِنْ أَرْبَعِ نِسَاءٍ حَتَّى وَإِنْ كَانَ لَدَيْهِ مَالٌ كَثِيرٌ ، حَتَّى يَسْتَطِيعَ أَنْ يُعَاشِرَ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ مَرَّةً فِي الشَّهْرِ » . وَرَغْمَ تَأَثُّرِ مُوسَى بْنِ مَيْمُونٍ الْوَاضِحِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بِالْفِقْهِ الْإِسْلَامِيِّ ، فَإِنَّهُ يَعْزُو رَأْيَهُ إِلَى حَادِثَةٍ وَقَعَتْ زَمَنَ التَّلْمُودِ لِرَجُلٍ تَوَفَّى أَرْبَعَةً مِنْ إِخْوَتِهِ ، وَكَانَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَخْلِفَهُمْ فِي أَرَامِلِهِمْ ، فَنَضَّحَهُ عُلَمَاءُ التَّلْمُودِ إِلَّا يَجْمَعُ بَيْنَ أَكْثَرِ مِنْ أَرْبَعِ نِسَاءٍ . وَسِوَاءَ تَأَثُّرِ مُوسَى بْنِ مَيْمُونٍ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بِالْإِسْلَامِ أَمْ اقْتَدَى بِقَوِي

عُلماء التلمود ، فما يهْمنا في هذا المِثالِ هُوَ أنَّ نرصد الأدلَّةَ على تجديدِ الخطابِ الدينيِّ ، وإن نسلط الضوءَ على الدورِ الذي قامَ به موسى بن ميمونٍ في تجديدِ اليهوديةِ الرَبانيَّةِ بِالقرنِ الثالثِ عَشَرَ ، وما زال أثرُه مستمرًا ليومنا هذا ورغمَ مُرورِ ثمانيةِ قُرُونٍ على تَأليفه ، لا يزالُ كتابُ « مِشنة تورا » هُوَ المرجعيةُ الدينِيَّةُ لِلْيَهُودِ الرَّبَّانِيَّينَ بِجَمِيعِ أنحاءِ العالمِ ، لِذَلِكَ فَهُوَ مُوجُودٌ كاملاً على شَبكةِ المَعْلُومَاتِ الدَّوَلِيَّةِ « إِيترنت » ، شأنه شأن التلمود ، لِيَسْهُلَ على اليهودِ الرُّجُوعُ إِلَيْهِ .

وَالخِلَافُ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ « الرَّبَّانِيَّينَ » وَ « القرائينِ » يتركزُ بِشكلٍ أساسيٍّ حَوْلَ الأَحْكامِ الدينِيَّةِ اليَوْمِيَّةِ والمناسباتِ ، كَأَحْكامِ يَوْمِ السَّبْتِ ، بِالإِضَافَةِ إِلَى التَّقْوِيمِ حَيْثُ يَعْتَمِدُ القرائينِ فِي تقويمهم على التَّقْوِيمِ القَمَرِيِّ بِنِمْنا يَعْتَمِدُ الرَّبَّانِيَّينَ على الحِسابِ ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّ رَأْسَ السَّنَةِ اليَهُودِيَّةِ تَخْتَلِفُ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ .

والرَبَّانِيَّونَ يَمْتَلِئُونَ الطَّائِفَةَ اليَهُودِيَّةَ الأَكْبَرَ فِي مِصرٍ وَفِي العالَمِ كُلِّهِ ، وَيُؤَمِّنُ اتِّبَاعُ هَذِهِ الطَّائِفَةِ بِالعَهْدِ القَدِيمِ بِأسفاره الـ 39 ، بِالإِضَافَةِ إِلَى التَّلْمُودِ الَّذِي يُضَمُّ 36 كِسْفَرًا وَيُنْقَسَمُ إِلَى قِسْمَيْنِ « المشناه » وَ « الجمارا » ، وَهُوَ يُضَمُّ شُرُوحًا لِلتَّوراةِ وَأَبْحَاثَ فِي العَقِيدَةِ اليَهُودِيَّةِ وَالتَّارِيخِ الدينيِّ وَالقَّانُونِ كَتَبَهَا الحاخاماتُ ، وَيُؤَمِّنُ اتِّبَاعُ هَذِهِ الطَّائِفَةِ أَنَّ التَّوراةَ الَّتِي نَزَلَتْ على موسى مُنْقَسَمَةٌ إِلَى قِسْمَيْنِ تَوراةٍ مَكْتُوبَةٍ وَأُخْرَى شفهيةٍ ، انْتَقَلَتْ مِنْ بَعْدِ موسى إِلَى الحاخاماتِ بِشكلٍ شَفَوِيٍّ حَتَّى تَمَّ تَدْوِينُهَا بَعْدَ ذَلِكَ فِي القُرْتَيْنِ الأَوَّلِ وَالثَّانِي المِيلادِيِّ وَهِيَ المُسَمَّاةُ بـ « المشناه » ، على عَكْسِ القرائينِ الَّذينَ يُؤْمِنُونَ بِالإِسْفارِ الخَمْسِ الأَوَّلِيِّ فَقَطْ مِنْ العَهْدِ القَدِيمِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِـ « التَّلْمُودِ » ، الَّذِي يَعبَرُونَ مِنْ « أَعْمالِ البَشَرِ الَّتِي أَدْخَلَتْ على الدِّيانَةِ اليَهُودِيَّةِ لِتحريفها سِوَاءَ بِقَصْدٍ أَوْ بِدُونِ قَصْدٍ » .

كَمَا يَخْتَلِفُ أُنْبَاءُ الطَّائِفَتَيْنِ فِي بَعْضِ الْأَحْكَامِ الدِّينِيَّةِ ، فَإِنَّهُمْ يَخْتَلِفُونَ أَيْضًا حَتَّى فِي الصَّلَاةِ وَفِي شَكْلِ
 المَعْبَدِ مِنَ الدَّاخِلِ ، فَالْقِرَاوُونَ لَا يَدْخُلُونَ الْمَعَابِدَ بِالْأَحْذِيَّةِ ، وَفِي مَعْبَدِ الْيَهُودِ الْقِرَائِينَ بِالْعَبَّاسِيَّةِ مِثْلًا ،
 مَا زَالَتْ تُوجَدُ السِّجَاجِيدُ عَلَى الْأَرْضِ ، وَخَلْفَ الْأَبْوَابِ دُورَابٍ تُوضَعُ فِي الْأَحْذِيَّةِ ، إِلَى جَانِبِ أَنْ
 الْمَعَابِدِ الْقِرَائِيَّةِ لَا تُوجَدُ بِهَا مَقَاعِدٌ ، عَلَى عَكْسِ الْمَعَابِدِ الرَّبَّانِيَّةِ ، حَيْثُ يُلْجَأُ الْقِرَاوُونَ فِي صَلَاتِهِمْ إِلَى
 الرُّكُوعِ مِثْلَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى عَكْسِ الرَّبَّانِيِّينَ .

التَّوْرَةُ . . . بَيْنَ الضَّيَاعِ وَالتَّحْرِيفِ وَالتَّعْدِيلِ

هذا ما صنعه العقل الديني اليهودي

نعيد ما ذكرناه من قبل بأن التَّوْرَةَ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ قَدْ دُفِنَتْ مَعَ نَبِيِّهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَكُلُّ الْأَدَلَّةِ تُوَكِّدُ
 ذَلِكَ وَكَهَى بِاللَّهِ هُنَا شَاهِدًا وَدَلِيلًا يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاَّ لِابْنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا
 مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَاتُوا بِالْتَّوْرَةِ فَاتَلَوْهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل
 عِمْرَانَ : 93] فَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ التَّوْرَةَ الَّتِي يَتَحَدَّثُونَ بِهَا لَا وَجُودَ مَادِّيٍّ أَوْ حَقِيقِيٍّ لَهَا مَا بَقِيَ مِنْهَا قِرَاءَاتٌ
 مُخْتَلِفَةٌ وَمُتَنَاقِضَةٌ مَعَ النَّصِّ الْأَصْلِيِّ مِنْ جِهَةٍ وَفِيمَا بَيْنَهَا كُلِّ ذَلِكَ التَّحْرِيفُ وَالتَّغْيِيرُ وَالتَّحْدِيثُ حَدَثَ
 فِي قُرُونٍ عَدِيدَةٍ بَيْنَ أَيْدِينَا الْيَوْمَ نُسَخَ مُخْتَلِفَةٌ صَنَعَهَا الْفِكْرُ وَالعَقْلُ الْيَهُودِيَّ وَإِنْ اخْتَوَاهَا عَلَى بَقَايَا
 نُصُوصٍ مُقَدَّسَةٍ لَا يُبْرِيُّ الَّذِينَ حَرَفُوهَا لِأَنَّ هَذِهِ النُّصُوصُ الْمُقَدَّسَةَ أَوْ الْآيَاتِ الْبَاقِيَاتِ أَصَابَهَا التَّحْرِيفُ
 بِالتَّقْصِ أَوْ الزِّيَادَةِ فَخَرَجَتْ عَنْ قَدْسِيَّتِهَا وَصَدَقَتْهَا .

لَقَدْ وَجَدْنَا الْكَثِيرَ مِنَ الْأَدَلَّةِ التَّارِيخِيَّةِ الَّتِي أَثَبَّتْ مَا ذَكَرْنَاهُ أَعْلَاهُ وَعَلَيْنَا أَنْ نُنَبِّتَ ذَلِكَ بِأَدَلَّةٍ مُوثِقَةٍ لَا
 يُشْكُ فِي مِصْدَاقِيَّتِهَا بِأَيِّ شَكْلِ مِنَ الْإِشْكَالِ وَهِيَ أَدَلَّةٌ اتَّقِينَاهَا مِنَ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ سَنَطْلُقُ عَلَيْهَا الْأَدَلَّةَ

القرآنية بالإضافة إلى الأدلة العقلية والمنطقية وسنبداً بالأدلة العقلية والمنطقية التي تثبت بأن التوراة قد حرفت وضاعت نصوصها تماماً .

الأدلة العقلية والمنطقية

في هذا المقال تقدم العديد من الأدلة وليس دليلاً واحداً على تحريف التوراة . . الأدلة المنطقية . .
والموضوعية . القائمة على الاستقراء لواقع هذه التوراة . . بل والشهادات التي شهد بها على هذا
التحريف « شهود من أهلها » -

وأول هذه الأدلة :

إن التوراة هي الكتاب الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على موسى عليه السلام - . . وموسى قد ولد
ونشأ ، وتعلم ، وبعث وأوحى إليه بمصر ولقد مات موسى ، ودُفن ، قبل دخول بني
إسرائيل بقيادة يوشع بن نون إلى أرض كنعان فلسطين .

فأين هي التوراة التي نزلت على موسى (ع) ؟ . . هل لها وجودٌ أو أثر في التراث الديني اليهودي ؟

الجواب الذي يجمع عليه الجميع وفي مقدمتهم اليهود - : أنه لا وجود لهذه التوراة ! .

وثاني هذه الأدلة :

أن موسى عليه السلام الذي نزلت عليه التوراة ، قد عاش ومات في القرن الثالث عشر قبل الميلاد . .
بينما حدث أول تدوين لأسفار العهد القديم - على يدي « عزرا » - أي في منتصف القرن الخامس
قبل الميلاد بعد عودته اليهود من السبي البابلي (597 - 538 ق . م) الأمر الذي يعني أن التراث اليهودي

قَدْ ظَلَّ تَرَاتُماً شَفَهِيًّا لِمُدَّةِ ثَمَانِيَةِ قُرُونٍ عَبْدٌ ائْتَاءَهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ الْعِجْلَ تَارَةً . . وَأُوْتَانِ الْكِنَعَانِيِّينَ تَارَةً أُخْرَى . . وَانْقَلَبُوا فِيهَا عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فِي الْكَثِيرِ مِنَ الْأَحْيَانِ .

فَهَلْ يُتَصَوَّرُ عَاقِلٌ أَنْ يَظَلَّ تَرَاتُماً دِينِيًّا ، فِي الْحَالَةِ الشَّفَهِيَّةِ ، عَلَى امْتِدَادِ ثَمَانِيَةِ قُرُونٍ ، شَهِدَتْ كُلُّ هَذِهِ الْإِنْقِلَابَاتِ ضِدَّ أَصُولِهِ الْأُولَى - تَوْرَاةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ - دُونَ أَنْ يُصِيبَهُ التَّحْرِيفُ وَالتَّغْيِيرُ وَالتَّبْدِيلُ وَالْحَذْفُ وَالإِضَافَةُ وَالتَّسْيَانُ ؟ ! . .

وَتَالِثُ هَذِهِ الْأَدِلَّةُ :

عَلَى حُدُوثِ التَّحْرِيفِ فِي إِسْفَارِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ هُوَ هَذِهِ التَّنَاقُضَاتُ الصَّارِحَةُ الْقَائِمَةُ فِيهَا حَتَّى الْآنَ . . إِذْ لَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَسْفَارُ هِيَ كَلِمَةُ اللَّهِ الَّتِي نَزَلَتْ عَلَى مُوسَى ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، لَأَسْتَحَالَ أَنْ يُدْخِلَهَا التَّنَاقُضُ أَوْ الْإِخْتِلَافُ .

وَلِأَنَّ حَضَرَ التَّنَاقُضَاتِ الَّتِي تَمْتَلِي بِهَا إِسْفَارُ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ يَحْتَاجُ إِلَى « سِفْرِ » . . فَإِنَّا سَنَكْتَفِي هُنَا مُرَاعَاةً لِلْمَقَامِ بِضَرْبِ الْأَمْثَلَةِ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ

I فَا سَمَّ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْأَسْفَارِ أَحْيَانًا يَكُونُ ((يَهُوه)) . . وَأَحْيَانًا يَكُونُ « إِيْلُوهِيم » ، الْأَمْرُ الَّذِي يَشْهَدُ عَلَى إِخْتِلَافِ الْعُصُورِ ، وَتَعَدُّدِ الْمَوَارِثِ الدِّيْنِيَّةِ ، وَتَنَوُّعِ التَّقَاتِ اللَّاهُوتِيَّةِ ، وَتَمَازِيهِ الْمَصَادِرِ الَّتِي جُمِعَتْ وَأُدْخِلَتْ بَعْدَ ثَمَانِيَةِ قُرُونٍ وَعَبَرَهَا فِي هَذِهِ الْأَسْفَارِ .

2 وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ بَدْءِ الْخَلْقِ الَّذِي وَرَدَ فِي الْأَسْفَارِ نَجْدِ الْعَدِيدِ مِنَ الْإِخْتِلَافَاتِ وَالتَّنَاقُضَاتِ .

فَفِي سَفَرٍ وَاحِدٍ ، هُوَ سِفْرُ التَّكْوِينِ نَجْدُ :

أَنَّ التُّورَةَ قَدْ خُلِقَ فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ تَكْوِينِ I : 5 .

ثُمَّ نَجِدُ أَنَّهُ قَدْ خُلِقَ فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ تَكْوِينِ I : I6 - I9 - .

. . . وَالشَّمْسُ :

يُقَالُ - مَرَّةً إِنَّهَا خُلِقَتْ فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ تَكْوِينِ I : 5 .

وَمَرَّةً ثَانِيَةً يُقَالُ إِنَّهَا خُلِقَتْ فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ تَكْوِينِ I : I4 - I9 .

... وَكَذَلِكَ الْحَالُ فِي تَارِيخِ خَلْقِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ .

فَفِي سِفْرِ التَّكْوِينِ I : 2023 أَنَّ الْحَيَوَانَاتِ وَالطُّيُورِ خُلِقَتْ أَوَّلًا - فِي الْيَوْمِ الْخَامِسِ - وَإِنَّ آدَمَ خُلِقَ فِي الْيَوْمِ السَّادِسِ .

ثُمَّ يَعُودُ نَفْسَ السَّفَرِ التَّكْوِينِ 2 : IO فَيَقُولُ : إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ ، أَوَّلًا ثُمَّ التَّبَاتَاتِ ، ثُمَّ الْحَيَوَانَاتِ وَالطُّيُورِ .

فَهَلْ يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْأُخْتِلَافَاتِ وَالتَّنَاقُضَاتِ ، هِيَ كَلِمَةُ اللَّهِ - التَّوْرَةَ - الَّتِي أُوحِيَ بِهَا إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ؟ ! .

3 وفي الْحَدِيثِ عَنْ عُمَرَ الزَّمَانِ مِنْ آدَمَ إِلَى طُوفَانِ نُوحٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ نَجْدَةٌ :

في التَّوْرَةِ الْعِبْرِيَّةِ I656 عامًا .

وفي النُّسخَةِ الْيُونَانِيَّةِ 2262 عامًا .

وَفِي النُّسخَةِ السامرية I307أغوام .

فَهَلْ يُجُوزُ أَنْ يُنسَبَ هَذَا الاختلافِ إلى الله . . خالقِ الزَّمانِ . . والعلامِ بأيامه وثوانيه ؟ ! .

4وفي الحديثِ عَنْ تاريخِ نُزولِ إبليسِ إلى الأَرْضِ . نَجْدَةٌ :

مَرَّةً : قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ وَدُخُولِهِ الْجَنَّةِ رُؤْيَا يوحنا اللاهوتي I2 : 7 - IO .

وَمَرَّةً : بَعْدَ خَلْقِ آدَمَ وَمَعْصِيَتِهِ فِي الْجَنَّةِ التَّكْوِينِ 3 : I - I5 .

5وفي مُدَّةِ طوفانِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ - . . نَجِدُهَا :

فِي سَفَرِ التَّكْوِينِ 7 : 24 نَجِدُ مُدَّةَ الطُّوفَانِ I50يوماً .

فَبِمَاذَا نَسَمَّى ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ اختلافًا وتحريفًا وتزييفًا ؟ ! .

6وفي الحديثِ عَنْ عَدَدِ سِنِينَ الْجُوعِ الَّتِي حَكَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَجِدُهَا :

سَبْعَ سِنِينَ فِي صَمُوئِيلِ الثَّانِي 24 : I3 .

وَتَلَاثَ سِنِينَ فِي أَخْبَارِ الْأَيَّامِ الْأَوَّلِ II : 2I .

7وفي الحديثِ عَنْ عَدَدِ المَرَكَبِ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي ((أرام)) . . نَجْدَةٌ :

700مُرْكَبَةٌ و 40000فارسٍ فِي صَمُوئِيلِ الثَّانِي I0I8 .

و 7000مُرْكَبَةٌ و 40000 رَجُلٌ فِي أَخْبَارِ الْأَيَّامِ الْأَوَّلِ I9 : I8 .

8 وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ عَدَدِ الْيَهُودِ الَّذِينَ أَطْلَقُوا مِنْ سَبَى بَابِلَ . . نَجْدَةَ :

6377 في عزرا .

و 7265 - في نحيا .

9 وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ دُخُولِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أُورُشَلِيمَ وَاسْتِيلَانِهِمْ عَلَيْهَا :

يُقَالُ إِنَّهُمْ دَخَلُوهَا وَاسْتَوَلَوْا عَلَيْهَا وَقَتَلُوا مَلَكَهَا فِي يَشُوعَ IO : 23 - 42 .

IO وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ تَحْرِيمِ زَوَاجِ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ مِنْ غَيْرِ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ . . نَجْدُ :

فِي سَفَرِ التَّثْنِيَةِ 7 : 3 : « وَلَا تَصَاهِرْهُمْ ، بِنْتِكَ لَا تُعْطِ لِابْنِهِ ، وَبِنْتُهُ لَا تَأْخُذُ لِابْنِكَ » .

بَيْنَمَا نَجْدُ فِي سَفَرِ الْمُلُوكِ الْأَوَّلِ 3 : I - I2 : وَصَاهِرَهُ سُلَيْمَانُ فِرْعَوْنَ مِصْرَ ، وَأَخَذَ بِنْتَ

فِرْعَوْنَ . . هُوَذَا أُعْطَيْتُكَ قَلْبًا حَكِيمًا وَمِيمِرًا حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِثْلَكَ قَبْلَكَ وَلَا يَقُومُ بَعْدَكَ نَظِيرٌ » .

ثُمَّ نَجْدُ فِي نَحْمِيَا I3 : 26 - 27 - : « تَمَّ لَوْثُ سُلَيْمَانَ لِزَوَاجِهِ مِنَ الْأَجْنَبِيَّاتِ » .

II وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ تَسْبِيحِ الْأَرْضِ وَحَمْدِهَا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَجْدُ :

الْأَرْضُ تُسَبِّحُ وَتُحَمِّدُ اللَّهَ فِي الْمَزْمُورِ 66 .

بَيْنَمَا نَجْدُ الْأَرْضُ لَا تُسَبِّحُ اللَّهَ وَلَا تَحْمَدُهُ فِي الْمَزْمُورِ 30 : 9 .

I2 كَمَا نَجْدُ التَّوْرَةَ السَّامِرِيَّةَ الَّتِي تَرْجَعُ إِلَى الْقُرْنِ الرَّابِعِ ق . م تَحْتَلِفُ عَنِ النَّصِّ الْمَاسُورِيِّ فِي أَكْثَرِ مِنْ

6000 مَوْضِعٍ ! .

I3 تُونُسَخَةُ التُّورَاةِ السَّامِرِيَّةِ تَتَّفِقُ مَعَ التَّرْجَمَةِ السَّبْعِينِيَّةِ (250 - I30 ق . م) فِي التُّلْثِ فَقَطْ !

I4 وَسَفَرِ إِرمِيَا فِي التَّرْجَمَةِ السَّبْعِينِيَّةِ يَنْقُصُ عَنِ التَّصِ الْعِبْرِيِّ نَحْوِ السَّبْعِ ! .

I5 وَسَفَرِ أَيُّوبَ فِي التَّرْجَمَةِ السَّبْعِينِيَّةِ يَنْقُصُ عَنِ التَّصْرِ الْعِبْرِيِّ نَحْوِ الرَّبْعِ ! .

I6 كَمَا نَجِدُ إِسْفَارَ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ لَا تَتَحَدَّثُ عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِلِسَانِ الْمُخَاطَبِ أَيَّ أَنَّهُا لَمْ تُنْزَلْ عَلَيْهِ وَإِنَّمَا تَتَحَدَّثُ عَنْهُ كَثِيرًا بِضَمِيرِ الْغَائِبِ أَيَّ أَنَّهُا تَرَاثُ جُمْعٍ وَدُونَ بَعْدَ وَفَاتِهِ - . . وَمِنْ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ :

« وَكَلَّمَ يَهُوهُ مُوسَى . . وَكَلَّمَ يَهُوهُ مُوسَى وَجَهًا لَوَجْهِهِ » - الْخُرُوجُ 33 : II .

« وَأَمَّا الرَّجُلُ مُوسَى فَكَانَ حَلِيمًا جَدًّا أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ الَّذِينَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ » - الْعَدَدُ I2 :

« فَسَخَطَ مُوسَى عَلَى وَكَلَاءِ الْجَيْشِ » - الْعَدَدُ 3I : 4 - .

« مُوسَى رَجُلٌ لِلَّهِ » التَّثْنِيَّةُ 3I : I - .

« وَمَاتَ هُنَاكَ مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ » - التَّثْنِيَّةُ 34 : 35 - .

« فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى » - الْخُرُوجُ 6 : I - .

« فَتَكَلَّمَ مُوسَى إِمَامَ الرَّبِّ » - الْخُرُوجُ 6 : I3 - .

« فَقَالَ مُوسَى لِلرَّبِّ » - الْعَدَدُ II : II - .

« وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى » التَّثْنِيَّةُ 3I : I4 .

« فَمَاتَ هُنَاكَ مُوسَى . . وَدَفِنَهُ (الرَّبُّ) . . وَكَانَ مُوسَى ابْنَ مِئَةٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً حِينَ مَاتَ . . »

وَلَمْ يَقُمْ بَعْدَ نَبِيِّ فِي إِسْرَائِيلَ مِثْلَ مُوسَى « - الشَّيْئَةُ 34 : 5 - IO .

وَفِي الْآيَةِ 6 مِنْ نَفْسِ السَّفَرِ وَنَفْسِ الْإِصْحَاحِ إِشَارَةٌ إِلَى وَفَاةِ مُوسَى ، نَقُولُ :

« لَا يُعْرَفُ شَخْصٌ قَبْرِهِ حَتَّى يَوْمِنَا هَذَا » .

فَقُلْ هَذَا « الْكَلَامُ » نَزَلَ عَلَى مُوسَى فِي التَّوْرَةِ أَمْ إِضَافَاتٌ وَتَأْلِيفَاتٌ أُدْخِلَتْ فِي هَذَا التَّرَاثِ ، بَعْدَ

وَفَاةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقُرُونٍ ؟ ! .

- أَنْ بَعْضَ نُصُوصِ التَّوْرَةِ تَتَحَدَّثُ عَنْ مُوسَى بِضَمِيرِ الْغَائِبِ ، وَبِصِيغَةٍ لَا يُمَكِّنُ التَّصَدِيقَ بِأَنَّ كَاتِبَهَا هُوَ

مُوسَى ، وَمِنْ تِلْكَ النُّصُوصِ : (تَحَدَّثَ اللَّهُ مَعَ مُوسَى) (وَكَانَ اللَّهُ مَعَ مُوسَى وَجْهًا لُوجَهًا) (وَكَانَ مُوسَى

رَجُلًا حَلِيمًا جَدًّا أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ) (فَسَخَطَ مُوسَى عَلَى وُكَلَاءِ الْجَيْشِ) (مُوسَى رَجُلٌ لِلَّهِ) وَنَحْوِ

ذَلِكَ ، فَلَوْ كَانَ مُوسَى كَاتِبَ تِلْكَ النُّصُوصِ لَقَالَ مِثْلًا : كَلَّمَنِي الرَّبُّ ، تَحَدَّثْتُ مَعَ اللَّهِ . وَنَحْوِهِ .

-إِنْ مَلَّاخِظَةَ اللُّغَاتِ وَالْأَسَالِيبِ الَّتِي كُتِبَتْ بِهَا التَّوْرَةُ وَمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهَا مِنْ مَوْضُوعَاتٍ وَتَشْرِيعَاتٍ

وَبَيِّنَاتٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ وَسِيَاسِيَّةٍ وَجُغْرَافِيَّةٍ تَتَعَكَّسُ فِيهَا ، تُظْهِرُ أَنَّهَا قَدْ أَلْفَتْ فِي عَصُورٍ لَاحِقَةً لِعَصْرِ مُوسَى

، مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ هَذِهِ الْأَسْفَارَ قَدْ كُتِبَتْ بِأَقْلَامِ الْيَهُودِ الَّتِي تَعَكَّسُ أَفْكَارُهُمْ وَنَظْمُهُمُ الْمُتَعَدِّدَةَ فِي مُخْتَلَفِ

أَدْوَارِ تَارِيخِيَّتِهِمُ الطَّوِيلِ ، مِثَالُ ذَلِكَ :

وَرَدَ فِي التَّوْرَةِ فِي (سَفَرِ التَّكْوِينِ) (I4/I4) أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَبَعَ أَغْدَاءَهُ إِلَى (دَانَ) . وَهِيَ

اسْمُ مَدِينَةٍ لَمْ تُسَمَّ بِهَذَا الْاسْمِ إِلَّا بَعْدَ مَوْتِ يُوشَعَ بَعْدَ دُخُولِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِلَسْطِينَ وَاسْتِقْرَارِهِمْ بِهَا ،

فَقَدْ وَرَدَ فِي (سفر القضاة) (I8/29) (وسموا المدينة دان) بِاسْمِ أَبِيهِمُ الَّذِي وُلِدَ لِإِسْرَائِيلَ ، وَكَانَ اسْمُ
الْمَدِينَةِ قَبْلَ ذَلِكَ (لايش) فَكَيْفَ يَذْكَرُ مُوسَى - وَهُوَ يَقْضِي قِصَّةَ إِبْرَاهِيمَ - اسْمَ مَدِينَةٍ لَمْ تَسَمَّ بِهَذَا
الاسمِ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ بِزَمَنِ طَوِيلٍ جَدًّا ؟

تلك بعض الملاحظات التي جعلت الفيلسوف اليهودي باروخ سبنوزا (ت1677م) يُعلن صراحةً قوله : (من
هذه الملاحظات كلها يظهر واضحاً وضوح النهار أن موسى لم يكتب الأسفار الخمسة ، بل كتبها
شخص آخر عاش بعد موسى بقرون عديدة) .

أضف إلى ذلك أيضاً اختلاف فرق اليهود في قبول ورفض بعض أسفار العهد القديم ، فطائفة السامرة
من اليهود لا تعرف إلا بالتوراة الخمسة الأسفار ، وتُتكر ما عداها من الأسفار ، وتقبل منها سفرَي
يُوشع والقضاة باعتبارهما أسفاراً تاريخية فقط . ويُخالفها جمهور اليهود الذين يقبلون أسفار العهد
القديم المذكورة . ويختلف مع اليهود أيضاً طائفة الكاثوليك من التصاري في قبول ورفض بعض أسفار
العهد القديم .

أن مفهوم "اختيار إسرائيل" في الفكر الديني اليهودي إلى اصطفاء بني إسرائيل من لدن الخالق بوصفهم
شعبه الخاص وجماعته المقدسة ، بل لقد شبه الأدب المُقراي تلك العلاقة الخاصة بين الرب وجماعة
إسرائيل بعلاقة الزوج أو الحبيب (الرب) بالزوجة أو الحبيبة (إسرائيل) .

لقد غداً ذلك المفهوم ، عبر طبقات الفكر اليهودي في إطاراته الزمكانية المتعددة ، إحدى البنى
التحفية للديانة اليهودية ، وبات عقيدة مؤسسه تهضت عليها غيرها من العقائد الأخرى ، ذلك أن
استحقاقات "الشعب المختار" اقتضت اقتطاع أرض معينة كملكية خاصة وميراث أبدي لجماعة

إسرائيل ، فيما عُرف بـ "العهد - בְּרִית " ، كما اقتضت العناية الإلهية الخاصة بتلك الجماعة تقرير مصيرها وجمع أشتاتها من أرجاء المعمورة وردّها إلى أرضها المقدّسة ، وهو ما عبّرت عنه عقيدة "الخلاص - גְּאֻלָּה " .

فقد اهتم الخطّاب الديني اليهودي ، سواءً على مُستوى المُتون أو الشُّروح ، بتسوية وترسيخ ذلك الاعتقاد في الوجدان اليهودي .

أُرست الشريعة اليهودية مبدأ "اختيار إسرائيل" بصريح نص التّوراة : - "لأنك شعبٌ مُقدّسٌ للرّب إلهك وقد اختارك الرّب لتكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض" . وإلى جانب هذا الخطّاب التّقريبي المُباشر فقد جاءت القصة الدينية لتفسير وتعليل أصل تلك العقيدة ، فتحكي سلسلة إحدّات تاريخية متواصلة تشهد باستمرارية قصدٍ واحدٍ ، وتُظهر اختيار إسرائيل ممهداً له بسلسلة تفضيلات أو اختيارات سابقة تبدأ بمباركة سام بن نوح ، ومروراً بقطع العهد لإبراهيم ، إلى أن تكتمل السلسلة باختيار يعقوب أو إسرائيل ، وذلك من خلال سياقات فنية تُهدف إلى تجاوز أثر الخطّاب المُعالِي المُباشر باستخدام طريقة الحكمي التي لا تعتمد على المُباشرة أو المُصادرة بقدر اعتمادها على بعض المُقدّمات الإقناعية بُغية تاصيل تلك العقيدة في الوجدان اليهودي وإقامة بُرهانها ، بل وجعل الفارئ (الجماهير اليهودية) وكأنّه شاهداً عليها في أنّ معاً .

وإذا كان الحكمي التوراتي أو الحدّث الذي يُبشّر باختيار إسرائيل يأتي في سياقٍ مُجملٍ حيناً وأكثر إجمالاً أو رمزاً حيناً آخرًا ، فإن روايات الأجداد - بوصفها أثرًا دينيًا موازيًا واحد تجليات الشّرع الشفاهي - قد جاءت تفصيلاً وتوسيعاً لذلك الحكمي وشارحةً لشخصياته وإحدائه . فمثلاً بينما

يُشير القِصص التوراتي لِحادِثَة طُرْدِ إِبْرَاهِيمَ لِإِسْمَاعِيلِ (عليهما السلام) وَتَخْصِيصِ عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ لِإِسْحَاقَ وَذُرِّيَّتِهِ مِنْ دُونِ إِسْمَاعِيلِ ، تَأْتِي الرِّوَايَة الأَجَادِيَة فِي التَّلْمُودِ وَالمَدْرَاشِيم لِتَبَرُّرِ اخْتِيَارِ إِسْحَاقَ وَإِقْصَاءِ إِسْمَاعِيلِ ، وَكَمَا صُوِّرَ سَفَرُ الخُرُوجِ حَدَثَ نُزُولِ التَّوْرَةِ عَلَي إِسْرَائِيلَ فِي سَيْنَاءَ ، جَاءَتْ الرِّوَايَة الأَجَادِيَة تَحْكِي لِمَاذَا خَصَّ الرَّبُّ إِسْرَائِيلَ بِالتَّوْرَةِ دُونَ سَائِرِ الأُمَّمِ .

أَنَّ الكَهَنُوتَ سَيَطِرُ عَلَي الخِطَابِ الدِّيْنِيِّ اليَهُودِيِّ وَاسْتَعْلَّ طَبَائِعَ اليَهُودِ وَظُرُوفَهُمْ فِي سَعْيِهِ الدَّائِمِ لِلسِّيْطْرَةِ عَلَيْهِمْ ، وَقَدْ نَجَحَ فِي ذَلِكَ نَجَاحًا لاقْتًا وَكاشِفًا ، وَإِنَّ مُؤَسَّسَةَ الكَهَنُوتِ مُنْذُ نَشَأَتِهَا الأُولَى هِيَ مُؤَسَّسَةٌ سِيَّاسِيَّةٌ لَا تَرْمِي فَقْطُ إِلَى الأَوْصُولِ إِلَى الحُكْمِ وَالثَّرْوَةِ وَالجَاهِ ، بَلْ تَسْعَى إِلَى التَّحْكَمِ فِي عُقُولِ النَّاسِ وَفِي سُلُوكِهِمْ مِنْ خِلَالِ اسْتِخْدَامِ العَقِيدَةِ الدِّيْنِيَّةِ .

الأدلة القرآنية على التحريف والتبديل

مَفْهُومُ الكِتَابِ فِي التَّصِ القُرْآنِيِّ كُلِّ مَا عَدَّهُ اللهُ لِتَبْلِيغِ النَّاسِ وَهَدَايَتِهِمْ فَهُوَ عِنْدَهُ أَمُّ الكِتَابِ أَيْ أُسَاسُهُ وَأَصْلُهُ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أَمُّ الكِتَابِ (39) وَمِنْهُ نَزَلَتِ التَّوْرَةُ وَبَعْدَهُ الأَنْجِيلُ ثُمَّ القُرْآنُ لِذَلِكَ قَالَ اللهُ عَنِ اليَهُودِ وَالتَّصَارِي أَهْلُ الكِتَابِ أَيْ الَّذِينَ حَمَلَهُمُ اللهُ مَا خَصَّهُمُ اللهُ مِنْهُ وَالَّذِي بَلَغَتْهُ رُسُلُهُمْ لَهُمْ وَنَجِدُ هَذَا المَعْنَى فِي آيَاتٍ عَدَّةٍ مِنْهَا :

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ البقرة

وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ وَالفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ البقرة

. التَّبَيِّنُ مَبْشَرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيهَا . . . (٢١٣) البقرة

فَالْكِتَابِ أَوْ لِنَقْلِ مَضْمُونَةٍ وَاحِدٍ وَمَصْدَرِهِ وَاحِدٍ وَهَدَفُهُ كَذَلِكَ وَاحِدٍ وَإِنْ تَعَدَّدَتْ الرِّسَالَاتُ

والتسميات لذلك لا أحدًا كاتبًا من كان يستطيع القول أن هناك تناقضًا أو اختلافًا بين الكتب السماوية
الثلاث من حيث أركان الإيمان التي وجب على الناس الاعتقاد بها وهي الإيمان بالله وبالْيَوْمِ الْآخِرِ وَكُتِبَ
وَرُسُلُهُ وَمِنْ حَيْثُ مَارَوْاهُ عَنِ الْخَلْقِ وَالتَّكْوِينِ وَالْقِصَصِ الَّتِي تَحَدَّثُ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ لَمْ يَطْعَنْ
فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ بَلْ طَعَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ فِي عَدَمِ الْحِفَاطِ عَلَيْهِمَا وَالِاسْتِهْتَارِ بِهِمَا وَتَحْرِيفِهِمَا لِتَضْلِيلِ
النَّاسِ وَلِذَلِكَ جَاءَ النَّصُّ الْقُرْآنِيُّ صَرِيحًا وَقَوِيًّا فِي اتِّهَامِهِمْ : وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا
مَعَهُمْ بَدَأَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَاتِبِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١ البقرة﴾

لِذَلِكَ لَمْ يَبْقَى إِمَامُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إِلَّا كَشْفُهُمْ وَبَيَانُ حَقِيقَةِ أَوْهَامِهِمْ وَتَلَاعِبِهِمْ بِدِينِ اللَّهِ فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِهِ
وَخُدُهُ عَرَفْنَا التَّوْرَةَ كَمَا أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبِهِ وَخُدَهُ نَسْتَطِيعُ كَشْفُ مَا بَدَّلُوا وَحَرَفُوا
وَسُنُورِدُ عِدَّةٌ نُصُوصٍ قُرْآنِيَّةٍ تُثَبِّتُ ذَلِكَ وَمِنْهَا :

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ
أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩ البقرة﴾

يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ وَالتَّوْرَةَ وَيَدْعُونَ كَذِبًا إِنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَتَّجِرُوا وَيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا .

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦ البقرة﴾
هُم يَعْلَمُونَ الْحَقَّ تَمَامَ الْعِلْمِ لِكُلِّهِمْ يَكْتُمُونَهُ لِكَيْ يَدْعُونَ أَنَّهُمْ مِنْ يَمْلِكُ إِسْرَارَهُ .

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ
وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ البقرة

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا
يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ البقرة

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ تَزَلَّ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ البقرة

كَلِمَةٌ شِقَاقٍ بَعِيدٍ نَعَطِينَا فِكْرَهُ عَنِ حَجْمِ الْاِخْتِلَافَاتِ التَّارِيخِيَّةِ فِيمَا بَيْنَهُمْ حَوْلَ التَّوْرَةِ وَهَذَا مَا شَهِدْنَاهُ
خِلَالَ الْحَدِيثِ عَنْ مَرَا حِلِّ تَشْكِالِ التَّوْرَةِ الْمَحْرُفَةِ .

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٦٥﴾ آل عمران

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ آل عمران

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُشْرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ النساء

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا . . . ﴿١٧١﴾ النساء

. . . مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا . . . ﴿٤٨﴾ المائدة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُورًا وَعِجَابًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ
أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُتُمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ المائدة

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ
مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ
اللَّهُ تَمَّ ذَرْهُمُ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (91: الأنعام).

أَن مُصِيبَةُ الْعَقْلِ وَالْحِطَابِ الْكَهْنَوِيِّ الْيَهُودِيِّ تَلْخِصُهَا هَذِهِ الْآيَاتُ الْأَخِيرَةُ فَهَمُ أَصْحَابُ هَذَا الْعَقْلِ نَكُرُوا
بذَاتِهِمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ وَأَدْعُوا أَنَّ اللَّهَ مَا أَنْزَلَ كِتَابًا عَلَى بَشَرٍ وَسُوا
توراتهم ونبیهم ثم جعلوه أي الكتاب على مزاجهم يؤمنون ببعضه ويكفرون ببعضه جعلوه قراطيس
يظهرها مرة ويخفونها مرة فهم بذلك يلعبون ويعبثون لأنهم ما قدروا الله حق قدره لذلك وصل بهم الأمر
فأشركوا به وقالوا عزيز ابن الله كما قال أصحابهم أن المسيح ابن الله .

وَحُلَاصَةُ الْقَوْلِ هِيَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِمْ : مَثَلُ الَّذِينَ حُمَلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ
أَسْفَارًا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآياتِ الله والله لا يهدي القوم الظالمين [سورة الجمعة : 5]

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ

ثالثاً

العقل الديني المسيحي

المسيح عيسى بن مريم عليه السلام

معجزة الولادة وصراع الانتماء والهوية

لم يعرف التاريخ الديني برمته نبياً ورسولاً شغل الناس من يوم مولده وإلى يومنا هذا مثل نبي الله عيسى عليه السلام فلقد كان مولده معجزة سرعان ما تحولت إلى حدث اتخذ منها الكثير من أتباعه طريقاً نحو الكفر والشرك بالله فاهوه وادعوا أنه ثالث ثلاثة على المستوى الكوني والأزلي .

شب عيسى عليه السلام وعاش صباه وشبابه طاهراً تقياً ، يحفظه الله ويحميه ، ويرعاه ويُبعد عنه الشيطان ووساوسه ، حتى أنزل عليه الوحي وجعله نبياً رسولاً ، وبعثه إلى بني إسرائيل وأنزل عليه كتابه الإنجيل . وكانت بعثة عيسى عليه السلام وإنزال الإنجيل تحقيقاً للبشرى التي قدمها الله إلى أمه قبل حملها به (ويُعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل) * ورسولاً إلى بني إسرائيل (آل عمران : 48-49) ، وهي تحقيق لما أخبر هو عن نفسه عندما كلم قومه وهو في المهدي قائلاً (قال أنبي عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً) لقد بعث الله عيسى ابن مريم عليه السلام رسولاً إلى بني إسرائيل فقط

الروايات التاريخية عن التي تحدثت عن مَولِدِ المَسيح (ع)

لَعَلَّ أَقْدَمَ مَرْجِعٍ مِنْ خَارِجِ الْكَنِيسَةِ يُذَكِّرُ فِيهِ الْمَسِيحَ هُوَ (تَارِيخُ الْيَهُودِيَّةِ) لِلْمُؤَرِّخِ الْيَهُودِيِّ فِلايُوسُ جُوسِيفُوسُ الَّذِي كَتَبَ فِي السَّنَةِ 93 بَعْدَ الْمِيلَادِ . وَقَدْ أَشَارَ إِلَى الْمَسِيحِ فِي مَوْضِعَيْنِ مِنْ كِتَابِهِ أَحَدُ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ اخْتَلَفَ فِيهِ الْبَاحِثُونَ وَلَا يُمَكِّنُ الْإِعْتِدَادُ بِهِ ؛ وَذَلِكَ لِلشُّكُوكِ الَّتِي تَحُومُ حَوْلَهُ ، فَهَمَّ يُرَجِّحُونَ أَنَّ النَّسَاحَ الْمَسِيحِيِّينَ قَامُوا بِتَحْرِيفِ مَا جَاءَ فِي الْمَخْطُوطِ الْأَصْلِيِّ وَذَلِكَ لِوُجُودِ لَمَحَاتٍ وَاضِحَةٍ لِتَجْمِيلِ مَرْوِيَّاتِ الْمُؤَرِّخِ جُوسِيفُوسِ الَّتِي كَانَتْ سَلْبِيَّةً فِي الْأَصْلِ كَمَا يَبْدُو . فِي الْمَقَابِلِ هُنَاكَ رِوَايَةٌ لِهَذَا الْمُؤَرِّخِ يُمَكِّنُ الْإِعْتِدَادَ وَالْأَخْذُ بِهَا ، وَهِيَ رِوَايَةٌ يَرُدُّ فِيهَا ذِكْرَ أَخُو عِيسَى يُدْعَى جِيمِسُ .

بَعْدَ حَوَالِي ٢٠ عَامًا مِنْ كِتَابَاتِ جُوسِيفُوسِ كَتَبَ كُلُّ مَنْ تَاسِيْتُوسُ وَبِلَايْنِي ، وَهُمَا مِنْ أَعْمَدَةِ السِّيَاسَةِ فِي الدَّوْلَةِ الرُّومَانِيَّةِ فِي الْعَقْدِ الثَّانِي بَعْدَ الْمِيلَادِ ، كِتَابَاتٌ تُشِيرُ إِلَى عِيسَى . فَمِنْ كِتَابَاتِ تَاسِيْتُوسِ عَلَّمْنَا عَنْ اشْكَالِيَّةِ صَلْبِ النَّبِيِّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي عَهْدِ الْمُحَافِظِ Pontius Pilate وَهُوَ الْقَائِمُ عَلَى مَقَاتِعِهِ يَهُودًا رُومَانِيَّةً بَيْنَ عَامِ ٢٦-٣٦ بَعْدَ الْمِيلَادِ ، حَيْثُ كَانَ الْإِمْبَرَاتُورُ حِينَهَا هُوَ تَيْبِيرِيُوسُ Tiberius الَّذِي حَكَّمَ بَيْنَ ١٤-٣٧ بَعْدَ الْمِيلَادِ . وَهَذَا التَّارِيخُ يَتَوَافَقُ مَعَ فِتْرَةِ كِتَابَةِ الْأَنَاجِيلِ . وَقَدْ عَزَزَ بِلَايْنِي - حِينَ كَانَ حَاكِمًا قَائِمًا عَلَى شِمَالِ تَرْكِيَا - هَذِهِ الْمَعْلُومَاتِ فِي كِتَابَاتِهِ الَّتِي ذَكَرْتُ أَنَّ الْمَسِيحِيْنَ يُعْتَبِرُونَ الْمَسِيحَ إِلَهًا وَيَعْبُدُونَهُ . لَمْ يَكُنْ الرَّجُلَانِ الْحَبَّ لِلْمَسِيحِيِّينَ . وَهَذَا تَكْشِفُهُ كِتَابَاتُهُمَا فَتَرَى عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ بِلَايْنِي يَصِفُ عِنَادَهُمْ بِتَصَلُّبِ رَأْسِ الْخَنْزِيرِ ، بَيْنَمَا قَالَ تَاسِيْتُوسُ عَنْ دِيَانَتِهِمْ أَنَّهَا كَمَنْ مِنَ الْخُرَافَاتِ الْمَدْمُورَةِ .

هَلْ نَافَشَ الْكُتَابِ الْأَوَائِلِ وَجُودَ شَخْصِيَّةِ عِيسَى النَّبِيِّ ؟

لَمْ يَتَأَوَّلْ أَيُّ مِنْ الْكُتَابِ الْأَوَائِلِ لِشَخْصِيَّةِ عَيْسَى النَّاصِرِيِّ وَرِسَالَتِهِ الْإِلَهِيَّةِ . فَبِالْكِتَابَاتِ الْقَدِيمَةِ
لِحَاخَامَاتِ الْيَهُودِ يُذَكَّرُ عَيْسَى بِأَنَّهُ الْإِنْسَانُ الْغَيْرُ الشَّرْعِيِّ لِمَرْيَمَ وَالْمَشْعُودِ . أَمَّا فِي الْكِتَابَاتِ الْوَثْنِيَّةِ فَتَجِدُ
أَنَّ الْكَاتِبَ السَّاحِرَ لُوسِيَانَ Lucian والفيلسوف سيلسوس Celsus رَفَضَا عَيْسَى كِدَاعِيَّةٍ وَمَبْلَغٍ
لِرِسَالَةٍ . وَلَكِنْ لَا يُوجَدُ أَيُّ مِنْ الْكُتَابِ الْأَوَائِلِ مِنْ شَكِّكَ فِي وُجُودِ وَحْيَاةِ عَيْسَى .

فِي كِتَابِ جَدِيدِ الْفِيلَسُوفِ الْفَرَنْسِيِّ مِيْشَلِ أُونْفْرِي Michel Onfray نَجِدُ الْكَاتِبَ يَتَحَدَّثُ عَنِ شَخْصِيَّةِ
عَيْسَى كَشَخْصِيَّةٍ افْتِرَاضِيَّةٍ وَيَعْتَبِرُهُ مُجَرَّدَ فِكْرِهِ وَلَيْسَ كَشَخْصِيَّةٍ مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍّ عَاشَتْ ذَاتَ يَوْمٍ .

هَلْ هُنَاكَ آيَةٌ دَلَالِيَّةٌ لِوُجُودِ عَيْسَى (ع) ؟

هُنَاكَ بَعْضُ الدَّلَائِلِ الْإِثْرِيَّةِ الْغَرِيبَةِ الَّتِي تَنَارُ بَيْنَ الْحِينِ وَالْآخِرِ وَلَعَلَّ آخِرَهَا ادْعَاءُ أَنَّ عَيْسَى هُوَ أَحَدُ
أَحْفَادِ كِيلُوبَاتَرَا ، وَأُخْرَى تَقُولُ إِنَّ هُنَاكَ نَقُودًا مَعْدِيَّةً بِهَا صُورَةُ عَيْسَى لِأَسْبَاطِ تَاجِ الشُّوكِ الْمَعْرُوفِ .
كَمَا يَتَدَاوَلُ آخَرُونَ أَثْرَ كَفَنِ تَوْرِينِ وَالَّذِي يُعْتَقَدُ أَنَّهُ مَقْرَرٌ دُفِنَ عَيْسَى . وَقَالَ عَنْهُ الْبَابَا بِنْدِيكُوسُ
السَّادِسَ عَشَرَ أَنَّ الْكَفْنَ تُخْفَةُ فَنِيَّةٌ لَا يَسْتَطِيعُ الْبَشَرُ صَنْعَهَا ، وَأَنَّ هَذَا الْكَفْنَ هُوَ إِيقُونَةُ يَوْمِ السَّبْتِ
الْمَقْدِسِ الَّذِي يُعْتَقَدُ بِأَنَّ جَسَدَ عَيْسَى وُورِيَ فِيهِ الثَّرَى .

إِلَّا أَنَّهُ لَا يُوجَدُ أَيُّ مُؤَرِّخٍ حَتَّى الْآنَ يَعْتَرِفُ بِهَذِهِ الْآثَارِ أَوْ بِآيَةِ أَهْمِيَّةٍ تَارِيخِيَّةٍ لَهَا . وَلَعَلَّ الْآثَرَ الْأَكْثَرَ أَهْمِيَّةً
حَتَّى الْآنَ هُوَ مَا تَحَدَّثْنَا عَنْهُ مِنْ مُؤَلَّفَاتِ الْكُتَابِ الْيَهُودِ وَالرُّومَانِ .

وَبِالْأَخْذِ بِمَا تَوْفَّرَ لَدَيْنَا مِنْ أُدَلَّةٍ سَابِقَةٍ نَجِدُ أَنَّ الشَّكَّ يَتَضَائَلُ حَوْلَ حَيَاةِ وَمَوْتِ عَيْسَى . إِلَّا أَنَّ السُّؤَالَ
الَّذِي يَتَعَدَّى كُلَّ الْآثَارِ التَّارِيخِيَّةِ وَالْحَقَائِقِ الْمُضْوَغِيَّةِ هُوَ مَا إِذَا كَانَ عَيْسَى مَاتَ ثُمَّ عَادَ إِلَى الْحَيَاةِ ؟

كَيْفَ أَمْكَنَ لِحُجَّةِ عَدَمِ وُجُودِ الْمَسِيحِ أَنْ تُصْبِحَ رَائِجَةً إِلَى هَذَا الْحَدِّ ؟ فِي الْوَاقِعِ لِأَنَّ جَمِيعَ الْوَتَائِقِ
وَالْمَدَوَّنَاتِ عَنِ وُجُودِ الْمَسِيحِ مَبْعُوثَةٌ وَمْتَفَرِّقَةٌ . وَحَتَّى اسْمُهُ يُشِيرُ إِلَى وُجُودِ عَمَلِيَّةِ اخْتِرَاعِ وَتَلْفِيْقِ بَدَلًا
مِنْ شَخْصٍ حَقِيقِيٍّ .

وَاللَّافِتِ لِلنَّظَرِ أَيْضًا أَنَّ الْكُتَّابَ غَيْرَ الْمَسِيحِيِّينَ الْمُعَاَصِرِينَ لِلْمَسِيحِ لَمْ يَذْكُرُوهُ فِي كِتَابَاتِهِمْ . الْمُوَرِّخُونَ
الرُّومَانُ بَعْدَ جِيلٍ وَاحِدٍ مِنْ ظُهُورِ الْمَسِيحِ قَدْ قَامُوا بِتَارِيخِ تَوَارِيخِ اجْتِمَاعِيَّةٍ وَطَبِيعِيَّةٍ كَأَن يُنْبَغِي أَنْ
يَأْخُذُوا بِإِنجَازَاتِهِ بِعَيْنِ الْاِعْتِبَارِ ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يُورِدُوا آيَةً إِشَارَةً مِنْ أَيِّ تَوَعُّ عَلَى حَيَاتِهِ أَوْ الظُّرُوفِ الَّتِي مَرَّ
بِهَا . لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَيُّ سَبَبٍ يَدْفَعُهُمْ لِلتَّغَاضِي عَنْهُ ، عَلِمَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَبْحَثُونَ عَنِ الْقَصَصِ الْأَصْلِيَّةِ
وَالغَرِيبَةِ وَحَسَبَ .

لَا يُمَكِّنُ إِثْبَاتُ وُجُودِ يَسُوعَ مِنْ خِلَالِ الْكُتَابَاتِ وَالتُّصُوصِ وَالْوَتَائِقِ الْمُعَاَصِرَةِ لِزَمَانِهِ . الْطِفْلُ الَّذِي بَشَّرَ
بِمَوْلِدِهِ نَجْمٌ ظَهَرَ فِي السَّمَاءِ وَالَّذِي يُرْشِدُ الْحُكَمَاءَ وَالْعُقَلَاءَ الْغُرَبَاءَ إِلَى يَهُوذَا ، مَعْلَمٌ يَشْفِي الْمَرْضَى
بِدَاءِ الْجُدَامِ ، الْأَعْمَى ، الْأَخْرَسَ ، الْأَطْرَشَ ، الْأَعْرَجَ ، وَيُقِيمُ الْأَمْوَاتَ وَهُمْ جُثَّتْ مِتْحَلَّةٌ ، مَلِكٌ عَلَى
الْيَهُودِ يَدْخُلُ مَدِينَةَ الْقُدْسِ بِمَوْكَبٍ مَهِيْبٍ وَمُنْتَصِرٍ ، بَدُونَ أَنْ تَعْرِضَهُ فَيَالِقَ الْقَيْصَرَ ، زَعِيمٌ حَرَكَ ثَوْرِيٍّ
مَتَّهِمٌ بِالْعِصْيَانِ يَتَمَّ الْقَبْضَ عَلَيْهِ مِنْ قِبَلِ أبنَاءِ قَوْمِهِ وَتَسْلِيمَهُ إِلَى الْحَاكِمِ الْإِمْبْرَاطُورِيَّةِ ، تَأَثُّرٌ حَكِيمٌ عَلَيْهِ
بِالْمَوْتِ وَفَقْدًا لِلْقَانُونِ الرُّومَانِيِّ ، ثَلَاثَ سَاعَاتٍ مِنْ ظَلَامٍ لَفَّ جَمِيعَ أَنْحَاءِ الْأَرْضِ ، هَزَّةٌ أَرْضِيَّةٌ تَفْتَحُ
الْقُبُورَ . . . ، إِعْدَادٌ هَائِلَةٌ مِنَ الْأَشْبَاحِ الْهَائِمَةِ فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ مَدِينَةِ الْقُدْسِ ، جِثَّةٌ مَصْلُوبَةٌ تَبْعَثُ مِنْ
جَدِيدٍ إِلَى الْحَيَاةِ ، وَتُظْهِرُ عَلَى مَرَأَى مِنْ حَوَالِي 500 شَخْصٍ ، رَجُلٌ يَبْعَثُ مِنْ بَيْنِ الْأَمْوَاتِ وَيَصْعَدُ

بِجَسَدِهِ نَحْوَ السَّمَاءِ مِنْ دُونَ تَسْتُرٍ . . . هَكَذَا أَخْبَرُونَا يَقُولُ أَحَدُ الْبَاحِثِينَ وَيُضِيفُ عَلَى فَرَضِ أَنْ

جَمِيعِ هَذِهِ الْأَحْدَاثِ ، لَكِنْ لَا يَوْجَدُ أَيُّ إِشَارَةٍ لِحُدُوثِهَا فِي الْأَدَبِ الْمَعَاصِرِ لَهَا .

قَطْعًا فَإِنَّ الْمَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ موجودًا ، لَكِنْ لَيْسَ هُنَاكَ أَيُّ تَوْثِيقٍ أَوْ دَلِيلٍ كِتَابِيٍّ مَدُونٍ يُبَيِّنُ وَقُوعَ جَمِيعِ هَذِهِ الْأَحْدَاثِ الَّتِي وَرَدَ ذِكْرُهَا فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ .

هُنَاكَ كَاتِبَانِ رُومَانِيَانِ تَجَاهَلًا وَجُودَ الْمَسِيحِ يُمَكِّنُ إِدْرَاجَهُمَا بِشَكْلِ خَاصٍّ . إِذْ أَنْ كَلَّا مِنْ سِينِيكَ (3ق . م . 5-6 . م) وِبليني الكبير (23-79 . م) وَضَعَا تَوَارِيخَ تَذْكَارِيَّةٍ سُجِّلَتْ فِيهَا جَمِيعُ الظَّوَاهِرِ الطَّبِيعِيَّةِ الْعَظِيمَةِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ زَلَّازِلَ ، مَذْنِبَاتَ ، حُسُوفَ وَكُسُوفَ ، إِلَى مَا هُنَاكَ . كِتَابُ سِينِيكَ التَّسْأُولَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ يَتَأَلَّفُ مِنْ مُجَلَّدَيْنِ ، وَعَمِلَ بِليني التَّارِيخِ الطَّبِيعِيِّ يَتَأَلَّفُ مِنْ عَشْرَةِ مُجَلَّدَاتٍ . وَكَأَمَّا لَا يُشِيرَانِ فِي عَمَلِيهِمَا الضَّخْمِينَ بِأَيِّ إِشَارَةٍ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ إِلَى هَذِهِ الْأَحْدَاثِ الْحَيَاتِيَّةِ لِلْمَسِيحِ وَكَأَنَّهَا لَمْ تَقَعْ بِسَاطِئَةٍ . بِليني كَانَ مَأْخُودًا بِظَاهِرِهِ الْكُسُوفِ وَالْحُسُوفِ بِشَكْلِ خَاصٍّ حَيْثُ إِنَّهُ نَاقَشَ إِمْكَانِيَّةَ حُدُوثِ كُسُوفِ جُزْئِيٍّ عِنْدَمَا قُتِلَ قَيْصَرُ ، لَكِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ شَيْئًا عَنِ الْكُسُوفِ الْكُلِّيِّ الْمُفْتَرَضِ الَّذِي دَامَ ثَلَاثَ سَاعَاتٍ كَامِلَةٍ وَالَّذِي يُفْتَرَضُ أَنَّهُ وَقَعَ خِلَالَ عَمَلِيَّةِ صُلْبِ الْمَسِيحِ بَعْدَ ذَلِكَ بِسَبْعِينَ عَامًا . كَيْفَ يُمَكِّنُ حُدُوثُ هَكَذَا كُسُوفِ عِمْلَاقٍ مِنْ دُونَ ذِكْرِ آيَةٍ تَقَارِيرٍ أَوْ إِخْبَارٍ عَنْهُ ضَمِنَ عَمَلِ بِليني الضَّخْمِ فِي التَّارِيخِ الطَّبِيعِيِّ ؟

هُنَاكَ مُؤَرِّخٌ رُومَانِيٌّ يُدْعَى تَاسِيْتُوسَ (حوالي 55-117 . م) أَشَارَ فِي الْحَقِيقَةِ لِلْمَسِيحِ عِنْدَمَا تَحَدَّثَ عَنْ "الْكْرِيسْتُوسَ" كَمُؤَسَّسٍ لِفِرْقَةٍ دِينِيَّةٍ أَلْقَى نِيرُونَ اللَّوْمِ عَلَيْهَا لِإِشْعَالِ حَرَائِقِ دَمَّرَتْ جِزْءًا كَبِيرًا مِنْ رُومًا خِلَالَ عَهْدَةٍ .

يَبْدُو أَنَّ الْمَوْرخَ الرُّوماني سِيْتُونيوس (65ب . م) يُوَكِّدُ تَصْرِيحَ تاسيْتوس : "المسيحيون ، هُم عِرْقٌ مِنْ
البُشَرِ يَعْتَنُونَ خِرَافَةَ خَيَالِيَّةً ، أَوْ سِحْرِيَّةً ، تَمَّتْ مَعاقِبَتَهُمْ" . وَقَالَ سِيْتُونيوس أَيْضًا عَنِ الإمبراطور
كلاوديوس : "دفع اليَهُود ، الَّذِينَ عَاثُوا فِي رُومًا فسادًا وتخریبًا حَسَبَ أوامِرِ المسيح/كريستوس ،
لِلخُرُوجِ مِنْهَا" . بِليني الصَّغِيرِ (62-113ب . م) وَالشَّاعِرِ مارِشال (43-100ب . م) والفيلسوف الرواقي
إبيكتيوس (50-138ب . م) والإمبراطور والفيلسوف الرواقي مارْكوس أوريلْيوس (121-180ب . م)
يَبْدُو أَنَّهُمْ أَشارُوا جَميعَهُمْ إِلَى المَسِيحِيِّينَ ، لَكِنْ مِنْ دُونِ أَنْ يذْكُرُوا المَسِيحَ بِشَكْلِ خَاصٍّ .

رُبَّمَا تَكُونُ الإِشارَةُ الأَهَمُّ إِلَى المَسِيحِ جَاءَتْ مِنْ المَوْرخِ بلوتارخ (46-120ب . م) الَّذِي كَتَبَ مَقالَةً
بِعُنوانِ خِرَافَةِ ، رَبَطَ فِيهَا المَسِيحِيَّةَ مَعَ بَعْضِ الفِرَقِ وَالْمذاهِبِ المُعاصِرَةِ الأُخْرَى وَوَصَفَهَا بِأَنَّها
"خرافية" ، حَيْثُ أَنَّ كَلامًا مِنْ تاسيْتوس وسِيْتُونيوس كَانَا قَدْ سَبَقاهُ فِي اسْتِخْدامِ كَلِمَةِ "خرافة" لِوَصْفِ
تِلْكَ الفِرْقَةِ الجَدِيدَةِ . عَامِلٌ بلوتارخ هَذِهِ الخِرَافَةَ بِنَفْسِ المُقْتِ الَّذِي عَامِلٌ بِهِ كُلُّ مَنْ تاسيْتوس
وسوتونيوس المَسِيحِيَّةَ ، لِذَلِكَ مِنْ المُحْتَمَلِ أَنَّهُ وَجَّهَ ملاحظاته وتَعْلِيقاتَهُ بِشَكْلِ كُلِّيٍّ أَوْ جُزْئِيِّ ضَدَّ
المَسِيحِيِّينَ . هَلْ يَحْتَمِلُ أَنَّهُ كَانُ هُنَاكَ فِرْقَةٌ أُخْرَى بِبالِ بلوتارخ ليصِفها بِالخرافية الَّتِي "تزرع الخوفَ مِنْ
مُعاناةٍ أَبعدَ وَأَطولَ مِنْ الحَيَاةِ نَفْسِها" مَعَ مَفْهُومِ الجَحِيمِ الَّذِي وَسَّعَ أَفقَ مَخِيلَةِ اتِّباعِ تِلْكَ الخِرَافَةِ .

يُنْبَغِي الاِغْتِرافَ بِأَنَّ بلوتارخَ لَمْ يحدِّدِ المَسِيحِيَّةَ بِالإِسْمِ أَوْ يذْكُرَ يَسُوعَ بِالتَّحْديدِ ، لَكِنْ كَافَّةَ الإِشارَاتِ
وَالأوصافِ تُشيرُ إِلَيْها ، وَالعَلاقَةُ وَاصِحَةٌ وَضُوحُ الشَّمْسِ .

هَذَا كُلُّ ما لَدَيْنا مِنْ أخبارٍ مِنْ مَوْرخينَ غَيْرِ مَسِيحِيِّينَ تَحَدَّثُوا عَنِ يَسُوعَ حَتَّى عَهْدِ مارْكوسِ أوريلْيوس
الَّذِي انْتَهَى فِي عامِ 180م . وَالقِسْمُ الأَكْبَرُ مِنْ تارِيخِ المَسِيحِيَّةِ تَمَّتْ كِتابَتُهُ بَعْدَ هَذِهِ الفِئْرَةِ ، لَكِنْ فِي

الواقع لم يُشر إلى المسيح بالاسم سوى مؤرخين رومانيين هما تاسيتوس وسوتونيوس ، وقد فعلاً ذلك فقط لتعريفه كمخترع لخرافة مذهبية تُوصف بالمسيحية .

مَوْلِدِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ وَفُقِ الرَّوَايَةِ الْيَهُودِيَّةِ

مُنذِ وِلَادَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَقَدَ شَكَّكَ الْيَهُودُ فِي كَوْنِهِ أَحْرَ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَلْ لَمْ يَكْتَفُوا عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ فَشَكَّكَوا بِوِلَادَتِهِ الْعَجَازِيَّةِ وَاتَّهَمُوا وَالدَّتَهُ الطَّاهِرَةَ وَلَمْ يَكْفِ التَّلْمُودُ بِوَصْفِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ بِأَنَّهُ لَقِيَطُ (مَزِير) أَيُّ ابْنِ زَنًا ، وَأَنَّهُ تَعَلَّمَ مَا كَانَ يَقُولُهُ لِلنَّاسِ عَلَى يَدِ (يُوشُوَا بْنُ بَرخِيَا) ، وَإِنْ مُعْجَزَاتِهِ مِنْ أَعْمَالِ السَّحْرِ الَّذِي تَعَلَّمَهُ فِي مِصْرٍ ، وَاخْتَصَّ الْمَسِيحُ وَاتَّبَاعَهُ بِكَثِيرٍ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْمُهَيِّنَةِ الدَّالَّةِ عَلَى الْكُذْبِ وَالْخِدَاعِ وَالسَّحْرِ وَالْجُنُونِ وَالْحُمُقِ وَالْتَّضَلُّيلِ وَاللُّؤْمُ وَالْتَّفَاهَةَ وَالْحَقَارَةَ ، وَادَّعَى أَنَّهُ قَبْلَ صُلْبِ الْمَسِيحِ أَغْلَنَ فِي الْمَدِينَةِ أَنَّ يَحْضُرَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الشَّهَادَةَ بِرَاءَتِهِ ، فَلَمْ يَتَقَدَّمْ أَحَدٌ .

وَلَقَدْ كَتَبَ التَّلْمُودُ فِي الْأَصْلِ لَذَمِ الْمَسِيحِ وَأُمَّهُ وَتَلَامِذَتِهِ ، وَالتَّهْجَمَ عَلَى الْمَسِيحِيَّةِ وَإِفْسَادِهَا بِكَلَامِ بَدِي وَوَصَفِ الْإِنْجِيلِ بِأَنَّهُ (وَتِيْقَةُ الْكُذْبِ وَالْخِدَاعِ) .

وَقَالَ عَلَى مَرْيَمَ الْبُتُولِ : أَنَّهَا امْرَأَةٌ سَاقِطَةٌ ، وَمَصْفُفَةٌ شُعُورُ النَّسَاءِ ، وَهِيَ الْبَغْيُ الْمَتَجَوْلَةُ فِي الْأَرْقَةِ وَالْأَسْوَاقِ وَلَقَدْ بَرَّاهَا اللَّهُ مِمَّا يَقُولُونَ وَصَدَّقَ اللَّهُ الْعَظِيمِ إِذْ أَخْبَرَ عَنْهُمْ ﴿ وَبَكَرَهُمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء : 156] .

وَمِنْ أَقْوَالِ التَّلْمُودِ فِي حَقِّ الْمَسِيحِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَبَرَّاهُ اللَّهُ مِنْ مَزَاعِمِ الْيَهُودِ :

أَنْ يَسُوعَ النَّاصِرِيِّ مَوْجُودٌ فِي لَجَاتِ الْجَحِيمِ بَيْنَ الْقَارِ وَالنَّارِ ، وَإِنَّ أُمَّهُ (مَرْيَمَ) أَتَتْ بِهِ مِنْ الْعَسْكَرِيِّ
(باندارا) عَنْ طَرِيقِ الْخَطِيئَةِ ، وَإِنَّ الْكَنَائِسَ النَّصْرَانِيَّةَ هِيَ بِمَقَامِ الْقَاذُورَاتِ ، وَإِنَّ الْوَاعِظِينَ فِيهَا أَشْبَهُ
بِالْكَابِ النَّاجِمَةِ ، وَإِنَّ قَتْلَ الْمَسِيحِيِّ مِنَ الْأُمُورِ الْمَأْمُورِ بِهَا ، وَإِنَّ الْعَهْدَ مَعَ الْمَسِيحِيِّ لَا يَكُونُ عَهْدًا
صَحِيحًا يَلْتَزِمُ الْيَهُودِيَّ الْقِيَامِ بِهِ ، وَأَنَّ مِنَ الْوَاجِبِ أَنْ يُلْعَنَ الْيَهُودِيُّ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ رُؤْسَاءِ الْمَذْهَبِ
النَّصْرَانِيِّ وَجَمِيعِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ يَتَظَاهَرُونَ بِالْعَدَاوَةِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ .

وَكَثِيرٌ مِنْ فِقَرَاتِ التَّلْمُودِ تَبَحُّثُ فِي مَوْلِدِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ وَحَيَاتِهِ وَمَوْتِهِ وَتَعَالِيمِهِ ، وَلَكِنَّهَا لَا تُشِيرُ إِلَى
الِاسْمِ نَفْسِهِ دَائِمًا ، بَلْ تَطْلُقُ عَلَيْهِ أَسْمَاءَ مُتَعَدِّدَةٍ مِثْلَ (ذَاكَ الرَّجُلِ) وَرَجُلٌ مُعَيَّنٌ (وَابْنِ النَّجَارِ) وَ
(الرَّجُلُ الَّذِي سَنَقَ) إلخ .

ثُمَّ اتَّهَمُوهُ بِالْكَذِبِ وَحَرَضُوا بَعْضُهُمْ عَلَى الْإِبْتِعَادِ عَنْهُ . وَيَعْلَمُ (التَّلْمُودُ) اتِّبَاعَهُ أَنْ يَسُوعَ الْمَسِيحِ كَانَ ابْنًا
غَيْرُ شَرْعِيِّ ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ خِلَالَ فِتْرَةِ الْحَيْضِ ، وَكَانَتْ تَقْمِصُهُ رُوحَ (إِسْو) وَأَنَّهُ مَجْنُونٌ ، مُشْعُودٌ ،
وَمُضِلٌّ ، صُلْبٌ ، ثُمَّ دُفِنَ فِي جَهَنَّمَ ، فَنَصَبَهُ اتِّبَاعُهُ مُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ وَثَنًا لَهُمْ يَعْبُدُونَهُ . وَيَدْعُوهُ الْبَعْضُ
مَجْنُونًا وَمُخْبَلًا ، وَاتَّهَمَهُ بِأَنَّهُ سَاحِرٌ مُشْعُودٌ ، وَثَنِيٌّ ، مُعْبُودٌ كَالَّذِي بَعْدَ مَا قَتَلَهُ اتِّبَاعُهُ ، وَإِنَّ تَعَالِيمَ
الْمَسِيحِ كَذِبٌ وَهَرِطَةٌ ، وَتَعَالِيمُ مُسْتَحِيلَةٌ الْإِدْرَاكِ .

تَعَالِيمُ التَّلْمُودِ عَنِ الْمَسِيحِيِّينَ

يَدْعَى الْمَسِيحِيُّونَ فِي لُغَةِ التَّلْمُودِ بِاسْمِ (نُوتَسْرِيم) أَيِ نَاصِرِيَّيْنِ ، نَسْبَةً إِلَى يَسُوعَ النَّاصِرِيِّ مِنْ مَدِينَةِ
النَّاصِرَةِ فِي فِلَسْطِينَ ، غَيْرِ أَنْ الْمَسِيحِيِّينَ يَدْعُونَ كَذَلِكَ بِأَسْمَاءٍ أُخْرَى ، يَسْتَعْمِلُهَا التَّلْمُودُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى
غَيْرِ الْيَهُودِ .

وَعَنْ دِيَانَتِهِمْ يَقُولُ : . . . دِيَانَةٌ غَرِيبَةٌ وَثَنِيَّةٌ ، وَمَعَ أَنَّ تَعَالِيمَهُمْ مُنْتَوَعَةٌ فَكُلُّهُمْ عِبْدَةٌ أَوْثَانٍ ، وَيَأْكُلُونَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ ، أَعْوِيَاءَ ، غُرَبَاءَ ، بُلْهَاءَ ، لَحْمَ وَدَمَّ ، وَإِنَّ الرِّجَالَ غَيْرَ الرُّوحِيِّينَ الَّذِينَ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْهَلَاكَ فِي قَرَارِ الْجَحِيمِ ، لَنْ يَمَكَّنُوا مِنْ إِقَامَةِ صَلَاةٍ حَمِيمَةٍ مَعَ اللَّهِ ، عَصَاهُ لَا يُطِيعُونَ اللَّهَ ، أَسْوَأُ نَوْعٍ مِنَ النَّاسِ ، الْقِتْلَةَ الْفَاسِقُونَ ، الْحَيَوَانَاتِ الْقَذِرَةَ كَالْغَائِطِ بَلْ إِنَّهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ أَنْ يُسَمَّوْا بَشَرًا . . . فَهَمْ بِهَائِمٍ بِإِشْكَالِ آدَمِيَّةٍ ، بَلْ إِنَّهُمْ أَهْلٌ لَتَسْمِيَتِهِمْ بِبِهَائِمٍ ، بَقَرٍ ، حَمِيرٍ ، حَنَازِيرٍ ، كِلَابٍ ، . . . لَا بَلْ إِنَّهُمْ أَسْوَأُ مِنَ الْكِلَابِ ، يَتَنَاسَلُونَ بِطَرِيقِهِ أَرْدًا مِنَ الْبِهَائِمِ ، أَصْلُهُمْ شَيْطَانِيٌّ بَهِيمِيٌّ ، أَرْوَاحُهُمْ تَوْلَدُ مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَإِلَى الشَّيْطَانِ تَعُودُ فِي الْجَحِيمِ بَعْدَ الْمَمَاتِ ، وَآثُهُ لَا تَخْتَلِفُ جُثَّةَ مَسِيحِيٍّ مَيَّتٍ عَنْ حَيَوَانٍ ، الزُّنَاةُ النِّجْسُونَ الَّذِينَ يُشَبِّهُونَ الرُّوثَ ، وَيَسُوءُوا كَالْبَشَرِ .

بِمَثَلِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْوَقِيحَةِ ، وَالْأَلْفَاظِ النَّابِيَةِ يَتَكَلَّمُ التَّلْمُودُ عَنِ الْمَسِيحِيِّينَ ، وَهَذِهِ الرَّكَاعَةُ الَّتِي لَمْ تَتَصَرَّفْ فِيهَا كَثِيرًا لِتَصِلَ إِلَى الْقَارِي كَمَا هِيَ . ! !

حَوْلَ طَقُوسِ الْمَسِيحِيَّةِ وَعِبَادَتِهَا

بِمَا أَنَّ الْيَهُودَ يَنْظُرُونَ إِلَى الْمَسِيحِيِّينَ بِأَعْيَابِهِمْ وَثَنِينَ ، فَمَنْ الطَّبِيعِيُّ أَنْ تَكُونَ جَمِيعُ إِشْكَالِ عِبَادَتِهِمْ- فِي نَظَرِ الْيَهُودِ- وَثَنِيَّةٌ أَيْضًا ، فَكَهَنَتُهُمْ يَدْعُونَ كَهَنَةً بَعْلًا ، كَنَائِسُهُمْ تَدْعِي بُيُوتَ الْكُذِبِ ، وَالْوَثَنِيَّةُ ، وَيُعْبَرُ كُلُّ مَا تَضُمُّهُ هَذِهِ الْكَنَائِسُ أَيْضًا مِنْ كُوسِ الْقُرْبَانِ ، وَمَتَائِلٍ وَكُتُبٍ إِنَّمَا وَجِدَتْ لِتَكُونَ طَعَامًا لِلأَوْثَانِ ، صَلَاتُهُمْ الْخُصُوصِيَّةُ وَالْعَامَّةُ مَعًا هِيَ صَلَوَاتُ أَثِمَةٍ وَعَدَوَانِيَّةٌ بِالنِّسْبَةِ لِلرَّبِّ ، بَيْنَمَا تَدْعِي أَعْيَادِهِمُ الدِّينِيَّةَ بِأَيَّامِ الشَّيْطَانِ .

ويعبر كتاب أبجدور شنان الموسوم "ذلك الرجل (يهود يتحدثون عن يسو) ، هاماً للغاية حيث الأول من نوعه في العبرية ، إذ يشتمل على أجزاء ومقطعات من 34 نص يهودي : ديني ومجسي وفكري وأدبي ، تمتد على عشرين قرناً من التاريخ ، تذكر فيها المسيح / يسوع المسيح ، ومكاته في كل مرحلة من مراحل هذه الفترة . فقبل هذا الكتاب كان على الباحثين عن صورته في اليهودية صرف الأوقات الطويلة نبشا وبحثاً في كلاسيك وحديث الثقافة اليهودية . أرذت الإشارة إلى هذه النقطة في البداية لأهمتها الخاصة .

يقول هذا الكاتب : يشكل المسيح ، المخلص ، ركناً أساسياً من عقائد العمارات الدينية المختلفة . عليه يلقي المحرمون والمقهورون أعبائهم المادية والنفسية كافة ، ومنه ينشدون الخلاص . أنه شخصية إيمانية ، فيها يختلط ويشتبك الواقعي بالأسطوري ، ولشدة أسطوريته أصبح واقعياً بامتياز - شاهداً شهيداً ، لا يخلص أحدهم بالخلاص إلا برضاه وصحبته .

تحتل الأديان احتقلاً خاصاً به ، حوله تنفق وتفترق ، تألف وتختلف . اليهودية تنظر مجيئه ، والمسيحية والإسلام تنتظران عودته . مجيئه أم عودته هو إيداناً بانتهاء هذا العالم ، ومن قبله وأمن به يدخل "ملكوت .

السموات" و"جنات عدن" ، ومن كفر به فله "الجحيم الأبدي" . في اليهودية "رجس الأرجاس" وفي المسيحية "إله وفي الإسلام "روح الله" .

ثم يضيف : لم تشغل اليهودية ال"تناخية" بتاتاً بشخص ال"مسيح" المخلص ، أو يسوع المسيح كما يؤمن المسيحيون . فقد اقتصر اشغالها تمناً بوضع أفضل : "بصير خير" . هذه ما يمكن ملاحظته في

إسفار: "يرميهو"، و"يشعياهو"، و"يجزقييل" و"دنييل" و"ميخا" و"حجاي" على سبيل المثال فقط. أما الاعتقاد المسيحي القائل بأن العهد القديم مهَّد لمجيء يسوع المسيح فهو إيماني بحث، فلا المنطق المادي للتاريخ ولا الشواهد الـ"تناخية" تؤكدُه.

كما أفتى موسى بن ميمون - الربام (1138-1204)، في باب "عبوده زره - عبادة غريبة" من "المشنة توره"، لأن اليهودية ترفض ذكر الأسماء التي تُعبّر عن عبادتها "عبادة غريبة". فالمسيحية بنظر اليهودية هي عبادة غريبة. وبما ابن مريم ليس ضمن العبادة اليهودية، لا يجوز ذكر اسمه صراحة.

في الأدب الحزالي، بالتمود البابلي تحديداً، بالقرون الخمسة الأولى للميلاد - النص الأول - يقول فيه أن المسيح كان يرتاد أماكن العبادة اليهودية، وكان تلميذاً نجيباً، إلا أنه انحرف (ص 44). والنص الثاني - يتحدث عن محاكمته وإعدامه لأنه يعبد "عبادة غريبة" (ص 44-45). - والنص الثالث يختلف عن سابقه، إذ يقول إن المؤسسة اليهودية أضاعت فرصة التفاهم معه (ص 45-46). لأنهم، وما يبدو، أدركوا شدة تأثيره على اليهود: علاقة العامة بالخاصة، وعلاقتهم ككل مع المؤسسة الرومانية.

3- المنشد يناي، القرن الخامس - السادس - كان يناي منشداً وواسع الاطلاع بالمسيحية. وعاش في ظروف الإمبراطورية البيزنطية الصعبة على اليهود. وله نصان يتحدثان بهكم عن المؤمنين المسيحيين.

ويشكان بتاريخية المسيح. بعض الباحثين يعتقد أن النصين ليسا لينايا. إلا أن الكاتب يعرضهما على أنهما له (ص 47-50).

مَوْلِدِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ (ع) وَفَقِ الرَّوَايَةِ الْمَسِيحِيَّةِ

سنرى في هذا الفصل ما كتبه الأناجيل الأربعة ورَسَائِلُ القُدَيْسِ بُولَسِ حول المسيح وولادته والحال أنه ليس هناك أية مصادر موثوقة يمكن اعتمادها كأساس لمعلومات فعلية رسائل بُولَسِ المَكْتُوبَةِ فِي فِتْرَةِ أَنْبَكْرَ لَا تَقُولُ الكَثِيرَ حَوْلَ سَيَرِهِ حَيَاةِ الْمَسِيحِ وَلَا تَقْتَبِسُ أَقْوَالَهُ بِشَكْلِ فَعَلِيٍّ . كما أنها لا تُشِيرُ إِلَى مُعْجَزَاتِهِ ، تعاليمه الأخلاقية ، أو حتى مولده ، ما عدا إشارة بُولَسِ فِي سَفَرِ رُومِيَّةِ أَنَّ الْمَسِيحَ " مِنْ نَسْلِ دَاوُدَ .

وَرَدَتِ قِصَّةُ وِلَادَةِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ فِي إِنْجِيلِ لُوقَا وَإِنْجِيلِ مَتَّى ، وَتُمْكِنُنَا اِغْتِبَارُ الْقِصَّتَيْنِ مَكْمَلَتَيْنِ لِبَعْضِهِمَا الْبَعْضُ ، فَفِي حِينِ يَذْكَرُ إِنْجِيلُ مَتَّى وِلَادَةَ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ بِقَلِيلٍ مِنَ التَّفَاصِيلِ لِئِنْتَقِلَ لِلْحَدِيثِ عَنِ مُعْجَزَةِ ظُهُورِ التَّجَمُّدِ الَّذِي دَلَّ الْمَجُوسَ عَلَى وِلَادَةِ "مَلِكِ الْيَهُودِ" ، يُوَفِّرُ إِنْجِيلُ لُوقَا مَزِيدًا مِنَ التَّفَاصِيلِ حَوْلَ سِيَاقِ الْحِكَايَةِ وَتَفَاصِيلِهَا . كَلَّمَا الْقِصَّتَيْنِ تَوَكَّدَا عَلَى أَنَّ الْوِلَادَةَ وَقَعَتْ فِي بَيْتِ لَحْمٍ "مَدِينَةِ دَاوُدِ" ، فَمَا الَّذِي دَلَّ الْإِمْبْرَاطُورَ قُسْطَنْطِينَ عَامَ 335 عَلَى مَوْجِعِ مَغَارَةِ الْمَهْدِ الَّتِي أَمَرَ بِنَاءِ الْكَنِيسَةِ فَوْقَهَا ؟ إِلَيْكُمْ الْقِصَّتَيْنِ كَمَا وَرَدَتَا فِي الْعَهْدِ الْجَدِيدِ .

الرواية وفق إنجيل متى

"أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا : لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف ، قبل أن يجتمعا ، وجدت حُبلى من الروح القدس . فيوسف رجلها إذ كان باراً ، ولم يشأ أن يُشهرها ، أراد تخليتها سراً . ولكن فيما هو متفكر في هذه الأمور ، إذا ملاك الرب قد ظهر له في حلم قائلاً : "يا يوسف ابن داوود ، لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك . لأن الذي حبل به فيها هو من الروح القدس . فستلد ابناً وتدعو اسمه

ياسوع. لأنه يخلص شعبه من خطاياهم” وهذا كله كان لكي يتم ما قيل من الرب بالتبّي القائل : “هوذا العذراء تحبل وتلد ابناً، ويدعون اسمه عمانوئيل” الذي تفسيره : الله معنا . فلما استيقظ يوسف من النوم فعل كما أمره ملاك الرب، وأخذ امرأته . ولم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر . ودعا اسمه يسوع . ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية، في أيام هيرودس الملك، اذا مجوس من المشرق قد جاؤوا إلى اورشليم قائلين :”أين هو المولود ملك اليهود”.

الرواية في إنجيل لوقا

“وفي تلك الأيام صدرَ أمرٌ من أغسطس قيصر بأن يُكتب كل المسكونة . وهذا الاكتاب الأول جرى إذ كان كيرينوس والي سورية . فذهب الجميع ليُكتبوا كل واحدٍ إلى مدينته . فصعد يوسف أيضاً من الجليل من مدينة التاصرة إلى اليهودية، إلى مدينة داوود التي تُدعى بيت لحم، لكونه من بيت داوود وعشيرته ليُكتب مع مريم امرأته المخطوبة وهي حُبلى . وبينما هما هناك تمت أيامها لتلد . فولدت ابنها البكر وقمطته وأضجته في المذود، إذ لم يكن لهما موضعٌ في المنزل”.

نعرف إذا من القصة كما وردة في انجيل لوقا أن ولادة المسيح في بيت لحم كانت لسفر اضطر يوسف ومريم للخروج فيه كي يلبوا طلب القيصر بالاحصاء، فكان السفر من التاصرة إلى بيت لحم التي تعيش بها عشيرة يوسف، كما نعرف أيضاً أن ولادة المسيح لم تكن في بيتاً أو فندقاً مغلقاً، بل وُضع في مذود، وهو المكان الذي يوضع فيه علف الدواب، وقد صنعت منه السيدة مريم مهد المسيح حين كان

رضيعاً،

تأثير اختيار اسم "كنيسة المهد". ولكن مع ذلك ، ما الذي دلّ بناء الكنيسة على هذه المغارة

تحديدًا ، والتص لا يُذكر آية مغارة أو موقعًا ؟

أن كلاً من الإنجيليين كتباً بين سنوات 75-85 م ، وعلى الرغم من أنه من الممكن أن تكون إحدى روايتي الميلاد مبنية على الأخرى ، أو أن الاثنين يشتركان في مصدر مشترك ، فإن استنتاج الأغلبية هو أن روايتي ميلاد يسوع في الإنجيليين هما مستقلتان عن بعضهما البعض . وتشكل حادثة الميلاد أحد أهم أركان الإيمان المسيحي ، ولد المسيح حسب الأناجيل القانونية في بيت لحم ، من أم عذراء ، في مكان مُقفر إذ لم يجدوا مكاناً في المنزل ،

لم يتم ذكر تاريخ ميلاد يسوع الناصري في الأناجيل أو في أي نص علماني ، لكن غالبية العلماء يفترضون أنها حصلت تاريخاً ما بين 6 ق . م . و 4 ق . م . الأدلة التاريخية غامضة للغاية بحيث لا تسمح بتحديد تاريخ نهائي ، ولكن تم تقدير التاريخ من خلال الأحداث التاريخية المعروفة المذكورة في إنجيل لوقا الفصل الثاني وإنجيل متى أو عن طريق العمل إلى الوراء من البداية المقدرة لرسالة يسوع . ويشير إنجيل لوقا أن يسوع وُلد عندما أصدر "أوغسطينس قصير" مرسوماً يقضي بإجراء تعداد للعالم الروماني بأسره . وكان هذا أول إحصاء تم أثناء تولي كيرينئوس حاكم سوريا" . كل ما هو مقبول عموماً هو أن يسوع وُلد قبل حوالي 4 ق.ب الميلاد ، السنة المقدرة لوفاة هيروودس .

تعدوا الرواية في إنجيل لوقا أكثر تفصيلاً ؛ عناصر الرواية الإنجيلية للميلاد مفادها أن مريم قد ظهر لها جبرائيل برسلاً من قبل الله وأخبرها أنها ستحمل بقوة الروح القدس بطفل « يكون عظيماً وابن العلي

يُدْعَى ، وَلَنْ يَكُونَ لِمَلِكِهِ نَهَائَةٌ » ، لُوقَا [I/32] وَعِنْدَمَا اضْطَرَبَ يُوسُفُ التَّجَارِ خَطِيبَ مَرْيَمَ مِنْ رَوَائِبِهَا

ظَهَرَ لَهُ الْمَلَاكُ أَيْضًا فِي الْحَلْمِ تَصْدِيقًا لِرِوَايَةِ مَرْيَمَ وَتَشْجِيعًا لَهُ ، وَتَتَّفِقُ مَتَى وَلُوقَا أَنَّ الْمِيلَادَ قَدْ تَمَّ فِي بَيْتِ لَحْمٍ مَدِينَةِ النَّبِيِّ دَاوُدَ لَا فِي مَدِينَةِ النَّاصِرَةِ حَيْثُ كَانَا يَعِيشَانِ وَحَيْثُ تَمَّتِ الْبِشْرَةُ ، يُعُودُ ذَلِكَ تَمِيمًا لِلنَّبُؤَاتِ السَّابِقَةِ حَوْلَ مَكَانِ الْمِيلَادِ سَيَمَا بُبُوَّةَ النَّبِيِّ مِيخَا ، أَمَّا السَّبَبُ الْمُبَاشِرُ فَهُوَ طَلَبُ أَعْنَسُطُسَ قَيْصَرَ إِخْصَاءِ سُكَّانِ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ تَهْيِيدًا لِذَفْعِ الضَّرَائِبِ ، وَلِذَلِكَ سَافَرَ يُوسُفُ مَعَ مَرْيَمَ وَكَانَ حِينَهَا قَدْ ضَمَّتْهَا إِلَى بَيْتِهِ كَرُوحَتِهِ دُونَ أَنْ تَنْشَأَ بَيْنَهُمَا عِلَاقَةٌ زَوْجِيَّةٌ ، وَعِنْدَ وُصُولِهِمَا إِلَى بَيْتِ لَحْمٍ لَمْ يَجِدَا مَكَانًا لِلْإِقَامَةِ فِي فُنْدُقٍ أَوْ مَنْزِلٍ وَحَانَ وَقْتُ وَضْعِ مَرْيَمَ لِلطِّفْلِ يَسُوعَ ، فَبِحَسَبِ إِنْجِيلِ لُوقَا وَضَعَتْ طِفْلَهَا فِي مِذْوَدٍ وَلَقَنَهُ بِقِمَاطٍ . لُوقَا [2/7] وَإِنْ ذَكَرَ الْمِذْوَدُ هُوَ الدَّافِعُ الْأَسَاسِيُّ لِلْإِعْتِقَادِ بِوُجُودِ الْمَغَارَةِ أَوْ الْحَظِيرَةِ ، لِأَنَّ الْحَظَائِرَ عَادَةً كَانَتْ عِبَارَةً عَنِ كُهُوفٍ أَمَّا الْمِذْوَدُ فَهُوَ مَكَانٌ وَضَعَ عِلْفَ الْحَيَوَانَاتِ ، وَكَانَ أوريْجَانُوسُ قَدْ أَثْبَتَ الْمَغَارَةَ وَقَالَ إِنَّهُ نَقَلَ الْقِصَّةَ عَنْ تَقَالِيدِ أَقْدَمِ ، وَتُجْمَعُ تَفَاسِيرُ آبَاءِ الْكَنِيسَةِ أَنَّ مِيلَادَ يَسُوعَ بِظُرُوفِ « فَعِيرَةٍ صَعْبَةٍ » لِتَعْلِيمِ الْبَشَرِ التَّوَاضِعِ وَكَمِثَالِ عُلَى التَّرْفَعِ عَنِ الْأُمُورِ الْمَادِيَّةِ ، كَذَلِكَ فَإِنَّ الْمُنَاحَ الْيَهُودِيَّ حِينَهَا كَانَ يَنْتَظِرُ قُدُومَ « الْمَاشِيحِ » مَلِكًا وَمُحَرَّرًا مِنَ السُّلْطَةِ الرُّومَانِيَّةِ ، وَبِالتَّالِيِ فَإِنَّ مَوْلِدَ الْمَسِيحِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ كَهَائِدِ عَسْكَرِيٍّ أَوْ مَلِكٍ فِي قَصْرِ لَا مِذْوَدٍ ، وَفِي ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى كَوْنِ مَلِكِ الْمَسِيحِ مَلِكًا رُوحِيًّا لَا دُنْيَوِيًّا .

فِي غُضُونِ ذَلِكَ تَقُولُ رِوَايَةُ الْإِنْجِيلِ مَتَى أَنَّ مَلَاكًا مِنَ السَّمَاءِ قَدْ ظَهَرَ لِرِعَاةٍ فِي الْمِنْطَقَةِ مَبْشَرًا إِيَّاهُمْ بِمِيلَادِ الْمَسِيحِ ، وَظَهَرَ فِي أَثَرِهِ جَنْدٌ مِنَ السَّمَاءِ حَسَبِ الْمُصْطَلَحِ الْإِنْجِيلِيِّ ، مُسْبِحِينَ وَشَاكِرِينَ ، أَمَّا

الرَّعَاةُ فَقَدَ زَارُوا مَكَانَ مَوْلَدِهِ وَشَاهَدُوهُ مَعَ أُمِّهِ وَيُوسُفَ وَأَنْطَلَقُوا مَخْبِرِينَ بِمَا قِيلَ لَهُمْ مِنْ قِبَلِ الْمَلِكِ ،
وَلِذَلِكَ هُمْ أَوَّلُ مَنْ اِحْتَقَلَ بَعِيدُ الْمِيلَادِ وَفُقِ التَّقْلِيدُ . وَلَعَلَّ زِيَارَةَ الْمَجُوسِ الثَّلَاثَةِ هِيَ مِنْ أَشَدِّ الْأَحْدَاثِ
الَّلَّاحِقَةِ لِلْمِيلَادِ اِرْتِبَاطًا بِهِ ، وَلَا يُعْرَفُ مِنْ رِوَايَةِ إِنْجِيلِ مَتَّى عَدَدِهِمْ غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ دَرَجَ التَّقْلِيدُ عَلَى
اِعْتِبَارِهِمْ ثَلَاثَ لِهْدَايَا الثَّلَاثِ الَّتِي قَدَّمُوهَا وَهِيَ الذَّهَبُ وَالبُخُورُ وَالزَّمَرُ ، مَتَّى 2/II] بَعْدَ أَنْ سَجَدُوا
لَهُ . كَمَا أَنَّ أَغْلَبَ الدِّرَاسَاتِ الْحَدِيثَةِ تُشِيرُ إِلَى أَنَّهُمْ جَاءُوا مِنَ الْأُرْدُنِّ أَوْ السَّعُودِيَّةِ حَالِيًا ، وَأَمَّا التَّقَالِيدُ
الْقَدِيمَةُ فَتُشِيرُ إِلَى أَنَّهُمْ جَاءُوا مِنَ الْعِرَاقِ أَوْ إِيْرَانِ حَالِيًا . وَقَدْ قَامَ نَجْمٌ مِنَ السَّمَاءِ بِهِدَايَةِ الْمَجُوسِ مِنْ
بِلَادِهِمْ إِلَى مَوْقِعِ الْمِيلَادِ ، وَكَانَ النَّبِيُّ بِلْعَامٍ قَدْ أَشَارَ إِلَى « نَجْمٍ مِنْ يَعْقُوبَ » سَابِقًا ، وَأَشَارَ الْبَاحِثُونَ
إِلَى أَنَّ النَّجْمَ اللَّامِعَ الْمَذْكُورَ فِي إِنْجِيلِ مَتَّى قَدْ يَكُونُ اقْتِرَانُ كَوَاكِبِ الْمُسْتَرِي وَزُحَلِّ وَالْمِرْيَخِ الَّذِي تَمَّ
بَيْنَ عَامَيْ 4و6 قَبْلَ الْمِيلَادِ ، وَقَدَّمَ بَاحِثُونَ آخَرُونَ تَفْسِيرَاتٍ مُخْتَلِفَةً . وَبِكُلِّ الْأَحْوَالِ فَإِنَّ قُدُومَ الْمَجُوسِ
مَعَ الرَّعَاةِ يَحْوِي إِشَارَتَيْنِ الْأُولَى لِاجْتِمَاعِ الْأَغْنِيَاءِ وَالْفُقَرَاءِ حَوْلَ يَسُوعَ وَالثَّانِيَةَ لِاجْتِمَاعِ الْيَهُودِ وَالرُّومَانِ
حَوْلَهُ أَيْضًا ، بِمَا يَعْنِي عُمُومِيَّةَ رِسَالَةِ يَسُوعَ لِجَمِيعِ الْبَشَرِ . أَمَّا أُبْرَزُ الْأَحْدَاثِ اللَّاحِقَةِ لِلْمِيلَادِ فَهِيَ خِتَانُ
يَسُوعَ فِي الْقُدْسِ ، وَهَرَبُ الْعَائِلَةِ إِلَى مِصْرَ خَوْفًا عَلَى حَيَاتِهِ مِنْ هِيرُودُسِ الَّذِي أَرَادَ قَتْلَهُ ، وَمِنْ تَمَّ
عَوْدُهُ الْعَائِلَةَ مِنْ مِصْرَ بَعْدَ وِفَاةِ الْمَلِكِ . وَيَذْكَرُ أَيْضًا ، أَنَّ عِيدَ الْمِيلَادِ هُوَ عِيدُ مِيلَادِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ
بِالْجَسَدِ أَمَّا مَنْ حَيْثُ الْوُجُودِ ، فَهُوَ مُنْذُ الْأَزَلِّ ، وَبِالْتَالِي وَكَمَا جَاءَ فِي قَانُونِ الْإِيمَانِ هُوَ مَوْلُودٌ غَيْرُ
مَخْلُوقٍ .

فِي الْكِتَابَاتِ الْمَنْحُولَةِ

بِحَسَبِ إِنْجِيلِ يَعْقُوبَ الْمُتَحُولِ ، فَإِنَّ سَالُومَةَ وَهِيَ أَيْضًا إِحْدَى قَرِيبَاتِ الْعُذْرَاءِ أَضَافَهُ إِلَى قَابِلَةَ مُشْرِفَةً عَلَى وِلَادَتِهَا حَضْرًا الْمِيلَادِ ؛ بِحَسَبِ الْإِنْجِيلِ الْمُتَحُولِ أَيْضًا فَقَدْ كَانَتْ سَالُومَةُ تَشْكُكَ فِي أَنَّ مَرْيَمَ قَدْ حَبَلَتْ فَعَلًّا مِنْ الرُّوحِ الْقُدُسِ وَأَنَّهَا كَانَتْ وَسْتَبَقِي عُذْرَاءً ، فَعِنْدَمَا وُلِدَتْ الْعُذْرَاءُ تَعَجَّبَتْ الْقَابِلَةُ وَسَالُومَةُ فَقَدْ ظَلَّتْ مَرْيَمَ عُذْرَاءً عَلَى الرَّغْمِ مِنْ وِلَادَتِهَا ، أَذَاكَ هَتَفَتْ سَالُومَةُ وَتَهَلَّتْ وَأَمِنَتْ بِكُلِّ مَا كَانَتْ مَرْيَمَ قَدْ أَخْبَرَتْهَا بِهِ .

رِوَايَةُ الْأَنْجِيلِ الْمُنْتَحَلَةِ عَمُومًا غَيْرُ مَأْخُودٍ بِهَا فِي الْكَنِيسَةِ أَوْ فِي الْعَقَائِدِ الْمَسِيحِيَّةِ غَيْرِ أَنَّهَا هَامَةٌ لِدِرَاسَةِ الْفِكْرِ الدِّينِيِّ لَدَى الْمَسِيحِيِّينَ فِي الْقُرُونِ الْأُولَى ، كَمَا أَنَّهَا تَعَكِّسُ إِكْرَامَ الْعُذْرَاءِ مِنْذُ الْعُصُورِ الْمُبَكَّرَةِ فِي الْمَسِيحِيَّةِ ، أَمَّا فِي رِوَايَةِ الْمِيلَادِ الرَّسْمِيَّةِ لَا تَذُكِّرُ سَالُومَةَ أَوْ الْقَابِلَةَ ، لَكِنْ يَذُكِّرُ رِعَاةَ وَقَدْ ظَهَرَ لَهُمْ مَلَائِكَةٌ وَأَرْشُدُوهُمْ إِلَى مَكَانِ الْمِيلَادِ : « وَجَاؤُوا مُسْرِعِينَ فَوَجَدُوا مَرْيَمَ وَيُوسُفَ وَالطِّفْلَ مُضْجَعًا فِي مَدُودٍ . » لُوقَا 2/16] وَتَحْتِمُ رِوَايَةُ الْمِيلَادِ : « وَأَمَّا مَرْيَمَ فَكَانَتْ تُحْفَظُ هَذِهِ الْأُمُورَ جَمِيعًا وَتَتَأَمَّلُهَا فِي قَلْبِهَا . » لُوقَا 2/19]

التَّحْلِيلُ التَّارِيخِيُّ

وَقَفًّا لِلْقَسِّ وَالْبَاحِثِ مَارْكَ رُوبَرْتِسَ ، يُحْتَفَظُ الْعَدِيدُ مِنَ الْعُلَمَاءِ التَّارِيخِيِّينَ بِوَجْهِهِ النَّظَرِ التَّقْلِيدِيَّةِ أَنَّ رِوَايَةَ الْمِيلَادِ فِي الْإِنْجِيلِ هُمَا دَقِيقَتَانِ تَارِيخِيَّاتٌ وَلَا تَتَعَارَضَانِ مَعَ بَعْضِهِمَا الْبَعْضَ ، مُشِيرِينَ إِلَى أَوْجُهٍ الشَّابِهِ بَيْنَ الرِّوَايَتَيْنِ ، يَرَى كُلُّ مَنْ جُورْجَ كِيلِبَاتْرِيكَ وَمَايْكَلَ بَاتِيلَلَا أَنَّ الْمَقَارَنَةَ بَيْنَ رِوَايَةِ الْمِيلَادِ فِي لُوقَا وَمَتَّى تَظْهَرُ الْعِنَاصِرَ الْمَشْرُوكَةَ فِي مَجَالَاتِ الْوِلَادَةِ الْعُذْرِيَّةِ ، الْوِلَادَةِ فِي بَيْتِ لَحْمٍ ، وَالتَّرْبِيَّةِ فِي النَّاصِرَةِ ،

وَأَنَّهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ هُنَاكَ اخْتِلَافَاتٌ فِي رِوَايَتِي الْمِيلَادِ فِي لُوقَا وَمَتَّى ، يُمَكِّنُ تَكْوِينِ سَرْدِ عَامٍ مِنْ خِلَالِ الْجَمْعِ بَيْنَ الْاِثْنَيْنِ .

لَا يَدَّعِي أَيُّ مِنْ إِنْجِيلِ لُوقَا وَلَا مَتَّى بِأَنَّ رِوَايَتَيْهِمَا حَوْلَ مِيلَادِ يَسُوعَ مُبَيَّنَّةٌ عَلَى أَسَاسِ شَهَادَةِ عِيَانٍ مُبَاشِرَةٍ . أُعْرِبَ كُلُّ مَنْ جِيَمَسُ هَاسْتِينغِزْ وَتُومَاسُ نُوَيْفَلْدُ عَنْ وَجْهِهِ النَّظْرَ الَّذِي مُفَادُهَا أَنَّ ظُرُوفَ وِلَادَةِ يَسُوعَ تَمَّ جَعْلُهَا عَمْدًا مَعْرُوفَةً فَقَطْ لِمَجْمُوعِهِ صَغِيرَةٌ مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ فِي وَقْتِ مُبَكَّرٍ ، وَتَمَّ الْاِحْتِفَاطُ بِهَا سِرًّا لِسِنَوَاتٍ عَدِيدَةٍ بَعْدَ وَفَاتِهِ ، وَهُوَ مَا يُفَسِّرُ الْاِخْتِلَافَاتِ فِي رِوَايَتِي لُوقَا وَمَتَّى .

يُعْتَبَرُ دَانِيَالُ هَارِينْجْتُونُ عَنْ وَجْهِهِ النَّظْرَ بِأَنَّهُ بِسَبَبِ نُذْرَةِ السَّجَلَاتِ الْقَدِيمَةِ ، فَإِنَّ عَدَدًا مِنَ الْقَضَايَا الْمُعَلَّقَةِ بِالِدَقَّةِ التَّارِيخِيَّةِ لِبَعْضِ حَلَقَاتِ مِيلَادِ يَسُوعَ لَا يُمَكِّنُ تَحْدِيدَهَا بِشَكْلِ كَامِلٍ أَبَدًا ، وَإِنَّ الْمُهْمَةَ الْأَكْثَرَ الْأَهْمِيَّةَ هِيَ تَحْدِيدُ مَا الَّذِي مِثْلُهُ رِوَايَاتُ مِيلَادِ يَسُوعَ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الطَّوَائِفِ الْمَسِيحِيَّةِ الْمُبَكَّرَةِ .

مُحَاوَلَاتُ التَّجَانِسِ

حَاوَلَ عَدَدٌ مِنَ عُلَمَاءِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ أَنْ يَظْهَرُوا كَيْفَ يُمَكِّنُ لِلنَّصِّ مِنَ الرِّوَايَتَيْنِ أَنْ يَتَمَّ جَمْعُهُ كَنَصِّ مُتَّجَانِسٍ لِخَلْقِ رِوَايَةٍ وَاحِدَةٍ تَبْدَأُ مَعَ الرِّحْلَةِ مِنَ النَّاصِرَةِ إِلَى بَيْتِ لَحْمَ ، حَيْثُ يُوَلَدُ يَسُوعُ ، يَلِيهَا الرِّحْلَةُ إِلَى مِصْرَ ، وَتُنْتَهِي مَعَ الْعُودَةِ إِلَى النَّاصِرَةِ .

التَّحْلِيلُ النَّقْدِي

وَقَفًا لِلْقِسْرِ رِيْمُونْدِ أَدْوَارْدِ بَرَاوِنِ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُعَاصِرِينَ يَعْتَبِرُونَ رِوَايَاتِ الْمِيلَادِ غَيْرَ دَقِيقَةٍ تَارِيخِيًّا لِأَنَّهَا مُتْرَابطةٌ بِالْاِهْوَاتِ وَتَقَدَّمَ رِوَايَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ . عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ ، يُشِيرُونَ إِلَى رِوَايَةِ مَتَّى عَنْ ظُهُورِ

مَلَاكِ لِيُوسُفَ فِي حِلْمٍ ؛ وَالْحُكَمَاءِ مِنَ الشَّرْقِ ، وَمَذْجَةِ الْأَبْرِيَاءِ ، وَالرَّحَلَةَ إِلَى مِصْرَ ، وَالَّتِي لَا تَظْهَرُ فِي لُوقَا ، وَالَّذِي بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ يَصِفُ ظُهُورَ مَلَاكِ لِمَرْيَمَ ؛ وَالتَّعْدَادَ الرُّومَانِيَّ ، وَجَوْقَةَ الْمَلَائِكَةِ .

كَثِيرٍ مِنَ الْبَاحِثِينَ لَا يَرَوْنَ أَنَّ رِوَايَاتِ لُوقَا وَمَتَّى وَاقِعِيَّةٌ تَارِيخِيًّا . يُنْظَرُ الْكَثِيرُونَ إِلَى مُنَاقَشَةِ الدَّقَّةِ التَّارِيخِيَّةِ بِاعْتِبَارِهَا ثَانَوِيَّةً ، بِالنَّظَرِ إِلَى أَنَّ الْأَنْجِيلَ كَانَتْ مَكْتُوبَةً فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ كَوَثَائِقَ لَاهُوتِيَّةٍ وَلَيْسَتْ خُطُوطَ زَمْنِيَّةٍ . وَمَعَ ذَلِكَ ، فَهِيَ تَحْتَوِي عَلَى بَعْضِ الْمَعْلُومَاتِ عَنِ السَّيْرَةِ الذَّاتِيَّةِ الْمُفِيدَةِ : يَسُوعُ وَوَلَدٌ فِي فِتْرَةِ نَهَايَةِ عَهْدِ هِيرُودُسَ وَأَبِيهِ الَّذِي يُدْعَى يُوسُفَ تُعْبَرُ مَقْبُولَةً مِنَ النَّاحِيَةِ التَّارِيخِيَّةِ .

عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ ، يُعْطَى إِنْجِيلَ مَتَّى اِهْتِمَامٌ أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ إِلَى اسْمِ الطِّفْلِ وَإِثَارَةً عَلَى الْعَقِيدَةِ عَنْ حَدِيثِ الْوِلَادَةِ نَفْسِهِ . وَفَقًّا لِكَارل رَانِرَ ، فَإِنَّ الْإِنْجِيلِيْنَ يُظْهِرُونَ الْقَلِيلَ مِنَ الْاِهْتِمَامِ فِي مِزَامَنَةِ حَلَقَاتِ الْوِلَادَةِ أَوْ حَيَاةِ يَسُوعَ التَّالِيَةِ مَعَ التَّارِيخِ الْعِلْمَانِيِّ لِلْعَصْرِ . وَتَبِيحَةً لِذَلِكَ فَإِنَّ عُلَمَاءَ الْعَصْرِ الْحَدِيثِ لَا يَسْتَحْدِمُونَ رِوَايَاتِ الْوِلَادَةِ فِي الْإِنْجِيلِيْنَ كَثِيرًا لِلْحُصُولِ عَلَى الْمَعْلُومَاتِ التَّارِيخِيَّةِ . وَمَعَ ذَلِكَ ، فَهِيَ تَحْتَوِي عَلَى بَعْضِ الْمَعْلُومَاتِ الْمُفِيدَةِ فِي السَّيْرَةِ الذَّاتِيَّةِ : عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ كَوْنِ يَسُوعَ وَوَلَدٌ قَرَبَ نَهَايَةِ عَهْدِ هِيرُودُسَ وَكَوْنِ وَالِدِهِ يُدْعَى يُوسُفَ تُعْبَرُ مَعْلُومَاتٌ مَعْقُولَةٌ تَارِيخِيًّا .

مُعْظَمَ عُلَمَاءِ الْعَصْرِ الْحَدِيثِ يَقْبَلُونَ الْأَوْلَوِيَّةَ الْمَرْقِسِيَّةَ ، وَهِيَ الْفَرْضِيَّةُ أَنَّ إِنْجِيلِيَّ لُوقَا وَمَتَّى يَسْتَدَانِ إِلَى إِنْجِيلِ مَرْقُسَ ، وَلَكِنْ إِنَّ رِوَايَاتِ مِيلَادِ يَسُوعَ تَأْتِي مِنْ مَصَادِرٍ مُسْتَقَلَّةٍ خَاصَّةً بِمُؤَلِّفِي لُوقَا وَمَتَّى ، الْمَعْرُوفَةِ بِاسْمِ الْمَصْدَرِ مِثْلِي وَالْمَصْدَرِ لِاللُّوقَا ، وَالَّتِي أُضِيْفَتْ فِي وَقْتٍ لَاحِقٍ .

يُنظَرُ البَاحِثُونَ إلى الرَوايَتَينِ في لُوقا وَمَتَّى عَلى أَنَّها تُشَرِّحُ مِيلادَ يَسوعَ في بَيتِ لَحْمٍ بِطَر�ٍ مُخْتَلَفَةٍ ،
وَتُعْطِي انِّسابَ مُنْفَصِلَةً لِيَسوعَ وَرَبِّما لا تَكُونُ دَقِيقَةً تارِيجِيًا . في حينَ أَنَّ جِيزا فيرميس وساندرز
يرفضان الرَوايَتَينِ وَيَعتَبرانِهما خِيايَليَتَينِ ، فَإِنَّ رِيمُوندَ براونَ يَري أَنَّها قَدِ تَمَّ تَكوِينُها مِنَ التَّقَالِيدِ التَّارِيجِيَّةِ
الَّتِي سَبَقَتْ الأناجيلَ . وَفَما لَبراونَ ، لا يَوجَدُ اتِّفاقَ مُوَحَّدَ بَينَ العُلَماءِ عَلى الدَقَّةِ التَّارِيجِيَّةِ لِلرَوايَاتِ ،
عَلى سَبيلِ المِثالِ ، مُعْظَمُ هَؤُلاءِ العُلَماءِ الَّذِينَ يَرفُضُونَ الدَقَّةَ التَّارِيجِيَّةَ لِلمِيلادِ في بَيتِ لَحْمٍ يَجادِلُونَ بِأَنَّ
الوِلاَدَةَ كَانَتْ في النَّاصِرَةِ ، قَليلُونَ يَقرِّحُونَ كَفرناحومَ ، وآخَرُونَ يَقرِّحُونَ مَواقِعَ مَفتَرضَةٍ بَعيدَةٍ مِثلِ
كورزيم . اقترحَ بروس شيلتونَ وَعَالمُ الأثارِ إفرامَ أوشريَ وِلاَدَةَ في بَيتِ لَحْمٍ بِالجَليلِ ، وَهُوَ مَوقِعٌ يَقعُ
عَلى بُعدِ سَبْعَةِ أمِيالٍ مِنَ النَّاصِرَةِ . يَقولُ أرماندُ ب . تاريشُ أَنَّ فَرَضِيَّةَ شيلتونَ لا تَخطِئُ بِأَيِّ دَعْمٍ في
المُصادِرِ اليَهُودِيَّةِ أوِ المَسيحِيَّةِ ، عَلى الرَّغْمِ مِنَ أَنَّ شيلتونَ يَبدو أَنَّهُ يَأخُذُ عَلى مَحْمَلِ الجِدِّ ما جَاءَ في
لُوقا 2 : 4 أَنَّ يَوسُفَ أَيضًا صَعَدَ مِنَ الجَليلِ ، خَارِجًا مِنَ مَدِينَةِ النَّاصِرَةِ ، إلى يَهُودَا ، إلى مَدِينَةِ داوُدَ ،
وَالَّتِي تُسَمَّى بَيتَ لَحْمٍ .

يَري ساندرز أَنَّ التَّعدادَ في لُوقا لَيسَ ذُو مِصدَاقِيَّةِ تارِيجِيَّةِ ، لِأَنَّ ذِكْرَ أَنَّ الجَميعَ عَادُوا إلى بُيوتِ
أجدادهم في لُوقا يَعارضُ مَعَ المَمارَسَةَ الرومانيَّةَ ، حيثُ لَم يَكُنْ الرومانُ ليقْتلعوا كَلَّ شَخْصٍ مِنَ
مَنازِلِهِمْ وَمزارِعِهِمْ في الإمبراطوريَّةِ وإجبارهم عَلى العُودَةِ إلى مُدُنِ أَجدادهم . وَعِلاوَةٌ عَلى ذَلِكَ ، لَم
يَكُنْ النَّاسُ قَادِرِينَ عَلى تَتَبُعِ الأنسابِ الخَاصَّةِ بِهِمْ لـ42 جِيلِ كَامِلٍ لِلوراءِ .

الرَّوايَةُ القُرْآنِيَّةُ لِوِلاَدَةِ المَسيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

الأمَّ المَولِدِ النَّبُوَّةِ

إِذَا قَارَنَّا بَيْنَ الرُّوَايَةِ القُرْآنِيَّةِ حَوْلَ وِلَادَةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَيْنَ الرُّوَايَةِ اليَهُودِيَّةِ مِنْ جِهَةِ الرُّوَايَةِ
المَسِيحِيَّةِ مِنْ جِهَةِ أُخْرَى سَنَجِدُ كَيْفَ أَنَّ النِّصَّ القُرْآنِيَّ تَعَامَلُ مَعَ هَذِهِ الحَادِثَةِ بِوَاقِعِيَّةٍ مُبَيَّنَّةٍ عَلَى سَرْدٍ
تَارِيخِيٍّ بَدَأَهُ بِالكَلَامِ عَنِ أُمِّ عِيسَى (ع) لِلتَّمْهِيدِ فِيمَا بَعْدَ لِالحَدِيثِ عَنِ عَظْمَةِ هَذِهِ الوِلَادَةِ الَّتِي لَا مِثْلَ
لَهَا سِوَى خَلْقِ آدَمَ أَبُو البَشَرِيَّةِ قَاطِبَةً وَقَدْ يُصَابُ المَرْءُ بِحَالَةٍ مِنَ الذُّهُولِ بَعْدَ ذَلِكَ حِينَمَا يَرَى مَوَاقِفَ
المَسِيحِيِّينَ السَّلْبِيَّةِ والمَعَادِيَةِ لِلْمُسْلِمِينَ ولِقَرَانِهِمْ وَنَبِيهِمْ وَسَنَتَبِعَ النُّصُوصَ القُرْآنِيَّةَ ذَاتَ العِلَاقَةِ مُنْذُ
الحَدِيثِ عَنِ آلِ عِمْرَانَ وَمَنْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ وَمَنْ تَمَّ وِلَادَةَ مَرْيَمَ نَفْسِهَا وَصُولاً إِلَى وِلَادَةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
وَسَنَرَى أَنَّ تَسْلُسَلَ الأَحْدَاثِ كَمَا أُورِدَتْهَا النُّصُوصَ القُرْآنِيَّةَ سَيَظْهَرُ لَنَا صِدْقِيَّةَ المُشَاهِدِ وَدَقِّقَتَهَا وَرُوعَتَهَا
بِنَفْسِ الوَقْتِ .

قَالَ تَعَالَى : (إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ، ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ
وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (آلِ عِمْرَانَ : 33 ، 34) . يُخْبِرُ اللّهُ أَنَّهُ اخْتَارَ هَذِهِ البُيُوتَ عَلَى سَائِرِ أَهْلِ الأَرْضِ ،
فَاصْطَفَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، خَلَقَهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ، وَاسْجُدَ لَهُ مَلَائِكَتُهُ وَعَلِمَهُ أَسْمَاءَ كُلِّ
شَيْءٍ وَأَسْكَنَهُ الجَنَّةَ ، ثُمَّ أَهْبَطَهُ مِنْهَا لَمَّا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الحِكْمَةِ ، وَاصْطَفَى نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ ،
وَجَعَلَهُ أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ ، وَاصْطَفَى آلَ إِبْرَاهِيمَ ، وَمِنْهُمْ سَيِّدُ البَشَرِ خَاتَمُ الأنْبِيَاءِ عَلَى
الإِطْلَاقِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَاصْطَفَى آلَ عِمْرَانَ .

فَمَنْ هُمْ آلُ عِمْرَانَ ؟ وَلِمَاذَا ذَكَرُوا فِي هَذِهِ الآيَةِ :

فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ تُوجَدُ سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ وَهِيَ اسْمُ عَائِلَةِ مَرْيَمَ أُمِّ المَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَلَفْظُهُ (آل)
كَلِمَةٌ تُخَاطَبُ بِهَا العَائِلَاتُ الكَرِيمَةُ الطَّيِّبَةُ ، وَهَذِهِ السُّورَةُ هِيَ ثَانِي أَطْوَلَ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ

إِنَّ مَرْيَمَ هِيَ ابْنَةُ عِمْرَانَ بَنَصَّ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ : ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾

(التحریم : I2) ، وَوَرَدَ اسْمُ (عمران) ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ :

الأولى : (آل عمران) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ

* ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران : 33-34) .

الثانية : امرأة عمران ووالد مريم في قوله تعالى : ﴿إِذِ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي

مُحَرَّرًا﴾ (آل عمران : 35) .

الثالثة : ابنة عمران في قوله تعالى : ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ (التحریم : I2) .

الحديث عن اصطفاء آل عمران مع الذين اصطفاهم الله يؤكد أن مريم عليها السلام هي من ذرية كرمها

الله سبحانه وتعالى وقد أعدها الله لقبول الحدث الجلل وهو ولادتها لعيسى عليه السلام بنفحة روحية

من الله .

تتقدم مع النص لفهم قصة امرأة عمران ونذرهما يقول تعالى : ﴿إِذِ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ

لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿آل عمران : 35﴾

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا

مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِنِكَاحٍ وَذُرِّيَّتُهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ ﴿آل عمران : 36﴾

﴿ قَتَبَلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولِ حَسَنِ وَأَبْتَهَا بِنَاتًا حَسَنًا وَكَفَلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل

عمران : 37]

وَلَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ -تعالى- اسْمَ السَّيِّدَةِ مَرْيَمَ -عليها السلام- فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ مَرَّةً ، وَقَدْ ذَكَرَتْ وَحْدَهَا إِحْدَى عَشْرَةَ مَرَّةً ، وَثَلَاثَ عَشْرَةَ مَرَّةً بِنَسَبِ ابْنِهَا عِيسَى -عليهما السلام- لَهَا ، وَقَدْ أَتَى اللَّهُ -تعالى- عَلَيْهَا فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ كَثِيرًا ؛ لِذَلِكَ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهَا وَذَكَرَ اسْمَهَا ، كَمَا انْفَرَدَتْ سُورَةٌ كَامِلَةٌ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِاسْمِهَا .

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾

[آل عمران : 42]

﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [آل عمران : 43]

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا

وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ [آل عمران : 45]

﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : 156]

قِصَّةُ الْوِلَادَةِ الْمُعْجَزَةِ

I . وَأَذْكَرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا

- 2 . فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا
- 3 . قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا
- 4 . قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا
- 5 . قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا
- 6 . قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا
- 7 . فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا
- 8 . فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا
- 9 . فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا
- 10 . وَهَزِي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا
- 11 . فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا
- 12 . فَأَنْتَ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا
- 13 . يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا
- 14 . فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأُمْتِدِ صَبِيًّا

15 . قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا

16 . وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا

17 . وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا

18 . وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا

19 . ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ

20 . مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

21 . وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ

22 . فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ

هَذَا هُوَ الْقَوْلُ الْحَقُّ وَرَدًّا قَوِيًّا عَلَى الَّذِينَ اتَّهَمُوا السَّيِّدَةَ الْعُذْرَاءَ وَعَلَى الَّذِينَ رَفَضُوا الْمَسِيحَ

وَكَذَّبُوهُ وَكَادُوا يَقْتُلُوهُ لَوْلَا أَنْ رَفَعَهُ اللَّهُ وَخَلَّصَهُ مِنْهُمْ وَهُوَ رَدُّ عَلَىٰ اتِّبَاعِهِ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي أَمْرِ وِلَادَتِهِ

وَمَكَاتِهَا وَزَمَانِهَا وَحَرَفُوا وَبَدَّلُوا وَكَفَرُوا وَأَشْرَكُوا .

والملفت للتظنر إن الفكر المسيحي لم يُبين حادثة كلام النبي عيسى عليه السلام وهو طفلًا رضيعًا فهي

بحد ذاتها مُعْجِزَةٌ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ وَاضِحٌ وَمَعْرُوفٌ إِذْ أَنَّهُمْ لَا يُرِيدُونَ أَيَّ أَدَانَةٍ تَدِينُهُمْ أَوْ تَشَكُّكَ فِي

اِعْتِقَادِهِمْ مِنْ أَنَّهُ اللَّهُ وَابْنُ اللَّهِ فَكَيْفَ سَيَفْضَحُ أَمْرُهُمْ وَيَقُولُ بَلْ أَنَا عَبْدُ اللَّهِ فَصَدَقَ هُوَ وَهُمْ الْكَاذِبُونَ .

النَّصَارَى الْأَوَائِلُ وَالْإِنْجِيلُ

الإنجيل كلمة يونانية معناها البشرى ، العهد الجديد يتضمّن تعاليم المسيح وأحداث حياته ، نشرت في أربعة أناجيل القديسون متى ومرقس ولوقا ويوحنا وتسمى الرسمية لأنه تم اعتمادها من المرجع الكنسي وهناك عددا كبيرا من الأناجيل مثل برنابا وغيره لكن الجمع الكنسي الذي بيده الحل والربط والحكم الفصل لا يعترف بها .

من كتب الأناجيل ؟

هذا السؤال يطرحه الدكتور بارت إيرمان وهو عالم في الإنجيل أو العهد الجديد وخبير في بدايات المسيحية حصل على شهادة الدكتوراه والماجستير في اللاهوت من مدرسة برينستون اللاهوتية يقول من أكثر الإدعاءات شيوعاً التي يدلي بها حول الأناجيل أنها ليست مكتوبة بتلك الأسماء الموجودة عليها . وهو يدعي أن إسفار متى ومرقس ولوقا ويوحنا لم يكتبها متى ومرقس ولوقا ويوحنا ؛ بالأحرى كتبها مؤلفون مجهولون في أواخر القرن الأول . حسب إيرمان ، نحن لا نعرف من هم هؤلاء الناس . هم أناس ربما كانوا كتاباً هلنستيين خارج فلسطين يضعون ببساطة القصاص التي سمعوها عن يسوع ؛ لم يكونوا من شهود العيان . ولا يمكننا أن نتأكد من أن ما يقولونه لنا قد حدث بالفعل . ويردد إيرمان هذا الادعاء مراراً . ومع ذلك ، لا يوجد سوى شيء واحد يدعم هذا الادعاء - الأناجيل هي ما نطلق عليه اسم "مجهول سابقاً" . هذا يعني أنه في النص نفسه ، لا يقول إن يوحنا كتب هذا ، أو أن ما كتبه متى . إذا قرأت رسالة بولس ، فإنها تخبرك أن اسم بولس مرتبط بها ، لكن الأناجيل كانت مجهولة في السابق . هل يجب أن يكون هذا مصدر قلق ؟ علاوة على ذلك ، هناك فترة زمنية تتجاوز جيلاً كاملاً أو جيلين على الأقل تفصل بين لحظة وفاة المسيح وزمن كتابه الأناجيل . الإنجيل الأول ،

مَرْقِص ، كَتَبَ بَعْدَ مُرُورِ حَوَالِي ثَلَاثِينَ عَامًا عَلَى إِشْكَالِيَةِ صَلْبِ الْمَسِيحِ ، أَمَّا الْأَنَاجِيلُ الْأُخْرَى فَكُتِبَتْ
بَعْدَ ذَلِكَ بِفِتْرَةٍ طَوِيلَةٍ ، فَإِنْجِيلِي مَتَّى وَلُوقَا كُتِبَا بَعْدَ ذَلِكَ بِمَا لَا يُقَالُ عَنْ أَرْبَعِينَ عَامًا ، أَمَّا إِنْجِيلُ يُوْحَنَّا
بِسْتَيْنَ عَامًا عَلَى الْأَقْل . وَالْأَمْرُ الْمُثِيرُ لِلدَّهْشَةِ وَالْعَجَبِ هُوَ أَنَّ بَعْضَ الْمَعْلُومَاتِ السَّيْرِيَةِ الْمَتَوَفَّرَةِ فِي
الْأَنَاجِيلِ تَتَجَاوَزُ أَقْوَالَ الْمَسِيحِ وَمُعْجَزَاتِهِ . وَلَيْسَ هُنَاكَ أَيُّ إِشَارَةٍ وَاصِحَّةٍ عَلَى الْفِتْرَةِ الَّتِي مَرَّتْ مُنْذُ
بِدَايَةِ مَسِيرَتِهِ النَّبَوِيَّةِ كَنَبِيِّ حَتَّى لَحْظَةِ صُلْبِهِ - رُبَّمَا كَانَ سِنُّهُ ، أَوْ ثَلَاثِ سِنَوَاتٍ أَوْ حَتَّى خَمْسَةٍ .

عِلَاوَةً عَلَى ذَلِكَ نَجِدُ أَنَّ الْأَنَاجِيلَ تَنَاقُضُ بَعْضُهَا الْآخَرَ بِاسْتِمْرَارٍ . حَيْثُ تَمَّ الْعُثُورُ عَلَى مَا بَيْنَ 1500
إِلَى 1750 تَنَاقُضُ فِيمَا بَيْنَهُمَا . وَالْأَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ ، اثْنَانِ مِنَ الْأَنَاجِيلِ فَقَطْ ، مَتَّى وَلُوقَا ، يُشِيرَانِ إِلَى مَوْلِدِ
الْمَسِيحِ ، وَهُنَاكَ اخْتِلَافَاتٌ جَدْرِيَّةٌ بَيْنَ الرِّوَايَاتِ الَّتِي يَرْوِيَانَهَا . وَالْمَشْكَالَةُ نَفْسُهَا تَحْدُثُ مَعَ حَادِثَةِ بَعَثِ
الْمَسِيحِ وَعَوْدَتِهِ إِلَى الْحَيَاةِ ، فَهُنَاكَ الْعَدِيدُ مِنَ الْاِخْتِلَافَاتِ الْفِعْلِيَّةِ فِي التَّسْلُسِ وَالْأَشْخَاصِ الْمُشَارِكِينَ
فِي هَذَا الْحَدَثِ وَالْمُرْتَبِطِينَ بِهِ خِلَالَ الْأَيَّامِ الثَّلَاثِ الْأَخِيرَةِ مِنْ حَيَاةِ الْمَسِيحِ (أَوْ رُبَّمَا لَمْ تَتَجَاوَزْ الْحَادِثَةَ
مُدَّةَ الْيَوْمِ وَنِصْفِ الْيَوْمِ ؟) بَيْنَ لَحْظَةِ صُلْبِهِ وَصُعُودِهِ إِلَى السَّمَاءِ ، حَيْثُ أَنَّ هَذِهِ الشَّهَادَةَ بِكَامِلِهَا
سُتَرَفِضُ مِنْ قِبَلِ أَيْةٍ مُحْكَمَةٍ قَانُونِيَّةٍ فِي هَذَا الْعَصْرِ . ضَمِنَ مُجْتَمَعٌ مُتَقَفٌ وَمَتَعَلِمٌ حَيْثُ تَمَّ نَشْرُ هَذِهِ
الْأَنَاجِيلِ وَتَوَزِيْعُهَا بِسُهُولَةٍ نَسْبِيَّةٍ ، يُمَكِّنُ تَرْجَمَةَ هَذَا التَّشْوِيشِ وَالرَّابِطِاطِ بِأَنَّهُ يُوحِي بِالْأَصَالَةِ ، لَكِنْ فِي
مُجْتَمَعٍ لَمْ يَتَقَفْ بَعْدَ فَإِنَّهُ يُوحِي بِوُجُودِ عَمَلِيَّةٍ تَنَاقَلُ شَفَهِيًّا لِلْخَبَرِ خَارِجَةً عَنِ السَّيْطَرَةِ .

حَتَّى الْعُلَمَاءُ الْمَسِيحِيِّونَ الْأَكْثَرُ احْتِرَامًا وَسَمْعَةً حَسَنَةً يَعْرِفُونَ بِصُعُوبَةِ إِثْبَاتِ أَيِّ شَيْءٍ جَوْهَرِيٍّ بِشَأْنِ
الْمَسِيحِ ، وَذَلِكَ مُرَدُّهُ إِلَى التَّنَاقُضَاتِ وَالْاِخْتِلَافَاتِ بَيْنَ الْأَنَاجِيلِ . رَانْدَلْ هِيلْمِسْ يَقْتَبِسُ أَقْوَالَ أَرْبَعَةٍ مِنْ

هؤلاء العلماء في مقدمة كتابه من كتب الأناجيل ، ومن ضمنهم اثنان من المع كتاب سيره المسيح المعاصرين .

يقول روبرت فنك : العلماء الإنجيليين لم يقدروا على حسم مسألة ما إذا كانت الروايات والقصص الكتابية تزوي أحداثا حقيقية أو خيالية . ولم يقدروا على تحديد أيها الحقيقي وأيها الخيالي .

الخبير هنا بسيط للغاية : هل القصة المصورة في الإنجيل قد حدثت فعلا ؟ هل الأناجيل خيال أم سيره واقعية ؟

يقول جون كروسان :

لكن لا يمكننا صرف [إعادة بناء] أو البحث عن يسوع التاريخي كعملية إعادة بناء ، وكان إعادة البناء أبطأ كامل المشروع بشكل ما . لأنه ليس هناك سوى إعادة بناء .

ويقول جون مبير :

ما تقوم به الأناجيل ضمنا [يتضمن] ادعاء تقديم الحقيقة حول بعض الأحداث التي وقعت (من وجهة نظر الإنجيليين) في التاريخ البشري الحالي . هذه المزاعم حول الحقيقة ، في الواقع الفعلي ، قد تكون

صحيحة وقد لا تكون . لكن أية طريقة نقدية لا تستطيع معالجة الادعاءات الأساسية المتأصلة في

الأدب الإنجيلي تكون قد قوت جزءا كبيرا مما كانت تدور حوله الأناجيل بوصفها بروباغندا دينية

إغريقية-رومانية في القرن الميلادي الأول .

رودولف بلتمان :

[إِنَّ أَيْ إِنْجِيلِ هُوَ] . . . مُصَدَّرٌ أَسَاسِيٌّ لِلْحَالَةِ التَّارِيخِيَّةِ الَّتِي خَرَجَ مِنْهَا ، وَهُوَ مُصَدَّرٌ ثَانَوِيٌّ
لِلتَّفَاصِيلِ التَّارِيخِيَّةِ لِلْحَالَةِ الَّتِي يَمُدُّنَا بِالمَعْلُومَاتِ عَنْهَا .

وَحَتَّى الإِنْجِيلِ حَسَبَ رِوَايَةِ يُوْحَنَّا يَعْتَرِفُ بِأَنَّ الدَّقَّةَ لَمْ تَكُنْ ذَاتَ أَهْمِيَّةٍ لِإِثْنَاعِ الإِتْبَاعِ :

آيَاتٍ [مَعْجَزَاتٍ] أُخْرَى كَثِيرَةً صَنَعَهَا يُسُوعٌ قَدَامَ تَلَامِيذِهِ لَمْ تُكْتَبْ فِي هَذَا الكِتَابِ . وَأَمَّا هَذِهِ فَقَدْ
كُتِبَتْ لِتُؤْمِنُوا أَنَّ يُسُوعَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ اللهِ ، وَلِكَيْ تَكُونَ لَكُمْ إِذَا آمَنْتُمْ حَيَاةً بِاسْمِهِ . [يُوْحَنَّا 20 : 30-

[31

بِمَعْنَى أُخْرَى ، اعْتَرَفَ يُوْحَنَّا بِأَنَّهُ شَعَرَ بِالْحُرِّيَّةِ لِإِقْصَاءِ المَعْلُومَاتِ وَعَدَمِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا ، قَاصِرًا نَصَّهُ عَلَى
الرِّوَايَاتِ وَالْقِصَصِ الَّتِي تَعَزِّزُ الإِيْمَانَ وَتَقْوِيَهُ .

بِمَعْنَى أُخْرَى ، هُنَاكَ دَلِيلٌ إِيْجَابِيٌّ صَغِيرٌ يَبْتَدِئُ بِوُجُودِ التَّارِيخِيِّ لِلْمَسِيحِ ، لَكِنَّهُ يَكْفِي فَقَطْ لِتَبْرِيرِ هَذَا
الْإِفْتِرَاضِ ، وَمَهْمَا كَانَ يُوْحَنَّا وَاثِقًا مِنْ وُجُودِ المَسِيحِ عِنْدَمَا أُعْلِنَ عَنْ بَيْتِهِ فِي وَصْفِ انْتِقَائِيَةِ المَسِيحِ
مِنْ أَجْلِ تَحْسِينِ صُورَتِهِ . فِي الحَقِيقَةِ كُلُّ هَذَا مَرْدُهُ إِلَى ثِقَتِهِ بِالوُجُودِ البَشَرِيِّ لِلْمَسِيحِ .

فِي بَدَايَاتِ عَامِ 1913 ، وَبشَكْلِ مَلْحُوظٍ تَمَامًا ، قَامَ البَاحِثُ المِثُولُوجِي السِّيْر جِيْمِس فَرِيْزِر بِإِكْمَالِ
المَجْلَدِ السَّادِسِ مِنْ مَوْسُوعَةِ العُصْنِ الذَّهَبِيِّ حَيْثُ كَتَبَ يَقُولُ فِيهِ :

ظِلَالُ الشَّكِّ المُتَلَقَّاةِ حَوْلَ الحَقِيقَةِ التَّارِيخِيَّةِ لِلْمَسِيحِ هِيَ فِي رَأْيِي لَا تَسْتَحِقُّ مَنَّا كُلَّ هَذَا العُنَاءِ وَالإِهْتِمَامِ

وَبِالتَّأَكِيدِ فَإِنَّ أَغْلَبَ العُلَمَاءِ اليَوْمَ يَقْبَلُونَ بِالوُجُودِ التَّارِيخِيِّ لِلْمَسِيحِ ، بَعْضَ التَّنْظَرِ عَنْ وَضْعِهِ وَحَالَتِهِ
الْأَسْطُورِيَّةِ أَوْ اللَّاهُوتِيَّةِ . وَلا يَسْعُنَا إِلاَّ أَنْ تَوْصَلَ إِلَى نَتِيْجَةٍ مُفَادَهَا ، حَسَبَ تَعْبِيرِ جُوزِيْف مَكَابِي :

أَنَّهُ مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَوْ بِالْتَّكِيدِ كَانَ هُنَاكَ نَبِيٌّ يَهُودِيٌّ ، نَاثِرٌ وَمْتَمَرِدٌ ضَدَّ الدِّيَانَةَ الرَّسْمِيَّةَ لِقَوْمِهِ ، تَمَّ إِعْدَامُهُ فِي الْقُدْسِ ، وَلَيْسَ هُنَاكَ أَيُّ مَصَادِرٍ أُخْرَى مُوثِقَةٌ يُمَكِّنُ اعْتِمَادَهَا كَأَسَاسٍ لِمَعْرِفَتِنَا عَنْهُ .

عَلَى آيَةِ حَالٍ ، تَبَقِيَ مُشْكَلَةٌ وَاحِدَةٌ وَهِيَ مِنْ أَصْعَبِ الْمُسْكَلَاتِ الَّتِي تَوَاجَهْنَا فِي قَبُولِ وَاقِعِيَّةِ قِصَّةِ الْمَسِيحِ : تَلَخُّصٌ فِي تَشَابُهَيْهَا مَعَ قِصَصِ وَرَوَايَاتِ الْأَذْيَانِ الَّتِي سَبَقَتْهَا وَالَّتِي مِنْ الْوَاضِحِ أَنَّهَا مَجْرَدٌ أَسَاطِيرٌ . الْمَسِيحُ نَفْسُهُ يَبْدُو حَيًّا فِي الْأَنَاجِيلِ ، لَكِنْ أَهَمُّ الْأَحْدَاثِ الَّتِي وَقَعَتْ فِي حَيَاتِهِ هِيَ نُسْخَةُ عَنْ قِصَصِ لِلَّهِهِ وَثَبْتِيَّةٌ كَانَتْ تُعْبَدُ فِي نَفْسِ الْفَتْرَةِ - فِي الْحَقِيقَةِ كَانَتْ عِبَادَةٌ هَذِهِ الْآلِهَةِ تَنَافَسَ دِيَانَةُ الْمَسِيحِ خِلَالَ الْقُرْنَيْنِ الثَّلَاثِ وَالرَّابِعِ . إِذَنْ ، فَإِنَّ كَافَّةَ إِجْمَازَاتِ الْمَسِيحِ تَبْدُو أَنَّهَا كَانَتْ تَحْقُقًا مُسْتَسْخَا لِكُلِّ الْحَاجَاتِ وَالضَّرُورَاتِ الَّتِي كَانَتْ مَنْشُودَةً فِي قِصَصِ هَذِهِ الشُّخُصِيَّاتِ الدِّيْنِيَّةِ الْوَثْبِيَّةِ وَالَّتِي مِنْ الْوَاضِحِ أَنَّهَا كَانَتْ أَسْطُورِيَّةً وَخِرَافِيَّةً . وَالْجَمِيعُ سَيَتَّقُ عَلَيَّ أَنْ : تِلْكَ الْآلِهَةُ الْأُخْرَى كَانَتْ مِنْ صَنْعِ الْمَخِيلَةِ ، لَكِنْ قِصَّةُ يَسُوعَ (وَالَّتِي جَاءَتْ بَعْدَ هَذِهِ الْقِصَصِ بِفَتْرَةِ طَوِيلَةٍ فِي التَّارِيخِ الْقَدِيمِ) قَدْ جَاءَتْ إِلَى الْأَرْضِ وَيُمْكِنُ اغْتِبَارُهَا حَقِيقِيَّةً بِالْكَامِلِ . وَهَذَا عَلَى الْأَرْجَحِ يُسَاعِدُ عَلَيَّ تَفْسِيرِ التَّحْوُلِ الْهَائِلِ الَّذِي حَدَثَ مِنْ الدِّيَانَاتِ الْوَثْبِيَّةِ إِلَى الْمَسِيحِيَّةِ . وَنَسْتَجِ مِنْ هُنَا أَنَّ حَيَاةَ الْمَسِيحِ وَإِجْمَازَاتِهِ الْعَظِيمَةَ وَالْهَائِلَةَ كَانَتْ نَتِيجَةَ النَّزْعَةِ الْبَرْبَرِيَّةِ وَأَكْلِ لُحُومِ الْبَشَرِ مِنْ جِهَةِ الْمَسِيحِيِّينَ الْمَتَأَخِّرِينَ الَّذِينَ اسْتَعَارُوا مِنْ الدِّيَانَاتِ الْأُخْرَى كُلَّ مَا لَبَّى وَأَشْبَعَ حَاجَتَهُمُ الْمَاورَائِيَّةَ مَهْمَا يَكُنْ ، وَالَّذِي تَمَّ دَجْمُهُ لَاحِقًا مَعَ الدَّعْوَةِ الْمَاورَائِيَّةِ لِلْمَسِيحِ .

الْمُضْحِكُ فِي الْأَمْرِ ، أَنَّ الْمَدَافِعِينَ الْإِلَهَوِيِّينَ الْمَسِيحِيِّينَ فِي الْقُرْنِ الثَّانِي لِلْمِيلَادِ جَاسْتَنَ الشَّهِيدَ وَتَرْتُولِيَانَ دَافِعًا عَنْ هَذَا التَّشَابُهِ بَيْنَ الطَّوَائِفِ وَالدِّيَانَاتِ الْوَثْبِيَّةِ وَبَيْنَ الْمَسِيحِيَّةِ لَكِنْ أَضَافَا حِجَّةً أَنَّ الشَّيْطَانَ

حَاوَلَ الإِيقَاعَ بِالمِسيحيةِ وَبِذَلِكَ قَامَ بِتَغيرِها وَتَحرِيفِها لِتَحاكي دِيانَاتِ وَثَنِيَّةٍ وَذَلِكَ لِإِدْخَالِ الإِزْتِباكِ وَالْحِيرَةِ وَالشُّكِّ فِي قُلُوبِ المِسيحيينِ المُؤمِنينِ . بِمَعْنَى آخَرَ ، كَانَ الشَّيْطَانُ يَتَشَارَكُ مَعَ الرَّبِّ قُدْرَتَهُ كَعَالِمِ بِكُلِّ شَيْءٍ ، لِذَا كَانَ قَادِرًا عَلَى مُحاكاةِ الآلهَةِ والإِلهاتِ المَبكَرَةِ الَّتِي تَشَابَهَتْ قِصصُها مَعَ قِصَّةِ المِسيحِ .

بِهِدَفِ إِزْتِباكِ المُؤمِنينِ المِسيحيينِ بِفَرَضِ اِحْتِمَالِ عِشْيِ بِأَنَّ يَكُونَ المِسيحيينِ قَدْ اسْتَعَارُوا مِنْ دِيانَاتِ وَثَنِيَّةٍ سَابِقَةٍ ، وَلَيْسَ العُكْسُ . رُبَّمَا قَدْ يَكُونُ الأَمْرُ كَذَلِكَ ، لَكِنِ التَّفْسِيرُ الأَبْسطُ سَيَكُونُ فِي أَنَّ المِسيحيينِ قَدْ قَامُوا فِعْلاً بِاسْتِعَارَةِ وَتَرْبِيبِ القِصصِ الوَثَنِيَّةِ لِيَضْفُوا عَلَى يَسُوعَ نَوْعًا مِنْ الحَالَةِ التَّنَافِسيَّةِ مَعَ الآلهَةِ الَّتِي كَانَتْ مَعْبُودَةً مِنْ قَبْلِ مَعاصِرِهِمْ . فِي الوَاقِعِ تَحَوَّلَتِ المِسيحيةُ إِلَى وَثَنِيَّةٍ بِهِدَفِ تَحْوِيلِ المُؤمِنينِ الوَثَنيينِ . لَكِنِ لِأَيِّ مَدَى بَلَغَتْ فِي وَثَنِيَّتِها ؟ ! ! هَذَا هُوَ السُّؤالُ الرَّئِيسِيُّ . . .

الإِستِعَارَاتُ مِنْ هَذَا النَّوعِ كَانَتْ مُمَكِّنَةً فِي ذَلِكَ الوَقْتِ ، وَذَلِكَ لِلسَّبَابِ التَّالِيَةِ :

I . بِمَا أَنَّ قِصَّةَ يَسُوعَ تَمَّ تَنَاقُلُها بِشَكلِ حَضْرِيٍّ عَنِ طَرِيقِ التَّرَاثِ الشَّفَهِيِّ لِأَكْثَرِ مِنْ ثَلَاثِينَ عَامًا وَقَدْ تَصَلَّتْ إِلَى المِئَةِ عَامٍ (أَوْ مَا يَسَمَّى بِالْعَضْرِ الرِسُولِيِّ) ،

2 . بِمَا أَنَّهُ كَانَ هُنَاكَ إِزْدِهَارٌ مُلْحُوظٌ لِتَشْكِيلَةِ وَاسِعَةٍ وَمَتَنوعَةٍ مِنْ الدِيانَاتِ الوَثَنِيَّةِ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ ،

3 . بِمَا أَنَّ جَمِيعَ الدِيانَاتِ قَدْ أَخَذَتْ مِنْ بَعْضِها وَتَبَادَلَتِ الأَفْكارُ فِيهَا بَيْنَها عَنِ طَرِيقِ مَا يَسَمَّى

بِ"الحَرَكَةِ التَّوْفِيقِيَّةِ" وَ"الاختِلاطِ المُتَبَادِلِ" حَيْثُ اسْتَعَارَتِ المَفَاهِيمِ وَالدَّوَاغِ مِنْ بَعْضِها البَعْضَ حَيْثُما

أَمَكَّنَ ذَلِكَ . مِنْ بَيْنِ هَذِهِ الدِيانَاتِ العَدِيدَةِ ، وَكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْها تَمْتَلِكُ مِزاجِها الحَاصَّةِ المُتَعَلِّقَةَ بِصَحَّتِها

وصلاحيّتها ، كانت المثرائية ، المانوية ، الغنوصية ، والعبادات المنفصلة (ديانة تؤمن بالله سام ، إذا لم تكن توحيدية بالكامل) لهيراكليس ، سيبييل ، إيزيس ، أوزيريس ، أورفيوس ، ديونيسوس ، والآلهة سيرابيس كأنقسام منفرد بعد أن جرث عمليّة دمج بين أوزيريس وديونيسوس . أما الديانة اليهوديّة فإنّها قد تجتبت إلى حدٍ بعيدٍ هذه السُوق الدينيّة التنافسية بين الديانات . والحال أنّه كان هناك تماثل كبيرٌ وكافٍ بين المسيحيّة والديانات الوثنيّة في زمن المسيح حيث لا يسعنا سوى التوصل إلى نتيجة مفادها أنّ الديانة المسيحيّة ، كغيرها من باقي الديانات والفرق والأغاز ، "تمت عن طريق امتصاص الأفكار اللاهوتيّة المنافسة ودمجها" .

بالإضافة إلى النجاح الذي حقّقه الديانة المسيحيّة في منحها يقينًا ملموسًا للأساطير الوثنيّة ، وأنّها خلقت التوازن الصحيح بالضبط بين اليهوديّة وعبادة الحُصْب عند الوثنيين والتي كان الطلب عليها أوسع بكثير بين الجماهير . وبشكل خاصّ ، يبدو أنّ المسيحيّة ربطت بين الهوس الأخلاقي عند اليهوديّة وبين عباده مختلف آلهة البعث الربيعيّة الشّرقيّة المتوسطة وبين الزرادشتية والتي أكّدت على وجود صراع كوني عظيم بين الخير والشر وقرار يوم الحُكم الأخير [يوم القيامة] بين أولئك الذين سيرسلون إلى الجنّة والنار . وكنيجة لذلك ، يُمكن عبادة يسوع المسيح على أنّه المسيّا اليهودي (كما جرى التنبؤ به في سفر إشعيا 7 : 14 ، ميخا 5 ، وزكريّا 9 : 9) [16] الذي مات وجرى بعثه (كديونيسوس ، أوزيريس ، وباقي الآلهة) ، ثمّ صعد إلى السّماء ليحكم إلى جانب الرّب في يوم القيامة (كما تنبأ زرادشت) . كما أنّ هناك عمليّة تثليث توفيقية تمّ إدخالها : النبوءات اليهوديّة عن المسيّا ،

التَّضْحِيَّةُ الْوَثْنِيَّةُ مِنْ أَجْلِ الْخُصُوبَةِ ، وَالْإِسْكَاتولوجيا الْفَارْسِيَّةُ . وَقَدْ نَجَحَ الْأَمْرُ - لَكِنْ ظَلَّ لَيْسَ حَقِيقًا بِالضَّرُورَةِ .

لِإِزَالَةِ كَافَّةِ هَذِهِ التَّرْسِبَاتِ الْوَثْنِيَّةِ وَالتَّخْلُصِ مِنْهَا لِلْوُصُولِ إِلَى لَبِّ الدِّيَانَةِ الْمَسِيحِيَّةِ ، أَنَّهُ مِنْ الْمُهْمِ جَدًّا حَسَمَ اسْتِعَارَاتِهَا التَّوْفِيقِيَّةَ كَعَمَلِيَّةٍ تَرْوِيحٍ مَعِيدَةٍ وَقَعَالَةٍ خِلَالَ الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ أَوْ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي تَلَتْ إِشْكَالِيَّةَ صَلْبِ الْمَسِيحِ . سَوَاءٌ كَانَ "دِينُ" الْمَسِيحِيَّةِ لِهَذِهِ الدِّيَانَاتِ الْوَثْنِيَّةِ عَرْضًا أَمْ لَا ، فَإِنَّ الْفِكْرَةَ الرَّئِيسِيَّ هُنَا هِيَ أَنَّ دَافِعَهَا لَيْسَ أَقْلَ اسْطُورِيَّةٍ مِنْ دَوَافِعِ تِلْكَ الدِّيَانَاتِ .

إِذَنْ ، مَا الَّذِي يَبْقَى مِنَ الْمَسِيحِيَّةِ إِذَا عَرَيْنَاهَا مِنَ التَّمَاثِلَاتِ وَالْمَصَادِرِ الْوَثْنِيَّةِ ؟ أَقْلٌ بَكْثِيرٌ مِمَّا تَوَقَّعَهُ . وَفِي الْوَاقِعِ ، يَقُولُ الْبَعْضُ ، لَا شَيْءَ عَلَى الْإِطْلَاقِ . فَالْمَسِيحِيَّةُ كَانَتْ ثَانَوِيَّةً بِالْكَامِلِ . وَحَتَّى مَضْمُونَهَا الْيَهُودِيَّ كَانَ مُسْتَعَارًا . يَقُولُ جُوزَيْفُ مَكَابِي ، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ :

((وَلَا وَاحِدَةً مِنَ الْأَرَءِ وَالْأَفْكَارِ الدِّيْنِيَّةِ [الْأَنَاجِيلِ] الْمُنْسُوبَةِ لِيَسُوعَ يُمَكِّنُ اغْتِبَارَهَا أَصِيلَةً أَوْ مَبْتَكْرَةً .

هُومِرُ سَمِيثٌ يُجَادِلُ بِطَرِيقِهِ مُمَاتِلُهُ بِأَنَّ الطَّقْسَ فَوْقَ الْجَبَلِ رُبَّمَا مَأْخُودٌ مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي بَاتَ مَفْقُودًا الْآنَ (Logia أَوْ نَصَّ Q) لِأَقْوَالِ الْمَسِيحِ الَّتِي تَنَاقَلُهَا اتِّبَاعُهُ ، لَمْ يَكُنْ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ عَمَلٍ تَجْمِيعِي تَوْفِيقِيٍّ مِنْ

الْمَرَامِيرِ ، سَفَرِ إِشْعِيَا ، كِتَابِ سِيرَاخَ ، أَسْرَارِ إِنْخِ/إِدْرِيسَ ، كِتَابِ شَمْعُونِ لَيْسَرُهُ (كِتَابِ صَلَوَاتِ عِبْرِيَّةٍ) ، وَمَصَادِرِ أُخْرَى .

لَكِنْ ، مَرَّةً أُخْرَى ، يَتَوَجَّبُ عَلَيَّ دَعْمُ إِمْكَانِيَّةِ وُجُودِ الْمَسِيحِ ، وَاعْتَقَدَ حَرْفِيًّا مِنْ خِلَالِ اغْتِبَارِيٍّ وَتَقْدِيرِيٍّ لِنَجَاحِهِ الْبَاهِرِ فِي نَشْرِهِ وَتَرْوِيحِهِ لِأَخْلَاقِهِ بِكَثَافَةٍ وَزَخْمٍ لَمْ يَسْبِقْ لِهَمَّا مِثْلُ فِي أَيِّ مَكَانٍ -

وأيضاً تقننه المذهل - وخواصه الفريدة التي تميزه ككائن بشري ("ابن الإنسان"، ليس أكثر) ليس أقل تعقيداً وفرداً من أفلاطون، شيشرون، أو أي كاتب ومفكر وحكيم قديم. المسيح الذي أميزه في نهاية الأناجيل الأربعة من غير الممكن اختراعه أو ابتكاره من قبل هيئة أو تجميعه وتلفيقه بعملية ابتكار ذكية. لقد كان حقيقياً - لكن ربّما بشكل قد لا يريح أغلب المسيحيين.

حكم المسيح وأقواله وأمثاله مذهلة بحق، كما هي قدرته على الإقناع الأخلاقي، لكنني مندهش أيضاً ببذخه العُدواني السليبي في مكافأة البراءة الصافية ببركة أبدية، في الوقت الذي يُودع فيه أغلب الجنس البشري على حدّ سواء في الجحيم إلى الأبد - وحتى أولئك الذين يحملون في رؤوسهم أفكاراً فظيعة أو الذين يجرؤون ولو لمرة واحدة على إهانة شخص آخر ولو بكلمة غير مؤذية. "أيها الجهال والعميان" كان الإنسان يُعاقب في الجحيم إلى الأبد على هكذا تغيير، لكنه مع ذلك يستخذه بنفسه مرتين ليصف به الفريسيين مرة (متى 23 : 17) والماموسيين "يا أغبياء" (لوقا II : 40). والأمر المدهش أن الإنسان لا يستطيع أن ينظر إلى الآخرين نظره شهوة (وهذا ما يفعله أغلبنا معظم الأوقات). فمن الأفضل أن تقطع أطرافاً متناً - أعيننا، أيدينا، أو أي شيء آخر - على أن نخاطر بالسقوط في الجحيم إلى الأبد :

قد سمعتم أنه قيل للقدماء : لا تزن . 28 وأما أنا فأقول لكم : إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتيتها ، فقد زنى بها في قلبه . 29 فإن كانت عينك اليمنى تعثرُك فاقطعها وألقها عنك ، لأنه خير لك أن يهلك أحدُ أعضائك ولا يلقى جسدك كله في جهنم . 30 وإن كانت يدك اليمنى تعثرُك فاقطعها وألقها عنك ، لأنه خير لك أن يهلك أحدُ أعضائك ولا يلقى جسدك كله في جهنم . [متى 5 : 27 - 30]

مَرَّةً أُخْرَى ، نَلْحِظُ وُجُودَ عِدَائِيَّةٍ سَلْبِيَّةٍ تُظْهِرُ نَفْسَهَا ؛ فَهُوَ يَأْمُرُ بِالْحُبِّ وَالْإِحْسَانِ وَالصَّدَقَةِ ، أَوْ
 الْجَزَاءِ يَكُونُ النَّارَ إِلَى الْأَبَدِ . وَيَسْتَمِرُّ فِي طَمَائِنَتِهِ لَنَا بِأَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى الْجَنَّةِ مَضْمُونٌ ، لَكِنَّهُ ضَيْقٌ -
 بِاسْتِثْنَاءِ قَلَّةٍ يَسْتَطِيعُونَ اجْتِيَازَهُ . لَكِنَّ الْأَمْرَ الْأَكْثَرَ إِزْعَاجًا هُوَ أَنَّ الْمَسِيحَ رَفَضَ الْعَائِلَةَ بِالْفِعْلِ ، تَمَامًا
 كَمَا تَخَلَّى شِكْسْبِيرُ عَنْ أَنْ هَاتُوايَ ، وَكَانَ بَرْتِرَانْدُ رِشْلِ يَمْتَلِكُ أَرْبَعَ زَوْجَاتٍ وَخَلِيلَاتٍ لَا يُمَكِّنُ
 إِحْصَائَهُنَّ . بِالنِّسْبَةِ لِأَعْلَبِنَا ، الْعَائِلَةُ أَمْرٌ مَهْمٌ جَدًّا - لَا بَلْ إِنَّهَا أَهَمُّ شَيْءٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ . لَكِنَّ الْأَمْرَ
 لَيْسَ كَذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ لِلْمَسِيحِ ، الَّذِي تَحَلَّى الْعَائِلَةَ بِالنِّسْبَةِ لَهُ مَكَانًا ثَانَوِيًّا بَعْدَ الدِّينِ ، وَ - كَمَا حَدَّرَ
 مِيلْتُونُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْحَقِيقَةِ - فِي إِحْدَى الْمَرَّاتِ أَنْزَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ الزَّوْجَ لِيُصْبِحَ أَبْعَدَ مِنَ الْمَرْثِيَةِ الثَّانِيَةِ
 بِكَثِيرٍ . وَتَمَامًا كَمَا تَلَوَى جُورْجُ دَبْلِيُو بُوْشَ بَغْبَطَةَ فِي نِقَاشِهِ الثَّانِي عِنْدَمَا تَكَلَّمَ عَنْ إِعْدَامِ ثَلَاثَةِ مَسَاجِينِ
 (وَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّهُمَا اثْنَانِ) بِتَهْمَةِ ارْتِكَابِهِمَا جَرِيمَةَ قَتْلِ ، فَقَدْ تَكَلَّمَ الْمَسِيحُ بِنَفْسِ الْحَمَاسِ غَيْرِ الْمُعْتَادِ
 عِنْدَمَا تَحَدَّثَ عَنْ تَرْكِ الْمَرْءِ لِعَائِلَتِهِ وَأَهْلِهِ فِي سَبِيلِ الدِّينِ . وَهَذَا كَانَ خِيَارَ الْمَسِيحِيِّ فِي عَمَلِ بُوْيَانِ
 "Pilgrim ' s Progress" ، وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ الْفَوْزِ بِالْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ فِي الْجَنَّةِ : لِذَا رَأَيْتُ فِي مَنَامِي
 أَنَّ الرَّجُلَ بَدَأَ يَرْكُضُ . وَالآنَ لَمْ يَخْطُ خُطْوَةً وَاحِدَةً أَبْعَدَ مِنْ عَمَبَةِ دَارِهِ ، لَكِنَّ زَوْجَتَهُ وَأَوْلَادَهُ ، يُدْرِكُونَهُ
 ، وَيَأْخُذُونَ بِالْبَكَاءِ عَلَيْهِ لِكَيْ يَعودَ ، لَكِنَّ الرَّجُلَ يَضَعُ أَصَابِعَهُ فِي أُذُنَيْهِ ، وَيَجْرِي مُبْتَعِدًا ، وَهُوَ يَضْرُخُ
 وَيَبْكِي : حَيَاةً ! حَيَاةً ! حَيَاةً أَبَدِيَّةً ! لِذَا لَمْ يُنْظَرْ إِلَى الْخَلْفِ ، لَكِنَّهُ اِنْدَفَعَ نَحْوَ الْأَمَامِ إِلَى وَسْطِ
 السَّهْلِ . وَمِنْ هُنَا تَبَدَّى الْحَبْكَةُ حَيْثُ يَهْرُبُ الْمَسِيحِيُّونَ مِنَ الْعَائِلَةِ مِنْ أَجْلِ الْفَوْزِ بِالْدُّخُولِ إِلَى الْجَنَّةِ .
 وَالشَّيْءُ نَفْسُهُ قِيلَ فِي إِنْجِيلِ مَتَّى حَيْثُ جَادَلَ الْمَسِيحُ أَنَّ : لَا تَنْظُنُوا أَنِّي جِئْتُ لِأَلْقَى سَلَامًا عَلَى
 الْأَرْضِ . مَا جِئْتُ لِأَلْقَى سَلَامًا بَلْ سَيْفًا . 35 فَايُنِي جِئْتُ لِأَفَرِّقَ الْإِنْسَانَ ضِدَّ أَبِيهِ ، وَالْإِبْنَةَ ضِدَّ أُمِّهَا ،
 وَالْكُتَّةَ ضِدَّ حَمَاتِهَا . 36 وَأَعْدَاءَ الْإِنْسَانِ أَهْلَ بَيْتِهِ . 37 مِنْ أَحَبِّ آبَاءِ أَوْ أُمَّاتٍ أَكْثَرَ مِنِّي فَلَا يَسْتَحِقُّنِي ،

وَمَنْ أَحَبَّ ابْنًا أَوْ ابْنَةً أَكْثَرَ مِنِّي فَلَا يَسْتَحِقُّنِي ، وَمَنْ لَا يَأْخُذُ صَليْبُهُ وَيَتَّبِعُنِي فَلَا يَسْتَحِقُّنِي . [مَتَّى 10 : 34 - 39] قَدْ يَسْتَعْرَبُ الْبَعْضُ كَيْفَ يُمَكِّنُ لِلْمَسِيحِ أَنْ يَكُونَ مُدْرِكًا لِأَهْمِيَّةِ الصَّليْبِ بِشَكْلِ جَيْدٍ قَبْلَ أَنْ يَصْلُبَ ، لَكِنَّ الرِّسَالَةَ سَهْلَةٌ وَوَاضِحَةٌ : هِيَ أَنَّ الْمَسِيحَ كَانَ يُرِيدُ تَفْكِيكَ الْعَائِلَاتِ بُعْيَةَ تَحْقِيقِ الْخُلَاصِ لِاتِّبَاعِهِ . إِنَّ مَحَبَّةَ الْمَسِيحِ كَانَتْ أَكْثَرَ أَهْمِيَّةً مِنْ مَحَبَّةِ الْأَقْرَبَاءِ وَالْأَهْلِ . وَهَذِهِ حَالَةٌ مُمَيِّزَةٌ جِدًّا مِنْ جُنُونِ الْعَظْمَةِ مَوْجُودَةً ضَمَّنَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ . لَكِنَّ الْمَسِيحَ تَحَدَّثَ بِشَكْلِ مُتَقَضِّبٍ أَكْثَرَ فِي إِنْجِيلِ لُوقَا : إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَيَّ وَلَا يَبْغِضُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَإِمْرَأَتَهُ وَأَوْلَادَهُ وَإِخْوَتَهُ وَأَخَوَاتَهُ ، حَتَّى نَفْسِهِ أَيْضًا ، فَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ لِي تَلْمِيزًا ، وَمَنْ لَا يَحْمِلُ صَليْبَهُ وَيَأْتِي وَرَائِي فَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ لِي تَلْمِيزًا . [لُوقَا 14 : 26 - 27]

وَمَرَّةٌ أُخْرَى ، يُجَادِلُ الْمَسِيحَ فِي إِنْجِيلِ مَتَّى : 29 وَكُلُّ مَنْ تَرَكَ بِيُوتًا أَوْ إِخْوَةً أَوْ أَخَوَاتٍ أَوْ أَبًا أَوْ أُمًّا أَوْ امْرَأَةً أَوْ أَوْلَادًا أَوْ حُقُولًا مِنْ أَجْلِ اسْمِي ، يَأْخُذُ مِئَةَ ضِعْفٍ وَيَرِثُ الْحَيَاةَ الْأَبَدِيَّةَ . [مَتَّى 19 : 29] ثُمَّ فِي نَفْسِ الْإِنْجِيلِ "مَتَّى" عِنْدَمَا يَطْلُبُ أَحَدُ التَّلَامِيذِ الْعُودَةَ إِلَى عَائِلَتِهِ لِيَحْضُرَ جَنَازَةَ وَالِدِهِ ، يُجِيبُهُ الْمَسِيحُ : "اتَّبِعْنِي ، وَدَعِ الْمَوْتَى يَدْفِنُونَ مَوْتَاهُمْ" [مَتَّى 8 : 22] . فِي إِنْجِيلِ مَتَّى ، عِنْدَمَا يُعِيدُ الْمَسِيحُ تَأْكِيدَ رَفْضِهِ لِلطَّلَاقِ [19] بِحُجَّةِ أَنَّ "الَّذِي جَمَعَهُ اللَّهُ لَا يُفَرِّقُهُ إِنْسَانٌ" سَأَلَهُ تَلَامِيذُهُ عَنِ السَّبَبِ فِي دِفَاعِهِ وَهُجُومِهِ عَلَى مَسْأَلَةِ الزَّوْجِ فِي آنِ مَعًا ، وَقَدْ بَرَّرَ الْمَسِيحُ إِزْدِوَاجِيَّتَهُ هَذِهِ مِنْ خِلَالِ قَوْلِهِ أَنَّ "لَيْسَ الْجَمِيعُ يَقْبَلُونَ نَعَالِيْمَهُ" ، لَكِنَّ تَمَامًا كَمَا أَنَّ هُنَاكَ خِصْيَانٌ مُنْذُ وِلَادَتِهِمْ وَخِصْيَانٌ هُمْ كَذَلِكَ نَتِيجَةُ خِيَارِ الْأَخْرِينِ . إِذْ يُمَكِّنُ لِلْمَسِيحِيِّ أَنْ يَبَالَ الْخُلَاصُ مِنْ دُونِ أَنْ يَكُونَ خِصِيًّا ، فَكِلَاهُمَا - الْمَسِيحِيُّ وَالْمَخْصِي - بِإِمْكَانِهَا الْإِلْتِزَامُ بِهَذِهِ الْحَالَةِ ، وَكِلَاهُمَا لَدَيْهِمَا فُرْصَةٌ جَيِّدَةٌ لِتَلِيلِ الْخُلَاصِ

وَالْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ فِي الْجَنَّةِ . هَذِهِ كَلِمَاتٌ قَاسِيَةٌ جَدًّا ؛ إِمَّا أَنْ تُخَصِّيَ نَفْسَكَ أَوْ تَعَلَّمَ كَيْفَ تَفَكَّرَ
وَتَتَصَرَّفَ كَشَخْصٍ مُخَصِّيٍّ ، لِتَضْمَنَ الْخَلَّاصَ . لَكِنَّ مَا هَذَا الْخَلَّاصِ ؟ وَمَاذَا عَنِ فَضِيلَةِ الزَّوْجِ
وَأِنْجَابِ أَوْلَادٍ وَتَرْبِيَتِهِمْ ؟ حَتَّى أَنْ الْمَسِيحِ قَامَ بِاسْتِعَادِ الزَّوْجِ مِنَ الْجَنَّةِ فِي إِنْجِيلِ مَتَّى "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ [الأَزْوَاجُ
وَالزَّوْجَاتُ] فِي الْقِيَامَةِ لَا يُزَوِّجُونَ وَلَا يَتَزَوَّجُونَ ، بَلْ يَكُونُونَ كَمَلَائِكَةِ اللَّهِ فِي السَّمَاءِ " [مَتَّى 22 : 30
.] لِمَاذَا كُلُّ هَذِهِ التَّعَادَاةِ لِلزَّوْجِ ؟ أَلَا يَدْفَعُنَا ذَلِكَ لِلشَّكِّ فِي أَنْ يَسُوعَ كَانَ يُعَانِي مِنْ مَشَاكِلَ مَعَ عَائِلَتِهِ
الْخَاصَّةِ ، وَتَرَدَّدَ إِشَارَةٌ عَلَى ذَلِكَ فِي نَفْسِ الْإِنْجِيلِ : 46 وَفِيمَا هُوَ يُكَلِّمُ الْجُمُوعَ إِذَا أُمَّهُ وَإِخْوَتُهُ قَدْ وَقَفُوا
خَارِجًا طَالِبِينَ أَنْ يُكَلِّمُوهُ . 47 فَقَالَ لَهُ وَاحِدٌ : « هُوَذَا أُمَّكَ وَإِخْوَتُكَ وَاقِفُونَ خَارِجًا طَالِبِينَ أَنْ
يُكَلِّمُوكَ » . 48 فَأَجَابَ وَقَالَ لِلْقَائِلِ لَهُ : « مِنْ هِيَ أُمِّي وَمَنْ هُمْ إِخْوَتِي ؟ » . 49 ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ نَحْوَ
تَلَامِيذِهِ وَقَالَ : « هَا أُمِّي وَإِخْوَتِي . 50 لِأَنَّ مَنْ يَصْنَعُ مَشِيئَةَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ هُوَ أَخِي وَأُخْتِي
وَأُمِّي » . [مَتَّى 12 : 46 - 50] مِنْ هُوَ ذَلِكَ الشَّخْصِ الَّذِي يَتْرُكُ عَائِلَتَهُ يَقِفُونَ عِنْدُ عَيْبَةِ الْبَابِ ،
الْعَيْبَةِ الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُونَ تَجَاوُزُهَا لِلدُّخُولِ . إِنَّ إِشَارَةَ يَسُوعَ الْوَحِيدَةَ إِلَى الْعَائِلَةِ الَّتِي تَرَبَّى فِي كَنْعَانَ
وَرَدَتْ فِي سَفَرِ مَتَّى عِنْدَمَا قَالَ لِتَلَامِيذِهِ : "لَيْسَ نَبِيٌّ بِلَا كَرَامَةٍ إِلَّا فِي وَطَنِهِ وَفِي بَيْتِهِ " . [مَتَّى 13 :
57] . إِذْنُ هُنَا نُقْطَةُ أُسَاسِيَّةٍ أُخْرَى فِي تَعَالِيمِ الْمَسِيحِ الَّتِي تَحَرَّكَ فُضُولِي التَّفْسِيرِيِّ . فَهَنَّاكَ تَرْكِيْزُ
كَبِيْرٌ جَدًّا عَلَى إِسْكَاتُولُوجِيَا الْجَحِيْمِ وَالْعِقَابِ - وَخُصُوصًا فِي إِنْجِيلِ مَتَّى - كَمَا أَنَّ هُنَّاكَ تَرْكِيْزُ
شَدِيْدٌ عَلَى رَفْضِ الْعَائِلَةِ وَإِنْكَارِهَا مِنْ أَجْلِ قِيَمٍ وَأَهْدَافٍ رُوْحِيَّةٍ . مَا هِيَ الصَّلَةُ الَّتِي تَرْبُطُ هَذَيْنِ
الْهُوسِيْنِ مَعَ بَعْضِهِمَا ؟ نَحْنُ لَا تَمْتَلِكُ الْوَقْتُ وَالْمَكَانُ الْكَافِيْنِ لِتَنَاوُلِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بِالْتَّحْدِيدِ ، لَكِنَّهَا
تُوكِّدُ مَا أَصْبُو إِلَيْهِ : I . أَنَّ رَأْيَا الْمَسِيحِ كَانَتْ فِي التَّهَيِّاتِ تَبِيْجَةَ الْكَاتِبِ نَفْسِهِ وَلَيْسَ نَفْهُ (وَهَذَا مَعْنَاهُ
أَنَّ الْمَسِيحَ كَانَ مُوجُودًا بِالْفِعْلِ كَمَا بَشَرِيٌّ) ، وَ 2 . أَنَّ نَفْهُ أَفَلَتْ التَّنْفِيْحَاتِ التَّخْرِيرِيَّةِ الْفَعَّالَةَ بِمَا

يُكْفِي لِلتَّخَلُّصِ مِنَ الْعَوَاطِفِ وَالْمَشَاعِرِ الْخَارِجَةِ عَنِ السَّيْطَرَةِ جُزْئِيًّا (وَالَّتِي تَنْزِعُ لِتُكَيِّدَ حَقِيقَةَ أَنَّ أَكْثَرَ
أَفْكَارِ الْمَسِيحِ قَسْرِيَّةٌ هِيَ مِنْ بَنَاتِ أَفْكَارِهِ الْخَاصَّةِ) . بِمَعْنَى آخَرَ ، الْمَسِيحُ نَفْسُهُ قَفَزَ مِنْ فَوْقِ الْقِمَّةِ
كَمَا فَعَلَ كُلُّ مَنْ أَفْلاطُونُ ، شَكْسِيرُ ، وَعَلَى الْأَرْجَحِ الْعَدِيدِ غَيْرِهِمْ فِي تَارِيخِ الْحَضَارَةِ الْغَرْبِيَّةِ .

مِنْ الْمُؤَكَّدِ أَنَّ الْمَسِيحَ كَانَ مُوجُودًا ، لَكِنَّ آرَاءَهُ يَجِبُ أَنْ تَعْرَضَ بِعِنَايَةٍ وَأَنْ تُعْرَبَ بِحَدَرٍ شَدِيدٍ مُقَارَنَةً
مَعَ تَجْرِبَتِهِ الْخَاصَّةِ . مُعْظَمُ تَعَالِيمِهِ مُفِيدَةٌ وَصَالِحَةٌ بِالْتَّأَكِيدِ ، لَكِنَّ هُنَاكَ تَعَالِيمَ أُخْرَى خَطِيرَةٌ وَمُؤَذِّنَةٌ
بِالنِّسْبَةِ لِأَغْلَبِ النَّاسِ . خِتَامًا ، يُمَكِّنُنَا اسْتِنْتِاجُ مَا يَلِي : أَنَا نَفْسِي لَا أَسْتَطِيعُ تَقْبِيلُ فِكْرَةَ الْوَهْيَةِ
الْمَسِيحِ ، وَلَا الْإِسْكَاتُولُوجِيَا الْخَاصَّةَ بِهِ وَالَّتِي تُبَشِّرُ بِالْبَحِيمِ وَالْعَذَابِ الْأَبَدِيِّ ، كَمَا لَا يُمَكِّنُنِي قَبُولُ
أَخْلَاقِهِ الْقَائِمَةِ عَلَى الْخَوْفِ ، إِذْ أَنِي لَا أُوْفِقُ عَلَى الْمَبَادِي الْأَخْلَاقِيَّةِ الْقَائِمَةِ عَلَى الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ فِي
حَيَاةٍ خَيَالِيَّةٍ أُخْرَى . وَبِصِرَاحَةٍ أَنَا مُرَوِّعٌ مِنْ عُدُوَائِيَّةِ تَجَاهِ الدِّينِ ، وَالَّتِي لَا يَسْتَطِيعُ تَجَاهُلُهَا وَالْتِعَاضِي
عَنْهَا إِلَّا كُلُّ مَسِيحِيٍّ أَعْمَى الْقَلْبِ وَالْبَصِيرَةِ . لَكِنِّي مَا زِلْتُ مَاخُودًا بِعَبْرِيَّةِ الْمَسِيحِ الْفَذَّةِ وَالَّتِي تَمَثَّلَتْ
فِي تَمَكُّنِهِ مِنْ تَشْكِيلِ وَصِيَاغَةِ رُؤْيَةٍ لِلتَّرَامِ شَخْصِيٍّ ضِرُورِيٍّ وَهَامٍ جَدًّا لِتَارِيخِ الْحَضَارَةِ الْغَرْبِيَّةِ الْلَا حَقِ
. شَابُّ أَعْرَبَ وَبِمُفْرَدِهِ ، فِي بَدَايَاتِ مَسِيرَتِهِ عَلَى الْأَقْلِ ، سَعَى لِتَحْقِيقِ إِنْجَازَاتٍ حَضَارِيَّةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ
الْعُلَمَائِيَّةِ ، مُمَهِّدًا الطَّرِيقَ لِلدُّخُولِ فِي عُصُورٍ مُظْلَمَةٍ وَوُسْطَى ، وَفِي الصَّرَاحِ الدِّيَالِكْتِيكِيِّ بَيْنَ الْإِعْتِقَادِ
الْأَرْثُودُكْسِيِّ وَاللَّااعْتِقَادِ الْعُلَمَائِيِّ خِلَالَ الْقُرُونِ الْأَرْبَعَةِ الْآخِيرَةِ . انْتَهَى كَلَامُ جِيْمْسُ فِرِيْزِرُ الْمَجَلِّدِ
السَّادِسِ مِنْ مُوسُوعِيَّةِ الْغُضَنِ الذَّهَبِيِّ .

النَّصَارَى وَالْمَسِيحِيَّةِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْمَسِي الْمُنْتَظَرِ

يَقُولُ سَفَرُ زَكَرِيَّا فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ : "إِنْتَهَجِي جِدًّا يَا ابْنَةُ صَهْيُونِ اهْتَفِي يَا بِنْتُ أُورُشَلِيمَ ، هُوَذَا مُلْكُكَ يَأْتِي إِلَيْكَ ، هُوَ عَادِلٌ وَمَنْصُورٌ ، وَدِيْعٌ وَرَاكِبٌ عَلَى حِمَارٍ ، وَتِكَلِّمُ بِالسَّلَامِ لِلْأُمَّمِ ، وَسُلْطَانُهُ مِنْ الْبَحْرِ وَمِنْ التَّهْرِ إِلَى أَقَاصِي الْأَرْضِ " . . . ، لَكِنَّهُ عِنْدَمَا جَاءَ بِالْفِعْلِ لَمْ يُصَدِّقُوهُ وَأَنْكَرُوهُ وَطَارَدُوهُ وَوَشَّوَاهُ عِنْدَ الرُّومَانِ . . . فَلِمَاذَا حَدَّثَ ذَلِكَ إِنْ مَفْهُومُ "الْمَسِيحِ الْمُنْتَظَرِ أَوْ الْمَسِيحِ الْمُنْتَظَرِ" مِنْ الْمَفَاهِيمِ الْأَسَاسِيَّةِ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ ، وَصُورَةُ الْيَهُودِ عَنْهُ أَنَّهُ عِنْدَمَا يَأْتِي تَطْرُحُ الْأَرْضُ فَطِيرًا وَمَلَابِسَ مِنْ الصُّوفِ ، وَقَمْحًا حُبَّهُ بِقَدْرِ كَلَاوِي الثَّيْرَانِ الْكَبِيرَةِ ، وَفِي ذَلِكَ الزَّمَنِ تَرْجِعُ السُّلْطَنَةُ لِلْيَهُودِ ، وَكُلُّ الْأُمَّمِ تَخْدِمُ ذَلِكَ الْمَسِيحَ وَتَخْضَعُ لَهُ ، وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتِ يَكُونُ لِكُلِّ يَهُودِيٍّ الْفَانِ وَثَمَانِيَّةَ عِبْدٍ يَخْدُمُونَهُ وَثَلَاثِيَّةَ وَعَشْرَةَ تَحْتَ سُلْطَنِهِ ، لَكِنَّ الْمَسِيحَ لَا يَأْتِي إِلَّا بَعْدَ انْقِضَاءِ حُكْمِ الْخَارِجِينَ عَنْ دِينِ بَنِي إِسْرَائِيلَ . وَجَاءَ فِي التَّلْمُودِ (إِنْ الْمَسِيحُ يُعِيدُ قَضِيبَ الْمَلِكِ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَتَخْدِمُهُ الشُّعُوبُ وَتَخْضَعُ لَهُ الْأَمْمَالِكُ ، وَعِنْدئذٍ يَمْتَلِكُ كُلُّ يَهُودِيٍّ الْفَيْنِ وَثَمَانِيَّةَ عِبْدٍ وَثَلَاثِيَّةَ وَعَشْرَةَ أَبْطَالٍ يَكُونُونَ تَحْتَ إِمْرَتِهِ) ، وَفِي سَفَرِ حَرْقِيَالٍ وَصَفَ تَفْصِيلِيًّا لِكَيْفِيَّةِ إِحْيَاءِ اللَّهِ لِلْمَوْتَى عِنْدَمَا يَأْتِي الْمَسِيحُ "هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ : هَلُمَّ يَا رُوحَ مِنْ الرِّيحِ الْأَرْبَعِ ، وَهَبْ عَلَى هَوَاءِ الْقَتْلِ لِيَحْيُوا ، فَتَنْبَأَتْ كَمَا أَمَرَنِي ، فَدَخَلَ فِيهِمُ الرُّوحُ فَحْيُوا وَقَامُوا عَلَى أَقْدَامِهِمْ ، جَيْشٌ عَظِيمٌ جِدًّا جِدًّا ثُمَّ قَالَ لِي : يَا ابْنَ آدَمَ هَذِهِ الْعِظَامُ هِيَ كُلُّ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ هَا هُمْ يَقُولُونَ يَبْسُتُ عِظَامُنَا وَهَلَكَ رَجَاؤُنَا ، فَقَدْ انْقَطَعْنَا لِذَلِكَ تَنْبَأً وَقَلَّ لَهُمْ : هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ : هَازِنَا أَفْتَحْ قُبُورَكُمْ وَأَصْعِدْكُمْ مِنْ قُبُورِكُمْ يَا شَعْبِي وَأْتِي بِكُمْ إِلَى أَرْضِ إِسْرَائِيلَ " . وَكَلِمَةُ "الْمَسِيحِ" مَعْنَاهَا الْمَمْسُوحُ "بَرِئَتِ الْبَرَكَةِ" ، "لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَمَسِّحُونَ بِهِ الْمُلُوكَ وَالْأَنْبِيَاءَ وَالْكَهَنَةَ وَالْبَطَارِقَةَ ، وَكَانُوا فِي مَبْدَأِ الْأَمْرِ يَرَوْنَ الْمَسِيحَ مُلْكًا فَاتِحًا مُظْفَرًا مِنْ نَسْلِ دَاوُدَ ، يُسَمُّونَهُ "ابْنَ اللَّهِ" وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ سَيَجِيءُ لِيُعِيدَ مَجْدَ إِسْرَائِيلَ ، وَيَجْمَعُ أَشْتَاتَ الْيَهُودِ بِفِلَسْطِينَ ، وَيَجْعَلُ أَحْكَامَ

التَّوراةِ نَافِذَةٌ الْمَفْعُولِ . وَبَالِغَ الْيَهُودِ فِي رَسْمِ الصُّورَةِ الَّتِي أَرَادُوهَا لِلْمَسِيحِ الَّذِي كَانُوا يَنْتَظِرُونَهُ ، فَذَكَرُوا
أَنَّ النَّاسَ فِي ظِلِّهِ لَنْ يَعِيشُوا وَحُدُثُهُمْ فِي الْعَالَمِ فِي سَلَامٍ وَسَعَادَةٍ ، بَلْ يُشَارِكُهُمْ فِي ذَلِكَ كُلِّ أَنْوَاعِ
الْحَيَوَانَاتِ ، فَالذُّبُّ يُسَالِمُ الْحَمْلُ ، وَالْعَجَلُ يُدَاعِبُ الْأَسَدُ ! .

وَحينَمَا ظَهَرَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَأَعْلَنَ أَنَّهُ الْمَسِيحُ الَّذِي يَنْتَظِرُهُ الْيَهُودُ ، لَكِنَّ أَكْثَرِيَةَ الْيَهُودِ رَفَضُوا هَذَا
الِدَّاعِيَ ، وَقَاوَمُوا دَعْوَةَ عِيسَى ، وَالْفَوْزَ الْقَبْضَ عَلَيْهِ ، وَحَكَمُوا عَلَيْهِ بِالْإِعْدَامِ ، وَمَرَّتْ فِتْرَةٌ طَوِيلَةٌ دُونَ
أَنْ يَجِيءَ الْمَسِيحُ الَّذِي يَنْتَظِرُهُ الْيَهُودُ ، وَاتَّهَزَ بَعْضُ الْيَهُودِ فُرْصَةَ هَذَا التَّرَقُّبِ ، فَادَّعَى كُلُّ مِنْهُمْ أَنَّهُ
الْمَسِيحُ ، وَسَجَّلَ التَّارِيخُ أَخْبَارًا لِلْمَسِيحِ كَاذِبٍ مِنْ حِينٍ إِلَى حِينٍ . رَفَضُوا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ لِأَنَّهُ جَاءَ فِي
صُورَةِ "قَدِيسٍ" وَحَاوَلَ تَخْلِيصَهُمْ مِنْ سُورِهِمْ ، وَلَمْ يَظْهَرْ فِي صُورَةِ مَلِكٍ يُعِيدُ إِلَيْهِمْ سُلْطَانَهُمُ الدُّبِّيَّ ،
فَانْكَرُوهُ وَأَضْطَهُدُوهُ ، وَحَتَّى الْآنَ وَهُمْ يَنْتَظِرُونَ الْمَسِيحَ الْمَخْلُصَ فِي صُورَةِ مَلِكٍ مِنْ نَسْلِ دَاوُدَ ،
يُخَلِّصُهُمْ مِنَ الْإِسْتِعْبَادِ وَالتَّشْتِ . لَا يُعْبَرُ يَسُوعُ فِي الْيَهُودِيَّةِ شَخْصِيَّةً مُرْسَلَةً مِنْ قِبَلِ اللَّهِ ، فَهُوَ لَيْسَ
الْمَاشِيحُ وَلَا حَتَّى نَبِيِّ بَوْصَفِهِ لَمْ يُنَمِّ التُّبُوتِ الْكِتَابِيَّةَ حَوْلَهُ ؛ الْإِتِّقَادَاتُ الْيَهُودِيَّةُ لِشَخْصِ يَسُوعَ بَدَأَتْ
مُنْذُ رِسَالَتِهِ ، إِذْ تَذَكَّرَ الْأَنَاجِيلُ وَصَفَهُ مِنْ قِبَلِ رِجَالِ الدِّينِ الْيَهُودِ بِالْمُتَسُّوسِ مِنْ قِبَلِ الشَّيْطَانِ ؛ وَارَادَ
الْحَاخَامُ الْأَكْبَرُ جَمَالًا ثَانِيًا بَعْدَ خَرَابِ الْهَيْكَلِ عَامَ 70 هـ أَنْ يُضَيَّفَ فِي الصَّلَوَاتِ الْيَوْمِيَّةِ لَعَنَاتٍ ضِدَّ
الْمَارْقِينَ عَلَى الْيَهُودِيَّةِ وَمَنْ بَيْنَهُمْ حَسَبَ رَأْيِهِ يَسُوعَ ، إِلَّا أَنَّهُ عَادَ وَعَدَلَ عَنْ ذَلِكَ ؛ فِي حِينٍ قَالَ الرَّابِّي
مُوسَى بْنُ مِيمُونٍ فِي كِتَابِهِ « مِيشَنَاهُ التَّوراةُ » : التَّنْظَرَةُ الْيَهُودِيَّةُ عَنْ يَسُوعَ النَّاصِرِيِّ الَّذِي ادَّعَى أَنَّهُ
الْمَسِيحُ ، وَقَتْلَ بِأَمْرِ الْمَحْكَمَةِ ، كَانَ النَّبِيِّ دَائِمًا قَدْ سَبَقَ وَتَبَّأَ عَنْهُ : " وَأَطْفَالُ تَوَارِ شَعْبِكَ سَيَرْفَعُونَ
أَنْفُسَهُمْ لِمَرْبَتَةِ التُّبُوتِ فَيَعْتَرُونَ " ، فَهَلْ يُمَكِّنُ أَنْ تُوجَدَ صَخْرَةٌ عِثْرَةٌ أَكْبَرَ مِنْ هَذِهِ ؟ كُلُّ الْأَنْبِيَاءِ أَجْمَعُوا

عَلَى أَنْ الْمَسِيءِ سَوْفَ يَخْلُصُ إِسْرَائِيلَ وَيُنْقِذُهَا وَبِأَنَّهُ سَيَجْمَعُ الْمِشْتَتِينَ وَيُقِيمُ الْوَصَايَا ، بَيْنَمَا سَبَبُ
النَّاصِرِيِّ ضَيَاعُ إِسْرَائِيلَ بِحَدِّ السَّيْفِ وَتَفَرُّقَ مَنْ تَبَقِيَ مِنْهُمْ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، كَمَا أَنَّهُ غَيْرُ التَّوْرَةِ وَتَسَبَّبَ
بِحُصُولِ خَطَا فَطِيعٍ . "

الانتقاد اليهودي لعيسى عليه السلام يعودُ بعدَ فِترَةٍ طَوِيلَةٍ ؛ وَيَتَضَمَّنُ التَّلْمُودُ ، وَالَّذِي كَتَبَ وَجَمَعَ مِنْ
الْقُرْنِ الثَّلَاثِ إِلَى الْقُرْنِ الْخَامِسِ الْمِيلَادِيِّ ، قِصَصًا كَانَتْ تَعْتَبَرُ خِلَالَ الْعُصُورِ الْوَسْطَى حِكَايَاتٍ مُسَيِّئَةً
عَنْ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَفِي وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْقِصَصِ ، يُوصَفُ (« يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ ») ، كَمُرْتَدٍ
بَدِيءٍ مِنْ قَبْلِ الْمَحْكَمَةِ الْيَهُودِيَّةِ الْعُلْيَا وَأَتَمَّ بِنَشْرِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَمُمَارَسَةِ السَّحْرِ . وَغَالِبِيَّةَ الْعُلَمَاءِ
الْمُعَاصِرِينَ يَعْتَبِرُونَ أَنَّ هَذِهِ الْمَادَّةَ لَا تُوفِّرُ أَيَّ مَعْلُومَاتٍ عَنْ يَسُوعَ التَّارِيخِيِّ . وَيُعْتَبَرُ عُلَمَاءُ التَّلْمُودِ
الْمُعَاصِرِينَ هَذِهِ تَعْلِيقاتٌ تَتَطَرَّقُ إِلَى الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالْمَسِيحِيَّةِ أَوْ الطَّوَائِفِ الْأُخْرَى ، بَدَلًا مِنْ
التَّعْلِيقاتِ عَلَى يَسُوعَ التَّارِيخِيِّ . وَفِي مَشْنَاهُ تَوْرَةٍ ، وَهُوَ عَمَلٌ فِي أَوَاخِرِ الْقُرْنِ الثَّلَاثِيِّ عَشَرَ عَنْ الشَّرِيعَةِ
الْيَهُودِيَّةِ كَتَبَهُ مُوسَى بْنُ مِيمُونٍ ، يُنصَّ عَلَى أَنَّ يَسُوعَ هُوَ « حَجَرُ عَشْرَةٍ » الَّذِي يَجْعَلُ « غَالِبِيَّةَ الْعَالَمِ
يُخْطِئُ وَيُخْذِمُ إِلَهًا غَيْرَ الرَّبِّ » . وَيَخْتَوِي الْأَدَبُ الْعِبْرِيُّ فِي الْعُصُورِ الْوَسْطَى عَلَى « حَيَاةِ يَسُوعَ »
الْقِصَصِيَّةِ وَالْمَعْرُوفَةِ أَيْضًا بِاسْمِ طَلِيدُوتِ يَشُو (بِالْعِبْرِيَّةِ) ، وَالَّتِي وَصَفَ فِيهَا الْمَسِيحَ بِأَنَّهُ ابْنُ يَوْسُفَ
النَّجَّارِ ، كَاتِبِنِ بَانْدِيرَا الرُّومَانِيِّ . وَيُصَوِّرُ التَّنصُّ يَسُوعَ كَمُحْتَالٍ ؛ كَذَلِكَ فَإِنَّ الْيَهُودِيَّةَ الْأَصْلَاحِيَّةَ تُعْلِنُ
بِشَكْلِ صَارِمٍ بِأَنَّ (كُلَّ يَهُودِيٍّ يُصْرَحُ بِأَنَّ يَسُوعَ هُوَ الْمَسِيحُ الْمَخْلُصُ فَهُوَ لَيْسَ بِيَهُودِيٍّ بَعْدَ) ، فَبِحَسَبِ
التَّقْلِيدِ الْيَهُودِيِّ فَإِنَّ السَّمَاءَ لَمْ تُرْسَلْ أَنْبِيَاءٌ بَعْدَ عَامِ 420 ق . م ، فَيَكُونُ بِذَلِكَ التَّبَيُّ مَلَاخِي هُوَ آخِرُ
الْأَنْبِيَاءِ فِي الْيَهُودِيَّةِ وَهُوَ سَابِقٌ لِلْمَسِيحِ بِأَرْبَعَةِ قُرُونٍ . لَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ ، مَدْحَ بَعْضِ الشَّخْصِيَّاتِ الْيَهُودِيَّةِ

يَسُوعَ وَالْكَتَابَةَ عَنْهُ بِشَكْلِ إِيحَابِي ، مِنْهُمْ الْفِيلَسُوفُ الشَّكِيكِيُّ بَارُوخُ سَبِيئُونَا الَّذِي اعْتَبَرَهُ لَا نَبِيًّا
فَحَسَبَ بَلْ « صَوْتُ اللَّهِ » ، وَمُوسَى مُنْدَلِسُونُ وَهُوَ مِنْ مُفَكِّرِينَ حَرَكَةِ التَّوْبِيرِ الْيَهُودِيَّةِ الَّذِي اعْتَبَرَ يَسُوعَ
مَعْلَمًا أَخْلَاقِيًّا وَيَهُودِيًّا ، وَالْفِيلَسُوفُ الْيَهُودِيُّ مَارْتِنُ بُوْبِرُ الَّذِي اعْتَبَرَ يَسُوعَ شَخْصِيَّةً ذَاتَ شَأْنٍ .

الفراق بين المسيحية واليهودية

فِي مُنْتَصَفِ الْقَرْنِ 2 الْمِيلَادِيِّ ، بَدَأَتْ الْمَسِيحِيَّةُ بِعَمَلِيَّةٍ تَدْرِيجِيَّةٍ لِتَشْكِيلِ الْهُويَّةِ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُؤَدِّيَ
إِلَى إِنْشَاءِ دِينٍ مُنْفَصِلٍ وَمُسْتَقِلٍّ عَنِ الْيَهُودِيَّةِ . فِي الْبِدَايَةِ ، كَانَ الْمَسِيحِيُّونَ وَاحِدَةً مِنْ الْعَدِيدِ مِنْ
مَجْمُوعَاتِ الْيَهُودِ الْمَوْجُودَةِ فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْإِمْبْرَاطُورِيَّةِ الرَّومَانِيَّةِ . شَهِدَ الْقَرْنُ 2 الْمِيلَادِيِّ تَغْيِيرًا فِي
الْتَّرْكِيبَةِ السُّكَّانِيَّةِ ، وَإِذْخَالَ التَّسْلُسُلِ الْهَرَمِيِّ الْمَوْسَسِيِّ ، وَإِنْشَاءِ الْعَقِيدَةِ الْمَسِيحِيَّةِ . الْمَسِيحِيَّةُ فِي
الْقَرْنِ الْأَوَّلِ الْمِيلَادِيِّ كَانَ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَبِيًّا يَهُودِيًّا بَشَرًا بِمَلَكُوتِ اللَّهِ الْوَشِيكَ (مَلِكُ إِيْلِهِ إِسْرَائِيلَ
عَلَى الْأَرْضِ) ، الَّذِي تَبَيَّنَ بِهِ سَفَرُ الْأَنْبِيَاءِ الْيَهُودِ . ادَّعَى الْأَنْبِيَاءُ أَنَّ اللَّهَ سَيَدْخُلُ لِإِعَادَةِ إِسْرَائِيلَ إِلَى
مَجْدِهَا الْمَاضِي فِي الْأَيَّامِ الْآخِرَةِ . وَكَانَ سَيُنشِئُ شَخْصِيَّةَ الْمَسِيحِ (بِمَعْنَى " الْمَسُوحِ ") ، وَهُوَ
سَلِيلُ الْمَلِكِ دَاوُدَ (حَوْلِي 1000 قَبْلَ الْمِيلَادِ) ، لِتِقَادَةِ الْحَرَكَةِ . بَعْدَ مَعْرَكَةِ أُخِيرَةِ وَهَزِيمَةِ الْأُمَمِ -
الْوَثْنِيِّينَ ، سَتَكُونُ هُنَاكَ قِيَامَةٌ لِلْمَوْتَى ، وَدِينُونَةٌ نَهَائِيَّةٌ ، وَسَيَعِيدُ اللَّهُ الْخَطَّةَ الْأَصْلِيَّةَ (جَنَّةُ عَدْنِ)
لِلْأَنْبَرَارِ عَلَى الْأَرْضِ . سَيَحْكُمُ عَلَى الْأَشْرَارِ بِالْإِبَادَةِ ، جَهَنَّمَ (الْجَحِيمِ الْيَهُودِيِّ) . قَبْلَ بَعْضِ الْيَهُودِ
الِدَّاعَاءِ بِأَنَّ يَسُوعَ هُوَ مَسِيحُهُمْ ، لَكِنَّ الْأَغْلَبِيَّةَ لَمْ تَقْبَلْ بَعْدُ (مَوْتِ يَسُوعَ) ، بَدَأَ تَلَامِيذُهُ بِتَعْلِيمِ رِسَالَتِهِ
فِي أُورُشَلِيمَ وَمُدُنِ شَرْقِ الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمَوْسَطِ . وَأَضَافُوا تَبْيِيهُ هَامَّ مَفَادِهِ انِ الْإِيمَانِ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ
سَيُؤَدِّي إِلَى قِيَامِهِ الْفَرْدِ إِلَى حَيَاةٍ أُخْرَى سَعِيدَةٍ . مَعَ رِسَالَةِ يَهُودِيَّةٍ لِلْفِدَاءِ (وَصَفَهَا الْعُلَمَاءُ بِأَنَّهَا نَهَائِيَّةٌ

العالم ") ، اقترَب المُبشرون الأوائل من مُجمَعات الكَنيسِ اليَهودي التي تأسست في الفَترَة الهلنسيَّة . كانوا سيواجهون مَجْموعاتٍ مُختلفة من اليَهود الذين لديهم وُجُهاتُ نظرهم الفرديَّة عن المسيح ومَلَكوت الله . لا يُمكننا التَّحقُّق من الأرقام ، ولكن على ما يبدو ، قَبْلُ بَعْضِ اليَهودِ الادِّعاء بأن يسوع كان مَسِيحُهُمْ ، في حين أن الأغلبية لم تفعل ذلك . هناك العديد من الأسباب التي جعلت مُعظم اليَهود لا يَنضمُّون إلى هذه الحركَة : كانت هناك وُجُهاتُ نظرٍ مُختلفة حول المسيح ، بما في ذلك وظيفته ودوره في خُطَّةِ الله . تراوحت الآراء بين ملكٍ مُحاربٍ مثل داود ، تجسيدا للحكمة ، وتَسجيدا لملائكي موجودٍ مُسبقًا ومسؤولٍ عن الدينونة في الأيام الأخيرة (على سبيل المثال ، "ابن الإنسان" في أدب أخنوخ) . كان حزبُ الفريسيين قد روجَ إيمانًا بقيامة جميع الأموات ، لكنَّهُ سيحدثُ في الأيام الأخيرة كجزءٍ من سيناريو كُلِّي . قيامة رجلٍ من القبر لا يُشيرُ إلى أن الساعَة قد أتت . افترض العديد من اليَهود الذين بحثوا عن الخلاص في شخصيَّة المسيح أن هذا سيُشملُ تدميرَ نظام (رومًا) ، لكن هذا لم يحدث .

كانت اللغة التي نطوي على كلمة "مملكة" خطيرة سياسيًا . في حين كانت رومًا مُتسامحة مع مُختلف الطوائف المحليَّة ، فإن أي شيءٍ أثار الحُشود لمملكةٍ أُخرى كان خيانة . لقد توصل اليَهود منذ فترةٍ طويلة إلى طُرُقٍ للعائش مع الحكومة الرومانيَّة أينما كانوا . منح مرسومٌ صادرٍ عن يوليوس قيصر (100 - 44 قبل الميلاد) المُجمَع اليَهودي الأذن باتباع عادات أسلافهم ، وهو إعفاءٌ من طوائف الدولة . كان ضمنيًا في المرسوم هو أن اليَهود لن يَبشِروا (يَبْحَثون عن المُتحوّلين) .

يقول أحد الباحثين (كان يسوع قد مات بالصليب ، العقاب الروماني على الخيانة . وكما كتب بولس الرسول ، كانت هذه "حجر عثرة" ، وفضيحة لكل من اليهود والأمم . في وقت مبكر ، لشرح معاناة يسوع وموته ، لجأ المسيحيون إلى مقاطع "الخدم المثلّم" في أشعياء . هذا الخادم (الذي يرمز إلى أمة إسرائيل في ذلك الوقت) تعرّض للتعذيب والقتل بسبب خطايا الأمة . ثم قام الله من بين الأموات لإشاركه عرشه . ادعى المسيحيون أن الخادم المثلّم كانت نتبوا يسوع . في إرساليات بولس ، علم أن هذا الخادم كان مظهرًا من مظاهر الله نفسه في شكل يسوع على الأرض . بدأ المسيحيون في عبادة يسوع (الذي يُعبّر الآن "المسيح" ، (كريستوس في اليونانية ل "المسيح" العبري) كما في الله . رفض معظم اليهود هذا التأييد للمسيح) .

البعثات إلى الأمم - الوثنيين (غير اليهود)

في القرن الأول الميلادي ، كان المسيحيون أساسًا مجرد طائفة أخرى من اليهودية . حدثت نقطة تحول رئيسية عندما حدث شيء غير متوقع . غالبًا ما انضم الوثنيون (غير اليهود) إلى أنشطة المعابد والمهرجانات في هذه المدن . تم تصنيف هؤلاء الأفراد على أنهم "خائفون من الله" في أعمال الرسل . أولئك الذين احترموا إله إسرائيل ولكنهم استمروا في المشاركة في عباداتهم الأصلية . وبما أن الكنيس القديم في إسرائيل والشّات لم يكن مكانًا مقدسًا ، لم يكن هناك مانع من حضورهم ، لكن المعابد اليهودية لم تجند أو تسعى بنشاط إلى تحويل الأمم . سيكون لبعض الأمم مكان في إسرائيل

الأُخْرَوِيَّة (عِنْدَمَا جَاءَ الْمَلَكُوتُ) ، وَلَكِنْ لَيْسَ قَبْلَ ذَلِكَ الْوَقْتِ . يَتَوَقَّعُ الْعُلَمَاءُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأُمَّمِ كَانُوا سَيَسْمَعُونَ تَعَالِيمَ يَسُوعَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ مِنْ خِلَالِ وُجُودِهِمْ فِي الْمَجَامِعِ . وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ ، بَدَأَ الْأُمَّمِ الَّذِينَ لَا يُخْشَوْنَ اللَّهَ يُبَدُونَ إِهْتِمَامَهُمْ . بِسَبَبِ هَذَا الْإِهْتِمَامِ غَيْرِ الْمَتَوَقَّعِ ، أُنْبِغَ كُلُّ مَنْ بُولُسُ وَلَوْ قَاعِنُ اجْتِمَاعِ فِي أُورُشَلِيمَ - الْقُدُسُ (حَوَالِي 49 مِيلَادِيَّةً) لِتَحْدِيدِ كَيْفِيَّةِ صَمِّ هَؤُلَاءِ النَّاسِ . تَضَمَّنَ التَّحْوُلُ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ عِلَامَاتِ الْهُويَّةِ الْجَسَدِيَّةِ لِلْيَهُودِ : الْخِتَانُ ، وَالْقَوَائِنُ الْغِذَائِيَّةُ ، وَالْإِحْتِقَالُ بِالسَّبْتِ . فِي أَعْمَالِ الرَّسْلِ ، وَخِلَالِ مُجْمَعِ أُورُشَلِيمَ ، أَصْدَرَ يَعْقُوبُ ، شَقِيْقُ يَسُوعَ ، قَرَارًا بِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْأُمَّمِ لَنْ يُضْطَرُّوا إِلَى التَّحْوُلِ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ . وَمَعَ ذَلِكَ ، كَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ "يَمْتَنِعُوا عَنِ الطَّعَامِ الْمَلُوثِ بِالْأَصْنَامِ ، وَعَنِ الْفُجُورِ الْجِنْسِيِّ ، وَعَنِ لُحُومِ الْحَيَوَانَاتِ الْمَخْنُوقَةِ وَعَنِ الدَّمِ " (أَعْمَالُ الرَّسْلِ 15 : 19 - 21) . كَانَتْ هَذِهِ عَنَاصِرُ طَهَارَةٍ طُقُوسِيَّةٍ وَأَخْلَاقِيَّةٍ فِي شَرِيْعَةِ مُوسَى . كَانَتْ اللَّحُومُ فِي الْأَسْوَاقِ الْعَامَّةِ هِيَ الْأَصَاحِي الْمُبْتَنِيَّةُ مِنَ الْعِبَادِ . وَتَجَنَّبَ الْيَهُودُ أَيَّ شَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ .

العلاقات اليهودية - المسيحية في المجتمعات المبكرة

تُشِيرُ الْأَدَلَّةُ عَلَى رَسَائِلِ بُولُسَ (فِي خَمْسِينَاتِ وَسِتِّينَاتِ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ الْمِيلَادِي) وَالْأَنَاجِيلِ وَأَعْمَالِ الرَّسْلِ إِلَى الْأُمَّمِ أَنَّ عَدَدَ الْمُؤْمِنِينَ الْيَهُودِ زَادَ بِسُرْعَةٍ . عَلَى الرَّغْمِ مِنَ الْمَرْسُومِ ، اسْتَمَرَّتِ التَّوَرَاتُ بَيْنَ الْيَهُودِ الْمَسِيحِيِّينَ (أُولَئِكَ الَّذِينَ دَعُوا إِلَى التَّحْوُلِ الْكَامِلِ) وَالْمَسِيحِيِّينَ مِنَ الْأُمَّمِ (أُولَئِكَ الَّذِينَ تَمَسَّكُوا بِجَمْعِ الْقُدُسِ) وَوَفَّقَ تَفْسِيرِ هَؤُلَاءِ الرِّسْلِ فَإِنَّ اللَّهَ تَغَاطَى عَنْ قَبُولِهِمْ دُونَ عِلَامَاتِ هُويَّةِ يَهُودِيَّةٍ . وَمَعَ ذَلِكَ ، بِمُجَرَّدِ تَضَمُّنِهِمْ ، كَانَ عَلَيْهِمْ اتِّبَاعُ أَخْلَاقِيَّاتِ وَأَدَابِ شَرِيْعَةِ مُوسَى .

تَسَبَّطُ آراءَ بُولُسَ حَوْلَ الْمَمْلَكَةِ الْوَشِيكَةِ ، وَدَعْوَتُهُ إِلَى عِبَادَةِ يَسُوعَ ، وَإِدَاتُهُ لِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ فِي تَوْتَرَاتٍ فِي كُلِّ مِنْ الْمَجَامِعِ وَالْمِيَدَانِ الرَّومَانِيِّ .

اتساع الهوة بين اليهودية والمسيحية

إِبْتِدَاءً مِنْ مَرْقُسَ (كَتَبَ حَوْلِي 70 مِيلَادِيَّةً) ، نَلْقَى الْأَنْجِيلَ الْأَرْبَعَةَ بِاللُّومِ فِي (مَوْتِ يَسُوعِ) أَمَّا عَلَى الْقِيَادَةِ الْيَهُودِيَّةِ (الْفَرِيسِيِّينَ وَالصَّدُوقِيِّينَ) أَوْ بِشَكْلِ جَمَاعِيٍّ عَلَى الْيَهُودِ (إِنْجِيلِ يُوحَنَّا) . فِي الْعُقُودِ الْفَاصِلَةِ بَيْنَ (مَوْتِ يَسُوعِ) وَالْإِنْجِيلِ الْأَوَّلِ ، لَمْ يَأْتِ الْمَلَكُوتُ . مَا جَاءَ بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ ، كَانَ رُومًا . نَارَ الْيَهُودِ ضِدَّ الْأَمْبِرَاطُورِيَّةِ الرَّومَانِيَّةِ فِي الثَّوْرَةِ الْيَهُودِيَّةِ الْكُبْرَى عَامَ 66 مِيلَادِيَّةً ، وَفِي عَامِ 70 مِيلَادِيَّةً ، تَمَّ تَدْمِيرُ كُلِّ مِنَ الْقُدْسِ وَ(هَيْكَلِ سُلَيْمَانَ) . الْقَى كِتَابُ الْأَنْجِيلِ بِاللُّومِ عَلَى الْيَهُودِ فِي هَذِهِ الْكَارِثَةِ لِأَنَّهُمْ رَفَضُوا يَسُوعَ كَمَسِيحًا . لَقَدْ أَدَانَ الْأَنْبِيَاءُ إِسْرَائِيلَ بِاسْتِمْرَارٍ بِسَبَبِ خَطَايَاهَا . أَصْبَحَ مَاضِي إِسْرَائِيلَ هُوَ التَّفْسِيرُ لِلْحَاضِرِ . حِصَارٌ وَدَمَارٌ الْقُدْسِ مَعَ تَدْمِيرِ الْمَعْبَدِ ، لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُمْكِنِ تَنْفِيذَ الطُّقُوسِ الْقَلْبِدِيَّةِ . شَهَدَتْ هَذِهِ الْفَتْرَةَ بَدَايَةَ نِظَامَيْنِ مُبَاعِدَيْنِ .

الْيَهُودِيَّةُ الْحَاخَامِيَّةُ رَكَزَتْ عَلَى تَحْلِيلِ وَتَفْسِيرَاتِ كُتُبِهِمُ الْمُقَدَّسَةِ . وَ الْمَسِيحِيَّةُ بَدَأَتْ فِي الظُّهُورِ كَدِينٍ مُتَمَيِّزٍ عَنِ الْيَهُودِيَّةِ الْأَسَافَةِ وَأَبَاءِ الْكَنِيسَةِ مَيَّزَ الْمَسِيحِيِّونَ أَنْفُسَهُمْ عَنِ كُلِّ مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالطَّوَائِفِ الْأَصْلِيَّةِ بِأَنْتَخَابِهِمْ أَسَافَةً لِقِيَادَةِ مُجْتَمَعَاتِهِمْ (كَمَا يَشْهَدُ عَلَى ذَلِكَ 1 و 2 تِيمُوثَاوُسَ وَتَيْطُسَ) . اسْتَنْدَتْ الْمُجْتَمَعَاتُ الْمُبَكَّرَةُ فِي تَمُودِجِهَا إِلَى إِدَارَةِ الْمُقَاتَعَاتِ الرَّومَانِيَّةِ ، حَيْثُ كَانَ " الْمَشْرِفُ " (الْأُسْقُفُ) مَسْئُولًا عَنِ قِسْمِ مِنَ الْمُقَاتَعَةِ ، أَبْرَشِيَّةً . اسْتَمَرَ أَبَاءُ الْكَنِيسَةِ فِي اسْتِخْدَامِ الْكُتُبِ الْمُقَدَّسَةِ الْيَهُودِيَّةِ لِتَفْسِيرَاتِهِمْ لِلْمَسِيحِيَّةِ . عَلَى عَكْسِ الْكَهَنَةِ فِي الْهَيْكَلِ السَّابِقِ فِي الْقُدْسِ وَالْكَهَنَةِ فِي

الطوائف الأصلية ، كان لدى الأساقفة المسيحيين قوة فريدة لغفران الخطايا على الأرض . من خلال طقوس أسرار الكهنوت ، كانوا يعتقدوا أن روح الله دخلت هؤلاء الرجال . من المرجح أنها مستمدة من قصة بطرس الذي وضع يديه على السامريين في أعمال الرسل . سهل كهنة الطوائف الأصلية وكذلك الكهنة في الهيكل التوبة والمغفرة ، لكن هؤلاء الفاعلين لم يكن لديهم سلطة مستقلة لغفران الخطايا . بالنسبة لليهود ، كان إله إسرائيل وحده هو الذي يملك هذه القوة . بحلول منتصف القرن الـ 2 للميلادي ، سيطرت المسيحية المبكرة من قبل القادة الذين لم يعد لديهم أي روابط عرقية أو طائفية مع إسرائيل أو اليهودية . كان القادة من المتحولين من الأمم الذين تلقوا تعليمهم في مختلف مدارس الفلسفة . أطلق عليهم اسم "آباء الكنيسة" باثر رجعي لمساهماتهم في المسيحية ، وكان أكثر الكتاب إنتاجاً هم : القديس جاستن الشهيد (روما ، 100 - 165 ميلادية) ، الأسقف إيرينيوس (ليون ، 130 - 202 ميلادية) ، والأسقف ترتليان (قرطاج ، 155 - 220 ميلادية) . ظلت الخلفية في اليهودية مهمة للغاية للكنيسة المسيحية في القرن الثاني . كان (إله يسوع الناصري) (وأتباعه) نفسه إله اليهودية والكتب المقدسة اليهودية . وإعلان المسيحية عليها أن تظل مرتبطة بإعلان اليهودية . استمر آباء الكنيسة في استخدام الكتب المقدسة اليهودية لتفسيراتهم للمسيحية واستخدموا طريقة شائعة تُعرف باسم الرمزية . الرمزية هي أداة أدبية تُستخدم فيها شخصية أو رمز أو مكان أو حدث لخلق معنى أوسع أو جديد . تعلموا في الكتب المقدسة اليهودية ، وطبقوا التفسير ، وهو تحليل مفصل لمقطع لتقديم تفسير جديد . كما استخدموا التصنيف أو تحديد الأنواع في البنية السرديّة . على سبيل المثال ، أصبح ربط إسحاق نوعاً يشير إلى يسوع على الصليب . الاضطهاد المسيحي بدأ من عهد الإمبراطور الروماني دوميتيان (حكم 81 - 96 ميلادية) ، اضطهدت روما المجتمعات المسيحية

بِسَبَبِ إِحَادِهَا ، وَرَفُضِهَا الْمُشَارَكَةَ فِي عِبَادَةِ الْأَمْبِرَاطُورِيَّةِ . عِنْدَ تَقْوِيضِ الْعِبَادَةِ الْأَمْبِرَاطُورِيَّةِ ،
أَدْرَكَتْ رُومًا أَنَّ هُنَاكَ مَجْمُوعَةً مُتَمَيِّزَةً مِنَ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ لَمْ يَكُونُوا يَهُودًا (غَيْرَ مَخْتُونِينَ) وَلَكِنَّهُمْ
تَوَقَّفُوا أَيْضًا عَنِ الْمُشَارَكَةِ فِي طَوَائِفِ الْأَجْدَادِ . وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ ، كَانَ لَدَى رُومًا الْمُحَافَظَةَ تَحِيْزُ
تَقَافِيٍّ وَدِينِيٍّ ضِدَّ الْأَدْيَانِ الْجَدِيدَةِ ، وَخَاصَّةً تِلْكَ الْقَادِمَةِ مِنَ الشَّرْقِ .

كَانَ هَدَفُ آبَاءِ الْكَنِيسَةِ هُوَ إِقْنَاعُ رُومًا بِأَنَّ الْمَسِيحِيِّينَ لَيْسُوا جُدُدًا - فَقَدْ كَانُوا قَدِيمِينَ مِثْلَ الْيَهُودِيَّةِ
نَفْسُهَا - وَيَجِبُ أَنْ يَتَمَعَ الْمَسِيحِيُّونَ بِنَفْسِ الْأِعْفَاءِ مِنْ طَوَائِفِ الدَّوْلَةِ مِثْلَ الْيَهُودِ ، لِأَنَّ الْمَسِيحِيِّينَ كَانُوا
"verus Isreal" يَعْنِي : إِسْرَائِيلَ الْحَقِيقِيَّةَ . يَعْرِفُ النَّدَاءُ الْمَوْجَّهَ إِلَى رُومًا لِلْحُصُولِ عَلَى نَفْسِ
الْأِعْفَاءِ مِنْ طَوَائِفِ الدَّوْلَةِ مِثْلَ الْيَهُودِ بِشَكْلِ جَمَاعِيٍّ بِاسْمِ أَدَبِ أَدِفِسُوسِ ، أَوْ "ضِدَّ الْخُصُومِ الْيَهُودِ
" . دَعَا الْكُتَّابُ إِلَى جَدَلِ الْأَنْبِيَاءِ (كُلُّ خَطَايَا الْيَهُودِ) وَالْأَنَاجِيلِ وَرَسَائِلِ بُولُسِ . وَبِإِنْبَاعَادِ بُولُسِ عَنْ
سِيَاقِهِ التَّارِيخِيِّ ، اسْتَحْدَمَ آبَاءُ الْكَنِيسَةِ اِتِّقَادَ بُولُسِ لِلْيَهُودِ الْمَسِيحِيِّينَ كَدَخْضٍ ضِدَّ جَمِيعِ الْيَهُودِ
وَالْيَهُودِيَّةِ . مِثَالٌ عَلَى إِعَادَةِ تَفْسِيرِهِمْ لِلْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ وَاضِحٍ فِي قِصَّةِ الْوَصَايَا الْعَشْرِ . عِنْدَمَا تَلَقَّى
مُوسَى الْوَصَايَا عَلَى جَبَلِ سَيْنَاءَ ، كَانَ هُنَاكَ عَشْرَةٌ فَقَطُ . بَعْدَ أَنْ وَجَدَ بُنْيَ إِسْرَائِيلَ فِي عِبَادَةِ
الْأَصْنَامِ ، حَطَمَ الْأَوَاحَ . عِنْدَمَا عَادَ لِلْحُصُولِ عَلَى مَجْمُوعَةٍ أُخْرَى ، عِنْدَهَا تَمَّتْ إِضَافَةُ 603 آخِرِينَ
لِمُعَاقِبَةِ الْيَهُودِ . لَقَدْ حَزَرَ الْمَسِيحُ هَذِهِ الْأَعْبَاءَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْحَقِيقِيِّينَ ، وَبِالتَّالِيِ كَانَ عَلَى الْمَسِيحِيِّينَ
فَقَطُ أَنْ يَتَّبِعُوا الْعَشْرَةَ الْأَوَائِلَ .

فِي عَهْدِ هَادْرِيَانِ (حُكْمُ 117 - 138 مِيلَادِيَّةً) ، نَارَ الْيَهُودُ ضِدَّ رُومًا تَحْتَ قِيَادَةِ شَمْعُونُ بَارُ كُوحْبَا (135 - 137 مِيلَادِيَّةً) . انْتَهَتْ ثَوْرَةُ بَارُ كُوحْبَا ، مِثْلُ الثَّوْرَةِ الْأُولَى ، بِكَارِثَةٍ . أَعَادَ هَادْرِيَانُ تَسْمِيَةَ

الْقُدْسِ بِاسْمِ عَائِلَتِهِ إِبِلِيَا كَابِتُولِينَا وَمَنْعَ جَمِيعِ الْيَهُودِ مِنَ الْعَيْشِ فِي الْقُدْسِ . ادَّعَى جَاسْتِنُ الشَّهِيدِ أَنَّهُ
 التَّمَيُّ تَرِيفُو ، وَهُوَ لَاجِيٌّ يَهُودِيٌّ فَرَّ إِلَى رُومًا بَعْدَ الثَّوْرَةِ . وَلَا يُمَكِّنُنَا تَارِيحِيًّا كَمَا يَقُولُ بَعْضُ الْمُؤَرِّحِينَ أَنَّ
 تَتَأَكَّدُ مِنْ وُجُودِ هَذَا الْفَرْدِ . قَدْ تَعَكَّسَ رُدُودُ تَرِيفُو وَحُجُجُهُ بَعْضَ وُجُوهَاتِ النَّظَرِ الْحَاخَامِيَّةِ الْمُبَكَّرَةِ
 فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ . أَصْبَحَ حِوَارُ جَاسْتِنِ مَعَ تَرِيفُو وَاحِدًا مِنْ أَهَمِّ نُصُوصِ أَدْفِيرَسُوسِ فِي تَعْرِيفِ
 الْمَسِيحِيَّةِ صِدْقِ الْيَهُودِيَّةِ . شَرَعَ فِي تَعْلِيمِ تَرِيفُو الْمَعْنَى الْحَقِيقِيَّةَ لِلْكِتَابِ الْمُقَدَّسَةِ الْيَهُودِيَّةِ مِنْ خِلَالِ
 الرَّمْزِيَّةِ وَالتَّفْسِيرِ . مَعَ التَّفْسِيرِ الْمَجَازِيِّ الصَّحِيحِ لِلْكِتَابِ الْمُقَدَّسَةِ الْيَهُودِيَّةِ ، فِي كُلِّ مَكَانٍ ظَهَرَ فِيهِ "اللَّهُ
 فِي النُّصُوصِ ، كَانَ فِي الْوَاقِعِ ، " الْمَسِيحُ الْمَوْجُودُ مُسَبِّقًا " . كَانَ الْمَسِيحُ هُوَ الَّذِي تَحَدَّثَ إِلَى
 إِبْرَاهِيمَ ، وَعِنْدَمَا سَمِعَ مُوسَى الصَّوْتِ مِنَ الْأَدْغَالِ الْمُحْرِقَةِ ، كَانَ هَذَا هُوَ الْمَسِيحُ فِي ظُهُورِ سَابِقِ اللَّهِ
 عَلَى الْأَرْضِ . مِنْ خِلَالِ أَسَالِيْبِهِ ، اثْبَتَ أَنَّ جَمِيعَ أَنْبِيَاءِ إِسْرَائِيلَ قَدْ تَنَبَّأُوا بِمَجِيءِ الْمَسِيحِ كَمَخْلَصٍ .
 أَرْسَلَ اللَّهُ الْمَسِيحَ إِلَى الْعَالَمِ لِإِلْغَاءِ الْمُمَارَسَاتِ الْفَاسِدَةِ لِلْيَهُودِ ، وَكَدَلِيلٍ ، أَشَارَ إِلَى حَقِيقَةِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ
 سَمَحَ لِرُومًا بِهَزِيمَةِ الْيَهُودِ مَرَّتَيْنِ . إِضَافَةً إِلَى فَسَادِهِمْ ، اتَّهَمَ الْيَهُودَ الْآنَ بِجَرِيمَةِ الْقَتْلِ (قَتْلُ اللَّهِ) .
 أَغْلَنَ جَاسْتِنُ الشَّهِيدُ أَنَّ الْمَسِيحِيِّينَ هُمْ "إِسْرَائِيلُ الْحَقِيقِيَّةُ" وَهَكَذَا اغْتَضَبَ الْمَسِيحِيُّونَ مَكَانَ الْيَهُودِ
 كَمُخْتَارِينَ مِنَ اللَّهِ . وَلِهَذَا السَّبَبِ ، لَمْ يَعْذُ لَدَى الْيَهُودِ الْقُدْرَةَ عَلَى تَفْسِيرِ كُتُبِهِمُ الْمُقَدَّسَةَ بِشَكْلِ
 صَحِيحٍ . هَذَا هُوَ الْوَقْتُ الَّذِي أَصْبَحَ فِيهِ الْعَهْدُ الْقَدِيمُ مُرْتَبِطًا بِالْعَهْدِ الْجَدِيدِ (النُّصُوصُ الْمُقَدَّسَةُ
 لِلْمَسِيحِيِّينَ) مُنْذُ هَذِهِ اللَّحْظَةِ مِنَ الزَّمَنِ ، رَوَّحَ الْمَسِيحِيُّونَ لِلْأَهْوَاتِ الْفَاقِقِ أَوْ الْأَهْوَاتِ الْبَدِيلِ . لَقَدْ
 اسْتَبَدَلَ اللَّهُ حِمَايَتَهُ وَمُحَابَاتَهُ لِلْيَهُودِ بِالْمَسِيحِيِّينَ . الْيَهُودُ كَمَهْرُطَقِينَ

اخترع آباء الكنيسة أيضا المفهومين التوايمن للارثوذكسية (الاعتقاد الصحيح) والهرطقة (من اليونانية haeresis ، بمعنى "مدرسة الفكر") . في عمل الأسقف إرينيوس المكون من خمسة مجلدات ، ضد كل الهرطقات ، كان اليهود أول من تم إدانتهم كمهرطقين لأنهم "يتبعون والدهم ، الشيطان" (4 ، 6) . وقد أعفي الأنبياء من هذه الشيطنة لليهود . كانوا مسيحين أوليين لأنهم تنبؤوا بالمسيح . على الرغم من كل هذه الحجج ، لم تعترف روما بالمسيحين كيهود حقيقيين . لم يتم ختان المسيحين الأميين . توقف الاضطهاد فقط بعد تحول قسطنطين إلى المسيحية في عام 312 ميلادية ، عندما تبنى آراء آباء الكنيسة .

معمودية قسطنطين

يغيب عن كتابات آباء الكنيسة أي دليل على العلاقات المعاصرة بين اليهود والمسيحين في المجتمعات نفسها . كانت حججهم الجدلية مستمدة دائما من الكتاب المقدس . وبعيدا عن آراء قادتهم ، يبدو أن اليهود والمسيحين استمروا في الممارسة القديمة المتمثلة في اختلاط الطوائف العرقية مع بعضها البعض . أذان مجمع أفيرا في إسبانيا (312 م) للمسيحين لأن الحاخامات يباركون حقولهم . في عظة عيد الفصح في عام 386 ميلادية ، انتقد الأسقف يوحنا خريستوسوم في انطاكية مسيحييه لحضورهم الكنيس يوم السبت ثم مجيئهم إلى الكنيسة يوم الأحد . يمكن أيضا فهم هذه الكتابات على أنها محاولة لوقف هذا الاختلاط . كان الجانب المظلم المؤسف من هذه الفترة هو التطبيق المستمر لآراء آباء الكنيسة التي ساهمت في معاداة السامية المسيحية خلال العصور القديمة المتأخرة والعصور الوسطى وما بعدها .

المسيحية كدين جديد

بدأت المسيحية (بالإنجليزية : Christianity) كدّهب في يهودية الهيكل الثاني في القرن الأول في مقاطعة يهودا في الإمبراطورية الرومانية ، إذ انتشرت من هناك إلى جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية وحتى خارجها .

المنشأ

من الناحية التاريخية ، تُسمى السنوات التي تلت ظهور عيسى عليه السلام حتى وفاة آخر تلاميذه الثاني عشر بعصر الرسل ، بعد البعثات التبشيرية المسيحية . بحسب ما جاء في سفر أعمال الرسل (الموثوقية التاريخية لأعمال الرسل المختلف عليها) ، فقد بدأت كنيسة القدس في عيد العنصرة مع حوالي 120 من المؤمنين مجتمعين في « غرفة علوية » ، يُعقد البعض أنها عليّة صهيون ، حيث يستقبل الرسل الروح القدس بعد (موت وقيامه يسوع) لنشر رسالته . تصوّر كتابات العهد الجديد ما تُسميه الكنائس المسيحية الأرثوذكسية بالإرسالية الكبرى ، وهو حدث يتم فيه وصف ظهورات يسوع بعد القيامة ويوعز إلى تلاميذه بنشر رسالته التبشيرية بمجيء ملكوت الله إلى جميع أمم العالم . إن النسخة الأكثر شهرة من الإرسالية الكبرى موصّحة في كتاب ماثيو 28 : 16 - 20 ، إذ يدعو يسوع أتباعه للصعود إلى جبل في منطقة الجليل إلى ضم الأمم جميعها وتعميدها باسم الأب والابن والروح القدس . سجل تحول بولس إلى المسيحية لأول مرة في النصوص 9 : 13 - 16 . قام بيتر بتعميد الكورنيليوس الروماني كرنيليوس ، الذي يُعتبر أول جنّايل (وثني) يتحول إلى المسيحية في النص 10 . وبناءً على هذا ، تم تأسيس كنيسة أنطاكية . ومن المُعتقد أيضاً أنه تم وضع مصطلح (مسيحي) هناك أيضاً .

الْبَحْثَاتُ التَّبَشِيرِيَّةُ

انتشر النشاط التبشيري المسيحي وأنشأ ببطء مراكز مبكرة للمسيحية مع الجنائيل في النصف الشرقي من الإمبراطورية الرومانية الناطق باللغة اليونانية في معظمه ، ثم في جميع أنحاء العالم الهيلينستي وصولاً إلى خارج الإمبراطورية الرومانية . جمعت المعتقدات المسيحية المبكرة في الكرازة (البشارة) ، ويوجد قسم منها محفوظ في كتاب العهد الجديد . انتشرت أولاً الرواية الإنجيلية الشفاهية ، وربما كُتبت في الأصل باللغة الآرامية ، لكن سرعان ما تمت كتابتها باللغة اليونانية . اتسع نطاق البعثة اليهودية المسيحية مع مرور الوقت . بينما اقتصر رسالة عيسى عليه السلام على جمهور يهودي تواجد في منطقتي الجليل ويهوذا ، وبعد وفاته قام أتباعه بتوسيع نطاق التواصل بين كافة أنحاء إسرائيل ، وفي نهاية المطاف بين جميع يهود الشتات في العالم ، معتقدين أن المجيء الثاني ليسوع لن يحدث إلا عندما يتلقى جميع اليهود الإنجيل الخاص بهم . سافر الرسل والمبشرين إلى الشتات اليهودي حول البحر الأبيض المتوسط واجتذبوا في البداية المتحولين من اليهود . وخلال 10 سنوات من وفاة المسيح ، اجتذب الرسل المتحمسين للتحويل إلى المسيحية من القدس وأنطاكية وأفيسس وكورنث وسالونيك وقبرص وكرث والإسكندرية وروما . أنشئت أكثر من 40 كنيسة بحلول عام 100 ميلادي ، معظمها في آسيا الصغرى مثل كنائس آسيا السبع وبعضها الآخر في اليونان وإيطاليا .

وفقاً لفريدريكسن ، عندما وسع المسيحيون المبشرون في وقت مبكر جهودهم التبشيرية ، أصبحوا أيضاً على اتصال مع الوثنيين الذين اجتذبوا إلى الديانة اليهودية . وفي نهاية المطاف ، أصبح الوثنيون مشمولين في الجهد التبشيري لليهود الهلنستيين بهدف ضم « جميع الأمم » إلى بيت الله . لعب

الهيلينستيون ، من يهود الشتات الناطقين باللغة اليونانية فقط والمنتسبين إلى حركة يسوع الأولى في القدس ، دورًا هامًا في الوصول إلى الوثنيين والجمهور اليوناني وخاصة في مدينة أنطاكية ، التي تميزت بوجود مجتمع يهودي كبير إلى جانب مجتمع كبير من الجنتايل «المشركين بالله» . من أنطاكية ، بدأت المهمة التوجه إلى الجنتايل ، بما في ذلك بولس ، الذي من شأنه أن يُغيّر مبادئ الحركة المسيحية المبكرة ، وتحويلها في نهاية المطاف إلى دين وثني جديد . وفقًا لدون ، في غضون عشرة سنوات بعد (موت يسوع) ، «بدأت الحركة المسيحية الجديدة التي ركزت على تصور جديد ليسوع»
ويمكن البدء من أنطاكية للحديث عن الحركة الجديدة باعتبارها «المسيحية» .

بولس المؤسس الأول وضم الأمم

عدّ بولس المسؤول عن جلب المسيحية إلى أفسس وكورنث وفيلبي وسالونيك . وفقًا للآري هورتادو بقوله «إن بولس قد رأى إحياء يسوع بأنه بمثابة إيدانا بتنبؤات علم الأخرى من قبل أنبياء الكتاب المقدس التي تحوّل فيها دول «الجنتايل» الوثنية من أعماقها لتؤمن بالرب الأواحد لكل إسرائيل (زكريّا : 8 : 20 - 23) ، إذ رأى بولس في نفسه دعوة خاصة من الله أن يعلن القبول الإلهي للجنتايل ويستدعيهم للجوع إليه . وفقًا لكريستير ستينداهل ، فإن السبب الرئيسي لكتابات بولس عن دور يسوع المسيح وخلصه بالإيمان ليس الضمير الفردي للمخطئين الإنسانيين وشكوكهم حول اختيارهم من قبل الله أولاً ، بل تكمن المشكلة الرئيسية لذلك في اجتذاب الجنتايل (اليونانيين) من منطري التوراة للخضوع إلى السلطة الإلهية . عارض اليهود المسيحيون «العبريين» تفسيرات بولس مثلما وردت في الأبوية . مهد تخفيف المتطلبات في المسيحية البولسية الطريق أمام ظهور كنيسة مسيحية أكبر ،

تَمَتَّدَ إِلَى مَا هُوَ أَبْعَدُ بِكَثِيرٍ مِنَ الْمُجْتَمَعِ الْيَهُودِيِّ . يُعَكِّسُ تَضَمُّنُ الْجَنَائِلِ فِي نُصُوصِ لُوقَا ، وَهِيَ مُحَاوَلَةٌ لِلْإِجَابَةِ عَلَى مُشْكَلَةِ لَاهُوتِيَّةٍ ، أَلَا وَهِيَ كَيْفَ أَنْ مَسِيحِي الْيَهُودِ أَصْبَحُوا تَابِعِينَ لِكَنِيسَةٍ غَيْرِ يَهُودِيَّةٍ ؛ ذَلِكَ أَنَّ الْجَوَابَ الَّذِي يُقَدِّمُهُ ، بِمَوْضُوعِهِ الْمَحْورِيِّ ، هُوَ أَنَّ رِسَالَةَ الْمَسِيحِ قَدْ أُرْسِلَتْ إِلَى الْجَنَائِلِ بَعْدَ أَنْ رَفَضَهَا الْيَهُودُ فِي السَّابِقِ .

الانفصال عن اليهودية

ثَمَّةَ فَجْوَةٌ مَتَامِيَّةٌ بِطُءٍ بَيْنَ الْمَسِيحِيِّينَ مِنَ الْجَنَائِلِ وَالْيَهُودِ وَالْمَسِيحِيِّينَ الْيَهُودِ بَدَلًا مِنْ الْانْقِسَامِ الْمَفَاجِئِ . وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ يُعْتَقَدُ عَادَةً أَنْ بُولَسُ كَانَ قَدْ أَنْشَأَ كَنِيسَةً خَاصَّةً بِالْجَنَائِلِ ، الْأَمْرُ الَّذِي اسْتَعْرَفَهُ قَرُونًا طَوِيلَةً . أَدَّتْ هَذِهِ التَّوَرَاتِ الْمَتَامِيَّةِ إِلَى انْفِصَالٍ عَظِيمٍ يَكَادُ يَكُونُ قَدْ اكْتَمَلَ بِحُلُولِ الْوَقْتِ الَّذِي رَفَضَ فِيهِ الْيَهُودُ الْمَسِيحِيِّونَ الْانْضِمَامَ إِلَى ثَوْرَةِ بَار كُوحْبَا الْيَهُودِيَّةِ . يُنْظَرُ إِلَى بَعْضِ مِنْ هَذِهِ الْأَحْدَاثِ عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ مَفْصِلِيَّةً وَمَحْورِيَّةً فِي هَذَا الْانْفِصَالِ الْمُتَزَايِدِ بَيْنَ الْمَسِيحِيَّةِ وَالْيَهُودِيَّةِ . اقْتَرَضَتْ الْمَسِيحِيَّةَ مَفَاهِيمَ مِنْ كُلِّ مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالطَّوَائِفِ الْأَصْلِيَّةِ فِي أَفْكَارِهِمْ عَنِ الْكُونِ وَالْتَّضْحِيَّاتِ وَالصَّلَوَاتِ وَالطُّقُوسِ . فِكْرِيًّا ، اسْتَحْدَمُوا مَفَاهِيمَ وَمُصْطَلَحَاتِ الْفَلَسَفَةِ لِلدَّفَاعِ عَنِ الطَّبِيعَةِ الْعَالَمِيَّةِ لِلْمَسِيحِيَّةِ لِلْبَشَرِيَّةِ . لَكِنَّ الْمَسِيحِيَّةَ اخْتَلَفَتْ أَيْضًا عَنِ الْأَنْظُمَةِ الْقَدِيمَةِ . كَانَتْ الْقُوَّةُ الْمُرْتَفَعَةُ لِرِجَالِ الدِّينِ فَرِيدَةً مِنْ تَوْعِهَا . كَانَ لِجَمِيعِ الثَّقَافَاتِ الْقَدِيمَةِ وَجْهَاتِ نَظَرِهَا حَوْلَ الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ ، لَكِنَّ الْمَسِيحِيِّينَ ضَمَّنُوا رِحْلَةً سَعِيدَةً مِنْ خِلَالِ الْعَضُوبَةِ فِي مُجْتَمَعَاتِهِمْ . فِي نَفْسِ الْوَقْتِ الْقَدِيمِ (إِلَهَ إِسْرَائِيلَ) وَمَعَ الْجَدِيدِ (لَا لِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ) ، أَصْبَحَتْ الْمَسِيحِيَّةُ نِظَامًا جَدِيدًا تَمَامًا لِفَهْمِ مَكَانِ الْمَرْءِ فِي الْكُونِ . إِنَّ مَسَاهِمَاتِ آبَاءِ الْكَنِيسَةِ مُهِمَّةٌ لِمَا أَصْبَحَتْ فِيهَا بَعْدَ "عَقِيدَةِ مَسِيحِيَّةٍ" ، أَوْ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْمَبَادِيِ الَّتِي

تَقَهُمْ بَلَا جِدَالٍ عَلَى أَنَّهَا صَحِيحَةٌ . تَمَّ دَمِجُ أَفْكَارِهِمْ فِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ فِي قَانُونِ الْإِيمَانِ التِّيْقَاوِي (325مِيلَادِيَّةٌ) ، وَهُوَ بَيَانٌ لِمَا يَجِبُ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ جَمِيعُ الْمَسِيحِيِّينَ . فِي عَامِ 381مِيلَادِيَّةٌ ، أُصْدِرَ بُيُودُوسِيُوسُ الْأَوَّلُ (حُكْمٌ 379 - 395مِيلَادِيَّةٌ) مَرُسُومًا جَعَلَ الْمَسِيحِيَّةَ الدِّيَانَةَ الشَّرْعِيَّةَ الْوَحِيدَةَ فِي الْأَمْبِرَاطُورِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ . فِي التَّقْلِيدِ الْمَسِيحِيِّ ، يَعْرِفُ هَذَا بِاسْمِ انْتِصَارِ الْمَسِيحِيَّةِ .

وَخُلَاصَةُ الْقَوْلِ

بَعْدَ هَذَا السَّرْدِ التَّارِيخِيِّ الْمَطْوَلِ أَنَّ الْعَقْلَ الدِّيْنِيَّ الْيَهُودِيَّ الَّذِي اسْتَطَاعَ أَنْ يُحَرِّفَ التَّوْرَةَ وَيَسْتَبْدِلَهَا بِنَتَاجَاتِ فِكْرِيَّةٍ لَهُ اسْتَطَاعَ بِوَاسِطَةِ أَحَدِ رُمُوزِهِ بُلُوضِ الْيَهُودِيِّ السَّلْفِيِّ أَنْ يَنْزِعَ عَنِ الْمَسِيحِيَّةِ تَوْبَهَا الْخَاصَّ بِهِ وَيَلْبَسَهَا قَمِيصًا مُتَلَوَّنًا فِيهِ مِنَ اللَّوْنِ الْيَهُودِيِّ شَيْءٌ وَمِنَ الْوَثِيئَةِ شَيْءٌ وَمِنَ الزَّرَادَاشِيَّةِ وَالْمَانَوِيَّةِ وَغَيْرِهَا أَشْيَاءَ كَثِيرَةً فَالْتَّنَسُخَةُ الدِّيْنِيَّةُ الْأَصِيلَةُ الَّتِي جَاءَتْ مُفَصَّلَةً فِي الْإِنْجِيلِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى عَيْسَى الرَّسُولِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أُخْفِيَتْ أَوْ اخْتَفَتْ بِقَصْدٍ أَوْ بِلَا قَصْدٍ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا أَيُّ شَيْءٍ يُوجِيهِ إِلَيْكَ أَنَّ الْمَسِيحَ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَبِئْسَ اللَّهُ أَوْ ابْنُ اللَّهِ وَإِنَّ اللَّهَ وَالْمَسِيحَ وَالرُّوحَ الْقُدْسَ هُمْ ثَلَاثَةٌ لَكِنَّهُمْ وَاحِدٌ هَكَذَا وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفْنِعُوا النَّاسَ بِهَذِهِ الْخُرَافَةِ وَالْهَرَطَقَةِ .

الْمَسِيحُ وَالْإِنْجِيلُ وَالنَّصَارَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

مَفْهُومُ الْإِنْجِيلِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

هُوَ الْكِتَابُ الْمُنَزَّلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَقَدْ جُمِعَ أَصْحَابُهُ ، وَكَلِمَةُ الْإِنْجِيلِ تَعْنِي : الْبِشَارَةَ ، أَوْ الْخَبَرَ الطَّيِّبَ ، أَوْ الْخَبَرَ السَّارَّ .

وَرَدَتْ كَلِمَةُ (الْإِنْجِيلِ) فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ١٢ مَرَّةً . وَالصِّغَرُ الَّتِي وَرَدَتْ فِيهَا :

﴿ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : 3]

﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : 48]

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [آلِ

عِمْرَانَ : 65]

﴿ وَقَفَيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ

وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : 46]

﴿ وَيُحْكِمُ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ الْمَائِدَةَ 47]

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمَنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ

مُتَّقِصَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : 66]

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُتِمُّوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيُزِيدَنَّ

كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة : 68]

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ

فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأُذُنِي

فَتَنْفِخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِأُذُنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِأُذُنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِأُذُنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي

إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جَسَّهُمْ بِالْبَيْتَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [المائدة : 110]

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [الأعراف 157]

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿ [التوبة : III]

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿ [الفتح : 29]

﴿ ثُمَّ قَفَيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَاتَّبِئْنَا الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿ [الحديد : 27]

وَلَقَدْ وَرَدَ اسْمُ الْمَسِيحِ فِي الْآيَاتِ الْآتِيَةِ :

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿ [آل عمران : 45]

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ

اُخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ [النساء : 157]

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ

اللَّهِ وَكَلَّمَتْهُ آفَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٍ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهَى خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ

وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء :

[171]

﴿ لَنْ يَسْتَكْفِرَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَكْفِرْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ

فَسَيَحْشُرُهُمُ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء : 172]

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ

ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة : 17]

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ

إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ [المائدة : 72]

﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ

بَيَّنَّ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤفَكُونَ ﴾ [المائدة : 75]

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة : 30]

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : 31]

شَخْصِيَّةُ الْمَسِيحِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَصِفَاتِهِ

التَّكْيِيدِ عَلَى أَنَّهُ ابْنُ مَرْيَمَ

اسْتِحْوَاجًا أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ وَلَدٌ

التَّكْيِيدِ عَلَى بَشَرِيَّةِ الْمَسِيحِ

مِثْلَ الْمَسِيحِ كَادَمٍ ﴿ إِنَّ مِثْلَ عَيْسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل

عَمْرَانَ : 59]

الْمَسِيحِ لَمْ يَأْمُرِ النَّاسَ بِعِبَادَتِهِ

الْمَسِيحِ يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ

الْمَسِيحِ يُصْرِّحُ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ

الْمَسِيحِ عَبْدُ اللَّهِ

التَّثْلِيثِ عَقِيدَةَ وَثْنِيَّةٍ

المسيح يُبشِّر بِمَجِيءِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ (ص)

لم يذكر القرآن الكريم شيء اسمه المسيحية بل ذكر اتباع عيسى عليه السلام بالنصارى .

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ
كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ البقرة (II3)

لقد وصف هذا النص القرآني وصفا دقيقا مدهشا تاريخ العلاقة بين اليهودية والمسيحية ولقد رأينا هذا

الكلم الهائل من الاتهامات بالكفر والهرطقة والكذب بين الطرفين بالرغم من ان كلاهما يعترف بوجود

كتاب سماوي له لكن عقلهم الديني الذي استحوذ عليه أحبارهم وكهانهم استطاع ان يقسم الدين اليهودي

الى قسمين بعد ان حرف كتبهم وأسفارهم .

لَقَدْ بَيَّنَّتْ هَذِهِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَةُ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي اُخْتَلَفُوا فِيهِ وَتَنَارَعُوا وَأَنَّ النَّصَّ الْقُرْآنِيَّ الَّذِي أَعَادَ الْأَنْبِيَاءُ

اللَّهُ وَكُتُبِهِمْ وَجُودِهِمُ الْحَقِيقِيَّ دُونَ تَشْوِيهِ قَدْ تَكَلَّلَ بِحِفْظِ كِتَابِهِ وَدِينِهِ إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ .

رابعاً

العقل الديني العربيّ

المقصود بالعقل كما ذكرنا من قبل هو الفكر الذي هو نتاج العقل وصناعته وتعريف آخر ما وصل إليه الفكر في مسألة معينة أو قضية معرفية دينية أو فلسفية أو غير ذلك .

وهنا أود أن أؤكد أن حديثنا عن العقل الديني العربي يختلف كثيرا عن الحديث عن العقل اليهودي والعقل المسيحي وذلك لجهة تعلق بموضع عمل العقل الديني وهو النص المقدس وحصاته فالقرآن الكريم لا زال وسيبقى نصا سماويا منزلا محفوظا مصان لم يتعرض لعمليات التحريف والتعديل وهذا أمر مختلف عن النصوص الدينية الأخرى التوراة والأنجيل إذ انهما بالأساس قد رفع عنهما أصحابهما هذه الصفة السماوية المقدسة والحصانة الالهية من اللحظة التي تجرؤا بها على العبث بهما وصارا محلا لأراءهم

وأفكارهم يفعلون به ما يشاؤون أما القرآن الكريم فهو الكتاب السماوي الوحيد الذي حافظ على
قدسيته وحصاته كما قلنا لذلك من غير الممكن أن يستطيع عقل بشري العمل عليه او به لإعادة
تركيب نصوصه أو تعديلها وتحريفها وفق ما يستهوي ولذلك فالقرآن هو معجزة مستمرة وتحدي من الله
في الآيات بآية واحدة وقد قطع عليهم الطريق سلفا وقال ولن تفعلوا ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا
النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ البقرة لذلك فحينما نتحدث عن المساحة التي
عمل بها العقل الديني العربي ويعمل بها فهي محصورة في بيان الأحكام الفقهية والشرعية والعبادات وفي
تفسير النصوص القرآنية أو تأويلها عند البعض وسنرى كيف اخترع العقل الديني العربي المذهب التأويلي
والمذهب الباطني للاحتيال على النص واستنطاقه وفق ما يشتهي .

ونعيد ما ذكرناه سابقا عن معنى ومفهوم الدين الذي يعني ما أنتجه العقل في موضوع أو مسألة أو قضية
أو فقه أو أفكار تتعلق بالدين الإسلامي سواء كان تفسيراً أو اجتهاداً أو فلسفة أو رأياً أو مذهباً أو أو
قول ويدخل في ذلك اللغة والأدب والقصص وغير ذلك إذا أخذت من الدين مواضعا لها .

ووصفه بالعربي تخص قوم بذاتهم ينتمون إلى مرجعية عصبية قومية واحدة لها لغة واحدة فيكون تعريف
العقل الديني العربي هو الإنتاج الفكري أو المعرفي أو الفقهي أو اللغوي الذي صنعه وأنتجه العرب كأمة
طيلة عقود طويلة في الجاهلية وفي الإسلام منذ بدأ الرسالة ونزول القرآن الكريم وبعده وفاة الرسول
الكريم عليه السلام ومرورا بكل المراحل الزمنية التي مرت على المسلمين وحتى يومنا هذا ونريد ان
نحصر هنا الإنتاج الفكري الذي أنتجه العقل العربي فقط وليس الذي أنتجه المسلمين من غير العرب وهو

انتاج غزير جدا قد يفوق ما أنتجه العرب لكن هذا سيجعل بحثنا هذا طويلا جدا ويحتاج الى مجلدين ونحن نريد أن نقدم صورة ميسرة سهلة مختصرة قد الإمكان .

لَذَلِكَ وَقَبْلَ أَنْ تَبْدَأَ فِي الْبَحْثِ فِي نِتَاجِ الْعَقْلِ الدِّينِيِّ الْعَرَبِيِّ عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ مِنْ هُمْ الْعَرَبُ بُنُو إِسْمَاعِيلَ الَّذِينَ خَصَّهُمُ اللَّهُ بِبَيْتِهِ الْحَرَامِ وَأَسْكَنَهُمْ فِيهِ فِي وَقْتِ وَظُرُوفٍ لَا يَتَحَمَّلُهَا بَشَرُ النَّبِيَانِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَعَادُوا عَلَيْهِمَا السَّلَامَ بِنَاءِ الْكُعْبَةِ الْمَشْرُفَةِ وَدَعَا النَّاسَ لِلْحَجِّ إِلَيْهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا خَرَجَ آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ وَبَلَسَانَهُمْ نَزَلَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمَ كَامِلًا تَامًا لِلنَّاسِ جَمِيعًا هُمُ الَّذِينَ تَحَمَّلُوا وَتَأَذَّوْا حَتَّى يَظْهَرَ الدِّينُ وَيَقْوَى وَهُمْ مِنْ سَارِ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَهُوَ أَبِيهِمْ وَإِمَامُهُمْ .

وهل العرب من ذرية إسماعيل هم العربُ العاربةُ أمَّا المُستعربةُ كما تدَّعي كُتُبُ النَّسَبِ الْأُولَى وَهَلْ كَانَ قَبْلَهُمْ عَرَبًا ثُمَّ مَا هُوَ هُوَ لِسَانِهِمُ الْفَصِيحُ الْمُبِينُ وَمَا سَبَبَ تَسْمِيَتِهِمْ وَمَتَى عَرَفُوا وَأَيْنَ سَكَنُوا وَكَيْفَ اتَّشَرُوا وَمَاهِي عَقَائِدِهِمْ وَأَدْيَانُهُمْ وَكَيْفَ كَانَ حَالُهُمْ حِينَ جَاءَتْهُمْ الرِّسَالَةُ السَّمَاوِيَّةُ وَكَيْفَ تَعَامَلُوا مَعَهَا عَلَيْنَا أَنْ نُجِيبَ عَلَى هَذِهِ الْأَسْئَلَةِ وَغَيْرِهَا فِي فَضْلِ خَصَصْنَاهَا لِلرَّدِّ عَلَى هَذِهِ التَّسْأُولَاتِ .

بَقِيَ أَنْ نَقُولَ إِنَّ مَعْرِفَةَ أَصْلِ الْعَرَبِ وَلِسَانِهِمْ وَأَوْضَاعِهِمْ الْمُخْتَلِفَةَ فِي الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ مِنْ خِلَالِ الْمَرَاجِعِ وَالْمَصَادِرِ التَّارِيخِيَّةِ سَيَسَاعِدُنَا كَثِيرًا فِي كَشْفِ الْكَثِيرِ وَالْكَثِيرِ مِنْ تَارِيخِ نَسَبِ مُزَيْفٍ وَاتِّمَاعَاتٍ وَهَمِيَّةٍ كَتَبْتُهَا عُقُولَ مَغْرُضَةٍ كَمَا كَتَبُوا مِنْ بَعْدِهَا دِينًا إِسْلَامِيًّا مُخْتَلَفٌ هُوَ الْآخِرُ أَوْلِيكُمْ أَصْحَابَ هَذِهِ الْعُقُولِ هُمْ مِنْ أَحَدَثِ الْفَنَنِ وَالْفُرُقِ وَالْمَذَاهِبِ وَالْبِدَعِ هُمْ مِنْ حَرَفُوا التَّصَّ الدِّينِيَّ وَأَخْرَجُوهُ عَنِ سِيَاقِهِ لِأَغْرَاضِ جَاهِلِيَّةٍ سِيَاسِيَّةٍ اتِّفَاعِيَّةٍ شَعُوبِيَّةٍ بَحْتَةٍ .

ان الحديث عن أصل العرب ونسبهم وإبراز انتماءهم الصحيح الغاية منه اظهار تفاصيل اللعبة الخطيرة التي حدثت في عصر التدوين أواخر العهد العباسي لأنه في تلك الفترة و المرحلة بدأت عمليات التزوير المتعمدة لتغير النسب العربي من جهة ولتغير الدين الإسلامي برمته من جهة ثانية وقد اشتهر ذلك العصر بكثرة الاحاديث المروية عن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ولقد ثبت ان ستمائة ألف حديث منها اعتبر باطلا سموه بالاسرائيليات وانتشار البدع والفرق الكلامية ومن ثم الطوائف والمذاهب والشيع التي أنتجها العقل الديني العربي وان كل هذه الاحاديث المزيفة المدسوسة قد أخذت من التراث اليهودي وقسما كبيرا منها تم صنعه بناء على متطلبات السلطات الحاكمة لتمكين حكمها والاستناد الى مقولة الحاكم بأمر الله من جهة ثانية فلقد استعار العقل الديني العربي المذهب الباطني من الفلسفات الهرمسية والبوذية وغيرها فانتج ما سمي بمذهب التأويل الباطني واستثمارها في الجدل السياسي والفقه المتعلق بالخلافة والأمامة الأمر الذي أدى بالنتيجة الى انقسام الأمة نسيبا ودينيا ومذهبيا

العَرَب

التَّسْمِيَةُ وَالِانْتِمَاءُ وَاللُّغَةُ وَالْمَكَانُ

الْبَحْثُ فِي تَارِيخِ الْعَرَبِ تَسْمِيَتِهِمْ وَنَسَبِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ وَجُغْرَافِيَتِهِمْ هُوَ بَحْثٌ تَارِيخِي لِذَلِكَ فَمَنْ الْبَدِيهِي هُنَا أَنْ يَكُونَ مَرْجِعُنَا التُّصُوصَ الْقُرْآنِيَّةَ الَّتِي تَتَوَرْنَا عَنِ الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ نَطْلُعَ عَلَى مَا تَقُولُهُ الْمَصَادِرُ وَالْمُرَاجِعُ التَّارِيخِيَّةَ وَخَاصَّةً تِلْكَ الَّتِي تَحَدَّثُ عَنْ عَصْرِ مَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ وَعَلَيْهِ فَإِنَّا سَنَعْتَمِدُ عَلَى طَرِيقَةِ كَشْفِ الْأَدَلَّةِ وَبَيَانِهَا مِنْ مَرَاجِعِهَا الْأَصْلِيَّةِ دُونَ أَيِّ تَدْخُلٍ أَوْ تَعْلِيقٍ أَثْنَاءَ سَرْدِهَا فَلَقَدْ اخْتَرْنَا مَرَجِعَيْنِ رَئِيسَيْنِ نَسْتَعْنِي بِهِمَا عَنْ مِائَاتِ الْمَصَادِرِ وَالْمُرَاجِعِ أَوْلَهُمَا الْمُفْصَلُ فِي تَارِيخِ

العرب القديم للدكتور جواد علي وهو كتاب متخصص في دراسة حالة العرب ويستند على مئات من المراجع والمصادر العربية والأجنبية وثانيتها كتاب في الشعر الجاهلي لطف حسين المعروف بكونه عميدا للادب العربي والضيع في اللغة العربية ومصادره واخيرا ماجاء في بعض المصادر والمراجع بمواضيع تتعلق بتاريخ العرب ونسبهم .

المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام

الدكتور جواد علي

يقول جواد علي في كتابه الجزء الأول وإذا ما سألتني عن معنى لفظه (عرب) عند علماء العربية ، فإنني أقول لك :

(ان لعلماء العربية آراء في المعنى ، تجددها مسطورة في كتب اللغة وفي المعجمات ولكنها كلها من نوع البحوث المألوفة المبنية على أقوال وآراء لا تعتمد على نصوص جاهلية ولا على دراسات عميقة مقارنة ، وضعت على الحدس والتخمين ، وبعد حيره شديدة في إيجاد تليل مقبول فقالوا ما قالوه مما هو مذكور في الموارد اللغوية المعروفة ، وفي طليعتها المعجمات وكتب الأدب . وكل آرائهم في تفسير .

اللفظة وفي محاولة إيجاد أصلها ومعانيها ، هو إسلامي ، دون في الإسلام ؛ (عصر التدوين) . وترى علماء العربية حيارى في تعيين أول من نطق بالعربية ، فبينما يذهب بعضهم إلى أن يعرب كان أول من أعرب في لسانه وتكلم بهذا اللسان العربي ، ولذلك عرف هذا اللسان باللسان العربي ، تراهم يجعلون

العَرَبِيَّةُ لِسَانِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَلِسَانُ آدَمَ ، أَمَّا أَنَّهُمْ يَرْجِعُونَ عَهْدَهَا إِلَى مَبْدَأِ الْخَلِيقَةِ ، وَقَدْ كَانَتْ الْخَلِيقَةُ قَبْلَ خَلْقِ (عَرَبٍ) بِالطَّبَعِ بِزَمَانٍ طَوِيلٍ . ثُمَّ تَرَاهُمْ يَقُولُونَ : أَوَّلُ مَنْ تَكَلَّمَ بِالْعَرَبِيَّةِ وَنَسِيَ لِسَانَ أَبِيهِ إِسْمَاعِيلَ . أَنَّهُمْ إِسْمَاعِيلِيُّ هَذَا اللِّسَانَ الْعَرَبِيَّ إِلهَامًا . وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ فَتَقَ لِسَانَهُ بِالْعَرَبِيَّةِ الْمُبَيَّنَّةِ ، وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِ عَشْرَةَ سَنَةً "وَإِسْمَاعِيلُ هُوَ جَدُّ الْعَرَبِ الْمُسْتَعْرَبَةِ .

وَالْفَحْطَانِيُّونَ الْقَائِلُونَ أَنَّ يُعْرَبَ هُوَ جَدُّ الْعَرَبِيَّةِ وَمُوجِدُهَا ، عَاجِزُونَ عَنِ التَّوْفِيقِ بَيْنَ رَأْيِهِمْ هَذَا وَرَأْيِهِمْ فِي أَنَّ الْعَرَبِيَّةَ قَدِيمَةٌ قَدِيمَةً الْعَالَمِ ، وَأَنَّهَا لُغَةُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ ، ثُمَّ هُمْ عَاجِزُونَ أَيْضًا عَنِ بَيَانِ كَيْفَ كَانَ لِسَانُ أَجْدَادِ (يُعْرَبِ) ، وَكَيْفَ اهْتَدَى (يُعْرَبِ) إِلَى اسْتِبْطَاطِ هَذِهِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَكَيْفَ تَمَكَّنَ مِنْ إِيجَادِهَا وَحُدُودِهَا مِنْ غَيْرِ مُؤَاذِرٍ وَلَا مُعَيَّنٍ ؟ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَسْئَلَةٍ لَمْ يَكُنْ يُفْطِنُ لَهَا أَهْلُ الْأَخْبَارِ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ . وَلِلْأَخْبَارِيِّينَ بَعْدَ كَلَامِ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ طَوِيلٌ ، الْأَشْهُرُ مِنْهُ الْقَوْلَانِ الْمَذْكُورَانِ ، وَوَقَّعَ الْبَعْضُ بَيْنَهُمَا بِأَنَّ قَالُوا : أَنَّ (عَرَبِ) أَوَّلَ مَنْ نَطَقَ بِالْعَرَبِيَّةِ الْخَالِصَةِ الْحِجَازِيَّةِ الَّتِي أَنْزَلَ عَلَيْهَا الْقُرْآنَ .

أَمَّا الْمُسْتَشْرِقُونَ وَعُلَمَاءُ التَّوْرَةِ الْمُحَدِّثُونَ ، فَقَدْ تَتَبَعُوا تَارِيخَ الْكَلِمَةِ ، وَتَتَبَعُوا مَعْنَاهَا فِي اللُّغَاتِ السَّامِيَّةِ ، وَبَحَثُوا عَنْهَا فِي الْكِتَابَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ وَفِي كِتَابَاتِ الْأَشُورِيِّينَ وَالْبَابِلِيِّينَ وَالْيُونَانِ وَالرُّومَانِ وَالْعِبْرَانِيِّينَ ، وَغَيْرِهِمْ ، فَوَجَدُوا أَنَّ أَقْدَمَ نَصٍّ وَرَدَتْ فِيهِ لَفْظَةٌ (عَرَبٌ) هُوَ نَصُّ أَشُورِيِّ مِنْ أَيَّامِ الْمَلِكِ (شَلْمَنْصَرِ) الْثَالِثِ (الثَّانِي ؟) مَلِكِ أَشُورٍ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ لَفْظَةَ (عَرَبٌ) لَمْ تَكُنْ تَعْنِي عِنْدَ الْأَشُورِيِّينَ مَا تَعْنِيهِ عِنْدَنَا مِنْ مَعْنَى ، بَلْ كَانُوا يُقْصِدُونَ بِهَا بَدَاوَةَ وَإِمَارَةَ (مَشِيخَةَ) كَانَتْ تَحْكُمُ فِي الْبَادِيَةِ الْمَتَاخِمةِ لِلْحُدُودِ الْأَشُورِيَّةِ ، كَانَتْ حُكْمُهَا يَتَوَسَّعُ وَيَتَقَلَّصُ فِي الْبَادِيَةِ تَبَعًا لِلظُّرُوفِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْقُوَّةِ شَخْصِيَّةِ

الأمير ، وكان يحكمها أمير يُلقب نفسه بلقب ملك ، يُقال له (جنديو) أي (جندب) وكانت صلواته سيئة بالآشوريين . ولما كانت الكتابة الآشورية لا تحرك المقاطع صعب على العلماء ضبط الكلمة ، فاختلّفوا في كيفية المنطق بها ، فقرّنت : (Aribi) و (Aruba) و (Aribu) و (Arab) و (Arabi) و (Urbi) و (Arbi) (إلى غير ذلك من قراءات . والظاهر أن صيغة (Urbi) كانت من الصيغ القليلة الاستعمال ، ويغلب على الظن أنها استعملت في زمن متأخر ، وأنها كانت بمعنى (إغراب) على نحو ما يقصد من كلمي (عربيّ) و (أعربي) في لهجة أهل العراق لهذا العهد. وهي تقابل كلمة (عربّ التي هي من الكلمات المتأخرة كذلك على رأي بعض المستشرقين . وعلى كل حال فإن الآشوريين كانوا يقصدون بكلمة (عربيّ) على اختلاف أشكالها بدءوه ومشيخة كانت تحكّم في أيامهم البادية تمييزاً لها عن قبائل أخرى كانت مستقرّة في تخوم البادية ووردت في الكتابات البابلية جُملة (ماتواري) (Matu Arabai) ومعنى ماتو متو (أرض ، فيكون المعنى (أرض عربيّ) ، أي (أرض العرب) ، أو (بلاد العرب) ، أو (العربيّة) ، أو (بلاد الإغراب) بتعبير أصدق وأصح . إذ قصد بها البادية ، وكانت تحفل بالإغراب . وجاءت في كتابه (بهستون) (بهستون) (Behistun) لذارا الكبير (داريوس ارباية عربية) (Arabaya) ؛ وذلك في النصّ الفارسيّ المكتوب باللغة (الأخمينية) ، ولفظه Arpayaya في النصّ المكتوب بلهجة أهل السوس (Susiana) (Susian) وهي اللهجة العيلامية لغة عيلام . ومُراد البابليين أو الآشوريين أو الفرس من (العربيّة) أو (بلاد العرب) ، البادية التي في غرب نهر الفرات الممتدة إلى تخوم بلاد الشام .

وَقَدْ ذَكَرْتُ (الْعَرَبِيَّةَ) (بَعْدَ أَشُورَ وَبَابِلَ وَقَبْلَ مِصْرَ فِي نَصِّ (دَارَا) الْمَذْكُورِ ، فَحَمَلَ ذَلِكَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ
 عَلَى إِدْخَالِ طُورِ سَيْنَاءَ فِي جُمْلَةِ هَذِهِ الْأَرْضِينَ . وَقَدْ عَاشَتْ قَبَائِلُ عَرَبِيَّةٍ عَدِيدَةٌ فِي مَنْطِقِهِ سَيْنَاءَ
 قَبْلَ الْمِيلَادِ وَبِهَذَا الْمَعْنَى أَيَّ مَعْنَى الْبَدَاوَةِ وَالْأَعْرَابِيَّةِ وَالْجَنَافِ وَالْقَفْرِ ، فِي الْعِبْرَانِيَّةِ وَفِي لُغَاتِ سَامِيَّةِ
 أُخْرَى . وَيَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ لَفْظَةَ (عَرَب) فِي تِلْكَ اللُّغَاتِ الْمُتَقَارِبَةِ هُوَ الْبَدَاوَةُ وَحَيَاةُ الْبَادِيَّةِ ، أَيَّ
 بِمَعْنَى (إِعْرَابِ) وَإِذَا رَاجَعْنَا الْمَوَاضِعَ الَّتِي وَرَدَتْ فِيهَا كَلِمَةُ (عَرَبِيٌّ) وَ (عَرَبٌ) فِي التَّوْرَةِ الْمَعْنَى
 تَمَامًا . فَفِي كُلِّ الْمَوَاضِعِ الَّتِي وَرَدَتْ فِيهَا فِي سَفَرِ (أَشْعِيَاءَ) مِثْلًا تَرَى أَنَّهَا أُسْتُعْمِلَتْ بِمَعْنَى بَدْءِ
 وَأَعْرَابِيَّةِ ، كَالَّذِي جَاءَ فِيهِ : (وَلَا يَخِيمُ هُنَاكَ أَعْرَابِيٌّ) وَ (وَحْيٌ مِنْ جِهَةِ بِلَادِ الْعَرَبِ ، فِي الْوَعْرِ فِي
 بِلَادِ الْعَرَبِ تَبَيَّنَ يَا قَوَافِلَ الدَّدَانِيِّينَ) فَصَدَّ بِلَفْظَةِ (عَرَبٌ) فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْأَخِيرَةِ الْبَادِيَّةِ مَوْطِنَ الْعُرْلَةِ
 وَالْوَحْشَةِ وَالْخَطَرِ ، وَلَمْ يَقْصِدْ بِهَا قَوْمِيَّةً وَعِلْمِيَّةً لِمَجْلِسٍ مُعَيَّنٍ بِالْمَعْنَى
 وَبِهَذَا الْمَعْنَى أَيْضًا وَرَدَتْ فِي (إِرْمِيَا) ، فِي الْآيَةِ (وَكُلُّ مَلُوكِ الْعَرَبِ) الْوَارِدَةِ فِي الْإِصْحَاحِ الْخَامِسِ
 وَالْعِشْرِينَ ، تَعْنِي لَفْظُهُ وَالْعَرَبُ : « الْأَعْرَابِيُّ » ، أَيَّ وَعَرَبٌ الْبَادِيَّةِ . وَالْمُرَادُ مِنْ : وَكُلُّ مَلُوكِ
 الْعَرَبِ ، وَكُلُّ رُؤَسَاءِ لَأ مَلُوكِ مَدَنٍ وَحُكُومَاتٍ . ، رُؤَسَاءُ قَبَائِلٍ وَمَشَائِخَ مَشَائِخُهُمْ . وَأَمَّا الْآيَةُ : فِي
 الطَّرِيقَاتِ جَلَسَتْ لَهُمْ كَأَعْرَابِيٍّ فِي الْبَرِّيَّةِ ، فَإِنَّهَا وَاضِحَةٌ ، الْآيَاتُ الْوَارِدَةُ فِي (أِرْمِيَا) . وَالْمُرَادُ بِهَا
 أَعْرَابِيٌّ مِنَ الْبَادِيَّةِ ، لَا حَضْرِيٌّ أَهْلُ الْحَاضِرَةِ . فَالْمَفْهُومُ إِذْنًا لَفْظُهُ (عَرَبٌ) (فِي إِصْحَاحَاتِ (إِرْمِيَا)
 إِنَّمَا هُوَ الْبَدَاوَةُ وَالْبَادِيَّةُ وَالْأَعْرَابِيَّةُ لَيْسَ غَيْرُ وَمِمَّا يُؤَيِّدُ هَذَا الرَّأْيَ وَرُودَ (هَا عَرَابَةُ Araba) (فِي
 الْعِبْرَانِيَّةِ ، وَيُرَادُ بِهَا مَا يُقَالُ لَهُ : (وَادِي الْعَرَبَةِ) ، أَيَّ الْوَادِي الْمُمْتَدِّ مِنَ الْبَحْرِ الْمَيِّتِ أَوْ مِنْ بَحْرِ الْجَلِيلِ
 إِلَى خَلِيجِ الْعُقْبَةِ . وَتَعْنِي لَفْظُهُ (عَرَابَةُ) فِي الْعِبْرَانِيَّةِ الْجَنَافَ وَحَافَةَ الصَّخْرَاءِ وَأَرْضَ مَحْرُوقَةَ ، أَيَّ

مَعَانِي ذَاتِ صِلَةٍ بِالْبَدَاوَةِ وَالْبَادِيَةِ . وَقَدْ أَقَامَتْ فِي هَذَا الْوَادِي قَبَائِلٌ بَدْوِيَّةٌ شَمَلَتْهَا لَفْظُهُ (عَرَبٌ) .
وَفِي تَقَارُبِ لَفْظِهِ (عَرَبٌ) وَ (عَرَابَةٌ) ، وَتَقَارُبِ مَعْنَاهُمَا ، دَلَالَةٌ عَلَى الْأَصْلِ الْمُشْتَرَكِ لِلْفِظَتَيْنِ . وَيُعَدُّ
وَادِي (الْعَرَبَةِ) وَكَذَلِكَ (طُورِ سَيْنَاءَ) فِي بِلَادِ الْعَرَبِ . وَقَصَدَ بـ (الْعَرَبِيَّةُ) بُرْئُهُ سُورِيَّةً فِي (رِسَالَةِ
الْقَدِيسِ بُولْسِ إِلَى أَهْلِ غَلَاطِيَّةِ) .

وَقَدْ عُرِفَ عُلَمَاءُ الْعَرَبِيَّةِ هَذِهِ الصِّلَةَ بَيْنَ كَلِمَةِ (عَرَبٌ) وَ (عَرَابَةٌ) أَوْ (عَرَبَةٌ) ، فَقَالُوا : (أَنَّهُمْ
سَمَوْا عَرَبًا بِاسْمِ بَلَدِهِمُ الْعَرَبَاتِ . وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ الْفَرَجِ : عَرَبَةٌ بَاحَةٌ الْعَرَبِ ، وَبَاحَةٌ دَارِ أَبِي
الْفَصَّاحَةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ . وَقَالُوا : (وَأَقَامَتْ قُرَيْشٌ بَعْرَةَ فَتَنَحَتْ بِهَا ، وَانْتَشَرَ
سَائِرُ الْعَرَبِ فِي جَزِيرَتِهَا ، فَتَنَسَّبُوا كُلُّهُمْ إِلَى عَرَبَةٍ ، لِأَنَّ آبَاءَهُمْ إِسْمَاعِيلَ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَوْلَادِهِ
فِيهَا فَكَثَرُوا فَلَمَّا لَمْ تَحْتَمِلْهُمُ الْبِلَادُ ، انْتَشَرُوا ، وَأَقَامَتْ قُرَيْشٌ بِهَا " .

وَيَرَى بَعْضُ عُلَمَاءِ التَّوْرَةِ أَنَّ كَلِمَةَ (عَرَب) إِنَّمَا شَاعَتْ وَانْتَشَرَتْ عِنْدَ الْعِبْرَانِيِّينَ بَعْدَ ضَعْفِ
الاسماعيليين) وتدهورهم وتغلب الأعراب عليهم صارت اللفظة مرادفة عندهم لكلمة (اسماعيليين) .
ثم تغلبت عليهم ، فَصَارَتْ تَشْمَلُهُمْ ، أَنْ (الاسماعيليين) كَانُوا أَعْرَابًا كَذَلِكَ ، أَيِ قَبَائِلِ بَدْوِيَّةٍ تَنْتَقِلُ مِنْ
مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ ، طَلَبًا لِلْمَرْعَى وَالْمَاءِ . وَكَانَتْ تَسْكُنُ أَيْضًا فِي الْمَنَاطِقِ الَّتِي سَكَنَهَا الْأَعْرَابُ ، أَيِ
أَهْلِ الْبَادِيَةِ . وَيَرَى أَوْلِيَاءُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ كَلِمَةَ (عَرَب) لَفْظُهُ مُتَأَخَّرَةٌ ، اقْتَبَسَهَا الْعِبْرَانِيُّونَ مِنَ الْأَشُورِيِّينَ
وَالْبَابِلِيِّينَ ، بِدَلِيلِ وُجُودِهَا فِي النُّصُوصِ الْأَشُورِيَّةِ وَالْبَابِلِيَّةِ ، وَهِيَ نُّصُوصٌ يُعُودُ عَهْدُهَا إِلَى مَا قَبْلَ التَّوْرَةِ
وَلِشَبُوحِهَا بَعْدَ لَفْظِهِ (اسماعيليين) ، وَوَادَائِهَا الْمَعْنَى ذَاتَهُ الْمُرَادُ مِنَ الْفِظَةِ ، رَبَطَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ لَفْظِهِ

(اشماعيليين) ، وصارت نسباً قصيراً جدّ هؤلاء العرب (اشماعيل) وعدوا عربيم من أبناء

إسماعيل .

هذا ما يخصّ التوراة ، أمّا التلمود (، فقد قصّدت بلفظه (عرب) و () (Arbim) (عربيم

Arbiim) (الأغراب كذلك ، أي المعنى نفسه الذي ورد في الأسفار القديمة ، وجعلت لفظه

(عربي) (مُرادفةً لكلمة (إسماعيلي) في بعض المواضع "وأول من ذكر العرب من اليونان هو)

أسكيلوس ، أسخيلوس) « أشيلس » وأخيلوس : - ٤٥٦ قبل الميلاد) من أهل الأخبار منهم ،

ذكرهم في كلامه على جيش (أخشويرش) (Xerxes) ، وقال : أنه كان في جيشه ضابط عربي

من الرؤساء مشهور . ثم تلاه (هيرودوتس) شيخ المؤرخين (نحو ٤٨٤٤٢٥ قبل الميلاد) ،

فحدّث في مواضع من تاريخه عن العرب حديثاً يظهر منه أنه كان على شيء من العلم بهم . وقد

أطلق (Arabae) على بلاد العرب البادية وجزيرة العرب والأرضين الواقعة إلى الشرق من نهر

النيل . فأدخل (طور سيناء) وما بعدها إلى ضفاف النيل في بلاد العرب فلفظة (العربية) (

Arabae) عند اليونان والرومان ، هي في معنى (بلاد العرب) . وقد شملت جزيرة العرب وبادية

الشام . وسكانها هم عرب على اختلاف لغاتهم ولهجاتهم ، على سبيل التغليب ، لاغتقادهم أن

البادية كانت على هذه الأرضين ، فأطلقوها من ثم على الأرضين المذكورة وتدّل المعلومات الواردة في

كتب اليونان واللاتين المؤلفة بعد (هيرودوتس) على تحسن وتقدّم في معارفهم عن بلاد العرب ، وعلى

أن حدودها قد توسّعت في مداركهم فشملت البادية وجزيرة العرب وطور سيناء في أغلب الأحيان ،

فصارت لفظه (Arabae) عندهم علماً على الأرضين المأهولة بالعرب والتي تغلب عليها الطبيعة

الصحراوية ، وصارت كلمة (عَرَبِيٌّ) عندهم علماً للشخص المقيم في تلك الأرضين ، من بدو ومن حضر ، إلا أن فكرتهم عن حضر بلاد العرب لم تكن ترتفع عن فكرتهم عن البدوي ، بمعنى أنهم كانوا يَصَوِّرُونَ أَنَّ الْعَرَبَ هُمْ إِعْرَابٌ وَوَرَدَتْ فِي جُغْرَافِيَّةِ (سترابون (كلمة) أرمبي (Erembi) ، وَمَعْنَاهَا اللُّغَوِيُّ الدُّخُولُ فِي الْأَرْضِ أَوْ السُّكْنَى فِي حَفْرِ الْأَرْضِ وَكُهوفِهَا ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى غُمُوضِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ وَمَا يَقْصِدُ بِهَا ، أَيَقْصِدُ بِهَا أَهْلُ (طَرِغْلُو دِيَه) (Troglodytea) أَي (سُكَّانِ الْكُهُوفِ) أَمْ الْعَرَبِ ؟ وَلَكِنَّهُ ذَكَرَ أَنَّ هُنَاكَ كَانَ يُرِيدُ بِهَا الْعَرَبَ ، وَأَنَّهَا كَانَتْ تَعْنِي هَذَا الْمَعْنَى عِنْدَ بَعْضِهِمْ فِي الْأَيَّامِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، وَمِنْ الْجَائِزِ أَنْ تَكُونَ تَحْرِيفًا لِكَلِمَةِ (Arabi) فَأَصْبَحَتْ بِهَذَا الشَّكْلِ . أَمَّا الْإِرْمِيُونَ ، فَلَمْ يَخْتَلِفُوا عَنِ الْأَشُورِيِّينَ وَالْبَابِلِيِّينَ فِي مَفْهُومِ (بلاد العرب) ،

أَيُّ مَا يُسَمَّى بـ (بَادِيَةِ الشَّامِ) وَبَادِيَةِ السَّمَاءِ . وَهِيَ الْبَادِيَةُ الْوَأَسَعَةُ الْمُمْتَدَّةُ . نَهَرَ الْفَرَاتُ إِلَى تَحُومِ الشَّامِ . وَقَدْ أَطْلَقُوا عَلَى الْقِسْمِ الشَّرْقِيِّ مِنْ هَذِهِ الْبَادِيَةِ ، وَهُوَ الْقِسْمُ الْخَاضِعُ لِنُفُوذِ الْفَرَسِ اسْمَ (بَيْتِ عَرَبَايَةِ) (Beth Arbaya) و (بَا عَرَبَايَةِ) (Ba Arabaya) ، وَمَعْنَاهَا (أَرْضِ الْعَرَبِ) . وَقَدْ اسْتُعْمِلَتْ هَذِهِ التَّسْمِيَةُ فِي الْمَوْفَلَّاتِ الْيُونَانِيَّةِ الْمَتَّخِرَةِ وَفِي هَذَا الْاسْتِعْمَالِ أَيْضًا مَعْنَى الْأَعْرَابِيَّةِ وَالسُّكْنَى فِي الْبَادِيَةِ وَوَرَدَتْ لَفْظُهُ (عَرَبٌ ، فِي عَدَدٍ مِنْ كِتَابَاتٍ وَالْحَضْر) .

وَقَدْ عُرِفَ الْبَدُو ، أَيُّ سُكَّانِ الْبَادِيَةِ ، بِالْإِعْرَابِ فِي عَرَبِيَّةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَقَدْ ذَكَرُوا فِي مَوَاضِعٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ، وَقَدْ نَعَتُوا فِيهِ بِنُعُوتِ سَيِّئَةٍ ، نَدَلُّ عَلَى أَثَرِ خَلْقِ الْبَادِيَةِ فِيهِمْ . وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الْأَعْرَابَ بَادِيَةَ الْعَرَبِ ، وَأَنَّهُمْ سُكَّانُ الْبَادِيَةِ وَالنَّصُّ الْوَحِيدُ الْوَحِيدُ الَّذِي وَرَدَتْ فِيهِ لَفْظَةُ (الْعَرَبِ) عَلِمًا عَلَى الْعَرَبِ جَمِيعًا مِنْ حَضْرٍ وَإِعْرَابٍ ، وَنَعَتْ فِيهِ لِسَانِهِمْ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ ، هُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ . وَقَدْ

ذَهَبَ (د . ه . مَارَ) إِلَى أَنْ الْقُرْآنَ الْكَرِيمِ هُوَ الَّذِي خَصَّصَ الْكَلِمَةَ وَجَعَلَهَا عِلْمًا لِقَوْمِيَّةٍ تَشْمَلُ كُلَّ الْعَرَبِ . وَهُوَ يُشَكُّ فِي صِحَّةِ وُرُودِ (عَرَبٌ) عِلْمًا لِقَوْمِيَّةٍ فِي الشَّعْرِ الْجَاهِلِيِّ كَالَّذِي وَرَدَ فِي شَعْرِ لَامِرِيءِ الْقَيْسِ ، وَفِي الْآيَاتِ دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى أَنَّ الْقَوْمَ كَانَ لَهُمْ إِذْرَاكٌ لِهَذَا الْمَعْنَى قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا يَنْعَتُونَ لِسَانَهُمْ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ لِللِّسَانَةِ الْأُخْرَى السَّنَّةَ أَعْجَمِيَّةً (لِسَانُ الَّذِي يُلْحَدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ، وَهَذَا لِسَانُ عَرَبِيٍّ مُبِينٌ) .

الآن وَقَدْ اتَّهَيْتُ مِنْ تَحْدِيدِ مَعْنَى (عَرَبٌ) وَتَطَوُّرِهَا إِلَى قَبِيلِ الْإِسْلَامِ ، أَرَى لزامًا عَلَيَّ أَنْ أَتَحَدَّثَ عَنْ الْفَاطِئِ الْأُخْرَى اسْتَعْمَلَتْ بِمَعْنَى (عَرَبٌ) فِي عَهْدِ مِنَ الْعُهُودِ ، وَعِنْدَ بَعْضِ الشُّعُوبِ . فَقَدْ اسْتُعْمِلَ الْيُونَانُ كَلِمَةَ (Saraceni) و (Saracenes) ، وَاسْتَعْمَلَهَا اللَّاتِينَ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ (Saracenus) ، وَذَلِكَ فِي مَعْنَى الْعَرَبِ وَأَطْلَقَهَا عَلَى قَبَائِلِ عَرَبِيَّةٍ كَانَتْ تُقِيمُ فِي بَادِيَةِ الشَّامِ "وَفِي طُورِ سَيْنَاءَ" ، وَفِي الصَّخْرَاءِ الْمُتَّصِلَةِ بِأَدُومِ . وَقَدْ تَوَسَّعَ مَدْلُولُهَا بَعْدَ الْمِيلَادِ ، وَلَا سِيَّمَا فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ وَالْخَامِسِ وَالسَّادِسِ ، فَأُطْلِقَتْ عَلَى الْعَرَبِ أَنْ كَتَبَهُ الْكَنِيسَةُ وَمُؤَرِّخِي هَذَا الْعَصْرِ قَلَمًا اسْتَعْمَلُوا كَلِمَةَ (عرب) فِي كُتُبِهِمْ ، مُسْتَعِضِينَ عَنْهَا بِكَلِمَةِ (Saraceni) . وَأَقْدَمُ مَنْ ذَكَرَهَا هُوَ (دِيوسقوريدس) (Dioscurides of Anazarbos) الَّذِي عَاشَ فِي الْقَرْنِ الْأَوَّلِ لِلْمِيلَادِ . وَشَاعَ اسْتِعْمَالُهَا فِي الْقُرُونِ الْوَسْطَى حَيْثُ أُطْلِقَتْهَا النَّصَارَى عَلَى جَمِيعِ الْعَرَبِ ، وَأَحْيَانًا عَلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ . وَنَجِدُ النَّاسَ يَسْتَعْمِلُونَهَا فِي الْإِنْكَلِيزِيَّةِ فِي مَوْضِعِ (عَرَبٌ) وَمُسْلِمِينَ حَتَّى الْيَوْمِ وَقَدْ أُطْلِقَ بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ مِنْ أَمْثَالِ يوسيبوس (أوسيبوس) (Eusebius) و (هيرونيوس) (Hieronymus) هَذِهِ اللَّفْظَةَ عَلَى (الاشماعيليين) الَّذِينَ كَانُوا يَعِيشُونَ فِي الْبُرَارِيِّ فِي (قَادِشِ) (فِي بَرِّيَّةِ) (فَارَانَ) ، أَوْ مَدِينِ حَيْثُ

جَبَل (حوريب) . وَقَدْ عَرَفَتْ أَيْضاً بـ (الهاجريين (Hagerene) ثُمَّ دُعِيَتْ بـ (Saracenes)
وَلَمْ يَتَحَدَّثْ أَحَدُ الْكُتُبَةِ الْيُونَانِ وَالرُّومَانِ وَالسَّرِيَانِ عَنْ أَصْلِ لَفْظَةِ مِنْ (Sarakenoi) . وَلَمْ يَلْتَفِتْ
الْعُلَمَاءُ إِلَى الْبَحْثِ فِي أَصْلِ التَّسْمِيَةِ إِلَّا بَعْدَ التَّهْضَةِ الْعِلْمِيَّةِ الْأَخِيرَةِ ، .

وَلِذَلِكَ اخْتَلَفَتْ آرَأُوهُمْ فِي التَّغْلِيلِ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْ (سَارَةَ) زَوْجِ إِبْرَاهِيمَ ، وَلَفْظِ أَخْرَرُبَمَا هُوَ
(قَيْن) فَيَكُونُ الْمَعْنَى عُبَيْدُ سَارَةَ . وَقَالَ آخَرُونَ : أَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنْ (سَرَق) ، فَيَكُونُ الْمَوَادِّ مِنْ كَلِمَةِ (
(Saraceni) (سراكين) (السراقين) أَوْ (السارقين) إِشَارَةً إِلَى عَزْوِهِمْ وَكَثْرَةِ سَطْوِهِمْ " . أَوْ مِنْ (Saraka
(بِمَعْنَى (Sherk)) أَي (شَرَقَ ، وَيُرَادُ بِذَلِكَ الْأَرْضِ الَّتِي تَقَعُ إِلَى شَرْقِ التَّبَطِ .

وَالْقَائِلُونَ أَنَّ (سَارَقِينَ) مِنْ أَصْلِ لَفْظَتَيْنِ (سَارَةَ) ، زَوْجِ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ
(قَيْن) بِمَعْنَى (عبد) وَأَنَّ الْمَعْنَى هُوَ (عُبَيْدُ سَارَةَ) ، ، مَتَأَثَرُونَ بِرَوَايَةِ التَّوْرَةِ عَنْ سَارَةَ وَبِالشَّرْحِ
الْوَارِدَةِ عَنْهَا .

وَهُنَاكَ الْفَاطِمُ مِثْلُ (القدمونيين) ، (هقديني) ، (هاقدموني) (Kadmonites)
فِي الْمَنَاطِقِ الشَّرْقِيَّةِ لِفِلَسْطِينَ ، أَي فِي بَادِيَةِ الشَّامِ . وَلَمَّا كَانَ (قِيدَمَا) (Kedemeh) هُوَ أَحَدُ
أَبْنَاءِ إِسْمَاعِيلَ فِي اضْطِلَاحِ (التوراة) ، فَيَكُونُ أَبْنَاءُ (قِيدَمَا) مِنْ الْعَرَبِ الْإِسْمَاعِيلِيِّينَ " . وَقَدْ ذَكَرَ فِي
مَوْضِعٍ مِنَ التَّوْرَةِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتَنُونَ الْمَنَاطِقَ الشَّرْقِيَّةَ لِفِلَسْطِينَ قَرِيبَ (الْبَحْرِ الْمَيِّتِ) الْمَعْرُوفِ فِي
الْعِبْرَانِيَّةِ بـ (هَائِمُ هقدموني) ، (أَي) الْبَحْرِ الْقَدْمُونِيِّ (الْبَحْرِ الشَّرْقِيِّ) وَقَدْ كَانَ (القدمونيون) ،
(أَي) بَنُو قَدِيمٍ (أَعْرَابًا يَقْتَنُونَ فِي بَادِيَةِ الشَّامِ . وَأَشْبَاهُ إِعْرَابِ ، أَي رِعَاةٍ وَأَشْبَاهُ حَضْرِيَّينَ ، وَاللَّفْظَةُ

لَا تَعْنِي قَبِيلَةٌ وَاحِدَةٌ مُعَيَّنَةٌ ، أَيْ عِلْمِيَّةٌ ، وَلَا تَعْنِي قَبَائِلُ مُعَيَّنَةٌ ، وَإِنَّمَا هِيَ لَفْظَةٌ عَامَّةٌ أُطْلِقَتْ عَلَى السَّاكِنِينَ فِي الْأَمَاكِنِ الشَّرْقِيَّةِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْعِبْرَانِيِّينَ " .

طَبَقَاتُ الْعَرَبِ

اتَّفَقَ الرُّوَاهُ وَأَهْلُ الْأَخْبَارِ أَوْ كَادُوا يَتَّفِقُونَ عَلَى تَقْسِيمِ الْعَرَبِ مِنْ حَيْثُ الْقَدَمِ إِلَى طَبَقَاتٍ عَرَبٌ بَائِدَةٌ ، وَعَرَبٌ عَارِبَةٌ ، وَعَرَبٌ مُسْتَعْرَبَةٌ . أَوْ عَارِبَةٌ ، وَعَرَبٌ مُتَعَرِبَةٌ ، وَعَرَبٌ مُسْتَعْرَبَةٌ أَوْ عَرَبٌ عَارِبَةٌ وَعَرَبَاءٌ وَهُمْ الْخُلَاصُ ، وَالْمُتَعَرِبَةُ . وَاتَّفَقُوا أَوْ كَادُوا يَتَّفِقُونَ عَلَى تَقْسِيمِ الْعَرَبِ مِنْ حَيْثُ النَّسَبِ إِلَى قِسْمَيْنِ :

قَحْطَانِيَّةٌ ، مَنَازِلِهِمُ الْأُولَى فِي الْيَمَنِ وَعَدْنَانِيَّةٌ مَنَازِلِهِمُ الْأُولَى فِي الْحِجَازِ وَاتَّفَقُوا ، أَوْ كَادُوا يَتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الْقَحْطَانِيِّينَ هُمُ الْعَرَبُ مُنْذُ خَلَقَهُمُ اللَّهُ ، وَعَلَى هَذَا النَّحْوِ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي نَفَهَمَهَا وَيَفْقَهَهَا مَنْ يَسْمَعُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ . فَهَمُ ، وَالْعَدْنَانِيَّةُ الْفُرْعُ ، مِنْهُمْ أَخَذُوا الْعَرَبِيَّةَ ، وَبِلِسَانِهِمْ تَكَلَّمَ أَبْنَاءُ إِسْمَاعِيلَ هِجْرَتِهِمْ إِلَى الْحِجَازِ ، شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ جَدِّهِمْ إِسْمَاعِيلَ ، فَتَكَلَّمَ بِالْعَرَبِيَّةِ ، بَعْدَ أَنْ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِلُغَةِ أَبِيهِ الَّتِي كَانَتْ الْإِرْمِيَّةَ ، أَوْ الْكَلْدَانِيَّةَ ، أَوْ الْعِبْرَانِيَّةَ عَلَى بَعْضِ الْأَقْوَالِ

وَتَجِدُ الْأَخْبَارِيَّينَ وَالْمُؤَرِّخِينَ يَتَّقِسِمُونَ الْعَرَبَ أحياناً إِلَى طَبَقَتَيْنِ : عَرَبٌ عَارِبَةٌ ، وَعَرَبٌ مُسْتَعْرَبَةٌ .

وَيَدْخُلُونَ فِي الْعَرَبِ الْعَارِبَةَ عَاداً وَعَبِيلَ ابْنِي (عَوْصِ بْنِ إِرْمِ) ،

وَلَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى أَنْ نَعُودَ ، فَتَقُولُ : أَنْ كُلُّ مَا رُوِيَ التَّقْسِيمِ وَمَا رَوَاهُ الرُّوَاهُ مِنَ الْأَخْبَارِ تِلْكَ الطَّبَقَاتُ ،

لَمْ يَرِدْ إِلَيْنَا مِنْ التَّنْصُوصِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَإِنَّمَا وَرَدَ إِلَيْنَا مُتَوَاتِراً مِنَ الْكُتُبِ الْمَدُونَةِ فِي الْإِسْلَامِ ، لِذَلِكَ لَا

نَسْتَطِيعُ أَنْ نَجْرُو فَتَقُولُ : أَنَّ هَذَا التَّقْسِيمِ وَضَعَهُ الْجَاهِلِيُّونَ ، وَتَوَارَثُوهُ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى

صَدْرِ الْإِسْلَامِ ، ثُمَّ مِنْهُ وَصَلَ إِلَيْنَا : وَتَقْسِيمِ الْعَرَبِ إِلَى طَبَقَاتٍ وَذَلِكَ مِنْ نَاحِيَةِ الْقَدَمِ وَالتَّقَدُّمِ فِي الْعَرَبِيَّةِ تَقْسِيمٌ لَا نَجِدُ لَهُ ذِكْرًا لَا فِي التَّوْرَةِ أَوْ الْمَوَارِدِ الْيَهُودِيَّةِ الْأُخْرَى وَلَا فِي الْمَوَارِدِ الْيُونَانِيَّةِ أَوْ اللَّاتِينِيَّةِ ، أَوْ السُّرْيَانِيَّةِ . وَيُظْهِرُ أَنَّهُ تَقْسِيمٌ عَرَبِيٌّ خَالِصٌ ، نَشَأُ الْجَمْعَ بَيْنَ الْعَرَبِ الَّذِينَ ذَكَرَ أَنَّهُمْ بَادُوا قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ غَيْرُ ذِكْرِيَّاتٍ .

الْعَرَبُ الْعَارِبَةُ

أَمَّا الطَّبَقَةُ الثَّانِيَّةُ مِنْ طَبَقَاتِ الْعَرَبِ بَعْدَ الْبَائِدَةِ ، فَهِيَ (الْعَرَبُ الْعَارِبَةُ) عَلَى أَقْوَالِ التَّسَابِينِ ، وَهُمْ مِنْ أَتْبَاءِ قَحْطَانَ وَإِسْلَافِ الْقَحْطَانِيِّينَ الْمُنَافِسِينَ لِلْعَرَبِ ، الَّذِينَ هُمُ الْعَرَبُ الْمُسْتَعْرَبَةُ فِي عُرْفِ التَّسَابِينِ الْعَدَنَانِيِّينَ .

وَقَحْطَانَ الَّذِي يَرُدُّ فِي الْكُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ ، هُوَ يَقْطَانُ (الَّذِي يَرُدُّ اسْمُهُ فِي سَفَرِ التَّكْوِينِ ، وَهُوَ (قَحْطَانَ بْنِ عَابِرِ بْنِ شَالِحِ بْنِ أَرْفَخْشَدِ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحِ))

فِي رَأْيِ أَكْثَرِ التَّسَابِينِ . وَهُوَ يَقْطَانُ بْنُ عَابِرِ بْنِ شَالِحِ بْنِ أَرْفَكَشَادِ بْنِ سَامِ ابْنِ نُوحٍ (فِي التَّوْرَةِ قَرَّرَ مِنْ ذَلِكَ مُطَابَقَةً تَامَّةً بَيْنَ النَّسَبِ الْوَارِدِ فِي الْكُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ وَالتَّسَبُّبِ الْوَارِدِ فِي التَّوْرَةِ مِمَّا يَدُلُّ دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى أَنَّ الْإِخْبَارِيِّينَ أَخَذُوا عِلْمَهُمْ بِنَسَبِهِ مِنْ رِوَايَاتِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَهُمْ يُؤَيِّدُونَ ذَلِكَ وَلَا يُنْكَرُونَهُ وَقَدْ سَرَدَ بَعْضُ الْإِخْبَارِيِّينَ نَسَبَ قَحْطَانَ فِي شَكْلِ آخَرَ : مِثْلَ (قَحْطَانَ بْنِ هُودِ بْنِ شَالِحِ بْنِ أَرْفَخْشَدِ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحِ (عَلَى أَنَّ هُودًا هُوَ عَابِرٌ ، أَوْ) قَحْطَانَ بْنِ هُودِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْخُلُودِ بْنِ عَادِ

بُنْ عَوْصِ بْنِ إِرْمِ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ) ، أو (قَحْطَانُ بْنُ يَمِّنِ بْنِ قَدَارٍ) ، أو (قَحْطَانُ بْنُ الْهَمَيْسَعِ بْنِ تَيْمَنَ بْنِ تَبْتِ بْنِ إِسْمَاعِيلِ بْنِ إِبْرَاهِيمِ) . فَتَرَى مِنْ ذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ شَجَرَاتِ النَّسَبِ أَدْخَلَتْ أَسْمَاءَ عَرَبِيَّةَ بَيْنَ الْأَسْمَاءِ الْمَأْخُودَةِ مِنَ التَّوْرَةِ .

وَقَدْ أَلْحَ بَعْضُ نَسَابِي الْيَمَنِ عَلَى جَعْلِ هُودٍ (عَابِرًا ، وَعَلَى جَعْلِهِ وَالِدِ قَحْطَانَ ، وَأَصْرُوا عَلَى وُرُودِ ذَلِكَ فِي الشَّعْرِ وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْعَسِيرِ عَلَيْهِمُ بِالطَّبَعِ إِجَادُ ذَلِكَ الشَّعْرِ وَوَضَعَهُ ، فَكَانُوا إِذَا نُوقِشُوا فِي ذَلِكَ ، اِحْتَجُّوا بِقَوْلِ الشَّاعِرِ : وَأَبُو قَحْطَانَ هُوَ ذُو الْحَقِيفِ .

وَالْقَائِلُونَ أَنَّ (قَحْطَانَ) هُوَ (قَحْطَانُ بْنُ الْهَمَيْسَعِ بْنِ تَيْمَنَ بْنِ تَبْتِ بْنِ إِسْمَاعِيلِ) نَسَابُو وَوَلَدَ (نِزَارِ بْنِ مَعَدِّ) ، أَيْ النَّزَارِيَّةَ ، الَّذِينَ كَانُوا يُقَابِلُونَ (الْيَمَانِيَّةَ)

فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ وَفِي الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ وَالْعَبَّاسِيَّةِ ، يُؤَيِّدُهُمْ فِي ذَلِكَ بَعْضُ الْيَمَانِيَّةِ مِثْلَ (هِشَامِ بْنِ الْكَلْبِيِّ) ، وَ (الشَّرْقِيِّ بْنِ الْقَطَامِيِّ) وَ (نَضْرِ بْنِ زُرُوعِ الْكَلْبِيِّ) وَ (الْهَيْثَمِ بْنِ عَدِيِّ) وَيُظْهِرُ أَنَّ غَايَتَهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَصَلَ نَسَبَ قَحْطَانَ بِشَجَرَةِ نُسَبِ أَوْلَادِ إِسْمَاعِيلِ . أَمَّا سَائِرُ الْيَمَانِيَّةِ ، فَتَأْتِي ذَلِكَ ، وَتَذْهَبُ إِلَى أَنَّهُ قَحْطَانُ بْنُ عَابِرِ بْنِ شَالِحِ بْنِ أَرْفَحْشَدِ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ وَتَسْتَهْدَفُ هَذِهِ الرِّوَايَاتُ غَايَةَ عَاطِفِيَّةً بَعِيدَةً عَلَى مَا يَظْهَرُ ، كَانَتْ ذَاتَ أَهْمِيَّةٍ فِي نَظَرِ الْقَحْطَانِيِّينَ ، هِيَ وَصَلَ نَسَبُهُمُ بِالْأَنْبِيَاءِ . فَبَعْدَ أَنْ ذَكَرُوا مَا ذَكَرُوا مِنْ أَحْبَابِ مُلْكِهِمْ وَدَوْلِهِمْ قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، وَجَدُوا أَنَّ الْعَدْنَانِيِّينَ يَفْخَرُونَ عَلَيْهِمْ مَعَ ذَلِكَ بِأَنَّ فِيهِمُ النَّبُوَّةَ وَالْأَنْبِيَاءَ ، مِنْهُمْ الرَّسُولُ ، وَفِيهِمْ إِسْمَاعِيلُ جَدَّهُمْ . فَأَرَادُوا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ أَجْدَادُ أَنْبِيَاءَ : أَنْبِيَاءَ خَلَصَ قَحْطَانِيُّونَ ، أَوْ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ نُسَبٌ يَتَّصِلُ بِنَسَبِ إِسْمَاعِيلِ عَلَى الْأَقْلَ ، أَوْ أَنْ يَصِلَ نُسَبُ إِسْمَاعِيلِ بِأَسْبَابِ نَسَبِهِمْ ، فَقَالُوا : أَنَّهُمْ مِنْ نَسْلِ هُودٍ ، وَهُوَ ذُو نَبِيِّ مِنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَقَالُوا : أَنَّ قَحْطَانَ مِنْ

نَسَلَ إِسْمَاعِيلَ ، وَقَالُوا : أَنْ هُوَ دَا هُوَ عَابِرٌ ، وَعَابِرٌ مِنْ نَسَلِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَقَالُوا أَشْيَاءَ أُخْرَى هَذَا الْقَبِيلِ
تُرْمِي إِلَى تَرْجِيحِ كَثْمِهِمْ عَلَى كَفِّهِ مَنْفَسِيهِمُ الْعَدْنَانِينَ فِي الْفَخْرِ بِالْأَنْسَابِ عَلَى الْأَقْلِ وَلَمْ يُعْجَبِ الْيَمَانِيَّةُ
الْمَعْنَى الْوَارِدُ فِي التَّوْرَةِ لِلْفِظَةِ (يَقْطَان) (يَنْطُن) ، وَلَعَلَّهُمْ عَرَفُوا مَعْنَاهَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَعَكَسُوا
الْمَعْنَى بِأَنْ صَيَّرُوهُ عَلَى الضَّدِّ تَمَامًا . جَعَلُوهُ (الْجَبَّار) ، وَقَالُوا : (وَأَسْمُهُ فِي التَّوْرَةِ الْجَبَّارُ ، مُؤَكِّدِينَ
جَازِمِينَ . أَمَّا فِي التَّوْرَةِ وَعِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَفِي الْعِبْرَانِيَّةِ ، فَهُوَ الْعَكْسُ ، ذ (يَقْطَان) فِي التَّوْرَةِ لَفْظُهُ
تَعْنِي صَائِرٌ صَغِيرٌ (فَهِيَ فِي مَعْنَى : (صَغِير) . وَبَيْنَ صَغِيرٍ وَجَبَّارٍ فَرْقٌ كَبِيرٌ . وَهَكَذَا صَارَ الصَّغِيرُ
جَبَّارًا . وَبِهَذَا التَّفْسِيرِ أَعَادَ النَّسَابُونَ أَوْ أَحَدَ الْمُتَحَدِّثِينَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْهَيْبَةَ وَالْمَكَانَةَ إِلَى
(قحطان)

وَلَمْ يُرِدْ اسْمُ (يَعْرَب) فِي الشَّعْرِ الْجَاهِلِيِّ . وَإِنَّمَا وَرَدَ اسْمُهُ فِي شَعْرِ يُنْسَبُ إِلَى حَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ ، وَفِي
شَعْرِ يُنْسَبُ إِلَى (مُضَاضِ بْنِ عَمْرِو الْجُرْهُمِيِّ) ، وَهُوَ مِنْ جُرْهُمٍ ، قِيلَ : أَنَّهُ قَالَ لَمَّا أُخْرِجْتُمْ الْأَرْضَ
مِنْ مَكَّةَ . وَالشَّعْرَانِ مِنَ النَّوْعِ الْمَصْنُوعِ الْمَحْمُولِ عَلَى حَسَّانٍ وَعَلَى (مُضَاضِ) الَّذِي لَا أُذْرِي أَكَّانَ
يَتَكَلَّمُ

وَإِلَى يَعْرَبٍ يُنْسَبُ أَهْلُ الْأَخْبَارِ نُشُوءَ الْعَرَبِيَّةِ ، فَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَعْرَبَ فِي لِسَانِهِ ، وَلِهَذَا قِيلَ
لِلْسَانَةِ (الْعَرَبِيَّةُ) . وَهَذِهِ رِوَايَةٌ قحطانية تَعَارَضَ الرِّوَايَاتِ الْعَدْنَانِيَّةِ بِالطَّبْعِ ، وَيُظْهِرُ مِنْ بَعْضِ رِوَايَاتِ
أَهْلِ الْأَخْبَارِ أَنَّ (يَعْرَبُ) هُوَ الَّذِي جَاءَ بِوَلَدِهِ إِلَى الْيَمَنِ ، فَأَسْكَنَهُمْ بِهَا ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ تُذَكَّرِ الْمَوْطِنُ الَّذِي

وَقَدْ عَشَرَ الْعُلَمَاءُ عَلَى نَصِّ وَسَمَّوْهُ بِ (Rep . Epigr . 4304) ، هَذَا نَصُّهُ :

عَبْدُ شَمْسٍ ، سَبَأُ بْنُ يَشْجُبَ ، يَعْرَبُ بْنُ قحطَانَ (

وَهُوَ نَصُّ أَشْكَ فِي صِحَّتِهِ ، وَأَرَى أَنَّهُ وَضَعَ بَعْدَ الْجَاهِلِيَّةِ بَرَمَنَ ، قَدْ يَكُونُ غَيْرَ بَعِيدٍ صَنَعَهُ بَعْضُ مَنْ تَعَلَّمَ حُرُوفَ الْمُسْنَدِ ، أَوْ مِمَّنْ يَتَقَنُونَ صِنَاعَةَ تَرْبِيفِ الْعَادِيَّاتِ الْيَمَانِيَّةِ ، لِأَنَّ أُسْلُوبَ الْمُسْنَدِ مَعْرُوفٌ ، وَلَا نَجِدُ فِي نُصُوصِهِ نَصًّا وَاحِدًا دُونَ عَلَى هَذَا التَّنَسُّقِ فِي تَدْوِينِ النَّسَبِ . ثُمَّ إِنَّ هَذَا النَّسَبَ هُوَ نَسَبٌ مُتَأَخَّرٌ وَضَعَ عَلَى أَثَرِ اخْتِدَامِ النَّزَاعِ بَيْنَ الْقَحْطَانِيِّينَ وَالْعَدْنَانِيِّينَ فِي الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ كَمَا سَنَرَى فِيمَا بَعْدُ . وَالظَّاهِرُ أَنَّ نَاقِشَ النَّصِّ ، وَهُوَ مِنَ الْيَمَنِ ، أَرَادَ إِثْبَاتَ وُرُودِ هَذَا النَّسَبِ عِنْدَ السَّبْئِيِّينَ وَإِفْتِنَاحِ النَّاسِ بِأَنَّهُ كَانَ مَعْرُوفًا فَدُونَهُ ، عَلَى كُلِّ حَالٍ إِنَّ فِي اسْتِطَاعَةِ الْبَاحِثِينَ تَقْدِيرَ زَمَنِ تَدْوِينِ هَذَا النَّصِّ ، وَدِرَاسَةِ طَبِيعَةِ اللَّوْحِ الَّذِي دُونَ عَلَيْهِ بِالطَّرْقِ الْفَنِّيَّةِ ، وَعِنْدَيْدَ يُمَكِّنُ إِثْبَاتَ صِحَّةِ تِلْكَ الْكِتَابَةِ أَوْ عَدَمِ صِحَّتِهَا بِطَرِيقِهِ عِلْمِيَّةٍ وَيُظْهِرُ أَنَّ نَسَابِي أَهْلِ الْيَمَنِ كَانُوا يَعْتَمِدُونَ عَلَى عُلَمَائِهِمْ فِي النَّسَبِ ، وَعَلَى مَا كَانَ مَدُونًا عِنْدَهُمْ مِنْهُ ، وَلِهَذَا تَجِدُهُمْ يَحْتَلِفُونَ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَنْسَابِ أَهْلِ الْيَمَنِ عَنِ التَّسَابِيهِ الشَّمَالِيِّينَ السَّاكِنِينَ فِي الْعِرَاقِ أَوْ فِي بِلَادِ الشَّامِ .

الْعَرَبُ الْمُسْتَعْرَبَةُ

وَالطَّبَقَةُ الثَّلَاثَةُ مِنْ طَبَقَاتِ الْعَرَبِ عَلَى رَأْيِ أَهْلِ الْأَخْبَارِ - هُمْ (الْعَرَبُ الْمُسْتَعْرَبَةُ) (الْمُتَعْرَبَةُ) ، وَيُقَالُ لَهُمْ الْعَدْنَانِيُّونَ أَوْ النَّزَارِيُّونَ أَوْ الْمَعْدِيُّونَ . وَهُمْ مِنْ صُلْبِ (إِسْمَاعِيلِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ) وَأُمَّرَأَتِهِ (رَعْلَةَ بِنْتُ مِضَاضِ بْنِ عَمْرِو الْجُرْهُمِيِّ) وَهُنَا خَالَفُوا التَّوْرَةَ الَّذِي يَقُولُ إِنَّهُ تَزَوَّجَ مِنْ امْرَأَةٍ مِصْرِيَّةٍ ، لِأَنَّهُمْ انْضَمُّوا إِلَى الْعَرَبِ الْعَارِبَةِ ، وَأَخَذُوا الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ . وَمِنْهُمْ تَعَلَّمَ إِسْمَاعِيلُ الْجَدُّ الْأَكْبَرُ لِلْعَرَبِ الْمُسْتَعْرَبَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، فَصَارَ نَسْلُهُمْ مِنْ تَمَّ مِنْ الْعَرَبِ وَانْدَجَّوْا فِيهِمْ . وَمَوْطَنُهُمُ الْأَوَّلُ مَكَّةَ عَلَى مَا يُسْتَنْبَطُ مِنْ كَلَامِ

الْأَخْبَارِيِّينَ ، فِيهَا تَعَلَّمَ (إِسْمَاعِيلُ) الْعَرَبِيَّةَ ، وَفِيهَا وُلِدَ أَوْلَادُهُ ، فَهِيَ إِذْنُ الْمَهْدِ الْأَوَّلِ
لِلْإِسْمَاعِيلِيِّينَ وَيَذُكُرُ أَهْلَ الْأَخْبَارِ أَنَّ (إِسْمَاعِيلَ) وَوَلَدَ مِنْ زَوْجَةٍ (رَعْلَةَ) ، اثْنَيْ عَشَرَ ، وَ (قَيْدِرَ) وَ
(أَدْبَلَ) : (ثَابِتٌ) وَكَانَ أَكْبَرَهُمْ .

وَيَرْجِعُ بَعْضُ أَهْلِ الْأَخْبَارِ اخْتِلَافِ النَّاسِ فِي عَدَدِ الْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ فِيمَا بَيْنَ عَدْنَانَ وَإِسْمَاعِيلَ إِلَى أَيَّامِ
النَّبِيِّ ، فَهَمْ يَذُكُرُونَ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا فِي خِلَافٍ فِيمَا بَيْنَهُمْ فِي عَدَدِهِمْ ، وَإِنَّ الرَّسُولَ رَأَى خِلَافَهُمْ هَذَا ،
تَهَاوَمَ عَنْ تَجَاوُزِ نَسَبِ عَدْنَانَ ، وَأَمَرَهُمْ بِالتَّوَقُّفِ عِنْدَهُ . وَاتَّسَبَ النَّبِيُّ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إِلَى
عَدْنَانَ ، وَقَالَ : « كَذَبَ النَّسَابُونَ .

وَالْغَرِيبُ أَنَّ الرِّوَاةَ الَّذِينَ رَوَوْا هَذِهِ النِّسَابَ وَشَجَرَاتِ النَّسَبِ الَّتِي يَتَّصِلُ سَنَدُ رِوَايَتِهَا بِهِمْ ، كَانُوا
الْكَلْبِيِّ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَأَمثَالِهَا ، هُمْ أَنْفُسُهُمْ يَرُوُونَ هَذَا النَّسَبَ بِأَشْكَالٍ مُخْتَلِفَةٍ وَمْتَضَارِبَةٍ ،
وَطَالَمَا حَرَّفُوا الْأَسْمَاءَ الْعِبْرَانِيَّةَ ، وَرَوَوْهَا ، وَقَدْ يَحْشُونَ بَيْنَهَا أَسْمَاءَ عَرَبِيَّةَ . وَقَدْ رَوَى رِوَايَاتِهِمْ هَذِهِ
أُنَاسٌ مُعَدَّدَةٌ بِصُورٍ مُتَعَدِّدُونَ ، وَلَكِنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّهُمْ سَمِعُوهَا مِنْهُمْ ، أَوْ تَقَلُّوهَا مِنْ مُؤَلَّفَاتِهِمْ .

وَيَلَاحِظُ أَنَّ حَظَّ مُصْطَلَحِ (عَدْنَانَ) وَ (عَدْنَانِيَّةِ) وَ (قَبَائِلِ عَدْنَانِيَّةِ) قَدْ بَرَزَ فِي الْإِسْلَامِ بَرُوزًا لَا
نَلْحِظُهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بَلْ حَتَّى فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْمَلَّاصِقَةِ لِلْإِسْلَامِ وَهَذَا غَلَبَ عَلَى مُصْطَلَحِ (مَعَدِ) وَ
(مَعَدِيَّةِ) وَ (قَبَائِلِ مَعَدِيَّةِ) ، فَصَارَ (عَدْنَانَ) (فِي مُقَابِلِ) قَحْطَانَ (وَمِنْ هُنَا صَارَ الْعَرَبُ قَحْطَانِيِّينَ
أَوْ عَدْنَانِيِّينَ ، وَاخْتَفَتِ بِالتَّدْرِيجِ الْمُصْطَلَحَاتُ الْإِتْسَابِيَّةُ الْأُخْرَى الَّتِي شَاعَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوْ فِي

صَدْرِ الْإِسْلَامِ وَيُسْتَتَجُّ مِنْ أَقْوَالِ عُلَمَاءِ اللُّغَةِ أَنَّ لَفْظَةَ (مَعَدِ) (تَعْنِي الشَّظْفَ فِي الْعَيْشِ ، وَالْغَلْظَ فِي
الْمَعَاشِ وَالتَّقَشُّفِ ، وَانَّهَا تَعْنِي حَيَاةَ بَدْوِيَّةَ شَاقَّةَ بَعِيدَةً عَنْ كُلِّ وَسَائِلِ الْحَضَرِ وَتَرَفِ أَهْلِ الْمَدَرِ ، وَهَذَا

بِالنَّظَرِ لِأَهْلِ الْمُدُنِ وَأَهْلِ الْمَدَرِ نَوْعٌ مِنَ الْخُشُونَةِ لَا يَحْمَدُ الْإِنْسَانُ عَلَيْهِ . وَقَدْ وُصِفَتْ مُلَابِسُهُمْ
بِالْخُشُونَةِ كَذَلِكَ فَمَيَّزَتْ عَنْ غَيْرِهَا ، جَاءَ (عَلَيْكُمْ بِالْبُسْبُوسِ الْمَعْدِيَةِ ، أَيِ خُشُونَةِ اللَّبَاسِ ، وَرُوي :
اخْشَوْسُونُوا وَتَمَعَّدُوا " . وَبِهَذَا الْمَعْنَى وَرَدَ : وَتَسْمَعُ بِالْمَعْيَدِيِّ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ . فَالظَّاهِرُ أَنَّ كَلِمَةَ
مَعَدَ كَانَتْ تَعْنِي مَا تَعْنِيهِ (اريبي) (عربي) عِنْدَ الْأَشُورِيِّينَ ، أَيِ الْبَدُوِّ وَالْأَعْرَابِ . غَيْرَ أَنَّهَا خُصِّصَتْ
بَعْدَ ذَلِكَ بِقَبَائِلٍ خَاصَّةٍ الْقَبَائِلِ الَّتِي نُسِبَتْ نَفْسَهَا إِلَى عَدْنَانَ وَإِسْمَاعِيلَ ، وَأَكْثَرُهَا مِنْ مَكَّةَ وَحَوْلَهَا ، ثُمَّ
تَغَلَّبَتْ عَلَيْهَا (الْعَدْنَانِيَّةُ) (فِي الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ فَمَا بَعْدَهُ وَالْمِثْلُ : (تَسْمَحُ بِالْمَعْيَدِيِّ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ) ،
مِنْ الْأَمْثَالِ الْمَشْهُورَةِ .

أثر التوراة في صناعة الأنساب

لهذا المدون في التوراة عن الإسماعيليين والقحطانيين ، وعن نوح وأولاده ، وعن الأنساب الأخرى ، أثر
ظاهر على عمل أهل الأخبار والأنساب الذين اشتغلوا بموضوع النسب في الإسلام ، بل يظهر أن أثره
كان فعالاً ومؤثراً حتى في الجاهليين ، وذلك لاتصالهم واختلاطهم بأهل الكتاب .
وكان لما جاء في القرآن الكريم مجملًا من أمر آدم ونوح والطوفان وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل
وغيرهم ، وما جاء فيه من أمر عاد وثمود وقوم صالح وأصحاب الأيكة وقوم تبع ، أثر كبير أيضاً في
أهل الأخبار والتفسير حملهم على البحث عنهم . والتفتيش عن أخبارهم من الأحياء المسنين الذين
كانوا يقصون على جيلهم قصص الماضين وأخبار العرب المتقدمين ، ومن أهل الكتاب الذين كان لهم
إلمام بما جاء في التوراة من الرسل والأنبياء والأمم القديمة والأنساب .

وَيُمْكِنُ حَضْرَ الرِّوَايَاتِ الْوَارِدَةِ فِي الْأَنْسَابِ ، وَالْمَأْخُوذَةِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَرَجْعَهَا إِلَى الطَّرِيقِ الْأَصْلِيَّةِ
الَّتِي وَرَدَتْ مِنْهَا وَإِلَى الْأَمَاكِنِ الَّتِي ظَهَرَتْ فِيهَا ، وَسَتَجِدُ بَعْدَ الْبَحْثِ أَنَّ أَكْثَرَ رِوَاةِ هَذَا التَّنَوُّعِ مِنْ
الْأَخْبَارِ كَانُوا قَدْ اسْتَقَوْا مِنْ مُسْلِمَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، مِثْلَ كَعْبِ الْأَخْبَارِ وَوَهْبِ بْنِ مُنْبِهٍ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنِ
سَلَامٍ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبِ الْقُرْظِيِّ ، أَنَّ هَذَا الْخَطَأَ لَمْ يَبْعَثْ فِي ضَبْطِ الْأَسْمَاءِ فَقَطْ ، بَلْ وَقَعَ فِي أُمُورٍ
جَوْهَرِيَّةٍ أُخْرَى تَرِينًا جَهْلٍ بَعْضَ الرِّوَاةِ بِجَدْوَلِ الْأَنْسَابِ ، وَتَرِينًا الْخَلْطِ أحيانًا بَيْنَ الرِّوَايَاتِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ
وَالرِّوَايَاتِ الْإِيرَانِيَّةِ حَتَّى تَكُونَ مِنْ هَذَا الْمَجْمُوعِ الْمُدَوَّنِ فِي الْكُتُبِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَنِ الْأَنْسَابِ خَلِيطٌ مِنْ
رِوَايَاتِ إِسْرَائِيلِيَّةٍ وَرِوَايَاتِ فَارِسِيَّةٍ وَقَصَصِ شَعْبِيٍّ عَرَبِيٍّ ، يُجُوزُ أَنْ نُضِيفَ إِلَيْهِ عِنصرًا آخَرَ هُوَ
الْوَضْعُ ، فَقَدْ وَضَعَ الرِّوَاةُ شَيْئًا مِنْ عِنْدِهِمْ حِينَ عَجَزُوا عَنِ الْحُصُولِ عَلَيْهِ مِنْ الْمَوَارِدِ الثَّلَاثَةِ الْمَذْكُورَةِ ،
وَكَانَ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ سَدِّ تِلْكَ الثَّغْرِ ، فَسَدُّوْهَا بِمَا جَادَتْ بِهِ قَرَائِحِهِمْ مِنْ شَعْرٍ وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ ، مَا
أَدْخَلُوهُ عَلَى التَّوْرَةِ أَيْضًا مِنْ أَنْسَابٍ جَدِيدَةٍ صَنَعُوْهَا بِأَنْفُسِهِمْ .

أوردوها فِي التَّوْرَةِ وَلَيْسَ لَهَا فِي الْوَأَقِعِ وَجُودٌ فِيهَا خُذَ آدَمَ ، فَقَدْ صَيَّرَهُ الْأَخْبَارِيُّونَ كِيَوْمِثَ وَهُوَ مِنْ
الْفَرَسِ ، وَخُذَ نُوْحًا تَرَانَهُ صَارَ أَفْرِيدُونَ عِنْدَ أَهْلِ الْأَخْبَارِ وَهُوَ مِنَ الْفَرَسِ أَيْضًا ، وَجَعَلُوا (لَاوَدَ) ابْنًا
مِنْ أَبْنَاءِ أَرَمَ مِنْ سَامٍ أَخِي عَوْصَ وَكَأْثَرَ ، مَعَ أَنَّهُ (لُودَ) فِي التَّوْرَةِ ، وَهُوَ شَقِيْقُ إِرَمَ بْنِ سَامٍ وَوَالِدُ عَوْصَ
وَجَائِرَ ، وَقَالُوا أَشْيَاءَ أُخْرَى لَا وَجُودَ لَهَا فِي التَّوْرَةِ أَمَا مَتَى دَخَلَتْ أَنْسَابُ التَّوْرَةِ إِلَى الْعَرَبِ ، وَمَتَى
ظَهَرَتْ وَشَاعَتْ بَيْنَهُمْ ، فَنَحْنُ لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَحْدُدَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ مَضْبُوطٍ بِالْقِيَاسِ إِلَى أَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ
وَلَكِنَّا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ إِنَّهَا كَانَتْ قَدْ تَسَرَّبتْ إِلَى الْجَاهِلِيِّينَ مِنَ الْيَهُودِ ، وَذَلِكَ بِوَجُودِهِمْ فِي الْجَزِيرَةِ

العَرَبِيَّةِ واتصاهم بالعَرَبِ ، وَقَدْ يَكُونُ مِنَ التَّصَارِي أَيْضاً ، وَقَدْ تَفَشَّتْ فِي أَمَاكِنَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَيَبْنَ
بَعْضِ الْقَبَائِلِ ، وَإِنَّ هَؤُلاءِ أَيْ أَهْلَ الْكِتَابِ الَّذِينَ أَشَاعُوا بَيْنَ الْجَاهِلِيِّينَ هَذِهِ الْأَنْسَابَ . وَقَدْ تَكُونُ
لِلْيَهُودِ يَدٌ فِي إِشَاعَةِ خَبَرِ رَابِطَةِ النَّسَبِ وَأَوَاصِرِ الْقُرْبَى الَّتِي تُرْبِطُ بَيْنَهُمْ وَيَبْنِي الْعَرَبَ ، وَذَلِكَ لِلتَّأثيرِ
عَلَيْهِمْ وَلِلتَّقَرُّبِ مِنْهُمْ ، وَلِلسَّكَنِ بَيْنَهُمْ بِهُدُوءٍ وَسَلَامٍ .

وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ جازمينَ أَنَّ هَذَا الْقِصَصَ الْإِسْرَائِيلِيَّ ، وَهَذِهِ الْأَنْسَابَ الَّتِي يَرَوِيهَا أَهْلُ الْأَخْبَارِ ، لَمْ
تَكُنْ كَثِيرَةً الشُّيُوعَ بَيْنَ الْجَاهِلِيِّينَ ، وَإِنَّمَا نَرَى مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ الْأَخْبَارِيِّينَ قَدْ رَبطُوا نُسَبَ الْعَرَبِ الْبَائِدَةِ أَيْ
الْعَرَبِ الْأُولَى بِالْإِرَمِيِّينَ (الْأَرَامِيِّينَ) وَاللُّوْدِيِّينَ (الْأَلَوْدِيِّينَ) وَالْعَوْصِيِّينَ وَالْجَائِرِيِّينَ (الْغَائِرِيِّينَ) . وَلَا نَجِدُ
فِي كُتُبِهِمُ الْأَسْبَابَ الَّتِي حَمَلْتَهُمْ عَلَى رَجْعِ أَنْسَابِ هَؤُلاءِ الْعَرَبِ إِلَى هَؤُلاءِ الْأَبَاءِ . وَيُظْهِرُ أَنَّ فَكْرَهُ وَجُودِ
عَرَبِ أَوْلَى عَاشَتْ قَبْلَ مُعَارَكَةِ النَّسَبِ بَيْنَ الْقَحْطَانِيِّينَ وَالْعَدْنَانِيِّينَ .

أَمَّا أَثرُ التَّوْرَةِ عَلَى التَّسَابِينِ وَأَهْلِ الْأَخْبَارِ بِالنَّسَبِ إِلَى الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْعَرَبِ ، الطَّبَقَةِ الَّتِي دَعَاها
الْعَرَبُ الْعَارِبَةَ ، وَالْعَرَبُ الْقَحْطَانِيِّينَ ، فَقَدْ ذَكَرْتُ فِي الْفَصْلِ الْخَاصِّ بِهَؤُلاءِ الْعَرَبِ أَنَّ (قَحْطَانَ) جَدُّ
الْقَحْطَانِيِّينَ ، هُوَ (يَقْطَان) فِي التَّوْرَةِ . وَقَدْ نَسَبَهُ أَكْثَرُ أَهْلِ الْأَخْبَارِ إِلَى (عَابِرِ بْنِ شَالِحِ بْنِ أَرْفَخْشَدِ بْنِ
سَامِ بْنِ نُوحٍ) . وَصَيَّرَهُ بَعْضُهُمْ ابْنًا مِنْ أَبْنَاءِ سَامٍ . وَقَدْ ذَكَرْتُ أَنَّ النَّسَبَ الثَّانِيَّ نُسَبَ مَغْلُوطٍ ، وَإِنَّ
نَسَبَهُ الْمَذْكُورُ فِي التَّوْرَةِ يَجْعَلُهُ الْإِبْنَ الثَّانِيَّ الْأَصْغَرَ لـ (عَابِرِ) . أَمَّا الْوَلَدُ الْبَكْرُ فَهُوَ فَالِجُ ، فَيَكُونُ
الْعِبْرَانِيُّونَ وَالْيَقْطَانِيُّونَ أَبْنَاءَ عَمِّ وَفَقَّ هَذَا النَّسَبِ . وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ الْبَاحِثِينَ فِي التَّوْرَةِ إِلَى أَنَّ (يَقْطَانَ)
(لَا وَجُودَ لَهُ إِنَّمَا ابْتَدَعَ ابْتِدَاعًا لِإِيحَادِ صِلَةِ بَيْنِ الْعَرَبِ وَالْعِبْرَانِيِّينَ وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ الْبَاحِثِينَ فِي التَّوْرَةِ
إِلَى أَنَّ عَابِرًا ، جَدُّ قَبِيلَةٍ كَبِيرَةٍ انْتَسَمَتْ عَلَى نَفْسِهَا إِلَى قِسْمَيْنِ : قِسْمٌ بَقِيَ فِيمَا بَيْنَ النَّهْرَيْنِ ، وَهُوَ

الْقِسْمُ الَّذِي عُرِفَ بِذَرِيَةِ فَالِجِ ، وَمِنْ هَذِهِ الذُّرِّيَّةِ أَنْحَدَرَ الْعِبْرَانِيُّونَ ، وَقِسْمٌ تَرَكَ (مَا بَيْنَ النَّهْرَيْنِ)
 وَارْتَحَلَ إِلَى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَهُوَ الْقِسْمُ الَّذِي عُرِفَ بِـ (يَقْطَانِ) ، وَدَلِيلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ مَعْنَى (فَالِجِ)
 هُوَ (الْإِنْشِقَاقُ) ، وَإِنَّ فِي أَيَّامِهِ (قُسِمَتِ الْأَرْضُ) عَلَى رِوَايَةِ التَّوْرَةِ . وَمَعْنَى (الْإِنْشِقَاقِ) ذَلِكَ
 انْقِسَامُ ذُرِّيَّةِ (عَابِرِ) ، وَانْشِطَارُهُمْ إِلَى شَطْرَيْنِ وَقَدْ ذَكَرَ (الطَّبْرِيُّ) أَنَّ (بَنِي يَقْطَانَ) لَحِقَتْ بِالْيَمَنِ ،
 فَسُمِّيَتِ الْيَمَنُ حَيْثُ تَيَامَنُوا ، وَمُضَدَّرُ حَبْرُهُ هَذَا (ابْنُ هِشَامٍ) .

وَلَمْ يَنْلِ هَؤُلَاءِ الْأَوْلَادِ الثَّلَاثَةَ عَشَرَ عِنَايَةَ الْأَخْبَارِيِّ (ابْنِ الْكَلْبِيِّ) ، وَلَا عِنَايَةَ (مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ) ،
 أَوْ غَيْرِهِمَا مِنْ أَهْلِ الْأَخْبَارِ الْمَعْرُوفِينَ بِأَخْذِهِمْ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، إِذْ لَمْ يَشِيرُوا إِلَيْهِمْ فِي أَثْنَاءِ كَلَامِهِمْ
 عَلَى أَوْلَادِ (يَقْطَانَ) (يَقْطَانَ) ، وَلَمْ يَتَحَدَّثُوا عَنْهُمْ . بَلْ نَسَبُوا إِلَيْهِ أَوْلَادًا آخَرِينَ تَرَاوَحَ عَدَدُهُمْ مِنْ عَشْرَةِ
 ذُكُورٍ إِلَى وَاحِدٍ وَثَلَاثِينَ ، أَسْمَاؤُهُمْ أَسْمَاءُ عَرَبِيَّةٍ ، لَا وَجُودَ لَهَا فِي التَّوْرَةِ ، مَا عَدَا اسْمًا أَوْ اسْمَيْنِ .
 وَهَذَا الْإِهْمَالُ يَثِيرُ فِي نَفْسِنَا الدَّهْشَةَ وَالِاسْتِعْرَابَ : لَمْ أَهْمَلْ يَا تَرِي هَؤُلَاءِ الْأَخْبَارِيُّونَ أَبْنَاءَ قَحْطَانَ
 الْمَذْكُورِينَ فِي التَّوْرَةِ مَعَ أَنَّهُمْ أَخَذُوا (يَقْطَانَ) مِنَ التَّوْرَةِ ، وَجَعَلُوا نَسَبَهُ نَسَبًا لِقَحْطَانَ ! وَلَمَّا تَكْرَمُوا
 عَلَيْهِ فَأَعْطَوْهُ عَدَدًا مِنَ الْأَوْلَادِ لَمْ يَأْتِ لَهُمْ ذِكْرٌ فِي التَّوْرَةِ ؟ وَلَمَّا لَمْ يَضُمَّ أَهْلُ الْأَخْبَارِ أَوْلَادَ (يَقْطَانَ
) الْمَذْكُورِينَ إِلَى أَوْلَادِ قَحْطَانَ ؟ إِمَّا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى جَهْلِ أَهْلِ بَيْتِهِمْ وَعَدَمِ وَقُوفِهِمْ عَلَيْهِمْ أَمْ هُوَ عَمَلٌ
 مَقْصُودٌ ؟ إِنْ كَانَ جَهْلُهُمْ بِهِمُ السَّبَبُ هُوَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الْأَخْبَارِ لَمْ يَكُونُوا يَرْجِعُونَ إِلَى التَّوْرَةِ رَأْسًا ،
 يُقْرَعُونَ أَسْفَارَهَا وَيَأْخُذُونَ مِنْهَا ، بَلْ كَانُوا - وَهَذَا هُوَ مَا أَذْهَبَ إِلَيْهِ - يَرَاغِعُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ
 وَيَأْخُذُونَ مِنْهُمْ مَا يُرِيدُونَ وَلِهَذَا لَمْ يَقِفُوا عَلَى أَوْلَادِ (يَقْطَانَ) ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْهُمْ ، أَوْ
 لِأَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ يَتَحَدَّثُوا إِلَيْهِمْ عَنْهُمْ . عَلَى أَنَّنَا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقْبَلَ هَذَا الْعُذْرَ ، ذَلِكَ لِأَنَّ أَهْلَ

الأخبار كانوا قد ذكروا أسماء أبناء (إسماعيل) ، تلوها من التوراة وعلى حسب الترتيب الوارد في (التكوين) . وهذا ما يجعلنا نتساءل : تم ذكر أهل الأخبار أبناء (إسماعيل) ، وأهلنا أبناء (يقطان هل هناك تعمد وعرض

أن الإجابة عن مثل هذه الأسئلة ، ليست سهلة في الواقع ، لأن أهل الأخبار لم يكونوا يسرون على قواعد ثابتة وأنظمة معينة في أخذ النسب ، ولهذا تراهم يتعمون في الغلط ، وذلك يدل على أن علمهم بالأمر الواردة في التوراة لم يكن علماً راسخاً ، وإن علم محدثهم من أهل الكتاب لم يكن راسخاً أيضاً ولم يكن مستمداً من التوراة رأساً ، بل من السماع والرواية في بعض الأحيان ، وإلا لما وقعوا في إغلاط شنيعة ، وما احتاجوا إلى الوضع والكذب ، كالذي تراه من كذب الأخبار وهوب بن منبه وأمثالهما مسلمة من اليهود .

الإسماعيليون

و (إسماعيل) هو الجد الأكبر للعرب المستعربة ، أي العرب العدنانيين وهو (يشمئيل) (Ishmael) في التوراة ومعنى الاسم (إلهي يسمع) ، أو (يسمع إلهي) . وهو ابن (إبراهيم) من زوجة (هاجر) . وتقول التوراة أنه (ختن) وهو في الثالثة عشرة من عمره ، ورحل إلى برية (فاران) فتزوج فيها من امرأة مصرية ، وعاش فيها رامياً بالسهام حيث اشتهر بالرمية . ولم تذكر التوراة بعد ذلك شيئاً عنه ، إلا ما ورد من أنه حضر دفن أبيه (إبراهيم) ، وأنه عاش (١٣٧) سنة .

ويعرف العبرانيون بوجود صلات قربي لهم بالإسماعيليين . ويظهر أن القبائل الإسماعيلية عاشت زمناً طويلاً في طور سيناء وفي جنوب فلسطين . عاشت عيشه أعرابية . ولهذا كان الإسماعيليون أهل

وَبِالْقِيَاسِ إِلَى الْيَقْطَانِيِّينَ الْمَسْتَقْرِينَ . وَقَدْ نَظَرَ الْعِبْرَانِيُّونَ نَظْرَهُ عَدَاءً إِلَى الْإِسْمَاعِيلِيِّينَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا
يَتَحَرَّشُونَ بِهِمْ وَيُعَيِّرُونَ عَلَيْهِمْ وَيَتَعَرَّضُونَ بِتِجَارَاتِهِمْ . وَقَدْ ذَكَرُوا فِي آيَاتِ (دَاوُدَ) . وَقَدْ وَرَدَ فِي
التَّوْرَةِ أَنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى (هَاجِرِ) (يَسْرَهَا بِأَنَّ نَسْلَ ابْنِهَا سَيَكْثُرُ وَيَنْمُو حَتَّى يَكُونَ أُمَّةً عَظِيمَةً ، وَهُوَ
كِتَابَةٌ عَنْ كَثْرَةِ عَدَدِ أَوْلَادِ الْأَعْرَابِ فِي الْآيَاتِ .

و (نباوت) هُوَ بَكْرُ إِسْمَاعِيلِ وَأَهْمُ الْقَبَائِلِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ فِي التَّوْرَةِ ، وَقَدْ أُعْطِيَ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ أَهْلُ
الْأَخْبَارِ أَيْضًا لِأَخْذِهِمْ مِنْهَا . وَنَحْنُ لَا نَعْرِفُ الْأَسْبَابَ الَّتِي جُعِلَتِ التَّوْرَةُ تُعَدُّهُ أَحْسَنَ أَوْلَادِ
(إِسْمَاعِيلِ) أَرَاعَتْ فِي ذَلِكَ بَعْدَ الْقَبِيلَةِ ، أَمْ رَاعَتْ قُرْبَهَا مِنَ الْعِبْرَانِيِّينَ ، أَمْ ضَخَامَتَهَا وَكَثْرَةَ عَدَدِهَا
بِالْقِيَاسِ إِلَى الْقَبَائِلِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ الْأُخْرَى ، أَمْ أَمُورًا أُخْرَى جُعِلَتِ الْعِبْرَانِيِّينَ يُنْظَرُونَ إِلَيْهِمْ عَلَى أَنَّهُمْ أَقْدَمُ
تِلْكَ الْقَبَائِلِ ؟ فَلَيْسَ فِي التَّوْرَةِ قَوَاعِدٌ ثَابِتَةٌ تَمْشَى عَلَيْهَا كِتَابَةُ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ فِي تَدْوِينِ الْأَنْسَابِ وَيُعْرَفُ (
نباوت) بـ (ثابت) و (فت) عِنْدَ الْإِحْبَارِيِّينَ . وَمِنْهُ وَمِنْ قَيْدَرِ ، نَشَرَ اللَّهُ الْعَرَبَ ، عَلَى رَأْيِ أَهْلِ
الْأَخْبَارِ " . وَقَدْ جَعَلَ بَعْضُ الْإِحْبَارِيِّينَ نَابِتًا وَالذَّلَّ (يَشْجُبُ) ، مَعَ أَنَّ (يَشْجُبُ) هُوَ ابْنُ (يَعْرَبِ)
عِنْدَ الْأَكْثَرِينَ . وَقَدْ وَرَدَ اسْمُ نَبَاوَتِ (مَعَ اسْمِ (قَيْدَارِ) فِي النُّصُوصِ الْأَشُورِيَّةِ وَيُظْهِرُ أَنَّهُمْ كَانُوا أَقْوِيَاءَ
كَثِيرِي الْعَدَدِ . وَيَدُلُّ وَرُودُ اسْمِهِمْ مَعَ (قَيْدَارِ) فِي التَّوْرَةِ فِي النُّصُوصِ الْأَشُورِيَّةِ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا
مُتَجَاوِرِينَ . وَلَمْ تُعَيَّنِ التَّوْرَةُ مَوَاضِعَ سُكْنِهِمْ ، وَلَكِنْ وَرُودُ اسْمِهِمْ فِي رَأْسِ قَائِمَةِ الْإِسْمَاعِيلِيِّينَ وَأَقْرَانِهِ
بِالْأَدُومِيِّينَ عَنْ طَرِيقِ الْمَصَاهِرَةِ وَوُقُوفِ الْعِبْرَانِيِّينَ عَلَى إِخْبَارِهِمْ يَدُلُّ كُلُّهُ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يُقِيمُونَ فِي
الْمَنَاطِقِ الْوَاقِعَةِ فِي جَنُوبِ شَرْقِيِّ فِلَسْطِينَ وَفِي الْأَقْسَامِ الْجَنُوبِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ بَادِيَةِ الشَّامِ . وَقَدْ ذَهَبَ

(كلاسر) إلى أن (نباوت) مشيخة (أو مملكة حكمت في (القصيم) ، وقد كانت معاصره لمملكة
(عربي) ، وكانت لا تزال مستقلة في أيام الفرس .

وقد ورد اسم (قيدار) في النصوص الآشورية ، ورد على هذه الصورة : (قدرو) (Kidru) و
(قدرو) (Kadra) ، كما ورد في المؤلفات (الكلاسيكية) ، فقال لهم (بلينيوس (Pliny)
(قدراي) (Cedrei) ، وذكر أنهم قبيلة عربية تقيم على مقربة من النبطا . وقد حاربهم (أشور
بنبال) ، وكان ملك (قيدار) في ذلك العهد ، ملك عرف باسم (أو أيطع) (U Aite) ابن
(خزاعيل) (Hazael) وقد ذكروهم (أشور بنبال) مع (عربي) (أربي) .

كما ذكروهم (حزقيال) مع العرب (العرب وكل رؤساء قيدار) ، مما يدل على أن مواطن (قيدار)
كانت تجاور العرب ، ويؤاد بالعرب هنا ، الإغراب يتفق ما جاء في نص (أشور بنبال) كل الاتفاق مع
وذكروا بعد (نباوت) في التوراة ، مما يدل على أنهم كانوا يقطنون في جوارهم ، كما ذكروا مع ممالك
حاصور التي ضربها (نبوخذ نصر) (بختنصر) . وقد نكل (بختنصر) بالقيدارين كذلك وحرب
بلادهم وأخذ غنائم كثيرة منهم ، واستولى على ما وقع في أيدي جيشه من أموالهم وخيامهم وغنمهم
وجمالهم وقد ورد وصف ذلك في سفر (إرمياء) .

ويظهر من التوراة أن القيدارين كانوا أعرابا يعيشون في الخيام ، عيشة أهل البداوة ، وقد وصفت
خيامهم بأنها خيام سود (أنا سوداء جميلة يا بنات

وأما أدبيل (Adbeel) ، فكناية عن قبيلة عربية أخرى من القبائل الإسماعيلية ، يرى بعض علماء
التوراة أنها عاشت في جنوب غربي البحر الميت . ويظن أنها قبيلة (أدب أيلة) (Dibiila)

Idibaila (ادبيله) (ادبعيله) (دبيله) (وبعيلة) المذكورة في كتابه من كتابات الملك (تغلا تبلسر الثالث) . وقد ذكر هذا الملك أنه عين نائباً عنه ، أو مندوباً سامياً (قيبو) (Kepu) على خمسة عشر موضعاً ، وكان اسم هذا المندوب (أدب أبل) (أدبيل) (Idibi ' il) ، وهو سيد قبيلة عرفت بهذا الاسم . والظاهر أنه قوض إليه أمر حماية الحدود والمحافظة عليها من الغزو . وتقع أرض هذه القبيلة على مقربة من الحدود المصرية وفي الجنوب من غزة " . وكانت هذه القبيلة لا تزال موجودة في أيام المؤرخ اليهودي (يوسف فلافيوس) ويلي (أدبيل) (في تسلسل أولاد إسماعيل ، ميسام (Mibsam) ، وقد سمي في بعض الكتب العربية (ميسا) ، ولا تعرف من أمر هذه القبيلة شيئاً والغالب على أبناء إسماعيل البداوة ، أي حياة التقل والغزو والرماية ، لذلك كانت ملاحظة التوراة عن إسماعيل من أنه سينشأ رامياً ، ملاحظة حسنة ، تدل على تبصر بأمر الإسماعيليين (الذين كانوا يقومون بالغزو ويؤمنون بالسهم . أما المجموعة الثالثة من مجموعات أنساب العرب المذكورة في التوراة ، فإنها مجموعة قبائل نسبت إلى قطورة زوج إبراهيم وفي التوراة أن المديانيين كانوا برفقة (الإسماعيليين) لما موسى نزل عندهم وتزوج فيهم: أخذ ابنه يثرون كاهن (مديان) مدين . وفي موضع آخر أن (يثرون من بني القيني) (Kenite) ويظن أن (بني القيني) هم فرع من فروع (مديان) Gideon (كان المديانيون قد ضايقوا العبرانيين مضايقة شديدة ، وكانوا قد العمالة و (بني المشرق ، فتمكن (جدعون) من إخراجهم وقد ورد في سفر (القضاة) اسم أميرين من أمراء المديانيين ، هما (غراب) (Oreb) ، و (ذئب) (Zeeb) (وورد في الأصحاح الثامن من القضاة اسم ملكين أو (شيخين) من (مديان) (مدين) هما : (زنج) (Zebah) و (صلماغ) (Zalmuna) . والظاهر أنه لم يعد للمديانيين شأن منذ هذا العهد ، فلم يرد عنهم

شَيْءٌ يُذَكَّرُ ، وَلَعَلَّهُمْ ذَابُوا فِي الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ الْأُخْرَى . وَيُنْفِهُم مِمَّا جَاءَ فِي (الْقِصَاةِ) أَنَّهُمْ كَانُوا فِرْعَا مِنْ (الْأِسْمَاعِيلِيِّينَ) . وَالَّذِي يُفْهَمُ مِنْ مَوَاضِعٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ أَسْفَارِ التَّوْرَةِ أَنَّ مُوَاطِنَ (الْمَدْيَانِيِّينَ) كَانَتْ تَقَعُ شَرْقَ الْعِبْرَانِيِّينَ . وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ تَوَعَّلُوا فِي الْمَنَاطِقِ الْجَنُوبِيَّةِ لِفِلَسْطِينَ ، وَاتَّخَذُوا لَهَا هُنَاكَ مُوَاطِنٌ جَدِيدَةً ، عَاشُوا فِيهَا أَبَدًا طَوِيلًا بَعْدَ هَذَا التَّارِيخِ حَيْثُ يَرُدُّ ذِكْرُهُمْ فِي الْأَخْبَارِ الْمَتَأَخَّرَةِ . " . وَقَدْ ذَكَرَ (بَطْلَمِيُوسُ) مَوْضِعًا يُقَالُ لَهُ (مُودِينَا) (Modiana) عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ ، يَرَى الْعُلَمَاءُ أَنَّهُ مَوْضِعٌ (مَدِينِ) ، وَهُوَ يُنْطَبِقُ عَلَى مَوْضِعِ أَرْضِ مَدِينِ الْمَعْرُوفَةِ فِي الْكُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ . وَذَكَرَ فِي التَّوْرَةِ اسْمَ شَعْبٍ سَكَنَ فِي شَرْقِي الْأُرْدُنِّ وَفِي شَرْقِي أَرْضِ (جِلْعَادِ) ، عَرَفَ بِاسْمِ (الْهَاجِرِيِّينَ) . وَهُمْ مِنْ الْعَرَبِ أَوْ مِنْ (بَنِي إِرَمِ) فِي رَأْيِ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ . غَيْرَ أَنَّ إِطْلَاقَ هَذِهِ اللَّفْظَةِ عَلَى الْأِسْمَاعِيلِيِّينَ ، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ الْعَرَبَ ؛ لِأَنَّ (الْأِسْمَاعِيلِيِّينَ) هُمْ عَرَبٌ ، وَأَنَّ (هَاجِرَ) كِنْيَةٌ عَنْ أُمِّ إِسْمَاعِيلِ (جَدِّ الْقَبَائِلِ الَّتِي تَحَدَّثَتْ عَنْهَا عَلَى رَأْيِ التَّوْرَةِ . وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ الْبَاحِثِينَ إِلَى الْإِلَى أَنَّ مُرَادَ التَّوْرَةِ مِنْ (الْهَاجِرِيِّينَ) (الْأَعْرَابُ ، أَيْ الْبَدَوِ وَهُمْ عَرَبٌ أَيْضًا . وَقَدْ اِمْتَدَّتْ مَنَازِلُ الْهَاجِرِيِّينَ مِنَ الْفُرَاتِ إِلَى (طُورِ سَيْنَاءِ) ، مِنْطَقَةٌ فِيهَا وَتَضُمُّ الْأَعْرَابَ وَاسِعَةً تَشْمَلُ الْبَادِيَةَ : بَادِيَةَ الشَّامِ عَدَدًا كَبِيرًا مِنْ مَنَازِلِ الْأِسْمَاعِيلِيِّينَ أَيْضًا ، وَقَدْ يَكُونُ هَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي عَدَمِ تَمْيِيزِ التَّوْرَةِ أَحْيَانًا فِيمَا بَيْنَ الْهَاجِرِيِّينَ وَالْأِسْمَاعِيلِيِّينَ . وَقَدْ ذَكَرُوا مَعَ (بَطُورِ) (Jetur) و (Naphish) ، وَهُمَا مِنْ الْأِسْمَاعِيلِيِّينَ . وَأُشِيرَ إِلَى اسْمِ رَجُلٍ مِنَ الْهَاجِرِيِّينَ عُرِفَ بِ (يَارِئِزَ) (Jaziz) ، ذَكَرَتْ التَّوْرَةُ أَنَّهُ كَانَ يَرْعَى بَعْنَمِ دَاوُودَ " فِي جُمْلَةٍ أَشْخَاصٍ كَانُوا (دَاوُودَ) قَدْ أُوْدِعَ إِلَيْهِمْ أَمْرَ إِدَارَةِ أَمْوَالِهِ . لَقَدْ وَرَدَتْ أَكْثَرُ الْأَخْبَارِ نَقْلًا عَنْ (كَعْبِ الْأَخْبَارِ) و (وَهْبِ بْنِ مُنْبَهٍ) وَأَضْرَابَهُمَا . وَقَدْ يَنْتَهِي ب (ابْنِ عَبَّاسٍ) ، عَنْ طَرِيقِ (ابْنِ الْكَلْبِيِّ) عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ ، وَلِلْعُلَمَاءِ كَلَامٌ فِي هَذَا السَّنَدِ و (ابْنِ الْكَلْبِيِّ)

مُورِدٍ مَشْهُورٍ مَعْرُوفٍ فِي هَذِهِ الْمَوْضُوعَاتِ ، لَا يُقَابَلُهُ فِي ذَلِكَ إِلَّا ابْنُ إِسْحَاقَ (الَّذِي غُرِفَ ، كَمَا ذَكَرْتُ فِي أَوَّلِ هَذَا الْفَصْلِ ، مِنْ مَنَاهِلِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَكَانَ يُسَمِّيهِمْ أَهْلَ الْعِلْمِ الْأَوَّلِ ، فَمَلَأَ كِتَابَهُ لِذَلِكَ بَعَثَ كَثِيرًا ، لِاعْتِمَادِهِ عَلَى هَؤُلَاءِ وَتَوَثُّقِهِ لَهُمْ ، وَلَمْ يَكُنْ لِأَكْثَرِهِمْ كَمَا يُظْهَرُ مِنْ تَقْدِمِ مَا نُسِبَ إِلَيْهِمْ عِلْمٌ بِمَا جَاءَ فِي التَّوْرَةِ . وَبِكُتُبِ الْيَهُودِ الْأُخْرَى . وَقَدْ ظَهَرَ لِي مِنْ دِرَاسَاتِي لِهَذَا الْمَوْضُوعِ وَلِلْقَصَصِ الْإِسْرَائِيلِيِّ عَامَّةً أَنَّ كَثِيرًا مِنْ هَذَا الَّذِي يُرْوَاهُ أَهْلُ الْأَخْبَارِ فِي التَّنْسِبِ وَفِي الْقِصَصِ ، بَعِيدٌ عَمَّا يَرُدُّ فِي التَّوْرَةِ ، وَقَدْ اخْتَرَعَ اخْتِرَاعًا وَصَّنَعَ بَغَاوَةً وَبِجْهَلٍ ، وَخَشِيَ بِالْفَظِّ عِبْرَانِيَّةً أَوْ قَرِيبَةً مِنْهَا ، بِطَرِيقَةٍ مُضْحِكَةٍ أحيانًا ، تَدُلُّ عَلَى خُبْثٍ وَاضِعِ الْخَبْرِ أَوْ جَهْلِهِ ، وَعَلَى سَدَاجَةِ التَّنَاقُلِ عَنْهُ وَعَلَى عَدَمِ اِهْتِمَامِهِ إِلَّا بِإِظْهَارِ نَفْسِهِ بِمُظْهَرِ الْوَاقِفِ عَلَى الْأَخْبَارِ ، وَلِذَلِكَ كَانَ لَا يُهَمُّهُ الْأَخْبَارُ وَقِصَصُهَا لِلنَّاسِ ، وَقَدْ يَكُونُ هُوَ وَاضِعُ تِلْكَ الْأَخْبَارِ وَصَانِعُهَا (هِشَامُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ السَّائِبِ الْكَلْبِيِّ) ، هُوَ مِنَ الْآخِذِينَ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ كَذَلِكَ ، الْمُدْخَلِينَ لِلْإِسْرَائِيلِيَّاتِ وَأَنْسَابِ التَّوْرَةِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ . وَهُنَاكَ نَفَرٌ آخَرُونَ ، يُخْرِجُنَا ذِكْرَ أَسْمَائِهِمْ هُنَا عَنْ صُلْبِ الْمَوْضُوعِ . وَلِهَذَا أَكْتُفِيتُ بِذِكْرِ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ ، لِمَا لَهَا مِنْ أَثَرٍ بَارِزٍ فِيمَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ فِي مَوْضُوعِ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ وَأَنْسَابِ التَّوْرَةِ . وَأَمَّا مَا نُسِبَ إِلَيَّ (ابْنُ عَبَّاسٍ) مِنْ أَقْوَالِهَا صِلَةٌ بِالتَّوْرَةِ فَيَجِبُ دِرَاسَتُهُ بِحَذَرٍ وَتَقْدِيرٍ تَقْدًا عَمِيقًا ، وَمُطَابَقَتُهُ بِمَا وَرَدَ فِي تِلْكَ الْأَسْفَارِ وَفِي كُتُبِ الْيَهُودِ الْأُخْرَى . وَتَقْدِ سِلْسِلَةَ السَّنَدِ الَّتِي تَرَوِي تِلْكَ الْأَقْوَالَ وَتَنْسُبُهَا إِلَيْهِ . وَلَمْ يَقُمْ حَتَّى الْآنَ بِأَحْتِ لَفْتِ نَظَرِهِ هَذَا الْمَوْضُوعِ . لِذَلِكَ أَرْجُو أَنْ يَنْتَبِهَ إِلَيْهِ الْعُلَمَاءُ لِيَبْدُوا رَأْيَهُمْ فِيهِ ، وَرَأْيُهُمْ فِي الْأَقْوَالِ الْمَائِلَةِ الْمُنْسُوبَةِ إِلَيَّ صَحَابَتَيْنِ آخَرِينَ وَتَابِعِينَ ، لِيَكُونَ حُكْمُنَا فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ حُكْمًا مُسْتَنَدًا إِلَى دَرْسٍ وَعِلْمٍ . وَمِمَّا نُسِبَ إِلَيَّ (ابْنُ عَبَّاسٍ) شِعْرٌ مَشْهُورٌ مَعْرُوفٌ الْيَوْمَ بَيْنَ النَّاسِ قَالُوا إِنَّهُ نُسِبَتْهُ إِلَى آدَمَ ، وَأَنَّهُ قَالَ : إِنَّ آدَمَ

نَظَّمَهُ بَعْدَ قَتْلِ ابْنِهِ ، وَهُوَ شِعْرٌ مَوْضُوعٌ بِالطَّبَعِ ، وَضَعَّ عَلَى آدَمَ ، عَلَى لِسَانِ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَلَمْ يَعْرِفْ عَنْ
(كَعْبِ الْأَخْبَارِ) أَنَّهُ أَلْفٌ أَوْ دُونَ شَيْئًا ، إِنَّمَا عُرِفَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَجْلِسُ مَجَالِسُهُ فِي الْمَسْجِدِ يَتَحَدَّثُ
إِلَى النَّاسِ وَيَسْتَعِينُ بِالتَّورَةِ أحيانًا يُقْرَأُ مِنْهَا عَلَيْهِمْ ، وَيُفَسِّرُهَا لَهُمْ " وَلَكِنَّ (الْهَمْدَانِي يُذَكِّرُ أَنَّهُ كَانَ قَدْ
كَتَبَ ، وَأَنَّ أَهْلَ صَعْدَةَ) ، كَانُوا قَدْ تَوَارَثُوا كُتُبَهُ وَرَوَوْا مِنْهَا قَالَ : رَوَى الصَّعْدِيُّونَ مَرْفُوعًا إِلَى إِبْرَاهِيمَ
بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الْخَنْفَرِيِّ ، قَالَ : قَرَأْتُ كُتُبَ كَعْبِ الْأَخْبَارِ ، وَكَانَ كَعْبٌ رَجُلًا مِنْ حَمِيرٍ مِنْ ذِي
رَعِينٍ ، وَكَانَ قَدْ قَرَأَ التَّورَةَ ، وَالْإِنْجِيلَ ، وَالزَّبُورَ ، وَالْفُرْقَانَ ، وَأَوْسَعُ فِي الْعِلْمِ " . وَقَالَ أَيْضًا :
وَالْوَجْهَ مَا ذَكَرْنَا فِي أَوَّلِ السَّيْرَةِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ ، مَا رَوَاهُ أَهْلُ صَعْدَةَ كَعْبُ الْأَخْبَارِ فِي خَلْقِ آدَمَ ،
وَمَنْ خَلَفَهُ إِلَى نُوحٍ ، وَخَبَرَ الطُّوفَانَ . وَلَمْ أَجِدْ فِي الشَّعْرِ الْجَاهِلِيِّ هَذِهِ الْقَحْطَائِيَّةَ وَالْعَدْنَائِيَّةَ الَّتِي يَرَاهَا
أَهْلُ النَّسَبِ وَالْأَخْبَارِ ، وَأَقْصَى مَا وَجَدْتُهُ فِيهِ قَصِيدَةٌ لِلأَخْنَسِ بْنِ شَهَابِ بْنِ شَرِيْقِ التَّغْلِبِيِّ حُوتِ أَسْمَاءِ
قَبَائِلَ وَأَسْمَاءِ مُوَاطِنِهَا وَمَوَاضِعِهَا ، هِيَ : (مُعَدِّ) و (لَكِيْزُ) و (بَكْرُ) و (تَمِيمُ) و (كَلْبُ) و
(غَسَّانُ) و (بُهْرَاءُ) و (إِبَادُ) و (نَظْمُ) وَهِيَ قَبَائِلُ بَعْضِهَا عَدْنَائِيَّةٌ وَبَعْضُهَا قَحْطَائِيَّةٌ فِي إِصْطِلَاحِ
أَهْلِ النَّسَبِ ، إِلَّا أَنِّي لَمْ أَجِدْ فِيهَا أَسْمَاءَ آبَاءِ هَذِهِ الْقَبَائِلِ وَلَا أَجْدَادَهَا ، وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَفْهَمَ مِنْهَا أَنَّ
هَذِهِ الْقَبِيلَةَ ، هِيَ قَبِيلَةُ عَدْنَائِيَّةٌ ، وَأَنَّ تِلْكَ قَبِيلَةُ قَحْطَائِيَّةٌ ، فَقَدْ جَاءَتْ الْأَسْمَاءُ مُدْخِلَةً وَكُلُّ مَا
وَجَدْتُهُ فِيهَا مِمَّا يُخْصُ النَّسَبَ) .

انتهت الصفحات التي نقلناها حرفيا من كتاب المفصل في تاريخ العرب للدكتور جواد علي

طه حسين في الأدب الجاهلي

يقول طه حسين في كتابه في الأدب الجاهلي :

((أَنَّ الْعَرَبَ يُتَقَسَّمُونَ إِلَى قِسْمَيْنِ قَحْطَايِيَّةٍ مَنَازِلُهُمُ الْأُولَى فِي الْيَمَنِ ، وَعَدَنَائِيَّةٍ مَنَازِلُهُمُ الْأُولَى فِي الْحِجَازِ وَهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الْقَحْطَايِيَّةَ عَرَبٌ مُنْذُ خَلَقَهُمُ اللَّهُ فُطِرُوا عَلَى الْعَرَبِيَّةِ فَهِيَ الْعَرَبِيَّةُ ، وَعَلَى أَنَّ الْعَدَنَائِيَّةَ قَدْ اِكْتَسَبُوا الْعَرَبِيَّةَ اِكْتِسَابًا : كَانُوا يَتَكَلَّمُونَ لُغَةً أُخْرَى هِيَ الْعِبْرَانِيَّةُ أَوْ الْكَلْدَانِيَّةُ ، ثُمَّ تَعَلَّمُوا لُغَةَ الْعَرَبِ الْعَرَبِيَّةَ ، فَمَجِيئُ لِقَائِهِمُ الْأُولَى مِنْ صُدُورِهِمْ وَبَتَّتْ فِيهَا هَذِهِ اللَّغَةُ النَّائِيَّةُ الْمُسْتَعْرَابَةُ . وَهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْعَدَنَائِيَّةُ الْمُسْتَعْرَابَةُ إِنَّمَا يَتَّصِلُ نَسَبُهَا بِإِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ . وَهُمْ يَرُودُونَ حَدِيثًا يَتَّخِذُونَهُ أَسَاسًا لِكُلِّ هَذِهِ التَّنْظِيرِيَّةِ ، خُلَاصَتُهُ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ بِالْعَرَبِيَّةِ وَنَسَى لُغَةَ أَبِيهِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ .) عَلَى هَذَا كُلُّهُ يَتَّفِقُ الرُّوَاةُ ، وَلِكِنِّهِمْ يَتَّفِقُونَ عَلَى شَيْءٍ آخَرَ أَيْضًا أَثَبَّتَهُ الْبَحْثُ الْحَدِيثُ ، وَهُوَ أَنَّ هُنَاكَ خِلَافًا قَوِيًّا بَيْنَ لُغَةِ حَمِيرٍ (وَهِيَ الْعَرَبُ الْعَرَبِيَّةُ) وَلُغَةِ عَدَنَانَ (وَهِيَ الْعَرَبُ الْمُسْتَعْرَابَةُ) . وَقَدْ رَوَى عَنْ أَبِي عَمْرٍو بْنِ الْعَلَاءِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : مَا لِسَانُ حَمِيرٍ بِلِسَانِنَا وَلَا لُغَتُهُمْ بِلُغَتِنَا . وَفِي الْحَقِّ أَنَّ الْبَحْثَ الْحَدِيثَ قَدْ أَثَبَّتْ خِلَافًا جَوْهَرِيًّا بَيْنَ اللَّغَةِ الَّتِي كَانَ يَصْطَنِعُهَا النَّاسُ فِي جَنُوبِ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ وَاللُّغَةِ الَّتِي كَانُوا يَصْطَنِعُونَهَا فِي شَمَالِ هَذِهِ الْبِلَادِ . . . وَوَلَدَيْنَا الْآنَ نَقُوشٌ وَنُصُوصٌ تَمَكَّنْنَا مِنْ إِثْبَاتِ هَذَا الْخِلَافِ فِي اللَّفْظِ وَفِي قَوَاعِدِ النَّحْوِ وَالتَّصْرِيفِ أَيْضًا . وَإِذْنِ فَلَا بَدَّ مِنْ حَلِّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ . إِذَا كَانَ أَبْنَاءُ إِسْمَاعِيلَ قَدْ تَعَلَّمُوا الْعَرَبِيَّةَ مِنْ أَوْلِيَاكِ الْعَرَبِ الَّذِينَ نَسَمِيهِمُ الْعَرَبِيَّةَ فَكَيْفَ بَعْدَ مَا بَيْنَ اللَّغَةِ الَّتِي كَانَ يَصْطَنِعُهَا الْعَرَبُ الْعَرَبِيَّةَ وَاللُّغَةِ الَّتِي كَانَ يَصْطَنِعُهَا الْعَرَبُ الْمُسْتَعْرَابَةُ ، حَتَّى اسْتَطَاعَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ أَنْ يَقُولَ لَهُمَا لُغَتَانِ مُمَازِرَتَانِ ، وَاسْتَطَاعَ الْعُلَمَاءُ الْمُحَدِّثُونَ أَنْ يُثْبِتُوا هَذَا التَّمَازِينَ بِالْأَدَلَّةِ الَّتِي لَا تَقْبَلُ شَكًّا وَلَا جِدَالَاً : الْحَقُّ أَنَّ الْقَدَمَاءَ وَالْمُحَدِّثِينَ جَمِيعًا مُضْطَرِّبُونَ اضْطِرَابًا شَدِيدًا فِي تَحْدِيدِ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ مِنْ لُفْظِ الْعَرَبِ وَفِي تَحْدِيدِ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ مِنْ لُفْظِ اللَّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ . . . وَقَدْ أَرَادَ اللَّهُ فَوْقَ الْعُلَمَاءِ الْمُحَدِّثُونَ إِلَى اسْتِكْشَافِ اللَّغَةِ الْقَحْطَايِيَّةِ أَوْ قَلَّ إِلَى اسْتِكْشَافِ اللُّغَاتِ الْقَحْطَايِيَّةِ مِنْ حَمِيرِيَّةٍ وَسَبَبِيَّةٍ

وَمَعِينِيَّة ؛ وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُوفَّقَ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءَ إِلَى قِرَاءَةِ هَذِهِ اللُّغَاتِ كَمَا قَرَأُوا اللُّغَةَ الْمِصْرِيَّةَ الْقَدِيمَةَ وَكَمَا قَرَأُوا لُغَةَ الْبَابِلِيِّينَ وَالْأَشُورِيِّينَ وَكَمَا قَرَأُوا طَائِفَةَ أُخْرَى مِنَ اللُّغَاتِ السَّامِيَّةِ . وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُعْنِيَ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءَ الْمُحَدِّثُونَ بِهَذِهِ اللُّغَةِ الْحِمَيْرِيَّةِ عِنَايَةً لَمْ تُقَدِّرْ الْعُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْقَرْنِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي لِلْحِجْرَةِ ، فَيَسْتَنْبِطُوا نَحْوَهَا وَصَرَفُهَا وَيُقَارِنُوا بَيْنَهَا وَبَيْنَ غَيْرِهَا مِنَ اللُّغَاتِ السَّامِيَّةِ الْقَرِيبَةِ مِنْهَا وَالْبَعِيدَةِ عَنْهَا . وَكَانَتْ تَبِيحَةُ هَذَا الْبَحْثِ الطَّوِيلِ وَالْجِدِّ الْمُتَّصِلِ أَنَّ اللُّغَةَ الْحِمَيْرِيَّةَ شَيْءٌ وَاللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ الْفُصْحَى شَيْءٌ آخَرَ ، وَأَنَّ هَذِهِ اللُّغَةَ الْحِمَيْرِيَّةَ أَقْرَبُ إِلَى اللُّغَةِ الْحَبَشِيَّةِ الْقَدِيمَةِ مِنْهَا إِلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، مُثَابَرَةٌ بِنَحْوِ هَذِهِ اللُّغَةِ الْحَبَشِيَّةِ وَصَرَفُهَا أَكْثَرَ مِنْ تَأْثَرِهَا بِنَحْوِ عَرَبِيَّتِنَا الْفُصْحَى وَصَرَفُهَا . وَلَيْسَ هُنَا مَوْضِعُ الْقَوْلِ الْمُفْصَلِ فِي هَذَا كُلِّهِ . فَإِنَّ لُغَةَ الْحِمَيْرِيَّةِ عِلْمَهَا الْمُسْتَقَلَّ الَّذِي يُبْغِي أَنْ يَرْجَعَ إِلَيْهِ مِنْ شَاءَ التَّحْقِيقِ فِي كُتُبِ الْمُسْتَشْرِقِينَ الَّذِينَ دَرَسُوا هَذَا الْمَوْضِعَ وَاتَّقَنُوهُ . وَلَكِنْ قَوْمًا يَأْبُونَ إِلَّا أَنْ تُقَامَ لَهُمُ الْحُجَّةُ ، وَيَعْرِضُ عَلَيْهِمْ تَفْصِيلُ الدَّلِيلِ . وَهُمْ يَظُنُّونَ فِي ذَلِكَ وَيَلْجُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَطْمَئِنُّوا إِلَى مَا أُطْمَئِنَّ إِلَيْهِ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ مِنْ وُجُودِ الْخِلَافِ الْجَوْهَرِيِّ بَيْنَ الْعَرَبِيَّةِ وَالْحِمَيْرِيَّةِ ، وَلَا يُرِيدُونَ أَنْ يُصَدِّقُوا حِينَ تُبْهِمُ بَأَنَّ الْعِلْمَ الْحَدِيثَ قَدْ أُثْبِتَ مَا كَانَ يَقُولُهُ أَبُو عَمْرٍو ، وَإِنَّمَا يُرِيدُونَ أَنْ يَقْرَأُوا نُصُوصًا حِمَيْرِيَّةً وَأَنْ يَبَيِّنُوا بِنَفْسِهِمْ مَعَ مُمْلِحَةٍ أَنَّ هَذَا كُلُّهُ لَوْ سَلَّمْنَا لَهُ لِنْتَهِي إِلَى نَظَرِيَّةٍ غَرِيبَةٍ تَعَكُّسُ نَظَرِيَّةَ الْقَدَمَاءِ عَكْسًا تَامًا ، وَهِيَ : إِنَّ الْعَرَبَ الْعَارِبَةَ هُمْ عَدَنَانُ ، وَأَنَّ الْعَرَبَ الْمُسْتَعْرَبَةَ هُمْ قَحْطَانُ ، وَأَنَّ الْقَحْطَانِيَّةَ تَعَلَّمَتْ الْعَرَبِيَّةَ مِنْ أَبْنَاءِ إِسْمَاعِيلَ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ الْأَسْمَعِيلِيَّةَ قَدْ تَعَلَّمَتْ الْعَرَبِيَّةَ مِنْ أَبْنَاءِ قَحْطَانُ ، وَأَنَّ أَوَّلَ مَنْ تَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ وَنَسَى لُغَةَ أَبِيهِ إِسْمَاعِيلَ بْنُ إِبْرَاهِيمَ . وَنَحْنُ لَا نَشْكُ فِي أَنَّ الْعَرَبَ الْعَارِبَةَ إِنَّمَا هُمْ الْعَدَنَانِيُّونَ وَفِي أَنَّ الْعَرَبَ الْمُسْتَعْرَبَةَ إِنَّمَا الْقَحْطَانِيُّونَ ، وَلَكِنَّهُمْ اسْتَعْرَبُوا بَعْدَ الْإِسْلَامِ لَا قَبْلَهُ . وَإِذْنُ فَمِنْ

الْحَقَّ عَلَى الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يُحَدِّدُوا الْمَعْنَى الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ لَفْظُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْفُصْحَى أَنْ يَعْتَمِدُوا فِي هَذَا التَّحْدِيدِ عَلَى الْمَوْطِنِ الْجُغْرَافِيِّ لَا عَلَى الْأَنْسَابِ وَالْأَسَاطِيرِ . وَالْمَوْطِنُ الْجُغْرَافِيُّ لِلْعَدَنَانِيِّنَ هُوَ شَمَالُ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْحِجَازِ وَيَجِدُ مِنْهُ خَاصَّةً . فَتَحْنُ إِذَا ذَكَرْنَا الْعَدَنَانِيَّةَ فَإِنَّمَا نُرِيدُ سُكَّانَ هَذَا الْإِقْلِيمِ مِنْ بِلَادِ الْعَرَبِ ، دُونَ أَنْ يَكُونَ هَذَا تَسْلِيمًا مِنَّا بِصِحَّةِ هَذِهِ الْأَنْسَابِ الَّتِي تَنْتَهِي إِلَى عَدَنَانَ . وَنَحْنُ إِذَا ذَكَرْنَا الْفُحْطَانِيَّةَ فَإِنَّمَا نُرِيدُ سُكَّانَ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ مِنْ جَنُوبِ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ ، دُونَ أَنْ يَكُونَ هَذَا قَبُولًا مِنَّا لِهَذِهِ الْأَنْسَابِ الَّتِي تَنْتَهِي إِلَى قَحْطَانَ) .

انتهى كلام الدكتور طه حسين

خُلَاصَةُ الْقَوْلِ فِيمَا ذَكَرَهُ الْمُؤَرِّخُ الدُّكْتُورُ جَوَادُ عَلِيٌّ

وَالدُّكْتُورُ طَهَ حُسَيْنٌ

الدكتور جواد علي يرجح مقولة أن العرب أخذوا اسمهم من اسم المكان الذي نزل فيه النبي إسماعيل عليه السلام وهو وادي عربة أو العربات أو أنه اشتق من فعل أعرب أي أفصح .

يُعبَّرُ أَنَّ التَّنَسُّبَ إِلَى الْعَرَبِ قَدْ بَدَأَ فِي تَدْوِينِ الْأَنْسَابِ فِي عَصْرِ التَّدْوِينِ أَي حَوْلِي 250 هـ جَرَّةً وَإِنْ تَقْسِيمُهُمُ الْعَرَبَ إِلَى بَائِدَةٍ وَعَارِبَةٍ وَمَسْتَعْرِبَةٍ لَا أَسَاسَ لَهُ مِنَ الصَّحَّةِ وَمِنْ ثَمَّ يَشْكُكُ بِالنَّسَابِ وَالرُّوَاةِ لِأَنَّهُمْ أَخَذُوا مِنَ التُّورَةِ هَذَا النَّسَبَ الْفُحْطَانِيَّ وَحَذَفُوا مِنْهُ وَرَكَّبُوا فِيهِ تَرْكِيبَاتٍ غَرِيبَةً .

وَيُضِيفُ بَأَنَّ الْفُحْطَانِيِّينَ الْقَائِلِينَ أَنَّ يُعْرَبُ هُوَ جَدُّ الْعَرَبِيَّةِ وَمُوجِدُهَا ، عَاجِزُونَ عَنِ التَّوْفِيقِ بَيْنَ رَأْيِهِمْ هَذَا وَرَأْيِهِمْ فِي أَنَّ الْعَرَبِيَّةَ قَدِيمَةٌ قَدِيمَةٌ الْعَالَمِ ، وَأَنَّهَا لُغَةُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ ، ثُمَّ هُمْ عَاجِزُونَ أَيْضًا عَنِ بَيَانِ

كَيْفَ كَانَ لِسَانَ أَجْدَادَ (يَعْرَبُ) ، وَكَيْفَ اهْتَدَى (يَعْرَبُ) إِلَى اسْتِبْطَاطِهِ لِهَذِهِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَكَيْفَ تَمَكَّنَ مِنْ إِيجَادِهِ وَحْدَهُ لَهَا مِنْ غَيْرِ مُوَاظِرٍ وَلَا مُعَيَّنٍ

هُنَاكَ اخْتِلَافٌ كَثِيرٌ فِي اللُّغَاتِ وَالتَّرْكِيبِ الْجُسْمَانِيِّ بَيْنَ الْقَحْطَانِيِّينَ وَالْعَدْنَانِيِّينَ .

وَيَرَى بَعْضُ عُلَمَاءِ التَّوْرَةِ أَنَّ كَلِمَةَ (عَرَب) إِنَّمَا شَاعَتْ وَاتَّشَرَتْ عِنْدَ الْعِبْرَانِيِّينَ بَعْدَ ضَعْفِ (الاسماعيليين) (الاسماعيليين) وَتَدَهْوَرِهِمْ وَتَغَلُّبِ الْأَعْرَابِ عَلَيْهِمْ صَارَتْ اللَّفْظَةُ مُرَادِفَةً عِنْدَهُمْ لِكَلِمَةِ (اشماعيليين) .

وَقَدْ عُرِفَ عُلَمَاءُ الْعَرَبِيَّةِ هَذِهِ الصَّلَةَ بَيْنَ كَلِمَةِ (عَرَب) وَ (عَرَابَة) أَوْ (عَرَبَة) ، فَقَالُوا : (أَنَّهُمْ سُمُّوا عَرَبًا بِاسْمِ بَلَدِهِمُ الْعَرَبَاتِ . وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ الْفَرَجِ : عَرَبَة بَاحَة الْعَرَبِ ، وَبَاحَة دَارِ أَبِي الْفَصَاحَةِ إِسْمَاعِيلِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ) . وَقَالُوا : (وَأَقَامَتْ قُرَيْشٌ بَعْرَبَةَ فَتَنَحَتْ بِهَا ، وَاتَّشَرَتْ سَائِرُ الْعَرَبِ فِي جَزِيرَتِهَا ، فَنَسَبُوا كُلُّهُمْ إِلَى عَرَبَة ، لِأَنَّ آبَاءَهُمْ إِسْمَاعِيلَ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَوْلَادِهِ فِيهَا فَكَثَرُوا فَلَمَّا لَمْ تَحْتَمِلْهُمُ الْبِلَادُ ، اتَّشَرُوا ، وَأَقَامَتْ قُرَيْشٌ بِهَا " .

. وَيَرَى أَوْلِيَاءُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ كَلِمَةَ (عَرَب) لَفْظُهُ مُتَأَخَّرَةٌ ، اقْتَبَسَهَا الْعِبْرَانِيُّونَ مِنَ الْأَشُورِيِّينَ وَالْبَابِلِيِّينَ ، بِدَلِيلِ وُرُودِهَا فِي التَّنْصُوحِ الْأَشُورِيِّ وَالْبَابِلِيِّ ، وَهِيَ نَصُوحٌ يُعُودُ عَهْدُهَا إِلَى مَا قَبْلَ التَّوْرَةِ وَلِشِيعَةِهَا بَعْدَ لَفْظِهِ (اشماعيليين) ، وَلِأَنَّهَا الْمَعْنَى ذَاتَهُ الْمُرَادُ مِنَ اللَّفْظَةِ ، رَبَطَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ لَفْظِهِ (اشماعيليين) ، وَصَارَتْ نَسْبًا قَصِيرًا جَدُّ هَؤُلَاءِ الْعَرَبِ (اشماعيل) وَعَدُّوا عَرَبِيمَ مِنْ أُنْبَاءِ إِسْمَاعِيلِ .

وَالنَّصُّ الْوَحِيدُ الْوَحِيدُ الَّذِي وَرَدَتْ فِيهِ لَفْظَةٌ (الْعَرَبُ عَلِمَاءٌ عَلَى الْعَرَبِ جَمِيعًا مِنْ حَضَرَ وَإِعْرَابٌ ،
وَوَعَتْ فِيهِ لِسَانِهِمْ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ ، هُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ . وَقَدْ ذَهَبَ د . هـ . مَا رَأَى إِلَى أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ
هُوَ الَّذِي خَصَّصَ الْكَلِمَةَ وَجَعَلَهَا عَلِمَاءَ لِقَوْمِيَّةٍ تَشْمَلُ كُلَّ الْعَرَبِ .

كَمَا يُؤَكِّدُ عَلَى الْوُجُودِ الْإِسْمَاعِيلِيِّ الْكَثِيفِ فِي التَّارِيخِ الْعِبْرِيِّ وَالتُّورَاتِي وَالْيُونَانِي وَغَيْرِهِ وَهُنَاكَ انْتِشَارٌ
لِلْقَبَائِلِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ فِي الْمُنْطَقَةِ الْجُغْرَافِيَّةِ الَّتِي عُرِفَتْ لَهُمْ وَلَقَدْ تَعَدَّدَتْ وَتَوَزَّعَتْ قِبَائِلُهُمْ وَمَنَاطِقُهُمْ
وَأَمَّا كُنْهُمُ وَيُؤَكِّدُ عَلَى عَمَلِيَّةِ تَوْزِيعِ دِيمُوغْرَافِي لَمْ تَتَوَقَّفْ تَارِيخِيًا .

أَمَّا الدُّكُورُ طَهَ حُسَيْنٌ فَهُوَ يَعْتَمِدُ فِي إِثْبَاتِ أَنَّ أَصْلَ الْعَرَبِ وَجَدَهُمْ هُوَ النَّبِيُّ إِسْمَاعِيلُ لُغَوِيًّا وَيُثَبِّتُ
بِالنُّصُوصِ الْمَكْشُفَةِ مِنْ أَنَّ اللُّغَةَ الْحِمَيْرِيَّةَ لُغَةً مَا يُسَمَّى بِالْقَحْطَانِيَّةِ هِيَ غَيْرُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْفَصْحَى وَهِيَ
غَيْرُ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي نَزَلَ بِهِ الْقُرْآنُ وَيُثَبِّتُ أَنَّهُ نَلِكُ فُرُوقًا كَثِيرَةً فِي الْكِتَابَةِ وَالْقَوَاعِدِ وَالصَّرْفِ وَيُنْبِي
بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْعَرَبَ الْعَرَابِيَّةَ هُمْ بَنُو إِسْمَاعِيلِ وَالْمُسْتَعْرَبَةُ هُمُ الْقَحْطَانِيُّنَ أَيْ الْقَبَائِلُ الْجَنُوبِيَّةُ .

لَقَدْ وَضَحَ لَنَا د جَوَادٌ عَلِيٌّ الصُّورَةَ وَالْمَشْهَدَ تَمَامًا وَفِي وَجْدَانِهِ كَلَامٌ كَثِيرٌ لَمْ يُرِيدِ الْإِفْصَاحَ عَنْهُ فَالْقَضِيَّةُ
وَالْحَرْبُ لِأَزَالَتِ قَائِمَةٌ بَيْنَ الْعَدْنَانِيِّينَ وَالْقَحْطَانِيِّينَ وَتَغْذِيهَا الْعَصَبِيَّاتُ الْقَبِيلِيَّةُ وَالِدَوَاعِ الْمَذْهَبِيَّةُ

وَالسِّيَاسِيَّةُ

لَقَدْ بَاتَ مَعْرُوفًا عِنْدَ أَكْثَرِ الْبَاحِثِينَ وَالْمُهْتَمِينَ بِأُصُولِ الْعَرَبِ وَلُغَتِهِمْ أَنَّ الْعَرَبَ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكَورًا قَبْلَ
النَّبِيِّ إِسْمَاعِيلِ وَالْحَدِيثِ عَنْ مَمَالِكِ عَرَبِيَّةٍ وَشُعُوبِ عَرَبِيَّةٍ وَعَنْ يَقْطَانَ وَقَحْطَانَ خِرَافَةَ كَشَفَتْهُ
الْمُسْتَكْشَفَاتُ الْأَثَرِيَّةُ الْحَدِيثَةُ وَعُلُومُ اللُّغَاتِ وَالتَّحَالِيلُ الْجِينِيَّةُ وَغَيْرِهَا .

لَقَدْ بَدَأَ الصَّرَاحَ عَلَى التَّسَبُّبِ فِي العَصْرِ العَبَّاسِيِّ عَصْرَ التَّدْوِينِ كَمَا بَدَأَ مَعَهُ صِرَاعًا فَفِيهَا آخَرَ وَقَدْ
لَعِبَ العَقْلُ العَرَبِيُّ الجَاهِلُ والمَغْرُضُ لَعْبَتَهُ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ فَقامَ بِتَحْرِيفِ التَّسَبُّبِ وَالإِتِّمَاءِ وَهُوَ كَمَا هُوَ
مَعْرُوفٌ لَأَنَّهُم يَشْكَلَانِ أَيَّ التَّسَبُّبِ وَالإِتِّمَاءِ رُوحَ الأُمَّةِ وَحَقِيقَةَ وَتَارِيخَ وَجُودِهَا لدَوَاعِ انتِفَاعِيَةٍ تَتَعَلَّقُ
بِالعَطَاءَاتِ وَتَوَزِيعِ المُكْتَسَبَاتِ الَّتِي وَضَعَ لَهَا الخَلِيفَةُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ قَوَاعِدَ نِسْبِيَةٍ لِتَوَزِيعِهَا وَكَذَلِكَ
لدَوَاعِ سِيَاسِيَّةٍ تَتَعَلَّقُ بِالخِلَافَةِ وَأولَياتِهَا وَبِسَبَبِ هَذَا الخِلَافِ السِّيَاسِيِّ انْقَسَمَ الدِّينُ وَظَهَرَتِ الفِرَقُ
وَالشَّيْعَ وَسَيَّأَتِي الحَدِيثِ عَن ذَلِكَ بِالتَّفَاصِيلِ .

وَقَبْلَ أَنْ نَحْتَمِ البَحْثَ فِي أَصْلِ العَرَبِ وَتَسْمِيَّتِهِم وَاتِّمَاءَهُمْ لَأَنَّ بَدَأَ أَنْ تَطْرُقَ عَنِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وَاللِّسَانِ
العَرَبِيِّ كَأَحْدَى مُقَوِّمَاتِ الإِتِّمَاءِ العَرَبِيِّ وَنَحْتَمِ الفَضْلَ بِالآيَاتِ القُرْآنِيَّةِ الَّتِي سَتُوكَدُ مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ الأَدِلَّةُ
التَّارِيخِيَّةُ الحَدِيثَةُ فِي هَذَا المَوْضُوعِ .

اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ وَاللِّسَانُ العَرَبِيُّ

الأُمَّةُ وَاللُّغَةُ أَمْرَانِ مُتَلَازِمَانِ ، وَالَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَ اللُّغَةَ الوَاحِدَةَ تَرْتَبِطُ قَوَائِنُ الطَّبِيعَةِ بِرَوَابِطِ عَدِيدَةٍ ، تُجْعَلُ
مِنْهُمْ وَحْدَهُ غَيْرُ قَابِلَةٍ لِلانْفِصَامِ ، تَقُومُ أُسَاسًا عَلَى دَعَائِمٍ أُسَاسِيَّةٍ أَهْمُهَا : وَحْدَةُ الفِكرِ وَالعَقِيدَةِ الَّتِي
تَصْنَعُهَا وَحْدَةُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ ، بِجَانِبِ وَحْدَةِ الضَّمِيرِ وَالوَجْدَانِ الَّتِي تَصْنَعُهَا وَحْدَةُ التَّارِيخِ .

اعْتَرَفَ جَمِيعُ العُلَمَاءِ مُنْذُ العُصُورِ الوُسْطَى بِأَوْجُهِ التَّشَابُهِ بَيْنَ اللُّغَاتِ العِبْرِيَّةِ وَالعَرَبِيَّةِ وَالآرَامِيَّةِ . كَانَ
عُلَمَاءُ أوروْبَا العَرَبِيَّةِ عَلَى دِرَايَةِ بِاللُّغَاتِ كَتِيجَةِ التَّوَالِصِ التَّارِيخِيِّ مَعَ دَوْلِ الشَّرْقِ الأَدْنَى المُجَاوِرَةِ
والدراساتِ التَّوَرَاتِيَّةِ ، نَشَرَ المُسْتَشْرِقُ الفَرَنْسِيُّ غِيومُ بوسْتَلُ تَحْلِيلًا مُقَارِنًا لِلعِبْرِيَّةِ وَالعَرَبِيَّةِ وَالآرَامِيَّةِ
بِاللَاتِينِيَّةِ فِي عَامِ 1538 . بَعْدَ مَا يُقَرَّبُ مِنْ قَرْنَيْنِ مِنَ الزَّمَانِ ؛ وَصَفَ المُسْتَشْرِقُ هَيْبُودُولْفُ أَوْجُهَ

التَّشَابُهَ بَيْنَ هَذِهِ اللُّغَاتِ الثَّلَاثِ وَاللُّغَاتِ السَّامِيَةِ الْإِثْيُوبِيَّةِ ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يُطْلَقْ أَيُّ مِنْ الْبَاحِثِينَ آنَذَاكَ عَلَى هَذِهِ الْمَجْمُوعَةِ وَصُفِّ (سَامِيَّة) .

اسْتُخْدِمَ مُصْطَلَحُ (سَامِيَّة) لِأَوَّلِ مَرَّةٍ عَامَ 1781مِنْ قِبَلِ أَعْضَاءِ مَدْرَسَةِ غُوتِنغنِ لِلتَّارِيخِ وَتَحْدِيدًا مِنْ قِبَلِ الْمُؤَرِّخِ الْأَمَانِيِّ أَوْغُستِ لُودْفِيغِ فُونِ شِلُوزِرِ ، وَفِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ صَاغَ يُوَهَانُ غُوتْفَرِيدُ أَيْكِهُورِنُ مُصْطَلَحَ (سَامِيَّة) لِلإِشَارَةِ إِلَى اللُّغَاتِ الَّتِي لَهَا صِلَةٌ وَثِيقَةٌ بِالْعَرَبِيَّةِ وَالْأَرَامِيَّةِ وَالْعِبْرِيَّةِ . اسْتُتَمَّتْ كَلِمَةُ (سَامِيَّة) مِنْ (سَام) وَهُوَ أَحَدُ أَبْنَاءِ نُوحِ الثَّلَاثَةِ كَمَا ذَكَرَ فِي رِوَايَاتِ الْأَنْسَابِ فِي سَفَرِ التَّكْوِينِ التَّوْرَاتِيِّ أَوْ بِشَكْلِ أَكْثَرِ دَقَّةٍ مِنْ التَّرْجُمَةِ الْيُونَانِيَّةِ لِلْأَسْمِ (Σήμ) بِالْيُونَانِيَّةِ وَتُرْجَمُ إِلَى (Sēm) . يُعُودُ الْفُضْلُ لِأَيْكِهُورِنِ فِي تَعْمِيمِ الْمُصْطَلَحِ خُصُوصًا بَعْدَ أَنْ نُشِرَ مَقَالًا عَامَ 1795مِ بِعَنْوَانِ "Semitische Sprachen" (اللُّغَاتِ السَّامِيَّة) بَرَّرَ فِيهِ اسْتِخْدَامَ هَذَا الْمُصْطَلَحِ ضِدَّ التَّقْدِ الْقَائِلِ آنَذَاكَ بِأَنَّ الْعِبْرِيَّةَ وَالكَعْنَانِيَّةَ هُمَا نَفْسُ اللُّغَةِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ شُعْبَ كَعْنَانَ (الْحَامِيُونِ) هُمْ مِنْ نَسْلِ نُوحِ .

عُرِفَتْ هَذِهِ اللُّغَاتُ سَابِقًا فِي الْأَدَبِ الْأُورُوبِيِّ عَمُومًا بِاسْمِ (اللُّغَاتِ الشَّرْقِيَّةِ) . وَفِي الْقَرْنِ الثَّاسِعِ عَشَرَ أَصْبَحَتْ كَلِمَةُ (سَامِيَّة) هِيَ الْاسْمُ التَّقْلِيدِيُّ الشَّاعِ ، وَمَعَ ذَلِكَ اقْتَرَحَ الْعَالِمُ الْبَرِيْطَانِيُّ جِيْمِسُ كَاوَلزُ بَرِيْشَارْدُ لِأَحْقًا اسْمًا بَدِيلًا لِهَذِهِ اللُّغَاتِ وَهُوَ (اللُّغَاتِ السُّورِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ) وَاسْتُخْدِمَتْهُ بَعْضُ الْكُتَّابِ .

عَرَفَتْ الشُّعُوبُ قَدِيمًا التَّحَدُّثَ وَالْكِتَابَةَ بِاللُّغَاتِ السَّامِيَّةِ فِي مُعْظَمِ أَنْحَاءِ الشَّرْقِ الْأَوْسَطِ وَأَسِيَا الصُّغْرَى خِلَالَ الْعَصْرِ الْبَرُونزِيِّ وَالْعَصْرِ الْحَدِيدِيِّ ، إِحْدَى أَقْدَمِ اللُّغَاتِ الْموثَقَةِ هِيَ اللُّغَةُ السَّامِيَّةُ الشَّرْقِيَّةُ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي بِلَادِ مَا بَيْنَ النَّهْرَيْنِ (أَكْد ، أَشُور ، إِسْن ، لَارَسَا ، وَبَابِل) فِي الْأَلْفِيَّةِ الثَّلَاثَةِ قَبْلَ الْمِيلَادِ

لَوْحِ مَنقُوشِ بَكْنَابَاتِ أَكْدِيَّةٍ وَهُوَ رِسَالَةٌ دِبْلُومَاسِيَّةٌ يُعَوِّدُ تَارِيحَهَا لِلقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ قَبْلَ المِيلَادِ وَوَجِدَتْ فِي تَلِّ العِمَارَةِ بِمِصرَ .

لَا يَزَالُ أَصْلُ الشُّعُوبِ النَّاطِقَةِ بِالسَّامِيَّةِ قَيَّدَ التَّفَاشِ ، اقْتَرَحَتْ عِدَّةُ أَمَاكِنَ كَمَوَاقِعَ مُحْتَمَلَةٍ لِأَصْلِ شُعُوبِ مَا قَبْلَ التَّارِيخِ النَّاطِقِينَ بِالسَّامِيَّةِ ، مِنْ بَيْنِ تِلْكَ الأَمَاكِنِ : بِلَادِ مَا بَيْنَ النَهْرَيْنِ وَالشَّامِ وَمِنطَقَةَ شَرْقِ البَحْرِ الأَبْيَضِ المُوسَطِ وَشِبْهَ الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ وَشِمَالِ إِفْرِيْقِيَا . يَقْتَرِحُ بَعْضُ البَّاحِثِينَ أَنَّ اللُّغَاتِ السَّامِيَّةَ نَشَأَتْ فِي بِلَادِ الشَّامِ قَرَابَةَ سَنَةِ 3800 قَبْلَ المِيلَادِ ، وَانْتَشَرَتْ إِلَى القَرْنِ الإِفْرِيْقِيِّ زُهَاءً 800 قَبْلَ المِيلَادِ مِنْ شِبْهِ الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ الجَنُوبِيَّةِ وَإِلَى شِمَالِ إِفْرِيْقِيَا عَبْرَ المُسْتَعْمَرِينَ الفِينِيقِيِّينَ فِي نَفْسِ الوَقْتِ تَقْرِيْبًا ، بَيْنَمَا يُشِيرُ آخَرُونَ إِلَى أَنَّ وُصُولَ المُتَحَدِّثِينَ السَّامِيِّينَ إِلَى القَرْنِ الإِفْرِيْقِيِّ يُعَوِّدُ إِلَى تَارِيخٍ أَقْدَمَ بِكَثِيرٍ ، وَيَرْفُضُونَ وَجْهَهُ التَّنَظَّرَ القَائِلَةَ بِأَنَّ السُّكَّانَ النَّاطِقِينَ بِالسَّامِيَّةِ فِي القَرْنِ الإِفْرِيْقِيِّ يَنْحَدِرُونَ مِنْ غَرْبِ أُسِيَا ، بِدَعْوَى أَنَّ الأَدْلَةَ الأَثَرِيَّةَ وَاللُّغَوِيَّةَ تُدْحِضُ هَذِهِ الفُرْضِيَّةَ . يُجَادِلُ البَعْضُ الأَخْرَ بِأَنَّ اللُّغَةَ السَّامِيَّةَ الأُمُّ انْفَصَلَتْ عَنِ اللُّغَاتِ الإِفْرِيْقِيَّةِ الأَسِيَوِيَّةِ فِي القَرْنِ الإِفْرِيْقِيِّ ، وَإِنْ أُثْبِتَ أَنَّ نَقْطَةَ البِدَايَةِ لِهَجْرَةِ الشُّعُوبِ السَّامِيَّةِ إِلَى الشَّرْقِ الأَدْنَى . وَنُفِثَتِ اللُّغَاتُ الكَنْعَانِيَّةُ (وَهِيَ فَرْعٌ مِنَ اللُّغَاتِ السَّامِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ العُرْبِيَّةِ وَمِنْ صَمْتِهَا الأَمُورِيَّةِ) لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي القَرْنِ الحَادِي وَالْعِشْرِينَ قَبْلَ المِيلَادِ ، وَتَشْمَلُ اللُّغَةَ الإِدُومِيَّةَ ، وَالعَبْرِيَّةَ ، وَالعَمُونِيَّةَ ، وَالْمَوَابِيَّةَ ، وَالْفِينِيقِيَّةَ (حَضَارَةُ البُونِيقِيِّينَ وَالْحَضَارَةُ القَرطَاجِيَّةِ) ، وَالعَبْرِيَّةَ السَّامِرِيَّةَ ، الْعَقْرُونِيَّةَ ، الْعَمَالِيقِيَّةَ ، وَاللُّغَةَ السِّيْتَانِيَّةَ . عَاشَتْ الشُّعُوبُ النَّاطِقَةُ بِهَذِهِ اللُّغَاتِ فِي المَنَاطِقِ المُعْرُوفَةِ اليَوْمَ بِإِسْرَائِيلَ وَسُورِيَا وَبُلْبَانَ وَالْأَرَاضِي الفِلَسْطِينِيَّةِ وَالأُرْدُنَ وَشِمَالِ شِبْهِ جَزِيرَةِ سَيْنَاءَ وَبَعْضِ الأَجْزَاءِ الشَّمَالِيَّةِ وَالشَّرْقِيَّةِ مِنْ شِبْهِ الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ وَفِي الأَطْرَافِ الجَنُوبِيَّةِ العُرْبِيَّةِ لِتُرْكِيَا وَالْمَنَاطِقِ السَّاحِلِيَّةِ لِتُونِسَ

(قرطاج) وليبيا والجزائر وأجزاء من المغرب وإسبانيا وربما في مايطا وجزر البحر الأبيض المتوسط الأخرى . أما الأوغاريتية (وهي لغة سامية شمالية غربية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمجموعه اللغات الكنعانية ولكنها متميزة عنها) فقد تحدثت بها شعوب مملكة أوغاريت في شمال غرب سوريا .

خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد ظهرت لغة هجينة كنعانية - أكادية في كنعان (فلسطين والأردن ولبنان) ، إذ جمعت بين مفردات من اللغة الأكادية الشرقية السامية في بلاد ما بين النهرين (الآشورية والبابلية) مع مفردات من اللغات الكنعانية الغربية السامية . أما الآرامية (وهي لغة سامية شمالية غربية قديمة لا زالت مستخدمه اليوم) فقد وثقت لأول مرة في القرن الثاني عشر قبل الميلاد في شمال بلاد الشام ، وحلت تدريجياً مكان اللغات السامية الشرقية والكنعانية في معظم أنحاء الشرق الأدنى ، لا سيما بعد أن اعتمدت كلغة تواصل مشترك في الإمبراطورية الآشورية الحديثة (911-605 قبل الميلاد) من قبل تغلث فلاسر الثالث خلال القرن الثامن قبل الميلاد ، وحافظت عليها شعوب الإمبراطورية البابلية الحديثة والإمبراطورية الأخمينية اللاحقة .

كانت اللغة الكلدانية (وهي ليست اللغة الآرامية أو صيغتها التوراتية (الآرامية التوراتية) والتي يُشار إليها أحياناً باسم الكلدانية) لغة سامية شمالية غربية ، وربما ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالآرامية ولكن لا توجد أدلة كافية على ذلك ، إذ يبدو أن الكلدان قد تبناوا بسرعة اللغتين الأكادية والآرامية (التي كانت يتحدث بهما السكان الأصليون في بلاد ما بين النهرين) بعد الاستقرار في جنوب شرق بلاد ما بين النهرين خلال القرن التاسع قبل الميلاد قادمين من بلاد الشام .

أما اللغة العربية الجنوبية القديمة (المصنفة على أنها سامية جنوبية وبالتالي تختلف عن اللغة السامية المركزية للعربية والتي تطورت بعد أكثر من 1000 عام) فقد تحدثت بها الشعوب قرابة القرن الثامن قبل الميلاد في ممالك دلمون وميلوحة وسبأ وأرم وسقطرى وماجان ، وهذه الممالك هي اليوم جزء من الساحل الشرقي للمملكة العربية السعودية والبحرين وقطر وعمان واليمن . يُعتقد أن اللغات السامية الجنوبية انتشرت إلى القرن الإفريقي حيث ظهرت اللغة الجعزية (على الرغم من أن اتجاه التأثير لا يزال غير مؤكد) .

أثرت اللغة الآكدية باللغة السريانية ، وهي لغة انتشرت في القرن الخامس قبل الميلاد في بلاد ما بين النهرين (الآشورين) وتنحدر من اللغة الآرامية المستخدمة في بلاد ما بين النهرين وشمال شرق سوريا وجنوب شرق الأناضول ، وقد برزت أهميتها كلغة أدبية للمسيحية المبكرة في القرن الثالث إلى الخامس بعد الميلاد واستمرت حتى أوائل العصر الإسلامي .

على الرغم من أن اللغة العربية نشأت في شبه الجزيرة العربية ، إلا أنها ظهرت لأول مرة في شكل مخطوط في القرنين الأول والرابع الميلاديين في المناطق الجنوبية من بلاد الشام . ومع بداية الفتوحات الإسلامية المبكرة في القرنين السابع والثامن ، حلت اللغة العربية الفصحى في نهاية المطاف محل العديد (ولكن ليس كل) من اللغات والثقافات السامية الأصلية في الشرق الأدنى . شهد كل من الشرق الأدنى وشمال إفريقيا هجرة للعرب المسلمين من شبه الجزيرة العربية ، تبعهم في وقت لاحق شعوب إيرانية وتركية مسلمة غير سامية . بدأت اللهجات الآرامية التي كانت سائدة في السابق والتي احتفظت بها الآشوريون والبابليون والفرس بالترشيح تدريجياً ، ومع ذلك فإن اللهجات المنحدرة من الآرامية الشرقية (والمثارة

بالأكديّة بما في ذلك اللّهجة الآرامية الآشورية الحديثة ، والكلدانية-الآرامية الجديدة والطورية
والمندائية) لا زالت مُستخدَمة حتّى اليوم بين الآشوريون والمندائيين المُقيمين في شمال وجنوب العراق
وشمال غرب إيران وشمال شرق سوريا وجنوب شرق تركيا ، وتحدّث بها ما يصل إلى مليون
شخص . الآرامية الشرقيّة هي لغة مُعرّف بها في العراق ، علاوة على ذلك كانت اللّهجة العراقيّة هي
أكثر اللهجات العربيّة تأثرا بالآرامية السُريانيّة ، بسبب أنّ الآرامية السُريانيّة نشأت أساسا في بلاد ما
بين النهرين . يتحدّث الآرامية الغزيّة اليوم بضعة آلاف من الآراميين المسيحيين السُريان في غرب سوريا
 . نشر العرب لغتهم السامية المركزيّة في شمال إفريقيا (مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب وشمال
السودان وموريتانيا) والتي حلت تدريجيا محلّ اللغات القبطيّة المصريّة والعديد من اللغات البربرية (على
الرغم من أنّ البربرية لا تزال موجودة إلى حد كبير في العديد من المناطق) ولبعض الوقت إلى شبه
الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا والبرتغال وجبل طارق) ومالطا .

أنّ ما يهتمنا عند البحث في اللغات السامية هي اللغات الثلاث الرئيسيّة التي عاشت مع بعضها البعض
في منطقتهم الشرق الأوسط وهي اللغات الآرامية والعبريّة والعربيّة وذلك لوجود هذا الترابط بينها ولأنّ
هذه اللغات نزلت بها الكُتب المقدّسة على التوالي التوراة بالعبريّة والإنجيل بالآرامية والقرآن بالعربيّة
أنّ هذا التشابه والترابط وتفردا لأن تكون لغة الكُتب السماويّة سيعيننا كثيرا في حل مسألة النسب
اليقيني للعرب وسأعطي مثلا عن التقارب بين هذه اللغات فكلمه سلام بالعربيّة يقابلها شالوم بالعبريّة
وشلامو بالآرامية وهناك الكثير من الأمثلة على ذلك .

أول الخيط إبراهيم الخليل عليه السلام

إِبْرَاهِيمَ (بالعبرية : אַבְרָהָם) وتلفظ إبراهيم ومَعَنَاهَا الأب الرَّفِيعُ أَوْ الأبُّ المُكْرَمُ ، هُوَ أبٌ نُسبٌ كَبِيرٌ وَاحِدُ آبَاءِ الْيَهُودِيَّةِ الثَّلَاثَةِ ، وَشَخْصِيَّةٌ مَحْرُوبَةٌ فِي الْمَسِيحِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ وَادِيَانِ إِبْرَاهِيمِيَّةِ أُخْرَى . وَرَدَتْ سِيرُهُ حَيَاتِهِ فِي سَفَرِ التَّكْوِينِ وَفِي الْقُرْآنِ أَيْضًا . وَيُعْتَقَدُ بِأَنَّهَا صَحِيحَةٌ ضَمِنَ هَذِهِ الْأَدْيَانِ الْكُبْرَى حَسَبِ مَا وَرَدَ فِي كُتُبِهِمُ الْمُقَدَّسَةِ ، وَلَكِنْ يُعْتَبَرُهَا بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ اللَّادِينِيِّينَ ضَمِنَ الْأَسَاطِيرِ لَغِيَابِ مَصَادِرِ أُخْرَى تَارِيخِيَّةٍ مُحَايِدَةٍ عَنِ حَيَاتِهِ . تُسَمَّى الْعُقَاةُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَالْمَسِيحِيَّةُ وَالْيَهُودِيَّةُ بِالذِّيَانَاتِ الْإِبْرَاهِيمِيَّةِ لِأَنَّ اعْتِقَادَاتِهِمْ كَانَتْ مَتَأَثِّرَةٌ بِمَعْتَقِدِ إِبْرَاهِيمَ .

ذَكَرَ فِي التَّنَاخِ (الَّذِي يَتَضَمَّنُ كِتَابَ التَّوْرَةِ وَكُتُبَ الْأَنْبِيَاءِ عِنْدَ الْيَهُودِ) ، وَالْقُرْآنَ بِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ مُبَارَكًا مِنْ اللَّهِ . فِي التَّقْلِيدِ الْيَهُودِيِّ يُسَمَّى إِبْرَاهِيمَ «أَبُونَا إِبْرَاهِيمَ» . وَعَدَّ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ بِأَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ وَعَظِيمَةٍ ، حَيْثُ وَعَدَهُ اللَّهُ بِنَسْلِ عَظِيمٍ وَأَنَّ كُلَّ الْأُمَّمِ سَوْفَ تَبَارِكُ بِهَذَا النَّسْلِ .

يُؤْمِنُ الْيَهُودُ وَالْمَسِيحِيُّونَ بِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ هُوَ أَبُو بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ ابْنِهِ إِسْحَاقَ ، الَّذِي قَدَّمَ إِبْرَاهِيمَ لِلَّهِ كَذَبِيحَةٍ . بَيْنَمَا يُؤْمِنُ الْمُسْلِمُونَ بِتَقْدِيمِ إِبْرَاهِيمَ لِابْنِهِ الْأَخْرَ إِسْمَاعِيلَ لِلذَّبْحِ ، وَيُؤْمِنُونَ أَنَّ الرَّسُولَ مُحَمَّدًا مِنْ نَسْلِهِ . يُعْتَقَدُ فِي الْمَسِيحِيَّةِ بِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ هُوَ مِثَالٌ يُخْتَدَى بِهِ فِي الْإِيمَانِ ، وَيُطَلَّقُ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ «أَبُو الْأَنْبِيَاءِ» وَيُعَدُّ أَحَدَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ الْخَمْسَةِ الَّذِينَ يُوصَفُونَ بِأُولِي الْعِزْمِ ، لَصَبْرِهِمْ كَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ : (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوْلَا الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ) . هَذَا الْأِسْمُ مَعْنَى عِبْرِيٌّ حَسَبِ مَا وَرَدَ فِي التَّوْرَةِ ، وَالَّذِي يَعْنِي أَبُو الْجُمْهُورِ أَوْ أَبُو الْأُمَّمِ ، وَلَهُ مَعْنَى آرَامِيٌّ أَيْ أَبَا رَاحِمَا أَيْ الْأَبُ الرَّحِيمِ أَوْ الْأَبُ الْحَنُونُ ، اسْمُ إِبْرَاهِيمَ مُشْتَقٌّ مِنْ اسْمِ إِبْرَاهِيمَ السَّابِقِ إِبْرَامَ وَالَّذِي يَعْنِي الْأَبَ الْعَالِيَّ أَوْ الْأَبَ الرَّفِيعَ بِاللُّغَةِ

الكلدانية ، لهذا الاسم عدّة نُسخة في اللغات الأخرى مثل إبراهيم في لغة إنجليزية وأرامي باللغة الروسية وأوراها باللغة السريانية ، وله القاب مثل آيب وأبي مُشتقة من

في روايات عديدة ومنها التوراة أنّ إبراهيم (عليه السلام) كان يتكلم باللغة السريانية (الآرامية) ، وهي لغة قومه ، ورد في تاريخ دمشق أنّ إبراهيم حينما خرج من حران يوم أرض بني كنعان حتى عبر الفرات إلى الشام فأنحرف لسانه عن السريانية إلى العبرانية ، وإنما سُميت (العبرانية) لأنه تكلم بها حين عبر الفرات (تاريخ دمشق ج9 ص182) .

يجب التّويه هنا أنّ السريان والسريانية مطلقاً حديثه العهد بالنسبة لمولد إبراهيم 1900 قبل الميلاد إذ سُميو بالسريان بعد وصول بشارة الرّسل إليهم وأشتق اسمهم من سورية فسميو بذلك للتفريق بينهم وبين الوثنيين وهم بالأصل كلدان ولغتهم كلدانية أو آرامية .

فلغة النبي إبراهيم هي آرامية ثم عبرية وحينما وصل إلى حران ومنها إلى أرض كنعان أمره الله بنقل زوجته هاجر وولده النبي إسماعيل إلى بكة مكة المكرمة وقصة سيدنا إبراهيم معروفة ومذكورة بتفاصيلها بالقرآن الكريم ما يهنا هنا حياة إسماعيل هناك وكيف فتق لسانه وتكلم العربية وهو أول من تكلم بها ولقد تحدثنا عن الروايات التي تتحدث عن وجود ذكر للعرب قبله وإن يعرب هو أول من نطق بالعربية وهي روايات لا أدلة تاريخية أو نصية عليها والأدلة الأثرية تثبت أنّ لغة الفحطانيين الحميرية هي ليساً عربية ممكن الرجوع إلى رأي الدكتور طه حسين في الشعر الجاهلي ونضيف إليهما قولين مأثورين أنّ ابن جني قال ((. . . وبعد فلسنا نشك في بعد لغة حمير ونحوها عن لغة بني نزار)) .

وَأَنَّ عَمْرَوِينَ الْعُلَاءِ قَالَ ((مَا لِسَانَ حَمِيرٍ بِلِسَانِنَا وَلَا لُغَتِهِمْ لُغَتَنَا))

هَذَا الْأَمْرُ مُحْسُومٌ لَكِنَّ السُّؤَالَ هُنَا كَيْفَ نَطَقَ وَتَعَلَّمَ النَّبِيُّ إِسْمَاعِيلُ أَبُو الْعَرَبِ الْعَارِبُ هَذِهِ اللُّغَةُ هَلْ اشْتَقَتْهَا مِنْ لُغَةِ الْأَصْلِيَّةِ سِوَاءِ أَكَانَتْ الْأَرَامِيَّةَ أَمْ الْعِبْرِيَّةَ أَوْ لَقَنْتْ إِلَيْهِ تَلَقُّنَا وَإِنْ عِبَارَةٌ فَتَقِ لِسَانَهُ تَوْحِي بِذَلِكَ .

أَوَّلُ مَنْ فَتَقَ لِسَانَهُ بِالْعَرَبِيَّةِ الْمُبَيَّنَةِ

هُوَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

"أَوَّلُ مَنْ فَتَقَ لِسَانَهُ بِالْعَرَبِيَّةِ الْمُبَيَّنَةِ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِ عَشْرَةَ سَنَةً" . وَالْحَدِيثُ

صَحَّحَهُ شَيْخُنَا الْعَلَمَاءُ الْأَلْبَانِيُّ فِي "صَحِيحِ الْجَامِعِ" (4346) .

I . عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (أَوَّلُ مَنْ فَتَقَ

لِسَانَهُ بِالْعَرَبِيَّةِ الْمُبَيَّنَةِ إِسْمَاعِيلُ ، وَهُوَ ابْنُ الْأَرْبَعَةِ عَشْرَةَ عَامًا) يُقَالُ : صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ . 2 . عَنْ ابْنِ

عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (سَأَلَ الرَّسُولَ وَقِيلَ لَهُ : مَنْ أَوَّلُ مَنْ

تَكَلَّمَ بِالْعَرَبِيَّةِ . قَالَ الرَّسُولُ : أَوَّلُ مَنْ فَتَقَ لِسَانَهُ بِالْعَرَبِيَّةِ الْمُبَيَّنَةِ هُوَ إِسْمَاعِيلُ ، وَهُوَ ابْنُ الْأَرْبَعَةِ عَشْرَةَ

عَامًا . وَقِيلَ لِلرَّسُولِ : وَمَا كَلَامُ النَّاسِ قَبْلَ ذَلِكَ . قَالَ الرَّسُولُ : الْعِبْرَانِيَّةُ يُقَالُ : حَدِيثٌ صَحِيحٌ مِنْ

الْأَلْبَانِيِّ ، وَمُتَّفَقٌ عَلَيْهِ . 3 . عَنْ الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

(أَوَّلُ مَنْ نَطَقَ بِالْعَرَبِيَّةِ إِسْمَاعِيلُ وَهُوَ ابْنُ الْأَرْبَعَةِ عَشْرَةَ عَامًا) يُقَالُ : صَحَّحَهُ الْبُخَارِيُّ . 4 . عَنْ عُمَرَ

بْنِ خَطَّابٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (أَوْصِيكُمْ بِالْإِعْرَابِ خَيْرًا ؛

فَإِنَّهُمْ أَصْلُ الْعَرَبِ ، وَجُنْدُ الْإِسْلَامِ) يُقَالُ : صَحَّحَهُ الْبُخَارِيُّ . 5 . عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ

عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (أَوَّلُ مَنْ نَطَقَ بِالْعَرَبِيَّةِ وَنَسِيَ لِسَانَ أَبِيهِ إِسْمَاعِيلُ ، وَهُوَ ابْنُ الْأَرْبَعَةِ عَشْرَةَ عَامًا ، بَعْدَ أَنْ أَهَمَّهُ اللَّهُ اللِّسَانَ الْعَرَبِيَّ الْمُبِينِ الْهَامِ) يُقَالُ : صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ ، وَأَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهٍ .

وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي الْفَتْحِ : "[قَوْلُهُ : (وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ)] : فِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ لِسَانَ أُمِّهِ وَأَبِيهِ لَمْ يَكُنْ عَرَبِيًّا ، وَفِيهِ تَضْعِيفٌ لِقَوْلِ مَنْ رَوَى أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ تَكَلَّمَ بِالْعَرَبِيَّةِ ، وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ عِنْدَ الْحَاكِمِ فِي "الْمُسْتَدْرَكِ" بِلَفْظِ "أَوَّلُ مَنْ نَطَقَ بِالْعَرَبِيَّةِ إِسْمَاعِيلُ" وَرَوَى الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ فِي النَّسَبِ مِنْ حَدِيثِ عَلِيِّ بْنِ إِسْنَادٍ حَسَنٍ قَالَ : "أَوَّلُ مَنْ فَتَقَ اللَّهُ لِسَانَهُ بِالْعَرَبِيَّةِ الْمُبِينَةِ إِسْمَاعِيلُ" . وَبِهَذَا الْقَيْدِ يُجْمَعُ بَيْنَ الْخَبْرَيْنِ فَتَكُونُ أَوْلِيَّتُهُ فِي ذَلِكَ بِحَسَبِ الزِّيَادَةِ فِي الْبَيَانِ لَا الْأَوَّلِيَّةَ الْمُطْلَقَةَ فَيَكُونُ بَعْدَ تَعَلُّمِهِ أَصْلَ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ جُرْهُمِ أَهْمَهُ اللَّهُ الْعَرَبِيَّةَ الْفَصِيحَةَ الْمُبِينَةَ فَنَطَقَ بِهَا ، وَيَشْهَدُ لِهَذَا مَا حَكَاهُ ابْنُ هِشَامٍ عَنِ الشَّرْقِيِّ بْنِ قَطَامِيٍّ "إِنَّ عَرَبِيَّةَ إِسْمَاعِيلِ كَانَتْ أَفْصَحَ مِنْ عَرَبِيَّةِ يَعْرُبَ بْنِ قَحْطَانَ وَبَقَايَا حَمِيرٍ وَجُرْهُمِ" وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ الْأَوَّلِيَّةُ فِي الْحَدِيثِ مُتَّيِدَةً بِإِسْمَاعِيلِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى بَقِيَّةِ إِخْوَتِهِ مِنْ وَدِّ إِبْرَاهِيمَ فَاسْمَاعِيلِ أَوَّلُ مَنْ نَطَقَ بِالْعَرَبِيَّةِ مِنْ وَدِّ إِبْرَاهِيمَ ، وَقَالَ ابْنُ دُرَيْدٍ فِي "كِتَابِ الْوَشَاحِ" "أَوَّلُ مَنْ نَطَقَ بِالْعَرَبِيَّةِ يَعْرُبُ بْنُ قَحْطَانَ ثُمَّ إِسْمَاعِيلُ" . انْتَهَى .

وَقَالَ الْإِمَامُ الْمُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ ، ج 2 ص 203 : "أَلْهَمَ إِسْمَاعِيلَ (هَذَا اللِّسَانَ الْعَرَبِيَّ الْهَامَا) مِنْ

اللَّهُ

وَقَالَ الْإِمَامُ الْمَنَاوِي فِي ، ج3ص I202837 : "(أول من فُتق لسانه) بِنَاء فِتْقٍ لِلْمَفْعُولِ وَالْفَاعِلُ أَيْ اللَّهُ
(بالعربية) أَيْ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَهِيَ كَمَا فِي الْمِصْبَاحِ كَعَبْرِهِ مَا نَطَقَ بِهِ الْعَرَبُ بِ (المُبَيَّنَةِ) أَيْ الْمَوْضِحَةِ
الصَّرِيحَةِ الْخَالِصَةِ (إِسْمَاعِيل) ابْنُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلُ قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : وَيُسَمَّى أَبُو الْفَصَاحَةِ
لُغَوِيًّا مَعْنَى فِتْقَ الْكَلَامِ : قَوْمُهُ ، وَسَعُهُ

أَنَّ التَّيْجَةَ الْمُنْطَقِيَّةَ الَّتِي تَوْصَلُنَا إِلَيْهَا كُلُّ هَذِهِ الْحَقَائِقِ هِيَ أَنَّ النَّبِيَّ إِسْمَاعِيلُ هُوَ أَبُو الْعَرَبِ بِالتَّسْبِ
وَبِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْفُضْحَى الَّتِي أَهَمَّهُ اللَّهُ لَهُ إِهَامًا وَذَلِكَ لِتَحْقِيقِ إِرَادَةِ اللَّهِ فِي أَنْ يَكُونَ آخِرُ الْكُتُبِ
السَّمَاوِيَّةِ وَخَاتِمَتِهَا بِهَذَا اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينِ وَقَدْ نَزَلَتْ التَّوْرَةُ بِالْعِبْرِيَّةِ عَلَى النَّبِيِّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
وَنَزَلَ الْإِنْجِيلَ عَلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْأَرَامِيَّةِ وَقَدْ تَحَدَّثْنَا عَنْ الْأَصْلِ الْوَاحِدِ لِهَذِهِ اللُّغَاتِ وَمَا يَجْمَعُهَا
مِنْ تَشَابَهٍ .

لِذَلِكَ جَاءَ النَّصُّ الْقُرْآنِيُّ فِي عِدَّةٍ مَوَاضِعٍ صَرِيحًا فِي تَبْيَانِ فَصَاحَةِ هَذَا اللِّسَانِ وَأَفْضَلِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ
الْإِعْجَازِيَّةِ يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ تَعَالَى :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف : 2]

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا

وَاقٍ ﴾ [الرعد : 37]

﴿ وَلَقَدْ تَعَلَّمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أُعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾

[النحل : 103]

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه : 113]

﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء : 195]

﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر : 28]

﴿ كِتَابٌ فَصَلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت : 3]

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ الْأَعْجَمِيَّةُ وَعَرَبِيَّةُ قُلٌّ هُوَ الَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً

وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : 44]

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي

الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ [الشورى : 7]

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف : 3]

﴿ وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابٌ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى

لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأحقاف : 12]

وَلَقَدْ اخْتَارَ الْكَثِيرُونَ مِنْ عُلَمَاءِ اللُّغَاتِ وَالتَّنْحُو وَغَيْرِهَا وَالمُسْتَشْرِقِينَ فِي قَدْرِهِ الْعَرَبِ عَلَى إِتْيَاحِ هَذِهِ

اللُّغَةِ بِهَذَا الْكُفْمِ الْهَائِلِ مِنَ الْمَعَانِي وَكَانَتْهَا رَكِبَتْ تَرْكِيْبًا وَهُنَاكَ قَوْلٌ لَطْفٌ حُسَيْنٌ يُفِيدُ هَذَا الْمَعْنَى وَسَنُعْطِي

بَعْضُ الْأَمْثَلَةِ لِمَا ذَكَرَهُ الْمُسْتَشْرِقُونَ فِي هَذَا الصَّدَدِ :

يُقُولُ آلْ كَارْلُونِلِينُو : « اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ تَفُوقُ سَائِرَ اللُّغَاتِ رَوْتَقًا وَعَعْنَى ، وَيَعْجِزُ اللِّسَانَ عَنْ وَصْفِ مَحَاسِنِهَا

قَالَ فَإِنَّ دِيكَ (الأمريكي) : « العَرَبِيَّةُ أَكْثَرُ لُغَاتِ الْأَرْضِ امْتِيَاظًا ، وَهَذَا الْاِمْتِيَاظُ مِنْ وَجْهَيْنِ : الْأَوَّلُ : مِنْ حَيْثُ ثَرَوَةٌ مَعْجَمَهَا . وَالثَّانِي : مِنْ حَيْثُ اسْتِعَابُهَا آدَابُهَا .

قال المستشرق الفرنسي الشهير إرنست رينان في معرض حديثه عن اللغة العربية في "الموسوعة المسيحية" : « قَهْزِهِ اللُّغَةُ الْمَجْهُولَةُ التَّارِيخِ تَبْدُو لَنَا فِجَاءَةً بِكُلِّ كَمَا لَهَا وَمَرُوتَهَا وَثَرُوتَهَا الَّتِي لَا تَنْتَهِي ، لَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ اللُّغَةُ مِنْذُ بَدَايَتِهَا بِدَرَجَةٍ مِنَ الْكَمَالِ نَدْفَعُنَا لِلْقَوْلِ بِإِجْازٍ : أَنَّهَا مِنْذُ ذَلِكَ الْوَقْتِ حَتَّى الْعَصْرِ الْحَاضِرِ لَمْ تَعْرَضْ لِأَيِّ تَعْدِيلٍ ذِي بَالٍ ، فَاللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ لَا طُفُولَةَ لَهَا ، وَلَيْسَ لَهَا شَيْخُوخَةٌ أَيْضًا ، مِنْذُ ظَهَرَتْ عَلَى الْمَلَأِ ، وَمِنْذُ اتَّصَارَاتِهَا الْمُعْجَزَةِ ، وَلَسْتُ أَذْرِي إِذَا كَانَ يُوجَدُ مِثْلُ آخِرِ اللُّغَةِ جَاءَتْ إِلَى الدُّنْيَا مِثْلُ هَذِهِ اللُّغَةِ مِنْ غَيْرِ مَرَحَلَةٍ بَدَائِيَّةٍ ، وَلَا فتراتٍ اِنْتِقَالِيَّةٍ ، وَلَا تَجَارِبٍ تَلْمَسُ فِيهَا مَعَالِمَ الطَّرِيقِ » .

فَيَسْمِيهَا رينان مَجْهُولَةَ التَّارِيخِ فِيهِ لَمْ تَكُنْ مَعْرُوفَةً قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهَا النَّبِيُّ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجَاءَتْ كَمَا هِيَ قَالِبًا وَاحِدًا مِنْ غَيْرِ مَرَحَلَةٍ بَدَائِيَّةٍ أَيْ لَمْ تَتَطَوَّرْ عَلَى مَرَاكِلٍ وَلَا يُوجَدُ مِثِيلَ لَهَا .

بَقِيَ عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ مَا يَقُودُ لَهُ النَّصُّ الْقُرْآنِيُّ وَالْحَدِيثُ النَّبَوِيُّ فِي مَسْأَلَةِ النَّسَبِ
إِسْمَاعِيلِي :

يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ :

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً

مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿ [إبراهيم : 37]

وَالذَّرِيَّةَ هُنَا هِيَ الْوَلَدِ وَوَلَدِ الْوَلَدِ وَلَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَهُ فَأَقَامَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ
الْقَوَاعِدَ مِنَ النَّبِيِّ وَأَسْكَنَهُمُ اللَّهُ وَرَزَقَهُمْ وَجَعَلَهُ آمَنًا

وَهُنَاكَ نَصُّ قُرْآنِي يُؤَكِّدُ بِشَكْلِ قَاطِعٍ أَنَّ الْعَرَبَ هُمْ أَوْلَادُ إِسْمَاعِيلَ وَإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ
هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الحج : 78]

فَهَذَا النَّصُّ يُوحِي لَنَا أَمْرَيْنِ اثْنَيْنِ بِشَكْلِ صَرِيحٍ :

أُولَاهِمَا : بِأَنَّ النَّبِيَّ إِبْرَاهِيمَ هُوَ أَبُو الْعَرَبِ بِالتَّسْبِ بِهِمْ ذُرِّيَّةَ وَوَلَدِهِ إِسْمَاعِيلُ فَكَلِمَةُ أَبِيكُمْ تَدُلُّ دَلَالَةً قَطْعِيَّةً
لَا رُمُوزِيَّةَ عَلَى ذَلِكَ ي : خَاطَبَ بِهِ الْعَرَبُ وَهُمْ كَانُوا مِنْ نَسْلِ إِبْرَاهِيمَ .

ثَانِيَهُمَا : خَاطَبَ بِهِ جَمِيعُ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِبْرَاهِيمَ أَبَ لَهُمْ ، عَلَى مَعْنَى وُجُوبِ احْتِرَامِهِ وَحِفْظِ حَقِّهِ
وَاتِّبَاعِ مِلَّتِهِ وَحَنَفِيَّتِهِ .

وَنَحْنُ أَدَلْنَا بِحَدِيثِ مَرْوِيِّ عَنِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَاءَ فِيهِ :

عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى نَفَرٍ يَتَضَلُّونَ ، فَقَالَ : «
ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ ، فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا» . [صحيح رواه البخاري]

الشرح :

يُخْبِرُ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ عَلَى بَعْضِ أَصْحَابِهِ وَهُمْ يَتَرَامُونَ
 بِالسَّهَامِ ، أَنَّهُمْ يَفُوزُونَ عَلَى صَاحِبِهِ ، فَأَقْرَهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ ، بَلْ وَحَشَّهْمَ بِقَوْلِهِ : "ارْمُوا بَنِي
 إِسْمَاعِيلَ" أَيِ دَاوُمُوا عَلَى الرَّمِيِّ وَحَافِظُوا عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ مِنْ تَعَمُّدِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْكُمْ يَا بَنِي إِسْمَاعِيلَ -
 ويقصد : العرب- إِنَّ أَبَاكُمْ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ -عليهما السلام- كَانَ مِمَّنْ يُجِيدُ الرَّمِيَّ وَيُحَسِّنُهُ .
 وَهَذَا نَحْنُ هَذَا الْفُضْلُ الَّذِي أَكْثَرْنَا فِيهِ مِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى حَقِيقَةِ مَرْجِعِيَّةِ الْعَرَبِ وَلِسَانِهِمُ الْعَرَبِيِّ لِلنَّبِيِّ
 إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُمْ الْعَرَبُ الْعَارِبَةُ بِنَسَبِهِمْ وَبَلَّغَهُمْ .

موقف العقل الديني الجاهلي من الدعوة الجديدة

كان العرب يعرفون الحنفية وهي دين ملة آباؤهم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام
 حَيْثُ بَنُوا قَوَاعِدَ بَيْتِ اللَّهِ وَدَعَا اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَ ذُرِّيَّتَهُمْ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّ هَذَا الْبَيْتِ وَلَقَدْ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ
 بِنُصُوصِ قُرْآنِيَّةٍ عَدِيدَةٍ إِنْ جَعَلَ لَهُمْ بَلَدًا آمِنًا وَحَرَمًا يُحْجُّ إِلَيْهِ النَّاسُ وَرَزَقَهُمْ مِمَّا لَا يَعْلَمُونَ .
 ان بَنُو إِسْمَاعِيلَ الْعَرَبِ الَّذِينَ عَاشُوا كَثِيرًا مِنْهُمْ فِي الْبُؤَادِي عَيْشُهُ الْأَعْرَابِ بَعْدَ أَنْ تَكَاثَرُوا وَتَفَرَّقُوا فَلَقَدْ
 نَسُوا شَيْئًا فَشَيْئًا مِلَّتَهُمْ وَشَرِيعَتَهُمْ حَتَّى أَرْسَلَ اللَّهُ مِنْهُمْ نَبِيًّا رَسُولًا يَعِيدُهُمْ إِلَى جَادَةِ الصَّوَابِ وَيُعَلِّمُهُمْ
 الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ .

وَالسُّؤَالُ الَّذِي يَتَحَمَّ عَلَيْنَا الْجَابَةُ عَنْهُ هُوَ لِمَاذَا قُبِلَ هَذَا الْإِخْتِيَارُ الْإِلَهِيُّ لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ
 لِيَكُونَ نَبِيًّا وَخَاتَمًا لِلنَّبِيِّينَ وَبِئْسَ يَدِيهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ كِتَابُ اللَّهِ بِمُعَارَضَةِ عَنِيفَةٍ مِنْ قَبْلِ عَشِيرَتِهِ وَمِنْ قَبْلِ
 الْيَهُودِ وَالتَّصَارِي وَصَلَتْ إِلَى دَرَجَةِ شَنْ الْحَرْبِ وَالتَّمْرِ عَلَيْهِ وَإِيْدَاءِ اتِّبَاعِهِ وَإِخْرَاجِهِ مِنْ مَوْطِنِهِ ؟

لن نبحت في كُتب السيرة والأحاديث المشهورة عن مافعله قريش بحق الرسول الكريم لكن علينا أن
نثبت مواقفهم وأفعالهم بالتصوُّص القرآنية لأنَّ اعتمادَ التصوُّص وخذها كأدلة هو منهجنا وخطنا
ومنطلقنا في هذا البحث ولقد تنوعت ردود وأفعال العشيرة في رفضهم للرسول ورسالته ووصلت إلى
حدِّ العنف .

والإيذاء والحصار ثم التفتي والقتال على الرغم أنه نبيُّ اختاره منهم وجعل رسالته بلسانهم يقول الله
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي ذَلِكَ :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا
مِنْ قَبْلَ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الجمعة : 2]

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ
تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 151]

﴿ لِأَيَّافِ قُرَيْشٍ (1) إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ
مِنْ جُوعٍ وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ (4) ﴾ [قريش : 1 - 4]

﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : 214]

﴿ وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ تَخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ تُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ
رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [التقصص : 57]

فِي التَّصَوُّصِ الْقُرْآنِيَّةِ نَقْرًا عِدَّةَ رَسَائِلٍ مُوجَّهَةٍ لِقُرَيْشٍ عَشِيرَةَ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ يُذَكِّرُهُمْ بِفَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ إِذَا
مَكَنَّ اللَّهُ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِأَنَّهُ جَعَلَ مِنْهُمْ رَسُولًا وَنَبِيًّا
يُدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّ هَذَا الْبَيْتِ وَيُخَلِّصُهُمْ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَيُرْفَعُ شَأْنُهُمْ وَمَقَامُهُمْ لَكِنَّ هَذِهِ الْعُقُلِيَّةُ
الْجَاهِلِيَّةُ كَانَتْ تَسِيرُهَا الْعَصَبِيَّةُ الْعَشَائِرِيَّةُ الْمُقَيَّةُ وَالْمَنْفَعَةُ الْمَادِّيَّةُ وَالْأَنَانِيَّةُ وَحُبُّ الشَّهَوَاتِ لِذَلِكَ
فَالرَّسُولُ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يَكُنْ مَهَادِنًا مَعَهُمْ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ حَتَّى إِهْتَمُّ لَقَدْ طَلَبُوا مِنْهُ تَغْيِيرَ
كَلَامِ اللَّهِ وَخِطَابِهِ

"وَإِذَا تُلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قَلَّ مَا يَكُونُ لِي أَنْ
أَبْدَلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي أَنْ اتَّبِعَ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ أَنِّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ" (يونس :
15) . وَهَذَا دَلِيلٌ قَوِيٌّ عَلَى قُوَّةِ تَأْثِيرِ الْقُرْآنِ فِي نَفْسِهِمْ وَخَوْفِهِمْ مِنْ سُقُوطِ عُرُوشِهِمْ هُمْ يُرِيدُونَ كِتَابًا
عَلَى مَزَاجِهِمْ وَهَوَاهِمَ لِذَلِكَ حَارَبُوهُ .

أَمَّا أَسْبَابُ هَذَا الرَّفْضِ وَالتَّجْبُرِ وَالْعِرَّةِ بِالنَّفْسِ فَهِيَ :

أَوَّلًا : لَقَدْ صَعِبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَنْزِلَ الْوَحْيُ عَلَى رَجُلٍ فَقِيرٍ مِنْهُمْ لَا يَمْلِكُ جَنَاتٍ مِنْ نَعِيمٍ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ
وَكَانَ رَجُلًا سَوِيًّا اشْتَهَرَ بِبَيْنَتِهِمْ بِالصَّدَقِ وَالْأَمَانَةِ وَكَانَ قَدَّرَ اللَّهُ لَهُ أَنْ يَكُونَ يَتِيمًا مُنْذُ صِغَرِ سِنِّهِ يَعِيشُ فِي
كَفِّ جَدِّهِ وَمِنْ ثَمَّ عَمَهُ هَذِهِ الصِّفَاتُ وَالْحَسَنَاتُ فِي رَجُلٍ لَا تَسْتَهْوِيهِمْ فَاعْتَرَضُوا عَلَى ذَلِكَ ﴿ وَقَالُوا
لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْشِيِّينَ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] لِذَلِكَ عَانَدُوا وَتَكَبَّرُوا فَهُمْ أَغْنِيَاءُ

وَهُوَ لَيْسَ عِنْدَهُ مَا يَمْلِكُونَ وَقَالُوا ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جِنَّةٌ مِنْ نَحِيلٍ وَعَنْبٍ قُتِّجَرَ الْأَثَارَ خِلَالَهَا

تُجْبِرًا ﴾ [الإسراء : 91] أَوْ ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ ﴾ [الإسراء : 93] .

ثَانِيًا : حِينَمَا بَدَأَ يُوَضِّحُ وَيُبَيِّنُ لَهُمْ قُوَّةَ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ وَبَلَاغَتِهِ تَغَيَّرَتْ لَهُجَّةُ خِطَابِهِمُ الْعَدُوَانِي الرَّافِضِ

فَاتَّهَمُوهُ بَعْدَهُ اتِّهَامَاتٍ مَرَّةً قَالُوا عَنْهُ سَاحِرٌ ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ

النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ ﴾ [يونس 2]

وَأَضَافُوا عَلَى كَلِمَةِ سَاحِرٍ نَعْتٌ آخَرَ اتَّهَمُوهُ بِهِ وَهُوَ أَصْدَقُ رَجُلٌ فِي عَشِيرَتِهِمْ وَقَالُوا ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ

جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [ص : 4] ثُمَّ اتَّهَمُوهُ بِالْجُنُونِ ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا

الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر : 6] ثُمَّ قَالُوا بَلْ ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَاتِنَا لِشَاعِرٍ

مَجْنُونٍ ﴾ [الصافات : 36] ثُمَّ ادَّعَوْا أَنْ هُنَاكَ مَنْ يَعْلَمُهُ وَيُلْقِنُهُ ﴿ وَلَقَدْ تَعَلَّمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ

لِسَانِ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [النحل : 103] .

ثَالِثًا : ثُمَّ تَحَوَّلَ رَدُّهُمْ وَتَقَدَّمَ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ نَفْسَهُ وَكَلِمَاتِهِ وَأَيَّاتِهِ لِأَنَّهَا أَصَابَتْ عَقِيدَتَهُمْ وَدِينَهُمْ فِي

الْمُقْتَلِ فَهُوَ طَعَنَ فِي آلِهَتِهِمْ ﴿ أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص : 5]

وَلَيْسَ ذَلِكَ فَحَسْبُ فَالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَشَفَ شُرُكِهِمْ وَخِرَافَاتِهِمْ ﴿ أَيْشُرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ

يُخْلِقُونَ ﴾ [الأعراف : 191]

رَابِعًا : لَمْ يَبْقَ إِمَامُهُمْ سِوَى أَنْ يَتَّحِدُوا الرَّسُولَ الْكَرِيمَ وَيَطْلُبُوا مِنْهُ الْمُعْجَزَاتِ الْآيَةِ فَطَلَبُوا مِنْهُ

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ [الإسراء : 90] ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا

زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالِلِهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿ [الإسراء : 92] وَأَخِيرًا طَلَبُوا مِنْهُ مَطْلَبًا فِي
اغْتِقَادِهِمْ هُوَ تَعْجِيزِي ﴿ أَوْ تَرَقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ
رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿ [الإسراء : 93] .

﴿ وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿ [الصافات : 36]

﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿ [المؤمنون : 70]

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿ [الأنفال 31]

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَبَتْهَا فِيهِ تَمَلَّىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿ [الفرقان : 5]

لَمْ يَدْعِ الْمُشْرِكُونَ صِنْفَةً أَوْ نَعْتًا إِلَّا وَنَعْتَهُ بِالرَّسُولِ الْكَرِيمِ وَرِسَالَةَ رَبِّهِ وَلَا تَهْمُ يَعْلَمُونَ تَمَامِ الْعِلْمِ أَخْلَاقِهِ
وَسُلُوكِهِ وَأَمَانَتِهِ وَعَقْمَتِهِ لِذَلِكَ لَمْ يَتَشَجَعُوا وَيَتَسَنَّى لَهُمْ ذَلِكَ عَلَى طَعْنِهِ بِأَمَانَتِهِ وَخَلْقِهِ بَلْ صُبُّوا جَامِ
غَضَبِهِمْ وَجَنُونَهُمْ عَلَى النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ الَّذِي فَضَحَ عَقِيدَتَهُمْ وَأَشْرَاكَهُمْ وَأَظْهَرَ لَهُمُ الْحَقَّ الْمُبِينُ .

وَكَانَ النَّصُّ الْقُرْآنِيُّ قَوِيًّا وَفَعَالًا فِي الرَّدِّ عَلَى مَقُولَاتِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَطَلَبَاتِهِمْ التَّعْجِيزِيَّةِ بَلْ كَشَفَ عُيُوبَهُمْ
وَجَهْلَهُمْ وَأَشْرَاكَهُمْ وَضَعَفَ دِينَهُمْ وَعَقَائِدَهُمْ وَبِالإِضَافَةِ لِذَلِكَ فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ رَاحَ يَحِثُّ الرِّسُولَ الْكَرِيمَ
عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ عَلَى الثَّبَاتِ وَالْمَقَاوِمَةِ وَمِنْ هَذِهِ الرَّدُودُ :

الاسْتِمْرَارِ فِي نَشْرِ الدَّعْوَةِ وَالذِّينِ وَعَدَمِ الْمُبَالَاتَةِ بِأَقْوَالِهِمْ يَقُولُ تَعَالَى : وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَاخْفِضْ

جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إني بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ " [الشعراء : 214، 216]

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿ [الحجر : 94، 97] .

﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ١٠٦]

وَلَقَدْ طَلَبَ اللَّهُ مِنْ رَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنُونَ الصَّبْرَ عَلَى التَّكْذِيبِ وَالْعِنَادِ مَا دَامُوا ضُعْفَاءَ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَدْ تَعَلَّمْ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)

(٣٣) وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنَا هُمْ نَضْرَنَا وَلَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ

اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) وَإِنْ كَانَ كَبِيرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي

الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بآيَةٌ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

(٣٥) ﴿ [الأنعام/٣٣-٣٥] .

قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنَا هُمْ

نَضْرَنَا وَلَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ ٣٤ ﴾

وطلب منه عدم الخوف إلا من الله :

قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ : ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا

مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرَ عَظِيمٍ ١٧٢ ﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا

وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿ ١٧٣ ﴾ فَاتَّقَبُوا بِنِعْمَةِ مَنْ اللَّهُ وَفَضِلِّ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا

رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿ ١٧٤ ﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿ ١٧٥ ﴾

والنظر في السنن الربانية

قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَاسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ
 ١٣٧ ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ١٣٨ ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن
 كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ١٣٩ ﴿ إِن يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ
 وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ ١٤٠ ﴿ آلِ عِمْرَانَ
 ووجوبُ التعلُّقِ بالمبدأ وليس بالأشخاص :

لأنَّ المبدأ لا يضلُّ ولكن الأشخاص قد يضلُّون أو يُحبَسون أو يشردون في الأرض أو يقتلون .
 وهذه نقطة جوهريّة في صميم هذه الرسالة الخالدة ، وقد ترك كثير من الصحابة الجهاد في غزوة أحد
 لما سمعوا بمقتل النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وكثير من الناس اليوم إذا قتل الداعية أو سجن أو
 انحرف تخلوا عن الدعوة ويسوا من رحمة الله تعالى وهذا أمر خطير يتعلّق بعقيدة المسلم تجاه هذه
 الرسالة الخاتمة .

قَالَ تَعَالَى : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انقلبتم على أعقابكم
 وَمَنْ يَنْقلبْ عَلَى عَقبِهِ فَلَنْ يضرَّ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) (آلِ عِمْرَانَ : ١٤٤)
 وعدمُ الأكرات بالذين لا يؤفنون :

قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّتْكَ الَّذِينَ لَا يُؤفنون ﴾ (٦٠) سورة الروم
 تحملُ الأذى الشديداً في سبيلِ الله تعالى وعدمُ الوهنِ في طلبِ الكفار

قَالَ تَعَالَى : (وَلَا تَهْتُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونًا فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) (النساء : ١٠٤)

ووجوب التحلي بمكارم الأخلاق :

قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَقْمَنُ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَتْقِضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) ﴾ سورة الرعد

وَأَنْ يَكُونُوا أَنْصَارًا لِلَّهِ :

قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَاثْمَنَّا طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتُ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤) ﴾ [الصف/١٤]

لَقَدْ اسْتَيْقَنَتْ قُرَيْشٌ بِصِدْقِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ وَرِسَالَتِهِ وَالْكَلِمَاتِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ وَهَرَّتْ نُفُوسُهُمْ وَأَدْخَلَتْ بِهَا الرُّغْبَ وَالْخَوْفَ لِكُنْهِم بِالرُّغْمِ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ نَكْرُوهَا وَجَحَدُوا بِهَا تَعَنَّاتًا وَظُلْمًا يَقُولُ الْمُؤَلَّى الْقَدِيرِ فِي ذَلِكَ ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ النمل : ١٤]

أَنَّهُمْ اخْتَجُّوا عَلَىٰ هَذَا الْفِكْرِ الْجَدِيدِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الدِّينُ الْجَدِيدُ لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ سِوَىٰ الَّذِي كَانَ يُؤْمِنُ بِهِ آبَاؤُهُم الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَفَوْقَ ذَلِكَ يَالَيْتَ آبَاؤُهُمْ كَانُوا مُهْتَدِينَ وَقَدْ فَضَحَهُمُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِقَوْلِهِ قَالَ تَعَالَى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَٰئِكَ كَانُوا آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ" (المائدة) .

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَٰئِكَ الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) ﴾ سُورَةُ الرَّعْدِ

أساليب العقول العرب الجاهلي في محاربة الدعوة

لقد حارب العقل العربي الجاهلي الدعوة الجديدة لشعوره بأنها ستهدم عصبيتهم وجهلهم وستقضي على نفوذهم وتسلطهم وبغيهم وأتبع أصحاب هذا العقل طرقا وأبتكروا أساليباً في محاربة الدعوة منها

أسلوب الترهيب والتهديد

استعمل المشركون أسلوب الترهيب والتهديد لثني النبي ﷺ وأصحابه عن الإسلام ونشر دعوته ، وكان يتولى هذا الأسلوب كبار قريش ، وطواغيتهم كابي جهل الذي كان إذا سمع بإسلام رجل من أشرف

مَكَّةَ وَمَنْ لَهُ شَوْكَةٌ وَمَنْعَهُ أَنَّهُ وَأَخْزَاهُ وَقَالَ لَهُ : « تَرَكْتَ دِينُ أَبِيكَ وَهُوَ خَيْرٌ مِنْكَ ! لِنَسْفِهِنْ حِلْمَكَ ، وَلِنَضْعِنَ رَأْيَكَ ، وَلِنَضْعِنَ شَرَفَكَ » ، وَإِنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَمَتَاعٍ وَتِجَارَةٍ قَالَ لَهُ : « لِنَكْسِدَنَّ تِجَارَتَكَ ، وَلِنَهْلِكَنَّ مَالَكَ » ، وَإِنْ كَانَ ضَعِيفًا مَسْتَضْعَفًا ضَرَبَهُ ، وَأَعْرَى بِهِ سَفَهَاءَ مَكَّةَ .

أُسْلُوبُ الْأَذَى الْمَعْنَوِيِّ

أُسْتُعْمِلَ الْمُشْرِكُونَ كَذَلِكَ أُسْلُوبًا مِنْ أَشَدِّ الْأَسَالِيبِ خِسَّةً وَدَنَاءَةً فِي مُوَاجَهَةِ الْمُسْلِمِينَ ، إِلَّا وَهُوَ أُسْلُوبُ الْأَذَى الْمَعْنَوِيِّ مِنْ خِلَالِ : السُّخْرِيَّةِ ، وَالِاسْتِهْزَاءِ ، وَالتَّشْهِيرِ ، وَالغَمَزِ وَاللَّمَزِ ، وَالِاتِّهَامِ بِالسَّحْرِ ، وَالْجُنُونِ ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَأْتِيهِ شَيْطَانٌ ، وَالسَّبِّ وَالشَّتْمِ... وَغَيْرِ ذَلِكَ .

أ – الْإِثْمَامُ بِالْجُنُونِ وَأَنَّهُ يَأْتِيهِ شَيْطَانٌ :

حَيْثُ رَمَوْا النَّبِيَّ ﷺ بِالْجُنُونِ وَفِي ذَلِكَ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ) ، وَقَالَ تَعَالَى أَيْضًا : (وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيَزَلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ) . وَكَانَ بَعْضُ الْكُفَّارِ يَقُولُ : أَنَّ الَّذِي يَأْتِي مُحَمَّدًا شَيْطَانٌ لَا مَلِكَ ، كَمَا وَرَدَ فِي الْبُخَارِيِّ أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ لِلرَّسُولِ ﷺ سَاحِرَةٌ مَسْتَهْزِئَةٌ : « إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ ، لَمْ أَرَهُ قُرْبَكَ مُنْذُ ثَلَاثِينَ أَوْ ثَلَاثًا » . وَقَدْ كَذَبَ اللَّهُ تَعَالَى ظَنَّهُمْ وَسَفَهَ مَنْطِقَهُمْ فَأَلْ : (وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِيَّاهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ) [7] ، وَقَوْلُهُ : (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) .

ب – الْإِثْمَامُ بِالسَّحْرِ وَالْكَهَانَةِ :

وَقَدْ نَزَلَ فِي ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا) [9] ، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى :
(وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ) .

وَحِينَ سَمِعَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ الْقُرْآنَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ فِيهِ قَوْلًا يُجْمَعُ عَلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ فَقَالَ : « إِنَّ
أَقْرَبَ الْقَوْلِ أَنْ تَقُولُوا : سَاحِرٌ ، يُفَرِّقُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ أَبِيهِ ، وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ أَخِيهِ ، وَبَيْنَ الْمَرْءِ
وَزَوْجِهِ ، وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَعَشِيرَتِهِ ، فَتَفَرَّقُوا عَنْهُ ، فَجَعَلُوا يَجْلِسُونَ لِلنَّاسِ حِينَ قَدِمُوا الْمَوْسِمَ لَا يَمُرُّ بِهِمْ
أَحَدٌ إِلَّا حَدَرُوهُ إِيَّاهُ ، وَذَكَرُوا لَهُ أَمْرَهُ ؛ فَانزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ : (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ
وَحِيدًا) .

ت - الاتِّهَامُ بِالْكَذِبِ وَأَنَّهُ يَأْتِي بِالْأَسَاطِيرِ :

وَفِي ذَلِكَ يُخْبِرُنَا الْمَوْلَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا هَذَا إِلَّا إِنْفِكٌ أَفْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ
آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا وَقَالُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَبَاهَا فِيهَا تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا) .

ث - السُّخْرِيَّةُ وَإِلَّا سَتَهْرَاءُ وَالسَّتْمُ :

وَكَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ مِنْهُ ﷺ وَمِنْ أَصْحَابِهِ الْكِرَامِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فَقَالَ تَعَالَى فِي وَصْفِ ذَلِكَ : (إِنَّ
الَّذِينَ أُجْرِمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ، وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا
فَكَهِنًا) [14] ، وَمَرَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا بِجَمَاعَةٍ مِنْ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ فَتَنَاوَلُوهُ بِالْهَمْزِ ، وَاللَّمْزِ ، وَالِاسْتَهْرَاءِ
فَغَاطَهُ ذَلِكَ ، فَانزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ)

وَكَانُوا يَشْتُمُونَ النَّبِيَّ ﷺ ، وَيَسُبُّونَهُ ، وَيَذْمُونَهُ ، فَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَتْ :
لَمَّا نَزَلَتْ : (تبت يدا أبي لهب) ، أَقْبَلَتِ الْعُورَاءُ أُمَّ جَمِيلٍ بِنْتِ حَرْبٍ وَلَهَا وَلَوْلَةٌ ، وَفِي يَدَيْهَا فَهْرٌ وَهِيَ
تَقُولُ : مُذَمَّمَا أَبِينَا ، وَدِينَهُ قَلِينَا ، وَأَمْرَهُ عَصِينَا ، ... وَلَمْ يَكُنْ النَّبِيُّ ﷺ يَعْرِ لَذْمَهُمْ اهْتِمَامًا ، فَفِي
صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « أَلَا
تَعْجَبُونَ كَيْفَ يُصْرَفُ اللَّهُ عَنِّي شَمًّا قُرَيْشٍ وَلَعْنُهُمْ ؟ ! يَشْتُمُونَ مَذَمَّمَا ، وَيَلْعَنُونَ مَذَمَّمَا ، وَأَنَا مُحَمَّدٌ » .

أَسْلُوبُ الْأَذَى الْجَسَدِيِّ :

لَمَّا لَمْ تَنْجَحِ أَسَالِيبُ الْمُشْرِكِينَ السَّابِقَةَ فِي صَدِّ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ عَنِ الْإِسْلَامِ ، لَجَأَتْ إِلَى أَسْلُوبِ
الْإِعْتِدَاءِ ، وَالتَّصْفِيَةِ الْجَسَدِيَّةِ لِإِزْهَابِ الْمُسْلِمِينَ ، وَثَنِيهِمْ عَن دِينِهِمْ ، وَقَدْ نَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ ذَلِكَ
التَّصِيبِ الْأَوْفَى ، فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ : سَأَلْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو عَنْ أَشَدِّ مَا
صَنَعَ الْمُشْرِكُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : رَأَيْتُ عُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي ، فَوَضَعَ
رِدَاءَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَدَفَعَهُ عَنْهُ ، وَقَالَ : (أَنْتُمْ لَوْنٌ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّي
اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ .

وَقَامَ أَبُو جَهْلٍ لَعْنَهُ اللَّهُ وَرَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي « لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ - قَالَ : - فَمَا فَجَّهَمُ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ
يُنْكَصُ عَلَى عَقْبِيهِ ، وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ - قَالَ : - فَقِيلَ لَهُ : مَا لَكَ ؟ فَقَالَ : أَنْ بَنِي وَبَيْنَهُ لِحْدَقًا مِنْ نَارٍ ،
وَهُوَلَا ، وَأَجْنَحَةٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَوْ دَنَا مِنِّي لَأَخْطَطْتُهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا » ، قَالَ : فَأَنْزَلَ
اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَا تَذَرِي فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَوْ شَيْءٍ بَلَغَهُ : (كَلَا أَنْ الْإِنْسَانَ لِيَطْغَى أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْنَى أَنْ
إِلَى رَبِّكَ الرَّجْعَى أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى أَرَأَيْتَ إِنْ

كَذَبَ وَتَوَلَّى) [21] - يَعْنِي : أبا جَهْلٍ - (أَلَمْ يَعْلَمَ بِأَنَّ اللَّهَ يُرَى كَمَا لَبِثَ لَمْ يَتَّهَ لَسْفَعًا بِالتَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ
كَذِيبَةٍ خَاطِئَةٍ فَلَيْدَعُ نَادِيَهُ سَنَدَعُ الرَّبَّائِيَةَ كَمَا لَا تُطْعَهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ .

أَسْلُوبُ التَّرْغِيبِ وَالْمَسَاوِمَةِ :

بَعْدَ فَشَلِّ أَسَالِيبِ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ وَالتَّنْكِيلِ ، وَتَزَايِدِ الدَّاخِلِينَ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ ، سَقَطَ فِي أَيْدِي
الْمُشْرِكِينَ وَلَجَأَتْ صَنَادِيدُهُمْ إِلَى أَسْلُوبِ التَّرْغِيبِ وَالْمَسَاوِمَةِ ، فَحَاوَلَتْ قُرَيْشٌ أَنْ تُجْعَلَ الْإِسْلَامُ يَلْتَقِي
مَعَ الْجَاهِلِيَّةِ .

فِي مُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَتَنَازَلَ الْمُشْرِكُونَ عَنْ بَعْضِ مَا هُمْ عَلَيْهِ ، وَيَتْرُكُ النَّبِيَّ ﷺ بَعْضَ مَا هُوَ
عَلَيْهِ ، وَقَدْ عَبَّرَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَنْ نَفْسِيَّةِ قُرَيْشٍ فِي ذَلِكَ فَقَالَ : (وَدَاوُلُو تَدُهْنُ فَيَدُهْنُونَ) [26] ، وَقَدْ
عَرَضُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يُعْبَدَ آلِهَتُهُمْ يَوْمًا ، وَيَعْبُدُونَ آلَاهَةَ يَوْمًا فَانزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي ذَلِكَ سُورَةَ
الْكَافِرُونَ : (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مِمَّا عَبَدْتُمْ وَلَا
أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) [27] ، فَفَقَطَعَ الْقُرْآنُ رَجَاءَ الْمُشْرِكِينَ ، وَرَفَضَ رَفْضًا قَاطِعًا
النَّازِلَ عَنْ مَبَادِيهِ .

وَقَدْ أَرَادَ الْمُشْرِكُونَ أَنْ يَسَاوَمُوا النَّبِيَّ ﷺ مِنْ خِلَالِ عَمِهِ أَبِي طَالِبٍ ، فَاقْتَرَحُوا عَلَيْهِ أَنْ يُعْطُوهُ أَجْمَلَ
شَبَابِ مَكَّةَ آنَذَاكَ وَهُوَ عُمَارَةُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ بَدَلًا عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَأْخُذُوهُ وَيَقْتُلُوهُ .
وَلَمَّا فَشَلُوا فِي ذَلِكَ ، أَرَادُوا أَنْ يَسَاوَمُوهُ بِالْمَالِ وَالْجَاهِ وَالْمَلِكِ عَلَيْهِمْ ، وَلَمَّا جَاءَ وَفَدَّهُمْ إِلَى أَبِي طَالِبٍ
، قَالَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ : « يَا بَنَ أَخِي ، هُوَ لَاءِ أَشْرَافِ قَوْمِكَ ، قَدْ اجْتَمَعُوا إِلَيْكَ لِيُعْطُوكَ ، وَليَأْخُذُوا مِنْكَ ،

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: نَعَمْ: كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ تَعطُونِهَا يَمْلِكُونَ بِهَا الْعَرَبُ ، وَتَدِينُ لَكُمْ بِهَا الْعَجَمُ “ ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : نَعَمْ وَأَبِيكَ عَشْرَ كَلِمَاتٍ ، قَالَ : تَقُولُونَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَتَخْلَعُونَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ ، فَصَفَقُوا بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ قَالُوا : يَا مُحَمَّدُ تُرِيدُ أَنْ تُجْعَلَ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ؟ أَنْ أَمْرَكَ لِعَجَبٍ ، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا هَذَا الرَّجُلُ بِمَعْطِيكُمْ شَيْئًا مِمَّا تُرِيدُونَ ، فَاذْطَلَقُوا وَامضُوا عَلَى دِينِ آبَائِكُمْ ، حَتَّى يُحْكَمَ اللَّهُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ ، قَالَ : ثُمَّ تَفَرَّقُوا فَانزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ أَوَّلَ سُورَةِ “ص” .

أَسْلُوبُ الْحِصَارِ وَالْمَقَاتِطَةِ الْعَامَّةِ :

لَمَّا رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ عَدَدَ الدَّاخِلِينَ فِي الْإِسْلَامِ فِي إِزْدِيَادٍ ، وَإِنْ وَسَّأَتْهَا وَأَسَالِيِبَهَا السَّابِقَةَ فِي مُحَارَبَتِهِمْ وَقَمَعَهُمْ لَمْ تَجِدْ شَيْئًا ، خَاصَّةً بَعْدَ إِسْلَامِ حَمْرَةَ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، أَعَادَتِ النَّظَرَ فِي أُسَالِيِبِهَا السَّابِقَةَ ، وَهُوَ أُسْلُوبُ الْمَقَاتِطَةِ الْعَامَّةِ .

حَيْثُ أَجْمَعَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى قَتْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَتَبُوا كِتَابًا عَلَى بَنِي هَاشِمٍ إِلَّا يَنَاحُوهُمْ ، وَلَا يَبَايَعُوهُمْ ، وَلَا يُخَالِطُوهُمْ ، وَكَانَ الَّذِي كَتَبَ الصَّحِيفَةَ مَنْصُورِ بْنِ عَكْرِمَةَ الْعَبْدَرِيِّ فَشَلَّتْ يَدُهُ ، وَعَلَقُوا الصَّحِيفَةَ فِي جُوفِ الْكَعْبَةِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : بَلْ كَانَتْ عِنْدَ أُمِّ الْجِلَاسِ بِنْتِ مُخْرَبَةَ الْحَنْظَلِيَّةِ خَالِهِ أَبِي جَهْلٍ ، وَحَصَرُوا بَنِي هَاشِمٍ فِي شُعْبِ أَبِي طَالِبٍ لَيْلَةَ هِلَالِ الْمُحَرَّمِ سَنَةَ سَبْعٍ مِنْ حِينَ تُنْبِئُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَأَنحَازَ بَنُو الْمُطَلَبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ إِلَى أَبِي طَالِبٍ فِي شُعْبَةٍ مَعَ بَنِي هَاشِمٍ ، وَخَرَجَ أَبُو لَهَبٍ إِلَى قُرَيْشٍ فظَاهَرَهُمْ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَلَبِ ، وَقَطَعُوا عَنْهُمْ الْمِيرَةَ وَالْمَادَّةَ ، فَكَانُوا لَا يُخْرِجُونَ إِلَّا مِنْ مَوْسِمٍ إِلَى مَوْسِمٍ ، حَتَّى بَلَغَهُمُ الْجُهْدُ ، وَسَمِعَ أَصْوَاتَ صَبِيَّائِهِمْ مِنْ وَرَاءِ الشَّعْبِ ، فَمَنْ قُرَيْشٍ مِنْ سَرَّهُ ذَلِكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ سَاءَهُ ، وَقَالَ : انظُرُوا مَا أَصَابَ مَنْصُورِ بْنِ

عِكْرَمَةَ ، فَأَقَامُوا فِي الشَّعْبِ ثَلَاثَ سِنِينَ ، ثُمَّ اطَّلَعَ اللَّهُ رَسُولَهُ عَلَى أَمْرِ صَاحِبَتِهِمْ ، وَإِنَّ الْأَرْضَ قَدْ
أَكَلَتْ مَا كَانَ فِيهَا مِنْ جَوْرٍ وَظَلَمٍ ، وَبَقِيَ مَا كَانَ فِيهَا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

مَوَاقِفُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الْعَرَبِ

المَقْصُودُ بِهِمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الَّذِينَ هَادُوا وَتَنَصَرُوا خِيثَ كَانَ هُنَاكَ إِلَى جَانِبِ الْمُشْرِكِينَ الْعَرَبِ الَّذِينَ
يَتَقَرَّبُونَ إِلَى اللَّهِ بِأَوْثَانِهِمْ وَأَصْنَامِهِمْ زَلْفَى ، فَهُنَاكَ أَيْضًا مِنَ الْعَرَبِ كَانُوا مِنْ مَعْتَقِي الدِّيَاتِنِ الْيَهُودِيَّةِ
وَالْمَسِيحِيَّةِ اللَّتَانِ كَانَتَا تَعْمَانِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَلِكُلِّ مِنْ تِلْكَ الْأَدْيَانِ مَصَادِرُ فِكْرِيَّةٍ تَسْتَقِي
مِنْهَا تَعَالِيمَهَا ، وَتَبْنِي عَلَيْهَا مَعْتَدَاتَهَا ، فَصَاحِبُهَا طَقُوسُهُمُ الدِّينِيَّةَ عَلَى اخْتِلَافِهَا .
وَكُلُّ وَاحِدٍ بَنَى عَلَيْهِ مَعَارِفَهُ مِنْ مَحِيطِهِ الْغَنِيِّ دِينِيًّا .

وَكَانَ الْكَثِيرُ مِنْ اتِّبَاعِ هَاتَيْنِ الدِّيَاتِنِ كَثُرًا فِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ كَمَا ذَكَرْنَا وَكَانَ بَيْنَهُمُ الرَّهْبَانُ وَالْقَسِيْسِينَ
وَالْمُتَقَهِّينَ وَقَدْ لَعِبُوا دَوْرًا مُتَخْفِيًا مُسْتَرًّا فِي بَدَايَةِ نُزُولِ الْوَحْيِ فَكَانُوا يَحْرُكُونَ أُمَّةَ الشَّرْكَ الْقَرِيشِيِّينَ
وَيَحْرُضُوهُمْ عَلَى النَّبِيِّ الْكَرِيمِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْوَحْيِ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَكِنْ مَوْقِفُ الْيَهُودِ خَاصَّةً مِنْ
الدَّعْوَةِ النَّبَوِيَّةِ أَزْدَادًا وَضُوحًا وَعَدْوَانِيَّةً حِينَمَا هَاجَرَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ إِلَى الْمَدِينَةِ فَجَابَهُوا النَّبِيَّ بِالْكَلامِ
وَالْجَدَلِ ثُمَّ بِالْفِعْلِ حِينَمَا تَحَالَفُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ ضِدَّ الرَّسُولِ وَاتَّبَاعِهِ وَلَكِنْ مَا الَّذِي دَفَعَ بِالْيَهُودِ لِلْوُقُوفِ
إِلَى جَانِبِ أَعْدَاءِ الدَّعْوَةِ التَّوْحِيدِيَّةِ وَهُمْ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الْوَاحِدِ وَبِالدِّيَانَةِ الْإِبْرَاهِيمِيَّةِ وَهُمْ دِينِيًّا وَعَقَائِدِيًّا
أَقْرَبُ لِلْإِسْلَامِ وَلَيْسَ لِلْمُشْرِكِينَ .

مَوْقِفُ الْيَهُودِ الْعَرَبِ

بَدَأَ الْوَحْيِ وَبِهِ بَدَأَتْ رِسَالَةُ الْإِسْلَامِ وَدِينِهِ مَعَ بَدَايَاتِ الْقَرْنِ السَّابِعِ الْمِيلَادِيِّ وَالْفَارِقِ الزَّمَنِيِّ بَيْنَ نُزُولِ الْقُرْآنِ وَنُزُولِ الْإِنْجِيلِ هُوَ حَوَالِي 610 أَعْوَامٍ تَقْرِيبًا بَيْنَمَا نَزَلَتِ التَّوْرَةُ فِي عَهْدِ مُوسَى حَوَالِي 1500 سَنَةً قَبْلَ الْمِيلَادِ وَبِهَذَا تَكُونُ التَّوْرَةُ قَبْلَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِحَوَالِي 2100 سَنَةً تَقْرِيبًا وَهُوَ فَارِقَ زَمَنِي كَبِيرٌ .

قُلْنَا إِنَّ الْمُوَاجَهَةَ بَيْنَ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ وَالْيَهُودِ الْعَرَبِ بَدَأَتْ بَعْدَمَا هَاجَرَ النَّبِيُّ إِلَى الْمَدِينَةِ ، حَيْثُ تَعَامَلِ الرَّسُولُ (صَلِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) مَعَ الْيَهُودِ فِي الْبَدَايَةِ عَلَى أَسَاسِ أَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ مُوَحَّدِينَ يُؤْمِنُونَ بِنُبُوَّةِ مُوسَى (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وَيَرْفُضُونَ الْأَوْثَانَ . فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ بِكُلِّ سَمَاحَةٍ ، وَإِلَى الْإِيمَانِ بِنُبُوَّتِهِ وَبِدِينِهِ كَدَعْوَةِ عَالَمِيَّةٍ ، وَقَدْ جَاءَهُمْ بِالذَّلِيلِ الْقَاطِعِ وَالْبَيِّنَةِ فَهَمَّ أَنْ كَانَ لَهُمْ عُذْرٌ مِنْ قَبْلِهِ فَالآنَ لَيْسَ لَهُمْ أَيُّ مُبَرَّرٍ بَعْدَ وُضُوحِ الدَّلِيلِ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ : (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ) . ﴿ سُورَةُ الْبَيِّنَةِ : I ﴾ .

وَفَوْقَ ذَلِكَ اعْتَبَرَهُمُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مِنْ أَصْحَابِ كُتُبِ سَمَاوِيَّةٍ وَاتَّبَعَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ وَقَدْ أَبْرَمَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْعُهُودَ مَعَهُمْ فِي الْمَدِينَةِ ، وَاعْتَبَرَهُمْ جِزَاءً مِنَ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَحَارَبَ الْكَثِيرَ مِنَ الْيَهُودِ جَنَبًا إِلَى جَنَبٍ ضِدَّ الْبِيزَنْطِيِّينَ وَالْفَرَنْجَةَ .

ثُمَّ دَعَاهُمْ صَرَاحَةً إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهَا وَأَدْيَانُهُمْ تَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ الْوَاحِدِ ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : 64]

وَلَقَدْ دَعَاهُمْ إِلَى التَّقْوَى فِي الْعَمَلِ وَهِيَ مِيزَانُ التَّقَاضُلِ ، وَإِلَى تَحْلِيلِ الطَّيِّبِ وَتَحْرِيمِ الْخَبِيثِ فِي الشَّرِيعِ ، وَإِلَى التَّعَاوُنِ وَالْمَعْرُوفِ فِي بِنَاءِ الْمَجْتَمَعِ ، قَالَ تَعَالَى ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ

الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ
 الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ
 وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿ [الأعراف : 157] هَذِهِ آيَةٌ نَزَلَتْ فِي مَكَّةَ
 وَكَانَتْ دَعْوَةً اسْتِيقَاقِيَةً لِأَهْلِ الْكِتَابِ تَبَاوَهُمْ بِمَوْقِفِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْهُمْ وَدَعْوَةً لَوْحَدَةِ الصَّفِّ ضِدَّ
 الْمُشْرِكِينَ الْكَافِرِينَ .

ومما زاد في مواقف اليهود العرب في المدينة وشكوكهم بالرَّسُولِ وَرِسَالَتِهِ هُوَ أَنَّهُمْ فِي مُعْتَقَدِهِمْ أَنَّ أَنْبِيَاءَ
 بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَكْمَلُوا وَالتَّوْرَةَ هِيَ آخِرُ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ الْمُنزَلَةِ ثُمَّ وَقُفُّهُمْ مَعَ الْمُشْرِكِينَ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ
 وَتَأْمُرُهُمْ وَتَحْرِيطُ الْمُشْرِكِينَ عَلَى قِتَالِهِمْ كُلِّ ذَلِكَ وَتَمَشِيًا مَعَ هَذِهِ الْأَحْدَاثِ بَدَأَ النَّصَّ الْقُرْآنِيَّ بِالرَّدِّ عَلَيْهِمْ
 وَكَشَفَ نَوَايَاهُمْ وَمَوَاقِفَهُمْ ثُمَّ رَاحَ يَفْنِدُ تَارِيحَهُمُ الْحَافِلَ بِتَزْوِيرِ كَلَامِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ لَقَدْ كَانَتْ لَهُمْ
 اغْتِرَاضَاتٌ قَوِيَّةٌ وَمَوَاقِفٌ بَاطِلَةٌ ضِدَّ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ وَرِسَالَتِهِ لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ كَشَفَ تَزْوِيرَهُمْ
 وَتَحْرِيفَهُمْ وَكَشَفَ تَارِيحَهُمْ وَعَنْتَهُمْ وَتَعْنَدَهُمْ فَمَاذَا كَانُوا يُرِيدُونَ :

يُرِيدُونَ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا لَهُمْ وَدِينَ اللَّهِ وَاحِدٌ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَغْيِرْ دِينَ اللَّهِ يَتَّبِعُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)
 (٨٣) قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا
 أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالتَّيْبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نَفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ
 الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥) ﴿ سُوْرَةُ آلِ عِمْرَانَ

وَفِي ظِلِّ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ يَبْدُو الَّذِينَ يَتَخَلَّفُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ عَنِ الْإِيمَانِ بِالرَّسُولِ الْأَخِيرِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمَنَاصِرَتِهِ وَتَأْيِيدِهِ ، تَمَسَّكَ بِدَيَانَاتِهِمْ - لَا بِحَقِيقَتِهَا فَحَقِيقَتُهَا تَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ وَنُصْرَتِهِ ، وَلَكِنْ بِاسْمِهَا تَعْصِبًا لِنَفْسِهِمْ فِي صُورَةِ التَّعَصُّبِ لَهَا ! - مَعَ أَنَّ رُسُلَهُمُ الَّذِينَ حُمِلُوا إِلَيْهِمْ هَذِهِ الدِّيَانَاتِ قَدْ قَطَعُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ عَهْدًا ثَقِيلًا غَلِيظًا مَعَ رَبِّهِمْ فِي مَشْهَدٍ مَرْهُوبٍ جَلِيلٍ . فِي ظِلِّ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ يَبْدُو أُولَئِكَ الَّذِينَ يَتَخَلَّفُونَ فَسُقْتَهُ عَنْ تَعْلِيمِ أَنْبِيَائِهِمْ . فَسُقْتَهُ عَنْ عَهْدِ اللَّهِ مَعَهُمْ لِذَلِكَ جَاءَ النَّصُّ الْقُرْآنِيُّ حَاسِمًا فِي تَكْفِيرِهِمْ وَاعْتِبَارِهِمْ أَخُوهُ الْمُشْرِكِينَ وَصَحْبِهِمْ فِي النَّارِ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) ﴾ [البينة/٦] فَسَاوَى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ فِي الْعُقُوبَةِ .

لَا يُحِبُّونَ لِلْمُسْلِمِينَ أَيْ خَيْرٍ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥) ﴾ [البقرة/١٠٥]

يُجْمَعُ الْقُرْآنُ بَيْنَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي الْكُفْرِ . . وَكِلَاهُمَا كَافِرٌ بِالرَّسَالَةِ الْأَخِيرَةِ فَهَمَّا عَلَى قَدَمٍ سَوَاءٍ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ ؛ وَكِلَاهُمَا يُضْمَرُ لِلْمُؤْمِنِينَ الْحَقْدِ وَالضَّغْنِ ، وَلَا يُؤَدُّ لَهُمُ الْخَيْرُ . وَأَعْظَمُ مَا يَكْرَهُونَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ هُوَ هَذَا الدِّينَ . هُوَ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْتَارَهُمُ اللَّهُ لِهَذَا الْخَيْرِ وَيُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ هَذَا الْقُرْآنَ وَيُعْهَدَ إِلَيْهِمْ بِأَمَانَةِ الْعَقِيدَةِ فِي الْأَرْضِ ، وَهِيَ الْأَمَانَةُ الْكُبْرَى فِي الْوُجُودِ .

عَدَمَ رِضَاهُمْ عَنِ الْمُسْلِمِينَ مَا دَامُوا مُسْلِمِينَ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (١٢٠) سُورَةُ الْبَقَرَةِ

كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَرْجُو أَنْ يُبَادِرَ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ قَبْلَ غَيْرِهِمْ ، لِذَلِكَ كَبَّرَ عَلَيْهِ إِعْرَاضُهُمْ عَنْ إِجَابَةِ دَعْوَتِهِ ، وَالْحَافِظُ فِي مُجَاحَدَتِهِ ، فَأَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنْ يُبَيِّنَ مِنْ الطَّمَعِ فِي إِسْلَامِهِمْ ، إِذْ عُلِقَ رِضَاهُمْ عَنْهُ بِمَا هُوَ مُسْتَحِيلٌ أَنْ يَكُونَ .

الْحَسَدُ وَالْحَقْدُ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (١٠٥) سُورَةُ الْبَقَرَةِ

إِنَّ الَّذِينَ عَرَفْتُمْ حَالَهُمْ مَعَ أَنْبِيَائِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، هُمْ حَسَدَةٌ لَكُمْ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَصِيبَكُمْ خَيْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلَا أَنْ يَتَرَسَّخَ دِينُكُمْ ، وَلَا أَنْ تَتَّبَتَّ أَرْكَانُهُ ، وَالْمُشْرِكُونَ مِثْلُ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي كُرْهِهِمْ لَكُمْ ، وَحَسَدِهِمْ إِيَّاكُمْ ، وَتَمَنِّيهِمْ أَنْ تَدُورَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الدَّوَائِرُ ، وَأَنْ يَنْتَهِيَ أَمْرُ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ .

الْبَغْيُ وَالْعُدْوَانُ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (١٩) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ لَا يَقْبَلُ دِينًا مِنْ أَحَدٍ غَيْرِ دِينِ الْإِسْلَامِ . وَالْإِسْلَامُ هُوَ الْإِسْتِسْلَامُ الْكَامِلُ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَاتِّبَاعُ الرُّسُلِ فِيمَا بَعَثَهُمُ اللَّهُ بِهِ فِي كُلِّ حِينٍ ، وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

فَمَنْ لَقِيَ اللَّهَ بَعْدَ بَعْتِهِ مُحَمِّدٍ عَلَى غَيْرِ شَرِيْعَتِهِ فَلَا يُقْبَلُ مِنْهُ مَا جَاءَ بِهِ ، وَجَاءَتِ الرُّسُلُ أَقْوَامَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، يُطَلَّبُونَ مِنْهُمْ اتِّبَاعَ سَبِيلِ اللَّهِ هَذَا ، وَيَحْتَوِئُهُمْ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَلِكِنِّهِمْ اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَخَرَجُوا عَنِ الْإِسْلَامِ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ ، وَتَفَرَّقُوا شَيْعاً وَطَوَائِفَ مُتَنَاحِرَةً مُتَقَاتِلَةً . وَلَمْ يَكُنْ سَبَبُ ذَلِكَ الْاِخْتِلَافِ جَهْلًا بِحَقِيْقَةِ الدِّينِ ، فَالَّذِينَ وَاحِدٌ لَا مَجَالَ لِلْاِخْتِلَافِ فِيهِ ، وَلِكِنِّهِمْ اخْتَلَفُوا اغْتِدَاءً وَظُلْمًا وَبَغِيًّا وَتَبَاغُضًا بَيْنَهُمْ (بَغِيًّا بَيْنَهُمْ) ، وَاتِّبَاعًا لِلرُّؤْسَاءِ الَّذِينَ تَجَاوَزُوا الْحُدُودَ ، وَلَوْلَا بُعِيْهِمْ وَنَصْرُهُمْ مَذْهَبًا عَلَى ذَهَبِ ، وَتَضْلِيلُهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ بِتَفْسِيرِ نُصُوصِ الدِّينِ بِالرَّأْيِ وَالْهَوَى ، وَتَأْوِيلِ بَعْضِهِ أَوْ تَحْرِيفِهِ ، لَمَا حَدَثَ هَذَا الْاِخْتِلَافُ .

يَتَمَنُّونَ إِضْلَالَنَا وَيَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَلْبَسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٦٩) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبَسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يُخَصِّصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤) ﴿ سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

كُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَّهُمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ

قَالَ تَعَالَى : قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ
الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن آمَنَ تَبْغُوهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

(٩٩) آل عمران

يُعْتَفِ اللَّهُ تَعَالَى أَهْلَ الْكِتَابِ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَصَدَّهِمِ النَّاسَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّ مَا
جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ حَقٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ صَنِيعِهِمْ بِمَا خَالَفُوا مَا بَأْيَدِهِمْ مِنْ كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ ،
وَهُوَ مُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ ، وَذَلِكَ مِمَّا يُوجِبُ عَلَيْهِمُ الْإِيحْتِرَاءَ عَلَى الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَبِآيَاتِهِ .

يُرِيدُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَضِلُّوا السَّبِيلَ مِثْلَهُمْ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُشْرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا
السَّبِيلَ ﴾ ، فَهُمْ يَخْتَارُونَ الضَّلَالََةَ لِأَنفُسِهِمْ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا بِهَا طَرِيقَ الْحَقِّ الْقَوِيمِ ، كَمَا ضَلُّوا هُمْ ،
وَهُمْ دَابُّو الْكَيْدِ لِيُرِدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا .

قَوْلِهِمْ لِلْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ أَهْدَىٰ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سَبِيلًا

قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا
هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ (٥١) سُورَةُ النَّسَاءِ

النُّقْمَةَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ لِأَنَّهُمْ مُّسْلِمُونَ فَقَط

قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَتَّقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ
أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٥٩) سُورَةُ الْمَائِدَةِ .

يُرِيدُونَ مِنْهُمْ اتِّبَاعَ الشَّهَوَاتِ مِثْلَهُمْ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ (٢٧) .
سُورَةُ النَّسَاءِ .

يُرِيدُونَ إِطْفَاءَ نُورِ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٣٢) .
سُورَةُ التَّوْبَةِ .

نَقَضْتَهُمُ الْعَهْدَ وَالْمَوَاقِفَ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوَكَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا
بَبْذِهِ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ بَبْذِ فَرِيقٍ
مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَانُوا لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) ﴾ [البقرة/٩٩-١٠١] .

عَدَمَ رِضَاهُمْ عَنِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يَتَّبِعُوا مِلَّتَهُمْ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَنْ
أَتَّبِعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠) ﴾ [البقرة/١٢٠]

يَعْلَمُونَ أَنَّ الْإِسْلَامَ حَقٌّ وَيَجْحَدُونَ ذَلِكَ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ
كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بِسْمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ
يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ

وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا
وَرَاءَهُ وَهُوَ

الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩١) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى
بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) ﴿ [البقرة/٨٩-٩٣] .

ادعائهم أنه لن يدخل الجنة إلا اليهود والنصارى

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ (١١٢) ﴿ [البقرة/١١١ ، ١١٢] .

رَعِمِهِمْ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُهْتَدُونَ وَغَيْرِهِمْ ضَالٌّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مَلَّةٌ
إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ
أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي
شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ
عَابِدُونَ (١٣٨) قُلْ اتَّحَابُونَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ
(١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ الَّذِينَ
أَعْلَمَ أَمَّ اللَّهُ وَمَنْ أظْلَمَ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ
خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١) ﴿ [البقرة/١٣٥-١٤١]

مَاجِجَتُهُمْ فِي النَّبِيِّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِغَيْرِ عِلْمٍ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨) ﴾ [آل عمران/٦٥-٦٨].

يُرِيدُونَ مِنَ الرَّسُولِ كِتَابًا مَنزَلًا مِنَ السَّمَاءِ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَيَّدْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (١٥٤) فَبِمَا نَفْسِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا (١٥٩) ﴾ [النساء/١٥٣ ، ١٥٩].

قَتَلَهُمْ بَعْضُهُمُ الْبَعْضَ وَإِخْرَاجَهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تَفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٨٦) ﴾ [البقرة/٨٤-٨٦] .

تَكْذِيبُ الْأَنْبِيَاءِ وَقَتْلُهُمْ بِغَيْرِ الْحَقِّ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧) ﴾ [البقرة/٨٧] .

قُلُوبُهُمْ غُلْفٌ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨) ﴾ [البقرة/٨٨]

ادعاهم أَن الدَّارِ الْآخِرَةِ لَهُمْ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَتَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَنْ يَمَتُّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) ﴾ [البقرة/٩٤-٩٥]

حِرْصِهِمُ الشَّدِيدُ عَلَى الْحَيَاةِ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْضَخِيهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة/ ٩٦] .

عَدَاوتِهِمْ لِلَّهِ وَلِمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ ظَاهِرُهُ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨) ﴿ [البقرة/ ٩٧-٩٨] .

تَرْكِهِمْ لِلْوَحْيِ وَاتِّبَاعُهُمْ لِلسَّحَرَةِ وَالشَّيَاطِينِ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاتَّبِعُوا مَا نَزَّلْنَا عَلَى مَلَكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكِينَ بِبَابِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَعَلِّمُونَ مَا يُضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣) ﴿ [البقرة/ ١٠٢-١٠٣] .

كَثْرَةُ الْأَسْئَلَةِ لِأَنْبِيَائِهِمْ بِمَا لَا مَنَفَعَةَ فِيهِ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (١٠٨) ﴿ [البقرة/ ١٠٨] .

إِتْهَامُ الْيَهُودِ لِلنَّصَارَى بِأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ وَكَذَّا النَّصَارَى

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣) ﴾ [البقرة/١١٣] .

قِلَّةُ الْأَمَانَةِ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَعَهُ غَيْرُهُمْ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ إِِنْ تَأْمَنُهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِِنْ تَأْمَنُهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦) إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧) ﴾ [آل عمران/٧٥ ، ٧٧] .

الْمُؤْمِنُونَ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ قِلَّةٌ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥) ﴾ [آل عمران/١١٣ - ١١٥] .

دُخُولُ الْجَنَّةِ لَيْسَ بِالْأَمَانِيِّ وَإِنَّمَا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤) ﴾ [النساء/ ١٢٣ ، ١٢٤] .

إِيمَانُهُمْ بِبَعْضِ الرُّسُلِ وَكُفْرُهُمْ بِالْآخَرِينَ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٥٢) ﴾ [النساء/ ١٥٠-١٥٢] .

تَحْرِيمُ كَثِيرٍ مِنَ الطَّيِّبَاتِ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكَلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١) ﴾ [النساء/ ١٦٠-١٦١] .

الْخُلُوفُ فِي الدِّينِ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمْنَاهُ آفَاقًا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١) لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ

فَسِيخْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكفوا واستكبروا فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا
لعنهم بسبب نقض العهود والمواثيق مع الله

قال تعالى: وَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) فَبِمَا نَفْسِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤) [المائدة/١٢-١٤] .

إخفاؤهم كثير من آيات الكتاب عن الناس

قال تعالى: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦) [المائدة/١٥-١٦] .

قَالُوا عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: 30]

ادعائهم أنهم أحبب الله

قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [المائدة/ ١٨].

القرآن الكريم أقيم الحجة على أهل الكتاب

قال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى قُرَّةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة/ ١٩].

ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَاهُمْ جَنَّاتِ التَّعِيمِ ﴾ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمَنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ (٦٦) [المائدة/ ٦٥-٦٦].

ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل على حقيهما

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٦٨) [المائدة/ ٦٨].

مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ وَالْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا دَخَلَ الْجَنَّةَ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالتَّصَارِي مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ

صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩) ﴿ [المائدة/٦٩] .

لَعَنَهُمْ بِسَبَبِ تَرْكِهِمُ الْمُرَّ بِالْمَعْرُوفِ وَالتَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَعْنُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا

وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ

الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالتَّيْبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١) ﴿ [المائدة/٧٨-٨١]

. [٨١]

الْيَهُودَ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لَنَا وَالتَّصَارِي الَّذِينَ آمَنُوا أَقْرَبُهُمْ لَنَا

قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ

آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَّيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا

أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)

(٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَاتَّابَهُمْ

اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا

وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦) ﴿ [المائدة/٨٢-٨٦] .

اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي قُدِّرَ إِخْرَاجُ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ

قَالَ تَعَالَى : هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا
 وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ
 بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَائَ لَعَذَّبَهُمْ فِي
 الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
 الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥)
 [الحشر/٢-٥] .

سَيَبْقَى أَهْلُ الْكِتَابِ مُخْتَلِفِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ (١) رَسُولٌ
 مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ
 الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ
 الْقِيمَةِ (٥) ﴿ [البينة/١-٥] .

مَاذَا طَلَبَ اللَّهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ اتِّجَاهَهُمْ

١ . التَّحْذِيرُ مِنْ طَاعَتِهِمْ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ (١٠٠)
 وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى
 صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١) ﴿ سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ .

٢ . التَّحْذِيرُ مِنْ تَوْلِيهِمْ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) ﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَاصْبِحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) ﴾ [المائدة/٥١-٥٣] .

٣ . تَحْرِيمُ حُبِّهِمْ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّوهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لُتُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَىٰ أَعْيُنِكُمْ وَالنَّامِلِ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (١١٩) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ .

٤ . عَدَمُ مُجَالَسَةِ مَنْ يَسْخَرُ بِآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَتَعَدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ (١٤٠) سُورَةُ النَّسَاءِ

٥ . تَحْرِيمُ اتِّخَاذِهِمْ أَوْلِيَاءَ

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٥١) سُورَةُ الْمَائِدَةِ

٦ . دَعْوَتُهُمْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ

قَالَ تَعَالَى : قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا
يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) [آل عمران/٦٤]

٧ . تَحْرِيمُ التَّحَاكُمِ إِلَيْهِمْ وَإِلَى قَوَانِينِهِمْ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا
إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (٦٠) سُورَةُ النَّسَاءِ

٨ . تَحْرِيمُ اتِّبَاعِ أَهْوَاءِهِمْ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَنْ آتِيَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ
بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَنْ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٤٥) ﴿
[البقرة/١٤٥] .

١٣ . جِدَالُهُمْ بِالْحُسْنَى قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَيْنَا وَإِلَيْكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٤٦) ﴿
[العنكبوت/٤٦] .

لَنْ يَضُرُّونا إِلَّا أذى قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَيُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١١٠) لَنْ يَضُرُّوكُمْ
إِلَّا أذى وَإِنْ يَقَاتُوكُمْ يُؤَلُّوكُمُ الْأَذْيَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيُّنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنْ

اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴿آل عمران/١١٠-١١٢﴾ .

وقد أقصى النبي اليهود من شبه الجزيرة العربية لأنهم واثقوه وعاهدوه ثم خانوا العهود وتحالفوا مع أعدائه القرشيين .

النَّصَارَى الْعَرَبِ

دَخَلَتِ النَّصْرَانِيَّةُ بِلَادَ الْعَرَبِ وَانْتَشَرَتْ فِيهَا بِالتَّبَشِيرِ وَنَاسِ بَطْرِيقِ الْهَجْرَةِ الَّذِي اتَّبَعْتَهُ الدِّيَانَةُ الْيَهُودِيَّةُ هُنَاكَ . فَلَمْ تَحْدُثْ هَجْرَاتٌ نَصْرَانِيَّةً إِلَى الْحِجَازِ وَبِلَادِ الْيَمَنِ ، وَكَانَ التَّبَشِيرُ يَتِمُّ بِدُخُولِ بَعْضِ النَّسَاكِ وَالرُّهْبَانِ إِلَى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَمِنْهُمْ مَنْ رَافَقُوا الْبَدُوَ الْإِعْرَابَ وَعَاشَوْا مَعَهُمْ وَجَارَوْهُمْ فِي عَيْشَتِهِمْ وَطَرَزَ حَيَاتِهِمْ ، الَّتِي تَمَيَّزَتْ بِالْحِلِّ وَالتَّرْحَالِ وَالْإِقَامَةِ فِي الْخِيَامِ فَعَرَفُوا ((بِأَسَاقِفَةِ الْخِيَامِ)) وَأَسَاقِفَةَ أَهْلِ الْوَبْرِ وَأَسَاقِفَةَ الْعَرَبِ الْبَادِيَةِ . وَذَكَرَ أَنَّ مُطْرَانَ بَصْرِيٍّ . مِنْ أَعْمَالِ دِمَشْقَ كَانَ يُشْرِفُ عَلَى نَحْوِ عِشْرِينَ اسْقِفًا اتَّشَوْا بَيْنَ عَرَبِ حُورَانَ وَعَرَبِ عَسَانَ . وَكَانَ لِاتِّقَانِ الْمُبَشِّرِينَ كَيْفِيَّةَ التَّأثيرِ وَوَسَائِلِ الْإِقْتِنَاعِ وَالْمُنْطِقِ ، فَضْلًا عَنْ بَرَاعَتِهِمْ فِي مُدَاوَاةِ بَعْضِ الْأَمْرَاضِ ، أَنْ تَمَكَّنُوا مِنْ صَمِّ بَعْضِ سَادَاتِ الْقَبَائِلِ وَالْأَعْرَابِ إِلَى الدِّينِ الْجَدِيدِ .

أَنْشَأَ النَّصْرَانِيُّ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ كَثِيرًا مِنَ الْإِدْيَةِ كَوَسِيلَةٍ مِنْ وَسَائِلِ التَّبَشِيرِ وَنَشْرُ دِيَانَتِهِمْ ، فَقَدْ أَعَدَّوْا الدِّيَةَ لِلْقَوَافِلِ التَّجَارِيَّةِ لِيَجِدَ قِيَا التَّجَارِكُلِّ وَسَائِلِ الرَّاحَةِ وَالِاسْتِمَاعِ خِلَالَ رِحْلَانِهِمْ وَأَسْفَارِهِمْ الشَّقَاةَ وَكَانَتْ هَذِهِ الْإِدْيَةُ تَشْتَهَرُ بِالْحُمُورِ وَالتَّبِيدِ ، الَّذِي كَانَ يَتِمُّ صَنْعَةً عَلَى أَيْدِي الرُّهْبَانِ أَنْفُسِهِمْ ، وَاتِّئَاءَ اللَّهْوِ وَشُرْبِ الْخُمُورِ كَانَ الرُّهْبَانُ يَلْعَبُونَ دُورَهُمْ فِي التَّعْرِيفِ بِدِينِهِمْ وَيُؤَدُّونَ شَعَائِرَهُمْ فِي حُضُورِ

زوارهم ويدعونهم إلى الانضمام للنصرانية . فكانت الديرية بُوتًا للخُلوة والانتقطاع لعبادة الله ومواطن
للراحة واللهو والتبشير بالديانة المسيحية . وقد انتشرت هذه الديرية في أماكن عديدة من بلاد العراق
وببلاد الشام وفي بعض تواحي الحجاز ونجد وجنوبي جزيرة العرب وشرقها .

كان لقدوم البعثات الدينية التي تتألف من الرهبان والتسك وإقامة الديرية في بلاد العرب ، أن انتشرت
المسيحية هناك ، خاصة إن قياصرة الروم قاموا بتشجيعها والاعداق على المبشرين بكل ما يمكنهم من
تأدية رسالتهم ، وحرصوا على تحوّل أتباعهم إلى هذه الديانة حتى يضمّنوا ولاءهم ، وتأمين مصالحهم
الاقتصادية في جزيرة العرب .

كانت بلاد الشام تمثل المعقل الأول الذي وطدت فيه المسيحية اقدمها للعلاقات المباشرة والوطيدة مع
قياصرة الروم الذين اتخذوا من النصرانية دينًا رسميًا لامبراطوريتهم فانتشرت بين عرب بلاد الشام من
الغساسنة أتباع القيصر ، وغيرهم من قبائل كلب وقضاة وعاملة وجذام وقد حارب الغساسنة إلى
جانب الروم لدوافع دينية وسياسية ففي يوم اليرموك كانوا في صفوف الروم وكان رئيسهم جبلة بن الأيهم
الغساني في مقدمة الجيش الذي أرسله هرقل لمحاربة المسلمين .

وكانت قبائل إياد من جملة العرب المنتصرة سكنوا السواد والجزيرة ، وسكن قوم منهم بلاد الشام
فخضعوا للغساسنة وللروم ونصروا . كذلك وجدت النصرانية طريقًا لها بين عدد كبير من رجالات
قبائل طي فوفد عدي بن حاتم الطائي وكان على النصرانية إلى رسول الله [صلى الله عليه وآله] وأعلن
إغتناقه الإسلام . وفي بلاد العراق وجدت النصرانية لها أرضًا خصبة عند إهالة الحيرة .

فَقَدْ كَانَ نَصَارَى الشَّامِ عَلَى الْمَذْهَبِ الْيَعْقُوبِيِّ أَوْ النَّسْطُورِيِّ ، الْقَائِلِ بِالطَّبِيعَةِ الْوَاحِدَةِ لِلْمَسِيحِ ، فَهُمْ
أَصْحَابُ الطَّبِيعَةِ الْوَاحِدَةِ وَصَاحِبُ هَذَا الْمَذْهَبِ هُوَ يَعْقُوبُ الْبَرَادِيعِيُّ (ت 578م) ، بَيْنَمَا كَانَ نَصَارَى
الْعِرَاقِ وَمِنْ وَالْأَهَمُّ مِنْ قِبَائِلِ تَغْلِبٍ وَإِيَادٍ وَبَكْرٍ ، مِنْ اتِّبَاعِ الْمَذْهَبِ النَّسْطُورِيِّ ، الَّذِي يُنسَبُ إِلَى
نَسْطُورِيوس (ت 450م) وَيَرَى أَنَّ لِلْمَسِيحِ طَبِيعَتَيْنِ أَوْ اقْنُومَيْنِ ، اقْنُومِ النَّاسُوتِ واقْنُومِ اللَّاهُوتِ

كَانَ لِاتِّصَالِ بِلَادِ الْحِجَازِ بِالْحِيرَةِ وَبِلَادِ الشَّامِ أَنْ دَخَلَتِ النَّصْرَانِيَّةُ إِلَى هَذِهِ الْبِلَادِ . وَمِنْهَا دُومَةُ الْجَنْدَلِ
وَأَيْلَةُ وَتَيْمَاءَ ، كَمَا كَانَ فِي يَثْرِبٍ وَمَكَّةَ وَالطَّائِفَ قَلِيلٌ مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ عِنْدَ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ . ذَلِكَ أَنَّ
جَمَاعَاتٍ مَثَلِ تِجَارِ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ كَانُوا يَذْهَبُونَ فِي رِحَالَتِهِمُ التَّجَارِيَّةِ إِلَى إِمَارَةِ الْحِيرَةِ لِلْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ .
فَكَانُوا يَعْرِفُونَ عَلَى التَّغْيِرَاتِ وَالتَّطَوُّرَاتِ الثَّقَافِيَّةِ وَالدِّيْنِيَّةِ ، وَيَنْتَقِلُونَهَا إِلَى أَبْنَاءِ بَطُونِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ وَذَلِكَ
فَضْلًا عَنْ قُدُومِ الْمُبَشِّرِينَ مِنَ الْحِيرَةِ إِلَى بِلَادِ الْحِجَازِ فِي رِكَابِ الْقَوَافِلِ التَّجَارِيَّةِ .

فدومة الجندل كانت على اتصال تجاري منذ القدم مع الحيرة . وبذلك انتقلت إليها النصرانية وصار
فريق من أهلها نصرانيين ، وكان صاحب أئمة قبل الإسلام ، يوحنا بن رؤبة ، وهو نصراني قدم إلى نبوك
بعد الإسلام وكان الرسول ص بها فصالحه على الجزية وبقي على دينه (I2) ، وقد أطلق عليه
المسعودي (I3) لقب أسقف أئمة . وأما اليمامة فكان حاكمها عند بعث النبي ص هو هوزة بن علي ،
وكان نصرانيًا من بني حنيفة على علاقة قوية بالفرس وذكر ابن الأثير (I4) ، أن هوزة توسط لفك أسر
مائة رجل من بني تميم في أعقاب يوم الصفقة .

كما ذكر أن معظم الرقيق في مكة كان نصرانيًا وأنه كان بها جالية من الروم والنصارى ، فضلًا عن
الجواري الروميات وليس أدل على وجود نفر قليل من النصرانيين في مكة من أن قريشًا ادعت أن رجلًا

نَصْرَانِيًّا كَانَ يَعِيشُ بِمَكَّةَ وَقَتَ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ يُسَمَّى جَبْرَ النَّصْرَانِيِّ هُوَ الَّذِي يُلَقِّنُ رَسُولَ اللَّهِ [صلى الله عليه وآله] مَا يَقُولُهُ لِلنَّاسِ وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي كَانَ يَعْلَمُهُ ذَلِكَ وَكَانُوا يَقُولُونَ : وَاللَّهِ مَا يَعْلَمُ مُحَمَّدٌ كَثِيرًا مِمَّا يَأْتِي بِهِ إِلَّا جَبْرُ النَّصْرَانِيِّ غُلَامٌ الْحَضْرَمِيِّ .

فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [النحل : IO3] (I7) .

كَمَا كَانَ فِي يَثْرِبِ بَعْضُ النَّصَارَى الَّذِينَ كَانُوا يَسْكُنُونَ فِي مَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ سُوقُ التَّنْبَطِ ، وَفِي الْبُحْرَيْنِ كَانَ بُنُو عَبْدِ الْقَيْسِ عَلَى النَّصْرَانِيَّةِ ، فَقَدِمَ بَشْرُ بْنُ عَمْرٍو عَلَى رَأْسِ وَقْدٍ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْقَيْسِ عَلَى النَّبِيِّ [صلى الله عليه وآله] ، وَاَعْلَنُوا اعْتِنَاقَهُمُ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ .

كَانَ أَبَاطِرَةُ الرُّومِ يَمُدُّونَ الْكَنَائِسَ بِالْأَسَافِقَةِ وَالْمُبَشِّرِينَ . كَمَا اَعْدَقُوا الْأَمْوَالَ عَلَيْهَا حَتَّى تَمَكَّنَ مِنْ الْقِيَامِ بِمَهَامِهَا فِي نَشْرِ النَّصْرَانِيَّةِ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ الَّتِي تُشَكِّلُ لَهُمْ أَهَمَّ مَنَاطِقِ التُّنُودِ وَالْمَصَالِحِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْاِقْتِصَادِيَّةِ . فَانْتَشَرَتِ الْبَيْعُ فِي الْمَدِينِ وَفِي الْفَرَى وَفِي الْبُوَادِي ، وَكَانَ يَقْصِدُهَا الْأَغْرَابُ لِلتَّنَزُّهِ بِهَا وَاحْتِسَاءِ الشَّرَابِ وَلِلتُّزُودِ بِالْمَاءِ أَوْ الزَّادِ ، وَقَدْ أَشَارَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ إِلَى الْبَيْعِ وَالصَّوَامِعِ ، أَمَا كُنْ سَكِينِي الرَّهْبَانِ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَلَوْ لَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمْتُ الصَّوَامِعَ وَبَيْعَ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيُنْصِرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : 40]

عَلَى الرَّغْمِ مِنْ اِنْتِشَارِ النَّصْرَانِيَّةِ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ إِلَّا أَنَّ سَوَادَ نَصَارَى الْعَرَبِ لَمْ يَكُونُوا عَلَى عِلْمٍ وَقَفَّهَ بِأُمُورِ دِينِهِمْ ، بَلْ سَارُوا وَرَاءَ الْمُبَشِّرِينَ لِاِعْتِقَادَاتِ خُرَاقِيَّةٍ بِمَقْدَرَتِهِمْ عَلَى شِفَاءِ الْمَرْضَى وَاللُّوسُطِ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِتَحْقِيقِ أَهْدَافِهِمْ وَامَانِيهِمْ ، وَمَنْ نَاحِيَّةٍ أُخْرَى تَنْصُرُ كَثِيرٌ مِنَ الْعَرَبِ مِنْ أَجْلِ الْمَصَالِحِ

السياسية والاقتصادية وإرضاء سادتهم من الروم والحبس وقدم أنصح ذلك من وجود مراكز النقل
 النصراني في المواضع التي دان فيها العرب بالتبعية للإمبراطورية البيزنطية وفي بلاد اليمن خلال الاحتلال
 الحبشي . وعلى ذلك كان النصراني يعرف وقدك بأنه من كان يأكل الخنزير ويشرب الخمر . فعلى
 الرغم من أن الأصل في النصرانية أنها ديانة سماوية تدعو إلى التوحيد تمييزاً لها عن الوثنية التي كان
 جُل اهتمامها اتخاذ أصنام وعبادتها ، فقد اتخذ النصارى التماثيل ووضعوها في بيعتهم وكنائسهم ،
 بل قام النصارى بصنع الأوثان للتجار فيها وبيعها للوثنيين في بلاد الشام .

ومما يجب ملاحظته أن وجهه نظر القرآنية إلى النصارى هي غيرها لليهود ، فالنصارى هم أقرب الناس
 مودة للمسلمين ، وعزى القرآن ذلك إلى تعبدهم وعدم استكبارهم ، كما ورد في الآية المتلوة أفأ ،
 بينما يُعبر اليهود أشد عدواناً للمسلمين ، ومن السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي تتضح تلك المواقف التي
 حصلت مع النبي من يهود يثرب وكذلك مواقف الخيانة ونكث العهود التي تكررت من اليهود في العهد
 الإسلامي ولانزال نشأها على نطاق واسع ، فمعاملتنا مع أهل الكتاب تجب إن تكون نابعة من هذا
 الفكر القرآني النصوص تؤكد هذا كما في قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ
 يَخِرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا) (الإسراء : 107) وقال تعالى : (وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا
 نَصَارَى ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) (المائدة : 82) .

قد ذكر القرآن الكريم حكمن يختص بهما أهل الكتاب دون سائر الأمم والملل ، يتضح به مدى عناية
 الإسلام الخاصة بهما وهما كما يلي :

الأول: قد رسم القرآن الكريم توجيهات عديدة في شأن الذبائح فقال: « وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِشْقٌ ». (الأنعام: 121) فلا يحل لمسلم أن يأكل ما ذبحه المشرك، فإنه ميتة؛ ولكن القرآن جعل أهل الكتاب بمثابة أهل الإسلام في الذبح وقال: « وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ » (المائدة: 5).

الثاني: الذي يتعلق بالزواج بالكتابات، فإن القرآن قد حرم نكاح المسلمين بالمشركات، وقال: « وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمَنَّ » (البقرة: 221) ولكنه أباح الزواج بالكتابات، فقال جل وعلا: « وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ » (المائدة: 5).

أسباب الفرقة والخلاف

يقول ربنا الكريم ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [آل عمران: 19]

فالدِّين عند الله الإسلام ولم ينزل للناس ديناً آخر ولم يخص لليهود والنصارى ديناً خاصاً سماه لكلٍ منهما بل أطلق عليهم أهل الكتاب أي أصحابه وهما التوراة والإنجيل والكتاب تعاليمه وأحدة والإسلام واحد وإن تعددت الرسل لكن جعل لهم شريعة خاصة بهم.

وذكر اليهود بأنهم الذين هادوا وسموا بذلك من أجل أنهم قالوا (إنا هُذنا إليك) وسمت النصارى بالنصرانية وجاء ذلك من كلمة عيسى عليه السلام لأنصاره: كونوا أنصار الله.

ولقد ادعى النصارى كما ادعى اليهود معهم من أنهم على حق وإن نبي الله ابراهيم عليه السلام هو

نَبِيِّهِمْ وَمَرْجِعُهُمْ وَيَخْضَعُهُمْ وَخَدَّهُمْ وَلَقَدْ فَتَدَّ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مَقُولَتِهِمْ وَكَذِبِهِمْ بِنُصُوصِ عَدِيدَةٍ كَاشِفًا حَقِيقَةَ
وَدِينِ النَّبِيِّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَقْرَأُ مِنْهَا :

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [البقرة :

I35] فَهُمْ لَيْسُوا عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَلَيْسُوا عَلَى دِينِهِ حَنِيفًا مُسْلِمًا بَلْ فَوْقَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مِثْلَهُمْ مِنْ

الْمُشْرِكِينَ .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [آل

عِمْرَانَ : 65]

﴿ قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ [البقرة :

I39]

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عِمْرَانَ :

67]

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ

لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [المائدة : I8]

﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : III]

﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾
﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَالِاهُ آبَائِكَ
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : 133]

وَلَمْ يَقِفِ النَّصَارَى عَنْ هَذَا الْحَدِّ وَعُغِلُوا فِي اعْتِقَادِهِمْ وَوَصَلَ بِهِمُ الْأَمْرُ لِلشَّرْكِ وَالْكَفْرِ حِينَئِذٍ قَالُوا
صَرَاحَةً إِنَّ اللَّهَ هُوَ تَمَّ قَالُوا هُوَ ابْنُ اللَّهِ تَمَّ جَعَلُوهُ ثَلَاثَةً وَحَرَّفُوا دِينَهُمْ وَاتَّخَذُوا رَهْبَانَهُمْ آلِهَةً لَهُمْ فِي الْوَقْتِ
الَّذِي بَيْنَ فِيهِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ حَقِيقَةَ الْمَسِيحِ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ وَلَرَفَعَ مِنْ شَأْنِهِ وَقَدَّرَ أُمَّةً بَيْنَ دَعْوَتِهِ الْحَقِّ .

كان من البديهي أن يحدث هذا الصدام بين القرآن الكريم وهذا الشرك الذي يدعي به النصارى زورا
فالقرآن هو خاتم الكتب السماوية وهو مصدق لها ومصححها ويدعو الى وحدانية الله والنصارى قد
انحرفوا عن هذه العقيدة السماوية لذلك فلن يتهاون معهم ولن يتبع أهواءهم .

وَسُنُورِدُ بَعْضًا مِنْ التُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِذَلِكَ :

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُتَرَبِّينَ ﴾ [آل عمران : 45]

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ
اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهَى خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ
وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء :

[171]

﴿ لَنْ يَسْتَكْفِرَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَكْفِرْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ

فَسَيُخْشِرُهُمُ إِلَهِهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء : 172]

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ

ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يُخْلِقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة : 17]

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ وَمَنْ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة : 73]

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ

إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ [المائدة : 72]

﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ

بَيَّنُّ لَهُمُ الْآيَاتِ تُمْ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة : 75]

﴿ لَقَدْ كَذَبَ الْفَرَّانِ الْكُرَيْمِ وَأَقَعَهُ صُلْبُ النَّبِيِّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَوْضَحَ فِي نَصِّ قَاطِعِ حَقِيقَةِ مَا جَرَى

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ

اِخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ [النساء : 157]

﴿ تُمْ عَابَ عَلَيْهِمْ تَرْكُهُمُ لِلدِّينِ الْحَقِّ وَحِاقِهِمُ بِالْكُهْنَةِ الَّذِينَ صَارُوا يَعْبُدُوهُمْ مَعَ الْمَسِيحِ

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُّرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا

إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : 31]

فِي هَذَا النَّصِّ الْأَخِيرِ يَضَعُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوََاءَ النَّصَارَى فِي خَانَةِ الْمُشْرِكِينَ مِثْلَهُمْ مِثْلَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ

قُرَيْشٍ وَالتَّقْوَا مَعَ الْيَهُودِ لِيَشْكُلُوا حِلْفًا مُعَادِيًا لِلنَّبِيِّ الْكَرِيمِ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ مُحَاوَلَةً مِنْهُمْ يَأْسِنَةَ لِإِطْفَاءِ

النُّورِ الْإِلَهِيِّ .

حكم الجاهلية

عَلَيْنَا بَادَأُ ذِي بَدَأٍ أَنْ نَعْرِفَ مَا تَعْنِيهِ الْجَاهِلِيَّةُ وَلِمَاذَا وَصَفَ اللَّهُ عَصْرَهُمْ قَبْلَ نُزُولِ الرِّسَالَةِ بِالْجَاهِلِيَّةِ

وَلَقَدْ وَرَدَتْ كَلِمَةُ الْجَاهِلِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي أَرْبَعِ مَوَاضِعَ :

﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نَاعَسًا يَعْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ

غَيْرِ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : 154]

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوفِقُونَ ﴾ [المائدة : 50]

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب : 33]

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ

وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الفتح : 26]

وَقَدْ وَرَدَتْ بِصِيْفَةِ فَعَلِيَّهِ وَصِفِيَّةِ فِي التُّصَوِّصِ التَّالِيَةِ :

﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ

اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام : III]

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا

لَهُمْ آلِهَةٌ قَالِ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف : 138]

﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ [هود : 29]

﴿ أَيْنُكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [النمل : 55]

﴿ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ [الأحقاف : 23]

فَالْجَاهِلِيَّةُ أَتَتْ فِي عِدَّةٍ مَعَانِي وَصِفَاتٍ :

فَهِيَ حُكْمٌ : وَالْحُكْمُ هُنَا يَعْنِي التَّظْمُ الْعَصَبِيَّةَ وَالاجْتِمَاعِيَّةَ وَالْفِكْرِيَّةَ وَالْعَادَاتِ وَالْتَقَالِيدِ وَالْأَنَانِيَّةَ الَّتِي كَانَتْ أَسَاسًا لِمَعِيشتِهِمْ وَسُلُوكِهِمْ وَهَذَا الْحُكْمُ بِمَجْمَلِهِ كَانَ يَقُومُ عَلَى عَقِيدَةٍ مَتَوَارِثَةٍ مَتَّخِلَفِهِ تَنَاقَلَتَهَا أَجْيَالُهُمْ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ وَتَرَسَخَتْ كَبْنِيَّةَ عَقْلِيَّةٍ أَوْ أُسِّ عَقْلِيٍّ فِي مَخِيلَاتِهِمْ .

وَهِيَ حَمِيَّةٌ : أَنَّ الْحَمِيَّةَ الْمُتَقَصُّودَةَ هِيَ مِنَ الْأَنْفَةِ وَالِاسْتِكْبَارِ الَّذِي يُصِيبُ النَّفْسَ فَتَرْتَضِ قَبُولِ الْحَقِّ ، فَيُقَالُ أَخَذَتْ فُلَانٌ الْحَمِيَّةَ بِمَعْنَى أَنَّهُ رَفَضَ أَنْ يَقْبَلَ الْحَقَّ سَبَبِ الْاسْتِكْبَارِ عَلَيْهِ ، وَأَشَارَ الْبُكْرِيُّ أَنَّ الْحَمِيَّةَ هُنَا نُسِبَتْ لِلْجَاهِلِيَّةِ لِأَنَّهُمْ قَدْ أَنْفَوْا أَنْ يَسْتَجِيبُوا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كِبْرًا وَعِنَادًا تَمَسُّكَ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ أَيَّامُ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَنَسَبَهُ الْحَمِيَّةُ إِلَى الْجَاهِلِيَّةِ هِيَ نَسْبَةُ ذَمٍّ إِذْ مَنَعَهُمُ الْاسْتِكْبَارَ وَالِاعْتِرَازَ بِالْإِجْدَادِ مِنَ الْإِقْرَارِ بِالْحَقِّ ، فَالْحَمِيَّةُ هِيَ تَمَسُّكُهُمْ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَّه أَنْ يُنْقَادُوا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كِبْرًا وَعِنَادًا ، وَأَشَارَ الْبُكْرِيُّ إِلَى أَنَّ الْحَمِيَّةَ صِفَةٌ مِنَ الصِّفَاتِ الْقَبِيحَةِ الَّتِي تَتَّصِفُ بِهَا بَعْضُ النَّفُوسِ وَلَا تَسْتَجِيبُ لِلْحَقِّ مَهْمَا جَاءَ بِالْأَدَلَّةِ ، وَهُوَ مَا فَعَلَهُ النَّبِيُّ إِذْ جَاءَ بِكَافَّةِ الْأَدَلَّةِ وَالْمُعْجَزَاتِ لِكُفْرِهِمْ رَفُضُوا أَنْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ .

وَهُنَاكَ نَصِّينَ قَرَانِينَ يُوْضِحُونَ لَنَا هَذَا الْمَعْنَى :

﴿ إِيَّاهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات : 35]

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل : I4]

وَوَاضِحٌ مِنْ تَفْسِيرِ النَّصِّينِ الْكَرِيمِينَ كَيْفَ تَعَامَلْ هَذَا الْعَقْلُ الْجَاهِلُ مَعَ دَعْوَةِ الْحَقِّ بِاسْتِكْبَارٍ وَأَنْفِهِ
وَبِالرَّغْمِ أَنْ نُفُوسِهِمْ وَعُقُولُهُمْ قَدْ ثَبَّتَتْ وَاسْتَيْقَنَتْ مِنْ صِدْقِهَا إِلَّا أَنَّهُمْ أَبَوْا إِعْلَانَ ذَلِكَ وَكَتَمُوهُ وَصَرَخُوا
بِغَيْرِهِ ظُلْمًا وَاسْتِكْبَارًا وَعُلُوًّا .

وَمَنْ خِلَالَ تَعْرِيفِنَا لِلجَاهِلِيَّةِ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَعْرِفَ عَلَى بَنِيهِ الْعَقْلُ الْعَرَبِيُّ الْجَاهِلُ أَيْ الْأُسُسُ الَّتِي يَبْنِي
عَلَيْهَا تَفْكِيرَهُ وَهِيَ :

تَمَسُّكِهِم بِالْأَحْكَامِ وَالْعَادَاتِ وَالتَّقَالِيدِ وَالْأَوْهَامِ الَّتِي أَلْفَ أَبَاؤُهُمْ عَلَيْهَا .

الْعَصْبِيَّةُ الْقَبِيلِيَّةُ وَمَا أَرُوْتَهُ عِنْدَهُمْ مِنْ تَشَدُّدٍ وَتَصَلُّبٍ فِي التَّمَسُّكِ بِجُذُورِهِمُ الْقَبِيلِيَّةِ وَالدَّفَاعِ وَالْقِتَالِ فِي
سَبِيلِهَا .

حُبُّهُمْ لِلْمَالِ حُبًّا جَمًّا فَهُوَ السَّبِيلُ الْوَحِيدُ لِتَحْقِيقِ مِلذَاتِهِمْ وَأَهْوَاءِهِمْ وَفِي سَبِيلِ هَذَا الْمَالِ أَشْرَكُوا
وَجَعَلُوا بَيْتَ اللَّهِ الْحَرَامَ مُسْتَوْدَعًا لِأَصْنَامِهِمْ وَأَزْدَهْرَتْ عَنْهُمْ صِنَاعَةُ هَذِهِ الْأَوْثَانِ وَالتَّجَارِ بِهَا .

الْحَمِيَّةُ وَالتَّأَنُّبِيَّةُ وَعِرَّةُ النَّفْسِ وَالتَّكْبَرِيَّةُ وَالْعُرُورُ

هَذِهِ أَهْمُ مَقَوِّمَاتِ بِنْيَةِ الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ الْجَاهِلِيِّ وَالَّتِي حَكَمَتْ ذَلِكَ الْعَصْرَ الَّذِي سُمِّيَ بِالْجَاهِلِيِّ وَهُمْ لَمْ
يَكُونُوا جَاهِلِينَ بِمَعْنَى أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ بَلْ كَانُوا يَعِيشُونَ فِي ظَلَامٍ عَقْلِيٍّ مُغْلَقٍ قَائِمٍ عَلَى
التَّبَتِّ وَالْحُمُودِ وَالتَّشْبِثِ بِالْمَاضِي وَسِيرَةِ وَعَقِيدَةِ آبَائِهِمْ حَتَّى لَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ مِثْلَهُمْ لَيَعْلَمُونَ وَهَذَا
قِيَمَةُ الْأَنْحِطَاطِ الْفِكْرِيِّ وَالْعَقْلِيِّ .

صَحْوَةُ الْعَقْلِ الدِّينِيِّ الْعَرَبِيِّ الْجَاهِلِ

اسْتَيْقِظَ الْعَقْلُ الْعَرَبِيُّ الْجَاهِلِيُّ مَعَ أَوَّلِ نَصِّ قُرْآنِيٍّ سَمِعَ بِهِ هَذَا الْعَقْلُ فِي مَكَّةِ الْمُكْرَمَةِ مَرْكَزِ الرِّسَالَةِ
فَالرَّسُولُ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ مِنْ وَسَائِلِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرُدَّ بِهَا عَلَى ظُلْمِهِمْ وَعِنَادِهِمْ
وَاسْتِكْبَارِهِمْ وَكُسْرَ بُؤْفَقَةِ عَصَبِيَّتِهِمْ وَأَنَايَتِهِمْ الْوَسِيلَةَ الْوَحِيدَةَ وَالْفَعَالَةَ وَالْمَدْهَشَةَ كَانِ كِتَابِ اللَّهِ الَّذِي
أَنْزَلَ مُنْجِمًا لِيُعَالَجَ أَمْرَاضَهُمْ وَعِلَاتَهُمْ بِنَائِي وَصَبْرٍ وَحَلَمٍ لِذَلِكَ كَانَتْ مِهْمَةُ الرَّسُولِ الْأُولَى هِيَ إِصْصَالُ تِلْكَ
الآيَاتِ إِلَى أَسْمَاعِهِمْ لِذَلِكَ اسْتَفَاقَتْ عُقُولُهُمْ لِهَوْلِ مَا سَمِعُوهُ مِنْ نَذِيرٍ وَالَّذِي جَاءَ بِأَسْلُوبٍ مَبْتَكَّرٍ مَعْجَزِ
هُوَ الْآخِرُ فَرَاخُوا يَتَسَاءَلُونَ مَنْ أَيْنَ جَاءَ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي لَمْ يَسْمَعُوا
بِهَا مِنْ قَبْلِ وَفِيهَا كُلُّ هَذَا التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ .

وَلَقَدْ ذَكَرْنَا سَابِقًا كَيْفَ كَانَتْ رَدُودُهُمْ وَرَدَّهُ فَعَلَهُمْ عَلَى مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ لَكِنْ تَحَدَّثَ هُنَا عَنِ الْآثَرِ النَّفْسِيِّ
وَالْعَقْلِيِّ الَّذِي تَرَكَّهُ عِنْدَهُمْ هَذِهِ التُّصُوصُ الْقُرْآنِيَّةُ .

أَنَّ أَوَّلَ مَا جَعَلَ عُقُولَهُمْ تَسْتَيْقِظُ وَتَتَبَّهُ هُوَ تَسْأَلُهُمْ أَنْ كَيْفَ الرَّسُولُ يَقُولُ إِنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

وَيَقْضِي بِذَلِكَ عَلَى كُلِّ مَا صَنَعُوهُ وَأَعْتَقَدُوا بِهِ مِنَ الْأَهْمَةِ وَقَالُوا :

﴿ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص : 5]

أَنَّ عِبَادَ الْأَصْنَامِ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ بِاخْتِصَاصِ الْأَصْنَامِ بِقَدْرِهِ دُونَ قَدْرِهِ وَلَمَّا أَتَى النَّبِيَّ لِيُنَسِّبَ هَذِهِ الْأَفْعَالَ
لِلَّهِ وَاحِدٍ فَقَدْ كَانَ ذَلِكَ مَثَارَ تَعَجُّبٍ لَانَّهُمْ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَتَعَارَضُ مَعَ اعْتِقَادِهِمْ
بِوُجُودِ اللَّهِ وَلَكِنْ بِوُجُودِ شُرَكَاءَ مَعَهُ فِي الْقُدْرَةِ تَعَالَى اللَّهُ عَنِ ذَلِكَ عُلوًّا كَبِيرًا وَمَا تَقْرِيهِمْ لِعِبَادِهِمْ مِنْ
اللَّهِ زُلْفَى إِلَّا إِحْدَى الْأَسْسِ الْفِكْرِيَّةِ لِعِبَادِهِ الْأَصْنَامِ وَلَيْسَتْ كُلُّهَا .

أَخْرَجْنَا مِنْ سِيرَةِ الدَّعْوَةِ النَّبَوِيَّةِ مَشْهَدٌ مِنَ الْمَشَاهِدِ الَّتِي تُبَيِّنُ لَنَا كَيْفَ اسْتَقَاقَ الْعَقْلُ الْعَرَبِيُّ الْجَاهِلِيَّ
الْمُشْرِكِ عَلَى هَوْلٍ مَا سَمِعَهُ مِنْ آيَاتِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ

وَفِي مَشْهَدٍ مَهِيبٍ وَإِمَامٍ حَشِدٍ كَبِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يُصَلِّي رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ بِالْمُسْلِمِينَ وَيَقْرَأُ
سُورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ فِيهَا تَحْدِي لِكُلِّ مُشْرِكٍ ، وَمَا إِنْ أَنْتَهَى مِنْهَا حَتَّى سَجَدَ مَعَهُ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ
وَالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةَ .

ماهي هذه السورة التي قرأها النبي ، وما الذي حصل بالتفصيل ؟

بَعْدَ حَادِثَةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ بَلَغَتْ حَسَاسِيَّةُ الْوَضْعِ الْإِسْلَامِيِّ الذَّرْوَةَ فِي هَذِهِ الْفِتْرَةِ الْحَرَجَةِ مِنْ تَارِيخِ
الدَّعْوَةِ ؛ فَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واقِعًا تَحْتَ ضَعُوطٍ كَثِيرَةٍ مَتْرَامِنَةٍ ، وَفَوْقَ ذَلِكَ فَهُوَ
تَحْتَ ضَعُوطِ سُخْرِيَةِ النَّاسِ وَعَدَمِ تَصْدِيقِهِمْ لِأَمْرِ الْإِسْرَاءِ الَّذِي كَانَ يَرُونَ أَنَّهَا حُجَّةٌ قَوِيَّةٌ لِتَكْذِيبِ النَّبِيِّ
لَكِنْ اسْتَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي نَشَاطِهِ الدَّعْوِي ، بَلْ طَوَّرَ ذَلِكَ تَطْوِيرًا عَظِيمًا فَأَمَرَهُ اللَّهُ

أَنْ يُفْعَلَ أَمْرًا غَيْرَ مَسْبُوقٍ وَلَمْ يَفْعَلْهُ مِنْ قَبْلِ لِيَتَحَدَى بِذَلِكَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ فِي الْغَدْوِ وَالرَّوَاخِ
وَحِينَ يُضْبِحُونَ وَحِينَ يُمَسُونَ وَيَتَّهَمُونَ الْحَبِيبَ الْمُصْطَفَى بِكُلِّ أَمْرٍ شَنِيعٍ . .

فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ أَنْ يَأْخُذَ أَصْحَابَهُ وَيَتَوَجَّهَ بِهِمْ إِلَى جَوْفِ مَكَّةَ الْمُكْرَمَةِ وَإِمَامِ الْكَعْبَةِ الْمَشْرِفَةِ وَتَحْتِ
إِنْظَارِ مُشْرِكِينَ قُرَيْشٍ وَأَنْ يُصَلِّيَ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ حَتَّى يَسْمَعَ الْقَاصِي وَالِدَانِي كَلَامَ اللَّهِ الَّذِي لَا يُنْطِقُ عَنْهُ
الْهَوَىٰ وَيَلْسَ بِقَوْلِ سَاحِرٍ أَوْ مَجْنُونٍ . .

يَضْطَفُ الصَّحَابَةَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُ اللَّهِ إِمَامُهُمْ فَيُكَبِّرُ حَبِيبَنَا الْمُصْطَفَى وَيُكَبِّرُ وَرَاءَهُ الصَّحَابَةَ
وَيَبْدَأُ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفَاتِحَةِ وَالْمُشْرِكِينَ يَسْتَمِعُونَ لِهَذَا الْكَلَامِ بِأَنْصَاتٍ شَدِيدَةٍ وَدُونَ مَقَاطِعِهِ مِنْ أَحَدٍ
وَعَلَامَاتِ الْاسْتِغْرَابِ وَالدهشة تَمَلُّ قُلُوبَهُمْ وَعُقُولُهُمْ بِسَبَبِ فَصَاحَةِ مَا يَسْمَعُونَ وَرُوعِهِ وَعُدُوبَةِ هَذَا
الْكَلَامِ . .

وَبَعْدَ أَنْ أَنْتَهَى مِنْ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ سُورَةَ النَّجْمِ الَّتِي اخْتَارَهَا بِعِنَايَةِ دُونَا عَنْ بَقِيَّةِ السُّورِ ،
وَسَتَعَلَّمَ بَعْدَ قَلِيلٍ لِمَاذَا اخْتَارَ رَسُولُ اللَّهِ سُورَةَ النَّجْمِ تَحْدِيدًا لِتَلَاوتِهَا فِي هَذَا الْمَوْقِفِ الْمُهَيْبِ وَتَحْتِ
إِنْظَارِ مُشْرِكِينَ قُرَيْشٍ . .

قَرَأَ الرَّسُولُ السُّورَةَ ، وَكَانَ يَقْرَأُ بَيَانًا تَحْذِيرِيًّا إِلَى مُشْرِكِي قُرَيْشٍ ؛ فَالسُّورَةُ فِيهَا مِنْ الْقَوَارِعِ مَا فِيهَا ، وَلَمْ
يُقَدِّرْ عَلَى مَقَاطِعِهِ أَحَدٌ ، وَيَالَيْتَنَا تَتَصَوَّرُ هَذَا الْمَوْقِفَ ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ
بِصَوْتِهِ الْعَذْبِ ، وَخُشُوعِهِ الْكَامِلِ ، وَفَهْمِهِ الْعَمِيقِ لِكُلِّ حَرْفٍ ، وَالْجَمِيعِ يُنْصِتُ ، وَكَانَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ
الطَّيْرُ !

قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ (I) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (عَوْمًا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (3) إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (4) عِلْمُهُ شَدِيدَ الْقُوَىٰ (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (9) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (IO) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (II) أَفْتَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿

وَقَدْ أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ بِرُوعَةِ الْآيَاتِ وَالْكَلِمَاتِ ، وَبُهِرُوا بِهَذَا الْكَلَامِ الْغَرِيبِ الْعَجِيبِ ، الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ بَشَرٌ ، فَلَمْ يَحْرِكُوا سَاكِنًا ، وَنَزَلَتِ الْآيَاتُ نُورًا يَفْتَحُ قُلُوبَهُمْ ، وَخَرَسَتِ الْأَلْسِنَةُ ، وَتَسَمَّرَتِ الْأِقْدَامُ ، وَتَعَلَّقَتِ الْعُيُونُ بِرَسُولِ اللَّهِ ،

ان هذه المشاهد الوجيزة تصور لنا موقف المشركين من الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

أَنَّهُ صَاحِبُهُمُ الَّذِي يَعْرِفُونَهُ ، وَيُعْرِفُونَ نَسَبَهُ وَشَرَفَهُ وَصَدَقَهُ ، وَهُوَ لَا يَتَكَلَّمُ مَعَهُمْ بِهَوَاهُ إِنَّمَا يَأْتِيهِ مَلَكٌ الْوَحْيِيُّ مِنَ السَّمَاءِ ؛ هَذِهِ هِيَ الْحَقِيقَةُ الْجَرْدَةُ الَّتِي أُخْبِرَتْ بِهَا السُّورَةُ أَهْلَ مَكَّةَ عَنْ طَبِيعَةِ الرَّسُولِ وَمَهْمَتِهِ ؛ وَمَنْ ثُمَّ وَضَعَتِ الْقَوْمَ فِي حَرَجٍ شَدِيدٍ ؛ إِذْ لِمَاذَا يُكَذِّبُونَهُ وَهُوَ لَيْسَ إِلَّا رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ؟ ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْمِلُ قِرَاءَتَهُ بِصَوْتٍ قَوِيٍّ يُحَذِّرُ مِنْ اتِّبَاعِ آلِهَةٍ مَزْعُومَةٍ لَا قِيَمَةَ لَهَا ، وَيُحَذِّرُ كَذَلِكَ مِنْ أَنْ يُنْسَبَ أَحَدٌ شَيْئًا إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَنْ غَيْرِ عِلْمٍ .

وَمَعَ أَنَّ الْآيَاتِ تُهِنُ آلِهَةَ قُرَيْشٍ ، وَتَحْتَرُّ مِنْ شَأْنِهَا ، فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمْ يَنْبُشُوا بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ بَلْ ظَلُّوا يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ مَبْهُورِينَ انبَهَارًا كَامِلًا ، مَعَ مَلَا حِظَةِ الْخَطَابِ الْمُبَاشِرِ لِلْمُشْرِكِينَ فِي أَكْثَرِ مِنْ آيَةٍ ؛ وَذَلِكَ

مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ ﴾ ، و ﴿ الْكُفْرَ الذِّكْرَ ﴾ ، و ﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ
وَأَبَاؤُكُمْ ﴾

فَهَذِهِ كُلُّهَا كَلِمَاتٌ خَطَابِيَّةٌ لَهُمْ ، وَأَسْئَلُهُ مَوْجِهَةً لِعُقُولِهِمْ ، وَعَلَيْهِمْ أَنْ يَبْحِثُوا عَنْ إِجَابَةِ عَنْهَا .

وَتَمْضِي الْآيَاتُ تَكْشِفُ عَنْ حَبَايَا الْمُشْرِكِينَ ، وَتَفْضَحُهُمْ إِمَامَ أَنْفُسِهِمْ ، وَتَوْضِحُ جَرِيمَتَهُمُ الشَّيْبَعَةَ يَوْمَ
أَشْرَكُوا بِاللَّهِ رَبَّ الْعَالَمِينَ قَالَ تَعَالَى :

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى * أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى * أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ
مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ
سَعِيهِ سَوْفَ يَرَى *

ثُمَّ أَكْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِرَاءَتَهُ لِلسُّورَةِ وَهِيَ تُشْرِحُ صِفَةَ الْآلَةِ الْقَدِيرِ الَّذِي نَعْبُدُهُ ، كَمَا
تُوضِحُ عَاقِبَةَ الْأَقْوَامِ الَّذِينَ كَذَبُوا قَبْلَ أَهْلِ مَكَّةَ : قَالَ تَعَالَى : (وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ
وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الرُّوحَيْنِ الذِّكْرَ وَالْأُنثَى *

مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُنْمَى * وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَعْتَى وَأَقْتَى * وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى * وَأَنَّهُ
أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى * وَقَوْمِ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ إِيَّاهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى *

ثُمَّ تَسَارَعَتْ وَتَبَرَّهَ الْآيَاتُ ، وَعَلَّتِ النَّبْرَةُ بِشِدَّةٍ !

قَالَ تَعَالَى : ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى ﴾ * أَرَفَتِ الْأَرْفَةَ * لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ * أَفَمَنْ
هَذَا الْحَدِيثِ تَعَجُّبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ * فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿

الآيات أظهرت عجزهم الفاضح إمام إله عظيم بيده كل شيء ، وقادر على إهلاك أمم عظيمة كانت أشد منهم قوة ، وأعظم بأسا كما أن الآيات تحثهم على الإسراع بكل طاقة ممكنة ؛ فليس هناك وقت أيها المشركون ! لقد أزفت الآزفة ، وقد لا يتوفر لكم وقت للتوبة أو الرجعة ، فادركوا أنفسكم ! أن جريمتكم هائلة ؛ فأنتم أهل اللغة والبلاغة والأدب ، وتعلمون أن هذا الحديث جد لا هزل فيه ، صدق لا كذب فيه ، حق لا باطل فيه ، فما لكم تضحكون منه ، وتسخرون من حامله لكم ؛ بينما الأجدر بكم أن تبكوا على حالكم ، وأنتم سامدون لاهون معرضون !

ماذا نفعل ؟ !

كان هذا هو السؤال الحائر الذي تردد في أذهان كل المشركين الحاضرين !

حينها وجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد ، ويسجد معه المؤمنون . .

فعلّموا أن المخرج الوحيد من نزول عقاب الله الباطش بهم أن يسجدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لعل هذا يعصمهم من العذاب ، فسجدوا جميعا في سابقه ليس لها مثيل في التاريخ ! وهي أن يسجد الكفار مع المؤمنين في لحظة واحدة مع رسول واحد !

قال ابن عباس رضي الله عنه : (سجد النبي صلى الله عليه وسلم بالتجم ، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن)

فَسَجَدَ الْجَمِيعَ دُونَ اسْتِثْنَاءِ مَا عَدَا شَخْصٍ وَاحِدٍ وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ وَهُوَ الطَّاعِيَةُ الْمُشْرِكِ أُمِّيَّةَ بْنِ خَلْفٍ ، يَقُولُ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (قَرَأَ النَّبِيُّ النَّجْمَ فَسَجَدَ فِيهَا وَسَجَدَ مَنْ مَعَهُ غَيْرُ شَيْخٍ أَخَذَ كَفًّا مِنْ حَصَى أَوْ تُرَابٍ وَوَضَعَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ وَقَالَ يَكْفِينِي هَذَا)

عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْجَمِيعَ سَجَدَ بِسُجُودِ النَّبِيِّ إِلَّا أُمِّيَّةَ بْنِ خَلْفٍ لِأَنَّ كِبَرَهُ مَنَعَهُ لَكِنَّهُ أَخَذَ تُرَابًا وَوَضَعَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ وَهُوَ دَلِيلٌ وَاضِحٌ أَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ الْكَلَامَ الَّذِي سَمِعَهُ هُوَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ الضَّلَالَ الَّذِي بَدَاخِلَهُ كَانَ أَقْوَى مِنْهُ . .

لَكِنَّ لِلْأَسَفِ لِحُظَّةِ سُجُودِ الْمُشْرِكِينَ كَانَتْ لِحُظَّةِ اسْتِيقَاطِ وَهَزَّةِ عَابِرَةٍ ، لَا أَثَرَ لَهَا فِي الْقَلْبِ وَلَا فِي الْجَوَارِحِ ، قَامَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ سُجُودِهِمْ أَشَدَّ كَهْرًا ؛ بَلْ قَامُوا كَذَّابِينَ أَفَّاكِينَ يُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَلَقَدْ صَدَقَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِيهِمْ ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل : I4] .

وَلَقَدْ حَرَكْتُ نَفْسَهُمْ وَعَقُولَهُمُ النَّصَّ الْقُرْآنِيَّ وَهَزَّهَا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ وَيُؤْمِنُونَ وَفِي بَعْضِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ يُذَكِّرُهُمْ بِأَنَّ هَذَا النَّبِيَّ مِنْهُمْ وَالْكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ بِلِسَانِهِمْ وَهُوَ سَيُخْرِجُهُمْ مِنْ ظُلْمَاتِهِمْ وَسَيَجْعَلُهُمْ أُمَّةً دَاعِيَةً إِلَى الْوَحْدَانِيَّةِ وَنَشْرِ الدِّينِ الْحَنِيفِ دِينِ آبَائِهِمْ إِبْرَاهِيمَ .

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت : 51] .

هَذَا تَحْرِيزٌ نَفْسِيٌّ قَوِيٌّ يُسَاعِدُهُمْ إِنْ أَمِنُوا بِهِ فِي تَنْوِيرِهِمْ وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ قَوَاعِ الْجَهْلِ وَالْجَاهِلِيَّةِ .

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه : 113]

﴿ كِتَابٌ فَصَلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت : 3]

يُخَاطِبُهُمُ الْمُؤَلَّى الْقَدِيرُ وَيَقُولُ إِذَا اتَّخَذْتُمْ طَرِيقَةَ وَسَلَكْتُمُوهُ هَذَا الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ فَسَوْفَ يُحَدِّثُ لَكُمْ ذِكْرًا وَقُوَّةً بَيْنَ النَّاسِ وَيُجْعَلُ لَكُمْ مَوْطِئًا قَدِيمًا وَهَذَا مَا حَدَّثَ .

العقل الديني العربي المؤمن

كان القرآن الكريم قد حقق هدفه الأول في الوصول إلى العقل الجاهلي وتغييره صحيح خلال عقدين من الزمن وإن ذلك تتطلب من حامل الرسالة النبوية جهداً عظيماً وصبراً لا يوصف ومُعَانَاةً كَبِيرَةً لِكِنَّهُ فِي النِّهَايَةِ جَعَلَ أَفئِدَةَ الْكَثِيرِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ تَهْوِي إِلَيْهِ وَتَبْدَأُ مَرِحَلَةَ جَدِيدَةٍ مِنْ مَرَاحِلِ تَطَوُّرِ الْعَرَبِ بِدُخُولِهِمْ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا كَمَا وَعَدَ رَبُّ الْكِتَابِ وَكَانَ حَدَثًا عَظِيمًا فِي حَيَاتِهِمْ الَّذِي سَمَاهُ النَّصِ الْقُرْآنِي بِالْإِنْتِقَالِ ﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسُّهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران : 174] .

لَقَدْ كَانَ مِنْ أَهْدَافِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ هُوَ تَهْيِئَةُ الْمُؤْمِنِينَ لِحَمَلِ آخِرِ رِسَالَةِ سَمَاوِيَةٍ وَلِذَلِكَ كَانَ يَسِيرٌ بِهِمْ خَطْوُهُ بِخُطْوَةِ نَحْوِ تَطْوِيرِ عُقُولِهِمْ وَتَنْوِيرِهَا وَتَوْعِيَّتِهَا لِإِزَالَةِ مَا تَبَقِيَ فِي أَذَانِهِمْ مِنْ تَفْكِيرِ جَاهِلِيٍّ أَوْ عَادَاتِ جَاهِلِيَّةٍ وَإِنْدَالِهَا بِقَوَاعِدِ جَدِيدَةٍ تَسَايَرُ الْوَضْعَ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ الْآنَ .

لَقَدْ وَضَعَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُسُسَ وَقَوَاعِدَ يَقُومُ عَلَيْهَا الْمُجْتَمَعُ الْمُسْلِمُ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ مُنْذُ وَصُولِهِ إِلَيْهَا مُهَاجِرًا وَمِنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَقَدْ بَنَى مَسْجِدًا لِيَكُونَ مُنْطَلِقَ الْبِنَاءِ الْجَدِيدِ

لِلْعَقْلِ الْمُؤْمِنِ وَتَعَدَّ الْوَثِيقَةَ الَّتِي أُصْدَرَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ هِجْرَتِهِ ذَا قِيَمَةٍ عَالِيَةٍ وَكَانَتْ بِمِثَابَةِ الدُّسْتُورِ الَّذِي سَيُقُومُ عَلَيْهِ الْمُجْتَمَعُ الْمَدِينِيُّ الْجَدِيدُ أُسُسُهُ وَأَرْكَانُهُ .

وساهم نظام المؤاخاة في ربط الأمة ببعضها ببعض ، فقد أقام الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الصلة على أساس الإخاء الكامل بينهم ، هذا الإخاء تدب فيه عصبية الجاهلية ، فلا حمة إلا للإسلام ، وتشتط به فوارق النسب واللون والوطن ، فلا يتأخر أو يتقدم إلا بمروءته وتقواه ، وكانت عواطف الأيثار والمواساة والموانسة تترجح في هذه الإخوة وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال . لذلك فإن الأخوة في الله تعمل على تماسك صفوف المسلمين وقوتهم وضمودهم في وجه المحن ومصاعب الدنيا ، وهي من أسباب الشموخ في التمكين لهذه الأمة ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران : 103] .

الأنصار سمّاهم النبي صلى الله عليه وسلم وذلك بأنهم أول من نصر الإسلام بأمواله وأنفسهم وترحيبهم بالمهاجرين بدارهم مهجر النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام فأكرمهم المولى عز وجل بأن جعل ديارهم يثرب مسكنًا ومقبرًا لسيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم .

شغل رسول الله صلى الله عليه وسلم أول مستقرة بالمدينة بوضع الدعائم التي لا بد منها وتبين معالمها في الشؤون الآتية :

I - صلة الأمة بالله : بناء المسجد "الأذان" لدعوة الناس إلى الصلاة .

2 - صِلَةُ الْأُمَّةِ بَعْضُهَا بِالْبَعْضِ الْآخِرِ :

الْمُؤَاخَاةُ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ . .

3 - صِلَةُ الْأُمَّةِ بِالْأَجَانِبِ عَنْهَا ، مَمَّنْ لَا يَدِينُونَ دِينَهَا :

الْوَثِيقَةُ أَوْ الصَّحِيفَةُ النَّبَوِيَّةُ (دستور المدينة المنورة) .

4 - إِنْشَاءُ الْبِنْيَةِ التَّحْيِيَّةِ :

الْخِيَارُ الْمَوْقِعِ الْجغْرَافِيِّ .

تَحْطِيطُ الْأَحْيَاءِ السَّكِنِيَّةِ .

إِنْشَاءُ الْمَرَاقِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ وَالاِقْتِصَادِيَّةِ (السوق والشوارع . إلخ) .

5 - حِمَايَةُ الدَّوْلَةِ النَّاشِئَةِ :

بِنَاءُ الْجَيْشِ .

هَذِهِ الْقَوَاعِدُ الْمَدِينِيَّةُ الْجَدِيدَةُ خُلِقَتْ لَدَى الْمُؤْمِنُونَ الْمُسْلِمُونَ عَقْلِيَّةً وَذَهْنِيَّةً جَدِيدَةً وَبُدُوً وَكَأَنَّهُمْ وُلِدُوا

مِنْ جَدِيدٍ وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ عُقُولَهُمْ تَنَوَّرَتْ وَأَزِيحَ عَنْهَا ذَلِكَ الْغُلَافُ الْجَاهِلِيُّ وَقَدْ أَصْبَحُوا بِفَضْلِ اللَّهِ إِخْوَانًا

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ

فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ

تَهْتَدُونَ ﴿ [آلِ عِمْرَانَ : 103]

فَهَذَا النَّصُّ الْقُرْآنِيُّ يَشْرَحُ بِدِقَّةٍ كَيْفَ كَانُوا وَكَيْفَ أَمْسُوا فَكَانُوا مُنْذُ سِنِينَ مُعْدُودَاتٍ أَعْدَاءَ فَاجْتَمَعُوا
جَمِيعِهِمْ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَكَانُوا عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَخَلَصَهُمْ
وَأَنْقَذَهُمْ مِنْهَا . . .

إِلَّا أَنَّ هَذَا الْمُجْتَمِعَ الْجَدِيدَ لَمْ يَكُنْ صَافِيًا وَاحِدًا فَلَقَدْ ظَهَرَتْ فِيهِ قِتَّةٌ لِأَزَالِ يَهِيمِنَ عَلَيْهَا طَابِعَ التَّفْكِيرِ
الْجَاهِلِيِّ أُطْلِقَ عَلَيْهَا النَّصُّ الْقُرْآنِيُّ اسْمَ الْمُنَافِقُونَ وَلَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ وَكَشَفَ مَا فِي نَفْسِهِمْ
أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ يُضْمَرُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ خِلَافٌ مَا يُظْهِرُونَ عَلَى السِّنِّهِمْ ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا
نَشْهَدُ بِإِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون : I]

وظَاهِرُهُ التَّفَاقُ هِيَ ظَاهِرُهُ عَقْلِيَّةٌ ارْتِدَادِيَّةٌ فِي بَاطِنِهَا حَيْثُ اشْتَقَّ بَعْضًا مِنَ الَّذِينَ أُسْلِمُوا ظَاهِرًا لِلْعَوْدَةِ
إِلَى عَهْدِهِمُ الْجَاهِلِيِّ الْقَدِيمِ بِالرَّغْمِ مِنْ كُلِّ سَنَوَاتِ الْقَطِيعَةِ وَمَا رَافَقَهَا مِنْ تَغْيِيرَاتٍ .

انْسِلَاخُ الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ وَارْتِدَادِهِ

لَقَدْ كَانَتْ قُرَّةُ الرِّسَالَةِ وَالتَّبَوُّةُ ثَلَاثَ وَعِشْرِينَ عَامًا عَاشَ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَشْرَ سَنَوَاتٍ
مِنْهَا فِي مَكَّةِ الْمُكْرَمَةِ يُؤَسِّسُ فِيهَا الْعَقِيدَةَ وَثَلَاثَ عَشْرَ سَنَةً فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ أُسِّسَ فِيهَا أَرْكَانُ
الْعَقِيدَةِ وَالشَّرْعَ وَالْحُكْمَ بِمَعْنَى الدَّوْلَةِ وَكَانَ النَّصُّ الْقُرْآنِيُّ مُرَافِقًا مَعَهُ يَنْزِلُ مُنْجِمًا لِيَوَاكِبِ الْأَحْدَاثِ
الْجَارِيَةِ وَكَانَتْ آخِرُ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَالْحِمُّ الْخَنِزِيرُ وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ
بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالتَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى التُّصْبِ وَأَنْ
تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَسُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ
دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ

اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ [المائدة : 3] فَالرَّسَالَةَ السَّمَاوِيَّةَ قَدْ اكْتَمَلَتْ وَالرُّسُولَ الْكَرِيمَ قَدْ أَدَّى وَاجِبَهُ فِي
حَمَلِهَا وَتَبْلِيغِهَا لِلنَّاسِ فَالْمَهْمَةُ انْتَهَتْ وَاخْتَارَ الرَّسُولَ الْكَرِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى وَالتَّحَقُّقَ
بِرَبِّهِ رَاضِيًا مَرْضِيًّا .

بَعْدَ فِتْرَةٍ وَجِيذَةٍ تَيَقَّنُ الْعَرَبُ الْمُسْلِمُونَ بِكَلَامِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ حِينَ قَالَ مَنْ كَانَ يُعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنْ مُحَمَّدًا
قَدْ مَاتَ وَمَنْ كَانَ يُعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ لَقَدْ تَرَكَهُمْ وَفَاتَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي حَيْرَةٍ وَفِرَاقٍ
وَوَجَدُوا أَنَّهُمْ بِحَاجَةٍ قَوِيَّةٍ لِشَخْصٍ يُحَافِظُ عَلَى إِسْلَامِهِمْ وَوَحْدَتِهِمْ لِبَدءِ مَرِحَلَةٍ جَدِيدَةٍ فَعَهْدَ التُّبُوءِ قَدْ
انْتَهَى وَهُمْ بِحَاجَةٍ الْآنَ لِسُلْطَةِ زَمَانِيَّةٍ حَاكِمِهِ تَدِيرُ الدَّوْلَةَ وَتُرَعَى مَصَالِحَ الْمُسْلِمِينَ .

هُنَا فِي هَذِهِ الْمَرِحَلَةِ اسْتَفَاقَتْ عِنْدَ الْبَعْضِ النَّرْعَةُ الْعَصَبِيَّةَ وَبَدَأَتْ تَظْهَرُ عَلَيْهِمُ الْفُرُوقَاتُ الَّتِي طَمَسَهَا
الْإِسْلَامُ وَكَانُوا قَدْ نَسَوْهَا وَتَجَاوَزَوْهَا فَحَدَّثَ الْاِخْتِلَافُ وَكَادَتْ أَنْ تَقَعَ الْفِتْنَةُ مِنْذُ ذَلِكَ الْوَقْتِ فَأَصْرَارُ
الْأَنْصَارِ عَلَى تَوَلَّى الْخِلَافَةِ جَعَلَهُمْ عَلَى تَقْيِضِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِي أَدْعُوا بِأَحْقِيَّتِهِمْ بِهَذَا الْأَمْرِ وَحِينَمَا آلَ لَهُمْ
لِلْمُهَاجِرِينَ فَقَدْ اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَفِي النِّهَايَةِ اسْتَقَرَّ الْأَمْرُ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

لَقَدْ حَزَّكَ فِيهِمُ الْمُنْصَبُ السِّيَاسِيُّ تَوَازَعَ عِدَّةٌ كَانَتْ دَفِينَةً وَقَدْ لَعِبَتْ هَذِهِ الدَّوَابِعُ دَوْرَهَا فِي تَأْجِيحِ
الصَّرَاعَاتِ الَّتِي أَرْجَعَتْ لِلْجَاهِلِيَّةِ حُكْمَهَا فِيهِمْ أَوْ لِنَقْلِ كَمَا قَالَ مُحَمَّدٌ عَابِدُ الْجَابِرِيِّ هُمْ الَّذِينَ حُنُّوا لَهَا
وَاسْتَرْجَعُوهَا لِذَلِكَ فَلَا غَرَابَةَ أَنْ يَمُوتَ ثَلَاثَةُ خُلَفَاءَ رَاشِدِينَ مِنْ أَرْبَعَةٍ بِالْمَوْتِ غَيْلَةً أَوْ غَدْرًا .

لَقَدْ وَقَفَ الْعَقْلُ الْعَرَبِيُّ عِنْدَ هَذِهِ التُّنْقِطَةِ فَلَقَدْ كَانَ الْمِحْوَرُ الَّذِي يَدُورُ تَفْكِيرُهُ حَوْلَهُ هُوَ السُّلْطَةُ وَالْخِلَافَةُ
وَلَقَدْ تَطَوَّرَتْ الْخِلَافَاتُ الْجَانِبِيَّةُ بَيْنَ الصَّحَابَةِ مِنْ جِهَةِ وَبَيْنَ عَلِيِّ ابْنِ عَمِّ الرَّسُولِ وَصَهْرِهِ إِلَى مَوَاجِهَاتِ

دَفَعَ الْمُسْلِمُونَ ثَمَنَهَا غَالِيًا انْتَهَتْ بِمَقْتَلِ عَلِيِّ وَتَنَازُلِ ابْنَةِ الْحَسَنِ عَنِ الْخِلَافَةِ لِمَعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ وَمَنْ قَبْلَهُ اغْتَالَ الْجَهْلَةَ الْجَدِيدَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ فِي الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ وَغَطَّتْ دِمَاءَهُ الْمُصْحَفُ الشَّرِيفُ .

بَدَأَ الْعَقْلَ الْعَرَبِيَّ مُنْذُ ذَلِكَ الْوَقْتِ بِالتَّضْيِيقِ عَلَى الْعَقِيدَةِ عَلَى حَسَابِ وَايَةِ الْأَمْرِ وَامَارَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَرَوِيدَا رُؤْيَدًا سَخَرَهَا وَجَعَلَهَا تَخَضَعُ لِلدَّوْلَةِ أَوْ لِلْقَائِمِ عَلَى أَمْرِهَا لَقَدْ تَبَاطَأَتِ الْفُتُوحَاتُ الْإِسْلَامِيَّةَ وَأَصْبَحَ الْهَمُّ الدَّاخِلِيَّ هُوَ شَاغِلُ الْحُكَّامِ وَالرَّعَايَا .

يُشْرِحُ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدٌ عَابِدُ الْجَابِرِيُّ : (الْأَسْبَابُ الْكَامِنَةُ وَرَاءَ هَذَا التَّغْيِيرِ الَّذِي أَصَابَ الْعَقْلَ الْعَرَبِيَّ وَيَقُولُ فِي كِتَابِهِ نَقْدَ الْعَقْلِ السِّيَاسِيِّ : أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى الدَّوْلَةِ ، دَوْلَةَ التَّوْبَةِ وَالْخِلَافَةَ ، وَمِنْ هَذِهِ إِلَى " الْمَلِكِ الْعَضُوضِ " وَالدَّوْلَةَ السُّلْطَانِيَّةَ : مَسَارٌ وَاحِدٌ ، هُوَ مَسَارُ تَارِيخِ ظُهُورِ وَتَشَكُّلِ بِنْفَعِ الْعَقْلِ السِّيَاسِيِّ الْعَرَبِيِّ . وَإِذَا جَازَ لَنَا أَنْ نَسْتَعِيرَ هُنَا مُصْطَلَحَ هِيْغَلِ الَّذِي جَعَلَ مَرَاكِلَ فِينُومِينُولُوجِيَا الرُّوحِ (= تَارِيخِ ظُهُورِ الْعَقْلِ) ثَلَاثًا : مَرَحَلَةَ الْوَعْيِ الذَّاتِيِّ وَمَرَحَلَةَ الْوَعْيِ الْمَوْضُوعِيِّ وَمَرَحَلَةَ الْوَعْيِ الْمَطْلُوقِ ، أَمْكَنَ الْقَوْلُ أَنَّ الْعَقْلَ السِّيَاسِيَّ الْعَرَبِيَّ قَدْ بَدَأَ ، بِدَوْرِهِ ، بِمَرَحَلَةِ الْوَعْيِ الذَّاتِيِّ خِلَالَ الدَّعْوَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ (الَّتِي بَدَأَ فِيهَا الْوَعْيُ بِالْأَنَا الْإِسْلَامِيِّ) ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى مَرَحَلَةِ الْوَعْيِ الْمَوْضُوعِيِّ (قِيَامِ الْمُجْتَمَعِ السِّيَاسِيِّ الْإِسْلَامِيِّ وَدُخُولِهِ فِي صَرَاعَاتِ خِلَالَ الرَّدَّةِ وَالْفِتْنَةِ) لِيَدْخُلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي مَرَحَلَةِ الْوَعْيِ الْمَطْلُوقِ (الَّتِي أَصْبَحَتْ فِيهِ السِّيَاسَةُ تُحَاوَلُ تَأْسِيسَ نَفْسِهَا عَلَى الدِّينِ وَالْفُلُوسَفَةِ . .) أَمَّا بَعْدُ ذَلِكَ فَقَدْ بَقِيَ الْمَسَارُ يُكْرِرُ نَفْسَهُ فِي الْوَطَنِ الْعَرَبِيِّ ، مَعَ اخْتِلَافَاتٍ جُزْئِيَّةٍ لَا تُغَيِّرُ مِنْ اتِّجَاهِهِ وَلَا مِنْ طَبِيعَةِ حَرَكَتِهِ ، لِأَنَّ الْحُدُودَاتِ الَّتِي صَنَعَتْهَا وَالَّتِي كَانَتْ تُعِيدُ صَنْعَهُ بَقِيَتْ هِيَ هِيَ : الْقَبِيلَةُ ، الْغَنِيمَةُ ، الْعَقِيدَةُ (ص . ٣٦٤-٣٦٥) .

"وَإِذْنِ فَالْمَطْلُوبِ ، وَهَذِهِ هِيَ بِالتَّحْدِيدِ مَهَامُ الْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ الْيَوْمِ ، مَهَامُ تَجْدِيدِ الْعَقْلِ السِّيَاسِيِّ الْعَرَبِيِّ ،

المطلوب هو: أ- تحويل "القبيلة" في مجتمعاتنا إلى لا قبيلة؛ ب- تحويل "الغنيمة" إلى اقتصاد
"ضريبة"؛ ج- تحويل "العقيدة" إلى مجرد رأي (التحرر من سلطة عقل الطائفة والعقل الدوغمائي)...
الفكر العربي المعاصر مطالب إذن بنقد المجتمع ونقد الاقتصاد ونقد العقل . . . []
نقد العقل السياسي لمحمد عابد الجابري (ص . ٣٧٤) .

نتيجة ماذا صنع العقل الديني العربي؟

سيساعدنا كثيراً في الإجابة على هذا السؤال الصعب ما توصل إليه الدكتور محمد عابد الجابري في
سلسلة نقده للعقل العربي فسنبسّر مع ما توصل إليه في أبحاثه مع شرح وتوضيح القواعد النبوية التي

وَضَعَهَا لِلْوُصُولِ إِلَى التَّيَجَّةِ الَّتِي نُرِيدُهَا وَهِيَ الْجَوَابُ عَلَى تَسْأُولِنَا مَاذَا صَنَعَ الْعَقْلُ الْعَرَبِيُّ ؟ يَقُولُ
الْجَابِرِيُّ فِي كِتَابِهِ بِنْيَةَ الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ : (أَنْ عَقَلْنَا الْعَرَبِيُّ تَأَسَّسَ عَلَى ثَلَاثَةِ نَظْمٍ مَعْرِفِيَّةٍ مُسْتَقَلَّةٍ بِكِبَارِهَا
وَهِيَ :

الْبَيَانُ : هُوَ الْبَيَانُ الْعَرَبِيُّ مِنْ نَحْوِ ، وَفُهُهُ وَعَلِمَ الْكَلَامَ الْمُتَمَيِّدُ بِالْمَجَالِ التَّدَاوُلِيِّ الدِّينِيِّ - الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ
- الْعِرْفَانُ : هُوَ الْمَوْرُوثُ الثَّقَافِيُّ الْعَرَبِيُّ بِصِيغَتِهِ الْعَالِمَةِ ، وَالَّذِي تُمَثِّلُ فِي تَأَثُّرِ الْعَرَبِ بِفَلَسَفَةِ الدِّيَانَةِ
الْهُرْمُسِيَّةِ ، وَهُوَ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ (فِكْرٌ شِيعِيٌّ ؛ وَعِرْفَانُ الْفَلَسَفَةِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ ، وَالتَّصَوُّفُ ، وَالتَّفْسِيرُ
الْبَاطِنِيُّ لِلْقُرْآنِ ؛ إِلَى جَانِبِ عُلُومِ التَّنْجِيمِ وَالطَّلَسْمَاتِ) . الْبُرْهَانُ : الَّذِي تَجَسَّدَ فِي الْمَنْطِقِ الْيُونَانِيِّ
الْأَرِسْطِيِّ بِمَنْهَجِهِ الْقَائِمِ عَلَى مُقَدِّمَاتٍ عَقْلِيَّةٍ . فَالْبَيَانُ هُوَ مَا أَنتَجَهُ الْعَقْلُ الْعَرَبِيُّ فِي مَجَالَاتِ اللُّغَةِ
الْعَرَبِيَّةِ وَالتَّحْوِ وَالصَّرْفِ وَعِلْمِ الْكَلَامِ وَالْعُلُومِ الْقُرْآنِيَّةِ وَكَتَبِ التَّفْسِيرِ وَعِلْمِ الْحَدِيثِ وَجَمَعُهُ وَمِنْ هَذَا
الْإِتْبَاحِ ظَهَرَتْ الْفِرْقُ الْكَلَامِيَّةُ وَالْمَذَاهِبُ الْفَهْمِيَّةُ وَالطَّوَائِفُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَهَنَّاكُ كَمَ هَائِلٌ مِنْ هَذِهِ الْإِتْبَاحِ .
الْعِرْفَانُ : الْمَوْرُوثُ الثَّقَافِيُّ الْعَرَبِيُّ أَوْ الْمَعْرِفِيُّ الَّذِي أَنتَجَهُ الْعَقْلُ الْعَرَبِيُّ حِينَ تَأَثَّرَ بِالْفَلَسَفَةِ الْهُرْمُسِيَّةِ وَمِنْهَا
أَتَّجَ مَا يُمَكِّنُ أَنْ نَسْمِيَهُ الْفِكْرَ الْبَاطِنِيَّ أَوْ الْعَقِيدَةَ الْبَاطِنِيَّةَ فِي الْإِسْلَامِ وَهِيَ عَقِيدَةٌ خَطِيرَةٌ جَدًّا
اسْتِطَاعَتْ أَنْ تَوْصَلَ مَبَادِئَهَا بِالْإِعْتِمَادِ عَلَى قِرَاءَةِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ بِطَرِيقَةِ التَّوَابِيَةِ اعْتَمَدَتْ عَلَى التَّأْوِيلِ
لِتَفْسِيرِ التَّصَوُّصِ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ أُوجِدَتْ لِنَفْسِهَا كَمَا هَائِلًا مِنَ الْأَحَادِيثِ الْمُلَفَّقَةِ لِتَقْوِيَةِ مَذْهَبِهَا وَقَدْ أَوْضَحَ
الدُّكُورُ الْجَابِرِيُّ أَنَّ صِنَاعَةَ الْمَذْهَبِ الْبَاطِنِيِّ قَدْ وُلِدَ عَنْهَا عُلُومٌ وَمَذَاهِبٌ دَخِيلَةٌ عَلَى الْعَقِيدَةِ
الْإِسْلَامِيَّةِ وَلَا أَسَاسَ لَهَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَوْ فِي التَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ بِرُمَّتِهِ مَثَلُ الْفِكْرِ شِيعِيٍّ ؛ وَعِرْفَانُ
الْفَلَسَفَةِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ ، وَالتَّصَوُّفِ ، وَالتَّفْسِيرِ الْبَاطِنِيِّ لِلْقُرْآنِ ؛ إِلَى جَانِبِ عُلُومِ التَّنْجِيمِ وَالطَّلَسْمَاتِ)) .

عَلَيْنَا أَنْ نُلْقِيَ نَظْرَةً سَرِيعَةً عَنِ الْفَلَسَفَةِ الْهَرْمُسِيَّةِ لِنَعْرِفَ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ تَقُومُ وَلِنَرَى كَيْفَ تَسَلَّلَتْ مَقُولَاتِهَا إِلَى الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ . الْهَرْمُسِيَّةُ هِيَ مُصْطَلَحٌ مُسْتَقَمٌّ مِنْ كَلِمَةِ « هِيرْمُس » الْيُونَانِيَّةِ وَالَّتِي تَرْمُزُ لِإِلَهِ الْإِغْرِيكِ . الْفَلَسَفَةُ الْهَرْمُسِيَّةُ تُرَكِّزُ بِسَاطَةَ عَلَى فِكْرَةِ « عَقْلِ الْإِلَهِ » ، فَأَنَا وَأَنْتَ وَالْكَوَاكِبُ السَّيَّارَةُ وَالْعَوَالِمُ وَالْأَفْكَارُ الَّتِي نُنَاقِشُهَا ، مُجَرَّدُ فِكْرَةٍ فِي عَقْلِ الْإِلَهِ ، حَسَبَ هَذَا التَّصَوُّرِ ، وَهَذَا « الْعَقْلُ الْخُرُّ » الَّذِي بِإِمْكَانِهِ أَنْ يَعِي كُلَّ شَيْءٍ ، وَكُلَّ الْأَزْمَنَةِ ، وَكُلَّ مَا كَانَ ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ وَمَا سَيَكُونُ ، مُخْتَلِفٌ عَنِ الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ الْمُتَقَيِّدِ بِالْوُجُودِ الْمَادِيِّ لِلْإِنْسَانِ ، وَالَّذِي يَجْعَلُ عَقْلَهُ مَحْدُودًا . وَجَدْتُ الْفَلَسَفَةَ الْهَرْمُسِيَّةَ طَرِيقَهَا إِلَى التَّصَوُّفِ الْإِسْلَامِيِّ (تَمَامًا مِثْلَ التَّصَوُّفِ الْيَهُودِيِّ وَالْمَسِيحِيِّ) فَقَدْ كَانَتْ مُكَوِّنًا ثَقَافِيًّا وَرِثَةً لثقافة الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَنِ الْعَصْرِ الْإِغْرِيكِ وَالْيُونَانِيِّ ، إِذْ تَدَاخَلَتْ الْهَرْمُسِيَّةُ مَعَ شَتَّى الْحَضَارَاتِ الَّتِي أزدَهَرَتْ فِي الْعَالَمِ ، وَيَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى كَوْنِهَا تُمَثِّلُ الْحِكْمَةَ الْقَدِيمَةَ الَّتِي تَدَاخَلَتْ مَعَهَا فِلْسَفَاتٌ عِدَّةٌ ، مِنْهَا الْفَلَسَفَةُ الْيُونَانِيَّةُ الَّتِي تُرَجِّمُهَا الْعُلَمَاءُ الْمُسْلِمُونَ وَفِلْسَفَاتُ بِلَادِ فَارِسِ الَّتِي ائْتَشَرَ فِيهَا الْإِسْلَامُ . تَأَثَّرَ الْجَانِبُ الْعَرَفَانِيُّ فِي التَّصَوُّفِ الْإِسْلَامِيِّ بِالْأَفْلَاطُونِيَّةِ الْحَدِيثَةِ ، الَّتِي تَمَّتْ فِي السَّابِقِ بِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ خِلَالَ الْقَرْنِ الثَّانِي الْمِيلَادِيِّ تَبِيحَةً تَدَاخَلُ الْفِكْرَ الْمِصْرِيَّ الْقَدِيمَ (تَعَالِيمُ تَحُوتِ الْحَكِيمِ الْهَرْمُسِيَّةِ) مَعَ الْفِكْرِ الْيُونَانِيِّ ، وَمِنْهَا خَرَجَتْ الْأَفْلَاطُونِيَّةُ الْحَدِيثَةُ لِشُعُوبِ الْبَحْرِ الْمَتَوَسِّطِ وَبِلَادِ فَارِسِ ، وَمِنْ هُنَا تُؤَثِّرُ الْجَانِبُ الْعَرَفَانِيُّ فِي التَّصَوُّفِ الْإِسْلَامِيِّ بِالْهَرْمُسِيَّةِ ، تُظْهِرُتُ مُصْطَلَحَاتٍ مِثْلَ الْكَشْفِ وَالْعَرَفَانِ ، وَالْفَنَاءِ فِي اللَّهِ ، وَالْإِشْرَاقِ ، وَالْخِلَاصِ ، وَوَحْدَةُ الْكُونِ وَالرَّابِطُ بَيْنَ أَجْزَائِهِ .

الْعَقِيدَةُ الْبَابِطِيَّةُ

تَدَاخُلُ الْبَاطِنِيَّةُ - تَقْلِيدِيًّا - مَعَ مَفْهُومِ الْحِكْمَةِ فِي السِّيَاقِ الْإِسْلَامِيِّ ، تِلْكَ الْكَلِمَةُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الْحِكْمَةِ وَالْفَلَسَفَةِ كِلَاهُمَا فِي آنٍ وَاحِدٍ وَلِنَا أَنْ تَتَّبَعَ الْبَاطِنِيَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَأُصُولَهَا عَنْ طَرِيقِ الْقُرْآنِ وَالْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ نَفْسَهَا . عُولِجَتْ بَعْضُ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ مِنْ قِبَلِ بَاطِنِيِّ الْإِسْلَامِ وَفَلَّسَفْتُهُمْ عَلَى أَنَّهَا مُتَشَابِهَةٌ وَتَتَضَمَّنُ إِشَارَاتٍ بَاطِنِيَّةً لِمَنْ يَقْدِرُ عَلَى إِدْرَاكِهَا ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الْحَدِيدِ : 3] " يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمِنْ يَأْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا " (الْبَقَرَةُ 2) وَآيَةُ النُّورِ الْمَشْهُورَةِ : " اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاتٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٍ عَلَى ؟ نُورٌ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ " (النُّورُ 24 : 35) . كُلُّ هَذِهِ الْآيَاتِ إِعْتَبَرُوهَا تَتَضَمَّنُ إِشَارَاتٍ بَاطِنِيَّةً . وَقَدْ أَلْهَمَتْ هَذِهِ الْآيَاتِ - عَبْرَ الْعُصُورِ - عَدَدًا مِنْ أَهْلِ الْعِرْفَانِ الْإِسْلَامِيِّ ، وَقَامَ بَعْضُهُمْ بِكِتَابَةِ تَعْلِيقاتٍ عَلَيْهَا ، مِثْلُ شَهَابِ الدِّينِ السَّهْرُورِيِّ (الْقَرْنُ الثَّانِي عَشَرَ الْمِيلَادِيِّ) وَمَلَّا صَدْرًا (الْقَرْنُ السَّادِسُ عَشَرَ الْمِيلَادِيِّ) (انْظُرْ عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ : أَسْرَارُ الْآيَاتِ ، مَلَّا صَدْرًا) . وَمِنْ مَنْظُورِ بَاطِنِيِّ ، يَجِبُ أَنْ تَفْهَمَ كُلُّ التَّطَوُّرَاتِ وَالتَّفَاعُلَاتِ التَّالِيَةِ - بَيْنَ الْفَلَسَفَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالتَّقَالِيدِ الْعَقْلِيَّةِ الْآخَرَى - عَلَى أَنَّهَا تَعْبِيرَاتٌ عَنْ الْأُصُولِ الْبَاطِنِيَّةِ دَاخِلِ النَّسَقِ الْإِسْلَامِيِّ . وَتَسْلُكُ تِلْكَ الْأُصُولِ الْبَاطِنِيَّةِ فِي الْإِسْلَامِ طَرِيقَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ وَمُسْتَقْلَيْنِ . عَمَلِيًّا ، يُمَثِّلُ التَّصَوُّفُ الْبُعْدَ الْبَاطِنِيَّ لِلْإِسْلَامِ فِي شَكْلِهِ الْأَتَقَى ، بِيَدِ أَنْ مَعَالِمَ الْبَاطِنِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْوَاضِحَةِ قَدْ أُدْمِجَتْ تَدْرِيجِيًّا فِي التَّقْلِيدِ الْفَلَسَفِيِّ الْإِسْلَامِيِّ . لِذَلِكَ ، نَتَّبِعِي الْبَاطِنِيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ عَلَى رُكْنَيْنِ اثْنَيْنِ ؛ رُكْنِ عَمَلِيٍّ وَآخَرَ فُلْسَفِيِّ . يُمَكِّنُ التَّحَقُّقُ - إِذَنْ - بِالْحِكْمَةِ

الباطنية أما من خلال الحكمة العملية التي تحوي تركية النفس والتزهد ، أو من خلال نوع من الفلسفة
يتضمن - على سبيل المثال لا الحصر - الاستدلال المنطقي .

مفهوم الباطن عند الشيعة

بالنسبة للشيعة ، لقد تأسست أيديولوجيتها على مفهومين جوهريين هما مفهوم الباطن ومفهوم الإمامة .
إن مفهوم الباطن يطرح نفسه كقيض لكل ظاهر واقعي ملموس . إنه يستبدل الظاهر المباشرة بالأشياء
الماورائية . وما يهيمه في القرآن ، ليس هو القرآن في حد ذاته كص تشريعي له وجود مادي مجسد
زمنياً ومكانياً ، ويخدم قضايا اجتماعية واقعية محسوسة ، بل تهمة حقيقة القرآن الجوهرية بما هي
حقيقة روحية معالية عن عالم المحسوسات . لذلك كان لمفهوم الباطن امتدادات أخرى من نفس
الطبيعة ، هي مفهوم التأويل كقيض للتزويل ، ومفهوم الحقيقة كقيض للشيعة . إن مفهوم التأويل للقرآن
ينطلق من التصور الشيعي لكلمة تنزيل ، وبالنسبة للشيعة ، إن كلمة تنزيل التي تعني أن القرآن نزل من
العالم العلوي إلى العالم السفلي ، قد خضع فقط لحركة ذات اتجاه واحد ، من الأعلى إلى الأسفل ،
وهذه الحركة ليست هي الجوهرية المعبرة عن حقيقة القرآن المعالية . لذلك وجب القيام بحركة
أخرى في اتجاه معاكس من أجل اكتشاف تلك الحقيقة ، أي الرجوع إلى الأصل الأبدي للقرآن .
والوسيلة لتحقيق ذلك هي التأويل ، الذي يعني قلب عبارات النص القرآني الظاهرة للرجوع بها إلى
معانيها الأصلية الباطنية .

الحركة القرمطية مثلاً عن الباطنية

أَنَّ كَلِمَةَ قَرَمَطٍ بَدَأَتْ بِحَمْدَانَ بْنِ الْأَشْعَثِ ، وَهُوَ الَّذِي نَزَلَ عِنْدَهُ الدَّاعِي الْمَوْسَسُ لِهَذِهِ الْفِرْقَةِ :

الْحُسَيْنُ الْأَهْوَازِيُّ ، الَّذِي جَاءَ مِنْ نَاحِيَةِ خُوزِسْتَانَ ، وَهَذِهِ التَّسْمِيَةُ أَيُّ الْقَرَامِطَةِ لَمْ تَتَّخِذْهَا هَذِهِ الْفِرْقَةُ الْبَاطِنِيَّةُ لِنَفْسِهَا ، وَإِنَّمَا أَطْلَقَهَا أَعْدَاؤُهَا عَلَيْهَا فِي الْعُهُودِ الْمُبَكَّرَةِ لِقِيَامِهَا . وَالْحَدِيثُ عَنِ الْعَوَامِلِ الَّتِي آدَتْ إِلَى نُشُوءِ الْحَرَكَةِ الْقَرَمِطِيَّةِ ، وَقِيَامِ دَوْلَةِ الْقَرَامِطَةِ ، ذُو شُجُونٍ ، وَالخَوْضُ فِيهِ يَحْتَاجُ إِلَى نَفْصِيَّاتٍ ، لَا يَتَّسِعُ لَهَا مَجَالٌ هَذِهِ الدَّرَاسَةِ ، الَّتِي قَصَدْنَا بِهَا التَّعْرِيفَ بِالْقَرَامِطَةِ ، وَحَرَكَتَهُمْ بِأَكْثَرِ مَا أَمَكْنَا مِنَ الْإِبْجَازِ ، دُونَ الدُّخُولِ فِي التَّنَاقُضَاتِ الَّتِي تَمَيَّزَتْ بِهَا أَقْوَالُ الْمُحَقِّقِينَ . أَنَّ كُلَّ الْحَرَكَاتِ الْبَاطِنِيَّةِ وَمِنْهَا الشَّيْعَةُ وَالْقَرَمِطِيَّةُ تَوَسَّلَتْ بِشِعَارِ الْوَلَاءِ لِآلِ الْبَيْتِ التَّبَوِيِّ ، مِنْ أَجْلِ الْوُصُولِ إِلَى هَدَفٍ وَاحِدٍ وَهُوَ النَّارُ مِنْ حُكَامِ الْوَقْتِ الَّذِينَ أَشَاعُوا الْبِدْعَ الْجَاهِلِيَّةَ ، تَحْتَ غِطَاءِ الْإِسْلَامِ ، وَمِنْهَا التَّرْكِيزُ عَلَى الْعَنْصَرِ الْعَرَبِيِّ ، وَالْحَطُّ مِنَ الْمَوَالِي الْمُسْلِمِينَ عَقَائِدِ الْقَرَامِطَةِ إِنَّ عَقَائِدَ الْقَرَامِطَةِ ، هِيَ مَزِجٌ مِنْ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ شَأْنُ كُلِّ فِرْقَةٍ زَائِفَةٌ ، فَأَخَذَتْ بِبِنْيِ الْإِمَامَةِ لِأُمَّةِ أَهْلِ الْبَيْتِ وَإِظْهَارِ الْإِخْلَاصِ لَهُمْ ، وَرَفَضَ الْحُكُومَاتِ الْأُمَوِيَّةَ وَالْعَبَّاسِيَّةَ الْمُخَالَفَةَ لِلْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَالسَّيْرَةِ التَّبَوِيَّةِ وَإِلَيْكَ بَعْضُ عَقَائِدِهِمْ بِشَكْلِ مُوجَزٍ :

نُظْرِيَّةُ الْحُلُولِ عِنْدَ الْقَرَامِطَةِ

وَالْقَرَامِطَةُ ، قَالُوا بِنُظْرِيَّةِ الْحُلُولِ أَوْ مَا يُسَمَّى عِنْدَ بَعْضِ الطَّوَائِفِ الْمَعَاصِرَةِ بِاسْمِ حُلُولِ الْأَاهُوتِ بِالتَّاسُوتِ ، فَذَهَبُوا إِلَى أَنَّ أُمَّتَهُمْ حَلَّتْ فِيهِمْ شَخْصِيَّاتُ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ الَّذِينَ بَعَثَهُمُ اللَّهُ فِي الْأُمَّمِ الْعَابِرَةِ ابْتِدَاءً مِنْ آدَمَ وَآبِهَاءَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بَلْ أَنَّهُمْ تَجَاوَزُوا الْأَنْبِيَاءَ . لَمَّا دَخَلَ عَيْبُدُ اللَّهِ الْمُهَدِّيُّ إِلَى رُقَادِهِ بِالْمَغْرِبِ مَدَّحُهُ مُحَمَّدُ الْبَدِيلِ ، أَحَدُ مَوْظَفِي الدِّيَوَانِ عِنْدَ أَبِي قُضَاعَةَ بِقَوْلِهِ

حَلَّ بِرَقَادَةِ الْمَسِيحِ حَلَّ بِهَا آدَمُ وَنُوحٌ

حَلَّ بِهَا أَحْمَدُ الْمُصَنِّفِي حَلَّ بِهَا الْكَبْشُ وَالذَّبِيحُ

حَلَّ بِهَا ذُو الْمَعَالِي وَكُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ رِيحٌ

الْغُلُوعِ عِنْدَ الْقَرَامِطَةِ تَعْتَقِدُ الْقَرَامِطَةُ أَنَّ الْإِمَامَ الْقَائِمَ هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الَّذِي يُبْعَثُ بِالرُّسُلِ ، وَيُسَنَّ شَرِيعَةً جَدِيدَةً يَنْسُخُ بِهَا شَرِيعَةَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَمَا يَعْتَقِدُ الْقَرَامِطَةُ أَنَّ رُوحَ اللَّهِ تَعَالَى تَحَلَّى فِي أَجْسَادِ أُمَّتِهِمْ فَتَعَصِمُهُمْ مِنَ الزَّلَلِ وَتُرْشِدُهُمْ إِلَى صَالِحِ الْعَمَلِ وَهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَيْضًا أَنَّ أُمَّتَهُمُ السَّبْعَةَ هُمْ السَّبْعُ الْمَثَانِي الَّذِينَ أَشَارَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ إِلَيْهِمْ ، وَرَفَعُوهُمْ إِلَى حَدِّ الْمَغَالَاةِ .

التَّأْوِيلُ الْبَاطِنِيُّ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

تَفَرَّدَتْ الْبَاطِنِيَّةُ بِتَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَى طَرِيقَةِ التَّأْوِيلِ الْبَاطِنِيِّ ، وَهُوَ أَنْ يَتَجَاوَزُ الْإِنْسَانُ الْمَعْنِيَّ الظَّاهِرِيَّ لِلآيَةِ وَيَتَّجِهَ إِلَى فَهْمِهَا عَنْ طَرِيقِ تَفْسِيرِ كَلِمَاتِهَا بِمَا يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ الْمَقْصُودُ الْحَقِيقِيُّ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ ، وَمِنْ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَعْتَمِدَ الْبَاطِنِيُّونَ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ لِتَحْمِيلِ الْآيَاتِ الْمَعْنَى الَّذِي يُؤَيِّدُ وَجْهَةَ نَظَرِهِمْ وَأَفْكَارِهِمُ الْمَذْهَبِيَّةِ . إِنَّ التَّأْوِيلَ بِمَعْنَاهُ الْوَاقِعِيِّ لَدَى الْإِسْمَاعِيلِيِّينَ يَخْتَلِفُ عَنِ التَّفْسِيرِ الْمَعْمُولِ بِهِ لَدَى عَامَّةِ الْفِرَقِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْأُخْرَى ، وَالتَّفْسِيرُ بِمَعْنَاهُ جَلَاءُ الْمَعْنَى لِكُلِّ كَلِمَةٍ غَامِضَةٍ لَا يَفْهَمُ مَعْنَاهَا الْقَارِئُ وَالتَّأْوِيلُ بِاطْنِ الْمَعْنَى أَوْ رَمُزِهِ أَوْ جَوْهَرِهِ وَهُوَ حَقِيقَةٌ مُسْتَرَّةٌ وَرَاءَ لَفْظَةٍ لَا تَدُلُّ عَلَيْهَا ، وَمِنْ هُنَا أُعْطِيَ النِّظَامُ الْإِسْمَاعِيلِيُّ وَمِثْلُهُ الْقَرْمَطِيُّ الْفِكْرِيَّ صِلَاحِيَّةَ التَّفْسِيرِ لِلنَّاطِقِ وَوَهَبَ صِلَاحِيَّةَ التَّأْوِيلِ لِلْإِمَامِ ، فَالنَّاطِقُ اعْتَبَرَ مُمَثِّلًا لِلشَّرِيعَةِ وَالْأَحْكَامِ وَالْفَقْهِ وَالْقَانُونَ الظَّاهِرِ ، وَالْإِمَامُ اعْتَبَرَ مُمَثِّلًا لِلْحَقِيقَةِ وَالتَّأْوِيلِ ، وَالْفَلَسَفَةُ وَالبَاطِنُ ، وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ أَوَّلَ مَنْهَاجٍ دَعَا إِلَيْهِ هُوَ نِظَامُ التَّأْوِيلِ ، فَإِنَّهُمْ هَدَّبُوهُ وَصَقَلُوهُ

بأفكارهم وأدخلوا فيه النظرية العقلية التي تشدّب الفعل والتسليم ليثبتوا للعالم الإسلامي أنهم من العريقين في فهم الأصول الإسلامية ، فقالوا بالباطن وضرورته كما قالوا بالظاهر إلى جانبه ، فلا يقبل الظاهر دون الباطن ، ولا ينفع الباطن دون الظاهر ، لأن الباطن والظاهر كالجسد والروح تولد في اجتماعهما الفوائد ومعرفة المقاصد . إن للقرآن مدلولاً ، ظاهرياً وباطنيّاً ، فالمعنى الظاهري واللغوي ليس هو المقصود بالذات والتمسك بهذا المعنى يوجب العذاب والمشقة ، أما الأخذ بالمعنى الباطني فهو يوجب الانسراح والسعادة ، لأنه يقضي بترك التكليف والأعمال الظاهرة وكان ابن ميمون يدس هذه الفكرة بصورة خفية وباطنة وما كان يتظاهر بها تجاه غير الإسماعيليين القرامطة ولذلك كانت هذه الطريقة مبالغ فيها .

ومقابل ثنائية التنزيل والتأويل ، توجد ثنائية الشريعة والحقيقة . أن الشريعة بمعنى التصوص القانونية المنظمة للحياة الاجتماعية ، ليست هي الأساسية في التصور الشيعي . وقيمها تكمن فقط في كونها تشكل نقطة انطلاق للتأمل في خلفيتها الفعلية ، من أجل إدراك حقيقتها الباطنية المتعالية عن عالم المحسوسات .

أما البرهان وهو الركن الثالث من بنية العقل العربي كما يراه الجابري

فهو الذي تجسد في المنطق اليوناني الأرسطي بمنهجه القائم على مقدمات عقلية . وهذا سيقودنا إلى بحث منفصل لشرح هذا المحور أو الركن .

أثر الفلسفة اليونانية في الفكر العربي في العصر الوسيط

كَانَ لِلْعَرَبِ قُبَيْلَ الْإِسْلَامِ لُغَةٌ نَاصِحَةٌ ، لَكِنْ كَانَتْ مَعَارِفُهُمْ وَفُنُونُهُمْ وَصِفَتُهُ فِي الْأَغْلَبِ ، وَتَخَلُّو مِنْ
 التَّامِلِ وَالتَّفَلُّسِ . فَلَمْ تُنَجِّحِ الْبَيْئَةُ الطَّبِيعِيَّةُ لِغَالِبِيَّةِ مُجْتَمَعَاتِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ مَجَالًا لِثَبَاتِ الْإِسْتِقْرَارِ
 الْمَدَنِيِّ « الْمُوَاصِلِ عِبْرَ أَجْيَالٍ » وَلَا ثَبَاتِ الْوَحْدَةِ السِّيَاسِيَّةِ ، وَمِنْ ثَمَّ لَمْ تَتَرَاكُمِ الْمَعَارِفُ الْفِكْرِيَّةُ بِمَا
 يَسْمَحُ لِتَكُونِ شَكْلٍ مِنْ أَشْكَالِ التَّفَكِيرِ الْفَلْسَفِيِّ . وَحَتَّى فِي الْحَوَاصِرِ الْقَلِيلَةِ الثَّابِتَةِ عِبْرَ أَجْيَالٍ ، فَإِنَّهَا
 لَمْ تَتَعَرَّفِ الْفَلْسَفَةَ ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ جُزْأً صَغِيرَةً مُسْتَقَرَّةً فِي بَحْرِ مُجْتَمَعَاتِ التَّرْحَالِ ، وَكَانَتْ تَقَافُتُهَا
 السَّائِدَةُ مِنْ تَقَافَةِ تِلْكَ الْمَجْتَمَعَاتِ الْمُحِيطَةِ . وَعَدَا الْحِكْمَةَ الْمَوْجُودَةَ فِي الْأَمْثَالِ وَالْعِبَارَاتِ وَالْخُطَبِ
 وَالشَّعْرِ وَالْقِصَصِ ، فَإِنَّ الْعَقْلَ السَّائِدَ آنَذَا كَانَ يَتَحَكَّمُ بِهِ التَّصَوُّرُ الْخُرَافِيُّ لِلْكَوْنِ وَالْحَيَاةِ ، إِضَافَةً لَوْجُودِ
 السَّحْرِ وَالْكَهَانَةِ وَالْعَرَاقَةِ وَالتَّنْجِيمِ . وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ فَالْجَزِيرَةُ الْعَرَبِيَّةُ شَهِدَتْ تَلَاقًا بَيْنَ أَدْيَانِ
 وَحَضَارَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ ؛ فَقَدْ كَانَتْ مَوَاسِمُ الْحَجِّ وَأَسْوَاقُ الْعَرَبِ كَسُوقِ عُكَاظٍ تَجْمَعُ بَيْنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ
 مِنْ الشُّعُوبِ الَّتِي تَقُطنُ الْمِنْطَقَةَ الْمُحِيطَةَ بِشِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَوْ قَرِيبَةً مِنْهَا كَالسَّرِيَانِ وَالْمَرْسِ وَالْهِنْدِ
 وَالْيُونَانَ . وَإِذَا أَخَذْنَا الْبُعْدَ الْفَلْسَفِيِّ فِي الدِّينِ ، سَنَجِدُ أَنَّ قَلِيلًا مِنَ الْعَرَبِ كَانُوا إِمَّا يَهُودًا أَوْ نَصَارَى ،
 وَالْغَالِبِيَّةُ الْعُظْمَى كَانُوا وَثْنِيَيْنِ دَهْرِيَيْنِ . هَذِهِ الدِّيَانَةُ الْوَثْنِيَّةُ تَتَزَامَنُ مَعَ إِزْدِهَارِ مَذْهَبِ الدَّهْرِيَّةِ الْفَارِسِيِّ
 فِي عَهْدِ يَزْدَجَرِ الثَّانِي « ت 457م » ، وَهَذَا قَدْ يُشِيرُ إِلَى مَدَى تَأَثَّرِ الْعَرَبِ بِفَلْسَفَةِ الْمَذْهَبِ الْفَارِسِيِّ ؛
 فَالدَّهْرِيَّةُ الْفَارِسِيَّةُ تَجْعَلُ الزَّمَانَ هُوَ الْمَبْدَأُ الْأَسْمَى ، وَتَرَى أَنَّهُ لَا نِهَآيَةَ لَهُ ، وَتَعِدُّهُ عَيْنَ الْقَدْرِ أَوْ الْفَلَكَ
 الْأَعْظَمِ . وَهَذَا الْمَبْدَأُ نَالَ إِعْجَابَ أَهْلِ التَّنْظَرِ الْفَلْسَفِيِّ ، وَتَبَوَّأَ مَكَانًا بَارِزًا فِي الْأَدَبِ الْفَارِسِيِّ وَفِي
 الْأَرَاءِ الشَّعْبِيَّةِ « دِي بُور » .

الْعَصْرُ الْإِسْلَامِيُّ الْأَوَّلُ

الْبُؤَادِرُ الْأُولَى مَعَ الْإِسْلَامِ تَشَكَّلَتْ الْوَحْدَةُ السِّيَاسِيَّةُ لِلْعَرَبِ ، حَتَّى تَمَدَّدَتْ خَارِجَ حُدُودِهَا مُشْكَلَةً
 الدَّوْلَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ ، الَّتِي كَانَتْ لُغَتُهَا الدِّيْنِيَّةُ وَالسِّيَاسِيَّةُ هِيَ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ ، لَكِنْ مَعَ زِيَادَةِ تَمَدُّدِ الدَّوْلَةِ
 الْإِسْلَامِيَّةِ وَاحْتِلَاطِ الْمُسْلِمِينَ بِحَضَارَاتٍ وَأَدْيَانٍ مُخْتَلِفَةٍ ظَهَرَتْ الْحَاجَةُ لِتَعْرِيْبِ الدَّوَالِمِ الَّتِي بَدَأَتْ مُنْذُ
 مَطْلَعِ الْخِلَافَةِ الْأُمَوِيَّةِ ، وَكَانَتْ تَكْتُبُ أَصْلًا بِالْفَارِسِيَّةِ وَالْيُونَانِيَّةِ . فِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ ، كَانَتْ الدَّرَاسَاتُ
 الْفَلْسَفِيَّةُ وَالْمُنْطَقِيَّةُ مُسْتَمِرَّةً فِي مَرَاكِرِ الدَّرَاسَاتِ الْيُونَانِيَّةِ مِنْ دُونِ انْقِطَاعِ حَتَّى بَعْدَ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ
 لِسُورِيَا وَالْعِرَاقِ . وَظَهَرَ عَدَدٌ مِنْ الشُّرَاحِ الَّذِينَ يُنْتَمُونَ إِلَى فِرْقَتَيْ الْيَعْقُوبِيَّةِ وَالنَّسَطُورِيَّةِ الْمُنْشَقَّةِ ، أَمثالُ
 سَوِيرِسُ سِيْبُوخْتُ « ت 47 » وَآثَنَاسِيُوسُ الْبَلَدِيِّ « ت 77 » وَيَعْقُوبُ الرَّهَاقِيُّ « ت 90 » .
 أَغْتَبَ ذَلِكَ وَتَرَامَنَ مَعَهُ بُوَادِرُ تَعْرِيْبِ الْمَصْتَفَاتِ الطَّبِيَّةِ وَالْكِيْمِيَاءِيَّةِ وَالْفَلْكَيَّةِ . فِي عَهْدِ مَرْوَانَ بْنِ
 الْحَكَمِ « ت 66 » تَرَجَمَ أَهْرُنُ الْيَعْقُوبِيُّ مُلَخَّصًا طَبِيًّا مَشْهُورًا فِي الْأَوْسَاطِ السَّرْيَانِيَّةِ لِلطَّبِيبِ الْيَهُودِيِّ
 مَاسْرُجِيهِ . كَمَا يُنْسَبُ إِلَى الْأَمِيرِ الْأُمَوِيِّ خَالِدِ بْنِ يَزِيدَ « ت 85 » (الْأَشْتِغَالُ بِالْكِيْمِيَاءِ وَالنَّسَبِ
 عَلَى تَرَجْمَتِهَا مِنَ الْيُونَانِيَّةِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ . كَانَتْ التَّرْجَمَةُ آنَذَاكَ مُشَوَّشَةً مِنْ نَاحِيَةِ التَّعْرِيْبِ أَوْ مِنْ نَاحِيَةِ
 نَحْلِ الْأَعْمَالِ لِغَيْرِ أَصْحَابِهَا . فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ وَقَتِيذٍ يُحْسِبُونَ أَنَّ تَارِيخَ الْيُونَانِ لَمْ يَبْدَأْ إِلَّا مَعَ
 الْأِسْكَانْدَرِ الْأَكْبَرِ ، وَقَدْ عَرَفُوا شَيْئًا مِنْ أَطْوَارِ الْفَلْسَفَةِ وَكَتَبَ أَرِسْطُو لِكِنِّهَا مَعْرِفَةً مُشَوَّشَةً بِأَسَاطِيرَ كَثِيرَةً

وَمُهِدَاتُ الْفَلْسَفَةِ مَعَ زِيَادَةِ احْتِلَاطِ الْمُسْلِمِينَ بِحَضَارَاتٍ وَأَدْيَانٍ وَأَعْرَاقٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَبِأَشْكَالٍ مَدْيِيَّةِ
 جَدِيدَةٍ وَعَادَاتٍ وَأَفْكَارٍ وَفَلْسَفَاتٍ وَأَنْمَاطٍ مَعِيشِيَّةٍ مُتَنَوِّعَةٍ وَجَدِيدَةٍ عَلَيْهِمْ ، لَا يَكْفِي مَعَهَا مُجَرَّدُ
 الرَّجُوعِ لِنَصِّ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالسُّنَّةِ الشَّرِيفَةِ ، كَانَ لَا بُدَّ مِنَ الرَّأْيِ الْمُسْتَنَدِ عَلَى الْقِيَاسِ وَالنَّوِيلِ وَالْإِجْتِهَادِ
 . وَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ وَضْعِ مَنَاهِجٍ وَمَقَايِسَ لِهَذِهِ الْأَسْتِنَادَاتِ وَقَوَاعِدُ لِلرَّجُوعِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ . وَمِنْ هُنَا

ظَهَرَ الْفِقْهُ وَالْفُقَهَاءَ وَفَرَّقَهُمْ مِثْلَ أَهْلِ الرَّأْيِ وَإِمَامِهِمْ أَبُو حَنِيفَةَ النُّعْمَانَ ، وَأَهْلَ الْحَدِيثِ كَالشَّافِعِيِّ . وَلِأَنَّ
الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ دَعَا النَّاسَ لِلتَّامُّلِ وَالْبَصْرِ وَاللِّعْقَلِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَثَرَ فِي نُشُوءِ الْفِرْقِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْجِدَلِ الْعَقْلِيِّ
وَعِلْمِ الْكَلَامِ . كَانَ هَدَفُ عِلْمِ الْكَلَامِ الدِّفَاعَ عَنِ الْعَقَائِدِ الدِّينِيَّةِ بِالْأَدَلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ مُقَابِلَ الْأَدَلَّةِ النَّقْلِيَّةِ . عَلَى
رَغْمِ أَنَّ الْقِيَاسَ وَهُوَ مِنْ أَشْكَالِ الْمُنْطِقِ ظَهَرَ قَبْلَ التَّأَثُّرِ بِالْمُنْطِقِ الْفَلْسَفِيِّ الْيُونَانِيِّ ، لَكِنَّ مَعَ التَّوَسُّعِ فِيهِ
وَاتِّخَاذِهِ أَصْلًا مِنْ أُصُولِ الْأَحْكَامِ وَمُضَدَّرًا لِلتَّشْرِيعِ ، كَانَ لَا بُدَّ مِنْ دِرَاسَةِ الْمُنْطِقِ الْيُونَانِيِّ وَالتَّأَثُّرِ بِهِ
بِطَرِيقَةٍ مُبَاشِرَةٍ أَوْ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ . وَالْفِقْهُ بِحَدِّ ذَاتِهِ - وَلَيْسَ الْقِيَاسُ فَقَطْ - هُوَ عِلْمٌ نَظْرِيٌّ فِكْرِيٌّ بَشْرِيٌّ
وَإِنْ كَانَ يَسْتَعِدُّ عَلَى نَصِّ سَمَاوِيِّ ؛ لِذَا لَا بُدَّ لَهُ مِنْ التَّقَلُّسِ ، وَبِخَاصَّةٍ فِي الْمُنْطِقِ الْإِسْتِبْطَائِيِّ وَلَيْسَ
فَقَطْ الْإِسْتِقْرَائِيُّ . كَانَتْ تِلْكَ مُمَهَّدَاتٌ لِدُخُولِ الْفَلْسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ لِلْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ وَالْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ . فَالْأَرَاءُ
الْفِقْهِيَّةُ اضْطُرَّتْ لِدُخُولِ فِي فِلْسَفَةِ اللُّغَةِ لِتَفْسِيرِ وَتَأْوِيلِ وَشَرْحِ النَّصِّ الْمُقَدَّسِ ، ثُمَّ دَخَلَتْ فِي تَفْرَعَاتِ
فِلْسَفِيَّةٍ أُخْرَى . ظَهَرَتْ بَوَادِرُ التَّرْجَمَاتِ الْفَلْسَفِيَّةِ فِي مَطَلَعِ الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ مِثْلَ مَا يُنْسَبُ إِلَى عَبْدِ
اللَّهِ بْنِ الْمُقَفَّعِ بِعَرَبِيَّةِ لِكُتُبِ الْمَقُولَاتِ وَالْعِبَارَةِ وَالتَّبْرَهَانَ لِأَرِسْطُو . كَانَ ذَلِكَ فِي عَهْدِ أَبِي جَعْفَرِ
الْمُنْصُورِ « ت 159هـ » الَّذِي تَصِفُهُ الْمَصَادِرُ الْقَدِيمَةُ بِبِرَاعَتِهِ فِي الْفِقْهِ وَكَلَّمَهُ بِالْفِلْسَفَةِ ، وَرِعَايَتِهِ لِتَرْجَمَةِ
كُتُبِ الطَّبِّ وَالْهَنْدَسَةِ وَالْفَلَكِ « تَارِيخُ مُخْتَصَرِ الدَّوْلِ لِابْنِ الْعَرَبِيِّ » . وَمِنْ الْكُتُبِ الَّتِي تَرَجَمَتْ فِي
عَهْدِهِ رِسَائِلُ لِأَرِسْطُو ، وَكُتَابُ « الْمَجِسْطِي » فِي الْفَلَكِ ، « وَأُصُولُ الْهَنْدَسَةِ » لِأِقْلِيدِسَ « مَرْوَجِ
الذَّهَبِ لِلْمَسْعُودِيِّ » . وَقَدْ أَضَافَ هَارُونُ الرَّشِيدُ مَزِيدًا مِنْ الدَّعْمِ لِلتَّعَرِيبِ ، وَاعْتَنَى بِالثَّقَافَةِ وَالْعِلْمِ
وَتَرْجَمَةِ الْأَعْمَالِ الْيُونَانِيَّةِ ، وَعَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ فِي الطَّبِّ وَالْفَلَكِ وَالتَّجِيمِ .

مِنَ التَّرْجَمَةِ إِلَى الشَّرْحِ وَالتَّأْسِيسِ

ظَلَّتِ التَّرْجَمَاتُ مُشْتَتَةً حَتَّى عَهْدِ المَأْمُونِ حِينَ بَلَغَ الأَهْتِمَامُ بِالفُلْسَفَةِ ذُرْوَتَهُ بِإِنْشَاءِ « بَيْتِ الحِكْمَةِ »
 فِي بَعْدَادَ سَنَةَ 217هـ . تَرَجَمَتِ الأَعْمَالُ الفُلْسَفِيَّةُ اليُونَانِيَّةُ إِلَى السَّرْبَانِيَّةِ وَالعَرَبِيَّةِ ، فَتَرَجَمَتْ أَهَمُّ أَعْمَالِ
 أَفَلَاطُونِ وَأَرِسْطُو ، إِضَافَةً إِلَى تَرْجَمَةِ الأَعْمَالِ الأُخْرَى ؛ مِثْلُ : كِتَابِ البُرْهَانِ ، وَكِتَابِ الأَخْلَاقِ
 لِغَالِيئُوسِ . فِي تِلْكَ الحِقْبَةِ نَقَلَ الجُزْءُ الأَكْبَرُ مِنَ التَّرَاثِ اليُونَانِيِّ فِي الفُلْسَفَةِ وَالعِلْمِ وَالعُلُومِ أَمَّا عَنِ
 اليُونَانِيَّةِ مُبَاشِرَةً أَوْ عَنِ السَّرْبَانِيَّةِ . لَمْ تَنْحَصِرِ التَّرْجَمَةُ فِي التَّرَاثِ اليُونَانِيِّ ، بَلْ اِمْتَدَّتْ إِلَى غَيْرِهِ كالتَّرَاثِ
 الفَارِسِيِّ وَالهِنْدِيِّ ، وَتَرَكَّزَتْ فِي مَجَالِي الطَّبِّ وَالمُعْتَقَدَاتِ الدِّينِيَّةِ ، لَكِنَّ التَّعْرِيبَ كَانَ فِي تَوْجُهِهِ الأَكْبَرِ
 نَحْوِ الأَرِثِ اليُونَانِيِّ . تَطَوَّرَتْ الحَالَةُ الفُلْسَفِيَّةُ آنَذَاكَ مِنْ تَرَاجِمِ الفُلْسَفَةِ اليُونَانِيَّةِ ، إِلَى الشَّرْحِ ، مَعَ بَعْضِ
 الأَبْتِكَارَاتِ الفُلْسَفِيَّةِ ، حَيْثُ مَهَّدَ لَهَا الكَنْدِيُّ « ت 260هـ » الَّذِي يَتَفَقُّ أَغْلَبَ الدَّرْسِينَ أَنَّ بَدَايَةَ
 التَّأْلِيفِ الفُلْسَفِيِّ العَرَبِيِّ بِالمَعْنَى الأَصِيلِ لِلْفُلْسَفَةِ ظَهَرَ مَعَهُ . وَتَعَدَّ الفُلْسَفَةُ الرِّيَاضِيَّةُ لِلْكَنْدِيِّ أَهَمَّ مَا فِي
 تَبَاجِهِ الفُلْسَفِيِّ ، وَفِيهَا تَمْتَرِجُ الأَفَلَاطُونِيَّةُ الجَدِيدَةُ بِالفِيثَاغُورِيَّةِ الجَدِيدَةِ « دِي بُور » . مِثْلُهُ الأَعْلَى
 سُقْرَاطُ ، مَعَ مُحَاوَلَةِ التَّوْفِيقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَرِسْطُو الَّذِي يُجِلُّهُ كَثِيرًا عَلَى طَرِيقَةِ الأَفَلَاطُونِيَّةِ الجَدِيدَةِ . أَمَّا
 الرَّاظِي « 298هـ » فَيَعَدُّ حَامِلُ لَوَاءِ الأَفَلَاطُونِيَّةِ فِي تَارِيخِ الفُلْسَفَةِ العَرَبِيَّةِ أَكْبَرَ أَعْلَامِ الفُلْسَفَةِ فِي
 الحَضَارَةِ الإِسْلَامِيَّةِ وَأَعْلَاهُمْ هُوَ الفَارَابِيُّ « ت 339هـ » أَوَّلُ وَاضِعِ لِأَسْسِ الأَفَلَاطُونِيَّةِ المُحَدَّثَةِ فِي
 صِيغَتِهَا العَرَبِيَّةِ ، وَأَوَّلُ مُفَكِّرِ عَرَبِيٍّ عَمَلٍ عَلَى وَضْعِ نِظَامِ فُلْسَفِيٍّ مُكْمَلٍ . إِضَافَةً إِلَى شَرْحِهِ فُلْسَفَةَ
 أَفَلَاطُونِ ، فَقَدْ دَرَسَ الفَارَابِيُّ مُؤَلَّفَاتِ أَرِسْطُو وَرَبَّتَهَا وَفَسَّرَهَا وَشَرَحَهَا ، فَلَقِبَ المُعَلِّمِ الثَّانِي . وَعَلَى
 رَغْمِ ذَلِكَ فَإِنَّ الأَفَلَاطُونِيَّةَ المُحَدَّثَةَ اقْتَرَنَتْ أَكْثَرَ بِابْنِ سِينَا « ت 428هـ » فِي كُلِّ مِنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ
 العَرَبِيِّ ، أَمَّا كِتَابُهُ فِي الطَّبِّ « القَانُونِ » فَلَهُ تَأْثِيرٌ هَائِلٌ عَالَمِيًّا جَعَلَ مِنْهُ الأشْهُرُ عَلَى النِّطاقِ العَالَمِيِّ .

اِنْتِقَالُ الشُّعْلَةِ إِلَى الأَنْدَلُسِ

فِي الْجَانِبِ الْعَرَبِيِّ مِنْ الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ ظَهَرَتْ فِي الْمَغْرِبِ الْعَرَبِيِّ وَالْأَنْدَلُسِ أَعْمَالٌ فُلْسَفِيَّةٌ كَانَتْ مِنْ أَوَائِلِ
 أَعْلَامِهَا إِنَّهُ بَاجَهُ « 533هـ » وَلَهُ مُصَنَّفَاتٌ فِي الْفُلْسَفَةِ وَالطَّبِّ ، وَاعْتَنَى بِشَرْحِ عَدَدٍ مِنْ مُؤَلَّفَاتِ أَرِسْطُو
 . وَكَانَ الْعَلَمُ الثَّانِي ابْنُ طَفَيْلٍ « ت 580هـ » الَّذِي لَمْ يَصِلْنَا مِنْ مُؤَلَّفَاتِهِ غَيْرَ « حَيَّ بْنُ يَتُّظَانَ » . أَمَّا
 الْعَلَمُ الْأَكْبَرُ ، وَرُبَّمَا فِي الْفُلْسَفَةِ الْعَرَبِيَّةِ كُلِّهَا ، فَهُوَ ابْنُ رُشْدٍ « 595هـ » الَّذِي شَرَحَ أَغْلَبَ كُتُبِ أَرِسْطُو
 بِطَرِيقَةٍ نَضَاهِي جَمِيعٍ مِنْ سَبَقِهِ ، إِضَافَةً إِلَى شَرْحِهِ جُمْهُورِيَّةِ أَفَلَاطُونِ ؛ لِذَا لُقِبَ بِالْمُشَارِحِ . وَكَانَ لِابْنِ
 رُشْدٍ كَثِيرٌ مِنَ الْمُوَلَّفَاتِ الْفُلْسَفِيَّةِ ، وَبِخَاصَّةٍ فِي التَّوْفِيقِ بَيْنَ الْفُلْسَفَةِ وَالشَّرِيعَةِ .

تَأْثِيرُ الْفُلْسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ فِي الْفُلْسَفَةِ الْعَرَبِيَّةِ

أَهَمُّ عَامِلٍ مُؤَثِّرٍ فِي الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ الْمُؤْمِنِ كَانَ : الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ ، وَالْحَدِيثُ الشَّرِيفُ ، وَالْفِقْهُ ، وَعِلْمُ الْكَلَامِ
 ، وَالتَّوْبِيلُ ، وَأَهْلُ الْحَدِيثِ « أَهْلُ الظَّاهِرِ » وَأَهْلُ الرَّأْيِ وَالْإِجْتِهَادِ « الْمَدْلُولِ الْبَاطِنِ » . بَعْدُ هَذِهِ
 الْعَوَامِلُ تَأْتِي الْفُلْسَفَةُ الْيُونَانِيَّةُ . الْمَصْدَرُ الرَّئِيسُ لِلْفُلْسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ كَانَ عَبْرَ تَرْجُمَةِ التَّرَاثِ الْيُونَانِيِّ :
 الْمَنْطِقُ ، وَالطَّبِيعِيَّاتُ ، وَالْإِلَهِيَّاتُ ، وَالْأَخْلَاقُ ، وَالرِّيَاضِيَّاتُ ، وَالْفَلَكُ ، وَالطَّبُّ . كَانَتْ لِلْفُلْسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ
 تَأْثِيرٌ هَائِلٌ فِي الْفُلْسَفَةِ الْعَرَبِيَّةِ لَا سِيَّمَا فِي الطَّبِيعِيَّاتِ وَالرِّيَاضِيَّاتِ . . وَإِذَا كَانَ فَيْثَاغُورُسُ أَسْتَاذًا
 لِلْعَرَبِ فِي الرِّيَاضِيَّاتِ كَمَا يَقُولُ دِي بُورِ ، فَإِنَّ أَرِسْطُو أَسْتَاذَهُمْ فِي الْمَنْطِقِ . وَكَانَتْ لِلْفُلْسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ
 أَيْضًا تَأْثِيرٌ فِي غَيْرِ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ وَالرِّيَاضِيَّاتِ « الْفِقْهُ ، وَالْكَلَامُ ، وَالتَّنْحُو ، وَالتَّارِيخُ ، وَالأَدَبُ » .
 فَمَثَلًا الْخَطَابَةُ لِأَرِسْطُو وَالْمَنْطِقُ الْيُونَانِيُّ عُمُومًا أَثَرًا فِي التَّنْحُو الْعَرَبِيِّ وَالبَلَاغَةِ بِشَكْلِ وَاضِحٍ ، فَالْبَاحِظُ
 ، مَثَلًا ، أَدْخَلَ أَشْكَالَ الْقِيَاسِ الْمَنْطِقِيَّةِ فِي أُسَالِبِ الْبَلَاغَةِ . وَقَدْ كَانَ التَّأَثُّرُ الْعَرَبِيُّ إِجْبَائِيًّا مُتَقَاعِلًا ؛
 إِذْ أَضَافَ الْعَرَبُ إِلَيْهَا إِضَافَاتٌ ضَخْمَةً أَصِيلَةً وَمُبْتَكِرَةً ، وَمِنْ ثَمَّ أَسَّسُوا مِنْهَا عُلُومَهُمُ الْخَاصَّةُ ، مِثْلُ

فَلْسَفَةُ أَسَاسِ اللُّغَةِ بَيْنَ الْفُطْرِيِّ وَالْوَضْعِيِّ ، وَالْقِيَاسِ وَالِاسْتِثْبَاطِ فِي عِلْمِ اللُّغَةِ ، وَفَلْسَفَةُ الْبَلَاغَةِ بَيْنَ الْمُبْنَى وَالْمَعْنَى ، وَتَقْسِيمِ أَنْوَاعِ الْجُمَلِ « خَمْسَةٌ أَوْ ثَمَانِيَةٌ أَوْ تِسْعَةٌ » أَوْ أَقْسَامِ الْكَلَامِ « إِسْمٌ ، وَفِعْلٌ ، وَحَرْفٌ » . وَمِنْ ذَلِكَ مَا أُطْلِقَ عَلَى نَحْوَةِ الْبَصْرَةِ « أَهْلَ الْمَنْطِقِ » ؛ لِأَنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لِلْقِيَاسِ شَأْنًا كَبِيرًا فِي الْأَحْكَامِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِأُمُورِ اللُّغَةِ تَمَيِّزًا لَهُمْ مِنْ نَحْوَةِ الْكُوفَةِ الَّذِينَ تَرَخَّصُوا فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ تَشَدُّ عَنْ الْقِيَاسِ . وَقَدْ يَكُونُ مَرْدُ ذَلِكَ أَنَّ تَأْثِيرَ الْمَذَاهِبِ الْفَلْسَفِيَّةِ ظَهَرَ فِي الْبَصْرَةِ قَبْلَ غَيْرِهَا . وَمِنْ فُرُوعِ اللُّغَةِ ظَهَرَ عِلْمُ الْعُرُوضِ لِلْفَرَاهِيدِيِّ ، وَعُدَّهُ بَعْضُهُمْ عِلْمًا طَبِيعِيًّا وَمِنْ أَقْسَامِ الْفَلْسَفَةِ ؛ لِأَنَّ الْوِزْنَ الْإِيقَاعِيَّ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ فُطْرِيٌّ مُشْتَرِكٌ بَيْنَ الْبَشَرِ ؛ فَهُوَ حَالَةٌ جَوْهَرِيَّةٌ ، وَلَيْسَ حَالَةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ خَاصَّةٌ بِشَعْبٍ مُعَيَّنٍ « دِي بُور » . أَثَرَتِ التَّرْجَمَاتُ فِي حَقْلِ التَّصْنِيفِ الْعِلْمِيِّ وَبُرُوعِ رُوحِ عِلْمِيَّةٍ جَدِيدَةٍ فِي الْأَوْسَاطِ الْفِكْرِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ ، فَقَدْ أَدْخَلَتِ التَّرْجَمَاتُ الْأَرِسْطِيَّةُ مِنْهَجَ « الْمَقَالَةِ » أَوْ أُسْلُوبَهَا الَّذِي يُسَبِّحُ خَطًّا مَوْضُوعِيًّا لَا يَحِيدُ عَنْهُ ، وَيَقْتَصِرُ عَلَى مَوْضُوعٍ مُعَيَّنٍ لِلْمَقَالِ ، وَالِإِحَاطَةَ بِهِ ، وَالِاسْتِرْشَادَ بِالْأَعْمَالِ السَّابِقَةِ وَتَحْيِصَهَا وَالتَّعْلِيقَ عَلَيْهَا . وَكَانَتْ الْحَالُ قَبْلَ ذَلِكَ أَنَّ الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي تَدُورُ عَلَيْهَا الْعُلُومُ الْجُرْيِيَّةُ . وَكَانَ يَغْلِبُ عَلَيْهَا الْاسْتِطْرَادُ أَوْ الْاسْتِرْسَالُ الْأَدَبِيِّ . حَيْثُ يَنْتَقِلُ الْمُؤَلِّفُ مِنْ خَبَرٍ إِلَى آخَرَ كَمَا لَدَى الْجَاحِظِ فِي أَوْضَاحِ صُورَةٍ . وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُعْطِيَ طَابَعًا عَامًّا لِلْفَلْسَفَةِ الْعَرَبِيَّةِ ؛ فَفِي الْأَعْلَابِ سَنَجِدُ أَنَّهَا تَأَثَّرَتْ كَثِيرًا بِالْأَفَلَاطُونِيَّةِ الْمُحَدَّثَةِ . الْإِحْتِكَامُ بِالشُّعُوبِ الْآخَرَى ؛ كَالسَّرِّيَانِ ، وَالْفَرَسِ ، وَالْيُونَانِ ، وَالْهُنُودِ ، مِنْجُ الْفِكْرِ الشَّرْقِيِّ الرُّوحَانِيِّ « دِينِي وَصُوفِي » مَعَ الْفِكْرِ الْيُونَانِيِّ الْفَلْسَفِيِّ . وَمِنْ هُنَا نَالَتْ الْأَفَلَاطُونِيَّةُ الْمُحَدَّثَةُ الَّتِي مَرَّجَتْ بَيْنَ الرُّوحِ الشَّرْقِيَّةِ وَالرُّوحِ الْيُونَانِيَّةِ ، نَالَتْ حُظُوَّةً كُبْرَى وَقَبُولًا وَاسِعًا لَدَى الْفَلَّاسِفَةِ الْعَرَبِ فِي فِكْرِ الْقُرُونِ الْوَسْطَى ؛ إِذْ حَاوَلَ أَغْلِبُهُمُ التَّوْفِيقَ بَيْنَ الْفَلْسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ وَالْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَوْ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ .

مَوْقِفُ الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ مِنَ الْفَلْسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ

يُمْكِنُ أَنْ نُجْمَلَ مَوْقِفَ الْمُفَكِّرِينَ الْعَرَبِ مِنْ فِلَاسِفَةِ وَقُفَّهَاءِ وَمُؤَرِّخِينَ وَأَدْبَاءِ تَجَاهِ الْفَلْسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ إِلَى ثَلَاثَةِ مَوَاقِفَ . الْأَوَّلُ مَوْقِفَ جُمُهورِ الْفِلَاسِفَةِ الْعَرَبِ الْمُؤَيَّدِ وَالْمَرْحَبِ بِالْفَلْسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ ، وَبَعْضُهُمْ يُعَدُّهَا ضَرْورَةً عَقْلَانِيَّةً لِلتَّعَامُلِ مَعَ النَّصِّ الدِّينِيِّ ، إِضَافَةً إِلَى التَّعَامُلِ مَعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَوِيَّةِ . الثَّانِي تَقْيِضُهُ تَمَامًا ، وَيَرَى أَنَّ لَّا حَاجَةَ لِهَذِهِ الْفَلْسَفَةِ بِالْجُمْلَةِ ، بَلْ هِيَ مُفْسِدَةٌ لِلدِّينِ وَالْعَقْلِ ، وَمِنْ أَشْهَرِ الْقَائِلِينَ بِذَلِكَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ وَابْنُ قَيْمِ الْجُوزِيَّةِ . الْمَوْقِفُ الثَّلَاثُ ، يَرَى التَّمْيِيزَ بَيْنَ أَجْزَاءِ هَذِهِ الْفَلْسَفَةِ ؛ فَالْمَنْطِقِيَّاتِ وَالطَّبِيعِيَّاتِ « فِيزِيَاءَ ، وَطِبَ ، وَكِيمِيَاءَ ، وَزِرَاعَةَ » نَافِعَةٌ ، بَلْ يَجِبُ تَعَلُّمُهَا عِنْدَ بَعْضِهِمْ ؛ مِثْلُ : الْغَزَالِيِّ وَابْنِ حَزْمِ الْأَنْدَلُسِيِّ ، أَوْ لَّا مَآعٍ مِنْهَا مِثْلَ ابْنِ خَلْدُونَ ؛ أَمَّا الْأَلِهِيَّاتِ « الْمَاورَأَيْتِيَّاتِ » وَالْأَخْلَاقِيَّاتِ فَهِيَ لَّا شَكَّ فِي فِسَادِهَا وَبُطْلَانِهَا وَوُجُوبِ مَنَعِهَا . وَلَعَلَّ هَذَا الْمَوْقِفَ يُمَثِّلُ أَغْلَبِيَّةَ السِّيَاقِ فِي الْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ مِنْ مُفَكِّرِينَ وَقُفَّهَاءِ وَأَدْبَاءِ وَغَيْرِهِمْ .

خَصَائِصُ الْفَلْسَفَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لِلْفَلْسَفَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

الْعَدِيدَ مِنَ الْخَصَائِصِ الَّتِي تُمَيِّزُهَا عَنِ الْعُلُومِ الْأُخْرَى ، وَمِنْ أَبْرَزِ هَذِهِ الْخَصَائِصِ مَا يَأْتِي : الشَّكُّ الْمُنْهَجِيُّ مِنْ أَهَمِّ خَصَائِصِ الْفَلْسَفَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ هُوَ الشَّكُّ الْمُنْهَجِيُّ الَّذِي يُعَدُّ جُزْءًا مُهِمًّا مِنْ عَمَلِيَّةِ التَّفَكِيرِ ، لِأَنَّهُ مَا يَدْفَعُ الْإِنْسَانَ إِلَى الْفِيْءِ بِعَمَلِيَّةِ الْبَحْثِ . النَّظَرَةُ السُّمُولِيَّةُ تَسْمُ الْفَلْسَفَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ بِنَظَرَتِهَا الْكُلِّيَّةِ وَالسُّمُولِيَّةِ لِكُلِّ الظُّوَاهِرِ ، وَتَجْعَلُ الْإِنْسَانَ يُبْحِثُ عَنِ أَسَاسِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُقُومُ عَلَيْهَا مُعْتَقَدَاتُهُ وَمَا يُؤْمِنُ بِهِ وَأُصُولُهَا .

التَّطَوُّرَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الفُلْسَفَةَ الإِسْلَامِيَّةَ جَاءَتْ مِنْ أَصُولٍ يُونَانِيَّةٍ ، تَطَوَّرَتْ عَلَى أَيْدِي الفُلَّاسِفَةِ المُسْلِمِينَ فِيمَا بَعْدُ ، لِذَا فَهِيَ تَطَوُّرِيَّةٌ . سُمِّيَ الهَدَفُ وَالغَايَةُ تَهْمُ الفُلْسَفَةِ الإِسْلَامِيَّةِ بِالتَّكْيِيدِ عَلَى مَبَادِي العَقِيدَةِ الإِسْلَامِيَّةِ وَالبُحْثِ عَنِ أَاسَاسِ فُلْسَفِيَّيْهَا ، لِذَا فَهِيَ ذَاتُ هَدَفٍ سَامِيٍّ وَلَا تَهْتَمُّ بِالأُمُورِ الجَدَلِيَّةِ المُنْهَجُ البُرْهَانِيُّ مُنْهَجُ الفُلْسَفَةِ الإِسْلَامِيَّةِ هُوَ المُنْهَجُ البُرْهَانِيُّ الَّذِي يُقُومُ عَلَى الأَدَلَةِ العَقْلِيَّةِ لَا عَلَى العَوَاطِفِ وَالجَدَلِ .

نَعُودُ لِتَابِعِ مَعَ الذِّكْرِ مُحَمَّدَ عَابِدِ الجَابِرِي الَّذِي يَقُولُ : مِنْ البَدِيهِيِّ مِلَّاخِظَةً أَنَّ كُلَّ نِظَامٍ مُسْتَقِلٍّ بَلٍ وَمُخْتَلَفٍ عَنِ الأَخْرِ ، فَكَيْفَ إِذَا تَبَلُّوْرَتْ هَذِهِ القِيَمُ المَعْرِفِيَّةُ فِي عَقْلِنَا ؟ لَمْ تَتَلَاخَمْ هَذِهِ النُّظُمُ المَعْرِفِيَّةُ سِيَاسِيًّا وَإِيدِيُولُوجِيًّا لِتَكْوِينِ العَقْلِ العَرَبِيِّ ، بَلْ عَانَتْ مِنْ صِرَاعَاتٍ وَفُرُوقَاتٍ وَ - تَصَادُمٍ تُنَائِيٍّ (مُتْنِي - مُتْنِي) بَدَأَ مَعَ " البَيَانِ " وَ " البُرْهَانِ " وَبِصِيغَةٍ مُفْرَغَةٍ " الأَصْطِلَاحِ العَرَبِيِّ " وَ " الأَصْطِلَاحِ اليُونَانِيِّ " وَاسْتَشْهَدَ بِالمُنَاطَرَةِ الشَّهِيرَةِ بَيْنَ التَّحْوِيِّ وَالعُيُوبِيِّ السِّيْرَافِيِّ ، وَالمُنْطِقِيِّ أَبِي بَشْرٍ مَتْنِي ، الَّتِي أَمْتَعْنَا بِهَا التَّوْحِيدِي فِي كِتَابِهِ الأِمْتَاعِ وَالمُؤَانَسَةِ . ثُمَّ رَصَدَ التَّضَارُبَ القَائِمَ بَيْنَ " البُرْهَانِ " وَ " العُرْفَانِ " وَالَّذِي بَدَأَ مِنْ عَصْرِ التَّدْوِينِ ، وَتَضَخَّمَ فِي القَرْنِ 4 هـ مَعَ إِنْ سِينَا وَكُتِبَهُ الَّتِي رَدَّ فِيهَا عَلَى الفُلَّاسِفَةِ المَغْرِبِيِّينَ المُتَأَثِّرِينَ بِأَرِسْطُو اعْتِبَارًا مِنْ أَنَّهُ مُشْرِقِيٌّ تَهْجُ العُرْفَانِ - خَاصَّةً الهَرْمُسِيَّةِ - فِي فُلْسَفَتِهِ .

العقل العربي السياسي

نَتَقَلُّ هَذِهِ المَرَّةَ إِلَى كِتَابِ أُخَرَ مِنْ سِلْسِلَةِ نَقْدِ العَقْلِ العَرَبِيِّ عِنْدَ الجَابِرِيِّ وَهُوَ نَقْدُ العَقْلِ السِّيَاسِيِّ وَلِتَابِعِ وَنَقْرَأْ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ الجَابِرِيُّ فِي هَذَا المَجَالِ يَقُولُ : إِنَّ الرُّسُولَ الكَرِيمَ كَانَ يُؤْمِنُ بِإِيمَانًا عَمِيقًا لَا يَتَزَعَّرُ بِأَنَّ اللهَ يُوحِي إِلَيْهِ ، وَمُكَلِّفٌ بِتَبْلِيغِ رِسَالَةٍ ، كَمَا أَنَّ الجَمَاعَةَ الإِسْلَامِيَّةَ الأُولَى كَانَتْ تُصَدِّقُهُ

وَتُؤْمِنُ بِهِ بِوَصْفِهِ كَذَلِكَ . ثُمَّ إِنَّ الْإِسْلَامَ ، وَأَعْنِي الْأَسْتِجَابَةَ لِلدَّعْوَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، كَانَ شَرْطُهُ الضَّرُورِيُّ
وَالْكَافِي وَلَا يَزَالُ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرَةِ . وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ ، وَهُوَ الْمَرْجِعُ
الْمُعْتَمَدُ أَوْلًا وَأَخِيرًا ، مَا يُفِيدُ أَنَّ الدَّعْوَةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ دَعْوَةٌ تَحْمِلُ مَشْرُوعًا سِيАСِيًا مُعِينًا . نَعَمْ هُنَاكَ آيَةٌ
الْإِذْنُ بِالْقِتَالِ ، وَقَدْ نَزَلَتْ عِنْدَمَا كَانَ النَّبِيُّ يَسْتَعِدُّ لِلْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ بَعْدَ أَهْلِهَا عَلَى أَنْ يُنْصَرُوهُ
وَيُحَارِبُوا مَعَهُ أَذْنُ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرَةِ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقِّ إِلَّا
أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ ، وَلَوْلَا نَفْعُ اللَّهِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ صَوَامِعَ وَبَيْعَ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدَ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ
كَثِيرًا ، وَيُنْصَرُونَ اللَّهُ مِنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ، الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ
وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِيَهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (الْحَجَّحُ 22 / 39 - 41) . وَلَكِنَّ التَّمَكِينَ
وَالنَّصْرَ هُنَا هُمَا لِلدِّينِ وَلَيْسَ لِمَشْرُوعٍ سِيَاسِيٍّ يُمَكِّنُ الْحَدِيثَ عَنْهُ بِمَعْزَلٍ عَنِ الدِّينِ قُرَيْشٍ قَدْ قَرَأَتْهَا
مُنْذُ الْبِدَايَةِ قِرَاءَةً سِيَاسِيَّةً مُنْذُ بَدَايَةِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ ، وَهُمْ مَارَسُوا السِّيَاسَةَ ضِدَّهَا . أَنَّهُمْ رَأَوْا فِيهَا دَعْوَةً
تَسْتَهْدِفُ الْإِطَاحَةَ بِمَا كَانَ يُشَكِّلُ أَسَاسَ كِيَانِهِمُ الْاِقْتِصَادِيَّ ، وَبِالتَّالِي سُلْطَنَهُمُ السِّيَاحِيَّةُ بَلْ وَجُودُهُمْ
ذَاتِهِ إِنَّ الْهُجُومَ عَلَى الْأَصْنَامِ وَالدَّعْوَةَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَاحِدٍ ، حَتَّى وَلَوْ كَانَا صَادِرَيْنِ مِنْ مَوْقِعِ الْعَقِيدَةِ
فَقَطَّ كَمَا فَعَلَتْ الدَّعْوَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ ، مَعْنَاهُمَا الدَّعْوَةُ لِلْإِطَاحَةِ بِمَا كَانَ يُشَدُّ الْقَبَائِلَ الْعَرَبِيَّةَ إِلَى مَكَّةَ لِلْحَجِّ
وَمَا يَرْتَبِطُ بِهِ مِنْ تِجَارَةٍ ، وَبِالتَّالِي الْقَضَاءُ عَلَى مَصْدَرِ سُلْطَةِ قُرَيْشٍ ، سُلْطَتِهَا الْاِقْتِصَادِيَّةُ وَالسِّيَاسِيَّةُ .
هَذَا مِنْ جِهَةٍ ، وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ تَبْقَى الدَّعْوَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ سَلْبِيَّةً « أَمَامَ مُمَارَسَةِ
قُرَيْشِ السِّيَاسَةِ ضِدَّهَا ، بَلْ لَقَدْ كَانَ مِنَ الضَّرُورِيِّ ، وَهَذِهِ هِيَ سُنَّةُ الْحَيَاةِ ، أَنْ تُحَارِبَهَا بِنَفْسِ
سِلَاحِهَا ، أَوْ عَلَى الْأَقْلَ كَانَ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ أَنْ تَجْعَلَ السِّلَاحَ السِّيَاسِيَّ مِنْ جُمْلَةِ أَسْلِحَتِهَا . وَذَلِكَ مَا
حَصَلَ فِعْلًا . مَرَّتِ الدَّعْوَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ ، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ بِمَرَحَلَتَيْنِ رَيْسِيَّتَيْنِ فِي مَسَارِ تَطَوُّرِهَا مِنْ

مُجَرِّدِ الدَّعْوَةِ إِلَى تَأْسِيسِ دَوْلَةٍ : مَرَحَلَةُ مَكَّةَ وَمَرَحَلَةُ الْمَدِينَةِ . وَبِمَا أَنَّ الْقُرْآنَ قَدْ نَزَلَ مُنْجَمًا ، أُنِي مُتَقَسِّمًا إِلَى أَجْزَاءِ آيَاتٍ وَسُورٍ) نَزَلَتْ فِي مُعْظَمِهَا بِمُنَاسَبَةِ حَوَادِثٍ وَوَقَائِعٍ ، فَقَدْ انْتَقَسَمَ الْقُرْآنُ أَيْضًا إِلَى قِسْمَيْنِ قِسْمٍ نَزَلَ بِمَكَّةَ وَقِسْمٍ نَزَلَ بِالْمَدِينَةِ . كَانَتْ مَرَحَلَةُ الْمَدِينَةِ كَمَا سَتَرَى هِيَ مَرَحَلَةُ تَأْسِيسِ دَوْلَةٍ الْمُؤْمِنِينَ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ ، وَلِذَلِكَ كَانَ الْخِطَابُ فِيهَا إِلَى الَّذِينَ آمَنُوا بِهَا خَاصَّةً ، أُنِي إِلَى الْجَمَاعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي تَشَكَّلَتْ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ مُكَوَّنَةٌ نَوَاةً « الْأُمَّةِ الَّتِي قَامَتْ فِيهَا وَعَلَيْهَا » الدَّوْلَةُ » . أَمَّا فِي مَكَّةَ فَقَدْ كَانَ الْخِطَابُ فِيهَا بِصِيغَةٍ يَا أَيُّهَا النَّاسُ " خَاصَّةً ، وَالْمَقْصُودُ عَمَلِيًّا سُكَّانَ مَكَّةَ لَا بِوَصْفِهِمْ قَبَائِلَ بَلْ بِوَصْفِهِمْ أَفْرَادًا يُطَلَبُ مِنْهُمْ الْإِيمَانُ بِمُحَمَّدٍ (ص) وَبِمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ وَالْإِنْصِمَامَ إِلَى مَنْ سَبَقَهُمْ فِي الْإِيمَانِ ، إِلَى أَصْحَابِهِ أَوْ صَحَابَتِهِ ، الَّذِينَ كَانُوا قَدْ أَخَذُوا يُشْكَلُونَ الْجَمَاعَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ الْأُولَى .

دَوْرُ الْعَقِيدَةِ فِي تَكْوِينِ الْعَقْلِ السِّيَاسِيِّ الْعَرَبِيِّ

فِي هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ يَجِبُ أَنْ يَلْتَمَسَ أَسَاسًا عِنْدَ هَذِهِ الْجَمَاعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْأُولَى الَّتِي كَانَتْ جَمَاعَةً رُوحِيَّةً ، بِمَعْنَى أَنَّ الشَّيْءَ الْوَحِيدَ الَّذِي كَانَ يَرْبُطُ أَفْرَادَهَا بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ هُوَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ أَنَّ هَذَا لَا يَعْنِي أَنَّ الْعَقِيدَةَ ، لَمْ يَعْذُ لَهَا دَوْرٌ فِي مَرَحَلَةِ الْأُمَّةِ الدَّوْلَةِ فِي الْمَدِينَةِ . كَلَّا . كُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ هُوَ أَنَّهُ فِي الْمَرَحَلَةِ الْمَكِّيَّةِ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَا يَجْمَعُ بَيْنَ أَفْرَادِ الْجَمَاعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ آخِذَةً فِي التَّكْوِينِ غَيْرِ (الْعَقِيدَةُ » . أَمَّا وَالْقَبِيلَةَ وَالْغَنِيمَةَ ، خِلَالَ هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ - الْمَكِّيَّةِ - فَإِنَّ دَوْرَهُمَا كَانَ أَكْثَرَ تَأْثِيرًا وَيُرُوزًا فِي صُفُوفِ وَالْآخِرِ الْخَضَمِ الْمَلَأَ مِنْ قُرَيْشٍ . وَإِذَنْ « فَالْعَقْلُ السِّيَاسِيُّ الْعَرَبِيُّ كَانَ يَتَحَدَّدُ فِي الْمَرَحَلَةِ الْمَكِّيَّةِ مِنَ الدَّعْوَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ كَمَا يَلِي : الْعَقِيدَةُ فِي طَرَفٍ ، وَ « الْقَبِيلَةُ وَالْغَنِيمَةُ فِي طَرَفٍ

أخر . والصراع السياسي بين الطرفين كان في جملته ذلك غياباً مُطلقاً عبارة عن صراع « القبيلة » و « الغنيمية » ، ولكن دون أن العقيدة مع لها تين في صف العقيدة) . لقد كان لهما شكل من الحضور إيجابي بالنسبة ل « العقيدة إلى جانب دورهما الأساسي المضاد كما ستبين ذلك في حينه . أما الآن فهما في هذه المفرة أن تعرف على الكيفية التي مارست بها « العقيدة » دورها في تكوين الجماعة الإسلامية الأولى وعقلها السياسي . ولتناول التجربة العربية الإسلامية "تناولاً علمياً يرتقي في عمقه وشموله إلى المستوى الذي يجعله يعبر فعلاً عن خصوصية هذه التجربة " وقراءة تاريخها السياسي قراءة هادية وموضوعية يترح الجابري لهذه القراءة ثلاثة مفاتيح أساسية هي : - القبيلة : بكل ما تعنيه من قرابات " ذات الشحنة العصبية مثل الانتماء إلى مدينة أو جهة أو طائفة أو حزب ، حين يكون هذا الانتماء هو وحده الذي يعين به "الأنا" و "الأخر" في ميدان الحكم والسياسة "شعاره" "أنا وأخي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب" .

الغنيمية : بكل ما تعنيه من أدوار يقوم بها "العامل الاقتصادي في المجتمعات التي يكون فيها الاقتصاد قائماً أساساً - وليس بصورة مطلقة - على الخراج والربح "ويتلخص في معنى "الملك بالجند والجند بالمال" I . - العقيدة : جملة الرموز المحيالية التي تؤسس الاعتقاد والإيمان وتكون قادرة على تطير وتحريك الأفراد والجماعات سواء كانت "على شكل دين موحى به أو على صورة أيديولوجيا يثيد العقل صرحها" "من الوثنية إلى التوحيد ، من التنزيل إلى التأويل" .

شرح الجابري في القسم الأول من الكتاب الكيفية التي حضرت فيها القبيلة والغنيمية والعقيدة كمحددات أساسية للعقل السياسي العربي ابتداءً من مرحلة الدعوة المحمدية في مكة ونشأة الدولة

فِي الْمَدِينَةِ مُرُورًا بِمَرْحَلَةِ الرَّدَّةِ وَصُولاَ إِلَى الْفِتْنَةِ الْكُبْرَى مُنْبَهًا إِلَى مَا شَاعَ بَعْدَهَا مِنْ وُضْعِ لِلْأَحَادِيثِ
النَّبَوِيَّةِ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْ هَذِهِ الْمَحَدَّدَاتِ الثَّلَاثِ وَتَتَعَرَّضُ لِقَضَايَا السِّيَاسَةِ بِرُؤْيَا الْأُمُويِّينَ وَخُصُومُهُمْ وَهِيَ
"الْحَادِيثُ سِيَاسِيَّةٌ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ صَحِيحَةً لِتَنَاقُضِهَا بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ مِنْ جِهَةٍ وَلِعَارِضِهَا مَعَ الْخَلْقِيَّةِ
الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى " .

فِي الْقِسْمِ الثَّانِي مِنَ الْكِتَابِ بَيْنَ الْجَابِرِيِّ كَيْفَ أَنَّ الْعَقْلَ السِّيَاسِيَّ الْعَرَبِيَّ بَعْدَ الْفِتْنَةِ الْكُبْرَى قَدْ تَجَلَّى
فِي دَوْلَةِ "الْمَلِكِ" الَّتِي أَسَّسَهَا مُعَاوِيَةُ بِاعْتِبَارِهَا حَالَةَ انْتِقَالٍ مِنْ دَوْلَةِ الشُّورَى الَّتِي هِيَ دَوْلَةٌ يُؤَسَّسُ فِيهَا
الَّذِينَ السِّيَاسَةَ وَيُحْكِمُهَا ، تَكُونُ فِيهَا هَذِهِ الْأَخِيرَةَ (السِّيَاسَةُ) تَطْبِيقًا لِلَّذِينَ وَخَادِمِهِ لَهُ ، إِلَى دَوْلَةِ
الْمَلِكِ الْقَائِمَةِ عَلَى مَنْطِقِ الْقُوَّةِ وَالْعُلْبَةِ "دَوْلَةٌ جَدِيدَةٌ فِي الْإِسْلَامِ تَقُومُ عَلَى مَنْطِقِ "الْقَبِيلَةِ" الْخِلَافَةِ فِيهَا
"لَيْسَتْ لِلْعَرَبِ كُلِّهِمْ بَلْ لِقُرَيْشٍ فَقَطْ ، وَلَيْسَتْ لِقُرَيْشٍ كُلِّهِمْ بَلْ لِبَنِي عَبْدِ مَنَاةٍ وَحَدُهُمْ ، وَلَيْسَتْ لِبَنِي
عَبْدِ مَنَاةٍ كُلِّهِمْ بَلْ لِبَنِي أُمَيَّةٍ خَاصَّةً وَلِتَثْبِيَتِ مَنْطِقِ الْقَبِيلَةِ اتَّخَذَ بَنُو أُمَيَّةٍ "الْعُنَيْمَةَ" الْكُنْصُرِ تَخْفِيزِ
لِلْمُؤَالَيْنِ وَأَدَاءِ إِعْرَاءٍ لِلْمُعَارِضِينَ وَالتَّائِبِينَ وَكُلِّ ذَلِكَ مَسْنُودٌ بـ "عَقِيدَةُ" جَبْرِيَّةٌ لَا تَرَحُّمَ ، مُفَادَهَا مَا قَالَهُ
مُعَاوِيَةُ وَهُوَ بَصَدِّ أَحْذِ الْبَيْعَةَ لِابْنِهِ يَزِيدَ كَوَلِيِّ عَهْدٍ بَعْدِهِ "أَنَّ أَمْرَ يَزِيدَ قَضَاءٌ وَقَدْرٌ وَلَيْسَ لِلْعِبَادِ الْخَيْرَةَ
مِنْ أَمْرِهِمْ " . وَلَمَزِيدٍ تَثْبِيَتِ أَرْكَانِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الْمُتَغَلَّبَةِ قَالَ الْمُتَكَلِّمُونَ وَالْفُقَهَاءُ أَنَّ الْعَمَلَ لَيْسَ شَرْطًا
ضَرُورِيًّا فِي الْإِيمَانِ ، وَهُوَ قَوْلُ يُتَبَيُّ "الْخُلَفَاءُ الْأُمُويِّينَ الْمُتَهَمِينَ بِالظُّلْمِ وَالْفِسْقِ فِي دَائِرَةِ الْإِيمَانِ ، وَبِالتَّالِي
عَدَمِ جَوَازِ الثَّوْرَةِ ضِدَّهُمْ " أَنَّهُ تَأْسِيسُ جَدِيدٍ لِدَوْلَةٍ اسْتِبْدَادِيَّةٍ تَرْتَدِي جُنْبَةً وَضَعُ حَدِّ الْفِتْنَةِ مِنْ أَجْلِ
الْحِفَازِ عَلَى وُجُودِ الْأُمَّةِ كِكِيَانِ وَعَلَى الْإِسْلَامِ كِدِينِ . وَهُوَ مِنْ مَنْظُورِ الْجَابِرِيِّ تَمُوزِحٌ لِلدَّوْلَةِ بَقِي
سَائِدًا مُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ إِلَى الْيَوْمِ ، الْقَبِيلَةُ إِطَارُهُ ، وَالْعُنَيْمَةُ مُحَرِّكُهُ ، وَالْعَقِيدَةُ غَطَاؤُهُ الْإِيدِيُولُوجِي .

كَمَا اغْتَبَرَ الْجَابِرِيُّ أَنَّ ظُهُورَ نَظَرِيَّةِ الْإِمَامَةِ فِي الْفِكْرِ الشَّيْعِيِّ بَعْدَ حَسْمِ الصَّرَاحِ بَيْنَ عَلِيِّ وَمُعَاوِيَةَ لِصَالِحِ هَذَا الْأَخِيرِ كَانَتْ لَهُ دَوَافِعُ سِيَاسِيَّةٌ وَاضِحَةٌ بَدَأَتْ تَتَشَكَّلُ مَلَامِحَهَا مَعَ الْمُخْتَارِ بْنِ أَبِي عُبَيْدِ الثَّقَفِيِّ الَّذِي حَاوَلَ إِنْشَاءَ قُوَّةٍ عَسْكَرِيَّةٍ مِنْ عَامَّةِ النَّاسِ وَالْأَعَاجِمِ مِنْ أَجْلِ النَّارِ لِأَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ (ص) مِنْ بَنِي أُمِّيَّةٍ وَتَحْقِيقِ طُمُوحَاتِهِ السِّيَاسِيَّةِ ، فَأُطْلِقَ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (مُحَمَّدٌ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ) الْقَابَا كَثِيرَةً مِثْلَ "الْمَهْدِيِّ" وَ"وَارِثُ عُلُومِ السَّرِّ مِنْ أَبِيهِ" وَ"الْوَصِيِّ" مِمَّا فَتَحَ أَبَا وَاسِعًا لِاتِّقَالِ الْوَصِيَّةِ عَبْرَ أَشْخَاصٍ لَا تَرْبُطُهُمْ عِلَاقَةُ النَّسَبِ الطَّبِيعِيِّ ، فَادَّعَى كُلُّ مَنْ خَدَمَ إِمَامًا مِنْ الْأَئِمَّةِ أَنَّهُ أَوْصَى إِلَيْهِ وَأُورِثَهُ "الْعَلَمُ السَّرِّيُّ" الْأَمْرُ الَّذِي فَتَحَ أَبَا وَاسِعًا أَمَامَ الْمِيثُولُوجِيَا لِكَيْ تَعِيشَ وَتَزْدَهْرُ فِي أَوْسَاطِ الشَّيْعَةِ .

حَافِظَتْ الْمُعَارِضَةُ الشَّيْعِيَّةُ حَسَبَ الْجَابِرِيِّ عَلَى أَهَمِّ الْعُنَاصِرِ وَالْمَفَاهِيمِ الْمَكُونَةِ لِمِيثُولُوجِيَا الْإِمَامَةِ مِثْلَ الْوَصِيَّةِ ، الْعَلَمِ السَّرِّيِّ ، الْبَدَاءِ ، الْغَيْبَةِ ، الرَّجْعَةِ ، الْمَهْدِيَّةِ ، التَّيَّةِ ، الْعِصْمَةِ ، وَهِيَ مَفَاهِيمٌ تُؤَسِّسُ لِمُعَارِضَةٍ سِيَاسِيَّةٍ تَحْرُكُ مِخْيَالِ الْجَمَاهِيرِ وَتُعَبِّئُهُ ، مَقْصِدُهَا رَفْضُ "الْهَزِيمَةِ وَالْإِنْهَارِ" وَالتَّمَسُّكُ بِالْأَمَلِ .

فِي أَوَاخِرِ الْعَهْدِ الْأُمَوِيِّ وَمِنْ دَاخِلِ رَحِمِ الْفِكْرِ الشَّيْعِيِّ أَصْبَحَ الْعَبَّاسِيُّونَ فِي حَاجَةٍ "إِلَى نَظَرِيَّةٍ جَدِيدَةٍ تُؤَسِّسُ شَرْعِيَّةَ حُكْمِهِمْ ، حُكْمُهُمْ هُمْ وَحْدَهُمْ فَقَالُوا إِنَّ الْإِمَامَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ (ص) كَانَتْ لِلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَهُوَ عَمُّهُ وَوَارِثُهُ وَأَوْلَى النَّاسِ بِهِ ، لِأَنَّ الْعَمَّ أَحَقُّ بِالْوَرَاثَةِ مِنْ ابْنِ الْعَمِّ وَمِنْ أَبْنَاءِ الْبَنَاتِ (أَبْنَاءِ فَاطِمَةَ) حَافِظَ الْعَبَّاسِيُّونَ إِذْنًا عَلَى صُورَةِ الْإِمَامِ كَمَا رَسَمَتْهَا مِيثُولُوجِيَا الْإِمَامَةِ وَلِكِنَّهُمْ نَزَعُوا عَنْهَا الطَّابِعَ الشَّيْعِيَّ وَأَحَلُّوا مَحَلَّهُ الطَّابِعَ السُّنِّيَّ "لِتُصْبِحَ مَنزِلَةُ الْخَلِيفَةِ مَنزِلَةً تَقَعُ خَارِجَ مَنزِلِهِ" الْخَاصَّةَ وَتَعْلُو

عَلَيْهَا " . فَهِيَ بِذَلِكَ اِمْتِدَاد لثِقَافَةِ الْعُصُورِ الْقَدِيمَةِ وَالْوَسْطَى حَيْثُ كَانَتْ مَسْأَلَةُ اِنْزَالِ النَّاسِ مَنَازِلَهُمْ
هِيَ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الْعَدْلِ ، فَاصْبَحَ الْمَجْتَمَعُ الْعَبَّاسِيُّ مُجْتَمَعًا هَرَمِي الشَّكْلِ يَتَأَلَّفُ مِنْ مَنَازِلٍ ثَلَاثٍ :
الْخَلِيفَةُ فِي الْقِمَّةِ ، وَهِيَ مَكَانَةٌ حَدَدَهَا أَبُو جَعْفَرٍ الْمَنْصُورُ لِنَفْسِهِ فِي خُطْبَةٍ لَهُ يَوْمَ عَرَافَاتٍ قَالَ فِيهَا :
"أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا سُلْطَانُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ ، أَسْوَسَكُمْ بِتَوْفِيقِهِ وَتَسْديدِهِ ، وَأَنَا خَازِنُهُ عَلَى فَيْئِهِ اِعْمَلْ .
بِمَشِيئَتِهِ وَأَقْسَمُهُ بِإِرَادَتِهِ وَأُعْطِيَهُ بِإِذْنِهِ . قَدْ جَعَلَنِي اللَّهُ عَلَيْهِ قَوْلًا إِذَا شَاءَ أَنْ يَفْتَحَنِي لِأَعْطِيَاكُمْ
وَقَسَمَ فَيْئَكُمْ وَأَرْزَاقَكُمْ فَتَحْنِي ، وَإِذَا شَاءَ أَنْ يَقْلَبَنِي أَقْلَبْنِي " .

فِي هَذَا التَّقْسِيمِ الْهَرَمِيِّ لِلْمَجْتَمَعِ الْعَبَّاسِيِّ أَصْبَحَ الْخَلِيفَةُ فِي مَنْزِلِهِ عَلِيًّا لَا تُضَاهِيهَا مَنْزِلَةٌ ، فَهُوَ شَخْصٌ
اِخْتَارَهُ اللَّهُ لِيَتَصَرَّفَ بِإِرَادَةِ حُرَّةٍ هِيَ إِرَادَتُهُ وَهُوَ فِي مَنْزِلِهِ تَعْلُو عَلَى التَّشْبِيهِ وَالْمَحَاسَبَةِ فِي إِطَارِ
أَيْدِيُولُوجِيَا سُلْطَانِيَّةٍ مُطْلَقَةٍ "تَضَعُ الْخَلِيفَةُ فِي مَنْزِلِهِ الشَّخْصَ الْمَثَالَةَ . - الْخَاصَّةُ : وَهُمْ جُمْلَةُ الْوُزَرَاءِ
وَالْوَلَاةِ وَقَادَةِ الْجُنْدِ وَالْكَتَّابِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ وَالْفُقَهَاءِ الَّذِينَ يَخْدُمُونَ الْخَلِيفَةَ وَيُؤَسِّسُونَ لِمَنْطِقِ الدَّوْلَةِ
وَالْإِبْقَاءِ عَلَى الْأَمْرِ الْوَاقِعِ كَبَدِيلٍ عَنِ مَنْطِقِ الثَّوْرَةِ . لَخَّصَ إِنَّ الْمَقْصَدَ مِنْ هَذِهِ التَّخْبَةِ فِي عِلَاقَتِهَا
بِالْخُلَفَاءِ قَائِلًا "طَاعَتُهُمْ فِي الْمَكْرُوهِ عِنْدَكَ ، وَمُؤَافَقَتُهُمْ فِيمَا خَالَفَكَ ، وَتَقْدِيرُ الْأُمُورِ عَلَى أَهْوَائِهِمْ دُونَ
هَوَاكَ ، . . . وَالتَّزْيِينُ لِرَأْيِهِمْ وَعَلَى قَلَّةِ الْاسْتِغْبَاحِ لِمَا فَعَلُوا إِذَا أَسَاؤُوا ، . . . وَحُسْنُ السَّرِّ لِمَسَاوِيهِمْ
"تَشْكُرُهُمْ وَلَا تُكَلِّفُهُمُ الشُّكْرَ ، بِصِيرًا بِأَهْوَائِهِمْ ، مُؤَثِّرًا لِمَنَافِعِهِمْ ، ذَلِيلًا أَنْ ظَلَمُوكَ ، رَاضِيًا أَنْ أَسْخَطُوكَ
نُطِيعُ الْأُمَّةَ فِي كُلِّ أُمُورِنَا وَلَا نَقْتَسِ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَلَا مَعْصِيَتِهِ وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ مِنَّا عَلَيْهِمْ حَسِيْبًا ، هُمْ
وَلَاةُ الْأَمْرِ وَأَهْلُ الْعِلْمِ وَنَحْنُ الْإِتْبَاعُ وَعَلَيْنَا الطَّاعَةُ وَالتَّسْلِيمُ فَالْمَهْمَةُ الْأَسَاسِيَّةُ لِهَذِهِ الشَّرِيحَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ
الْوَسْطَى (الْخَاصَّةُ) هِيَ "حَمْلُ الْعَامَّةِ عَلَى طَاعَةِ الْأَمِيرِ . - الْعَامَّةُ : وَهُمْ الْجُنْدُ وَبَقِيَّةُ النَّاسِ .

يَرَى الْجَابِرِيُّ أَنَّ الْأَدَبِيَّاتِ السُّلْطَانِيَّةَ الَّتِي سَادَتْ فِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ هِيَ أَدَبِيَّاتٌ وَقَعَتْ نَقْلَهَا عَنْ
"الْأَدَبِيَّاتِ السُّلْطَانِيَّةِ الْفَارِسِيَّةِ سَادَ فِي إِطَارِهَا "اتِّجَاهُ الْمَمَائِلَةِ بَيْنَ اللَّهِ وَالْخَلِيفَةِ هَذِهِ الْمَمَائِلَةُ الَّتِي
تَحَوَّلُ فِي الْخُطَابِ الْأَدَبِيِّ إِلَى مُطَابَقَةٍ تَخْلَعُ فِيهَا عَلَى الْأَمِيرِ صِفَاتِ الْأَوْهِيَّةِ مُبَاشَرَةً فَالْعَقْلُ السِّيَاسِيُّ
الْعَرَبِيُّ انْطَلَقًا مِنْ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ مُرُورًا بِالْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ وَصُولاً إِلَى وَاقِعِنَا السِّيَاسِيِّ الرَّاهِنِ هُوَ عَقْلٌ
بَقِيَ حَسَبَ الْجَابِرِيِّ حَقْلُ التَّفَكِيرِ فِيهِ مُحَاصِرًا بِأَيْدِيُولُوجِيَّاتٍ لَا عَقْلِيَّةً هِيَ : أَيْدِيُولُوجِيَا الْجَبْرِ الْأُمَوِيِّ ،
وَأَيْدِيُولُوجِيَا التَّفَكِيرِ الْخَارِجِيِّ ، وَمِيثُولُوجِيَا الْإِمَامَةِ الشَّيْعِيَّةِ " . كَمَا بَقِيَثُ الْمُمَارَسَةُ السِّيَاسِيَّةُ الَّتِي
عَرَفَتْهَا الْحَضَارَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ تَكَرَّرَ نَفْسَهَا فِي إِطَارِ مُحَدَّدَاتٍ أَسَاسِيَّةٍ " هِيَ : الْقَبِيلَةُ ، الْغَنِيمَةُ ،
الْعَقِيدَةُ " مَعَ اخْتِلَافَاتٍ بَسِيطَةٍ بَقِيَثُ كَالزَّهْرَاتِ الْقَلِيلَةِ فِي حُقُولِ الشَّوْكَ الشَّاسِعَةِ ، لَمْ تُعَيَّرْ مِنْ طَبِيعَةِ
الْمَسَارِ الْعَامِ لِهَذِهِ الْمُمَارَسَةِ شَيْئًا ، حَيْثُ بَقِيَ الصَّدَامُ الْعَنِيفُ وَالْإِقْتِتَالُ هُوَ الْحَلُّ الْغَالِبُ بَيْنَ الْفِرَقَاءِ
السِّيَاسِيِّينَ سَبَبُهُ عَدَمُ إِقْرَارِ طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ مُقَنَّةٍ لَتَعْيِينِ الْخَلِيفَةِ وَعَدَمُ تَحْدِيدِ مَدَّةِ وِلَايَتِهِ وَعَدَمُ تَحْدِيدِ
اِخْتِصَاصَاتِهِ . وَبُضَيْفَ : فَالْعَقْلُ السِّيَاسِيُّ الْعَرَبِيُّ لَا يَتَحَكَّمُ فِيهِ شَكْلُ نِظَامِ الْحُكْمِ وَبُنُودِهِ الدَّسْتُورِيَّةِ
فَقَطُّ ، بَلْ هُوَ مُحَكَّمٌ أَسَاسًا بِمُحَدَّدَاتِ اجْتِمَاعِيَّةٍ وَاقْتِصَادِيَّةٍ وَتَقَافِيَّةٍ ، وَبِالِنِسْبَةِ لِّلْعَقْلِ السِّيَاسِيِّ الْعَرَبِيِّ
فَإِنَّ تَجْدِيدَ مُحَدَّدَاتِهِ الثَّلَاثَةِ (الْقَبِيلَةُ ، وَالْغَنِيمَةُ ، وَالْعَقِيدَةُ) شَرْطُ ضَرُورِيٍّ لِلارْتِفَاعِ إِلَى الْمُسْتَوَى الَّذِي
يَسْتَجِيبُ لِمَتَطَلَّبَاتِ التَّنْهَضَةِ وَالتَّقَدُّمِ فِي الْعَصْرِ الْحَاضِرِ .

أَنَّ تَجْدِيدَ الْمُحَدَّدَاتِ يَرَاهَا الْجَابِرِيُّ بِتَحْقِيقِ النَّفْيِ التَّارِيخِيِّ لَهَا وَذَلِكَ بِإِحْلَالِ الْبَدَائِلِ التَّارِيخِيَّةِ
الْمُعَاصِرَةِ ، مُوَكَّدًا عَلَى أَهْمِيَّةِ الْمُرَاجَعَةِ بَيْنَ نَقْدِ الْمَاضِي وَنَقْدِ الْحَاضِرِ بِمَا يَحْمِلُهُ مِنْ بَقَايَا الْمَاضِي ،
وَهَذِهِ هِيَ الْخُطْوَةُ الضَّرُورِيَّةُ الْأُولَى مِنْ كُلِّ مَشْرُوعٍ مُسْتَقْبَلِيٍّ ، هَكَذَا يَقُولُ الْجَابِرِيُّ . وَيَعُودُ لِيُوكِّدَ أَنَّ

الْمَاضِي وَالْحَاضِرِ عِنْدَنَا لَا يَنْفَصِلَانِ ، لِذَلِكَ وَجِبَ أَنْ يَتَّجِهَ التَّقْدِيرُ إِلَيْهِمَا مَعًا ، فَالْقَبِيلَةُ وَالْغَنِيمَةُ
وَالْعَقِيدَةُ الَّتِي حَكَمَتْ هَذَا الْعَقْلَ فِي الْمَاضِي ، مَا زَالَتْ تَحْكُمُهُ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ . فَالطُّمُوحُ
الْتَهْضُوبِيُّ كَانَ يَهْدِفُ إِلَى تَجَاوُزِ تِلْكَ الْمَحَدَّدَاتِ الْمُورُوثَةِ ، وَإِقْرَارِ مُحَدَّدَاتِ حَدِيثِهِ عَصْرِيَّةً ، إِلَّا أَنَّ
الْمُجْتَمَعَ الْعَرَبِيَّ لَمْ يَمَكِّنْ مِنْ تَحْقِيقِ عَمَلِيَّةِ التَّجَاوُزِ هَذِهِ ، لِأَسْبَابٍ وَعَوَامِلٍ كَثِيرَةٍ مِنْهَا الْأَسْتِعْمَارُ ،
وَكَذَلِكَ لِانْحِرَاطِهِ فِي الْحَدَاثَةِ مِنْ فَوْقِ . وَالتَّيْجَةُ ، وَكَمَا يَرَى الْجَابِرِيُّ ، مَا تَعَرَّضْنَا لَهُ مِنْ انْكِسَارَاتِ
وَإِخْبَاطَاتٍ فَتَحَتْ الْبَابَ عَلَى مِضْرَاعِيهِ لِعُودِهِ الْمُتَوَارِي الْمَكْبُوتِ ، أَيْ ظَهَرَتْ الْمَحَدَّدَاتُ الثَّلَاثَةُ
الْمُورُوثَةُ ، فَعَادَتْ الْقَبِيلِيَّةُ وَالطَّائِفِيَّةُ وَالتَّطْرُفُ الدِّينِيُّ وَالْعَقَائِدِيُّ ، لِيَسْوَدُوا السَّاحَةَ الْعَرَبِيَّةَ بِصُورَةٍ لَمْ
يَتَوَقَّعَهَا أَحَدٌ .

عُودٌ عَلَى بَدْءِ

حَانَ الْوَقْتُ لِلرَّدِّ عَلَى تَسْأُلِنَا وَهُوَ مَاذَا صَنَعَ الْعَقْلُ الْعَرَبِيُّ ؟

أَوَّلًا : لَقَدْ اسْتَدْعَى الْعَقْلُ الْعَرَبِيُّ فِي أَوَّلِ فُرْصَةٍ لَهُ حُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ هَذَا الْحُكْمَ الَّذِي يُقَوْمُ بِالْأَسَاسِ
عَلَى الْعَصَبِيَّةِ الْقَبِيلِيَّةِ وَهَذِهِ الْفُرْصَةُ كَانَتْ يَوْمَ وِفَاةِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبُوفَاتِهِ انْتَهَتْ سُلْطَنُهُ
الرُّوحِيَّةُ وَالرَّمَنِيَّةُ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ بَرَزَ دَوْرُ الْعَشِيرَةِ مُجَدَّدًا وَبِشْكَلٍ وَاضِحٍ عَلَى حِسَابِ الْعَقِيدَةِ فَوْسَطَ
الْجِدَالِ وَالتَّفَاشُ الَّذِي حَدَثَ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ لِاخْتِيَارِ الْخَلِيفَةِ وَضَعَ الْعَقْلُ الْعَرَبِيُّ عَلَى طَاوِلَةِ
الْمُفَاوَضَاتِ آنَذَاكَ سَلَّمَ لِأَوْلِيَاتِهِ لِاخْتِيَارِ هَذَا الْخَلْفِ أَوْ الْخَلِيفَةِ فَمِنْ جَانِبِ طَالِبِ الْأَنْصَارِ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ

الأحقية في هذا الأمر باعتبارهم حاملي شرف بناء دولة الإسلام التي قامت في مدينتهم وهم الذين أزرؤا الرسول الكريم وأيدوه إلى غير ذلك من الاعتبارات التي ترجح كفة المبدأ والعقيدة ونصرتها بينما كان للطرف الآخر رأياً آخر حين أكد المهاجرين حقهم في الخلافة وتحديدًا لقريش فهم أهله وصحبه وبني قومه وعشيرته ومن داخل هذا الصف كان علي بن أبي طالب طرفاً ثالثاً مستقلاً ينتظر أن يحظى بهذا المنصب بإجماع الآخرين على أساس أنه الطرف الأحق بسبب وحدة الدم والمصاهرة التي تربطه بالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وهو من بني هاشم فخر قريش .

في النهاية انتصرت العشيرة وحل الأمر مؤقتاً فالصراع على الخلافة لم ينتهي لكنه بقي خفياً ودموياً تسبب في مقتل الخلفاء الراشدين الثاني والثالث والرابع عمر وعثمان وعلي الأول قتل غيلة والثاني اغتاله العشيرة والرابع قتل بعد معارك عدة مع أبناء العمومة وانتصرت العشيرة انتصاراً ساحقاً على يد الأمويين الذين خلعوا أسس النظام الراشدي من أساسه وحولوه إلى نظام ملكي وراثي .

ثانياً : استطاع العقل الديني العربي في تلك الفترة تسخير العقيدة للدفاع عن الملك وظهر من يومها ما يعرف بفقهاء السطان وهدفه إعطاء الشرعية للحاكم بالاستناد إلى جملة من الفتاوى التي استندت باطلاً إلى النصوص القرآنية والحديث النبوي مما كان حافزاً ودافعاً لصناعة الأحاديث المختلفة المؤيدة لهذا الطرف أو ذاك والتي سماها الجابري (الأحاديث السياسية) والتي صيغت بعناية وأحكام وبذلك ظهر ما يعرف بالحديث الضعيف والمردود والإسرائيليات في السنة النبوية .

سننعرف على بعض هذه الفتاوى والأحكام التي صيغت لمسألة الخلافة والحكم :

(I) التَّعْرِيفُ بِالْخِلَافَةِ الْخِلَافَةِ ، وَالْإِمَامَةُ الْعُظْمَى ، وَإِمَارَةُ الْمُؤْمِنِينَ ثَلَاثُ كَلِمَاتٍ مَعْنَاهَا وَاحِدٌ ، وَهُوَ رِئَاسَةُ الْحُكُومَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْجَامِعَةِ لِمَصَالِحِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا . قَالَ الْعَلَمَاءُ الْأَصُولِيُّ الْمُحَقِّقُ السَّعْدِيُّ التَّنَازَلِيُّ فِي مَتْنِ مَقَاصِدِ الطَّالِبِينَ ، فِي عِلْمِ أُصُولِ عَقَائِدِ الدِّينِ : « الْفَضْلُ الرَّابِعُ أَيُّ مِنْ الْعَقَائِدِ السَّمْعِيَّةِ فِي الْإِمَامَةِ ، وَهِيَ رِئَاسَةُ عَامَّةٍ فِي أَمْرِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا خِلَافَةً عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَهَذَا تَعْرِيفٌ يُنَاقِضُ حَقِيقَةَ مَهْمَةِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ كَوْنِهِ نَبِيًّا يَحْمِلُ رِسَالَةَ سَمَاوِيَّةً وَلَيْسَ حَاكِمًا وَجِبَ أَنْ يَخْلُفَهُ أَحَدًا فِي حُكْمِهِ لَكِنَّ الرَّسُولَ الْكَرِيمَ بِحُكْمِ الْوَاقِعِ كَانَ وَلِيَّ أَمْرِهِمْ وَقَائِدِهِمْ وَلَا يَسْتَوْجِبُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَلِيفَةٌ بَلْ كَانَ عَلَيْهِمْ اخْتِيَارُ وَلِيٍّ أَمْرٍ يُسَيِّسُ دَوْلَتَهُمْ لِذَلِكَ سَمَّى نَفْسَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ . وَقَالَ الْعَلَمَاءُ الْفَقِيهُ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمَاوَرَدِيُّ فِي كِتَابِهِ الْأَحْكَامُ السُّلْطَانِيَّةَ : الْإِمَامَةُ مَوْضُوعَةٌ لِخِلَافَةِ النَّبُوَّةِ فِي حِرَاسَةِ الدِّينِ وَسِيَاسَةِ الدُّنْيَا . وَكَلَامٌ سَائِرٌ عُلَمَاءِ الْعَقَائِدِ وَالْفُقَهَاءِ مِنْ جَمِيعِ مَذَاهِبِ أَهْلِ السُّنَّةِ لَا يَخْرُجُ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى ، إِلَّا أَنَّ الْإِمَامَ الرَّازِيَّ زَادَ قَيْدًا فِي التَّعْرِيفِ ، فَقَالَ : هِيَ رِئَاسَةُ عَامَّةٍ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا لِشَخْصٍ وَاحِدٍ مِنْ الْأَشْخَاصِ ، وَلَا أَذْرِي هُنَا كَيْفَ سَيَكُونُ الْخَلِيفَةُ رِئِيسًا عَامًّا لِلدِّينِ وَنَحْنُ هُنَا أَمَامٌ دَوْلَةٌ اتَّخَذَتْ مِنَ الْقُرْآنِ دُسْتُورًا وَمَرْجِعًا لَهَا وَتَضَمَّنَ كُلُّ الشَّرِيعَةِ وَالتَّشْرِيعَاتِ الْخَاصَّةِ بِالنَّاسِ أَيُّ الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ فَهَلْ يَقُودُ هَذِهِ الشَّرِيعَةُ وَالِدِّينِ أَمْ يَسْهَرُ عَلَى تَنْفِيدِ أَحْكَامِهِمْ .

(2) حُكْمُ الْإِمَامَةِ أَوْ نُسْبِ الْخَلِيفَةِ أَجْمَعَ سَلَفُ الْأُمَّةِ ، وَأَهْلُ السُّنَّةِ ، وَجُمْهُورُ الطَّوَائِفِ الْأُخْرَى عَلَى أَنَّ نُسْبَ الْإِمَامِ أَيُّ تَوْثِيئِهِ عَلَى الْأُمَّةِ وَاجِبٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ شَرْعًا لَا عَقْلًا فَقَطْ ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الْمُعْتَزَلَةِ وَاسْتَدَلُّوا بِأُمُورٍ لَخَّصَهَا السَّعْدِيُّ فِي مَتْنِ الْمَقَاصِدِ بِقَوْلِهِ : لَنَا وَجُوهٌ ؛ (الْأَوَّلُ) الْإِجْمَاعُ ، وَبَيَّنَ فِي الشَّرْحِ

أَنَّ الْمُرَادَ إِجْمَاعَ الصَّحَابَةِ ؛ قَالَ : وَهُوَ الْعُمْدَةُ ، حَتَّى قَدَّمُوهُ عَلَى دَفْنِ النَّبِيِّ ؟ . (الثَّانِي) أَنَّهُ لَا يَسْمُ إِلَّا بِهِ مَا وَجِبَ مِنْ إِقَامَةِ الْحُدُودِ وَسَدِّ الثُّغُورِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِحِفْظِ النَّظَامِ . (الثَّلَاثُ) أَنَّ فِيهِ جَلْبَ مَنَافِعٍ وَدَفْعَ مَضَارٍّ لَا تُحْصَى ، وَذَلِكَ وَاجِبٌ إِجْمَاعًا . (الرَّابِعُ) وَجُوبُ طَاعَتِهِ ، وَمَعْرِفَتُهُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَهُوَ يَقْتَضِي وَجُوبَ حُصُولِهِ وَذَلِكَ بِنَصْبِهِ ا . ه . وَمَعْنَى الْأَخِيرِ أَنَّ مَا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ مِنْ وَجُوبِ طَاعَتِهِ فِي الْمَعْرُوفِ شَرْعًا ، وَوُجُوبِ مَعْرِفَتِهِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَكَوْنَهَا مِنْ أَهَمِّ شُرُوطِهِ يَقْتَضِي أَنْ نَصْبُهُ وَاجِبٌ شَرْعًا ، وَقَدْ أَطَالَ السَّعْدُ فِي شَرْحِ الْمَقَاصِدِ فِي بَيَانِ هَذِهِ الْوُجُوهِ ، وَمَا اغْتَرَضَ بِهِ بَعْضُ الْمُبْتَدِعَةِ الْمُخَالَفُونَ عَلَيْهَا ، وَالْجَوَابُ عَنْهَا . وَقَدْ غَفَلَ هُوَ وَأَمْثَالُهُ عَنِ الْأَسْتِدْلَالِ عَلَى نُسْبِ الْإِمَامِ بِالْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الْوَارِدَةِ فِي الزَّامِ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامُهُمْ ، وَفِي بَعْضِهَا التَّصْرِيحُ بِأَنَّ « مِنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً . » رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ لَابْنِ عُمرَ مَرْفُوعًا ، وَسَيَأْتِي حَدِيثُ حُذَيْفَةَ الْمُتَّفِقِ عَلَيْهِ ، وَفِيهِ قَوْلُهُ ؟ لَهُ : « تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامُهُمْ . »

مِنْ يَنْصَبُ الْخَلِيفَةَ وَيَعْرِلُهُ ؟

اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ نُسْبَ الْخَلِيفَةِ فَرَضَ كِفَايَةً ، وَأَنَّ الْمَطَالِبَ بِهِ أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ فِي الْأُمَّةِ ، وَوَأَفَقَهُمُ الْمُعْتَرِلَةَ وَالْجَوَارِحَ عَلَى أَنَّ الْإِمَامَةَ تَتَعَقَّدُ بِبَيْعَةِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ ، وَلَكِنْ اضْطَرَبَ كَلَامُ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ فِي أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ : مِنْ هَمَّ ؟ وَهَلْ تَشْتَرِطُ مَبَايَعَتُهُمْ كُلَّهُمْ أَمْ يَكْفِي بَعْدُ مُعَيِّنٍ مِنْهُمْ ؟ أَمْ لَا يَشْتَرِطُ الْعَدَدُ ؟ وَكَانَ يُنْبَغِي أَنْ تَكُونَ تَسْمِيَتُهُمْ بِأَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ مَانِعَةً مِنَ الْخِلَافِ فِيهِمْ ؛ إِذِ الْمُبَادِرُ مِنْهُ أَهْمُ زُعَمَاءِ الْأُمَّةِ وَأَوْلُو الْمَكَانَةِ وَمَوْضِعِ الثَّقَةِ مِنْ سَوَادِهَا الْأَعْظَمِ ، بِحَيْثُ تَتَّبِعُهُمْ فِي طَاعَةٍ مِنْ يُؤَلِّقُهُ

عَلَيْهَا فَيَنْتَظِمُ بِهِ أَمْرُهَا ، وَيَكُونُ بِمَا مَنُ مِنْ عِضْيَاتِهَا وَخُرُوجِهَا عَلَيْهِ ، قَالَ السَّعْدُ فِي شَرْحِ الْمَقَاصِدِ
كَغَيْرِهِ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ وَالْفُقَهَاءِ : هُمُ الْعُلَمَاءُ وَالرُّؤَسَاءُ وَوُجُوهُ النَّاسِ ، زَادَ فِي الْمِنْهَاجِ لِلتَّوَوِي الَّذِي يَبْسُرُ
اجْتِمَاعُهُمْ ، وَعَلَّلَهُ شَارِحَةُ الرَّمْلِيِّ بِقَوْلِهِ : لِأَنَّ الْأَمْرَ يَنْتَظِمُ بِهِمْ وَيَتَّبِعُهُمْ سَائِرُ النَّاسِ ، وَهَذَا التَّغْلِيلُ هُوَ
غَايَةُ التَّحْقِيقِ مَنْطُوقًا وَمَفْهُومًا ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ الْمُبَايَعُونَ بِحَيْثُ تَتَّبِعُهُمُ الْأُمَّةُ ، فَلَا تَتَّعِدُ الْإِمَامَةَ بِمُبَايَعَتِهِمْ ،
وَعَاطَ بَعْضُ الْمُعْزَلَةِ وَالْفُقَهَاءِ ، فَقَالُوا : إِنَّ التَّبِيعَةَ تَتَّعِدُ دَائِمًا بِخَمْسَةِ مَنْ يَصْلُحُ لِلْإِمَامَةِ بِدَلِيلٍ مَا أَشَارَ
بِهِ عُمَرُ ، إِذْ حَصَرَ الشُّورَى فِي السَّنَةِ الْمُرْشَحِينَ ، وَقَبْلَ جَمِيعِ الصَّحَابَةِ مِنْهُ ذَلِكَ فَكَانَ إِجْمَاعًا . نَعَمْ
كَانَ إِجْمَاعًا عَلَى الشُّورَى وَعَلَى أَوْلَئِكَ السَّنَةِ فِي تِلْكَ الْوَاقِعَةِ ، لَا إِجْمَاعًا عَلَى ذَلِكَ الْعَدَدِ فِي كُلِّ
مُبَايَعَةٍ ، وَقَالُوا : إِنَّ مَذْهَبَ الْأَشْعَرِيِّ أَنَّهَا تَتَّعِدُ بِعَقْدٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِذَا كَانَ بِمَشْهَدٍ مِنَ الشُّهُودِ ، وَهُوَ
عَاطٌ أَوْضَحَ . وَقَدْ ذَكَرَ هَذَا الْقَوْلَ الْفُقَهَاءُ مُقْبِدًا بِمَا إِذَا انْحَصَرَ الْحُلُّ وَالْعَقْدُ فِيهِ بِأَبْنٍ وَثِقَ زُعَمَاءُ
الْأُمَّةِ بِهِ ، وَقَوَّضُوا أَمْرَهُمْ إِلَيْهِ ، وَهَذَا لَمْ يَقَعْ وَيَنْدُرُ أَنْ يَقَعْ ، وَإِمَامَةُ عُثْمَانَ لَمْ تَكُنْ بِمُبَايَعَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
بُنِ عَوْفٍ وَحُدِّهِ ، بَلْ كَانَتْ عَامَّةً لَا خَاصَّةً بِهِ ، وَكَذَلِكَ مُبَايَعَةُ عُمَرَ لِأَبِي بَكْرٍ ، فَإِنَّ الْإِمَامَةَ لَمْ تَتَّعِدْ
بِمُبَايَعَتِهِ وَحُدِّهِ بَلْ بِمُبَايَعَةِ الْجَمَاعَةِ لَهُ ، وَقَدْ صَحَّ أَنَّ عُمَرَ أَنْكَرَ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ التَّبِيعَةَ تَتَّعِدُ بِوَاحِدٍ مِنْ
غَيْرِ مُشَاوَرَةِ الْجَمَاعَةِ ، وَكَانَ بَلَّغُهُ هَذَا الْقَوْلِ فِي اثْتِنَاءِ حُجِّهِ ، فَعَزَمَ عَلَى بَيَانِ حَقِيقَةِ أَمْرِ الْمُبَايَعَةِ وَمَا
يَشْتَرِطُ فِيهَا مِنَ الشُّورَى عَلَى جَمَاهِيرِ الْحُجَّاجِ ، فَذَكَرَهُ بَعْضُهُمْ بِأَنَّ الْمَوْسِمَ يَجْمَعُ أَخْلَاطَ النَّاسِ ، وَمَنْ
لَا يَفْهَمُونَ الْمَقَالُ ، فَيَطِيرُونَ بِهِ كُلُّ مَطَارٍ ، وَأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُرْجَى هَذَا الْبَيَانُ إِلَى أَنْ يُعُودَ إِلَى الْمَدِينَةِ ،
فَيَلْقِيَهُ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ وَالرَّأْيِ فَفَعَلَ . قَالَ عَلَى مِنْبَرِ الرَّسُولِ ؟ : بَلَّغْنِي أَنَّ قَائِلًا مِنْكُمْ يَقُولُ : وَاللَّهِ لَوْ
مَاتَ عُمَرُ لَبَايَعْتُ فَلَانًا . فَلَا يَغْرَنُ امْرُؤٌ أَنْ يَقُولَ : إِنَّ بَيْعَةَ أَبِي بَكْرٍ كَانَتْ فَلْتَةً فَتَمَّتْ ، أَلَا وَهَاتَا قَدْ
كَانَتْ كَذَلِكَ وَلَكِنَّ وَقَى اللَّهُ شَرَّهَا ، وَنَيْسَ فِيكُمْ مَنْ تَقَطَّعَ إِلَيْهِ الْأَعْنَاقُ مِثْلَ أَبِي بَكْرٍ ، مِنْ بَايَعِ رَجُلًا مِنْ

غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَلَا يُبَاعِ هُوَ وَلَا الَّذِي بَاعَهُ تَغْرَهُ أَنْ يُقْتَلَ . ثُمَّ سَاقَ خَيْرُ بَيْعَةِ أَبِي بَكْرٍ وَمَا كَانَ يَخْشَى مِنْ وَقُوعِ الْفِتْنَةِ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، لَوْلَا تِلْكَ الْمُبَادَرَةُ بِمُبَايَعَتِهِ لِلثَّقَةِ بِقَبُولِ سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ ، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ . وَقَدْ أَقْرَتْ جَمَاعَةُ الصَّحَابَةِ عُمَرَ عَلَى ذَلِكَ فَكَانَ إِجْمَاعًا . فَتَحَرَّرَ بِهَذَا أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْمُبَايَعَةِ أَنْ تَكُونَ بَعْدَ اسْتِشَارَةِ جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ ، وَاخْتِيَارِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ ، وَلَا تَعْتَبَرُ مُبَايَعَةُ غَيْرِهِمْ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تَبَعًا لَهُمْ ، وَإِنْ عَمَلَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَالَفَ هَذَا الْأَصْلَ الْقَطْعِيَّ ، فَكَانَ فَلْتَةً لِمُقْتَضَيَاتِ خَاصَّةٍ لَا أَصْلًا شَرْعِيًّا يَعْمَلُ بِهِ ، وَمَنْ تَصَدَّى لِمَثَلِهِ فَبَاعَ أَحَدًا فَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ هُوَ وَلَا مِنْ بَاعِهِ أَهْلًا لِلْمُبَايَعَةِ ، بَلْ يَكُونُ ذَلِكَ تَغْرِيرًا بِنَفْسِهِمَا قَدْ يُفْضِي إِلَى قَتْلِهِمَا إِذَا أُحْدِثَ فِي الْأُمَّةِ شِقَاقًا يُوجِبُهُ .

سُلْطَةُ الْأُمَّةِ وَمَعْنَى الْجَمَاعَةِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي وَصْفِ الْمُؤْمِنِينَ : وَأَمْرُهُمْ شُورَى ؟ بَيْنَهُمْ . وَالْقُرْآنُ يُخَاطِبُ جَمَاعَةَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْأَحْكَامِ الَّتِي يُشْرَعُهَا حَتَّى أَحْكَامِ الْقِتَالِ وَنَحْوَهَا مِنْ الْأُمُورِ الْعَامَّةِ ، الَّتِي لَا تَتَعَلَّقُ بِالْأَفْرَادِ ، وَقَدْ أَمَرَ بِطَاعَةِ أَوْلِيِّ الْأَمْرِ وَهُمْ الْجَمَاعَةُ لِأَوْلِيِّ الْأَمْرِ ، وَذَلِكَ إِنْ وَلِيَ الْأَمْرَ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ، وَإِنَّمَا يُطَاعُ بِتَأْيِيدِ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ بَاعُوهُ لَهُ وَتَقَتُّهُمْ بِهِ ، وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى مَا وَرَدَ مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ فِي التَّرَامِ الْجَمَاعَةِ ، وَكَوْنِ طَاعَةِ الْأَمِيرِ تَابِعَةً لِطَاعَتِهِمْ وَاجْتِمَاعِ الْكَلِمَةِ بِسُلْطَتِهِمْ كَحَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ : « مِنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ ، فَإِنَّ مِنْ

فَارِقِ الْجَمَاعَةَ شَبْرًا فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً . « وَلَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ؟ حُذِفَتْ بِنُ الْيَمَانِ بِمَا يُكُونُ فِي
الْأُمَّةِ مِنَ الْفِتَنِ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الْمَشْهُورِ ، قَالَ : فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ ؟ قَالَ ؟ : « تُلْزِمُ
جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ . » قَالَ : قُلْتُ : فَإِنَّ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ ؟ قَالَ : « فَاعْتَزَلْ نَتِكَ
الْفِرْقِ كُلِّهَا » ... إلخ . وَفِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ بَيَانُ أَنَّ الْجَمَاعَةَ هُمُ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ ، أَيُّ : بِالنِّسْبَةِ إِلَى
صَدْرِ الْإِسْلَامِ . وَمِنْ الْأَدِلَّةِ عَلَى سُلْطَةِ الْأُمَّةِ وَاسْتِدْلَاؤِهَا بِهِ عَلَى الْإِجْمَاعِ حَدِيثٌ : « لَا تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَى
ضَلَالَةٍ وَفِي لَفْظٍ لَنْ تَجْتَمِعَ وَفِي رِوَايَةٍ زِيَادَةٌ : وَيَدُ اللَّهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ فَمِنْ شَدَّ شَدَّ فِي النَّارِ . » وَفِي
أُخْرَى : « سَأَلْتُ رَبِّي أَلَّا تَجْتَمِعَ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ وَأَعْطَانِيهَا . » وَهُوَ فِي مَسْنَدِ أَحْمَدَ وَجَامِعِ
الْتِّرْمِذِيِّ وَالْكَبِيرِ لِلطَّبْرَانِيِّ وَمُسْتَدْرِكِ الْحَاكِمِ . قَالَ الطَّبْرِيُّ بَعْدَ ذِكْرِ الْخِلَافِ فِي الْجَمَاعَةِ ، وَمِنْهُ حَضَرَ
بَعْضُهُمْ إِيَّاهُ فِي الصَّحَابَةِ : وَالصَّوَابُ لِرُؤْمِ الْجَمَاعَةِ الَّذِينَ فِي طَاعَةٍ مِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى تَأْمِيرِهِ ، فَمِنْ نَكَتْ
بِعِنْتِهِ خَرَجَ عَنِ الْجَمَاعَةِ ، (قَالَ) : وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ مَتَى لَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ إِمَامٌ فَافْتَرَقَ النَّاسُ أَحْزَابًا ،
فَلَا يَسْبَعُ أَحَدًا فِي الْفِرْقَةِ ، وَيَعْتَزِلُ الْجَمِيعُ إِنْ اسْتَطَاعَ ذَلِكَ خَشْيَةً مِنَ الْوُقُوعِ فِي الشَّرِّ . هـ . نَقَلَهُ عَنْهُ
الْحَافِظُ فِي شَرْحِ الْبُحَارِيِّ وَأَقْرَهُ . هُوَ لِأَنَّ الْجَمَاعَةَ هُمُ أَوْلُو الْأَمْرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلُ الْحَلِّ وَالْعُقْدِ
وَالْإِجْمَاعِ الْمَطَاعِ ، وَمِنْهُمْ كِبَارُ الْحُكَمَاءِ ، وَأَهْلُ الشُّرُورِ لَدَى الْإِمَامِ ، وَمَتَى خُوِطِبَ الْمُؤْمِنُونَ فِي الْكُتَابِ
وَالسُّنَّةِ وَأَثَارِ الصَّحَابَةِ فِي أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ الْعَامَّةِ ، فَهَمُ الْمَعْنِيُّونَ الْمُطَالِبُونَ بِتَنْفِيزِ الْأَمْرِ ، وَمُرَاقِبَةُ الْمَنْفَعِ ،
وَمِنْ الْأَثَارِ الدَّالَّةِ عَلَى الْإِجْمَاعِ فِي ذَلِكَ قَوْلُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي خُطْبَتِهِ الْأُولَى بَعْدَ الْمُبَايَعَةِ :
أَمَّا بَعْدَ فَقَدْ وُلِّيتَ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ ، فَإِذَا اسْتَقَمَّتْ فَأَعِينُونِي ، وَإِذَا زَعَتْ فَتَقْوَمُونِي . وَرَوَى
نَحْوَهُ عَنْ عُمَرَ وَعُثْمَانَ ، وَهُمْ الَّذِينَ فَرَضُوا لَهُ رَاتِبَ الْخِلَافَةِ كَرَجُلٍ مِنْ أَوْسَاطِ الْمُهَاجِرِينَ لَا أَعْلَاهُمْ وَلَا
أَدْنَاهُمْ .

وَفِي مَنِّ الْمَوَاقِفِ لِلْعُضْدِ : وَلِلْأُمَّةِ خُلْعِ الْإِمَامِ وَعَزْلِهِ بِسَبَبِ يُوجِبُهُ ، وَإِنَّ أَدَى إِلَى الْفِتْنَةِ اِحْتَمَلَ أَدْنَى الْمُضَرَّتَيْنِ ١ . ه . وَقَالَ شَارِحَةُ السَّيِّدِ الْجُرْجَانِيِّ فِي بَيَانِ السَّبَبِ : مَثَلُ أَنْ يُوجَدَ مِنْهُ مَا يُوجِبُ اِخْتِلَالَ أَحْوَالِ الْمُسْلِمِينَ ، وَاتِّكَاسَ أُمُورِ الدِّينِ ، كَمَا كَانَ لَهُمْ نَصَبُهُ وَإِقَامَتَهُ لِانْتِظَامِهَا وَإِعْلَانِهَا ١ . ه ، وَسَيَأْتِي مَثَلُهُ لِإِمَامِ الْحَرَمَيْنِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي التَّعْرِيفِ بِالْخِلَافَةِ قَوْلَ الرَّازِيِّ : إِنَّ الرِّئَاسَةَ الْعَامَّةَ هِيَ حَقُّ الْأُمَّةِ الَّتِي لَهَا أَنْ تَعَزَلَ الْإِمَامَ (الْخَلِيفَةَ) إِذَا رَأَتْ مُوجِبًا لِعَزْلِهِ ، وَقَدْ فَسَّرَ السَّعْدُ مَعْنَى هَذِهِ الرِّئَاسَةِ ؛ لِئَلَّا تَسْتَشْكَلَ فَيَقَالُ : إِذَا كَانَتْ الرِّئَاسَةُ لِلْأُمَّةِ فَمِنْ الْمَرْوُوسِ ؟ فَقَالَ : إِنَّهُ يُرِيدُ بِالْأُمَّةِ أَهْلَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ ، أَيُّ : الَّذِينَ يُمَثِّلُونَ الْأُمَّةَ بِمَا لَهُمْ فِيهَا مِنَ الزَّعَامَةِ وَالْمَكَانَةِ ، وَرِئَاسَتُهُمْ تَكُونُ عَلَى مَنْ عَدَاهُمْ أَوْ عَلَى جَمِيعِ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ ، وَالثَّانِي هُوَ الصَّحِيحُ ، وَيُؤَيِّدُهَا تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ لِأَوْلِي الْأَمْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ (التَّسَاءُ : 59) ، فَقَدْ حَقَّقَ أَنَّ الْمُرَادَ بِأَوْلِي الْأَمْرِ أَهْلَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ الَّذِينَ يُمَثِّلُونَ سُلْطَةَ الْأُمَّةِ ، وَقَدْ تَابَعَهُ عَلَى هَذَا النَّيْسَابُورِيُّ وَاحْتَارَهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ ، وَوَضَحْنَاهُ فِي التَّفْسِيرِ مُسْتَدَلِّينَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أَوْلِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ (التَّسَاءُ : 83) ، وَمِنْ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ أَوْلِي الْأَمْرِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ الرَّسُولِ يَرُدُّ إِلَيْهِمْ مَعَهُ أَمْرَ الْأَمْنِ وَالْخَوْفِ وَمَا أَشْبَهَهُمَا مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ ، لَيْسُوا عُلَمَاءَ الْفِقْهِ وَلَا الْأَمْرَاءَ وَالْحُكَّامَ ، بَلْ أَهْلُ الشُّورَى مِنْ زُعَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ .

(5) شُرُوطُ أَهْلِ الْإِخْتِيَارِ لِلْخَلِيفَةِ

اشْتَرَطَ الْعُلَمَاءُ فِي جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ أَهْلَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ شُرُوطًا بَيْنَهَا الْمَاوَرَدِيُّ فِي الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ بِقَوْلِهِ : (فَضْلٌ) فَإِذَا ثَبَتَ وَجُوبُ الْإِمَامَةِ ، فَفَرَضَهَا عَلَى الْكِفَايَةِ لِجِهَادِ وَطَلَبِ الْعِلْمِ ، فَإِذَا قَامَ بِهَا

مِنْ هُوَ أَهْلُهَا سَقَطَ فَرَضُهَا عَنِ الْكَافَّةِ ، وَإِنْ لَمْ يُقَمْ بِهَا أَحَدٌ حَرَجَ مِنَ النَّاسِ فَرِيقَانِ ، أَحَدُهُمَا : أَهْلُ
 الْإِخْتِيَارِ حَتَّى يُخْتَارُوا إِمَامًا لِلْأُمَّةِ ، وَالثَّانِي : أَهْلُ الْإِمَامَةِ حَتَّى يَنْتَصِبَ أَحَدُهُمْ لِلْإِمَامَةِ . فَأَمَّا أَهْلُ
 الْإِخْتِيَارِ فَالشُّرُوطُ الْمُعْتَبَرَةُ فِيهِمْ ثَلَاثَةٌ ؛ أَحَدُهَا : الْعَدَالَةُ الْجَامِعَةُ لِشُرُوطِهَا ، وَالثَّانِي : الْعِلْمُ الَّذِي
 يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْإِمَامَةَ عَلَى الشُّرُوطِ الْمُعْتَبَرَةِ فِيهَا ، وَالثَّلَاثُ : الرَّأْيُ وَالْحِكْمَةُ الْمُؤَدِّيَانِ
 إِلَى الْإِخْتِيَارِ مَنْ هُوَ لِلْإِمَامَةِ أَصْلِحُ ، وَبِتَدْبِيرِ الْمَصَالِحِ أَقْوَمُ وَأَعْرِفُ ، وَلَيْسَ لِمَنْ كَانَ فِي بَلَدِ الْإِمَامِ عَلَى
 غَيْرِهِ مِنْ أَهْلِ الْبِلَادِ فَضْلٌ مَرْتَبَةً يُقَدَّمُ بِهَا عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا صَارَ مَنْ يَحْضُرُ بِلَدِ الْإِمَامِ مُتَوَلِيًا لِعَقْدِ الْإِمَامَةِ عُرْفًا
 وَشَرْعًا ، لَسُبُوقِ عِلْمِهِمْ بِمَوْتِهِ ؛ وَلِأَنَّ مَنْ يَصْلُحُ لِلْإِمَامَةِ فِي الْأَغْلَبِ مَوْجُودُونَ فِي بَلَدِهِ . هـ (قَتَحُ
 الْبَارِي) . أَقُولُ : لِهَذِهِ الشُّرُوطِ مَاخَذٌ مِنْ هَدْيِ السَّلَفِ ، فَقَدْ قَالَ الطَّبْرِيُّ : لَمْ يَكُنْ فِي أَهْلِ الْإِسْلَامِ
 أَحَدٌ لَهُ مِنَ الْمُنْزَلَةِ فِي الدِّينِ وَالْهَجْرَةِ وَالسَّابِقَةِ وَالْعَقْلِ وَالْعِلْمِ ، وَالْمَعْرِفَةِ بِالسِّيَاسَةِ ، مَا لِلسَّيِّئَةِ الَّذِينَ جَعَلَ
 عُمَرُ الْأَمْرَ شُورَى بَيْنَهُمْ . هـ . أَمَّا الْعَدَالَةُ الَّتِي هِيَ الشَّرْطُ الْأَوَّلُ ؛ فَهِيَ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ عِبَارَةٌ عَنِ التَّحَلِّيِ
 بِالْفَرَائِضِ وَالْفَضَائِلِ ، وَالتَّحَلِّيِ عَنِ الْمَعَاصِي وَالرَّذَائِلِ ، وَعَمَّا يُخَلُّ بِالْمَرْوَةِ أَيْضًا ، وَاشْتَرَطَ بَعْضُهُمْ فِيهَا
 أَنْ تَكُونَ مَلَكََةً لَا تَكْلِفُ ، وَلَكِنَّ التَّكْلِفَ إِذَا التَزَمَ صَارَ خُلُقًا .

وَأَمَّا الْعِلْمُ فَيَعْنُونَ بِهِ عِلْمَ الدِّينِ وَمَصَالِحِ الْأُمَّةِ وَسِيَاسَتِهَا ، وَإِذَا أَطْلَقُوهُ كَانَ الْمُرَادُ بِهِ الْعِلْمُ الْأَسْتِقْلَالِيُّ
 الْمُعْبَرُ عَنْهُ بِالْإِجْتِهَادِ ، وَيَفْهَمُ مِنْ كَلَامِ بَعْضِهِمْ أَنَّ الْإِجْتِهَادَ فِي الشَّرْعِ شَرْطٌ فِي مَجْمُوعِهِمْ لَا فِي كُلِّ فَرْدٍ
 مِنْهُمْ ، فَقَدْ قَالَ فِي الرُّوضَةِ وَأَصْلُهَا : إِنَّهُ يَشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ فِيهِمْ مُجْتَهِدٌ . فَعَلِمَ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ لِقَبِ أَهْلِ
 الْحَلِّ وَالْعَقْدِ مُرَادٌ بِهِ مَعْنَى الْمَصْدَرِينَ فِيهِ بِالْقُوَّةِ وَالْبِنْفَعِلِ ، وَهُمْ الرُّؤَسَاءُ الَّذِينَ تَتَّبِعُهُمُ الْأُمَّةُ فِي أُمُورِهَا
 الْعَامَّةِ ، وَأَهْمُهَا نَصْبُ الْإِمَامِ الْأَعْظَمِ وَكَذَا عَزْلُهُ إِذَا ثَبَتَ عِنْدَهُمْ وَجُوبُ ذَلِكَ ، وَمَنْ يَمْلِكُ التَّوَلِيَةَ يَمْلِكُ

الْعُرْلُ ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي مَسْأَلَةِ سُلْطَةِ الْأُمَّةِ ، قَالَ إِمَامُ الْإِحْرَامِ فِي الْإِمَامِ الَّذِي « جَارٍ وَظَهَرَ ظُلْمُهُ
وَعُشْمُهُ ، وَلَمْ يَرْعُو لِرِزَاجِرٍ عَنِ سُوءِ صَنِيعِهِ : فَلِأَهْلِ الْحَلِّ وَالْعُقْدِ التَّوَاتُؤِ عَلَى رُدِّعِهِ ، وَلَوْ بِشَهْرِ السَّلَاحِ
وَنَضْبِ الْحُرُوبِ » . لَوْ مِنْ ظَنِّ أَنْ كُلَّ مَنْ يُوصَفُ بِالْعِلْمِ وَالْوَجَاهَةِ تَتَعَدَّدُ بِنِعْتِهِ الْإِمَامَةُ ، وَيَجِبُ عَلَى
الْأُمَّةِ اتِّبَاعُهُمْ فِيهَا ، فَقَدْ جَعَلَ مَعْنَى الْحَلِّ وَالْعُقْدِ وَمَعْنَى الْجَمَاعَةِ وَالْإِجْمَاعِ ، وَمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَخْبَارِ
وَالْأَثَارِ ، وَمِنْ كَلَامِ الْمُحَقِّقِينَ فِي الْمَسْأَلَةِ ، وَلَا سِيَّمَا شُرُوطِ أَهْلِ الْإِحْتِيَارِ . يَتَّضِحُ مِنْ هَذِهِ النُّصُوصِ
الَّتِي أوردناها كَيْفَ شَغَلَتِ السِّيَاسَةَ الْعَقْلَ الْعَرَبِيَّ الدِّينِيَّ وَأَدْخَلَتْهُ فِي مَتَاهَاتِهَا

ثَالِثًا : فِي عَصْرِ التَّدْوِينِ لَعِبَ الْعَقْلُ الدِّينِيُّ الْعَرَبِيُّ دَوْرًا رَيْسِيًّا فِي الْأَشْرَافِ عَلَى كِتَابَةِ النَّسَبِ
وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ وَلَا بَدَأَ أَنْ تَتَوَقَّفَ هُنَا لِنَفْسِهِمْ كَيْفَ بَدَأَ ذَلِكَ الْعَصْرُ وَمَا هِيَ دَوَائِعُهُ وَتَنَائِجُهُ مَرُّ التَّارِيخِ
عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ بِفِتْرَةِ رِوَايَةِ الشَّفَهِيَّةِ دَارَتْ فِي مَجَالِسِ الْعِلْمِ وَنَدَوَاتِهِ فِي الْقُصُورِ وَالْمَسَاجِدِ ، وَفِيهَا
اتَّسَرَّتْ (الرِّوَايَاتُ) وَأَسْمَاهَا يَشِي وَيُنْبِيءُ بِأَصْلِهَا الشَّفَهِيَّةِ حَيْثُ كَانَ الرَّاوي أَوْ الْحَاكِي يُحْكِي الْقِصَّةَ
وَيُلْقِيهَا شَفَهِيًّا عَلَى أَسْمَاعِ الْحَاضِرِينَ ، فَلَمَّا جَاءَ عَصْرُ التَّدْوِينِ الْمُنْظَمِ فِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ تَمَّ تَسْجِيلُ
الْمُورَثِ مِنْ تِلْكَ الرِّوَايَاتِ الشَّفَهِيَّةِ . وَقَدْ تَنَاطَرَتْ أَخْبَارٌ عَنْ كِتَابَاتٍ تَارِيخِيَّةٍ مُدَوَّنةٍ فِي الْقَرْنِ الْأَوَّلِ
الْهِجْرِيِّ بَيْنَ شَذَرَاتٍ مُتَفَرِّقةٍ وَكُتِبَ كَامِلَةٌ ، كَمَا نُسِبَ بَعْضُهُمْ كُتُبًا لِبَعْضِ الرِّوَاةِ فِي الْقَرْنِ الْأَوَّلِ الْهِجْرِيِّ
فِي الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ . وَالتَّدْوِينُ التَّارِيخِيُّ الْحَقِيقِيُّ بَدَأَ مَعَ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَأَسْمَرَ إِلَى نَهَايَةِ الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ
الْأَوَّلِ فِي خِلَافَةِ الْمُوَكَّلِ الْعَبَّاسِيِّ .

وَقَدْ تَمَيَّرَتْ بِدَايَةِ التَّدْوِينِ التَّارِيخِيِّ بِعِدَّةٍ مَلَامِحَ أَهْمُهَا :

I - إِنَّ مَرْجِعِيَّةَ التَّدْوِينِ اِرْتَبَطَتْ بِالْكَاتِبِ نَفْسِهِ ، فَهُوَ الَّذِي يُنْقَلُ مُبَاشَرَةً مِنْ ذَاكِرَتِهِ وَليْسَ مِنْ كِتَابٍ سَابِقٍ ، وَهُوَ الَّذِي يُزْعَمُ أَنَّهُ سَمِعَ هَذِهِ الرِّوَايَةَ مِنْ فُلَانٍ عَنِ فُلَانٍ ، وَليْسَ لَنَا إِلَّا أَنْ نُصَدِّقَهُ أَوْ أَنْ تَشَكَّكَ فِي كَلَامِهِ ، وَلِذَلِكَ تَنَاقَضَتْ بَعْضُ الرِّوَايَاتِ الَّتِي تُعْبَرُ عَنْ حَدَثٍ مُعَيَّنٍ ، وَبَعْضُهَا تَدَاخَلَتْ مَعَ بَعْضِهَا الْآخِرِ كَمَا فِي تَارِيخِ الطَّبْرِيِّ ، وَكُلُّ ذَلِكَ يَضَعُ مُهْمَةً صَعْبَةً أَمَامَ الْبَاحِثِ التَّارِيخِيِّ .

2 - لِأَنَّ الْحَرَكَةَ الْعِلْمِيَّةَ فِي بَدَايَتِهَا لَمْ تَعْرِفِ التَّخَصُّصَ حَيْثُ كَانَتْ مَجَالِسَ الْعِلْمِ تَجْمَعُ بَيْنَ التَّارِيخِ وَالْقِصَصِ وَالشَّعْرِ وَالْكَلَامِ حَوْلَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَتَزِيدُ أَحَادِيثَ مَنْسُوبَةً لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَإِنَّ الْإِسْنَادَ كَانَ هُوَ السَّمَةُ الْمَشْرُوكَةَ فِي رِوَايَةِ أَحْدَاثِ التَّارِيخِ وَالسِّيَرَةِ وَالْأَحَادِيثِ الْمَنْسُوبَةِ لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَأَشْهَرُ مِنْ كُتُبِ التَّارِيخِ بِالْإِسْنَادِ مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ فِي الطَّبَقَاتِ الْكُبْرَى ، وَالطَّبْرِيُّ فِي تَارِيخِهِ ، وَسَارَ عَلَى هَذَا التَّنْهَجِ مُؤَرِّخُو الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ الثَّانِي خُصُوصًا مَنْ كَانَ مِنْهُمْ يَجْمَعُ بَيْنَ كَوْنِهِ مُؤَرِّخًا وَمُحَدِّثًا وَفِيهَا مِثْلُ ابْنِ الْجَوْزِيِّ فِي كُتُبِهِ التَّارِيخِيَّةِ الْحَوْلِيَّةِ مِثْلُ (الْمُنْتَظَمِ) وَالْكُتُبِ الْقَصِيرَةِ مِثْلُ (أَخْبَارِ الْأَذْكِيَاءِ)

3 - إِنَّ أَوَائِلَ مَنْ كُتِبَ وَدُونَ صَارَ هُوَ الْعُمْدَةُ الَّذِي يُنْقَلُ عَنْهُ اللَّاحِقُونَ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ ، دُونَ أَنْ يُنَاقَشُوا الرِّوَايَاتِ الَّتِي يُنْقَلُونَهَا ، كَمَا فَعَلَ ابْنُ هِشَامِ الْكَلْبِيُّ فِيَمَا نَقَلَهُ مِنَ السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ وَكَمَا فَعَلَ الطَّبْرِيُّ فِيَمَا كَانَ يُنْقَلُهُ عَنْ ابْنِ مِخْنَفٍ وَسَيْفِ بْنِ عُمَرَ الضَّبِّيِّ .

4 - غَزَارَةُ الْمَادَةِ التَّارِيخِيَّةِ فِي فِتْرَةِ الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ الْأُولَى بِحَيْثُ شَمِلَتْ أَكْثَرَ مِنْ سِتْمَانَةِ بَحْثٍ وَرِسَالَةٍ كُتِبَ مُعْظَمُهَا أَرْبَعَةٌ أَوْ خَمْسَةٌ رِجَالٍ هُمْ الْمَدَائِنِيُّ وَأَبُو مِخْنَفٍ وَأَبُو عُبَيْدَةَ وَأَبْنُ الْكَلْبِيِّ

5 - اختلفت مسويات هذه المادة التاريخية في الحادثة الواحدة من حيث الصدق أو الكذب والسعة أو الإيجاز ، مع وجود الأهواء الاجتماعية والعنصرية والعرقية والعقدية والسياسية .

6 - غلب عليها الأساس الإسلامي في اعتماد التقييم الهجري وفي إطار الإسلام ، لم يكن هذا مقصوداً على السيرة النبوية بل تعداها أيضاً إلى الفتوح العربية التي تم نسبها للإسلام فأصبحت الفتوح الإسلامية . وبذلك نشأ التدوين التاريخي في حضارة المسلمين منفصلاً عن التدوين المسيحي وبطابع مستقل متميز ، حتى أن الموالي في تاريخهم الخاص لأسلافهم ارتبطوا بالمنهج الذي سارت عليه الحركة التاريخية العربية (الإسلامية)

7 - لم يكن التدوين التاريخي تفلأ كله عن الرواية الشفهية وحدها وإنما اعتمداً حيناً على بعض الوثائق والسجلات والمدونات والأسفار والكتابات ، وبعضها كتب قبل الإسلام .

8 - لم يكن التدوين التاريخي عملاً رسمياً ، كما هو الشأن في بعض العصور غير الإسلامية . صحيح أن بعض الخلفاء الأمويين والعباسيين شجعوا التدوين التاريخي إلا أن ذلك لم يكن بغرض إقامة تاريخ رسمي للدولة وإنما بهدف تسجيل المعارف الهامة أو ما يتشوق الخليفة إلى معرفته . نشأ التدوين التاريخي مستقلاً عن الشكل الرسمي وإن لم ينبج بالطبع من أهواء الحاكم ، خصوصاً في العصر العباسي - عصر ازدهار التدوين - حيث اهتم العباسيون برعاية الحركة العلمية الفردية ، وقرنوا الرعاية بنوع من التوجيه الذي يخدم أهواء الخلفاء .

9 - وفي هذا العصر المبكر ظهر مع التدوين التاريخي بواكير الرأي التاريخي والتعليل للأحداث وفلسفة التاريخ خصوصاً وقد ظهرت في العصر العباسي فلسفات و فرق مختلفة حول الإمامة والخلافة

وَالْجَمَاعَةَ وَالْجَبْرَ وَالْإِخْتِيَارَ وَالشَّقِيَّ وَالسَّعِيدَ وَالْجُرْحَ وَالتَّعْدِيلَ ، وَكَانَ لَابْدُ لِلتَّارِيخِ أَنْ يَتَأَثَّرَ بِتِلْكَ
 الْأَفْكَارِ خُصُوصًا وَأَنَّ التَّارِيخَ يَبْحَثُ الْأَعْلَامَ الَّذِينَ كَانُوا مُحَوَّرًا لِهَذِهِ الْأَخْتِلَافَاتِ وَالْآرَاءِ . وَظَهَرَتْ قِمَّةُ
 الْفَلْسَفَةِ التَّارِيخِيَّةِ فِيمَا بَعْدُ فِي مُقَدِّمَةِ ابْنِ خَلْدُونِ الْمُتَوَفَّى فِي أَوَائِلِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ الْهَجْرِيِّ .

مَرَاكِلُ التَّدْوِينِ التَّارِيخِيِّ

وَقَدْ بَدَأَ التَّدْوِينُ التَّارِيخِيَّ فَرْدِيًّا وَبَسِيطًا ثُمَّ انْتَشَرَ وَتَنظَّمَتْ عَبْرَ ثَلَاثِ مَرَاكِلَ :

I- مَرَحَلَةُ التَّدْوِينِ الْأُولَى : اتَّسَمَ بِالطَّاعِ الشَّخْصِيِّ الْعُقُوبِيِّ وَبِالتَّقَلُّبِ عَنِ الرِّوَايَةِ الشَّفَهِيَّةِ فَقَدْ كَانَتْ الرِّوَايَةُ
 الشَّفَهِيَّةُ هِيَ السَّائِدَةُ وَمِنْ حِرْصِ مَنْ السَّامِعِينَ عَلَيَّ تَسْجِيلِ حَدَثِ بَدَايَةِ عَمَلِ عَلِيٍّ تَدْوِينَهُ لِنَفْسِهِ ،
 وَرَبَّمَا بَدَأَ ذَلِكَ التَّنَوُّعَ مِنَ التَّدْوِينِ مَعَ بَدَايَةِ الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ ثُمَّ تَحَدَّدَتْ إِتْجَاهَاتِهِ وَتَنَوَّعَتْ بَيْنَ تَدْوِينِ السَّيْرَةِ
 أَوْ لِلنَّسَابِ أَوْ لِلْفُجُوحِ وَغَيْرِهَا ، وَمَعَ ذَلِكَ بَقِيَ فَرْدِيًّا شَخْصِيًّا . وَفِي هَذَا الْمَرَحَلَةِ وَجَدَ الْكَثِيرُونَ مِنْ
 الرِّوَاةِ الشَّفَهِيَّةِينَ الَّذِينَ يَنْتَقِلُ عَنْهُمْ أَوْ يَحْفَظُ أَقْوَالَهُمْ جُمُوهَرًا مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْحِفَاطِ فِي الْمَسَاجِدِ وَالْحَلَقَاتِ ،
 وَبَعْضُ أُولَئِكَ الرِّوَاةِ كَانُوا مِنْ أَعْلَامِ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ مِثْلَ (عَقِيلِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ) وَ (عَمْرُو بْنِ حَوَلَةَ)
 وَ (الْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ) وَ (مَخْرَمَةَ بْنِ نُوفَلٍ) وَ (جُبَيْرِ بْنِ الْمُطْعَمِ) ، وَوَضِحَ أَنَّ أُولَئِكَ كَانُوا مِمَّنْ
 عَاصَرَ الْجَاهِلِيَّةَ وَالْإِسْلَامَ وَقَدْ بَلَّغُوا الشَّيْخُوخَةَ وَهُمْ يَرُؤُونَ أَحْدَاثًا شَارَكُوا فِيهَا مِنْ هُنَا كَانَ الْأَهْتِمَامُ
 بِالتَّقَلُّبِ عِنْدَهُمْ وَتَدْوِينِ مَا يَسْرُدُونَهُ مِنْ أَحْدَاثٍ يَنْقُصُهَا التَّسْلُسُ الزَّمَنِيُّ . وَأَشْهَرُ الْمُؤَرِّخِينَ مِمَّنْ يَنْسُبُونَ
 لَهُمُ التَّدْوِينَ (الشَّخْصِيَّ) فِي هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ : (أَبَانُ بْنُ عُثْمَانَ) وَ (عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ) ثُمَّ (شَرْحِبِيلُ بْنُ
 حَسَنَةَ) وَ (الزُّهْرِيُّ) .

2 - المرحلة الثانية : وقد امتدت خلال القرن الثاني كله تقريباً ، مع نهاية العصر الأموي ومطلع العصر العباسي . واهتم الإخباريون خلالها بجمع الأخبار المختلفة من جميع الأفواه والرواة ثم تنظيم كل نوع على حدة ووضعها في كتاب خاص ، وأن لم يبلغ التنظيم الشكل النهائي . وفي هذه الفترة كان الاهتمام إلى جانب السيرة بالجوانب التاريخية الأخرى عن العصر الجاهلي والنسب والأمم السابقة .

وكتب فيها رسائل قصيرة تغطي ناحية معينة في التاريخ . . . ومن هؤلاء : (أبو مخنف) وله 32 كتاباً و (الهيثم بن عدي) (50 كتاباً) (الواقدي) (28 كتاباً) (نصر بن مزاحم) (50 كتاباً) وقد أرخوا فيها لعهد الراشدين من سقيفة بني ساعدة والشورى وحرب الردة والفتوح والفتنة الكبرى ومعارك الجمل وصفين والخوارج وخطط البصرة والكوفة وولاة الأمصار وغير ذلك . . .

المرحلة الثالثة : هي مرحلة التدوين التاريخي على الأساس الزمني المتسلسل وجمع المواضيع المتعاقبة على التوالي في كتاب واحد على أساس وحدة التاريخ الإسلامي ووحدة التاريخ الإنساني . وبدت بشائر هذه المرحلة في كتاب (ابن إسحق) عن السيرة النبوية ، ثم امتدت حتى نهاية القرن الثالث حتى استقرت وتوطد بها علم التاريخ الإسلامي ومنهجه في التدوين كما يظهر في كتب الحوليات وأهمها (تاريخ الطبري) . وقد ساعد على ازدهار التدوين وتنظيمه في هذه المرحلة الإهداء لصنع الورق واستخدامه وانتشاره مما ساعد على التوسع في التدوين كما شجع على جمع المؤلفات الصغيرة السابقة في تاريخ عام متصل متسلسل ، هذا مع انتشار حركة الترجمة والتقل عن الثقافتين الفارسية واليونانية . . . واهم المؤرخين في هذه المرحلة مع (الطبري) : أبو حنيفة الدينوري واليعقوبي وابن طينور وفيها كان تأسيس المدارس التاريخية في الشام والعراق والحجاز . . .

رَابِعًا : لَقَدْ كَانَ الْعَقْلُ الدِّينِيَّ الْعَرَبِيَّ وَرَاءَ انْقِسَامِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى طَوَائِفٍ وَفَرَقٍ وَمَلَلٍ وَحَتَّى ظَهَرَتْ كُتُبًا
مُتَخَصِّصَةً فِي عَدَّهَا وَالتَّفْرِيقَةِ بَيْنَهَا وَسُنُنُشْرُ بَادِي ذِي بَدْءٍ قَائِمَةٌ بِالطَّوَائِفِ الصَّامِدَةِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا
قَائِمَةٌ بِأَسْمَاءِ بَعْضِ الطَّوَائِفِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُنْتَشِرَةِ فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ السَّنَةِ الْحَنَفِيَّةِ الْمَالِكِيَّةِ الشَّافِعِيَّةِ
الْحَنَبَلِيَّةِ السَّلَفِيَّةِ / أَهْلُ الْحَدِيثِ الْأَشَاعِرَةِ الْمَاتَرِيدِيَّةِ الشَّيْبَانِيَّةِ الْإِمَامِيَّةِ الْإِثْنَا عَشْرِيَّةِ الْأَصُولِيَّةِ الشَّيْخِيَّةِ
الرُّكْنِيَّةِ الْكُشْفِيَّةِ السَّبْعِيَّةِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ التَّرَاوِيَّةِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ فَارِسِ (الْحَشَّاشِينَ) الْأَغَاخَانِيَّةِ الْبُهْرَةِ
الْقَرَامِطَةِ الدَّرْزِيَّةِ (الْمُوَحِّدُونَ) الْعُلُوِيَّةِ الزَّيْدِيَّةِ الْإِبَاضِيَّةِ الْخَوَارِجِ الْأَزَازِقَةِ التَّجَدَّاتِ الْبِهِسِيَّةِ الْعَجَارِدَةِ
الْعَالِبَةِ الصَّفْرَةِ الْمُعْتَرَلَةِ الْمِيرَازِيَّةِ (طَائِفَةُ إِسْلَامِيَّةٌ) الصُّوْقِيَّةِ التَّجَانِيَّةِ الْقَادِرِيَّةِ الشَّاذِلِيَّةِ السَّمَاءِيَّةِ
الْأُدْرِيْسِيَّةِ الْبُرْهَانِيَّةِ .

عَوَامِلُ تَكُونُ الْفِرَقَ

الآتِجَاهَاتُ الْحَزْبِيَّةُ وَالْعَصَبَاتُ الْقَبَلِيَّةُ وَالسَّعْيُ وَرَاءَ الْغَنِيْمَةِ وَالْقَبِيلَةُ لَدَيْكَ فَإِنَّ أَعْظَمَ خِلَافٍ بَيْنَ الْأُمَّةِ
هُوَ الْخِلَافُ فِي قَضِيَّتِي الْخِلَافَةِ وَالْإِمَامَةِ وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى عَدَمُ قُدْرَةِ الْعَقْلِ الدِّينِيِّ عَلَى الْوُصُولِ إِلَى صِيغَةٍ
لِلتَّعَاوُنِ بَيْنَ الدِّينِ وَالدَّوْلَةِ .

وَلَا نَقُولُ حَتَّى لَا يَتَهَمُنَا أَحَدٌ بِالزُّنْدَقَةِ لَانَقُولُ الْفُضْلَ بَيْنَهُمَا الدِّينُ وَالدَّوْلَةُ فَهَذَا الْأَمْرُ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ تَحْقِيقُهُ فِي
الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ الَّذِي يُعْطِي الْأَوْلِيَّةَ لِلْعَقِيدَةِ فِي كَافَةِ مَنَاحِي الْحَيَاةِ .

قَبْلَ أَنْ نُوضِّحَ فِكْرُنَا عَنْ ضَرُورَةِ إِيجَادِ صِيغَةٍ لِلْمُتَّوَفِّقِ بَيْنَ الدِّينِ وَالدَّوْلَةِ عَلَيْنَا نَعْرِفُ مَعْنَى السِّيَاسَةِ
فَعَرِفْنَاهَا يُجْعَلُنَا أَنْ نَدْخُلَ بِسُهُولَةٍ لَشَرْحِ الْفِكْرَةِ وَإِيصَالِهَا لِدَهْنِ الْمُتَلَقِّي نَعْرِفُ السِّيَاسَةَ بِأَنَّهَا : « كَيْفِيَّةُ
تَوْزِيْعِ الْقُوَّةِ وَالتَّنْفُوزِ ضِمْنَ مُجْتَمَعٍ مَا أَوْ نِظَامٍ مُعَيَّنٍ كَذَلِكَ نَعْرِفُ السِّيَاسَةَ بِأَنَّهَا : « الْعَلَاقَةُ بَيْنَ الْحُكْمِ

وَالْمُحْكَمِينَ أَوْ الدَّوْلَةَ وَكُلَّ مَا يَتَّعَلَقُ بِشُؤْنِهَا أَوْ السُّلْطَةَ الكُبْرَى فِي المَجْتَمَعَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ . تَعَرَّفَ
السياسة لغةً بأنها عبارة عن معالجة الأمور ، وهي مأخوذة من الفعل ساسَ وَيَسُوسُ ، وهي على مصدرٍ
فَعَالَةٍ ، أمَّا اصطلاحًا فتعرف بأنها رعاية كافة شؤون الدولة الداخلية ، وكافة شؤونها الخارجية ،
وتعرف أيضًا بأنها سياسة تقوم على توزيع النفوذ والقوة ضمن حدود مجتمع ما . وتعرف كذلك بأنها
العلاقة بين الحكام والمحكومين في الدولة ، وعرفت أيضًا بأنها طرق وإجراءات مؤدية إلى اتخاذ
قرارات من أجل المجتمعات والمجموعات البشرية ، ، أمَّا الواقعيون فعرفوها بأنها فنُّ يقوم على دراسة
الواقع السياسي وتغييره موضوعيًا .

فالسِّيَاسَةُ إذن هي إدارة كافة شؤون الدولة الداخلية والشؤون الخارجية وهذا التعريف للسياسة
موجود في واجبات الخليفة في النظام السياسي الإسلامي ومن الشؤون الداخلية الواجب على الدولة
مراعاتها هو الدين بمعنى العقيدة والشريعة أو التشريعات الإسلامية والحفاظ على الرعايا أرواحهم
وأموالهم وأعراضهم والحفاظ على السلم والأمن الداخلي وحماية الحدود وغير ذلك . فمآذا كان
شكل الدولة في الإسلام كان دينيًا وهناك من يقول إنه كان إسلاميًا فالتشريعات والسلطة التشريعية
والقضائية قائمة على أساس ديني حيث لا وجود إطلاقًا للتشريعات الوضعية . فهل سار أولي الأمر
وفق سياسة واحدة لإدارة شؤون العباد والبلاد وفق المبادئ الشرعية الأساسية لهذه الدولة الدينية أو
الإسلامية ؟ قطعًا لا فمَنذُ الوهلة الأولى كان للسياسة كلمتها في فرض الحاكم كما ذكرنا في الذي
حصل بسقيفة بني ساعدة وأن بروز حاكمين فقط دون غيرهما في تاريخ الدولة الإسلامية كلها اتصف

حَكْمُهُمَا بِالشَّرْعِ وَبِالْعَدْلِ وَهُمَا الْعُمَرَيْنِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ لِأَكْبَرِ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّ الْحُكْمَ
الديكتاتوري المعروف اليوم له جذور تاريخية عميقة في تاريخ هذه الأمة .

فَمَا مَعْنَى ذَلِكَ كُلُّهُ ؟

إِنَّهُ يُؤَدِّي إِلَى تَبِيجَةِ مُفَادِهَا بِأَنَّ السِّيَاسَةَ الْفَرْدِيَّةَ هِيَ الَّتِي حَكَمَتْ الْمُسْلِمِينَ عُهُودٌ طَوِيلَةٌ وَإِلَى يَوْمِنَا هَذَا
وَفَرْدِيَّةٌ بِمَعْنَى مَرَاجِيئَةٍ وَمُطَلَّقَةٍ وَلَكِنِّي تُحَافِظُ عَلَى شَكْلِهَا وَأَسْمَاهَا الدِّينِيَّ أَوْ الْإِسْلَامِيَّ صَنَعَتْ هَيْئَاتٍ
وَمَجَالِسَ فِقْهِيَّةً لِنُفُتِي بِشُرْعِيَّتِهَا وَعَدَالَتِهَا وَتَنْقِيعِ الرَّعَايَا أَنْ تُحَكَّمَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَهَذَا يَعْنِي سَحَرَتْ الدِّينَ
كشِكْلٍ وَأَسْمٍ وَرُمُوزٍ لِتَوْطِيدِ حُكْمِهَا فَصَارَ شَكْلُ الدَّوْلَةِ فِي الْعَلَنِ وَالظَّاهِرِ دِينِيَّ إِسْلَامِيَّ وَفِي الْوَاقِعِ
فَرْدِيَّ مَرَاجِيئِي وَرَإثِي فِي أَغْلَبِ الْفَرَاتِ وَعَلَيْهِ وَبِسَبَبِ ذَلِكَ كَانَتْ تَقُومُ الثَّوَرَاتُ مُتَّخِذَةً مِنْ شِعَارِ الْحُكْمِ
بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَفَسَادِ الْحُكْمِ وَعَدَمِ عَدَالَتِهِمْ شِعَارَاتٍ لَهَا . لَقَدْ اسْتَطَاعَ الْعَقْلُ الدِّينِيُّ فِي عَصْرِ
التَّوْبِينِ فَعَلَ كُلَّ شَيْءٍ مَا عَدَا صِيَاغَةَ مَبَادِيِّ أُسَاسِيَّةٍ لِلْحُكْمِ تَقُومُ عَلَى أُسَاسِ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ
وَقَدْ أَشَارَ هَذَا النَّصُّ الْفُرَاتِي لِبَعْضِ الْمَبَادِيِّ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ يَسْتَحْلِصُوا مِنْهَا دُسُورَ حُكْمِهِمْ مِثْلَ الشُّورَى
وَالْعَدْلِ وَالْمَسَاوَاةِ كُلُّ مَا فَعَلَهُ هَذَا الْعَقْلُ هُوَ التَّكْيِيدُ عَلَى مَفْهُومِ الْخِلَافَةِ بِاعْتِبَارِهَا الشَّكْلِ الْوَحِيدِ فِي
الْحُكْمِ الْإِسْلَامِيِّ وَالْحَقِيقَةِ لَمْ يَكُنْ هُوَ الْوَحِيدُ فَلَقَدْ ائْتَدَعَ الْعَقْلُ الدِّينِيُّ الشَّيْعِيَّ تَمُودَجًا خَاصًّا بِهِ وَهُوَ
نِظَامُ الْإِمَامَةِ الَّذِي جَعَلَهُ رُكْنًا مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ بَلِ الْإِيمَانِ . بِذَلِكَ فَقَدَتْ الدَّوْلَةُ فِي الْإِسْلَامِ شَخْصِيَّتَهَا
الْإِعْتِبَارِيَّةَ الْخَاصَّةَ بِهَا وَأَصْبَحَتْ مِلْكَاً عَضُوضًا خَاصًّا بِالْحَاكِمِ بِكُلِّ مَا فِيهَا وَحَتَّى رِعَايَاهَا لِذَلِكَ قُلْنَا
إِنَّ الْعَقْلَ الدِّينِيَّ الْعَرَبِيَّ عَجَزَ عَنِ إِظْهَارِ الدَّوْلَةِ كِكِيَانٍ مُسْتَقِلٍّ عَنِ الْحُكْمِ وَالْحَاكِمِ الَّذِي يَدْعِي أَنَّهُ
الْحَاكِمُ بِأَمْرِ اللَّهِ أَوْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَهُوَ يُمَثِّلُ الدِّينَ بَلِ الدِّينَ كُلَّهُ وَلَيْسَ هُنَاكَ مَانِعٌ شَرْعِيٌّ أَوْ نِصِّيٌّ أَوْ فِقْهِيٌّ

أَوْ عَقْلِي يَنْعُ مِنْ تَأْسِيسِ الدَّوْلَةِ عَلَى مَبَادِي تَشْرِيعِيَّةٍ دِينِيَّةٍ تُمَثِّلُ الدِّينَ فَتَكُونُ بِذَلِكَ دِينَ وَدَوْلَةً وَهَذَا
التَّاسِيسُ يُفْرَضُ بِالذَّرَجَةِ الْأُولَى وَضَعُ دُسْتُورٍ يُبَيِّنُ طَرِيقَةَ اخْتِيَارِ الْحُكْمِ وَشُرُوطَ اخْتِيَارِهِمْ وَطَرِيقَةَ
لِاخْتِارِ الْإِجْمَاعِ عَلَيْهِمْ وَتَحْدِيدِ سِيَاسَتِهِمْ بِضُرُورَةِ الْحِفَاظِ عَلَى مَبَادِي الدَّوْلَةِ الدِّينِيَّةِ وَكَمَا يَحَدِّدُ لَهُمْ مُدَّةَ
حُكْمِهِمْ وَعَزْلَهُمْ وَمَحَاكِمَتِهِمْ .

الانحراف عن المنهج والقطيعة والانسلاخ

أَنَّ أَكْبَرَ كَارِثَةٍ وَقَعَتْ فِيهَا الْعَقْلُ الدِّينِيُّ الْعَرَبِيُّ هُوَ انْحِرَافُهُ عَنِ الْمَنْهَجِ الْقُرْآنِيِّ وَقَطِيعَتِهِ وَفِي مَرَحَلَةٍ تَالِيَةٍ
الانسلاخ عنه يقول الله في كتابه الكريم : (تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ
وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ) سُورَةُ الْجَاثِيَةِ الْآيَةِ 6 (لَقَدْ حَذَرْنَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ تَحْذِيرًا وَاضِحًا بَعْدَ اتِّبَاعِ آيَةِ رِوَايَاتٍ أَوْ
أَحَادِيثٍ أَوْ مَفَاهِيمٍ بَشَرِيَّةٍ تُخَالِفُ كَلَامَ اللَّهِ وَالْمَصِيبَةَ أَنَّهُ تَمَّ إِضْفَاءُ الْقُدْسِيَّةِ عَلَى تِلْكَ الرِّوَايَاتِ وَمَا فِيهَا
مِنْ تَنَاقُضٍ صَادِمٍ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ لِآيَاتِ اللَّهِ فَاللَّهُ يُرِيدُ لِعِبَادِهِ التَّمَسُّكُ بِمَا جَاءَ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ لِيَحْمِيَهُمْ
مِنْ الْوُقُوعِ فِي الصَّرَاحِ وَالتَّقَاتِلِ وَيُرِيدُ لَهُمُ الْخَيْرَ وَالسَّعَادَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَنْ تَكُونَ لَهُمْ مَرْجِعِيَّةً وَاحِدَةً
وَهِيَ الْقُرْآنُ فَقَطُ .

« وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (سُورَةُ الْفُرْقَانِ الْآيَةِ 30)

وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ بُأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿ الْأَعْرَافُ : 175 ﴾
انْسَلَخْنَا أَي تَرَكَ آيَاتِ اللَّهِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ، وَتَرَكَ الْقِيمَ وَالْأَخْلَاقَ الَّتِي يَأْمُرُ بِهَا الْكِتَابُ ، وَخَلَعَهَا كَمَا يَخْلَعُ
اللَّبَاسُ فَلَمَّا انْسَلَخْنَا مِنْهَا اتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ ، أَيُّ : تَسَلَّطَ عَلَيْهِ حِينَ خَرَجَ مِنَ الْحِصْنِ الْحَصِينِ ، وَصَارَ إِلَى
أَسْفَلِ سَافِلِينَ ، ﴿ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ بَعْدَ أَنْ كَانَ مِنَ الرَّاشِدِينَ الْمُرْشِدِينَ . وَهَذَا لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى

خَذَلَهُ وَوَكَّلَهُ إِلَى نَفْسِهِ ، فَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾ ﴿ بَأَنَّ نُوفِقَهُ لِلْعَمَلِ بِهَا ، فَيَرْتَفِعُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَيَتَحَصَّنُ مِنْ أَعْدَائِهِ . ﴾ ﴿ وَلَكِنَّهُ ﴾ ﴿ فِعْلٌ مَا يُقْتَضَى الْخِذْلَانُ ، فَأَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ، أَيُّ : إِلَى الشَّهَوَاتِ السُّفْلِيَّةِ ، وَالْمَقَاصِدِ الدُّنْيَوِيَّةِ . ﴾ ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتِ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .
 وَقَالَ تَعَالَى : ؟ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ؟ [I6] .
 إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ؟
 . [I8]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْبُدُ اللَّهَ عَلَى ؟ حَرْفٌ فَإِنَّ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطمأن به وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقلب على ؟ وَجْهَهُ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذ ؟ لَكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ؟ II الْحَجَّ

فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ . . . ؟ حَالُ عِمْرَانَ ؟

لَقَدْ كَانَ مِنْهُجُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِلْمُسْلِمِينَ وَاضِحًا فِي تَحْذِيرِهِمْ وَإِحْبَارِهِمْ بَأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ هُوَ الَّذِي ابْتِشَاهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ وَأَخْرَجَهُمْ إِلَى نُورِ الْمَعْرِفَةِ لِذَلِكَ فَلَا سَبِيلَ لَهُمْ لِلْحِفَاطِ عَلَى وَحْدَتِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ إِلَّا بِاتِّبَاعِ مَنْهَجِهِ وَطَرِيقِهِ ﴿ وَالْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : 63] هذه هي الحقيقة .

لَكِنَّ أَنَّ الَّذِي حَصَلَ هُوَ مُصِيبَةٌ وَكَارِثَةٌ وَقَعَتْ بِهِمْ بِسَبَبِ انْحِرَافِ عَقْلِهِمُ الدِّينِيَّ عَنِ الطَّرِيقِ وَأَسْلَاحِهِ فَخَلَقَ لِنَفْسِهِ طَرِيقًا وَوَسَائِلَ بِدَوَافِعِ عَصَبِيَّةٍ جَاهِلِيَّةٍ أَوْ بِسَبَبِ حُمَى التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى ، وَلَمْ يَمُضِ وَقْتًا طَوِيلًا

حَتَّى أَشَادَ هَذَا الْعَقْلُ أَدْيَانًا وَطَوَائِفًا وَفِرْقًا وَمَذَاهِبًا كُلَّ فَرِيقٍ بِمَا لَدَيْهِ فَرِحُونَ . كَانَ لَدَيْهِمْ قَرَأْنَا وَاحِدًا
اغْتَصَمُوا حَوْلَهُ وَنَبِيًّا كَرِيمًا وَاحِدًا وَشِرْعَةً وَمَنْهَجًا وَاحِدًا حَذَرُوهُمْ اللَّهُ الْإِنْتِعَادُ عَنْهَا أَوْ الْإِنْجِرَافِ لِكُنْهِمْ
صَارُوا مِثْلَ مَنْ سَبَّهْتُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَنُسُوا مَا ذَكَرُوا بِهِ

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِمَّا أَمُرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا

يُفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام : 159]

وَهَجَرُوا كُتُبَهُمْ وَحُرْفُوهَا وَأَشْرَوْا بِهَا ثَمَنًا قَلِيلًا وَنَخِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ
وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ [] [الأنعام : 153] .

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ

العقل العربي الحديث والمعاصر

أَنَّ الطَّامَةَ الْكُبْرَى الَّتِي وَقَعَ بِهَا الْعَقْلُ الْعَرَبِيُّ هِيَ تَسْخِيرُهُ لِلدِّينِ وَالْعَقِيدَةِ لِصَالِحِ السُّلْطَةِ وَجَلَّ مَا قَامَ بِهِ
وَأَتَّجَهَ هُوَ لِتَحْقِيقِ هَذِهِ الْمُقُولَةِ وَلَا زَالَ بِالرَّغْمِ مِنْ كُلِّ مَا حَدَثَ مِنْ وِيَلَاتٍ وَانْقِسَامَاتٍ وَحُرُوبٍ بَيْنِيَّةٍ
وَبِالرَّغْمِ مِنْ كُلِّ التَّقَدُّمِ الْعِلْمِيِّ وَالتَّكْنُولُوجِيِّ وَالْمَعْرِفِيِّ وَالْمَعْلُومَاتِيِّ لَا زَالَ يَلْعَبُ بِنَفْسِ الْمُنْهَجِ وَالْأَسْلُوبِ
لِذَلِكَ حِينَمَا قَامَ الْحَدَاثِيُّونَ الْعَرَبُ وَوَضَعُوا مَسْئُولِيَّةَ تَأَخُّرِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ عَامَّةً عَلَى عَاتِقِ الدِّينِ لِكُنْ

الْحَقِيقَةُ أَنَّ مَنْ تَفَعَّ عَلَيْهِ الْمَسْئُورِيَّةُ كَامِلَةً هُوَ الْعَقْلُ الدِّينِيُّ الَّذِي فُسِّرَ وَأَوَّلَ هَذَا الدِّينَ وَسُخَّرَهُ لِهَدْفٍ
وَاحِدٍ هُوَ إِضْفَاءُ الشَّرِيعَةِ عَلَى سَلْطَةِ فَاقِدَةِ لِلشَّرِيعَةِ .

أَمَّا الدِّينُ مِنْ حَيْثُ هُوَ عَقِيدَةٌ فَهُوَ نُصُوصٌ مُقَدَّسَةٌ لَا تَسْتَطِيعُ بِنَفْسِهَا فِعْلَ أَيِّ شَيْءٍ نَتَّظِرُ مَنْ يَخْرُجُ
أَصُولَهَا وَجَوَاهِرَهَا لِلنَّاسِ وَلِخِدْمَةِ التَّوْحِيدِ وَالدَّعْوَةِ .

أَنَّ أَوَّلَ انْقِلَابٍ حَقِيقِيٍّ وَفِعْلِيٍّ وَمَلْمُوسٍ عَلَى الْعَقِيدَةِ كَانَ عَلَى يَدِ الْأُمُومِينَ وَكَانَتْ أَهْدَافُهُ وَاضِحَةً .

فالشورى التي ذكرها الله في آيتين كريمتين سميت إحداهما بسورة الشورى

﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى :

[38

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ

وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران : 159]

فَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ مَا دَمَتْ قَاتِمًا عَلَيْهِمْ وَيُكُنْ مِنْ بَعْدِكَ أَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ لَكِنَّ الْعَقْلَ الدِّينِيَّ مُنْذُ ذَلِكَ

الْحِينِ نَجَحَ فِي إِيجَادِ مَخْرَجٍ فَفَهِي تَأْوِيلِي لِلْحُكَامِ الْأُمُومِينَ وَقَتَهَا وَمَنْ بَعْدَهُمْ صَارَ هَذَا الْمَخْرَجُ سُنَّةً

حَسَنَةً لِلْحُكَامِ الَّذِينَ خَلَفُوهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا .

وَيَقُومُ هَذَا الْمَخْرَجُ عَلَى أَنَّ الشُّورَى هُنَا تَعْنِي اسْتِشَارَةَ الْحُكُومِينَ بِمَا يُخْصُ أُمُورَ حَيَاتِهِمْ وَمَعِيشَتِهِمْ

وَكَانَ الْحُكْمُ وَالسُّلْطَةُ لَيْسَ مِنْ اِخْتِصَاصِهِمْ وَلَا تَمَسُّ حَيَاتِهِمْ وَمَعِيشَتَهُمْ .

وَحَتَّى يُقْضِيَ الْعَقْلَ الدِّينِيَّ عَلَى كُلِّ هَاجِسٍ أَوْ فِكْرَةٍ تَنَارُ عِنْدَ الْمُحْكَمِينَ وَتَتَعَلَّقُ بِالشُّورَى أَوْ بِالسَّلْطَنَةِ

وَهَلْ لَهُمُ الْحَقُّ فِي نَقْدِهَا أَوْ الْمَشَارَكَةِ فِيهَا وَلَوْ بِالرَّأْيِ أَخْرَجَ لَهُمْ تَأْوِيلًا عَجِيبًا لِلنَّصِّ الْقُرْآنِيِّ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى

اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء : 59]

وَلَقَدْ وَرَدَتْ فِي عَشْرِ آيَاتٍ جُمْلَةً أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ دُونَ أَنْ يذُكَرَ أُولِي الْأَمْرِ وَالآيَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي تُذَكَّرُ

وَأُولَاةِ الْأَمْرِ هِيَ النَّصُّ الْمُدَوَّنُ أَغْلَاهُ وَهُوَ نَصٌّ خَاصٌّ جَاءَ لِإِعْلَاجِ مَوْضُوعًا مُعَيَّنًا أَمَّا بَاقِي النَّصُوصِ فَهِيَ

عَامَّةٌ وَفِيهَا التَّكْيِيدُ عَلَى أَنَّ الطَّاعَةَ هِيَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ حَصْرًا .

إِخْدَى الْقَنَاطِي وَالَّتِي تُبَيِّنُ كَيْفَ يَعْمَلُ الْعَقْلُ الدِّينِيَّ عَلَى مُسَاعَدَةِ الْحُكَّامِ وَالْمُسْتَبْدِينَ

(أَمْرٌ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ وَذَلِكَ بِامْتِثَالِ أَمْرِهِمَا ، الْوَاجِبِ وَالْمُسْتَحَبِّ ، وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِمَا .

وَأَمْرٌ بِطَاعَةِ أُولِي الْأَمْرِ وَهُمْ : الْوَالِيَةُ عَلَى النَّاسِ ، مِنَ الْأُمَرَاءِ وَالْحُكَّامِ وَالْمُفْتِينَ ، فَإِنَّهُ لَا يَسْتَقِيمُ لِلنَّاسِ

أَمْرٌ دِينِيٌّ وَدُنْيَايَهُمْ إِلَّا بِطَاعَتِهِمْ وَالْإِتْقَانِ لَهُمْ ، طَاعَةَ اللَّهِ وَرَغْبَةَ فِيمَا عِنْدَهُ ، وَلَكِنْ بِشَرْطِ الْإِيمَانِ

بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ ، فَإِنْ أَمَرُوا بِذَلِكَ فَلَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ .

ثُمَّ أَمْرٌ بِرَدِّ كُلِّ مَا تَنَازَعَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى الرَّسُولِ - أَي : إِلَى كِتَابِ اللَّهِ

وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ؛ فَإِنَّ فِيهِمَا الْفَضْلَ فِي جَمِيعِ الْمَسَائِلِ الْخِلَاقِيَّةِ ، أَمَّا بِبَصَرِيحِهِمَا أَوْ عُمُومِهِمَا ؛ أَوْ إِيْمَاءً ، أَوْ

تَنْبِيْهُ ، أَوْ مَفْهُومٍ ، أَوْ عُمُومٍ مَعْنَى يُقَاسُ عَلَيْهِ مَا أَشْبَهَهُ ، لِأَنَّ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ عَلَيْهِمَا بِنَاءُ

. (الدين)

أَنْظُرُوا مَا يَعْنِيهِ هَذَا التَّفْسِيرِ الْمُضَلَّلِ الْمَشْبُوهِ بِهِ :

أَوَّلًا : جَعَلَ مِنَ الْقَاعِدَةِ الْخَاصَّةِ الْمَذْكُورَةِ بِهَذَا التَّصِّ قَاعِدَةً عَامَّةً وَتَنَاسَى ذِكْرَ بَاقِي التُّصُوصِ الْعَشْرَةِ الَّتِي تَوَكَّدُ أَنَّ الطَّاعَةَ هِيَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَالتُّصُوصُ هِيَ :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : 32]

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : I32]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النِّسَاءُ : 59]

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَيَّ رَسُولُنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾

[المائدة : 92]

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الْأَنْفَالُ : I]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَاتَّمَّ تَسْمَعُونَ ﴾ [الْأَنْفَالُ : 20]

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

[الْأَنْفَالُ : 46]

﴿ وَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾

[طه : 90]

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [النور : 54]

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النور : 56]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمد : 33]

﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تُفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المجادلة : 13]

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [التغابن : 12]

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِنَفْسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ

الْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن : 16]

ثَابِتًا : ثُمَّ حَدَّدَ نَوْعَ التَّنَازُعِ الْوَاجِبِ رَدَّهَا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ بِتِلْكَ الَّتِي تَعَلَّقُ بِالْعَقِيدَةِ وَالْعِبَادَاتِ وَغَيْرِهَا وَتَنَاسَى إِنْ أَهَمَّ مَا يَهَمُّ النَّاسَ وَيَجْعَلُهُمْ يَتَنَازِعُونَ هُوَ الْحُكْمُ وَالسُّلْطَةُ (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) لِكُنْهِمْ قَصْدًا وَعَمْدًا لَمْ يَدْخُلُوا أُمُورَ الْحُكْمِ وَالسُّلْطَةِ فِي كَلِمَةِ (شَيْءٌ) لِأَنَّهَا فِي اعْتِقَادِهِمْ لَا شَيْءٌ بِالنِّسْبَةِ لِلنَّاسِ وَحَيَاتِهِمْ وَمَعِيشَتِهِمْ وَالْوَاقِعُ يَقُولُ إِنَّهَا كُلُّ شَيْءٍ فِي حَيَاتِهِمْ أَعْدَوْهَا عَنْهُمْ ظُلْمًا وَافْتِرَاءً .

لَقَدْ ضَلَّ الْحُكْمَ الْعَرَبِيَّ يَعْمَلُ وَفَقَ هَذَا الْفَتَاوَى الَّتِي أُتْبِحَهَا الْعَقْلُ الْعَرَبِيُّ حَتَّى سُقُوطِ الْحُكْمِ الْعَرَبِيِّ
الْعَبَّاسِ فِي بَغْدَادَ وَالْعَرَبِيِّ الْأُمَوِيِّ فِي الْأَنْدَلُسِ وَقَدْ اسْتَعَارَ هَذِهِ الْفَتَاوَى الْحُكَّامُ الْمُسْلِمِينَ وَضَلَّ هُوَ
أَسَاسُ الْحُكْمِ فِي الْإِسْلَامِ حَتَّى سُقُوطِ مَاسْمُوهِ الْخِلَافَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ وَلَا زَالَ إِلَى الْيَوْمِ تَتَحَكَّمُ هَذِهِ الْفَتَاوَى فِي
أَعْنَاقِ النَّاسِ وَالْحُكُومِينَ فِي أَغْلَبِ الدُّوَلِ الْعَرَبِيَّةِ وَبَعْضِ الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ .

أَمَّا الْإِقْتِلَابُ الثَّانِي الَّذِي يُعَادِلُ الْأَوَّلَ بَلْ يَفُوقُهُ فَهُوَ إِقْتِلَابُ الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ عَلَى النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ وَالْهَدَفُ هُنَا هُوَ
نَفْسُهُ فِي الْإِقْتِلَابِينَ خِدْمَةِ السُّلْطَةِ وَالْحُكَّامِ وَهَذَا الْإِقْتِلَابُ أَسَاسُهُ وَرُكْنُهُ هُوَ الْعَقِيدَةُ الْبَاطِنِيَّةُ الَّتِي
أُتَّخِذَتْ مَذْهَبَ التَّأْوِيلِ أَسَاسًا لَهَا وَاتُّخِذَتْ مِنْ مَقُولَةِ الْقُرْآنِ حَمَالًا أَوْجُهَ لِتُفَعَّلَ فَعَلْتُهَا وَتَدَسَّ سَمُومَهَا
وَلَقَدْ سَتَحَدَّثُ مَفْهُومَ التَّأْوِيلِ أَثْنَاءَ حَدِيثِنَا عَنْ سِمَاتِ الْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ الْمَعَاصِرِ بَعْدَ قَلِيلٍ أَمَّا الْآنَ
فَسَتَحَدَّثُ عَنْ مَقُولَةِ الْقُرْآنِ حَمَالًا أَوْجُهَ سَنَرِي إِلَى مَنْ تُنْسَبُ هَذِهِ الْعِبَارَةُ وَمَا الْهَدَفُ مِنْهَا .

يُرَدُّدُ الْبَعْضُ عِبَارَةً يُنْسَبُهَا إِلَى الْخَلِيفَةِ الرَّابِعِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ تَقُولُ : "الْقُرْآنُ حَمَالٌ
أَوْجُه" .

فَمَا صِحَّةُ سَنَدِهَا إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ؟ وَمَا سِيَاقُهَا عَلَى فَرَضِ صِحَّتِهَا ؟ وَمَا مَدَى مَصَادِمَتِهَا
لِلْقُرْآنِ ؟

أَوَّلًا : لَا يُوجَدُ سَنَدٌ صَحِيحٌ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّهُ قَالَهَا رَغْمَ شُهْرَتِهَا وَطَيْرَانِهَا فِي الْأَفَاقِ وَتَلَقَّفَ
النَّاسُ لَهَا وَكَانَتْهَا نَصُّ قُرَّانِي ، وَالشُّهُرَةُ لَا تَعْنِي بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ الصَّحَّةِ ، وَلِذَلِكَ أَلْفَ الْعُلَمَاءِ كُتُبًا عَنْ
الْأَحَادِيثِ الْمَشْهُورَةِ عَلَى الْأَلْسِنَةِ وَتَجِدُ كَثِيرًا مِنْهَا لَا أَسَانِيدَ لَهَا أَصْلًا .

وَالْأَثَرُ لَمْ أَجِدْهُ بِاللَّفْظِ ، وَإِنَّمَا جَاءَ بِالْفِظِّ آخَرَ فَقَدْ رُوِيَ مَرْفُوعًا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَيَحْيَى بْنُ أَبِي أُسَيْدٍ .

I- عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " الْقُرْآنُ ذُلُومٌ ذُو وَجُوهِ فَاحْمَلُوهُ عَلَى أَحْسَنِ وَجُوهِهِ " .

أَخْرَجَهُ الدَّارِقُطْنِيُّ فِي سُنَنِهِ (4276) ، وَحَكَمَ عَلَيْهِ الْعَلَمَةُ الأَلْبَانِيُّ فِي "الضعيفة" (I306) بِأَنَّهُ ضَعِيفٌ جَدًّا وَأَعْلَهُ بِثَلَاثِ عُلَلٍ .

2- عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي أُسَيْدٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَنَّ الْقُرْآنَ ذُلُومٌ ذُو وَجُوهِ فَانْتَفُوا ذَلَّةً وَكَثْرَةَ وَجُوهِهِ "

ذَكَرَهُ ابْنُ حَزْمٍ فِي الأَحْكَامِ فِي أَصُولِ الأَحْكَامِ (3/28I) وَقَالَ : "مُرْسَلٌ لَا تَقُومُ بِهِ حِجَّةٌ" .

فَالْحَدِيثُ بِهَذَيْنِ الطَّرِيقَيْنِ لَا يَصِحُّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

أَمَّا الْمُوقُوفُ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَأَخْرَجَهُ الخَطِيبُ البُغْدَادِيُّ فِي "الفتية والمتفقه" (I/560) عَنِ الأَوْزَاعِيِّ قَالَ : "خَاصِمٌ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِ الأَهْوَاءِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ : يَا أَبَا الحَسَنِ ؛ أَنَّ الْقُرْآنَ ذُلُومٌ حُمُولٌ ذُو وَجُوهِ ، تَقُولُ وَيَقُولُونَ ، خَاصِمُهُمُ بِالسَّنَةِ فَإِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَكْذِبُوا عَلَى السَّنَةِ" .

وَهُوَ ضَعِيفٌ فِي سَنَدِهِ يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ البَابِلِيُّ قَالَ عَنْهُ ابْنُ حَبَّانَ : يَأْتِي عَنِ الثَّقَاتِ بِأَشْيَاءٍ مُعْضَلَاتٍ يَهُمُّ فِيهَا فَهِيَ سَاقِطٌ الأَحْتِجَاجِ فِيهَا أَنْفَرَدَ بِهِ .

وأيضاً في سنده الحسن بن جعفر السمسار ، قال عنه الحافظ ابن حجر في "اللسان" (2/198) :

"قال العتيبي : كان فيه تساهل" .

فالسند ضعيف ، وكذلك هو من قول ابن عباس لعلي بن أبي طالب وليس العكس .

ثانياً : على فرض صحة الأثر عن ابن عباس فالسياق لا يساعد المطلقين لها على الاستدلال بها فقد قالها علي بن أبي طالب عندما بعث ابن عباس للخوارج لتقاسمهم ومحاورتهم فأمره بعدم جدالهم في القرآن لأنه بالنسبة لهم حمال أوجه فإذا أردت أن تحاجهم فعليك بالسنة فهي مبينة وشارحة للقرآن .

ثالثاً : في هذا المقام لا بد من إيراد آية مهمة تكشف المتبعين للمتشابه لضربة بالحكم ، وهي قوله تعالى

: " هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في

قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر

إلا أولوا الأبواب" [آل عمران : ٧]

فالقائلون أن القرآن حمال أوجه لا شك أنهم من الذين وصفهم الله بالزيغ وابتاع التشابه ، ولذلك تقول

عائشة رضي الله عنها : " تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هو الذي أنزل عليك الكتاب منه

آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء

الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر

إِلَّا أَوْلُو الْأَبْتَابِ" قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَى اللَّهُ ، فَاحْذَرُوهُمْ" .

وَعَنْ أَبِي عِمْرَانَ الْجَوْنِيِّ ، قَالَ : كَتَبَ إِلَيَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رِيحِ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو قَالَ : هَجَرْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا ، قَالَ : فَسَمِعَ أَصْوَاتَ رَجُلَيْنِ اخْتَلَفَا فِي آيَةٍ ، فَخَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعْرِفُ فِي وَجْهِهِ الْغَضَبُ . فَقَالَ : "إِنَّمَا هَلَاكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الْكِتَابِ" .

وَضَرَبَ الْعَلَمَاءُ ابْنَ كَثِيرٍ مَثَلًا لِلتَّلَاعُبِ بِالآيَاتِ وَالْوُقُوفِ عِنْدَ الْمُتَشَابِهِ الَّذِي يُمَكِّنُهُمْ أَنْ يَحْرِفُوهُ إِلَى مَقَاصِدِهِمُ الْفَاسِدَةَ فَقَالَ : كَمَا لَوْ اخْتَجَّ النَّصَارَى بِأَنَّ الْقُرْآنَ قَدْ نَطَقَ بِأَنَّ عِيسَى رُوحَ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ الْقَاهَا إِلَى مَرِيَمَ وَرُوحَ مِنْهُ ، وَتَرَكُوا الْاِحْتِجَاجَ بِقَوْلِ : "إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ" ، وَبِقَوْلِ : "إِنْ مَثَلِ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" .

رَابِعًا : قَالَ الشَّيْخُ د . يُوسُفُ الْقُرْضَاوِيُّ رَدًّا عَلَى أَوْلِيَاءِ الْمُسْتَدَلِينَ بِمَقُولَةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ الْمُنْسُوبَةِ إِلَيْهِ : وَلَقَدْ اتَّخَذَ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ كَلِمَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ نَكَاةً يُعْتَمِدُونَ عَلَيْهَا فِي دَعْوَى عَرِيضَةٍ : أَنَّ الْقُرْآنَ يَحْتَمِلُ تَفْسِيرَاتٍ مُخْتَلِفَةً وَإِفْهَامًا مُتَبَايِنَةً بِحَيْثُ يُمَكِّنُ أَنْ يُحْتَجَّ بِهِ عَلَى الشَّيْءِ وَضِدُّهُ .

وَلَوْ صَحَّ مَا ادَّعَاهُ عَلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَعْنَى لِاجْتِمَاعِ الْأُمَّةِ بِكُلِّ طَوَائِفِهَا عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ الْمُصَدِّرُ الْأَوَّلُ لِلْإِسْلَامِ عَقِيدَةً وَشَرِيعَةً وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَعْنَى لَوْصَفِ اللَّهِ تَعَالَى الْقُرْآنَ بِأَنَّهُ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ، فَكَيْفَ يَكُونُ الْكِتَابُ الْمُبِينُ الْهُدَى وَالْفُرْقَانُ وَالنُّورُ غَامِضًا أَوْ قَابِلًا لِأَيِّ تَفْسِيرٍ يُشْرَقُ صَاحِبِهِ أَوْ

يغرب وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : "فَإِنْ تَنَارَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ" [النساء : 59] .

وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ الرَّدَّ إِلَى اللَّهِ يَعْنِي الرَّدَّ إِلَى كِتَابِهِ وَإِنِ الرَّدُّ إِلَى الرَّسُولِ بَعْدَ وَفَاتِهِ يَعْنِي الرَّدَّ
إِلَى سُنَّتِهِ ، فَإِذَا كَانَ الْكِتَابُ حَمَلًا أَوْجِهَ . كَمَا يَقَالُ . فَكَيْفَ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى بِرَدِّ الْمُتَنَارِعِينَ إِلَيْهِ ؟
وَكَيْفَ يُعْقَلُ أَنَّ يَرُدُّ التَّنَارُعَ إِلَى حُكْمٍ لَا يَرْفَعُ التَّنَارُعَ ، بَلْ هُوَ نَفْسُهُ مُتَنَارِعٌ فِيهِ ؟ . ١ . ه .

مَوَارِدُ الْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ الْحَدِيثِ وَالْمَعَاصِرِ

مِنْ أَهَمِّ سِمَاتِ فِكْرِنَا الْعَرَبِيِّ الْمَعَاصِرِ خَاصَّةً ظَاهِرُهُ الْعَدَدُ وَالتَّنَوُّعُ وَالتَّرْكِيبُ ، فَنِيهِ الْمَوْرُوثُ الْمَحَلِّيُّ
وَالدَّخِيلُ ، وَفِيهِ الْمَعَاصِرُ الْوَافِدُ وَغَيْرُ الْوَافِدِ ، وَبَيْنَ الْوَافِدِ وَالْمَوْرُوثِ يُوجَدُ تَعَدُّدٌ كَبِيرٌ وَتَنَوُّعٌ هَائِلٌ فِي
عَنَاصِرِ وَمَكُونَاتِ الْمَنْظُومَةِ الْفِكْرِيَّةِ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ وَالْإِسْلَامِيِّ ، هَذِهِ الْمَنْظُومَةُ الَّتِي تَتَفَاعَلُ بِدَاخِلِهَا
سَائِرُ عَنَاصِرِ الْمُظَاهِرِ الثَّقَافِيَّةِ وَالْفِكْرِيَّةِ وَالْمَعْرِفِيَّةِ فِيمَا بَيْنَهَا مِنْ جِهَةٍ وَمَعَ تَحَوُّلَاتِ الْعَصْرِ وَتَحَدِّيَاتِهِ مِنْ
جِهَةٍ أُخْرَى ، وَالتَّفَاعُلُ الدَّاخِلِيُّ بَيْنَ الْعُصُورِ عَنَاصِرِ الْمُرَكَّبِ لِلْمَنْظُومَةِ يَتِمُّ فِي تَوْافِقٍ وَأَنْسِجَامٍ عَلَى مَرَّ
وَإِخْتِلَافِ ظُرُوفِهَا التَّارِيخِيَّةِ وَتَجَدُّدِ الْبُنْيَةِ الْمَعْرِفِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ بِاسْتِمْرَارٍ مَعَ تَجَدُّدِ أَوْضَاعِ الْحَيَاةِ ، وَالَّذِي
يُدُلُّ عَلَى مَدَى التَّفَاعُلِ دَاخِلُ شَبَكَةِ الْمَنْظُومَةِ الْفِكْرِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ هُوَ اِرْتِبَاطُ الْفِكْرِ فِي هَذِهِ الشَّبَكَةِ بِالْحَيَاةِ
الثَّقَافِيَّةِ وَالْفِكْرِيَّةِ وَالْفَلْسَفِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ وَغَيْرِهَا ، وَبِكُلِّ مَا هُوَ عَرَبِيٌّ وَإِسْلَامِيٌّ فِكْرًا وَمُمَارَسَةً وَتَارِيخًا وَغَيْرَ

وَبِكُلِّ مَا ، وَبِكُلِّ التَّحَوُّلَاتِ وَالتَّحَدِيَّاتِ الْمُعَاصِرَةِ فِي الْعَالَمِ بِصِفَةِ عَامَّةٍ وَفِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ وَالْإِسْلَامِيِّ
بِصِفَةِ خَاصَّةٍ ،

التَّهْضُمَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْأُولَى ، الَّتِي بَدَأَتْ مُنْذُ قَرْنٍ وَنِصْفٍ مِنَ الزَّمَانِ ثُمَّ انْتَهَتْ إِلَى غَيْرِ مَا بَدَأَتْ بِهِ ، مِنْ بِنَاءِ
الدَّوْلَةِ إِلَى تَفْكُكُهَا ، وَمِنَ الْحَدَاثَةِ إِلَى السَّلَقِيَّةِ ، وَمِنَ التَّحَرُّرِ الْوَطَنِيِّ إِلَى الْاِخْتِلَالِ الْمُبَاشِرِ

فَجَمَالَ الدِّينَ الْأَفْغَانِيَّ وَتَلْمِيذَهُ مُحَمَّدَ عَبْدِهِ وَمُحَمَّدَ رَشِيدِ رِضَا الَّذِي هُوَ تَلْمِيذُ مُحَمَّدِ عَبْدِهِ وَهُمْ
الرُّوَادُ الْأَوَائِلُ لِلْفِكْرِ الْإِصْلَاحِيِّ الدِّينِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ وَالتَّرْبَوِيِّ وَالْاجْتِمَاعِيِّ هَذِهِ الْاجْتِهَادَاتُ لَمْ تَرْقُ إِلَى
مُسْتَوَى التَّنْظِيرَاتِ الْفُلْسَفِيَّةِ الَّتِي عَرَفَهَا الْفِكْرُ الْفُلْسَفِيُّ فِي الْغَرْبِ الْحَدِيثِ ، وَلَكِنْ قِرَاءَتِهِ لِلْوَاقِعِ وَفِي
تَحْلِيلِهِ وَتَقْدِيرِهِ لَهُ وَفِي تَصَوُّرِهِ لِمَنَاهَجِ حَلِّ الْمَشْكِلاتِ وَالتَّعَامُلِ مَعَ الْأَزْمَاتِ وَمَعَالِجَتِهَا ، كَمَا أَثَرَتْ هَذِهِ
الْاجْتِهَادَاتُ الْفُلْسَفِيَّةُ فِي الْجِيلِ الَّذِي جَاءَ فِيمَا بَعْدُ وَمِنْ أَفْرَادِ هَذَا إِلَيْهِ تَأْسِيسُ الدِّرَاسَاتِ الْفُلْسَفِيَّةِ
الْمُعَاصِرَةِ فِي الْعَالَمِ رَدُّ الْجِيلِ الْمُصْطَفَى عَبْدِ الرَّازِقِ ، وَكَذَلِكَ أَحْمَدُ لُطْفِي السَّيِّدُ الَّذِي يَعْتَبَرُهُ الْكَثِيرُ
قَيْلَسُوفَ الْجِيلِ الْأَوَّلِ ، وَأَبْرَزُ رُوَادِ الْفِكْرِ الْعِلْمِيِّ الْعِلْمَانِي سَبِيلِي شَمِيلِ وَفَرِحَ أَنْطُوَانُ وَسَالِمَةُ مُوسَى
وغيرِهِمْ ، وَلَمْ يَكُنْ هَؤُلَاءِ مِنْ دَاخِلِ الْجَامِعَاتِ ، التَّقَى فَكْرَهُمْ مَعَ الْفِكْرِ الْفُلْسَفِيِّ الْعِلْمِيِّ مِنْ دَاخِلِ
الْجَامِعَةِ ، وَأَبْرَزُ رُوَادِ الْفِكْرِ الْفُلْسَفِيِّ الْعِلْمِيِّ مِنْ دَاخِلِ الْجَامِعَةِ زَكِي نَجِيبُ مُحَمَّدُ وَفُؤَادُ زَكَرِيَّا
وغيرِهِمْ

مُنْظُومَةُ الْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ الْإِسْلَامِيِّ ، هَذِهِ الْمُنْظُومَةُ كَانَتْ عَرَبِيَّةً قَبْلَ أَنْ تَكُونَ إِسْلَامِيَّةً ، تَكُونُ الْفِكْرَ فِيهَا
بِدَايَةً وَتَمْهِيدًا مِنَ الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي هِيَ بِحُوزِهِ الْعَرَبُ قَبْلَ مَجِيءِ الْإِسْلَامِ ، كَانَتْ أَرْبَعَةَ اِتِّجَاهَاتٍ

أساسية هي الديانة اليهودية والديانة المسيحية والصابئة الثقافة التي تضم ومجمل ما احتواه ديوان العرب من شعر ونثر وحكم وأمثال وأخلاق وغيرها .

سِمَاتِ الْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ الْمَعَاصِرِ

إِنَّ أَهَمَّ سِمَةٍ مِنْ سِمَاتِ الْعُقْلِ الْعَرَبِيِّ الْمَعَاصِرِ هُوَ اعْتِمَادُهُ عَلَى مَبْدَأِ التَّأْوِيلِ فِي إِعْمَالِ التُّصُوصِ الْقُرْآنِيِّ وَفِي مَقَارِبَاتِهِ التَّأْوِيلِيَةِ الْمَعَاصِرَةِ لِلخَطَابَاتِ الدِّيْنِيَّةِ ، وَخَاصَّةً التَّصِ الْقُرْآنِيِّ نَجِدُ أَنَّ هَذِهِ الْمَقَارِبَاتِ سَلَكَتْ مَسْلَكِينَ فِي الْمَقَارِبَةِ وَالْمَعَالِجَةِ التَّأْوِيلِيَةِ الْمُسْلِكِ الْأَوَّلِ فَوْضُويَّةٍ فِي التَّأْوِيلِ الْمُمَارِسِ عَلَى النَّصِ الْمُقْدَسِ وَالْمُسْلِكِ الثَّانِي التَّقْدِيرِ .

وَهَلْ كَانَ مِنْ مَهَامِ الْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ الْمَعَاصِرِ أَنْ يَأْخُذَ عَلَى عَاتِقِهِ كَمَا يَحُلُو لِكثِيرٍ مِنْ رُؤُوسِهِ أَنْ يُسَمِّيَهُ الْخُرُوجَ مِنَ السِّيَاحِ الدَّوْعِمَائِيِّ الْمُغْلَقِ ، أَوِ الدَّائِرَةِ الْأَيْدُولُوجِيَّةِ ، وَالَّذِي يُرْعَمُ بِأَنْ تَرْسِيخَهُ ، وَتَشْغِيلَهُ ، وَأَعَادَهُ إِنْتَاجَهُ إِنَّمَا كَانَ مِنْ قَبْلِ الْمُوَسَّسَاتِ الدِّيْنِيَّةِ عَلَى مَدَى قُرُونٍ طَوَالَ .

وَالْوَاقِعُ أَنَّ التَّأْوِيلِيَّةَ - كَمَنْهَجٍ - اِرْتَبَطَ بِهِ الْفِكْرُ الْمَعَاصِرُ ، إِذْ لَا يَكَادُ يَنْفَكُ عَنْهُ ، لِأَنَّ الْحَدَاثَةَ يُورِخُ لَهَا بِمِيْلَادِ الْحَرَكَةِ التَّأْوِيلِيَّةِ . وَلِذَلِكَ تَرَى أَدُونِيسَ يُرْبِطُ بَيْنَ الْحَدَاثَةِ وَالتَّأْوِيلِ ،

فَالْحَدَاثَةَ عِنْدَهُ "بَدَأَتْ سِيَاسِيًّا بِتَأْسِيسِ الدَّوْلَةِ الْأُمُويَّةِ ، وَبَدَأَتْ فِكْرِيًّا بِحَرَكَةِ التَّأْوِيلِ" الْمَشَارِيعِ التَّأْوِيلِيَّةِ ظَلَّتْ فِي صِرَاعٍ بَيْنَ الْمُقْدَسِ وَالْمَدْنِسِ كُلِّ ذَلِكَ أَفْضَى إِلَى فَوْضُيٍّ فِي

قِرَاءَةِ التُّصُوصِ خَاصَّةً الدِّيْنِيَّةِ مِنْهَا ، وَهُوَ مَا يَعْكُسُ الْفَوْضُيَّةَ التَّأْوِيلِيَّةَ الَّتِي تَعْرِفُهُ السَّاحَةُ

الثَّقَافِيَّةِ وَالْفِكْرِيَّةِ مِنْ كَسْرٍ لِلْمَتَعَالِيَاتِ ، وَلَا مَكَانٍ لِلْمَقْدَسَاتِ ، فِي عَمَلِيَّةِ الْقِرَاءَةِ وَالتَّأْوِيلِ ، فِي ظِلِّ

هَذَا الصَّرَاحُ ظَهَرَ الدَّعَوَاتِ الَّتِي تَدْعُو لِنَزْعِ الْقِدَاسَةِ عَنِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالْعَامِلِ مَعَهُ مِنْ
حَيْثُ هُوَ تَاجِ بَشَرِي خَاصُّ لِعَامِلِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَلَيْسَ هُوَ وَحْدِي ، وَخِطَابِ رَبَّانِي جَاءَ
لِلْهُدَايَةِ الْبَشَرِيَّةِ .

إِنَّ الْفِكْرَ الْعَرَبِيَّ الْمُعَاصِرَ كَانَ يَتَّبِعِي عَلَيْهِ أَنْ يُدْرِكَ جَيْدًا خِلَالَ مُمَارَسَاتِهِ لِعَمَلِيَّةِ التَّأْوِيلِ أَنْ
الْأُمَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ وَالْعَرَبِيَّةَ تَنْتَمِي إِلَى حَضَارَةِ الْمُقَدَّسِ ، وَالْإِيمَانَ بِالْمُطْلَقِ ، وَأَنَّ مَشَارِعَ الْقِرَاءَةِ
التَّأْوِيلِيَّةَ الْمُعَاصِرَةَ مُحْكَمَةٌ عَلَيْهَا بِالْفِئَلِ إِذَا لَمْ تَنْطَلِقْ مِنْ خِلَالِ الْإِيمَانِ ، وَالْمُقَدَّسِ إِلَّا أَنَّ الصَّرَاحَ كَانَ قَدْ
اِحْتَدَمَ طَوَالَ الْقَرْنِ الْمَاضِي فِي بِلَادِنَا بَيْنَ تَيَّارِ يَنْتَمِي إِلَى حَضَارَةِ الْمَدَنِيِّ أَيْ التَّسْبِيَّةِ وَالْمَادِيَّةِ ، وَبَيْنَ تَيَّارِ
يُؤْمِنُ بِحَضَارَتِهِ ، وَثِقَاتِهِ مُتَشَبِّهَاتٍ بِمُقَدَّسَاتِهِ ، وَمُرْتَكَرَاتِهِ ، وَلَمَّا كَانَ التَّيَّارُ الْمَدَنِيُّ قَدْ تَشَبَّعَ بِالْحَضَارَةِ
الْمَادِيَّةِ الْغَارِيَّةِ ، وَشُرْبُهَا حَتَّى الثَّمَالَةَ ، وَهُوَ فِي ذَاتِ الْوَقْتِ يَرْغَبُ أَنْ يُسْكِكَ بِزِمَامِ الْمُبَادَرَةِ النَّهْضِيَّةِ
أَسْوَأَ مِنَ النَّهْضِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَلَكِنْ هُنَا وَاجِهَتِهِ حَضَارَةُ قُدْسِيَّةٍ مُتَقَاتِعَةٌ جِدًّا مَعَ الْمَادِيَّةِ التَّسْبِيَّةِ وَالْعَدْمِيَّةِ
، وَلِذَلِكَ فَقَدْ وَقَعَ فِي مَارِقِ التَّصَادُمِ بَيْنَ الْإِتْمَاءِ الْفِكْرِيِّ وَالثَّقَافِيِّ مِنْ جِهَةٍ ، وَالْإِتْمَاءِ الْوَطَنِيِّ وَالْقَوْمِيِّ
مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى .

إِنَّ تَجْرِبَةَ التَّقْدِ الْعَنِيفَةِ الَّتِي أَطَاحَتْ بِقُدْسِيَّةِ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ، كَانَتْ مِنْ أُبْرَزِ الْخَلْفِيَّاتِ الَّتِي سَاهَمَتْ
فِي نَشْأَةِ الْإِتِّجَاهِ التَّأْوِيلِيِّ فِي الْعَرَبِ ، فَظَهَرَ التَّيَّارُ التَّأْوِيلِيُّ فِي الْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ جَاءَ مُتَزَامًا مَعَ حَرَكَةِ التَّقْدِ
الَّتِي لَمْ تُسْتَسَنَّ حَتَّى الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ ، وَكَانَ مِنْ رُؤُوسِ هَذَا الْإِتِّجَاهِ الْفَيْلَسُوفُ الْهَوْلَنْدِيُّ سِيبنوزَا الَّذِي
كَانَ رَائِدَ مَدْرَسَةِ تَقْدِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ .

وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْمَدْرَسَةُ تَنْظُرُ إِلَى الْكُتُبِ الْمُقَدَّسَةِ بِوَصْفِهَا نُصُوصًا بَشَرِيَّةً تَخْضَعُ فِي نَقْدِهَا لِمَا
تَخْضَعُ لَهُ التَّصَوُّصُ الْبَشَرِيَّةُ مِنْ حَيْثُ التَّأَثُّرُ بِالْبِيئَةِ ، وَبِالظُّرُوفِ الزَّمَانِيَّةِ ، وَالْمَكَائِيَّةِ الَّتِي ظَهَرَتْ
فِيهَا تِلْكَ التَّصَوُّصَاتُ .

إِنَّ الْخُلْطَ الْمُنْهَجِي الَّذِي وَقَعَ فِيهِ الْفِكْرُ الْعَرَبِيُّ الْمَعَاصِرُ هُوَ تَبْنِيهِ لِنظريات وَمَنَاهِجٍ نَقْدِيَّةٍ
نَشَأَتْ فِي بَيْئَةٍ مَعْرِفَةٍ فِي الْإِنْسِيَّةِ ، وَتَسَعَى لِأَسْنَةِ الْمُقَدَّسِ ، وَتَسْتَبْعِدُ كَوْنَ الْوَحْيِ مَصْدَرًا لِلْمَعْرِفَةِ .
وَعِنْدَمَا تُنْزَعُ مِنَ الْقُرْآنِ قَدَاسَتُهُ يُصْبِحُ السُّؤَالُ الْمَرْعَبُ هَلْ يُنْتَقَدُ الْقُرْآنُ ؟ فَارْكَوْنِ يَعْرِفُ
بِمُكَايَنَةِ تَوْجِيهِ النَّقْدِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، لَكِنَّ الْفُرْصَةَ لَمْ تَحِنْ بَعْدُ فَيَقُولُ : "مِنَ الْمُسْتَحِيلِ عَمَلِيًّا فِي

اللَّحْظَةِ الرَّاهِنَةِ فَتَحَ مُنَاقَشَةَ نَقْدِيَّةٍ تَارِيخِيَّةٍ ، أَوْ حَتَّى مُنَاقَشَةَ تَأْوِيلِيَّةٍ بِخُصُوصِ الْقُرْآنِ"
بَلْ هُنَاكَ مَنْ يَتَجَاوَزُ الْأَمْرَ ، فَعَلَيْ حَرْبٍ يَقُولُ : "عَمَلِي يَقُومُ عَلَى إِخْضَاعِ الْقُرْآنِ لِمَحَكِّ النَّقْدِ التَّارِيخِيِّ
الْمُقَارِنِ" بَلْ يَذْهَبُ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَمَا يُتَمَرَّرُ أَنَّ النَّظْرَ إِلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ نَظْرُهُ نَقْدِيَّةٌ تَارِيخِيَّةٌ
يَزْعَمُ جَمِيعُ ابْنِيَّةِ التَّقْدِيسِيَّةِ وَالتَّنْزِيهِيَّةِ الَّتِي بَنَاهَا الْعَقْلُ الْإِلَهَوِيُّ التَّقْلِيدِي .

التَّأْوِيلُ كَمَنْهَجٍ يَسْعَى إِلَى تَفْكِيكِ الْخَطَابِ الْقُرْآنِيِّ وَتَعْرِيتِهِ مِنْ قَدَاسَتِهِ :
ظَهَرَ مِنَ التُّقَادِ مَنْ يُنْظَرُ إِلَى النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ كَمَنْهَجٍ ثَقَافِيٍّ ، أُنْتَجَهَ وَاقِعٌ بَشَرِيٌّ غَيْرٌ تَارِيخِيٍّ فِي مُعْظَمِ
الْأَحْيَانِ ، وَلِذَلِكَ تَعَامَلُ هَؤُلَاءِ التُّقَادُ مَعَ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ كَمَنْهَجٍ أَدَبِيٍّ قَابِلٍ لِفَضِّ إِسْرَارِهِ

اعتماداً على رؤية المؤول الخاصة .

إن التأويلية تسعى للإغناء المُقدَّسات نهائياً ، وكَسُرَ المتعاليات ، وَتَنْظُرُ لِلْوُجُودِ مِنْ مَنْظَرٍ
مَادِّيٍّ بَحْثٍ فَتَدْنِسُ الْمُقَدَّسَ وَتَقَدِّسُ الْمَدْنَسَ ، وَهَذَا مَا يُعْبَرُونَ عَنْهُ بِانْتِهَاءِ المتعاليات ، وَأَسْنَةِ
وَهَذَا مَا يُعْبَرُونَ عَنْهُ بِانْتِهَاءِ المتعاليات ، وَأَسْنَةِ الْمُقَدَّسِ ، وَأَسْنَةِ الْوَحْيِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ التَّعْبِيرَاتِ .
فَإِذَا كَانَتْ الدِّرَاسَاتُ الْعَرَبِيَّةُ اسْتَطَاعَتْ نَزْعَ الْقِدَاسَةِ عَنِ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ، فَهَلْ يُفْلِحُ
أَنْصَارُ التَّيَّارِ التَّوَالِيِيِّ كَمُحَمَّدٍ أَرْكُونَ وَغَيْرُهُ فِي تَفْكِيكِ الْخُطَابِ الْقُرْآنِيِّ وَتَعْرِيبِهِ مِنْ قِدَاسَتِهِ ؟ ،
فِيَأْمَلُ هَؤُلَاءِ أَنْ يَتَحَقَّقَ ذَلِكَ بِإِعْتِبَارِ أَنَّ التَّقْدِيسَ لِلْقُرْآنِ كَانَ سَبَبُ بَرَاةِ الْقُرْآنِ فِي التَّغْطِيَةِ
التَّارِيخِيَّةِ عَلَى أَرْضِيَّتِهِ ، وَلَكِنَّهُ يَرَى فِي مَكَانٍ آخَرَ ، أَنْ : " التَّقْدِيسُ لِلْمَكْتَبِ الْمُقَدَّسَةِ خَلَعَ عَلَيْهَا ،
وَأَسَدَلَ بِوَاسِطَةِ عَدَدٍ مِنَ الشَّعَائِرِ ، وَالطُّقُوسِ ، وَالتَّلَاعِبَاتِ الْفِكْرِيَّةِ الْاسْتِدْلَالِيَّةِ ، وَمَنَاهِجِ التَّفْسِيرِ
الْمُعَلَّقَةِ بِكَثِيرٍ مِنَ الظُّرُوفِ الْمُحْسُوسَةِ الْمَعْرُوفَةِ أَوْ تَمَكَّنَ مَعْرِفَتَهَا ، وَاقْصَدُ بِهَا الظُّرُوفَ السِّيَاسِيَّةَ
وَالْاجْتِمَاعِيَّةَ وَالثَّقَافِيَّةَ . . . وَهَذَا التَّقْدِيسُ الَّذِي خَلَعَ وَأَسَدَلَ قَدْ تَوَضَّحَتْ أَسْبَابُهُ وَبَرَّهَنَ عَلَيْهَا
فِيمَا يَخْصُ التَّوْرَةَ ، وَالْإِنْجِيلَ ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَحْضَلْ حَتَّى الْآنَ فِيمَا يَخْصُ الْقُرْآنَ ، وَيَطْرَحُ السُّؤَالَ :
لِمَاذَا ؟ وَالْجَوَابُ عِنْدَهُ بِسَبَبِ الظُّرُوفِ السِّيَاسِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ وَالتَّرْبُويَّةِ لِلْمَجْتِمَعَاتِ السَّائِدَةِ " .
وَحَتَّى يَتَحَقَّقَ هَذَا الْمُقْصِدُ صَاغُوا لَنَا مَجْمُوعَةً مِنَ الْمُصْطَلَحَاتِ تُطْلَقُ عَلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ

أجل زخزحه المقدس ، واستبداله بمفاهيم مدسة جديدة تُقبل النقد ، والتحوير ، والإسقاط ،
فأطلقوا على القرآن مجموعة من المصطلحات : رواية ، أو مجموعة روايات ، أو هو مجرد حكاية من
الحكايات ، أو ملاحم دراماتيكية لساحر الخارق الخلاب ، أو المدونة القرآنية ، أو المدونة
النصية القرآنية ، أو المدونة الرسمية ، أو النص الرسمي القانوني ، . . . وغيرها من المصطلحات .
الخلط بين النص الأدبي والنص الديني : التأويل ارتبط أصلاً بالنص الديني قبل أن
يرتبط بالنص الأدبي ، لكنه انتقل إلى النص الأدبي ، ثم أتى الحداثيون العرب ليقبلوا المسألة ،
ويأخذوه إلى تأويل القرآن ، ويدووا في فوضوية التأويل ، والعبت بالتصوص فساداً زاعمين أنه
نص كباقي التصوص قابل للتأويل والدراسة كما لو كان كتاباً أرضياً .
لو اقتصر الأمر على الدراسات الأدبية فلنيس هناك إشكال ، ولا مساحة في الاصطلاحات ، لكنهم
استخدموا هذه المناهج الأدبية بفلسفاتها الأوروبية من ذبونية وفوضوية ، وعبئية ، ومادية ، وغير ذلك
؛ استخدموها في الخطابات الدينية .
يسمون أنفسهم بأصحاب الفكر المستنير أو مفكرو الحدائثة أو غيرهم من الذين يتبنون اتجاهات
فكرية وعلمانية حديثه ويتأولون التصوص ، ومن ثم فلا حرج عليهم في ذلك ؛ لأن هذه نزعت
عنها القداسة لذلك هم يستخدمونها بأي منهج يريدون ، لأن القول بالوهية ، وقدسية هذه
التصوص - في نظرهم - تجعلها نصوصاً مستغلقة الفهم على الإنسان العادي ، ومن هنا نشأ

الْخُلُطِ الْوَاضِحِ بَيْنَ النَّصِّ الدِّينِيِّ ، وَالنَّصِّ الْأَدْبِيِّ عِنْدَ تَقَادُحِ الْحَدَاثَةِ . وَهَذَا مَا صَرَخَ بِهِ أَرْكَونُ

عِنْدَمَا يَقِفُ فِي وَجْهِ الْقُرْآنِ وَيَتَصَدَّى لَهُ ، فَالْقُرْآنُ يَرْسُخُ الْأَدْلَجَةَ وَالْأَسْطَرَةَ وَالتَّقْدِيسَ ، "

إشكاليات التَّأْوِيلِ :

خِرَافَةُ الْمُقْصِدِيَّةِ : لَعَلَّ مِنْ أُبْرَزِ الثُّغَرَاتِ الْمُنْهَجِيَّةِ الَّتِي غَفَلَ عَنْهَا ، أَوْ تَغَافَلَهَا أَصْحَابُ

الْقِرَاءَاتِ التَّأْوِيلِيَّةِ لِلنَّصِّ الْقُرْآنِيِّ هَذَا التَّجْرِيدَ لِلنَّصِّ عَنْ مُقْصِدِيَّتِهِ الْعَلْنِيَّةِ وَأَهْدَافِهِ الْكُبْرَى ،

وَتَعْيِيبَهُ عَنْ غَايَاتِهِ الَّتِي تَتَّحَدَّدُ فِي الْهَدَايَةِ وَالْإِرْشَادِ وَالزُّكِّيَّةِ وَالْعُمْرَانِ وَحِفْظِ الْوُجُودِ الْبَشَرِيِّ

وَاسْتِدَامَتِهِ ، وَإِخْرَاجِ الْبَشَرِيَّةِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ يُعَدُّ مِنْ أُبْرَزِ الْإِخْفَاقَاتِ الَّتِي سَقَطَتْ فِيهَا

هَذِهِ الْمَشَارِيعُ الَّتِي اخْتَارَتْ إِبْعَادَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَنْ رِسَالَتِهِ وَمَقَاصِدِهِ . وَالنُّزُوعَ نَحْوَ التَّحْدِيثِ

وَالتَّجْرِيدِ وَالْعَصْرَةِ .

وَفِي ظِلِّ الْجَنَائِزِ الْمِتَالِيَةِ ؛ الَّتِي نَشَرَ وَرَقَةَ نَعِيهَا الْفِكْرُ الْعَرَبِيُّ وَهِيَ مَوْتُ الْإِنْسَانِ ، وَمَوْتُ اللُّغَةِ ، وَمَوْتُ

الْكَلِمَةِ ، وَمَوْتُ الْمُؤَلَّفِ ، وَمَوْتُ النَّصِّ ، وَمَوْتُ الْأَلَةِ . . . هَلْ نَشْهَدُ جَنَازَاتِ أُخْرَى كَمَوْتِ النَّاقِدِ .

وَالْقَارِئِ . . ؟ كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ تُطَبَّقَ عَلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ نَظَرِيَّةُ مَوْتِ الْمُؤَلَّفِ ، وَاسْتِقْلَالِ النَّصِّ وَقِيَامِهِ

كُونًا مُسْتَقِلًّا بِذَاتِهِ يُفْهَمُهُ كُلُّ قَارِئٍ كَمَا يَشَاءُ ؛ حَيْثُ إِنَّهُ لَا مَانِعَ لَدَى هَؤُلَاءِ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ تَفْسِيرَاتٌ

بَعْدَ

الْقِرَاءِ ؛ بَلْ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ ! فَهَذَا الْغِذَامِيُّ بَعْدَ أَنْ أَطَالَ فِي تَقْرِيرِهِ هَذَا الْأَمْرَ ، يَجْعَلُهُ مِنْ أَعْظَمِ

مميزات المنهج ، وأسمى خصائصه : "الكاتب صاغ النص حسب مُعجَمة الألسني ، وكل كلمة من

تُحْمَلُ مَعَهَا تَارِيحًا مَدِيدًا ، ومتنوعاً وَعَى الكَاتِبِ بَعْضُهُ ، وَغَابَ عَنْهُ بَعْضُهُ الْآخِرُ ،

ولكن هَذَا الْغَائِبُ إِنَّمَا غَابَ عَنِ ذَهْنِ الْكَاتِبِ ، وَلَمْ يَغِبْ عَنِ الْكَلِمَةِ الَّتِي تَظَلُّ حُبْلَى بِكُلِّ

تَارِيخِيَاتِهَا ، وَالْقَارِئُ حِينَئِذَا يَسْتَقْبِلُ النَّصَّ فَآهَ يَلْقَاهُ حَسَبَ مُعْجَمَةٍ ، وَقَدْ يُمَدُّ هَذَا الْمُعْجَمُ

بِتَوَارِيحِ الْكَلِمَاتِ مُخْتَلِفَةً عَنِ تِلْكَ الَّتِي وَعَاهَا الْكَاتِبُ حِينَئِذَا أُنْذِعَ نَصُّهُ ، وَمِنْ هُنَا تَنْتَوِعُ الدَّلَالَةُ

وَتَضَاعَفَ ، وَيَسْتَمَكِّنُ النَّصُّ مِنَ الْكَيْشَافِ قِيَمٍ جَدِيدَةٍ عَلَى يَدِ الْقَارِئِ ، وَتَخْتَلِفُ هَذِهِ الْقِيَمُ وَتَنْتَوِعُ

مِنْ قَارِئٍ ، وَآخَرُ ؛ بَلْ عِنْدَ قَارِئٍ وَاحِدٍ فِي أَرْزَمِيَّةٍ مُتَّفَاوِتَةٍ ، وَكُلُّ هَذِهِ التَّنَوُّعَاتِ هِيَ دَلَالَاتٌ

لِلنَّصِّ حَتَّى وَإِنْ تَنَاقَضَتْ مَعَ بَعْضِهَا الْبَعْضُ "

وَأَهَمُّ مَا خُذَ عَلَى نَظَرِيَّةِ مَوْتِ الْمُؤَلِّفِ هُوَ تَطْبِيقُهَا عَلَى النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ بِأَنَّهُ نَصٌّ كِبَارِي

التَّصْوُصِ ، وَبِالتَّالِي تَطْبِيقُ نَظَرِيَّةِ بَارْتِ ، وَالتَّنَاصُ وَنَسْقَطُهُ كُلَّهُ عَلَى النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ ، أَيُّقْبَلُ مُسْلِمٌ

تَطْبِيقُ هَذَا الْكَلَامِ عَلَى الْقُرْآنِ ؟ وَهُوَ بِذَلِكَ خَرَجَ مِنَ الْبَشَرِيِّ إِلَى الْإِلَهِيِّ مِمَّا يُفْقَدُهُ قَدْسِيَّتُهُ ،

وَإِعْجَازُهُ ، وَقَدْ وَقَعَ فِي هَذَا بَعْضُ الْبَاحِثِينَ .

إِنَّ أَهَمَّ مَا يُمَيِّزُ النَّصَّ الْقُرْآنِيَّ مُنْذُ الْأَزَلِ ، إِنَّمَا هُوَ مَرَجِعِيَّتُهُ الرَّبَّائِيَّةُ ، فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ

الْمُرْسَلُ لِلْوَحْيِ إِلَى الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رِسَالَةً مِنَ السَّمَاءِ ، فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هُوَ كَلَامُ

اللَّهُ تَعَالَى يُحْمَلُ كُلُّ صِفَاتِهِ الْأَرْثِيَّةِ ، فَكَيْفَ يُمَكِّنُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ تَطْبِيقَ عَلَيْهِ مَوْتُ الْمُؤَلَّفِ ؟ لِمَاذَا

يَصِرُ أَهْلُ الْحَدَاثَةِ عَلَى إِحْدَاثِ ثَوْرَةٍ فِي الْفِكْرِ الدِّينِيِّ أَوْ فِي الْعَقْلِ الْإِلَهِيِّ ، وَخَاصَّةً فِي مَسْأَلَةِ

مَوْتُ الْمُؤَلَّفِ ، إِذَا كَانَتْ الدِّرَاسَاتُ الْغَرْبِيَّةُ نَزَعَتْ الْقَدَاسَةَ عَنِ الْكِتَابِ ، وَدَخَلَتْ فِي الدَّائِرَةِ الْعَرِيضَةِ

لِأَسْبَابِ التَّأْوِيلِ ، فَهَلْ يَحِقُّ لِلْفِكْرِ التَّنْوِيرِيِّ نَزْعَ الْقَدَاسَةِ عَنِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَمَا نَزَعَتْ الْقَدَاسَةَ عَنِ

الْكِتَابِ السَّمَاوِيَّةِ الْأُخْرَى .

أَصْبَحَتْ جَلَّ الدِّرَاسَاتُ التَّقْدِيمِيَّةُ الْحَدِيثَةُ تَوَجَّهَ اِهْتِمَامُهَا إِلَى التَّأْوِيلِ لَا إِلَى التَّفْسِيرِ ، وَقَدْ بَدَأَ ذَلِكَ

بَاهْتِرَازِ صُورَةِ الْمُؤَلَّفِ كَصَوْتٍ وَهَيْمَنَةِ ؛ بَلْ وَصَلَ ذَلِكَ إِلَى حَدِّ دَخْضِ وُجُودِهِ أَصْلًا ، كَمَا قَدْ فَعَلَ كُلُّ

مِنْ مِيشِيلِ فُوكُو وَبَارْتِ وَأَخْرَيْنِ . . . وَفِي ظِلِّ تَنَازُعِ السُّلْطَةِ بَيْنَ النَّصِّ ، وَالْقَارِئِ الَّذِي هُوَ مَحْوَرُ

الْعَمَلِيَّةِ

التَّأْوِيلِيَّةِ لِلْخِطَابِ الدِّينِيِّ وَجَوْهَرُهَا ، أَنْ تَوَازَنَتْ تَوَازُنَ التَّأْوِيلِ ، وَإِنْ رَجَحَتْ كَهْفَهُ النَّصِّ أَعْجَزَ الْقَارِئُ

وَأَنْقَادَ لَهُ ، وَإِنْ رَجَحَتْ كَهْفَهُ السُّلْطَةِ لِلْقَارِئِ ، يُضْبِحُ النَّصُّ قَابِلًا لِتَعَدُّدِ الْقِرَاءَاتِ وَالِاخْتِلَافَاتِ ،

وَمَسْلُكًا لِصِنَاعَةِ تَجَارِيهِمْ ، وَبَثَّ أَحْكَامِهِمْ ، وَأَهْوَاهِهِمْ ، وَيُضْبِحُ النَّصُّ لِعَبْهِ يَدِ الْقَارِئِ ، فَهُوَ كَقَارِئِ

لِلنَّصِّ يَعْذُو مُنْتَجِعًا الْأَوْحَدِ ، الْمُنْتَجِعُ لَا الْمُسْتَهْلِكُ مِمَّا يَغْرَقُ التُّصُوصَ فِي فَوْضُوئَةِ التَّأْوِيلِ .

وَلِذَلِكَ أَصْبَحَتْ التَّأْوِيلِيَّةُ تَدْعُو لِعَدَمِ الرِّضْوَحِ لِأَيَّةِ سَلْطَةٍ حَاكِمَةٍ لِلْقِرَاءَةِ وَالتَّفْسِيرِ ، سِوَى سَلْطَةِ الْقَارِئِ

وَحُرِّيَّتِهِ فِي تَأْوِيلِ النَّصِّ وَهَذَا مَا دَفَعَ لِلِاخْتِفَالِ بِمِيلَادِ سَلْطَةِ الْقَارِئِ بِإِعْتِبَارِهِ الْجَانِبِ الْمُهْمَمِ فِي عَمَلِيَّةِ

الْخِطَابِ ، فَهُوَ مَحْوَرُ التَّوَلِيدِ الدَّلَالِيِّ ، وَمَحْوَرُ التَّأْوِيلِ ، وَالِاسْتِجَابَةِ الْجَمَالِيَّةِ الْخَلَاقَةِ ،

عدم وجود إمكانية قراءة صحيحه : فلقد اعترض الاتجاه التأويلي على سلطه النص المطلقة ، ونفى وجود إمكانية قراءة صحيحه ، أو قرينة للنص بدعوى أن مستويات القراءة ، والتلقي تتنوع سعة ، وعمقاً من قارئ إلى آخر تبعاً لسياقه الفكري ، والثقافي ، وتبعاً لمؤهلاته الذاتية ، . . . فالمتلقي له شرعية التأويل الحر تبعاً لثقافته وتجربته الذاتية .

إن الانقلاب الذي حدث في مشاريع القراءات التأويلية للتصوص القرآنية قديماً ، وحديثاً يقف على حقيقة : رهن المعنى في دلالته التاريخية ، إذ كل ذلك مثل خطراً على الفكر الإسلامي ، وعلى النص القرآني ذاته ، لأنه يجرد كلام الله من الشهادة الخالدة على الناس ، والتحرك الإيجابي مع صيرورة التاريخ البشري .

لقد كانت دوافع أصحاب هذا الاتجاه مفهومة ، إذ واجهوا تياراً لا يقل خطوره على النص منهم ، وهو تيار غالى في تجاهل المعنى التاريخي ، وأنتج تأويلات شاذة بعيدة عن مقاصد المبدع المنزل .

وفي ظل الانفجار المعرفي الذي تشهده الدراسات النقدية المعاصرة ؛ خاصة مع ظهور المقاربات المنهجية المختلفة ؛ حيث استعان أصحاب المشاريع التأويلية في الفكر العربي المعاصر

ببعض هذه المنهجيات النقدية المعاصرة في استنطاق النص القرآني ؛ دون مراعاة خصوصية

الخطاب القرآني ؛ فتنازلت المقاربات لدرجة يصعب معها الاهتداء إلى روح النص وجوهره ؛

ذلك أنها هزت أركان المعرفة العلمية بدورانها في فلك الدائرة التأويلية ؛ إذ لا توجد ذات

قَصْدِيَّةٌ وَوَاعِيَةٌ تَكُونُ مَرْتَكِزًا لِلْعَمَلِيَّةِ التَّأْوِيلِيَّةِ ، وَلَا تُوجَدُ مَوْضُوعَاتٌ خَارِجِيَّةٌ مُسْتَقَاةٌ عَنْ هَذِهِ

الذَّاتِ ، وَلَكِنْ كُلُّ مَا هُنَاكَ مِنْظُورَاتٌ مُبَيَّنَةٌ وَمَتْرَاحَةٌ . . .

وَبَقِيَ الْمُمَارَسَةُ التَّأْوِيلِيَّةُ الْمُنتِجَةُ لِلْمَعْنَى ضَرُورَةٌ مَعْرِفِيَّةٌ وَحَضَارِيَّةٌ ، وَكُلُّ مُحَاوَلَةٍ تَسْعَى لِتَغْيِيبِ

النَّصِ ، وَقَطْعِهِ عَنْ إِطَارَةِ الرُّوْحِيِّ ، وَالثَّقَافِيِّ وَالْإِنْسَانِيِّ ؛ سَيَكُونُ مَالِهَا الْفَشَلُ ؛ وَهَذَا قُصُورٌ فِي

الْفَهْمِ وَعَجَزٌ عَنْ إِدْرَاكِ حَقِيقَةِ الْعَمَلِيَّةِ التَّأْوِيلِيَّةِ ؛ لِأَنَّ : النَّصَّ مُمَارَسَةَ ذَاتِ مَعْنَى وَلَيْسَ فِعْلًا

مَا التَّهَيَّاتِ الْمَعْنَى : التَّأْوِيلَاتِ الْمُنَاسِلَةِ الَّتِي لَا تَهَيَّاتُ لَهَا نَفْضِي إِلَى مَا لَا تَهَيَّاتُ الْمَعْنَى ،

وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُؤَلَّفَ قَدْ مَاتَ ، وَابْتَحُثَ عَنْ مَقَاصِدِهِ وَهُمْ ، وَلَا تُوجَدُ قِرَاءَةٌ بَرِيَّةٌ ، وَاللُّغَةُ نِظَامٌ

مِنَ الرُّمُوزِ ، وَالْإِشَارَاتِ ، فَإِنَّ التَّهَيَّاتِ لِأَبَدٍ أَنْ تَكُونَ "لَا نَهَائِيَّةَ الْمَعْنَى ، كَيْفَ يُمَكِّنُ تَطْبِيقَهَا عَلَى

الْقُرْآنِ ؟

إِنَّ الْمَعَانِي الَّتِي تُلْحَقُ بِهِ لَيْسَتْ مِنْهُ ، وَإِنَّمَا مَعَانِي الصَّكِّهَا عَدَدٌ مِنَ الْقُرَاءِ بِالنَّصِّ ، وَهَذَا مَا

يُبْحَثُونَ عَنْهُ لِأَنَّ رَفْضَ الْمَعْنَى النَّهَائِيَّةِ يُعْبَرُ نَشَاطًا ثَوْرِيًّا ، لِأَنَّهُ فِي التَّهَيَّاتِ رَفْضٌ لِلْأَقَانِيمِ

وَقَبُولٌ لِلْعَقْلِ وَالْعِلْمِ وَالْقَانُونِ .

فَاتِّجَاهَ مَا بَعْدَ الْحَدَاثَةِ يَسْعَى إِلَى إِعَادَةِ تَعْرِيفِ الْحَقِيقَةِ وَتَجْرِيدِ صِفَةِ الْمَطْلُوقَةِ مِنْهَا بِكُونِهَا

مُتَغَيِّرَةٌ ، وَزَعْرَعَةُ الثَّقَةِ بِهَا وَبِأَيَّةِ ثَوَابِتِ تَمْتَلِكِ صِفَةِ الْإِطْلَاقِ "مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ سَعَتْ حَرَكَةٌ مَابَعْدَ

الْحَدَاثَةُ إِلَى تَأْصِيلِ النَّصِّ وَانْفِتَاحِهِ ، وَقُدْرَتِهِ عَلَى إِنْكَارِ الْحَدِّ وَالْحُدُودِ ؛ مِمَّا يَجْعَلُهُ يَقْبَلُ التَّأْوِيلَ
الْمُسْتَمِرَّ وَالتَّحْوِيلَ وَالِدَائِمَ ، وَبِذَلِكَ -حَسَبَ رَأْيِهِمْ- تَتَحَوَّلُ النَّصُوصُ إِلَى نَصُوصٍ لَانْتِهَائِيَّةٍ فِي
نَاصِيئِهَا ، وَلَا مَحْدُودِيَّةٍ فِي مَعَانِيهَا ؛ مِمَّا يَقْضِي إِلَى تَعَدُّدِ الْحَقَائِقِ ، وَالْعَوَالِمِ بِتَعَدُّدِ الْقِرَاءَاتِ "
النَّصِّ الْمَفْتُوحِ : يُعَدُّ مِنَ الْمَصْطَلَحَاتِ مَا بَعْدَ الْحَدَاثَةِ ، وَهَذَا الْمَصْطَلَحُ يَعْنِي أَنَّ النَّصَّ قَابِلٌ
لِلتَّأْوِيلِ الْمُسْتَمِرِّ ، وَالتَّحْوِيلِ الدَّائِمِ ؛ إِذْ أَنَّهُ يَتَعَدَّدُ بِتَعَدُّدِ الْقِرَاءِ وَكَأَنَّهُمْ يَرُدُّونَ مَقُولَةَ الْقُرْآنِ حَمَالًا أَوْجُهَ
الَّتِي تُحَدِّثُنَا عَنْهَا لِعَرَضٍ هُوَ تَضْيِيعُ الْمَعْنَى وَالْقُصْدُ وَانْفِلَاتِهِ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْقُرَّاءَ لَيَسُؤُوا عَلَى
شَاكِلِهِ وَاحِدَةً ؛ إِذْ تَخْتَلِفُ طَبَائِعُهُمْ ، وَثِقَاتُهُمْ ، وَنَفْسِيَّاتُهُمْ وَأَحْوَالُهُمْ ، وَهُمْ يَحْمِلُونَ سَائِرَ هَذِهِ
الْأَحْوَالِ إِلَى النَّصِّ الَّذِي عَدَا النَّظْرَ إِلَيْهِ نَسْبِيًّا غَيْرَ مَوْضُوعِيٍّ ؛ وَبِذَلِكَ يَحْتَمِلُ مِنَ الْمَعَانِي وَالْمَضَامِينِ
مَا لَمْ يَرُدَّهُ قَائِلُهُ حَتَّى لَيَقُولَ فِيهِ مِنْ شَاءَ مَا شَاءَ ، فَالْقِرَاءَةُ -عِنْدَهُمْ- هِيَ خَلْقٌ جَدِيدٌ لِلنَّصِّ
وَإِكْتِشَافٌ إِبْعَادٌ فِيهِ رُبَّمَا لَمْ تَكُنْ مَقْصُودَةً فِي نَشَأَتِهِ الْأُولَى ، وَبِهَذَا يَتَغَيَّرُ مَعْنَى النَّصِّ ، وَيَتَمَّ
تَأْوِيلُهُ حَسَبَ الْأَحْوَالِ وَالْفُرُوقِ وَالْبِيئاتِ وَالْحَضَارَاتِ وَالْعُصُورِ ، وَقَدْ أَلْفَتْ كَثِيرٌ مِنَ الْكُتُبِ
الَّتِي تَنَاوَلَتْ النَّصَّ الدِّينِيَّ مِنْ هَذِهِ الْوَجْهَةِ ، وَلَوْ اقْتَصَرَ الْأَمْرُ عَلَى الدِّرَاسَاتِ الْأَدَبِيَّةِ لَقُلْنَا لَا
مُشْكِلةً فِي الْإِصْطِلَاحِ ، لَكِنْ عِنْدَمَا يَنْقَلُ هَذَا التَّصَوُّرُ عَنِ النَّصِّ الْمَفْتُوحِ مِنَ الْمَجَالِ الْأَدَبِيِّ ،
وَالنَّقْدِيِّ إِلَى الْمَجَالِ الْفِكْرِيِّ ، وَإِلَى الْمَجَالِ الْفُلْسُفِيِّ ، وَإِلَى الْمَجَالِ السِّيَاسِيِّ ، وَخَاصَّةً إِلَى الْمَجَالِ

الأيدولوجي هنا يكمن الخطر .

الحق أن هذه الرؤية الحداثية التي كان لها أساس في الموروث العقلي الديني وخاصة العقل الباطني منه
فهي انتقلت أيضا مع الكثير من الفلسفات والعقائد التي نقلوها من الفكر الغربي ، وإن بدأت بالنص
الأدبي ، ثم تحولت إلى النص الديني ؛ فإنها في الفكر الغربي لم تكن نتاج النظريات الأدبية في
القرن العشرين ؛ وإنما انطلقت - ومُنذ تاريخ طويل - من الدين ، حيث نشأت في إطار الجدل
الذي ثار حول النظر إلى الإنجيل حينما حطم لوتر النظام القائم ، ودعا إلى مسألة تعدد المعاني
في الكتاب المقدس ، وهذا يعني أن كل اختلاف في التأويل إنما هو موجود أصلا في النص ،
ويهدأ بحول معنى النص لصالح المعنى الذي عند المُتلقي ؛ فيترسخ لذلك مبدأ الحرية في التأويل ،
ويحطم المرجع الواحد الذي تحاكم على أساسه التأويلات وتقام مقامه مرجعيات مُعددة
بَعْدُ الذوات المُؤولة ، وهو ما يُسميه تودورف Todorov "بالعدمية ، وهذه العدمية - عنده -
تجيء بشكل مباشر من إنبهار العقائد المُشتركة لكل المُجتمع ، وبذلك يُصبح النص مفتوحا ، وقابلا
لكل التأويلات المُتقاربة بل والمتناقضة أيضا .

أما النص المفتوح وعلاقته بالوحي فيتجلى ذلك في هجوم نصر حامد أبو زيد ، ومحمد أركون
على نصوص القرآن ، حيث يرى أبو زيد أن النصوص الدينية ليست سوى نصوص لغوية ،
ويتبنى القول بشريتها ، ويتأدي بتأويلها تأويلا مفتوحا متنوع القراءات بحسب نوعيه ، وعدد

القراء ؛ لأنه يرى أن التمسك بجرفية النص ، ودلالاته اللغوية يجعل النص مغلقاً ، ومن ثم ينحصر

فهم النص في أقلية مستبدة مسيطرة حسب قوله ، ونحواً من هذا الطرح ، ومن زاوية تاريخية

يدرس أركان نصوص الوحي وفق مفهوم النص المفتوح أيضاً ، وضمن منظور الدلالات

المفتوحة القابلة للتجدد مع تغير آفاق القراءة ، المرتهن بتطور الواقع اللغوي والثقافي - حسب

كلامهم .

التعارض بين المعقول والمنقول : من تجاذبات العقل والتفل في التأولية الحديثة

أسبقية العقل على النص مما يؤدي إلى تحويل الفهم ، والتفسير إلى عملية إليه تحكمها سلطه

المنقول ، وهو ما يجعلها تتعالى على التاريخ .

نصر حامد أبو زيد يزعم أن النصوص في ذاتها لا تمتلك أي سلطه اللهم إلا السلطه المعرفية التي يحاول

كل نص بما هو نص ممارستها في المجال المعرفي الذي ينتمي إليه ، وهذه السلطه - أي المعرفية - لا

تتحول إلى سلطه ثقافية اجتماعية إلا بفعل الجماعة التي تبنى النص ، وتحوّله إلى إطار مرجعي ،

وأما السلطه التي تتمتع بها النصوص هي التي يضيفها عليها العقل الإنساني ، ولا تتبع من النص ذاته .

وهذا كلام مردود منطقياً فالتص لا يستمد قدسيته ومصداقته ومقاصده من الخارج أو من الآخر

التاقد أو المفسر أو القارئ بل من ذاته وهي صفات مطلقة فيه ولا يمكن إذا اتخذ الجميع ذات المنهج

الصَّحِيحَ وَالْبَرِّيَّ فِي قِرَاءَتِهَا فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ خِلَافَاتٌ فِي هَذَا الْفَهْمِ وَهَذِهِ الْقِرَاءَاتُ لَكِنَّ إِنَّ
الْاِخْتِلَافَ فِي النَّصِّ هُوَ اِخْتِلَافٌ ظَاهِرٌ أَوْ نِسْبِيٌّ سَبَبُهُ الطَّرْفُ الْمُقَابِلُ وَلَيْسَ النَّصُّ .

لَقَدْ سَادَ الْخِلَافُ طَوِيلًا بَيْنَ أَنْصَارِ الْإِتِّجَاهِ الثَّقَلِيِّ ، وَأَنْصَارِ الْإِتِّجَاهِ الْعُقْلِيِّ حَوْلَ مَسْأَلَةِ أَسْبَقِيَّةِ الدَّلِيلِ
الثَّقَلِيِّ عَلَى الْعُقْلِيِّ أَوْ الْعَكْسِ ، وَقَدْ كَانَ لِهَذِهِ الْقَضِيَّةِ الَّتِي إِحْتَدَمَتْ مُنْذُ وَقْتِ مُبَكَّرٍ أَثَرًا فِي التَّفَكِيرِ
الْإِسْلَامِيِّ عَبْرَ الْقُرُونِ ، وَبَقِيَتْ تَنَازَعَهَا الْأَرَاءُ ، وَتَضَارَبَ حَوْلَهَا الْأَفْكَارُ ، وَاتَّخَذَهَا الْبَعْضُ مَطْيِئَةً
لِإِطْلَاقِ الْعِنَانِ لِلْعُقْلِ ، وَتَحْكِيمِهِ فِي تَفْسِيرِ كُلِّ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ .

فَلَقَدْ ظَلَّتْ هَذِهِ الْمَنَاهِجُ مُجَرَّدَ أَدْوَاتٍ لِمَرْمِرِ الْإِخْتِيَارَاتِ ، وَالتَّوَجُّهَاتِ ، وَالرُّؤْيَى الْمَذْهَبِيَّةِ الَّتِي يَحْمِلُهَا
أَصْحَابُ هَذِهِ الْمَشَارِيعِ مِمَّا أَسَاءَ كَثِيرًا إِلَى هَذِهِ الْمَنَاهِجِ وَغَيَّبَ حَقِيقَتَهَا وَحَجَبَ سُوءَ اسْتِعْمَالِهَا وَ
الِاسْتِفَادَةَ مِنْ نَتَائِجِهَا .

إِنَّ آيَاتِ الْفَهْمِ اسْتَهْلَكَهَا الْفِكْرُ الْعُرْبِيُّ وَأَجْهَضَهَا ، وَلَكِنْ الْخُطَابُ الْحَدَاثِي الْعُرْبِيُّ مَا يَرَالُ يَجْتَرُّهَا عَلَى
أَنَّهَا الْمُنْهَجِيَّاتُ الْحَدِيثَةُ اللَّازِمَةُ لِفَهْمِ النَّصِّ ، وَتَلَكُمُ هِيَ الطَّامَّةُ الْكَبْرَى .

إِنَّ مُشْكَلَةَ الْفِكْرِ الْعُرْبِيِّ الْمَعَاصِرِ لَمْ يَسْتَوْعِبْ أَنْ التَّنْظِيرَاتِ التَّأْوِيلِيَّةِ الْعُرْبِيَّةِ تَعِيشُ فِي مَأْرَقٍ ؛ وَعَدَمِ
الِاسْتِقْرَارِ ، وَلَمْ تَكَلَّفْ نَفْسَهَا عَنَاءَ الْبَحْثِ عَنِ النِّزَاعَاتِ الَّتِي أَثِيرَتْ تَجَاهَ كَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ الْمَفْصَلِيَّةِ فِي
التَّنْظِيرِيَّةِ ذَاتِهَا ، وَأَصْبَحَتْ تَبْقَى ثِقَةً عَمِيَاءَ بِهَذِهِ التَّنْظِيرَاتِ كَأَنَّهَا حَقِيقَةٌ مُطْلَقَةٌ دُونَ التَّنَبُّهِ لِلْخَلْفِيَّاتِ
الِإِيدِيُولُوجِيَّةِ وَالْفَلْسَفِيَّةِ الَّتِي تَرْمِي هَذِهِ التَّنْظِيرِيَّةَ لِتَحْقِيقِهَا .

لَا نُرِيدُ لِلْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ الْمَعاصرِ الْعَرَبِيِّ فِي تَعاطِيهِ مَعَ التَّأويلِ أَنْ يُصْبِحَ مَرهُوناً فِي أَصَالَتِهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى
الانْفِتاحِ ، وَالتَّجَدُّدِ بِتَعالِفِهِ مَعَ الْمُقُولاتِ التَّقَدِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ الْحَدِيثَةِ ، حَتَّى تَمُنَّحَهُ البَقَاءُ ،

وتَهَبَهُ شَهَادَةَ اسْتِمْرارِ الصِّلاحِيَّةِ .

إِنَّ القِرَاءَةَ التَّأويلِيَّةَ الْحَدِيثَةَ مارَسَتْ عَمَلِيَّةَ الإسْقَاطِ فِي مُقارِبَةِ الخُطابِ الدِّينِيِّ بِالْمُنْهَاجِ الْحَدِيثَةِ .

لَا نَعانِي مِنَ التَّصوُّصِ بِقَدْرِ مَا نَعانِي مِنَ اللُّصُوصِ .

- لَمَّا كَانَ الغُرُضُ أُنسَنَةُ المَقْدَسِ لِذَلِكَ نَرَى تَحَوُّلَ مُصْطَلَحِ التَّأويلِ الَّذِي كَانَ مَتَداولاً فِي مَباحِثِ

الخُطاباتِ الدِّينِيَّةِ إِلَى عِلْمٍ يَبْحَثُ فِي آيَاتِ الفُهمِ ، فِي جَمِيعِ التَّصوُّصِ الدِّينِيَّةِ وَغَيرِها .

- التَّيارُ التَّأويلِي فِي تَقَدُّهِ لِلقُرْآنِ بِاعْتِبارِهِ كُتاباً مَقْدَساً يَكُونُ قَدْ تَأَثَّرَ بِحَرَكَةِ الإسْتِشْراقِ ، وَأَعادَ

أفكارِها ، ومَقُولاتِها فِي دَعوتِها القائِلَةَ بِبِشْرِيَّةِ النَّصِّ القُرْآنِيِّ .

- لَم تَقْلُحِ المَناهِجُ الحِداثِيَّةُ فِي تَخْلِيفِ الخُطابِ الدِّينِيِّ مِنْ أزمَتِهِ ووضِعيَّتِهِ الرِّاهِنَةِ ؟

- وَغالباً ما يَتَسَلَّلُ هُؤُلاءِ فِي قِرَاءَةِ النَّصِّ القُرْآنِيِّ قِرَاءَةً حَدائِثِيَّةً مِنْ ثُغْرَةِ التَّأويلِ ، لِذَلِكَ يَبْقَى السِّجَالُ

الفِكرِيِّ اليَوْمِ يَدُورُ حَوْلَ "النِّماذِجِ التِّفسيريَّةِ" و"تَقنياتِ التَّأويلِ" ، لِأَنَّ المَعْرَكَةَ اليَوْمَ مَعْرَكَةَ "تفسيرِ وتَأويلِ"

بِالدَّرَجَةِ الأُولَى ، تَدورُ حَوْلَ السُّؤالِينِ التَّالِيَيْنِ : كَيْفَ نَفْهَمُ النَّصَّ ؟ وَكَيْفَ نَفْهَمُ حَمْلَهُ النَّصَّ ؟

- يَبْقَى التَّأويلُ الصَّخْرَةَ العائِيَّةَ الَّتِي اعْتَمَدَ عَلَيْها الفِكرُ التَّنويرِيُّ لِتَكسيرِ وَخَدِّهِ الفِكرِ الإسْلامِيِّ . .

- أَيْقُنْ أَنْ تُطَبِّقَ عَلَى القُرْآنِ الكَرِيمِ نَظْرِيَّةَ مَوْتِ المُوَلِّفِ واسْتِقلالِ النَّصِّ وَقِيامِهِ كُوناً

مُسْتَقْلًا بِذَاتِهِ يُفْهَمُهُ كُلُّ قَارِيٍّ كَمَا يَشَاءُ حَيْثُ إِنَّهُ لَا مَانِعَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ تَفْسِيرَاتٌ بَعْدَ الْقِرَاءِ / بَلْ
أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ .

- لَا نَذْرِي لِمَاذَا يُحَاوَلُ الْفِكْرُ الْعَرَبِيُّ الْمَعَاصِرَ حَسْمَ الصَّرَاحِ فِي نَظَرِيَّةٍ غَيْرِ مُسْتَقَرَّةٍ فِي كَثِيرٍ مِنْ بَنَاهَا
الْأَسَاسِيَّةِ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا شَرَعَتْ لِلْفَوْضِيَّةِ فِي فَهْمِ التَّصِ وَلَمْ تَقْدِّمْ مَعَايِرَ مُنْضَبَطَةَ فِي الْفَهْمِ
وَالنَّوْبِلِ .

شجرة المفكرين العرب الكاملة

منذ عصر النهضة والى يومنا هذا

- "رفاعة رافع الطهطاوي" : أَحَدُ قَادَةِ النُّهْضَةِ الْعَلَمِيَّةِ فِي مِصْرٍ فِي عَهْدِ "مُحَمَّدِ عَلِيِّ بَاشَا" . وُلِدَ عَامَ
١٨٠١ ، وَتُوفِيَ عَامَ ١٨٧٣ . أَهَمُّ كِتَابِهِ "تَخْلِيصُ الْإِبْرِيذِ فِي تَلْخِيصِ بَارِيْزٍ" .

- "عياد الطنطاوي" : مُؤَلِّفٌ وَمُؤَرِّخٌ مِصْرِيٌّ ، وُلِدَ عَامَ ١٨١٠ ، وَتُوفِيَ عَامَ ١٨٦١ . أَهَمُّ كِتَابِهِ
"أَحْسَنُ التَّخْبِ فِي مَعْرِفَةِ لِسَانِ الْعَرَبِ" .

- "خير الدين التونسي": أَحَدُ رُمُوزِ الإِصْلَاحِ فِي تُونِسَ . وَوُلِدَ عَامَ ١٨٢٠ ، وَتُوفِيَ عَامَ ١٨٩٠ . قَامَ بَعْدَهُ إِصْلَاحَاتٌ ، وَقَاوَمَ الحُكْمَ الاستبدادي ، وَعَمِلَ عَلَى إِقَامَةِ العَدْلِ ، وَسَاهَمَ فِي وَضْعِ قَوَانِينِ مَجْلِسِ الشُّورَى الَّذِي أَصْبَحَ رَئِيساً لَهُ سَنَةَ ١٨٦١ .

"علي مبارك": مَفْكَرٌ مِصْرِيٌّ ، اقْتَرَنَ اسْمُهُ بِالْجَانِبِ العَمَلِيِّ لِلنّهْضَةِ والعُمُرَانِ . وَوُلِدَ عَامَ ١٨٢٣ ، وَتُوفِيَ عَامَ ١٨٩٣ .

جَمَالُ الدِّينِ الأفْغَانِي: أَحَدُ أَعْلَامِ التَّجْدِيدِ فِي عَصْرِ التَّهْضَةِ العَرَبِيَّةِ وَالإِسْلَامِيَّةِ الحَدِيثَةِ ، وَوُلِدَ عَامَ ١٨٣٨ ، وَتُوفِيَ عَامَ ١٨٩٧ . مِنْ تَلَامِذَتِهِ "الشيخ مُحَمَّدُ عبده" .

- "محمد عبده": مَفْكَرٌ وَعَالِمٌ دِينِيٌّ وَمُجَدِّدٌ إِسْلَامِيٌّ مِصْرِيٌّ ، أَحَدُ دُعَاةِ التَّهْضَةِ فِي العَالَمِ العَرَبِيِّ الإِسْلَامِيِّ ، وَوُلِدَ عَامَ ١٨٤٩ ، وَتُوفِيَ عَامَ ١٩٠٥ . عَمِلَ مَعَ أُسْتَاذِهِ الأفْغَانِي عَلَى إِعَادَةِ إِحْيَاءِ الأُمَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ لِتَوَاكِبِ مَطْلَبَاتِ العَصْرِ .

- "عبد الرَّحْمَنِ الكَوَاكِبِي": أَحَدُ رَوَادِ التَّهْضَةِ العَرَبِيَّةِ ، وَوُلِدَ فِي حَلَبِ السُّورِيَّةِ عَامَ ١٨٥٥ ، وَتُوفِيَ عَامَ ١٩٠٢ ف

- "عبد الرَّحْمَنِ الكَوَاكِبِي": أَحَدُ رَوَادِ التَّهْضَةِ العَرَبِيَّةِ ، وَوُلِدَ فِي حَلَبِ السُّورِيَّةِ عَامَ ١٨٥٥ ، وَتُوفِيَ عَامَ ١٩٠٢ فِي القَاهِرَةِ مَتَأَثراً بِسُمِّ دُسِّ لَهُ . يَعْتَبَرُ كِتَابَهُ "طبائع الاستبداد" سَبَبَ شُهْرَتِهِ ، وَهُوَ مِنْ أَهَمِّ الكُتُبِ الَّتِي تَنَاقَشَ ظَاهِرُهُ الإِسْتِبْدَادَ السِّيَاسِيَّ وَالدِّينِيَّ .

- "قاسم أمين": كاتب وأديب ومصلح اجتماعي مصري، يُعتبر رائد حركة تحرير المرأة. وُلد عام ١٨٦٣، وتُوفي عام ١٩٠٨. أهم كُتبه "تحرير المرأة"، "المرأة الجديدة".

- "محمد رشيد رضا": مفكر من رواد الإصلاح الإسلامي مطلع القرن الرابع عشر الهجري. أُحْد تلامذة الشيخ "محمد عبده"، وُلد عام ١٨٦٥، وتُوفي عام ١٩٣٥.

- "أحمد أمين": أديب ومفكر ومؤرخ مصري، وُلد عام ١٨٨٦، وتُوفي عام ١٩٥٤. أنشأ "لجنة التأليف والترجمة والنشر" سنة ١٩١٤ وبقي رئيساً لها حتى وفاته.

- "سلامة موسى": مفكر مصري، يُعتبر رائد الفكر الاشتراكي في مصر، وُلد عام ١٨٨٧، وتُوفي عام ١٩٥٨. دعا إلى الاشتراكية كسبيل لتحقيق العدالة الاجتماعية. من أهم كُتبه: "دراسات سيكولوجية" - "هؤلاء علموني".

- "عبد الحميد بن باديس": من رجال الإصلاح في العالم العربي، ورائد النهضة الإسلامية في الجزائر، ومؤسس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. وُلد عام ١٨٨٩، وتُوفي عام ١٩٤٠.

- "عباس محمود العقاد": أديب ومفكر وصحفي مصري،

وُلد عام ١٨٨٩، وتُوفي سنة ١٩٦٤. ساهم بشكل كبير في الحياة الأدبية والسياسية، وأضاف للمكتبة العربية ما يزيد على المئة كتاب في مختلف المجالات

- "طه حسين": أديب وناقد مصري، لُقّب بعميد الأدب العربي. وُلد عام ١٨٨٩، وتُوفي عام

١٩٧٣. يُعدُّ من أبرز الشخصيات في الحركة العربية الأدبية الحديثة. أهم كُتبه "الأيام" (سيرة ذاتية)

"جميل صليبا": كاتب وفيلسوف عربي لبناني، وُلد عام

١٩٠٢، وتُوفي عام ١٩٧٦. عُرف بتفوقه العلمي، وبجهوده الكبيرة في خدمة التراث العربي. من أهم كتبه: "تاريخ الفلسفة العربية" - "المعجم الفلسفي".

- "أنطون سعادة": مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي، وُلد في لبنان عام ١٩٠٤، وتُوفي ١٩٤٩. ظهرت كتاباته الأولى عندما كان في الثامنة عشرة. ونشر عدة مقالات طالب فيها بإنهاء الاحتلال الفرنسي واستقلال سوريا. أُعدم يوم ٨ يوليو ١٩٤٩. من أهم كتبه: "نشوء الأمم".

- "مالك بن نبي": مفكر جزائري، وُلد عام ١٩٠٥، وتُوفي عام ١٩٧٣. يُعتبر أحد رواد النهضة الفكرية الإسلامية في القرن العشرين. وهو أحد أكثر المفكرين الذين دُعوا إلى العناية والبحث في مشكلات الحضارة. من أهم كتبه: "شروط النهضة" - "تأملات"

"عثمان أمين": كاتب ومفكر مصري، وُلد عام ١٩٠٥، وتُوفي عام ١٩٧٨. حصل على الليسانس من جامعة القاهرة، والدكتوراه من جامعة "السوربون". صاحب تيار الجوانية، وهي فلسفة تحاول أن ترى الأشخاص والأشياء رؤية روحية، بمعنى أن تنظر إلى "المخبر" ولا تنف عند "المظهر"، وإن تلمس "الباطن" دون أن تقتنع "بالظاهر" وإن تبحث عن "الداخل" بعد ملاحظة "الخارج"، وإن تلتفت دائما إلى "المعنى" وإلى "الكيف" وإلى "القيمة" وإلى "الماهية" وإلى "الروح" من وراء "اللفظ" و"الكم" و"المشاهدة" و"العرض" و"العيان".

- "زكي نجيب محمود": كاتبٌ وأكاديمي وأستاذٌ فلسفةٍ مصريٌّ ، وُلِدَ عامَ ١٩٠٥ ، وتُوفِّيَ عامَ ١٩٩٣ .
يُعبَّرُ أوَّلُ مَنْ أُسسَ لتيار الوُضعيةِ المنطقيَّةِ في العالمِ العربيِّ .

والإسلاميِّ . كما كانَ صاحبُ أسلوبٍ أدبيٍّ متماسكٍ يجمعُ بينَ الوُعيِّ الفلسفيِّ والذوقِ الأدبيِّ . منْ
أهمِّ كُتبهِ : "خرافة الميتافيزيقا" .

"عبد الله القصيمي" : مفكرٌ سعوديٌّ ، يُعبَّرُ مِنْ أَكثَرِ المفكرينَ العربِ آثاره لِجَدَلِ ، بِكونه غيرَ مساره
الفكريِّ كلياً مِنَ السِّلَفيَّةِ إلى الإلحادِ . وُلِدَ عامَ ١٩٠٧ ، وتُوفِّيَ عامَ ١٩٩٦ . مِنْ أهمِّ كُتبهِ : "العرب
ظَاهِرُهُ صوتية" - "أيها العقلُ منْ رآكَ ؟" .

- "حسين مروة" : مفكرٌ وباحثٌ لبنانيٌّ ، عُضُو اللُّجنتِ المركزيَّةِ للحزبِ الشيوعيِّ اللبناني . وُلِدَ عامَ
١٩١٠ ، وتُوفِّيَ عامَ ١٩٨٧ أثرَ اغتِياله في مَنْزلهِ في بيروتَ . مِنْ أهمِّ مؤلَّفاتهِ : "النزعات الماديَّة في
الفلسفةِ العربيَّةِ والإسلامية" .

- "عليّ الوُردي" : عالِمٌ اجتماعِ عراقيٍّ ، أستاذٌ ومُؤرِّخٌ ، عُرفَ بتبنيه التَّطَرُّباتِ الاجتماعيَّةِ الحديثةِ
في عَصْرِهِ . وُلِدَ عامَ ١٩١٣ ، وتُوفِّيَ ١٩٩٥ . حاصِلٌ على الدُّكتوراهِ مِنْ جامِعتهِ "تكساس" الأمريكيَّةِ
عامَ ١٩٥٠ . مِنْ أهمِّ كُتبهِ : "مهزلة العقلِ البشري" - "وعاظ السلاطين" - "منطق ابن خلدون" -
"خوارق اللاشعور" .

- "رينيه حبشي": مُفكر وأستاذ جامعي يُحمل الجُنسيّة المِصريّة واللبنانية . وُلد عام ١٩١٥ في القاهرة ، وتُوفي في باريس عام ٢٠٠٣ . يَمُحور فكره حول ثلاث قضايا : الشّخص البشريّ ، الحُرّيّة ، الحقيقة . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : "فلسفة لزماننا الحاضر" - "تجلي الخوف" .

"عبد الرّحمن بدوي": أبرز أساتذة الفُلسفة العرب في القرن العشرين ، غزير الإنتاج . وُلد عام ١٩١٧ ، وتُوفي عام ٢٠٠٢ . يُمكن اغتباره رائد الوجوديّة العربيّة . تنوّعت أعماله بين التّأليف والتّرجمة . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : "الزمان الوجودي" - "موسوعة الفلسفة" - "من تاريخ الإلحاد في الإسلام" .

- "مصطفى محمود": كاتب وطبيب مصريّ ، وُلد عام ١٩٢١ ، وتُوفي عام ٢٠٠٩ . كُتب في مجالات كثيرة: الطبّ والفلسفة والرواية والمسرح . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : "حوار مع صديقي الملحد" - "بحث في الوجود والعدم" .

"محمد عزيز الحبّابي": مُفكر مغربيّ ، وُلد عام ١٩٢٢ ، وتُوفي عام ١٩٩٣ . يُعتبر مؤسس مذهب الشخصية في الفكر العربيّ الإسلاميّ ، دُرُس في "السوربون" . كان مرشحاً لنيل جائزة نوبل للأدب سنة ١٩٨٧ .

- "مراد وهبة": مفكر مصريّ ، وُلد عام ١٩٢٦ ، دُرُس الفُلسفة في جامعته القاهرة . وعمل أستاذاً في جامعته الإسكندريّة . عُرف عنه اهتمامه بفلسفة ابن رشدٍ وأكد على ضرورة العودة إليها . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : "قصة الفلسفة" - "المذهب في فلسفة برغسون" .

- "إلياس مرقص" : مفكر سوريّ ، وُلِدَ فِي اللّاذِقِيَةِ عَامَ ١٩٢٧ ، وَتُوفِيَ عَامَ ١٩٩١ . يُعَبَّرُ مِنْ أَهَمِّ الْمفكرين الماركسيين الَّذِينَ حَاولُوا إِيجادَ وَحدِهِ بَيْنَ التّيَّارِ الماركسي والقومي العَرَبِيِّ . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : "نقد العقلانية العربية" - "الماركسية في عصرنا" .

- "فؤاد زكريا" : مُفكرٌ وَأكاديميٌ مِصرِيٌّ ، وُلِدَ عَامَ ١٩٢٧ بِالقَاهِرَةِ ، وَتُوفِيَ عَامَ ٢٠١٠ . نالَ الدُّكُوراهَ فِي الفِلسَفَةِ مِنْ جَامِعِهِ "عين شمس" عَامَ ١٩٥٦ . تَنَوَّعتْ أَعْمَالُهُ بَيْنَ التَّأليفِ وَالتَّرْجُمَةِ . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : "التفكير العلمي" - "آفاق فلسفية" .

- هِشَامُ شِرابي : مُؤرِّخٌ فِلَسْطِينِيٌّ ، وُلِدَ عَامَ ١٩٢٧ ، وَتُوفِيَ عَامَ ٢٠٠٥ . سَاهَمَ فِي إِنشَاءِ عَدَدٍ مِنْ المُؤَسَّساتِ الَّتِي تُعنى بِشُؤونِ الوَطَنِ العَرَبِيِّ وَالقُضِيَّةِ الفِلَسْطِينِيَّةِ . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : "مقدمات لدراسة المُجتمَعِ العَرَبِيِّ" .

- "محمد أركون" : مُفكرٌ وَبَاحِثٌ أَكاديميٌّ وَمؤرِّخٌ جَزائِرِيٌّ ، وُلِدَ عَامَ ١٩٢٨ ، وَتُوفِيَ عَامَ ٢٠١٠ . يُنَدِّجُ مَشْرُوعَةَ الفِكرِيِّ تَحْتَ مُسَمًّى "نقد العقل الإسلامي" . عَينَ أَسَاطِذًا لِتَارِيخِ الفِكرِ الإِسلامِيِّ وَالفِلسَفَةِ فِي جَامِعِهِ "السوربون" عَامَ ١٩٨٠ بَعْدَ حُصُولِهِ عَلَيَّ الدُّكُوراهِ فِي الفِلسَفَةِ مِنْ نَفْسِ الجَامِعَةِ . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : "تاريخية الفكر العربي الإسلامي" - "نزعة الأنسنة في الفكر العربي" .

- "أدونيس" : مفكرٌ وشاعرٌ سوريّ ، وُلِدَ عَامَ ١٩٣٠ ، يُعَبَّرُ رَائدَ الشَّعْرِ العَرَبِيِّ الحداثي ، وَهُوَ مُرَشِّحٌ بِشَكلٍ دائِمٍ لِتَيلِ جَائِزَةِ نوبَلٍ لِلآدابِ . دَرَسَ التُّراثَ العَرَبِيَّ الإِسلامِيَّ دِرَاسَةً نَقْدِيَّةً عَبَّرَ كِتَابَهُ "الثابت والمتحول" . وَهُوَ كُتِبَ عَدِيدَةً فِي الفِكرِ وَالشَّعْرِ مِنْهَا : "موسيقى الحوت الأزرق" - "الشعرية العربية"

- "سُمَيْر أمين": مفكر واقتصادي مِصْرِيّ، وُلِدَ عَامَ ١٩٣١، وَتُوفِيَ عَامَ ٢٠١٨. انْتَسَبَ إِلَى الْحِزْبِ الشُّيُوعِيِّ الْفَرَنْسِيِّ عَامَ ١٩٥١. مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ: "الاقتصاد الْعَرَبِيُّ المعاصر".

"نوال السعداوي": كاتِبة و أدِيبَة و طَبِيبَة مِصْرِيَّة، وُلِدَتْ عَامَ ١٩٣١. اِهْتَمَّتْ بِالِدِّفَاعِ عَنْ حُقُوقِ الْإِنْسَانِ بِشَكْلِ عَامٍّ، لِاسْمِهَا حُقُوقُ الْمَرْأَةِ. أُسِّسَتْ جَمْعِيَّةُ "تضامن المرأة العربية". كَمَا سَاهَمَتْ بِتَأْسِيسِ "المؤسسة الْعَرَبِيَّةُ لِحُقُوقِ الْإِنْسَانِ". مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهَا: "مذكرات فِي سِجْنِ النِّسَاءِ" - "امرأة عِنْدَ نَقْطَةِ الصَّفْرِ".

- "هَادِي الْعُلُوي": مفكر عِرَاقِيّ، وُلِدَ عَامَ ١٩٣٣، وَتُوفِيَ فِي دِمَشْقَ عَامَ ١٩٩٨. اِهْتَمَّ بِالْتَرَاثِ الْعَرَبِيِّ وَقَرَأَهُ قِرَاءَةً تَقْدِيَّةً. كَمَا أَبْدَى اِهْتِمَامًا جَيِّدًا بِالْحَضَارَةِ الصِّينِيَّةِ. وَكَانَ نَصِيرًا لِلْمَرْأَةِ، وَقَدْ اِهْتَمَّ بِدِرَاسَةِ وَضْعِهَا قَبْلَ وَبَعْدَ الْإِسْلَامِ بِجُرْأَةٍ وَصِرَاحَةٍ. مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ: "فصول عَن الْمَرْأَةِ" - "فصول مِنْ تَارِيخِ الْإِسْلَامِ السِّيَاسِيِّ".

"المهدي المنجرة": عَالِمٌ اجْتِمَاعِيٌّ وَاقْتِصَادِيٌّ مَغْرِبِيّ، وُلِدَ عَامَ ١٩٣٣، وَتُوفِيَ عَامَ ٢٠١٤. يُعْتَبَرُ أَحَدَ أَهَمِّ الْمَرْجِعِيَّاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَالذَّوْلِيَّةِ فِي الْقَضَايَا السِّيَاسِيَّةِ وَالْعِلَاقَاتِ الذَّوْلِيَّةِ وَالدراسات المستقبلية. عَمِلَ أَسْتَاذًا مُحَاضِرًا فِي مَرْكَزِ الدِّرَاسَاتِ التَّابِعِ لِجَامِعِهِ لَنْدُن. كَمَا أُخْتِيرَ لِلتَّدْرِيسِ فِي جَامِعَاتٍ عِدَّةٍ، فِي إِنْجِلْتَرَا وَهولندا وإيطاليا واليابان. مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ: "قيمة القيم".

- "عبد الله العروي": مفكر ومؤرخ وروائي مغربي، ولد عام ١٩٣٣. دعا إلى القطيعة مع التراث، والتحول نحو الحداثة من خلال الأخذ عن الغرب ضمن ما هو متاح للبشرية جمعاء. من أهم كتبه: "العرب والفكر التاريخي" - "مفهوم الإيديولوجيا" - "مفهوم الحرية".

- "طيب تيزيني": مفكر سوري من مواليد "حمص" عام ١٩٣٤، يُعتبر من أنصار الفكر القومي الماركسي. اعتمد في قراءته للتراث العربي قبل الإسلام وبعده على الجدلية التاريخية. حصل على الدكتوراه من ألمانيا عام ١٩٦٧ عن أطروحة "تمهيد في الفلسفة العربية الوسيطة". درس في قسم الفلسفة بجامعة دمشق، وتوفي عام ٢٠١٩. من أهم كتبه: "من التراث إلى الثورة".

"صادق جلال العظم": مفكر سوري، من مواليد دمشق عام ١٩٣٤، توفي عام ٢٠١٦. شغل منصب أستاذ الفلسفة الأوروبية في جامعته دمشق. وكان أستاذاً زائراً في قسم الشرق الأدنى بجامعة برنستون. كتب في الفلسفة والفكر العربي المعاصر. أحدث كتابه "نقد الفكر الديني" جدلاً كبيراً في الأوساط الإسلامية، نظراً لما فيه من نقد واسع لبعض الثواب الدينية.

"إمام عبد الفتاح إمام": أكاديمي ومترجم مصري، تخصص في الفلسفة والعلوم الإنسانية. ولد عام ١٩٣٤، وتوفي عام ٢٠١٩. اشتهر بترجمته لأعمال هيغل. عمل في العديد من الجامعات المصرية. غزير الإنتاج على مستوى التأليف والترجمة. من أهم كتبه: "الطاغية".

- "إدوارد سعيد": منظر أدبي فلسطيني أمريكي، ولد عام ١٩٣٥، وتوفي عام ٢٠٠٣. شغل منصب أستاذ للتقدي الأدبي والأدب المقارن في جامعته "كولومبيا". اشتهر بدراساته عن الاستشراق و

مابعد الكولونيالية . دافعَ عَن القَضِيَّةِ الفِلسُطِينِيَّةِ فِي المَحَافِلِ الدَّوْلِيَّةِ ، وَيُعْتَبِرُهُ التُّقَادُ مِنْ أَهَمِّ

الشَّخْصِيَّاتِ الَّتِي تَبَنَتِ القَضِيَّةَ الفِلسُطِينِيَّةَ فِي القُرْنِ العِشْرِينَ . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : "الاستشراق" .

"محمد عابد الجابري" : مؤرخ مغربي ، وُلِدَ عام ١٩٣٥ ، وتُوفِّيَ عام ٢٠١٠ . يُنَدِرُجُ مَشْرُوعَةَ

الفِكرِيِّ تَحْتَ مُسَمَّى "نقد العقل العربي" . عَالِجُ قَضَايَا العُقْلِ العَرَبِيِّ عِبْرَ دِرَاسَةِ المُكَوِّنَاتِ والبِنَى

الثَّقَافِيَّةِ واللُّغَوِيَّةِ الَّتِي بَدَأَتْ مِنْ عَصْرِ التَّدْوِينِ . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : رُبَاعِيَّةُ نَقْدِ العُقْلِ العَرَبِيِّ "تكوين العقل

العَرَبِيِّ - بِنْيَةُ العُقْلِ العَرَبِيِّ - العُقْلُ الأَخْلَاقِي العَرَبِيِّ - العُقْلُ السِّيَاسِي العَرَبِيِّ" .

- "هشام جعيط" : مُفَكِّرٌ ومُؤَرِّخٌ تُونِسِيٌّ ، وُلِدَ عام ١٩٣٥ ، أُسْتَاذٌ فُخْرِيٌّ لَدَى جَامِعَةِ تُونِسِ ، دَرَسَ

كَأَسْتَاذٍ زَائِرٍ فِي عِدَّةِ جَامِعَاتٍ أوروپِيَّةٍ وأمْرِيكِيَّةٍ . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : "أوروبا والإسلام" - "الشخصية

العَرَبِيَّةُ الإِسْلَامِيَّةُ وَالْمَصِيرُ العَرَبِيُّ" .

- "حسن حنفي" : مُفَكِّرٌ مِصْرِيٌّ ، وُلِدَ عام ١٩٣٥ ، يَعْيشُ فِي القَاهِرَةِ وَيَعْمَلُ أُسْتَاذًا جَامِعِيًّا . يُعْبَرُ

مِنْ مَنْظَرِي تَيَّارِ اليَسَّارِ الإِسْلَامِيِّ ، وَتَيَّارِ "عِلْمِ الاستغراب" . حَازَ عَلى الدُّكُورَاهِ مِنْ جَامِعَتِهِ

"السوربون" عَن أَطْرُوحَةِ "ظَاهِرِيَّاتِ التَّأْوِيلِ" . حَازَ عَلى جَائِزَةِ الدَّوْلَةِ التَّقْدِيرِيَّةِ فِي العُلُومِ الإِجْتِمَاعِيَّةِ

عام ٢٠٠٩ . تَرَاحَتِ أَعْمَالُهُ بَيْنَ التَّرْجَمَةِ وَالتَّأْلِيفِ . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : "مقدمة في علم الاستغراب" -

"اليمن واليسار في الفكر الديني" .

- "مهدي عامل" : هُوَ حَسَنُ عَبْدِ اللَّهِ حَمْدَانَ ، المَعْرُوفُ بِمَهْدِيِّ عَامِلٍ . مُفَكِّرٌ لُبْنَانِيٌّ ، وُلِدَ عام

١٩٣٦ ، واغْتِيلَ عام ١٩٨٧ فِي أَحَدِ شَوَارِعِ بَيْرُوتِ . نَالَ اللِّيسانسَ والدُّكُورَاهِ فِي الفِلسَفَةِ مِنْ جَامِعَتِهِ

"ليون" الفَرَنْسِيَّةِ . دَرَسَ فِي الجَامِعَةِ اللُّبْنَانِيَّةِ كَأَسْتَاذٍ لِلْفِلسَفَةِ وَالسِّيَاسَةِ . انْتَسَبَ إِلَى الحِزْبِ الشُّيُوعِيِّ

اللبناني عام ١٩٦٠ ، وانتخب عضواً في اللجنة المركزية للحزب قبل اغتياله في العام المذكور . من أهم كتبه : "مدخل إلى تفكير الطائفي" .

"الصادق النهوم" : مفكر وكاتب ليبي ، ولد عام ١٩٣٧ ، وتوفي عام ١٩٩٤ في جنيف . كتب أطروحته حول "الأديان المقارنة" في جامعته القاهرة ، وانتقل بعدها إلى ألمانيا ليتم هذه الأطروحة في جامعته "ميونخ" . تابع دراسته في جامعته "أريزونا" بالولايات المتحدة . يجيد لغات متعددة إلى جانب العربية ، كالانجليزية والألمانية والفنلندية (بحكم زواجه من فنلندية) إضافة للفرنسية والعبرية . من أهم كتبه : "الإسلام في الأسر" .

- "فهمي هويدي" : كاتب وصحفي ومفكر مصري ، ولد عام ١٩٣٧ ، كتاباته مثيرة للجدل بسبب جرأتها . تخصص منذ سنوات في معالجة الشؤون الإسلامية ، حيث شارك في كثير من ندوات ومؤتمرات الحوار الإسلامي ، وقام بزيارات عمل ميدانية إلى مختلف بلدان العالم الإسلامي في آسيا وإفريقيا . من أهم كتبه "أزمة الوعي الديني" - "القرآن والسلطان" .

- "محمد شحرور" : مهندس وباحث ومفكر سوري ، ولد عام ١٩٣٨ ، وتوفي عام ٢٠١٩ . بدأ كتاباته عن القرآن فيما أطلق عليه "قراءة التنزيل الحكيم" بعد عودته من موسكو . حيث رأى أن القراءة التقليدية للقرآن بعيدة كل البعد عن مغزاها الحقيقي ، وإن القراءة الحقيقية هي القراءة التي تنفق مع مقتضيات العصر . من أهم كتبه : "الكتاب والقرآن" - "الإسلام والإيمان" .

- "عبد الوهاب المسيري" : مفكر وعالم اجتماع مصري ، ولد عام ١٩٣٨ ، وتوفي عام ٢٠٠٨ : حصل على الدكتوراه في الأدب الإنجليزي المقارن من جامعته "ريجرز" بالولايات المتحدة . وهو مؤلف

"موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية" استطاع من خلالها إعطاء نظره موضوعية علمية للظاهرة اليهودية بشكل عام .

- "جورج طرابيشي" : مفكر وكاتب وناقد ومترجم سوري ، ولد عام ١٩٣٩ ، وتوفي عام ٢٠١٦ في باريس . تركز أبرز نقاط مشروعة الفكري حول نقد مشروع المفكر "محمد عبد الجباري" في "نقد العقل العربي" فيما أسماه "نقد النقد" . له مؤلفات هامة في الماركسية و النظرية القومية وفي النقد الأدبي للرواية العربية . أبرز مميزات المسار الفكري لطرابيشي انتقاله عبر محطات أبرزها الفكر القومي والثوري والوجودية والماركسية . من أهم كتبه : "هرطقات" - سلسلة نقد النقد ، وتضم : "إشكاليات العقل العربي" - "نظرية العقل" - "العقل المستقبل في الإسلام" - "وحدة العقل العربي الإسلامي" .

- "محمد جابر الأنصاري" : كاتب ومفكر بحريني ، أستاذ دراسات الحضارة الإسلامية والفكر المعاصر ، ولد عام ١٩٣٩ . عميد كلية الدراسات العليا في جامعته الخليج بالبحرين . نال الدكتوراه في الفلسفة الإسلامية عام ١٩٧٩ . من أهم كتبه : "التأزم السياسي عند العرب وسياسيولوجيا الإسلام" .

- "عادل ضاهر" : مفكر لبناني ، ولد عام ١٩٣٩ . حصل على

الدكتوراه من جامعته "نيويورك" سنة ١٩٦٧ . درس في جامعات "نيويورك" "بيس" "الجامعة الأردنية" . من أهم كتبه "الأسس الفلسفية للعلمانية" .

- "فَهْمِي جَدْعَان": مُفَكِّرُ أُرْدُنِي مِنْ أُصُولِ فِلَسْطِينِيَّةِ ، وَوَلَدَ عَامَ ١٩٤٠ . دَرَسَ الْفُلْسَفَةَ فِي جَامِعِهِ "السُّورْبُون" وَحَصَلَ مِنْهَا عَلَى شَهَادَةِ الدُّكُورَاهِ فِي الْفُلْسَفَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَعِلْمِ الْكَلَامِ سَنَةَ ١٩٦٨ . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : "الْحِنَّة - بَحْثٌ فِي جَدَلِيَّةِ الدِّينِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ فِي الْإِسْلَامِ" .

"عَلِيَّ أَوْلَمِيل": مُفَكِّرٌ وَمُؤَرِّخٌ مُعَرَبِيٌّ ، وَوَلَدَ عَامَ ١٩٤٠ . وَهُوَ أَسَاتِذُ الْفُلْسَفَةِ فِي الْجَامِعَةِ الْمَعْرِبِيَّةِ . كَانَتْ دِرَاسَتِهِ حَوْلَ ابْنِ خَلْدُونِ مُتَمَيِّزَةً ، بِكَوْنِهِ قَدْ بَحَثَ فِي الْمُنْظُومَةِ الْخَلْدُونِيَّةِ كَسَقِّ مُسْتَقِلَّ عَنْ مَشَاغِلِ الْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ الرَّاهِنَةِ . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : "الْخُطَابُ التَّارِيخِي" .

عَلِيَّ حَرْبٌ : كَاتِبٌ وَمُفَكِّرٌ لُبْنَانِيٌّ ، وَوَلَدَ عَامَ ١٩٤١ . تَأَثَّرَ بِجَاكِ دَرِيدَا كَثِيرًا ، لِأَسِيْمَا فِيْمَا يَتَعَلَّقُ بِمَذْهَبِ التَّفَكِيكِ .

وَهُوَ يَتَقَفُ مَوْقِفًا مَعَادِيًّا مِنَ النُّخْبِيَّةِ وَالْأُصُولِيَّةِ الْفِكْرِيَّةِ ، وَمَنْ الْمُنْطِقِ الصُّورِيِّ الْقَائِمِ عَلَى الْكُلِّيَّاتِ الْعُقْلِيَّةِ الَّتِي يَعْدهَا عَلِيٌّ حَرْبٌ مَوْجُودَاتٍ فِي الْخَارِجِ ، وَلَيْسَتْ أَدَوَاتٍ وَآلِيَّاتٍ فِكْرِيَّةً مُجْرَدَةً لِلنَّظَرِ وَالْفِكْرِ . فَهُوَ يُسَبِّحُ مِنْهَجَ كَانِطٍ فِي تَقْدِ الْعَقْلِ وَآلِيَّاتِهِ وَبِنِيَّةِ الْفِكْرِيَّةِ . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : "تَقْدِ النَّصِّ" - "هَكَذَا اقْرَأْ مَا بَعْدَ التَّفَكِيكِ" .

"وَجِيهِ كُوثَرَانِي": كَاتِبٌ وَبَاخِثٌ لُبْنَانِيٌّ ، وَوَلَدَ عَامَ ١٩٤١ . يَعْمَلُ أَسَاتِذًا بَاخِثًا فِي الْمَرْكَزِ الْعَرَبِيِّ لِلأَبْحَاثِ وَدِرَاسَةِ السِّيَاسَاتِ . حَصَلَ عَلَى الدُّكُورَاهِ مِنْ جَامِعِهِ "السُّورْبُون" .

كَمَا حَصَلَ عَلَى الدُّكُورَاهِ الثَّانِيَّةِ مِنْ جَامِعِهِ "الْقَدِيسِ يَوْسُف" فِي لُبْنَانَ . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ "مَشْرُوعُ التُّهُوضِ الْعَرَبِيِّ" - "تَارِيخُ التَّارِيخِ" .

- "فِرَاسُ السَّوَّاحِ" : كَاتِبٌ وَمُفَكِّرٌ وَبَاحِثٌ سُورِيٌّ ، وَوَلَدَ عَامَ ١٩٤١ فِي "حَمص" . تَنَصَّبَ اهْتِمَامَاتِهِ
الْفِكْرِيَّةَ عَلَى الْبَحْثِ فِي المِثُولُوجِيَا وَتَارِيحِ الْأَدْيَانِ . يَعْمَلُ أَسْتَاذًا فِي جَامِعِهِ "بَكِين" . دَخَلَتْ الْبَعْضُ
مِنْ مُؤَلَّفَاتِهِ فِي الْمَنَاهِجِ التَّعْلِيمِيَّةِ فِي جَامِعِهِ الزَّيْتُونَةِ بِتُونِسَ ، وَالْجَامِعَةِ الْأُرْدُنِيَّةِ فِي عَمَّانَ . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ
: "مِغَامَرَةُ الْعُقْلِ الْأُولَى" - "لِغَزِ عَشْتَار" .

- "نِصْرُ حَامِدِ أَبُو زَيْدٍ" : مُفَكِّرٌ وَأَكَادِمِيٌّ مِصْرِيٌّ ، مُتَخَصِّصٌ فِي فِئَةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ . وَوَلَدَ عَامَ ١٩٤٣ ،
وَتُوفِيَ عَامَ ٢٠١٠ . حَصَلَ عَلَى اللِّسَانَسِ مِنْ قِسْمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَدَابِهَا فِي جَامِعِهِ الْقَاهِرَةِ . تَعَرَّضَ
لِمِحْنَةٍ سَبَبَتْ تَقَدُّمَهُ بِبَحْثٍ لِنَيْلِ دَرَجَةِ الْأُسْتَاذِيَّةِ ، حَيْثُ لَمْ يَجِدْ هَذَا الْبَحْثَ قَبُولًا لَدَى لَجْنَةِ الْمُنَاقَشَةِ
الْمُشْرِفَةِ عَلَى الْبَحْثِ ، لِاحْتِوَائِهِ عَلَى أَفْكَارٍ نَاقِدَةٍ لِلْخُطَابِ الدِّينِيِّ السَّائِدِ . تُوُفِيَ بَعْدَ وَقُوعِهِ فِي
غَيْبِيَّةٍ دَامَتْ عِدَّةَ أَيَّامٍ . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : "نَقْدُ الْخُطَابِ الدِّينِيِّ"

- "يُوسُفُ الصَّدِيقِ" : مُفَكِّرٌ تُونِسِيٌّ ، وَوَلَدَ عَامَ ١٩٤٣ . لَهُ عِدَّةُ أبحاثٍ مَنُشُورَةٍ بِاللُّغَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ تَعَلَّقُ
بِالْبَحْثِ الْقُرْآنِيِّ وَتَوَابِعِهِ الثَّقَافِيَّةِ . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : "هَلْ قَرَأْنَا الْقُرْآنَ ؟" .

- "طه عَبْدُ الرَّحْمَنِ" : مُفَكِّرٌ مَغْرِبِيٌّ ، تَخَصَّصَ فِي الْفُلُوسَفَةِ

وَالْمَنْطِقِ وَالْأَخْلَاقِ . وَوَلَدَ عَامَ ١٩٤٤ . قَامَ مَشْرُوعَةً عَلَى تَأْسِيسِ رُؤْيَا إِسْلَامِيَّةٍ تَنْظُرُ إِلَى الْحَدَاثَةِ مِنْ
دَاخِلِ الْمَجَالِ التَّدَاوِلِيِّ الْإِسْلَامِيِّ ، لُغَةً وَعَقِيدَةً وَفِكْرًا . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : "بُؤْسُ الدَّهْرَانِيَّةِ" - "رُوحُ
الْحَدَاثَةِ" .

- "فرج فودة": كاتب ومفكر مصري، ولد عام ١٩٣٥، وتوفي عام ١٩٩٢. أثارت كتاباته جدلاً واسعاً، حيث كان يدعو إلى فصل الدين عن السياسة والدولة، مما أثار غضب الأزهر عليه، فأصدر بياناً تم فيه تكفيره. وفي يوم ٨ يونيو عام ١٩٩٢ جرى اغتياله أثناء خروجه من جمعية التثوير التي أسسها بمدينة "نصر". من أهم كتبه: "الحقيقة الغائبة".

- "محمد وقيدى": كاتب ومفكر وأستاذ جامعي مغربي، ولد عام ١٩٤٦، وتوفي منذ فترة قصيرة من هذا العام. حصل على دبلوم الدراسات العليا من كلية الآداب بجامعة الرباط سنة ١٩٧٩. تميز بكتابه الاستمولوجية، وترجماته لأعمال غاستون باشلار. من أهم كتبه "ماهي الاستمولوجيا؟ عبد الله الغدامي": أكاديمي وناقد أدبي سعودي، ولد عام ١٩٤٦. تميزت أعماله بالتنوع، فهو صاحب مشروع في النقد الثقافي وآخر حول المرأة واللغة. من أهم كتبه: "المرأة واللغة".

- "أبو عريب المرزوقي": مفكر تونسي، ولد عام ١٩٤٧، حائز على شهادة الليسانس في الفلسفة من جامعة "السوربون". متخصص بالفلسفة العربية واليونانية. حاول التمهيد لتأسيس فلسفة إسلامية متصالحة مع الدين، تقياً بظلاله وتسترشد بتوجيهاته. من أهم كتبه: "وحدة الفكرين الديني والفلسفي" - "آفاق فلسفة عربية معاصرة".

- "سالم يفوت": كاتب وباحث مغربي، ولد عام ١٩٤٧، حصل على دكتوراة الدولة من جامعه الرباط سنة ١٩٨٥. انضم إلى اتحاد كتاب المغرب ١٩٧٧. تميز بكتابه حول فلسفة العلوم. من أهم كتبه: "فلسفة العلم المعاصر ومفهومها للواقع".

- "أمين معلوف" : كاتب وروائي وصحافي لبناني ، يُحمل

الجُنسِيَّةُ الفُرُنْسِيَّةُ . وَوَلَدَ عَامَ ١٩٤٩ . تَتَّوَعَّعَ كِتَابَاتِهِ بَيْنَ الرِّوَايَةِ وَالْفِكْرِ السِّيَاسِيِّ . تُعْبَرُ كِتَابُهُ -

الرِّوَايَةُ خَاصَّةً - ذَاتَ مَنَحَى تَارِيخِي يَرُصِّدُ أَهَمَّ التَّحَوُّلَاتِ الحَضَارِيَّةِ الَّتِي رُسِمَتِ صُورَةُ العَرَبِ

وَالشَّرْقِ عَلى شَاكِلَتِهَا الحَآلِيَّةِ . مِنْ أَهَمِّ كِتَابِهِ : "الهويات القاتلة" - ومؤخراً : "غرق الحضارات" .

" هاشم صالح " : كَاتِبٌ وَبَاحِثٌ وَمُتَرْجِمٌ سُوْرِيٌّ ، مِنْ أَتْرَازِ المَفْكَرِيْنَ التَّنْوِيْرِيْنَ العَرَبِ . وَوَلَدَ عَامَ

١٩٥٠ . اِهْتَمَّ بِقَضَايَا التَّجْدِيدِ الدِّيْنِيِّ ، وَنَقَدَ الأَصُوْلِيَّةَ ، وَقَضَايَا الحَدَاثَةِ وَمَابَعْدَهَا . نَاقَشَ رِسَالَةَ

الدُّكُوْرَاهِ حَوْلَ النُّقْدِ الأَدْبِيِّ العَرَبِيِّ تَحْتِ إِشْرَافِ المَفْكَرِ "محمد أركون" سَنَةَ ١٩٨٢ . تُحَدِّثُ عَن

أَسْبَابِ فَشْلِ التَّنْوِيْرِ فِي العَالَمِ العَرَبِيِّ فِي العَدِيْدِ مِنْ كُتُبِهِ الَّتِي مِنْ أَهَمِّهَا : "معارك التنويريين والأصوليين"

- "الانسداد التاريخي" .

- "خزعل الماجدي" : مُفَكِّرٌ وَبَاحِثٌ عِرَاقِيٌّ ، وَوَلَدَ عَامَ ١٩٥١ . حَصَلَ عَلى دُكُوْرَاةٍ فِي التَّارِيخِ

القَدِيْمِ سَنَةَ ١٩٩٦ . وَدُكُوْرَاهِ فِي فُلْسَفَةِ الأَدْيَانِ سَنَةَ ٢٠٠٩ . اِهْتَمَّ بِالدَّرَاسَاتِ المِيثُولُوْجِيَّةِ وَالتَّارِيخِ

القَدِيْمِ وَتَارِيخِ الأَدْيَانِ وَالحَضَارَاتِ . مِنْ أَهَمِّ كِتَابِهِ : "الميثولوجيا المندائية" - "أنبياء سومريون" .

- "أحمد عبد الحليم عطية" : أُسْتَاذُ الفُلْسَفَةِ بِجَامِعَةِ القَاهِرَةِ ، وَوَلَدَ عَامَ ١٩٥١ . أَشْرَفَ وَنَاقَشَ عَدَدَ

مِنْ رَسَائِلِ المَاجِسْتِيْرِ وَالدُّكُوْرَاهِ فِي الفُلْسَفَةِ . رَئِيسُ تَحْرِيرِ مَجَلَّةِ "أوراق فلسفية" . مِنْ أَهَمِّ كِتَابِهِ :

"الأخلاق في الفكر العربي المعاصر" .

- "عبد الجبار الرفاعي": مفكر عراقي، ولد عام ١٩٥٤. حصل على دكتوراه في الفلسفة

الإسلامية سنة ٢٠٠٥. تتركز أبحاثه حول فلسفة الدين ومناهج التفكير الديني.

من أهم كتبه: "تمهيد لدراسة فلسفة الدين" - "الدين والظلم الأنطولوجي".

"عزمي بشارة": مفكر وأكاديمي وسياسي فلسطيني، ولد عام ١٩٥٦. حصل على الدكتوراه في

الفلسفة. يشغل حالياً منصب مدير عام المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. عُرف بإتجاهه

الفكري الغزير وأبحاثه المرجعية في مجالات المجتمع المدني، ونظريات القومية وما أسماه "المسألة

العربية"، والدين والعلمانية، وعمله في تجديد الفكر العربي، وفي تحليله للمجتمع والدولة في

إسرائيل. من أهم كتبه: "الدين والعلمانية في سياق تاريخي".

القسم الثاني

فلسفة القرآن

الْقُرْآنُ . . الْكِتَابُ وَالرِّسَالَةُ

الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى الْمُنزَّلُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

بِالْوَحْيِ

أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ أَيْ أَنَّهُ مِنْ نَطَقِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَلِمَهُ وَكَلَامِ اللَّهِ جَاءَ فِي أَشْكَالٍ مُتَعَدِّدَةٍ فَهُوَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ عَلَى

شَكْلِ حِوَارٍ مُبَاشِرٍ بَيْنَ اللَّهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي

الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي

أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿ [البقرة : 30] أَوْ كَمَا قَالَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴿

[طه : 17] فَيُفْهِمُ الْمُتَلَقِّي الَّذِي هُمُ الْمَلَائِكَةُ فِي الْآيَةِ الْأُولَى وَالتَّبَيُّ مُوسَى فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ كَلَامُ اللَّهِ

مُبَاشِرَةٌ وَيُرَدُّونَ عَلَيْهَا مُبَاشِرَةً عَلَى شَكْلِ حِوَارٍ وَهُنَاكَ أَمْثَلَةٌ كَثِيرَةٌ عَلَى ذَلِكَ وَالْآيَةُ الَّتِي تُوضِّحُ هَذَا

الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿ [النساء : 164]

وَهُنَا لَا يَجِبُ أَوْ يُبَغِي عَلَيْنَا أَنْ تَجَاوِزَ هَذَا الْمَعْنَى وَتَسْأَلَ كَيْفَ كَانَ كَلَامُ اللَّهِ لِمُوسَى هَلْ هُوَ مِثْلُ
كَلَامِنَا وَبِأَيِّ لُغَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَهْوَاكُم حَدِيثٌ أَمْ أَرَلِّي وَهَلْ هُوَ مَخْلُوقٌ أَمْ لَا وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ التَّسْأَلَاتِ الَّتِي
تُفْتَحُ الْمَجَالُ لِلتَّأْوِيلِ وَمِنْ تَمَّ لِلْوُقُوعِ فِي الْغُلَطِّ وَالْخَطَأِ وَالتَّنَاقُضِ ذَلِكَ كَمَا أَنَّ هَذِهِ النِّقَاشَاتِ فِي هَذِهِ
الْمَسْأَلَةِ قَدْ شَكَلَتْ آرَاءَ مُخْتَلِفَةً وَمُتَنَاقِضَةً وَفَرَّقَ كَلَامِيهِ لِادْعَائِي فِي وَقْتِنَا الْحَالِي وَلَا فَائِدَةَ عِلْمِيَّةً أَوْ
فِقْهِيَّةً مِنْ وَرَاءِ إِعَادَةِ طَرَحِهَا وَتَفْنِيدِهَا .

وَأَمَّا إِنْ يُكُونُ كَلَامُ اللَّهِ وَحِيًّا يُصَلِّ لِلْبَشَرِ بِالْوَاسِطَةِ كَمَا تَوْضَحُ ذَلِكَ لَنَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ
عَلِيُّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى : 51] وَقَدْ نَقَلَ جَبْرِائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَلَامَ اللَّهِ وَحِيًّا إِلَى الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ
السَّلَامُ ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم : 4]

وَكَذَلِكَ يُكَلِّمُ اللَّهُ مَخْلُوقَاتِهِ وَحِيًّا وَالْوَحْيُ وَفَقِ التَّعْرِيفِ اللُّغَوِيِّ هُوَ كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى مَعَانٍ مِنْهَا : الْإِشَارَةُ ،
وَالْإِيمَاءُ ، وَالْكِتَابَةُ ، وَالسَّرْعَةُ ، وَالصَّوْتُ ، وَالْإِلْقَاءُ فِي الرُّوعِ إِلْهَامًا وَبِسُرْعَةٍ وَبَشِدَّةٍ ، لِيَبْقَى أَثَرُهُ فِي
النَّفْسِ .

وَمِنَ الْأَمْثَلَةِ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى :

﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [النحل : 68]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص : 7]

لَكِنِّ عَمَلِيًّا كَيْفَ يَتِمُّ هَذَا الْوَحْيُ وَبِأَيِّ شَكْلِ وَكَيْفَ تَقْبَلُهُ النَّفْسُ وَتَسْتَوْعِبُهُ وَتَمَيِّزُهُ فَهَذَا يَعْلَمُهُ فَقَطُّ

الَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْهِ ذَلِكَ فَأُمُّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهَمَّتْ كَلَامَ الْوَحْيِ وَأَسْتَوْعَبَتْهُ وَعَمَلَتْ بِهِ بِالرَّغْمِ مِنْ خُطُورَةِ الْمَوْقِفِ فَلَا يُمَكِّنُ لِأَنَّ تَرْمِي طِفْلَهَا الرِّضِيعُ فِي النَّهْرِ وَهِيَ بِكَامِلِ عَقْلِهَا لِمَا فِيهِ مِنْ مُخَاطَرَةٍ بِهَذَا الطِّفْلِ لِذَلِكَ هِيَ تَيَقَّنَتْ أَنَّ مِنْ أَمْرِهَا بِفِعْلِ ذَلِكَ هُوَ اللَّهُ الْعَلِيُّ الْقَدِيرُ .

وَكَذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ لِلتَّحَلُّ وَهُوَ حَيَوَانٌ يُنْفَذُ وَحْيِي رَبِّهِ وَأَمْرُهُ بِغَيْرِزْتِهِ وَفَطْرَتُهُ كَيْفَ يَتِمُّ ذَلِكَ فَاللَّهُ وَخَدَهُ أَعْلَمُ

الْمُتَلَقِّي الرَّسُولِ الْمُرْسَلُ إِلَيْهِ

الْمُتَلَقِّي وَالْمُرْسَلِ إِلَيْهِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ هُوَ النَّبِيُّ الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَبَيَّنَ لَنَا ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ

مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : 52] وَهُنَاكَ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ تُبَيِّنُ لَنَا

ذَلِكَ .

وَاللَّهُ وَخَدَهُ هُوَ الَّذِي يُسَمِّي الْأَنْبِيَاءَ وَرُسُلَهُ وَهُوَ مَنْ يُخْتَارُهُمْ ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾

[الأنعام : 124] .

وَيُخْتَلَفُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ عَنْ بَاقِي الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ الَّذِينَ جَاءُوا قَبْلَهُ مِنْ أُمَّةٍ النَّبِيِّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ

السَّلَامُ فَأُولَئِكَ الْأَنْبِيَاءُ كَانُوا مِنْ سُلَالَةِ النَّبِيِّ إِسْحَاقَ وَمِنْ تَمِّ النَّبِيِّ يَعْقُوبَ (إِسْرَائِيلَ) عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَهُوَ

الْوَحِيدِ مِنْ سُلَالَةِ النَّبِيِّ إِسْمَاعِيلَ ابْنَ إِبْرَاهِيمَ وَهُوَ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ وَرِسَالَتِهِ هِيَ لِلنَّاسِ كَافَّةً
 وَنَيْسَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَقَدْ أَكْمَلَ اللَّهُ دِينَهُ وَنِعْمَتَهُ عَلَى النَّاسِ بِهَا وَبِأَنَّ جَعَلَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ شَامِلًا مُصَدِّقًا
 لِلْكِتَابِ السَّمَاوِيِّ وَكَذَلِكَ نَزَلَ الْقُرْآنُ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ وَهُوَ الْكِتَابُ السَّمَاوِيُّ الْوَحِيدُ الَّذِي نَزَلَ بِهِدِ اللُّغَةِ
 وَكَذَلِكَ أَنَّ الرَّسُولَ الْكَرِيمَ أَمِيًّا وَلَا مَجَالَ هُنَا لِلدُّخُولِ فِي بَيَانِ حَقِيقَةِ هَذِهِ الصِّفَةِ لِأَنَّهَا لَا تَدْخُلُ فِي
 فِهْرَسٍ بَحْثْنَا هَذَا لَكِن صِفَةَ الْأُمِّيِّ الصَّغْتِ بِالرَّسُولِ الْكَرِيمِ بِمَنْطُوقِ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي تَقُولُ
 ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا
 مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الجمعة : 2]

﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا
 فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : 20]
 ﴿ وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِتَنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بَدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ
 عَلَيْهِ قَاتِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آلِ
 عِمْرَانَ : 75] وَيُلَاحِظُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْأَخِيرَةِ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ كَانَ يَصِفُ الرَّسُولَ الْكَرِيمَ وَأَتْبَاعَهُ
 بِالْأُمِّيِّينَ وَيَطْعَنُ بِهِمْ لِأَنَّهُمْ كَذَلِكَ .

أَسْمَاءُ الْقُرْآنِ وَصِفَاتِهِ

اختلف الباحثون في علوم القرآن في عدد أسماء القرآن ، وتفاوتت تحديداتهم في هذا الصدد ، حيث حصر بعضهم أسماء القرآن في اسم "القرآن" فقط ، وعد الأسماء الأخرى المتداولة مجرد صفات للقرآن وليست أسماء له ، وذهب آخرون إلى أن للقرآن 55 اسماً ، وآخرون إلى أن له 95 اسماً . .

ولعل السبب في هذا الاختلاف راجع إلى وجود خلل في التمييز بين أسماء القرآن وصفاته ، أو إلى تبين الأذواق والمعايير المعتمدة في تحديد الأسماء والصفات . واسم الشبيء ، هو تعريفه وتشخيصه في الخارج ضمن إبعاد وحدود تحكي ماهية المسمى ويعرف بها . وأما الصفة فهي تحكي خاصية معينة من المسمى وعليه ، فأسماء القرآن هي خصوص المعرفات والمشخصات التي تحكي عن القرآن في الخارج من أنه كلام الله تعالى المنزل على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بالأعجاز . وأما صفات القرآن فهي تحكي عن خاصية معينة يشتمل عليها القرآن من قبيل : الهداية ، التبشير ، الإنذار . . . عند العودة إلى القرآن الكريم ، وتتبع توصيفات المولى تعالى لكتابه ، سنلاحظ أن هناك جملة كبيرة من الصفات التي استعملها المولى تعالى في توصيف كتابه ، ونحن عندما نتحدث عن صفات القرآن وكذلك أسماؤه ، لا نستند في ذلك على الروايات أو توصيف المخلوق له ، بل نعتد ونستند في تحديد الاسم أو الصفة ، على قول المولى تعالى في كتابه المنزل ونذكر هنا أهم الصفات المعلومة عند كل من قرأ القرآن العظيم : كما قال تعالى : (ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم) (الحجر 87

الكريم : كما قال تعالى : ((وإنه لقسّم لو تعلمون عظيم (76) إنه لقرآن كريم)) (الواقعة 76-77) .

المبين : كما قال تعالى : ((الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين)) (الحجر I) .

الحكيم : كما قال تعالى : ((يس (I) والقرآن الحكيم)) (يس 2I) .

المُبَارَك : كَمَا قَالَ تَعَالَى : ((كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)) (ص. 9) .

المَجِيد : كَمَا قَالَ تَعَالَى : ((ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ)) (ق. I) .

العَزِيز : كَمَا قَالَ تَعَالَى : ((إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ)) (فصلت. I) .

الهُدَى : كَمَا قَالَ تَعَالَى : ((الْم (I) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ)) (البقرة. 2.I) .

الرَّحْمَةَ : كَمَا قَالَ تَعَالَى : ((الم (I) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (2) هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ)) (لقمان

وغيرها من الصفات الكثيرة ، مِنْ قَبِيلِ : « الشِّفَاء » و « الْبَلَاغ » و « الْبَشِير » و « التَّذِير » و «

الْبَصَائِر » و « الْحَقُّ » و « الْعِلْم » و « الصِّدْق » و « الْعَجَبُّ » و « التَّذْكَرَة » و « الْبَيَان » و «

الْوَحْي » و « الْبَصَائِر » و « أَحْسَنَ الْحَدِيثِ » إلخ .

وَالْمَشْهُورُ مِنَ الْأَسْمَاءِ ، هُوَ التَّالِي :

أ- الْقُرْآن : وَرَدَتْ مُفْرَدَةً "قرآن" 68 مرة فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ (قرآن : 85مرة/ قرآنًا : 10مرات) . وَأُرِيدُ

بِهَا : نَارَةٌ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْآيَاتِ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ

لِّلْمُؤْمِنِينَ . . .﴾ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ . وَنَارَةٌ

أُخْرَى مَجْمُوعِ الْكِتَابِ (أَي مَا بَيْنَ الدَّقَّتَيْنِ) ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى

مُكْتَبٍ وَتَرْلِنَاهُ نَنْزِيلًا﴾ .

ب- الْفُرْقَان : وَرَدَتْ مُفْرَدَةً "فرقان" 6مرات فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ . وَالْفُرْقَانُ مِنَ الْفُرْقِ وَالْفُرْقَةُ ، وَيُرَادُ

بِهَا مَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ

وَيَبِّئَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴿ [البقرة : 185] ﴿ مِنْ قَبْلِ هُدَى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿ [آل عمران : 4] ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى
عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿ [الفرقان : I

ج- الذكر : وَرَدَّتْ مُفْرَدَةً "ذِكْر" 252 مَرَّةً فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَأُرِيدُ بِهَا الْقُرْآنَ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ فَقَطْ ،
كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ . . . وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ
مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ .

د- الْكِتَابُ : وَرَدَّتْ مُفْرَدَةً "كِتَاب" 230 مَرَّةً فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا
رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا . . .﴾ .
وَالْكِتَابُ هُوَ : جُمْلَةٌ مَا هُوَ مُوجُودٌ بَيْنَ الدَّقِيقَتَيْنِ . وَقَدْ أُسْتُعْمِلَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَأُرِيدُ بِهِ : تَارَةً مَا أُنزِلَ
عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى الْمُوحَى إِلَيْهِمْ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿يَا يَحْيَى خُذِ
الْكِتَابَ بَقُوَّةً﴾ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى - عَلَى
لِسَانِ نَبِيِّهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ - : ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ . . .﴾ . وَتَارَةً أُسْتُعْمِلَ الْكِتَابُ
بِمَعْنَى خُصُوصِ الْمَكْتُوبِ عَلَى نَحْوِ الْمُرَاسَلَاتِ وَالْمُخَاطَبَاتِ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى - فِي مَعْرِضِ حِكَايَتِهِ
لِقِصَّةِ النَّبِيِّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَلَكَهَ سَبَأً : ﴿أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَالِقَهُ لِيهِمْ ثُمَّ نَوَّلَ عَنْهُمْ فَاَنْظُرْ مَاذَا
يَرْجِعُونَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ . وَتَارَةً أُسْتُعْمِلَ بِمَعْنَى صَحِيفَةِ أَعْمَالِ الْإِنْسَانِ ،
كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ . . . مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا . . .﴾ ، وَقَوْلُهُ

تعالى : ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلَمْنَا طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيب .

هـ- التَّنْزِيلُ : وَرَدَّتْ مُفْرَدَةً "تنزيل" IIمرة في القرآن الكريم ، كما في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّا لَنَنْزِلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ . ويُراد من التَّنْزِيلِ : القرآن النَّازِلَ مفرقاً مرة بعد أخرى .

و- المَصْحَفُ : لَمْ يَرِدْ ذِكْرُ هَذِهِ الْمُفْرَدَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَلَكِنْ أُشْتَهَرَ تَدَاوُلُهَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ رَحِيلِ الرَّسُولِ الْأَكْرَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، بِوَضْعِهَا اسماً مِنْ أَسْمَاءِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ .
ولعلَّ اشْتِهَارَ تَدَاوُلِهَا يُعَوِّدُ إِلَى شِدَّةِ انْشِغَالِ الْمُسْلِمِينَ وَاهْتِمَامِهِمْ بَعْدَ رَحِيلِ الرَّسُولِ الْأَكْرَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِكِتَابَةِ الْقُرْآنِ وَتَدْوِينِهِ وَجَمْعُهُ بَيْنَ دَقَّتَيْنِ . وَالصَّحِيفَةُ : الْمَبْسُوطُ مِنَ الشَّيْءِ ، كَصَحِيفَةِ الْوَجْهِ ، وَالصَّحِيفَةُ : الَّتِي يَكْتُبُ فِيهَا ، وَجَمْعُهَا : صَحَائِفٌ وَصُحُفٌ . قَالَ تَعَالَى : ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ ، ﴿يُتْلَوُ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ ، قِيلَ : أُرِيدَ بِهَا الْقُرْآنَ ، وَجَعَلَهُ صَحُفًا فِيهَا كُتِبَ مِنْ أَجْلِ تَضَمُّنِهِ لَزِيَادَةِ مَا فِي كُتُبِ اللَّهِ الْمُتَقَدِّمَةِ . وَالْمُصْحَفُ : مَا جَعَلَ جَامِعًا لِلصُّحُفِ الْمَكْتُوبَةِ ، وَجَمْعُهُ : مَصَاحِفٌ . وَتَجَدَّرَ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ الْأَسْمَاءَ الثَّلَاثَةَ : الْكِتَابُ ، الذِّكْرُ ، الْفُرْقَانُ ، هِيَ أَسْمَاءُ مُشْتَرَكَةٍ بَيْنَ الْقُرْآنِ وَالْكِتَابِ السَّمَاوِيَّةِ الْأُخْرَى . وَأَمَّا اسْمُ "الْقُرْآنِ" فَهُوَ الْاسْمُ الْوَحِيدُ الَّذِي اخْتَصَّ بِهِ كِتَابُ رِسَالَةِ الْإِسْلَامِ عَنْ كُتُبِ بَاقِي الرِّسَالَاتِ السَّمَاوِيَّةِ . وَيُعَدُّ مِنْ أَشْهَرِ أَسْمَاءِ الْقُرْآنِ : الْقُرْآنُ ، ثُمَّ الْفُرْقَانُ ، ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَهُمَا فِي الشُّهُرَةِ تَرْتِيبًا : الْكِتَابُ ، وَالذِّكْرُ ، وَالتَّنْزِيلُ . .

السور المَكِّيَّة والمدنية

قسّم علماء القرآن سُورِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالَّتِي عَدَدُهَا 114 إلى مَكِّيَّة ومدنيَّة إذْ بَلَغَ عَدَدُ السُّورِ الْمَكِّيَّةِ سِتًّا وَثَمَانُونَ سُورَةً ، وَأَمَّا السُّورُ الْمَدِينِيَّةُ فَتَقْدُ بَلَغَ عَدَدُهَا ثَمَانًا وَعِشْرُونَ سُورَةً .

وَأَمَّا السُّورُ الْمَدِينِيَّةُ الْعِشْرُونَ الْمُتَّقِ عَلَيْهِهَا فَتَتَضَمَّنُ السُّورَ الْآيَّةُ : الْبَقْرَةَ ، آلِ عِمْرَانَ ، النَّسَاءَ ، الْمَائِدَةَ ، الْأَنْفَالَ ، التَّوْبَةَ ، النُّورَ ، الْأَحْزَابَ ، مُحَمَّدَ ، الْفُتْحَ ، الْحُجُرَاتَ ، الْحَدِيدَ ، الْمَجَادِلَةَ ، الْحَشْرَ ، الْمُتَحَنَةَ ، الْجُمُعَةَ ، الْمُنَافِقِينَ ، الطَّلَاقَ ، التَّحْرِيمَ ، وَالتَّنْضِيحَ ، وَأَمَّا السُّورُ الْمُخْتَلَفُ فِيهَا فَهِيَ : الْفَاتِحَةُ ، الرَّعْدُ ، الرَّحْمَنُ ، الصَّفِّ ، التَّغَابُنِ ، الْمُطَفِّفِينَ ، الْقَدْرَ ، الْبَيِّنَةَ ، الزُّلْزَلَةَ ، الْإِحْلَاصَ ، الْفُلُقَ ، وَالتَّاسَ ، وَأَمَّا بِقِيَّةُ السُّورِ فِيهَا مَكِّيَّةٌ ، وَيَبْلُغُ عَدَدُهَا اثْنَانِ وَثَمَانُونَ سُورَةً .

خَصَائِصُ السُّورِ الْمَكِّيَّةِ وَالْمَدِينِيَّةِ

تَمَّاز السُّورُ الْمَكِّيَّةُ وَالْمَدِينِيَّةُ بِالْعَدِيدِ مِنَ الصِّفَاتِ وَالْخَصَائِصِ الَّتِي تُمَيِّزُهَا عَنْ بَعْضِهَا الْبَعْضُ ، وَهِيَ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي : خَصَائِصُ السُّورِ الْمَكِّيَّةِ تُوجَدُ الْعَدِيدِ مِنَ الْخَصَائِصِ وَالضُّوَابِطِ الَّتِي وَضَعَهَا الْعُلَمَاءُ لِلتَّمْيِيزِ بَيْنَ السُّورِ الْمَكِّيَّةِ وَالْمَدِينِيَّةِ ، وَمِنْ خَصَائِصِ السُّورِ الْمَكِّيَّةِ مَا يَأْتِي : الْمَكِّيُّ مِنَ الْقُرْآنِ مَا نَزَلَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ ، سِوَاءً أَكَانَ نَزُولُهُ فِي مَكَّةَ أَوْ غَيْرِهَا ، وَقِيلَ هُوَ مَا نَزَلَ بِمَكَّةَ وَمَا حَوْلَهَا ، كَعَرَفَةَ وَمِنَى ، وَقِيلَ أَيْضًا أَنَّ الْمَكِّيَّ مَا جَاءَ خَطَابًا لِأَهْلِ مَكَّةَ . وَالسُّورُ الْمَكِّيَّةُ هِيَ كُلُّ السُّورِ مَا عَدَا السُّورِ الْمَدِينِيَّةَ ، وَمَجْمُوعُهَا اثْنَانِ وَثَمَانُونَ سُورَةً وَقَدْ وَقَعَتْ كُلُّهَا فِي التَّصْفِ الثَّانِي مِنَ الْقُرْآنِ ، وَالْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ الْمَكِّيَّ نَزَلَ أَغْلَبَهُ فِي مَكَّةَ ، وَأَكْثَرَ أَهْلِهَا مِنَ الْجَبَابِرَةِ ، فَخَاطَبَهُمُ اللَّهُ بِلَفْظِ التَّهْدِيدِ وَالتَّعْنِيفِ لَهُمْ .

خَصَائِصُ السُّورِ الْمَدِينِيَّةِ تُوجَدُ الْعَدِيدِ مِنَ الْخَصَائِصِ وَالضُّوَابِطِ لِلْسُّورِ الْمَدِينِيَّةِ ، وَهِيَ كَمَا يَأْتِي :

اشْتِمَالُهَا عَلَى الْحُدُودِ وَالْفَرَائِضِ ، وَالْجِهَادِ وَأَحْكَامِهِ ، وَالْإِذْنِ فِيهِ . اشْتِمَالُهَا عَلَى مُجَادَلَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَبَيَانِهَا لِأَحْكَامِ الْعِبَادَاتِ ، وَالْمُعَامَلَاتِ ، وَنِظَامِ الْأَسْرَةِ ، وَالْمِيرَاثِ ، وَالْعِلَاقَاتِ الدَّوْلِيَّةِ ، وَقَوَاعِدِ الْحُكْمِ وَالتَّشْرِيعِ . طُولُ الْآيَاتِ فِيهَا . ذِكْرُهَا لِلْمُنَافِقِينَ ، بِاسْتِثْنَاءِ سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ . السُّورُ الْمَدِينِيَّةُ مَا نَزَلَ بَعْدَ الْهِجْرَةِ ، سِوَاءً أَكَانَ نَزُولُهَا فِي الْمَدِينَةِ أَوْ مَكَّةَ ، وَقِيلَ هِيَ مَا نَزَلَ فِي الْمَدِينَةِ ، وَقِيلَ أَيْضًا هِيَ مَا كَانَ الْمُخَاطَبُ فِيهَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ . .

الْمُحْكَمَاتُ وَالْمُتَشَابِهَاتُ وَالتَّأْوِيلُ

قَالَ تَعَالَى : (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) آل عمران/7

فَالْتَصَّ الْقُرْآنِيُّ فِيهِ الْمُحْكَمَ وَالْمُتَشَابِهَ ، وَالْمُحْكَمَ هُوَ الْبَيِّنُ الْوَاضِحُ الَّذِي لَا يَلْتَبِسُ أَمْرَهُ ، وَهَذَا هُوَ
الْغَالِبُ فِي الْقُرْآنِ ، فَهُوَ أَمُّ الْكِتَابِ وَأَصْلُ الْكِتَابِ ، وَأَمَّا الْمُتَشَابِهُ ، فَهُوَ الَّذِي يَشْتَبِهُ وَيَخْتَلِفُ فِي تَفْسِيرِهِ
وَمَعْرِفَتِهِ ، وَلَا يَعْلَمُ حَقِيقَةَ تَأْوِيلِهِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى .

وَأَهْلُ الْحَقِّ يُرَدُّونَ الْمُتَشَابِهَ إِلَى الْمُحْكَمِ ، وَأَمَّا أَهْلُ الزَّيْغِ فَيَتَّبِعُونَ الْمُتَشَابِهَ ، وَيَعَارِضُونَ بِهِ الْمُحْكَمَ ،
ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ، وَجَرِيًّا خَلْفَ التَّحْرِيفِ وَالتَّضْلِيلِ .

يقول المولى القدير : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ [يونس : 39]

وَيَقُولُ أَيْضًا : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا
بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ
مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأعراف : 53]

وَلَا بَدَّ هُنَا مِنْ ضَرْبِ الْأَمْثَلَةِ النَّصِيَّةِ لِنَعْرِفَ حَقِيقَةَ الْمُحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ أَغْلَبَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ
هِيَ مُحْكَمَةٌ وَلَا يَلْقَى أَحَدًا صُعُوبَةً فِي فَهْمِهَا فِي سَهْلَةِ الْفَهْمِ وَالِاسْتِيعَابِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ هُوَ
بِالْأَسَاسِ يُخَاطَبُ الْبَشَرَ أَيْ النَّاسَ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَحْدُودِيَّةَ عِلْمِهِمْ مُقَارِنَتَهَا بِعِلْمِ اللَّهِ لِذَلِكَ يَقُولُ الْمَوْلَى الْقَدِيرُ
فِي سُورَةِ يَس : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا
بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة : 255]

وَفِي سُورَةِ طه ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [طه : 110]

لَذَلِكَ جَاءَ النَّصُّ الْقُرْآنِيُّ سَهْلًا لِيَفْهَمَهُ النَّاسُ وَهُوَ خَطَابًا مِنْ اللَّهِ لَهُمْ وَهُنَاكَ بَعْضُ الْآيَاتِ وَخَاصَّةً الْكُوفِيَّةَ وَالغَيْبِيَّةَ مِنْهَا يَعْجِزُ الْعَقْلُ الْبَشَرِيُّ عَلَى تَفْسِيرِهَا وَفَهْمِهَا وَتَأْوِيلِهَا وَسَنُعْطِي بَعْضَ الْأَمْثَلَةِ عَلَيْهَا :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف : 54] تَحْتَوِي هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مِثَالَيْنِ عَلَى الْمُحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ أَوْ سَهْلِ الْفَهْمِ وَمُتَمِّنِعَ عَنْهُ

فَلَا يَضْعُبُ عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ مَعْنَى يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَكَذَلِكَ نَسْتَوْعِبُ قَوْلَهُ تَعَالَى وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ لَكِنْ يَضْعُبُ عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ مَا هِيَ الْأَيَّامُ السِّتَّةُ الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ بِهَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَهُنَا يَقَعُ الْقُرْآنُ وَالْمُفَسِّرِينَ فِي الْخَطَأِ وَالْتِقَاضِ فَمِنْهُمْ مَنْ يُفَسِّرُهَا بِمِثْلِ أَيَّامِنَا هَذِهِ وَهُنَاكَ مَنْ يَدَّعِي أَنَّهَا مَرَاحِلُ وَفتراتُ زمنيةٌ وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ إِنَّهَا مِنْ أَيَّامِ اللَّهِ لَكِنْ عِلْمُهَا الْحَقُّ أَيُّ تَأْوِيلِهَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ وَسَيَأْتِي الْيَوْمَ الَّذِي سَيَكْشِفُ اللَّهُ لَنَا عَنْ ذَلِكَ وَكَذَلِكَ جُمْلَةُ وَاسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ فَتَحْنُ عَاجِزُونَ عَنْ فَهْمِ الْفِعْلِ وَالصِّفَةِ هُنَا مَعْنَى وَكَيْفَ اسْتَوَى وَمَاهُو شَكْلُ الْعَرْشِ وَتَرْكِيبِهِ وَحَتَّى لَا نَدْخُلَ فِي مَتَاهَاتِ التَّأْوِيلِ وَالتَّخِيلِ وَالتَّصَوُّرِ وَالتَّشْبِيهِ نَقُولُ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَبِهَذَا وَحْدَهُ لَا نَدْخُلُ فِي عَمَلِيَّةِ التَّأْوِيلِ الَّتِي قَدْ تَجَرْنَا إِلَى صِفَاتِ التَّشخيصِ وَالْأَسْنَةِ وَمَعْرِفَةِ الظَّاهِرِ وَالبَّاطِنِ وَبالتَّالِي صَنَعَ الْفَنِّ وَالضَّلَالَاتِ .

لَذَلِكَ وَقَعَ الْكَثِيرُ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ الْحَدِيثِيِّينَ فِي إِخْطَاءٍ فَادِحَةٍ عِنْدَمَا تَوَهَّمُوا بِأَنَّ التَّأْوِيلَ يُمَكِّنُ الْوُصُولَ إِلَيْهِ بِالْعَقْلِ كَمَا وَقَعَ الْقَدَامَى مِنْهُمْ فِي نَفْسِ الْحَالَةِ حِينَمَا تَوَهَّمُوا أَنَّهُمْ مِنَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ الرَّبَّانِيِّ وَإِنَّ اللَّهَ

قَدْ فَتَحَ وَكَشَفَ لَهُمْ مَا خَفِيَ وَمَا بَطَنَ وَهَكَذَا تُشَكِّلُ الْمَذْهَبُ الْبَاطِنِيَّ فِي الْإِسْلَامِ هَذَا الْمَذْهَبُ الَّذِي
جَرَ الْكَثِيرَ مِنَ الْوِيَلَاتِ وَالْفِتَنِ وَالْحُرُوبِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ نَدَفَعُ أَثْمَانَهَا إِلَى الْيَوْمِ .

﴿ مَا تَسْخُحُ مِنْ آيَةٍ أَوْ تُنْسِيهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة :

[106]

الناسخ والمنسوخ

لا ناسخ ولا منسوخ في القرآن

الكثير منا سمع بنسخ آيات القرآن و تقبله على مضض ، ولكن إيمانه و حبه لله وثقته بأن الله تعالى لا يغير
قوله ﴿ ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد ﴾ أن الناسخ والمنسوخ قضية خلافية وليست من المعلوم
بالدين بالضرورة ، ولا يوجد حتى حديث منسوب الى رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول بأن الآية
الفلانية نسختها الآية الأخرى .

و اعلم بأن علماء مسلمون كبار انكروا وجود هذا الإفك العظيم الذي ساهم في هجر القرآن والإقبال
على الروايات والأحاديث التي فرقت المسلمين الى نحل ومذاهب ، ومن هؤلاء العلماء :

الشيخ يوسف القرضاوي

الشيخ محمد الغزالي رحمه الله .

الإمام محمد عبده رحمه الله .

أبو مسلم الأصفهاني .

الشيخ عبد المتعال الجبري رحمه الله .

الغريب أن الذين قالوا بالنسخ مختلفين على كيفية النسخ وعلى عدد الآيات المنسوخة فمنهم من قال بأن القرآن لا ينسخ إلا بالقرآن و منهم من قال بأن الحديث ينسخ القرآن و منهم من قال بأن الاسلام ناسخ للشرائع السابقة (وهو رأي صحيح) منهم من قال بأن النسخ هو تخصيص العام أو تقييد المطلق (وهو رأي صحيح)..... فمثلاً :

أمرنا ربنا بأن نقول لوالدينا ﴿وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا﴾ ولكنه في نفس الوقت قال ﴿وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه ان ابراهيم لاواه حلیم﴾ فيجب على المسلم أن يستغفر لوالديه إلا اذا كانا عدوين لله تعالى ،

فهذا ليس نسخ ولكن تكامل وتعاضد الآيات بعضها ببعض .

فلا يجوز ان نفهم الآيات بمعزل عن الآيات الأخرى ، فكل آية تعضد وتكمل الآية الأخرى .

لقد فهم بعض المسلمين قوله تعالى :

﴿ ما ننسخ من آية او ننسها نات بخير منها او مثلها لم تعلم ان الله على كل شيء قدير﴾

على أن الله يبدل ويغير كلامه في القرآن الكريم وسموا ذلك الأمر نسخاً ، ولكنهم في نفس الوقت
تغاضوا عن آيات أخرى تثبت أنه لا يوجد ناسخ ومنسوخ في آيات القرآن الحكيم مثل قوله تعالى :

﴿ واتل ما اوحى اليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدًا ﴾

﴿ وتمت كلمت ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ﴾

﴿ ما يبدل القول لدي وما انا بظلام للعبيد ﴾

﴿ افلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾

﴿ كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾

﴿ لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾

﴿ الحمد لله الذي انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ﴾

﴿ قرانا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون ﴾

وغيرها من الآيات البينات والتي تناقض ما يزعمون من وجود نسخ بمعنى الإلغاء بين آيات القرآن الحكيم.

لقد اعتمدوا بالذات على قوله تعالى ﴿ ما ننسخ من آية او ننسخها من كتابنا بغيرها او نلغها، نأتي بخير منها او مثلها لم تعلم ان الله

على كل شيء قدير ﴾ على اثبات وجود النسخ وقراءوا الآية هكذا :

(ما نلغها، أو نلغها ونلغي من آيات القرآن، أو نلغها، ونلغها ونلغها، نأتي بخير منها أو مثلها) إذ أن

كلام الله بعضه خير من بعضه الآخر (ألم تعلم بأن الله على كل شيء قدير ؟؟؟ !)

والآن دعونا نرجع ونقرأ الآية من جديد:

﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بجيز منها أو مثلها لم تعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾

فما معنى نسخ؟

إن كلمة نسخ تحمل معنيين متضادين:

المعنى الأول: نسخ تعني الثبوت و الكتابة مثل قوله تعالى ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا

ننسخ ما كنتم تعملون ﴾

المعنى الثاني: ويعني الالغاء والتبديل مثل: نسخت الشمس الظل أي أزالته.

فأي معنى نتحدث به الآية؟

قبل الإجابة على ذلك علينا تحديد ما المقصود بكلمة (آية) المذكورة في قوله تعالى ﴿ ما ننسخ من

آية ﴾ هل هي آية قرآنية مثل قوله تعالى ﴿ تلك آيات الله تلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته

يؤمنون ﴾ أم هي المعجزات التي أتى بها الانبياء مثل ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله

ما لكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا

تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب اليم ﴾ أم آية بمعنى عبرة وحكمة مثل قوله تعالى ﴿ قد كان لكم آية في

فئتين القتلة فتقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في

ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾ أم آية تعني حكماً شرعياً مثل قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم

الذين ملكت إيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم

من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك بين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ﴿٤٠﴾ .

ان من ينكرون نسخ الآيات القرآنية لهم أيضاً آراء متباينة فمنهم من قال بأن الآيات المنسوخة هي معجزات الرسل ومنهم من قال بأنها الأحكام والشرائع السابقة ومنهم من قال بأن النسخ هو التثبيت وليس المحو .

مامعنى (نسخها) ؟ هل هناك آيات قرآنية منسية (أكلتها المعزة مثلاً) والعياذ بالله؟

(ملاحظة هناك من يقول ان نسخها بمعنى نُوخِرها) ، وهناك من يقول ان نسخها بمعنى ان هذه الآيات القرآنية قد أُسِيَتْ ولم تعد موجودة ويستدلون بذلك على حديث نسبوه الى رسول الله يزعمون انه قال :
رحم الله فلان ذكرني بآية كنت قد أنسيته .

(روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت سمعت النبي قارئاً يقرأ من الليل في المسجد فقال:
يُرْحِمُهُ اللهُ، لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا آيَةً أَسْقَطْتُهَا مِنْ سُورَةٍ كَذَا وَكَذَا . وفي رواية: أُسِيَتْهَا)

وايضا على خرافة المعزة التي كانت في بيت أم المؤمنين عائشة والتي أكلت اجزاء من سورة الاحزاب والتي كانت تعادل سورة البقرة على حد زعمهم وبسبب هذه المعزة ضاع جزء من الدين .

روى ابن ماجه بسنده عن عائشة قالت:

(لقد نزلت آية الرجم، ورضاعة الكبير عشرا، ولقد كان في صحيفة تحت سريري، فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وتشاغلنا بموته، دخل داجن فأكلها .)

(وعن شريك ابن عاصم قوله: "قال لي أبي ابن أبي كعب: كيف تقرأ سورة الأحزاب؟ قلت: سبعين أو إحدى وسبعين آية، قال والذي أحلف به، لقد نزلت على محمد (صلعم) وأنها تعادل سورة البقرة أو تزيد عليها .)

وغير ذلك من هذه الروايات الضيبي .

إن كلمة آية في قوله تعالى ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها لم تعلم ان الله على كل شيء قدير ﴾ لا تدل أبداً على آية قرآنية ولكن على حكم أو أحكام شرعية نسخت بأحكام مثلها أو خير منها أو تم نسيانها لأن أمة محمد غير مكلفة بها .

وهذا هو ما لم يُرده أهل الكتاب الذين كانوا مكلفين بهذه الاحكام قبل أن تنسخ لأمة محمد ولو تدبرنا الآية السابقة لقوله تعالى (مانسخ من آية . . الخ) سنجد أنها قوله تعالى: ﴿ ما يود الذين كفروا من اهل الكتاب ولا المشركين ان ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

لاحظوا كلمة " خير " المذكورة في الآيتين .

مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ١٠٥

مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٠٦

وبتدبر الآية القرآنية نصل بأنه لدينا ثلاثة أنواع من الآيات أي ثلاثة أنواع من الأحكام والشرائع المنسوخة .

I- نسخ آية بمثله (اي نسخ حكم او تكليف شرعي بمثله):

مثلاً الرسالات السماوية كلها تدعو الى عبادة الله وحدة وتحريم الزنا وعقوق الوالدين والكذب و قتل النفس بغير حقالح.

ونفس الشئ ينطبق على أمة محمد عليه الصلاة والسلام.

ويدخل في ذلك نسخ القبلة بقبلة مثلها (علماً بأنه لا توجد آية قرآنية تدعو الى التوجه في الصلاة الى بيت المقدس)

2- نسخ آية بأحسن منها (اي نسخ حكم او تكليف شرعي بحكم أحسن منه): مثلاً:

ماهو حكم المسلم الذي أشرك بالله ويريد التوبة ،الجواب: يتوب الى الله توبه نصوحاً ، ولكن ماذا كان الحكم عند قوم موسى ،الجواب: يقتلوا أنفسهم .

﴿واذ قال موسى لقومه يا قوم انكم ظلمتم انفسكم با اتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا انفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم انه هو التواب الرحيم ﴾

ويدخل في ذلك التخفيف على أمة محمد عليه الصلاة والسلام (الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يامرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم فالذين امنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه اولئك هم المفلحون) .

وغيرها من الايات، مثلا اليهود لا يأكلون اللحم المختلط بعظم وهذا حكم منسوخ بأحسن منه عند أمة محمد رسول الله ﷺ وعلى الذين هادوا حرمتنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمتنا عليهم شحومهما الا ما حملت ظهورهما او الحوايا او ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون ﷻ .

3- آيات منسية (أي أحكام وشرائع أنسييت ولم نعد نعرف عنها شيئاً):

قال تعالى ﷻ ولقد ارسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول ان يأتي باية الا باذن الله فاذا جاء امر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون ﷻ غافر
أي أن هناك رسل لم يخبرنا الله تعالى عنهم هؤلاء الرسل جاءوا بآيات (أحكام وشرائع وايضاً معجزات .) هذه الايات تعتبر منسية بالنسبة لنا، فلا نعرف عن احكامهم وشرائعهم شيئاً لأنها قد أنسييت .

لاحظوا الآية القرآنية الآتية: ﷻ ولقد ارسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم ازواجاً وذرية وما كان لرسول ان يأتي باية الا باذن الله لكل اجل كتاب ﷻ

وهذه هي الآية رقم 38 من سورة الرعد والتي تشبه الآية السابقة من سورة غافر ﷻ ولقد ارسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول ان يأتي باية الا باذن الله فاذا جاء امر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون ﷻ .

هل تدرون ماذا قال تعالى بعدها؟

قال بعدها مباشرة (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب) الرعد 39.

هذا هو فهمنا لقوله تعالى ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بجيز منها أو مثلها لم تعلم ان الله على كل

شيء قدير ﴿

ان مسألة الناسخ والمنسوخ خدعة فقهية، تمكن الفقيه من إلغاء حكم قرآني بحكم قرآني آخر، بحجة أن الثاني نسخ الأول، أي إلغاء وأبطله؛ ودائماً ما يأتي الادعاء بالنسخ في سبيل حكم متشدد أو رؤية أكثر انغلاقاً. إن القول بناسخ ومنسوخ في القرآن يوقعنا في خطر بالغ، إذ أن هذا يعني أن القرآن يلغي بعضه بعضاً، وكان دعاة النسخ يقولون "تُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَتُكْفُرُ بِبَعْضٍ" (النساء 150)، بل كل من عند الله، وكل متساو في القيمة. إذا كان هناك معطلة، فهم ليسوا المعتزلة الذين قيل عنهم أنهم يعطلون الله عن الفعل المطلق وعن صفاته، بل هم الذين يعطلون آيات بحجة أنها منسوخة، من أجل تفسيراتهم المتشددة وحكمهم القمعي. إن الاحتجاج بالنسخ تعطيل لآيات الله. وتضح أغراضهم في قول الكثير منهم أن كل آيات السلم والتعايش بين المسلمين وغيرهم نسختها آية السيف، أي أن آية واحدة، نزلت في سياق معين وفي حالة خاصة جزئية، تبطل عمل آيات كثيرة تدعو للسلم والتعايش، والواضح طبعاً أن هدف هؤلاء الوصول إلى تفسير يبرر العنف والخصومة والحرب على المخالفين أو المختلفين.

والدليل على أن موضوع الناسخ والمنسوخ خدعة، أنه ليس هناك إجماع على الآيات الناسخة والآيات المنسوخة، بحيث يتبدل رأي الفقيه فيهما حسب الأحوال، ووقت اللزوم يُخرج لنا آية قيل عنها إنها منسوخة ليوظفها في غرضه. من هنا تصير طريقة الاحتجاج بالنسخ طريقة للتعامل مع كتاب الله بحسب الأهواء والمصالح الآتية، وفوق ذلك تلاعباً بكلام الله.

والمصيبة أكبر لدى السلفيين الذين يقولون بنسخ السنة للقرآن، إذ يجعلون السنة بذلك، أي الأحاديث،
مهيمنة على القرآن وحاكمة عليه ولاغية له، في حين أن العكس هو الصحيح. فكيف تكون الأحاديث
التي هي ظنية الثبوت ظنية الدلالة حاکمة ولاغية لآيات القرآن قطعية الثبوت قطعية الدلالة؟ والبعض
من هؤلاء السلفيين يقول إن القرآن أصل والسنة كذلك أصل، إذ يعالجونها على أنها أصل متساو مع
القرآن نفسه، فكيف إذن نساوي بين كلام الله وكلام بشري منقول على لسان بشر؟ والبعض الآخر يقول
إن القرآن أصل والسنة فرع، لكن هذا غير صحيح، لأن القرآن أصل وحده لا فرع له، لأنه ليس في
حاجة إلى فرع. السنة ليست فرعاً بل هي حالة تطبيقية واحدة فقط، جزئية وخاصة بمجتمع معين في
زمان معين هو مجتمع المسلمين وقت نزول الرسالة، والحالة التطبيقية الجزئية الخاصة بالحكومة بزمانها
ومكانها ليست أصلاً للتشريع وليست كذلك فرعاً، إنها حالة تطبيقية فقط، مشروطة بعصرها وطبيعة
مجتمعها، إذا عممناها على غيرها من المجتمعات والأزمنة أخطأنا في التشريع وفي الفهم وظلمنا بالدين كل
العصور اللاحقة.

القَصَصُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

جَاءَ فِي الْمِصْبَاحِ الْمُنِيرِ : قِصَصُ الْخَبَرِ قِصَا : حَدَّثَتْ بِهِ عَلَيَّ وَجْهِهِ ، وَالِاسْمُ الْقِصَصُ ، وَقَدْ جَاءَ

فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ : إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقِصَصُ الْحَقُّ [آلِ عِمْرَانَ : 62

وَكَذَلِكَ : لَقَدْ كَانَ فِي قِصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ [يُوسُفَ : ١١١] .

وَالْقِصَّةُ : الْأَمْرُ وَالْخَبَرُ وَالشَّأْنُ ، جَاءَ فِي الْمِصْبَاحِ : وَالْقِصَّةُ : الشَّأْنُ وَالْأَمْرُ ، يُقَالُ : مَا قِصَّتْكَ ؟

أَيُّ : مَا شَأْنُكَ . وَفِي الْقَامُوسِ الْمَحِيطِ : وَالْقِصَّةُ - بِالْكَسْرِ - الْأَمْرُ وَالَّتِي تُكْتَبُ . وَعَلَى هَذَا : فَمَا

جَاءَ مِنْ أَخْبَارِ قِصَّهَا عَلَيْنَا الْقُرْآنُ يُمَكِّنُ أَنْ يُطَلَّقَ عَلَيْهَا لَفْظُ : الْقِصَّةُ .

لَيْسَتْ الْقِصَّةُ فِي الْقُرْآنِ كَمَا أَنَّ الْقِصَصَ الْحُرَّةَ الطَّلِيقَةَ الصَّادِرَةَ مِنْ نَفْسِ بَشَرِيَّةٍ ، تُجْعَلُ أَمَامَهَا أَهْدَافًا

خَاصَّةً ، ثُمَّ لَا تُبَالِي أَنْ تَسْتَمِدَّ مَا تَقُولُهُ مِنْ خَيَالٍ غَيْرِ صَادِقٍ ، أَوْ أَنْ تُعْرَضَ حَوَادِثُ لَمْ تَقَعْ ، أَوْ تَدَوَّرُ

حَوْلَ بَطْلٍ لَا وَجُودَ لَهُ أَصْلًا ، أَوْ تَخْرُجَ مِنْ جَدِّ إِلَى هَزْلٍ ، أَوْ تَضَعُ الْبَاطِلَ إِلَى جَانِبِ الْحَقِّ ، وَجَلَّ

اهتمامها أن تظهر البراعة البيانية لمؤلفها . وإنما القصة في القرآن حقيقة تاريخية ثابتة ، تصاغ في صور
بديعة من الألفاظ المنتقاة والأساليب الرائعة . وهذه حقيقة قامت الأدلة عليها بما لا يدع مجالاً للشك .

أن القصة القرآنية حقيقة تاريخية لا تحوم حولها شبهة . ولذا فقد اعتبرها المتقدمون والمتأخرون من
المؤرخين عمده رصينة في كل ما كتبوه من أبحاث تاريخية ، سواء كانت تتعلق بمجاذب حاضرة وقت
نزوله ، أم تتعلق بمجاذب الأمم الغابرة . ولقد كانوا على بينة من أمرهم في ذلك إذ أن القرآن أصح
مصدر عرفه التاريخ في هذا المجال ، يشهد بذلك أن الباحثين - على اختلاف مذاهبهم ونحلهم -
اعتمدوا القرآن أول وثيقة تاريخية تعرف بها إحداث الجزيرة العربية وأوضاعها في صدر الإسلام ، وإذا
كان كذلك فما هو عمدة في حقة هو عمدة في كل الحقب . ويشهد لذلك أن التاريخ والمؤرخين
عاجزون عن أن يأتوا برواية قريبة أو بعيدة تعارض ما جاء به القرآن من أخبار .

فقد سيقت لأغراض متعددة ، أهمها :

أ- إثبات الوحي والرسل لمحمد صلى الله عليه وسلم :

من المعلوم أن محمد بن عبد الله - صلوات الله وسلامه عليه - كان أمياً لم يعرف قراءة ولم تعهد عنه
كتابه ، كما سجل ذلك القرآن إذ يقول : وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لا رتاب
المبطلون [العنكبوت

ب- بيان وحده الوحي الإلهي : من الأغراض الهامة للقصة القرآنية التنبؤ على أن الدين السماوي

الذي بعث الله به الأنبياء والمرسلين واحد ، وأن جميع الشرائع المنزلة - بأصالتها - لا تعارض فيها ولا
اختلاف . وتحقيقاً لهذا الغرض نجد القرآن الكريم يورد قصص عدد من الأنبياء مجتمعاً في سورة

وَاحِدَةً ، وَرُبَّمَا تَكَرَّرَ مَجِيءُ هَذِهِ الْقِصَصِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ « ١ » ، كُلُّ ذَلِكَ بَغَرَضٍ تَأْيِيدُ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ وَتَشْبِيهُهَا فِي الْأَذْهَانِ وَتَوْكِيدُهَا فِي النُّفُوسِ ، وَلِذَا نَجِدُ الْقُرْآنَ يَصْرَحُ بِهَذَا الْغَرَضِ أحيانًا . وَمِثَالُ ذَلِكَ مَا جَاءَ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ - بَعْدَ ذِكْرِ قِصَصِ عَدَدٍ مِنْهُمْ - مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ [الأنبياء : ٩٢] .

ج - الْعِبْرَةُ وَالْمَوْعِظَةُ : وَمِنْ أَغْرَاضِ الْقِصَّةِ الْقُرْآنيَّةِ أَنْ تَشَدَّ النَّاسَ إِلَى غَايِرِ الْأَزْمَانِ ، لِيَلْقُوا نَظْرَهُ عَلَى مَنْ سَبَقَهُمْ مِنَ الْأُمَّمِ ، وَيَسْتَعْرِضُوا فِي خَيَلَتِهِمْ شَرِيطًا : يَصَوِّرُ لَهُمْ مَوْقِفَ أَوْلِيكَ الْأَجْيَالِ وَمَا آلَ إِلَيْهِ حَالِهِمْ ، فَيَأْخُذُوا الْعِبْرَةَ مِنْ وَاقِعِهِمْ ، وَيَتَعَضُّوا مِنْ عَاقِبَةِ أَمْرِهِمْ ، وَيُرَوِّا بِعُقُولِهِمْ وَيَتَحَسَّسُوا بِمَشَاعِرِهِمْ تَبِيحَةَ الْعِنَادِ وَالِاسْتِكْبَارِ عَنِ الْحَقِّ الَّذِي يَتَوَلَّاهُ اللَّهُ بِعِنَايَتِهِ ، وَيُدْفَعُ عَنْهُ بِبَالِغِ بَطْشِهِ وَجَبْرُوتِهِ ، فَيَضَعُ هَؤُلَاءِ الْمُخَاطَبُونَ فِي حِسَابِهِمْ .

د - تَشْبِيهُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَجَالِ الدَّعْوَةِ وَبَثِّ الطَّمَأْنِينَةِ فِي نَفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ :

وَلَعَلَّ هَذَا الْغَرَضُ مِنْ أَهَمِّ أَغْرَاضِ الْقِصَّةِ الْقُرْآنيَّةِ ، وَتَحْقِيقًا لَهُ فَقَدْ وَرَدَ كَثِيرٌ مِنْ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ مَعَ أَقْوَامِهِمْ مُجْتَمِعَةً تَارَةً ، وَمَنْفَرَدَةً أُخْرَى ، وَيَتَكَرَّرُ فِيهَا الْغَرَضُ أحيانًا .

٤ - مَنَهِجُ الْقِصَّةِ الْقُرْآنيَّةِ :

قَدْ عَلِمَ - مِمَّا مَرَّ مِنَ الْكَلَامِ عَنْ أَغْرَاضِ الْقِصَّةِ فِي الْقُرْآنِ - أَنَّ الْغَرَضَ الْأَسَاسِيَّ لَهَا : هُوَ الْهِدَايَةُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَلَقَدْ كَانَ لِخُضُوعِ الْقِصَّةِ الْقُرْآنيَّةِ لِهَذَا الْغَرَضِ أَثَرٌ بَيِّنٌ فِي مَادَّتِهَا وَطَرِيقَةِ عَرْضِهَا ، مِمَّا جَعَلَ

لها منهجا خاصا بها ، يقوم على أروع مظاهر الجمال الفني والإشراق البياني . ويتجلى هذا المنهج بالمظاهر التالية :

أ- التكرار :

قد تأتي القصة القرآنية لغرض من الأغراض التي سبق ذكرها ، ولكنها - في الوقت نفسه - تنطوي بمجملها على أغراض أخرى متعددة ، ويشتمل جانب منها - أو بعض الجوانب - على فوائد متعددة ، وعظات جمّة ، وعبر متنوعة ، وقد يقتضي غرض الدعوة الديني أن تُعاد القصة أو جانب منها أو أكثر ، في موطن آخر ، أو مواطن متعددة ، لمناسبات خاصة بالعبارة التي تساق القصة - أو بعض جوانبها - من أجلها ، فتكرر القصة أو بعض الجوانب منها تلبية لهذا الغرض ، ولهذا التكرار فائدة وجمال .

فائدة التكرار وتناسقه :

على أن الملاحظ - غالبا - أن جسم القصة كله لا يكرر إلا نادرا ، وإنما يتناول التكرار بعض الحلقات فيها ، ومُعظمه إشارات سريعة لموضع العبارة فيها كما ذكرنا .

الغرض بالتقدير الذي يحقق الغرض :

تبعا للغرض الذي سيقت من أجله القصة القرآنية ، نجد القرآن تارة يذكر القصة بكامل تفصيلاتها ، وتارة يكفي بذكر ملخص عنها أو إشارة إليها ، وتارة يتوسط بين هذا وذاك ، وربما اكتفى أحيانا بعرض حلقة من حلقاتها ، أو مشهد من مشاهدتها ، وكل ذلك خاضع - كما قلنا - لما في حلقات القصة وجوانبها من أهمية وعظمة .

بَثُّ الْعِظَاتِ وَالتَّوْجِيهَاتِ فِي سِيَاقِ الْقِصَّةِ

أَنَّ الْقِصَّةَ الْقُرْآنِيَّةَ : لَا تَدْعُ الْقَارِئَ يَتَفَاعَلُ مَعَهَا وَيُنْصَرِفُ إِلَيْهَا بِكُلِّ تَفْكِيرِهِ ، دُونَ أَنْ تَفْصِلُ بَيْنَ حَلَقَاتِهَا بِفَوَاصِلِ مِنَ الْعِظَاتِ وَالْعِبَرِ ، وَتَبَثُ فِي جَوَانِبِهَا النَّصَائِحَ وَالتَّوْجِيهَاتِ ، أَوْ تَحِيطُهَا بِأَطْرَافٍ مِنَ الْإِرْشَادَاتِ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُنَبِّهَ الْقَارِئَ إِلَى الْمَقْصِدِ الْأَسَاسِيِّ مِنْ قِصَّتِهَا ، وَتَكُونَ بِمَثَابَةِ مَصَابِيحِ هِدَايَةٍ يَتَفَتَّحُ أَمَامَهَا وَقَفَهُ الْفَاحِصُ الْمُتَمَلِّمُ ، الَّذِي يَسْبُرُ أَعْوَارَ الْحَوَادِثِ وَالْأُمُورِ ، لِيَفِيدَ مِنْهَا فِي حَيَاتِهِ وَسُلُوكِهِ .

أَنَّ الْقِصَّةَ فِي الْقُرْآنِ تَقُومُ عَلَى أَسْسٍ وَخَصَائِصٍ فَنِيَّةٍ رَائِعَةٍ ، فَهِيَ تَحَقِّقُ الْعَرَضَ الدِّينِيَّ عَنْ طَرِيقِ جَمَالِهَا الْفَنِيِّ ، الَّذِي يُجْعَلُ وَرُودَهَا إِلَى النَّفْسِ أَيْسَرَ ، وَوَقَعَهَا فِي الْوَجْدَانِ أَعْمَقَ .

وَأَهْمُ هَذِهِ الْخَصَائِصِ مَا يَلِي :

أ- الْعَرَضُ التَّصْوِيرِيُّ :

أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ عِنْدَ مَا يَأْتِي بِالْقِصَّةِ لَا يُخْبِرُ بِهَا إِخْبَارًا مُجَرَّدًا ، بَلْ يَعْرِضُهَا بِأَسْلُوبِ تَصْوِيرِيٍّ ، يَتَنَاوَلُ جَمِيعَ الْمَشَاهِدِ وَالْمَنَاطِرِ الْمَعْرُوضَةِ ، فَإِذَا بِالْقِصَّةِ حَادِثٌ يَقَعُ وَمَشْهَدٌ يَجْرِي ، لَا قِصَّةٌ تُرَوَى وَلَا حَادِثًا قَدْ مَضَى .

وَالْتَّصُورُ فِي مَشَاهِدِ الْقِصَّةِ الْقُرْآنِيَّةِ أَلْوَانٌ تَبْدُو فِي قُوَّةِ الْعَرَضِ وَالْإِحْيَاءِ ، وَفِي تَخْيِيلِ الْعَوَاطِفِ وَالْإِنْفِعَالَاتِ ، كَمَا تَبْدُو فِي رَسْمِ الشَّخْصِيَّاتِ . وَهَذِهِ الْأَلْوَانُ ظَاهِرَةٌ فِي مَشَاهِدِ الْقِصَصِ الْقُرْآنِيِّ جَمِيعًا ، لَا يَنْفَصِلُ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ ، وَقَدْ يَبْرُزُ أَحَدُهَا .

التَّنْوِيعُ فِي الْإِسْتِهْلَالِ بِالْقِصَّةِ وَوَضْعِ الْمَدْخَلِ إِلَيْهَا :

من أبرز الخصائص الفنية للقصة القرآنية تنوع طريقة العرض في ابتداء القصة ، وذلك أن عُضْرَ الشؤيق أمر أساسي في القصة ، فينبغي أن يتجلى بأبهى مظاهره في مطلعها ، حتى ينشد القارئ إلى متابعة حلقاتها ، ويفتح آفاق ذهنه وجوانب نفسه إلى استطلاع أغراضها .

التقديم للقصة بخلاصة عنها : وذلك بأن يُتْرَعُ من مشاهد القصة أهم مظاهر العبرة فيها ، فتصاغ بشكل خلاصة تجعل مدخلا للقصة وبداية لها ، ثم تُعْرَضُ التّفصِيلات بعد هذا المدخل . وهذا مظهر من مظاهر الشؤيق ، التي تضع في مخيلة القارئ صورة مختصرة عن القصة ، تبعث فيه الرغبة إلى التوسّع في معرفة جوانبها .

الأمثال في القرآن الكريم

صَرَبَ الأمثال في القرآن الكريم من أساليب الصياغة الفنية الرائعة ، الدالة على إعجاز القرآن ، في إبراز المعاني في قالب حسن يُقَرَّبُهَا إلى الأفهام ، وفي صور حية تستقر في الأذهان . وذلك بتشبيه الغائب بالحاضر والمعقول بالمحسوس ، وقياس التنظير على التنظير ، قال الله تعالى : وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون [الحشر : ٢١] .

والأمثال : جمع مثل ، والمثل والمثل والمثيل : كالشبه والشبه والشبيه ، لفظا ومعنى .

وَالْمِثْلُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ : هُوَ إِتْرَازُ الْمَعْنَى فِي صُورَةٍ رَائِعَةٍ مُوجِزَةٍ لَهَا وَفَعَهَا فِي النَّفْسِ ، سَوَاءً كَانَتْ تَشْبِيهًا أَوْ قَوْلًا مُرْسَلًا .

وَمِثَالُ التَّشْبِيهِ الصَّرِيحِ - الَّذِي ذَكَرَ فِيهِ الْمُمَثَّلُ لَهُ - قَوْلُهُ تَعَالَى :

إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ [يونس : ٢٤] .

وَمِثَالُ التَّشْبِيهِ الضَّمْنِيِّ - الَّذِي حُذِفَ فِيهِ الْمُمَثَّلُ لَهُ - قَوْلُهُ تَعَالَى :

وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيَحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مِثْمًا فَكَرِهْتُمُوهُ [الحجرات : ١٢] .

مِنْ صُورِ الْأَمْثَالِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ : وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمِثْلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مِثْلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَانْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) .

وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ مِثَالٌ وَاضِحٌ لِلْإِنْسَانِ الَّذِي يُنْحَرِفُ عَنِ الْفِطْرَةِ السَّوِيَّةِ ، وَيَنْتَقِضُ عَهْدَ اللَّهِ ، وَيَنْكُصُ عَنِ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ رُؤْيَيْهَا وَالْعِلْمِ بِهَا . . . ذَلِكَ الْإِنْسَانُ آتَاهُ اللَّهُ آيَاتِهِ ، وَخَلَعَ عَلَيْهِ مِنْ فَضْلِهِ ، وَأَعْطَاهُ الْفُرْصَةَ كَامِلَةً لِلْهُدَى وَالِاتِّصَالِ وَالْإِرْتِفَاعِ ، وَلَكِنَّهُ انْسَلَخَ مِنْ هَذَا كُلِّهِ ، وَانْحَرَفَ عَنِ الْهُدَى لِيَسْبِعَ الْهَوَى ،

وَأَتَصَقَّ بِالأَرْضِ وَأَغْرَضَهَا فَاسْتَوَى عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ ، وَطَرَدَ مِنْ حُمَى اللَّهِ ، وَأَصْبَحَ مَسُوخًا كَالْكَلْبِ
يَلْهَثُ أَنْ يَطُورِدَ ، وَيَلْهَثُ إِنْ لَمْ يُطَارِدَ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ :

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا
كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ
اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦) .

يَضْرِبُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الأَيَاتِ مِثْلَ الكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ ، وَالكَلِمَةِ الخَبِيثَةِ ، لِتُصَوِّرَ سُنَّتَهُ الجَارِيَةَ فِي الطَّيِّبِ
وَالخَبِيثِ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ .

فَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ - كَلِمَةُ الحَقِّ - كَالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ ثَابِتَةٌ سَامِقَةٌ مُشْمِرَةٌ ، ثَابِتَةٌ لَا تَزْعُجُهَا الأَعاصِيرُ ، وَلَا
تَعْصِفُ بِهَا رِيحُ البَاطِلِ ، سَامِقَةٌ مُتَعَالِيَةٌ تَطَّلُ عَلَى الشَّرِّ وَالظُّلْمِ مِنْ عُلَى ، مُشْمِرَةٌ لَا يَنْقَطِعُ ثَمَرُهَا ، لِأَنَّ
بُذُورَهَا تَثْبُتُ فِي التُّفُوسِ المُتَكَاثِرَةِ أَنَا بَعْدَ أَنْ .

وَالكَلِمَةُ الخَبِيثَةُ - كَلِمَةُ البَاطِلِ - كَالشَّجَرَةِ الخَبِيثَةِ ، قَدْ تَهَيَّجَ وَتَعَالَى ، وَيُخَيَّلُ إِلَى بَعْضِ النَّاسِ أَنَّهَا
أَضْحَمُ مِنَ الشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ وَأَقْوَى ، وَلَكِنَّهَا نَظَلَتْ نَافِثَةً هَشَّةً ، وَتَظَلُّ جُذُورُهَا فِي التُّرْبَةِ قَرِيبَةً حَتَّى
لِكُنْهَا عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ ، وَمَا هِيَ إِلَّا فَرَّةٌ تَمُتُّ تَجْتَثُّ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ ، فَلَا قَرَارَ لَهَا وَلَا بَقَاءَ .

وُفِّسَتْ الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ : بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ ، وَدَعْوَةِ الإِسْلَامِ ، وَالفُرْقَانِ .

وَالشَّجَرَةُ الطَّيِّبَةُ : بِالنَّخْلَةِ ، وَبشَجَرَةِ فِي الجَنَّةِ .

أَمَّا الْكَلِمَةُ الْخَبِيثَةُ : فَهِيَ الشَّرْكُ بِاللَّهِ ، وَالذُّعَاءُ إِلَى الْكُفْرِ ، وَتَكْذِيبُ الْحَقِّ .

وَالشَّجَرَةُ الْخَبِيثَةُ : الْحَنْظَلَةُ . وَلَعَلَّ الْمُرَادَ مِنْ هَذِهِ الْأَفْظِ جَمِيعَ الْمَعَانِي الْمُتَقَدِّمَةِ .

وَالْعِبْرَةُ ظَاهِرُهُ وَمُتَنَعَةٌ فِي هَذِهِ النَّمَاذِجِ الثَّلَاثَةِ ، وَهِيَ قَلِيلٌ مِنْ كَثِيرٍ مِمَّا فِي الْقُرْآنِ مِنْ أَمْثَالِ هَادِفَةٍ

وَرَائِعَةٍ .

الإعجاز في القرآن الكريم

الإعجاز - لغة - إثبات العجز ، وهو الضعف والتقصير عن فعل الشيء ، وهو ضد القدرة ، ومنه المعجزة ، وهي - اصطلاحا - أمر خارق للعادة مقروئ بالتحدي سالم عن المعارضة .

والإعجاز هو : ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة ومزاوتها ، على شدة الإنسان واتصال عنايته في ذلك ، ثم استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه .

وإعجاز القرآن : معناه : إظهار صدق النبي صلى الله عليه وسلم في دعوى الرسالة بإظهار عجز العرب والناس كافة عن معارضته في معجزته الخالدة - وهي القرآن - وعجز الأجيال بعدهم عن ذلك .

وذلك أن القرآن قد سما في علوه إلى شأؤ بعيد بحيث تعجز القدرة البشرية عن الإتيان بمثله ، سواء كان هذا العلو في بلاغته ، أو تشريعه ، أو مغيباته أو عدم تعارضه مع القوانين العلمية الثابتة .

قام رسول الله محمد - صلوات الله وسلامه عليه - يعرض دعوته على الناس ، ويخبرهم أنه رسول الله إليهم جميعا ، ولما سألوه أن يأتهم بمعجزة تدل على صدق دعوته ، وتبرهن على صحة رسالته ، أجابهم بما أخبره به الله تعالى ، وأبان لهم أن معجزته الواضحة ، وآيته الساطعة ، ودليله الصادق ، الذي يقوم مقام معجزات من سبقه من الأنبياء هو ما يُلوه عليهم من قرآن : وقالوا لولا أنزل عليه آيات من

ثُمَّ يَتَدَرَّجُ فَيَتَحَدَّاهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ وَاحِدَةٍ مِثْلَهُ : أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ
وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [يونس : ٣٨] . بَلْ إِنْ لَمْ تَكُنْ مِثْلَهُ فَلْتَكُنْ شَبِيهَةً بِهِ
، قَرِيبَةً مِنْهُ : وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ
اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [البقرة : ٢٣] . كُلُّ ذَلِكَ مَعَ السَّمَّاحِ لَهُمْ أَنْ يَسْتَعِينُوا بِمَنْ شَاءُوا وَأَرَادُوا مِمَّنْ
يَتَصَوَّرُونَ لَدَيْهِمُ الْعَوْنُ ، وَيَتَوَقَّعُونَ مِنْهُمْ النَّصْرَةَ .

ثُمَّ يَصِلُ التَّحْدِي غَايَتَهُ ، وَيَبْلُغُ مُنْتَهَاهُ ، لِيُدْفِعَهُم بِالْحَقِيقَةِ الَّتِي لَا مَرِيَةَ فِيهَا ، وَيَقْطَعُ عَلَيْهِمُ الطَّرِيقَ وَيُسَدِّ
فِي وَجْهِهِمُ السَّبِيلَ ، فَيَسْجَلُ عَلَيْهِمُ الْعَجْزَ وَلَوْ اجْتَمَعَ لِذَلِكَ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ : قُلْ لَنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ
عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا [الإسراء : ٨٨] . بَلْ يَصِلُ
الْأَمْرُ إِلَىٰ صِرَاحَةٍ فِي التَّحْدِي لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَجْرُؤَ عَلَيْهَا بَشَرٌ ذُو عَقْلِ - لَوْ كَانَ هُوَ الَّذِي يَقُولُ ذَلِكَ -
فَيَنْفِي عَنْهُمْ الْقُدْرَةَ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّأْيِيدِ : فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ
وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ [البقرة : ٢٤] .

عَجْرُهُمْ عَنِ الْمَعَارِضَةِ وَاضْطِرَابِ مَوْقِفِهِمْ :

كَانَ هَذَا التَّحْدِي وَالْعَرَبُ فِي ذُرْوَةِ مَجْدِهِمْ فَصَاحَةٌ وَبَلَاغَةٌ ، وَمَعْرِفَةٌ بِنُفُوسِ الْقَوْلِ وَأَسَالِيبِ الْكَلَامِ ،
فَكَانَ مُقْتَضَىٰ ذَلِكَ - وَهُمْ أَكْثَرُ مَا يَكُونُونَ حِرْصًا عَلَىٰ إِطْفَاءِ نُورِهِ وَإِخْفَاءِ أَمْرِهِ - أَنْ يَهْبُوا لِمَعَارِضَتِهِ ،
وَيُدْفَعُوا بِذَلِكَ خَطَرَهُ عَنْهُمْ ، وَيَمِحُوا الْخِزْيَ الَّذِي أَصَقَهُ بِهِمْ - لَوْ كَانَ ذَلِكَ فِي مَقْدُورِهِمْ - كَيْفَ لَا ،
وَهُمُ الَّذِينَ قَالُوا : لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ؟ وَلَكِنْ شَيْئًا مِنْ هَذَا لَمْ يَحْصُلْ ، وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْ وَاحِدٍ مِنْهُمْ
أَنَّهُ اسْتَجَابَ لِتَحْدِي الْقُرْآنِ فِي مُحَاوَلَةٍ مَا ، أَوْ حَدَّثَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ .

وَأَيُّهَا الَّذِي حَصَلَ هُوَ أَنَّهُمْ نَعَدُوا هَذَا وَعَدَلُوا إِلَى مَسَالِكِ شَائِكَةٍ ، وَاتَّهَجُوا أَسَالِيبَ مُلْتَوِيَةٍ ، فَمَا إِنَّ قُرْعَ الْقُرْآنِ أَسْمَاعَهُمْ بِهَذَا التَّحْدِي الصَّارِحِ حَتَّى اضْطَرُّوا فِي قَوْلِهِمْ ، وَحَارُوا فِي أَمْرِهِمْ ، وَلَجُّوا إِلَى وَصْفِهِ بِالشَّعْرِ تَارَةً ، وَبِالسَّحْرِ أُخْرَى ، وَبِالْكِهَانَةِ مَرَّةً ، وَبِالْجُنُونِ حِينًا ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا اضْطَرُّوا فِيهِ وَتَلَجَّجُوا وَسَجَّلَهُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ : بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ اقْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ [الأنبياء : ٥] . وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ [الزخرف : ٣٠] . إِنَّا لَنَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ [الصافات : ٣٦] . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُوْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [الحاقة : ٤١ - ٤٣] .

تَأْيِيدُهُ النَّفْسِيَّ

لَعَلَّ مِنْ أَقْوَى دَلَائِلِ الْإِعْجَازِ فِي الْقُرْآنِ هُوَ ذَلِكَ التَّأْيِيدُ الَّذِي يَبْعَثُهُ فِي النَّفْسِ فَإِنَّهُ لَا يَكَادُ يَطْرُقُ السَّمْعَ حَتَّى يَخْلُصَ إِلَى الْقَلْبِ ، وَتَجِدُ مِنْهُ النَّفْسَ لَذَّةً وَحَلَاوَةً ، لَا تَجِدُهُمَا فِي غَيْرِهِ مِنَ الْكَلَامِ ، يَسْتَوِي فِي ذَلِكَ أَصْحَابُ الْقُلُوبِ الْقَاسِيَةِ وَذُووُ الْأَفئِدَةِ الْحَاشِعَةِ ، فَلَقَدْ سَحَّرَ الْقُرْآنُ الْعَرَبَ مِنْذُ اللَّحْظَةِ الْأُولَى ، فَأَمَّنَ مِنْهُمْ مَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَكَفَرَ مِنْهُمْ مَنْ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ وَسَمَعَهُ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً .

وُجُوهُ الْإِعْجَازِ فِي الْقُرْآنِ

لَقَدْ كَثُرَ الْقَوْلُ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ فِي وُجُوهِ الْإِعْجَازِ فِي الْقُرْآنِ وَتَنَوَّعَ هَذِهِ الْوُجُوهُ وَتَعَدَّدَتْهَا ، وَأَيُّمَا كَانَ ذَلِكَ الْقَوْلُ فَالْقُرْآنُ مُعْجَزٌ بِكُلِّ مَا يَتَحَمَّلُهُ هَذَا اللَّفْظُ مِنْ مَعْنَى ، فَهُوَ مُعْجَزٌ

فِي الْفَاطِهِ وَأُسْلُوبِهِ ، وَمِعْجَزِ فِي بَيَانِهِ وَنُظْمِهِ ، وَمِعْجَزِ بُلُومِهِ وَمَعَارِفِهِ ، وَمِعْجَزِ فِي تَشْرِيعِهِ وَصِيَاتِهِ
لِحُقُوقِ الْإِنْسَانِ وَالْبَاحِثِ الْمُتَّصِفِ الَّذِي يُطَلِّبُ الْحَقَّ إِذَا نَظَرَ فِي الْقُرْآنِ - مِنْ أَيِّ التَّوَاحِي أَحَبَّ - وَجَدَ
الْإِعْجَازَ فِيهِ وَاضِحًا جَلِيلًا .

وَالْإِعْجَازُ هُوَ الَّذِي يُدْرِكُهُ الْعُقَلَاءُ مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ ، عَرَبِيَّهُمْ وَأَعْجَمِيَّهُمْ ، وَتَكَامُلُ بِتَكَامُلِ الْقُرْآنِ ، وَيَكُونُ
أَكْثَرَ وَضُوحًا وَبَيَانًا إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ بِجَمَلِهِ ، بِمُجْمَلِ مَا فِيهِ مِنْ أَخْبَارٍ بِالْغَيْبِ ، وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ
تَشْرِيعٍ دَقِيقٍ صَالِحٍ لِكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ، وَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ مِنْ عُلُومٍ كُونِيَّةٍ فِي خَلْقِ الْكَوْنِ وَالْإِنْسَانِ .

مَظَاهِرُ الْإِعْجَازِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

الْإِخْبَارُ عَنِ الْمَغْيِبَاتِ :

وَيَتَحَقَّقُ هَذَا الْوَجْهَ مِنَ الْإِعْجَازِ بِنَاحِيَتَيْنِ :

الْإِخْبَارُ عَنِ الْمَاضِي : مِنْ مَظَاهِرِ الْإِعْجَازِ فِي الْقُرْآنِ إِخْبَارُهُ عَنِ الْمَاضِي السَّحِيقِ مِنْ حِينِ خُلِقَ
اللَّهُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مَبْعَثِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَدْ أَتَى بِكَثِيرٍ مِنَ الْأَخْبَارِ التَّارِيخِيَّةِ الَّتِي صَاعَتْ
صُورَتُهَا .

الْحَقِيقِيَّةِ فِي أَخْلَاطِ التَّارِيخِ الْقَدِيمِ لِلْأُمَّمِ ، وَكَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْقِصَصِ وَتِلْكَ الْأَخْبَارِ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ الْعَرَبُ ،
وَلَمْ يُوْجَدْ إِلَّا بَعْضُ مِنْهُ فِي الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ السَّابِقَةِ عَلَى اخْتِلَافٍ فِيمَا بَيْنَهَا ، فَاتَى الْقُرْآنَ وَتَحَدَّثَ بِدِقَّةٍ
عَنْ ذَلِكَ ، وَحَكَى هَذِهِ الْأَخْبَارَ حِكَايَةً مِنْ شَاهِدِهَا وَحَضَرِهَا ، وَلَمْ يُوْجَدْ فِي التَّارِيخِ شَيْءٌ يَصِحُّ
الاعْتِمَادُ عَلَيْهِ - أَوْ لَا يَصِحُّ - يُخَالِفُ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ هَذِهِ الْأَخْبَارِ . بَلْ قَدْ جَاءَتْ دَلَالِلُ الْأَثَارِ

الأرضية- بعد قُرُونٍ مِنْ نَزْوِهِ- فَصَدَقَتْ حَقَائِقُهَا- الَّتِي تُوصَلُ إِلَيْهَا عُلَمَاءُ الْآثَارِ- الصُّورُ الْخَبَرِيَّةُ الَّتِي جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَمِثَالُ ذَلِكَ : كَشَفَ عِلْمُ التَّارِيخِ حَدِيثًا أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ- فِي دَوْرٍ مِنْ أَدْوَارِ حُلُولِهِمْ مَضْرُوقِيَّة- اسْتَحْسَنُوا الْعَقِيدَةَ الَّتِي كَانَتْ تَقُولُ : أَنَّ الْعَزِيزِ ابْنَ اللَّهِ ، وَهَذِهِ الْحَقِيقَةُ التَّارِيخِيَّةُ لَمْ تَكُنْ مَعْرُوفَةً لَدَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْ غَيْرِهِمْ عِنْدَ نَزْوِ الْقُرْآنِ ، وَلَكِنَّا نَجِدُهَا يَقْرَأُهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ [التوبة : ٣٠] حَتَّى قَالَ الْيَهُودُ عِنْدَ سَمَاعِ هَذِهِ آيَةِ : أَنَّ الْقُرْآنَ يَقُولُ لَنَا مَا لَمْ نَقُلْ فِي كِتَابِنَا وَلَا فِي عَقَائِدِنَا .

سِمُو تَشْرِيعُهُ وَشَمُولُهُ : مِنْ وَجْهِهِ الْأَعْجَازِ وَمُظَاهَرَةِ الْبَارِزَةِ فِي الْقُرْآنِ مَا تَضَمَّنَهُ هَذَا الْكِتَابُ مِنْ التَّشْرِيعِ الْعَظِيمِ الدَّقِيقِ ، الْمُتَعَلِّقِ بِشَيْءٍ مَرَّاقٍ الْحَيَاةِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ ، يَتَنَاوَلُهَا مِنْذُ الْبَدَايَةِ حَتَّى التَّهَيُّاتِ ، لَا يَدْعُ جَانِبًا مِنْ جَوَانِبِهَا إِلَّا وَيَضَعُ لَهُ مِنَ الْحُلُولِ وَالتَّنْظِيمَاتِ مَا هُوَ فَرِيدٌ فِي بَابِهِ ، لَمْ يَسْبِقْ إِلَيْهِ شَيْءٌ قَبْلَهُ وَلَا لِحَقِّ بِهِ تَقْنِينٌ بَعْدَهُ ، يُدَلُّ عَلَى ذَلِكَ : أَنَّ هَذَا التَّشْرِيعَ- كَانَ وَلَا يَزَالُ- يُحْسَبُ حِسَابَهُ فِي كُلِّ مَجَالٍ يُنْحَتُ فِيهِ شَأْنُ التَّشْرِيعِ وَالتَّقْنِينِ ، وَيَضَعُهُ عُلَمَاءُ هَذَا الْفَنِّ فِي مُقَدِّمَةِ الْمَصَادِرِ الَّتِي يُسْتَفَادُ مِنْهَا وَيَعْتَمَدُ عَلَيْهَا . وَهَذَا كُلُّهُ رَغْمَ تَبَاعُدِ الزَّمَنِ وَمَرِّ الدُّهُورِ عَلَى عَصْرِ صُدُورِهِ ، عِلْمًا بِأَنَّ صَاحِبَهُ- الَّذِي يُنْسَبُ إِلَيْهِ- لَمْ يَدْرُسْ فِي جَامِعِهِ وَلَمْ يَخْرُجْ فِي كَلْبِيَّةِ ، كَمَا لَمْ يُعْهَدْ عَنْهُ أَنَّهُ تَوَفَّرَ عَلَى دِرَاسَةِ تَشْرِيعٍ أَوْ اجْتِمَاعٍ بِبَاحِثٍ .

الْإِخْبَارُ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ : لَقَدْ أَخْبَرَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمِ عَنْ أُمُورٍ أَنَّهُا سَتَعُوكَ فَكَانَتْ كَمَا أَخْبَرَ بِهَا ، وَوَأَضَحَّ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَلَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَيْهِ ، وَهَذَا النَّوعُ مِنَ الْإِخْبَارِ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ ، وَمِنْ أَمْثَلِهِ ذَلِكَ : قَوْلُهُ تَعَالَى : قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعَابُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبُنْسِ الْمِهَادُ آلَ عِمْرَانَ

وقوله تعالى: ﴿الم * غَلَبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بضعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يُفْرِخُ الْمُؤْمِنُونَ * يُنصِرُ اللَّهُ يُنصِرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: ١٠٠]

[٧].

الْإِعْجَازُ الْعِلْمِيُّ

قَبْلَ الْكَلَامِ عَنِ الْإِعْجَازِ الْعِلْمِيِّ فِي الْقُرْآنِ لَا بُدَّ لَنَا أَنْ نُشِيرَ إِلَى أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ كِتَابٌ عَقِيدَةٌ وَهَدَايَةٌ ، أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ، وَلَمْ يَكُنْ الْهَدَفُ مِنْ إِنْزَالِهِ إِضْحَاحَ حَقَائِقِ عِلْمِيَّةٍ وَقَوَائِنِ كَوْنِيَّةٍ ، وَيُخْطِئُ الْكَثِيرُ مِنَ النَّاسِ حِينَ يَحْرِصُونَ عَلَى أَنَّ يَتَّصِنَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ كُلَّ نَظَرِيَّةٍ عِلْمِيَّةٍ ، فَتَجِدُهُمْ كُلَّمَا ظَهَرَتْ نَظَرِيَّةٌ جَدِيدَةٌ اتَّسَمَتْ فِيهَا مُحَمَّلًا فِي آيَةٍ يَتَنَاوَلُونَهَا بِمَا يُوَافِقُ هَذِهِ النَّظَرِيَّةَ ، وَيَغِيبُ عَنْ ذَهْنِهِمْ إِنَّ التَّنْظِيرَاتِ الْعِلْمِيَّةَ عَرْضَهُ لِلتَّبْدِيلِ وَالتَّغْيِيرِ ، وَأَنَّهُمْ يَسِيرُونَ إِلَى الْقُرْآنِ مِنْ حَيْثُ يَطْنُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا عِنْدَ مَا يَعْبَثُونَ بِالْقُرْآنِ وَتَفْسِيرِهِ كُلَّمَا تَطَوَّرَ الْبَحْثُ الْعِلْمِيُّ وَتَنَوَّعَتْ أَسَالِبُهُ وَإِشْكَالُهُ .

وَمُنْشَأُ هَذَا الْخَطَأِ : أَنَّ الْحَقَائِقَ الْقُرْآنِيَّةَ حَقَائِقٌ نَهَائِيَّةٌ قَاطِعَةٌ مُطْلَقَةٌ ، أَمَّا مَا يَصِلُ إِلَيْهِ الْبَحْثُ الْإِنْسَانِي - أَيًا كَانَتْ الْأَدَوَاتُ الْمَتَّاحَةَ لَهُ - فَهِيَ حَقَائِقٌ غَيْرُ نَهَائِيَّةٍ وَلَا قَاطِعَةٌ ، وَهِيَ مُقَيَّدَةٌ بِحُدُودِ تَجَارِبِهِ وَظُرُوفِ هَذِهِ التَّجَارِبِ وَأَدَوَاتِهَا ، فَهِيَ الْخَطَأُ الْمُنْهَجِي - بِحُكْمِ الْمُنْهَجِ الْعِلْمِيِّ الْإِنْسَانِيِّ ذَاتِهِ - أَنْ نَعْلَلَ الْحَقَائِقَ الْقُرْآنِيَّةَ التَّهَائِيَّةَ بِحَقَائِقٍ غَيْرِ نَهَائِيَّةٍ ، وَهِيَ كُلُّ مَا يَصِلُ إِلَيْهِ الْعِلْمُ الْبَشَرِيُّ ، وَإِذَا كَانَ هَذَا بِالنِّسْبَةِ لِلْحَقَائِقِ ، فَمَا بَالُكَ بِالنِّسْبَةِ لِلتَّنْظِيرَاتِ ؟ .

وَمِنْ مَظَاهِرِ الْإِعْجَازِ الْعِلْمِيِّ فِي الْقُرْآنِ ذَلِكَ التَّوَافُقُ التَّامُّ بَيْنَ الْحَقَائِقِ الْعِلْمِيَّةِ الثَّابِتَةِ ، وَبَيْنَ آيَاتِ الْقُرْآنِ
وَمَبَادِئِهِ الْعَامَّةِ ، فَإِنَّهُ مَسْأَلَةٌ مِنْ مَسَائِلِ الْعِلْمِ ، أَوْ قَاعِدَةٌ مِنْ قَوَاعِدِهِ - يُثْبِتُ رُسُوحَهَا وَيَبَيِّنُ يَقِينَهَا -
تَكُونُ مُحَقَّقَةً لِمَا حَثَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنْ تَفْكِيرِ سُلَيْمٍ ، وَلَا تَتَعَارَضُ مَعَهُ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ . وَهَذِهِ الْعُلُومُ
قَدْ تَقَدَّمَتْ وَكَثُرَتْ مَسَائِلُهَا وَتَنَوَّعَتْ وَسَائِلُهَا ، وَلَمْ يَتَعَارَضْ شَيْءٌ ثَابِتٌ مِنْهَا مَعَ آيَةِ مِنَ آيَاتِ الْقُرْآنِ أَوْ
فِكْرَةٍ مِنْ أَفْكَارِهِ ، وَهَذَا وَحْدَهُ إِعْجَازٌ .

الشَّرْعُ وَالْمَنْهَجُ

وقوله تعالى : (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) [الشورى : 13] ، إشارة إلى وَحْدَةِ شَرَائِعِ اللَّهِ ودياناته إلى الأُمَّمِ فِي أُصُولِهَا مِنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ وَإِقَامَةِ دِينِهِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ وَهَذَا التَّشْرِيعِ الْوَاحِدِ يَتَعَلَّقُ بِأُصُولِ الْعَقِيدَةِ وَأَرْكَانِهَا وَلِأَنَّ الدِّينَ وَاحِدٌ وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ فَمِنْ الطَّبِيعِيِّ أَنْ تَكُونَ رِسَالَةُ الشَّرْعِ وَاحِدَةً لِكُلِّ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ أَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ

فَاسْتَبَقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة : 48]

فالشرعة في هذه الآية المقصود بها التشريع الخاص فلكل دين من الأديان أحكام شرعية خاصة فيه تبين المباحات والمحذورات وتبين قواعد التحليل والتحرير فالله قد حرم على بني إسرائيل ما لم يحرمه في شريعة المسلمين وأما النهج فهو : الطريق الواضح ، والمنهج والمنهاج مثله ، وهو السبيل إلى الوصول إلى الشرع لذلك فقواعد هذا المنهج مختلفة مع اختلاف الشرع لكن المنهج للوصول إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر هو واحد عند كل الأديان .

فالشرع في الإسلام هو تلك الأحكام والضوابط التي تبين أصول العبادات والمعاملات والعقود والأحوال الشخصية والحدود والحلال والحرام والمباح والممنوع وغير ذلك .

أَنَّ كَلِمَةَ “مَنْهَاجٍ” تَتَّصِلُ بِالطَّرِيقِ وَالسَّبِيلِ وَالصَّرَاطِ ، وَتَتَّصِلُ كَذَلِكَ بِالْإِبَانَةِ وَالْوُضُوحِ وَظُهُورِ الْأَثَرِ وَالْأَمْنِ مِنْ الضَّلَالِ وَالْتِيهِ وَالْإِنْحِرَافِ وَالغَمُوضِ وَأَنْفِصَالِ النَّتَاجِ عَنِ الْمُقَدَّمَاتِ ، وَذَلِكَ يَعْنِي أَنَّ سَأَلَكَ الطَّرِيقِ أَوْ نَاهِجَهُ يَسْتَطِيعُ الْإِطْمِئْنَانُ إِلَى أَنَّهُ بَالِغُ الْغَايَةِ وَوَأَصَلَ إِلَى الْمُرَادِ وَمَدْرَكَ لِلْبَغِيَةِ .

وَذَلِكَ الْمَنْهَاجُ هُوَ الَّذِي رُسِمَ الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ مَعَالِمَهُ وَأَبَانَهَا وَأَوْضَحَهَا . فَكَانَ الْقُرْآنُ بَيَانًا وَمَبِينًا وَنُورًا وَهُدَايَةً وَصِرَاطًا مُسْتَقِيمًا يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مِنْ اتَّبَعِ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَمَنْهَاجِ الْإِطْمِئْنَانِ وَالْأَمْنِ وَالْأَمَانِ وَالِاسْتِقْرَارِ .

مِنْ هُنَا يَبَيِّنُ أَنَّ مَفْهُومَ “الْمَنْهَاجِ” وَإِنْ لَمْ يَرِدْ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ -وَحده- لَكِنَّ كَلِمَةَ “مَنْهَاجٍ” هَذِهِ بِالضَّلَالِ الَّتِي تُحِيطُ بِهَا وَتَتَّصِلُ بِهَا تَتَّحَوَّلُ إِلَى مَفْهُومِ قِرَائِيٍّ مِنَ الْمَفَاهِيمِ الْأَسَاسِيَّةِ ، خَاصَّةً أَنَّ هَذَا الْمَفْهُومَ قَدْ اقْتَرَنَ بِ”الشرعة“ لِيُوحِي بِهَذَا الْاقْتِرَانِ أَنَّ الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ شَرِيعَةً مُقْتَرَنَةً بِمَنْهَاجٍ يُوَضِّحُ وَيَبَيِّنُ مَنْهَاجَ تَطْبِيقِهَا وَاتِّبَاعِهَا ، وَتَشْكِيلِ الْحَيَاةِ بِمُقْتَضَاهَا بِجَوَانِبِهَا كُلِّهَا .

فَالْمَفْهُومُ الْقِرَائِيُّ لِلْمَنْهَاجِ يَنْبَغِي أَنْ يُصَاغَ بِحَيْثُ تَضَافَرُ عَلَى صِيَاغَتِهِ سَائِرُ الْآيَاتِ الَّتِي تَنَاوَلَتْ الصَّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ وَالسَّبِيلَ السَّوِيَّ وَالسَّبِيلَ اللَّهُ وَالْهُدَى وَالتُّورَ وَالِاتِّبَاعَ وَالِاقْتِدَاءَ وَالشِّفَاءَ وَالْأَسْوَةَ الْحَسَنَةَ أَضَافَهُ إِلَى الْمَوَاقِفِ وَالْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ النَّبَوِيَّةِ ذَاتِ الْعَلَاقَةِ بِالْمَنْهَاجِ . فَلَا تَكُونُ الْآيَةُ مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ هِيَ الْمَنْبَعُ الْوَحِيدُ لِصِيَاغَةِ “مَفْهُومِ الْمَنْهَاجِ” قِرَائِيًّا ، وَاقْتِرَانِهِ بِالْشَّرِيعَةِ يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ “الْمَنْهَاجُ” ضَابْطًا صَارِمًا لِلْفَهْمِ وَالْوَعْيِ ، وَإِدْرَاكِ الْمَقَاصِدِ وَالْغَايَاتِ ، وَضَبْطِ السُّلُوكِ وَالِاتِّبَاعِ وَسُلُوكِ سَبِيلِ الْهُدَايَةِ ، وَالْوُصُولِ إِلَى التُّورِ .

إِنَّ كَلَامَ مَنْ مَنِّحٍ وَمَنْهَجِيَّةً لَدَيْنَا نَحْنُ الْمُسْلِمِينَ قَدْ وُجِدَ بَعْدَ نُزُولِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ، الَّذِي بَدَأَ بِتَهْيِئَةِ الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ وَتَحْضِيرِهِ لِاسْتِقْبَالِ "الْقِرَاءَةِ ثُمَّ الْقِرَاءَتَيْنِ وَالْجَمْعَ بَيْنَهُمَا" لِبَيْدَا تَتَابَعِ نُجُومِ الْقُرْآنِ عَمَلِيَّاتٍ مَنْهَجِيَّةً لِتَغْيِيرِ وَاقِعٍ كَانَتْ تَحْكُمُهُ وَتَهَيِّمُ عَلَيْهِ قِيَمَ الشَّرْكِ ، وَتَحْوِيلِهِ إِلَى وَاقِعٍ تَحْكُمُهُ قِيَمَ "التَّوْحِيدِ وَالتَّرْكِيبِ وَالْعَمْرَانِ" بَدَلًا مِنْ قِيَمِ الشَّرْكِ وَالْجَاهِلِيَّةِ .

لَقَدْ جَعَلَ الْقُرْآنَ الْمَجِيدِ "التَّوْحِيدِ" مُنْذُ الْبَدَايَةِ مَحْوَرِ "الرُّؤْيَا الْكَلِمَةِ" ، وَبِهَا أَصْبَحَ الْإِنْسَانُ قَادِرًا عَلَى بُلُوغِ مُسْتَوَى "الْعِلْمِيَّةِ وَالْمَوْضُوعِيَّةِ" فِي فَهْمِهِ لَمَّا حَوَّلَهُ وَنَفْسِيَّهُ لَهُ ، وَفُهُمِ خَوَاصِهِ ، وَتَحْدِيدِ وَسَائِلِهِ وَأَسَالِيهِ .

وَقَدْ أَطْلَقَ الْقُرْآنَ بِ"مَنْهَجِ النَّظَرِ" الَّذِي جَاءَ بِهِ الْعَقْلُ الْبَشَرِيُّ مِنْ عِقَالِهِ ، وَحَرَّرَهُ تَحْرِيرًا تَامًا مِنْ سُلْطَانِ الْكِهَانَةِ وَالسَّحْرِ وَالشَّعْوَذَةِ ، وَقَادَهُ لِمَعْرِفَةِ الطَّبِيعَةِ وَغَيْرِهَا مِمَّا يَهْمُ الْإِنْسَانَ مَعْرِفَتِهِ وَمَنْحَهُ الشَّجَاعَةَ الثَّابِتَةَ وَالْجُرْأَةَ ، وَالثَّقَّةَ بِنَفْسِهِ مِنْ خِلَالِ دَعْوَتِهِ لِلْعَقْلِ بِأَنْ يَتَفَكَّرَ وَيَتَدَبَّرَ ، وَيَتَذَكَّرَ وَيَفْقَهُ وَيُبْصِرَ ، وَيَتَعَقَّلَ ، وَيُعَلِّمَ وَيَتَعَلَّمَ ، وَيُعْرِفَ ، وَيُدْرِكَ ؛ وَدَرْبَهُ عَلَى أَنْ لَا يَتَهَيَّبَ اقْتِحَامَ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَحَبْكُمَا ، وَفِجَاجِ الْأَرْضِ وَطَبَقَاتِهَا ، وَلَا ظُلُمَاتِ أَعْمَاقِ الْبِحَارِ وَالْحَيْطَاتِ وَتَضَارِيسِهَا ، وَأَنْ لَا يَتَرَدَّدَ فِي بِنَاءِ وَعْيِ عَقْلِيٍّ وَإِدْرَاكِ مَنْطِقِيٍّ تَسَدَّدَهُ وَتَهْدِيَهُ وَتُرْشِدَهُ أَنْوَارِ الْوَحْيِ وَهَدَايَتِهِ ، لِيُؤْمِنَ عَنْ بُرْهَانٍ وَيُسَلِّمَ عَنْ يَقِينٍ ؛ وَيُؤَهِّلَ لِمُمَارَسَةِ "التَّرْكِيبِ" فِي ذَاتِهِ وَأَسْرَتِهِ وَمَجْتَمَعِهِ ، وَ"العمرانِ" فِي الْكُونِ الَّذِي اسْتَخْلَفَ فِيهِ . وَبِذَلِكَ أَسَّسَ الْقُرْآنَ لِل"عَقْلَانِيَّةِ التَّوْحِيدِيَّةِ" .

بَلْ لَقَدْ عَلَّمَ الْقُرْآنَ بِمَنْهَجِهِ ذَلِكَ الْإِنْسَانَ كَيْفَ يُرَاجِعُ الْفِكْرَ الدِّينِيَّ السَّابِقَ ، وَيَنْقُدُهُ ، وَيَتَدَبَّرُ التَّمَاذِجَ وَالْأَمْثِلَةَ فِي كَيْفِيَّةِ مُرَاجَعَةِ الْقُرْآنِ لِهَذَا الْفِكْرِ الدِّينِيِّ اللَّاهُوتِيِّ وَنَقْدِهِ ، وَهَدْمِ سَائِرِ عَنَاصِرِ التَّحْرِيفِ الَّتِي

دُسَّتْ عَلَيْهِ ، وَتَغَلَّتْ فِيهِ ، وَإِعَادَتُهُ إِلَى حَالَةِ الصِّدْقِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا ، وَالتَّصْدِيقِ عَلَى الصَّادِقِ مِنْهُ ،
الْمُطَابِقِ لِلْوَاقِعِ ، ثُمَّ الْهَيْمَنَةِ عَلَيْهِ . وَإِدْرَاجِهِ بَيْنَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُنزَلِ فِي حَرَمِ اللَّهِ ابْتِدَاءً ، الْمَحْفُوظِ
بِحِفْظِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْمُعْصُومِ مِنْ تَدْخُلَاتِ الْبَشَرِ وَتَحْرِيفَاتِهِمْ لِكَيْلَا يَكُونَ لِأُولَئِكَ الَّذِينَ احْتَرَفُوا
التَّحْرِيفَ سَبِيلَ إِلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى .

وَبَنَى الْقُرْآنَ الْعَقْلَ الْإِنْسَانِيَّ إِلَى أَنْ يُلَاحِظَ وَيَجْرِبُ وَيَكْتَشِفُ قَوَائِنَ الْكُونِ وَسُنَنَهُ الَّتِي لَا تَبْدَلُ وَلَا تَتَغَيَّرُ ،
تِلْكَ الْقَوَائِنَ الَّتِي أَخْضَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهَا الطَّبِيعَةَ وَالْكَوْنَ وَالْحَيَاةَ ، وَجَوَانِبَ هَامَّةٍ مِنْ حَيَاةِ
الْإِنْسَانِ (سُورِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) (فصلت : 53) .

فَإِنَّ الْخُطَابَ الْقُرْآنِيَّ ذُو وُجُودٍ وَاقِعِيٍّ خَارِجِيٍّ يَمْتَلِئُ فِيمَا بَيْنَ الدُّفْتَيْنِ مِنْ سُورٍ وَآيَاتٍ تَنْدَرِجُ فِي أَجْزَاءِ
وَأَحْزَابٍ . وَذُو وُجُودٍ مَعْنَوِيٍّ تَدُلُّ عَلَيْهِ الْأَلْفَاظُ الْمَضْمَنَةُ فِي آيَاتِ وَسُورٍ ، وَهِيَ مَدْلُولَاتُ الْآيَاتِ وَالسُّورِ
وَمَعَانِيهَا ، فَكَأَنَّ الْآيَاتِ وَالسُّورِ دَالٌّ وَالْمَعْنَى مَدْلُولٌ عَلَيْهِ .

وَكَأَنَّ اللَّفْظَ -آنذاك- يَأْخُذُ دُورَ عِلْمَانَةٍ تَدْعُو الْبَاحِثَ لِلنَّظَرِ وَالتَّأَمُّلِ وَالتَّدَبُّرِ وَالتَّفَكُّرِ وَالتَّذَكُّرِ وَالتَّعَقُّلِ
لِيَكْتَشِفَ الْإِرْتِبَاطَ وَالْعِلَاقَةَ بَيْنَ الدَّالِّ وَالْمَدْلُولِ : فَالْمَعْنَى وَالْمَدْلُولُ هُمَا الْمَعْرِفَةُ الَّتِي نَبْحَثُ عَنْهُمَا ،
وَنُرِيدُ الْوُصُولَ إِلَيْهِمَا : وَالْمَعْنَى وَالْمَدْلُولُ هُمَا : الْوَعَاءُ الْمَعْرِفِيُّ الَّذِي نَسْعَى لِلْوُصُولِ إِلَى الْمَعْرِفَةِ الْكَامِنَةِ
فِيهِ ، وَالْكَشْفُ عَنْهَا .

أَمَّا الْأَلْفَاظُ فَفِي الْعَلَامَاتِ وَالْأَشْكَالِ الصَّوْتِيَّةِ أَوْ الْإِيْقَاعِيَّةِ لِلْمَعْنَى ، وَذَلِكَ يَجْعَلُ الْإِيْقَاعَ عَيْنُ مَعْنَاهُ عَلَى
الْمُسْتَوَى التَّمثِيلِيِّ .

الشريعة والأحكام

أَنَّ الْمُفْهُومَ الْإِسْلَامِيَّ لِلْعِبَادَةِ قَدْ تَجَسَّدَ فِي الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعَظِيمَةِ ، الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِتَحْقِيقِهَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهَا دَسْتُورًا لِحَيَاتِهِمُ الْاجْتِمَاعِيَّةَ وَالْأَخْلَاقِيَّةَ وَالْاِقْتِصَادِيَّةَ وَالسِّيَاسِيَّةَ ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الجنائفة : ١٨) ، فَالشَّرِيعَةُ هِيَ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ مِنَ الدِّينِ وَأَحْكَامِهِ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي شَرَعَهَا لِمَنْفَعَةِ الْمُؤْمِنِينَ جَمِيعًا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ .

خِصَائِصُ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

وَتَمْتَازُ الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ عَنْ غَيْرِهَا مِنْ الشَّرَائِعِ الَّتِي قَامَتْ بِخِصَائِصٍ ، أَهْمُهَا :

أ . رَبَّانِيَّةُ الْمَصْدَرِ وَالْغَايَةِ

أَوَّلُ خِصِيصَةٍ لِلشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَنَّهَا رَبَّانِيَّةُ الْمَصْدَرِ وَالْغَايَةِ ، فَهِيَ مِنَ اللَّهِ ، وَتَهْدَفُ إِلَى بُلُوغِ رِضَاهِ ، فَالْمُسْلِمُ يَسْتَمِدُّ شَرَائِعَهُ الْمُخْتَلِفَةَ مِنْ مَصْدَرَيْنِ أَصِيلَيْنِ ، هُمَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الَّذِي أَوْحَاهُ اللَّهُ بِحُرُوفِهِ ، ثُمَّ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ ، وَهِيَ أَقْوَالُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَفْعَالِهِ وَتَقَرِيرَاتِهِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِالتَّأْسِي بِهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ (الحشر 7

ب . الْعَدْلُ وَالْمَسَاوَاةُ

الْعَدْلُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَهُوَ صِفَةٌ لَازِمَةٌ لِلرَّبِّ فِي أَوْامِرِهِ وَتَشْرِيعَاتِهِ وَجَزَائِهِ ، وَمُظَاهِرِ عَدْلِ اللَّهِ فِي شَرَائِعِهِ كَثِيرَةٍ ، مِنْ أَوْلَاهَا أَنَّ تَعَالَى لَا يُحَاسِبُ الْإِنْسَانَ عَلَى مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ ، بَلْ لَمْ يُكَلِّفْهُ أَصْلًا بِمَا يُعْجِزُهُ ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِيْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا

بِهِ ﴿ (البقرة : ٢٨٦) ، فشرائع الله مبناهما على اليسر والسهولة ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (البقرة : ١٨٥) ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيَسِّمَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (المائدة : ٦)

وَإِذَا كَانَتْ الشَّرِيعَةُ لَا تَحَاسِبُ مَنْ هُوَ دُونَ التَّكْلِيفِ عَلَى خَطِيئِهِ ؛ فَإِنَّهُ يُعَلِّمُ أَنَّهَا - مِنْ بَابِ أَوْلَى - يَا تَحَاسِبُهُ عَلَى ذَنْبٍ غَيْرِهِ ، فَالْمَرْءُ مَسْئُولٌ عَنِ عَمَلِهِ الشَّخْصِيِّ ﴿ قُلْ أَغْنِيَ اللَّهُ عَنِّي رِبَاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (الأنعام : ١٦٤)

وَلَمْ تَمَيِّزِ الشَّرِيعَةُ الْعَادِلَةَ فِي أَحْكَامِهَا الْعَامَّةِ بَيْنَ مَلِكٍ وَسَوْقَةٍ ، وَلَا بَيْنَ أَيْبُضٍ وَأَسْوَدٍ ، وَلَا بَيْنَ غَنِيِّ وَفَقِيرٍ ، فَالْجَمِيعُ مُتَسَاوُونَ إِمَامَ شَرَائِعِ اللَّهِ الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ ، لَا الْحَسَبَ وَالْجَاهَ ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنَا خَلَقْتُكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات : ١٣) .

ج . الشُّمُولُ وَالتَّوَاظُنُ

لَمَّا كَانَ الْإِسْلَامُ رِسَالَةَ اللَّهِ الْخَاتِمَةَ وَكَلِمَتَهُ الْبَاقِيَةَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَلَطَّفَ فِيهِ عَلَى الْإِنْسَانِيَّةِ بِكُلِّ مَا يَصْلُحُ شُؤْنَهَا فِي دَارِ مَعَاشِهَا ثُمَّ فِي دَارِ جُزْأَتِهَا ، فَكَمَلَتْ أَعْمَ اللَّهُ بِكَمَالِ تَشْرِيعَاتِهِ ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (المائدة : ٣) .

وَالْإِسْلَامُ بُنْيَانُ شُمُولِيٍّ يُعْطِي مَنَاحِي الْحَيَاةِ الْمُخْتَلِفَةَ ، فَهُوَ دِينُ عِبَادَةِ ، وَهُوَ أَيْضًا مَنْظُومَةٌ مِنَ الشَّرَائِعِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَالاِقْتِصَادِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ الَّتِي تَحَقِّقُ سَعَادَةَ الْفَرْدِ وَالْمُجْتَمَعِ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ الْآخِرَةِ

أَنَّ الْإِسْلَامَ يُنْظِمُ عِلَاقَاتِ الْإِنْسَانِ الْمُخْتَلِفَةَ مِنْ لَدُنْ مِيلَادِهِ إِلَى وَفَاتِهِ ، وَهُوَ يَحْرُسُ حُقُوقَهُ حَتَّىٰ فِيمَا قَبْلَ الْمِيلَادِ وَمَا بَعْدَ الْوَفَاةِ ، وَأَمَّا مَا بَيْنَهُمَا فَإِنَّهُ يَتَنَاوَلُ بِأَحْكَامِهِ تَفَاصِيلَ سُلُوكِهِ الشَّخْصِيِّ بِمَا يَتَضَمَّنُهُ مِنْ عَادَاتٍ وَأَدَابٍ ، وَهُوَ يَرشِدُ أَيْضاً عِلَاقَةَ الْإِنْسَانِ مَعَ أَسْرَتِهِ وَمَجْتَمَعِهِ ، لَا بَلَّ يَتَنَاوَلُ حَالَةَ مَعَ الْكُونِ كُلِّهِ بِمَا فِيهِ مِنْ حَيَوَانٍ وَجَمَادٍ ﴿ وَالْأَنْعَامِ : ٣٨ ﴾ .

أَمَّا عَلَى الصَّعِيدِ الْجَمَاعِيِّ فَإِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ تَنْظِمُ الْمُجْتَمَعَ وَتَضْبِطُ حُقُوقَ مَنْ فِيهِ وَوَجِبَاتِهِمْ ، وَتَنْظِمُ عِلَاقَةَ الدَّوْلَةِ وَالْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ مَعَ الْقَرِيبِ مِنَ النَّاسِ وَالْبَعِيدِ ﴿ وَتَرَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل : ٨٩) .

وَتَلْبِي هَذِهِ الشَّرَائِعِ حَاجَاتِ الْإِنْسَانِ الْمُخْتَلِفَةَ ، فَهِيَ تَعْنَى بِحَسَدِهِ ، وَلَا تُهْمَلُ رُوحَهُ ، تَبْتَغِي الْآخِرَةَ ، وَلَا تُفَرِّطُ فِي الدُّنْيَا ، تُرْبِطُ الْمُجْتَمَعَ وَلَا تَعْفَلُ مَصَالِحَهُ ، وَهِيَ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ تَحَقِّقُ ذَاتِيَّةَ الْفَرْدِ وَتَحْرُسُ مَصَالِحَهُ وَحُقُوقَهُ ، تَوَازُنُ عَجِيبٌ ، لَا إِفْرَاطَ فِيهِ وَلَا تَفْرِيطَ ، وَأَيُّ عَجَبٍ ، فَذَلِكَ تَقْدِيرُ اللَّطِيفِ الْخَيْرِ

د . المثالية الواقعية

كثيراً مَا تَجَنَّحَ الشَّرَائِعُ الَّتِي يَشْرَعُهَا الْإِنْسَانُ نَحْوَ الْمَثَالِيَةِ الَّتِي لَا تَحَقِّقُ ، فِجْمَهورية أَفْلَاطُونِ الْفَاضِلَةَ لَمْ تُجَاوِزْ عَقْلَهُ وَقَلَمَهُ ، وَفِي مُقَابَلَةٍ قَدْ يَخْضَعُ الْبَعْضُ لِلْوَاقِعِ الْجَائِمِ عَلَى الْمُجْتَمَعَ ، فَيَعْمَدُ إِلَى تَكْيِيفِ نَفْسِهِ وَفِي مُقَابَلَةٍ قَدْ يَخْضَعُ الْبَعْضُ لِلْوَاقِعِ الْجَائِمِ عَلَى الْمُجْتَمَعَ ، فَيَعْمَدُ إِلَى تَكْيِيفِ نَفْسِهِ وَمَبَادِيئِهِ مَعَ الْحَالَةِ الرَّاهِنَةِ اعْتِرَافاً بِوِطْءَةِ هَذَا الْوَاقِعِ وَإِذْعَاناً لَهُ ، فَحِينَ عَجَزَتْ مُجْتَمَعَاتُ الْغَرْبِ عَنْ مَنَعِ الْخَمْرِ أَوْ الزَّانَا أَوْ

الفواحش لم تجد ما يمنعها من الاعتراف بهذا الواقع وتقنينه ، ليصبح شرعه مباحة عند الناس ؛ تفني الجنس البشري وتهدد وجوده بما تحمله تلك الأثام من أمراض وبلايا اجتماعية ، وأما الإسلام فإنه دين واقعي مثالي ، فواقعيته مبنية على أنه سلوك إنساني يعيشه الناس يومياً ، وأما مثاليته فيحققها أنه يهدف إلى إصلاح المجتمع ، ولا يرضى بالتعايش والمهادنة مع الخطأ والرديلة .

واقعيته يوضحها تلاوم تشريعاته مع فطره الإنسان وتحقيقها لحاجاته ورغباته التي علمها الله فشرع ما يناسبها ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مِنْ خَلْقِ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الملك : ١٤) ، فلم يأمر الإسلام بالتعفف عن التكاح ، ولا منع من استحالت عليهم الحياة الزوجية من الاقتراق بالطلاق ﴿ وَإِنْ تَفَرَّقَا يَغْنِ اللَّهُ كِلَا مِنْ سَعْتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً ﴾ (النساء : ١٣٠) .

ولم يأمر الإسلام بإعطاء الخد الأيسر لمن ضرب الخد الأيمن ، بل شرع ما يرد الإساءة ويردع الجاني ويمنعه من التمادي ، ولكنه رغب أيضاً في العفو والمسامحة والصفح ، قال تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سِيئةٍ سِيئةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ - وَلَمَنْ اتَّصَرَ بَعْدَ ظُلْمَةٍ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ (الشورى : ٤٠ - ٤١) .

والشريعة جاءت تفصيلاتها لحفظ مقاصد خمسة (الدين والنفس والعقل والتسل والمال) ، وهي في حقيقتها أهم حقوق الإنسان ومصالحة في هذه الحياة .

المَوَاقِيقُ وَالْعُهُودُ

كَلِمَةُ الْعَهْدِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَمَعْنَاهَا

وَرَدَتْ لَفْظُهُ (عهد) وَمَا أُسْتُقِقَ مِنْهَا (٤٦) مَرَّةً فِي (٣٦) آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى فِي (١٧) سُورَةٍ مِنْ سُورِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ [٤] وَسَادَّكَرَ الْمَعْنَى الَّتِي وَرَدَتْ فِيهَا مَعَ ذِكْرِ الْآيَاتِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي كُلِّ مَعْنَى مِنَ الْمَعْنَى ، مَعَ الْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ الْمُفَسِّرِينَ اخْتَلَفُوا حَوْلَ بَعْضِ مَعْنَى الْكَلِمَاتِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي الْآيَاتِ .
وَرَدَ الْعَهْدُ بِمَعْنَى الْوَصِيَّةِ وَالْأَمْرِ فِي عِدَّةٍ مَوَاضِعَ :

قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : (الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ) (البقرة : من الآية ٢٧)

وَهُنَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَأْتِ بِمَعْنَى أَوْحَيْنَا وَأَمَرْنَا وَفِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ : (الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ) (آلِ عِمْرَانَ : من الآية ١٨٣) .

وَوَرَدَ الْعَهْدُ بِمَعْنَى الْوَعْدِ وَاللِّتْمَانِ وَالْيَمِينِ :

قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : (وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ) (البقرة : من الآية ٤٠)

وَمِمَّا جَاءَ بِلَفْظِ الْعَهْدِ وَهُوَ بِمَعْنَى الْإِلْتِمَانِ وَالْيَمِينِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ : (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ) (التوبة : ٧٥)

قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ : (الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْتَضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ) (الأنفال : ٥٦) . فَهِيَ هُنَا بِمَعْنَى الْعَقْدِ وَالْمِيثَاقِ .

وَقَدْ تَفَرَّعَ عَنْ هَذِهِ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ تَشْرِيحَاتٌ خَاصَّةٌ بِالْعُقُودِ كَعَقْدِ الزَّوْجِ وَالَّذِي وَهُوَ عَقْدٌ يَقُومُ عَلَى
الْإِجَابِ وَالْقَبُولِ وَالرِّضَا فَهُوَ بِنَفْسِ الْوَقْتِ عَهْدٌ يَقْطَعُهُ كُلُّ طَرَفٍ لِلْآخَرِ وَكَذَلِكَ فِي الْعُقُودِ الْمَدِينِيَّةِ الَّتِي
تَقُومُ عَلَى الْقَبُولِ وَالرِّضَا ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ
تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء : 29]

وَالْعُقُودُ تَأْتِي بِمَعْنَى الْمِيثَاقِ وَهُوَ عَهْدٌ يَقْطَعُهُ الْفَرَقَانِ فِيمَا بَيْنَهُمْ لِلْعَمَلِ وَاللِّتِمَامِ بِهِ وَعَدَمُ تَقْضِيهِ وَقَدْ بَيَّنَّ
النَّصُّ الْقُرْآنِيُّ جَرِيمَةَ مَنْ يَنْتَقِضُونَ الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ

قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : (أَوْكَلَمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ) (الأحزاب : من الآية ١٠٠)

وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ : (الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْتَقِضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ)

(الأنفال : ٥٦)

وَالْقَاعِدَةُ الْعَامَّةُ وَالْحَاكِمَةُ فِي كُلِّ ذَلِكَ هِيَ (وَالْمُؤْفُونَ بِعُهُودِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا) (البقرة : من الآية ١٧٧) .

وَهِيَ الْعُقُودُ الَّتِي تَكُونُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ فَالْمُؤْفُونَ بِعُهُودِهِمْ فَهُمْ مِنَ الْمُتَّقِينَ وَالصَّادِقِينَ

فَلْسَفَةُ الْقُرْآنِ

مَدْخُلٌ إِلَى فِلْسَفَةِ الْقُرْآنِ

ذَكَرْنَا فِي مَدْخُلٍ وَمُقَدِّمَةٍ هَذَا الْبَحْثِ أَنَّ صِفَةَ الْفِلْسَفَةِ الَّتِي أَصَقْنَاهَا بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تَقْصِدُ بِهَا تِلْكَ النَّظْرَةَ الْعَامَّةَ وَالشُّمُولِيَّةَ الَّتِي لَهَا أَيْ الْفِلْسَفَةُ بِتَعْرِيفِهَا الْعَامِّ أَوْ مَفْهُومِهَا الْعَامِّ وَهُوَ دِرَاسَةُ الْأَسْئَلَةِ الْأَسَاسِيَّةِ الَّتِي تَعَلَّقُ بِالْوُجُودِ وَالْحَقِيقَةِ وَالْقِيَمِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالْوُجُودِ الْإِنْسَانِيِّ . وَتَهْدَفُ إِلَى فَهْمِ الْعَالَمِ وَالْإِنْسَانِ وَالْعَلَاقَةِ بَيْنَهُمَا مِنْ خِلَالِ النَّظَرِ فِي الْأَفْكَارِ وَالْمَفَاهِيمِ الَّتِي يَتِمُّ تَنَاوُلُهَا فِي هَذَا الْمَجَالِ إِذْنُ فَهَدَفْنَا هُنَا الْوُصُولَ إِلَى تَصَوُّرِ لِفَهْمِ اللَّهِ وَالْعَالَمِ وَالْإِنْسَانِ وَالْعَلَاقَةِ بَيْنَهُمْ وَاسْتِثْبَاتِ ذَلِكَ لَيْسَ مِنْ نَظَرِيَّةٍ أَوْ فِكْرٍ بَشَرِيِّ وَإِنَّمَا مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَوْ بِتَعْبِيرٍ آخَرَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ وَلَيْسَ مِنْ كَلَامِ بَشَرٍ .

وَهَذِهِ التَّنَوُّعُ مِنَ الْفِلْسَفَاتِ يَنْتَمِي إِلَى مَا يُعْرَفُ بِالْفِلْسَفَةِ الدِّينِيَّةِ هِيَ التَّفَكِيرُ الْفِلْسَفِيُّ الَّذِي يَسْتَلْهِمُ مِنَ الدِّينِ وَيُوجِّهُهُ مِنْ خِلَالِهِ ، وَمِنْهُ وَالْفِلْسَفَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ .

وَمِنْ الْمَجَالَاتِ الْمُرْتَبِطَةِ بِالْفِلْسَفَةِ الدِّينِيَّةِ مَا يُسَمَّى بِفِلْسَفَةِ الدِّينِ ، وَهُوَ فَرْعٌ مِنَ الْفِلْسَفَةِ يَهْتَمُّ بِالدِّرَاسَةِ الْفِلْسَفِيَّةِ لِلدِّينِ ، وَهُوَ عِلْمٌ ذُو تَارِيخٍ طَوِيلٍ يُعَوِّدُ إِلَى مَرَحَلَةٍ مَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ (الْمِيْتَاْفِيْزِيْقَا

فِلْسَفَةِ الدِّينِ هِيَ الدِّرَاسَةُ الْعَقْلِيَّةُ لِلْمَعَانِي وَالْحَاكِمَاتِ الَّتِي تَطْرَحُهَا الْأُسُسُ الدِّينِيَّةُ وَتَفْسِيرَاتُهَا لِلظُّوَاهِرِ الطَّبِيعِيَّةِ وَمَا وَرَاءَ-الطَّبِيعِيَّةِ مِثْلَ الْخُلُقِ وَالْمَوْتِ وَوُجُودِ الْخَالِقِ . وَهِيَ تَعَلَّقُ بِالْأَسْئَلَةِ الْمُخْتَصَّةِ

بِالدِّينِ ، كَمَا هِيَ وَطَّبِيعَةُ اللَّهِ وَقَضِيَّةُ وُجُودِهِ ، وَتَفْحَصُ التَّجْرِبَةَ الدِّينِيَّةَ ، وَتَحْلِلُ الْمَفْرَدَاتِ وَالتَّصَوُّصِ

الدِّينِيَّةِ ، وَالْعَلَاقَةَ بَيْنَ الدِّينِ وَالْعِلْمِ . وَهُوَ مُنْهَجٌ قَدِيمٌ ، وَجِدَ فِي أَوَّلِ الْمَخْطُوطَاتِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْفِلْسَفَةِ

التي عرّفها البشرية، وهو يرتبط بفروع أخرى من الفلسفة والفكر العام كالميتافيزيقيا والمنطق والتاريخ .
فلسفة الدين عادة ماتم مناقشتها خارج الأطر الأكاديمية من خلال الكتب المشهورة والمناظرات،
خصوصاً فيما يتعلق بقضيتي وجود الله ومعضلة الشر . فلسفة الدين تختلف عن الفلسفة الدينية من
ناحية إنها تطمح لمناقشة أسئلة تتعلق بطبيعة الدين ككل عوضاً عن تحليل المشاكل المطروحة من نظام
إيماني أو معتقد معين . هي مصممة بطريقة تجعلها قابلة للنقاش من قبل كل من يعرفوا أنفسهم بأنهم
مؤمنين .

لقد اخترنا ثلاث قضايا كبرى طرحت في القرآن الكريم وهي الله سبحانه وتعالى الخالق وقضيتين آخرين
تخص مخلوقاته الكون أو العالم ثم قضية وموضوع الانسان ومن الطبيعي ان نبدأ بالقضية الأولى .
سيرى القارئ من خلال قراءتنا للنصوص قراءة متطابقة للمعنى اللغوي والمفهوم العام للنص فلا ندخل في
مآهات التأويل أو التنقيب والحفر والبحث ما وراء الكلمات والمعاني واننا قطعاً سنحتاج الى استعانة
لتفسير بعض كلمات النص القرآني وسيكون مرجعنا نحو ذلك التفسيرات الحديثة للفقهاء من أمثال الشيخ
الشعراوي والدكتور البوطي رحمها الله وكذلك بعض التفسيرات التي تدخل فيما يسمى بالتفسيرات
العلمية التي تناولها الكثير من المفسرين الحديثين الذين يعتمدون على استخراج المعاني وفق ما
ظهر من الاكتشافات العلمية والقوانين العلمية التي ساعدت الى حد ما في الكشف عن التفسير المنطقي
والعقلي والعلمي لبعض النصوص التي لا يتطابق تفسيرها القديم والسلفي مع الحقائق العلمية مثال أسباب
ظاهرة الرعد وغيرها حيث نجد ان بعض التفسيرات القديمة تتحدث عن الظاهرة وكأنها اسطورية

كالحديث المنسوب الى ابن عباس حيث يفسر الحديث الرعد بأنه هو ملك موكل بالسحاب معه مخاريق
من نار يسوق بها السحاب. مِنْ نَارٍ يُسَوِّقُ بِهَا السَّحَابُ .

بَيْنَمَا التَّفْسِيرَ الْعِلْمِيَّ الْحَدِيثَ لِلرَّعْدِ يَتَطَابَقُ تَمَامًا مَعَ ظَاهِرِهِ الرَّعْدُ وَكَيْفَ تَحَدَّثُ فِي الطَّبِيعَةِ .

لَقَدْ تَوَقَّفتُ كَثِيرًا وَكَثِيرًا جَدًّا قَبْلَ الْبَدْءِ فِي كِتَابِهِ الْقِرَاءَةُ الْأُولَى فِي فُلْسَفَةِ الْقُرْآنِ وَالْمُعَلَّقُ بِاللَّهِ جَلًّا
وَعَلَى فَالْمَرْءُ يَحْتَارُ وَيَخْشَعُ وَيَخَافُ حِينَمَا يَذُكُرُ اسْمَ اللَّهِ فَكَيْفَ بِنَا وَنَحْنُ سَنَتَحَدَّثُ عَنْهُ عَن عَظَمَتِهِ
وَقُدْرَتِهِ وَعُلُوِّهِ مِنْ أَيْنَ سَنَبْدًا فَوَجَدْتُ أَنْ مَفَاتِحَ الدُّخُولِ هُنَا هِيَ أَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَقُمْتُ بِتَصْنِيفِهَا
تَصْنِيفًا مَعْرِفِيًا فُلْسَفِيًّا عَلَى أَنْ يَكُونَ الْبَدْءُ بِالنُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ الْمُعَلَّقَةِ بِقَدَمِهِ وَأَزَلِيَّتِهِ فَهُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ

أولا

اللَّهُ وَالْإِلَهَ (الألوهية) جَلَّ جَلَّالُهُ

(هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ؟)

اللَّهُ هُوَ اسْمٌ عَلِمَ مُفْرَدًا لَا جَمْعَ لَهُ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ يَدُلُّ عَلَى « الْمَعْبُودِ » « الْخَالِقِ » فِي الدِّيَانَاتِ التَّوْحِيدِيَّةِ الرَّبُّوبِيَّةِ (والنظم العقائدية الأخرى) . يُوصَفُ « اللَّهُ » عَلَى أَنَّهُ الْخَالِقُ الْكُلِّيُّ الْقُدْرَةُ وَالْمُتَحَكِّمُ وَالْمُشْرِفُ عَلَى الْكُونِ ، وَهُوَ ذُو غَيْبٍ مَنِيعٍ لَا يُدْرِكُ . وَارْجِعْ عُلَمَاءُ الدِّينِ مَجْمُوعِهِ مُتَوَعِّدًا مِنَ السَّمَاتِ لِمَفَاهِيمٍ مُخْتَلِفَةٍ عَنِ اللَّهِ . الْأَكْثَرُ شِبُوحًا بَيْنَهَا هِيَ الْمَعْرِفَةُ (العالم بكل شيء) ، وَالْقُدْرَةُ (القادر على كل شيء) ، وَفِي بَعْضِ الدِّيَانَاتِ بِاللَّا مُحْدُوْدِيَّةٍ (حاضر في كل مكان) ، وَفِي دِيَانَاتِ أُخْرَى التَّنْزِيْهِ عَنِ الْمَكَانِ ، وَالْكَمَالِ (الكمال لله) ، وَأَزَلِيَّةِ الْوُجُودِ الْآبِدِيَّةِ الدَّائِمَةِ الْاَلْمَنْتَهِيَّةِ .

كَمَا يُوصَفُ اللَّهُ عِنْدَ الْبَعْضِ بِأَنَّهُ فَرْدٌ لَا يَمِائِلُهُ شَيْءٌ ، وَمَصْدَرُ كُلِّ التِّزَامِ أَخْلَاقِيٍّ ، وَأَعْظَمُ مِمَّا يُمَكِّنُ تَصَوُّرَهُ . وَهَذِهِ الصِّفَاتُ مَدْعُومَةٌ بِشَكْلِ عَامٍّ وَبِدَرَجَاتٍ مُتَقَاوِتَةٍ مِنْ قِبَلِ الْفَلَسَافَةِ وَعُلَمَاءِ الدِّينِ الْيَهُودِ وَالْمَسِيحِيِّينَ وَبَعْضِ الْمُسْلِمِينَ ، بِمَا فِي ذَلِكَ مُوسَى بْنُ مَيْمُونٍ وَأَغَسْطِينُوسُ وَالْعَزَالِيُّ . وَيُؤْمِنُ الْمُسْلِمُونَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ وَاجِبُ الْوُجُودِ (الوجوب العقلي الذي يقابله المستحيل) فَهُوَ الْخَالِقُ وَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ ، وَهُوَ مُحَدِّثٌ وَلَيْسَ بِحَادِثٍ ، كَمَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ (ليس كمثله شيء) أَيُّ إِنْ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ نَدٌّ ، وَلَيْسَ هُنَاكَ مَنْ

يشابهه وَلَا يَمَاتُهُ واسْمُ اللَّهِ مَوْجُودٌ مُنْذُ الْقَدِيمِ فَهُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ كَافَّةِ الْأَدَانِ السَّمَاوِيَّةِ جِذْرُ الْكَلِمَةِ آيِلٌ فِي الْكِنَعَانِيَّةِ أَوْ الْإِهَاءِ 𐤀𐤋𐤁𐤀 𐤇𐤍𐤃𐤁 𐤇𐤍𐤃𐤁 𐤇𐤍𐤃𐤁 بِالسَّرْيَانِيَّةِ وَ𐤀𐤋𐤁𐤀 𐤇𐤍𐤃𐤁 بِالْأَرَامِيَّةِ . وَذَكَرَتْ بِالتَّوْرَةِ بِالْجَمْعِ « الْوَهِيمِ » . وَكَانَتْ أُحَدِّثُ الْأَصْنَافَ الْعَرَبِ تُسَمَّى « اللَّاتِ » مِنْ نَفْسِ الْجِذْرِ . إِمَّا لَفْظِ اسْمِ (اللَّهِ) الْعَرَبِيَّةِ فَقَدْ اسْتَعْمَلَهَا الْعَرَبُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ . وَبِالْعَرَبِيَّةِ دَجَّتْ « آلِ » التَّعْرِيفِ مَعَ كَلِمَةِ « إلهِ » لِتَدُلَّ عَلَى اللَّهِ الْإِلَهَ الْأَحَدِ . وَاسْتَعْمَلَهَا أَتْبَاعُ كُلِّ الدِّيَانَاتِ الْإِبْرَاهِيمِيَّةِ الْعَرَبِ مِثْلُ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ الشَّرْقِيِّينَ وَمَسِيحِيِّي الْكِنَانِ الْكَاثُولِيكِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ . وَجَاءَ فِي مُخْتَارِ الصَّحَاحِ : « اللَّهُ وَأَصْلُهُ » إِيَّاهُ « عَلَى فِعَالٍ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ لِأَنَّهُ مَأْلُوهُ أَيُّ مَعْبُودٍ » ، وَإِذَا نُسِبَ شَيْءٌ إِلَى اللَّهِ يُقَالُ لَهُ (إِلَهِي) .

اللَّهُ فِي الْإِسْلَامِ هُوَ الْإِلَهَ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ وَهُوَ وَصْفٌ لِعُقُوبِيِّ اللَّذَاتِ الْإِلَهِيَّةِ . وَلَهُ أَسْمَاءٌ تُسَمَّى أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى .

اللَّهُ : اسْمٌ مُشْتَقٌّ مِنْ إِلَهٍ يَأَلُهُ إِلَهٌ ، فَأَصْلُ الْاسْمِ اللَّهُ فَحُذِفَتْ الْهَمْزَةُ وَأُدْغِمَتِ اللَّامُ الْأُولَى فِي الثَّانِيَةِ وَجُوبًا فِقِيلٌ : اللَّهُ وَمَعْنَاهُ : ذُو الْإِلَهِيَّةِ ، وَمِنْ أَقْوَى الْأَدِلَّةِ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرُكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (سورة الْأِنْعَامِ ، الْآيَةُ 3) مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (سورة الرَّحْرِفِ ، الْآيَةُ 84) الَّتِي لَا تَتَّبِعِي إِلَّا لَهُ ، وَمَعْنَى إِلَهُ يَأَلُهُ إِلَهٌ عِبْدٌ يَعْبُدُ عِبَادَةَ ، فَاللَّهُ الْمَأْلُوهُ أَيُّ الْمَعْبُودِ وَلِهَذَا الْاسْمُ خَصَائِصٌ لَا يُحْصِيهَا إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَفَلْظُ « اللَّهُ » هُوَ عَلَّمَ عَلَى الذَّاتِ الْوَاجِبِ الْوُجُودِ الْمُسْتَحَقَّ لِجَمِيعِ الْمَحَامِدِ ، وَهُوَ الْإِلَهُ الْحَقُّ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ وَلَا مَعْبُودَ بِحَقِّ إِلَّا هُوَ . وَيُؤْمِنُ الْمُسْلِمُونَ بِأَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ ، أَحَدٌ ، صَمَدٌ ، لَيْسَ لَهُ مِثْلٌ وَلَا نَظِيرٌ وَلَا شَبِيهَةٌ وَلَا صَاحِبُهُ وَلَا وُلْدٌ وَلَا وَالِدٌ وَلَا وَزِيرٌ لَهُ وَلَا مُشِيرٌ لَهُ ، وَلَا عَدِيدٌ وَلَا نَدِيدٌ وَلَا قَسِيمٌ .

أَسْمَاءُ اللَّهِ فِي الدِّيَانَاتِ الْأُخْرَى

اسْمُ اللَّهِ فِي الْيَهُودِيَّةِ وَيَهُوَه

أُسْتُعْمِلَ الْيَهُودُ كَلِمَةَ « آيِل » لِلدَّلَالَةِ عَلَى اللَّهِ وَمَا زَالَتْ مُسْتَعْمَلَةً فِي الْأَسْمَاءِ مِثْلَ « إِسْمَاعِيل » بِمَعْنَى (سَمِعَ اللَّهُ) ، وَإِسْرَائِيلَ بِمَعْنَى (مُخْتَارَ اللَّهِ) . كَمَا شَاعَ اسْتِعْمَالُ تَغْيِيرِ يَهُوَهَ لِلإِشَارَةِ إِلَى اللَّهِ الْقَوْمِيِّ لِلإِسْرَائِيلِيِّينَ . وَكَلِمَةُ يَهُوَهَ فِي الْعِبْرِيَّةِ (יהוה) تَعْنِي « يَا هُوَ » وَيَسْتَعْمَلُونَهَا بَدَلًا مِنْ الْإِسْمِ الْحَقِيقِيِّ الَّذِي ، بِالنِّسْبَةِ لِمَعْتَقِدَاتِهِمْ ، لَا يَعْلَمُ بِهِ أَحَدٌ . وَقَدْ أُسْتُعْمِلَ فِي التَّوْرَةِ أَسْمَاءُ أُخْرَى لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْآلَةِ الْأَوْحَدِ مِثْلَ : « أَدُونَاي » (أَيُّ الرَّبِّ) وَكَلِمَةُ « هَا شِم » (أَيُّ الْإِسْمِ) وَآيِلَ عَلِيُون (أَيُّ الْآلَةِ الْأَعْلَى) وَآيِلَ شَدَاي (أَيُّ اللَّهِ الْقَدِيرِ) وَرَبِّ الصَّابُؤُوتِ (أَيُّ رَبِّ الْجُنُودِ) وَ « كَادُوش » (أَيُّ الْقُدُوسِ) . كَمَا اسْتَعْمَلَتْ كَلِمَةُ أَيْلُوهِم (אֵילוּהִם) وَهِيَ جَمْعُ « أَيْلُوَه » (وَهِيَ مِنْ نَفْسِ جُذْرِ اللَّهِ) .

الْمُنْدَائِيَّةُ

يَعْتَقِدُ الْمُنْدَائِيُّونَ بِآلَةٍ وَاحِدٍ يُسَمَّى « هَيْيُّ قَدَمَاي » (أَيُّ الْحَيِّ الْأَزَلِيِّ) وَقَدْ خُلِقَ الْأَكْوَانُ وَالْكَائِنَاتُ وَمِنْهُمْ « الْمَلَكِيُّ » (أَيُّ الْمَلَائِكَةِ) وَالْأَيْثِرِيُّ وَهُمْ كَائِنَاتُ نُورَانِيْنَ لَيْسَ لَهُمْ مُقَابِلٌ فِي بَقِيَّةِ الدِّيَانَاتِ .

الْمَسِيحِيَّةُ

بِحَسَبِ قَانُونِ الْإِيمَانِ الْمَسِيحِيِّ الَّذِي أَقَرَّهُ مَجْمَعُ نِيْقِيَّةِ ، يُعْرِفُ اللّٰهَ بِأَنَّهُ وَاحِدٌ ، وَهُوَ كَلْبِي الْقُدْرَةِ صَابِطٌ
الْكُلِّ الَّذِي هُوَ أَصْلُ كُلِّ شَيْءٍ ، لَا بَدَايَةَ لَهُ وَلَا نِهَايَةَ زَمَانِيًّا وَمَكَانِيًّا ، وَهُوَ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَالْخَالِقُ كُلِّ نَفْسٍ .

الزرادشتية

الزرادشتية أو المَجُوسِيَّةُ فَيَعْتَقِدُونَ بِعِبَادَةِ اللّٰهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَيُسَمِّي فِي دِيَانَتِهِمْ أَهْرَامَزْدَا ؛ حَيْثُ
يَعْتَبِرُونَهُ إِلَهَ الْكُونِ الَّذِي يُذَكَّرُ بِالنُّورِ ، وَلَا يُذَكَّرُ بِالظَّلَامِ وَجَالِبِ اللَّحْظِ وَالْخَيْرِ وَالْمَحَبَّةِ ، وَكُلِّ الصِّفَاتِ
الْجَيِّدَةِ ، وَالَّذِي يُخَالِفُهُ دَائِمًا الشَّيْطَانُ أَهْرِيْمَانُ ؛ مُمَثِّلُ الشَّرِّ وَالظَّلَامِ ، وَجَالِبِ لِفَقْرٍ وَالْكَوَارِثِ وَالْأَلَامِ ،
وَعَبْرَتِهَا مِنْ الْخِصَالِ الْقَبِيْحَةِ حَسَبِ مُعْتَقِدِهِمْ .

الإلهية

أَتْبَاعُ هَذِهِ الْفَلْسَفَةِ يُؤْمِنُونَ بِوُجُودِ إِلَهٍ لِكِنِّهِمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْأَدْيَانِ وَيَعْتَبِرُونَهَا تَقَلُّلَ قِيَمَةِ الْآلَةِ لِذَا يُفْضَلُ أَنْ
يَتَّوْحَدَ الْبَشَرُ تَحْتَ عَقِيْدَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ التَّوْحِيدُ بِالْآلَةِ الْمُتَعَارَفِ عَلَيْهِ بِاسْمِ اللّٰهِ وَأَنْ يَرِسْخُوا قِيَمَ التَّسَامُحِ
وَالْمَبَادِي الْأَخْلَاقِيَّةِ فِي السُّلُوكِ الْيَوْمِيِّ لِبَنِي الْبَشَرِ .

اسمُ اللّٰهِ عِنْدَ بَاقِي الشُّعُوبِ

وَذَكَرَ الْعَالِمُ جِيْمِسُ فَرِيْزِرُ أَنَّ شُعْبَ تَاهِيْتِي أَطْلَقَ عَلَى اسْمِ الْآلَةِ (تَارَوَا) وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ أَوَّلَ زَوْجَيْنِ
. بَيْنَمَا أَطْلَقَ شُعْبُ (مَالِيكُولَا) إِخْدَى جَزْرًا لِحَيْطِ الْهَادِي اسْمِ (بُوكُور) عَلَى الْخَالِقِ الَّذِي خَلَقَ أَوَّلَ
رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ مِنَ الطَّيْنِ . وَأَطْلَقَ شُعْبُ إِقْلِيمِ (نُو- هُو- رَوَا) أَحَدَ الْجَزْرِ الْأَنْدُونُوسِيَّةِ عَلَى اسْمِ الْآلَةِ

(داودليرا) وَأَنَّهُ خَلَقَ جَدودَهُمْ مِنَ الطِّينِ . . وَهَكَذَا تَعَدَّدَتْ أَسْمَاءُ الْإِلَهِةِ لَدَى الشُّعُوبِ مِثْلَ الْإِلَهِةِ
(سالامبانديا) وَالْإِلَهِةِ (ليوزاهو) وَيُوجَدُ إِجْمَاعٌ بَيْنَ عُلَمَاءِ الْأَنْثْرُوبُولُوجِيَا عَلَى فِكْرِهِ خَلَقَ الْبَشَرَ مِنَ طِينٍ ،
بَلْ (سالامبانديا) وَالْإِلَهِةِ (ليوزاهو) وَيُوجَدُ إِجْمَاعٌ بَيْنَ عُلَمَاءِ الْأَنْثْرُوبُولُوجِيَا عَلَى فِكْرِهِ خَلَقَ الْبَشَرَ مِنَ طِينٍ
، بَلْ فِي إِحْدَى قِصَصِ سُكَّانِ مَنطَقَةِ (الكوميكون) فِي الْهِنْدِ الشَّرْقِيَّةِ أَنَّ الرَّبَّ خَلَقَ الْعَالَمَ وَالْأَشْجَارَ
وَالْحَيَوَانَاتِ الزَّاحِفَةَ فِي بَدَايَةِ الْخَلْقِ . وَبَعْدَ ذَلِكَ شَكَلَ رَجُلًا وَاحِدًا وَامْرَأَةً وَاحِدَةً .
وَذَكَرَ فِرِيزَرُ الْعَدِيدِ مِنَ أُسَاطِيرِ الشُّعُوبِ الْقَدِيمَةِ عَنِ قِصَّةِ الْخَلْقِ وَأَسْمَاءِ الْإِلَهِةِ ، فِي إِفْرِيقِيَا
وَالْإِسْكِيمُو وَالْهِنُودِ الْإِنْحِ (الفولكلور في العَهْدِ الْقَدِيمِ - تَرْجَمَةٌ د . نَبِيلَةَ إِبْرَاهِيمِ - ج I - هَيْئَةُ قُصُورِ الثَّقَافَةِ -
عَام 98 - مِنْ ص 107 - I38) .

صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى الْمُتَعَلِّقَةِ بِذَاتِهِ

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ الشورى : II

أَنَّ أَوَّلَ مَا يَتبادر لِلذَّهْنِ البَشَرِيِّ مِنْ أَسْئَلَةٍ مُعْجِزَةٍ تَلِكُ الَّتِي تَعَلَّقُ بِاللَّهِ كَيْفَ صَارَ وَمَنْ أَوْجَدَهُ أَوْ خُلِقَ وَكَيْفَ شَكَلَهُ وَهَلْ لَهُ شَبِيهَةٌ ؟

هَذِهِ الْأَسْئَلَةُ كَانَتْ مُقَدِّمَاتٍ لظُهُورِ الفِلسَفَاتِ الإِلَهِيَّةِ وَلَا عَجَبَ إِنْ يَطْرَحُ المَخْلُوقِ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ العُقْلَ والوعِي لا عَجَبَ أَنْ يَسْأَلَ وَيَسْأَلُ وَهُوَ قَدْ طَلَبَ مِنْهُ اللَّهُ ذَلِكَ التَّفَكُّرَ بِاللَّهِ وَخُلِقَهُ .

وَرَدَ فِي مُعْجَمِ الطَّبْرَانِيِّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
تَفَكَّرُوا فِي اللَّهِ وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي اللَّهِ . وَقَدْ تَبَاعَثَ نُصُوصُ أَهْلِ العِلْمِ فِي التَّنْهِيِ عَنِ التَّفَكُّرِ فِي ذَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَالْحَثِّ عَلَى التَّفَكُّرِ فِي آيَاتِهِ الكُويَّةِ المُرْتَبَةِ ، وآيَاتِهِ الشَّرْعِيَّةِ المَقْرُوءَةِ ، وَنِعْمَةِ الَّتِي تَعْمُرُ الإنسانَ وَتَحِيطُ بِهِ . قَالَ ابْنُ أَبِي زَيْدٍ القَيْرَوَانِيُّ المَالِكِيُّ فِي "الرِسَالَةِ" : لَا يَبْلُغُ كُنْهَ صِفَتِهِ الوَاصِفُونَ ، وَلَا يُحِيطُ بِأَمْرِهِ المُتَفَكِّرُونَ . . . يَعْتَبِرُ المُتَفَكِّرُونَ بِآيَاتِهِ ، وَلَا يَتَفَكَّرُونَ فِي مَا هِيَ ذَاتُهُ . . . وَقَالَ أَبُو جَعْفَرِ الطَّحَاوِيُّ : لَا تَبْلُغُهُ الأَوْهَامُ ، وَلَا تُدْرِكُهُ الأَفْهَامُ ، وَلَا يُشَبِّهُ الأَنَامُ . . . وَذَلِكَ لِأَنَّ طُرُقَ مَعْرِفَةِ الشَّيْءِ وَالْحُكْمِ عَلَيْهِ ، تُكُونُ بثَلَاثَةِ أُمُورٍ : الأَوَّلُ : مُعَايَنَتُهُ وَمُشَاهَدَتُهُ ، وَهَذِهِ دَلَّتِ التُّصُوصَ الشَّرْعِيَّةَ

عَلَى أَهْلِهَا غَيْرُ وَاقِعَةٍ فِي حَقِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الدُّنْيَا ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ
الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ [الأنعام : IO3] .

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ حَتَّى يَمُوتَ . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ
وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ . وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ .

أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ تُقَطِّعُ الطَّرِيقَ أَمَّا الْعَقْلُ الْبَشَرِيُّ لِتَصَوُّرِ الذَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ أَوْ تَحْيَلِهَا وَهِيَ
بِنَفْسِ الْوَقْتِ تَرِيحُهُ مِنْ إِطَالَةِ التَّفَكُّيرِ فِي ذَلِكَ وَجَاءَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ
وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : IO3] لِيَدْعُمَ عِنْدَنَا هَذِهِ الْإِعْتِقَادَ بِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَبِذَلِكَ
تَنْتَهِي الْقَضِيَّةُ وَلَا يُمْكِنُ لِلْبَصَرِ الْإِنْسَانِيِّ إِدْرَاكَهُ وَمَعْرِفَتَهُ لِأَنَّ تَكْوِينَهِ الْخَلْقِيَّ لَا يَرْقَى إِلَى اسْتِطَاعَةِ رُؤْيَةِ
الذَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ وَلَا إِدْرَاكِهِ الْعَقْلِيِّ يَصِلُ إِلَيْهَا وَهُنَاكَ قِصَّةٌ لِلنَّبِيِّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَكَرَهَا النَّصُّ الْقُرْآنِيُّ
تَفِيدُنَا كَثِيرًا إِلَى اللُّوْصُولِ إِلَى يَقِينٍ مُطْلَقٍ بِأَنَّ لَنْ تَرَى اللَّهَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ
اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ
تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : I43]

فَالنَّبِيُّ مُوسَى هُوَ بَشَرٌ كَلَّمَ اللَّهُ تَكْلِيمًا فَطَمَعَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَالَ لِرَبِّهِ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ فَاللَّهُ عَلِمَ قَصْدَهُ
وَقَالَ لَنْ تَرَانِي تَأْمَاوَا مَعِيَ أَسْلُوبُ الْخَالِقِ الْقَدِيرِ فِي الرَّدِّ وَالتَّخَاطُبِ مَعَ أَنْبِيَآءِهِ وَمَعَ النَّاسِ كَافَّةً أَسْلُوبُ
تَمْتَرُجُ فِيهِ الرِّقَّةُ وَالْحِلْمُ وَالتَّهْدِيبُ وَالْعُطْفُ وَالرَّأْفَةُ وَسَنَجِدُ ذَلِكَ فِي مَوَاقِعٍ كَثِيرَةٍ وَكَانَ الْمُؤَلَّى الْقَدِيرِ

يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَوَقَّفَ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ وَيَقُولَ لِمُوسَى لَنْ تَرَانِي وَكَفَى لَكِنَّ اللَّهَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَجْعَلَ عَبْدَهُ

كَيْفَ بَنِي لِذَلِكَ صَنَعَ لَهُ هَذِهِ التَّجْرِبَةَ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

فَلَمَّا خَرَّ مُوسَى صَعْفًا وَأَسْتَفَاقَ مِنْ هَوْلِ الْمَوْقِفِ وَالصَّدْمَةِ وَالصَّعْقَةِ قَالَ سُبْحَانَكَ تَبَّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوْلُ

الْمُؤْمِنِينَ الْمُؤْمِنِينَ أَيَّ أَوْلِ الَّذِينَ تَبَيَّنُوا عَيْنَ الْيَقِينِ بِأَنَّ اللَّهَ عَصِي عَلَى الْبَشَرِ رُؤْيَاهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ

شَيْئًا .

وَسَنَقُومُ بِإِعْطَاءِ مِثَالٍ وَاقْعِي سَيْفِيدِنَا فِي فَهْمٍ مَعْنَى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فَلَوْ تَخَيَّلْنَا أَنْفُسَنَا طُلَّابًا فِي

الْمُدْرَسَةِ الثَّانَوِيَّةِ وَطَلَبَ مِنَّا مُدْرَسَ مَادَّةِ الْفُنُونِ أَنْ نَرْسُمَ شَكْلًا مُبْتَكِرًا لَا شِبْهَ لَهُ وَغَيْرَ مَعْرُوفٍ

فَإِذَا رَسَمْنَا مِثْلًا (.) التَّقْطِعةَ بِاعْتِقَادِنَا أَنَّهَا لَا تُعْبَرُ عَنْ أَيِّ شَيْءٍ سَيَفَاجِئُنَا الْمُدْرَسُ بِقَوْلِهِ بِأَنَّ التَّقْطِعةَ أَوْ

أَيُّ شَيْءٍ خَطَّ بِهِ الْقَلَمُ إِنَّمَا هُوَ تَعْبِيرٌ عَنْ شَكْلِ هَنْدَسِيٍّ حِينَهَا سَنَعْرِفُ أَنَّهَا عَاجِزِينَ تَمَامًا عَلَى رَسْمِ

أَيُّ شَيْءٍ لَا شَبِيهَ لَهُ فَلَا يُوجَدُ شَيْءٌ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ .

أَنَّ عِبَارَةَ أَوْ جُمْلَةَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ سَتَجْعَلُنَا نَفْتَحُ سُؤَالَ آخَرَ وَبِالتَّالِي مُوْضُوعًا آخَرَ وَهُوَ إِذَا كُنَّا

لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَتَصَوَّرَ شَكْلَ اللَّهِ لِاسْتِحَالَةِ ذَلِكَ كَمَا ذَكَرْنَا فَمَنْ أَيُّ شَيْءٍ هُوَ هَلْ اللَّهُ مَادَّةٌ أَمْ نُورٌ ؟

أَنَّ عَلَيْنَا إِقْتِلَاعُ فِكْرَةٍ أَنَّ اللَّهَ هُوَ مَادَّةٌ مِنْ جُذُورِهَا فَلِلمَادَّةِ أَيُّ مَادَّةٌ تَخْضَعُ لِقَوَانِينِ الزَّمَانِ كَمَا قَالَ

انْشَاتَيْنِ وَهِيَ حَادِثَةٌ قَابِلَةٌ لِلتَّحْوِيلِ يَبْقَى لَدَيْنَا تَصَوُّرًا وَحَدِيدًا لِلذَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ وَهُوَ أَنَّهُ نُورٌ وَقَدْ يَجْهَلُ

الْكَثِيرُونَ أَنَّ النُّورَ بِمَعْنَى الضُّوءِ ذَاتَهُ مَادَّةٌ أَيُّ مَكُونٌ مِنْ فُوتُونَاتٍ تَتَحَرَّكُ وَتُشَكِّلُ طَاقَةَ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ

الأُمُورِ الفيزيائيةِ الَّتِي تُطْرَأُ عَلَى التُّورِ لَكِنْ وَرُودُ هَذَا الكَلِمَةِ كَصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ أَوْحَى لَنَا ذَلِكَ بِهَذَا الظَّنِّ .

يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ التُّورِ :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور : 35]

مَعْنَى الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ التُّورُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ كُلُّهُ مِنْ نُورِهِ سُبْحَانَهُ . وَالتُّورُ نُورَانِ :

نُورٌ مَخْلُوقٌ وَهُوَ مَا يُوجَدُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَفِي الْجَنَّةِ وَبَيْنَ النَّاسِ الْآنَ مِنْ نُورِ الْقَمَرِ وَالشَّمْسِ وَالتُّجُومِ . وَهَكَذَا نُورُ الْكَهْرِبَاءِ وَالتَّارِكُلُهُ مَخْلُوقٌ ، وَهُوَ مِنْ خَلْقِهِ .

أَمَّا التُّورُ الثَّانِي : فَهُوَ غَيْرُ مَخْلُوقٍ ، بَلْ هُوَ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ بِجَمِيعِ صِفَاتِهِ هُوَ الْخَالِقُ وَمَا سِوَاهُ مَخْلُوقٌ ، فَتُورٌ وَجْهَهُ وَتُورٌ ذَاتُهُ كِلَاهُمَا غَيْرُ مَخْلُوقٍ ، بَلْ هُمَا صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ جَلٌّ وَعَلَا كَسَمِعِهِ وَبَصَرِهِ وَوَيْدِهِ وَقَدَمِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا ذَكَرَهُ اللَّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِهِ الْعَظِيمَةِ وَيَتَوَضَّحُ لَنَا هَذَا الْمَعْنَى أَيْضًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ يَدَ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ مِثْلَ نُورِهِ

وَعَلَيْنَا أَنْ نَأْخُذَ التَّصَوُّرَ الْقُرْآنِيَّ لَيْسَ كَمِثْلِ شَيْءٍ بِمَعْنَاهُ الْمُطْلَقِ هُنَا وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ كَمِثْلِ شَيْءٍ لَا بِالشَّكْلِ أَوْ الصُّورَةِ أَوْ الذَّاتِ أَوْ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ فَهُوَ اللَّهُ الذَّاتُ الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهَا ذَاتٌ وَبِذَلِكَ تَقْطَعُ

الطَّرِيقَ أَيْضًا عَلَى مَحَاوِلَاتِنَا الْعُقْلِيَّةِ الَّتِي تُحَاوِلُ الْبَحْثَ فِي كُنْهِ هَذِهِ الذَّاتِ وَيَنْبِجُ عَنْهَا آرَاءٌ كَثِيرَةٌ بَلْ
فَلَسَفَاتٌ أَنْ قَنَاعَتَنَا رَاسِخَةٌ بِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَارِجٌ حُدُودِ الْقَوَانِينِ وَالْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي خَلَقَهَا
وَأَوْجَدَهَا فَكَيْفَ لَنَا أَنْ نَبْحَثَ عَنْهُ ضَمَّنَ دَائِرَتَهَا وَهُوَ خَارِجٌ هَذِهِ الدَّائِرَةِ بِكَمَالِهِ وَتَمَامِهِ .

لِذَلِكَ تَبَيَّنَ أَكْثَرُ الْفَلَّاسِفَةِ الْمُتَالِيِينَ مِنْهُمْ وَالْمَادِيِّينَ مِنْ أَنَّهُ يَسْتَحِيلُ عَلَى الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ إِدْرَاكُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى وَأَنَّ الْبَحْثَ فِي الْمُسْتَحِيلَاتِ هُوَ ضَرْبٌ مِنَ الْجُنُونِ .

وَهُنَاكَ نَصٌّ قُرْآنِيٌّ يَفِيدُنَا أَكْثَرَ فِي الْوُصُولِ إِلَى هَذَا الْإِسْتِنَاجِ الْأَخِيرِ

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ

يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ [الرعد : 13]

وَالْمِحَالُ لُغَةٌ الْكَيْدُ

الْمِحَالُ الْقُوَّةُ

الْمِحَالُ : التَّدْبِيرُ

سَنَسْتَنِي الْعَرِيفِ الْأَوَّلَ لِأَنَّهُ لَا يَتَطَابَقُ مَعَ تَعْرِيفِ الْمِحَالِ فِي النَّصِّ أَعْلَاهُ فَيُصْبِحُ الْمَفْهُومُ مِنَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ
أَنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ يُجَادِلُونَ فِي حَقِيقَةِ قُوَّتِهِ وَعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَهُوَ أَمْرٌ يَسْتَحِيلُ أَنْ يُصَلُّوا إِلَيْهِ لِأَنَّهُ
شَدِيدُ الْقُوَّةِ وَالتَّدْبِيرِ وَلَا يُمْكِنُ لِعَقْلِ بَشَرِيٍّ الْوُصُولَ إِلَى مَا هِيَ تَه وَتَصَوُّرُ قُدْرَتِهِ وَقُوَّتِهِ .

الأول والأخر والظاهر والباطن

﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ الحديد : 3

أَنَّ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَرَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ الَّتِي ذَكَرْنَاهُ أَعْلَاهُ .

هَذِهِ آيَةٌ فِيهَا إِثْبَاتُ صِفَةِ الْأَوَّلِيَّةِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَصِفَةِ الْآخِرِيَّةِ ، وَالظَّاهِرِيَّةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ ، وَهَذِهِ أَرْبَعُ صِفَاتٍ فَسَّرَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَفْسِيرًا يُبَيِّنُ مَعْنَاهَا ، وَذَلِكَ فِيمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّهُمَّ : أَنْتَ الْأَوَّلُ الَّذِي لَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الْآخِرُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ .

أَغْلَبَ التَّفْسِيرَاتِ الْمَعْرُوفَةِ اتَّفَقَتْ عَلَى رَأْيِي وَاحِدٍ يَقُولُ :

فَالأَوَّلُ هُوَ السَّابِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَلَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ ، قَوْلَ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ : (اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ) ، فَهُوَ الْآخِرُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، فَلَهُ الْآخِرِيَّةُ الْمُطْلَقَةُ ؛ لِأَنَّهُ الدَّائِمُ بِلَا انْتِهَاءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَهُوَ الظَّاهِرُ الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ شَيْءٌ ، وَالْبَاطِنُ الَّذِي لَيْسَ دُونَهُ شَيْءٌ ، وَكُلُّ اثْنَيْنِ مِنْ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ الْأَرْبَعَةِ مَرْتَبُطَانِ ، فَالأَوَّلُ وَالْآخِرُ مَرْتَبُطَانِ وَبِهِمَا يَحْصُلُ كَمَالُ الْمَعْنَى ، وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ مَرْتَبُطَانِ وَبِهِمَا يَحْصُلُ كَمَالُ الْمَعْنَى الْمُرَادِ إِثْبَاتَهُ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، فَالأَوَّلُ وَالْآخِرُ فِيهِمَا

إثبات الإحاطة الزمانية له سبحانه وتعالى ، والظاهر والباطن فيهما إثبات الإحاطة المكانيّة له جلّ وعلا

ويُدلّ معنى الأوّل والآخر هنا على مفهوم أوجدته الفلسفة وهو القدم والأزلية فالأوّل القديم هو الموجود الذي لا ابتداءً لوجوده ، والأزلي ما لا أوّل له عدميًا أو وجوديًا فكلّ قديم أزلي ولا عكس .

وبهذا المعنى أيضًا هناك حديثًا نبويًا وأخرجه البخاري في كتاب التوحيد بلفظ : "كان الله ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ، ثم خلق السموات والأرض ، وكتب في الذكر كل شيء" .

فالأوّل هو الذي أوجد كل شيء بعده فهو الخالق وكلّ الأشياء لم تكن مذكورًا ﴿أولاً يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً﴾ [مريم : 67] ﴿قال كذلك قال ربك هو عليّ هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً﴾ [مريم : 9] ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾ [الإنسان] .

الظاهر والباطن

لقد وجدت تفسيراً مهماً ومقبولاً وأنا ابحث عن تعريف السلف للظاهر والباطن هو :

فالظاهر بوجوده لكثرة دلائله ، وهو البادئ بالأدلة عليه فلا يمكن أن يجحد وجوده ، وهو الظاهر بحججه الباهرة ، وبراهينه النيرة ، وشواهد إعلامه الدالة على ثبوت ربوبيته وصحة وحدانيته ،

وقيل : هو الظاهر بالقدرة على كل شيء ، والظاهر لكل شيء بالأدلة العقلية والكونية ، فقد خلق الله

كُلُّ الكَائِنَاتِ الْمُوجُودَاتِ لِتُظْهِرَ آثَارَ قُدْرَتِهِ فِيهَا ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ ظَاهِرٌ عَلَيْهَا مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ "فَإِنَّمَا تُولَوُا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ" فَالكَونُ كُلُّهُ بِمَا فِيهِ وَمِنْ فِيهِ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَعَلَامَاتِهِ

وَقِيلَ : هُوَ الْمُتَجَلِّي بِأَنْوَارِ هِدَايَتِهِ وَأَيَاتِهِ ، الْمُنْتَزِعُ بِمَعَانِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ، فَلَا تَرَى ذَرَّةً فِي الْوُجُودِ إِلَّا وَهِيَ نَاطِقَةٌ بِوَحْدَانِيَةِ الْمُعْبُودِ ، وَلَا تَرَى فَاضِلًا مَتَخَلِّقًا بِصِفَاتِ الرِّجَالِ إِلَّا وَتَشْهَدُ عَلَيْهِ أَنْوَارُ صِفَاتِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ . هُوَ الظَّاهِرُ فَلَا يَخْفَى عَلَى كُلِّ مُتأملٍ ، وَهُوَ الظَّاهِرُ لِعُيُونِ الْأَرْوَاحِ ، الْمُتَجَلِّي بِأَنْوَارِ الْفِتَاحِ ، فَالكَونُ مَمْلُوءٌ بِالْجَمَالِ مُحَلَّى بِالْكَمَالِ .

وَأَمَّا "الباطن" سُبْحَانَهُ فَمَعْنَاهُ الْمُحْتَجِبُ عَنْ عُيُونِ خَلْقِهِ لِشِدَّةِ ظُهُورِهِ وَالْبَاطِنُ بِكُنْهِ ذَاتِهِ عَنْ إِدْرَاكِ الْعُقُولِ وَالْإِفْهَامِ وَذَكَرَ الرَّازِي عِدَّةَ تَعْرِيفَاتٍ لِلْبَاطِنِ : الْأَوَّلُ ، أَنَّهُ تَعَالَى بَاطِنٌ مِنْ حَيْثُ إِنَّ كُنْهَ حَقِيقَتِهِ غَيْرٌ مَعْلُومٌ لِلْخَلْقِ . الثَّانِي ، أَنَّهُ بَاطِنٌ بِمَعْنَى أَنَّ الْأَبْصَارَ لَا تُحِيطُ بِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ : "لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ" . الثَّلَاثُ ، أَنَّهُ بَاطِنٌ بِمَعْنَى أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا بَطْنٌ . الرَّابِعُ ، أَنَّهُ بَاطِنٌ بِمَعْنَى أَنَّهُ حَجَبَ الْكَافِرِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ وَرُؤْيِيهِ ، وَحَجَبَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا عَنْ رُؤْيِيهِ .

هُنَاكَ نَصٌّ قُرْآنِيٌّ يَفِيدُنَا فِي إِعْطَاءِ صِفَتِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ حَقَّهُمَا فِي التَّفْسِيرِ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى

﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ بَعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ

مُنِيرٍ ﴿ [لقمان : 20]

فَالنَّعْمَ الظَّاهِرَةَ كَثِيرَةً جَدًّا لَكِنَّا نَجْهَلُ النِّعَمَ الْبَاطِنَةَ لِأَنَّهَا غَيْرُ ظَاهِرَةٍ أَيُّ بَاطِنِهِ مِنْ هُنَا نَسْتَطِيعُ الْقَوْلَ
وَنَحْنُ مُطْمَئِنِّينَ أَنَّ صِفَةَ الظَّاهِرِ تَعْنِي أَنَّ مَنْ يُرِيدُ مَعْرِفَةَ اللَّهِ وَالْإِيمَانَ بِهِ فَهُوَ ظَاهِرٌ لِلْعِيَانِ بِمَا خُلِقَ فَكَلَّ
مَاحُولِنَا مِنْ خَلْقٍ هُوَ ظَاهِرٌ وَيَدَّلُ بِوُضُوحٍ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الظَّاهِرُ فِي خَلْقِهِ .
﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [سبأ: 47] أَيُّ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ وَشَهِيدٌ عَلَى اللَّهِ .

لَكِن لَيْسَ كُلُّ مَا نَرَاهُ وَنَعْرِفُهُ وَنَدْرِكُهُ مِنَ الظَّاهِرِ أَوْ الظَّوَاهِرِ هُوَ مِرَاةٌ لِلَّهِ أَوْ لِخَلْقِهِ بَلْ إِنَّ هُنَاكَ أُمُورَ لَمْ
تَرَاهَا أَعْيُنِنَا أَوْ لَمْ تُسْمَعْ بِهَا أَذَانُنَا أَوْ تَخْطُرَ عَلَى بَالِ بَشَرٍ فِيهِ مُخْفِيهِ بَاطِنِهِ عَنَّا وَاللَّهُ وَحْدَهُ يَعْلَمُ بِهَا
وَيَعْلَمُ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ وَمِثْلُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْبَاطِنَةِ الَّتِي يَعْلَمُهَا اللَّهُ مَا تُخْفِيهِ الْأَنْفُسُ وَمَا تَوَسَّسَ بِهِ وَخَلَقَ
اللَّهُ الَّذِي لَا نَعْلَمُ عَنْهُ شَيْئًا وَمِثْلَهَا قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه: 7]

﴿ وَالْخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ لَتَرَكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: 8]

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [آل عمران: 5]

﴿ قُلْ إِنْ تُحْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يُعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: 29]

فَالْخَلْقَ الَّذِي لَا نَعْلَمُهُ هُوَ بَاطِنٌ عِلْمِ اللَّهِ وَالْبَاطِنُ مَخْفِيٌّ تَمَامًا عَنَّا يَتَقَارَبُ مَعْنَاهُ هُنَا مَعَ مَعْنَى الْغَيْبِ
فَالْبَاطِنُ أَمْرٌ غَائِبٌ عَنَّا فَهُوَ مَخْفِيٌّ وَكَذَلِكَ الْغَيْبُ وَمَا أَكْثَرَ آيَاتِ الْقُرْآنِ الَّتِي تَذَكِّرُنَا بِأَنَّهَا لَا نَعْلَمُ الْغَيْبَ
وَاللَّهُ وَحْدَهُ يَعْلَمُ ذَلِكَ .

وَهُنَاكَ مَنْ وَسَّعَ كَلِمَةَ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ وَالصَّقَّ بِهَا التَّصَوُّصَ الْقُرْآنِيَّةَ الَّتِي صَيَّرُوا مَعَانِيهَا إِلَى ظَاهِرِهِ
مَكْشُوفَةً لِأَغْلَبِ النَّاسِ وَبَاطِنُهُ مَسْتُورَةٌ لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهَا إِلَّا اللَّهُ لِكَيْهَمْ يَضِيفُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى أَسَاسِ أَنَّهُمْ
الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ وَمُنْذُ تِلْكَ اللَّحْظَةِ صَنَعُوا مَا يُسَمَّى بِالْمَذْهَبِ الْبَاطِنِيِّ .

الوَاحِدِ

﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ غافر : 16

وَالوَاحِدُ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ الْفَرْدُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ وَحْدَهُ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ آخَرٌ .

وَرَدَ اسْمُ الْوَاحِدِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ (الواحد) فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي 22 مَوْضِعًا ، حَيْثُ
ذَكَرَ بِلَفْظِ (الواحد) فِي 6 مَوَاضِعَ ، وَبِلَفْظِ (واحد) فِي 12 مَوْضِعًا ، وَبِلَفْظِ (واحدًا) فِي 3 مَوَاضِعَ ،
وَبِلَفْظِ (لواحد) فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ وَأَكْثَرَ مَا وَرَدَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ صِفَةُ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ .

قِيلَ : الْقَهَّارُ لَا يَكُونُ إِلَّا وَاحِدًا ، وَيَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ ، بَلِ الْقَهْرُ وَالْوَحْدَةُ مُتَلَازِمَانِ ، فَالْمَلِكُ
وَالْقُدْرَةُ وَالْقُوَّةُ وَالْعِزَّةُ كُلُّهَا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ، وَمَنْ سِوَاهُ مَخْلُوقٌ مَقْهُورٌ " . وَقَالَ السَّعْدِيُّ : "كُلُّ مَخْلُوقٍ
فَوْقَهُ مَخْلُوقٌ يَقْهَرُهُ ، ثُمَّ فَوْقَ ذَلِكَ الْقَاهِرُ قَاهِرٌ أَعْلَى مِنْهُ ، حَتَّى يَنْتَهِيَ الْقَهْرُ لِلوَاحِدِ الْقَهَّارِ ، فَالْقَهْرُ
وَالتَّوْحِيدُ مُتَلَازِمَانِ مَتَعِينَانِ لِلَّهِ وَحْدَهُ" .

"الفهار" هُوَ الَّذِي يَدْبِرُ خَلْقَهُ بِمَا يُرِيدُ ، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ رَدَّ تَدْبِيرِهِ وَالْخُرُوجِ مِنْ تَحْتِ قَهْرِهِ وَتَقْدِيرِهِ ، وَهُوَ الَّذِي أَسْلَمَ وَخَضَعَ لَهُ كُلُّ مَا فِي الْكُونِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَسْلَمَ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (آلِ عِمْرَانَ : 83) .

. "الفهار" عَزَّ وَجَلَّ : يُقَهِّرُ وَلَا يُقَهَّرُ ، وَهُوَ الَّذِي قَهَرَ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ بِالْمَوْتِ ، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنْ رَدِّهِ أَوْ دَفْعِهِ عَنْ نَفْسِهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ (الأنعام : 61-62) .

أَحَدٌ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ

وَذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ (الأحد) بِلَفْظِ (أحد) فِي مَوْضِعِ وَاحِدٍ وَهُوَ سُورَةُ الْأَخْلَاصِ .

وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْوَاحِدِ وَالْأَحَدِ أَنَّ الْأَحَدَ بَنِي لِنَفْسِي مَا يُذَكَّرُ مَعَهُ مِنَ الْعَدَدِ ، تَقُولُ : مَا جَاءَنِي أَحَدٌ ، وَالْوَاحِدَ اسْمُ بَنِي لِمَفْتَحِ الْعَدَدِ ، تَقُولُ : جَاءَنِي وَاحِدٌ مِنَ النَّاسِ وَلَا تَقُولُ : جَاءَنِي أَحَدٌ ، فَالْوَاحِدُ مُنْفَرِدٌ بِالذَّاتِ فِي عَدَمِ الْمِثْلِ وَالتَّظْيِيرِ ، وَالْأَحَدُ مُنْفَرِدٌ بِالْمَعْنَى .

وَقِيلَ : الْوَاحِدُ هُوَ الَّذِي لَا يَتَجَرَّأُ وَلَا يُتَنَى وَلَا يُقْبَلُ الْأَنْتِسَامَ وَلَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا مِثْلَ ، وَلَا يُجْمَعُ هَذَيْنِ الْوُصْفَيْنِ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى .

يَقُولُ الْبُوطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : الْأَحَدُ أَنْ لَا يَكُونَ مُؤَلَّفًا مِنْ أَجْزَاءٍ لِأَنَّ لَيْسَ مُرَكَّبًا مِنْ أَجْزَاءٍ لِأَنَّ كُلَّ مُرَكَّبٍ
يَحْتَاجُ إِلَى كُلِّ جُزْءٍ مِنْهُ أَمَّا غَيْرُ الْمُرَكَّبِ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ فَهُوَ يَكْفِي نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ .

الصَّمَدُ : الَّذِي يَحْتَاجُهُ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ لَا يَحْتَاجُ أَيَّ شَيْءٍ

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوَلَدْ

فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَاحِدٌ أَحَدٌ وَعَرَفْنَا مَا تَعْنِيهِ كَلِمَةُ أَحَدٍ وَهُوَ الَّذِي لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ وَهُوَ يَكْفِي
نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ لِذَلِكَ لَيْسَ لَهُ وُلْدٌ وَلَمْ يُوَلَدْ مِنْ شَيْءٍ أَيُّ وُجُودِهِ كَمَا قُلْنَا قَائِمٌ بِذَاتِهِ

وَهَذَا لِإِعْنِي أَنَّ صِفَاتِ الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ تَنْطَبِقُ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَصِفَاتِ الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ هِيَ

عِبَارَةٌ عَنْ جَوْهَرٍ لَا يَقْبَلُ التَّجْزِئَ لَا بِالْفِعْلِ وَلَا بِالْقُوَّةِ .

لِأَنَّ اللَّهَ مَنْزَعٌ عَنِ الْحَدِّ هَذَا مَعْنَاهُ لِأَنَّ اللَّهَ لَوْ كَانَ جَوْهَرًا فَرْدًا لَكَانَ الْجَوْهَرُ الْفَرْدُ مِثْلًا لَهُ ، وَلَوْ كَانَ زَائِدًا
عَلَى ذَلِكَ إِلَى حَدِّ أَكْبَرِ الْأَجْرَامِ وَهُوَ الْعَرْشُ أَوْ أَزِيدَ إِلَى قَدَرِ تِنَاهِي أَوْ إِلَى قَدَرِ يُفْتَرَضُ أَنَّهُ لَا يَتَنَاهَى
لِلزِمِ كَوْنَهُ مُؤَلَّفًا أَيُّ مُرَكَّبًا وَالْمُؤَلَّفُ يَحْتَاجُ إِلَى الْمُؤَلِّفِ وَالْحَاجُّ إِلَى غَيْرِهِ حَادِثٌ لَا بَدَّ ، وَهَذَا قَوْلُ عَلِيِّ بْنِ
أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : "مَنْ زَعَمَ أَنَّ إِلَهَنَا مُحَدِّدٌ فَقَدْ جَهَلَ الْخَالِقَ الْمَعْبُودَ" رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ ، وَقَوْلُ
عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ : "إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِمُحَدِّدٍ" سَلَامَةَ الطَّحَاوِيِّ :

"تَعَالَى - أَيُّ اللَّهِ - عَنِ الْحُدُودِ" ، وَلِذَلِكَ اسْتِحَالُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ مُتَّصِلًا بِالْعَالَمِ أَوْ حَالًا فِيهِ أَوْ مَبِينًا
لَهُ بِالْمَسَافَةِ ، وَهَذَا هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا يَصِحُّ غَيْرُهُ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَخْلُوقَاتِ إِمَّا أَنْ تَكُونَ مُتَّصِلَةً بِبَعْضِهَا أَوْ

منفصلةً بعضها عن بعض وكلا الوجهين مستحيلٌ وصفُ الله به ، وذلك لأنه يلزمُ منه إثباتُ المثلِ لله ،
والله تبارك وتعالى نفى عن نفسه المثلَ على الإطلاق .

ولم يكن له كفوًا أحدٌ ولم يكن له كفوًا أي ليس له مثيلٌ ولا شبيهه ، ليس كمثلِه شيءٌ وهو السميعُ البصيرُ
. كفوًا : مكافئًا ونظيرًا .

الْحَيُّ الْقَيُّومُ

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ
عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (سورة البقرة)

وقال تعالى : ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم (سورة آل عمران)

وقال عز وجل : وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (سورة طه) .

ومعنى القيوم : البالغُ النهايةَ في القيامِ بتدبيرِ ملكه ، القائمُ بذاته على الإطلاق ، الغني عن غيره ،
المستند إليه كل ما سواه من الموجودات ، فهو قائمٌ بنفسه ، سببٌ وقوامٌ لكل ما عداه ، ولهذا بُلغَ في
وصفه بالقيام ، فقيل : (قيام) سبحانه : قائمٌ بذاته ، مقومٌ لسواه ، مستغني عن غيره ، ولا غنى لغيره
عنه ، إذ لا قوامٌ للأشياء إلا به ، فهو موجدُها ومقومها وقائمٌ عليها ، ومؤثرٌ فيها . له صفاتُ التقديسِ
والكمال ، والسُّمو والجلال .

جاء في تفسير التكت والعيون للمأوردِّي أن اسمَ الله القيوم فيه ستةٌ تأويلات :

أَحَدَهَا : الْقَائِمُ بِتَدْيِيرِ خَلْقِهِ ، قَالَهُ قَتَادَةُ .

وَالثَّانِي : يُعْنِي الْقَائِمُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، حَتَّى يَجَازِيَهَا بِعَمَلِهَا مِنْ حَيْثُ هُوَ عَالِمٌ بِهِ ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهُ ، قَالَهُ الْحَسَنُ .

وَالثَّلَاثُ : مَعْنَى الْقَائِمِ الْوُجُودُ ، وَهُوَ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ .

وَالرَّابِعُ : أَنَّهُ الَّذِي لَا يَزُولُ وَلَا يَحُولُ ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ .

وَالخَامِسُ : أَنَّهُ الْعَالِمُ بِالْأُمُورِ ، مِنْ قَوْلِهِمْ : فَلَأَنْ يَقُومَ بِهَذَا الْكِتَابِ ، أَيُّ هُوَ عَالِمٌ بِهِ .

وَالسَّادِسُ : أَنَّهُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ ، مَاخُذٌ مِنَ الْإِسْتِقَامَةِ ،

وَالْحَيُّ الْقَيُّومُ) جَمْعُهَا فِي غَايَةِ الْمُنَاسَبَةِ كَمَا جَمَعَهَا اللَّهُ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ فِي كِتَابِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمَا مَحْتَوِيَانِ

عَلَى جَمِيعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ ، فَالْقَيُّومُ هُوَ كَامِلُ الْقَيُومِيَّةِ وَلَهُ مَعْنِيَانِ :

هُوَ الَّذِي قَامَ بِنَفْسِهِ ، وَعَظُمَتْ صِفَاتِهِ ، وَاسْتَعْنَى عَنْ جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ .

وَقَامَتْ بِهِ الْأَرْضُ وَالسَّمَاوَاتُ وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ ، فَهُوَ الَّذِي أَوْجَدَهَا وَأَمَدَّهَا وَأَعِيدَهَا لِكُلِّ مَا

فِيهِ بَقَاؤُهَا وَصَلَاحُهَا وَقِيَامُهَا ، فَهُوَ الْغَنِيُّ عَنْهَا مِنْ كُلِّ وَجْهِ وَهِيَ الَّتِي افْتَقَرَتْ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ ،

فَالْحَيُّ وَالْقَيُّومُ مَنْ لَهُ صِفَةُ كُلِّ كَمَالٍ وَهُوَ الْفَعَالُ لِمَا يُرِيدُ .

الْقَيُّومُ - قَيُّومٌ : صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ مِنْ قَيَّمَ بِمَعْنَى دَيَّمُومَةَ الْقِيَامِ بِشَأْنِهِ وَشَأْنِ غَيْرِهِ فَالْقَيُّومُ هُوَ الْقَائِمُ بِأَعْمَالِ كِيَانِ

مَا ، وَالْقَيُّومُ صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ مِنْهَا بِمَعْنَى دَيَّمُومَةَ الْقِيَامِ بِأَعْمَالِ هَذَا الْكِيَانِ وَالْإِمْعَانِ فِي ذَلِكَ . وَالْقَيُّومُ هُوَ

السَّيِّدُ ، وَالْقَيِّمُ هُوَ الْمُدِيرُ ، قَيِّمُ الْمَوْسَسَةِ أَمِينُهَا وَسَيِّدُهَا وَمَنْ بِيَدِهِ أَمْرُهَا ، وَالْقَيُّومُ مُبَالَغَةٌ مِنْ ذَلِكَ ،
 فَمَثَلًا قَدْ يَكُونُ مَحَبَّةٌ عَمَلُهُ تَغْلُغَتْ فِي أَعْمَاقِهِ فَهَيَّا فِي مَكْتَبِهِ سَرِيرًا لِيَعْمَلَ عَلَى مَدَارِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ ،
 يُتَابِعُ كُلَّ قَضِيَّةٍ ، يَسْأَلُ عَنْ كُلِّ جُزْئِيَّةٍ ، يُعَالِجُ آيَةَ مُشْكَلَةٍ ، يُتَابِعُ أَيَّ مُوظَّفٍ ، يُدِيرُ شُؤُونَ هَذِهِ الْمَوْسَسَةِ
 بِرِعَايَةٍ وَعُلُوٍّ وَحُكْمٍ وَاخْتِصَاصٍ وَرَحْمَةٍ ، أَيُّ إِنْ مَحَبَّةَ هَذَا الْعَمَلِ سَارِيَةٍ فِي دَمِهِ ، هَذَا لَا يُقَالُ لَهُ قَائِمٌ
 أَوْ قَيِّمٌ عَلَى هَذِهِ الْمَوْسَسَةِ بَلْ يُقَالُ لَهُ قَيِّومٌ عَلَيْهَا .

القَيُّومُ : الْقَائِمُ الْحَافِظُ لِكُلِّ شَيْءٍ . وَالْقَيُّومُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى .

القَيُّومُ : الدَّائِمُ الْفِيَامُ بِتَدْيِيرِ الْخَلْقِ .

القَيُّومُ : الدَّائِمُ الْفِيَامُ بِتَدْيِيرِ خَلْقِهِ وَحِفْظِهِمْ .

القَيُّومُ : مَنْ لَا تَقُومُ الْأَشْيَاءُ إِلَّا بِهِ ، وَلَوْ سَلَبَهَا وَجُودَهَا لَتَلَاشَتْ ، فَيَارِ الْوُجُودِ يَجِيئُهَا مَدَدًا بَعْدَ مَدَدٍ مِنْ
 الْحَيِّ الْقَيُّومِ ، فَمِنْهُ الْإِبْجَادُ وَالْإِمْدَادُ جَمِيعًا ، سُبْحَانَهُ هُوَ الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ وَالْمُقِيمُ لغيرِهِ ، فَهُوَ الْقَيُّومُ الَّذِي
 أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى .

الْخَالِقُ الْبَارِي الْمُصَوِّرُ

اسْمُ اللَّهِ الْمُصَوِّرِ هُوَ أَحَدُ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى ، وَمَعْنَاهُ : الَّذِي خَلَقَ خَلْقَهُ كَيْفَ شَاءَ ، وَصَوَّرَ جَمِيعَ
 الْمَوْجُودَاتِ وَرَبَّبَهَا فَأَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ مِنْهَا صُورَةً خَاصَّةً وَهَيْئَةً مُفْرَدَةً يَمَيِّزُ بِهَا عَلَى اخْتِلَافِهَا وَكَثْرَتِهَا ،
 وَصَوَّرَ كُلَّ صُورَةٍ لَا عَلَى مِثَالِ اخْتِذَاهُ وَلَا رَسْمِ ارْتِسَمِهِ .

وَذَكَرَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَرَّةً وَاحِدَةً فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى
يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، وَجَاءَ بِصِيغَةِ الْفِعْلِ مَرَاتٍ فَقَالَ تَعَالَى : « هُوَ
الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ » « وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ »
« وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ »

الْفَرْقُ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْبَارِئِ وَالْمُصَوِّرِ

الْخَالِقُ أَيُّ الْمُبْدِعِ لِلْخَلْقِ الْمُخْتَرِعَ لَهُ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ .

الْبَارِئُ أَيُّ الْمُنْشِئِ لِلْأَعْيَانِ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ وَالْبُرْءُ هُوَ الْفَرِي وَهُوَ التَّنْفِيذُ وَإِبْرَازُ مَا قَدَرَهُ وَقَرَّرَهُ إِلَى
الْوُجُودِ .

الْمُصَوِّرُ أَيُّ الَّذِي يَنْفِذُ مَا يُرِيدُ إِيجَادَهُ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي يُرِيدُهَا .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ) أَيُّ الَّذِي إِذَا أَرَادَ شَيْئًا قَالَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي يُرِيدُ ،
وَالصُّورَةَ الَّتِي يَخْتَارُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝٨) [الانفطار : 8] وَهَذَا قَالَ : الْمُصَوِّرُ
، أَيُّ الَّذِي يَنْفِذُ مَا يُرِيدُ إِيجَادَهُ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي يُرِيدُهَا .

الْمُبْدِئُ : الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ وَأَوْجَدَهُ مِنَ الْعَدَمِ .

الْمُعِيدُ : الَّذِي يُعِيدُ الْخَلْقَ إِلَى الْمَوْتِ وَالْكَوْنِ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ خَلْقِهِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ [يونس : 4] .

قَوْلُهُ : اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [الروم : II] .

قوله : إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ [البروج : 13] .

كما قال تعالى : وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ [الروم : 27]

(كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين) [الأنبياء : 104]

القادر : المتفرد باختراع الموجودات .

المقتدر : الذي يقدر على ما يشاء

المالك : المتصرف في ملكه كما يشاء

القدوس : المنزه عن كل وصف يدركه حس أو خيال .

السلام : السالم من العيوب والتفائص والناشر سلامته على خلقه .

المؤمن : المصدق نفسه وكتبه ورسله فيما يقوله عنه .

المهيمن : المسيطر على كل شيء بكماله وقوته .

العزیز : الغالب الذي لا نظير له .

الجبار : المنفذ مشيئته على سبيل الإجبار والجبر .

المتكبر : المتفرد بصفات العظمة والكبرياء

الحق : خالق كل شيء بحكمه

الْمَلِكُ : المتصَرِّفُ فِي مِلْكِهِ كَمَا يَشَاءُ .

الْقُدُّوسُ : الْمُنَزَّهُ عَنْ كُلِّ وَصْفٍ يُدْرِكُهُ حَسٌّ أَوْ خَيَالٌ .

أَسْمَاءُ اللَّهِ الْحَسَنَى

اللَّهُ | الرَّحْمَنُ | الرَّحِيمُ | الْمَلِكُ | الْقُدُّوسُ | السَّلَامُ | الْمُؤْمِنُ | الْمُهِمِّنُ | الْعَزِيزُ | الْجَبَّارُ |
الْمُتَكَبِّرُ | الْخَالِقُ | الْبَارِي | الْمَصُورُ | الْغَفَّارُ | الْقَهَّارُ | الْوَهَّابُ . الرَّزَّاقُ | الْفَتَّاحُ | الْعَلِيمُ |
الْقَابِضُ | الْبَاسِطُ | الْخَافِضُ | الرَّافِعُ | الْمَعزُ | الْمَذَلُ | السَّمِيعُ | الْبَصِيرُ | الْحَكَمُ | الْعَدْلُ |
اللطيفُ | الْخَبِيرُ | الْحَلِيمُ . الْعَظِيمُ | الْغُفُورُ | الشُّكُورُ | الْعَلِيُّ | الْكَبِيرُ | الْحَفِيفُ | الْمُقِيتُ |
الْحَسِيبُ | الْجَلِيلُ | الْكَرِيمُ | الرَّقِيبُ | الْمُجِيبُ | الْوَاسِعُ | الْحَكِيمُ | الْوَدُودُ | الْمَجِيدُ |
الْبَاعِثُ | الشَّهِيدُ | الْحَقُّ | الْوَكِيلُ | الْقَوِيُّ | الْمُتَمِّينُ | الْوَلِيُّ | الْحَمِيدُ . الْمُخْصِي | الْمُبْدِي |
الْمُعِيدُ | الْمُخِيبي | الْمُمِيتُ | الْحَيُّ | الْقَيُّومُ | الْوَاجِدُ | الْمَاجِدُ . الْوَاحِدُ | الْأَحَدُ | الصَّمَدُ |

القادر | المُتقدِّر | المُقدِّم | المُؤخَّر | الأوَّل | الآخر | الظاهر | الباطن | الوالي | المتعالي |
البر | التَّوَاب . المُنتَقِم | العفو | الرؤوف | مالك الملك | ذو الجلال والإكرام | المُقسِط . الجامع
| الغني | المُغني | المانع | الضار | النافع | النور | الهادي . البديع | الباقي | الوارث | الرشيد
| الصَّبور . .

بَحِينًا فِي بَعْضِ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى الْمُتَعَلِّقَةِ بِذَاتِهِ كَصِفَةِ الوجودِ ، وَالْحَيَاةِ ، وَلَمْ تَطْرُقْ إِلَى صِفَاتِ أفعالِ
مُتَعَلِّقَةٍ بِذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى : كَالاسْتِوَاءِ وَالنُّزُولِ وَالْمَجِيءِ ، لِأَنَّا نُؤْمِنُ بِهَا كَمَا أَخْبَرَ بِهَا رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى
دُونَ تَعْطِيلٍ أَوْ تَشْبِيهِ أَوْ تَكْيِيفٍ .

الأدلة والبراهين على وجود الله

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم : 10]

أَنَّ مَوْضُوعَ هَذَا الْفَضْلِ قَدِيمٌ مُنْذُ قَدَمِ الْبَشَرِيَّةِ وَحَدِيثٌ وَمَعَاصِرٌ أَيْضًا فَمَسْأَلَةٌ وُجُودِ اللَّهِ شَغَلَتْ الْعُقُلَ
الْبَشَرِيَّةَ طَوِيلًا حَتَّى فِي الْأَذْيَانِ الَّتِي لَاقَتْ رُسُلَهَا وَأَنْبِيَاءَهَا مَقَاوِمَةٌ عَقْلِيَّةٌ رَجَعِيَّةٌ عَنِيفَةٌ .

لِمَاذَا رَفَضَ الْكَثِيرُونَ النَّاسَ وَالْأُمَّمَ الْبَائِدَةَ تُقْبَلُ عَقِيدَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَلِمَاذَا اتَّخَذُوا إِلَهَةً لَهُمْ بَدَلًا
مِنْ ذَلِكَ وَهَلْ الْعُقُلُ الْبَشَرِيَّةُ الَّتِي خَلَقَ لِلتَّعْلُمِ وَالنَّظَرِ وَالتَّفَكِيرِ وَالِاسْتِنَاجِ غَيْرُ قَادِرٍ لِلْوُصُولِ إِلَى قَنَاعَةٍ
تَامَّةٍ فِي هَذَا الْأَمْرِ أَمْ الْمُسْكَلَةُ تَتَعَلَّقُ فِي الطَّرْحِ الدِّينِيِّ وَالْبَرَاهِينِ الَّتِي يَطْرَحُهَا الدِّينُ وَيُخَاطَبُ بِهَا الْعُقُلُ

وَيَدْعُوهُ لِلإِيمَانِ وَإِذَا كَانَ الْبَشَرُ مَفْطُورُونَ عَلَى فِطْرَةٍ تُقْبَلُ وَجُودَ اللَّهِ فَلِمَاذَا يُخَالِفُونَ هَذِهِ الْفِطْرَةَ وَكَيْفَ
يَسْتَطِيعُونَ فَعَلَ ذَلِكَ وَمَا هِيَ الْوَسِيلَةُ وَالْبُرْهَانُ الْأَكْثَرُ تَأْثِيرًا فِي الْعَقْلِ لِيُدْفَعَهُ لِلإِيمَانِ بِاللَّهِ ؟

إِذَا عَرَفْنَا كَيْفَ نُعَالِجُ هَذِهِ الْأَسْئَلَةَ بِمَنْطِقِ وَعَقْلِ سُلَيْمٍ عِنْدَهَا لَنْ نَجِدَ أَيَّ صُعُوبَةٍ فِي طَرَحِ مَنْهَجِنَا
الْإِيمَانِيِّ الَّذِي يَقُومُ عَلَى بَرَاهِينٍ وَأَدَلَّةٍ مُعْجِزَةٍ لَا يَرْفُضُهَا إِلَّا الْعَقْلُ الْمَرِيضُ عَضُوبًا أَوْ نَفْسِيًّا لِذَلِكَ سَيَكُونُ
هَذِهِ الْفُصُولُ مِنْ أَدَقِّ وَأَصْعَبِ الْمَوَاضِعِ الَّتِي نَاقَشْنَاهَا فِي هَذَا الْكِتَابِ وَكَمَا أَنَّ قَضِيَّةَ الْإِيمَانِ هِيَ
قَضِيَّةٌ عَقْلِيَّةٌ فِيهِ قَضِيَّةٌ قَلْبِيَّةٌ بِنَفْسِ الْوَقْتِ لِنَسْرِ خَطْوَةِ مَجْطَوَةٍ ؟

الْعَقْلُ وَالْقَلْبُ

مَا هُوَ الْعَقْلُ وَكَيْفَ يَعْمَلُ وَهَلِ الْقَلْبُ أَيْضًا لَهُ عَقْلٌ أَوْ فَهْمٌ وَإِذَا كَانَ لَهُ ذَلِكَ فَلِمَاذَا يَخْتَلِفَانِ ؟
الْعَقْلُ وَاحِدٌ مِنْ الْمَجَالَاتِ الْمُثِيرَةِ وَالْمُهَمَّةِ وَالشَّائِكَةِ الَّتِي يَتَنَاوَلُهَا الْبَاحِثُونَ بِالدَّرْسِ وَالْفَحْصِ وَالتَّقْدُّ فِي
الْفَلْسَفَةِ ، عِلْمِ النَّفْسِ ، عِلْمِ الْأَعْصَابِ ، الذِّكَاةِ الْإِصْطِنَاعِيِّ ، وَالْعِلْمِ الْإِدْرَاكِيِّ ، وَالْحَقُّ أَنَّ التَّقْلُفَ
حَوْلَ الْعَقْلِ قَدِيمٌ قَدِيمٌ قَدِيمٌ ، وَلَكِنْ فَلَسَفَةُ الْعَقْلِ بِوَضْفِهَا فَرَعًا فَلَسَفِيَا وَاضِحٌ الْمَوْضُوعَاتِ
وَالْمُشْكَلَاتِ وَالْمَنَاهِجِ وَالتَّنْظِيرَاتِ لَمْ تَعْرِفْ إِلَّا فِي النِّصْفِ الثَّانِي مِنَ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ ، وَيُمْكِنُ لِكُلِّ
شَخْصٍ أَنْ يُرَى مُبَاشَرَةً أَنَّ الْعَقْلَ مَرْكَزِيًّا فِي حَيَاتِنَا ، إِنَّ عَمَلَ الْعَقْلِ ، الْوَاعِي وَاللَّوَاعِي ، الْحَرَ وَغَيْرِ

الْحَرِّ فِي الْإِدْرَاكِ وَالْفِعْلِ ، وَالْفِكْرِ وَالشُّعُورِ وَالْتَّامُّلِ وَالذَّاكِرَةَ وَفِي جَمِيعِ الْحَالَاتِ الْآخَرَى ، لَا يُمَثِّلُ نَاحِيَةَ
مِنْ حَيَاتِنَا بَلْ جِزءٌ كَبِيرٌ مِنْ حَيَاتِنَا .

طَبِيعَةُ الْعَقْلِ

تُبْرِطُ طَبِيعَةُ الْعَقْلِ جُمْلَةً تَسْأُولَاتٍ أْبْرَزَهَا : مَا هَذَا الشَّيْءُ الَّذِي نُسَمِّيه الْعَقْلُ هَلْ هُوَ شَيْءٌ فِيزِيَائِيٌّ مِثْلُ
الْمُخِّ ، أَمْ أَنَّهُ شَيْءٌ غَيْرٌ فِيزِيَائِيٌّ ؟ وَهَلْ هُوَ شَيْءٌ عَلَيَّ الْإِطْلَاقِ ؟ وَهَلْ مِنْ الْأَفْضَلِ فَهَمَهُ عَلَيَّ أَنَّهُ
"عَمَلِيَّةٌ" أَوْ مَجْمُوعَةٌ مِنْ "الْوِطَائِفِ" مِنْ النَّظَرِ إِلَيْهِ عَلَيَّ أَنَّهُ شَيْءٌ ؟

يُطْرَحُ التَّمَثِيلُ الْعَقْلِيُّ سُؤَالًا جَوْهَرِيًّا : كَيْفَ يُمَثِّلُ الْعَقْلُ الْأَشْيَاءَ ؟ الْإِجَابَةُ عَنْهُ فِي النَّظَرِ إِلَيَّ فَضِيَّتَيْنِ هُمَا
الْوَعْيُ وَالْقَصْدِيَّةُ ، وَفِي الْوَعْيِ تَسْأَلُ : مَا الْوَعْيُ وَكَيْفَ يَرْتَبِطُ الْوَعْيُ بِالْعَالَمِ الْفِيزِيَائِيِّ ؟ وَمَا أَنْوَاعُ
الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَكُونُ وَاِعْيَةً ؟ كَيْفَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَعْرِفَ مَا إِذَا كَانَ الشَّيْءُ وَاِعْيًا ؟ وَهَلْ الْوَعْيُ ظَاهِرُهُ
وَاحِدَةٌ أَمْ ظَوَاهِرُ كَثِيرَةٌ ؟ وَمَا وَظِيفَةُ الْوَعْيِ ؟ وَمَا نَظَرِيَّاتُ الْوَعْيِ ؟ وَفِي الْقَصْدِيَّةِ تَسْأَلُ مَا الْقَصْدِيَّةُ
؟ وَمَا الْحَالَاتُ الْقَصْدِيَّةُ ؟ وَهَلْ كُلُّ الْحَالَاتِ الْعَقْلِيَّةِ تَظْهَرُ الْقَصْدِيَّةُ ؟ كُلُّ الْحَالَاتِ الْعَقْلِيَّةِ وَحْدَهَا هِيَ
الَّتِي تَظْهَرُ الْقَصْدِيَّةُ ؟ وَمَا عِلَاقَةُ الْقَصْدِيَّةِ بِالْوَعْيِ ، وَالسُّؤَالُ الرَّئِيسُ فِي مُشْكِلهِ الْعَقْلِ وَالْجِسْمِ هُوَ :
كَيْفَ يَرْتَبِطُ الْعَقْلُ بِالْجِسْمِ ؟ وَتَتَفَرَّعُ عَنْهُ أَسْئَلَةٌ آخَرَى مِنْ قَبِيلِ : مَا الْعِلَاقَةُ بَيْنَ الْخُصَائِصِ الْعَقْلِيَّةِ
وَالْخُصَائِصِ الْفِيزِيَائِيَّةِ ، وَمَا عِلَاقَةُ الْمُخِّ بِالْعَقْلِ ؟

عَلَيْنَا أَنْ نَسْأَلَ : مَا الَّذِي فِي الْبَشَرِ يَجْعَلُهُمْ جِنْسًا خَاصًّا

عَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَفَوُّقِ الْأَلَةِ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي أُمُورٍ عَدِيدَةٍ ، إِلَّا أَنَّهُ تَظَلَّ مِنْطَقَةُ الْإِدْرَاكِ الْبَشَرِيِّ مِنْطَقَةً
شَدِيدَةً الْخُصُوصِيَّةِ وَالتَّعْقِيدِ ، وَيَضَعُ عَلَى الْحَوَاسِبِ الْوُصُولَ إِلَى تَكْوِينِ إِدْرَاكِ عَلَى شَاكِلِهِ الْإِدْرَاكِ

البشري ، فالعقل البشري مثلاً قادرٌ على استيعاب الأوامر بسرعة فائقة مقارنةً بالحاسب مثل التحرك إلى اليمين أو اليسار . فهي حركات بسيطة ولا تحتاج إلى مجهود كبيرٍ لذي العقل البشري ، في حين أنها تمثل عمليات حسابية ضخمة داخل الحواسيب .

أن نظرية التمثيل المعرفي تمثل خطؤه نحو محاولة تقليد العقل البشري خلال البيانات المعلوماتية وإظهار كيف يتعامل معها العقل البشري الطبيعي ، ومع ذلك لا تستطيع هذه النظرية أن تقدم تفسيرات دقيقة وصادقة بشكل كامل حول ما يتعلق بالنظرية الإنسائية وحول التجارب الإنسائية والمعارف البشرية والرغبات الموجودة داخل العقل البشري لأن هذه المعرفة فطرية والتجارب الإنسائية قائمة على نوع من الخلايا الحسية والعصبية التي تعد ضمن مميزات العقل البشري .

يقول جيمس ترينيل في كتابه هل نحن بلا نظير ترجمته ليلي الموسوي وهو كتاب مفيد وقيم

((يطرح هذا الكتاب سؤالاً محيلاً وتحدياً شاقاً : فكيف نستطيع أن نبرهن على تفرد الإنسان عن غيره دون أن نلجأ إلى الجدال الفلسفي والميتافيزيقي ؟ وأنى لنا أن نثبت هذا التفرد باتباع المنهج العلمي الذي

يعتمد النظريات التي يمكن امتحان صحتها وخطئها بالتحليل المادي ؟ ويقترح ترينيل أن جواب هذا السؤال يكمن في دراسة الدماغ البشري ومقارنته بالحيوانات من جهة ، وبالكمبيوترات الحديثة من جهة أخرى ، إذ يجادل بأن العقل البشري هو السمة المميزة للبشرية ، ومختلف عن بقية الحيوانات ، ليس فقط في الدرجة بل في النوعية ، معقد لدرجة الاختلاف نوعياً عن الكمبيوترات التي تُصنع بفضل هذه القدرات الذهنية ، ويُكر أن يصل الكمبيوتر في أي زمن إلى كامل قدره العقل البشري الفكري . ويرى أنه في ترسيم هذا الاختلاف تكمن الوسيلة لتقديم البرهان العلمي على تفرد الإنسان ، فيلجأ إلى سرد

الأدلة بطريقه منطمة ، يُحاول من خلالها ترسيم الحدود بين الإنسان والحيوان ، وبين الإنسان والإله ،
فقدّم أدلة مُقنعة من تاريخ التطور العضوي ، وعلم النفس ، وعلوم الكمبيوتر ، والفلسفة ، ونظرية
التعقيد ، عارضا ذلك من خلال أمثلة منتقاة بذكاء ، وحاصرا البحث بالنظر في الدماغ البشري من
الجوانب التركيبية والوظيفية)) .

تختلف النظرية التي تجمع بين النظرية الحاسوبية للعقل والنظرية التمثيلية للعقل كيفية إنجاز التسيح
العصبي للمهام التي يُجزها بكل تأكيد : مثل الإدراك الحسي والتفكير المنطقي واتخاذ القرارات
واكتساب اللغة وغيرها . بناء على حاله الجهل التي نعيشها الآن ، سيكون من التسرع التأكيد على أن
الدماغ لا يطبق أي شيء مماثل كحوسبة مثلا .

ماذا نفهم من هذا الكلام الذي بمجمله مأخوذ من أقوال وفلاسفة غربيين ؟

أن العقل شيء والدماغ شيء آخر فالدماغ هو جُملة الأعضاء الحيوية الوظيفية التي تُعمل عبر ما يُسمى
بالشبكات العصبية التي تبلغ مليار خلية عند الإنسان وإذا أردنا أن نُشبه بعمل الكمبيوتر فيه أي الدماغ
الهادر والذاكر والمعالجات وغيرها التي تُعمل كوحدة وظيفية متكاملة وإذا كان المعالج هو المسؤول
عن معالجة المعلومات والبيانات فوظيفة العقل لا تُحصِر في ذلك بل تتفوق عليه بأنه مركز القيادة
الرئيسي والمسؤول عن التوجيه والأولويات وإعطاء القرارات بسرعة رهيبه وقد تكون قرارات مبتكرة لا
تُخذ بموجب المعطيات والمعلومات المتوفرة بل قد يُخالفها .

فَالْعَقْلُ وَكَانَهُ يَعْمَلُ خَارِجَ النَّظَامِ الْمَادِيِّ الْوُضُفِيِّ لِذَلِكَ سَمَّاهُ الْبَعْضُ بِالرُّوحِ أَوْ الْعَقْلِ الْمَطْلُوقِ وَبِهَذَا الْعَقْلُ
تَمِيْزٌ عَنِ كُلِّ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ الْحَيَّةِ وَعَنْ كُلِّ مُبْتَكِرَاتِ الْإِنْسَانِ الَّتِي تُحَاوِلُ بِنَاءَ شَبِيهَةٍ ذَكِيٍّ أُطْلِقَ عَلَيْهِ
الذِّكَاءُ الْإِضْطِنَاعِي .

وَهَلْ يَعْنِي هَذَا أَنَّهُ هُنَاكَ إِمْكَانِيَّةٌ أَنْ يَعْمَلَ الْعَقْلُ خَارِجَ الدِّمَاغِ بِصُورَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ ؟

الْجَوَابُ عَلَى ذَلِكَ نَعَمْ لَكِنْ لَيْسَ هُنَاكَ دَلِيلًا مُبَاشِرًا عَلَى عَمَلِهِ هَذَا إِنَّمَا نَسْتَبْطِهُ مِنْ أَثَارِهِ فَالزَّيَّاحُ لَا
يُمْكِنُ رُؤْيُهَا وَلَا طَعْمُهَا أَوْ لَوْ أَنَّ لَهَا لَكِنَّمَا نَعْرِفُهَا مِنْ أَثَارِهَا عَلَيْنَا أَنْ نَفْهَمَ مَا هُوَ الْعَقْلُ الْبَاطِنُ لَكِي نَعْرِفَ
كَيْفَ يَعْمَلُ الْعَقْلُ خَارِجَ الدِّمَاغِ بِصُورَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ .

مَا هُوَ الْعَقْلُ الْبَاطِنُ ؟

عَرَفَ الْعَقْلُ الْبَاطِنُ عَلَى أَنَّهُ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْعَمَلِيَّاتِ الْمُعْقَدَةِ الَّتِي تَحْدُثُ دَاخِلَ عَقْلِ الْإِنْسَانِ دُونَ إِدْرَاكِ
الْفَرْدِ لِحُدُوثِ هَذِهِ الْعَمَلِيَّاتِ ، حَيْثُ تَتَمَثَّلُ هَذِهِ الْعَمَلِيَّاتِ الْمُعْقَدَةُ فِي اتِّخَاذِ الْقَرَارَاتِ ، وَإِضْدَارِ
الْأَحْكَامِ عَلَى مُخْتَلَفِ الْمَوَاقِفِ الْحَيَاتِيَّةِ الَّتِي يَتَعَرَّضُ لَهَا الْإِنْسَانُ ، فَمَا هِيَ أَهَمُّ الْمَعْلُومَاتِ الْمُتَعَلِّقَةِ فِي
الْعَقْلِ الْبَاطِنِ عِنْدَ الْإِنْسَانِ ؟

حَقَائِقُ عَنِ الْعَقْلِ الْبَاطِنِ عِنْدَ الْإِنْسَانِ

هُنَاكَ الْعَدِيدُ مِنَ الْحَقَائِقِ الَّتِي سَتَصَدِّمُكَ عَنِ الْعَقْلِ الْبَاطِنِ عِنْدَ الْإِنْسَانِ ، وَفِي مَا يَلِي أَهَمُّ هَذِهِ

الْحَقَائِقُ :

الْعَقْلُ الْبَاطِنُ مَسْئُولٌ عَنِ الْأَحْكَامِ

يُعتبر العقل الباطن الجزء المسؤول عن الأحلام التي نراها ، حيث يقوم العقل الباطن بجمع الذكريات ،
والمواقف الحياتية ، وتمثيلها على شكل أحلام ، وهذا ما يُفسر شعورنا بأننا قد رأينا الموقف الذي
يُحصل معنا في الواقع بحلم ما .

طريقة التفكير

يُعتبر العقل الباطن المسؤول الرئيسي عن طريقه تفكير الفرد الإيجابية ، أو السلبية ، حيث يقوم العقل
الباطن بتخزين كافة أفكار الفرد ، وآرائه ، ومعتقداته ، وبناءً على هذه البيانات يُصدر العقل الباطن
المشاعر الإيجابية ، أو السلبية التي نشعر بها ، ولهذا يواجه الفرد صعوبة في تغيير نظرتة إلى الحياة ، أو
في تحويل أفكاره السلبية إلى أفكار إيجابية ، حيث يسيطر العقل الباطن على طريقة التفكير عند الفرد
دون وعيه بذلك .

العقل الباطن مسؤول عن التصرفات العفوية

يُعتقد معظم الأفراد أن تصرفاتهم العفوية نابعة عن العادة ، أو عن تعرض الفرد للموقف ذاته كل يوم ،
فعندما يشعر الفرد بالجوع يذهب مباشرة لتناول الطعام ، ولكن الحقيقة أن هناك مجموعته مُعقدة من
العمليات التي تحدث في العقل الباطن ، والتي تُصدر أمراً للدماغ بأن الفرد جائع ، ويحتاج إلى تناول
الطعام ، ولكن تُعتبر هذه العمليات مُخفية ، ومعقدة ، ومن الصعب جداً تحليلها .

العقل الباطن لا يتنام

يُظَنُّ مُعْظَمَ الْأَشْخَاصِ أَنَّ دِمَاحَ الْإِنْسَانِ يُفْقَدُ وَعِثَهُ خِلَالَ النَّوْمِ ، وَلَكِنَّ الْحَقِيقَةَ عَكْسُ ذَلِكَ تَمَامًا ، فَهَنَّاكَ جُزْءٌ مِنْ جِسْمِ الْإِنْسَانِ يَبْقَى مُسْتَيْقِظًا حَتَّى خِلَالَ مَرَحَلَةِ النَّوْمِ ، وَيَسْتَمِرُّ فِي عَمَلِهِ ، وَفِي التَّحَكُّمِ فِي كَافَّةِ أَعْضَاءِ الْجِسْمِ الْأُخْرَى ، وَهَذَا الْجُزْءُ هُوَ الْعَقْلُ الْبَاطِنُ .

الْعَقْلُ الْبَاطِنُ مُتَعَدِّدُ الْمَهَامِّ

يُعْتَبَرُ مِنَ الصَّعْبِ عَلَى أَيِّ إِنْسَانٍ التَّعَامُلَ مَعَ مَسَائِلٍ مُتَعَدِّدَةٍ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ ، وَلَكِنَّ يَجْهَلُ الْعَدِيدَ مِنَ الْأَشْخَاصِ امْتِلَاكِهِمْ لِجُزْءٍ مُهِمٍّ فِي جِسْمِهِمْ يَسْتَطِيعُ الْقِيَامَ بِمَاتِ الْمَهَامِّ فِي الدَّقِيقَةِ الْوَاحِدَةِ ، فَالْعَقْلُ الْبَاطِنُ يَسْتَطِيعُ الْعَيْشَ فِي الْمَاضِي ، وَالْحَاضِرِ ، وَالْمُسْتَقْبَلِ فِي نَفْسِ اللَّحْظَةِ ، كَمَا أَنَّهُ يَتَحَكَّمُ فِي 95% مِنْ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ ، فَلَا شَيْءَ يُضَاهِي قُوَّةَ ، وَتَعْقِيدَ هَذَا الْجُزْءِ الْعَظِيمِ فِي الدِّمَاحِ .

الْعَقْلُ الْبَاطِنُ مَسْئُولٌ عَنِ الذِّكْرِيَّاتِ

يُعْتَبَرُ الْعَقْلُ الْبَاطِنُ الْمَسْئُولُ الْأَوَّلُ عَنِ الذَّاكِرَةِ فِي الدِّمَاحِ ، فَكُلُّ مَا يَتَعَرَّضُ لَهُ الْفَرْدُ مِنْ مَوَاقِفٍ يَتِمُّ تَخْزِينُهُ فِي هَذَا الْجُزْءِ الصَّغِيرِ مِنَ الدِّمَاحِ ، كَمَا أَنَّهُ الْجُزْءُ الْمَسْئُولُ عَنْ رَدُودِ الْفِعْلِ عِنْدَ الْأَشْخَاصِ ، فَعِنْدَمَا تَرَى شَخْصًا سَعِيدًا ، سَتَشْعُرُ بِالسَّعَادَةِ لِأَجْلِهِ تَلْقَائِيًا ، وَيَعُودُ ذَلِكَ بِسَبَبِ تَذَكُّرِ عَقْلِكَ الْبَاطِنِ لِمَوْقِفِ مُشَابِهَةٍ سَبَبَ لَكَ السَّعَادَةَ ، وَبِالتَّالِيِ يَسْتَرْجِعُ الْعَقْلُ الْبَاطِنُ هَذَا الْمَوْقِفَ ، لِتَشْعُرَ مَجْدِدًا بِنَفْسِ السَّعَادَةِ .

الْعَقْلُ الْبَاطِنُ مَعْقِدٌ جَدًّا يَتَّبِعُ الْعَقْلَ الْبَاطِنَ نِظَامًا مَعْقِدًا جَدًّا لِتَخْزِينِ الْبَيِّنَاتِ ، وَمُعَالَجَتِهَا ،

حَيْثُ يَسْتَطِيعُ تَخْزِينُ كَمِّ هَائِلٍ مِنَ الْبَيِّنَاتِ ، وَالْمَشَاعِرِ ، وَالْمَوَاقِفِ ، وَالذِّكْرِيَّاتِ الَّتِي تَعْرِضُ لَهَا الْإِنْسَانُ كَمَا يَقُومُ بِاتِّخَاذِ الْقَرَارَاتِ عَنْ طَرِيقِ الْقِيَامِ بِعَمَلِيَّاتٍ مُعَقَّدَةٍ جَدًّا خِلَالَ ثَوَانٍ ، فَالْعَقْلُ الْبَاطِنُ مَعْقِدٌ بِشَكْلِ أَكْبَرَ بِكَثِيرٍ مِنَ الْعَقْلِ الْوَاعِي .

العقل الباطن لا يفرق بين الحقيقة والخيال

يقوم العقل الباطن بتخزين كافة المشاعر ، والمواقف التي يعرض لها الفرد ، فلا يستطيع العقل الباطن التمييز بين الحقيقة ، والخيال ، فعندما تضحك بسبب مسرحية ، أو تضحك بسبب نكتة أخبرها بها صديقك بالواقع لن يستطيع العقل الباطن التفريق بين الموقفين ، وسيقوم بتخزينها على أنها مواقف من نفس النوع .

ويطلق على العقل الباطن اللاشعور تفرقاً له عن حاله الشعور الذي تسود في حالة اليقظة نتيجة عمل الحواس والأدراك .

والعقل الباطن أنه مكون معنوي أكثر مما يكون مكوناً عضوياً ، وهو المنطقة التي تخزن فيها بعض الأفكار وبعض الانفعالات العاطفية ، ويقال أن العقل الباطن يستوعب ويستحوذ على ما هو سيئ وعلى ما هو جيد ، أي هو عبارة عن مخزن يخبرج الإنسان بعد ذلك أيضاً بصورة لا شعورية ما يحتاجه من تفاعل أو وجدان أو عاطفة أو معلومة حسب الموقف .

وهناك تصرفات قد تبدو من البشر لا نستطيع أن نقول إنها إرادية مائة بالمائة ، هذه يعتقد أيضاً أن العقل الباطني أو العقل غير الظاهري أو العقل اللاشعوري هو الذي يحدد مسارها .

الآن عرفنا أن العقل البشري عقلاً عقل ظاهري شعوري مركزه المخ وأعضاء الدماغ الأخرى وهذا موجود عند الحيوانات بقدر أقل جداً يطلق عليه اسم الغريزة وهو معد لخدمة حواسنا وادراكنا ووعينا في التعلم والعيش في الحياة وهناك عقل آخر باطني غير ظاهر لاشعوري لا تدخل أجهزة الدماغ في عمله والسيطرة عليه فه يعمل بحرية وإليه مختلفه .

الْقَلْبُ مَرْكَزٌ آخِرٌ لِلتَّفَكِيرِ وَالشَّعُورِ

لَمْ تَرُدْ كَلِمَةً عَقْلٍ كَأَسْمٍ أَوْ صِفَةٍ فِي الْقُرْآنِ ؟ بَيْنَمَا جَاءَتْ بِصِيغَةٍ فَعَلَيْهِ تَعْقِلُونَ 24 مَرَّةً . وَحَيْثُ لَمْ تَرُدْ كَلِمَةً « الْعَقْلُ » بِالصِّيغَةِ الْأَسْمِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فَقَدْ وَرَدَتْ مُرَادِفَاتِ الْعَقْلِ بِالصِّيغَةِ الْأَسْمِيَّةِ مِثْلَ اللَّبِّ ، وَجَمْعِهَا الْأَلْبَابِ وَالْحِلْمِ وَجُمِعَتْ عَلَى الْأَحْلَامِ ، وَالْحَجَرِ ، وَالتَّهْيِ وَالْقَلْبِ ، وَالْفُؤَادِ وَكُلِّهَا جَاءَتْ بِمَعْنَى الْعَقْلِ . وَجَاءَتْ آيَاتٌ أُخْرَى كَثِيرَةٌ تَدْعُو إِلَى إِعْمَالِ الْعَقْلِ فِي التَّنْظَرِ وَالتَّأَمُّلِ وَالتَّدَبُّرِ وَالْفِكْرِ .

أَكَّدَ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ الشَّرِيبِيُّ أَسْتَاذَ طِبِّ الْحَالَاتِ الْحَرَجَةِ وَالْعِنَايَةِ الْمُرَكَّبَةِ فِي مِصْرٍ ، أَنَّ آخِرَ حَقِيقَةِ عِلْمِيَّةٍ تَوْصَلُ إِلَيْهَا الْعُلَمَاءُ مِنْ خِلَالِ الدِّرَاسَاتِ وَالْأَبْحَاطِ الطَّبِيبِيَّةِ الَّتِي أُجْرِيَتْ عَلَى الْقَلْبِ ، كَشَفَتْ أَنَّ الْقَلْبَ لَيْسَ مُجَرَّدَ عُضْوٍ عَضَلِيٍّ مُجَوَّفٍ يَدْفَعُ الدَّمَ ضَمِنَ جِهَازِ الدَّوْرَانِ بِمَا يُشْبِهُ عَمَلِ الْمَضْحَةِ ، وَلَكِنَّهُ يَحْتَوِي عَلَى أَكْثَرِ مِنْ ٤٠ أَلْفِ خَلِيَّةٍ عَصَبِيَّةٍ مُعَقَّدَةٍ لَا تَزَالُ مَجْهُولَةً حَتَّى الْآنَ لِلْعُلَمَاءِ .

وَقَالَ الشَّرِيبِيُّ أَنَّ الْعُلَمَاءَ أَشَارُوا فِي تَنَائِجِهِمْ إِلَى أَنَّ الْقَلْبَ يُفَكِّرُ وَيَعْقِلُ وَيُنْفِثُ وَيَتَذَكَّرُ ، مُشِيرًا إِلَى أَنَّ مَعْهَدَ رِيَاضِيَّاتِ الْقَلْبِ الْأَمْرِيكِيَّ خَرَجَ بِنَتِيجَةٍ تَوَكَّدُ أَنَّ الْقَلْبَ دَوْرًا مَهْمًا فِي الْعَوَاطِفِ وَالْأَحَاسِيْسِ وَالْإِدْرَاكِ وَالتَّعْلَمِ ، وَأَنَّ لَهُ مَجَالًا كَهْرَبِيًّا أَقْوَى مِنْ الْمَخِّ بِكَثِيرٍ ، كَمَا أَنَّهُ مَسْئُولٌ عَنِ تَوْجِيهِ الْمَخِّ وَأَجْهَازِ الْجِسْمِ لِأَدَاءِ عَمَلِهِمْ .

الْقَلْبُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لَمْ يَذَكَرْ عَلَى أَنَّهُ مِضْحَخَةٌ لِلدَّمِ بَلْ بِمَعْنَى التَّفَكِيرِ أَوْ التَّفَكْرِ ، بَلْ بِهِ يَكْمَلُ الْعَقْلُ وَالتَّفَكِيرُ الْمُوَصَّلُ إِلَى الْحَقِّ سُبْحَانَهُ ، قَالَ تَعَالَى : " أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا " (24) سُورَةَ مُحَمَّدٍ . اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، يَذُكِّرُ مَسْأَلَةَ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَيَرْبِطُهَا بِالْقَلْبِ ، لِأَنَّكَ قَدْ تَقْرَأُ

الْقُرْآنَ بِلِسَانِكَ فَقَطْ فَلَا تُفْهَمُ مِنْ آيَاتِهِ شَيْئًا ، لَكِنْ حِينَمَا تَدْبِرُهُ بِقَلْبِكَ فَإِنَّ الْأَمْرَ يَخْتَلِفُ ، وَسَتَفْهَمُ
الآيَاتِ بِالرَّغْمِ مِنْ تَدْنِي مَسْتَوَاكَ الْعِلْمِيِّ أَوْ رَفَعْتَهُ ، لِهَذَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَاطَبَ الْمُتَنَافِئِينَ بِكُونِهِمْ أَقْفَلُوا
قُلُوبَهُمْ ، وَمَا عَادَ الْقُرْآنَ بِنَلَاوَتِهِ يَنْفَعُهُمْ .

كثيرة هي الآيات الأخرى التي تُشير إلى دور القلب في تمام العقل ، ولعل من أظهرها لهذا الأمر ، الآية
الكريمة التي يقول فيها الله عز وجل : "أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ
يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ" . الحجج : 46 .

أن العقل هو عملية تتفاعل بين القلب والدماغ ، ولا يتركز في أي جهة منهما ، .

أن القلب يتق في الكُلِّ بمخزوناتهم الفطرية ، فما يوجد من مخزون فطري وحقيقة مطلقة هو ذاته ما
يوجد لديك ولدى الآخر ، باستثناء العواطف التي يكتسبها قلب المرء من أمه ومحيطه فهذه ذاكرة
مستحدثة ومكتسبة في القلب وليست فطرية فيه ، فما هو فطري حُب أمه ، لكن المستحدث هو
حبه لأمه باسمها ذاك ، وكنهها ووصفها الذي يراه بإدراكه ، ما هو فطري حبه للناس جميعهم ، لكن
هناك مدخلات تدخل عليه في واقعة ، وتفرض عليه الأخذ بأضداد الأمور ، فبعد أن كان يحب ،
سيكره ، .

فالحب قيمة مطلقة في ذات الإنسان تولد معه ، لكن الكره قيمة مستحدثة يكتسبها مع توالي أيام الحياة
كذلك الأمور بالنسبة للعواطف الأخرى .

طبيا : يُنظَّم الجِهَازُ القَلْبِيُّ الوَعائِيُّ مِنْ خِلَالِ الجِهَازِ العَصَبِيِّ الذَّاتِيِّ ، الَّذِي يَشْمَلُ الجِهَازَ العَصَبِيَّ الوُدِّيَّ وَنَظِيرَ الوُدِّيِّ . الاتِّزَانُ الوَاضِحُ بَيْنَ هَذِهِ الأَجْهَرَةِ أَسَاسِيٌّ فِي الفيزيولوجيا المَرَضِيَّةِ لِلدَّاءِ القَلْبِيِّ

الوعائي . قَدْ يَحْدُثُ عَدَمُ الاتِّزَانِ بِسَبَبِ المَسْتَوِيَّاتِ الهَرْمُونِيَّةِ ، وَنَمَطِ الحَيَاةِ ، وَعَوَامِلِ الأَجْهَادِ البِئْسَةِ ،

يُمْكِنُ تَحْدِيدُ الرِّابِطِ المَعْقَدِ بَيْنَ القَلْبِ وَالدِّمَاجِ مِنْ خِلَالِ تَأْثِيرَاتِ مُرَكَّبِ الجِهَازِ العَصَبِيِّ الأَعْلَى الَّتِي تَنْزِلُ

إِلَى القَلْبِ . يُبْنَى هَذَا المُرَكَّبُ بِتَعْصِيبِ ذَاتِيٍّ مِنْ قِشْرِهِ الدِّمَاجِ حَتَّى القَلْبِ عَلَى طُولِ المَحْوَرِ العَصَبِيِّ

القَلْبِيِّ . يُعْبَرُ القَلْبُ مَصْدَرًا الحَيَاةِ وَمَصْدَرًا لِاضْطِرَابَاتِ النِّظْمِ وَالمَضَاعِفَاتِ أَيْضًا . تَنْشَأُ المَعْلُومَاتُ

مِنَ القِشْرَةِ الدِّمَاجِيَّةِ وَتَنْزِلُ إِلَى الوِطَاءِ . تَنْقَلُ الإِشَارَاتُ العَصَبِيَّةُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى جِذَعِ الدِّمَاجِ ، ثُمَّ إِلَى

التُّخَاعِ الشُّوكِيِّ ، وَهُوَ المَكَانُ الَّذِي يَسْتَقْبِلُ القَلْبُ مِنْهُ كَافَّةَ إِشَارَاتِهِ . وَبِتَفْصِيلٍ أَكْثَرَ ، يَسْتَقْبِلُ القَلْبُ

مُدخَلَاتِهِ العَصَبِيَّةَ مِنْ خِلَالِ العُقَدِ الودية وَنَظِيرِهِ الودية وَالْعُمُودِ السَّنْجَابِيِّ الوَحْشِيِّ لِلتُّخَاعِ الشُّوكِيِّ

قَدِيمِ د . أَنْدَرُو أَرْمُورِ عَامِ 1991مُفْهُومٌ إِنَّ هُنَاكَ عَقْلَ صَغِيرٍ فِي القَلْبِ ، وَهُوَ يَتَكَوَّنُ مِنْ شَبَكَةٍ مِنْ خَلَايَا

عَصَبِيَّةٍ ، نَاقِلَاتِ كِيمِيائِيَّةٍ ، بروتينات ، خَلَايَا دَاعِمَةٌ ، وَهِيَ تَعْمَلُ بِاسْتِقْلَالِيَّةٍ عَنِ خَلَايَا المِخِّ لِلتَّعَلُّمِ

وَالذِّكْرِ حَتَّى الإِحْسَاسِ ، ثُمَّ تُرْسَلُ المَعْلُومَاتُ إِلَى المِخِّ "أولاً" التُّخَاعِ المُسْتَطِيلِ حَيْثُ تَنْظُمُ الأَوْعِيَّةِ

الدِّمَوِيَّةِ ، "وثانياً" إِلَى مَرَاكِزِ المِخِّ المُخْتَصَّةِ بِالإِدْرَاقِ ، وَاتِّخَاذِ القَرَارِ وَالقُدْرَاتِ الفِكْرِيَّةِ .

وَيَعْتَقِدُ هَذَا العَالِمُ أَنَّ الخَلَايَا العَصَبِيَّةَ الذَّاتِيَّةَ فِي القَلْبِ المُنْقُولِ إِذَا تَمَّ زُرْعَةُ فَإِنَّ هَذِهِ الخَلَايَا تَسْتَعِيدُ

عَمَلَهَا ، وَتُرْسَلُ إِشَارَاتٌ مِنْ ذَاكِرَتِهَا القَدِيمَةِ إِلَى المِخِّ فِي الشَّخْصِ الجَدِيدِ ، وَإِنَّ القَلْبَ المُزْرُوعَ يَأْتِي

أَيْضًا بِمَسْتَقْبَلَاتٍ عَلَى سَطْحِ خَلَايَا القَلْبِ ، وَالَّتِي هِيَ خَاصَّةٌ بِالمِتَبَرَعِ وَالَّتِي تَخْتَلِفُ عَنِ مُسْتَقْبَلَاتِ

الشَّخْصِ الَّذِي زُرِعَ لَهُ القَلْبُ ، وَبِذَا يُصْبِحُ المَرِيضُ حَاوِيًا لِتَوَعُّينِ مِنْ مُسْتَقْبَلَاتِ الخَلَايَا .

الآن انتهينا وعلينا أن نعيد طرح لسؤالنا الذي طرحناه في بداية هذا الفصل وذلك للإجابة عليه بعد ذلك .

لماذا رفض بعض الناس والأمم البائدة تقبل عقيدة إن الله خالق كل شيء ولماذا اتخذوا آلهة لهم بدلاً من ذلك وهل العقل البشري الذي خلق للتعلم والتفكير والاستنتاج غير قادر على الوصول إلى قناعة تامة في هذا الأمر أم المشكلة تتعلق في الطرح الديني والبراهين التي يطرحها الدين ويخاطب بها العقل ويدعوه للإيمان وإذا كان البشر مفطورون على فطرته تقبل وجود الله فلماذا يخالفون هذه الفطرة وكيف يستطيعون فعل ذلك وما هي الوسيلة والبرهان الأكثر تأثيراً في العقل ليدفعه للإيمان بالله ؟

بداية سنقوم بالجواب على الفقرة الأولى وهو لماذا رفضت الأمم دعوة انبياءها ؟

وسنضع بعض الحجج التي جاء بها مستكبريهم :

قالوا ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31]

وقالوا ﴿ أَوْ تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [الإسراء : 91]

أو ﴿ أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرِفٍ ﴾ [الإسراء : 93]

وقالوا ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [ص : 4]

ثم اتهموه بالجنون ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر : 6]

ثم قالوا ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴾ [الصفات : 36]

ثُمَّ ادْعُوا أَنْ هُنَاكَ مَنْ يَعْلَمُهُ وَيُلْقِنُهُ ﴿ وَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ
أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿ [النحل : IO3] .

وَقَالُوا لَهُ : ﴿ مَا تَرَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَكَ أَتَّبِعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِأَدْيِ الرَّأْيِ وَمَا تَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا
مِنْ فَضْلِ بَلْ نَظَنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿ [هود : 27] .

طَلَبُوا مِنْهُمْ طَرْدَ الْفُقَرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حَوْلِهِمْ- ﴿ مَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ
قَوْمًا تَجْهَلُونَ . وَيَا قَوْمِ مِنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ أَلَّا تُدْرِكُونُ ﴿
وَقَالُوا : ﴿ أَنَا لَنَرَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿ [الأعراف : 60] .

يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿ [هود : 32]

﴿ أَنَا لَنَرَكَ فِي سَفَاهَةٍ وَأَنَا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿ [الأعراف : 66] فَقَالَ لَهُمْ هُوَ

﴿ يَا هُودُ مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿ [هود : 53]

فَقَالُوا : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿ [الأعراف : 70] .

يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿ [الأعراف : 59]

فَقَالَ لَهُمْ : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴿ [الأعراف : 73]

قَالُوا : ﴿ أَبَشَرًا مِثَّنَا وَاحِدًا تَتَّبِعُهُ أَنَا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعْرٍ)) . ﴿ أَلَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ

كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿ [القمر : 25] ﴿ [القمر : 24-25] .

قَالُوا : ﴿ وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء : 53] .

يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتِكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يُعْبَدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ

[الرشيد] [هود : 87] .

وَقَالُوا لَهُ : يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقْتَ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا

[عزير] [هود : 91] .

وَإِنِ الْيَأْسَ لَمَنِ الْمُرْسَلِينَ . إِذِ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنِّي لَا تَتَّقُونَ . أَتَدْعُونَ بَعْثًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ . اللَّهُ رَبُّكُمْ

وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ . فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ مُحْضَرُونَ . إِنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ . وَتَرَكَآ عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ .

سَلَامٌ عَلَيَّ إِيَّا يَاسِينَ . أَنَا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . أَنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿

نَسْتَطِيعُ أَنْ نَلْخَصَ مَوْقِفَ الشُّعُوبِ الْمُشْرِكَةِ مِنْ رُسُلَهَا بِمَا يَلِي :

أولاً : أَنَّ أَكْثَرَ الْأَنْبِيَاءِ كَانُوا فُقَرَاءَ وَقَدْ ائْتَفَ حَوْلَهُمُ الطَّبَقَةُ الْفَقِيرَةُ الْأَمْرُ الَّذِي جَعَلَ الْأَغْنِيَاءَ الْمُشْرِكِينَ

يَخَافُونَ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَنُفُوذِهِمْ حَيْثُ اَعْتَبَرُوا هَذَا التَّجْمَعُ الْإِيمَانِي طَامِعًا بِشِرَاوَتِهِمْ .

ثانياً : كَانُوا لَا يَحْكُمُونَ عُقُولَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ فَهَمْ يَحْتَرُونَ فِي عَقْلِهِمُ الْبَاطِنِي قِصَصَ وَحِكَايَاتِ آبَاءِهِمْ

وَعَادَاتِهِمْ فَالْأَنْبِيَاءُ دَعَتْهُمْ إِلَى بَدَلِ هَذَا الْمُعْتَقَدِ الْمُتَوَارَثِ الَّذِي يَقُومُ عَلَى عِبَادَةِ الْأَلِهَةِ الَّتِي لَا تَنْصُرُ وَلَا تَنْفَعُ

ثالثاً : أَنَّ أَكْثَرَ مَا كَانَ يَضَائِقُهُمْ وَيُخَيِّفُهُمْ هُوَ أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ فِيهِ التَّدْخُلُ بِسُلُوكِ حَيَاتِهِمُ الْقَائِمِ عَلَى اللَّهْوِ

وَالْمُوبِقَاتِ وَشُرْبِ الْخَمْرِ وَجَمْعِ النِّسَاءِ وَالْأَمْوَالِ وَتَسْتَحِيلُ أَنْ يَتَخَلَّوْا عَنْ كُلِّ ذَلِكَ مُقَابِلَ وَعُودِ الْأَنْبِيَاءِ لَهُمْ

بِحَيَاةٍ سَعِيدَةٍ أَبَدِيَّةٍ .

أَمَّا الْإِجَابَةُ عَلَى تَسَاؤِلِنَا الثَّانِي : وَهَلِ الْعَقْلُ الْبَشَرِيُّ الَّذِي خَلَقَ لِلتَّحَلُّمِ وَالنَّظَرِ
وَالتَّفَكِيرِ وَالِاسْتِنْتِاجِ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى الْوُصُولِ إِلَى فِتْنَاعَةٍ تَامَةٍ فِي هَذَا الْأَمْرِ وَإِذَا كَانَ
الْبَشَرُ مَفْطُورُونَ عَلَى فِطْرِهِ تَقْبَلُ وَجُودَ اللَّهِ فَلِمَاذَا يُخَالِفُونَ هَذِهِ الْفِطْرَةَ ؟

وَقَدْ عَزَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ سَبَبَ ذَلِكَ إِلَى الْإِنكَارِ وَالتَّكْبِيرِ وَالعِنَادِ ، فَقَالَ : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ
هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ * فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ بِبَشَرَيْنِ
مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ * ﴾ [المؤمنون : 45 47] . وَأَوْضَحَ ذَلِكَ أَكْثَرَ فَقَالَ : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا
وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل : 14] .

لَا شَكَّ أَنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَ مَسْأَلَةَ الْإِيمَانِ بِهِ مَسْأَلَةً فِطْرِيَّةً وَلَيْسَ هُنَاكَ أَيُّ تَبْدِيلٍ قَدْ طَرَأَ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ
﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : 30]

لَقَدْ وَضَعَ اللَّهُ فِطْرَةَ الْإِيمَانِ وَغَيْرِهَا مِنْ الْمِثْلِ كَحُبِّ الْخَيْرِ وَالصَّدَقِ وَمُسَاعَدَةِ الْآخِرِينَ فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ
أَيُّ فِي الْعَقْلِ الْمَوْجُودِ فِي الْقَلْبِ وَلَكِنَّ الَّذِي حَدَّثَ أَنَّ الْإِنْسَانَ ابْنُ مُجْتَمَعَةٍ وَعَادَاتِهِ وَتَقَالِيدِهِ وَعَقَائِدِهِ
كُلُّ هَذَا يُشَوِّشُ الْفِطْرَةَ الطَّبِيعِيَّةَ وَيَصِلُ بِهِمُ الْأَمْرَ إِلَى طَمْسِهَا وَاقْتِلَاعِهَا وَلَمْ يَبْقَ فِيهَا أَيُّ أَثَرٍ لِلْإِيمَانِ بِاللَّهِ
أَوْ أَيِّ قِيَمٍ نَبِيْلَةٍ أُخْرِي وَالتَّصَّ الْقُرْآنِيُّ هُنَا يَسْتُخْدِمُ تَعْبِيرًا مُعَبَّرًا جَدًّا عَنْ هَذِهِ الْحَالَةِ فَيَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى :

﴿ حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : 7]

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ

نَصْرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام : 46]

فَالْخِمْ رَبَّانِي هُنَا يَعْنِي إِغْلَاقَ الْمُنْبَعِ وَالْمُسْتَوْدَعِ الَّذِي فِيهِ الْفِطْرَةُ وَفِيهِ كُلُّ الْقِيَمِ الْأُخْرَى فَيَتَحَوَّلُ
أَصْحَابِهِ مِنَ الصَّنْفِ الْبَشَرِيِّ إِلَى أَدْنَى مِنَ الْحَيَوَانِيِّ فِي تَرْتِيبِ الضَّلَالَةِ :

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان : 44]

أَنَّ الْكُفْرَ وَالْإِلْحَادَ هُمَا الْمُصِيبَةُ الْكُبْرَى الَّتِي وَقَعَ وَتَقَعُ فِيهَا الْعَقْلُ الْبَشَرِيُّ أَنَّ الَّذِي خَلَقَ هَذَا الْعَقْلَ يُعْلَمُ
أَنَّهُ لَا يُلْقَى أَيْ صُعُوبَةً فِي الْوُصُولِ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ إِذَا نَمَا بَذَرُهُ الْإِيمَانِ وَالْخَيْرِ وَسَقَاهُمَا فِي قَلْبِهِ بِمَعْنَى
آخِرٍ إِذَا تَرَكَ لِقَلْبِهِ أَخَذَ الْقَرَارَ فِي هَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ وَيَقْطَعُ عِنْدَهَا الشَّكَّ الْعَقْلِيَّ
بِالْيَقِينِ الْقَلْبِيِّ .

لِأَنَّ الشَّكَّ هُوَ تِلْكَ الْعَقَبَةُ الَّتِي تَمْنَعُ الْإِنْسَانَ مِنْ مُمَارَسَةِ حَيَاتِهِ بِشَكْلِ طَبِيعِيٍّ ، إِذْ يَنْدَرِجُ تَحْتَ هَذَا
التَّعْرِيفِ الْعَدِيدِ مِنَ الْمُسَمِّيَّاتِ ، وَمِنْهَا عَدَمُ الثِّقَةِ بِالنَّفْسِ وَالْحَجَلُ وَالْقَلْقُ وَالتَّرَدُّدُ .

وَالشَّكُّ بِالتَّعْرِيفِ الْفُلْسُفِيِّ كَمَا عَرَفَهُ الْجُرْجَانِيُّ : هُوَ التَّرَدُّدُ بَيْنَ التَّقْيِضَيْنِ بَلَّا تَرْجِيحٍ لِأَحَدِهِمَا عَلَى
الْآخَرِ ، وَالشَّكُّ فِي عِلْمِ النَّفْسِ : هُوَ التَّرَدُّدُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ تَدْخُلُ فِيهِ النَّفْسُ فِي حَيْثَرِهِ مَا بَيْنَ الصِّدْقِ
وَالْكَذِبِ ، وَبِهِ يَسِيرُ الْإِنْسَانُ فِي طَرِيقِ مُظْلَمٍ ، يَنْتَهِي بِهِ الْحَالُ إِلَى الْوَسْوَاسِ وَأَحْيَانًا إِلَى الْمَرَضِ النَّفْسِيِّ
كَالْوَسْوَاسِ الْقَهْرِيِّ وَالْفِصَامِ ، وَبَارَانِيَا الْاضْطِهَادِ .

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ [الدخان : 9]

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ

الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : IO4]

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم : IO]

قَضِيَّةَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ مَفْرُوعٌ مِنْ أَمْرِهَا عِنْدَ الْأَنْبِيَاءِ لِذَلِكَ يَرُونَ أَنَّ الشَّكَّ فِيهَا مُجَرَّدُ الشَّكِّ

أَمْرٌ لَا يَقْبَلُهُ عَقْلٌ وَمَنْطِقٌ وَكُلُّ مَا حَوْلَنَا شَاهِدٌ وَشَهِيدٌ عَلَى اللَّهِ .

الْأَدَلَّةُ عَلَى وُجُودِ اللَّهِ

رَغِمَ أَنَّهُ لَا تَوْجِدُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَنَاقِشَةً صَرِيحَةً لِمَنْكَرِي الْخَالِقِ إِلَّا أَنَّ الْإِيمَانَ بِوُجُودِ خَالِقٍ لِهَذَا الْكَوْنِ قَضِيَّةٌ ضَرُورِيَّةٌ لَا مَسَاحَ لَلْعَقْلِ فِي إِنْكَارِهَا ، فَهِيَ لَيْسَتْ قَضِيَّةً نَظَرِيَّةً تَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ وَبُرْهَانٍ ، ذَلِكَ لِأَنَّ دَلَالََةَ الْأَثْرِ عَلَى الْمَوْثَرِ يَدْرِكُهَا الْعَقْلُ بَدَاهَةً ، وَالْعَقْلُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَصَوَّرَ أَثْرًا مِنْ غَيْرِ مَوْثَرٍ ، أَيُّ أَثْرِ وَلَوْ كَانَ أَثْرًا تَافَهُ ، فَكَيْفَ بِهَذَا الْكَوْنِ الْعَظِيمِ ؟ ! وَلِذَلِكَ لَمْ يَنَاقِشِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ حَتَّى

حِينَمَا أوردَ إِنْكَارَ فِرْعَوْنَ لربِّ الْعَالَمِينَ ، يُؤْمَرُ أَنْ قَالَ : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ * [الشعراء : 23]

﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص : 38] ﴿ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَنْلَعُ الْأَسْبَابَ ﴾ *
 أُسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَاطَّلَعَ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَإِنِّي لِأُظَنُّهُ كَاذِبًا ﴾ [القصص : 35-36] فكان مُوسَى عَلَيْهِ
 السَّلَامُ لَا يَعيُرُ اهْتِمَامًا لِهَذِهِ الْإِنكَارَاتِ ، وَتَعَامَلَ مَعَ فِرْعَوْنَ عَلَى أُسَاسٍ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ بِوُجُودِ الْخَالِقِ ، فَتَرَاهُ
 يَقُولُ لَهُ مِثْلًا : ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لِأَخُذُكُمْ بِفِرْعَوْنَ
 مُثْبُورًا ﴾ * [الإسراء : IO2] .

وَقَدْ عَزَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هَذَا الْإِنكَارَ وَالتَّكْبِيرَ وَالْعِنَادَ ، فَقَالَ : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا
 وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴾ * فَقَالُوا أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا
 عَابِدُونَ ﴾ * [المؤمنون : 45 - 47] . وَأَوْضَحَ ذَلِكَ أَكْثَرَ فَقَالَ : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا
 أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل : I4] . إِنَّ الْبَيْتَةَ الَّتِي أَنْزَلَ فِيهَا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ كَانَتْ وَثِيَّةً فِي الْغَالِبِ ،
 وَكُتَابِيَّةً فِي بَعْضِ الْقُرَى ، أَوْ بَعْضِ الْأَشْخَاصِ ، وَالتَّكَايُوبِ لَا يُنْكِرُونَ الْخَالِقَ ، وَأَمَّا الْوَثِيئُونَ فَمَعَ
 عِبَادَتِهِمُ لِلْأَوْثَانِ إِلَّا أَنَّهُمْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالْخَالِقِ سُبْحَانَهُ ، وَسَجَّلَ الْقُرْآنُ هَذَا لَهُمْ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ ، قَالَ
 تَعَالَى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [لقمان : 25] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا
 غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [لقمان : 32] وَهَذَا لَمْ يَحْتَجِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَنْ يَفْتَحَ
 الْمَوْضُوعَ مَعَ هَؤُلَاءِ النَّاسِ .

بَلْ حَتَّى خَارِجَ هَذِهِ الْبَيْتَةِ لَمْ يُعْرِفْ هُنَاكَ مِنْكَرًا لِلْخَالِقِ ، يَقُولُ الشَّهْرِسْتَانِي : أَمَا تَعْطِيلُ الْعَالِمِ عَنْ
 الصَّانِعِ الْعَلِيمِ الْقَادِرِ الْحَكِيمِ فَلَسْتُ أَرَاهَا مَقَالَةً لِأَحَدٍ ، وَلَا أَعْرِفُ عَلَيْهَا صَاحِبَ مَقَالَةٍ ، إِلَّا مَا تُقَلَّ عَنْ
 شِرْذِمَةٍ قَلِيلَةٍ مِنَ الدَّهْرِيَّةِ ، وَلَسْتُ أَرَى صَاحِبَ هَذِهِ الْمَقَالَةِ تَمَنِّي بِمَنْكَرِ الصَّانِعِ ، بَلْ هُوَ مُعْتَرِفٌ بِالصَّانِعِ ،

فَمَا عُدَّتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مِنَ النَّظَرِيَّاتِ الَّتِي قَامَ عَلَيْهَا دَلِيلٌ . وَمَعَ خُلُوعِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ مَنَاقِشَةٍ صَرِيحَةٍ
 لِمُنْكَرِي الْخَالِقِ ، إِلَّا أَنَّهُ تَضَمَّنَ أُدْلَةً كَثِيرَةً لِإِثْبَاتِ وُجُودِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ جَاءَتْ فِي الْغَالِبِ لِإِثْبَاتِ مَسَائِلَ
 أُخْرَى : كَالْوَحْدَانِيَّةِ ، وَالنَّبُوءَةِ ، وَالْبَعْثِ . وَمِنْ هَذِهِ الْأَدِلَّةِ الَّتِي ذُكِرَتْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ :

أولاً - دليلاً الخلق :

لَقَدْ تَنَاوَلَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ قَضِيَّةَ الْخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ تَنَاوُلًا فَرِيدًا ، وَعُغِي بِتَوْجِيهِ الْعُقُولِ إِلَى النَّظَرِ فِي أَفَاقِ
 الْكُونِ وَآيَاتِ اللَّهِ الْكَثِيرَةِ ، وَأَهَابَ بِالْعَقْلِ أَنْ يَسْتَيْقِظَ مِنْ سُبَاتِهِ ، لِيَتَفَكَّرَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
 ، وَمَا أودَعَ فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ .

وِخْلَاصَةُ هَذَا الدَّلِيلِ : أَنَّ هَذَا الْخَلْقَ بِكُلِّ مَا فِيهِ شَاهِدٌ عَلَى وُجُودِ خَالِقِهِ الْعَلِيِّ الْقُدِيرِ سُبْحَانَهُ ، قَالَ
 تَعَالَى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْفَنُونَ * ﴿
 [الطور : 35-36] يَقُولُ لَهُمْ : أَنْتُمْ مُوجِدُونَ ، هَذِهِ حَقِيقَةٌ لَا تُشْكِرُونَهَا ، وَكَذَلِكَ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ
 مُوجِدَاتَانِ ، وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي بَدَاهَةِ الْعُقُولِ أَنَّ الْمَوْجُودَ لَا يَدَّ مِنْ سَبَبٍ لَوْجُودِهِ . وَهَذَا يَدْرِكُهُ رَاعِي الْإِبِلِ
 فَيَقُولُ : الْبَعْرَةُ تَدُلُّ عَلَى الْبَعِيرِ ، وَالْأَثَرُ يَدُلُّ عَلَى الْمَسِيرِ ، فَسَمَاءُ ذَاتِ أَبْرَاجٍ ، وَأَرْضُ ذَاتِ فِجَاجٍ ، أَفَلَا
 يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ .

وَيُذَرِّكُهُ كِبَارُ الْعُلَمَاءِ الْبَاحِثِينَ فِي الْحَيَاةِ وَالْإِحْيَاءِ ، يَقُولُ أَحَدُهُمْ : إِنَّ اللَّهَ الْأَزَلِيَّ الْكَبِيرَ ، الْعَالَمَ بِكُلِّ
 شَيْءٍ ، وَالْمُقَدَّرَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، قَدْ تَجَلَّى لِي بِبِدَائِعِ صَنْعِهِ ، حَتَّى صِرْتُ دَهْشًا مَتَحِيرًا ، فَأَيُّ
 قُدْرَةٍ ، وَأَيُّ حِكْمَةٍ ، وَأَيُّ إِبْدَاعٍ أَوْدَعَهُ مَصْنُوعَاتِ يَدِهِ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ؟ ! وَهَذَا الَّذِي أَشَارْتُ إِلَيْهِ
 الْآيَةُ هُوَ الَّذِي يُعْرَفُ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ بِاسْمِ : قَانُونِ السَّبَبِيَّةِ ، هَذَا الْقَانُونُ يَقُولُ : إِنَّ شَيْئًا مِنْ « الْمُمْكِنَاتِ

« لا يحدث بنفسه من غير شيء ، لأنه لا يحمل في طبيعته السبب الكافي لوجوده ، ولا يستقل بإحداث شيء ، لأنه لا يستطيع أن يمنح غيره شيئاً لا يملكه هو . وبهذا الدليل كان علماء الإسلام ولا يزالون يواجهون الجاحدين .

فهذا الإمام أبو حنيفة رحمه الله يعرض له بعض الزنادقة المنكرين للخالق ، فيقول لهم : ما تقولون في رجل يقول لكم : رأيت سفينة مشحونة بالأحمال ، مملوءة من الأنفال ، قد احتوشتها في لجة البحر أمواج مئاطمة ، ورياح مخلقة ، وهي من بينها تجري مستوية ، ليس لها ملاح يجريها ، ولا متعهد يدفعها ، هل يجوز ذلك في العقل ؟ قالوا : هذا شيء لا يقبله العقل . فقال أبو حنيفة : يا سبحان الله ! إذا لم يجوز في العقل سفينة تجري في البحر مستوية من غير متعهد ولا ماجر ، فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها ، وتغير أعمالها ، وسعة أطرافها ، وتباين أكنافها ، من غير صانع ولا حافظ ؟ ! فبكوا جميعاً ، وقالوا : صدقت وتابوا . هذا القانون الذي سلمت به العقول ، وأنقادت له ، هو الذي تشير إليه الآية الكريمة : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ * وهو دليل يرغم العقلاء على التسليم بأن هناك خالقاً معبوداً ، إلا أن الآية صاغته صياغةً بليغة مؤثرة ، فلا تكاد الآية تمس السمع حتى تزلزل النفس وتهزها .

لقد تناول القرآن الكريم قضية الخلق والتدبير تناولاً فريداً ، وعني بتوجيه العقول إلى النظر في افاق الكون وآيات الله الكثيرة ، وأهاب بالعقل أن يستيقظ من سباته ، ليتفكر في ملكوت السماوات والأرض ، وما أودع فيها من الآيات . ويكرر القرآن الكريم ذلك في أساليب متنوعة ، ليرى هذا الإنسان ويسمع في افاق

الكون ما يقوده إلى الإيمان بحالقه سبحانه وتعالى، ويعلم أن هذا الكون هو من صنع الله الخالق المدبر، المستحق للعبادة وحده لا شريك له .

ثانياً – دليل الفطرة والعهد:

إن معرفة الخالق، والإقرار بوجوده تبارك وتعالى وربوبيته أمرٌ بديهي مغروسٌ في نفوس الناس وفطرتهم، إذ لو ترك الإنسان في مكانٍ خالٍ لا يوجد فيه أحدٌ، بعيداً عن كل المؤثرات الخارجية، وعن كل الشوائب العقدية، لاستطاع بفطرته أن يعرف أن لهذا الكون خالقاً مدبراً ومتصرفاً، ثم بفطرته يتوجه بحبه خالقه . ومن هنا نعلم أن من أنكر وجود الخالق جلَّ جلاله من الملحدين، إنما أتوا من انحراف فطرتهم، ومن تأثير الشياطين عليهم، وتلاعبهم بهم . ودليل الفطرة هذا دلٌّ عليه القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: 30] . فالمقصود بالفطرة هنا الإسلام، فالله جل جلاله فطر الناس على دين الإسلام والتوحيد . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟ »

ومن أجل أهمية الفطرة في دلالة الناس على ربهم، وتعريفهم به، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أصبح أو أمسى يقرُّ أنه يُصبحُ ويُمسي على هذه الفطرة فطرة الإسلام، وأنها لم تتأثر بالمؤثرات والعوارض الخارجية، من نزعات الشياطين ووساوسهم، فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول إذا أصبح وإذا أمسى: «أصبحنا (أو أمسينا) على فطرة الإسلام، وعلى كلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا

محمّد صلى الله عليه وسلم، وعلى ملة أبينا إبراهيم، حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين». فقد أكد على سلامة الفطرة من الانحراف بقوله: «وعلى كلمة الإخلاص» وهي شهادة أن لا إله إلا الله. وبقوله: «وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم» وهو الدين الإسلامي، وبقوله: «وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً» أي مائلاً عن كل ما يخالف هذه الفطرة من الأديان والعقائد الفاسدة، التي تنكر الرب سبحانه وتعالى، أو تزعم أن معه شريكاً في ملكه أو عبوديته إلى الإسلام الخالص، فإذا حقق توحيد الألوهية (توحيد العبادة) كان توحيد الربوبية محققاً، لأن توحيد الألوهية (توحيد العبادة) يتضمّن توحيد الربوبية، وبذلك تكون الفطرة قد دلت على توحيد الربوبية.

وهذه الفطرة التي فطر الله عليها عباده لها صلة وارتباط وثيق بالعهد الذي أخذه سبحانه وتعالى على بني آدم، وهم في عالم الذر، كما أشار الله بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنَّا نَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ *﴾ [الاعراف: 172-173]

فهذا العهد والميثاق الذي أخذه الله جل جلاله على الناس، مضمونه الاعتراف والإقرار بربوبيته، وأشهدهم على أنفسهم فشهدوا. فمن الناس من حافظ على ذلك العهد، وقام بمقتضاه ولازمه، من عبادة ربه وحده لا شريك له، وتوحيده. وصدق رسل الله، وآمن بهم، وبما جاؤوا به. ومن الناس من تعيّر فطرته وانحرفت، فنسي ما شهد عليه، وما جُبل عليه، من الإقرار بربوبية الله عز وجل، فوقع في الكفر والإلحاد، مع أن الله سبحانه لم يترك عباده سدى، بل أرسل لهم الرسل، وأنزل معهم الكتب، ليذكروا الناس بهذا الإشهاد. وهذا العهد والميثاق.

ثالثاً - دليل الآفاق:

قال تعالى: ﴿سُنُّرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَّلَمَ يَكْفُرُ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ *﴾ [فصلت: 53]. فقلوه: ﴿سُنُّرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ أي: علامات وحدانيتنا وقدرتنا، وقوله (في الآفاق) يعني أقطار السماوات والأرض: من الشمس، والقمر، والنجوم، والليل، والنهار، والرياح، والأمطار، والرعد، والبرق، والصواعق، والنبات، وغير ذلك مما فيها من عجائب خلق الله. وفي حديث العلماء عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ما يدل على آيات الله في الآفاق، والتي منها:

1- نقص الأوكسجين في الارتفاعات:

قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ *﴾ [الانعام: 125] تنص هذه الآية الكريمة على الإنسان عندما يصعد في السماء. أي يرتفع في أعالي الجو. يضيق صدره، ويشعر بالاختناق، وهذه حقيقة علمية سببها أن نسبة الأوكسجين تقل كلما ارتفعنا إلى أعلى، كما يقل الضغط الجوي، وهذان السببان يجعلان الإنسان يشعر بضيق النفس.

2- حركة النجوم والكواكب في مداراتها:

كان الناس يرون أن الأرض مركز الكون، ويدور حولها الشمس والقمر والنجوم السيارة، ويرون نجوماً ثابتة طوال السنة، فيصفونها بالثبات، ثم حدث في عصر (غاليليو) رأيي يعتبر أن الأرض هي التي تدور حول الشمس، وأن الشمس هي مركز الكون. أما القرآن الكريم فقد رفض قبل ذلك جميع الآراء التي

تَزْعُمُ أَنَّ لِلْكَوْنِ مَرْكَزًا ثَابِتًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكُلٌّ فِيهِ فَلَكَ يُسْبِحُونَ﴾ * [يس: 40] وَكَانَ ذَلِكَ فِي عَصْرِهِ سَبْقُ عِلْمِي. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ * [الواقعة: 75-76]. فَقَدْ وَجَدَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ مَوَاقِعَ النُّجُومِ وَمَسَارَاتِهَا لَيْسَتْ اِعْتِبَاطِيَّةً، فَالْكَوْكَبُ وُضِعَ فِي مَسَارٍ مَجِيثٍ لَا تُؤَدِّي قُوَى التَّجَاذِبِ الْكَوْتِيَّةِ الْكَثِيرَةَ وَالْقُوَى النَابِذَةِ النَاشِئَةَ عَنِ الدُّورَانِ إِلَى اِضْطِرَابٍ كَوْنِي، وَلَقَدْ اخْتَبَرَ لَهُ الْمَسَارُ الَّذِي يَحْتَقِقُ لَهُ التَّوَاظِنَ بَيْنَ تِلْكَ الْقُوَى الْكَثِيرَةِ. وَوَجَدَ الْعُلَمَاءُ أَيْضًا أَنَّ أَبْعَادَ الْجُمُوعَةِ الشَّمْسِيَّةِ تَتَّبِعُ سَلْسَلَةً حِسَابِيَّةً، وَأَنِّي لِلْعَرَبِيِّ الْجَاهِلِيِّ الَّذِي كَانَ يَرَى النُّجُومَ مَبْعَثَةً فِي صَفْحَةِ السَّمَاءِ أَنْ يَعْرِفَ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ أَنَّ لِمَوَاقِعِهَا شَأْنًا عَظِيمًا.

3- دوران الأرض والجبال:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ * [النمل: 88] لَقَدْ كَانَ النَّاسُ قَدِيمًا يَرُونَ أَنَّ الْأَرْضَ وَجِبَالَهَا ثَابِتَةٌ، بَلْ يَضْرِبُونَ الْمَثَلَ بِثَبَاتِهَا، فَجَاءَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمَ لِيُخَالِفَ مَا أَلْفَهُ النَّاسُ، وَاسْتَقَرَّ فِي أَذْهَانِهِمْ، وَتَحَدَّثَ عَنِ ظَاهِرَةِ كَوْنِيَّةِ، فَقَالَ عَنِ الْجِبَالِ: إِنَّهَا تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ، أَيْ إِنَّ الْجِبَالَ كَالسَّحَابِ، فَكَمَا أَنَّ السَّحَابَ لَا يَتَحَرَّكُ ذَاتِيًّا إِلَّا إِذَا كَانَ هُنَاكَ شَيْءٌ يَدْفَعُهُ إِلَى التَّحْرُكِ، وَالَّذِي يَحْرُكُ السَّحَابَ وَيَدْفَعُهُ هِيَ الرِّيحُ، فَكَذَلِكَ الْجِبَالُ لَا تَتَحَرَّكُ بِنَفْسِهَا، لِأَنَّهَا أَوْتَادُ الْأَرْضِ، وَلَكِنْ تَتَحَرَّكُ، وَحَرَكَتُهَا تَابِعَةٌ لِحَرَكَةِ الْأَرْضِ، فَالْأَرْضُ تَتَحَرَّكُ وَتَدُورُ، وَإِلَّا فَكَيْفَ تَتَحَرَّكُ الْجِبَالُ، وَتَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ، وَهَذَا مِنْ صُنْعِ اللَّهِ الَّذِي أَنْتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ، حِينَئِذٍ يَكُونُ هُنَاكَ يَقِينٌ ثَابِتٌ.

4- حاجز بين بحرين مالحين:

قال تعالى: ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبُّكُمَا تُكذَّبَانِ يُخْرَجُ مِنْهُمَا اللَّوْؤُ

الْمَرْجَانُ * ﴿ [الرحمن: 19-22]. تتحدّث الآيات الكريمة عن مجرىين يتلاقيان، وفي مكان تلاقيهما

يوجدُ حاجزٌ، والظاهر أنها تتحدّث عن مجرىين حقيقيين مالحين، وليس عن بحرٍ ونهرٍ، لأنّه قال: والمرجان

﴿ يُخْرَجُ مِنْهُمَا اللَّوْؤُ وَالْمَرْجَانُ * ﴾ وهو الخرز الأحمر. لا يخرج إلا من المياه المالحة، فالآية الكريمة إذاً

تحدّث عن حاجزٍ حقيقي بين مجرىين مالحين في مكان تلاقيهما، والبحران يتلاقيان في المضائق، لأنّه، إن لم

يكن هناك مضيقٌ، فليس من مسوغٍ لاعتبارهما مجرىين، بل يكونان مجراً واحداً، إنّ هذا الذي أثبتته الآية

الكريمة مستغربٌ جداً في عرف الناس، إذ الانطباع السائد أنّ المياه المتلاقية لا حواجز بينهما، وما كان

أحد يعرف هذه الحقيقة، ولا تخطر له على بالٍ، إلى أن اكتشفت عام 1962م، وثبت أنّ ما قاله القرآن

الكريم حقيقةٌ مدهشةٌ.

5- اهتزاز الأرض وزيادتها بالمطر:

العلم يؤكّد أنّ الأرض تهتزُّ فعلاً بنزول الغيث عليها، فالحبوبُ والبصيلاتُ والدّرناثُ والحويصلاتُ

والبكتيرية والجراثيمُ كلّها تبدأ بالحركة والانقسامات الخلوية، وامتصاص الماء، وتحليل الغذاء المعقّد إلى

وحدات أقل ارتباطاً، وأكثر عدداً

إن العلم يؤكّد أنّ الأرض تهتزُّ فعلاً بنزول الغيث عليها، فالحبوبُ والبصيلاتُ والدّرناثُ والحويصلاتُ

والبكتيرية والجراثيمُ كلّها تبدأ بالحركة والانقسامات الخلوية، وامتصاص الماء، وتحليل الغذاء المعقّد إلى

وحدات أقل ارتباطاً، وأكثر عدداً، وأكبر حجماً، وبامتلاء مسام الأرض بالماء تتحرّك جزيئات الطين،

وتبدأ عملية تأينٍ عجيبةٍ في جزيئات التربة، وتنشط الديدان الأرضية في شقّ الأنفاق الأرضية، وابتلاع

كميات كبيرة من التربة المتلاصقة، وإخراجها بعد ذلك مفككة، كل هذه النشاطات تؤدي إلى زيادة حجم التربة، ويمكننا رؤية صورة مصغرة لهذه العمليات بتخمير العجين، وزيادة حجمه، نتيجة نشاط خلايا الخمائر، وفي التربة تحدث ضروب كثيرة لمثل هذا النشاط، من كل ما سبق نجد التوافق بين ما عرفه العلم وما وصفه القرآن الكريم.

6- أوهن البيوت:

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعُنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بُيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعُنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 41] إِنَّ قَوْلَهُ سَبْحَانَهُ: وقوله بعد ذلك: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ * وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ * [العنكبوت: 43] يشير إلى أَنَّ وَهْنَ بَيْتِ الْعُنكَبُوتِ الْمَتَحَدِّثِ عَنْهُ وَهْنٌ غَيْرُ ظَاهِرٍ وَلَا مَعْرُوفٍ لَدَى عَامَةِ النَّاسِ، وَقَدْ ضُرِبَ هَذَا الْوَهْنُ مَثَلًا لِمَوْلَاةِ الْكَافِرِينَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، فَمَاذَا وَجَدَ الْعُلَمَاءُ عِنْدَ دَرَاةِ الْعُنكَبُوتِ؟ وَجَدُوا أَنَّ الرُّوَابِطَ بَيْنَ أَفْرَادِ الْعُنكَبُوتِ فِي غَايَةِ التَّمَكُّكِ، فَالْأَثَى كَثِيرًا مَا تَأْكُلُ الذِّكْرَ بَعْدَ الْإِلْقَاحِ، وَقَدْ تَأْكُلُ أَبْنَاءُهَا، وَالْأَبْنَاءُ يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَهُوَ بَيْتٌ مَتَمَكِّكٌ مَتَدَاعٍ، وَذَلِكَ مَثَلُ مَوْلَاةِ الْكَافِرِينَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

النصوص التي تدل على وجود الله تعالى الشرع والفطرة والعقل.

فَأَمَّا أَدَلَّةُ الشَّرْعِ فَكَثِيرَةٌ؛ مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 54].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: 3].

وَأَمَّا دَلَالَةُ الْفِطْرَةِ عَلَى وُجُودِ اللَّهِ تَعَالَى: فَهِيَ الْاِفْتِقَارُ الذَّاتِيُّ الْمَوْجُودُ دَاخِلُ نَفْسِ كُلِّ إِنْسَانٍ؛ وَيُظْهِرُ ذَلِكَ عِنْدَ الْاِبْتِلَاءِ وَالشَّدَائِدِ؛ حَيْثُ يَلْجَأُ الْإِنْسَانُ عِنْدَ الْمَصَائِبِ وَالْمَخَاطِرِ إِلَى نِدَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالِاسْتِغَاثَةِ بِهِ كَأَنَّ مَنْ كَانَ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ مُؤْمِنًا أَوْ غَيْرَ مُؤْمِنٍ.

فَفِي الشَّدَةِ تَبْدُو فِطْرَةُ النَّاسِ جَمِيعًا كَمَا هِيَ فِي أَصْلِهَا الَّذِي خَلَقَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ، وَعِنْدَمَا تَمُرُّ الْمِحْنَةُ، وَتَأْتِي الْعَاقِبَةُ وَالنِّعْمَةُ، يَعُودُونَ إِلَى مُخَالَفَةِ فِطْرَتِهِمْ مَرَّةً أُخْرَى، وَقَدْ كَرَّرَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرًا فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ؛ مِنْ ذَلِكَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: 67].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 12].

وَأَمَّا دَلَالَةُ الْعَقْلِ عَلَى وُجُودِ اللَّهِ تَعَالَى: فَلِأَنَّ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ - سَابِقُهَا وَوَلَا حَقُّهَا - لَا بُدَّ لَهَا مِنْ خَالِقٍ أَوْجَدَهَا؛ إِذْ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُوجَدَ نَفْسُهَا بِنَفْسِهَا، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تُوجَدَ صُدُقَةٌ.

فَهِيَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُوجَدَ نَفْسُهَا بِنَفْسِهَا؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ لَا يَخْلُقُ نَفْسَهُ؛ لِأَنَّهُ قَبْلَ وُجُودِهِ كَانَ عَدَمًا؛ فَكَيْفَ يَكُونُ خَالِقًا؟!

وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تُوجَدَ صُدْفَةٌ؛ لِأَنَّ كُلَّ حَادِثٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُحَدِّثٍ، وَلِأَنَّ وُجُودَهَا عَلَى هَذَا التَّنَظَامِ الْبَدِيعِ
 الْمُحَكَّمِ، وَالتَّنَاسُقِ الْمُتَالِفِ، وَالرِّبَاطِ الْمُتَلَحِّمِ بَيْنَ الْأَسْبَابِ وَمُسَبَّبَاتِهَا، وَبَيْنَ الْكَائِنَاتِ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ
 يَمْنَعُ مَنَعًا بَاتًا أَنْ يَكُونَ وُجُودُهَا صُدْفَةً.

وَإِذَا لَمْ يُمَكِّنْ أَنْ تُوجَدَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتُ نَفْسَهَا بِنَفْسِهَا، وَلَا أَنْ تُوجَدَ صُدْفَةً، تَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ لَهَا مُوجِدٌ؛
 وَهُوَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الدَّلِيلَ الْعَقْلِيَّ وَالْبُرْهَانَ الْقَطْعِيَّ فِي سُورَةِ الطُّورِ؛ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى ﴿أَمْ خُلِقُوا
 مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: 35]؛ يَعْنِي أَنَّهُمْ لَمْ يَخْلُقُوا مِنْ غَيْرِ خَالِقٍ أَوْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ آخَرَ
 وَلَيْسَ لَهُمْ أَيْدٍ دَلِيلٌ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا هُمْ الَّذِينَ خَلَقُوا أَنْفُسَهُمْ؛ فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ خَالِقُهُمْ هُوَ اللَّهُ تَبَارَكَ
 وَتَعَالَى؛ وَلِهَذَا لَمَّا سَمِعَ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ سُورَةَ الطُّورِ
 قَبَّلَ هَذِهِ آيَاتِ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَّا
 يُوقِنُونَ (36) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ﴾ [الطور: 35 - 37]، وَكَانَ جُبَيْرٌ يَوْمَئِذٍ مُشْرِكًا،
 قَالَ: "كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ، وَذَلِكَ أَوَّلَ مَا وَقَرَ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِي".

وَلْتَضَرْبُ مَثَلًا يُوَضِّحُ ذَلِكَ: فَإِنَّهُ لَوْ حَدَّثَكَ شَخْصٌ عَنْ قَصْرِ مَشِيدٍ، أَحَاطَتْ بِهِ الْحَدَائِقُ، وَجَرَتْ بَيْنَهَا
 الْأَنْهَارُ، وَمُلِئَتْ بِالْفُرُشِ وَالْأَسِرَّةِ، وَزِينِ بَاتُوعِ الزَّيْنَةِ، وَقَالَ لَكَ: إِنَّ هَذَا الْقَصْرَ قَدْ أُوجِدَ نَفْسُهُ، أَوْ وُجِدَ
 هَكَذَا صُدْفَةً بِدُونِ مُوجِدٍ، لَبَادَرْتَ إِلَى إِنْكَارِ ذَلِكَ وَتَكْذِيبِهِ، وَعَدَدْتَ حَدِيثَهُ سَفَهًا مِنَ الْقَوْلِ؛ أَفَيَجُوزُ
 بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْكَوْنُ الْوَاسِعُ بِأَرْضِهِ وَسَمَائِهِ وَأَفْلَاكِهِ الْبَدِيعِ الْبَاهِرِ الْمُحَكَّمِ الْمُتَقَنَّ قَدْ أُوجِدَ
 نَفْسُهُ، أَوْ وُجِدَ صُدْفَةً بِدُونِ مُوجِدٍ؟!

وَقَدْ فَهَمَ هَذَا الدَّلِيلَ العُقْلِيَّ اَعْرَابِيَّ يَعِيشُ فِي البَادِيَةِ؛ فَلَمَّا سُئِلَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: اَلْبَعْرَةُ تَدُلُّ عَلَيَّ
اَلْبَعِيرِ، وَالاَثَرُ يَدُلُّ عَلَيَّ الْمَسِيرِ، فَسَمَاءُ ذَاتِ اَبْرَاجٍ، وَارْضُ ذَاتِ فِجَاجٍ، وَبِحَارُ ذَاتِ اَمْوَاجٍ، اَلَا تَدُلُّ عَلَيَّ
السَّمِيعَ البَصِيرَ؟!

فدلائل وجود الله تعالى أكثر من أن تحصى، ففي كل مخلوق من خلقه دلالة على وجود الله، وتأمل قول
الله تعالى:

1. وَكَذَلِكَ نُزِيَ اِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿الأنعام:75﴾ .

2. وقول الله تعالى في الآية رقم: 259 في سورة البقرة بعد أن ذكر قصة الرجل الذي مر على القرية: فَانظُرْ
إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِتَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ تُنشَرُهَا ثُمَّ
نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّٰهَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿البقرة:259﴾ .

3. وقول الله تعالى: قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُعْجِبُ الْآيَاتِ وَالتَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ
﴿يونس: IOI﴾ .

4. وقول الله تعالى: أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّٰهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ
يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿الأعراف: I85﴾ .

5. وقوله تعالى: إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ
وَاختِلافِ اللَّيْلِ وَالتَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللّٰهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَضَرِّفِ الرِّيحِ آيَاتٍ
لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿الجاثية:3-54﴾ .

6. وقوله تعالى: فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿عبس:25﴾ .

7. وقوله تعالى: أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿الغاشية:﴾

﴿I8﴾ .

8. وقوله تعالى: فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿الطارق:6﴾ .

المنهج القرآني في الاستدلال على وجود الله تعالى

تعدّد الأسلوب الذي اتخذهُ القرآن الكريم في الاستدلال على وجود الله سبحانه وتعالى وعظيم قدرته وجيل حكمته، والقرآن الكريم قد جعل هذه الأدلة درجات تناسب مع كافة مستويات خلق الله؛ فهناك الأدلة التي تقوم على المحسوس لتناسب المستويات الدنيا في التفكير لدى السذج والعوام، وهناك الأدلة التي تقوم على المجردات والتي تتطلّب مستوى عالياً من الفكر المنظم، ثم هناك أدلة بين هذه وتلك، لتناسب من هم بين هؤلاء وأولئك .

وهنا سوف نلمح إلى شيء من المزايا التي امتاز بها المنهج الاستدلالي في القرآن الكريم على ما عداه من المناهج الأخرى التي اعتمد عليها المتكلمون والفلاسفة وغيرهم من المفكرين الذين لم يفتنعوا بما ورد في

القرآن من أدلة، ولم يسيروا على النحو القرآني، وإنما اخترعوا لأنفسهم مناهج، ووضعوا على أساس منها أدلة كثيرة ومتنوعة، وسنوضح في هذه المقالة قصور هذه المناهج، وتهافت أدلتها التي بُنيت عليها.

وإبتداءً سوف نلمح إلى شيء من المزايا التي انفرد بها المنهج القرآني، في الاستدلال على وجود الله - سبحانه وتعالى- وعلى صفاته وأفعاله، ونقول: «إلى شيء من هذه المزايا»؛ ، فالقرآن الكريم دائماً فيه الجديد، وهذا الجديد يتناول كل موضوع يبحثه وكل مجال يتطرق إليه، ومن هنا كان ميدان الاجتهاد للتوصل إلى هذا الجديد مفتوحاً دائماً أمام كل مسلم صادق النية، سليم الطوية، عنده قدر من الذكاء، وقدر أكبر من توفيق الله - سبحانه وتعالى- .

ومن الواضح أن كل ميزة نذكرها للمنهج القرآني، يوجد في مقابلها نقص في المناهج البشرية، وهذا النقص في المناهج البشرية هو الذي يوضح بجلاء ما في منهج القرآن من المزايا؛ ولذا فلعله من الأوفق أن نشير بجانب كل ميزة للمنهج الرباني إلى ما يقابلها من نقص في المنهج الإنساني .

على أنه ينبغي علينا أن ننبه إلى مرادنا هنا من استعمال لفظة (منهج) بجانب فعل الحق - سبحانه وتعالى- من حيث إن المراد بالمنهج هو مجموعة القواعد التي يتكون منها أسلوب معين يلتزمه الفاعل إزاء فعل ما . وهذا أن يكون هو نفسه واضع تلك القواعد ومؤسسها، أو واضع هذا المنهج، فالفاعل لا بد أن يخضع لقواعد المنهج وأن يتقيد به حتى لو كان هو واضعه، بل إن ذلك يجعله أكثر تقييداً والتزاماً بتلك القواعد التي وضعها، فالمنهج -إذن- هو قيد يحد من حرية الفاعل، ويضعه في إطار من الجبر، ونحن لا نقصد هذا المعنى حين نتكلم عن فعل الحق - سبحانه وتعالى فالحق سبحانه منزه عن الجبر، وله الإرادة التامة، والمشيئة المطلقة، ولكننا نقصد من كلمة (منهج) بجانب كلام الله سبحانه أن تتلمس تلك الأسس

التي امتاز بها القرآن الكريم في طريقته الاستدلالية، وأن نضوع من هذه الأسس -بقدر ما نستطيع-
منهجًا تتبعه نحن، إذا أردنا أن نقوم -في هذا المجال- بشيء يستحق الذكر.

وأهم ما استطعنا أن نصل إليه من مميزات المنهج القرآني في الاستدلال ما يأتي:

أولاً: أن القرآن الكريم -كما أشرنا سابقاً- يوجه أدلته إلى الناس أجمعين، بكل طوائفهم وفئاتهم، والقرآن
الكريم يرمى تلك الفوارق الضرورية في الفهم والوعي والثقافة، وعامة جميع فوارق الإدراك، فيخاطب
الجاهل الساذج بأدلة تتفق مع إدراكه، ويخاطب الذكي العالم بأدلة تتفق مع علمه وذكائه، ويخاطب الذين
هم بين هؤلاء وأولئك من مستويات على قدر مستوياتهم.

وإلى جانب هذه الميزة للمنهج القرآني نرى ذلك النقص الواضح في المناهج البشرية، حيث يضع كل فريق
أدلته على صورة لا يمكن أن يفهمها غيرهم، فالفلاسفة يضعون أدلة لا يفهمها إلا الفلاسفة وكذلك
المتكلمون، فالمفكر من هؤلاء كان يجهد نفسه في إقامة الدليل، وكان هذا الدليل يخرج صورة لنفسية
صاحبه ونوع ثقافته.

ولقد أتى على هؤلاء المفكرين حين من الدهر كانوا يضعون هذه الأدلة لا للتدليل على وجود الله تعالى
وصفاته وأفعاله، ولكن لإظهار براعتهم وذكائهم ومدى تمكّنهم من فنونهم، وطبيعي أن هذه الأدلة -على
هذه الصورة- هي عقيمة الإنتاج ضئيلة الفائدة، وأن دليلاً مشهوراً لدى المتكلمين، هو دليل الحدوث، هو
أعجز من أن يجعل كافرًا يؤمن، أو يزيد مؤمنًا إيمانًا، وأكثر منه عقمًا ما يسمى بدليل الإمكان، وعلى مثل
ذلك في بقية الأدلة عند هؤلاء وأولئك.

ثانيًا: أن المنهج القرآني يقوم على إقناع الإنسان بجانبه الوجداني والعقلاني، فالإنسان - كما هو معروف - مركب من جانبين؛ جانب وجداني، وجانب عقلاي. وكل من هذين الجانبين له أسلوبه الذي يعالج به، فليس يُقنع الجانب الوجداني ما يُقنع الجانب العقلاي، والعكس صحيح. وحين تقتصر في محاولتنا إقناع الإنسان بقضية ما على مخاطبة جانب واحد فإن تلك المحاولات تفشل يقينًا، ولا توتي ثمارها المرجوة،

وَقَصَارَى مَا نَصَلَ إِلَيْهِ فِي تِلْكَ الْحَالِ هُوَ أَنْ نُخْلَقَ نَوْعًا مِنَ الشَّكِّ وَالْحَيْرَةِ لَدَى الْإِنْسَانِ ، وَلَكِنَّا -أبَدًا- لَنْ نَصِلَ إِلَى مَرْتَبَةِ الْإِقْنَاعِ ؛ لِأَنَّ الْوُصُولَ إِلَى تِلْكَ الْمَرْتَبَةِ رَهْنٌ بِتَصَافُرِ الْوَجْدَانِ وَالْعَقْلِ جَمِيعًا .

إِذَا عَرَفْنَا ذَلِكَ ، اسْتَطَعْنَا أَنْ نَضَعَ أَيْدِيَنَا عَلَى الْعَلَّةِ وَمَكْمَنِ الدَّاءِ فِي تِلْكَ الْحَالِ الْحَيْرَةِ ، حِينَ نَرَى دَلِيلًا مِنْ الْأَدَلَّةِ وَقَدْ صِيعَ عَلَى دَرَجَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الدَّقَّةِ وَالصِّيَاغَةِ الْمُنْطِقِيَّةِ ، وَلَا نَكَادُ نَضَعُ أَيْدِيَنَا عَلَى خَلِّ مُنْطِقِي فِيهِ ، وَلَكِنَّا -رغم ذلك- نَجِدَةَ عَدِيمِ الثَّمَرَةِ ، عَقِيمِ الْإِتِّتَاحِ ، لَا يَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنَ الْيَقِينِ فِيمَا سَبَقَ مِنْ أَجْلِهِ ، وَلَا تَحْسَبُ بَأَنَّهُ يُفْرَضُ عَلَيْكَ شَيْئًا أَوْ يَلْزَمُكَ بِشَيْءٍ ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّهُ أَهْمَلُ جَانِبًا مَهْمًا مِنْ جَانِبِي شَخْصِيَّةِ الْإِنْسَانِ .

وَأَنَّكَ حِينَ تُدْرِكُ أَنَّ الدِّينَ فِي كُلِّ قَضَايَاهُ يُعَمِّدُ عَلَى الْجَانِبِ الْوَجْدَانِيِّ أَكْثَرَ مِنْ اعْتِمَادِهِ عَلَى الْجَانِبِ الْعُقْلَانِيِّ ، فَإِنَّكَ تُدْرِكُ أَنَّ الْأَدِلَّةَ الَّتِي صِيعَتْ بِأَسْلُوبِ عَقْلِيٍّ مَحْضٍ لَمْ تُفْقِدِ الْجَانِبَ الْمُهْمَّ فَحَسَبَ ، بَلْ فُقِدَتِ الْجَانِبَ الْأَهْمَ ، حِينَ عَرَّتْ عَنْ كُلِّ مَا يُخَاطَبُ الْوَجْدَانَ وَيَأْسِرُهُ .

وَعَلَى هَذَا التَّقْصُّ الْوَاضِحِ وَالْقُصُورِ الَّذِي لَا يُخْفَى سَارَتِ كُلُّ أَدِلَّةِ الْمُتَكَلِّمِينَ وَالْفَلَّاسِفَةِ ؛ وَلِذَا لَمْ نَحْسَبْ أَبَدًا أَنَّ هَذِهِ الْأَدِلَّةَ قَدْ جَعَلَتْ الْكَافِرَ يُؤْمِنُ أَوْ زَادَتْ الْمُؤْمِنَ إِيمَانًا ، بَلْ لَعَلَّ ضَرَرُهَا كَانَ أَوْضَحَ حِينَ

يَقْرُؤَهَا مِنْ لَا يَعْمَقُ فِي دِينِ اللَّهِ ، فَيَتَوَهَّمُ أَنَّ هَذَا الدِّينَ إِنَّمَا يَقُومُ عَلَى أَسَاسٍ مِنْ هَذِهِ الْقَوَاعِدِ الَّتِي لَّا تُحَرِّكُ فِيهِ شَعُورًا وَلَا وَجْدَانًا ، فَيَحْسَبُ بِنُوعٍ مِنْ خَيْبَةِ الْأَمَلِ ، وَرُبَّمَا شَعَرَ بِدَيْبِ الشَّكِّ يَرَاوِدُ نَفْسَهُ الْمُؤْمِنَةَ .

وَعَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ كَانَتْ أَدِلَّةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، فَهِيَ أَدِلَّةٌ عَقْلِيَّةٌ فِي الْمُسْتَوَى الْأَسْمَى مِنْ حَيْثُ الدَّقَّةُ وَالْإِصَابَةُ ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَأْتِ فِي تِلْكَ الصُّورَةِ الْجَامِدَةِ الَّتِي تَأْتِيهَا الْفِطْرَةُ ، وَيَنْفِرُ مِنْهَا الطَّبَعُ ، وَإِنَّمَا سَيَقَتْ هَذِهِ الْأَدِلَّةُ فِي جَوْ وَجْدَانِي يَأْسِرُ الْقَلْبَ ، وَيَسْتَأْثِرُ بِالْوَجْدَانِ ، وَيَهْزِ الْمَشَاعِرَ ، وَيَسْتَجِيشُ الْعَوَاطِفَ . وَالْأَحَاسِيسَ ، فَهِيَ إِذْنًا أَدِلَّةٌ تُخَاطَبُ الْإِنْسَانَ بِكُلِّ تَوَاحِيهِ ؛ تُخَاطَبُ الْعُقْلَ بِلُغَتِهِ ، وَالْوَجْدَانَ بِلُغَتِهِ . وَلَعَلَّ هَذَا سَرٌّ مِنْ أَسْرَارِ الْإِبْدَاعِ الْقُرْآنِيِّ ، وَاقْرَأْ فِي ذَلِكَ -عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ- قَوْلَهُ تَعَالَى مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الرَّعْدِ :

﴿ الْمُرْتَلَاتُ آيَاتِ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ * اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّمْرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . . .

الآيَاتِ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد : 17-1] .

ثالثًا : أَنَّ الْأَدِلَّةَ الْقُرْآنِيَّةَ نَعْتَمِدُ عَلَى الْأُمُورِ الْمُوضُوعِيَّةِ الْوَاقِعِيَّةِ الَّتِي يَتَعَامَلُ مَعَهَا الْإِنْسَانُ فِي كُلِّ وَقْتٍ ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : 21] ، وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ فَلْيَنْظُرِ

الإنسان إلى طعامه * أنا صببنا الماء صبًا * ثم شققنا الأرض شقًا * فابتنا فيها حبًا * وعبنا
وقضبا * وزيتونا ونخلًا * وحدائق غلبًا * وفاكهة وأبا * متاعا لكم ولآئعامكم ﴿ عبس 24 .

وهذا من شأنه أن يقرب الدليل ، ويسر إدراكه ، ويمهد النفس لتقبله ، ويقوي الالتزام به ، وفي نفس
الوقت يقطع السبيل على المجادلين المعاندين ، فلا يبيح لهم سبيلاً إلى جحده أو الطعن فيه .

هذا بخلاف أدلة الفلاسفة والمتكلمين التي تعتمد على أسس نظرية ، أو تحوي على بعض الأمور
الموضوعية لكنها لا تدرك بسهولة ، ولا يمكن التسليم بها بيسر . وعلى سبيل المثال : دليل الإمكان ،
يُعمد على تقسيمات منطقيّة محضّة ، تُفتح المجال أمام الجدال واللجاج ، وكذلك دليل الحدوث يُعمد
في بعض جوانبه على أمور موضوعية ، ولكنها مصنوعة صياغة منطقيّة نظرية تجعل إدراكها صعب
المثال على المتخصصين ، فضلاً عن غيرهم ، بالإضافة إلى أن كل مقدمة من مقدمات الدليل تحتاج إلى
دليل ، والدليل إلى دليل وهكذا ، ووسط ركام الأدلة ، وأدلة الأدلة ، تُصاب النفس بالسأم والملل ،
وتنصرف عن مقصودها الأصلي .

رابعاً : أن الأدلة القرآنية تعتمد على ما ركّزه الله سبحانه في الفطرة الإنسانية من السعي إلى معرفته ،
والدينونة له ؛ ولذا فإن القرآن الكريم لا يسوق الأدلة على وجود الله سبحانه بشكل مباشر ، ولكنه
يُعمد على البذرة المغروسة في فطره الإنسان ، فهو يُغذيها وينمّيها ويوجّه الخطاب إليها ، ومن هنا نجد
أن أدلة القرآن الكريم تقوم على لفت الأنظار إلى قدرة الله سبحانه ، وعظيم إبداعه ، وجليل حكمته
في صنعة ، وجزيل نعمة على خلقه ، والذي يقرأ حديث القرآن عن وجود الله سبحانه لا يكاد

يَسْتَشْفٍ مِنْهُ أَنَّهُ حَدِيثٌ إِلَى مُنْكَرِ لُجُودِ اللَّهِ تَعَالَى بِقَدْرِ مَا يُشْعُرُ بِأَنَّهُ حَدِيثٌ إِلَى غَافِلٍ عَنِ هَذَا
الْجُودِ ، فَكَأَنَّ الاعْتِرَافَ وَاقِعٌ ، وَلَكِنَّ الدَّاءَ فِي الغُفْلَةِ عَمَّا يَجِبُ لِهَذَا الْمَوْجُودِ .

وَحَدِيثِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِهَذِهِ الْكَيْفِيَّةِ يَلْفِتُ انْتِبَاهَ الْإِنْسَانِ إِلَى فِطْرَتِهِ الَّتِي لَوْثَهَا وَأَنْحَرَفَ بِهَا الْوَسْوَاسِ
الْحَتَّاسِ ، وَيَهْدِي الطَّرِيقَ لِعُودِهِ الْإِنْسَانِ إِلَى رَبِّهِ ، وَذَلِكَ بِإِشْعَارِهِ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَكُونَ مَنْكَرًا بَلْ
غَافِلًا ، وَاقْرَأْ - عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْآيَاتِ السَّابِقَةِ - قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ يُونُسَ :

﴿ قُلْ مَنْ يُرْزِقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ نَبْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ
الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ
إِلَّا الضَّلَالُ فَاِنِّي تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس : 31 ، 32] .

خامسًا : أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَا يَسُوقُ الدَّلِيلَ عَلَى صُورَةٍ عَامَّةٍ مُجْمَلَةٍ ، وَلَكِنَّهُ يَسُوقُ الْأَدِلَّةَ عَلَى هَيْئَةٍ
جُزْئِيَّةٍ مَفْصَلَةٍ ؛ وَبِذَلِكَ يُعْنِي عَنِ التَّفْصِيلِ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَمَا يَحْتَوِيهِ التَّفْصِيلُ مِنْ تَفْرِيَعَاتٍ قَدْ تَلَفَّتِ النَّفْسُ
عَنِ الْهَدَفِ الْأَصْلِيِّ ، فَضَلًّا عَنِ أَنَّ الْأُمُورَ الْجُزْئِيَّةَ تُدْرِكُهَا النَّفْسُ بِسُهُولَةٍ وَيُسْرٍ ، وَاقْرَأْ فِي ذَلِكَ -إِضَافَةً
إِلَى مَا سَبَقَ - قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ
وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ
وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ . . . إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿
وَإِنْ نَعَدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل : 10-18] .

وَذَلِكَ عَكْسُ الْأَدِلَّةِ الْوَضْعِيَّةِ ، فَهِيَ تَقُومُ عَلَى التَّعْمِيمِ ، ثُمَّ نَتَقَلُّ إِلَى التَّفْصِيلِ ، وَيَحْتَاجُ التَّفْصِيلُ إِلَى تَفْصِيلٍ ، وَهَذَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَنْفِرَ النَّفْسُ وَيَجْعَلَهَا تُشْعِرُ بِالْمَلَلِ وَالسَّامِ ، وَيَصْرِفُهَا عَنِ الْمَهْدَفِ الْمُنْشُودِ .

سادساً : أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يَنْوَعُ مِنَ الْأَدِلَّةِ الَّتِي يَذْكُرُهَا فِي الْمَجَالِ الْوَاحِدِ ؛ فَانْتَ تَسْتَطِيعُ فِي أَيِّ مَجَالٍ يَتَحَدَّثُ فِيهِ الْقُرْآنُ عَنْ عَظِيمٍ صَنَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ تَجِدَ مَجْمُوعَهُ مِنَ الْأَدِلَّةِ الْمُنْسَقَةِ الْمُرْتَبَةِ تَرْتِيبًا بَدِيعًا ، بِحَيْثُ لَا نَقْفُ مِنْ بَدِيعٍ صَنَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى مِثَالٍ وَاحِدٍ بَلْ أُمْتِلَةٌ كَثِيرَةٌ مُعَدَّدَةٌ وَمْتَوَعَةٌ ، فَانْتَ تَجِدُ نَفْسَكَ مُحَاصِرًا بِهَذِهِ الْأَدِلَّةِ الَّتِي تَأْخُذُ بِلَبِّكَ ، وَتَأْسِرُ فُؤَادَكَ ، وَلَا تَدْعُكَ إِلَّا وَقَدْ أَسْلَمْتَ نَفْسَكَ لِلْعَلِيمِ الْحَكِيمِ . وَاقْرَأْ فِي ذَلِكَ - بِالْإِضَافَةِ إِلَى كُلِّ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ - قَوْلَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ نُنشِئُكُمْ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ السِّنِّكُمْ وَالْوَالِدَاتِ لَكُمْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِعَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ . . . إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

[الروم : 20-27] .

وبعدُ ، فَهَذِهِ بَعْضُ الْمِيزَاتِ الَّتِي اسْتَطَعْنَا أَنْ نَلْمَحَ إِلَيْهَا مِنْ مِيزَاتِ الْمُنْهَجِ الْقُرْآنِيِّ فِي حَدِيثِهِ عَنْ وُجُودِ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ .

وَتُوَكَّدُ أَحْيَرًا مَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ ابْتِدَاءً مِنْ إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُحِيطَ بِتِلْكَ الْمِيزَاتِ ، وَحَسَبْنَا أَنَّ نَفْتِ التَّنْظُرِ إِلَى شَيْءٍ مِنْهَا عَلَى قَدْرِ الْجُهْدِ وَالطَّاقَةِ ، فَهُوَ حَدِيثُ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ .

وَعَلَى مَا تَقَدَّمَ اسْتَخْلَصَ الْمُسْلِمُونَ عَدَدًا كَبِيرًا مِنَ الْبَرَاهِينِ وَالْأَدِلَّةِ عَلَى وُجُودِ اللَّهِ . نَذَكُرُ مِنْهَا بِإِحْتِصَارٍ هَذِهِ الْأَدِلَّةَ :

1 . أَنَّ الْعَالَمَ مَوْجُودٌ بِالْفِعْلِ إِمَامَ حَسَنًا وَنَظَرْنَا ، إِذَنْ لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ اللَّهِ لَهُ . فَكُلُّ حَدَثٍ مُحَدَّثٍ أَحْدَثَهُ ؛ أَيُّ أَنَّهُ إِذَا كَانَ شَيْءٌ مَوْجُودًا فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُوجِدٍ . الْعَقْلُ الْإِنْسَانِي لَا يَقْبَلُ إِلَّا بِهَذَا ، فَلَا يَرْتَكِنُ إِلَى أَنْ شَيْئًا قَدْ أُوجِدَ هَكَذَا وَحْدَهُ . مَثَلًا : كَلَّ هَذِهِ الْمَدْنَ وَالذُّوُلَ وَالْعُمْرَانَ عَلَى الْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ ، هَلْ وَجِدْتَ وَحْدَهَا هَكَذَا ؟ ! أَمْ أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ بَنَاهَا وَعَمَرَهَا ؟ . بِالتَّقْطِيعِ لَا يَصْلُحُ عَقْلًا تَصَوُّرُ أَنَّهَا وَجِدَتْ هَكَذَا وَحْدَهَا بِلَا مُوجِدٍ ، لَا يَقْبَلُ الْعَقْلُ الْبَشَرِيَّ هَذَا الْفَرَضَ . لِذَلِكَ كُلُّ شَيْءٍ حَوْلَنَا هُنَاكَ مَنْ أَوْجَدَهُ . وَبِمَا أَنَّ الْكُونَ مَوْجُودٌ إِذَنْ فَلَهُ خَالِقٌ خَلَقَهُ وَأَوْجَدَهُ .

وَهُنَا نَسْتَعْمِدُ قِيَاسًا مَنْطِقِيًّا وَأَصُولِيًّا يُسَمَّى "قِيَاسَ الْأَعْلَى" أَوْ "قِيَاسَ الْأَوَّلَى" ؛ ، وَمَجْرَدَ الْأَثَارِ عَلَى الْأَرْضِ تَدَلِّي عَلَى أَنَّ قَافِلَةً كَانَتْ هُنَا ؛ فَلَا بُدَّ لِهَذَا الْكُونَ الْهَائِلِ أَنْ يَدَلِّي عَلَى وُجُودِ خَالِقِ الْأَوَّلَى أَيُّ بِالتَّصَوُّرِ الْأَوَّلَى . وَيُشَبِّهُ هَذَا الدَّلِيلَ دَلِيلًا يُسَمَّى "بِرَهَانِ الْحُدُوثِ" فَإِذَا اعْتَبَرْنَا أَنَّ الْكُونَ حَدِيثٌ - أَيُّ لَيْسَ قَدِيمًا - فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُحَدَّثٍ .

2 . وَلَعَلَّ سَوْأًا يُرَاوِدُ الْعَقْلَ الْآنَ ؛ إِذَا كُنَّا نَقُولُ إِنَّ "كُلَّ حَدَثٍ مُحَدَّثٌ" ، وَ"كُلُّ وُجُودٍ مُوجِدٌ" ؛ فَمَنْ أَوْجَدَ اللَّهُ ؟ ! وَمَنْ خَلَقَهُ ؟ ! وَبِالتَّقْطِيعِ السُّؤَالُ يُفْسِدُ نَفْسَهُ بِمَجْرَدِ قِرَاءَتِهِ : مَنْ خَلَقَ اللَّهُ ؟ لَا أَجَابَهُ

عَنْهُ لِسَبَبٍ بَسِيطٌ جَدًّا هُوَ أَنْ "اللَّهُ" لَيْسَ مَخْلُوقًا أَصْلًا لِنَبِيْحَتِ لَهُ عَنْ خَالِقٍ بَلْ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ،

و"اللَّهُ" لَيْسَ مَوْجُودًا كِبَيْتِيَّةَ الْمَوْجُودَاتِ لِنَبِيْحَتِ لَهُ عَنْ مُوْجِدٍ فَالسُّؤَالُ فَاسِدٌ أَصْلًا وَفِرْعَا . .

وَهَذَا يَقُودُنَا إِلَى الدَّلِيلِ الثَّانِي الَّذِي يُعْتَمَدُ عَلَى مَبْدَأِ "السَّبَبِيَّةِ" ؛ وَهِيَ أَنَّ الكَائِنَاتِ وَأَفْعَالَهَا الَّتِي عَلَى

قَيْدِ الْحَيَاةِ -إِنْسَانًا أَوْ غَيْرِهِ- مُمَكِّنَةُ الْخُدُوثِ . دَعَوْنَا نَشْرَحَ الْأَمْرَ بِمَثَالٍ تَبْسِيطِيٍّ : مَثَلًا : أَنْتِ فِي

يَوْمِكَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ تَذْهَبِ إِلَى الْعَمَلِ وَمَنْ الْمُمْكِنِ أَلَّا تَذْهَبِ ، مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ تَشْرَبِ قَهْوَةً وَمَنْ الْمُمْكِنِ

أَلَّا تَشْرَبِ ، مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ تُحَادِثَ صَدِيقَكَ وَمَنْ الْمُمْكِنِ أَلَّا تُحَادِثَهُ . كُلُّ هَذِهِ تُسَمَّى "أَحْدَاثًا مُمَكِّنَةً

الْخُدُوثِ" .

وَالْأَحْدَاثُ مُمَكِّنَةٌ ؛ بِمَعْنَى أَنَّكَ مُمَكِّنٌ أَنْ تَفْعَلَهَا ، وَمُمْكِنٌ أَلَّا تَفْعَلَهَا . فَمَنْ أَحْدَثَهَا وَمَنْ أَمْكَنَ

خُدُوثَهَا ؟ إِنَّهُ قَرَارُكَ بِإِحْدَاثِهَا . فَكَذَلِكَ الْكُؤُنُ تَرَى كُلَّ مَا فِيهِ مُمَكِّنُ الْخُدُوثِ أَيُّ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَقَعَ

وَمَنْ الْمُمْكِنِ أَلَّا يَقَعَ ، بِدَلِيلِ فِتْنَائِهِ إِمَامَ أَغْنَيْنَا . وَذَلِكَ يَقُودُنَا إِلَى أَنَّ هُنَاكَ مُرْجَحًا لِهَذَا الْكُؤُنِ هُوَ مَنْ

أَحْدَثَ هَذَا الْمُمْكِنِ وَجَعَلَهُ يُحْدِثُ بِإِرَادَةٍ مُنْفَرَدَةٍ مِنْهُ وَهُوَ "اللَّهُ" .

يَجِبُ أَنْ تَشْهِيَ هَذِهِ الْمُمْكِنَاتِ إِلَيْهِ ؛ حَيْثُ كَانَ مُوْجِدَهَا جَمِيعًا ، لَكِنَّهُ غَيْرُ مُمَكِّنِ الْوُجُودِ ، بَلْ هُوَ

"وَاجِبُ الْوُجُودِ" ؛ أَيُّ إِنَّ وَجُودَهُ تَابِتٌ لَهُ ، غَيْرِ آتٍ مِنْ أَيِّ سَبَبٍ آخَرَ ، بَلْ هُوَ سَبَبٌ فِي وَجُودِ كُلِّ

هَذِهِ الْمُمْكِنَاتِ . وَهُوَ مُغَايِرٌ تَمَامًا لِكُلِّ الْمَخْلُوقَاتِ ؛ لِذَلِكَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْلُقَهَا وَيُحْدِثَهَا ، وَأَنْ يَبْتَ فِيهَا

الْحَيَاةَ . لِذَا لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَائِمًا بِذَاتِهِ ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى مُوْجِدٍ ، وَوُجُودُهُ لَازِمٌ وَحْتَمِيٌّ ، وَهُوَ مُصَدِّرٌ كَلِّ

هَذِهِ الْمَوْجُودَاتِ الْمُمْكِنَةِ . هَذَا الْوَاجِبُ هُوَ "اللَّهُ" . وَهَذَا بُرْهَانٌ يُسَمَّى بِ"بُرْهَانِ الْوَاجِبِ وَالْمُمْكِنِ" .

3 . الكون بموجوداته يتحرك ، بل هو في حركة دائمة . إن كل ما في الكون يتحرك ، في حركة دائمة حتى الموت . الإنسان يولد -وهذه حركة- ويتحرك حتى الموت . وكذلك التبات والحيوان ، والجمادات ، والأفلاك . كل شيء في الكون يتحرك حتى يأتي وقت فيقف عن الحركة . ثم يبدأ نظير له بالتحرك أيضا . مليارات العناصر تولد وتتحرك وتموت في الكون كل يوم .

ولا بد لهذه الحركة من محرك ، لا بد لها من بدأ ، من قوة تحركها ابتداءً وتبشر هذه الحركة الدائبة . العقل لا يقبل فكره أن شيئاً يتحرك وحده دون محرك . هذا المحرك هو "الله" . وهذا يسمى "برهان الحركة" .

4 . يتصل بالدليل السابق وجوب فعل "الموت" بكل الكائنات التي تحيط بنا ، وبالقطع كل البشر . يكون هذا الموت في صورة ذهاب الروح في الكائنات التي بها روح ، ويكون في صورة البلاء والفناء - أي أن يبلى الشيء وتزول صفته وتحلل مكوناته- في الجمادات التي تخلو من الروح .

يدل هذا الموت الذي يلحق كل الكائنات عقلاً أن هناك مؤقتاً لهذا الموت يضع له ميعاته المعين المحدد ، وهناك واهب حياة هو الذي يقدر على سلبها كما وهبها . هذا المدبر المؤقت هو وحده الذي لا يموت ولا يفنى . فضلاً عن أن وجود الموت نفسه يشير إلى أن للإنسان مهمة ولكل مخلوق يدركه الموت مهمة خلق من الأصل ليقوم بها .

5 . وهنا يتأمل المفكرون في الكون فيجدون أنه مرتب منظم تماماً . وأن ترتيبه وتنظيمه لا بد يدل على وجود مرتب ومنظم له ، قام بهذا الترتيب والتنظيم . فلا يمكن تصور التنظيم بلا منظم وضع هذا النظام ، وهو يقوم على شؤنه . فمثلاً : إذا دخلت غرفتك فوجدتها مرتبة منظمة ، وقد تركتها على

غَيْرِ هَذَا الْوَضْعِ . لَا تَعْجَبْ وَلَا يَثِيرُكَ هَذَا ؛ لِأَنَّكَ تُعْرِفُ أَنَّ لَكَ أُمَّاً أَوْ زَوْجَةً أَوْ أَخًا أَوْ . . . قَدْ صَنَعَ هَذَا . لِذَلِكَ عِنْدَمَا تَرَى الْكُونَ مُرْتَبًا مُنْظَمًا لَا بُدَّ أَنْ تُعْرِفَ أَنَّ هُنَاكَ سَبَبًا لِتَرْتِيبِهِ ؛ هُوَ "اللَّهُ" . . . وَهَذَا "برهان الترتيب" .

6 . وَلَكِنْ إِذَا أَمَعْنَا النَّظْرَ إِلَى هَذَا التَّرْتِيبِ فِي الْكُونَ سَنَجِدُ عِنَايَةً خَاصَّةً بِالْإِنْسَانِ عَنْ بَاقِي الْكَائِنَاتِ . فَالْإِنْسَانُ خُلِقَ وَهُوَ ضَعِيفٌ هَزِيلٌ . وَلَكِنْ خُلِقَتْ لَهُ غَرِيزَةٌ أُمُومَةٌ وَأَبُوءَةٌ فِي أُبُوئِهِ يَشُدُّانِ -مَدْفُوعَيْنِ بِنَتِكَ الْغَرِيزَةِ- مِنْ أَرْزِهِ حَتَّى يَقْوَى ، وَخُلِقَ مَعَهُ الْعَقْلُ الَّذِي يَسْتُخْدِمُهُ لِيَسْحَرَ الْعَالَمَ وَيَفْهَمَهُ . وَخُلِقَتْ الْكَائِنَاتُ فِي دَوْرَاتِهَا الْمُخْتَلِفَةِ لِتُؤَدِّيَ لِهَذَا الْإِنْسَانِ أَدْوَارًا عِدَّةً فِي حَيَاتِهِ تُسَاعِدُهُ عَلَى مَعِيشَتِهِ . فَكُلُّ مَا يَحْتَاجُهُ فِي الْكُونَ مُوجُودٌ ، بَلِ الْإِنْسَانُ مُهَيِّأً لِاسْتِغْلَالِهِ فِي صَالِحِهِ ؛ وَكَأَنَّ الْكُونَ يَدُورُ حَوْلَهُ وَحَوْلَ فِكْرِهِ وَجُودِهِ هُنَا عَلَى الْأَرْضِ .

وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ مُدَبِّرٌ مُعْتَنٍ بِالْإِنْسَانِ قَدْ وَضَعَ هَذَا التَّصَوُّرَ الَّذِي يَرَاهُ الْإِنْسَانُ بِأَمِّ عَيْنِهِ صَبَاحَ مَسَاءٍ . مُدَبِّرٌ جَعَلَ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً هُوَ "الإنسان" . هَذَا الْمُدَبِّرُ هُوَ "اللَّهُ" . وَهَذَا دَلِيلٌ يُسَمَّى "برهان العناية الإلهية" . وَهُوَ مِنْ أَكْثَرِ الْأَدِلَّةِ الَّتِي اعْتَمَدَ عَلَيْهَا الْمَفْكَرُونَ الْمُسْلِمُونَ .

وَهُنَاكَ بَرَاهِينُ أُخْرَى اعْتَمَدَ عَلَيْهَا الْمَفْكَرُونَ لِثَبُوتِ وَجُودِ "اللَّهُ" ؛ مِثْلُ : "الوحدة والكثرة" ، "المادة والصورة" ، "الاختراع" ، "التناسل" . لِكِنَّهَا تَفْرِيغَاتٌ عَلَى هَذِهِ الْبَرَاهِينِ السَّابِقَةِ .

وَلَعَلَّنَا نَجِدُ تِلْكَ الْأَدِلَّةَ مَنْطِقَةً عَلَى تَصَوُّرِ "اللَّهُ" -تعالى- فِي الْكُونَ ، بَلِ مَجْمُوعَهَا يَقُودُ إِلَى الْكَلِمَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ : (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) يَخْلُقُهُ بِمَعْرِفَتِهِ ، وَإِيمَانُهُ بِهِ ، وَعِبَادَتِهِ إِتْيَاهُ . . . فَسُبْحَانَ مَنْ يَبْدِيهِ الْمَلِكُ

وَهُنَاكَ دَلَالَةُ التَّخْصِيسِ ، حَيْثُ اعْتَبَرَهَا كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ دَلَالَةً صَحِيحَةً عَلَى وُجُودِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ،
فَهَذَا التَّخْصِيسُ لَا يَدُلُّهُ مِنْ مُخَصَّصٍ ، عَلِيمٍ حَكِيمٍ مُرِيدٍ ، وَهُوَ اللَّهُ جَلَّ فِي عُلَاهُ . \ بِهَذَا يَبَيِّنُ لَنَا
أَنَّ كُلَّ الْأَدَلَّةِ الْمُعْتَبَرَةِ فِي إِثْبَاتِ وُجُودِ اللَّهِ تَعَالَى مُوجُودٌ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ، وَبَصِيغَةِ الْأَسْتِقْهَامِ ، وَأَنَّ
الدَّلَائِلَ الْقُرْآنِيَّةَ خَالِيَةً مِنَ التَّعْقِيدَاتِ الْكَلَامِيَّةِ ، وَالشَّبَهَةِ الْمُنْطِقِيَّةِ وَالْفَلْسَفِيَّةِ ، الَّتِي لَا تَوْصُلُ لِبَقِيَّةِ ، بَلْ
رُبَّمَا تَزْرَعُ الشُّبُهَاتُ فَتَحْصُدُ الشُّكُوكُ .

دَلِيلُ النَّبُوءَةِ وَالتَّارِيخِ لَمْ يُخْلَعْ عَضْرُ دُونَ أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ نَبِيًّا أَوْ رَسُولًا مُنْذُ خَلَقَ اللَّهُ لَادَمَ وَجَعَلَهُ حَلِيفَةً
فِي الْأَرْضِ حَتَّى خَتَمَ اللَّهُ رِسَالَتَهُ وَكُتِبَ وَرُسُلُهُ بِأَخْرِ الْأَنْبِيَاءِ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَإِنْ تَوَالِي هَؤُلَاءِ
الرُّسُلِ وَدَعْوَتِهِمْ لِلْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَحَدَهُ لِأَشْرِيكَ لَهُ وَتَطَابِقِ أَقْوَالِهِمْ وَدَعْوَاتِهِمْ وَهُمْ جَمِيعًا مَا طَلَبُوا أَجْرًا عَلَى
ذَلِكَ أَوْحَقُّوا مَنَافِعَ لَهُمْ لِذَلِيلٍ قَاطِعٍ عَلَى وُجُودِ الْمُرْسَلِ حَتَّى لَا تَكُونَ لِلنَّاسِ حُجَّةٌ عَلَى اللَّهِ ﴿ رُسُلًا
مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء :
165] وَإِذَا أَضْفْنَا لِذَلِكَ أَنَّ تَارِيخَ الْبَشَرِ عَلَى الْأَرْضِ تَارِيخٌ دِينِيٌّ تَعَزُّهُ تِلْكَ الْمَعَابِدِ وَالرُّمُوزِ وَالْكِتَابَاتِ
وَالهَيْكَلِ وَالْأَوَابِدِ وَالرُّسُومِ وَالْأَسَاطِيرِ وَالْأَدْيَانَ الْوَضْعِيَّةَ الَّتِي صَنَعَهَا الْإِنْسَانُ كُلُّ ذَلِكَ يُؤَكِّدُ أَنَّ قَضِيَّةَ اللَّهِ
وَالْإِيمَانِ بِهِ تَارِيخِيَّةٌ قَدِيمَةٌ قَدَّمَ الْإِنْسَانُ وَهَذَا دَلِيلٌ أَنَّ عِنَايَةَ وَاهْتِمَامَ الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ بِذَلِكَ لَمْ تَتَمَّ مِنْ فِرَاعٍ أَوْ
تُبْنَى عَلَى وَهْمٍ .

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ :
137] ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الْأَنْعَامِ : 11] ﴿ وَلَقَدْ

بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ
الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ ﴿ [التَّحْلِ : 36] .

الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [المائدة : 69]

الْآخِرُ وَالْآخِرَةُ

الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ هُوَ حَجَرُ الزَّائِغَةِ فِي الْعَقِيدَةِ ، ذَاكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ بَطْنِيهِ لَا يُلْزَمُ نَفْسَهُ بِالطَّاعَةِ إِلَّا أَنْ
تَكُونَ مِنْ وَرَائِهَا دَفْعُ مَفْسَدَةٍ ، أَوْ جَلْبُ مَصْلَحَةٍ ، فَالْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَبِرُسَالَاتِهِ لَا يُؤَدِّي ثَمَرَتَهُ إِلَّا إِذَا كَانَ

هُنَاكَ جُزْءًا يَنْتَظِرُهُ الْإِنْسَانُ ، وَمَنْ تَمَّ كَانَ الْإِيمَانَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ لَهُ دُورٌ كَبِيرٌ فِي إِزَامِ الْإِنْسَانِ بِمَنْحِ اللَّهِ ،
وَمَنْ هُنَا جَاءَ اهْتِمَامُ الْقُرْآنِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ اهْتِمَامًا لَا يُقْلَعُ عَنِ الْاهْتِمَامِ بِالرُّكْنَيْنِ السَّابِقَيْنِ "الالهيات" و
"النبوات" ،

لَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ الْإِيمَانَ بِهِ الْإِيمَانَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ لِأَنَّهُ الْيَوْمُ الْمَعْدَّةُ لِمَعْرِفَةِ تَتَائِجِ عَمَلِ الْإِنْسَانِ عَلَى الْأَرْضِ وَمَنْ تَمَّ
مُحَاكَمَتَهُ بِالْعَدْلِ وَاعْتِطَاءِ الثَّوَابِ أَوْ الْجَزَاءِ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ فَوْجُودَنَا عَلَى الْأَرْضِ وَاسْتِخْلَافِنَا فِيهَا إِنَّمَا هُوَ
مُؤَقَّتٌ وَمُحَدَّدٌ بفترة زمنية فَرْدِيهِ فَلِكُلِّ فَرْدٍ عَمْرٌ مُعَيَّنٌ سَيَقْضِيهِ وَهُنَاكَ زَمَنٌ مُحَدَّدٌ لِزَوَالِ الْأَرْضِ وَبِالتَّالِي
انْتِهَاءِ الْفَتْرَةِ الزَّمَنِيَّةِ لِعَيْشِ وَبَقَاءِ الْإِنْسَانِ فِيهَا أَنَّهُ يَوْمٌ يَجْعَلُهَا اللَّهُ صَعِيدًا جُرْزًا .

لَقَدْ نَسِيَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ وَظَنَّ أَنَّ خُلُقَهُ كَانَ عَبَثًا يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ
إِنِّيْنَا لَا تَرْجِعُونَ ﴾ [المؤمنون : 115] مِنْ هُنَا بَدَأَتْ مُصِيبَةُ الْمُلْحِدِ الْجَاهِلِ الَّذِي غَرَّتْهُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
وَظَنَّ أَنَّهَا كُلُّ شَيْءٍ فَلَا رُجُوعَ وَلَا عَوْدَةَ إِلَى اللَّهِ .

أَنَّ هَذِهِ الْفَلْسَفَةُ الْبَشَرِيَّةُ الْقَائِمَةُ عَلَى مَبْدَأِ الْوُجُودِ الْعَبْثِيِّ وَالْفَنَاءِ الدَّهْرِيِّ كَمَا وَصَفَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى
لِسَانِهِمْ ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ
إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [الجمانية : 24] وَهَذَا قِمَّةُ الْكُفْرِ وَالْإِلْحَادِ وَيُجْعَلُ الْإِنْسَانَ لِاقِيْمَةِ لَهُ إِطْلَاقًا فَيُظَنَّ أَنَّهُ صَارَ
مِثْلَ كُلِّ الْأَشْيَاءِ فِي الطَّبِيعَةِ إِلَى زَوَالٍ فَلَا فَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَيَوَانَاتِ مِنْ حَيْثُ الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ وَالْفَنَاءِ مِنْ
هُنَا خَرَجَ التَّفَكِيرُ الْمَادِي وَالْمَنْفَعِيُّ الَّذِي يَقُومُ عَلَى اغْتِنَامِ كُلِّ الْفُرْصِ لِلْعَيْشِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا كَمَا يَشْتَهِي
وَيُرِيدُ لَيْسَ هُنَاكَ حَلَالٌ أَوْ حَرَامٌ فِيهَا وَلَيْسَ هُنَاكَ شَرَعٌ وَأَحْكَامٌ وَاخْلَاقِيَاتٌ تُضَبِّطُ الْأُمُورَ فَتَنْقَلِبُ حَيَاتِهِ
إِلَى حَيَاةٍ بَهِيمِيَّةٍ أَنَّ هَذِهِ الزَّيْنَةَ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ لِبَهْجَةِ الْإِنْسَانِ وَلِخِدْمَتِهِ أَمَا هِيَ حَافِزًا لِيَسَارِعَ لِلْإِيمَانِ

بِالَّذِي صَنَعَهَا وَأَتَقَنَ صِنَاعَتَهَا وَسَخَّرَهَا لَهُ لِكَيْتَهُ سُرْعَانَ مَا يَنْسَى وَيُظَنُّ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ سِيدُومٌ لِكِنَّ
الْحَقِيقَةَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ أَجَلًا :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف : 7]

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى
إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا
حَصِيدًا كَأَنَّ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْضِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس : 24]

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا
غَافِلُونَ أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [يونس : 7، 8]

الَّذِينَ يُنْكِرُونَ اللَّهَ تَعَالَى وَلَا يُؤْمِنُونَ بِثَوَابِ وَعِقَابِ وَلَا يَرْجُونَ لِقَاءَ الْخَالِقِ وَرَضُوا وَاطْمَأَنَّنُوا بِحَيَاتِهِمْ فَهُمْ
غَافِلُونَ تَاهُونَ قَطْعًا لِذَلِكَ فَيَسْتَحِقُّونَ عِقَابَهُمْ وَجَزَاءَهُمْ .

هَلْ يُمَكِّنُ أَنْ نَسْتَدِلَّ عَلَى الْيَوْمِ الْآخِرِ بِالْعَقْلِ ؟

قَبْلَ الْحَدِيثِ عَنْ أُدِلَّةِ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ الْعَقْلِيَّةِ ، فَإِنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ ذِكْرِ فَنَاتِ مَنْكَرِ الْيَوْمِ الْآخِرِ ، إِذْ أَنَّهُمْ
يُنْقَسِمُونَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : فَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُونَ بِوُجُودِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وَيُنْكِرُونَ الْبُعْثَ مُطْلَقًا ، وَمِنْهُمْ
يُؤْمِنُونَ بِوُجُودِ اللَّهِ وَيُنْكِرُونَ الْبُعْثَ الْجَسَدِيِّ ، وَالْمِنَّةُ الثَّلَاثَةُ يُنْكِرُونَ وُجُودَ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وَيُنْكِرُونَ
الْبُعْثَ ، وَهَذِهِ الْفِئَةُ لَا بَدَّ أَوْلًا مِنْ مَنَاقَشَتِهِمْ بِالذَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ عَلَى وُجُودِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَسُّمُّ

إثبات البعث وضرورة الإيمان باليوم الآخر لهم بالأدلة العقلية؛ إذ أن الإيمان بهذا اليوم مرتبط ارتباطاً وثيقاً بوجود الله - عز وجل - ، كما أنه مرتبط بالإيمان بأسمائه الحسنى وصفاته العلى فمن آمن بالله سيؤمن بكل ما جاء في كتابه ، وقد أخبر الله - عز وجل - في كتابه أنه لا بد من يوم يُبعث في الناس ليحاسبهم على أعمالهم .

ويمكن إجمال أدلة الإيمان باليوم الآخر العقلية بالنقاط الآتية : أن الله القادر على بدء الخلق ، لن يُعجزه إعادة الخلق ، إذ أن إعادة أهون من البدء . أن السماوات والأرض من أعظم المخلوقات ، ومن قدر على خلق الأعظم فهو على غيره أقدر . أن الله - عز وجل - هو العدل العادلين ، وأن عدله يقتضي أن يأخذ كل ذي حق حقه ، وبما أن بعض البشر قد يدركهم الموت قبل أن يستوفوا حقوقهم كاملة ، وكون أن هذه الدنيا دار ابتلاء ، كان لا بد من وجود حياة أخرى تُوزع فيها الحقوق توزيعاً جزئياً لا توزيعاً بلاءً .

لقد جاء ذكر الآخرة في القرآن بنحو (II4) مرة . واليوم الآخر بنحو (26) مرة . أما أسماء اليوم الأخرى فهي كثيرة جداً .

في الغالب يأتي ذكر الإيمان باليوم الآخر عقيب الإيمان بالله دون فاصل ولنقرأ هذه الأمثلة :

(ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر) .

(ذلك يُوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر) .

لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ . إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) .

وَالآيَاتِ الَّتِي ذَكَرَ فِيهَا الْيَوْمِ الْآخِرِ كَثِيرَةٌ كَمَا قُلْنَا وَمِنْهَا :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : 8]

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ [النساء : 39]

حَظِي الْيَوْمِ الْآخِرِ بِشُمُولِيَّةٍ وَاسِعَةٍ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، فَلَقَدْ بَحَثُ الْمَوْتِ وَالْبَعْثِ وَالْحَشْرِ وَالْحِسَابِ وَالْمِيزَانَ وَالصُّحُفَ وَالصِّرَاطَ وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ ، وَكُلُّ هَذَا بِتَفْصِيلٍ دَقِيقٍ لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ الْغَرَضُ التَّرْغِيبَ وَالتَّرْهِيْبَ .

مَرَاجِلُ الْيَوْمِ الْآخِرِ كَيْفَ سَيَكُونُ شَأْنُ الْيَوْمِ الْآخِرِ ؟

إِنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمٌ عَظِيمٌ شَدِيدٌ عَلَى الْخَلْقِ ، مُسْلِمِهِمْ وَكَافِرِهِمْ ، حَتَّى مِنْ بَشَرٍ بِالْجَنَّةِ فِي قَبْرِهِ سَيَكُونُ خَائِفًا وَجَلًّا فِي هَذَا الْيَوْمِ ، كَيْفَ لَا وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- أَهْوَالَ هَذَا الْيَوْمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرُؤُهَا تَدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ

وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [٣٤]

فَهَذَا الْيَوْمُ يَوْمٌ فَظِيعٌ ، يَمُرُّ الْإِنْسَانُ فِيهِ بِمَرَاجِلٍ عَدِيدَةٍ ، يَعْدُ الْبَعْثُ أَوَّلَ مَرَاجِلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَيَكُونُ

بِإِخْرَاجِ النَّاسِ أَحْيَاءً مِنْ قُبُورِهِمْ ، وَإِرْسَالِهِمْ إِلَى مَوْقِفِ الْحَشْرِ ، وَهَذَا الْبُعْثُ يَكُونُ بِنَفْحَتَانِ الْأُولَى
نَفْحَةِ الْفَرْعِ وَالَّتِي يَكُونُ بِهَا أَمَاتَهُ الْأَحْيَاءُ جَمِيعًا ، وَالثَّانِيَةَ نَفْحَةِ الْبُعْثِ وَالَّتِي يُبْعَثُ النَّاسُ بِهَا مِنْ
قُبُورِهِمْ ، ثُمَّ بَعْدَ الْبُعْثِ تَقُومُ الْخَلَائِقُ إِلَى أَرْضِ الْمُحْشَرِ ، فَيَقُومُونَ بِهَا قِيَامًا طَوِيلًا ، يَصْحَبُهُ خَوْفٌ
شَدِيدٌ وَظَمًا ، ، تَبْدَأُ مَرِحَلَةَ عَرْضِ الْخَلَائِقِ عَلَى رَبِّهِمْ ، ثُمَّ تَتَطَايَرُ الصُّحُفُ فَيَأْخُذُ أَهْلُ الْيَمِينِ كِتَابَهُمْ
بِيَمِينِهِمْ وَأَهْلُ الْإِسَارِ كِتَابَهُمْ بِيَسَارِهِمْ ، فَيَقْرَءُونَ كُتُبَهُمْ ، وَيَبْدَأُ الْحِسَابَ لِقِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ .

دُور الْمِيزَانِ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ ؟

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا
بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : 47]

يُخْبِرُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَنِ الْقَضَاءِ الْعَادِلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَأَنَّهُ يَوَازِنُ بَيْنَ أَعْمَالِ الْعِبَادِ مَوَازِنَةً دَقِيقَةً ،
فِيحَاسِبُ كُلًّا عَلَى أَعْمَالِهِ ، وَوَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى الْمَوَازِينَ بِالْقِسْطِ ، لِأَنَّ الْمِيزَانَ قَدْ يَكُونُ مُسْتَقِيمًا ، وَقَدْ
يَكُونُ بِخِلَافِهِ ، فَيَبَيِّنُ أَنَّ تِلْكَ الْمَوَازِينَ تَجْرِي عَلَى حَدِّ الْعَدْلِ وَالْقِسْطِ ، وَأَكَّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَلَا تُظْلَمُ
نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ .

وَقَدْ صَوَّرَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ دَقَّةَ الْمَوَازِنَةِ بِصُورَةٍ حَسِيَّةٍ مِنْ مَأْلُوفِ النَّاسِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالْوِزْنَ يُؤَمِّدُ الْحَقُّ
فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا
بِآيَاتِنَا يُظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف : 8 ، 9] .

ثُمَّ بَعْدَ الْعُرْضِ وَالْحِسَابِ تَبْدَأُ مَرِحَلَةَ وَزْنِ الْأَعْمَالِ ، وَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ وَيَتَّصِفُ هَذَا الْمِيزَانَ
بِشِدَّةِ الدَّقَّةِ فَلَا يَزِيدُ فِيهِ شَيْءٌ وَلَا يَنْقُصُ وَقَدْ أَعَدَّ إِعْدَادًا دَقِيقًا بِحَيْثُ لَا يَوْجُودُ لِلْغَشِّ أَوْ الْعَبْنِ أَوْ

الزِّيَادَةَ أَوْ التَّقْصَانَ أَيُّ وَجُودٍ يَذُكُرُ وَنَسَبَهُ الْخَطَأُ فِيهِ صَفَرٌ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

وَإِنَّ تَكَّ حَسَنَةً يُضَاعَفُهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : 40]

إِنَّ مِنْ مَرَاجِلِ الْيَوْمِ الْآخِرِ مَرِحَلَةُ الصِّرَاطِ ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ جِسْرِ مَدُودٍ عَلَى مَنْ جَهَنَّمَ يَرِدُهُ الْأَوْلُونَ
وَالْآخِرُونَ ، كَمَا أَنَّ طَرِيقَ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْمُحْشَرِ لِدُخُولِ الْجَنَّةِ ، وَقَدْ وَرَدَ ذِكْرُ الصِّرَاطِ فِي كِتَابِ اللَّهِ -

عَزَّ وَجَلَّ - حَيْثُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ ، حَيْثُ ذَكَرَ
أَهْلُ الْعِلْمِ أَنَّ الْمَقْصُودَ بِوُرُودِ النَّارِ هُوَ الْمُرُورُ عَلَى الصِّرَاطِ :

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴾ [المؤمنون : 74]

﴿ قُلْ كُلُّ مُرْتَبَضٍ فَتَرَبَّصُوا فَنَسْتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴾ [طه : 135]

دُخُولِ الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ هِيَ التَّيْجَةُ النَّهَائِيَّةُ وَالْعَمَلِيَّةُ وَالْفِعْلِيَّةُ لِبَنِي الْبَشَرِ التَّيْجَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي سَتَقَرُّ حَيَاتِهِ

الْأَبَدِيَّةُ .

المُطَلَق والنسبي

تَعْرِيفُ الْمُطَلَقِ فِي اللُّغَةِ :

قَالَ ابْنُ فَارِسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ "الإِطْلَاقُ أَنْ يَذَكَرَ الشَّيْءَ بِاسْمِهِ لَا يَقْتَرِنُ بِهِ صِفَةٌ وَلَا شَرْطٌ وَلَا زَمَانٌ

وَلَا عَدَدٌ وَلَا شَيْءٌ يُشْبِهُ ذَلِكَ " .

يَقُولُ "سبِنَسِر" فِي كِتَابِهِ الْمَبَادِي الْأُولَى بِاسْتِحَالَةِ وُصُولِ الْعَقْلِ إِلَى مَعْرِفَةِ الْمُطَلَقِ ، "وإنَّ كُلَّ مُحَاوَلَةٍ يُقُومُ

بِهَا الْعَقْلُ مِنْ أَجْلِ تَصَوُّرِ الْمُطَلَقِ أَوْ اللَّامِ مُتَّاهِي ، لِأَبَدٍ أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى تَعْيِينِهِ أَوْ تَحْدِيدِهِ ، وَبِالتَّالِي فَاتِّهَا

لِأَبَدٍ مِنْ أَنْ تَحْوِلُهُ إِلَى نَسْبِيٍّ أَوْ مُتَّاهٍ ، وَلَكِنْ "سبِنَسِر" مَعَ هَذَا لَا يَرَى أَنَّ الْمُطَلَقَ غَيْرُ مُوجُودٍ فَتَنْحَن

حِينَمَا تَقَرَّرُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي وَسْعِنَا تَصَوُّرِ الْمُطَلَقِ بِعَقُولِنَا ، فَإِنَّا أَيْضًا نَحْكُمُ بِعَقُولِنَا أَنَّهُ مُوجُودٌ .

فَالْمُطْلَقُ يُقَابِلُ التَّسْبِيَّ ، وَمَعْنَاهُ فِي الْمُنْطِقِ : اليَقِينِي ، بِالْقِيَاسِ عَلَى مَا هُوَ افْتِرَاضِي ، مُحْتَمَلُ الصِّدْقِ مِنْ تَعْرِيفِ سَبْنَسِرِ لِلْمُطْلَقِ وَهُوَ تَعْرِيفٌ وَاقِعِيٌّ فَقَدْ أُعْتَبِرَ الْمُطْلَقُ لِمَتَنَاهِي وَلَا يُمَكِّنُ لِلْعَقْلِ تَصَوُّرَهُ وَأَنَّ هَذَا التَّعْرِيفَ يُذَكِّرُنَا مَرَّةً ثَانِيَةً بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى :

[II

لِذَلِكَ لَيْسَ بوسعنا - كما ذَكَرْنَا حِينَ الْبَحْثِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ قَبْلِ - تَصَوُّرَهُ فِي عُقُولِنَا لِأَنَّ أَيَّ عَمَلِيَّةٍ لِلْبَحْثِ عَنْ شَيْءٍ لَيْسَ لَهُ مِثْلٌ هِيَ عَمَلِيَّةٌ عَقِيمَةٌ وَيَعْجِزُ الْعَقْلُ عَنْ الْعُثُورِ عَلَى تَتَائِجِ فِيهَا .

وَيُؤَدِّي ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَى تَبِيحَةِ مُنْطِقِيَّةٍ فَإِذَا قُلْنَا الْمُطْلَقَ لَيَقْبَلُ التَّحْدِيدَ أَوِ التَّعْيِينَ أَوِ التَّشْبِيهَ فَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُ مُتَقَرِّدٌ بِصِفَاتٍ مُعَيَّنَةٍ لَا يَشْتَرِكُ أَيُّ شَيْءٍ مَعَهُ فِيهَا فَهُوَ إِذَنْ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ هُوَ أَذِنَ اللَّهُ جَلًّا وَعَلًّا كَمَا قَالَ وَصَفَ نَفْسَهُ .

وَلِذَلِكَ لَا يُطْلَقُ وَصْفُ الْمُطْلَقِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ وَمَادُونَهُ نِسْبِيٌّ وَعَلَيْهِ فَكُلُّ الصِّفَاتِ وَالْأَسْمَاءِ الْمُنْسُوبَةِ إِلَيْهِ سَتَكُونُ حُكْمًا مُطْلَقَةً وَكَامِلَةً فَعَدْلُهُ مُطْلَقٌ وَرَحْمَتُهُ مُطْلَقَةٌ وَقُدْرَتُهُ مُطْلَقَةٌ وَهَكَذَا يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَاصِفًا قُدْرَتَهُ : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر : 44] أَيُّ شَيْءٍ يَعْنِي بِالْمُطْلَقِ فَقُدْرَتُهُ كَمَا قُلْنَا مُطْلَقَةٌ وَعِلْمُهُ كَذَلِكَ سَنَأْخُذُ مِثَالًا عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر :

[44

﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : 29]

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : 231]

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران : 154]

وَيَتَوَسَّعُ عِلْمُ اللَّهِ الْمُطْلَقِ لِيَشْمَلَ الْوُجُودَ كُلَّهُ ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ
وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ

مُبِينٍ ﴾ [الأنعام : 59]

فَعَلَّمَ اللَّهُ وَقُدْرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ غَيْرَ مَخْصُوصَةٍ أَوْ مُحَدَّدَةٍ أَوْ يُمَكِّنُ قِيَاسَهَا أَوْ تَمَثِيلَهَا أَوْ تَشْبِيهَهَا لِأَنَّهَا صِفَاتٌ
مُطْلَقَةٌ فَكُلُّ مَا يُنْسَبُ وَيُوصَفُ بِهِ الْمُطْلَقِ فَهُوَ مُطْلَقٌ .

وَلِذَلِكَ وَرَدَ فِي النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ صِفَاتٌ لِلَّهِ الدَّائِمَةُ تَفِيدُ هَذَا الْمَعْنَى مِثْلُ الْأَحَدِ وَالصَّمَدِ وَالْوَّاحِدِ .

وَيُقَابِلُ الْمُطْلَقَ التَّسْبِيحِيَّ وَبِذَلِكَ يَكُونُ التَّسْبِيحِيُّ : هُوَ الشَّيْءُ الْمُنْسُوبُ لِغَيْرِهِ ، وَعِنْدَ ذِكْرِهِ يُقْرَنُ بِهِ صِفَةٌ أَوْ
شَرْطٌ أَوْ زَمَانٌ أَوْ عَدَدٌ وَهَذَا التَّعْرِيفُ يَنْطَبِقُ عَلَى كُلِّ الْمَوْجُودَاتِ وَالْأَشْيَاءِ فِي الْكُونِ وَكُلِّ مَخْلُوقٍ أَوْ
حَادِثٍ بِمَا فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ .

ولنرى ما تعنيه التَّسْبِيحِيَّةُ فِي فِكْرِ ائِشْتَاينِ الَّذِي وُضِعَ نَظْرِيَّتُهُ عَلَيْهَا :

عِنْدَمَا قَامَ ائِشْتَاينِ بِوَضْعِ النَّظْرِيَّةِ التَّسْبِيحِيَّةِ فِي بَدَايَاتِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ ، قَامَ بِقَلْبِ الْعُلُومِ الْفِيْزِيَاءِيَّةِ رَأْسًا
عَلَى عَقْبِ وَأَعْطَى عُلَمَاءَ الْفِيْزِيَاءِ فَهْمًا جَدِيدًا لِلزَّمَانِ وَالْمَكَانِ .

كَانَتْ قَوَائِنُ نِيوتُنْ تُنصُّ عَلَى أَنَّ الْمَكَانَ وَالزَّمَانَ تَابِعَتَيْنِ ، لَكِنْ فِي التَّصَوُّرَاتِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي قَدَّمَتْهَا النَّظَرِيَّةُ النَّسَبِيَّةُ الْخَاصَّةُ وَالْعَامَّةُ ، كَانَ الْمَكَانُ وَالزَّمَانُ قَابِلَيْنِ لِلتَّغْيِيرِ .

نَشْرُ الْبُرْتِ أَيْنِشْتَاينِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنْ نَظَرِيَّتِهِ النَّسَبِيَّةِ (النَّسَبِيَّةُ الْخَاصَّةُ) فِي عَامِ 1905 ، وَنَشْرُ بَعْدَهَا نَظَرِيَّةِ (النَّسَبِيَّةُ الْعَامَّةُ) فِي عَامِ 1916 .

مَا الْفَرْقُ بَيْنَ نَظَرِيَّةِ النَّسَبِيَّةِ الْخَاصَّةِ وَالنَّسَبِيَّةِ الْعَامَّةِ ؟

النَّسَبِيَّةُ الْخَاصَّةُ : تَبْحَثُ فَقَطُ فِي الْأَجْسَامِ أَوْ الْأَنْظُمَةِ الَّتِي تَتَحَرَّكُ بِسُرْعَةٍ ثَابِتَةٍ بِالنَّسَبَةِ إِلَى الْمُرَاقِبِ ، أَيْ الَّتِي تَتَحَرَّكُ حَرَكَةً مُنْتَظِمَةً دُونَ تَسَارِعٍ ، وَإِنْ سُرْعَةُ الضَّوِّ فِي الْفَرَاغِ مُسْتَقَلَّةٌ عَنْ حَرَكَةِ جَمِيعِ الْمُرَاقِبِينَ .

أَمَّا النَّسَبِيَّةُ الْعَامَّةُ : فَإِنَّهَا تَبْحَثُ فِي الْأَجْسَامِ الَّتِي تَتَسَارَعُ بِالنَّسَبَةِ إِلَى الْمُرَاقِبِ ، أَيْ الْأَجْسَامِ أَوْ الْجُمُوعَاتِ الَّتِي تَتَحَرَّكُ بِسُرْعَةٍ مُتَزَايِدَةٍ أَوْ مُتَقَاعِصَةٍ .

وَالزَّمَانُ فِي رَأْيِ ائِشْتَاينِ : أَنَّ الْفِيزِيَاءَ الْكَلَّاسِيكِيَّةَ ، نَسْتَحْدِمُ الْأَبْعَادَ الثَّلَاثَةَ فَقَطُ ، أَيْ الْأَبْعَادَ الْمَكَائِيَّةَ ، وَهِيَ الطُّولُ وَالْعَرْضُ وَالْإِرْتِفَاعُ ، وَهَذَا مَا كَانَ الْجَمِيعُ يَعْتَقِدُهُ ، بَيْنَمَا ائِشْتَاينِ أَوْجَدَ بَعْدًا رَابِعًا ، فَقَالَ : أَنَّ الْكُونَ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ هُوَ ذُو أَرْبَعَةِ إِبْعَادٍ لَا ثَلَاثَةَ كَمَا تَقُولُ الْفِيزِيَاءُ الْكَلَّاسِيكِيَّةُ ؛ وَهَذِهِ الْإِبْعَادُ هِيَ الطُّولُ وَالْعَرْضُ وَالْإِرْتِفَاعُ وَالزَّمَنُ ، وَسُمِّيَ ذَلِكَ بِاسْمِ (الزَّمَانِ) .

الْمَكَانُ فِي نَظَرِيَّةِ النَّسَبِيَّةِ

أَنَّ مَفْهُومَ نَسْبِيَّةِ الزَّمَنِ يُشْبِهُ بَعْضَ الشَّيْءِ نَسْبِيَّةَ الْمَكَانِ ، إِذِ تَقُولُ التَّسْبِيَّةُ أَنَّ الزَّمَانَ نَفْسَهُ لَا يَجْرِي فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْكُونِ بِالتَّسَاوِي كَمَا قَالَ بِيوتن ، بَلْ هُوَ يَطْوِلُ وَيَقْصُرُ حَسَبَ ظُرُوفٍ مُعَيَّنَةٍ وَأَمَّا كُنْهَ مُعَيَّنَةٍ .

وَيَقُولُ آينشتاينُ بِأَنَّ الزَّمَانَ يَطْوِلُ وَيَقْصُرُ تَبَعًا لِعَامِلَيْنِ ، الْأَوَّلُ : السَّرْعَةُ وَهَذَا مَا يَبْحِثُهُ فِي التَّسْبِيَّةِ الْخَاصَّةِ ، وَالثَّانِي : الْكُتْلَةُ وَهَذَا مَا يَبْحِثُهُ فِي التَّسْبِيَّةِ الْعَامَّةِ .

النَّظَرِيَّةُ تَقُولُ : لَيْسَ فِي هَذَا الْكُونِ مَكَانٌ مُطْلَقٌ ،

أَنَّ مَفْهُومَ نَسْبِيَّةِ الزَّمَنِ يُشْبِهُ بَعْضَ الشَّيْءِ نَسْبِيَّةَ الْمَكَانِ ، إِذِ تَقُولُ التَّسْبِيَّةُ أَنَّ الزَّمَانَ نَفْسَهُ لَا يَجْرِي فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْكُونِ بِالتَّسَاوِي كَمَا قَالَ بِيوتن ، بَلْ هُوَ يَطْوِلُ وَيَقْصُرُ حَسَبَ ظُرُوفٍ مُعَيَّنَةٍ وَأَمَّا كُنْهَ مُعَيَّنَةٍ .

وَيَقُولُ آينشتاينُ بِأَنَّ الزَّمَانَ يَطْوِلُ وَيَقْصُرُ تَبَعًا لِعَامِلَيْنِ ، الْأَوَّلُ : السَّرْعَةُ وَهَذَا مَا يَبْحِثُهُ فِي التَّسْبِيَّةِ الْخَاصَّةِ ، وَالثَّانِي : الْكُتْلَةُ وَهَذَا مَا يَبْحِثُهُ فِي التَّسْبِيَّةِ الْعَامَّةِ .

وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نَجِدَ مَفْهُومَ التَّسْبِيَّةِ كَمَا رَأَاهَا آينشتاينُ فِي النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ فَقَدْ أَشَارَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ إِلَى التَّسْبِيَّةِ فِي الزَّمَنِ ، فَقَرَّرَ أَنَّ هُنَاكَ يَوْمًا طَوَّلَهُ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَيَوْمًا يَبْلُغُ طَوَّلُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (يَدْبُرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يُعْرِجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) . . . وَقَالَ تَعَالَى : (تَعْرَجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) .

وَالزَّمَانَ كَمَا يَقُولُ آينشتاينُ لَيْسَتْ لَهُ حَقِيقَةٌ مُنْفَرِدَةٌ وَقَائِمَةٌ بِذَاتِهَا ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ خَوَاصِّ الْمَادَّةِ ، وَلِذَلِكَ فَالْكَوْنُ أَشْبَهُ مَا يَكُونُ بِكِتَابٍ دُونَتِ فِيهِ الْحَوَادِثُ بِدِقَّةٍ ، بِحَيْثُ إِنَّ كُلَّ حَرَكَةٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ قَوْلٍ مُسَجَّلَةٍ فِي هَذَا الْكُونِ . وَمَادَامَ الْاهْتِرَازُ مُوجُودًا فَإِنَّ الْأَصْوَاتَ بَاقِيَةً وَمُسَجَّلَةً فِي هَذَا الْكُونِ . وَكُلُّ مَا يَتَلَفَّظُ

بِهِ الْإِنْسَانُ مِنْ يَوْمٍ وَّلَادَتِهِ وَحَتَّى وَفَاتِهِ يَبْقَى مَحْفُوظًا ، قَالَ تَعَالَى : (مَا يُلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) .

قَالَ تَعَالَى : (وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِ طَائِرٌ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا . اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) .

الْخَيْرُ وَالشَّرُّ

﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : 26]

أَنَّ الْخَيْرَ ، لُغَةً ، هُوَ الْحَسَنُ لِذَاتِهِ ، وَلَمَّا يُحَقِّقْهُ مِنْ لَذَّةٍ ، أَوْ نَفْعٍ أَوْ سَعَادَةٍ . وَهُوَ ضِدُّ الشَّرِّ . وَ تَحْمِلُ كَلِمَةُ الْخَيْرِ فِي الْمَعَاجِمِ اللَّغَوِيَّةِ مَعَانِي كَثِيرَةً ، لَكِنَّا نَكْتَفِي بِذِكْرِ مِنْهَا مَا ذَكَرْنَاهُ لِمَا لَهُ اِرْتِبَاطٌ بِمَوْضِعِنَا . لِأَنَّ كَلِمَةَ الْخَيْرِ فِي مَجَالِ الْفَلَسَفَةِ تُطَلَّقُ عَلَى اللَّذَةِ وَالسَّعَادَةِ ، وَأحيانًا أُخْرَى عَلَى مَا هُوَ حَسَنٌ وَنَافِعٌ .

أَنَّ (الخير) فِي التَّعْرِيفِ الْاِصْطِلَاحِيِّ : مَا يَرْغَبُ فِيهِ كُلُّ النَّاسِ ، كَالْعَقْلِ ، وَالْعَدْلِ ، وَالْفَضْلِ ، وَالشَّيْءِ النَّافِعِ ، وَضِدُّهُ : الشَّرُّ .

مَفْهُومُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فِي الْفَلَسَفَةِ

أَنَّ الطَّبِيعَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ فِطْرِيَّةٌ وَجَاهِلَةٌ بِمَا هِيَ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فِي الْحَيَاةِ ، لَكِنَّهَا تَكْتَسِبُهَا مِنَ الْمُحِيطِ .
فَكُلَّمَا كَانَ الْمُحِيطُ يَتَسَمُّ بِقِيمِ الْخَيْرِ ، أَكْتَسَبَتِ الْكَيْنُونَةُ قِيَمَةَ . وَكُلَّمَا سَادَتِ قِيَمُ الشَّرِّ فِي الْمُحِيطِ ،
تَأَصَّلَتْ قِيَمَةٌ فِي الذَّاتِ . وَبِالرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ فَإِنَّ الْخِيَارَ النَّهَائِيَّ ، يَعُودُ إِلَى الْكَيْنُونَةِ ذَاتَهَا وَمَدَى مَبْلَغِهَا
نَحْوَ الْخَيْرِ أَوْ الشَّرِّ . فَإِنَّ كَانَتْ طَبِيعَتُهَا الْمَكْتَسِبَةَ اعْتَادَتْ عَلَى النَّهْلِ مِنْ مَنبَعِ قِيَمِ الْخَيْرِ أَصْبَحَتْ
خَيْرِهِ ، وَإِنْ نَهَلَتْ مِنْ مَنبَعِ قِيَمِ الشَّرِّ اعْتَادَتْ عَلَى سُلُوكِ الشَّرِّ فِي مَسِيرِهِ حَيَاتِيًّا .

يَعْتَقِدُ ((أفلاطون)) "أَنَّ الْخَيْرَ طَبِيعٌ لِمَنْ اعْتَادَهُ ، وَالشَّرَّ مُبَاحٌ لِمَنْ أَرَادَهُ"

كلام افلاطون هذا يذكرنا بالنص القرآني : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ [الشمس : 7] ﴿ فَالْهَمَّهَا فُجُورَهَا
وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس : 8] فالنفس مركبة فيها بذور الخير وبذور الشر والانسان هو الذي يختار .

تَعُودُ سِمَةُ الْأَكْتِسَابِ مِنَ الْمُحِيطِ لِقِيَمِ الْخَيْرِ أَوْ الشَّرِّ إِلَى مَدَى الْارْتِقَاءِ ، بِالْمَنْظُومَةِ الْعُقْلِيَّةِ لِلْكَيْنُونَةِ .
فَإِنَّ كَانَتْ مَدَارِكُهَا الْمَعْرِفِيَّةَ وَالْعِلْمِيَّةَ وَاسِعَةً ، تَمَكَّنَتْ مِنَ التَّمْيِيزِ بَيْنَ فِعْلِ الْخَيْرِ وَصُورَةِ عَنْ فِعْلِ الشَّرِّ
وَضَرَرِهِ عَلَى الذَّاتِ وَالْمُجْتَمَعِ .

وَبِالضَّدِّ مِنْ ذَلِكَ فَإِنَّهَا تَقْتَدِرُ إِلَى حَالَةِ التَّمْيِيزِ وَتَنْهَلُ مِنْ قِيَمِ الشَّرِّ تَوَجُّهَاتِهَا ، وَبُعْضُ النَّظَرِ عَنْ صُورِ
الشَّرِّ وَمَا يُمَكِّنُ أَنْ تَلْحَقَهُ مِنْ ضَرَرِ عَلَى الْمُجْتَمَعِ . الْمُهْمُ أَنَّهَا تَحَقِّقُ الْمَصْلَحَةَ لِلذَّاتِ الشَّرِيرَةِ ، عَلَى
حِسَابِ بَقِيَّةِ أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ .

تُعْبَرُ الذَّاتُ الْخَيْرِيَّةُ عَنْ نَفْسِهَا مِنْ خِلَالِ سُلُوكِهَا الْيَوْمِيِّ مَعَ الذَّوَاتِ الْأُخْرَى فِي الْمُجْتَمَعِ ، وَتَتَعَاطَى
سُلُوكِيًّا عَبْرَ صُورِ الْخَيْرِ وَمَا يَمْتَحِضُ عَنْهَا مِنْ أَعْمَالِ خَيْرِهِ تَعَكُّسُ أَوْجُهِ الْفَرَحِ وَالسَّعَادَةِ فِي مُجْمَلِ

تعاملها مع الآخرين . في حين أن الذات الشريرة ، قد لاتعبر عما يكمن في ذاتها بشكل مباشر مع أفراد المجتمع تحاشياً لردود الفعل السلبية وما يمتخص عنها من أفعال شريرة ، لكنها لن تتوان عن فعل الشر حال توفر الظروف اللازمة لها لتعكس أوجه الألم والفرح على الآخرين .

يرى ((أفلاطون)) "إذا تحركت صورة الشر ولم تظهر ولدت الفرع ، وإذا ظهرت ولدت الألم . وإذا تحركت صورة الخير ولم تظهر ، ولدت الفرح وإذا ظهرت ولدت اللذة" .

أن منظومة العقل وما اكتسبت من معارف وعلوم ، تفعل نظام السيطرة والتحكم بالسلوكيات والأفعال اليومية وتمكن الإرادة على اتباع مسالك صحيحه وبالمقابل فإنها تضعف السلوكيات والأفعال الغريزية للذات الساعية لاعتماد مسالك الشر لتحقيق الأغراض الخاصة على حساب المجتمع .

الطبيعة البشرية أنائية ، تسعى لتحقيق الذات على حساب الآخرين خاصة عند اختلال نظامها الإرادي . وبنفس الوقت لا يمكن الركون إليها للحفاظ على أمن واستقرار المجتمع ، بسبب اختلاف مستويات أنظمه التحكم والسيطرة للنظام الإرادي عند البشر .

لذا يتعين فرض نظام اجتماعي مُحكم للسيطرة على أفعال وسلوكيات البشر ، بما يحقق الأمن والاستقرار الاجتماعي من خلال فرض القانون على الجميع . فهذا النظام الرادع المُستند إلى مبدأ فرض العقوبة المناسبة على الخارجين على حدود المجتمع ، يُشكل الضمان اللازم لتمسكهم بالعقد الاجتماعي .

يرى ((دانتي)) "أن النفس ساذجة ، تجري كالطفل وراء مصالحها الدنيوية التافهة ، لذا من الضروري وجود قانون وحاكم لرعاية البشر" .

استندت معظم الديانات والنظريات الإصلاحية والأعراف الاجتماعية في توجهاتها على قيم الخير ، للتصدي لقيم الشر وما تمثله من سلطات مستبدة تنال من حقوق الآخرين . وعملية أضعافها ، تؤدي إلى إزالة نظام الحماية الذاتي عن الإنسان السوي فلا يجد ما يردعه عن ارتكاب الجرائم واستخدام العنف ضد الآخرين لتحقيق مصالحه الذاتية . ولا تحقق وسائل الردع الأخرى (القانون وأجهزة العنف المتعددة) مسعاها المنشود دون تعميق مبادئ الخير في وجدان المجتمع ، لتساعدها في ضبط سلوك الأفراد غير الأسوياء الساعين لفرض توجهاتهم الشريرة على المجتمع .

لقد رأى مجموعته من الفلاسفة أن الخير هو القيمة العليا التي تعود إليها كل القيم كالسعادة والعدالة و الجمال . . إلخ . فأفلاطون ، مثلاً ، أدخل قيمة الجمال في مفهوم الخير ، فقال : الجمال هو بهاء الخير . و نجد أن أرسطو لا يختلف كثيراً عن أستاذه أفلاطون ، لذلك فإن الخير عنده هو ما تسعى إليه الأشياء جميعاً . إلا أن أرسطو يرفض نظرية المثل الأفلاطونية ، ولذلك فلا يوجد عنده مثال للخير . بيد أنه يرى أن الخير في كل مظاهرة مستمد من خيرية الله . ويعلق برتراند راسل على هذه الأفكار الأرسطية القلقة بالقول أن أرسطو وإن بدأ أنه يتعد عن نظرية المثل الأفلاطونية ، فإنه يرجع إليها من خلال فكره خيرية الله .

وَإِذَا كَانَ أَرِسْطُو بَرِيَّ أَنْ الْخَيْرِ مُسْتَمَدُّ مِنْ خَيْرِيَّةِ اللَّهِ ، فَكَيْفَ هُوَ هَذَا اللَّهُ عِنْدَ أَرِسْطُو ؟ أَنَّهُ ، كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ ، مَجْرَدٌ مُحْرَكٌ أَوَّلٌ يُعْطِي لِلْعَالَمِ الدَّفْعَةَ الْمُحْرَكَةَ الْأُولَى . وَهَذِهِ هِيَ مُهِمَّةُ الْوَحِيدَةِ ، فَلَيْسَ لِلَّهِ عِنْدَ أَرِسْطُو أَيُّ اِهْتِمَامٍ إِيْجَابِيٍّ بِالْعَالَمِ بَعْدَ تَحْرِيكِهِ إِيَّاهُ .

لَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ أَرِسْطُو يُعْتَقِدُ أَنَّ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ تَسْعَى إِلَى الْخَيْرِ . وَنَجِدُ ابْنَ سِينَا يُقْتَرِبُ مِنْ رَأْيِ أَرِسْطُو الَّذِي ذَكَرْنَاهُ ، فَيَقُولُ : أَنَّ الْخَيْرَ بِذَاتِهِ مَعْشُوقٌ ، وَكَمَا قَالَ أَرِسْطُو أَنَّ الْخَيْرَ مُسْتَمَدُّ مِنْ خَيْرِيَّةِ اللَّهِ ، نَجِدُ ابْنَ سِينَا يَقُولُ أَيْضًا أَنَّ الْعِلَّةَ الْأُولَى مُسْتَوِيَّةٌ لِجَمِيعِ الْخَيْرِيَّةِ . . . فَهِيَ خَيْرٌ فِي ذَاتِهَا ، وَهِيَ خَيْرٌ مُطْلَقٌ فِي جَمِيعِ الْوُجُوهِ . فَأَذِنْ نَلْحِظْ كَيْفَ أَنَّ ابْنَ سِينَا يَتَّفِقُ مَعَ أَرِسْطُو فِي كَوْنِ الْعِلَّةِ الْأُولَى خَيْرِيَّةً .

وَإِذَا كَانَ أَرِسْطُو بَرِيَّ أَنَّ بَعْضَ الْبَشَرِ يَمَارِسُونَ الشَّرَّ عَنْ عَمْدٍ ، فَإِنَّ الْإِسْلَامَ يَرَى ذَلِكَ أَيْضًا ، إِذْ أَنَّ الْإِنْسَانَ حَسَبَ مَا وَرَدَ فِي السِّيَاقِ الْقُرْآنِيِّ هُوَ : ظُلُومٌ ، جَهْلٌ ، هُلُوعٌ . . . الْإِنْحِ . وَبِالْتَّالِي ، فَإِنَّ مَارِسَتَهُ لِلشَّرِّ جُزْءٌ مِنْ طَبِيعَتِهِ . غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ الطَّبِيعَةَ سَيِّئَةٌ ، حَسَبَ التَّصَوُّصِ الْقُرْآنِيِّ ، وَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ الْقَضَاءِ عَلَيْهَا حَتَّى يُصْبِحَ إِنْسَانًا فَاضِلًا (سُورَةُ الشَّمْسِ ، الْآيَةُ : 9) . فَفَعَلَ الْخَيْرِ ، فِي الْقُرْآنِ ، هُوَ تَبِيحَةُ كَسْبٍ وَسَعْيٍ وَمُجَاهَدَةٌ وَتَزْكِيَةٌ وَإِرَادَةٌ ، وَهَذِهِ الْأُمُورُ هِيَ الَّتِي تُمَيِّزُ الْإِنْسَانَ عَنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ . وَهَكَذَا فَإِنَّ الْخَيْرَ فِي الْإِسْلَامِ هُوَ أَيْضًا فَضِيلَةٌ تُكَسَّبُ بِالْمِرَانِ ، وَهَذَا نَفْسٌ مَا قَالَهُ أَرِسْطُو حِينَ رَبَطَ الْخَيْرَ بِالْعَقْلِ الْعَمَلِيِّ . وَالْقُرْآنُ ، رَغْمَ تَأْكِيدِهِ عَلَى طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ الشَّرِيرَةِ ، فَهُوَ مُتَقَابِلٌ بَاتِّصَارِ الْخَيْرِ وَغَلْبَتِهِ ، فَقَدْ جَاءَ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ مَا يَلِي : « فَأَمَّا الرُّبْدُ فَيَذْهَبُ جَفَاءً وَأَمَّا مَا يُنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » . وَلَعَلَّ اتِّصَارَ الْخَيْرِ مُرْتَبِطٌ بِمَبْدَأِ

خَيْرِيَّةُ اللَّهِ . ثُمَّ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْضُرُ فِي الإِسْلَامِ ، كَمَا تَحْضُرُ الشَّهْوَةُ فِي الفِكْرِ الأرسطي حَوْلَ الشَّرِّ .
فَالشَّيْطَانُ يُوسِسُ لِلإِنْسَانِ فَيَزِينُ لَهُ الشَّرَّ لِيُظَنَّهُ خَيْرًا . عِلَاوَةً عَلَى أَنَّ لِلإِنْسَانَ ، وَفَقًا لِلْقُرْآنِ ، نَفْسًا
تَأْمُرُهُ بِالسُّوءِ (سُورَةُ يُوسُفَ ، الآيَةُ : 53) .

وُجُودَ الشَّرِّ شَكْلٌ أَحَدٌ أَتْرَزُ التَّحْدِيَاتِ لِلْفَلَّاسِفَةِ وَالمُتَكَلِّمِينَ ، وَالأَسْئَلَةَ المُتَعَلِّقَةَ بِوُجُودِ الشَّرِّ يُعَادِ
طَرَحُهَا ، خَاصَّةً فِي أَرْمَنَةِ المِحْنِ وَالكَوَارِثِ وَالتَّحْوَلَاتِ الكُبْرَى الَّتِي تَعْرِفُ بِالمألُوفِ أَوِ الثَّوَابِتِ ، فَمَا
المُقْصُودُ بِالشَّرِّ ؟ وَلِمَاذَا اعتَبِرَ وُجُودَهُ مُعْضَلَةً ؟ وَكَيْفَ تَمَّ بَحْثُهُ تَارِيخِيًا ؟ وَمَا أَوْجُهُ الإِشْكَالِ فِي
اسْتِشْكَالِ الشَّرِّ ؟

مَفْهُومُ الشَّرِّ

أَنَّ الشَّرَّ يُنْطَبِقُ عَلَى دَائِرَةٍ مُحَدَّدَةٍ مِنَ التَّقَايِصِ وَالحَاجَاتِ ، وَهُوَ حَرَمَانُ المَوْجُودِ مِنْ كَمَالِهِ الضَّرُورِيِّ .
وَقسِمُ الفلاسفةِ الشرورِ إِلَى ثَلَاثِ أَنْوَاعٍ : الشُّرُورَ الطَّبِيعِيَّةَ الَّتِي تَحْدُثُ فِي الكُونِ ، وَالشُّرُورَ الإِنْسَانِيَّةَ
وَقد تُسَمَّى الشُّرُورَ الأخْلَاقِيَّةَ ، لِأَنَّهَا صَادِرَةٌ عَنِ إِرَادَةِ حُرَّةٍ مِنَ الإِنْسَانِ ، وَالشُّرُورَ المِيتافِيزِيَّةَ المُتَعَلِّقَةَ
بِالتَّقْصِ الَّذِي تَنْطَوِي عَلَيْهِ مَاهِيَّةُ المَوْجُودَاتِ ، فَالشَّرُّ - عَلَى هَذَا - مُرْتَبِطٌ بِالإِرَادَةِ الإِلَهِيَّةِ وَتَنْذِيرِ العَالَمِ ،
وَمِنْ ثَمَّ فَهُوَ لَا يُنْفَصَلُ عَنِ دَلَالَتِهِ المِيتافِيزِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ ، وَلَا يُمَكِّنُ حَلَّ مُشْكِلةِ الشَّرِّ وَفَقَ مُنْظُورٌ وَضِعِيٌّ
أَوْ طَبِيعِيٌّ فَقَطْ ، بَلْ يَجِبُ أَنْ نَسْتَحْضِرَ البُعْدَيْنِ الأُفْقِيِّ (المَادِي) وَالعُمُودِيَّ (الغَيْبِي) وَطَبْعًا هَذِهِ النَتِيجَةُ
الَّتِي اعتبرتِ ارتباطَ الشرِّ بالإرادة الإلهية غير منطقي فما الذي جهلهم يتوصلون إلى هذه النتيجة
الافتراضية .

ثَانِيًا : تَشْخِيسُ مُشْكَلَةِ وُجُودِ الشَّرِّ

وَاجِهَ الْفَلَّاسِفَةَ وَالْمُتَكَلِّمُونَ قَدِيمًا الْأَسْئَلَةَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِوُجُودِ الشَّرِّ ، وَتَلَخَّصَ وَجْهَ الْأَشْكَالِ فِي وُجُودِ الشَّرِّ فِي رِقَاطِ أَصُوغِهَا فِي الْأَسْئَلَةِ الثَّلَاثَةِ الْآتِيَةِ :

لِمَاذَا يُوجَدُ الشَّرُّ ؟

وَكَيْفَ يَصْدُرُ عَمَّنْ هُوَ خَيْرٌ مُطْلَقٌ ؟

أَيْنَ اللَّهُ مِنْ هَذِهِ الشُّرُورِ فِي الْعَالَمِ ؟

لِمَاذَا يُوجَدُ الشَّرُّ ؟

يُبْحَثُ هَذَا السُّؤَالُ عَنِ الْأَسْبَابِ وَالْعِلَلِ وَالْحُكْمِ ، وَهُوَ مَا يَشْغَلُ بِهِ الْعَقْلُ الْفُلْسَفِيِّ وَالْعَقْلُ الْكَلَامِيِّ مَعًا ، وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنْ تَوْضِيحِ أَنَّ عُمُومَ السُّؤَالِ عَنِ عِلَّةِ وُجُودِ الشَّرِّ قَدْ يُخْرِجُ عَنِ مُحَاوَلَةِ الْفَهْمِ وَالتَّفْسِيرِ إِلَى نَمَطٍ آخَرَ مِنَ التَّفْكِيرِ وَهُوَ الاسْتِدْلَالُ بِوُجُودِ الشَّرِّ عَلَى نَفْيِ الصَّانِعِ أَوْ نَفْيِ وُجُودِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَمِنْ ثَمَّ يُخْرِجُ السُّؤَالُ هُنَا عَنِ مَدْلُولِ طَلَبِ الْمَعْرِفَةِ إِلَى الْاسْتِنكَارِ بِهَدَفِ إِيْرَادِ الشُّبُهَاتِ .

لَكِنَّ ذَلِكَ يَجِبُ إِلَّا يَمْنَعُ مِنَ التَّعَامُلِ مَعَهُ بِجَدِيَّةٍ بُرُوءِيَّةٍ وَمَزِيدٍ مِنَ الْعَقْلَانَةِ ، خُصُوصًا حِينَ تَصْدُرُ مِثْلَ هَذِهِ الْأَسْئَلَةِ عَنِ جِيلِ الشَّبَابِ الْمَعَاصِرِ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى إِيْجَابَاتٍ مُقْنَعَةٍ تُحْرَمُ أَسْئَلَتِهِ وَطَرِيقَةَ تَفْكِيرِهِ .

اسْتَشْكَلَ الْفَلَّاسِفَةُ وُجُودَ الشَّرِّ ، سِوَاءً فِي الطَّبِيعَةِ الْكُوْنِيَّةِ أَمْ فِي الطَّبِيعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، فَصَدُورَ الشَّرِّ عَنِ الْإِنْسَانِ (أَوْ الشَّرِّ الْأَخْلَاقِيِّ) لَا يَنْسَجِمُ مَعَ فِكْرِهِ كَوْنِهِ كَانِنًا أَخْلَاقِيًّا ، فَكَيْفَ يُمَكِّنُ لِكَائِنِ عَاقِلٍ وَمَسْؤُولٍ

أَنْ يَسَبِّبَ فِي أَلَمٍ لِنَفْسِهِ أَوْ لِغَيْرِهِ ؟ فَهَذَا الاسْتِشْكَالُ يَتَّصِلُ بِالْإِرَادَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَيُفْتَرَضُ أَنْ تَمَّ تَنَاقُضًا
مَا بَيْنَ إِرَادَةِ الْإِنْسَانِ الْحُرَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ وَيَبْنِي صُدُورَ الشَّرِّ عَنْهُ ، الْأَمْرُ الَّذِي يُوجِبُ الْبَحْثَ عَنْ تَفْسِيرِهِ .

الشر كما الخير يكمن في النفس الإنسانية

فَكَيْفَ يُمَكِّنُ لِكَائِنٍ عَاقِلٍ وَمَسْئُولٍ أَنْ يَسَبِّبَ فِي أَلَمٍ لِنَفْسِهِ أَوْ لِغَيْرِهِ ؟

ان هذا السؤال يتجاهل الطبيعة التكوينية الخلقية للكائن البشري فصحيح ان الانسان عاقل ومسؤول
وتصرفاته اختيارية وارادية فهو في الوقت ذاته كائن له نفس والتي هي مسؤولة عن النوازع والغرائز التي
بسببها يندفع الانسان لفعل الشر فالنفس هي جزء من الطبيعة البشرية والمشكلة هنا تكمن في تهذيب
النفس وتوجيهها نحو فعل الخير وابعادها عن فعل الشرور اذ انها مركبة على إمكانية فعل الأمرين معا
تماما مثل العقل الذي هو حر في اختيار الفعل الذي يريده لذلك فالنص القرآني قد فهم تماما طبيعة الانسان
المركبة والمعقدة ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ [الشمس : 7] ﴿ فَالْهَمَّهَا فَجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس : 8]
فالنفس مركبة فيها بذور الخير وبذور الشر والانسان هو الذي يختار .

أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلشَّرِّ الطَّبِيعِيِّ أَوْ الْمَعْرُوفِ إِلَى قُوَّةِ عَلِيًّا أَسْمَى فَإِنَّهُ يُبْثِرُ تَنَاقُضًا مِنْ نَوْعٍ آخَرَ ، فَكَيْفَ لِصَاحِبِ
الْإِرَادَةِ الْخَيْرَةِ وَالْأَسْمَى أَنْ يَصْدُرَ عَنْهُ الشَّرُّ ؟ وَهَذَا نَقَاشٌ يَدُورُ حَوْلَ صِفَاتِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ .

أَمَّا عُلَمَاءُ الْكَلَامِ فَقَدْ وَاجَهُوا أَسْئَلَةَ وَإِشْكَالَاتٍ تَتَّصِلُ بِتَفْسِيرِ أَفْعَالِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْكُونِ مِنْ جِهَةٍ وَأَفْعَالِ
الْإِنْسَانِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى ، وَهَذَا يَتَّصِلُ بِأَفْكَارِ الْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ ، وَالتَّكْلِيفِ ، وَحُرِّيَّةِ الْإِنْسَانِ وَمَسْئُولِيَّتِهِ عَنْ
أَفْعَالِهِ ، وَالْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ . .

كَيْفَ يَصْدُرُ الشَّرُّ عَمَّنْ هُوَ خَيْرٌ مُطْلَقٌ ؟

يَسْتَبِينُ هَذَا السُّؤَالَ وُجُودَ تَنَاقُضٍ مُنْطَقِي دَاخِلِي بَيْنَ خَيْرِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى (بِصِفَاتِهِ الْحَسَنَى) مِنْ جِهَةٍ
وَوُجُودِ الشَّرِّ فِي الْعَالَمِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى ، فَالْخَيْرُ لَا يَصْدُرُ عَنْهُ شُرُورٌ كَمَا سَبَقَ .

— أَيْنَ اللَّهُ مِنْ هَذِهِ الشُّرُورِ فِي الْعَالَمِ كَالْحُرُوبِ وَالْجَاعَاتِ وَالْكَوَارِثِ وَالظُّلْمِ ؟

يُثِيرُ هَذَا السُّؤَالَ إِشْكَالًا كَلَامِيًّا وَأَخْلَاقِيًّا يَتَلَخَّصُ فِي أَنَّهُ إِذَا كَانَ اللَّهُ خَيْرًا وَمَوْجُودًا فَلِمَاذَا لَا يَتَدَخَّلُ
لِلزَّالَةِ الشَّرِّ ، بِمَا أَنَّ عِلْمَهُ مُحِيطٌ بِالْمَوْجُودَاتِ وَقُدْرَتُهُ شَامِلَةٌ .

وَقَدْ دَفَعَ هَذَا الْإِشْكَالَ بَعْضُهُمْ إِلَى جَعْلِ وُجُودِ الشَّرِّ دَلِيلًا عَلَى نَفْيِ وُجُودِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، بِحُجَّةِ
أَنَّ وُجُودَ الشَّيْءِ مِنْ دُونِ لَوَازِمِهِ غَيْرٌ مُمَكِّنٍ ، فَلَوْ كَانَ اللَّهُ مَوْجُودًا لَلَزِمَ أَنْ يُزِيلَ الشَّرَّ بِقُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ
الْمُحِيطَيْنِ وَإِرَادَتِهِ الْحَيَّةِ ، وَلَوْ كَانَ اللَّهُ خَيْرًا حَقًّا لَمَا رَضِيَ بِهَذَا الظُّلْمِ وَلِتَدْخُلَ لِتَضَرَّةِ الْمَظْلُومِينَ ، وَمَنْ
تَمَّ فَإِنَّ وُجُودَ الشَّرِّ يَسْتَلْزِمُ عَدَمَ وُجُودِ اللَّهِ .

يُمْكِنُ فِي الْوَاقِعِ رَدُّ الْأَسْئَلَةِ الثَّلَاثَةِ السَّابِقَةِ إِلَى إِشْكَالَيْنِ مَرْكَبَيْنِ :

الْإِشْكَالُ الْأَوَّلُ يَتَّصِلُ بِتَصَوُّرَاتِ الْبَشَرِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ صُورَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَذْهَانِنَا ، وَهَلْ مَصْدَرُ هَذِهِ
الصُّورَةِ عَقْلِيٌّ مَحْضٌ أَمْ شَرْعِيٌّ ، خُصُوصًا أَنَّنَا تَتَحَدَّثُ هُنَا عَنْ مَسَائِلٍ مِيتَافِيزِيَّةٍ تَتَّصِلُ بِعَالَمِ الْغَيْبِ ،
وَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ نَخْضَعَ صُورَةَ اللَّهِ تَعَالَى لِقَوَائِنِ الْإِنْسَانِ وَمَعْهُدَاتِهِ فِي الْمَعَايِرِ وَالتَّقْوِيَّاتِ ؟ هَلْ يَجِبُ عَلَى
اللَّهِ تَعَالَى شَيْءٌ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَخْضَعَ لِقَوَائِنِ الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ وَتَقْوِيَّاتِهِ ؟ هُنَا يَظْهَرُ الْإِشْكَالُ الْكَبِيرُ فِي
تَشْبِيهِ اللَّهِ بِخَلْقِهِ أَوْ قِيَاسِ الْخَالِقِ عَلَى الْمَخْلُوقِ ، الْأَمْرُ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُلْغِي الْفَوَاقِرَ بَيْنَهُمَا .

الأشكال الأخرى تتصل بتصوراتنا نحن البشر عن الإنسان نفسه وموقعه في هذا الكون ، هل هو حاكم أم
محكوم ؟ وهل هو خالق أم مخلوق ؟

مُشكلة الشرِّ في النقاشات التاريخيَّة

قادت مُشكلة الشرِّ تاريخياً إلى ظهورِ جُملةٍ من الأفكارِ والمعتقدات التي حاولت تجاوزها بصورة أو
أخرى ، بل قادت بعضهم إلى إنكار وجود الصانع قديماً ، ومن تلك المعتقدات -مثلاً- أن الثنوية قالوا
بوجود إلهين للتخلص من مُشكلة الشرِّ ، إله للخير وآخر للشرِّ حتى يتجاوزوا ذلك التناقض المُشار إليه
سابقاً .

وقالت المسيحية بفكره الخطيئة الأصلية التي هي أصل الشرور ، وفي الإسلام ذهب المعتزلة إلى القول
أن العباد يخلقون أفعالهم ، وبهذا ظنوا أنهم قد حلوا مُشكلة الشرور الإنسانيَّة ، وذهب الأشاعرة إلى أن
الله خالق كل شيء ولكن العباد يكسبون أفعالهم ، فميزوا بين الخلق والكسب (الفعل غير المؤثر) ،
لإثبات السببية والتأثير لله وحده .

مفهوم الخير والشرِّ في النصوص القرآنيَّة

ان أغلب الإشكالات سببها تحديد الدقيق للمعنى الذي يثير الشك والريبة او الجدل ويقدر ما تعدد
التعريفات تعدد الاختلافات والاشكالات لذلك فلقد توصل سقراط لحل قضية التعاريف للوصول الى
نتائج منطقية والمنهج السقراطي يُعرف أيضاً باسم منهج إينخوس أو الجدل السقراطي ، إذ يقوم على
طرح الأسئلة والإجابة عنها بغرض تحفيز التفكير النقدي واستخلاص الأفكار والافتراضات المسبقة

الضمنية لأنه يُستعمل بغرض إخراج أو توليد التعريفات بشكل ضمني من معتقدات المتحاورين، أو بغرض مساعدتهم في الفهم بشكل أفضل .

**وبناء عليه يجب البحث عن تعريف دقيق لمعنى الخير والشر في النصوص
القرآنية وبعد ذلك سنوزن كل القضايا والإشكالات المتعلقة بهما بهذا الميزان
المنطقي التعريفي وسنبداً بمفهوم الخير**

من الألفاظ المركزية في القرآن لفظ (الخير)، حيث ورد هذا اللفظ ما يقرب من مئة وثمانين مرة، جاء في معظمها (اسماً)، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة:45)، وجاء في سبعة مواضع فقط (فعالاً)، منها قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ (القصص:66) .

ولفظ (الخير) في الأصل اللغوي يدل على العطف والميل، وعليه قالوا: (الخير) ضد الشر؛ لأن كل أحد يميل إليه، ويعطف على صاحبه؛ وعليه أيضاً قالوا: (الاستخارة) وهي الاستعطاف، لأن المستخير يسأل خير الأمرين، ويُقدِّم عليه؛ و(الحَيِّرة): الاختيار؛ لأن المختار لأمر إنما هو مائل إليه، ومنعطف عليه دون غيره .

ثم توسعوا في هذا الأصل اللغوي، فقالوا: رجل خير، أي: فاضل؛ وقوم خيار وأخيار، أي: من أفاضل الناس . و(الخير) من أسماء المال، والعرب تسمى الخيل: الخير؛ لما فيها من الخير .

ثم إن (الخير) في التعريف الاصطلاحي: ما يرغب فيه كل الناس، كالعقل، والعدل، والفضل، والشيء النافع، وضده: الشر .

والخير) يطلق على نوعين: أحدهما: خير مطلق، وهو أن يكون مرغوباً فيه بكل حال، كطلب الجنة .
 وثانيهما: خير نسبي، ويكون مقابلاً للشر، كالمال يكون خيراً للبعض، ويكون شراً لآخرين .
 ولفظ (الخير) في القرآن على وجهين: أحدهما: أن يكون (اسماً)، كقوله تعالى: ﴿ ولتكن منكم أمة
 يدعون إلى الخير ﴾ (آل عمران:104) . ثانيهما: أن يكون (وصفاً)، على تقدير صيغة (أفعل)، كقوله
 تعالى: ﴿ وأن تصوموا خير لكم ﴾ (البقرة:184)، أي: الصيام للمسافر أفضل من الفطر، ونحو ذلك قوله
 تعالى: ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ (البقرة:197)، أي: أفضل ما يتزود به قاصد البيت الحرام
 تقوى الله وورد لفظ (الخير) مقابلاً لـ (الشر) مرة، وورد مقابلاً لـ (الضر) مرة أخرى، فمن أمثلة مقابله لـ
 (الشر)، قوله سبحانه: ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ (الزلزلة:7-8)،
 ومن أمثلة مقابله لـ (الضر) قوله تعالى: ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك
 بخير فهو على كل شيء قدير ﴾ (الأنعام:17) .

أما من حيث المعنى، فإن لفظ (الخير) في القرآن أطلق على معان، منها
 الأول: المال، كقوله تعالى: ﴿ إن ترك خيراً ﴾ (البقرة:180)، فـ (الخير) هنا - كما قال القرطبي - المال
 من غير خلاف . وعلى هذا المعنى جاء أكثر استعمال القرآن للفظ (الخير) .

الثاني: الطعام، كقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿ رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير ﴾
 (القصص:24)، قال ابن عباس رضي الله عنهما: سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل
 وورق الشجر، وكان حافياً، فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه، وجلس في الظل وهو صفوة

الله من خلقه، وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه، وإنه محتاج إلى شق تمرة.

الثالث: القوة، كقوله سبحانه في حق مشركي العرب: ﴿أهم خير أم قوم تبع﴾ (الدخان: 37)، قال البغوي: يعني: أقوى، وأشد، وأكثر من قوم تُبع، وقال ابن عاشور: "المراد بالخيرية: التفضيل في القوة والمنعة". وعلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أفأنتم خير من أولئكم﴾ (القمر: 43).

الرابع: العبادة والطاعة، كقوله سبحانه: ﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات﴾ (الأنبياء: 73)، قال القرطبي: "أي: أن يفعلوا الطاعات".

الخامس: حُسن الحالة، كقوله تعالى حاكياً قصة شعيب عليه السلام مع قومه: ﴿إني أراكم نجير﴾ (هود: 48)، قال الطبري: "يدخل في خير الدنيا: المال، وزينة الحياة الدنيا، ورخص السعر، ولا دلالة على أنه عنى بقبيله ذلك بعض خيرات الدنيا دون بعض، فذلك على كل معاني خيرات الدنيا"، وقال ابن عاشور: "الخير: حسن الحالة".

السادس: التفضيل، من ذلك قوله تعالى: ﴿أولئك هم خير البرية﴾ (البينة: 7)، أي: المؤمنون بالله حق الإيمان أفضل الخلق أجمعين.

السابع: القرآن، وذلك في قوله تعالى: ﴿وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً﴾ (النحل: 30)، قال القرطبي: "المراد: القرآن".

وعلى ضوء هذه المعاني للفظ (الخير)، نسلط الضوء على بعض الآيات التي هي على صلة وثيقة بهذا اللفظ، لننظر ماذا تفيد من معنى .

فقوله تعالى: ﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير﴾ (الأعراف:188)، المراد بـ (الخير) في هذه الآية الكريمة: المال - على ما رجحه الشنقيطي وغيره - ويدل على ذلك كثرة ورود الخير بمعنى (المال) في القرآن، كقوله تعالى: ﴿وانه لحب الخير لشديد﴾ (العاديات:8)، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، في معنى الآية، قال: ﴿لاستكثرت من الخير﴾، أي: من المال. وقوله سبحانه: ﴿لا يسأم الإنسان من دعاء الخير﴾ (فصلت:49)، قال الطبري: "الخير في هذا الموضع: المال وصحة الجسم"، وقال القرطبي: "والخير هنا: المال، والصحة، والسلطان، والعز"، ويقوي هذا المعنى قراءة ابن مسعود رضي الله عنه لهذه الآية: (لا يسأم الإنسان من دعاء المال) .

وقوله تعالى: ﴿والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير﴾ (الحج:36)، قال الطبري: ﴿لكم فيها خير﴾: الأجر في الآخرة بنحرها والصدقة بها، وفي الدنيا: الركوب إذا احتاج إلى ركوبها . ونحو هذا قال البغوي.

وقوله سبحانه: ﴿أشحة على الخير﴾ (الأحزاب:19)، قال بعض المفسرين: الخير هنا: الغنيمة التي يصيبها المسلمون في المعركة. وقال آخرون: الخير هنا: المال المنفق في سبيل الله. وقال فريق ثالث: الخير هنا: المودة بالمسلمين، والشفقة عليهم. ويكون معنى الآية عموماً: أن المنافقين لا يروق لهم أن تكون الغنائم للمسلمين، بل يريدونها خاصة لهم من دون المؤمنين. وأيضاً، فإن المنافقين يقبضون أيديهم عن

الإتفاق في سبيل الله، حرصاً على ما في أيديهم من المال. وهم فوق هذا وذاك لا يوادون المسلمين، ولا يشفقون بهم حال اشتداد القتال.

وقريب من هذه الآية قوله تعالى: ﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ﴾ (البقرة: 105)، فالمراد بـ (الخير) هنا: شرعة الإسلام، قال ابن كثير: "ينبه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل، الذي شرعه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم".

وقوله تعالى: ﴿ إني أحببت حب الخير ﴾ (ص: 32)، قال ابن العربي: "يعني: الخيل، وسماها (خيراً)؛ لأنها من جملة المال الذي هو خير بتسمية الشارع له بذلك". وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: (إني أحببت حب الخيل).

وقوله تعالى: ﴿ فيهن خيرات حسان ﴾ (الرحمن: 70)، فـ (الخيرات) في الآية: حور العين، وصفن بذلك: إما لأنهن خيرات الأخلاق. وإما لأنهن مختارات، اختارهن الله، فأبدع خلقهن باختياره.

من تعريف وجوه الخير التي ذكرت في القرآن الكريم نستطيع أن نحدد بشكل تقريبي جداً تعريف الخير أولاً: إن لفظ (الخير) كغيره من ألفاظ القرآن، لا يفهم المراد منه تماماً إلا من خلال معرفة السياق الذي ورد فيه، فعلى الرغم من أنه قد ورد في كثير من الآيات القرآنية بمعنى (المال)، إلا أنه قد ورد في آيات غير قليلة على غير هذا المعنى، مما يحتم ضرورة معرفة السياق الذي ورد فيه هذا اللفظ أو ذلك.

ثانياً: إن الخير يكون خيراً مطلقاً ويتمثل ذلك في كل عمل من شأنه التقرب من الله تعالى والفوز برضاه ونعيمه وهناك خير نسبي وهو كل أمر يجعل الإنسان معافياً في بدنه وماله وعرضه ولا يصيبه مكروه فيهم

ثالثاً : ان الخير نسبي فالمال خير لكنه قد يتحول الى أداة للشر وكذلك العلم والبنون وهكذا .

مفهوم الشر في النصوص القرآنية

الشر خلاف الخير، وهو اسم جامع للآتى :

الردائل والخطايا ، والسوء، والفساد والمصائب و الضرر ونقص الأموال وغير ذلك

وردت كلمة (الشر) وصيغها في القرآن الكريم (٣٠) مرة. والصيغ التي وردت، هي:

اسم مفرد ورد 29 مرة

اسم جمع وردت مرة واحدة

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كَمَا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴾

ان أول فعل شريّر وقع على الأرض كان القتل وهو أشد أنواع الشرور ضرراً وقصة قتل ابن آدم لأخيه سببها الحسد وتمثل في ان كلاهما قد قدما قربانين لله فتقبل الله من المقتول ولم يقبل من القاتل

﴿ وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ بِنَاءِ ابْنِ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ

إِنَّمَا يُتَقَبَّلُ لِلَّهِ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : 27]

﴿ لَنْ بَسَطَ إِلَىٰ يَدِكَ لِتُقْتَلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيْ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾

أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ فطوعت له نفسه قتل

أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ﴾ فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يُؤاري سوءة أخيه

قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعْجَبْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِي سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ [سورة المائدة :

. [31-27]

فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ ابْنِي نَبِيْنَا آدَمَ وَهُمَا يُعْرَفَانِ حُقُوقِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ فَيَتَقَدَّمُ الْإِثْنَانُ بَقَرَابَيْنِ يُقْبَلُ مِنَ الْأَوَّلِ
وَيُرْفُضُ مِنَ الثَّانِي وَ سَبَبَ ذَلِكَ فَسَرَهُ لَنَا الْمَقْتُولُ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ أَيُّ الَّذِينَ يَخَافُونَ اللَّهَ وَلِأَنَّهُ مِنَ
هَذَا الصَّنْفِ قَالَ لِأَخِيهِ لَنْ بَسَطَتْ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ
رَبَّ الْعَالَمِينَ

لَكِنِ الْقَاتِلُ لَمْ يَكُنْ يَتَّقِي اللَّهَ وَيَخَافُهُ لِذَلِكَ سَوَّلَتْ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ الزَّاهِدِ التَّقِيِّ

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ

مِنْ تَصْوِيرِ مُشَاهِدٍ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَتَحْلِيلِ مَا دَارَ فِيهَا مِنْ حِوَارٍ بِإِمْكَانِنَا أَنْ نَقْوِي فَهْمَنَا عَنْ مَا عَرَفْنَاهُ
عَنْ مَفْهُومِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَبَعْدَ ذِكْرِ بَعْضِ التُّصَوُّصِ الَّتِي تُفِيدُ ذَلِكَ أَيْضًا .

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ

بَصِيرٌ ﴾ [البقرة : 110]

﴿ وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : 148]

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7]

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 8]

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمَلِكِ نُورِي الْمَلِكِ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعِ الْمَلِكِ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتَعَزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتَذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ﴾

﴿ بِبَيْدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : 26]

﴿ أَوْلَمَا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : I65]

﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ

مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : I8]

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقَّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ

مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنِّي دَعَوْتُكُمْ فَأَسْتَجِبْتُمْ لِي فَلَا تُلْمُونِي وَلَوْلَمَا أَنْفَسْتُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِحِي

إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم : 22]

﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ

الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ [النجم : 32]

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ

الْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن : I6]

﴿ وَمَا تَقْدُمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴾ [المزمل : 20]

﴿ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ

(فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) [النساء : 19] .

وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿

[البقرة : 216]

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ

دَسَّاهَا ﴾ [الشمس : 7 - 10]

مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا [النساء : 79] .

نتيجة

أولاً : خلق الله النفس البشرية وركبها بطريقه تكون فيها قابلة لفعل الخير والشر في نفس الوقت فالذي يترك نفسه ويلحقها بالتقوى فلقد نجح في ذلك وابتعد بها عن المعاصي والشُرور والموبقات أما الذي دساها أي : أحملا ووضع منها بجدلانه إياها عن الهدى حتى ركب المعاصي وترك طاعة الله فهذا معنى التدسية وأصله في كلام العرب من التدسيس إخفاء الشيء في الشيء ، ولا زالت هذه اللفظة مستعملة إلى اليوم في هذا المعنى ، تقول : دس كذا ، يعني أخفاه ، يدسه يخفيه .

فالأمر متروك في فعل الخير أو الشر للانسان نفسه ولارادته ومشيئته : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا

يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7] ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 8]

مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا [النساء : 79] .

فَالْحَسَنَةُ هُنَا بِمَعْنَى الْخَيْرِ وَالسَّيِّئَةُ هِيَ الشَّرُّ .

ثَابِتًا : النَّصَّ الْقُرْآنِيَّ لَمْ يَعْرِفَا لَنَا مَا هُوَ الْخَيْرُ بِذَاتِهِ وَلَا الشَّرُّ بِذَاتِهِ إِمَّا يُنْسَبُ إِلَيْهِمَا فِعْلًا أَوْ صِفَةً

أَمْثَلَةٌ عَنْ ذَلِكَ نَقُولُ إِنَّ الصَّدَقَ خَيْرٌ وَالْكَذِبَ شَرٌّ وَالْأَمَانَةَ خَيْرٌ وَالرَّذِيلَةَ شَرٌّ وَلَئِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَدْعُو إِلَى الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَأَكْثَرَ التُّصَوُّصِ الْقُرْآنِيَّةِ تَدْعُو لِلْفَضَائِلِ وَعَمِلِ الْمَعْرُوفِ لِذَلِكَ فَكُلُّ هَذِهِ الْأَعْمَالُ تَدْخُلُ فِي تَعْرِيفِ الْخَيْرِ وَيُرَادُ بِهَا سَعَادَةُ الْإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُوَ قِمَّةُ الْخَيْرِ .

لِذَلِكَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُنْسَبَ لِلَّهِ الشُّرُورُ أَوْ الْحُضُّ عَلَيْهَا يَقُولُ تَعَالَى : : وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَنْتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (28) .

فِرَاءَةٌ فِي الْفِتَاوَى الْجَاهِلَةِ

اغْتَدَّ الْعَقْلُ الدِّينِيَّ السَّلَفِيَّ وَالْحَدِيثَ مِنْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ خَلَقَ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ وَ سَنَبَتِ أَدْنَاهُ أَحَدُ الْفِتَاوَى الْعَجِيبَةِ بِهَذَا الْخُصُوصِ ثُمَّ نَحَلَّهَا وَنَاقَشَهَا وَالْفَتَاوَى بِنَاءً عَلَى طَلَبِ مُسَلِّمٍ يُرِيدُ الْإِسْتِفْسَارَ عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ .

السُّؤَالُ : هَلِ الشَّرُّ مِنْ أَرَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى ؟

الإجابة :

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، أَمَّا بَعْدُ :

فَالْإِرَادَةُ إِذَا نُسِبَتْ لِلَّهِ تَعَالَى فَهِيَ تَوْعَانُ : إِرَادَةُ كَوْنِيَّةٍ قَدْرِيَّةٍ ، وَإِرَادَةُ شَرْعِيَّةٍ دِينِيَّةٍ . وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْإِرَادَةَ الْكَوْنِيَّةَ الْقَدْرِيَّةَ لَا بُدَّ أَنْ تَقَعَ ، وَقَدْ تَكُونُ مِمَّا يُحِبُّهُ اللَّهُ كَالطَّاعَاتِ ، وَقَدْ تَكُونُ مِمَّا يَبْغُضُهُ اللَّهُ

كَالْمَعْصِي . وَأَمَّا الْإِرَادَةُ الدِّينِيَّةُ الشَّرْعِيَّةُ فَلَا تَكُونُ إِلَّا مِمَّا يُحِبُّهُ اللَّهُ ، وَقَدْ تَفَعَّ وَقَدْ لَا تَفَعَّ ، لِأَنَّ اللَّهَ

تَعَالَى أَعْطَى الْعِبَادَ اخْتِيَارًا فِي الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ ، كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ فِي الْفُتُوَى رُقْم : 130717 .

فَإِذَا تَبَيَّنَ هَذَا ، فَالشر يَقَع بِإِرَادَةِ اللَّهِ الْكُونِيَّةِ ، لَا بِإِرَادَتِهِ الشَّرْعِيَّةِ .

وَيَسْأَلُ آخَرَ وَيَقُولُ :

قَالَ تَعَالَى : (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا . مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا) النساء/78-79 . سُؤَالِي هُوَ : هَلِ الشَّرُّ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِنَا أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؟ لِأَنَّ بَعْضَ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ يَعْزُونَ هَذَا الْأَمْرَ تَنَاقُضًا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ . فَهَلَّا وَضَحْتُمْ لَنَا هَذَا الْأَمْرَ .

الْجَوَابُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ .

فَهَمْ هَذِهِ الْآيَةُ يَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسْرُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، فَهِيَ مِنَ الْآيَاتِ الْمُحْكَمَاتِ فِي كِتَابِ اللَّهِ الْمُبِينِ ، لَيْسَ فِيهَا تَنَاقُضٌ وَلَا تَعَارُضٌ إِلَّا فِي أَذْهَانِ بَعْضِ الْحَاقِدِينَ ، سَاعَدَهُمْ جَهْلُهُم بِاللُّغَةِ وَمَعَانِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، فَظَنُّوا أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : (وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ) يَعْنِي أَنَّ الْمَصَائِبَ الَّتِي هِيَ (السَّيِّئَةُ) هُنَا يُخْلَقُهَا الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ ، وَهَذَا جَهْلٌ بَالِغٌ لَا يَقَعُ فِيهِ إِلَّا الْأَعْجَمِيُّ نَزَعَتْهُ عُجْمَتُهُ ، أَوْ عَرَبِيٌّ مَقُونٌ غَلَبَتْهُ هَوَاهُ ، وَذَلِكَ أَنَّ حَرْفَ الْجَرَ (مِنْ) هُنَا - فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (فَمِنَ نَفْسِكَ) - تَعْنِي السَّبَبِيَّةَ ، أَيْ :

بِسَبَبِ أَنْتِ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ، بِسَبَبِ مَعْصِيَتِكَ وَمُخَالَفَتِكَ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى تُصِيبُكَ الْمَصَائِبُ ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) الشورى/30 .

تعليق : هُنَاكَ تَنَاقُضٌ وَاضِحٌ فِي تَعْلِيلِ الْقُوَى فَمِنْ جِهَةٍ تَقُولُ ((سَاعِدْهُمْ جَهْلِهِمْ بِاللُّغَةِ وَمَعَانِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، فَظَنُّوا أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : (وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ) يَعْنِي أَنَّ الْمَصَائِبَ الَّتِي هِيَ (السَّيِّئَةُ هُنَا يَخْلُقُهَا الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ ، وَهَذَا جَهْلٌ بَالِغٌ لَا يَقَعُ فِيهِ إِلَّا الْأَعْجَمِيُّ نَزَعَتْهُ عَجْمَتَهُ ، أَوْ عَرَبِيٌّ مُتَّقِنٌ غَلَبَتْهُ هَوَاهُ ،)) .

وَمِنْ جِهَةٍ ثَابِتَةٍ تَوَكَّدُ الْقُوَى أَنَّ السَّيِّئَةَ هِيَ فِعْلًا مِنْ عَمَلِ الْإِنْسَانِ لَكِنْ أَرْجَعُوهَا لِمَعْنَى السَّبَبِيَّةِ :

((وَذَلِكَ أَنَّ حَرْفَ الْجَرِّ (مِنْ) هُنَا - فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (فَمِنْ نَفْسِكَ) - تَعْنِي السَّبَبِيَّةَ ، أَيْ : بِسَبَبِ أَنْتِ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ، بِسَبَبِ مَعْصِيَتِكَ وَمُخَالَفَتِكَ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى تُصِيبُكَ الْمَصَائِبُ ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) الشورى/30 .))

ثُمَّ يُفَسِّرُونَ آيَةَ تَفْسِيرًا خَاطِئًا :

يَقُولُ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ :

"قَوْلُهُ : (وَإِنْ تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ) أَي : حِصْبٍ وَرُزْقٍ مِنْ ثَمَارِ وَرُزُوعٍ وَأَوْلَادٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، هَذَا مَعْنَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي الْعَالِيَةِ وَالسُّدِّيِّ .

(يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ) أَي : قَحْطٌ ، وَجَدْبٌ ، وَتَقْصُ فِي الثَّمَارِ وَالزُّرُوعِ ، أَوْ مَوْتِ أَوْلَادٍ أَوْ تَبَاجٍ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ ، كَمَا يَقُولُهُ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالسُّدِّيِّ .

(يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ) أَي : مِنْ قِبَلِكَ ، وَبِسَبَبِ أَتْبَاعِنَا لَكَ ، وَاقْتِدَائِنَا بِدِينِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ
 (قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ) أَي : الْجَمِيعِ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ ، وَهُوَ نَافِذٌ فِي الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ ، وَالْمُؤْمِنِ
 وَالْكَافِرِ . قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : (قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ) أَي : الْحَسَنَةُ وَالسَّيِّئَةُ .
 وَكَذَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ .

تعليق : لقد قام التفسير على فرضية ومقدمة خطأ فالحديث هنا عن المصائب الطبيعية والكوارث
 ولقد يحل بالأقوام القحط ونقص في الأموال والمجاعة وغير ذلك من الكوارث فهم قد اعتبروها سيئات أي
 شرور وهي ليست كذلك .

التحليل : الله يخبرهم ان سنته في الكون لا تتغير ولا تتبدل فكما ان هناك سنوات تكثر فيها الزرع
 ويكثر فيها الزاد والنعم كذلك هناك أزمئة يحصل فيها المجاعات والقحط تقتل عليهم أرزاقهم وهذا
 مرتبط بسنن الله التي جعلها في الطبيعة وهو من عند الله فحينما تتجاوز الأمطار المعدلات السنوية فهو
 من عند الله وحينما تنخفض لدرجة لا يثمر فيها نبات او زرع فكلاهما من عند الله وهذه ليست شرور
 فعلها الله بحقهم بسبب ايمانهم بل بسبب القانون المناخي الذي صنعه الله وجعله يعمل بالمقابل فهناك
 حالات عقاب خاصة بأقوام فعلوا الموبقات بشكل عام مثال الأقوام الذين خفس الأرض بهم فالعقوبة
 جماعية لأن الفاحشة جماعية عامة وعلنية وفيها تحدي للأنبياء والمرسلين مثال كفر الناس ا بأنعم الله
 فانه تعالى يغضب عليهم ويجعل شتاءهم صيفا وصيفهم شتاء ويعطل الله أسباب الخير ويغلقها
 ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا

اللَّهُ لِبَاسِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿ [النحل : II2] فالقرية كلها بمن فيها كفرت بأنعم الله وقوم

لوط كلهم كانوا يتعاطون الفاحشة وكذلك قوم نوح .

لذلك يحتم الله الآية بقوله مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وهذا على المستوى الفردي .

فكل مصادر الخير تنسب الى الله اما السيئات والشور والموبقات فليس مصدرها الله فإن اعتدنا بذلك فهذا يعني ان مبدأ المسألة الربانية يفقد عدالته وواقعيته وحاشى ذلك بل انها من عمل الانسان وحده وهو مسؤول عليها وبغير ذلك فإن ابليس ومهته لم يعد لها لزوم ووجوده يصبح عبثيا فكل الشرور في العالم تنسب اليه وليس الى الله وهذا أمر جد غريب وعجيب ان تنسب مصادر الشرور الى الله .

النَّيِّجَةِ أَنْ اللَّهُ لَمْ يُخْلَقِ الْخَيْرَ أَوْ الشَّرَّ لَأَنَّهُ فِي الْوَاقِعِ كَمَا ذَكَرْنَا لَا يَخْلُقَانِ وَإِنَّمَا هُمَا مُكْسَبَانِ وَلَيْسَ هُنَاكَ تَعْرِيفٌ خَاصٌّ بِهِمَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بَلْ هُنَاكَ تَوْجِيهَاتٌ وَأوامر ونصائح وَحُكْمٌ فَاللَّهُ يُوْجِهِنَا دَائِمًا إِلَى الطَّرِيقِ وَالْأَفْعَالِ الَّتِي سَيَكُونُ لَنَا فِيهَا خَيْرًا كَثِيرًا وَالْأَنْفُسُ الْفَاجِرَةَ وَالْدِينِيَّةَ سَتَبَعِ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فِي فِعْلِ الْإِثْمِ وَالشُّرُورِ وَمَهْمَةٌ إِبْلِيسَ بِالْأَسَاسِ هُوَ التَّلَاعِبُ بِالنُّفُوسِ الضَّعِيفَةِ وَجَرَهَا لَطْرَفَهُ وَتَرَكَ اللَّهُ لَهُ هَذِهِ الْمَهْمَةَ بَلْ خَصَّهُ بِهَا بِأَنْ يَقُومَ بِذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ عَلَى عِلْمٍ تَامٍّ بِأَنْ إِبْلِيسَ لَيْسَ لَهُ سُلْطَةٌ عَلَى النَّفْسِ الْمُؤْمِنَةِ لِذَلِكَ سَتَبَعَهُ النَّفْسِ السَّيِّئَةِ وَهِيَ الَّتِي اخْتَارَتْ طَرِيقَهَا إِلَيْهِ وَصَارَتْ مِنْ حِزْبِهِ ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ الْمُجَادَلَةَ

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقَّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا آتَاكُمْ بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِحِي إِيَّيْ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم : 22]

وَأخيراً يَعْتَرِفُ إبليس وَيَكْشِفُ الْحَقِيقَةَ لِلَّذِينَ عَرَّزُوا بِهِمْ وَسَاقَهُمْ إِلَى الْهَاطِئَةِ وَيَرْفَعُ اللَّهُ الْمُنْطَقِيَّةَ عَنْ نَفْسِهِ وَيَلصِقُهَا بِهِمْ هُمْ وَخَدَّهُمْ أَنْ يَلْمُوا أَنْفُسَهُمْ لِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوهُ وَلَيْسَ لَهُمْ الْحَقُّ فِي أَنْ يَلْمُوا إبليسَ الَّذِي دَعَاهُمْ كَانَ بِإمكانِهِمْ تَرْكُ شَأْنِهِ وَالْمُضِيِّ قَدَانَا فِي طَرِيقِ اللَّهِ .

ثَالِثًا : أَنَّ مَفْهُومَ الْخَيْرِ عَامٌّ وَخَاصٌّ وَكَذَلِكَ الشَّرُّ وَأَنَّ هُنَاكَ كَثِيرٌ مِنَ التَّصَوُّصِ تُفِيدُ هَذَا التَّقْسِيمَ

الْخَيْرُ الْعَامُّ :

﴿ مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [البقرة : 105]

فَنَزُولُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ هُوَ خَيْرٌ عَامٌّ يُصِيبُ الْأُمَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ قَاطِبَةً فِيهِ الْهُدَى وَالرَّحْمَةُ وَالْحِكْمَةُ وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ .

﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يُبْعَثُهَا أَدَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة : 263]

فَقَوْلُ الْمَعْرُوفِ وَالْمَغْفِرَةِ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يُبْعَثُهَا أَدَى فِيهِ قَاعِدَةٌ عَامَّةٌ تُسْرِي عَلَى الْجَمِيعِ .

الْخَيْرُ الْخَاصُّ :

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

[البقرة : 269]

﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِنَفْسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا

تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 272]

﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ

الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمران : 114]

وَالْأَمْثَلَةُ كَثِيرَةٌ عَلَى ذَلِكَ .

الشَّرُّ الْعَامُّ :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾

[البينة : 6]

﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ [الناس : 4]

﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ [الفلق : 4]

الشَّرُّ الْخَاصُّ :

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :

(وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا الْإِسْرَاءِ : ٨٣)

﴿ لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ [فصلت : 49]

﴿ وَلَوْ يُعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَبَدَّلَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي

طَعْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [يونس : II]

رَابِعًا : أَنْ مَا فَعَلَهُ اللَّهُ بِأَقْوَامِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ هَلَاكِ وَعِقَابٍ لَا يَعتَبِرُ مِنْ قَبِيلِ الشَّرِّ بَلْ هُوَ غَضَبُ اللَّهِ حِلٌّ فِيهِمْ وَجَاءَ تَلْبِيَةً لَطَلَبِ هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ تَبِيحَةً شَرُّهُمْ وَفَسَادِهِمْ بَيْنَمَا اتَّبَعَ الْأَنْبِيَاءُ هُمُ الْحَقُّ وَالْخَيْرُ فَأَتَقَدَّهَمُ اللَّهُ مِنْ الْهَلَاكِ وَالذَّمَّارِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ يُونُسَ : ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ * قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [7] .

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [هود : 67]

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح : 26]

خَامِسًا : نِسْبَةُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ

يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :

وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾

[البقرة : 216]

وَهَذَا يُرْجَعُ إِلَى كَوْنِ اللَّهِ هُوَ الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ العَلِيمُ الخَيْرِ لِذَلِكَ إِذَا قُرْنَا
الْحَوَادِثَ الَّتِي قَامَ بِهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ مَعَ النَّبِيِّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ سَنَجِدُهَا كُلَّهَا مِنْ أَعْمَالِ الشَّرِّ فَتُقْبَلُ
السَّفِينَةُ هُوَ عَمَلِيَّةٌ جَرْمِيَّةٌ وَهِيَ مِنْ أَعْمَالِ الشَّرِّ وَكَذَلِكَ قَتْلُ النَّفْسِ فَالَّذِي جَعَلَ النَّبِيُّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
يُحْكَمُ عَلَى تِلْكَ التَّصَرُّفَاتِ بِأَنَّهَا شَرِيْرَةٌ فَالظَّاهِرُ وَالْمُنْطِقُ يَقُولُ ذَلِكَ لَكِنْ فِي نَظَرِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ الَّذِي
أَطَّلَعَهُ اللَّهُ عَلَى الغَيْبِ بَدَتْ لَهُ أَعْمَالُ خَيْرِهِ يُرِيدُ بِحَا إِنْقَاذِ السَّفِينَةِ وَرِكَابِهَا وَأَمْوَالِهِمْ مِنْ عَمَلِيَّةٍ قَرَصَنَةٍ
وَيُرِيدُ أَنْ يَخْلُصَ وَالِدَ المَقْتُولِ مِنْ وَدِ فَاسِدٌ عَاقٌ لَعَلَّ اللَّهَ يَسْتَبْدِلُهُ بِآخَرَ .

وَفِي حَيَاةِ الفُرْدِ الْإِنْسَانِ شَوَاهِدٌ عِدَّةٌ عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ يَحْرِصُ عَلَى مَجْبَةِ شَيْءٍ أَوْ عَمَلٍ حُبًّا جَمًّا لَكِنْ
فَجَاءَ لَا يَحْصُلُ عَلَيْهِ أَوْ يَفْتَقِدُهُ وَيُعْتَبَرُ ذَلِكَ فِي نَظَرِهِ شَرًّا قَدْ لَحِقَ بِهِ وَلَا يَمُرُّ وَقْتًا طَوِيلًا حَتَّى يَنْكَسِرَ فَإِنَّ
هَذَا العَمَلِ أَوْ هَذَا العِشْقِ كَانَ لَوْ اسْتَمَرَ فِيهِ كَارِثُهُ أَوْ مُصِيبَةٌ كَبِيرَةٌ وَقْتَهَا يُعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ أَرَادَ لَهُ بِهَا خَيْرًا
كثيرًا .

وَنَسْبِيَةِ الخَيْرِ وَالشَّرِّ تَحْوِي فِي دَاخِلِهَا ضَرْبًا مِنْ الامْتِحَانِ أَوْ الاِخْتِبَارِ أَوْ البَلَاءِ الْمُؤَقَّتِ فَكَيْفَ يَسَّمُ البِنَاءَ
عَلَى ذَلِكَ ؟

عَلَى المُسْتَوَى الشَّخْصِيِّ أَوْ الفَرْدِي :

الفرد منا معرض باستمرار لحوادث ومصائب ومواقف ونكبات وتسد ابواب الدنيا في وجهه فلن يجد إمامه سوى الله تعالى ليحمله كل هذه الأسباب والعلا ويردد أو شاء الله ما قد حصل الذي حصل معه وسخرج عن طوره أحياناً ليصل إلى مرحلة الشك ثم الكفر وربما اللحاد واليأس .

يصف النص القرآني هذه الحالة فيقول عن صاحبها :

(وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا إِسْرَاءَ : ٨٣)

﴿ لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ [فصلت : 49]

لكن ما الذي يحدث ؟

أن مصيبة الإنسان الكبرى تلخصها هذه الآية الكريمة :

﴿ وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ

خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الحج : II]

هي التعامل مع الله بمنفعة وتجارة هي وضع كل ما لحق به من مصائب يُتهم بها الله ويبري نفسه .

وتصرفاته وما جنى وكسبت يدها هي في اعتقاده أن هذه الدنيا هي غاية طمعه وسعادته فيريد كل

شيء منها وفيها فالخير الذي يريده لنفسه ه أن يسعده الله في هذه الدنيا والله يريد له الآخرة

دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لتكونن من الشاكرين (22) فلما أنجاهم إذا هم ينجون في

الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بعينكم على أنفسكم طمعا الحياة الدنيا ثم إيتنا مرجعكم فننبئكم

بما كنتم تعملون (23)

﴿ فَاقْبَلُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمُ سُوءٌ وَاتَّبِعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل

عمران : I74]

دور إبليس وشياطين الجن والإنس في صناعة الشر

بعد أن رأينا كيف تصنع النفس الفاجرة السيئات والشُرور علينا أن نتطلع على دور الشيطان الرئيسي والخفي في هذه المهمة المهمة جَرَّ النَّاسِ إِلَى الْوِيلاتِ وَالْبُؤْسِ وَالشُّرُورِ .

مادور إبليس وذريته ومهامهم كيف يعملوا وكيف يوقعوا ضحاياهم في مصيبة الكفر والشُرور ؟

يعد إبليس ، الشيطان ، واحداً من الشخصيات المعروفة في الثقافة اليهودية ، المسيحية ، وكذلك الإسلامية . وبشكل غريب ، جاء ظهور إبليس ككيان متأخراً في العالم القديم . فلما تجدد له أثرًا ككائن يملأ الشر في الكتاب المقدس اليهودي القديم . بدأ ظهوره خلال ذروة الإمبراطورية الأخمينية الفارسية (بداية من 550 قبل الميلاد) وكان مُعترفٌ به لدى اليهود الذين يعيشون تحت الحكم الفارسي آنذاك . ويُؤخذ اسم 'إبليس' ، 'satan' من الكلمة العبرية 'ha - satan' . وتعني 'المعارض' أو 'المعادي' . يصف اسمه معارضة الرب في عملية الخلق . وبالأغريقية 'diabolos' وماخوذ منها الكلمة الإنجليزية 'devil' وتعنيان 'المهم' أو 'مشوه السمعة' أيضاً تصفان فعله . هنا يتضح أن مفهوم الشيطان ظهر بمرور الوقت وعلى مراحل . لقد شغلت مسألة الشر - وخاصة دور الشيطان في ظهور الشرور في العالم بشكل عام - أذهان البشر منذ قديم الأيام ، ولا تكاد توجد ثقافة أو دين لا يكون فيها نظير للشيطان . فإله الشر المصري « ست » [I] و « دي آت بوليس » اليوناني [2] والعفاريث والقوى الشيطانية في فكر المجوس قبل زرادشت في إيران القديمة تماذج من هذا

القَبِيلِ [3] . أَهْرِيْمَانُ فِي الْأَفْسَا الزَّرَادُشِيَّةِ تَرَى أَهْرِيْمَانُ ، الَّذِي كُلُّهُ مَوْتُ ، بِقُوَّةٍ عَظِيْمَةٍ وَبِصِفَتِهِ خَالِقًا جَزَّ نَصْفِ الْعَالَمِ إِلَى الشَّرِّ وَالظَّلَامِ ، يَقِفُ مُقَابِلَ أَهْوَرَامَزْدَا وَزَرَادُشْت . وَانْتَقَلَ هَذَا التَّصَوُّرُ إِلَى الْأَذْيَانِ الزَّرَفَرَايِيَّةِ وَالْمَانَوِيَّةِ حَيْثُ تَمَّ تَقْدِيمُ الشَّيْطَانِ (أَزُّ) بِصِفَتِهِ أُمَّ الشُّرُورِ : « ... وَالْخُلَاصَةُ أَنَّهُ فِي الْكِتَابَاتِ الْمَانَوِيَّةِ يُظْهَرُ (أَزُّ) بِصِفَتِهِ أَصْلَ الشَّرِّ . إِنَّهُ يَجْعَلِي فِي ثَلَاثِ صُورٍ : الْغَفْلَةُ الَّتِي تَجْعَلُ عَيْنِي الْإِنْسَانَ مُغْمَضَةً أَمَامَ مَصِيرِهِ مَا وَرَاءَ الطَّبِيعِيِّ (الْحِظُّ) ، وَالشَّهْوَةُ ، وَالْحِرْصُ » . الشَّيْطَانُ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ

اغْبَرَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسُ أَنَّ الثَّمْرَةَ الْمَمْنُوعَةَ فِي قِصَّةِ آدَمَ وَحَوَاءَ هِيَ شَجَرَةُ الْمَعْرِفَةِ : « وَأَوْصَى الْإِلَهُ الرَّبُّ آدَمَ قَالَ : « مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ ، وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلَا تَأْكُلُ مِنْهَا ، فَيَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا تَمُوتُ مَوْتًا » دَخَلَ الشَّيْطَانُ الْجَنَّةَ عَلَى شَكْلِ حَيَّةٍ ، وَقَالَ : اللَّهُ لَمْ يَرِدْ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعْرِفَ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ ، « فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ : « مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ ، وَأَمَّا ثَمَرِ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللَّهُ : لَا تَأْكُلَا مِنْهُ ، وَلَا تَمْسَاهُ ؛ لِيَأْتَا تَمُوتَا » ، فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ : « لَنْ تَمُوتَا ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَعْرِفُ أَنْكُمْ يَوْمَ تَأْكُلَانِ مِنْ ثَمَرِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ تَنْفَتِحُ أَعْيُنَكُمْ ، وَتَصِيرَانِ مِثْلَ اللَّهِ ، تَعْرِفَانِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ » [12] . وَمِنْ هُنَا تَرَى أَنَّ الشَّخْصَ الَّذِي دَعَا الْإِنْسَانَ لِلْمَعْرِفَةِ كَانَ الشَّيْطَانُ ، وَلَيْسَ اللَّهُ . وَأَيْضًا فِي إِنْجِيلِ مَتَّى ، فِي مُوَاجَهَةِ الشَّيْطَانِ مَعَ الْمَسِيحِ ، يَبْدُو الشَّيْطَانُ بِصُورَةِ كَائِنٍ قَوِيٍّ : « ثُمَّ أَخَذَهُ أَيْضًا إِبْلِيسُ إِلَى جَبَلٍ عَالٍ جَدًّا ، وَأَرَاهُ جَمِيعَ مَمَالِكِ الْعَالَمِ وَمَجْدِهَا ، وَقَالَ لَهُ : « أُعْطِيكَ هَذِهِ جَمِيعًا إِنْ خَرَرْتُ وَسَجَدْتُ لِي » [13] . وَمِثْلَ ذَلِكَ جَاءَ فِي إِنْجِيلِ لُوقَا حَوْلَ قُوَّةِ إِبْلِيسِ وَتَشْكِيئِهِ : « وَقَالَ لَهُ إِبْلِيسُ : لَكَ أُعْطِيَ هَذَا السُّلْطَانُ كُلَّهُ وَمَجْدُهُنَّ ؛ لِأَنَّهُ إِلَى قَدْ دَفَعَ ، وَأَنَا أُعْطِيهِ لِمَنْ أُرِيدُ » []

[14] . وَفَقًا لِهَذِهِ الْأَمْثَلَةِ مِنَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ يُصَوِّرُ الشَّيْطَانُ فِي أَذْهَانِ الْمَسِيحِيِّينَ عَظِيمَ الْقُدْرَةِ : «
أَصْحُوا وَاسْهَرُوا ؛ لِأَنَّ إِبْلِيسَ خَصْمَكُمْ كَأَسَدٍ زَائِرٍ يَجُولُ مُلْتَمِسًا مَنْ يَتَّبِعُهُ » [15] . وَهَذَا
الْأَسَدُ الزَّائِرُ تَعَاظَمَ قُوَّتُهُ ، بِحَيْثُ يُحُلُّ فِي الْبَشَرِ ، وَيَسْلُبُ مِنْهُمْ الْإِرَادَةَ وَالْقُوَّةَ [16] . وَفَضْلًا
عَنْ ذَلِكَ فَقَدْ جَاءَ فِي الْعَهْدِ الْجَدِيدِ ذِكْرُ الشَّيَاطِينِ وَرَبِّيسِهِمْ ، وَاسْمُهُ « بَعْلَزَبُول » [17] .
وَوُرِدَ اسْمُ « الدَّجَالِ » عَلَى أَنَّهُ ابْنُ الشَّيْطَانِ ، وَسَوْفَ يُخْرَجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ مِنَ الْبَحْرِ ، وَيَسْتَمِدُّ قُوَّةَ
عَظِيمَةً مِنَ النَّبِيِّ ، الَّذِي هُوَ الشَّيْطَانُ نَفْسُهُ [18] : « وَسَجِدُوا لِلنَّبِيِّ الَّذِي أُعْطِيَ السُّلْطَانَ
لِلْوَحْشِ ، وَسَجِدُوا لِلْوَحْشِ قَائِلِينَ : (مَنْ هُوَ مِثْلُ الْوَحْشِ ؟ مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُحَارِبَهُ ؟) . وَأُعْطِيَ
فَمَا يَتَكَلَّمُ بَعْظَائِمَ وَتُجَادِيفَ ، وَأُعْطِيَ سُلْطَانًا أَنْ يَفْعَلَ اثْنَيْ وَأَرْبَعِينَ شَهْرًا ، فَفَتَحَ فَمَّهُ بِالْتَّجْدِيفِ عَلَى
اللَّهِ ؛ لِيَجْدَفَ عَلَى اسْمِهِ ، وَعَلَى مَسْكَنِهِ ، وَعَلَى السَّاكِنِينَ فِي السَّمَاءِ ، وَأُعْطِيَ أَنْ يَضَعَّ حَرْبًا مَعَ
الْقَدِيسِينَ وَيَعْدِبُهُمْ ، وَأُعْطِيَ سُلْطَانًا عَلَى كُلِّ قَبِيلَةٍ وَلِسَانٍ وَأُمَّةٍ ، فَسَيَمَجِدُّ لَهُ جَمِيعَ السَّاكِنِينَ عَلَى
الْأَرْضِ ، الَّذِينَ لَيْسَتْ أَسْمَاؤُهُمْ مَكْتُوبَةً مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ فِي سَفَرِ حَيَاةِ الْخُرُوفِ الَّذِي ذُبِحَ » [19]
[20] . هَذَا الْكَائِنُ الْمَوْحَشِ الَّذِي يَمْتَلِكُ قُوَّةَ الشَّيْطَانِ سَوْفَ يَبْعُدُ ، وَبِإِكْمَالِ النَّصِّ سَيَمُّ الْحَدِيثُ أَيْضًا
عَنْ حَيَوَانَ آخَرَ يُخْرَجُ مِنَ الْأَرْضِ ، وَعَلَامَتُهُ الْعَدَدَ 666 : « هُنَا الْحِكْمَةُ : مَنْ لَهُ فَهْمٌ فَلْيَحْسُبْ عَدَدَ
الْوَحْشِ ، فَإِنَّهُ عَدَدَ إِنْسَانٍ وَعَدَدُهُ : سِتْمَةٌ وَسِتَّةٌ وَسِتُّونَ » [20] . هَذَا الْعَدَدَ 666 ، الَّذِي هُوَ
رَمْزُ الْحَيَوَانَ الْوَحْشِيِّ ، سَيُضْبِحُ رَمْزًا لِلشَّيْطَانِ فِي عَقَائِدِ عَبَدَةِ الشَّيْطَانِ . وَوَقْفًا لِرُؤْيَا يُوحَا يَجِبُ
عَلَى النَّاسِ أَنْ يَخْتَارُوا بَيْنَ هَذَيْنِ الطَّرِيقَيْنِ : طَرِيقُ الْكَائِنِ الْوَحْشِيِّ تَابِعٌ لِلشَّيْطَانِ ؛ وَطَرِيقُ الْمَسِيحِ
الْإِنْسَانِ [21] . وَفِي النِّهَايَةِ سَوْفَ يَمُّ الْقَضَاءُ عَلَى هَذَا الْكَائِنِ الْوَحْشِيِّ بِصَفْتِهِ ضِدَّ الْمَسِيحِ ،
وَكَذَلِكَ عَلَى الشَّيْطَانِ أَيْضًا فِي الصَّرَاحِ النَّهَائِيِّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ [22] . عِبَادَةُ الشَّيْطَانِ

فِي التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ تَحَدَّثْنَا كُتُبُ تَارِيخِ الْمَذَاهِبِ وَالْمَلَلِ عَنْ بَعْضِ آرَاءِ شَاذَةٍ فِي إِطَارِ الصُّوفِيَّةِ
 تَعَاطَفَ مَعَ مَوْقِفِ إِبْلِيسِ حِينَ عَصَى رَبَّهُ وَرَفَضَ السُّجُودَ لِآدَمَ ، وَمِنْ أَشْهُرِ الْقَائِلِينَ بِهَذَا الْحَلَاخِ
 (الْمَقْتُولُ بِبَعْدَادِ عَامَ 309هـ / 922م) . وَلَكِنَّ ظَهَرَتْ أَيْضًا دِرَاسَاتٌ جَدِيدَةٌ تُشِيرُ إِلَى طَرِيقَةِ صُوفِيَّةِ
 عُرِفَتْ بِاسْمِ "الْعَدَوِيَّةِ" كَمَا اِسْتَهْرَتْ بِاسْمِ الْيَزِيدِيَّةِ ، كَشَفَ الْبَاحِثُونَ اللَّثَامَ عَنْ كُتُبٍ مَكْتُوبَةٍ لَهُمْ يُؤَكِّدُونَ
 فِيهَا الشَّيْطَانَ ، وَيُعَادُونَ فِيهَا الْأَذْيَانَ . وَلَكِنَّ الْأَمْرَ يَحْتَاجُ لِمُرَاجَعَةٍ وَتَدْقِيقٍ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّاشِرَ لِهَذِهِ
 الْمَعْلُومَاتِ الْجَدِيدَةِ هُمَا مَجَلَّتَا الْمَشْرِقِ وَالْمَقْتَطَفِ . وَهُمَا مُصَدِّرَانِ لَا نَسْتَطِيعُ التَّسْلِيمَ بِزَاهَتِهِمَا ،
 وَخَاصَّةً أَنَّهُ كَانَ مِمَّنْ نَقَلُوا عَنْهُمْ قُتْبُ رُوسِيَا فِي الْمَوْصِلِ ؛ بِمَا زَعَمَ أَنَّهُ عَرَفَهُ مِنْ أَحَدِ مَشَايخِ الطَّرِيقَةِ
 بَعْدَ أَنْ أَسْكَرَهُ . فَإِذَا أَضْفَعْنَا أَنَّ الدِّرَاسَاتِ الْبَحْثِيَّةَ قَامَتْ بِنَشْرِهَا وَتَمْوِيلِهَا الْجَامِعَةُ الْأَمْرِيكِيَّةُ فِي
 بَيْرُوتَ ، وَأَنَّ صَاحِبَ الدِّرَاسَةِ هُوَ قُسْطَنْطِينُ زُرَيْقُ ، فَهَذَا يَتَوَى إِتْجَاهَ الشَّكِّ ، لِذَا سَنُحَاوِلُ دِرَاسَةَ
 هَذِهِ الطَّرِيقَةِ مِنْ جُذُورِهَا لِنَسْتَبِينَ وَجْهَ الْحَقِّ بِشَأْنِهَا ، وَإِعْمَالًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : "إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ
 فَسَبِّئُوهُ أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَيَّ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ " . تَرْجِعُ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ إِلَى "عَدِي بْنِ
 مُسَافِرٍ" الْمَوْلُودِ بِقَرْيَةِ "بَيْتِ فَارٍ" فِي الْبِقَاعِ الْغَرْبِيِّ مِنْ مِطْقَةِ الشَّامِ ، وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ الْآنَ بِاسْمِ "حَرْبِ
 قَنَافَارٍ" وَهُوَ يَعُودُ فِي نَسَبِهِ إِلَى أُسْرَةٍ أُمُويَّةٍ مَرْوَانِيَّةٍ ، وَالِدُهُ هُوَ الْفَقِيهُ الزَّاهِدُ الشَّيْخُ "مُسَافِرٍ" اِحْتَلَّ مَكَانَةً
 عَالِيَةً عِنْدَ أَصْحَابِ التَّرَاجِمِ ، وَلَهُ وَقْفٌ لِيُخْدِمَةَ الْعِلْمِ بِجِوَارِ قَبْرِهِ مَا زَالَتْ بَقَايَا مِنْهُ بَاقِيَةً فِي الْقَرْيَةِ ،
 وَلَكِنَّ لِلْأَسَفِ وَهَبَتْهَا السُّلْطَاتُ فِي فِتْرَةٍ مُتَأَخَّرَةٍ لِأَحْدَى الْبَعْثَاتِ التَّبَشِيرِيَّةِ الْأَلْمَانِيَّةِ . تَلَقَّى "عَدِي" الْفِقْهَ
 وَالتَّصَوُّفَ عَلَى يَدِ أَبِيهِ ، ثُمَّ غَادَرَ مَسْقَطُ رَأْسِهِ لِتَحْصِيلِ الْعُلُومِ وَانْتَهَى بِهِ الْمَطَافُ إِلَى قَرْيَةِ "لَالِشُ" مِنْ
 قُرَى الْمَوْصِلِ وَقَدْ تَرَجَّمَ لَهُ أَصْحَابُ التَّرَاجِمِ أَمْثَالُ "إِنِّ خَلَكَاؤُنْ" فِي كِتَابِهِ وَفِيَاتِ الْأَعْيَانِ وَالسَّخَاوِي
 فِي تُحْفَةِ الْأَحْبَابِ ، وَابْنُ فَضْلِ الْعَمْرِيِّ فِي شَذَرَاتِ الذَّهَبِ ، وَخَصَّهُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ الْفَقِيهِ الْمُدَقِّقِ (ت

7280) بِإِحْدَى رَسَائِلِهِ وَوَصَفَ طَرِيقَتَهُ بِقَوْلِهِ "سَلِيمَةٌ مِنَ الْبِدْعِ" وَلَمْ يَخْتَلِفْ أَحَدٌ عَلَى وُقُوفِهِ عِنْدَ
حُدُودِ اللَّهِ أَمْرًا وَتَهْيَا ، وَاشْهَرَتْ عَنْهُ كَلِمَتُهُ "إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ تُظْهِرُ لَهُ الْكِرَامَاتُ فَلَا تَعْتَرُوا بِهِ حَتَّى
تَنْظُرُوا أَعْنُدُ أَمْرَ اللَّهِ وَتَهْيَهُ أَمْ لَا" وَقَالَ عَنْهُ عَبْدُ الْقَادِرِ الْجِيلَانِي : "لَوْ كَانَتْ التَّبَوُّةُ بِالْمُجَاهِدَةِ لَكَانَ لَهَا
عَدِي بْنُ مُسَافِرٍ" . مَا لَبِثَ الشَّيْخُ عَدِي قَلِيلًا حَتَّى اجْتَمَعَ حَوْلَهُ أَهْلُ الْقَرْيَةِ الْمُحِيطَةِ بِمَقَامِهِ ، وَوُلِدَتْ
بِهِمُ الطَّرِيقَةُ الْعَدَوِيَّةُ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ الْهَجْرِيِّ ، وَصَارَتْ الْقَرْيَةُ مَدْرَسَةً لِدِرَاسَةِ الشَّرِيعَةِ وَحِصْنًا
لِأَصْحَابِ السُّلُوكِ وَأَهْلِ التَّقْوَى .

انتقلت زعامة العدويين بعد وفاة شيخهم إلى حسن بن صخر بن مسافر ، وهو ابن شقيق المؤسس ،
وانتقل الشيخ الجديد إلى الموصل ، وهناك انتشرت شائعة عن الشيخ أنه يعمل لإعادة بني أمية للسلطة
السياسية ؛ فكانت محنة الطريقة ونهاية الشيخ ، إذ قام غلام الأتابكة "بدر الدين لؤلؤ" بقتل الشيخ
حسن والتشكيل باتباعه في عام 644هـ ، بل بلغ الأمر أن قام لؤلؤ هذا بنش قبر الشيخ عدي وأحرق
رُفَاتَهُ ، وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْمِحْنَةُ الْوَحِيدَةَ فِي تَارِيخِ الْعَدَوِيِّينَ ، إِذْ تَكَرَّرَ ذَلِكَ فِي عَهْدِ الْمَلِكِ التَّائِصِرِ مُحَمَّدٍ
قَلَاوُونَ ، وَعَهْدِ الْأَمِيرِ نَثُكُرَ ، إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَمْنَعُهُمْ مِنْ مُوَاصَلَةِ طَرِيقِ شَيْخِهِمْ فِي خِدْمَةِ الشَّرِيعَةِ
وَالْحَقِيقَةِ . مِنْ أَيْنَ أَتَى اسْمُ الْيَزِيدِيَّةِ ؟ ذَهَبَ بَعْضُ الْبَاحِثِينَ إِلَى أَنَّ الْأَسْمَ أَصْلُهُ "يَزْدَانُ" الْإِلَهِ
الْفَارِسِيِّ ، أَوْ يَزْدُ الْمَدِينَةَ الْفَارِسِيَّةَ ، وَبِذَلِكَ تَقْوَى الشُّكُوكُ حَوْلَ الطَّائِفَةِ ، وَلَكِنَّ الْأَمْرَ لَا يَسْتَقِيمُ لِعَوِيًّا أَوْ
تَارِيحِيًّا ، فَالْتَسُّبَةُ تَجْعَلُ مِنْ أَسْمِهِمُ "الْيَزْدَايِيَّةِ" وَ"لَيْسَ" الْيَزِيدِيَّةِ " ، أَمَّا تَارِيحِيًّا فَإِنَّ أُصُولَ الشَّيْخِ أُمَوِيَّةً
حَرَابِيَّةً أَيْ عَرَبِيَّةً ، فَكَيْفَ يَتَسَبَّبُ لِفَارِسٍ مِنْبُعُ قُوَّةِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ الْقَائِمَةِ آنَذَا ، وَالْأَوْفَقُ هُوَ مَا ذَهَبَ
إِلَيْهِ آخَرُونَ مِنْ دَعْوَةِ الشَّيْخِ إِلَى إِمْسَاكِ اللِّسَانِ عَنِ الْخَوْضِ فِي سِيرَةِ يَزِيدِ بْنِ مُعَاوِيَةَ خَاصَّةً وَبَنِي أُمِيَّةٍ

عَامَّةً ، وَهَذَا أَقْوَى لِتَبْرِيرِ الْإِشَاعَةِ حَوْلَ نُصْرَةِ خَلِيفَتِهِ الشَّيْخِ حَسَنٍ لِمَطَامِعِ بَنِي أُمَيَّةٍ فِي السُّلْطَةِ
السِّيَاسِيَّةِ ، وَكَذَلِكَ تَصِحُّ التَّنَسُّبَةُ اللُّغَوِيَّةُ .

مَا حَقِيقَةُ إِبْلِيسَ وَوَضِيفَتُهُ وَمُهَمَّتُهُ وَعَمَلُهُ وَكَيْفَ يَعْمَلُ أَسَالِيبُهُ وَأَدْوَاتِهِ وَخُطَطُهُ وَمَا تَتَأَيَّجُ هَذَا الْعَمَلُ ؟
هَذَا مَا سَنَجِدُهُ فِي الْبَابِ الْأَخِيرِ حِينَمَا تَتَحَدَّثُ عَنِ الْإِنْسَانِ .

الْحَقُّ وَالْمِثْلُ الْأَعْلَى وَالْحِكْمَةُ

الْحَقُّ

فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَإِنِّي تُضَرِّفُونَ سُورَةَ يُنُسَ : 32

الْحَقُّ هُوَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى ، وَمَعْنَاهُ : الْمُتَّصِفُ بِالْوُجُودِ وَالذَّوَامِ وَالْحَيَاةِ وَالْقِيَوْمِيَّةِ وَالْبَقَاءِ فَلَا
يَلْحَقُهُ زَوَالٌ وَلَا فَنَاءٌ . ، وَالَّذِي يَحِقُّ الْحَقُّ بِكَلِمَاتِهِ . قَدْ وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَشْرَ مَرَّاتٍ ، مِنْهَا :

ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ سُورَةَ الْأَنْعَامِ : 62

هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ يُنُسَ : 30

فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَإِنِّي تُصْرَفُونَ سُورَةُ يُنُسَ : 32

هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا سُورَةُ الْكَهْفِ : 44

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ سُورَةُ الْحَجِّ : 6

يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ سُورَةُ التَّوْرِ : 25

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ : اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ ، أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَكَ الْحَمْدُ ، أَنْتَ قِيَامُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَكَ الْحَمْدُ ، أَنْتَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَنْ فِيهِنَّ أَنْتَ الْحَقُّ ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ ، وَالنَّارُ حَقٌّ ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ ، وَبِكَ آمَنْتُ ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ ، وَإِلَيْكَ أُنَبِّتُ ، وَبِكَ خَاصَمْتُ ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ ، فَاعْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَآخَّرْتُ ، وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ أَنْتَ إِلَهِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، أَقْوَالٍ فِي تَفْسِيرِ مَعْنَى الْحَقِّ

قَالَ الْخَطَّابِيُّ : « الْحَقُّ هُوَ الْمُتَحَقِّقُ كَوْنًا وَوُجُودًا وَكُلُّ شَيْءٍ صَحَّ وَجُودُهُ وَكَوْنُهُ فَهُوَ حَقٌّ »

قَالَ الْخَشِيرِيُّ : « الْحَقُّ هُوَ بِمَعْنَى الْمَوْجُودِ الْكَامِلِ وَكَذَا مَعْنَاهُ فِي اللُّغَةِ »

قَالَ الْغَزَالِيُّ : « الْحَقُّ هُوَ الَّذِي فِي مُقَابَلَةِ الْبَاطِلِ وَالْأَشْيَاءِ قَدْ تَسْتَبَانُ بِأَضْدَادِهَا وَكُلُّ مَا يُخْبِرُ عَنْهُ

فَأَمَّا بَاطِلٌ مُطْلَقًا وَأَمَّا حَقٌّ مُطْلَقًا وَأَمَّا حَقٌّ مِنْ وَجْهِهِ وَبَاطِلٌ مِنْ وَجْهِهِ . فَالْمُنْتَعِبُ بِذَاتِهِ هُوَ الْبَاطِلُ

مُطْلَقًا . وَالْوَاجِبُ بِذَاتِهِ هُوَ الْحَقُّ مُطْلَقًا . وَالْمُمْكِنُ بِذَاتِهِ الْوَاجِبُ بغيرِهِ هُوَ حَقٌّ مِنْ وَجْهِهِ بَاطِلٌ مِنْ

وَجْهِهِ »

قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ : « الْحَقُّ هُوَ الْمُوجُودُ حَقِيقَةً ، الْمُتَحَقِّقُ وُجُودَهُ وَالْوَهَّابِيُّ وَالْحَقُّ ضِدُّ الْبَاطِلِ »

قَالَ الطَّبْرِيُّ : « (وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) رَجَعَ الْمُشْرِكُونَ يَوْمَئِذٍ إِلَى اللَّهِ الَّذِي هُوَ رَبُّهُمْ وَمَا لَهُمُ الْحَقُّ لَا شَكَّ فِيهِ ، وَرُفِعَتِ الْحُجُبُ وَصَارَ الْأَمْرُ حَقًّا »

وَقَالَ الطَّبْرِيُّ أَيْضًا : « (فَدَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ فَإِنِّي تُصْرَفُونَ) أَيُّهَا النَّاسُ ، فَهَذَا الَّذِي يَفْعَلُ هَذِهِ الْأَفْعَالَ ، فَيَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَيَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ، وَيُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَالْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَيُدْبِرُ الْأَمْرَ ؛ (اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ) ، لَا شَكَّ فِيهِ ، (فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ) يَقُولُ : فَإِنِّي شَيْءٌ سِوَى الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ، وَهُوَ الْجَوْرُ عَنِ قَصْدِ السَّبِيلِ » .

فِي مَا يُسَمُّوهُ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ : قَالَ لَهُ بِيلاطُسُ : « مَا هُوَ الْحَقُّ ؟ » وَلَمَّا قَالَ هَذَا خَرَجَ أَيْضًا إِلَى الْيَهُودِ وَقَالَ لَهُمْ : « أَنَا لَسْتُ أَجِدُ فِيهِ عِلَّةً وَاحِدَةً . " (يو 18 : 38) .

لِكِتَابِ الْمُقَدَّسِ تَكْوِينِ 17 : I-2

19- اسْمُ اللَّهِ الْحَقُّ وَالذَّلِيلُ قَوْلُهُ : (وَلِذَلِكَ يَقُومُ لِيَرْحَمَكُم ، لِأَنَّ الرَّبَّ إِلَهَ حَقٌّ . طُوبَى لِجَمِيعِ مُنْتَظِرِيهِ) .

لِكِتَابِ الْمُقَدَّسِ خُرُوجِ 15 : 26

46- اسْمُ اللَّهِ الرَّؤُوفِ وَالذَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ : (I5) أَمَا أَنْتَ يَا رَبُّ فَإِنَّهُ رَحِيمٌ وَرؤُوفٌ ، طَوِيلُ الرُّوحِ وَكَثِيرُ الرَّحْمَةِ وَالْحَقُّ) .

مِنْ قِرَاءَةِ التُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَفْسَهُ بِأَنَّه الْحَقُّ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَصِلَ إِلَى مَاعْنَى وَمَفْهُومِ الْحَقِّ وَفَقْ نَظَرِهِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ :

أَوَّلًا : إِنَّ اللَّهَ حَقٌّ وَكُلُّ مَا سِوَاهُ هُوَ الضَّلَالُ وَمَعْنَى الضَّلَالِ لُغَوِيًّا وَمِصْطَلِحًا : مَادَّةٌ (ضلال) لُغَةً تَدُلُّ عَلَى مَعْنَى وَاحِدٍ ، وَهُوَ ضَيَاعُ الشَّيْءِ وَذَهَابُهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ . يُقَالُ : ضَلَّ يَضِلُّ وَيَضِلُّ ، لُغَتَانِ . وَكُلُّ جَائِزٍ عَنِ الْقَصْدِ ضَالٌّ . وَالضَّلَالُ وَالضَّلَالَةُ بِمَعْنَى : الْحَيْرَةِ وَالْعُدُولُ عَنِ الصَّوَابِ . وَأَصْلُ الضَّلَالِ الزَّوَالُ عَنِ الْقَصْدِ ، وَالسَّيْرُ عَنِ غَيْرِ بَصِيرَةٍ ، وَصَاحِبُهُ بِصَدَدِ الْهَلَاكِ ؛ وَلِهَذَا قِيلَ : أَنَّ الضَّلَالَ الْهَلَاكُ . ثُمَّ أُسْتَعِيرَ لِمَنْ زَالَ عَنِ سَبِيلِ طَاعَةِ اللَّهِ ؛ فَقِيلَ لِلْكَافِرِ : ضَالٌّ ، وَلِلْفَاسِقِ مِثْلُهُ ؛ ثُمَّ جُعِلَ اسْمًا لِلْعِقَابِ عَلَى الْفِسْقِ وَالْكَفْرِ . وَرَجُلٌ ضَلِيلٌ وَمِضَالٌ ، إِذَا كَانَ صَاحِبُ ضَلَالٍ وَبَاطِلٍ . وَوَقَعَ فِي أَضَالِيلٍ وَأَبَاطِيلٍ .

فَاللَّهُ هُوَ الْحَقُّ بِمَعْنَى أَنَّهُ الْغَايَةُ وَالْقَصْدُ وَالْمَرْجِعُ لِمَنْ يُرِيدُ الْهُدَايَةَ وَلَا يَدْخُلُ فِي سَبِيلِ وَدُرُوبِ الْأَبَاطِيلِ وَكُلُّ شَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَعْرِفَ أَحَقَّ هُوَ أَمْ بَاطِلٌ أَمْ كَذَبٌ أَمْ أَفِرَاءٌ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَعَلَيْنَا أَنْ نُعِيدَهُ إِلَى مِيزَانِ الْحَقِّ الْإِلَهِيِّ لِلْحُكْمِ عَلَيْهِ سَنَعْطِي بَعْضَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ مِثَالًا عَلَى ذَلِكَ

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : 164]

فَالرَّسُولُ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دَلَّهِمْ عَلَى الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ لِلْوُصُولِ إِلَى الْحَقِّ أَيُّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَقَبْلَ ذَلِكَ كَانُوا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ أَيُّ فِي انْحِرَافٍ وَبَعْدَ وَضْيَاعٍ تَبَهُ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴾ [النساء : 44]

[44]

أَيُّ أَتَمُّ يَجْعَلُونَ مِنْ نَشْرِ الضَّلَالَةِ تِجَارَتِهِمْ وَعَمَلُهُمْ لِذَلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَضِلُّوا النَّاسُ عَنِ السَّبِيلِ أَيُّ الطَّرِيقِ نَحْوِ الْإِيمَانِ الْحَقِّ وَهُوَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ

﴿ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء : 60]

فَالشَّيْطَانُ هَذِهِ وَظِيفَتُهُ أَنْ يَجْعَلَ النَّاسَ تَسِيرَ وَرَاءَهُ وَهُوَ يَقُودُهُمْ إِلَى الضَّلَالِ بَعِيدًا كَثِيرًا عَنِ الْمَنْهَجِ الْإِلَهِيِّ مِنْهَجِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ .

ثَابِتًا : إِنَّ اللَّهَ لِأَنَّهُ حَقٌّ فَوَلَايَتُهُ حَقٌّ وَحُكْمُهُ حَقٌّ :

هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا سُورَةُ الْكَهْفِ : 44

فَالْحُكْمُ وَالْوَلَايَةُ هُنَاكَ هِيَ صَارَتْ لِلَّهِ بَعْدَ أَنْ قُوِّضَ بِهَا الْبَشَرُ وَاسْتَخْلَفَهُمْ لِكُنْهَمُ ائْتَعَدُوا عَنِ الْمَنْهَجِ

وَهِيَ وَلايَةُ وَحُكْمٌ وَفَضْلٌ يَقُومُ عَلَى الْحَقِّ الْمَطْلُوقِ لِأَجْمَالٍ فِيهِ لِلْأَهْوَاءِ وَالنَّزَعَاتِ وَالْأَحْقَادِ وَيُحْكَمُ اللَّهُ بَيْنَ

الْعِبَادِ وَهُنَاكَ تَكُونُ الْعَاقِبَةُ وَالْثَوَابُ وَهَذَا النَّصُّ الْقُرْآنِيُّ وَرَدَ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ وَهِيَ تَتَحَدَّثُ عَنْ فِتْنَةِ

أَمْنُوا بِرَبِّهِمْ وَهَرَبُوا مِنْ بَطْشِ حَاكِمٍ فَاسِدٌ فَاللَّهُ يَقُولُ لَهُمْ الْآنَ صِرْتُمْ فِي رِعَايَةِ اللَّهِ وَوَلَايَتِهِ وَحُكْمِهِ فَلَا

خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا تَحْزَنُونَ .

فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ سُورَةُ يُوسُفَ : 32

ثَالِثًا : أَنْ كُلَّ مَا يَصْدُرُ عَنِ الْحَقِّ فَهُوَ حَقٌّ وَهَذِهِ قَاعِدَةٌ مُطْلَقَةٌ وَمَا سِوَاهَا فَهُوَ بَاطِلٌ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بَاطِلًا
فَنَاقِصًا لَا يَصِلُ مَهْمَا أُوتِيَ مِنْ عِلْمٍ أَوْ قُوَّةٍ أَوْ تَذْيِيرٍ لَا يَصِلُ إِلَى دَرَجَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيِّ :

- ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ [البقرة : 119]

فَارْسَالِ الرُّسُلِ وَالنَّبِيِّاءِ إِلَى النَّاسِ كَانَ بِالْحَقِّ لِأَنَّهُ مِنَ الْحَقِّ .

- ﴿ ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ تَزَلُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اِخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [البقرة :

[176]

وَنَزَلَ الْكِتَابَ وَالْكِتَابَ السَّمَاوِيَّةَ بِالْحَقِّ أَيْضًا .

- ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي

الصُّورِ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : 73]

وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يُعِيدُهَا كَمَا كَانَتْ بِالْحَقِّ وَيَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ بِالْحَقِّ

- ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام : 151]

- ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ

اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس : 5]

- ﴿ مَا نُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴾ [الحجر : 8]

- ﴿ وَآتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [الحجر : 64] كَلَامُ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَكُلُّ مَا تَسْمَعُهُ مِنْهُمْ بَاطِلٌ
وَكَذِبٌ

- ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الإسراء : 105] نَزُولُهُ وَمَحْتَوَاهُ
بِالْحَقِّ

- ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَا هُمْ هُدًى ﴾ [الكهف : 13]

- ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَصُّ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : 62]

كُلُّ مَا يُقَصُّ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ قِصَصٍ هُوَ بِالْحَقِّ .

- ﴿ بَلْ تَقْدِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : 18]

- ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [المؤمنون : 41] وَلَيْسَ ظُلْمًا

- ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان : 33]

- ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾

[العنكبوت : 68]

- ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا

يُظْلَمُونَ ﴾ [الزمر : 69]

- ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ غَافِرٌ 20

- ﴿ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الدخان : 39]

ونسترشد من كل هذه التوضيحات إن كل شيء وأمر وفعل يصدر عن الله سبحانه وتعالى هو حق وخلافه هو باطل لا محالة واستذكر هنا بيت للشاعر لبيد يقول فيه :

أَأَكُلُ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهُ بَاطِلٌ وَكُلُّ حَالٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلٌ .

مُقَارَنَةُ بَيْنِ الْحُقُوقِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْحُقُوقِ الْوَضْعِيَّةِ (الطَّبِيعِيَّةِ)

الحقوق هي جمع حق وتعتبر الحقوق بشكل عام بأنها الشروط الأساسية للحياة البشرية ، ودونها لا يستطيع الأفراد إدراك ما لهم ، فعند امتلاكهم لهذه الحقوق يستطيعون تنمية شخصياتهم والمساهمة بشكل أفضل في نمو مجتمعهم ، وللحقوق أنواع مختلفة وعديدة ، ومن أهمها الحقوق الطبيعية للأفراد ؛ كالحق في الملكية ، وحق الحياة ، وحق الحرية ؛ وذلك بحكم طبيعتهم البشرية وليس بناءً على القوانين والعادات السائدة .

مَفْهُومُ الْحُقُوقِ الطَّبِيعِيَّةِ

يُعتبر مفهوم الحقوق الطبيعية وجوانبه وإبعاده المختلفة من الأسس لفكرة حقوق الإنسان في الفكر الغربي ، وذلك باعتبار أن الحقوق الطبيعية كالحرية ، والتملك ، وحق المساواة ، ما هي إلا حقوق فزضها ، وشرعها قانون الطبيعة لكونها مصدر القوانين الثابتة للأفراد ، ويعتبر مفهوم الحقوق الطبيعية بلورة لرؤية فلسفية تشكلت في القرن الثامن عشر تحث على أن الفرد بطبيعته الأدمية يمتلك حقوقاً مستمدة من

طَبِيعَتَهُ ، فَهِيَ ثَابِتَةٌ وَلَا تُنْتَزَعُ ، وَهِيَ حُقُوقٌ لَا يَمْنَحُهَا الْمُجْتَمَعُ لِأَفْرَادِهِ إِنَّمَا يُقَرَّرُ وَيُعْتَرَفُ بِهَا ، وَيَقُومُ هَذَا الْمَفْهُومُ عَلَى عِدَّةِ أُسُسٍ وَمِنْهَا :

الْحُقُوقُ الطَّبِيعِيَّةُ لِلْأَفْرَادِ لَا تَقُومُ عَلَى الْوُجُودِ الْقَانُونِيِّ أَوْ السِّيَاسِيِّ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَفْرَادَ يُخْلِقُونَ بِحُقُوقِهِمُ الطَّبِيعِيَّةَ ، وَعِنْدَ ظُهُورِ الْمُجْتَمَعِ الْمَدَنِيِّ يَأْخُذُ الْأَفْرَادَ حُقُوقُهُمُ الطَّبِيعِيَّةَ إِلَى مَجْتَمَعَاتِهِمُ الْمَدَنِيَّةِ .

أُغْتَبِرَتِ الْحُقُوقُ الطَّبِيعِيَّةُ أَنَّ مَفْهُومَ الْحُرِّيَّةِ أَسَاسٌ لِلْوُجُودِ الْإِنْسَانِيِّ .

يُخْضَعُ جَمِيعُ الْأَفْرَادِ لِقَوَانِينِ الْحُقُوقِ الطَّبِيعِيَّةِ ؛ فَالْجَمِيعُ مُتَسَاوُونَ وَمُسْتَقِلُونَ ، وَلَا يُسْمَحُ لِأَحَدٍ أَنْ يُسَيِّئَ لِأَحَدٍ سِوَاءَ بَعْدِيهِ عَلَى حُرِّيَّتِهِ ، أَوْ صِحَّتِهِ ، أَوْ حَيَاتِهِ ، أَوْ عَلَى مُمْتَلِكَاتِهِ .

تَارِيخُ الْحُقُوقِ الطَّبِيعِيَّةِ

تَطَوَّرَ مَفْهُومُ الْحُقُوقِ الطَّبِيعِيَّةِ خِلَالَ الْفُتْرَاتِ كَمَا يَلِي :

يُعُودُ أَصْلُ الْحُقُوقِ الطَّبِيعِيَّةِ إِلَى الْفَلَسَافَةِ وَالْمَفْكَرِينَ الْيُونَانِيِّينَ الْقَدَامَى مُنْذُ قَرَابَةِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ قَبْلَ الْمِيلَادِ ، وَمَنْ أَهَمَّ الْفَلَسَافَةِ الَّذِينَ نَاقَشُوا مَبَادِيهَا أَرِسْطُو .

وَفِي الْعُصُورِ الْوُسْطَى أَكْدُوا عَلَى أَنَّ الْأَفْرَادَ مُتَسَاوُونَ بِطَبِيعَتِهِمْ ، وَلَهُمْ نَفْسُ الْحُقُوقِ أَمَّا فِي الْعُصُورِ الْحَدِيثَةِ تَمَّ تَنَاوُلُ الْحُقُوقِ الطَّبِيعِيَّةِ ، وَتَطْوِيرُ نَظَرِيَّتِهَا مِنْ قِبَلِ الْفَلَسَافَةِ وَالْمَفْكَرِينَ أَمْثَالِ تُوْمَاسِ هُوبزِ وَجُونِ لُوكِ ، وَكَانَ الْأَخِيرُ الْأَكْثَرَ تَأْثِيرًا بِهَذِهِ الْحُقُوقِ ، وَقَدْ قَامَ بِتَقْدِيمِ أُطْرُوحَاتٍ تَبَحُّثُ فِي فِتْرَةٍ مَا قَبْلَ انْتِشَارِ الدُّوَلِ بِأَنَّ كَانَ هُنَالِكَ حَالَةً طَبِيعِيَّةً ، بِحَيْثُ يَمْتَلِكُ الْإِفْرَادُ فِيهَا حُرِّيَّةَ التَّمَلُّكِ وَالْحَيَاةِ .

أُسُسُ الْحُقُوقِ الطَّبِيعِيَّةِ

وَمَنْ أَهَمَّ هَذِهِ الْأُسُسَ مَا يَلِي :

القانون الطبيعي والعناية الإلهية : حيثُ أُعْتَبِرَ الفلاسفة أَنَّ القَوَانِينِ وَالْحُقُوقِ الطَّبِيعِيَّةِ عِبَارَةٌ عَنْ عِنَايَةِ
إِلَهِيَّةٍ ، وَهُوَ مُشَارَكَةٌ بَيْنَ القانونِ الأَبَدِيِّ والقانونِ الطَّبِيعِيِّ ، وَبِأَنَّ الطَّبِيعَةَ هِيَ مِنْ أَرَادَةِ اللَّهِ ، فَالكَائِنَاتُ
العَاقِلَةُ وَغَيْرُ العَاقِلَةِ لَهَا نَصِيبٌ فِي هَذِهِ الطَّبِيعَةِ .

القانون الطبيعي والعقلانية العلمية : وَهِيَ أَنَّ القانونِ الطَّبِيعِيِّ يُشَكِلُ المَبَادِئَ الأَسَاسِيَّةَ للعقلانية العَمَلِيَّةِ
للإنسانية ، ، فَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَبَادِئَ القانونِ الطَّبِيعِيِّ مُلزِمَةٌ عَالَمِيًّا بطبيعتها ، وَإِنَّ مَبَادِئَ القانونِ
الطَّبِيعِيِّ يُمكنُ مَعْرِفَتِهَا عَالَمِيًّا بِوَأَسْطَةِ الطَّبِيعَةِ .

جوهر رأي القانون الطبيعي : يُعَرَّفُ المَبْدَأُ الأَسَاسِيُّ للقانونِ الطَّبِيعِيِّ بِأَنَّ الخَيْرَ يَجِبُ فِعْلُهُ وَيَجِبُ
الِإِتِّعَادُ عَنِ الشَّرِّ ، وَيُمْكِنُ القَوْلُ أَنَّ هَذَا الفِعْلُ فَقَطُ الَّذِي يُمكنُ فَهْمِهِ عَلَى أَنَّهُ يَتَوَافَقُ مَعَ هَذَا المَبْدَأِ
الخَيْرِ ، كَمَا أَنَّهُ يَظْهَرُ ضَمِنَ فَكْرِهِ أَنَّهُ يَجِبُ البَحْثُ الخَيْرِ وَتَجَنُّبُ الشَّرِّ ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُفْهَمَ عَلَى أَنَّهُ عَمَلٌ
وَاضِحٌ ، لَكِنْ لَا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْعَى وَرَاءَ الخَيْرِ فِي العَمَلِ بِسُهُولَةٍ .

هُنَاكَ حُقُوقٌ طَّبِيعِيَّةٌ عَدِيدَةٌ لِلأَفْرَادِ ، وَمِنْهَا :

الحق في الحرية : وَذَلِكَ عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّ الأَفْرَادَ لَهُمُ الحَقُّ فِي الحَيَاةِ بِحُرِّيَّةٍ ، وَأَنْ تُكُونَ تحركاتهم غَيْرُ
مُتَبَدِّةٍ ، وَيَمْتَلِكُونَ حُرِّيَّةَ الفِكرِ الأَخَاصَةِ بِهِمْ ، وَحصولهم عَلَى حَقِّهِمُ بِالأَخْصُوصِيَّةِ فِي حَيَاتِهِمْ .

الحق في الحفاظ على الحياة : وَيَتِمَّتْ ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ أَنَّ لِكُلِّ الأَفْرَادِ الحَقَّ فِي الحَيَاةِ ، وَلَا يُمكنُ لِأَيِّ
سَلْطَةٍ أَنْ تَسْلِبَهُمْ هَذَا الحَقَّ ، وَيَتِمَّتْ مِنْ خِلَالِ الدَّفَاعِ عَنِ النَّفْسِ ضِدَّ أَيِّ شَخْصٍ قَدْ يُسَبِّبُ الأَذَى

للْفَرْدِ ، وَيُعَدُّ جَمِيعَ الْفَلَسَفَةِ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ أَنَّ الْحَقَّ فِي الْحِفَاظِ عَلَى الْحَيَاةِ مِنْ أَهَمِّ الْحُقُوقِ الطَّبِيعِيَّةِ
الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَحْصُلَ عَلَيْهَا الْفَرْدُ .

الْحَقَّ فِي تَكْوِينِ أَسْرِهِ : لِكُلِّ فَرْدٍ الْحَقَّ فِي الزَّوْجِ وَتَكْوِينِ أَسْرِهِ خَاصَّةً بِهِ ، وَلَا يَجِبُ الْحُصُولُ عَلَى
مُؤَافَقَةِ الدَّوْلَةِ أَوْ الْحُكُومَةِ لِتَحْقِيقِ ذَلِكَ .

الْحَقَّ فِي التَّمَلُّكِ : وَذَلِكَ بِأَحْقِيَّةِ كُلِّ فَرْدٍ بِالتَّمَلُّكِ سَوَاءً بِمُفْرَدِهِ أَوْ مَعَ جَمَاعَةٍ ، وَيَمْتَدُّ هَذَا الْمَفْهُومُ
لِيَشْمَلَ الْأَفْرَادَ وَأَحْقِيَّتَهُمْ فِي الْحُصُولِ عَلَى الْعَمَلِ الْخَاصِّ بِهِمْ .

الْحَقَّ فِي كَسْبِ الْعَيْشِ : لِلْأَفْرَادِ الْحَقَّ فِي الْعَمَلِ لِكَسْبِ لُقْمَةِ الْعَيْشِ ، وَاعْتَبَرَ الْفَلَسَافَةُ أَنَّ سَعْيَ
الْإِنْسَانِ لِتَحْقِيقِ السَّعَادَةِ يَشْمَلُ حَقَّهُمْ فِي حُرِّيَّتِهِمُ الْاِقْتِصَادِيَّةِ ، وَبِعَدَمِ قُدْرَةِ أَيِّ حُكُومَةٍ عَلَى مَنَعِ أَيِّ
شَخْصٍ مِنْ السَّعْيِ لِلْحُصُولِ عَلَى لُقْمَةِ عَيْشِهِ .

الْحَقَّ فِي مُمَارَسَةِ الدِّينِ : لِكُلِّ فَرْدٍ الْحَقَّ وَالْحُرِّيَّةَ فِي اعْتِنَاقِ أَيِّ دِيَانَةٍ يَرْتَضِيهَا وَيَخْتَارُهَا ، دُونَ
تَعَرُّضِهِ لِلْإِكْرَاهِ .

الْحُقُوقِ الطَّبِيعِيَّةِ لِلْجَمَاعَاتِ

مِنْ أَهَمِّ الْحُقُوقِ الطَّبِيعِيَّةِ لِلْجَمَاعَاتِ مَا يَلِي

حَقَّ تَحْقِيقِ الْمَصِيرِ : وَذَلِكَ عِنْدَ قِيَامِ الْجَمَاعَاتِ وَاللِّجَانِ الَّتِي تَمَثِّلُ الشَّعْبَ بِحِمَايَةِ الْأَفْرَادِ التَّابِعِينَ لَهَا
فِي تَحْقِيقِ مَصِيرِهِمْ ، وَمَعْرِفَةِ إِلَى مَاذَا سَيُؤُولُ .

الْحُقُوقِ الثَّقَافِيَّةِ لِلْمَجْمُوعَاتِ : وَتَمَثَّلُ هَذِهِ الْحُقُوقُ بِاحْتِرَامِ آرَاءِ الْمَجْمُوعَةِ وَتَقْدِيمِ الدَّعْمِ لَهَا ، وَتَشْمَلُ
اِحْتِرَامَ لُغَةِ الْمَجْمُوعَاتِ ، وَجَعَلَهَا قَابِلَةً لِلِاسْتِخْدَامِ وَتَوْفِيرِهَا فِي الْمُحِيطِ الْعَامِّ .

الْحُقُوقِ الدِّيْنِيَّةِ لِلْجَمَاعَاتِ : وَذَلِكَ بِمَجْرِيَّتِهِمْ فِي الْاِنْخِرَاطِ وَالْاِعْتِقَادِ الدِّيْنِيِّ الَّذِي يَنْاسِبُهُمْ ، وَالْاِيْتِمُّ
تَدْنِيسِ اَمَاكِيْهِمْ وَرَمُوزِهِمُ الْمُقَدَّسَةَ وَاحْتِرَامِهَا .

لَكِنْ مِنْ اَيْنَ اسْتَخْلَصْتَ هَذِهِ الْحُقُوقَ

(- مَوْقِفُ طوماس هوبس

يُرْجِعُ اَسَاسَ الْحَقِّ اِلَى الْقُوَّةِ الَّتِي تُكشِفُ الطَّبِيعَةَ الْعُدْوَانِيَّةَ وَالشَّرِيْرَةَ لِلْاِنْسَانِ ، وَالَّتِي تَجَسَّدُهَا حَالَةُ
الْغَابِ الَّتِي كَانَ يَعْشِشُهَا وَالْمُمَيِّزَةُ بِحَرْبِ الْكُلِّ صِدِّ الْكُلِّ ؛ فَقَدْ كَانَ النَّاسُ يَعْشِشُونَ فِي حُرِّيَّةٍ مُطْلَقَةٍ
تُخَوِّلُهُمُ التَّصَرُّفَ وَفَقْ اِمْلَاءَاتِ طَبَائِعُهُمُ الْخَاصَّةَ وَمَا يَزُوهُ نَافِعًا بِالنَّسْبَةِ لَهُمْ . اَنَّهَا بِمَعْنَى اٰخَرَ دَائِرَةٌ
الْعُنْفِ الطَّبِيعِيِّ الَّتِي تُعْبَرُ عَنْ حَالِهِ الصَّرَاعِ وَالْفَوْضَى وَالْعُنْفِ ، حَيْثُ الْاِنْسَانُ ذُنْبٌ لِاٰخِيهِ الْاِنْسَانِ ،
وَهِيَ الدَّوَامَةُ الَّتِي لَمْ يَكُنْ بوسَعِهِمُ الْخُرُوجُ مِنْهَا اِلَّا بِاقَامَةِ الْحَقِّ عَلَى الْقُوَّةِ الَّتِي تُفْرَضُ عَلَى الْكُلِّ التَّنَازُلُ
عَنْ حُرِّيَّتِهِمُ الْمُطْلَقَةِ وَاَهْوَاهِهِمُ الطَّبِيعِيَّةِ ، وَالِاتِّفَاقُ بِالْمُقَابِلِ عَلَى الْاِمْتِنَانِ لِلسُّلْطَةِ مَجْلِسٍ وَاَحَدٍ اَوْ حَاكِمٍ
وَاحِدٍ ، تَمَثَّلُ حَاصِلِ اِرَادَاتِهِمْ . (اِنْ حَقَّ الطَّبِيعَةَ هُوَ الْحَقُّ فِي اسْتِخْدَامِ الْقُوَّةِ) .

(2- مَوْقِفُ باروخ اسبينوزا

بِمَا اَنَّ حَالَةَ الطَّبِيعَةَ تُضَرُّ النَّاسَ اَكْثَرَ مِمَّا تُنْفَعُهُمْ ، وَتَهْدِدُ حَيَاتِهِمْ وَاسْتِقْرَارَهُمْ ، وَلِاَنَّ الْحُقُوقَ الَّتِي
كَانَتْ لَهُمْ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ ، اَصْبَحَتْ الْاَنَ تَنْتَمِي اِلَى الْجَمَاعَةِ ، وَلَمْ تُعَدِّ تَمَلَى وَفَقًا لِلْقُوَّةِ اَوْ الشَّهْوَةِ

البيولوجية ، فإن اسبينوزا يؤكد على أهمية تشييد مجتمع سياسي قائم على التعاقد الإرادي والحر ، من شأنه أن يولي أهمية للحق المدني المتوافق مع مبادئ العقل والسلم . (إن الطبيعة لا تقتصر على قوانين العقل الإنساني الذي يعد هدفه الوحيد هو المنفعة الحقيقية والمحافظة على البشر ، بل إنها تشمل على ما لا نهاية له من القوانين الأخرى المتعلقة بالنظام الأزلي للطبيعة بأكملها) .

(3) - موقف جون جاك روسو

أن حالة الطبيعة التي كان يعيشها الإنسان باعتبارها حالة افتراضية خالية من الحقوق ، لا تعني نشوء الحق على أساس القوة المنبعثة من الطبيعة الإنسانية ، فالتغيرات الطارئة على الحياة الإنسانية فرضت على الجميع الدخول في عقد اجتماعي هو بمثابة اتفاق وتعاقد بين إرادات أفراد يخلق إرادة عامة ، يخضع لها جميع المواطنين ، وتنقلهم من حاله الطبيعة إلى حالة المدينة/ المجتمع التي تجسد الحرية الأخلاقية التي تسمح للفرد بأن يكون سيّداً على نفسه . (ليس الأقوى بقوي دائماً قوة تجعله يسود أبداً إذا لم يحول قوته حقاً والطاعة واجباً) .

(4) - موقف هانز كيلسين

هناك اختلاف في المرجعيات السيكولوجية والاجتماعية والثقافية بين الناس ، مما ينعكس على تصورهم لأساس الحق ، ويجعل هذا الأخير يختلف باختلاف المبادئ التي يرتكز عليها ؛ فالحق لا يستمد قوته إلا من القوانين الجاري بها العمل والتي تشكل ضوابط تنظيمية توطن المجتمع . وعليه فإن المنظور الوضعي يرى بأنه لا حق غير الحق الوضعي الذي يتحدد انطلاقاً من اعتبارات واقعية ، ومن

موازن القوى المتصارعة على أرض الواقع ، وهذا ما يضمن على الحق طابع النسبية والتغير . (الحق يقول القانون ، كما أن القانون يقول الحق) .

ذا كان الهدف من إقامة الحق هو ضمان السلم والحرية والمساواة ، فالمهم هو أن يحترم الجميع قواعد الحق والتصرف وفق متطلباته ، ولهذا فإن التعاقد والاتفاق على وضع قوانين وفقاً لمبادئ الحق له كفاية أو كأساس لتحقيق العدالة داخل المجتمع ومنع الظلم . فكيف تحدد علاقة الحق بالعدالة ؟ وهل ضمان السلوك العادل وتجنب الظلم يتحقق بطاعة القوانين ؟ أو بمعنى آخر ، هل العدالة تجسيد للحق وتحقيق له أهم أن فرصة قيام حق بلا عدالة تظل قائمة ؟

(I) - موقف باروخ اسبينوزا

يُعتبر "اسبينوزا" أن العدالة تجسيد للحق وإحقاق له ، فهناك مبدأ تقوم عليه الدولة الديمقراطية ، وهو تحقيق الأمن والسلام للأفراد عن طريق سن قوانين عقلية تمكن من تجاوز قوانين الشهوة التي هي مصدر كل كراهية أو فوضى ، ومن هنا لا يمكن تصور عدالة خارج إطار مبادئ العقل المجسدة في القانون المدني الذي تكفل الدولة بتطبيقه ، كما لا يمكن تصور تمتع للناس بحقوقهم خارج قانون العدالة ، وهكذا فلا يوجد حق خارج عدالة قوانين الدولة . إما خارج هذه القوانين التي يضعها العقل ، فإننا نكون بإزاء العودة إلى عدالة الطبيعة التي استحالت فيها تمتع الجميع بحقوقهم المشروعة في الحرية والأمن والاستقرار . (على الرعايا تنفيذ أوامره وإلا يعترفوا بقانون إلا ما يستنه الحاكم) .

(2) - موقف إميل شارتيبي (الآن)

أَنَّ الْحَقَّ لَا يَتَحَقَّقُ كَقِيْمَةِ أَخْلَاقِيَّةٍ وَقَانُونِيَّةٍ إِلَّا دَاخِلُ الْمَسَاوَاةِ بِاعْتِبَارِهَا ذَلِكَ الْفِعْلُ الْعَادِلُ الَّذِي يُعَامَلُ بِهِ النَّاسُ بِشَكْلِ مُتَسَاوٍ ، بَعْضُ النَّظَرِ عَنِ الْفَوَاقِرِ الْقَائِمَةِ بَيْنَهُمْ أَوْ تَفَاوُتَاتِهِمْ وَاخْتِلَافَاتِهِمْ مِنْ حَيْثُ السَّنِ أَوْ الْجِنْسِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ ، وَبِهَذِهِ الشَّكْلَةِ يَكُونُ الْحَقُّ هُوَ الْمَسَاوَاةُ ، وَالْعَدَالَةُ هِيَ تِلْكَ الْقَوَانِينُ الَّتِي يَبْتَعَى كُلُّ النَّاسِ سَوَاسِيَةً أَمَامَهَا . (لقد اِنْتَكَرَ الْحَقُّ ضِدَّ اللامساواة ، والقوانين العادلة هي التي يَكُونُ الْجَمِيعُ أَمَامَهَا سَوَاسِيَةً ، سَوَاءً كَانُوا رِجَالًا أَوْ نِسَاءً أَوْ أَطْفَالًا ، مَرْضَى أَوْ جُهَالًا) .

(3) - مَوْقِفُ شَيْشِرُون

يَرَى "شَيْشِرُون" أَنَّ الْمُسَوَّاتِ وَالْقَوَانِينِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ أَسَاسًا لِلْحَقِّ ، مَا دَامَ أَنَّ هُنَاكَ بَعْضُ الْقَوَانِينِ يَضَعُهَا الطُّغَاةُ لِخِدْمَةِ مَصَالِحِهِمُ الْخَاصَّةِ وَهَضُمَ حُقُوقِ الْآخَرِينَ ، وَلِذَلِكَ يَجِبُ تَأْسِيسُ الْحَقِّ وَالْعَدَالَةِ تَأْسِيسًا عَقْلِيًّا ؛ إِذْ أَنَّ الْحَقَّ الْوَحِيدَ هُوَ الَّذِي يُؤَسِّسُهُ قَانُونٌ وَاحِدٌ مُبْنِيٌّ عَلَى قَوَاعِدِ الْعَقْلِ السَّلِيمِ الَّذِي يُشْرَعُ مَا يَجِبُ فِعْلُهُ وَمَا يَجِبُ تَرْكُهُ . وَعَلَيْهِ فَإِنَّ الْفُضْلَ بَيْنَ الْعَدَالَةِ وَالْمَنْفَعَةِ الْخَاصَّةِ هُوَ مَا يُؤَسِّسُ الْحَقَّ تَأْسِيسًا عَقْلِيًّا وَأَخْلَاقِيًّا بِمُوجِبِهِ تُحْرَمُ الْمُقَدَّسَاتُ وَيَتِمُّ حُبُّ الْآخَرِ وَخِدْمَةُ الْوَطَنِ . (لن توجَدَ عَدَالَةً مَا لَمْ تُوْجَدَ طَبِيعَةً صَانِعِهِ لَهَا) .

(4) - مَوْقِفُ أَرِسْطُو

أَرِسْطُو بَانَ الْمَدِينَةَ إِذَا قَامَتْ عَلَى الصِّدَاقَةِ ، فَلَنْ يَكُونَ الْإِفْرَادُ فِي حَاجَةٍ إِلَى الْقَوَانِينِ وَالْتَشْرِيعَاتِ كَمَا أَنَّ الْقَوَانِينُ تَكُونُ أَفْعَالًا عَادِلَةً إِذَا طُبِقَتْ بِالْمَسَاوَاةِ وَمِنْ دُونَ تَمْيِيزِ بَيْنَ الْمَوَاطِنِينَ ، رَغْمَ مَا قَدْ يُطَالُ هَذِهِ الْعَدَالَةُ الْقَانُونِيَّةُ مِنْ إِكْرَاهٍ أَوْ إِلْزَامٍ قَانُونِيٍّ ، وَالَّتِي بِطَبِيعَةِ الْحَالِ فِيهَا مِنْ الْإِيجَابِيَّاتِ أَكْثَرُ مِنَ السَّلْبِيَّاتِ ، لِأَنَّ غَايَتَهَا هِيَ الْحَدُّ مِنَ التَّعْسُفَاتِ ، وَالْمُسَاعَدَةِ عَلَى التَّعَامُلِ بِالْمِثْلِ (المساواة) ، كَمَا يُمَكِّنُ أَنْ تُجْعَلَ

قيام محكمة محايدة أمراً ممكناً (عدالة تعويضية) ناهيك عن إنها فضيلة أخلاقية تضمن حماية وإقراراً
سعادة الجماعة السياسية .

موقف إميل شارتيبي (الآن)

لا يمكن الحديث عن الحق إلا في إطار المساواة بين الناس ، فالقوانين العادلة هي التي يكون الجميع
سواسية أمامها . والحق لا يتجسد إلا داخل المساواة باعتبارها ذلك الفعل العادل الذي يعامل الناس
بالتساوي بغض النظر عن التفاوتات القائمة بينهم ، وهنا يتحدث « الآن » عن السعر العادل ويميزه عن
سعر الفرصة ؛ بحيث إن الأول هو المعلن داخل السوق والذي يخضع له الجميع بالتساوي ، بينما الثاني
هو سعر يغيب فيه التكافؤ بين الطرفين ، كأن يكون أحدهما مخموراً والآخر وأغنياً ، أو يكون أحدهما
عالماً بقيمة المنتج والآخر جاهلاً بذلك . (لقد ابتكر الحق ضد اللامساواة . والقوانين العادلة هي التي
يكون الجميع أمامها سواسية . . . أما أولئك الذين يقولون إن اللامساواة هي من طبيعة الأشياء فهم
يقولون قولاً بئساً) .

أن الحق والعدالة من أبرز القيم الإنسانية التي عرفها المجتمع الإنساني ؛ فالحق قيمة علياً مطلقة تحكم
علاقات الناس فيما بينهم ، وهي علاقات ملزمة وأمرية قائمة على قواعد قانونية ترمي إلى تنظيم
المجتمع وفق تعاهد اجتماعي يكفل التعايش والسلام بين بني البشر ، طبقاً لمنطق العدالة الاجتماعية ،
أما العدالة فهي نزعها متجذرة في طبيعة الإنسان الخيرة . لكنها تفرض شرطين أساسين هما ضرورة
المساواة بين البشر وإنصاف كل فرد بحسب مميزاته ومؤهلاته ، ومن ثم فالعدالة لا تعني التطبيق
الحرفي للقوانين ، بقدر ما هي احترام للشخص وصيانة لكرامته .

نتيجة

لقد حاول العقل البشري وفي مختلف العصور وضع نظريات لإقامة القواعد والأسس التي تحكم البشر وتحكم التعامل فيما بينهم ثم جعلوها وصاغوها في قوانين ثابتة ولوائح حقوقية أو قانونية وشرائع عالمية وقد استخرجوا هذه الحقوق مما سمّوه الطبيعة واعتبروا أن كل إنسان يولد له حصانه الطبيعية في حياته وماله وحرّيته بما فيها حرّية الاعتقاد .

وقد اختلفوا على المصدر الذي يجب اعتماده لاستخلاص هذه الحقوق وقد انقسمت آراءهم في أصل هذه الحقوق أهو إلهي أم إنساني أم طبيعي أم عقلي وفي النتيجة فإن كل الذين أتجوه سمي لاحقاً بالحقوق الوضعية أي التي وضعها الإنسان للفرقة بينها وبين الحقوق الدينية التي وردت في الكتب المقدسة لقد أثبت لنا التاريخ أن هذه القوانين الوضعية الطبيعية لم تحقق للإنسان الحماية الكافية المتوجبة لانسانيته لأنها لم تستند إلى المبادئ السماوية الإلهية لذلك فهي حقوق منقوصة ظاهرها عدل ومساواة وحرّية وباطنها قتل وعدوان واستعمار واعتداء دفع أثمانها البشر كثيراً جداً .

في الطبيعة هناك قانون آخر لكنه خاص بالحيوان سمي بشريعة الغاب أي قانون الغاب ولأن العقل البشري لم يتدخل في صياغته ووضعه وتنفيذه فبقي قانوناً عادلاً من حيث المبدأ والسبب في ذلك لأنه قانون إلهي سماوي وضعه الله سبحانه وتعالى بدقة كي يستطيع كل كائن حي إن يعيش وإن لايفنى ومثله القوانين الذي وضعها الله لتسيير الحياة على وجه البسيطة مثل قانون الجاذبية وقوانين الطقس والغلاف الجوي وغيرها وغيرها لقد بقت هذه القوانين الطبيعية الإلهية تعمل بنظام وانتظام طيلة ملايين السنين لحين بدأ الإنسان بالاعتداء والتعدي عليها فقام على مستوى الطبيعة التباينة بتغيير الجغرافية

وَبَسَبِّ صِنَاعَاتِهِ وَمُعَامَلَةِ تَغْيِيرِ قَانُونِ الْمُنَاخِ وَلِأَنَّ هَذِهِ الْقَوَانِينَ تَعْمَلُ كَمَجْمُوعَةٍ بِالتَّسْيِيقِ وَالتَّكَامُلِ فَإِنَّ
 أَيَّ تَغْيِيرٍ فِي قَانُونِ سَيَحْدُثُ أَثْرًا بَالِغًا عَلَى غَيْرِهِ وَأَكْبَرَ إِثْبَاتٍ مَا تُعَانِيهِ الْكُرَّةُ الْأَرْضِيَّةُ مِنْ مَظَاهِرِ
 خَطِيرَةٍ قَدْ تُوْدِي إِلَى فَنَاءِ الْحَيَاةِ عَلَى هَذَا الْكُوكَبِ مِثْلَ طَبَقَةِ الْأَوْزُونِ وَتَغْيِيرِ الْمُنَاخِ وَالتَّصْحَرِ وَاخْتِلَالِ
 نِظَامِ الْبَيْئَةِ الْبَحْرِيَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . .

الْحُقُوقُ الْإِلَهِيَّةُ

إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ، وَيَدْعُو إِلَى الْحَقِّ ، وَمِنَهُ الْحَقُّ جَلَّ وَعَلَا . وَهَذَا الْحَقُّ مِنْ أَسْمَائِهِ ، وَأَفْعَالِهِ حَقٌّ ،
 وَصِفَاتِهِ حَقٌّ ، وَكُلُّ شَيْءٍ يُنْسَبُ إِلَيْهِ تَعَالَى فَهُوَ حَقٌّ ، وَقَوْلُهُ حَقٌّ ، وَفَعْلُهُ حَقٌّ ، وَوَعْدُهُ حَقٌّ ، وَلِقَائِهِ
 حَقٌّ ، وَرُسُلُهُ حَقٌّ ، وَكُتُبُهُ حَقٌّ ، وَدَارُ كِرَامَتِهِ حَقٌّ ، وَدَارُ عَذَابِهِ حَقٌّ
 وَكُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ بَاطِلٌ ، يَهْدِي إِلَى بَاطِلٍ ، إِلَّا مَنْ دَعَا إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ ، وَاسْتَمَدَّ مِنَ اللَّهِ ، فَيَكُونُ عَلَى
 الْحَقِّ وَالنَّاسُ لَا يَعْرِفُونَ فِي الْحَقِّ إِلَّا بِنِسْبَةِ أَصَابَتِهِمْ مِنَ الْحَقِّ الصَّادِرِ عَنِ اللَّهِ .

تَعْرِيفٌ

تُعْرَفُ بِأَنَّهَا حُقُوقُ إِلَهِيَّةٌ ثَابِتَةٌ لَا تَتَغَيَّرُ ، مَنَحَهَا اللَّهُ لِعِبَادِهِ عَلَى قَدَمِ الْمَسَاوَاةِ ، دُونَ النَّظَرِ لِلْوَنَمِ أَوْ
 جِنْسِهِمْ أَوْ لُغَتِهِمْ . . . إلخ ، فَهُمْ سَوَاسِيَةٌ كَأَسْنَانِ الْمِشْطِ . وَمَنْ تَمَّ فَإِنَّ مُمَارَسَتَهَا مُمَارَسَةٌ لِوَاجِبٍ
 وَحَقٍّ إِلَهِيٍّ ، وَاحْتِرَامُهَا وَاجِبٌ عَلَى الْإِنْسَانِ ، وَالْإِخْلَالُ بِهَا مَسٌّ وَاتِّهَافٌ لِلْحُقُوقِ اللَّهِ .
 وَلِكُونِهَا إِلَهِيَّةً فَهَذَا يَمْنَحُهَا ضَمَانَهُ أَقْوَى وَأَرْسَخَ . فَمَا يُعْطِيهِ الْإِنْسَانُ لِنَفْسِهِ أَوْ لِغَيْرِهِ ، قَابِلٌ لِلتَّغْيِيرِ وَالْمَنْعِ
 وَالِاسْتِرْجَاعِ لَكِنِ الْحُقُوقُ الْإِلَهِيَّةُ دَائِمَةٌ مُسْتَقَرَّةٌ لَا تَتَغَيَّرُ وَلَا تَتَبَدَّلُ وَهِيَ قَابِلَةٌ لِلتَّطْبِيقِ فِي أَيِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ

مَا أَهَمَّ الصِّفَاتِ الَّتِي تَنْصِفُ بِهَا الْحُقُوقَ الْإِلَهِيَّةَ :

صِفَاتُ الْحَقِّ

أَهَمُّ صِفَةٍ لِلْحَقِّ أَنَّهُ : "إِلَهِي الْمَصْدَرُ" ، فَمَنْ أَرَادَ الْبَحْثَ عَنِ الْحَقِّ ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَبْحَثَ عَنِ الْحَقِّ فِي نَظَرِيَّاتِ الْغُرَبِيِّينَ وَالشَّرْقِيِّينَ مِثْلًا ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَبْحَثَ عَنْهُ فِي آرَاءِ النَّاسِ ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ فِي وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ ، أَوْ أَنْ يُبْحَثَ عَنِ الْحَقِّ فِي الْمَصَادِرِ الْبَشَرِيَّةِ مِثْلًا .

وَأَعْظَمُ مَيِّزَةٍ لِلْحَقِّ أَنَّهُ إِلَهِي الْمَصْدَرُ ، وَتَكَلَّمَ هُنَا عَنِ الْحَقِّ كُلِّهِ بِمَجْمُوعِهِ ؛ الْحَقِّ فِي الْعَقِيدَةِ ، وَالْحَقِّ فِي الْعِبَادَةِ ، وَالْحَقِّ فِي الْمَعَامَلَةِ وَالَّذِي يُعْرَفُ أَنَّ الْحَقَّ إِلَهِي الْمَصْدَرُ ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَبْحَثَ عَنِ الْحَقِّ فِي غَيْرِ الْمَصَادِرِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَالْمَصَادِرِ الْإِلَهِيَّةِ هِيَ الْوَحْيُ ، لَيْسَتْ عِنْدَنَا مَصَادِرُ أُخْرَى .

فَالْحَبْلُ الَّذِي بَيْنَنَا ، وَبَيْنَ اللَّهِ هَذَا الْكِتَابُ ، وَهَذِهِ السُّنَّةُ ، فَالَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَبْحَثَ عَنِ الْحَقِّ خَارِجَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ضَالٌّ ، وَلَنْ يُصَلَّ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا [الأحزاب : 62] .

هَذَا الْحَقُّ الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، هَذَا الْحَقُّ وَحْيِي إِلَهِي وَتَشْرِيعِي رَبَّانِي إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لَتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ [النساء : 105] .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ [النساء : 174] ، الْمَصْدَرُ مِنَ الْمَصْدَرِيَّةِ ، مِنْ رَبِّكُمْ .

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا [النساء : 174] ، فَلَيْسَ الْحَقُّ نَائِعٌ مِنْ أَرَادِهِ ، أَوْ طَبَقَةٍ ، أَوْ حِزْبٍ ، أَوْ قَبِيلَةٍ ، أَوْ شُعْبٍ ، أَوْ أَكْثَرِيَّةٍ ، أَوْ دِيمِقْرَاطِيَّةٍ ، وَلَا يُمَكِّنُ الْبَحْثَ عَنِ الْحَقِّ فِي الرَّأْسِمَالِيَّةِ ، وَالْعِلْمَانِيَّةِ ،

والليبرالية ، والمذاهب البشرية ؛ لأنَّ الحقَّ ليس له إلاَّ مصدرٌ واحدٌ فقط ، أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، والدليل
وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ [الكهف : 29] ، .

قُلْ لِلنَّاسِ يَا مُحَمَّدُ : أَنَّ الْحَقَّ الَّذِي لَا مَرِيَةَ فِيهِ هُوَ مِنَ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَهُمْ ، وَقَالَ تَعَالَى : الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ
فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ [آل عمران : 60] .

وَكُلُّ مُصَدَّرٍ آخَرَ مَعْرُضٌ لِلْخَلَلِ ، وَالضَّلَالِ ، وَالزَّيْعِ ، وَالْأَنْحِرَافِ ، فَلَمَّا يُعْطِيكَ رَأْيًا خَاصًّا ، هَذَا رَأْيُهُ ،
لَكِنْ عِنْدَمَا يُعْطِيكَ نَصًّا قَرَانِيًّا فَإِنَّهُ يُعْطِيكَ حَقًّا وَلِذَلِكَ كُلُّ هَذِهِ التَّنْظِيرَاتِ ، وَكُلُّ هَذِهِ الْفَلْسَفَاتِ ،
لَيْسَتْ مَصْدَرًا لِلْحَقِّ .

ثَابِتًا : التَّائِيدِ الْإِلَهِيِّ :

إِنَّ اللَّهَ أَيْدِ الْحَقِّ بِمُعْجَزَاتِ لِلنَّبِيِّاءِ ، أَيْدِهِ بِتَثْبِيهِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ ، أَيْدِهِ بِسُنَنِ كَوْنِهِ جَارِيَةٍ ، وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ
بِكَلِمَاتِهِ [يونس : 82] ، فَيُثَبِّتُ أَصْحَابِ الْحَقِّ عَلَى الْحَقِّ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ [الأنفال : 8] .

وَهَذِهِ كَلِمَاتِهِ السَّابِقَةُ الْأَرْزِيَّةُ فِي الْوَعْدِ بِذَلِكَ ، وَهَذِهِ أَوْامِرِهِ وَقَضَائِهِ ، وَهَذِهِ حُجُجِهِ وَبَرَاهِينِهِ .

اللَّهُ يُؤَيِّدُ الْحَقَّ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ ، وَمَعَهُمُ الْمُعْجَزَاتِ الدَّالَّةُ عَلَى الْحَقِّ ، وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ الْمُبَيِّنَةِ كَانِ النَّاسِ
أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ التَّبَيِّنِينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ [البقرة : 213] ، رُسُلًا
مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ [النساء : 165] .

ثالثًا : الثَّبَاتُ وَعَدَمُ الْاضْطِرَابِ

يَسْمَ الْحَقِّ بِالثَّبَاتِ ، وَعَدَمِ الْأَضْطِرَابِ ، فَلَا تَجِدُ زَعْرَعَةً فِي الْحَقِّ ، وَلَا تَجِدُ فِيهِ خِلَافًا ، وَلَيْسَ فِيهِ
أَضْطِرَابٌ ، فَالْحَقُّ مَطْرُدٌ وَثَابِتٌ ، لَا يَتَلَوَّنُ ، وَلَا يَتَغَيَّرُ ، وَلَا يَبَدَّلُ .

يُثَبَّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ [إبراهيم : 27] .

رَابِعًا : الْحَقُّ يَفْصِلُ بَيْنَ النِّزَاعَاتِ

الْحَقُّ فَصْلٌ بَيْنَ الْأُمُورِ ، فَكثِيرًا مَا تَشْتَبِه ، وَتَخْتَلِطُ الْأُمُورُ عَلَى النَّاسِ ، أَوْ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ ، فَنَحْتَاجُ
لِلْحَقِّ لِفَصْلِ النِّزَاعَاتِ ، رَبَّنَا اقْتَحِبْنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ [الأعراف : 89] ، وَخَيْرُ
الْحَاكِمِينَ وَاللَّهُ تَعَالَى سَمَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمَ الْفَصْلِ : إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ [الدخان : 40] ، خَلَصَ
يُفْصِلُ بَيْنَ أَهْلِ الْحَقِّ ، وَأَهْلِ الْبَاطِلِ ، وَيُقْضَى فِي مُحْكَمَةِ إِلَهِيَّةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِلَّتْ لِيَوْمِ الْفَصْلِ

[المرسلات I2]

فَيُفْصِلُ بَيْنَ أَهْلِ الشَّرِّ وَأَهْلِ الْإِيمَانِ ، وَالتَّوْحِيدِ ، ، يَفْصِلُ بَيْنَ الظَّالِمِ وَالْمَظْلُومِ فِيهِ ، يَوْمَ الْفَصْلِ فُزْقَانِ ،

خَامِسًا : يَتَّصِفُ الْحَقُّ بِالْقُوَّةِ

خَامِسًا : الْحَقُّ يَتَّصِفُ بِالْقُوَّةِ ، بِالْقُوَّةِ ، الْحَقُّ قَوِيٌّ ، الْحَقُّ لَيْسَ ضَعِيفًا ، بَلْ تَقْدِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ
فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ [الأنبياء : I8] ، يَدْمَغُهُ : يُهْلِكُهُ ، يُقَالُ : دَمَغَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ ، شَجَّةٌ شَجَّتًا بَلَغَتْ
الدَّمَاعَ ، فَإِذَا هُوَ رَاهِقٌ : هَالِكٌ ، زَائِلٌ ، مُضْمَحِلٌّ .

وَأَهْلُ الْحَقِّ بِالْقُوَّةِ الَّذِي مَعَهُمْ يُثَبَّتُونَ ، يُثَبَّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا [إبراهيم : 27] ، كَمِ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةً
كثيرة [البقرة : 249] .

ذَلِكَ أَنْ وِرَاءَ قُوَّةِ هَذِهِ الْفِئَةِ الْقَلِيلَةِ الْحَقُّ كُلُّهُ فَالْحَقُّ هُوَ الْقُوَّةُ بِالْمُطْلَقِ هُوَ الَّذِي يُشَبَّهُ وَيُنْصَرِّهَا .

سَادِسًا : الْخَيْرِيَّةُ ، الْحَقُّ مُلَازِمٌ لِلْخَيْرِ دَائِمًا ، لَا يَنْفَصِمُ عَنْهُ ، مُفَارِقٌ لِلشَّرِّ دَائِمًا لَا يَلْتَقِي مَعَهُ ، إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ [النحل : 90] ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ [الأعراف : 28] .

وَأَسْتَذَكِرُ هُنَا الْخَطَّابَ الْخَالِدَ الَّذِي تَلَّاهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فِي لِقَاءِهِ مَلِكِ الْحَبَشَةِ

(أَيُّهَا الْمَلِكُ ، يَقُولُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ لِلتَّجَاشِيِّ : كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ ، وَنُسِيءُ الْجَوَارَ ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مَنْدِرًا ، تَعْرِفُ نَسَبَهُ ، وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ ، وَعَفَافَهُ ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ ؛ لِنُوحِدَهُ وَنَعْبُدَهُ ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَأَبَائُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْجِبَارَةِ وَالْأَوْثَانِ ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَآدَاءِ الْأَمَانَةِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، وَحُسْنِ الْجَوَارِ ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالِدِمَائِ ، وَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ ، وَقَوْلِ الزُّورِ ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ . الْحَدِيثُ . [رواه أحمد : 1740] ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِ السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ ص : [174] .) .

يُعْنِي : كُنَّا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ ، وَتَرَى شُوفَ حَتَّى الْآنَ الْعَرَبُ ، وَالَّذِي يَقُولُ : أَنْ الْعَرَبُ مُتَقَدِّمٌ ، يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ ، وَيَأْكُلُونَ الْمَيْتَةَ ، وَيَأْتُونَ الْفَوَاحِشَ ، يُعْنِي : الْكُفْرَ ، الْبَاطِلَ مُتَشَابِهًا .

وسابعاً : الْحَقُّ خَالَ مِنَ التَّضَارِبِ وَالْإِضْطِرَابِ ، وَهُوَ وَاحِدٌ ، وَلَوْ أَنَّ هُنَاكَ وُجُوهًا مُعَدَّدةً لَفَعَلَ
الْحَقُّ ، وَسِبْلاً مُتَوَعَّاةً لِإِقَامَةِ الْحَقِّ ، فَهُوَ فِي التَّهَيَّاتِ وَاحِدٌ ، فَإِذَا وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا
[العنكبوت : 69] ، هَذِهِ سُبُلُ الْجَنَّةِ كَثِيرَةٌ فِي سَبِيلِ الصَّلَاةِ ، وَسَبِيلِ الصِّيَامِ ، وَسَبِيلِ الصَّدَقَةِ ،
وَسَبِيلِ الْعِتْقِ ، وَسَبِيلِ بَرِّ الْوَالِدَيْنِ ، فِي التَّهَيَّاتِ تَوَصَّلَ إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٌ ، مَرَضَاتِ اللَّهِ الْجَنَّةِ ، شَيْءٌ
وَاحِدٌ .

عِبَادَةَ رَبِّ وَاحِدٍ ، وَالْحَقُّ لَا يَضْطَرِبُ ، وَلَا يَتَذَبذَبُ ، وَالْكَتْبُ السَّمَاوِيَّةُ يَصْدُقُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، كُلُّهَا
بَشْرَةً بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، وَكُلُّ الْأَنْبِيَاءِ .

الْحَقُّ يُعَيِّنُ : التَّوْرَةَ ، وَالْإِنْجِيلَ ، وَالْقُرْآنَ ، كُلُّهَا فِيهَا التَّبَشِيرُ بِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، مَا مِنْ نَبِيٍّ
إِلَّا حَذَرَ فَالتَّوَارِدَ عَلَى الْخَيْرِ تَعْرِيفًا بِهِ ، وَالتَّوَارِدَ عَلَى الشَّرِّ تَحْذِيرًا مِنْهُ .

لَا حَظَّ الْحَقُّ مَا يَضْطَرِبُ ، مَا يَتَغَيَّرُ ، مَا يَتَنَاقَضُ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا
[النساء : 82] .

تَاسِعًا : الْحَقُّ يَبْنِي عَلَى الدَّلِيلِ وَالْبُرْهَانِ ، لَا عَلَى الظَّنِّ وَالتَّخْمِينِ ، أَمَّا الْبَاطِلُ ، خُرَافَاتُ ، أَهْوَاءُ ،
تَقْلِيدُ أَعْمَى ، تَخْمِينٌ ، أَوْهَامٌ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرَهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا [يونس : 36] .

قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [البقرة : III] ، سُنْرِهِمْ آيَاتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ
أَنَّهُ الْحَقُّ [فصلت : 53] .

الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَالْحِكْمَةُ

﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [النحل : 60]

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ ﴾ [الروم : 27]

الْمَعْنَى اللُّغَوِيَّةُ لِلْمَثَلِ الْأَعْلَى

ه القِدْحُ المَعْلَى : الحِطُّ الأَوْفَرُ .

ضَرَبَ لَهُ مَثَلًا :

ذَكَرَهُ لَهُ وَمَثَلَهُ بِهِ . ضَرَبَ لَهُ مَثَلًا : قَالَ وَذَكَرَهُ وَبَيْنَهُ ضَرَبَ لَهُ مَثَلًا : قَالَ وَذَكَرَهُ وَبَيْنَهُ ،

لَمْ يَسْبِقْ لَهُ مِثْلٌ : أَيِ الْأَوَّلُ مِنْ تَوَعُّهُ هُوَ مِثْلُهُ الْأَعْلَى : تَمُودُجُهُ

وَعَرَفَةَ بَعْضُ الْمَفْسَرِينَ :

وَالْمِثْلُ الْأَعْلَى وَصِفَهُ بِمَا لَا شَبِيهَ لَهُ وَلَا نَظِيرَ ،

يَعْنِي الْمِثْلُ : الْوَصْفُ الْأَعْلَى مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ الْمُوصُوفُ بِالْكَامِلِ الْمَطْلُوقِ مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ ،

مَاذَا يَعْنِي الْمِثْلُ الْأَعْلَى عِنْدَ الْفَلَسَافَةِ وَالْبَاحِثِينَ

الْمِثْلُ الْأَعْلَى بِالْمَعْنَى الْمَطْلُوقِ هُوَ مَا يُرْضِي الْعَقْلَ وَالْعَاطِفَةَ إِرْضَاءً كَامِلًا . وَقَدْ يُطْلَقُ كَذَلِكَ عَلَى الْعَقْلِ

وَالْعَاطِفَةَ مِنْ حَيْثُ إِنَّ فَاعِلِيَهُمَا وَحَرَكَتُهُمَا تَعِينَانِ هَذَا الْكَمَالَ بِالْقُوَّةِ ، وَتَعْرِفَانِ بِهِ تَعْرِيفًا مُقَدَّمًا . لِذَلِكَ

قَالَ (سِيَاي) : « لَيْسَ الْمِثْلُ الْأَعْلَى إِلَّا حَرَكَةُ الْفِكْرِ الطَّبِيعِيَّةِ إِلَى الْحَيَاةِ التَّامَّةِ الْإِنْسِجَامِ » وَقَالَ أَيْضًا :

« أَنَّ الْمِثْلَ الْأَعْلَى هُوَ الْفِكْرُ مِنْ حَيْثُ تَجَلَّيْهِ فِي قَوَانِينِهِ الْحَيَّةِ ، وَهُوَ قُوَّةٌ لَا صُورَةَ » . وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ

الْمِثْلَ الْأَعْلَى يَدُلُّ عَلَى الصُّورَةِ الْكَامِلَةِ الَّتِي لَا تَتَحَقَّقُ تَحَقُّقًا نَهَائِيًا ، فَهُوَ حَدٌّ غَائِبِيٌّ تَجَهُّ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ

يَبْلُغَهُ ، وَوُجُودُهُ لَيْسَ شَبِيهًا بِوُجُودِ الْمَوْضُوعِ الْخَارِجِيِّ الثَّابِتِ ، وَإِنَّمَا هُوَ شَبِيهٌ بِوُجُودِ التُّرُوعِ

الْلَامَتَعِينَ . 2 - وَالْمِثْلُ الْأَعْلَى بِالْمَعْنَى الْخَاصِّ أَوْ التَّنَسُّبِيِّ هُوَ النَّمُودَجُ الَّذِي تَتَّصِرُ بِهِ ، وَنَسَجَ عَلَى

مِثْلِهِ فِي بَعْضِ قَضَايَا الْفِكْرِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ ، مِثَالُ ذَلِكَ قَوْلُ (رَيْنَان) : « رَبَّمَا كَانَ الْمِثْلُ الْأَعْلَى لِلْمُجْتَمَعِ

الْأَمْرِيكِيِّ بَعِيدًا كُلَّ الْبُعْدِ عَنِ الْمِثْلِ الْأَعْلَى لِلْمُجْتَمَعِ الْعِلْمِيِّ » ، فَالْمِثْلُ الْأَعْلَى الْمَشَارِإِلَيْهِ فِي هَذَا النَّصِّ

مِثْلُ أَعْلَى نَسَبِي ، أَوْ مِثْلُ أَعْلَى خَاصٍّ ، وَجَمِيعِ الْمِثْلِ الْعُلْيَا الْمُتَعَلِّقَةِ بِمَوْضِعِ جُرْتِي أَوْ بِنَفْسِي ، أَوْ جَمَاعَةً مُعَيَّنَةً ، فَهِيَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ . 3 - وَيُطَلَّقُ الْمِثْلُ الْأَعْلَى عَلَى مَا نَهَمَّ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ الْأَخْلَاقِيَّةِ ، وَالْجَمَائِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ ، مِنْ جِهَةٍ مَا هِيَ غَايَةٌ فِي بَابِهَا مُقَابَلَةٌ لِلْمَصَالِحِ الْمَادِيَّةِ ، وَهَذَا التَّنَوُّعُ مِنَ الْمِثْلِ الْعُلْيَا يَجْمَعُ نَفُوسَ الْأَفْرَادِ ، وَيُوجِّهُهُمْ إِلَى هَدَفٍ وَاحِدٍ ، خِلَافًا لِلْمَصَالِحِ الْمَادِيَّةِ الَّتِي تَفْرُقُ وَلَا تُوَحِّدُ .

مَفْهُومُ الْمِثْلِ الْأَعْلَى

وَكُلُّ إِنْسَانٍ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ عِنْدَهُ صُورَةٌ كَامِلَةٌ لِمَا يُوَدُّ أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ حَيَاتِهِ الْمُسْتَقْبَلَةَ ، وَكَثِيرًا مَا يُسَائِلُ الْإِنْسَانَ نَفْسَهُ : مَاذَا أَكُونُ ؟ مَا الَّذِي أَطْمَحُ أَنْ أَكُونَ فِي مُسْتَقْبَلِ حَيَاتِي ؟ مَا الْإِنْسَانُ الْكَامِلُ الَّذِي أَسْعَى لِأَنْ أَتَمَثَّلَهُ يَوْمًا مَا ؟ فَالْصُّورَةُ الَّتِي فِي ذَهْنِنَا تَوَدُّ تَحْقِيقَهَا وَنَسْتَمَلِي مِنْهَا لِنَجِيبَ عَلَى هَذِهِ الْأَسْئَلَةِ تُسَمَّى فِي عُرْفِ الْكِتَابِ الْحَدِيثَيْنِ « الْمِثْلُ الْأَعْلَى » .

وَهُوَ يُمَيِّزُ الْإِنْسَانَ عَنِ غَيْرِهِ مِنَ الْحَيَوَانَ ، فَإِنَّا نَرَى الْحَيَوَانَاتِ تَعِيشُ عَلَى نَمَطٍ وَاحِدٍ ، لَيْسَتْ فِي رَقِيٍّ مُسْتَمَرٍّ ، فَمَعِيشَةُ الْقَطِّ قَدِيمًا هِيَ مَعِيشَتُهُ الْيَوْمَ ، وَكَانَ التَّحَلُّ يَبْنِي خَلَايَاهُ عَلَى إِشْكَالِ سَدَاسِيَّةٍ كَمَا يَبْنِيهَا الْآنَ ، أَمَّا الْإِنْسَانُ فَدَائِمُ الرَّقِيِّ ، هُوَ الْيَوْمَ غَيْرُهُ فِي الْقَرْنِ الْمَاضِي بَلْ غَيْرُهُ بِالْأَمْسِ ، لِأَنَّ إِمَامَهُ « مِثْلًا أَعْلَى » يَجِدُ فِي الْوُصُولِ إِلَيْهِ ، وَكَلَّمَا قَرَّبَ مِنْهُ سَبَقَهُ الْمِثْلُ .

اِخْتِلَافُ الْمِثْلِ الْأَعْلَى

تَخْتَلِفُ الْمِثْلُ الْعُلْيَا عِنْدَ النَّاسِ اِخْتِلَافًا يَكَادُ يَكُونُ بَعْدَ رُءُوسِهِمْ ، فَهَذَا مِثْلُهُ الْأَعْلَى رَجُلٌ غَنِيٌّ مَسْتَمِعٌ بِكُلِّ مِلْدَاتِ الْحَيَاةِ ، وَذَلِكَ مِثْلُهُ إِنْسَانٌ كَامِلٌ الْعَقْلِ ، قَدْ نَفَقَ فِي الْعُلُومِ وَتَضَلَّ مِنَ الْمَعَارِفِ ، وَآخَرُ

مِثْلَهُ وَطَنِي يَدَافِعُ عَنْ حُقُوقِ وَطَنِهِ وَيَرْفَعُ مُسْتَوَى أُمَّتِهِ ، كَذَلِكَ يَخْتَلِفُ سَدَاجَةٌ وَتُرْكُبًا فَقَدْ يَكُونُ مِثْلُ
شَخْصٍ صُورَةٌ سَادِجَةٌ رَسْمِهَا مِمَّا يَسْمَعُهُ مِنْ وَالِدَيْهِ ، وَقَدْ يَكُونُ مِثْلُ آخِرِ صُورَةٍ مُرَكَّبَةٍ قَدْ رَسَمَهَا بَعْدَ
أَنْ بَحَثَ فِي الْأَخْلَاقِ بَحْثًا عِلْمِيًّا ، وَعَرَفَ الْفَضَائِلَ وَرَبَّتَهَا حَسَبَ مَا صَحَّ عِنْدَهُ مِنْ مَقْيَاسِ الْخَيْرِ
وَالشَّرِّ .

وَالْإِنْسَانُ الْوَاحِدَ يَخْتَلِفُ مِثْلُهُ مِنْ حِينٍ لِآخَرَ ، وَالْأُمَّةُ الْوَاحِدَةَ تَخْتَلِفُ مِثْلُهَا كُلَّمَا تَدْرَجَتْ فِي مَعَارِجِ
الرَّقْيِ ، وَلَيْسَتْ الصُّعُوبَةُ أَنْ يَجِدَ الْإِنْسَانُ أَوْ الْأُمَّةُ مِثْلًا أَعْلَى ، فَالْمِثْلُ كَثِيرَةٌ لَا عِدَادَ لَهَا ، وَإِنَّمَا الصُّعُوبَةُ
اخْتِيَارَ أَحْسَنُهَا وَأَنْسَبُهَا .

وَلَيْسَ فِي وَسْعِ الْأَخْلَاقِي وَلَا الْفَيْلَسُوفِ أَنْ يَرْسُمَ مِثْلًا أَعْلَى دَقِيقًا يُوَافِقُ كُلَّ إِنْسَانٍ وَكُلَّ أُمَّةٍ ، فَالْمِثْلُ
الَّذِي يَتَّفِقُ مَعَ غَرَائِزِ إِنْسَانٍ وَدَرَجَةِ عَقْلِهِ مِنْ الرَّقْيِ وَالْبِيئَةِ الَّتِي تُحِيطُ بِهِ رَبَّمَا لَا يُوَافِقُ الْآخَرَ ، لِاخْتِلَافِهِ
فِيمَا ذَكَرْنَا ، اللَّهُمَّ إِذَا رَسَمَ الْأَخْلَاقِي أَوْ الْفَيْلَسُوفِ صُورَةَ عَامَّةٍ اقْتَصَرَ فِي رَسْمِهَا عَلَى مَا يُوَافِقُ
سَوَادِ النَّاسِ ، كَالْخِيَاطِ يَعْمَلُ ثَوْبًا وَاسِعًا يَصِحُّ أَنْ يَلْبَسَهُ كَثِيرُونَ مَعَ تَعْدِيلِ بَسِيطٍ .

وَكُلُّ الَّذِي نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَهُ : أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمِثْلُ الْأَعْلَى لِلشَّخْصِ صُورَةَ كَامِلَةً تَمَثَّلُ خَيْرُ إِنْسَانٍ
يَسْتَطِيعُ الشَّخْصِ إِنْ يَكُونُهُ فِي كُلِّ شَأْنٍ مِنْ شُؤُونِ حَيَاتِهِ ، فَفِي عَمَلِهِ مِثْلُهُ إِنْ يَكُونُ أَحْسَنَ مَا
يَسْتَطِيعُ : مِنْ جَدِّ وَأَمَانَةٍ وَإِتْقَانٍ وَمَهَارَةٍ ، وَفِي سِيَاسَتِهِ لِنَفْسِهِ مِثْلُهُ إِنْ يَكُونُ ضَابِطًا لِنَفْسِهِ ، يَعْمَلُ
بِإِرْشَادِ عَقْلِهِ ، وَفِي مُعَامَلَتِهِ لِلنَّاسِ مِثْلُهُ إِنْ يُعَامِلُهُمْ كَمَا يُحِبُّ أَنْ يُعَامَلَ ، وَأَنْ يُحِبَّ الْخَيْرَ لَهُمْ كَمَا يُحِبُّهُ
لِنَفْسِهِ .

مِمَّ يَتَكَوَّنُ الْمِثْلُ الْأَعْلَى النَّسْبِيُّ

أَهْمُ عَامِلٌ فِي تَكُونِ الْمَثَلِ الْمُنْزَلِ وَالْمُدْرَسَةِ وَالِدَيْنِ ، فَتَرْبِيَةِ النَّاشِئِ الْمُنْزَلِيَّةِ ، وَمَا يَسْمَعُهُ مِنْ أَبِيهِ ،
وَالنِّظَامِ الَّذِي يُسِيرُ عَلَيْهِ بَيْتُهُ وَمَا يَرَاهُ فِي الْمُدْرَسَةِ ، وَمَا يَسْمَعُهُ مِنْ مَدْرَسِيهِ ، وَمَا يَلْزَمُونَهُ بِقِرَاءَتِهِ مِنْ
الْكِتَابِ ، وَمَا يَجِبُونَهُ إِلَيْهِ مِنْ عُظَمَاءِ الرِّجَالِ ، وَالذِّئْنِ الَّذِي يَدْتِنُ بِهِ ، وَمَا يَحْوِيهِ مِنْ نِظَامٍ ، وَمَا يَرْسُمُهُ
مِنْ شَكْلِ الْحَيَاةِ الْأُخْرَى ، كُلُّ ذَلِكَ لَهُ أَكْبَرُ الْأَثَرِ فِي تَكْوِينِ الْمَثَلِ الْأَعْلَى ، وَكَذَلِكَ غَرَائِرُ الْإِنْسَانِ الطَّبِيعِيَّةِ
لَهَا أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي انْتِخَابِ الصُّورَةِ الَّتِي تُتَّخَذُ مَثَلًا ، فَالْمِيُولُ الْمُوْرُوْتَةُ مِنْ شَجَاعَةٍ وَهَمِهِ أَوْ جُبْنٍ وَخَمُولٍ
تَعَيَّنَ عَلَى تَحْدِيدِ الْمَثَلِ الْأَعْلَى ، وَهِيَ عَامِلٌ قَوِيٌّ فِي تَكْوِينِهِ .

يَكَادُ يَكُونُ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِثْلٌ أَعْلَى وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُ بِهِ مِنْ أَيْنَ آتَاهُ ، وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْمَثَلَ يَتَكَوَّنُ مَعَ الْإِنْسَانِ
فِي نَشَأَتِهِ وَيَنْمُو بِنُمُوِّهِ وَهُوَ مَبْدَأٌ أَوْ قِيَمَةٌ يَسْعَى الْإِنْسَانُ إِلَى تَحْقِيقِهَا بِصِفَتِهَا هَدَفًا مِنْ أَهْدَافِهِ ، وَيَمْنَحُهَا
الْأَوَّلِيَّةَ عَلَى الْاهْتِمَامَاتِ أَوْ الشُّؤْنِ الْأُخْرَى الَّتِي تَمَيِّزُ بِقِيَمَةٍ مَعْنَوِيَّةٍ أَقْلٍ . تَشْمَلُ الْمُصْطَلَحَاتُ الْأُخْرَى
الْمُتَعَلِّقَةَ بِالْإِيمَانِ الْعَامِّ بِالْمِثْلِ الْعُلْيَا أَمْوَرًا مِثْلَ الْمَثَالِيَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَمَثَالِيَةِ الْأَدَابِ وَالْمَثَالِيَةِ الْمُبَدِّيَّةِ . يَصِرُ
الْمِثَالِيُّ ، سِوَاءً أَكَانَ مَثَالِيًا أَخْلَاقِيًّا أَمْ مِثَالِيًا الْأَدَابِ الْعَامَّةِ أَمْ مِثَالِيًا مَبَدِّيًّا ، عَلَى اِغْتِنَاقِ مِثْلٍ عُلْيَا حَتَّى
لَوْ كَانَتْ تَكْلِفُهُ عَوَاقِبَ الْاَلْتِزَامِ بِهَذِهِ الْمِثْلِ كَبِيرَةً .

هُنَاكَ عِلَاقَةٌ جَوْهَرِيَّةٌ بَيْنَ الْمُصْطَلَحَيْنِ « مِثَالِيَّةٌ » وَ « أَخْلَاقِيَّةٌ » فِي سِيَاقِ عِلْمِ الْأَخْلَاقِيَّاتِ ، وَهُوَ مَا
يَذْكُرُهُ الْفَيْلَسُوفُ رَاشُوْرْتْ كِيدِرُ الَّذِي أَوْضَحَ أَنَّ « تَشْمَلُ التَّعَارِيفُ الْمُعْيَارِيَّةُ لِلْأَخْلَاقِيَّاتِ عَادَةً عِبَارَاتٍ
مِثْلَ عِلْمِ الشَّخْصِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْمَثَالِيَّةِ » . بِصَرْفِ النَّظَرِ عَنْ تَأْصُلِ الْمِثْلِ الْعُلْيَا ، أَي سِوَاءً أَكَانَتْ
أَخْلَاقِيَّاتٍ دِينِيَّةً أَمْ أَخْلَاقِيَّاتٍ عِلْمِيَّةً ، يُفِيدُ اسْتِقْطَابَ الْمِثْلِ الْعُلْيَا النَّسْبِيِّ لَدَى الْإِنْسَانِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى
مَدَى الْإِخْلَاصِ أَوْ التَّفَانِيِ الْأَخْلَاقِيِّ لَدَى هَذَا الْكِيَانِ .

هناك الكثير من المدارس الفلسفية التي تشدد على وجهات النظر المثالية ، مثل الأخلاق المسيحية والأخلاق اليهودية وأخلاقيات المدرسة الأفلاطونية المحدثه . تشمل المثالية في العلاقات الدولية عمومًا الدفاع عن المؤسسات التي تنفذ الإجراءات السياسية الدولية ، مثل تطبيق القانون الدولي سعيًا لتجنب الحروب .

توجد عدة قضايا في مجال تحليل الأخلاقيات المثالية . يعتقد الباحث تيري إيغلون أن معقولة التطبيق العملي لبعض المثل العليا قد يتناقض في النهاية مع صحة تلك المثل ومشروعيتها من الناحية المنطقية . انتقد الفيلسوف الأمريكي ريتشارد رورتي فكره المثل الثابتة غير المتغيرة ، والموجودة بصورة شبه منفصلة عن الطبيعة البشرية أساسًا . في السياق السياسي أيضًا ، ادعى الباحث جيرالد غاوس أن بعض التأثيرات المعينة للمثالية تدفع الأفراد إلى السعي وراء المثالية السياسية المستحيلة ، وتجاهل المكونات المناصرة للسياسة العملية ، فتعيق تلك المثل التقدم الإضافي والهادف وادعى المفكر الإغريقي أفلاطون أن المثل العليا توجد بصورة مستقلة عن البشرية ، ووفق ذلك ، مهمة المنطق هي اكتشاف تلك المثل بدلًا من إيجادها أو خلقها .

استشهد الباحث الأمريكي نيكولاس رشر بالفلسفة القديمة ليوضح أن الطبيعة الماورائية للمثل العليا مكانة مميزة بصفاتها « قصصًا متخيلة مفيدة » .

نتيجة

لماذا الله هو المثل الأعلى ؟

أولاً : لقد خص الله سبحانه وتعالى في الآيتين المذكورتين نفسه بالمثل الأعلى :

وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

فَلَيْسَ هُنَاكَ أَيُّ شَيْءٍ مِثْلَهُ فِي هَذَا لِأَنَّهُ هُوَ يَخْتَصُّ بِهِ وَخَاصٌّ لَهُ بِالْمُطْلَقِ .

وَقَدْ كَانَ قَوْلُ (سَيَاي) : « لَيْسَ الْمَثَلُ الْأَعْلَى إِلَّا حَرَكَةُ الْفِكْرِ الطَّبِيعِيَّةِ إِلَى الْحَيَاةِ التَّامَّةِ الْانْسِجَامِ »

وَقَالَ أَيْضًا : « أَنَّ الْمَثَلُ الْأَعْلَى هُوَ الْفِكْرُ مِنْ حَيْثُ تَجَلِيهِ فِي قَوَائِنِهِ الْحَيَّةِ ، وَهُوَ قُوَّةٌ لَا صُورَةٌ » .

وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الْمَثَلُ الْأَعْلَى يَدُلُّ عَلَى الصُّورَةِ الْكَامِلَةِ الَّتِي لَا تَحَقُّقُ تَحَقُّقًا نَهَائِيًّا ، فَهُوَ حَدٌّ غَائِبِيٌّ تَجَهُّ

إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ نَبْلُغَهُ ، وَوُجُودُهُ لَيْسَ شَبِيهًا بِوُجُودِ الْمَوْضُوعِ الْخَارِجِيِّ الثَّابِتِ ، وَإِنَّمَا هُوَ شَبِيهٌ بِوُجُودِ

التُّزُوعِ اللَّامْتَعِينِ .

أَقْرَبَ فَهْمٍ وَتَعْرِيفٍ لِمَعْنَى الْمَثَلِ الْأَعْلَى وَهُوَ قَرِيبٌ جِدًّا لِمَا فَهَمَّنَاهُ فِي هَذَا النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ الْكَرِيمِ .

ثَابِتًا : وَلِأَنَّ الْمُطْلَقَ يَأْتِي عَلَى إِطْلَاقِهِ وَمَعْنَاهُ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي كُلِّ الْأُمُورِ الْأَخْلَاقِيَّةِ ، وَالْجَمَالِيَّةِ

وَالْعَقْلِيَّةِ وَالْحَلْقِيَّةِ وَالصَّنْعِيَّةِ وَكُلِّ شَيْءٍ وَأَمْرٍ وَلَا يُمَكِّنُ حَضْرَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَعَدَّهَا .

ثَالِثًا : وَيَعْنِي الْكَمَالَ الْمُطْلَقَ أَيْضًا ، الْمُتَمَضِّنَ لِلْأُمُورِ الْوُجُودِيَّةِ ، وَالْمَعَانِي السُّبُوتِيَّةِ الَّتِي كَلَّمَا كَانَتْ أَكْثَرَ

فِي الْمَوْصُوفِ وَأَكْمَلَ كَانَ أَعْلَى مِنْ غَيْرِهِ .

وَلَمَّا كَانَ - سُبْحَانَهُ - الرَّبُّ وَالْأَعْلَى ، وَوَجْهُهُ الْأَعْلَى ، وَكَلَامُهُ الْأَعْلَى ، وَسَمِعَهُ الْأَعْلَى ، وَسَائِرُ

صِفَاتِهِ عَلَيًّا ، كَانَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ، وَهُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ ، بَلْ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَشْتَرِكَ فِي الْمَثَلِ

الأعلى اثنان ؛ لانهما إن تكافأ لم يكن أحدهما أعلى من الآخر ، وإن لم تكافأ فالموصوف بالمثل الأعلى أحدهما وحده ؛ فيستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مثل أي نظير .

رابعاً : الإيمان بالمثل الأعلى يمنع أن يقوم القلب والعقل بتشبيه صفات الخالق بصفات المخلوقين : لانه - كما قلنا - انفاً يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى اثنان ؛ لانهما إن تكافأ لم يكن أحدهما أعلى من الآخر ، وإن لم تكافأ فالموصوف بالمثل الأعلى أحدهما وحده ، فيستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى نظير أو شبيهه ، وهذا برهان قاطع على استحالة التمثيل والتشبيه من إثبات صفات الكمال ، فتأمله فإنه في غاية الظهور والقوة .

خامساً : لقد ختم النصين الكريمين بقوله تعالى : وهو العزيز الحكيم (ومعنى العزيز في اللغة : القوي المنيع من العزة والمنعة التي هي ضد الذل والهوان ، ومعنى الحكيم : العالم المدبر للأمر المتقن لها) . فله المثل الأعلى وله القوة والعزة والمنعة وهو العالم المدبر للأمر المتقن لها .

الحكمة

﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾

[النساء : II3]

من صفات الله تعالى : الحكيم

المُوصُوفِ بِكَمَالِ الْحِكْمَةِ ، وَبِكَمَالِ الْحُكْمِ بَيْنَ الْمَخْلُوقَاتِ ، فَالْحَكِيمُ هُوَ وَاسِعُ الْعِلْمِ وَالْإِطْلَاعِ عَلَى
مَبَادِي الْأُمُورِ وَعَوَاقِبِهَا ، وَاسِعُ الْحَمْدِ تَامَ الْقُدْرَةَ غَزِيرَ الرَّحْمَةِ ، فَهُوَ الَّذِي يَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا ،
وَيَنْزِلُهَا مَنَازِلَهَا اللَّائِقَةَ بِهَا فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ ، فَلَا يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ سُؤَالَ ، وَلَا يَفْدُخُ فِي حِكْمَتِهِ مَقَالَ .

حَسَبَ لِسَانِ الْعَرَبِ :

جَذْرُ الْكَلِمَةِ : حُكْمٌ ، مِنْ حُكِمَ ، حُكِمَهُ .

يُقَالُ الْحَكِيمُ : ” الَّذِي يُحْكِمُ الْأَشْيَاءَ وَيَتَقَنُّهَا ، وَقِيلَ الْحَكِيمُ ذُو الْحِكْمَةِ ، وَالْحِكْمَةُ : ” عِبَارَةٌ عَنْ
مَعْرِفَةِ أَفْضَلِ الْأَشْيَاءِ بِأَفْضَلِ الْعُلُومِ ” ، وَيُقَالُ لِمَنْ يُحْسِنُ دَقَائِقَ الصَّنَاعَاتِ وَيَتَقَنُّهَا ، حَكِيمٌ

وَالْحَكِيمُ : يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى الْحَاكِمِ مِثْلَ قَدِيرٍ ، بِمَعْنَى قَادِرٍ وَعُلَيْمٍ بِمَعْنَى عَالِمٍ ، الْجَوْهَرِيُّ الْحُكْمُ
الْحَكِيمُ فِي مَعَاجِمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ هُوَ الشَّخْصُ الَّذِي يَتَّصِفُ بِالرُّؤْيَةِ وَالرَّأْيِ السَّيِّدِ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ ، فَلَا
يُقُولُ إِلَّا صَوَابًا ، وَلَا يَفْعَلُ إِلَّا مَا هُوَ صَحِيحٌ وَمَعْقُولٌ بَعِيدًا عَنْ قَرَارَاتِ الْعَاطِفَةِ ، وَالْحَكِيمُ اسْمٌ مِنْ
أَسْمَاءِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا ، وَصِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ قَدْ يَخْتَصُّ بِهَا مِنْ شَيْءٍ مِنْ عِبَادِهِ ، الْحِكْمَةُ أَيُّ عَكْسِ السَّفَهَةِ
، وَتَعْنِي وَزْنَ الْأُمُورِ بِمِيزَانِهَا الصَّحِيحِ ، فَاللَّهُ جَلَّ وَعَلَا لَمْ يَخْلُقْنَا عَبَثًا ، وَلَمْ يَقْدِرْ لَنَا أَمْرًا عَلَى نَحْوِ
عَشَوَانِيًّا ، بَلْ وَرَاءَ كُلِّ شَيْءٍ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ قَدْ يُدْرِكُهَا الْمُرءُ ، وَقَدْ تَغَيَّبَ عَنْهُ ؛ وَلَكِنَّهَا حَتْمًا لَا تَغَيَّبُ
عَنْ اللَّهِ ، فَقَدْ يَرَى الْإِنْسَانُ مَا لَا يَسْرُرُهُ ، وَمَا لَا يُرْضِيهِ ، فَمَنْ يُسْخِطْ وَيَحْزَنْ فَهُوَ جَاهِلٌ ، قَالَ تَعَالَى :
(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ) [الطور : 48] ، فَأَفْعَالُ اللَّهِ كُلُّهَا تَتَعَلَّقُ
بِالْحِكْمَةِ ، وَالْحِكْمَةُ تَعْنِي الْخَيْرَ الْمُطْلَقَ سِوَاءَ أَكَانَ وَاضِحًا لِلْإِنْسَانِ أَمْ أَنَّهُ حَفِيٌّ يَتَطَلَّبُ بَعْضُ الْوَقْتِ .

الحكمة تعني أحكام الخلق دون خلل ، أو نقص ، أو تناقض ، أو اختلاف ، كما فسّر المفسرون ذلك باقتران ذكر الحكيم في القرآن الكريم بالعزیز والعليم ، أي أن الحكمة نابعة من علم .

تعريف الحكمة في الفلسفة اليونانية

تناول العديد من الفلاسفة الإغريق موضوع الحكمة في أعمالهم وآرائهم ، ومن أبرز هؤلاء سقراط : ترتبط الحكمة ، من وجهه نظر سقراط ، بالتواضع ؛ بمعنى أن الحكمة الحقيقية تتمثل في إدراك واعتراف الإنسان بحدود معرفته ، والتي قد تحتم عليه الجهل بالأمور بشكل كلي ، أو معرفة القليل عنها ، بالإضافة إلى قبول المعرفة الخاصة به كما هي ، دون ادعاء بمعرفة أمور تتجاوز حدود معرفته أو تقل عنها .

الحكمة عند أفلاطون : يُعتبر أفلاطون أن الحكمة هي ما تمكن الإنسان من اتخاذ القرارات الصحيحة التي لها علاقة بالعالم المحسوس ، وهي أيضا مسار الحياة الذي يسلكه الإنسان ، ويكون متسما بالثبات ، والتقاء ، والوحدة ، والأبدية ، والخلود .

الحكمة عند أرسطو : الحكمة بالنسبة لأرسطو هي إدراك المرء للمبادئ الرئيسية في الحياة ، والحقائق العامة ، وهي شرط أساسي لثبيل المعرفة ، كما اعتبر أن امتلاك الإنسان للحكمة تمنحه الميزة والقدرة أن يكون معلما للآخرين ؛ لأنه من خلالها يعرف كل شيء ، ويعرف الأسباب الكامنة وراء الأشياء في هذا العالم .

الحكمة الإلهية أو الثيوصوفية تتكون هذه الكلمة من مقطعين هما (ثيو) بمعنى (إله أو إلهي) ، و (سوفوس) التي تعني الحكمة ، وبذلك يكون معناها (الحكمة الإلهية) . الثيوصوفيا مصطلح ديني

فَلَسَفِيٌّ ظَهَرَ فِي جُذُورِهِ الْأُولَى كِمَارِسَاتِ رُوحِيَّةٍ فِي الشَّرْقِ الْأَقْصَى الْقَدِيمِ بِشَكْلِ خَاصٍّ ، وَلِكِنَّهُ ،
مِصْطَلَحٌ ، ظَهَرَ عَلَى يَدِ أَمُوثِيُوسِ سَاكاسٍ فِي الْعَصْرِ الْهِيلَنَسِيِّ ، وَهُوَ مُؤَسَّسُ الْأَفْلَاطُونِيَّةِ الْحَدِيثَةِ ،
الَّذِي كَانَ أَسَاتِذًا لِلْفِيلَسُوفِ أَفْلُوطِينِ أَحَدِ أَكْبَرِ أَعْلَامِهَا . وَظَلَّ النَّيَّارُ حَيًّا فِي الْجَمْعِيَّاتِ الدِّينِيَّةِ الْفَلَسَفِيَّةِ
السَّرِيَّةِ حَتَّى قَامَتْ هِيلِينَا بِلَافَاتَسْكِ ، الَّتِي وُضِعَتْ مَبَادِيءُ الْحِكْمَةِ الْأَزَلِيَّةِ ، وَتَرَى أَنَّ الْأَدْبَانَ وَاحِدَةً
فِي جَوْهَرِهَا مُخْتَلِفَةٌ فِي شَكْلِهَا ، وَلِكِنَّهَا ، وَهِيَ تَنْبَثِقُ مِنَ الْحَقِيقَةِ الْإِلَهِيَّةِ الْوَاحِدَةِ ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ
أَنَّهَا تَرَى أَنَّ الثِّيُوصُوفِيَا لَا عِلَاقَةَ لَهَا بِدَيْنٍ مُحَدَّدٍ وَمَعْرُوفٍ ، فَهِيَ تَرَى أَنَّهَا (دِينُ الْحِكْمَةِ) ، الَّتِي تُسَمِّيهَا
الْأَدْبِيَّاتِ الثِّيُوصُوفِيَّةِ ب : الْفَلَسَفَةِ الْبَاطِنِيَّةِ .

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ الثِّيُوصُوفِيَا تُؤَسَّسُ لَهَا عَالَمًا رُوحَانِيًّا خَاصًّا بِهَا ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ وُجُودِ الْمُؤَثَّرَاتِ
الْأَفْلَاطُونِيَّةِ ، وَالْبُودِيَّةِ ، وَالْهِنْدُوسِيَّةِ ، وَالْغَنُوصِيَّةِ فِيهِ ، فَهِيَ جَمْعٌ لِهَذِهِ الْأَتِّجَاهَاتِ الرُّوحِيَّةِ ، وَالْفَلَسَفِيَّةِ
، وَالدِّينِيَّةِ ، وَأَعَادَهُ إِبْتِجَاعًا لَهَا .

تَعْرِيفُ الْحِكْمَةِ فِي فِلَسَفَةِ الْعُصُورِ الْوَسْطَى

مِنْ أَشْهَرِ فَلَاسِفَةِ الْقُرُونِ الْوَسْطَى الَّذِينَ تَنَاوَلُوا مَفْهُومَ الْحِكْمَةِ :

الْحِكْمَةُ عِنْدَ الْقَدِيسِ أَعْسْطِينُوسِ : يَرَى الْقَدِيسُ أَعْسْطِينُوسُ أَنَّ الْحِكْمَةَ هِيَ الْفَهْمُ وَالْإِدْرَاكِ الْعَقْلَانِي
لِلْأُمُورِ الَّتِي تُعْبَرُ أَبَدِيَّةً ، وَهِيَ كَذَلِكَ الْمَعْرِفَةُ الْعَقْلَانِيَّةُ وَالْمَنْطِقِيَّةُ بِالْأُمُورِ الدُّبُوبِيَّةِ الْمُوقَّتَةِ ، وَهُنَاكَ خُطُواتُ
يَسْتَطِيعُ الْمَرْءُ مِنْ خِلَالِهَا الْوُصُولَ إِلَى الْحِكْمَةِ مِنْ وَجْهِهِ نَظَرِ الْقَدِيسِ أَعْسْطِينُوسِ ، وَهِيَ فِي تَرْتِيبِهَا
الْمُحَدَّدِ كَالْتَّالِيِ : الْخُوفُ مِنَ اللَّهِ ، وَامْتِلَاءُ الْقَلْبِ بِالتَّقْوَى ، وَاكْتِسَابُ الْمَعْرِفَةِ ، وَمَقَاوِمَةُ الْمَلَذَّاتِ الرَّائِلَةِ
، وَحُبُّ الْأَخْرَبِينَ وَالتَّعَاطُفُ مَعَهُمْ ، وَتَقَاءُ الْعَقْلِ وَالْقَلْبِ .

الحكمة عند توما الأكويني : رَبطَ بَيْنَ الحِكمةِ وَالْحَبِّ ، وَقَالَ أَنَّ اتِّهَاجَ المَرءِ لهُمَا فِي حَيَاتِهِ يَرْتَقِي بِهَا ، وَعَدَّ الحِكمةَ كَذَلِكَ فهُمَا لِحَقِيقَةِ الأُمُورِ ، وَتَعْبِيرًا عَنْهَا كَمَا هِيَ ، دُونَ مُبَالَغَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ ، بِالإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ ، أُعْتَبِرَ أَنَّ الوُصُولَ إِلَى الحِكمةِ هِيَ غَايَةُ الفُلْسَفَةِ الأَسَاسِيَّةِ .

الحكمة عند القديس بونافنتورا : أُعْتَبِرَ القُدَيْسُ بُونَاْفَنْتُورَا أَنَّ الحِكمةَ تُتَّخَذُ شَكْلَ شَخْصٍ مَا يَسَمُّ بِهَا ، وَهُوَ الحَكِيمُ ، وَالَّذِي يَتِمُّثَلُ دَوْرُهُ فِي دَعْوَةِ النَّاسِ وَإِرْشَادِهِمْ فِي رِحْلَةِ اللِّتَعَرُّفِ عَلَى الخَالِقِ .

ابن رُشدٍ : أَنَّ الشَّرِيعَةَ وَالْحِكمةَ يُلْتَمِيزَانِ عِنْدَ غَايَةِ وَاحِدَةٍ ، وَهِيَ الحَثُّ عَلَى الفُضِيلَةِ العَمَلِيَّةِ ،

تَعْرِيفُ الحِكمةِ فِي الفُلْسَفَةِ الحَدِيثَةِ

مِنَ الأُمَثَلَةِ عَلَى آرَاءِ بَعْضِ فَلَاسِفَةِ الفُلْسَفَةِ الحَدِيثَةِ بِخُصُوصِ الحِكمةِ مَا يَلِي :

الحكمة عند ديكارت : عُرِفَ الفِيلْسُوفُ رِينِيه دِيكَارْتِ الحِكمةَ عَلَى أَنَّهَا اسْتِخْدَامُ الإِنْسَانِ العَقْلِ وَتَوْظِيفُهُ لَهُ لِلقِيَامِ بِكُلِّ أُمُورِ حَيَاتِهِ بِطَرِيقِهِ صَحِيحِهِ ، تَكُونُ الأَفْضَلَ مِنْ بَيْنِ الطَّرِيقِ الأُخْرَى ، وَفِي سِيَاقِ حَدِيثِهِ عَنِ الحِكمةِ ، قَالَ دِيكَارْتِ كَذَلِكَ أَنَّ الحِكمةَ فِي شَكْلِهَا المَثَالِي أمرٌ يُخْتَصُّ بِهِ اللهُ وَحْدَهُ ، بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ يَعْلَمُ حَقَائِقَ جَمِيعِ الأُمُورِ ، فِي حِينِ أَنَّ البَشَرَ قَادِرُونَ أَيْضًا عَلَى امْتِنَاكِ الحِكمةِ ، وَلَكِنْ بِدَرَجَاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ ، يَعْتَمِدُ شَكْلَ اخْتِلَافِهَا بِنَاءً عَلَى حَجْمِ المَعْرِفَةِ الَّتِي لَدَيْهِمْ بِخُصُوصِ الحَقَائِقِ .

الحكمة عند لايبنتز : عَدَّ الفِيلْسُوفُ الأَلْمَانِي أَنَّ الحِكمةَ هِيَ طَرِيقُ المَرءِ لِتَحْقِيقِ السَّعَادَةِ ، وَهِيَ أَيْضًا مَا يَعْلَمُهُ كَيْفِيَّةً تَحْقِيقِيَّهَا . وَبِمَجْرَدِ وُصُولِ الإِنْسَانِ لِلسَّعَادَةِ المُرْتَبِطَةِ بِالحِكمةِ ، فَإِنَّ شُعُورَهُ هَذَا يَنْعَكِسُ عَلَى أَعْمَالِهِ وَشَخْصِهِ .

الحكمة عند كانط : أُعْتَبِرَ الفَيْلَسُوفُ إِيْمَانُوبِلَ كَانَطُ أَنَّ اسْتِخْدَامَ الْإِنْسَانِ لِعَقْلِهِ يُوصِلُهُ إِلَى الْحِكْمَةِ فِي الْقَرَارَاتِ ، فِي حِينِ أَنْ تَجَاهِلَ الْعَقْلُ نَزْجًا بِالْإِنْسَانِ إِلَى كُلِّ مَا يُخَالِفُ الْحِكْمَةَ ، وَمِنْهَا اتِّخَاذُ الْقَرَارَاتِ غَيْرِ الْحَكِيمَةِ ، أَوِ الْمَغْفَلَةِ ، بِالإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ ، حَدَّدَ كَانَطُ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ تُعْتَبَرُ أُسَاسِيَّةً فِي تَكْوِينِ الْحِكْمَةِ ، وَهِيَ : الْمَبَادِي الْعَالَمِيَّةُ ، وَالْقَرَارَاتُ الْمُتَزَمَّةُ بِالْقَوَاعِدِ وَالضَّوَابِطِ ، وَسَلْطَةُ الْعَقْلِ وَتَفَوْقِهِ .

اللَّهُ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ وَأَعْطَى الْحِكْمَةَ

الْحَكِيمِ ، اسْمٌ سَاقَهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ فِي وَاحِدٍ وَتَسْعِينَ مَوْضِعًا ، وَفِي جَمِيعِ الْمَوَاضِعِ يُقْرَنُ بِاسْمِ آخَرَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَتَارَةً مَعَ الْعَزِيزِ ، وَتَارَةً مَعَ الْعَلِيمِ ، وَتَارَةً مَعَ الْخَيْرِ ، أَوْ مَعَ غَيْرِهَا مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى .

وَالْحَكِيمِ : الَّذِي يَضَعُ الْأُمُورَ فِي مَوَاضِعِهَا ، وَيُوقِعُهَا مَوَاقِعِهَا ، وَلَا يَأْمُرُ إِلَّا بِمَا فِيهِ الْخَيْرُ ، وَلَا يَنْهَى إِلَّا عَمَّا فِيهِ الشَّرُّ ، وَلَا يُعَذِّبُ إِلَّا مَنْ اسْتَحَقَّ ، وَلَا يَقْدِرُ إِلَّا مَا فِيهِ حِكْمَةٌ وَهَدَفٌ ، فَأَقْعَالُهُ سَدِيدَةٌ ، وَصَنْعَةٌ مُتَقِنٌ ، فَلَا يَقْدِرُ شَيْئًا عَبَثًا ، وَلَا يُفْعَلُ لِعَيْرِ حُكْمِهِ ؛ بَلْ كُلُّ ذَلِكَ بِحُكْمِهِ وَعِلْمِهِ ، وَإِنْ غَابَ عَنْ الْخَلَائِقِ .

خَلَقَ الْخَلْقَ لِحُكْمِهِ ، وَقَدَّرَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ، وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ ، لِحُكْمِهِ شَرِيفَةً وَهِيَ الْعِبَادَةُ ، فَسَبَّيْنِ فِي الْمَيْدَانِ الْمَطِيعُ مِنَ الْعَاصِي ، وَالشُّكُورُ مِنَ الْكُفُورِ ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ بِمَا حُكْمُهُ وَيَقْدِرُ بِمَا هَدَفِهِ وَيَأْمُرُ بِمَا مَصْلَحَةٌ فَقَدْ ضَلَّ وَمَا هُدًى ، وَأَخْطَأَ وَأَسَاءَ ، وَقَدْ قَالَ الْمَوْلَى : (أَفْحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) [المؤمنون : II5] .

اللَّهِ -سبحانه- خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَلَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا ، وَأَوْجِدَ الْإِنْسَانَ وَالْمَخْلُوقَاتِ فَاْبُدِعَ
صِنْعًا ، يُدَبِّرُ الْكُونَ بِاتِّظَامٍ ، فَيُعْطِي هَذَا وَيَمْنَعُ هَذَا ، لِأَنَّ الْحَيَاةَ لَا تَسْتَقِيمُ بِعَكْسِ ذَلِكَ ، يَسْخَرُ هَذَا
لِخِدْمَةِ هَذَا بِحِكْمَتِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ ، (أَخْصَى كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ثُمَّ هَدَى) [طه : 50] ، (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ
خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) [القمر : 49] .

أَرْزَاقُ مَكْفُولِهِ ، وَإِعْمَالُ مُقَدَّرَةٍ ، وَخَلَائِقُ مُخْتَلِفَةٍ ، وَكَوْنُ مُحَكَّمٍ لَا يَخْتَلُ لِحِظَّةٍ وَاحِدَةٍ ، شَمْسٍ
وَقَمَرٍ ، نُجُومٍ وَجِبَالٍ ، لَوْ طَالَ خُرُوجُ الشَّمْسِ لَهَلَكَ الْعِبَادُ وَلَوْ تَأَخَّرَ الْقَمَرُ عَلَى النَّاسِ لَهَلَكُوا ، (وَهُوَ
الَّذِي يُبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)
[الروم : 27] .

الْحَكِيمُ يَقْدِرُ عَلَى الْعَبْدِ الْمُصِيبَةِ وَالْبَلَاءِ ، وَيُحَوِّلُ حَالَ الرَّخَاءِ ، فَتَحِلَّ الْأَحْزَانُ لَيْسَ ذَلِكَ عَبَثًا ؛ بَلْ
لِحُكْمِ عَظْمَى ، وَمَا الْأَجْرُ وَالْإِعْتِبَارُ إِلَّا شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْحُكْمِ ، وَأَنْظُرْ فِي قَوْلِ اللَّهِ (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ
وَالْبَحْرِ) [الروم : 41] .

أَنَّهُ فَسَادُ ثَمَارٍ وَزُرُوعٍ ، وَخَرَابُ بَرٍّ وَبَحْرِ ؛ وَلِكِنَّه خَرَابٌ دُنْيَا ، يَرْتَبُّ عَلَيْهِ صَلَاحُ دِينٍ ، اتِّعَاطُ وَإِعْتِبَارُ
، وَأَجْرٌ وَتَكْفِيرٌ ، كُلُّ هَذَا بِتَدْبِيرِ الْحَكِيمِ الْخَبِيرِ .

وَمِنْ حِكْمَةِ الْحَكِيمِ أَنْ فَاضَلَ بَيْنَ النَّاسِ فَوْقَ قَوْمًا لِلدِّينِ ، وَوَكَّلَ قَوْمًا لِنَفْسِهِمْ فَاخْتَارُوا الْكُفْرَ ، وَلَا
يُعْجِزُ اللَّهُ هِدَايَتِهِمْ ، وَلَوْ شَاءَ لَهَدَى النَّاسَ أَجْمَعِينَ ، لَكِنَّه حَكِيمٌ ، جَعَلَ الْكُفْرَ وَالْإِيمَانَ ، وَسَلَّطَ
الشَّيْطَانَ عَلَى بَنِي الْإِنْسَانَ حِكْمَةً مِنْهُ ، قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ : فِي خَلْقِ إِبْلِيسَ مِنَ الْحُكْمِ وَالْمَصَالِحِ وَالْخَيْرَاتِ
الَّتِي تَرْتَبُّ عَلَى وُجُودِهِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ ، فَاللَّهُ -سبحانه- لَمْ يَخْلُقْهُ عَبَثًا ، وَلَا قَصْدَ بَخْلَقِهِ إِضْرَارًا

عِبَادَةٌ وَهَلَاكُهُمْ ، فَكَمَ لِلَّهِ فِي خَلْقِهِ مِنْ حُكْمِهِ بَاهِرَةٌ ، وَحُجَّتُهُ قَاهِرَةٌ ، وَآيَةٌ ظَاهِرَةٌ ، وَنِعْمَةٌ سَابِغَةٌ ؛
وَهُوَ وَإِنْ كَانَ لِلْأَدْيَانِ وَالْإِيمَانِ كَالسَّمُومِ لِلْأَبْدَانِ فَفِي إِيجَادِ السَّمُومِ مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْحُكْمِ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ
تَقْوِيَتِهَا .

وَمَنْ حَكَمَ إِيجَادَهُ أَنَّهُ -سَبْحَانَهُ- جَعَلَهُ عِبْرَةً لِمَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ ، وَتَكَبَّرَ عَنْ طَاعَتِهِ ، وَأَصْرَرَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ
، وَأَنَّهُ مَحْكٌ ائْتَحَنَ اللَّهُ بِهِ خَلْقَةً لِيَتَبَيَّنَ بِهِ خَبِيثُهُمْ مِنْ طَيِّبِهِمْ ، وَمِنْهَا أَنَّهُ -سَبْحَانَهُ- يُحِبُّ أَنْ يُظْهِرَ
لِعِبَادِهِ حِلْمَهُ وَصَبْرَهُ وَأَنَاتَهُ وَسَعَةَ رَحْمَتِهِ وَجُودِهِ ، فَاقْتَضَى ذَلِكَ خَلْقَ مَنْ يُشْرِكُ بِهِ وَيُضَادُهُ فِي حُكْمِهِ
وَيَجْتَهَدُ فِي مُخَالَفَتِهِ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَسُوقُ إِلَيْهِ أَنْوَاعَ الطَّيِّبَاتِ وَيَرْزُقُهُ وَيُعَامِلُهُ مِنْ بَرِّهِ وَإِحْسَانِهِ بِضِدِّ مَا
يُعَامِلُهُ هُوَ بِهِ مِنْ كُفْرِهِ وَشَرِكَةِ وَإِسَاءَتِهِ ، فَلِلَّهِ كَمٌ فِي ذَلِكَ مِنْ حُكْمِهِ وَحَمْدِهِ ! .

وَلَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ الْعِلْمَ الْحَكِيمَ نَفْحَهُ مِنْ حِكْمَتِهِ لِلنَّاسِ أَنْزَلَهَا عَلَى أَنْبِيَآءِهِ وَمَنْ ارْتَضَى مِنْ عِبَادِهِ وَجَعَلَهَا
ضَالَّةَ الْمُؤْمِنِ وَمَبْتَغَاهَ وَتَضَمَّنَتْهَا كَتَبَهُ وَتَعَالَيْمِهِ .

النُّصُوصُ الْقُرْآنِيَّةُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ كَثِيرَةٌ جِدًّا اخْتَرْنَا مِنْهَا :

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مِمَّا لَمْ

تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 151]

فَالْحِكْمَةُ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا كَمَا كَانَ كِتَابُهُ وَنَبِيِّهِ كَذَلِكَ .

﴿ وَادْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ

اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : 231]

وهي مؤعظة وأسلوب للحياة والمعيشة .

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

[البقرة : 269]

وَالَّذِي يُؤْتِيهِ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَلَقَدْ آتَاهُ اللَّهُ خَيْرًا كَثِيرًا

﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ [آل عمران : 48]

وَالنَّبِيَاءَ جَمِيعِهِمْ أُوتُوا الْحِكْمَةَ

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ

صَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل : 125]

وَالدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ تَكُونُ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَبِالْجِدَالِ الْمُسْمَرِ

﴿ وَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ

حَمِيدٌ ﴾ [لقمان : 12]

وَلُقْمَانَ اللَّهُ أَعْطَاهُ الْحِكْمَةَ لِيَشْكُرَ رَبَّهُ عَلَى هَذَا الْعَطَاءِ الْعَظِيمِ .

وَلُقْمَانَ اللَّهُ أَعْطَاهُ الْحِكْمَةَ لِيَشْكُرَ رَبَّهُ عَلَى هَذَا الْعَطَاءِ الْعَظِيمِ .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَأَتَقُوا اللَّهَ ۖ﴾

﴿ وَأَطِيعُوا ۖ﴾ [الزخرف : 63]

وَالدَّلَائِلَ وَالْبَيِّنَاتِ تَحْتَاجُ إِلَىٰ حُكْمِهِ لِتَبْيَانِهَا لِلنَّاسِ فِيمَا اِخْتَلَفُوا فِيهِ .

ثانيا

الْعَالَمُ (الْكَوْنُ)

﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۖ﴾

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۖ﴾ [الأنبياء : 16]

الْبُرْتُ أَيْنَشَاتَيْنِ : إِنَّ اللَّهَ لَا يَلْعَبُ بِالتَّزْدِ مَعَ الْكَوْنِ

فِي هَذَا الْبَحْثِ سَيَسِمُ الْإِجَابَةَ عَلَى ثَلَاثِ أَسْئَلَةٍ كَبْرَى وَهِيَ تَعَلُّقُ بِالْمَبْدَأِ وَالْغَايَةِ وَالْمَصِيرِ الْمَبْدَأِ مِنْ أَيْنُ جَاءَ الْعَالَمُ ؟ الْغَايَةَ لِمَاذَا يُوجَدُ الْعَالَمُ ؟ وَالْمَصِيرُ إِلَى أَيْنُ نَحْنُ ذَاهِبُونَ ؟ وَقَدْ خَصَّصْنَا لِكُلِّ سُؤَالٍ مِنْ هَذِهِ الْأَسْئَلَةِ وَالْجَوَابِ عَلَيْهِ مِخْوَرٌ وَعَلَيْهِ سَيَكُونُ أَمَامَنَا ثَلَاثُ مَحَاوِرَ لِلْبَحْثِ تَعَارِيفَ وَمُصْطَلَحَاتِ الْعَالَمِ : الْخُلُقُ كُلُّهُ ، وَقِيلَ ، كُلُّ مَا حَوَاهُ بَطْنُ الْفَلَكَ الْكَوْنُ : الْوُجُودُ الْمَطْلُوقُ الْعَامُّ . كَوْنٌ : (فِعْلٌ) كَوْنٌ يَكُونُ ، تَكْوِينًا ، فَهُوَ مُكُونٌ ، وَالْمَفْعُولُ مُكُونٌ وَفَعَلَ الْأَمْرُ كُنْ كَوْنِ اللَّهِ الْكَوْنُ : أَخْرَجَهُ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ الْكَوْنُ : الْعَالَمُ ، جُمْلَةُ الْمَوْجُودَاتِ الَّتِي لَهَا مَكَانٌ وَزَمَانٌ كَالْإِجْرَامِ ، " كَوْنٌ كَرِوِي " .

(مصطلحات فلكية)

الْكَوْنُ هُوَ مَفْهُومٌ كَلَامِي تَمَّ تَأْوِيلُهُ بِطُرُقٍ شَتَّى وَوَقْفًا لِنَظَرِيَّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ وَمَتَعَدَّةٍ ، وَاحِدِ الْإِتْفَاقَاتِ الْقَلِيلَةِ حَوْلَ مَا هِيَ الْكَوْنُ مِنْ بَيْنِ النَّظَرِيَّاتِ الْعِدَّةِ الْمُعَمَّدَةِ مِنْ قِبَلِ الْفَلَسَفَةِ وَغَيْرِهِمْ هُوَ أَنَّ مَفْهُومَ الْكَوْنِ يَدُلُّ عَلَى الْحِجْمِ النَّسْبِيِّ لِمَسَاحَةِ الْفَضَاءِ الزَّمْكَانِي (الزَّمَانِي وَالْمَكَانِي) الَّذِي يَتَوَاجَدُ فِيهِ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ الْمَوْجُودَاتِ كَالنُّجُومِ وَالْمَجْرَاتِ وَالْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ .

مَعْنَى الْعَالَمِينَ وَالْكَوْنِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

لَمْ تُذَكَّرْ كَلِمَةُ الْكَوْنِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَلَا كَلِمَةُ الْعَالَمِ بِصِيغَةٍ فَرَدَ لِكَلِمَتِهَا ذَكَرَتْ بِصِيغَةِ الْعَالَمِينَ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الْفَاتِحَةُ : 2] الْعَالَمِينَ بَفَتْحِ الْهَاءِ وَيُشِيرُ بِهَا إِلَى عِلْمِ الْإِنْسِ وَعَالَمِ الْجِنِّ وَهُنَاكَ مَنْ يُضِيفُ كُلَّ الْعَوَالِمِ الْحَيَّةِ كَالْحَيَوَانِيَّةِ وَالنَّبَاتِيَّةِ

الْعَالَمِينَ ﴿ ٢ الْفَاتِحَةُ ﴾ جَمْعُ عَالِمٍ وَهُوَ كُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ وَسَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ

رب العالمين (٢ الفاتحة) مربيهم ومالكهم ومدبر أمورهم

مَفْهُومُ الْعَالَمِينَ بِشَكْلِ أَوْسَعِ

العالمين جمع عالمٍ ، وهو كلُّ ما خلق الله جلَّ وعَلَا مِنْ أَحْيَاءٍ وَمِنْ جَمَادَاتٍ ، مِنْ الذُّرَّةِ وَمَا دُونَهَا إِلَى الْمَجْرَّةِ وَمَا فَوْقَهَا ، مِنَ الْعَوَالِمِ الْمَادِيَّةِ وَمِنَ الْجَرَائِمِ وَالْحَشْرَاتِ وَالْبَشَرِ إِلَى عَوَالِمِ الْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ وَالْمَلَائِكَةِ . كُلُّ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ يَشْمَلُهَا لَفْظُ الْعَالَمِينَ .

وَقَدْ ظَهَرَ هَذَا الْمَعْنَى جَلِيًّا فِي رَدِّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى فِرْعَوْنَ عِنْدَمَا سَأَلَهُ عَنْ مَا هِيَ رَبِّ الْعَالَمِينَ
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :

(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ) الشُّعْرَاءُ : 23

فَأَجَابَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :

(قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ) الشُّعْرَاءُ : 24

وَمِنْ هَذِهِ الْإِجَابَةِ يَكُونُ تَعْرِيفُ الْعَالَمِينَ بِأَنَّهَا : هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ كُلِّ مَا خَلَقَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ وَالذُّبَابِ وَالنَّبَاتِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ وَالْجَمَادَاتِ ، فَهِيَ لَفْظٌ يُشِيرُ إِلَى كُلِّ مَا وَجَدَ فِي هَذَا الْكَوْنِ بِقُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ حَيٍّ وَجَمَادٍ .

2- كَلِمَةُ الْعَالَمِينَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

وَرَدَتْ كَلِمَةُ الْعَالَمِينَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ 6I كَمَرَةً . وَمَعْنَى الْعَالَمِينَ يَكُونُ حَسَبَ السِّيَاقِ .

الْمُبْتَدَأُ مِنْ أَيْنَ جَاءَ الْعَالَمُ ؟

مَاذَا قَالَ الْفَلَّاسِفَةُ وَالْعُلَمَاءُ الْغَرِبِيِّينَ ؟

كثيراً ما اختلفت الأقاويل وتضاربت النظريات وتلاحمت الأفكار حول كيفية نشوء الكون ، وكان الاختلاف قديماً حول هل الكون له بداية أم أزلي ؟ ولكن ظلت تلك النظريات في حدود التصورات الفلسفية حتى عام 1916عندما قام العالم ألبرت أينشتاين بحل معادلات نظريته التوسعية العامة واكتشف أن النتائج تؤكد له أن الكون يتوسع ، وقد أكد له العالم ألكسندر فريدمان عام 1922 صحة هذه النتائج بأن الكون يتمدد وليس ساكن ، وفي الثلاثينيات طرحت نظرية الانفجار العظيم التي تنبأ بأن الكون نشأ من انفجار نقطة بالغة الدقة تحتوي على كل مادة وطاقة الكون وانفجرت بشدة وعبر مليارات السنين أخذت مادة الكون في التمدد وتكوين المجرات والنجوم وكل الأجرام الكونية ، وتعتبر نظرية الانفجار العظيم من النظريات المقبولة حالياً في المجتمع العلمي حول نشأة الكون نتيجة ظهور عدد من الأدلة التي أثبتت صحة النظرية ، ولكن ما زال العلماء يتساءلون عن كيفية تكون هذه النقطة التي شكلت الكون .

الْكُونُ وَالْفَضَاءُ الْكُونِيَّ

الفرق بين الكون والفضاء الكوني أن التسمية الأولى تُعبر عن الكون المرئي لنا ، أما الثانية فهي مجمل الزمكان في كوننا سواءً أكان مرئياً أم لا ، فكلمة "Cosmos" كانت تستعمل في الفلسفة ، وهي مشتقة من أصلٍ إغريقيٍّ بمعنى « النظام » ، على عكس الفوضى ، ثم أصبحت تطلق على الكون ككل

(الكون المعروف) نظراً لانتظامه ، أمّا "Universe" فقد كانت منذ البداية تُعبّر عن كل الوجود المادي الأرض والكواكب والنجوم والشمس والقمر . . . إلخ ، وفي الحقيقة كلمة « كون » باللغة العربية هي تقريباً مرادف لـ "Universe" ، أمّا "Cosmos" فلا يوجد لها مرادف قريب أو بعيد في اللغة العربية التوافق الدقيق للكون هو افتراض أن الشروط التي تتيح الحياة في الكون لا تتحقق إلا بتوفر أرقام معينة من ثوابت فيزيائية محددة بدقة ضمن مجال ضيق جداً من القيم ، بحيث إن أقل تغيير في أرقام أي من تلك الثوابت الأساسية فعلى الأرجح لن يصل الكون إلى إيجاد وتطوير المادة ، والكيانات الفلكية ، والتنوع العنصري ، أو الحياة كما نفهمها . هذا الافتراض ينال جدلاً واهتماماً كبيرين في أوساط الفلاسفة والعلماء واللاهوتيين والخلقيين ، كما يستدعي عادة المبدأ الإنساني كوصيف للضبط الدقيق للكون .

كتاب فقط ستة أرقام : القوى العظمى التي تشكل الكون تأليف الفيزيائي مارتن ريس يناقش فيه أهمية ستة من الثوابت الأساسية لوجود الكون والحياة

صرح الفيزيائي بول دافيس بأن « هناك اتفاق واسع في الوقت الحالي بين الفيزيائيين وعلماء الكون بأن الكون فيه توافق دقيق للحياة في العديد من التواحي » ويضيف قائلاً : « ولا نستنتج من ذلك بأن الكون قد صُقل للحياة ، بل إن الكون قد صُقل لبناء العوامل الأساسية التي تحتاجها الحياة » .

قال الفيزيائي بول ديفيز : "هناك اتفاق واسع الآن بين الفيزيائيين وعلماء الكون على أن الكون من عدة نواحٍ مضبوطٌ بدقة "للحياة" . ومع ذلك ، تابع ، "الاستنتاج لا يقتصر على أن الكون قد تم ضبطه ليناسب الحياة ؛ بل إنه تم ضبطه وفقاً للبنات البناء والبيئات التي تتطلبها الحياة . "يفشل التفكير في

التَّمييزِ بَيْنَ الْأَكْوَانِ الْمَحَبَّةِ لِلْحَيَوِيَّةِ بِالْحَدِّ الْأَدْنَى ، وَالَّتِي يُسْمَحُ فِيهَا بِالْحَيَاةِ ، وَلَكِنْ مُمْكِنًا بِشَكْلِ هَامِشِي فَقط ، وَالْأَكْوَانِ الْحَيَوِيَّةِ عَلَى التَّحْوِ الْأَمْثَلِ ، وَالَّتِي تَزْدَهَرُ فِيهَا الْحَيَاةُ لِأَنَّ التَّوَلَّدَ الْحَيَوِيَّ يُحْدِثُ بِشَكْلِ مَتَكَرَّرٍ . مِنْ بَيْنِ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ وُجِدُوا الدَّلِيلَ مَقْنَعًا ، تَمَّ اقْتِرَاحُ مَجْمُوعِهِ مُتَنَوِّعَةً مِنَ التَّفْسِيرَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ ، مِثْلَ وُجُودِ أَكْوَانٍ مُعَدَّدَةٍ تَقَدَّمُ تَحْيِرًا لِلْبَقَاءِ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ وَفَقًا لِمَبْدَأِ تَوَاجُدِ الْإِنْسَانِ .

أَنَّ فَرَضِيَّةَ تَأَكِيدُ الْكُونِ الدَّقِيقِ هِيَ أَنَّ تَغْيِيرًا طَافِيًا فِي الْعَدِيدِ مِنَ الثَّوَابِتِ الْفِيْزِيَاءِيَّةِ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَجْعَلَ الْكُونِ مَخْتَلَفًا جَذْرِيًا . كَمَا لَاحَظَ سَتِيفِنِ هُوكِينْج ، "تَحْتَوِي قَوَانِينِ الْعِلْمِ ، كَمَا تَعْرِفُهَا حَالِيًا ، عَلَى الْعَدِيدِ مِنَ الْأَرْقَامِ الْأَسَاسِيَّةِ ، مِثْلَ مِقْدَارِ الشَّحْنَةِ الْكَهْرَبَائِيَّةِ لِلْإِلِكْتْرُونِ وَنَسْبَةِ كُتْلَةِ الْبْرُوتُونِ وَالْإِلِكْتْرُونِ . . . الْحَقِيقَةُ الْلاَقْتَةُ لِلنَّظَرِ هِيَ أَنَّ قِيَمَ هَذِهِ الصِّفَاتِ تَبْدُو وَكَأَنَّهَا قَدْ تَمَّ تَعْدِيلُهَا بِدِقَّةٍ لِإِتَاحَةِ تَطَوُّرِ الْحَيَاةِ " .

عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ ، إِذَا كَانَتْ الْقُوَّةُ التَّوَوِيَّةُ الْقُوَّةُ أَقْوَى بِنِسْبَةِ 2/1 مِمَّا هِيَ عَلَيْهِ (أَيَّ إِذَا كَانَ ثَابِتُ الْاِقْتِرَانِ الَّذِي يُمَثِّلُ قُوَّتَهَا أَكْبَرَ بِنِسْبَةِ 2/1) بَيْنَمَا تَرَكَّتِ الثَّوَابِتُ الْأُخْرَى دُونَ تَغْيِيرٍ ، فَإِنَّ ثُنَائِي الْبْرُوتُونَاتِ سَتَكُونُ مُسْتَقَرَّةً ؛ وَفَقًا لِدِيفِيْز ، سَوْفَ يَنْدَمِجُ الْهَيْدْرُوجِينُ فِيهَا بَدَلًا مِنَ الْدِيُوتِيْرِيُومِ وَالْهَيْلِيُومِ . هَذَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُغَيِّرَ بِشَكْلِ جَذْرِيٍّ فِيزِيَاءِ النُّجُومِ ، وَيُفَرِّضُ أَنَّهُ يُحَوِّلُ دُونَ وُجُودِ حَيَاةٍ مُشَابِهَةٍ لِمَا نَلَاظُهُ عَلَى الْأَرْضِ . قَدْ يُوَدِّي وُجُودَ الدِيُوتُونِ إِلَى قَصْرِ دَائِرَةِ الْاِنْدِمَاجِ الْبَطِيءِ لِلْهَيْدْرُوجِينِ فِي الدِيُوتِيْرِيُومِ . سَوْفَ يَنْدَمِجُ الْهَيْدْرُوجِينُ بِسُهُولَةٍ لِدَرَجَةٍ أَنَّهُ مِنْ الْمُحْتَمَلِ أَنْ يَتَمَّ اسْتِهْلَاكُ كُلِّ الْهَيْدْرُوجِينِ الْمَوْجُودِ فِي الْكُونِ فِي الدَّقَائِقِ الْقَلِيلَةِ الْأُولَى بَعْدَ الْاِنْفِجَارِ الْعَظِيمِ . هَذِهِ "حِجَّةُ diproton" مَحَلُّ خِلَافٍ مِنْ قَبْلِ

فيزيائيين آخرين ، الذين حسبوا أنه طالما أن الزيادة في القوة أقل من 50% ، يُمكن أن يحدث الاندماج النجمي على الرغم من وجود ثنائيات البروتونات المستقرة .

تتلخص النظريات حول نشوء الكون بمدرستين اثنتين : أولاًهما أن الكون كما هو بدايةً ونهايةً لا يتطور ولا يتغير ، والثانية أن الكون يتطور وله بداية وقد يكون له نهاية .

وبنظرة تاريخية سريعة نجد أنه في عام 1ق . م (البابلون) آمنوا بأن الأرض هي عبارة عن كوكب يعوم بين البحار والمحيطات ، بالإضافة إلى كواكب أخرى . أما في العام 4ق . م قال أرسطو : "إن الكون ثابت لا بداية ولا نهاية له" . في العام 2ق . م اعتقد بطليموس أن الكرة الأرضية في منتصف الكون ، وإن الشمس والكواكب تدور حولها . أما العلماء المسلمون فقد أثروا الحياة العلمية في مجال الفلك ، وذلك بالاعتماد على أسلوب الاستقراء والمطالعة العلمية ، وذلك بين القرن (9 - 16) الميلادي .

وقد قدم كوبرنيكوس فكره ثورية في القرن السادس عشر مفادها بأن المجموعة الشمسية هي ليست الوحيدة في الكون ، والشمس تقع في منتصف هذه المجموعة والأرض تدور حولها . هذه الفكرة خالفت الكثير من عقود الفلسفة والتحكيم الديني والسياسي في النظريات العلمية التي سبقته ، وصولاً إلى القرن العشرين حيث ظهرت نظرية الانفجار العظيم في العام 1948 وتبين لنا هذه النظرية أنه في البدء كان هناك جرماً لا يستطيع العقل البشري أن يتخيله ؛ فهو من الصغر بمكان ما يفوق تقدير العقل البشري ، وهو من الكثافة والطاقة بمكان ما يفوق العقل البشري . تبين النظرية أن هذه الجرم الحرج في كتلته وحجمه وطاقته قد انفجر في الماضي السحيق ليولد غلالة من الدخان . وبحسب هذه النظرية ، فإن الكون تمدد بطريقه لوغاريتمية في نشأته ، إذ تمدد في الحجم مائة تريليون مرة خلال أجزاء ضئيلة

جَدًّا مِنْ الثَّابِتَةِ بَعْدَ الانفجار ، مِمَّا أَدَّى إِلَى تَنَاسُقِ الْكُونِ بِصُورَةٍ مَلْحُوظَةٍ فِي أَعْوَارِ الْفُضَاءِ ، كَمَا وَجَدَتْ نَتِيجَةٌ لِذَلِكَ تَمَوُّجَاتٍ هَائِلَةٌ نَجَمَتْ عَنْهَا مَوْجَاتٌ الْجَاذِبِيَّةُ .

وَلَفْهَمِ النَّمُودَجِ السَّائِدِ لِعِلْمِ الْكُونِ ؛ كَانَ لَزَامًا عَلَى الْعُلَمَاءِ أَنْ يَبْذُلُوا جَهْدًا أَكْبَرَ لِيَتِمَّ كُنُوزُهَا مِنْ فَهْمِ مَا يَحْدُثُ فِي هَذِهِ الْفِرَادَةِ الدَّقِيقَةِ ، وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ مَزَاجَتِهِمْ لِجَانِبَيْنِ مِنَ الْعُلُومِ : التَّسْبِيَةِ الْعَامَّةِ (تَفْسِيرِ الْجُسِيَمَاتِ عَلَى مُسْتَوَى الْمَاكْرُو) ، وَمِيكَانِيكَاتِ الْكُمِّ (القَوَانِينِ الْحَاكِمَةِ لِلْجَزِيئَاتِ) . وَقَدْ شَكَّلَ تَطْبِيقُ التَّخْصِيصِ تَحْدِيًّا لِعُلَمَاءِ الْفِيْزِيَاءِ عَقُودًا عِدَّةً ، فَكَمَا يَقُولُ أَحْمَدُ فَرِيحٌ عَلِيٌّ -عَالِمُ الْفِيْزِيَاءِ فِي مَدِينَةِ زَوِيلِ لِلْعُلُومِ وَالتَّكْنُولُوجِيَا ، مِصْرَ : "تَمَثَّلَ فِرَادَةُ الْانْفِجَارِ الْكَبِيرِ الْمُشْكِلَةَ الْأَكْثَرَ خُطُورَهُ لِلنَّسَبِيَّةِ الْعَامَّةِ ؛ إِذْ يَبْدُو أَنْ قَوَانِينِ الْفِيْزِيَاءِ تَتَوَقَّفُ هُنَاكَ" .

وَتَبِيحَةُ هَذَا الْانْفِجَارِ تَوَلَّدَتْ غِلَالَةً مِنَ الدُّخَانِ ، حَيْثُ أَخَذَتْ جُزْئِيَّاتُهَا بِالتَّقَارُبِ بِفِعْلِ الْجَاذِبِيَّةِ ؛ لِشَكْلِ الْمَجْمُوعَاتِ الشَّمْسِيَّةِ لِتَكُونِ الْمَجْرَاتِ ، وَمِنْ ثَمَّ الدَّلِيَّاتِ ، وَبَعْدَهَا الْعَنَاقِيدُ ، وَمِنْ ثَمَّ السُّدُمِ .

وَهُنَا يُطْرَحُ سُؤَالٌ فَائِقُ الْأَهْمِيَّةِ : إِلَى مَتَى سَيَسْتَمِرُّ هَذَا التَّمَدُّدُ ؟ وَهَلْ هُوَ نِهَائِيٌّ ؟ أَمْ هُوَ خَارِجٌ

لِحُدُودِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ إِلَى الْمَالَانِيَّةِ ؟

يَسْأَلُ الْعُلَمَاءُ التَّجْرِبِيِّينَ : هَلْ مَعْدَلُ اتِّسَاعِ الْكُونِ قَبْلَ مِلْيَارَاتِ السَّنِينَ هُوَ ذَاتُهُ الْآنَ ؟ بِالطَّبَعِ لَا ، حَيْثُ يُجِيبُ أ . د صَبْرِي الدَّمْرِدَاشُ أَنَّهُ لَا بُدَّ لَنَا مِنْ مَعْرِفَةٍ أَنَّ هُنَاكَ قُوَى دَافِعَةٌ سَبَبَتْ اتِّسَاعَ الْكُونِ ، وَالَّتِي نَقُلُ مَعَ الزَّمَنِ فَيَقِلُّ مَعْدَلُ اتِّسَاعِ الْكُونِ بِالْمُقَابِلِ ، نَظَرُ الْقُوَى الْجَاذِبِيَّةِ ، وَفِي لَحْظِهِ مِنَ الزَّمَانِ سَتَسَاوِي فِيهِ الْقُوَّتَانِ (الدَّافِعَةُ وَالْجَاذِبِيَّةُ) ، وَفِي وَقْتٍ بَعْدَ هَذَا سَتَبْدَأُ الْقُوَى الدَّافِعَةُ بِالتَّنَاقُصِ تَدْرِيجِيًّا ، فَتَرِيدُ

القوى الجاذبة بالمقابل ، يَتَّحِ عَنْ انسحاق القوى الدافعة تلاش للزمن والمكان وتكدر للمادة والطاقة ؛
بحيث تشمل التغيرات جوانب الكون الأربعة ؛ فلا زمان بغير حرية ، ولا مكان بغير مدة فيحدث
الانسحاق العظيم (Big ranch) . أما المادة والطاقة فسيتكدرسان ليصبحا جرماً صغيراً متناه في
الصغر والكثافة ، وعندئذ يحدث البيج بانج الثاني ، فتق يسبعه رتق ليسبعه فتق آخر من خلال
الانسحاق العظيم .

كما يمكن لهذا النموذج أن يساعدا في حل سرين آخرين من أسرار الكون الغامضة . في أواخر
تسعينيات القرن الماضي ، اكتشف علماء الفلك أن توسع الكون يتسارع بسبب وجود طاقة مظلمة
غامضة مجهولة المنشأ . هذا النموذج يستطيع تفسيرها ؛ نظراً لكون السائل يشكل قوة صادرة
صغرى ، ولكنها ثابتة تؤدي إلى توسيع الفضاء . ويعلق داس قائلاً : “هذه هي النتيجة السعيدة غير
المقصودة لعملنا” .

يعرف علماء الفلك أيضاً أن معظم المادة الكونية توجد بحاله غامضة لا مرتبة تدعى المادة المظلمة ،
ويمكن إدراكها فقط من خلال تأثيرها الجاذب للمواد المرئية كالتجموع .

ذا سلمنا بنظرية الانفجار العظيم التي نادى بها الفيزيائيون على أنها حقيقة واقعة لا محال ، وإذا سلمنا
كذلك بأن النظريات تأتي دائماً لتفسير ظواهر واقعية مرتبطة بحقائق واقعية فإننا تقع بإشكالات معرفية
على مختلف المستويات ، فنظرية تشكل الكون تظل في سياقها الطبيعي نظرية تضع تصوراً يبدو مقبولاً
إلى غاية هذه اللحظة عند علماء الفلك ، هذه النظرية لا تقف عند حدود وجود وتشكل الكون
كمفهوم نظري وإنما تعتمد إلى إسقاط مفاهيمها وتصوراتها على سياق معرفي يتعلق بوجود الإنسان ذاته

فِي هَذَا الْكُونِ ، أَمَا أَصْحَابُ نَظَرِيَّةِ الْخُلُقِ الْمُسْتَمِرِّ كَمَا يَقُولُ الْفَلَّاسِفَةُ الْمَادِيْنَ وَ الْوَجُودِيْنَ وَ الْوَضْعِيْنَ
 الْجُدُّ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِأَنَّ الْكُونَ أَرْزَلِي فَهَمُ بِأَسَاسٍ وَفِي جَدْلِهِمْ ذَاكَ اعْتَمَدُوا عَلَى مَنْطِقِ الْفَلْسَفَةِ
 وَتَوَجَّهَاتِهَا لَدَيْهِمْ ، أَمَا أَصْحَابُ نَظَرِيَّةِ الْإِنْفِجَارِ الْعَظِيمِ وَهُمْ عَلَى التَّحْدِيدِ عُلَمَاءُ نَظَرِيُونَ فَإِنَّهُمْ يَتَقَاطَعُونَ
 مَعَ أَنَّ نَظَرِيَّةَ الْكُونَ الْأَرْزَلِيَّ وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ لِلْكَونِ بَدَايَةَ حَتْمِيَّةً .

تَقُولُ هَذِهِ النَّظَرِيَّةُ بِشَكْلِ مُخْتَصَرٍ أَنَّ الْكُونَ كَانَ مَضْغُوطًا بِطَرِيقِهِ كَبِيرَةً وَإِنْ حَجْمِهِ لَا يَزِيدُ عَنْ حَجْمِ
 قَبْضَةِ الْيَدِ ، وَكَانَتْ قُوَّةُ الْجَاذِبِيَّةِ بَيْنَ أَجْزَاءِهِ مَخْفِيَةً ، حَيْثُ وَصَلَ فِي لَحْظَةٍ مَا إِلَى عَدَمِ إِمْكَانِيَّةِ تَحْمِلِ
 قُوَّةِ الْجَاذِبِيَّةِ هَذِهِ ثُمَّ انْفَجَرَ بِشَكْلِ عَشَوَائِيٍّ وَعَجِيبٍ . إِذْ مَرَّ بِمَرَاكِلَ مُتَعَدِّدَةٍ وَكُلُّهَا أَجْزَاءٌ لَا تَذُكَّرُ مِنْ
 الثَّابِتَةِ . فَفِي وَاحِدٍ عَلَى مِثْيُونِ جُزْءٍ مِنْ الثَّابِتَةِ الْأُولَى بَعْدَ لَحْظَةِ الْإِنْفِجَارِ تُشَكِّلُ السَّدِيمَ الْكُونِيَّ
 الْعَمَلَقَ ، ثُمَّ تَشَكَّلَتِ الْمَجْرَاتُ وَأَخَذَتْ وَضْعَهَا الطَّبِيعِيَّ فِي نِصْفِ الْمُدَّةِ السَّابِقَةِ ثُمَّ بَدَأَتِ الْحَرَكَةَ بَيْنَ
 هَذِهِ الْأَجْرَامِ السَّمَاوِيَّةِ تَحْتَ ضَعْفِ الْجَاذِبِيَّةِ تَأْخُذُ مَجَالَهَا فِي اسْتِقْرَارِ الْكُونَ عَلَى الشَّاكِلَةِ الَّتِي نَرَاهَا
 الْيَوْمَ ، وَلَكِنَّ هَذَا الْكُونَ الَّذِي أَخَذَ يُبْرَدُ تَدْرِيجِيًّا لَا يَزَالُ فِي حَالَةٍ تَوْسَعٍ دَائِمٍ وَبِسُرْعَةٍ تَقْرُبُ مِنْ سُرْعَةِ
 الضُّوءِ .

أَجْزَاءَهُ وَتَبْدَأُ الثُّقُوبَ السُّودَاءَ بِالتَّضَخُّمِ الْمُخْفِيِّ ، فَتَبْلَعُ مَجْرَاتُ بِكَامِلِهَا حَتَّى يُعُودَ الْكُونَ كَمَا بَدَأَ مَرَّةً
 أُخْرَى ، ثُمَّ تَتَكَرَّرُ مَسْأَلَةُ الْخُلُقِ مِنْ جَدِيدٍ

نَتِيجَةُ

كَيْفَ نَمُوضِعُ هَذِهِ النَّظَرِيَّةَ فِي إِطَارِهَا الْفَلْسَفِيِّ مِنْ جِهَةٍ ، وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى فِي إِطَارِهَا الدِّينِيِّ . أَيُّ
 كَيْفَ رَاحَتِ الْعُلُومِ هَذِهِ تَغْيِيرَ مَفْهُومِنَا عَنِ الْكُونَ أَوْ الْوُجُودِ الْكُونِيِّ . ذَلِكَ أَنَّهُ قَبْلَ هَذَا الْكُشْفِ الْمَعْرِفِيِّ

كَانَتْ الْعُلُومُ تُرَكِّزُ عَلَى نَظَرِيَّاتٍ ثَلَاثٍ فِي أَصْلِ الْكُونِ ، الْأُولَى : هِيَ اللَّادِرِيَّةُ بِمَعْنَى عَدَمِ الْمَعْرِفَةِ كَيْفَ
 ابْتَدَأَ هَذَا الْكُونُ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَكُونُ وَإِلَى أَيْنَ يَنْتَهِي . بِطَبِيعَةِ الْحَالِ هُنَا كَانَتْ ثَمَّةَ مَفَارِقَاتٍ كَبِيرَةٍ
 تَشَكَّلَتْ فِي الرُّؤْيَةِ وَطَبِيعَةِ الْمَنْهَجِ الْإِسْتِدْلَالِيِّ ، وَلِذَلِكَ ظَلَّتِ الْأَفْكَارُ هُنَا أُسِيرَهُ هَذَا التَّمَطُّ التَّصَوُّرِيِّ
 عِنْدَ الْفِكْرِ فِي طَوْرِ انبثاقه . أَي تَرْجِعُ فِي الْوَرَاءِ إِلَى الْفِكْرِ الْوَحْشِيِّ فِي سِيَاقِهِ السَّفْسَطَائِيِّ الْإِعْرَاقِيِّ
 أَي مَا قَبْلَ تَثْبِيْتِ الْقَوَاعِدِ الْفُلْسُفِيَّةِ بِشَكْلِهَا الْمُنْطِقِيِّ وَالصُّورِيِّ ، وَمِنْ ثَمَّ الْقِيَمِيِّ . أَمَّا الثَّانِيَّةُ : فَكَانَتْ
 تُرَكِّزُ عَلَى أَرْبَعَةِ الْكُونِ أَي إِنْ الْكُونُ لَا بَدَايَةَ لَهُ وَبِالتَّالِي لَا نِهَايَةَ لَهُ وَهَذِهِ النَّظَرِيَّةُ ظَلَّتْ إِلَى وَقْتٍ قَرِيبٍ
 هِيَ إِلَيَّ تَطْبَعُ كَافَّةَ الْمَدَارِسِ الْفُلْسُفِيَّةِ بِطَابَعِهَا وَتَلْوِي أَعْنَاقِ الْحَقَائِقِ وَتَرْتَّبُ النَّتَائِجَ عَلَى ذَلِكَ ، بِطَبِيعَةِ
 الْحَالِ يُمَكِّنُ أَنْ تَرَحَّلَ فِي هَذَا السِّيَاقِ رَحْلَهُ طَوِيلَةً وَلَكِنَّا لَسْنَا مَعْنِينَ بِهَذَا الطَّرْحِ هُنَا ، لِأَنَّ الْأَشْكَالِيَّةَ
 كَبِيرَةً مُنْذُ الْإِعْرَاقِ مُرُورًا بِكَافَّةِ الْمَدَارِسِ الْفُلْسُفِيَّةِ الْلَّاحِقَةِ حَتَّى بَدَايَةِ ظُهُورِ هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ . أَمَّا الثَّلَاثَةُ :
 فَكَانَتْ تُرَكِّزُ عَلَى نَظَرِيَّةِ الْخُلُقِ الْمَعْرُوفَةِ ، أَي إِنْ هَذَا الْوُجُودِ كَانَتْ لَهُ بَدَايَةُ بِإِرَادَةِ مَنْ اللَّهُ الَّذِي هُوَ
 الْخَالِقُ الَّذِي شَاءَ لِهَذَا الْكُونِ أَنْ يَظْهَرَ أَوْ أَنْ يُوجَدَ عَلَى الشَّكْلِ الَّتِي أَرَادَهَا وَلِلْغَايَةِ الَّتِي يَرْتَبِهَا ، وَهُنَا
 بِطَبِيعَةِ الْحَالِ أَيْضًا يُمَكِّنُ أَنْ نَمُوضِعَ كَافَّةَ الْفُلَاسِفَةِ الْإِعْرَاقِيِّ فِي هَذَا الْإِطَارِ أَي الَّذِينَ قَالُوا بِنَظَرِيَّةِ الْخُلُقِ
 الْمُمْكِنِ مِنَ الْخَالِقِ الَّذِي يَتَّصِفُ بِصِفَاتِ الْإِرَادَةِ وَالْمَشِيئَةِ ، وَالْقُدْرَةِ ، وَالْعِلْمِ ، عَلَى اخْتِلَافٍ فِي طَرِيقِهِ
 التَّنَاوُلِ بَيْنَ فَيْلَسُوفٍ وَآخَرَ . وَهَذِهِ قَضِيَّةٌ لَيْسَ هُنَا مَجَالُ بَحْثِهَا ، أَضَافَهُ إِلَى ذَلِكَ يُمَكِّنُ أَنْ نَضَعُ
 التَّصَوُّورَ الدِّينِيَّ فِي هَذَا النَّسَقِ أَي نَسَقِ الْخُلُقِ ، إِذْ هَذِهِ النَّظَرِيَّاتُ الثَّلَاثُ هِيَ الَّتِي كَانَتْ سَائِدَةً قَبْلَ
 اكْتِشَافِ نَظَرِيَّةِ الْإِنْفِجَارِ الْعَظِيمِ .

مَا يُهْمُنَا هُنَا هُوَ أَنَّ الْفُلْسَفَةَ الْحَدِيثَةَ بَمَنَاهِجِهَا الْمُتَعَدِّدَةَ لَمْ تَعَرَّ هَذِهِ النَّظَرِيَّةُ أَذْنَى اِهْتِمَامٍ يَذُكُرُ ، ذَلِكَ أَنَّ
 هَذِهِ النَّظَرِيَّةَ تَحْمِلُ طَابَعًا اشْكَالِيًّا فِي عَمَلِيَّةِ التَّثَبُّتِ الْقُصُوفِيِّ مِمَّا يُوقَعُ هَذِهِ النَّظَرِيَّةُ فِي إِطَارِ تَصَوُّرَاتِ
 الْعِلْمِ وَلَيْسَ حَقَائِقِ الْعِلْمِ . وَنَحْنُ نَعْلَمُ كَذَلِكَ إِنَّ الْفُلْسَفَةَ الْحَدِيثَةَ قَدْ تَجَاوَزَتْ مَقُولَاتِ الْفُلْسَفَةِ الْقَدِيمَةِ
 وَتَقاطَعَتْ مَعَهَا فِي كُلِّ مَقُولَاتِهَا ، إِذْ لَمْ يَبْقَ مِنْ هَذِهِ الْفُلْسَفَةِ الْقَدِيمَةِ إِلَّا صُورَةٌ بَاهِتَةٌ لَا تَصْلُحُ لِمُعَالَجَةِ
 مَشَاكِلِ الْعَصْرِ الرَّاهِنِ . قَدْ نَقُولُ إِنَّ الْعَدِيدَ مِنَ الْمَدَارِسِ الْفُلْسَفِيَّةِ الْآنَ قَدْ تَأَثَّرَتْ بِشَكْلِ كَبِيرٍ بِالنَّظَرِيَّاتِ
 الْفِيزِيَاءِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ الْحَدِيثَةِ وَصَاغَتْ مَقُولَاتِهَا بِنَاءً عَلَى تَتَابُحِ هَذَا الْعِلْمِ الَّذِي يَخْضَعُ لِلتَّجْرِبَةِ الْعِلْمِيَّةِ
 الْخَالِصَةِ وَخَرَجَتْ مِنْ هَذِهِ الْمَزَاجَةِ مَقُولَاتٌ غَايَةٌ فِي الْأَهْمِيَّةِ رَاحَتْ تَعْيِيرُ الْكَثِيرِ مِنْ وَجْهَاتِ النَّظَرِ عَنْ
 الْوُجُودِ بِشَكْلِهِ الْعَامِّ وَالْخَاصِّ . نَذُكُرُ مِنْهَا عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ لَا الْحَضْرَ نَظَرِيَّةَ الْكَمِّ ، أَيْ إِنَّ الضَّوِّيَّ سِيرَ
 بِشَكْلِ كَمِّيَّاتٍ فَهُوَ يُحْمَلُ خَاصِيَّتَيْنِ خَاصِيَّةِ الْمَادَّةِ ، وَخَاصِيَّةِ الطَّاقَةِ ، وَخَاصِيَّةِ الْمَادِيَّةِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ
 تَقْنَى بِقَانُونِ إِنَّ الْمَادَّةَ لَا تَقْنَى وَلَا تَسْتَحْدِثُ مِنَ الْعَدَمِ ، وَمِنْ هُنَا وَتَحْتَ ظُرُوفٍ غَايَةٌ فِي التَّعْقِيدِ يُمَكِّنُ
 إِعَادَةَ تَشْكِيلِ التُّجُومِ وَالْجِرَاتِ الَّتِي تَقْقَدُ مَقُومَاتٍ وَجُودَهَا أَوْ تَنْفَجِرُ ، فَهِيَ بِنَاءً عَلَى ذَلِكَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ
 تَقْنَى بِالْمَعْنَى الْعَامِّ وَالْخَاصِّ لِهَذَا الْمَفْهُومِ . إِذْ نِ الْكُونِ بِالنِّهَايَةِ وَبِنَاءً عَلَى هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ يَتَّصِفُ بِالْأَرَلِيَّةِ
 الْمُطْلَقَةِ وَتَتَلَاشَى فِكْرَهُ الْخُلُقَ تَمَامًا مِنْ هَذَا السِّيَاقِ . هُنَاكَ نَظَرِيَّةُ الْبُعْدِ الثَّلَاثِ فِي الزَّمَانِ ، تَدَاخُلُ
 الزَّمَانِ بِالْمَكَانِ ، هَذِهِ النَّظَرِيَّةُ غَيَّرَتْ مَفْهُومَ الزَّمَانِ الْمُطْلَقِ وَالزَّمَانِ الْوُجُودِيِّ وَغَيَّرَتْ مَفْهُومَ الْمَكَانِ بِمَعْنَاهِ
 الْعَامِّ وَالْخَاصِّ وَصَبَّحَ الْحَدِيثُ هُنَا عَنِ الزَّمَانِ النَّسْبِيِّ وَالْمَكَانِ النَّسْبِيِّ . هُنَاكَ أَيْضًا نَظَرِيَّةُ الطَّاقَةِ
 وَعَلَاقَتُهَا بِالْمَادَّةِ وَالسَّرْعَةِ وَهِيَ نَظَرِيَّةٌ مُهِمَّةٌ لِأَنَّهَا قَلَبَتْ مَفْهُومَ الْإِنْفِصَالِ بَيْنَ الْمَسْتَوِيَّاتِ الثَّلَاثِ رَأْسًا عَلَى
 عَقِبِ . إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ النَّظَرِيَّاتِ الْمُهَيِّمَةِ الَّتِي يُطَوَّلُ تَبَعُّهَا وَشَرْحُهَا فِي هَذِهِ الْعُجَالَةِ .

مَا يُهْمُنَا هُنَا هُوَ مَوْقِفُ الدِّينِ مِنْ قَضِيَّةِ الانفجار العظيم فقد هلت الأديان الثلاث الكبرى إلى هذا
الكشف المهم واعتبرت ذلك دليلاً لا يقبل الدحض على فكرتها عن خلق الكون لكن مع الفارق بين
أهمية التناؤل أو تعميق هذه الفكرة بين الأديان تلك .

فأما الدين اليهودي فتصوره يرجع إلى فكره إنبثاق الكون من تلك الإرادة السارية في فكر الله المسبق لذا
إنبثاق الوجود على هذه الشاكلة ولم يتحدث الفكر اللاهوتي اليهودي أبداً عن فكره العدم ذلك أن فكره
العدم والوجود كما صاغتها الفلسفة الأفلاطونية المحدثه لم يستطع كتبه اللاهوت في ذلك الوقت تقبلها
أو هضمها على نحو عميق وهي الفكرة التي سادت مع مدرسة الإسكندرية في وقت متقدم جداً .
أما في الجانب المسيحي فهي لم تعرف نظرية الخلق في جدها المهم إلا في وقت متأخر أي مع ظهور
الفلاسفة المسيحيين من أمثال اغسطونوس وتوما الاكويني وغيرهم .

أما في الجانب الإسلامي فقد أخذت هذه النظرية إبعاداً كبيرة وعناية في الأهمية حيث صدرت العديد
من الكتب والأبحاث ، وخصصت الكثير من الندوات والملتقيات الدينية إلى راحة تبشر بفتح عظيم
وكشف خطير وصل إليه العلم أخيراً في إثبات صحته ما أخبر عنه القرآن قبل أربعة عشر قرناً من
الزمان ، مما يدل دلالة قاطعة على صدق وصحة الرسالة الإسلامية . وقد استشهدوا بالعديد من
آيات القرآن التي راحوا يسقطون عليها آراءهم وطريقتهم بالفهم والتفكير :

(أولم ير الذين كفروا إن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا

يؤمنون) الأنبياء 30

وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى الْإِنْفِجَارِ الْعَظِيمِ ، أَيْ إِنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَاتَا مَطْوِيَاتٍ طَيِّءٍ عَلَى شَكْلِ كُرَةٍ فَحَدَّثَ
 هَذَا الْإِنْفِجَارِ الَّذِي فَضَّلُ الْأَرْضَ عَنِ السَّمَاوَاتِ ، وَهَذَا يُمَكِّنُ أَنْ نَبْشِرَ الْعَدِيدَ مِنَ الْأَسْئَلَةِ عَنِ مَعْنَى
 السَّمَاءِ ، وَعَنِ الْأَرْضِ فِي مُقَابِلِ السَّمَاءِ وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الْأَرْضَ تَكَادُ تَعْدِمُ إِذَا مَا قِيسَتْ فَقَطْ مَعَ مَجْرَةِ
 دَرْبِ النَّبَاتَةِ الَّتِي نَنْتَمِي إِلَيْهَا الْمَجْمُوعَةَ الشَّمْسِيَّةِ . ثُمَّ السُّؤَالُ الْكَبِيرُ عَنِ مَفْهُومِ الرَّتْقِ وَالْفَتْقِ إِذَا هُوَ لَا
 يُعْطِي هَذَا الْمَعْنَى فِي قَوَامِيْسِ اللُّغَةِ ، ثُمَّ عَنِ السِّيَاقِ الَّذِي تَوْضَعُ بِهِ نَصُّ الْآيَةِ . . . إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ .

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحَبِكِ) الذَّارِيَاتِ 47

وَهَذَا جَالُ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ فِي زَوَايَا الْكُونِ الْبَعِيدَةِ وَالْقَرِيبَةِ وَاطْلَعُوا عَلَى خَارِطَةِ الْكُونِ الْمُشْكَلَةِ عَلَى
 غِرَازِ التَّسْيِيحِ الْمُتَشَابِكِ ، وَالْمَعْقَدِ الْمُتَدَاخِلِ وَالْمُتْرَاكِبِ ، ثُمَّ اسْتَدْرَكُوا بِأَنَّ هَذَا الْإِنْفِجَارَ لَمْ يُحْدِثْ
 عَشَوَاتِيَا لِأَنَّهُ لَوْ حَدَّثَ بِهَذَا الشَّكْلِ لَكَانَ مَدْمَرًا وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُنْبِجَ هَذَا النِّظَامَ الرَّائِعَ وَالتَّوَاظِنَ الْكَامِلَ .
 وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يُحْدِثَ عَنِ إِرَادَةِ وَاعِيَةٍ وَلِغَايَةِ مَقْصُودَةٍ تَمَامًا .

(وَالسَّمَاءِ بَنِيهَا بِأَيْدٍ وَأَنَا لِمُوسِعُونَ)

وَهَذَا الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى تَمَدُّدِ الْكُونِ الْمُسْتَمِرِّ إِلَى مَا لَا نَهَايَةَ وَأَنَّهُ بُدًّا مِنْ نِقْطَةٍ مُعَيَّنَةٍ تَمَامًا ثُمَّ أَخَذَ بِالتَّمَدُّدِ
 وَالِاتِّسَاعِ .

هَذِهِ جُمْلَةٌ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ أَخَذْنَاهَا عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ وَلِنَلَاحِظَ كَذَلِكَ مَدَى الْإِهْتِمَامِ
 الْبَالِغِ الَّذِي أَوْلَاهُ عُلَمَاءُ التَّفْسِيرِ الْحَدِيثِ هُنَا . فِيمَا يُسَمَّى بِنَظَرِيَةِ الْأَعْجَازِ الْعِلْمِيِّ فِي الْقُرْآنِ . لَقَدْ وَقَعَ
 أَصْحَابُ نَظَرِيَةِ الْأَعْجَازِ هَذِهِ بِأَخْطَاءٍ كَبِيرَةٍ وَخَطِيرَةٍ وَهُمْ يُحَاوِلُونَ تَأْكِيدَ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أَشَارَ إِلَى

العديد من الآيات الكونية التي لم يكشف عنها العلم إلا في وقت متأخر من القرن الماضي ، وبالتالي فإن بين دفتيه دليل صدقه وصحته وصدق النبوة فمن أين للرّسول مُحَمَّدٍ هذه المعرفة بحقائق العلم الحديث لو لم يكن رسولاً مبلغاً من الله .

أن المشكلة تكمن في تورطات بالغة في الردّ على مسألة الإعجاز العلمي هذه وعلى النحو التالي :

. أن القرآن هو كتاب منبج وطريقة حياة للبشر . وليس كتاب في الفيزياء أو الكيمياء ، وهذا لا يمنع تماماً مشكلة الإشارة من قريب أو بعيد إلى حقائق العلم الحديث ولكن بمفهوم مختلف تماماً .

. يجب التدبر في التفسير الكلاسيكي للقرآن وخاصة في الجانب اللغوي والمعرفي المفهومي لهذه الآيات التي أشارت إلى حقائق العلم في العصر الحديث فستجد أن طريقة الفهم في هذين الجانبين مختلفة تماماً كذلك .

. لا تُعبّر الحقيقة القرآنية حقيقة علمية ، إلا إذا انقطع سبيل الفهم بكل مستوياته إليها . ونحن نعلم أن القرآن لم تستمر فيه معرفياً إلا الأحكام والجزء الكبير منه يخضع لعلم الفهم والتفسير والدلالة وتطور المعاني وعلم اللغة ، أذن هو يمرّ بمرحلة تطور كما قال عليّ بن أبي طالب (القرآن حمّال أوجه) (والقرآن لا ينطق وإنما ينطق به رجال) . (والقرآن لا تنقطع عجائبه) .

. لا تُعبّر الحقيقة العلمية حقيقة علمية إلا إذا تقطعت الأفهام إليها بشكل مطلق وهذا أمر واقع . إذ تظل الحقيقة العلمية . وما يرتبط بها يخضع لها ، فالعلم لا يقف عند شيء ولا ينتهي إلى حدود ، فهو في تطور مستمر ، فما هو حقيقة بالنسبة له اليوم قد لا يُعبّر كذلك في المستقبل .

وَهُنَا يُمَكِّنُ الْقَوْلُ أَنَّ نَظَرِيَّةَ الْأَنْفِجَارِ الْعَظِيمِ الَّتِي رَاحَ يُهَلِّلُ لَهَا أَصْحَابُ الْأَعْجَازِ الْعِلْمِيِّ . فِي تَأْكِيدِ رَأْيِهِمْ فِي خَلْقِ الْكَوْنِ عَلَى هَذِهِ الشَّكْلَةِ لَيْسَتْ بِمَنَى عَنِ التَّقَدُّمِ الْعِلْمِيِّ ذَاتِهِ وَالتَّقَدُّمِ الْفِكْرِيِّ الْعُقْلِيِّ . لَنَا أَنَّ نَقُولَ فِي التَّهَيِّاتِ أَنَّ مَسْأَلَةَ خَلْقِ الْكَوْنِ وَانْبِثَاقِهِ مِنَ الْعَدَمِ هِيَ مَسْأَلَةٌ لَا تَقَعُ تَحْتَ مَفَاهِيمِ الْعِلْمِ بِشَكْلِ نِهَائِيٍّ وَبِشَكْلِ مُطْلَقٍ وَإِنَّ التَّصَوُّرَاتِ الْفَلْسَفِيَّةَ الْإِيمَانِيَّةَ ظَلَّتْ تَقَدِّمُ صُورَةَ اقْتِرَابٍ بِكَثِيرٍ لِلتَّصَوُّرِ الذَّهْنِيِّ وَلَيْسَ الْمُنْطَقِيُّ الْجَدَلِيُّ . وَإِنْ كَانَتْ وَلَا تَزَالُ تَخْضَعُ لِلتَّقَدُّمِ بِتَجَاهَاتِهِ الْمُخْتَلِفَةِ .

إِشْكَالٌ مُتَعَدِّدَةٌ لِكَوْنٍ وَاحِدٍ حَسَبِ مَا وَجَدَهُ الْعُلَمَاءُ

الْكَوْنُ الْمُرْصُودُ

هَذَا هُوَ كُلُّ مَا تَسْتَطِيعُ مَعْدَاتُنَا رِصْدَهُ مِنَ الْفَضَاءِ وَمَا يَحْتَوِيهِ فِي الْوَقْتِ الْحَالِيِّ .

الْكَوْنُ الْقَابِلُ لِلرِّصْدِ

يُعْنِي الْكَوْنُ الْقَابِلُ لِلرِّصْدِ « كُلُّ مَا يَقَعُ فِي نِطَاقِ الْأُفُقِ »

الْكَوْنُ الْكُلِّيُّ

وَهَذَا يَشْمَلُ كُلَّ الْفَضَاءِ (الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ لِأَنْهَائِيًّا) ، دَاخِلُ أَفْقِنَا وَوَرَاءَهُ ، أَضَافُهُ إِلَى مَحْتَوَاتِهِ

الْكَوْنُ الْجَبِييُّ

هُوَ مَنطَقَةٌ مِنَ الْفَضَاءِ تَمْتَدُّ إِلَى حُدُودِ الْكَوْنِ الْقَابِلِ لِلرِّصْدِ الَّذِي تَرَاهُ الْيَوْمَ (وَالَّذِي قَدْ يَمْتَدُّ بِقَدْرِ بَعِيدٍ

لِلْغَايَةِ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ ، إِلَى مَا وَرَاءَ الْأُفُقِ) . لَكِنْ لَوْ أَنَّا نَسْكُنُ كَوْنًا جَبِيًّا

الكون المتعدد

بشكل تقريبي هذه هي تجميعه للأكوان الجيبية (ذات العدد اللانهائي على الأرجح) أضافه إلى الفجوات بينها . يُفضل بعض الكتاب هنا استخدام المصطلح « الكون الفائق » . سأتناول فكره الكون المتعدد في الفصل الأخيرة .

الكون المنحني

أن الفضاء منحني انحناء لا يمكن تقويمه ، ولن تفلح أي حيلة في جعله يتوافق مع قواعد الهندسة الإقليدية .

كون أينشتاين المنتهي لكن غير المحدود

ردود النصوص القرآنية على قول العلماء

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خُلِقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خُلِقَ أَنفُسُهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ الكهف

5I

إذا تأملنا هذه الآية الكريمة وفهمناها جيدًا واتبناها إلى خطابها الزمني البعيد سندرك بأنها كما وكان المعنى بها هو وقتنا هذا وكانت خصصت تخصيصًا للرد على ما يقوله العلماء اليوم في مسألة الكون أي

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَفُقِ التَّغْيِيرِ الْقُرْآنِيِّ وَالْعَجِيبِ أَنَّهَا تَضَمَّتْ مَوْضُوعًا آخَرَ يَطْرُقُهُ الْعِلْمُ وَالْعُلَمَاءُ فِي هَذَا الزَّمَنِ وَهُوَ حَدِيثُ السَّاعَةِ أَيْضًا وَهُوَ مَوْضُوعٌ خَلَقَ الْحَيَاةَ وَالْأَخْصَ وَجُودَ الْإِنْسَانِ وَمَا هُوَ عَقْلُهُ وَكَيْفَ يُفَكِّرُ وَهُوَ الْمَوْضُوعُ ذَاتَهُ الَّذِي تَذَكَّرَهُ الْآيَةُ (خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ) إِذَا فَخَلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلَقَ أَنْفُسَنَا هُمَا الْخَلْقَانِ اللَّذَانِ لَمْ يَشْهَدْ اللَّهُ أَحَدًا عَلَيْهِمَا (مَا أَشْهَدْتُمْ) تَعْنِي لَمْ يَخْتَارَهُمُ اللَّهُ شُهَدَاءً وَقَبِدَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلَقَ أَنْفُسَهُمْ لَيْسَ هَذَا فَحَسَبَ فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَدْعُونَ مَعْرِفَةَ ذَلِكَ الْخَلْقِ وَيَذْكُرُونَ تَفَاصِيلَهُ هُمْ (مُضِلِّينَ) قَطْعًا وَوَاهِمِينَ وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ وَيُفَسِّرُوهُ هُوَ لَيْسَ إِلَّا مُجَرَّدُ أَوْهَامٍ وَتَكْهِنَاتٍ .

فَالْتَصَّ الْقُرْآنِيُّ هَذَا مَوْضُوعًا بِشَكْلِ مُسْتَقِلٍّ وَلَمْ يَأْتِ فِي سِيَاقِ الْآيَةِ الَّتِي جَاءَتْ قَبْلَهُ وَالَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْ طَلَبِ اللَّهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ السُّجُودِ لِأَدَمَ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ [الكهف : 50] وَلَا الْآيَةَ الَّتِي بَعْدَهَا الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْ وَضْعِ الْكُفَّارِ فِي النَّارِ وَهُمْ يَتَلَاوَمُونَ ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ شُرَكَائِي الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴾ [الكهف : 52]

هَلْ يَعْنِي هَذَا أَنَّا تَهْجِمُ عَلَى الْعِلْمِ وَهُوَ أَرْقَى مَا وَصَلَ إِلَيْهِ الْعَقْلُ الْبَشَرِيُّ وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَطَالَمَا حَسْنَا عَلَى الْعِلْمِ وَالتَّعَلُّمِ وَالْجُؤَابِ قَطْعًا لَا لَكِنْ هُنَاكَ سُؤَالًا مُضَادًّا وَهُوَ هَلْ يَسْتَطِيعُ الْعِلْمُ الْيَوْمَ حَقًّا الْوُصُولَ إِلَى حَقِيقَةِ خُلُقِ الْكُونِ وَالْعَالِمِ وَيُعْطِي أَرْقَامًا وَتَفَاصِيلَ دَقِيقَةً وَهُوَ شَيْءٌ عَجَزَ عَنْهُ الْعَقْلُ الْبَشَرِيُّ فِي الْوُصُولِ إِلَيْهِ خِلَالَ كُلِّ مَرَا حِلِّ تَطْوِيرِهِ الدَّهْنِيِّ وَالْمَعْرِفِيِّ ؟

أهل العلم وخذهم وخاصةً الحديثين منهم هم وخذهم يستطيعون الرد على هذا السؤال وجوابهم سيكون مقتنعاً للجميع إذ من المفروض أن يكون ذلك لكونهم هم أصحاب الخبرة العلمية والدراسات التخصصية في مجالات العلوم سائت أذناه بعضاً من إجابات هؤلاء ولنرى ماذا تكلموا .

– مونيكا غراي أستاذة علوم الفضاء والكواكب في الجامعة المفتوحة في بريطانيا

مُلخَص عَن الْمَقَالِ الْمُنشُورِ لَهَا فِي صَفْحَةِ مَوْعِ [bbc](#) بِالْعَرَبِيِّ بِتَارِيخِ ١٢ مَارَسِ / ٢٠٢١

إِذَا كَانَ هُنَاكَ إِلَهٌ ، فَهَلْ سَتَكُونُ قُدْرَاتُهُ مُقَيَّدَةٌ بِقَوَاعِدِ الْفِيزِيَاءِ وَقَوَانِينِهَا ؟

"أنا الآن مُلحدٌ ، وكنت لا أزال أؤمن بوجود إله حتى سمعت خلال مشاركتي في ندوة ما ، سؤالاً طرِحَ فِي الْأَصْلِ مِنْ جَانِبِ الْعَالِمِ الْفِيزِيَاءِيِّ الشَّهِيرِ الْبُرْتِ أَيْنْشْتاين ، وَقَدْ شَعَرْتُ وَقْتِذَاكَ بِالذَّهْشَةِ إِزَاءَ رَشَاقَةِ هَذَا السُّؤَالِ وَعُمُقِهِ ، إِذْ يَقُولُ : إِذَا كَانَ هُنَاكَ إِلَهٌ خَلَقَ الْكُونُ بِأَسْرِهِ ، وَوَضَعَ كُلَّ مَا فِيهِ مِنْ قَوَانِينِ تَخْتَصُّ بِالْفِيزِيَاءِ وَالطَّبِيعَةِ ؛ هَلْ يَتَقَيَّدُ هَذَا الْإِلَهُ بِالْقَوَانِينِ الَّتِي وَضَعَهَا هُوَ نَفْسُهُ ؟ أَمْ أَنَّ بِمَقْدُورِهِ إِبْطَالُ مَفْعُولِ قَوَانِينِهِ ؛ كَانَ يَتَحَرَّكُ بِسُرْعَةٍ تَفُوقُ سُرْعَةَ الضَّوءِ ، مَا يَجْعَلُهُ قَادِرًا عَلَى الْوُجُودِ فِي مَكَاتِنَ فِي أَنْ وَاحِدٍ ؟ هَلْ يُمَكِّنُ أَنْ تَسَاعِدَنَا الْإِجَابَةُ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ ، عَلَى إِثْبَاتِ مَا إِذَا كَانَ هُنَاكَ إِلَهٌ أَمْ لَا ؛ أَمْ أَنَّنَا هُنَا بِصَدَدِ نُقْطَةِ تَقَاطُعِ فِيهَا الْإِيمَانِ الدِّينِيِّ بِالْمَنْطِقِ التَّجْرِبِيِّ الْعِلْمِيِّ ؛ دُونَ أَنْ تَكُونَ هُنَاكَ أَيُّ أَجَابَةٍ حَقِيقِيَّةٍ ؟ "

هَذَا السُّؤَالُ طَرَحَهُ دِيفِيدُ فَرُوسْت ، الْبَالِغُ مِنَ الْعُمُرِ ٦٧عَامًا ، مِنْ مَدِينَةِ لُوسِ أَنْجَلِيسِ الْأَمْرِيكِيَّةِ .

وَصَلَبِي السُّؤَالِ الْمُنْشُورِ أَغْلَاهُ ، خِلَالِ خِضُوعِي لِقِيُودِ الْإِغْلَاقِ الْعَامِّ الَّتِي فُرِضَتْ لِلْحَدِّ مِنْ تَقَشِّي وَبَاءِ كُورُونَا . شَعَرْتُ وَقْتِذَاكَ بِالذُّهُولِ ، فَالْتَوَقَّيْتُ كَأَنَّ مُنَاسِبًا لِأَسْئَلَةٍ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ ؛ إِذْ أَنَّ الْأَحْدَاثَ الْمَاسَاوِيَةَ كَالْأُوبَةِ ، غَالِبًا مَا تَدْفَعُنَا لِلتَّسَاوُلِ عَنِ مَسْأَلَةِ وُجُودِ آلَةٍ ؛ فَإِذَا كَانَ هُنَاكَ إِلَهُ رَحِيمٌ ، فَمَا السَّبَبُ يَا تُرَى فِي حُدُوثِ كَارِثَةِ كَهَذِهِ ؟ وَيَبْدُو مِنَ الْمُثِيرِ وَالْمَتَمِّعِ ، فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ ، أَنْ يَتَمَعَّنَ الْمُرءُ فِي إِبْعَادِ فِكْرِهِ أَنَّ الْآلَةَ ، رُبَّمَا يَكُونُ "مَقِيدًا" بِقَوَانِينِ الْفِيزِيَاءِ ، الَّتِي تَحْكُمُ كَذَلِكَ مَجَالِي الْكِيمِيَاءِ وَالْإِحْيَاءِ ، وَبِالتَّالِي الْعُلُومِ الطَّبِيَّةِ .

فَإِذَا لَمْ يَكُنْ الْآلَةُ قَادِرًا عَلَى كَسْرِ قَوَانِينِ الْفِيزِيَاءِ ؛ رُبَّمَا سَيَدْفَعُنَا ذَلِكَ لِلْقَوْلِ ، أَنَّهُ لَيْسَ بِالْقُوَّةِ الَّتِي يُتَوَقَّعُ مِنْ كَائِنٍ أَسْمَى وَأَعْلَى أَنْ يَكُونَ عَلَيْهَا . أَمَّا إِذَا كَانَ بِمَقْدُورِهِ تَجَاوُزَ هَذِهِ الْقَوَانِينِ ؛ فَلَمَّاذَا لَمْ نَشْهَدْ فِي الْكُونِ مِنْ قَبْلِ أَيِّ دَلِيلٍ يَبْتِ حُدُوثِ كَسْرِ لَأْيٍ مِنْ قَوَانِينِ الْفِيزِيَاءِ ؟

لِلتَّعَامُلِ مَعَ هَذَا السُّؤَالِ ، رُبَّمَا يَعْينُنَا عَلَيْنَا تَبْسِيطُهُ وَتَفْكِيكُهُ فِي الْبِدَايَةِ قَلِيلًا . بِدَايَةِ دَعْوَانَا نَسْأَلُ ؛ هَلْ يُمَكِّنُ لِلآلَةِ التَّحْرُكُ بِسُرْعَةٍ نَفَوْقَ سُرْعَةِ الضُّوءِ ، الَّتِي تَبْلُغُ 186 ألف ميلٍ فِي الثَّانِيَةِ (299 , 500 كيلومترٍ فِي الثَّانِيَةِ) ؟ لَعَلَّنَا نَذُكُرُ أَنَّآ نَتَعَلَّمُ فِي مَدَارِسِنَا ، أَنَّهُ لَا يُوجَدُ مَا يُمَكِّنُهُ الْحَرَكَةُ بِسُرْعَةٍ نَفَوْقَ سُرْعَةِ الضُّوءِ ،

لَكِنْ هَلْ ذَلِكَ صَحِيحٌ ؟ قَبْلَ بَضْعِ سَنَوَاتٍ ، اقْتَرَضَتْ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، أَنْ يُوَسَّعَ جُسَيْمَاتٍ افْتِرَاضِيَّةٌ يُحْمَلُ الْوَاحِدَ مِنْهَا اسْمُ تَاكِيُونِ ، التَّحْرُكُ بِسُرْعَةٍ نَفَوْقَ سُرْعَةِ الضُّوءِ . وَلِحَسَنِ الْحِظِّ ، مِنْ الْمُسْتَبْعَدِ لِلْغَايَةِ وَجُودِ مِثْلِ هَذِهِ الْجُسَيْمَاتِ عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ . فَمَنْ شَأْنُ وُجُودِهَا ، جَعَلُهَا ذَاتَ كُتْلَةٍ

مُتَخَيِّلَةً ، وَتَشْوِيهِ نَسِيحِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ حَوْلَهَا ، مَا يُؤَدِّي فِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ ، إِلَى انْتِهَاكِ قَوَاعِدِ قَانُونِ السَّبَبِيَّةِ .

وَهَكَذَا يَبْدُو حَتَّى الْآنَ عَلَى الْأَقْلِ ، أَنَّنَا لَمْ نَرصد وجودَ أَيِّ شَيْءٍ قَادِرٍ عَلَى الْحَرَكَةِ بِسُرْعَةِ تَفَوْقِ سُرْعَةِ الضَّوءِ . وَلَا يُشِيرُ ذَلِكَ فِي حَدِّ ذَاتِهِ ، إِلَى أَيِّ أَمْرٍ يَتَعَلَّقُ بِوُجُودِ اللَّهِ مِنْ عَدَمِهِ ، بَلْ يُؤَكِّدُ فَقَطْ مَا نَعْرِفُهُ عَنْ أَنَّ الضَّوءَ يَتَحَرَّكُ بِسُرْعَةِ فَائِئَةٍ بِالْفِعْلِ .

هَلْ يُمَكِّنُ لِلْفِيزِيَاءِ إِثْبَاتُ وُجُودِ اللَّهِ ؟

إِذَا كَانَ هُنَاكَ إِلَهٌ ؛ فسيطرح ذلك سؤالًا عمَّا إِذَا كَانَ سَيَتَقيد بالقوانين والقواعد العِلْمِيَّةِ ، كهوانين الفيزياءِ أَمْ لَا لَكِنِ الْأَمْرُ يُصْبِحُ أَكْثَرَ آثَارِهِ ، عِنْدَمَا نَفكر فِي الْمَسَافَةِ الَّتِي قَطَعَهَا الضَّوءُ مُنْذُ مِيلَادِ الْكُونِ ، أَوْ بِالْأُخْرَى مُنْذُ أَنْ وُجِدَ الْكُونُ الَّذِي يُمَكِّنُنَا إِذْرَاكِهِ ، قَبْلَ I3 . 8مليار سَنَةً . فوفقًا للنظرية التَّقْلِيدِيَّةِ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْ أَنَّ الْكُونُ نَشَأَ نَتِيجَةَ حُدُوثِ مَا يُعْرَفُ بـ "الانفجار العظيم" ، وبافتراض أَنَّ الضَّوءَ يَتَحَرَّكُ بِسُرْعَةِ 186مليون ميلٍ فِي الثَّانِيَةِ الْوَاحِدَةِ ، يُمَكِّنُنَا الْقَوْلُ أَنَّ الضَّوءَ قَطَعَ مُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ ، مَسَافَةَ قَدْرَهَا I3 وأمامها 22صفرًا مِنَ الْكِيلُومِتْرَاتِ .

وَفِي ضَوْءِ أَنَّ الْكُونُ يَتَمَدَّدُ بِمَعْدَلٍ يَصِلُ إِلَى 70كِيلُومِتْرًا فِي الثَّانِيَةِ لِكُلِّ مِليُونِ فَرَسَخٍ فَلَكي ، مَا يُعْنِي أَنَّ الْمَسَافَةَ إِلَى حَافَةِ الْكُونِ تَبْلُغُ بِالتَّقْدِيرَاتِ الْحَالِيَّةِ 46مِليُونِ سَنَةً ضَوْئِيَّةً ، وَبِنَاءِ عَلَى أَنَّ حَجْمَ الْفَضَاءِ يَزْدَادُ بِمُرُورِ الْوَقْتِ ، يُعْنِي كُلُّ ذَلِكَ ، أَنَّهُ بَاتَ يَتَعَيَّنُ عَلَى الضَّوءِ الْآنَ ، الْإِتِّقَالَ لِمَسَافَةِ أَطْوَلِ لِلْوُصُولِ إِلَيْنَا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، لَا بُدَّ أَنْ تَقْرَبَ أَنَّ الْكُونِ أَكْبَرَ بِكَثِيرٍ ، مِنْ تِلْكَ الْأَجْزَاءِ الَّتِي نَسْتَطِيعُ أَنْ نَرَاهَا مِنْهُ . فَابْعَدَ مَا يُمَكِّنُ أَنْ نَرصدَهُ فِيهِ ، مَجْرَةً يُطْلَقُ عَلَيْهَا اسْمُ "جِي أن - زد II" ، وَالَّتِي تَمَّ رَصْدُهَا بِاسْتِخْدَامِ

تلسكوب هابل الفضائي . وتقع هذه المجرة على بُعد نحو I3 . 4مليار سنة ضوئية من الأرض .
 بعبارة أخرى ، يستغرق الضوء I3 . 4مليون سنة ، للوصول إلينا قادمًا من تلك المجرة . المفارقة أنه
 عندما "انبعث" الضوء للمرة الأولى ، كان البعد بين هذه المجرة ، ومجرتنا "درب التبانة" ، لا يتجاوز قرابة
 ثلاثة مليارات سنة ضوئية .

ويشير ذلك إلى أنه ليس بوسعنا ، أن نرصد أو نرى ما يوجد في شتى أنحاء الكون ، من موجودات
 ظهرت منذ حدوث الانفجار العظيم ، نظرًا لأنه لم يمر بعد وقت يكفي لكي يصل إلينا الضوء المنبعث
 منها . ويقول البعض إن ذلك يحول دون أن يكون بمقدورنا التحقق ، مما إذا كانت قوانين الفيزياء سارية
 بشكلها الذي نعرفه في مختلف أرجاء الكون ، أم أنها "تتحرق" في بعض المناطق الكونية ، أو أن لكل
 منطقة قوانينها الفيزيائية الخاصة . ويقودنا ذلك في كل الأحوال ، للحديث عما هو أكبر من الكون نفسه

الأكوان المعددة

يعتقد الكثير من علماء الكونيات ، أن كوننا قد يكون مجرد جزء من كون أكثر اتساعًا ، أو من "وجود
 معدد الأكوان" ، تتعاش فيه أكوان مختلفة دون أن تتفاعل مع بعضها بعضًا . وتبدو هذه الفكرة ،
 مدعومة بنظرية "التضخم الكوني" ، التي تشير إلى أن الكون تضخم بشكل هائل ، وفي غضون الثانية
 الأولى من عمره . وتكسب هذه النظرية أهميتها من كونها ، تقدم تفسيرًا للسبب الذي يجعل الكون ،
 يأخذ الشكل والبنية التي نراها الآن من حولنا .

لكن إذا كان هذا التضخم قد حدث من قبل مرة ؛ فما الذي يمنع أن يحدث مرات عديدة ؟ بجانب
 ذلك ، نعلم من خلال التجارب العلمية ، أن حدوث ما يعرف بـ "التموج الكمي" ، يمكن أن يؤدي إلى

ظُهُورِ أَرْوَاحِ مِنَ الْجَسِيْمَاتِ بِشَكْلِ مُفَاجِئٍ ، فَفَطَّ لِتَحْتَفِي بَعْدَ لَحْظَاتٍ قَلِيْلَةٍ . وَهَكَذَا فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ "الْمَوْجَاتِ" ، قَدْ نَفُضِي لِظُهُورِ جُسِيْمَاتِ ، فَلِمَ لَا يَنْجُمُ عَنْهَا أَنْ تَرَى وِلَادَةَ ذَرَّاتٍ أَوْ حَتَّى أَكْوَانٍ بِأَسْرِهَا ؟ بَلْ إِنَّهُ يُقَالُ أَنَّ فِتْرَةَ التَّضَحُّمِ الْعَشَوَائِيِّ لِلْكَوْنِ ، شَهِدَتْ تَبَايُنًا فِي مَعْدَلَاتِ اتِّسَاعِ وَتَمَدُّدِ مَكْوَنَاتِهِ ، إِذْ أَنَّ "الْمَوْجِ الْكَمِّي" ، كَانَ يُقَوِّدُ لِظُهُورِ فِقَاعَاتِ ، يُمَكِّنُ أَنْ تَنْفَجِرَ لِیُصْبِحَ كُلُّ مِنْهَا كُوْنًا فِي حَدِّ ذَاتِهِ .

لَكِنْ كَيْفَ تَتَلَاءَمُ مَسْأَلَةُ وُجُودِ اللَّهِ مَعَ نَظَرِيَّةِ الْأَكْوَانِ الْمُتَعَدِّدَةِ ؟ فِي الْبَدَايَةِ ، يَتَعَيَّنُ عَلَيْنَا الْإِشَارَةُ ، إِلَى أَنَّ مَنْ بَيْنَ الْأُمُورِ الْمُزْعِجَةِ لِعُلَمَاءِ الْكُوْنِيَّاتِ ، حَقِيْقَةً إِنْ كُوْنُنَا يَبْدُو وَكَانَهُ أَعَدَّ بِدِقَّةٍ بِالْغَاةِ لِكَيْ تُوْجَدُ فِيهِ الْحَيَاةُ بِصُورَتِهَا الْحَالِيَّةِ . فَالْجَسِيْمَاتِ الْأَسَاسِيَّةِ الَّتِي نَشَأَتْ بِفِعْلِ حُدُوثِ "الانْفِجَارِ الْعَظِيْمِ" اِحْتَوَتْ عَلَى الْخَصَائِصِ اللَّازِمَةِ لِتَكُوْنِ الْهَيْدُرُوجِيْنَ وَالدِّيُوْتِيْرِيَوْمِ ، وَهُمَا الْعَنْصُرَانِ اللَّذَانِ تَشَكَّلَتْ مِنْهُمَا النُّجُومُ الْأُولَى عَلَى الْإِطْلَاقِ .

وَمَوْجِبَ قَوَائِنِ الْفِيْزِيَاءِ الَّتِي تَحْكُمُ التَّفَاعُلَاتِ التَّوَوِيَّةِ الَّتِي شَهِدَتْهَا هَذِهِ النُّجُومِ ، ظَهَرَتْ الْمَوَادُّ الَّتِي تَكُوْنَتْ مِنْهَا الْحَيَاةُ ؛ وَهِيَ الْكَرْبُوْنُ وَالنِّيْتْرُوجِيْنَ وَالْأَكْسِجِنِ . فَكَيْفَ تَسْنَى إِذَا أَنَّ تَكُوْنُ كُلُّ الْقَوَائِنِ وَالْمَعَايِرِ الْفِيْزِيَاءِيَّةِ فِي الْكُوْنِ ، عَلَى شَاكْلِهِ سَمَحَتْ لِلنُّجُومِ وَالْكَوَاكِبِ بِالتَّشَكُّلِ ، وَقَادَتْ لِظُهُورِ الْحَيَاةِ فِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ ؟

هُنَا يَذْهَبُ الْبَعْضُ لِلْقَوْلِ ، أَنَّ الْأَمْرَ لَا يَبْدُو سِوَى مُصَادَفَةِ سَعِيْدَةٍ . بَلْ وَيَرَى آخَرُونَ مِنْهُمْ ، أَنَّهُ لَا يَتَعَيَّنُ عَلَيْنَا أَنَّ مُفَاجِئًا إِذَا رَأَيْنَا قَوَائِنَ فِيْزِيَاءِيَّةِ "صَدِيْقَةٍ لِلْبِيئَةِ" ! فَتَقَدَّ أَدَّتْ هَذِهِ الْقَوَائِنِ وَالْقَوَاعِدِ ، إِلَى أَنَّ نُخَلِّقَ نَحْنُ أَنْفُسِنَا ، فَمَاذَا بَوَسَعْنَا أَنْ تَرَى أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ غَرَابَةً ؟ مِنْ جَانِبِهِمْ ، يُرَى بَعْضُ الْمُؤْمِنِيْنَ بِوُجُودِ اللَّهِ ، أَنَّ ذَلِكَ يُشِيرُ إِلَى أَنَّ هُنَاكَ إِلَهًا ، وَفَرِ الطَّرُوفِ الْمَلَامَةِ لِظُهُورِ الْحَيَاةِ .

لكن وجود الله لا يُشكل تفسيراً مقبولاً للامر من الوجهة العلمية . هنا يبدو أنّ نظرية وجود أكوان مُعدّدة ، تُشكل حللاً لهذا اللغز ، لأنّ القبول بها يعني أنّه يُمكن أن يكون لهذه الأكوان المُختلفة ، قوانين مُباينة بدورها . ويعني ذلك ، أنّه من الجائز أن يتصادف أننا موجودون في واحدٍ من الأكوان القليلة ، التي تسودها ظروف تلاءم حياتنا بشكلها الحالي . لكن لا يُمكن للمرء هنا ، دحض فكره أنّ هناك إلهًا ، ربّما يكون قد خلق هذه الأكوان المُعدّدة بدورها .

يُبد أنّ كلّ ما سبق لا يعدو سوى افتراضات مُحضة إلى أبعد حدّ . فمن بين أكثر الانتقادات ، التي توجه للنظريات التي تبني فكره "الأكوان المُعدّدة" ، أنّ عدم وجود تفاعل - على ما يبدو - بين كوننا وبين هذه الأكوان المُقرضة ، يجعلنا غير قادرين على اختبار فكره وجودها ، بشكل مباشر .

غرابة "الكم"

دعونا ننتقل الآن إلى بحث فكره ما إذا كان بمقدور الله الوجود في أكثر من مكان ، في أنّ واحدٍ من عدمه . لعلّ علينا الإشارة أولاً هنا ، إلى أنّ الجانب الأكبر من النظريات العلمية والتقنيات ، التي نستخدمها في علوم الفضاء ، يستند إلى نظرية تبدو غير بديهية للوهلة الأولى ، وتُعرف باسم "ميكانيكا الكم" ، وتركز على ذلك العالم الزاخر بالأشياء دقيقة الحجم للغاية ، من قبيل الذرات والجسيمات .

- توماس كون في كتابه "بنية الثورات العلمية" أنّه لم يكنف بالحديث عن محدودية العلم وقدرته التفسيرية وحسب ، وإنما تطرّق إلى البنى الكلية التي يقوم ويتأسس عليها العلم ذاته ، وكيف تختلف قدره العلم التفسيرية حين تختلف زاوية النظر أو ما أطلق عليه "البرادينغ" ، وهو - على حسب تعبيره - "أننا نفسر الافتراض بإسناده إلى معناه ، والذي قد نقبله أو نرفضه وفقاً لموقفنا النهائي من الحياة" ، وهذا

"البراديجم" (قناعة فزديته شخصيَّة بمسأة علميَّة تقوم على تبني التبيجة وفق ما تكون عليه قناعتنا الفكريَّة
(ينشأ من فلسفة إيمانية أو دينيَّة أو حتى الحاديَّة ، لكنَّهُ لا ينشأ في الفراغ ، وبأختلاف البراديجم يختلف
المنتج العلمي ، بل تختلف نظرتنا للكون ذاته .

ويُضيف كون : فمحدودية العلم لا تعني - بحسب كون - عدم قدرته على الإجابة عن كل مناحي
الوجود وحسب ، وإنما تعني كذلك اختلاف العمليَّة التفسيرية ذاتها باختلاف البراديجم الذي يُنظر من
خلاله المرء ، فنيوتن - على سبيل المثال - حين فسّر حركة الأفلاك السماويَّة ، جعل لتفسيره أساساً
دينيّاً بحكم كونه لاهوتياً مسيحياً ، وضرب مثلاً لتفسيره للعالم مع الآلة بصانع الساعات الذكي [د] ، أمّا
لابلاس فحين رصد مجرات الأفلاك وحركتها أعلن حينها أن العالم يُمكنه الآن العيش دون الآلة ، إذ أنه لم
يكن مؤمناً بالآلة للعالم من الأساس .

- ويذهب الأميركي ديفيد برلنسكي في كتابه "وهم الشيطان" ليرصد كيف تمّ توظيف العلموية كبديل
عن الدين والفلسفة في خطاب الإلحاد المعاصر ، وذلك بعدما تمّ رفع العلم فوق رتبته ، واعتبار
أحكامه نهائية وراسخة وقادرة على حل كل المعضلات .

- وهذا ما حدّا بالفيزيائي الأميركي الحاصل على نوبل ستيفن واينبرغ إلى القول : "إنه من الرائع أن نجد
في قوانين الطبيعة خطه أعدها خالق مهمّ وتؤدي فيها الكائنات البشريَّة دوراً متميزاً ، وأنا أشعر
بالحزن عندما أشك في ذلك ، ومن زملائي العلميين نفر يقولون بأن التأمل في الطبيعَة يُعطيهم اكتفاءً
روحياً ، أمّا أنا فلا" ، لا يكفي واينبرغ بذلك فحسب ، بل يشكك في قدره العلم على السيطرة على
كل مناحي الكون فيقول في كتابه عن نشأة الكون : "طبعاً ليس لدينا يقين مُطلق في هذا المجال .

- سَأَلْتُ مَسَاعِدِي الذِّكْرِيَّ وَأَسْمُهُ مُونِيكَ بَعْضِ الْأَسْئَلَةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِهَذَا الْمَوْضُوعِ

هَلْ يَسْتَطِيعُ الْعِلْمُ الْيَوْمَ حَقًّا الْوُصُولَ إِلَى حَقِيقَةِ خُلُقِ الْكُونِ وَالْعَالَمِ ؟

لَا يُمَكِّنُ لِلْعِلْمِ حَالِيًّا الْوُصُولَ إِلَى حَقِيقَةِ خُلُقِ الْكُونِ وَالْعَالَمِ بِشَكْلِ كَامِلٍ ، لِأَنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ تَتَجَاوَزُ قُدْرَاتِ الْإِنْسَانِ وَأَدَوَاتِهِ الْحَالِيَّةَ .

مَا هِيَ التَّقْنِيَّاتُ الْحَدِيثَةُ الَّتِي يَسْتُخْدِمُهَا الْعُلَمَاءُ لِفَهْمِ أَصْلِ الْكُونِ ؟

يَسْتُخْدِمُ الْعُلَمَاءُ الْعَدِيدُ مِنَ التَّقْنِيَّاتِ الْحَدِيثَةِ لِفَهْمِ أَصْلِ الْكُونِ ، مِنْهَا :

التَّلْسُكُوبَاتُ الْفَضَائِيَّةُ وَالْأَرْضِيَّةُ لِدِرَاسَةِ الْكَوَاكِبِ وَالنُّجُومِ وَالْمَجْرَاتِ .

الْمُحَاكَاةُ الْحَاسُوبِيَّةُ لِنَمْدَجَةِ تَطَوُّرِ الْكُونِ وَالْكَوَاكِبِ وَالنُّجُومِ .

تَجَارِبُ الْفِيْزِيَاءِ عَلَى الْجُسَيْمَاتِ الصَّغِيرَةِ فِي الْمَعَامِلِ ، مِثْلَ تَجْرِبَةِ الْبُوسُونِ الْكَبِيرِ فِي سُوَيْسِرَا

دِرَاسَةُ الْأَشْعَةِ الْكُوَيْبِيَّةِ وَالْأَشْعَةِ السَّيْنِيَّةِ وَالْأَشْعَةِ فَوْقَ الْبَنْفَسَجِيَّةِ وَالْأَشْعَةِ تَحْتَ الْحَمْرَاءِ وَغَيْرِهَا مِنْ

إِشْكَالِ الْإِشْعَاعِ لِفَهْمِ بِنْيَةِ الْكُونِ .

دِرَاسَةُ الثُّقُوبِ السُّودَاءِ وَالْمَجْرَاتِ وَالْمَادَّةِ الْمُظْلَمَةِ لِفَهْمِ كَيْفِ تَفَاعُلِ الْكُونِ مَعَ بَعْضِهِ الْبَعْضُ .

مَا هِيَ الْأَسْئَلَةُ الَّتِي لَا يَزَالُ الْعِلْمُ يُحَاوِلُ الْإِجَابَةَ عَنْهَا فِيمَا يَتَّعَلَقُ بِأَصْلِ الْكُونِ ؟

لَا يَزَالُ الْعِلْمُ يُحَاوِلُ الْإِجَابَةَ عَلَى الْعَدِيدِ مِنَ الْأَسْئَلَةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِأَصْلِ الْكُونِ ، مِنْهَا :

مَا هُوَ الشَّكْلُ الدَّقِيقُ لِلْكَوْنِ وَهَلْ هُوَ مُحْدُودٌ أَمْ لَا ؟

مَا هِيَ طَبِيعَةُ الْمَادَّةِ الْمُظْلَمَةِ وَالطَّاقَةِ الْمُظْلَمَةِ وَكَيْفَ تُؤَثِّرُ عَلَى تَطَوُّرِ الْكَوْنِ ؟

مَا هِيَ الْعَلَاقَةُ بَيْنَ الْجَاذِبِيَّةِ وَالطَّاقَةِ وَالْمَادَّةِ ؟

مَا هِيَ الظُّرُوفُ الَّتِي آدَّتْ إِلَى حُدُوثِ الانفجارِ الْعَظِيمِ وَتَطَوُّرِ الْكَوْنِ ؟

هَلْ كَانَ هُنَاكَ عَوَالِمٌ أُخْرَى قَبْلَ الْكَوْنِ الْحَالِيِّ ؟

مَا هِيَ طَبِيعَةُ الزَّمَنِ وَالْمَكَانِ وَكَيْفَ يَتَفَاعَلَانِ مَعَ بَعْضِهِمَا ؟

هَذِهِ بَعْضُ الْأَسْئَلَةِ الَّتِي لَا يَزَالُ الْعِلْمُ يُحَاوِلُ الْإِجَابَةَ عَنْهَا ، وَرَبَّمَا تَظْهَرُ أَسْئَلَةٌ جَدِيدَةٌ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مَعَ تَطَوُّرِ التَّقْنِيَّاتِ وَزِيَادَةِ فَهْمِنَا لِلْكَوْنِ .

لَا أُرِيدُ أَنْ أَتَوَسَّعَ أَكْثَرَ فِي اخْتِيَارِ إِجَابَاتٍ عِلْمِيَّةٍ عَلَى سُؤْلِنَا هَلْ اسْتَطَاعَ الْعِلْمُ وَالْعُلَمَاءُ حَقًّا الْوُصُولَ إِلَى مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ لِنَشَاةِ الْكَوْنِ الْجَوَابِ هُوَ لَا هُنَاكَ مِائَاتُ الشَّوَاهِدِ الَّتِي قَالَهَا الْعُلَمَاءُ الْمُتَخَصِّصِينَ فِي هَذَا الْمَجَالِ الَّتِي تَقُولُ إِنَّ الْعِلْمَ كَمَا الْعَقْلُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَصِلَ إِلَى شَيْءٍ فِي مَجَالَيْنِ اثْنَيْنِ خُلِقَ الْكَوْنُ وَسِرِّ الْحَيَاةِ وَمَغْزَى وَمَفْهُومِ الْعَقْلِ وَالْوَعْيِ عِنْدَ الْإِنْسَانِ .

تَعْرِيفُ النَّظَرِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ : النَّظَرِيَّةُ الْعِلْمِيَّةُ هِيَ تَفْسِيرٌ مَدْعُومٌ بِالْأَدَلَّةِ وَالتَّجَارِبِ وَالمَلاحِظَاتِ الَّتِي تَمَّ جَمْعُهَا وَتَحْلِيلُهَا بِطَرِيقَةٍ مَنَهْجِيَّةٍ وَعِلْمِيَّةٍ ، وَتُسَاعَدُ عَلَى فَهْمِ طَبِيعَةِ الظُّوَاهِرِ وَالْأَحْدَاثِ فِي الْكَوْنِ . تُعْبَرُ النَّظَرِيَّةُ الْعِلْمِيَّةُ أَعْلَى مُسْتَوَى مِنَ التَّفْسِيرِ الْعِلْمِيِّ ، حَيْثُ تَمَثَّلُ فَهْمًا مُتَكَامِلًا لِظَاهِرِهِ مُعَيَّنَةً أَوْ مَجْمُوعَةً مِنَ الظُّوَاهِرِ ، وَتَشْمَلُ قَوَانِينِ وَنظَرِيَّاتِ وَفَرُوضًا عِلْمِيَّةً . وَتَمَيَّزُ النَّظَرِيَّةُ الْعِلْمِيَّةُ بِأَنَّهَا قَابِلَةٌ لِلتَّحَقُّقِ وَالْفَتْحِصِ الْعِلْمِيِّ الْمُسْتَمَرِّ ، وَقَدْ تَغَيَّرَ أَوْ تَطَوَّرَ مَعَ ظُهُورِ أَدَلَّةٍ جَدِيدَةٍ أَوْ تَجَارِبِ جَدِيدَةٍ .

أهم ما نريده من هذا التعريف هو أنها تتغير مع ظهور أدلة جديدة أو تجارب جديدة ومعنى التغير أو التغيير هنا هو حدوث أمر جديد قد يعدلها أو يقويها أو يبطلها وبلغها من أساسها والسبب في ذلك أنها تقوم على ملاحظات علمية مستقاة من الظواهر والأحداث فأي ظهور لحدث أو كشف جديد يسبب في تغيير النظرية .

مثال على نظرية التطور

تواجه نظرية داروين للتطور العديد من الانتقادات والتقدم في الوقت الحالي ، ومن بين هذه النقاط :
عدم توافق بعض الأدلة الجينية مع بعض جوانب نظرية داروين ، مثل نظرية المورثات والتي تشير إلى أن التغيرات الوراثية لا يمكن أن تحدث بشكل عشوائي تمامًا .

عدم وجود أدلة كافية على بعض جوانب النظرية ، مثل نظرية المصادفة العشوائية والتي تشير إلى أن التغيرات الوراثية تحدث بشكل داخلي ولا يوجد أي تأثير خارجي يؤثر عليها .

اختلاف الآراء بشأن إثبات التطور والتي لا تزال غير مفهومه بشكل كامل .

عدم وجود أدلة كافية على بعض العمليات التي يحدث فيها التطور ، مثل تكون الخلايا وظهور حياة جديدة في الكون .

لكن بعض الذين يعززون داروين اليوم يقولون إن الرجل أقام نظريته على ما كان متوقفاً لديه من المعطيات والملاحظات العلمية وهي صالحة لذلك الوقت أما اليوم هناك علوم الوراثة واكتشفت المورثات والشريط الوراثي الذي هو عبارة عن هيكل داخل خلايا الكائنات الحية يحتوي على الجينات

والمعلومات الوراثية التي تحدد سمات الكائن الحي . ويتكون الشريط الوراثي من سلاسل طويلة من الحمض النووي (DNA) الملفوفة حول بروتينات معينة ، وتكرر هذه السلاسل بشكل متكرر لتشكيل الجينات .

وتختلف عدد وشكل الشرائط الوراثية من كائن حي إلى آخر ، ويختلف شكل هذه الشرائط أيضا بين الأنواع المختلفة . وتعد دراسة الشرائط الوراثية من أهم المجالات في البيولوجيا الجزيئية ، حيث تساعد على فهم كيفية نقل الصفات الوراثية بين الأجيال وكيفية التطور والتكيف في الكائنات الحية .

فقدت نظريته الأسس العلمية التي أقام عليها لظهور أدلة جديدة وبالتالي أصبحت نظرية التطور متضاربة تماما ما تم الكشف عنه من حقائق ومكتشفات في المجال الحيوي .

نتيجة

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَسْبِيحُوا لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

شَهِيدٌ ﴿ [فصلت : 53]

أَنَّ هَذَا التَّصَوُّرُ الْقُرْآنِيُّ يَحْتَوِي إِجَابَاتٍ كَثِيرَةً وَيَكْفِي بِنَا أَنْ نَأْخُذَ بِهَا وَهِيَ قَوْلُ الَّذِي خَلَقَ وَأَنْطَقَ هُوَ الْفَاعِلُ وَالْخَالِقُ وَالْقَادِرُ لَمْ يَتَّخِذْ شَرِيكَاً يُسَاعِدُهُ وَلَمْ يُسَمِّ أَحَداً لِيَكُونَ شَاهِداً يَوْمَ خَلَقَ الْكَوْنُ وَالْخَلْقَ فَبِئْسَ هَذَا التَّصَوُّرُ أَجَابَهُ لِلَّذِينَ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ كُلَّ شَيْءٍ عَنِ الْكَوْنِ وَعَنِ الْإِنْسَانِ قَالَ لَهُمْ رَبُّهُمْ لَمْ تَكُونُوا شُرَكَاءَ مَعَهُ وَلَمْ يَتَّخِذْكُمْ شُهَدَاءَ عَلَىٰ فِعْلِهِ وَمَا يَفْعَلُهُ وَمَا سَيَفْعَلُهُ وَفَوْقَ ذَلِكَ فَإِنَّ اللَّهَ الَّذِي أَرَاهُمْ هَذَا

الْخُلُقِ الْعَظِيمِ سَيْرِهِمُ الْمَزِيدِ وَالْمَزِيدِ مِنْهُ وَسَيَكْتَشِفُونَ زَمَنًا بَعْدَ زَمَنِ عَظْمِهِ خَلَقَ اللَّهُ وَقُدْرَتِهِ وَسَوْفَ
يَبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ وَخُدَّهُ هُوَ الْخَالِقُ وَالْفَاعِلُ وَالْمَصُورُ .

وَفِيهِ أَجَابَهُ عَامَّةٌ لِكُلِّ مَنْ لَا يُفَكِّرُ وَيُعَبِّرُ مِنْ أَنَّ لِلَّهِ بَصَمَاتٍ وَاصِحَّةٍ فِي كُلِّ مَا خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ
وَفِي أَنْفُسِنَا يَشْهَدُ عَلَيَّ أَنَّ الَّذِي خَلَقَهُ هُوَ اللَّهُ لَا يَنْطِقُ بِذَلِكَ نَطْقًا لَكِنْ إِتْقَانَهُ وَغَايَتَهُ وَأَسْرَارَهُ يَقُولُ ذَلِكَ
أَنَّ الْأَمْرَ لَا يَحْتَاجُ إِلَى كُلِّ هَذِهِ النَّظَرِيَّاتِ وَالْبُرَاهِينِ وَالتَّحْلِيلَاتِ وَالْفَلَسَفَاتِ وَالتَّوَقُّعَاتِ لَتَعْرِفَ سِرَّ الْخُلُقِ
وَلَنْ تَعْرِفَهَا بِكُلِّ مَا ذَكَرَ فَالْكَوْنُ نَاطِقٌ فَعَلِيٌّ وَشَاهِدٌ حَيٌّ وَثَابِتٌ عَلَى عَظْمَةِ صَنَعِ اللَّهِ وَخَلْقِهِ وَ ﴿ هَذَا
خُلُقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [لقمان : II]

أَنَّ كَلِمَةَ الضَّلَالِ وَالتِّيهِ مِنْ الصِّفَاتِ الَّتِي يُلْحِقُهَا اللَّهُ بِأُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ أَنَّهُمْ عَرَفُوا أَكْثَرَ مِمَّا يَعْرِفُهُ اللَّهُ
وَاللَّهُ يَقُولُ لَهُمْ دَائِمًا وَأَبَدًا أَنْتُمْ فِي تِيهِ وَضَلَالٍ وَلَقَدْ كَذَّبْتُمْ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى النَّاسِ وَعَلَى أَنْفُسِكُمْ .

وَحِينَمَا دَعَانَا إِلَٰهَا لِلتَّفَكُّرِ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَمْ يَدْعُونَا لِمَعْرِفَةِ كَيْفِ خَلْقٍ وَصَنَعٍ وَتَفَاصِيلِ ذَلِكَ
وَهُوَ عَالِمٌ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّنَا لَنْ نَصِلَ إِلَى حَقِيقَةِ ذَلِكَ وَلَوْ اجْتَمَعَ مَعَ الْإِنْسِ عَالِمُ الْجِنِّ كُلُّهُ بِسَبَبِ اسْتِحَالَةِ
ذَلِكَ وَحَتَّى لَا نَصِلَ وَتِيهِ دَعَانَا لِنَتَأَمَّلَ عَظْمَةَ خَلْقِهِ الَّذِي يَبْهَرُنَا وَدِقَّةَ وَجَمَالَ صَنَعِهِ الَّذِي تَحِيرُنَا فَتَقُولُ
كَمَا أَرَادَ لَنَا أَنْ نَقُولَ ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَفُجُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَمِنَّا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : I9I]

نَشْأَةُ الْكَوْنِ وَفَقُّ التَّصَوُّرِ التَّوْرَاتِيِّ

سَمِعْتُ مَا ذَكَرْتَهُ التَّوْرَةَ حَوْلَ مَسْأَلَةِ الْخُلُقِ أَنَّ الْآيَاتِ الَّتِي أُشِيرَ لَهَا عَلَيَّ خُلُقِ الْكَوْنِ قَلِيلٌ نَكَادٌ نَحْصِيهَا
فِي الْآيَاتِ الْمَذْكُورَةِ أَذْنَاهُ فِي سَفَرِ التَّكْوِينِ .

التَّكْوِينِ I : I

فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ

التَّكْوِينِ I : 20

ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ : « لِمَتَلِي الْمِيَاهُ بِشَى الْحَيَوَانَاتِ الْحَيَّةِ وَتَحَلِقِ الطُّيُورُ فَوْقَ الْأَرْضِ عَبْرَ فِضَاءِ السَّمَاءِ » .

التَّكْوِينِ I : 2I

وَهَكَذَا خَلَقَ اللَّهُ الْحَيَوَانَاتِ الْمَائِيَّةَ الضَّخْمَةَ ، وَالْكَائِنَاتِ الْحَيَّةَ الَّتِي امْتَلَأَتْ بِهَا الْمِيَاهُ ، كُلًّا حَسَبَ أَجْنَاسِهَا ، وَأَيْضًا الطُّيُورَ وَفَقًّا لِأَنْوَاعِهَا . وَرَأَى اللَّهُ ذَلِكَ فَاسْتَحْسَنَهُ .

التَّكْوِينِ I : 24

ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ : « لِيُخْرِجِ الْأَرْضَ كَائِنَاتِ حَيَّةً ، كُلًّا حَسَبَ جِنْسِهَا ، مِنْ بَهَائِمٍ وَرِزَاحِفٍ وَوُحُوشٍ وَفَقًّا لِأَنْوَاعِهَا » . وَهَكَذَا كَانَ .

التَّكْوِينِ I : 26

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ : « لِنُصْنَعِ الْإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا ، كَمَا لَنَا ، فَيَتَسَلَطَ عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ ، وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ ، وَعَلَى الْأَرْضِ ، وَعَلَى كُلِّ زَاحِفٍ يَرْحَفُ عَلَيْهَا » .

التَّكْوِينِ I : 27

فَخَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ . عَلَى صُورَةِ اللَّهِ خَلَقَهُ . ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ .

ثُمَّ جَبَلَ الرَّبُّ إِلَهُ آدَمَ مِنْ تُرَابِ الْأَرْضِ وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ ، فَصَارَ آدَمُ نَفْسًا حَيَّةً .

التصور القرآني لخلق العالم ونشأته

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ ﴾ [الدخان : 38]

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ ﴾ [الأنبياء : 16]

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ص 27

عَلَيْنَا أَنْ تَذَكَّرَ كِتَابَ اللَّهِ لَيْسَ كِتَابَ بَشَرِي وَإِنَّمَا هُوَ مُوجَّهٌ لِلْبَشَرِ وَعَلَيْهِ فَإِنَّهُ لَا يُشْبَهُ أَيُّ كِتَابٍ آخَرَ
كَلِكِتَابِ الْمُدْرَسِيِّ أَوْ الْكِتَابِ الْأَدَبِيِّ أَوْ الْعِلْمِيِّ الَّذِي يَتِمُّ إِخْرَاجُهُ وَفَقَ تَقْسِيمَاتٍ مُعَيَّنَةٍ كَالْأَبْوَابِ
وَالْفُصُولِ وَالْفَهْرَسِ وَغَيْرِهَا لِذَلِكَ لَا نَجِدُ التُّصُوصَ الدَّالَّةَ عَلَى خُلُقِ الْعَالَمِ وَالسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سُورَةِ
وَاحِدَةٍ تَبَيَّنَ آيَاتِ الْخُلُقِ بِشَكْلِ مُتَسَلِّسٍ وَهَذِهِ الْآيَاتُ مُنْتَشِرَةٌ فِي سُورٍ مُتَنَوِّعَةٍ وَعَدِيدَةٍ وَيُمْكِنُ
اسْتِخْرَاجُهَا بِسُهُولَةٍ .

قِيلَ إِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ هُوَ كِتَابُ اللَّهِ الْمَسْطُورِ ، وَالْكَوْنُ كِتَابُ اللَّهِ الْمَنْظُورِ ، وَيَأْتِي الْكِتَابُ الْمَسْطُورُ
بِالْإِدْلَةِ الْمُطْلَقَةِ عَلَى أَنَّ الْكَوْنَ خَلَقَهُ اللَّهُ بِدِقَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ وَاتِّزَانٍ دَقِيقٍ ، وَحِطِّي عِلْمِ الْفَلَكِ بِعِنَايَتِهِ وَبَاهْتِمَامِ
الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ، فَأَوْرَدَ الْقُرْآنَ عِدَدًا وَافِرًا مِنْ الْآيَاتِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْكَوْنِ وَالْفَلَكِ وَإِنْ كَانَ الْمَقْصُودُ مِنْهَا
الْهُدَايَةُ فَهِيَ تُشِيرُ وَتُوكِّدُ عِظَمَ هَذَا الْخُلُقِ ، فَقَدْ وَرَدَتْ الْمَفْرَدَاتُ الْفَلَكِيَّةُ وَظَوَاهِرُهَا فِي عَشْرَاتِ بَل

مئات الآيات من الكتاب المحفوظ فذكرت السماء IO مَرَّاتٍ وَالشَّمْسُ 33 مَرَّةً وَالْقَمَرُ 27 مَرَّةً وَالنَّجْمُ
 I3 مَرَّةً وَالْأَرْضُ 339 مَرَّةً . بِالْإِضَافَةِ إِلَى تَسْمِيَةِ بَعْضِ السُّورِ بِفِرْدَاتٍ كَوْنِيَّةٍ مِثْلَ الْقَمَرِ وَالنَّجْمِ وَالشَّمْسِ
 وَالْمَعَارِجِ وَالتَّكْوِيرِ وَالانْفِطَارِ وَالْبُرُوجِ وَالْإِنْشِقَاقِ ، مَعَ أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ كِتَابًا عِلْمِيًّا لَكِنَّهُ يَزْخَرُ بِأَسَاسِيَّاتِ
 الْعُلُومِ كُلِّهَا وَيَدْعُو إِلَى تَدَبُّرِ آيَاتِهِ وَفَهْمِ مَعَانِيهِ ، وَيَبْقَى السُّؤَالُ الَّذِي شُغِلَ عُقُولُ وَتَفَكَّرَ الْكَثِيرِينَ مِنْ
 الْبَاحِثِينَ وَالْعُلَمَاءِ الْمُتَخَصِّصِينَ وَحَتَّى النَّاسِ الْعَادِيْنَ ، كَيْفَ بَدَأَ خَلْقَ هَذَا الْكَوْنِ الشَّاسِعِ ؟

نَجِدُ تَارِيخَ الْكَوْنِ مُنْذُ مَوْلَدِهِ وَحَتَّى نِهَائِهِ مَسْطَرًّا فِي ثَمَانِي آيَاتٍ فِي الْكِتَابِ الْمَكْنُونِ . وَسَتُظَلُّ
 إِشَارَاتُ الْقُرْآنِ حَوْلَ حَقَائِقِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَنَارَاتٍ تَهْدِي الْعُلَمَاءَ إِلَى التَّارِيخِ الْكُوْنِيِّ فِهْمًا
 صَحِيحًا وَتَضَمَّنَ تِلْكَ هَذِهِ الْآيَاتُ ، آيَةٌ تَتَحَدَّثُ عَنِ مَوْلِدِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَوْ الْكَوْنِ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى :
 « أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا
 يُؤْمِنُونَ » -سورة الأنبياء الآية 30 . كَمَا تُشِيرُ آيَةٌ أُخْرَى إِلَى اتِّسَاعِ السَّمَاءِ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى :
 وَالسَّمَاءِ بَنِينَا بِأَيْدٍ وَأَنَا لِمُوسِعُونَ » - سُورَةُ الذَّارِيَاتِ الْآيَةُ 47 ، بَيْنَمَا فَصَلَّتْ أَرْبَعُ آيَاتٍ ثَلَاثَ مَرَّاحِلَ
 لِتَطْوِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ كُفْرُونٌ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ
 لَهُ أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًّا مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ
 سَوَاءً لِلْسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ إِنِّي نَادِيَةٌ أَوْ كُرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ
 فَفَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزِينَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا
 ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ سُورَةُ فَصَلَّتِ الْآيَاتِ مِنْ 9 - I2 . وَأَخِيرًا آيَاتَانِ تَصِفَانِ نِهَايَةَ الْأَرْضِ بِالْقَبْضِ
 وَالسَّمَاوَاتِ بِالطِّيِّ هُمَا قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يُشركون» - سورة الزمر الآية 67، وقوله سبحانه «يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين» - سورة الأنبياء الآية 104 . وتمثل تلك الآيات الثماني دررا يجب أن تتحلى بها علوم الفلك والكون ، وغاية سعي العلماء أن يكشفوا سر تلك الآيات ولذلك يجب أن تصدر هذه الآيات المباركات أي حديث عن الكون وتاريخه ولو فطن علماء الكون لجعلوا منها مرشدا لهم في أبحاثهم . دقة الألفاظ قلنا إنه مهما تقدمت علوم الكونيات والفلك بأنواعها المختلفة فلن تصل إلى الحقائق المطلقة في خلق السماوات والأرض بل جاءت هذه المفردات الكونية أكثر دقة في الإشارات القرآنية مثل اتساع السماء وليس اتساع الكون ، وفق الرق وليس الانفجار العظيم ، وطى السماء وليس الانسحاق العظيم ، إلى غير ذلك من المفردات مثل بناء السماء وحبكها ورجعها ، فالمفردات العلمية ليست دقيقة بالقدر الكافي مقارنة بمفردات القرآن التي تعبّر عن الحقائق المطلقة لأشياء لم ير الناس خلقها ، بالإضافة إلى أن مفردات القرآن في هذا الشأن تصحح للعلماء ما اختلفوا فيه وتفتح إمامهم نافذة على علوم المستقبل في علوم تاريخ الكون والفلك . . فتساؤلات من أين أتى الكون ؟ وإلى أين يذهب وكيف ينتهي ؟ وما حاله الكون بين البداية والنهاية ؟ لا تجد أجابه في الأوساط العلمية وتبدو أسئلة عسيرة وصعبة ، إلا أن القرآن الكريم يورد الإجابة الحقيقية والشيافية عندما يؤكد أن البداية هي فق الرق ومولد السماوات والأرض ، وإن أصلهما الدخان ، وإن اتساع السماء صفة ملازمة للكون .

ومراحل الخلق ثلاث . ويشير إلى أنه قد جاء في مختصر التفسير أن أصل الكون في كتاب الله رفق فقه الله يقول الحق تبارك وتعالى : « أولم ير الذين كفروا إن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما

« . فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَعَطَاءٌ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ يُعْنِي أَنَّهَا كَانَتْ شَيْئاً وَاحِداً مُلْتَصِقَتَيْنِ فَفَضَلَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا بِالْهَوَاءِ ، وَهَذَا الرَّأْيُ لَا يَبْعُدُ كَثِيراً عَنْ رَأْيِ فَرِيقٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ يَرَى أَنَّ الْكُونَ بَدَأَ مُتَجَانِساً . وَيَرَى أَنَّ الْعِلْمَ عَلَيْهِ أَنْ يُصَحَّحَ مَسَارَهُ مُسْتَرشِداً بِحَقِيقَةِ « قَتَقَ الرَّتَقَ » وَالرَّتَقُ أَيُّ الْمَلْتَمِ الْمُنْتَضِمِ ، هُوَ الشَّيْءُ الْمَضْمُونُ الْمُسْتَدُودُ الْمَجْمَعُ وَالْفَتْقُ عَكْسُهُ ، وَهَذَا التَّفْسِيرُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ كَانَتَا شَيْئاً وَاحِداً مُتَصِلاً وَمِنْ عُنَاصِرٍ وَاحِدَةٍ وَقَدْ فَضَلَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا فَانْتَرَتَا فِي الْفَضَاءِ ، وَرَفَعَ السَّمَاءَ بِلَا عَمَدٍ ، وَرَبَطَ أَجْزَائَهَا وَحَفِظَ اتِّزَانَهَا فِي مَوَاقِعِهَا . وَيُؤَكِّدُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي مَوَاضِعٍ كَثِيرَةٍ عَلَى أَنَّ هَذَا الْكُونَ بِمَجْرَاتِهِ وَجُومِهِ وَكَوَاكِبِهِ وَأَقْمَارِهِ زَمَامَهُ فِي يَدِ خَالِقِهِ وَتَوَاقُيسِ الْحَرَكَةِ وَالْحَيَاةِ فِيهِ مِنْ تَدْبِيرِ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ الْوَاحِدِ الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ .

فِي الْبِدَايَةِ . . . طَالَمَا نَظَرَ النَّاسُ إِلَى كَوْنِنَا عَلَى أَنَّهُ كَوْنٌ ثَابِتٌ ، وَأَنَّ الْأَرْضَ الَّتِي نَعِيشُ عَلَيْهَا هِيَ فِي مَرْكَزِ الْكُونَ ، وَإِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْكَوَاكِبَ وَالنُّجُومَ تَدُورُ حَوْلَ هَذِهِ الْأَرْضِ ، وَهَكَذَا تَصَوَّرَ الْعُلَمَاءُ الْكُونَ عَلَى أَنَّهُ كَوْنٌ ثَابِتٌ وَأَنَّ الْأَرْضَ تَقَعُ فِي مَرْكَزِ الْكُونَ وَهِيَ ثَابِتَةٌ لَا تَتَحَرَّكُ ، وَإِنَّ النُّجُومَ تَدُورُ حَوْلَهَا فِي أَفْلَاكِهَا .

عِنْدَمَا جَاءَ الْعَصْرُ الْحَدِيثُ ، اِكْتَشَفَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ كُلَّ مَا نَرَاهُ مِنْ نُجُومٍ فِي السَّمَاءِ هُوَ جُزْءٌ ضَخِيمٌ مِنْ مَجْرَتِنَا دَرْبِ الْبَلْبَانَةِ . هَذِهِ النُّجُومُ الَّتِي نَرَاهَا فِي السَّمَاءِ بِالْعَيْنِ الْمَجْرَدَةِ هِيَ جُزْءٌ مِنْ هَذِهِ الْمَجْرَةِ وَالْمَجْرَةِ هِيَ تَجْمَعُ مِنَ النُّجُومِ يَخُوي مِائَاتِ الْبِلَايِنِ مِنَ النُّجُومِ . وَبَعْدَ ذَلِكَ اخْتَرَعَ الْعُلَمَاءُ الْعَدَسَاتِ الْمُقَرَّبَةَ أَوْ التَّلْسُكُوبَاتِ فَاسْتَطَاعُوا أَنْ يَنْظُرُوا خَارِجَ مَجْرَتِنَا ، فَرَأَوْا أَنَّ الْكُونَ يَزْهَرُ بِالْمَجْرَاتِ ، وَقَدَّرُوا عَدَدَ هَذِهِ الْمَجْرَاتِ بِأَكْثَرِ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ مِليُونِ مَجْرَةٍ كُلُّهَا تُسَبِّحُ فِي هَذَا الْكُونَ الْوَاسِعِ بِنِظَامٍ دَقِيقٍ .

ولكن في البداية ظن العلماء أن هنالك فضاءً كونياً كبيراً ، واعتبروا أن المسافات التي بين النجوم
والجرات فارغة لا تحوي شيئاً ولذلك أطلقوا مصطلح Space أي "فضاء" ولكن بعد ذلك تبين لهم أن
هذا الفضاء ليس فضاءً بكل معنى الكلمة ، اكتشفوا وجود مادة مظلمة تملأ الكون ، حتى إن بعض
الحسابات تخبرنا بأن نسبة المادة المظلمة والطاقة المظلمة وهي مادة غير مرئية لا تراها ولا نعرف عنها
شيئاً تشغل من الكون أكثر من 96% والمادة المرئية والطاقة المرئية أيضاً الطاقة العادية يعني لا تشغل إلا
أقل من 4% من حجم هذا الكون .

لقد بدأ العلماء يكتشفون بنية معقدة لهذا الكون ، فكتشفوا بأن المجرات توضع على خيوط دقيقة
وطويلة تشبه نسيج العنكبوت ، واكتشفوا أيضاً إن المادة المظلمة تنتشر في كل مكان وتسيطر على
توزع المجرات في الكون .

وبعد ذلك أدركوا أنه لا يوجد أي فراغ في هذا الكون فأطلقوا كلمة Building أي "بناء" على هذا
الكون ، وهذه الكلمة جديدة عليهم لأنهم رووا في هذا الكون بالفعل بناءً محكماً ، ولكن هذه المعلومة
ليست جديدة على كتاب الله تبارك وتعالى ، فقد وصف الله عز وجل السماء في آيات القرآن بأنها
بناء ، لا توجد ولا آية واحدة تتحدث عن السماء وتصنفها بأنها فضاء ، لا . . . إنما دائماً نجد القرآن
يستخدم كلمة البناء ، يقول تبارك وتعالى : (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها
من فروج) [ق : 6] ، ويقول في آية أخرى : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من
قبلكم لعلكم تتقون ، الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً) [البقرة : 21-22] ، ويقول في آية

أُخْرَى : (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ) أَيْ بِقُوَّةٍ (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) [الذاريات : 47] هَذِهِ
الآيَةُ تَحَدَّثُ عَنِ التَّوَسُّعِ الكُونِيِّ الَّذِي يُنَادِي بِهِ العُلَمَاءُ اليَوْمَ .

وَفِي آيَةِ أُخْرَى يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ
صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ) [غافر : 64] ، وَيَقُولُ أَيْضًا مَقْسِمًا بِالسَّمَاءِ : (وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا)
[الشمس : 5] ، وَهَكَذَا آيَاتٌ كَثِيرَةٌ تَأْتِي دَائِمًا بِصِيغَةِ البِنَاءِ لِتؤكد لَنَا أَنَّ الكُونَ بِنَاءٌ ، وَهَذَا مَا وَجَدَهُ
العُلَمَاءُ يَقِينًا فِي القُرْنِ الحَادِي والعَشْرِينَ .

وَلَكِنْ . . . مَاذَا يَعْنِي قَوْلُهُ تَعَالَى (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا) مَا مَعْنِي كَلِمَةَ (قَرَارًا) ، وَكَيْفَ
نَحْسُ بِهَذَا القُرَارِ ؟ أَنَا نَعِيشُ عَلَى هَذِهِ الكُرَّةِ الْأَرْضِيَّةِ ، وَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى زوَدَ هَذِهِ الْأَرْضَ بِمَجَلٍ
لِلجاذبية بِحَيْثُ إِنَّهُ يَجذبنا إِلَيْهَا فِي كُلِّ لَحْظَةٍ ، فَنَحسُ بِالاستقرار . . .

لَوْ تَأَمَّلْنَا جَمِيعَ الأَبْحَاثِ الكَوْنِيَّةِ الصَّادِرَةِ حَدِيثًا ، نَلاحِظُ أَنَّ هَذِهِ الأَبْحَاثَ تؤكدُ أَنَّ الكُونَ لَيْسَ فِيهِ أَيْ
فَرَاغٌ عَلَى الإِطْلَاقِ ، وَهَذَا مَا وَصَفْتُهُ لَنَا الآيَةُ فِي قَوْلِ الحَقِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ
فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ) [ق : 6] .

فِي البِدَايَةِ اعْتَقَدَ عُلَمَاءُ الفَلَكِ عِنْدَمَا رَأَوْا فَجَوَاتٍ فِي السَّمَاءِ أَنَّ الكُونَ يَحوي هَذِهِ الفجوات العَمِيقَةَ
والضخمة جَدًّا ، فَأَطْلَقُوا عَلَيْهَا اسْمُ (الفجوات الكَوْنِيَّةِ) أَوْ (الثقوب الكَوْنِيَّةِ) وَاعْتَبَرُوا أَنَّهَا عِبَارَةٌ عَنِ
فَرَغَاتٍ لَا يُوجَدُ فِيهَا أَيْ شَيْءٍ ، وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ اكْتَشَفُوا المَادَّةَ المُظْلِمَةَ مَاذَا وَجَدُوا ؟ وَجَدُوا أَنَّ هَذِهِ
الفَرَغَاتِ لَيْسَتْ بِفَرَغَاتٍ حَقِيقَةٍ ، إِنَّمَا تَحوي مَادَّةً مُظْلِمَةً غَيْرَ مَرْتَبِيَّةٍ تُساوِي أَضْعَافُ مَا يَحويه الكُونَ
مِنَ المَادَّةِ العَادِيَةِ المَرْتَبِيَّةِ ، وَهَذَا أَيْضًا يَجْعَلِي القِسْمَ الإِلَهِيِّ عِنْدَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : (فَلَا أُقْسِمُ بِمَا

تُبْصِرُونَ ، وَمَا لَا تُبْصِرُونَ) [الحاقة : 39] إِذَا هُنَاكَ أَشْيَاءٌ لَا نَبْصِرُهَا وَهِيَ أَكْثَرُ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي نَبْصِرُهَا .

إِذَا تَأَمَّلْنَا هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا) [ق : 6] نَلَّاظِحَ أَنَّ الْكُونَ فَعَلًا فِيهِ بِنَاءٌ هِنْدَسِي رَائِعٌ ، فَالْعُلَمَاءُ بَعْدَمَا اكْتَشَفُوا التَّسْبِيحَ الْكُونِيَّ ، يَتَحَدَّثُونَ عَنِ (حُبْك) مَوْجُودَةٌ فِي هَذَا الْكُونَ ، يَتَحَدَّثُونَ عَنِ نَسْبِ مَحْكَمٍ يَمَلَأُ هَذَا الْكُونَ ، يَتَحَدَّثُونَ عَنِ أَعْمَدَةِ كُونِيَّةٍ ، حَتَّى إِهْمُ اكْتَشَفُوا مِنْذُ مَدَّةِ جُدْرَانِ كُونِيَّةٍ كُلِّ جِدَارٍ يَبْلُغُ طَوْلَهُ مِلْيَيْنِ السَّنَوَاتِ الضَّوئِيَّةِ ، جِدَارٍ مَلِيًّا بِالنُّجُومِ وَالْمَجْرَاتِ (جِدَارِ كُونِي) وَهُنَاكَ أَعْمَدَةٌ كُونِيَّةٌ أَيْضًا ، وَهُنَاكَ جُسُورٌ كُونِيَّةٌ ، وَهُنَا رَبَّمَا تَتَذَكَّرُ قَوْلَ الْحَقِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِنْدَمَا قَالَ عَنْ نَفْسِهِ : (تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا) [الفرقان : 61] فَمَا هِيَ الْبُرُوجُ الْكُونِيَّةُ ؟

لَقَدْ فَسَّرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى أَنَّ الْبُرُوجَ الْكُونِيَّةَ هِيَ : النُّجُومُ الَّتِي تَصْطَفِ بِطَرِيقِهِ مُعَيَّنَةٌ تُوْحِي إِلَيْهِمْ بِبَعْضِ الْحَيَوَانَاتِ مِثْلَ الثَّوْرِ وَالْعَقْرَبِ وَالْجَدْيِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، فَاطَّلَقُوا عَلَى هَذِهِ أَسْمَاءِ الْبُرُوجِ وَعَدَدَهَا اثْنَا عَشَرَ بَرَجًا ، وَلَكِنْ تَبَيَّنَ لِلْعُلَمَاءِ بَعْدَمَا اكْتَشَفُوا الْكُونَ وَأَسْرَارَهُ وَالْإِبْعَادَ بَيْنَ الْمَجْرَاتِ وَالنُّجُومِ : أَنَّ هَذِهِ النُّجُومَ الَّتِي تَظْهَرُ لَنَا وَكَانَتْهَا عَلَى نَفْسِ الْمُسْتَوَى ، تَبَيَّنَ أَنَّ هَذِهِ النُّجُومَ لَا عِلَاقَةَ فِيهَا بَيْنَهَا ، قَدْ يَكُونُ هُنَاكَ نَجْمٌ تَرَى بِجَانِبِهِ نَجْمًا آخَرَ وَقَدْ يَكُونُ هَذَانِ النُّجُومَانِ بَعِيدَيْنِ عَنِ بَعْضُهُمَا جَدًّا ، وَنَيْسَ بَيْنَهُمَا أَيُّ عِلَاقَةٍ أَوْ قُوَى جَذَبٍ ، إِنَّمَا فَطَّرَ الَّذِي يَصِلُنَا هُوَ الْإِشْعَاعُ ، وَقَدْ يَكُونُ بَعْضُ هَذِهِ النُّجُومِ مَاتَ وَاحْتَقَى ، وَبَعْضُهَا لَا زَالَ مَوْجُودًا ، فَجَمَعِيهَا اللَّهُ أَعْلَمَ بِمَوَاقِعِهَا الْحَقِيقِيَّةِ .

وَلَدَلِكِ عِنْدَمَا أَقْسَمَ اللَّهُ بِالنُّجُومِ لَمْ يَقُلْ : (فَلَا أَقْسَمُ بِالنُّجُومِ) (فَلَا أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ، إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ، فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ) [الواقعة : 75-78] . إِذَا النُّجُومُ الَّتِي اغْتَبَرَهَا الْعَرَبُ قَدِيمًا ، وَبَعْضُ الْحَضَارَاتِ الْقَدِيمَةِ بَرُوجًا ، لَيْسَتْ هَذِهِ الَّتِي يَتَحَدَّثُ عَنْهَا الْقُرْآنُ ، فَعِنْدَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : (تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا) لَا يُقْصَدُ هَذِهِ الْبُرُوجُ الَّتِي لَا يُوجَدُ أَيُّ صِفَةٍ عِلْمِيَّةٍ لَهَا ، إِنَّمَا يُقْصَدُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - الْأَبْنِيَّةَ الْكَوْبِيَّةَ وَهِيَ الَّتِي مَا يَتَحَدَّثُ عَنْهَا الْعُلَمَاءُ الْيَوْمَ .

يَتَحَدَّثُ الْعُلَمَاءُ الْيَوْمَ عَنْ جِدَارٍ عَظِيمٍ بِطُولِ 500 مِيلُونِ سُنَّةٍ ضَوْئِيَّةٍ ، وَيَتَحَدَّثُونَ عَنْ جُسُورٍ كَوْبِيَّةٍ هَائِلَةٍ تَمْتَدُّ لِمِائَاتِ الْمِلايِينِ وَأَحْيَانًا لِأَلْفِ الْمِلايِينِ مِنَ السَّنَوَاتِ الضَّوئِيَّةِ ، وَيَتَحَدَّثُونَ عَنْ بِنَاءِ كَوْبِيٍّ مِبْهَرٍ ، فَهَنَا يَتَجَلَّى قَوْلُ الْحَقِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : (تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا) بَلْ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَقْسَمَ بِهَذِهِ السَّمَاءِ فَقَالَ : (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ) [البروج : I] .

أَنَّ هَذَا الْبِنَاءَ الْكَوْبِيَّ ، وَهَذِهِ الْأَبْرَاجَ الْكَوْبِيَّةَ عَظِيمَةً جَدًّا ، وَمَعَ أَنَّ الْعُلَمَاءَ لَا يَتَحَدَّثُونَ الْيَوْمَ عَنْ بِنَاءِ مُتَكَامِلٍ (بِرَجٍ مُتَكَامِلٍ) إِنَّمَا يَتَحَدَّثُونَ عَنْ أَعْمَدَةٍ ، وَجَسُورٍ ، وَجُدْرَانٍ ، وَقَدْ يَكْتَشِفُونَ حَدِيثًا أَوْ بَعْدَ مُدَّةٍ أَنَّ فِي الْكَوْبِ ابْنِيَّةَ كُلِّ بِنَاءٍ يُشْبِهُ الْبُرْجَ فِي بِنَائِهِ وَهَنْدَسَتِهِ وَارْتِفَاعِهِ ، وَسَوْفَ يَكُونُ بِذَلِكَ الْقُرْآنُ أَوَّلَ كِتَابٍ يَتَحَدَّثُ عَنْ هَذِهِ الْأَبْنِيَّةِ الْكَوْبِيَّةِ الْعَظِيمَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا) .

مَا هُوَ الْهَدَفُ مِنْ ذِكْرِ هَذِهِ الْحَقَائِقِ الْكَوْبِيَّةِ ؟

لِمَاذَا ذَكَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَقِيقَةَ الْبِنَاءِ الْكُونِيِّ : هَلْ لِمَجْرَدِ حُبِّ الْمَعْرِفَةِ ؟ أَمْ هُنَاكَ هَدَفًا عَظِيمًا مِنْ وَرَاءِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ ؟ يُقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَذْكَرًا عِبَادَةً : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ) تَأَمَّلُوا مَعِيَ هَذَا الْخِطَابَ لِلنَّاسِ جَمِيعًا مَهْمَا كَانَتْ عَقِيدَتُهُ أَوْ لُغَتُهُ ، الْخِطَابُ هُنَا لَيْسَ لِلْمُؤْمِنِينَ فَحَسْبُ بَلْ يَشْمَلُ النَّاسَ جَمِيعًا : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [البقرة : 21] ،

وَالسُّؤَالُ : مَا هُوَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ قَائِلُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ ؟

يَأْتِيكَ الدَّلِيلُ مُبَاشَرَةً : (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا) وَبِالْفِعْلِ يَقُولُ الْعُلَمَاءُ أَنَّ الْأَرْضَ مَمْهَدَةٌ وَمَفْرُوشَةٌ بِطَرِيقِهِ دَقِيقَةٌ جَدًّا تَصْلُحُ لِلْحَيَاةِ بِعَكْسِ الْقَمَرِ مِثْلًا ، الْقَمَرُ غَيْرُ صَالِحٍ لِلْحَيَاةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ بِسَبَبِ الْقُوَّاتِ الْكَثِيرَةِ فِيهِ ، وَبِسَبَبِ الْحُفْرِ وَالْجِبَالِ وَالْوُدْيَانِ وَالشُّقُوقِ الَّتِي فِيهِ . ثُمَّ يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ : (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا) أَي إِذَا كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ : (فَاتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) [البقرة : 22-23] ، فَهَذِهِ الْحَقَائِقُ الْكُونِيَّةُ الَّتِي أُوذِعَهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ هِيَ أَصْدَقُ دَلِيلٍ فِي هَذَا الْعَصْرِ عَلَى صِدْقِ هَذَا الْكِتَابِ وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ رَبَّنَهُ بِطَرِيقِهِ لَا يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهَا .

وَخُلَاصَةُ الْقَوْلِ :

ذَكَرَ الْقُرْآنُ حَقِيقَةَ الْبِنَاءِ الْكُونِيِّ الَّذِي أَكْشَفَهُ الْعُلَمَاءُ حَدِيثًا ، وَذَكَرَ حَقِيقَةَ الْجَاذِبِيَّةِ الْأَرْضِيَّةِ وَفَائِدَتِهَا وَأَهْمِيَّتِهَا فِي اسْتِقْرَارِ الْبَشَرِ ، وَهِيَ أَمْرٌ لَمْ يَكْتَشَفْ إِلَّا فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ ، وَذَكَرَ كَذَلِكَ حَقِيقَةَ الْبُرُوجِ الْكُونِيَّةِ وَهِيَ مَا يَتَحَدَّثُ عَنْهُ الْعُلَمَاءُ الْيَوْمَ ، وَآكَدَ أَنَّهُ لَا فَرَاحَاتٍ أَوْ فُجُوتٍ أَوْ فُرُوحٍ فِي السَّمَاءِ ، وَهُوَ

مَا يُؤَكِّدُهُ الْعُلَمَاءُ الْيَوْمَ . . . وَهَكَذَا حَقَائِقُ لَا تُحْصَى تَأْتِي جَمِيعَهَا لِتَشْهَدَ عَلَى صِدْقِ هَذَا الْقُرْآنِ
وَصِدْقِ رِسَالَةِ الْإِسْلَامِ .

أَنَّ الْحَدِيثَ عَنْ حُدُودِ الْعِلْمِ وَعَنْ عُمُقِ لِلْكَوْنِ قَدْ لَا تَطَالُهُ عَيْنُ الرَّاصِدِ لَا يَعْنِي فَشِلًا لِلْعِلْمِ أَوْ ابْتِقَاصًا
مِنْ قِيَمَتِهِ ، بَلْ يَعْنِي أَنَّ مِهْمَةَ الْعِلْمِ قَدْ بَاتَتْ أَكْثَرَ صُعُوبَةً إِذْ لَيْسَ مِنَ الْمَأْمُولِ أَنْ تُقَدَّمَ وَضْفًا شَامِلًا
لِلظَّوَاهِرِ كَمَا كَانَتْ تَعْتَقِدُ الْفِيزِيَاءُ الْكَلَّاسِيكِيَّةُ . أَنَّ مِهْمَةَ الْعِلْمِ بَاتَتْ لَا نِهَائِيَّةً بِصَدَدِ الْحَقِيقَةِ . لَقَدْ
قَلِبْتَ ثَوْرَةَ فِيزِيَاءِ الْكَمِّ أَهَمَّ الْمَفَاهِيمِ الْمُعْتَادَةِ لَدَيْنَا وَعَلَى رَأْسِهَا مَفْهُومُ الْوَاقِعِ وَالْحَقِيقَةِ ، فَالْوَاقِعُ لَمْ يُعَدَّ
هُوَ ذَلِكَ الشَّيْءِ الْمَوْجُودُ هُنَاكَ وَالْقَابِلُ لِلرَّصْدِ بِشَكْلِ حِيَادِيٍّ وَمَوْضُوعِيٍّ ، كَمَا أَنَّ الْحَقِيقَةَ بِدَوْرِهَا لَمْ
تُعَدَّ هِيَ تِلْكَ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةَ الَّتِي تَطَابِقُ مَا تَرَاهُ وَنَرِصِدُهُ عَنِ الْوَاقِعِ . أَنَّ تَدَاخُلَ الرَّاصِدِ وَالْمَرِصُودِ
سَيُؤَثِّرُ عَلَى الْمَفْهُومِ الْعَادِي لِلْوَاقِعِ وَالْحَقِيقَةِ ، فَالْوَاقِعُ أَصْبَحَ مَعَ فِيزِيَاءِ الْكَمِّ اِحْتِمَالِيًّا غَيْرُ مُسْتَقَرٍّ مُزْنٍ ،
وَالْحَقِيقَةَ بِدَوْرِهَا أَضْحَتْ مُرَكَّبَةً وَمُعَقَّدَةً وَقَابِلَةً لِتَشْكِيلَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ تَخْتَلِفُ حَسَبَ اِخْتِلَافِ وَجْهَاتِ
النَّظَرِ وَمَوْقِعِ الرَّصْدِ .

مفارقة

{سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ
أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [فصلت : 53]

ستيفن هوكينج اعتبروه أفضل عالم من علماء الفيزياء والكون في هذا القرن الذي نعيش فيه ولقد روح له
الأعلام الغربي بشكل مقصود هناك هدف واضح لمحاربة أي عالم فيزيائي او كيميائي او حيوي يتلفظ بأي
جملة تفيد بوجود خالق للكون لأنهم بعد أن قضاوا على علم الفلسفة يريدون أن يقضوا على الدين ولأن

الدين المسيحي سقطت معظم نصوصه المقدسة أمام العلم الحديث وكذلك بالنسبة للتوراة فلم يبق أمامهم الا القرآن الكريم ككتاب مقدس صمد أمام كل الحقائق العلمية التي توصلوا لها .

لذلك بعد نشر كتابه تاريخ موجز للزمن بدأ نجمه يلمع فألتقطته الماسونية المادية العالمية فترة جيدة وصنعت له كل هذه الهالة الإعلامية وذلك بهدف واحد وهو إعلانه بأنه ملحد والعلم قضى على الله والدين كما قضى على الفلسفة وتم الإعلان عن ذلك حين مشاركة ستيفن هوكينج في «مهرجان ستارموس» لعلوم الفلك والفضاء خلال شهر سبتمبر عام 2014 وفيه أعلن نفسه ملحدا . وعقب على الأمر في مقابلة مع صحيفة «إل موندو» الإسبانية قائلاً:

« من الطبيعي بمكان أن تؤمن بأن الله خلق الكون قبل أن نفهم العلم . ولكن يقدم العلم الآن شرحاً أكثر إقناعاً . ما عنيت به بقولي "سنتمكن من معرفة عقل الله" هو أننا سنتمكن من معرفة كل شيء يعرفه الله (هذا إذا كان الله موجود) وهو ليس بالموجود . أنا ملحدٌ .»

مات الرجل قبل عام 2018 والغريب انه كان قد أوصى بحرق جثمانه وذرته في الهواء وهذا ما حصل

قبل وفاته نشرت مجموعة هوكينج خبراً يرد فيه على منتقدي نظرية توسع الكون

The NGC 6946, a spiral galaxy about 22 million light years away from Earth also referred to as the

نظرية توسع الكون تحاول تفسير كيف تسارع توسع الكون بشدة بعد الانفجار العظيم (رويتز)

كتب 33 من كبار علماء الفيزياء في العالم، منهم عالم الفيزياء النظرية الشهير البريطاني ستيفن هوكينغ، رسالة غاضبة يدافعون فيها عن نظرية توسع الكون التي حاول ثلاثة من كبار علماء الفيزياء دحضها في فبراير/شباط الماضي .

وإلى جانب هوكينغ شارك في كتابة الرسالة علماء الفيزياء النظرية الأميركيون فرانك ويلزك، وراينر ويس، وليزا راندال، وألان غوث صاحب نظرية توسع الكون التي وضعها سنة 1980.

وتفسر نظرية توسع الكون كيف تسارع توسع الكون بشدة بعد الانفجار العظيم، وتمضي في وصف كيف نشأت المجرات نتيجة هذه التقلبات الكمية. أما الثلاثة الذين انتقدوا النظرية فهم عالمة الفيزياء آنا إيجاس من جامعة برينستون، وعالم الفلك أبراهام لويب من جامعة هارفارد، وعالم الفيزياء بول شتينهارت. وكتب الثلاثة "يجب ألا تقبل فرضية حصول التوسع (التضخم)، خاصة لأنها لا تقدم تفسيراً بسيطاً للخصائص المرصودة في الكون".

وأضافوا "الكون كما نفهمه حالياً لا يمكن تقييمه باستخدام الأسلوب العلمي. . . بعض العلماء يقبلون أن التوسع لا يمكن اختباره لكنهم يابون رفضه. وقد اقترحوا، عوضاً عن ذلك، أن العلم يجب أن يتغير من خلال التخلص من إحدى خصائصه المعروفة له، وهي الاختبار التجريبي".

والغريب ان الرجل الذي أنكر وجود الله جحوداً يقر بعظمة خلقه ويدافع عنها فلقد جاء القرآن الكريم بنص صريح حول يؤكد ان الكون في حركة توسع دائمة ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمَوَسِعُونَ ﴾ [الذاريات : 47] وأخيراً نقول : ﴿ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرُوهًا وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : 54]

القديم والحادث

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ التوبة : 36

لقد وقت طويلا وطويلا جدا أمام هذه الآية العظيمة لاعتقادي انها تحوي سرا الهيا عظيما هو الآخر

والأمر الذي تحدث عنه الآية وهو الزمان وحدوثه وما يرتبط بذلك من قضايا تتعلق بقدم الكون او

حدوثه ظل على مر العصور حديث الفلاسفة من ارسطو وحتى اليوم وصار حديثا للعلماء ومن بينهم

انشتاين نفسه .

يمكن تقسيم الحقائق التي مدتنا به الآية الكريمة الى ثلاث وكل واحدة منها يعتبر حقيقة لاجدال فيها :

أولا : ان الكون قد نشأ دفعة واحدة ثم مر بمراحل ذكرها الله سبحانه وتعالى وجمعها في ستة أيام

فالآية تذكر عدة الشهور ب I2 شهرا يوم خلق السموات والارض في كتاب الله وكتاب الله هو علمه
وقدرته فقبل أن يبدأ الزمن وعدته كان الله قد خصه ليكون اثني عشر شهرا في حساباتنا الأرضية
وهكذا كان .

ثانياً : ان الكون حادث وبمجرد حدوثه نشأ الزمان الذي ومنذ بدء الزمان حدد الله حركات النجوم
والكواكب ومنها الأرض التي استقرت في مسارها الدوراني حول الشمس الذي يستغرق عاما أي اثني
عشر شهرا .

ثالثاً : ان عمر المجرة الافتراضي هو I3 مليار سنة وفق تقدير العلماء وتكون مجموعة النظام الشمسي
بما فيها الأرض هي بنفس عمر المجرة أي I3 مليار سنة لأن عملية الخلق بدأت بنفس الوقت كذلك لا
كما تقول توقعات العلم بأن عمر المجموعة الشمسية هو حوالي 5 مليارات سنة هذا والله أعلم .

الحادث، والمُحدث، والحدوث، والقديم، والقدم

ترد هذه الكلمات كثيراً في كتب العقائد والفلسفات والعلوم وفي عدد من المواضع وفيما يلي إيضاح
لمعنى هذه الكلمات .

قال الجرجاني: "الحادث: ما يكون مسبقاً بمادة ومدة وقيل: ما كان لوجوده ابتداءً" .

وقال الكفوي: "الحادث: ما كان وجوده طارئاً على عدمه، أو عدمه طارئاً على وجوده فهو حادث" .

وقال: "والحدوث: الخروج من العدم إلى الوجود، أو كون الوجود مسبقاً بالعدم اللازم للوجود، أو كون الوجود خارجاً من العدم اللازم للموجود".

وقال: "وأظهر التعريفات للحدوث هو أنه حصول الشيء بعد أن لم يكن".

وقال: "والحادث القائم بذاته يسمى حادثاً، وما لا يقوم بذاته من الحوادث يسمى مُحدثاً لا حادثاً".

مشكلة قدم العالم وحدوثه

يعدّ البحث في أصل الوجود وطبيعته موضوعاً مركزياً في الفلسفات اليونانية والإسلامية والوسيطيّة

وقد اختلف الفلاسفة في طبيعة الكون ، هل هو قديم أم محدث ؟ فوضعوا نظريات مختلفة حول قدم

العالم وحدوثه . ولكن قبل عرض النظريات ينبغي أن تتعرّف

بعض المصطلحات الفلسفية الرئيسة التي تُستخدم في صياغة هذه النظريات وشرحها ومنها :

I- **القديم** : هو الموجود الذي لا بداية لوجوده ، وهي صفة تُطلق على الله تعالى ؟ لأن الله موجود

منذ الأزل ، وليس ثمة زمان سابق على وجوده .

2- **الحادث** : الحادث عكس القديم ، وهو الموجود الذي وُجد في زمان ما ، ولم يكن قبل هذا الزمان

موجوداً .

3- **الحركة** : هي كل تبدل أو تغيير يطرأ على الموجود ، كانتقاله في المكان أو الزمان ، أو تغيير صورته أو هيئته أو صفاته ، وهي حالة ملازمة لكل الموجودات ، إما داخلية كحركة الإنسان والنبات ، وإما خارجية كحركة العربة التي يجرها الحصان .

4- **الزمان** : هو عدد الحركة ، فالحركة مرتبطة بالزمان ؟ لأن التغيير لا يكون إلا في زمان .

5- **الخلق** : وهو نوعان ، إما إيجاد شيء من عدم ، وهو الإبداع ، وإما إيجاد شيء من شيء سابق عليه ، وجاء القرآن الكريم (وخلقنا الإنسان من طين كالفخار) .

6- **الأزلي** : هو الذي ليس له بداية في الزمان .

7- **الأبدي** : هو الذي ليس له نهاية في الزمان .

8- **السرمدى** : هو الذي لا بداية له ولا نهاية ، وتطلق هذه الصفة على الله وحده .

قدم العالم عند أرسطو : قدم أرسطو أول نظرية مكتملة في قدم العالم ، وتقوم على ثلاثة مفاهيم فلسفية أساسية هي : المادة والحركة والزمان .

I- **المادة** : افترض أرسطو أن الكون نشأ عن مادة أولية بسيطة ليست مركبة ، ليست متعينة في شكل ما ، وليس لها صورة محددة ، ولما تحركت هذه المادة اتخذت صوراً متميزة ، ونشأت عنها أصناف الموجودات المختلفة .

2- الحركة : اعتقد أرسطو أن الحركة تحتاج إلى محرك هو الإله ، وهو المحرك الأول اللا متحرك فالله علة الحركة ومسببها ، وهي معلولة له ، ويرى أرسطو أن العلة والمعلول يجب أن يكونا متساويين (لا يسبق أحدهما الآخر) وبما أن وجود الله قديم منذ الأزل ، فالحركة قديمة وموجودة منذ الأزل .

3- الزمان : الزمان مقرون بوجود الحركة ؟ لأن الحركة لا تحدث إلا في زمان ، والزمان عدد الحركة ومادامت الحركة قديمة وموجودة منذ الأزل فالزمان قديم وأزلي .

ويبرهن أرسطو على قدم الزمان معتمداً المنطق الصوري والمحاكمة العقلية ، فيفترض أنه لو كان الزمان محدثاً وليس قديماً ، سيلزم عن ذلك أن يكون قبل الزمان زمن سابق عليه ، ولكن (قبل وبعد) تصوران يفترضان وجود الزمان ذاته ، فالزمان إذاً قديم لا بداية له

ب - انتهى أرسطو إلى أن المادة والحركة والزمان مرتبط بعضها ببعض في الوجود ، فلا أحد منها يسبق الآخر ؟ لأنه إذا كانت الحركة فلا بد من جسم متحرك ، ولكي يتحرك الموجود فلا بد من زمان يتحرك فيه ، ولأن الحركة قديمة ، فإن المادة قديمة ، والزمان قديم أيضاً .

نظرية الفيض عند أفلوطين : أن العالم قديم وليس مخلوقاً من عدم ، فهو أول من وضع نظرية الفيض وفسر فيها كيفية انبثاق العالم عن الله ، أو صدور المتعدد عن الواحد ، وقد تأثر بنظريته الفلاسفة المسلمون فيما بعد

2- رفض أفلوطين أن يكون الله قد خلق العالم المتعدد من عدم ، فالعالم يصدر عن الله كما يصدر الضوء عن الشمس ، ويُفسر ذلك بدا بقضية عقلية أولية ، هي أن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد ، فأول ما

يصدر عن الله هو عقل كلي خالص ، ثم نفس كلية تفيض عنها هيولى روحانية وأصول بذرية منهما
تُوجد جميع الموجودات التي في الزمان والمكان . وهكذا فإن جميع الأشياء صدرت عن الواحد الأول في
نظام تنازلي متدرج .

حدوث العالم عند الكندي : (القرن التاسع الميلادي) لقبه " فيلسوف العرب " ؛ لأنه أول الفلاسفة
المسلمين على الإطلاق ينتسب إلى قبيلة كنده العربية .

عرف الكندي فلسفة أرسطو وتعمق في دراستها فوافقه في نظريات كثيرة وخالفه في نظرية قدم العالم ،
حيث برهن الكندي في نظريته على أن العالم مخلوق وليس قديماً ، وأن الله هو خالقه ومبدعه من العدم
ولكي يبرهن الكندي على نظريته في حدوث العالم ، استخدم نفس المبدأ الذي استخدمه أرسطو قبله ،
والذي يقول إن الحركة والزمان والمادة مرتبط بعضها ببعض ، ولا يمكن لأي واحد منها أن يسبق الآخرين
في الوجود ؛ فإثبات حدوث أي من العناصر الثلاثة يكفي لإثبات حدوثها جميعاً ، ومن ثم فهي مخلوقة
وليست قديمة ، وبذلك يكون العالم مخلوقاً .

اعتقد الكندي أن كل قديم لا متناه ، لا بداية له ولانهاية ، والزمان ليس قديماً ، ولا يمكن أن يكون
بلانهاية ؟ لأنه لو كان بلا نهاية لكانت الحركة بلا نهاية أيضاً ، ولكن بما أن الزمن الماضي ينتهي إلى الزمن
الحاضر ، وتنتهي الحركة السابقة إلى الحركة الحالية . إذا فالزمان والحركة متناهيان ، وبما أنهما متناهيان
فالجسم متناه مثلها ، والعالم المكون من هذه الأصول الثلاثة متناه أيضاً ، وبما أنه متناه ، فهو مخلوق
بالضرورة ، خلقه الله من عدم ، فالله مبدع العالم وخالقه .

قدّم العالم عند الفارابي (نظرية الفيض) : الفارابي أول فلاسفة المسلمين الذين قالوا بقدّم العالم ، وذهب إلى أنّ علة وجود العالم هي الله ، لكن العالم قديم مع الله وليس مخلوقاً ، والله لا يتقدّم على العالم بالزمان لأن كلاهما أبدي ، ولكنّ الله يتقدم على العالم بالرتبة والشرف وسبق العلة على المعلول .

من ناحية ثانية ، برهن الفارابي بطريقة عقلية أنّ الزمان قديم أيضاً ؟ لأنه لو كان الله متقدماً على العالم بالزمان ، فسيلزم أن يكون قبل العالم زمان كان العالم فيه معدوماً ، وكان قبل الزمان زمان آخر ، وهكذا إلى ما لانهاية ، وهذا (خُلف) أو تناقض لا يقبله العقل ، لذلك فالعالم والزمان قديمان مع الله ، ولكنهما دونه مرتبة وشرفاً .

قدم العالم عند ابن سينا : عالج ابن سينا مشكلة العالم من خلال نظرية الفيض التي بيّن فيها علاقة واجب الوجود (الله) بممكن الوجود (العالم) ، وخالف أرسطو الذي قرّر قدم العالم بالذات وبالزمان ، يقول ابن سينا أن حصول الممكن هو نتيجة لفعل الواجب ، وعليه يكون العالم قد صدر عن الله منذ الأزل .

2- وحسب ابن سينا : لايجوز أن يتأخر العالم عن الله بالزمان ؟ لأنه لو وجد الله ثم وجد العالم بعده لكان بين الموجودين زمان فيه عدم ، وستتج عن هذا مشكلة السبب المرجح الذي أدى إلى الشروع في الخلق بعد الامتناع عنه ، وسيعني هذا أنّ الإرادة الإلهية أصابها التغيّر ، وهذا مما لايجوز على الذات الإلهية .

3- وينتهي ابن سينا إذاً إلى أن العالم قديم بالزمان مساوق لقدّم الله الذي يتقدم على العالم بالذات والشرف والمعلولية .

حدوث العالم عند الغزالي : اتخذ الغزالي موقفاً نقدياً من الفلاسفة القائلين بنظرية الفيض ؟ لأن العالم عنده كما عند الكندي مخلوق من العدم ، والله هو خالقه وموجده ، معتمداً على موقف العقيدة الإسلامية ، داعماً لها

بالأدلة والبراهين العقلية التي تثبت أن العالم حادث وليس قديماً . ومنها

إمكان صدور الحادث عن القديم : فالعالم مليء بالحوادث التي تصدر عن علل سابقة عليها ، ولو أن الحادث لا يصدر إلا عن حادث لاستمرت هذه السلسلة إلى ما لانهاية ، وهذا خلف مناقض للعقل ، إذاً لا بد من علة قديمة سابقة عليها ، والقول بحدوث العالم عن علة قديمة هي الله

لا يناقض التفكير الصحيح .

2- حدوث الزمان : انتقد الغزالي حجج القائلين بقدم الزمان ، واعتبره مجرد توهم لفظي لا يقوم على أساس منطقي صحيح ؟ لأن الزمان واحد ، وهو حادث بحدوث العالم ، ولأن الزمان حادث فلا يمكن أن يوجد زمان قبله .

التوفيق بين القدم والحادث عند ابن رشد : رأى ابن رشد أنه لا يوجد في الآيات القرآنية على ما ينص على أن الله خلق العالم من عدم محض ، حيث تشير بعض الآيات إلى موجود سابق على خلق العالم ، لذلك اعتقد ابن رشد بوجود مادة أولية قديمة خلقت منها العالم ، والله هو خالق العالم وصانعه .

حاول ابن رشد أن يعيد الخلاف بين الفلاسفة والأشعرية في قضية قدم العالم أو حدوثه إلى الاختلاف في اللفظ والتسمية ، حيث رأى أن كل الفلاسفة متفقون على أن الله قديم لم يسبقه شيء ولم يتقدمه زمن ،

وأنة موجد الكل وحافظه . والفلاسفة متفقون أيضاً على حدوث الأجسام التي ندرکہا بالحواس ، وأنها معلولة لغيرها ومسبوقه بزمن . أما الخلاف بين الفلاسفة و الأشعرية فيقع على ما يتوسط بين الله والموجودات ، أي (العالم بکلیته أو الکن بأسره) ، فذهب بعضهم إلى أنه قديم مع الله الذي أوجده ، ورأى آخرون أنه حادث ؟ لأنه شبيه بالأجسام المحدثه وقائم بها . لذلك انتهى ابن رشد إلى أن الکن ليس قديماً بالمعنى الدقيق ؟ لأن له خالقاً ، وليس محدثاً بالمعنى الدقيق ؟ لأنه ليس ثمة زمان متقدم عليه . فالعالم قديم في مادته محدث في صورته .

أنواع الحدوث

الحدوث له صور منها:

1 . الحدوث الذاتي

2 . الحدوث الزماني

3 . الحدوث الدهري

حقيقة الزمان لدى الفلاسفة:

المقصود بالحدوث الزماني أن يكون وجود الشيء مسبقاً بعدمه في زمان معين .

إن أي موجود في عالم الطبيعة، كالكتاب، والسيارة، والانسان . . . الخ، ظرف وجوده هو الزمان، أو

بعبارة فلسفية، الزمان هو الكمية التي يتحدد بها مقدار الحركة، لأن الزمان: كم غير قادر يتحدد به

مقدار الحركة، وبالتالي فكل موجود زمان، والزمان هو بُعد وجود الشيء، فما دام الشيء موجوداً مادياً

إذا هو متحرك، وما دام متحركاً فلا بد من امتداد للحركة، وما يعين امتداد الحركة هو الزمان، ولهذا

نقول: كل موجود مادي في عالم الطبيعة موجود في ظرف زمان .

إذاً الحادث الزماني هو وجود الشيء المسبوق بعدمه في زمان معين، ولذلك نعبر عن الأشياء بالزمانيات، والشيء الزماني هو المسبوق بالعدم .

الفرق بين الحادث الزماني والقديم الزماني:

الحادث الزماني الذي يكون وجوده مسبقاً بعدم زماني وما يقابله وهو القديم الزماني، أي الذي وجوده غير مسبق بعدم زماني، ومثاله الزمان، أي مطلق الزمان أو الزمان المطلق، فالزمان قديم زماني، لأن وجوده غير مسبق بعدم زماني، وإلا لو كان الزمان حادثاً زمانياً، فلا بد أن يكون مسبقاً بعدم الزمان، وهذا يلزم منه التنافي، لتقدم وجوده على عدمه .

. الحدوث الذاتي:

الحدوث الذاتي هو مسبقية وجود الشيء بإمكانه الذاتي، وليس بعدمه الذاتي . وبعبارة أخرى: هو مسبقية وجود الشيء بنوع عدم، وهو عدم الوجود أو عدم الضرورة، أي أن ذات الشيء لا تقتضي الوجود، وإنما هو موجود بسبب خارجي، غير ذاته .

إن كل موجود ممكن ذاته لا تقتضي الوجود، لأن كل ماهية ممكنة ليس لها بذاتها الوجود، بل وجودها بعلة خارجية، ولهذا نقول: إنَّ العدم يجامع وجود هذه الماهية، لأنه ما دامت ذاتها لا تقتضي الوجود،

إذاً هي بذاتها ليست موجودة، بل هي بذاتها معدومة، فالعدم يجمع وجودها، ووجودها إنما يتحقق بسبب علة خارجية، وليس من ذاتها .

فالحادث الذاتي هو الشيء الذي يسبق عدمه وجوده، أي مسبوقية وجود الشيء بالعدم في ذاته، وهذا العدم هو عدم مجامع لا عدم مقابل، بينما العدم السابق في الحادث الزماني هو العدم المقابل .

- القدم الذاتي:

مقابل الحدوث الذاتي القدم الذاتي، وهو الشيء الذي يكون متصفاً بذاته بالوجود، أو هو الشيء الذي تقتضي ذاته الوجود، كواجب الوجود .

وبعبارة فلسفية: هو عدم مسبوقية الشيء بالعدم في ذاته . بينما الحادث ذاتاً، هو مسبوقية الشيء بالعدم بذاته .

فإذا كانت الذات هي عين حقيقة الوجود، حينئذ يكون هذا الشيء قديم ذاتاً .

والقديم الذاتي هو الواجب تعالى، الذي حقيقته وجوده، أما الحادث فغيره من الموجودات الممكنة .

- الحدوث الدهري:

إنّ الموجودات الطبيعية، الموجودة في عالم الطبيعة، كل واحد منها لابد أن يقع في الزمان، ولكي يكون زمان لابد من حركة ولكي توجد حركة لابد من مادة، لأن المادة هي التي تتحرك، فإذا كان العالم مجرداً فلا توجد مادة وبالتالي فلا حركة، وإذا لم توجد حركة فلا وجود للزمان، فالموجودات المجردة غير المادية لا تكون موجودة في زمان .

وبعبارة أخرى: يقول الحكماء هناك سلسلتان للوجود، سلسلة عرضية وسلسلة طولية، والموجودات العرضية هي عالم الطبيعة، أي هذه الموجودات المادية الموجودة في رتبة واحدة، فهذه كلها موجودات زمانية توجد وتحقق بالزمان.

وهناك موجودات أخرى غير زمانية، أي إنها موجودة خارج دائرة الزمان، وهي الموجودات في العوالم الأخرى للوجود، التي تقع في مرتبة أعلى من عالم الطبيعة، فالموجود في زمان معين، يعني أنه موجود في عالم الطبيعة، وهذا الموجود لا بد أن يكون عدمه سابقاً لهذا الزمان الموجود فيه.

بينما في العوالم الأخرى التي يقول بها الفلاسفة، كعالم المثال توجد موجودات، وهذه الموجودات مجردة، أي إنها موجودة خارج الزمان، أو قل: إنها موجودة في عالم الدهر، حسب تعبير الميرداماد.

إذاً الموجودات في عالمنا، كالكتاب مثلاً، غير موجودة في ذلك العالم بوجودها المادي، حتى يكون وجودها مسبقاً بعدمها الزماني، لأنه لا يوجد زمان في ذلك العالم، وإنما وجودها يكن مسبقاً بعدمها فما كان وجوده مسبقاً بعدم الدهري يكون حادثاً دهرياً، وما لم يكن وجوده مسبقاً بعدم الدهري يكون قديماً بالقدم الدهري، هذا هو الحدوث والقدم الدهري.

الدلائل القرآنية على مسألة حدوث العالم وقدام الله تعالى

ان النتيجة التي توصل اليها الفلاسفة هي ، فيفترض أنه لو كان الزمان محدثاً وليس قديماً ، سيلزم عن ذلك أن يكون قبل الزمان زمن سابق عليه ، ولكن (قبل وبعد) تصوران يفترضان وجود الزمان ذاته ، فالزمان إذاً قديم لا بداية له

هم يقولون ان الزمان قديم لو كان محدثا سيلزم عن ذلك أن يكون قبل الزمان زمن سابق عليه فاذا تم اثبات ان هناك زمن سابق على الزمن الذي نعرفه فهذا يعني ان العالم حادث لأن وجوده مرتبط بالزمان

وهناك نصوص قرآنية عديدة تدلنا على حقيقة حدوث الكون ومنها :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ التوبة : 36

ولقد فهمنا ما في هذه الآية من دلائل على بدء الزمان وحدوثه .

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيُنبِّئَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

وَلَنْ قُلْتُ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [هود : 7]

هذه الآية توضح لنا ان قبل ان يخلق الله السموات والأرض في ستة أيام كان عرشه على الماء

قال ابن عاشور:

والمناسبة أن خلق السموات والأرض من أكبر مظاهر علم الله وتعلقات قدرته وإتقان الصنع، فالمقصود

من هذا الخبر لازمه وهو الاعتبار بسعة علمه وقدرته، وقد تقدم القول في نظيرها في قوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ في سورة [الأعراف: 54].

وجملة: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ يجوز أن تكون حالاً وأن تكون اعتراضاً بين فعل (خلق) ولام

التعليل .

والمعنى إن العرش كان مخلوقاً قبل السموات وكان محيطاً بالماء أو حاوياً للماء .

وحمل العرش على أنه ذات مخلوقة فوق السموات هو ظاهر الآية .

وذلك يقتضي أن العرش مخلوق قبل ذلك وأن الماء مخلوق قبل السموات والأرض .

وتفصيل ذلك وكيفيته وكيفية الاستعلاء مما لا قبل للأفهام به إذ التعبير عنه تقريب .

ويجوز أن يكون المراد من العرش ملك الله وحكمه تمثيلاً بعرش السلطان، أي كان ملك الله قبل خلق السموات والأرض مُلكاً على الماء .

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد : 3]

وقد بينا في بحث مفصل مامعنى هو الأول والآخر والظاهر والباطن والأول تفيد بأن لا شيء قبله فهو القديم الأزلي .

أيام الله

الساعة القيامة البعث الحساب

ان هذا المبحث هام جدا وهو يبين الأمور المتعلقة بالساعة والقيامة والبعث والحساب وهي من المواقيت والأيام العصبية على الانسان فالله سبحانه وتعالى لم يخلقنا عبثا وباطلا لذلك فإنه وعد بأن يكون في نهاية المطاف يوما للحساب والله لا يخلف وعده ووعد أنبياءه ورسله .

وسنبحث هذه الأمور على التوالي

الساعة

﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: I]

ومعنى الساعة لغة: جزء من أجزاء الليل والنهار، جمعها: "ساعات، وساع"، والليل والنهار معاً أربع وعشرون ساعة.

والساعة اصطلاحاً:

الوقت الذي تقوم فيه القيامة، وتنتهي فيه حياة المخلوقات، ويضطرب الكون، وسُميت بذلك لسرعة الحساب فيها، أو لأنها تفجأ الناس في ساعة؛ فيموت الخلق كلهم بصيحة واحدة.

وقال الراغب في "المفردات":

الساعة: جزء من أجزاء الزمان، ويُعبّر به عن القيامة قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر: I]، وقال سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأعراف: I87] وقال - عز وجل - : ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [الزخرف: 85].

والساعة: الوقت الذي تقدم فيه القيامة، وسُميت الساعة: لأنها تفاجئ الناس في ساعة؛ فيموت الخلق كلهم بصيحة واحدة.

موعد الساعة ووقتها

أكثر ما سأل الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام من قبل أصحابه عن الساعة متى تقوم وأحداثها ووقائعها وأهوالها فهو بلا شك من الأحداث العظيمة يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا

رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿ [الحج : I] فالمولى عزوجل سماها بالشئ العظيم فكيف يكون الأمر بالنسبة لنا من أهوالها ووقائعها .

ولقد أختص الله سبحانه وتعالى لوحده بميقات الساعة ولحظة وقوعها وهو أمر لم يطلع عليه كائننا من كان من مخلوقاته جميعا .

وهناك نصوص قرآنية كثيرة تبين لنا ذلك :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ [الأعراف : 187] .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿ [لقمان : 34]

﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿ [الأحزاب :

[63

وهناك نصوص قرآنية تبين وتعطي إشارات بأن الساعة قد اقتربت ومنها :

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿ [الأحزاب : 63]

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿ [الأنبياء : I]

﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا

ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء : 97]

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر : I]

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى : 17]

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ

أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف : 185]

ان كل هذه النصوص توحى بأن الوعد الحق قد اقترب وهذا يعني اننا نعيش كبشر في الزمن الأخير من

عمر البشرية .

مفارقة غريبة

لقد تنبأ ما يعرف باسم مجلس علماء الذرة العالمي بأن موعد النهاية قد اقترب والخبر سأضعه كما

أخذته من المجلة الناطقة باسم هذا المجلس :

العالم يجبس أنفاسه . . مجلس علماء الذرة يعلن تحديث "ساعة القيامة"

Bulletin of the Atomic Scientists move the 'Doomsday Clock' hands to
two minutes until midnight in Washington

آخر تحرك لعقارب "ساعة يوم القيامة" قبل عام كان عند 100 ثانية قبل منتصف الليل (رويتز)

20 في I/2023 .

أعلن مجلس العلوم والأمن التابع لنشرة علماء الذرة أنه سيعلم يوم 24 يناير/كانون الثاني الجاري عن تحديث "ساعة يوم القيامة" (Doomsday Clock)، المصممة للتنبؤ بمدى قرب البشرية من الإبادة المروعة.

وقال المجلس إنه "سيقرر الثلاثاء المقبل ما إذا كان الموعد نفسه الذي أعلن عنه سابقاً، وهو تثبيت عقارب الساعة عند 100 ثانية قبل منتصف الليل، أم إن هناك تغييراً ما في الأمر".

و"ساعة القيامة" هي ساعة رمزية أنشأها عام 1945 علماء، بعضهم شارك في برنامج صنع القنبلة النووية، ضمن خطة "نشرة علماء الذرة"، التي تضم إلى جانب الساعة خدمات علمية أخرى، ويتخذ العلماء قراراً بشأن تحريك عقارب الساعة من عدمه بناء على مؤشرات تحسن وضع العالم في مواجهة الأخطار النووية والمناخية.

وفي 21 يناير/كانون الثاني 2022، أجرى المجلس تثبيت عقارب الساعة عند 100 ثانية فقط قبل "ساعة الصفر"، وهي 12 منتصف الليل.

وقالت النشرة إنها ستأخذ في الاعتبار التغيرات الجديدة التي طرأت على العالم، مثل الحرب الروسية الأوكرانية، والتهديدات البيولوجية، وانتشار الأسلحة النووية، وأزمة المناخ المستمرة، وحملات التضليل التي ترعاها الدولة والتقنيات التخريبية .

ووفق ما تنبؤوا به فإنه لم يبق من عمر البشرية سوى مئة ثانية فقط وهذا يعني أننا وفق تنبأهم نعيش في الدقيقتين الأخريتين ولا بد من الإشارة هنا أنهم يرجعون سبب هلاك البشرية ودمار الكوكب الى ما يقوم به الانسان من صنع القنابل الذرية والهيدروجينية والحروب وتغيرات الطقس وضعف طبقة الايزون والى غير ذلك من الاعتبارات بينما نحن نؤمن بذلك ايمانا قاطعا لأن الذي خلق الكون والحياة هو الذي يبنانا بذلك والله هو العليم الحكيم .

حدوث الساعة بغتة

﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [يوسف : 107]

﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ [الحج : 55]

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النحل : 77]

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الزخرف : 66]

ان هذه النصوص القرآنية توضح لنا بصورة جلية بأن الساعة تأتي بغتة لكن ما معنى بغتة

بُعْتَةٌ (٥٥ الزمر) فجأة

بُعْتَةٌ (٩٥ الأعراف) بعته: فجأة.

بغت البغت: مفاجأة الشيء من حيث لا يحتسب.

تعريف و معنى بعته في معجم المعاني الجامع

بُعْتَةٌ: (اسم)

بُعْتَةٌ : مصدر بَعَتَ

بُعْتَةٌ: (اسم)

الجمع : بَعَاتٍ وَبُعَاتٍ

مصدر بَعَتَ

جاءهُ بُعْتَةٌ : فِجَاءٌ، عَلَى غِرَّةٍ عَلَى بُعْتَةٍ

فمعنى بعته في اللغة والقرآن الكريم فجأة بدون مقدمات والسؤال الذي يطرح نفسه هو ما هي اذن

الأشراط التي ذكرت في الآية الكريمة :

﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ [محمد :

I8] والله يقول فقد جاء أشراطها فما معنى أشراطها وماهي .

ان أكثر ما أطلعت عليه من تفاسير يتفق على أن أشراط الساعة قد تحققت او جاءت

التفسير الميسر : ما ينتظر هؤلاء المكذبون إلا الساعة التي وُعدوا بها أن تبيئهم فجأة، فقد ظهرت

علاماتها ولم ينتفعوا بذلك، فمن أين لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة؟

المختصر في التفسير : شرح المعنى باختصار

فهل ينتظر الكفار إلا أن تأتيهم الساعة فجأة من غير سابق علم لهم بها؟! فقد جاءت علاماتها، ومنها

بعثته صلى الله عليه وسلم، وانشقاق القمر، فكيف لهم أن يتذكروا إذا جاءتهم الساعة؟

تفسير الجلالين : معنى و تأويل الآية 18

«فهل ينظرون» ما ينتظرون، أي كفار مكة «إلا الساعة أن تأتيهم» بدل اشتمال من الساعة، أي ليس

الأمر إلا أن تأتيهم «بغثة» فجأة «فقد جاء أشرطها» علاماتها: منها النبي صلى الله عليه وسلم

وانشقاق القمر والدخان «فأنى لهم إذا جاءتهم» الساعة «ذكراهم» تذكرهم، أي لا ينفعهم.

تفسير السعدي : فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغثة فقد

أي: فهل ينظر هؤلاء المكذبون أو ينتظرون ﴿إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ - أي: فجأة، وهم لا

يشعرون ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ - أي: علاماتها الدالة على قربها. ﴿فَأَنى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ

ذُكْرَاهُمْ﴾ - أي: من أين لهم، إذا جاءتهم الساعة وانقطعت آجالهم أن يتذكروا ويستعبوا؟ قد فات

ذلك، وذهب وقت التذكر، فقد عمروا ما يتذكر فيه من تذكر، وجاءهم النذير. ففي هذا الحث على

الاستعداد قبل مفاجأة الموت، فإن موت الإنسان قيام ساعته.

حالة إشكالية

اننا وجدنا أنفسنا في حالة إشكالية مفادها اذا كانت الساعة ستقع فجأة وكلمح
البصر فهل ذلك سيكون بعد مجئ أشراتها أي العلامات الدالة على وقوعها
والنص القرآني يقول (فقد جاء أشراتها) ؟

ان هذا الاشكال سنحله في الرجوع الى معجم اللغة العربية للتفريق بين معنى جاء وأتى اذ ان هناك نص
قرآني يفيد بأن أمر الله قد أتى ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ النحل I
فما الفارق بين فعل جاء في جاءت أشراتها وفعل أتى في أتى أمر الله فلا تستعجلوه .

أتى لمن يأتي بدون سابق علم بقدومه أو بدون دعوة أو المجهول مثل (وأتاهم العذاب من حيث لا
يشعرون) لذلك قال الله سبحانه وتعالى أتى أمر الله أي الحدث الذي لم يسبقه علم بقدومه أو بدون
دعوة فهو سيكون فجأة وبغته .

اما فعل جاء تستخدم عند قدوم الشخص أو الشيء الذي أجمع العقلاء على فائدته أو المرغوب به أو
المفرح أو يحتمل مسرة أو حزنا عند قدومه مثال (فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا)
الآن يمكننا القول في حل هذه الإشكالية ان معنى (قد جاء أشراتها) أي تحققت وأتضحت

او هي ستتحقق وتوضح لأن هذه الأشرط هي واقعة لا مفر من ذلك .

واذا أن نربط الحديثين بعضهما ببعض فنقول ان أمر الله أتى فلا تستعجلوه لأن المولى القدير قد رتب له
مقدمات لتحققه بالفعل هذه المقدمات هي ما سمي بالأشرط أو أشراتها أي الساعة .

ذكرنا ان اشراط الساعة هي العلامات الدالة على إقتراب قيام الساعة، وهي تسبق نهاية العالم و قيام القيامة، و بظهور هذه العلامات و الدلالات يتبين للناس بأن قيام الساعة بات قريباً جداً، و هذه العلامات كثيرة ذكرت في القرآن الكريم و الأحاديث المختلفة.

القسم الأول اشراط الساعة المذكورة في القرآن الكريم

بعثة خاتم الأنبياء محمد المصطفى (صلى الله عليه و آله)

فهي الرسالة النبوية الأخيرة وهو خاتم الرسل و النبيين و أنزل عليه القرآن الكريم وهو آخر كتاب منزل من الله و به أتم الله و أكمل الدين الذي أرتضاه للناس و هذا مؤشر على اقتراب نهاية الزمان .

انذكاء السد و خروج يأجوج و ماجوج، قال الله عزَّ و جلَّ: ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ 3.

إتيان السماء بدخان مبین، قال عزَّ من قائل: ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يُغشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا اكشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ * أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ * إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴾ 4.

نزول السيد المسيح عليه السلام، قال جَلَّ جَلالُه: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مِثْلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونُ *
وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ
وَجَعَلْنَاهُ مِثْلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلِفُونَ * وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِلسَّاعَةِ فَلَا
تَمَرَّنَ بِهَا وَاتَّبَعُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ 5.

خروج دابة من الأرض، قال سبحانه و تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ
تَكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ 6.

القسم الثاني من اشراط الساعة

أما القسم الثاني من أشراط الساعة فهي تلك الأحداث التي تقع قبيل قيام الساعة و تحدث تحولا
عظيماً تكون فيه نهاية العالم. ولقد تحدّث القرآن الكريم > بإسهاب حول هذه العلامت و الأشرط، و هي
من قبيل:

تلاشي النظام الكوني .

تكوير الشمس و القمر .

انكدار النجوم و تناثرها .

تفجير البحار و تسجيرها .

تسيير الجبال .

إلى غيرها من الحوادث العظيمة التي بها يتبدل النظام الكوني، يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ
الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ 8.

القسم الثالث من اشراط الساعة

هناك قسماً آخر لأشراط الساعة وهو تغيير سلوك الناس إلى الأسوأ عدا الصالحين والمؤمنين الصادقين
منهم .

فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ حَجَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله) حِجَّةَ الْوُدَّاعِ فَأَخَذَ بِحَلْقَةِ
بَابِ الْكَعْبَةِ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ: "أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟ وَكَانَ أَدْنَى النَّاسِ مِنْهُ يُؤَمِّدُ
سَلْمَانَ رَحْمَةً لِّلَّهِ عَلَيْهِ .

فَقَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ!

فَقَالَ (صلى الله عليه وآله): "إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ الْفِيَاةِ إِضَاعَةَ الصَّلَوَاتِ وَاتِّبَاعَ الشَّهَوَاتِ، وَ الْمَيْلَ إِلَى
الْأَهْوَاءِ وَ تَعْظِيمَ أَصْحَابِ الْمَالِ، وَ بَيْعَ الدِّينِ بِالْدُّنْيَا، فَعِنْدَهَا يَذُوبُ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ فِي جَوْفِهِ - كَمَا يَذَابُ
الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ مِمَّا يَرَى مِنَ الْمُنْكَرِ - فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُغَيِّرَهُ".

قَالَ سَلْمَانُ: وَإِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

قَالَ: "إِي وَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ يَا سَلْمَانُ! إِنَّ عِنْدَهَا يَلِيهِمْ أُمْرَاءُ جَوْرَةٌ وَ وُزَرَاءُ فَسَقَةٌ، وَ عُرَفَاءُ ظَلَمَةٌ،
وَ أَمْنَاءُ خَوْنَةٌ".

فَقَالَ سَلْمَانُ: وَإِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟!

قَالَ (صلى الله عليه وآله): إِي وَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ يَا سَلْمَانُ، إِنَّ عِنْدَهَا يَكُونُ الْمُنْكَرُ مَعْرُوفًا وَ
الْمَعْرُوفُ مُنْكَرًا - وَيُؤْتَمَنُ الْخَائِنُ وَيُخَوَّنُ الْأَمِينُ - وَيُصَدَّقُ الْكَاذِبُ وَيُكَذَّبُ الصَّادِقُ".

قَالَ سَلْمَانُ: وَإِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

قَالَ (صلى الله عليه وآله): "إِي وَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ"

علامات الساعة الصغرى

أَنَّ علامات الساعة الصغرى كثيرة جداً يضيق المجال لحصرها، ولم يرد دليل ثابت في ما يتعلق بترتيبها، إذ
إِنَّ كُلَّ مَا وَرَدَ فِي كِتَابِ أَهْلِ الْعِلْمِ إِنَّمَا هُوَ اجْتِهَادٌ فِي تَرْتِيبِهَا حَسَبَ مَا وَجَدُوهُ أَكْثَرَ وَضُوحاً لَدَيْهِمْ، أَوْ
بِحَسَبِ وَقَعِ الْحَالِ وَمَا اقْتَضَتْهُ الْحَوَادِثُ بِتَقْدِيمِ إِحْدَى الْعَلَامَاتِ عَلَى غَيْرِهَا . إِعْلَانٌ لَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ
مَعْنَى عِلَامَاتِ السَّاعَةِ قَبْلَ الْخَوْضِ فِي عِلَامَاتِ السَّاعَةِ الصَّغْرَى وَتَرْتِيبِهَا؛ فَهِيَ تُعْرَفُ فِي اللُّغَةِ بِأَنَّهَا: سِمَةٌ
أَوْ شِعَارٌ أَوْ أَمَارَةٌ تُعْرَفُ بِهَا الْأَشْيَاءُ، وَجَمْعُهَا عِلَامَاتٌ،

أَمَّا فِي الْإِصْطِلَاحِ فَهِيَ: الْأَمَارَاتُ الَّتِي تَسْبِقُ قِيَامَ السَّاعَةِ، وَتَكُونُ مِنَ النَّوْعِ الْإِعْتِيَادِيِّ لِلنَّاسِ، كَشَرْبِ
الْخَمْرِ وَالْجَهْلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَمِنْهَا مَا يَكُونُ قَبْلَ عِلَامَاتِ السَّاعَةِ الْكُبْرَى، وَمِنْهَا مَا يَكُونُ مَصَاحِباً لَهَا،
وَمِنْهَا مَا يَكُونُ بَعْدَ ظَهْوَرِ بَعْضِ تِلْكَ الْعِلَامَاتِ . وَتُعَدُّ عِلَامَاتِ السَّاعَةِ الْكُبْرَى الْأَقْرَبَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ،
بِمُخَالَفَةِ عِلَامَاتِ السَّاعَةِ الصَّغْرَى فَهِيَ أَبْعَدُ مِنَ الْعِلَامَاتِ الْكُبْرَى، ثُمَّ إِنَّ عِلَامَاتِ السَّاعَةِ الْكُبْرَى لَهَا أَثَرٌ
كُونِي كَبِيرٌ يَشْعُرُ بِهِ النَّاسُ جَمِيعاً بِلَا اسْتِثْنَاءٍ، بِمُخَالَفَةِ عِلَامَاتِ السَّاعَةِ الصَّغْرَى الَّتِي قَدْ تَحْصُلُ فِي مَكَانٍ
دُونَ آخَرَ، وَلِأَنَّاسٍ دُونَ أَنَاسٍ .

ويمكن تقسيم علامات الساعة الصغرى إلى أقسام؛ قسم للعلامات التي لم تظهر بعد، وقسم وقع وحصل، وقد يكون مُتكرر الوقوع، بحيث إنه قد يتكرر في المستقبل، وقسم تدريجيّ الظهور؛ بمعنى أنه وقع وما زال مستمرّاً بالظهور.

العلامات الصغرى التي ظهرت وانقضت تُعدّ العلامات الصغرى التي ظهرت وانقضت كثيرة، ومنها ما يأتي: بعثة النبي محمد وموته فلما بُعث النبي محمد -صلى الله عليه وسلم-، دلّ ذلك على اقتراب الساعة، كما قال عليه الصلاة والسلام: (بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ، وَيُرْزَنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَابَةُ، وَالْوَسْطَى) كما دلّ على اقتراب الساعة موته -عليه السلام- فقد قال: (اعْدُدْ سِنًا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ: مَوْتِي). معجزة انشقاق القمر في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- انشق القمر بمعجزة لم يشهد لها العرب مثيلاً، وقد ذُكر ذلك في القرآن في قوله -تعالى-: (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ).

ومن هذه العلامات أيضاً نار عظيمة تخرج من أرض الحجاز يقول -عليه الصلاة والسلام-: (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ تُضِيءُ أَغْنَاقَ الْإِبِلِ بِبُصْرَى)، وفي عام ستمئة وأربعة وخمسين للهجرة، ظهرت هذه النار العظيمة، وقد أفاض أهل العلم في الكتابة عنها آنذاك، وهذه غير النار التي ستظهر آخر الزمان لتطرد الناس إلى محشرهم.

ولادة الأمة ربّتها قد جاء جبريل عليه السلام إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- بهيئة رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر فجلس عند النبي -صلى الله عليه وسلم- وأخذ يسأله إلى أن قال: (فأخبرني عن الساعة، قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل قال: فأخبرني عن أمارتها، قال: أن تلد

الأمة رَبَّتْهَا)، وقد اختلف أهل العلم في معنى ذلك على عدة أقوال لخصها ابن التين في ما يأتي: أن تتسع رقعة الدولة الإسلامية، وتُسبى نساء البلدان التي فتحها المسلمون، فتكثر الجوارى، فإذا ولدت الجارية ولداً لملكها، كان بمثابة ربها؛ لأنه ولد سيدها. أن يبيع ملك الجوارى أمهات أولادهم، فيكثر تداولهن بين الممالك حتى يشتريها ولدها وهو لا يشعر بذلك. أن تلد الجارية حراً من غير سيدها، كأن تزني أو يتم وطؤها بشبهة أو بنكاح، ثم تُباع بيعاً صحيحاً، إلى أن يشتريها ولدها.

أن يكثر عقوق الأولاد لأمهاتهم، فيمتن الولد أمه ويسبها ويضربها، فأطلق عليه اسم ربها مجازاً. العلامات الصغرى التي ظهرت ولم تنقض كثرة المال والاستغناء عن الصدقة إذ يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمْ الْمَالُ، فَيَفِيضَ حَتَّى يَهْمَ رَبَّ الْمَالِ مَنْ يُقْبَلُ صَدَقَتَهُ، وَحَتَّى يُعْرِضَهُ، فَيَقُولَ الَّذِي يُعْرِضُهُ عَلَيْهِ: لَا أَرَبَ لِي فَبَيْنَ الْحَدِيثِ أَنَّ اللَّهَ -عز وجل- سيعطي الأمة الكثير من الكنوز حتى لا تجد رجلاً محتاجاً يقبلها، وقد حدث ذلك في زمن الصحابة -رضوان الله عز وجل- عليهم؛ إذ كثرت الفتوحات الإسلامية وفاضت الكنوز عليهم من اقتسام أموال الفرس والروم، وحدث ذلك أيضاً في زمن عمر بن عبدالعزيز -رحمه الله- حتى أصبح الرجل يعرض الصدقة فلا يجد من يقبلها منه، وهذا -والله أعلم- سيتكرر وقوعه في زمن المهدي وعيسى -عليه السلام-.

ظهور الفتن المقصود بالفتن هنا ما يقع في الناس من أمور يكرهونها من كفرٍ وقتلٍ وعصيانٍ وما شابه ذلك من الأمور، وقد حذر النبي -صلى الله عليه وسلم- أمته من الفتن العظيمة التي ستظهر فيهم، ووجههم إلى الالتزام بجماعة المسلمين والإيمان بالله، قال -صلى الله عليه وسلم-: (بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقَطْعِ

اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُؤْمِنُ كَافِرًا، أَوْ يُؤْمِنُ مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بَعْرَضٍ مِّنَ الدُّنْيَا) .

انتشار الأمن ذلك بأن يسود الأمن البلاد الإسلامية، فينتقل المسلم ويسافر من مكانٍ إلى آخر لا يخشى على نفسه ولا أهله ولا ماله ولا عقله ولا دينه شيئاً، فقد قال عدي ابن حاتم الطائي: (بَيْنَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ آتَاهُ رَجُلٌ فَشَكَا إِلَيْهِ الْفَاقَةَ، ثُمَّ آتَاهُ آخَرُ فَشَكَا إِلَيْهِ قَطْعَ السَّبِيلِ، فَقَالَ: يَا عَدِي، هَلْ رَأَيْتَ الْحَيْرَةَ؟ قُلْتُ: لَمْ أَرَهَا، وَقَدْ أُبْنِتُ عَنْهَا، قَالَ فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ، لَتَرَيْنَ الظُّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الْحَيْرَةِ، حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ) .

وقد حدث ذلك في زمن الصحابة -رضوان الله عليهم-، وذلك حين فتحوا البلدان وانتشر الإسلام فيها، وسيعود ذلك حين يظهر المهدي وعيسى -عليه السلام- .

ضياح الأمانة الأمانة هي التكليف، بأن يتبع الإنسان ما أمر الله به، ويحْتَنِبُ ما نهى عنه، وهي ضدّ الخيانة، وقد بين النبي -صلى الله عليه وسلم- أن الأمانة ستنزع من القلوب، فيصير الرجل من أهل الخيانة بعد أن كان من الصالحين؛ وذلك لزوال خشية الله من قلبه، وفي تلك الفترة يضيع الناس دينهم فيسند الأمر إلى غير أهله، يقول -عليه الصلاة والسلام-: (فَإِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَاتَّظَّرِ السَّاعَةَ، قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: إِذَا وُسِدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَاتَّظَّرِ السَّاعَةَ)

انتشار الزنا ذلك بأن يشيع الزنا بين الناس، بل إنهم يستحلونه، وذلك زمان تكون فيه الذمم قد فسدت حتى إن الرجل قد يفعل ذلك جهاراً نهاراً بين الخلائق كما أخبر -عليه الصلاة والسلام- في قوله: (مِنَ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، ذَكَرَ مِنْهَا - وَيُظْهِرُ الزَّانَا) .

انتشار الربا يشيع الربا بين الناس، فلا يبالي أحدهم بالمال الذي يأخذه حلال أم حرام، ويُرى ذلك جلياً في هذا الزمان، يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، لَا يُبَالِي الْمَرْءُ بِمَا أَخَذَ الْمَالَ، أَمِنْ حَلَالٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ) .

كثرة شرب الخمر واستحلالها ذلك بأن تنتشر هذه الخمر بين الناس، ويظهر من يعتقد حلها ، وقد انتشر ذلك في الزمن الحاضر بشكل كبير، حتى أصبحت تُشرب وتُباع جهاراً، وسُميت بالمشروبات الروحية، يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يَشْرَبُ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا) .

التطاول في البنيان هذه الأمانة بدأت بالظهور منذ عصر النبوة تقريباً، حين بدأت رقعة الدولة الإسلامية بالانتساع والظهور، وأخذت الأموال تُغدق على المسلمين، وبعد مدة من الزمان وكثرة المال، أصبح الناس يتنافسون في الدنيا حتى وصل ذلك إلى أهل البادية، وأشباههم من أهل الفقر، فأخذ الناس بالمباهاة في بناء البيوت والمباني، حتى أن الشخص يريد أن يبني ما هو أكبر وأعلى مما بنى غيره، إلى أن وصل بهم الحال في عصرنا إلى بناء ما يُسمى بناطحات السحاب، وقد ذكر ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- بقوله: (وَإِذَا تَطَاوَلَ رِعَاءُ الْبَيْتَانِ فِي الْبُنْيَانِ، فَذَلِكَ مِنْ أَسْرَاطِهَا) .

كثرة القتل يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ الْهَرْجُ قَالُوا: وَمَا الْهَرْجُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الْقَتْلُ الْقَتْلُ) [٣٢]، وقد ظهر هذا منذ مقتل عثمان بن عفان -رضي الله عنه-، وما زال مُستمرّاً إلى يومنا هذا؛ فقد فسدت النفوس، وخفت العقول، وانتشرت الأسلحة الفتاكة، وكثرت الحروب، لا يدري القاتل فيم قتل، ولا المقتول فيم قتل .

رفع العلم وانتشار الجهل إذ يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ لَأَيَّامًا، يُنَزَّلُ فِيهَا الْجَهْلُ، وَيُرْفَعُ فِيهَا الْعِلْمُ)، [٣٣] والمقصود هنا ليس غياب العلم، فإن العلم موجود، ولكن قلة العلماء الصالحين الذين يُعلِّمون الناس أمور شرعهم، فالجامعات حاليًا أبوابها مفتوحة، ولكن قلما تجد عالماً مع تُوفّر كل السبل لذلك .

السلام للمعرفة فقط ذلك بأن لا يسلم المرء إلا على من يعرفه، فيترك الناس السلام بينهم بحجة أنهم لا يعرفون بعضهم، يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُسَلَّمَ الرَّجُلُ عَلَى الرَّجُلِ لَا يُسَلِّمُ عَلَيْهِ إِلَّا لِلْمَعْرِفَةِ) وهذا الفعل مخالف لسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي أمر بإفشاء السلام بين الناس، سواءً المعروفين أو غير المعروفين؛ لنشر الألفة، والمحبة بينهم .

يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ تَسْلِيمَ الْخَاصَّةِ وَفُشُوَ التَّجَارَةِ ، حَتَّى تَعَيَّنَ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا عَلَى التَّجَارَةِ

وقطع الأرحام وشهادة الزور وكتمان الحق وظهور القلم)، وذلك بأن يشهد الرجل الشهادة فيكذب فيها، وهي من أكبر الكبائر عند الله -عز وجل- .

زخرفة المساجد والتباهي بذلك يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد)، إن المساجد أماكن للعبادة وليست أماكن للزخرفة والتباهي والمبالغة في تزيينها .
رفض السنّة يقول عليه الصلاة والسلام: (يُوشِكُ أَنْ يَقْعُدَ الرَّجُلُ مُتَكَبِّراً عَلَى أَرِيكَتِهِ ، يُحَدِّثُ بِحَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِي ، فيقولُ : بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللَّهِ ، فما وجدنا فيه من حلالٍ اسْتَحْلَلْنَاهُ، وما وجدنا فيه من حرامٍ حَرَمْنَاهُ، أَلَا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ مِثْلَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ) ، حيث ظهر في زماننا أناس يدعون الأخذ

من القرآن ويحثون على ترك الستة، يطلقون على أنفسهم مسمى القرآنيين؛ فالستة هي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، تأتي مفسرة وموضحة ومبيّنة ومُقيّدة ومُخصّصة ومُضيفة لما ورد في القرآن الكريم، فلا يمكن الاستغناء عنها مجال من الأحوال.

كثرة الظالمين الذين يضربون الناس بالسياط، يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إِنْ طَالَتْ بِكَ مُدَّةٌ، أَوْشَكْتَ أَنْ تَرَى قَوْمًا يُعْدُونَ فِي سَخَطِ اللَّهِ، وَيُرْوَحُونَ فِي لَعْنَتِهِ، فِي أَيَدِهِمْ مِثْلُ أذْنَابِ الْبَقَرِ). .

ظهور الكاسات العاريات كما ورد في الحديث الشريف: (صِنْفَانِ مِنَ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا، قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يُضْرَبُونَ بِهَا النَّاسُ، وَنِسَاءٌ كَأَسِيَّاتِ عَارِيَّاتٍ مُمِيلَاتٍ مَائِلَاتٍ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ، وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا).

فهنّ نساء مائلات عن طاعة الله -عز وجل-، مُميلات لمن رافقهنّ عن صواب الطريق، يلبسن من اللباس ما لا يستر عوراتهنّ بل ويشفّ عنها، ويضعن فوق رؤوسهن ما يجعل رؤوسهن كَأَسْنِمَةِ الْإِبِلِ، وهذا يحصل في المجتمع في الوقت الحاضر.

كثرة الكذب يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ كَذَّابِينَ فَاحْذَرُوهُمْ)، فقد كثرت الكذب في أزمان خلت، ولكن تجلّى هذا الأمر وزاد في الزمن الحالي، فقد يكذب الوالد على ولده، أو الزوج على زوجته، أو البائع على المشتري، وأمثلة ذلك كثيرة من صور الكذب.

انتشار التجارة يقول -عليه الصلاة والسلام-: (بين يدي الساعة تسليم الخاصة وفشو التجارة حتى تعين المرأة زوجها على التجارة) ، وذلك ظاهر جلي في زماننا، فلا تكاد تجد مكاناً إلا وفيه من التجار ومحالهم الكثير.

قطع الأرحام يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لإن بين يدي الساعة تسليم الخاصة -وذكر منها- وقطع الأرحام)، وقد ساد هذا الأمر في زماننا .

اختلال المقاييس يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تأتي على الناس سنوات خداعات يصدق فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن ويحون فيها الأمين، وينطق الرؤيضة قيل: يا رسول الله وما الرؤيضة؟ قال: الرجل التافه يتكلم في أمر العامة)، وهذا الأمر واضح حالياً .

العلامات الصغرى التي لم تظهر بعد عودة جزيرة العرب جنات وأنهاراً قيل بسبب الزراعة وحفر الآبار، ودليل ذلك قول النبي -عليه الصلاة والسلام-: (وحتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً) .

انحسار الفرات عن جبل من ذهب حيث يقتل الناس عليه، فيقتل من كل مئة تسعة وتسعون، وقد يكون انحسار النهر بسبب تحوّل الماء عن مجراه لسبب من الأسباب، أو لذهاب مائه فيكشف عن ذلك الجبل، قال -صلى الله عليه وسلم-: (لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب، يقتل الناس عليه، فيقتل من كل مئة، تسعة وتسعون، ويقول كل رجل منهم: لعلي أكون أنا الذي أنجو) .

ريح تقبض المؤمنين في الحديث الذي تكلم عن الدجال، يقول -عليه الصلاة والسلام-: (إذ بعث الله ريحاً طيبة، فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس، يتهارجون

فِيهَا تَهَارِجُ الْحُمْرُ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ)، دل الحديث على أن الريح تكون بعد يأجوج ومأجوج وخروج الدجال ونزول عيسى، بل وبعد خروج الدابة وطلوع الشمس من مغربها، حيث إن الدابة تخرج لتُفرق بين المؤمنين والكافرين، وطلوع الشمس مصاحب لذلك، فلو كانت الدابة قبل الريح، لما بقي مؤمن على الأرض.

يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُبْضَ الْعِلْمُ، وَتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ)، وهذا يكون مع نزول الخلافة إلى الأرض المقدسة، إذ تكثر الزلازل. ما يتبع علامات الساعة الصغرى ظهور المهدي هو رجلٌ رشيد من آل بيت النبي -صلى الله عليه وسلم-، يوافق اسمه اسم النبي -صلى الله عليه وسلم-، واسم أبيه اسم والد النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهو رجل يخرج في آخر الزمان، حين يكون الظلم قد ملأ الأرجاء، فيخرج ناشراً للعدل، مقيماً للدين، طارداً للأهواء، يقول -عليه الصلاة والسلام-: (لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا يَوْمٌ، لَطَوَّلَ اللَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ، حَتَّى يَخْرُجَ فِيهِ رَجُلٌ مِنِّي، أَوْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، يَواطِئُ اسْمُهُ اسْمِي، وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمَ أَبِي، يَمَلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا، كَمَا مَلَأَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا).

ظهور علامات الساعة الكبرى هي علامات عظام إذا ظهرت تكون الساعة على إثرها، وهي علامات مُتتابعات، إذا ظهر شيء منها تبعها باقي العلامات متوالية متقاربة الأزمان، وهي عشر علامات كما ورد في الحديث الآتي: (قَالَ: إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرُونَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ، فَذَكَرَ، الدُّخَانَ، وَالدَّجَالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلَاثَةَ حُسُوفٍ: حُسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَحُسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَحُسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ، تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ.).

ضوابط التعامل مع علامات الساعة تضافرت جهود أهل العلم قديماً وحديثاً في التأليف والكتابة في قيام الساعة والأمارات التي تسبقها، ولأن علم الساعة غيبٌ لا يعلمه إلا الله عز وجل، فإنه لا بُدَّ من نصٍّ صحيح يُؤخذ منه، والقول بغير علم والإخبار عن الغيب بلا قرينة ولا دليل يُجزم به قد يؤدي إلى مفسد عظيمة، كتكذيب الله -تعالى- ورسوله -صلى الله عليه وسلم-؛ فالإنسان غير مطالب بتنزيل أشراف الساعة على واقعه، ويُستثنى من ذلك أهل العلم المعتبرين -دون غيرهم-؛ إذ يُسوّغ لهم الاجتهاد في تنزيل هذه الأشراف على واقعهم بشرط ألا تترتب على ذلك مفسد أعظم.

القيامة

{لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} [القيامة : 1]

إن للقيامة شأنًا عظيمًا، فهذا الكون يتغير، ولو لم يكن يوم القيامة من الأحوال إلا تغير، هذا العالم العلوي والسفلي من الأرض والسماوات لكان ذلك كافيًا، فكيف بالعرض والحساب والبعث والصراف والميزان والحوض، كيف بالأحوال في النار، إن هذه التغيرات الهائلة التي تكون يوم القيامة تشمل هذا الكون كله

النفخ في الصور

ان النفخ في الصور هو أول مراحل يوم القيامة وقد اختلف المفسرين في عدد النفحات لكن القول الأكيد هي ثلاث نفحات

نَفْحَةُ الْفَزَعِ تَمَّ ذِكْرُهَا فِي سُورَةِ النَّملِ فِي قَوْلِهِ : وَيَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، وَنَفْحَةُ الصَّعَقِ وَالْقِيَامِ ذَكَرَهَا فِي

قوله: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نَفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ وهذه الأخيرة هي نفخة البعث .

مراحل وأهوال يوم القيامة

تبديل السماوات والأرض قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۗ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ، فإذا كانت أمور الدنيا تتحول بالأسباب الآن فعند قيام الساعة يحدث كل شيء بلا سبب، وتبدل الأرض والسماوات فتذهب السماء الدنيا وأرضها وتأتي سماء الميعاد وأرضها .

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ قَتَاتُونَ أَفْوَاجًا﴾ النفخ في الصور هو أول هولٍ من أهوال يوم القيامة فينبعث الناس من قبورهم للحساب .

انفتاح أبواب السماوات قال تعالى في سورة النبأ: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ ، تبدأ السماء الدنيا بالزوال والدمار وتفتح كالأبواب وتظهر فيها الشقوق .

تغير هيئة الأجرام السماوية قال تعالى في سورة التكويد: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ ، فالشمس تتكور وتصبح على غير هيئتها، وتخبو أضواء النجوم وتموج السماء ثم تنشق وتموج وتنصهر والله أعلم بكيفية ذلك كله .

تمدد الأرض وانبساطها قال تعالى في سورة الانشقاق: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ ، فتكون الأرض مبسوطة كلها وممدودة لا فيها تواءات ولا اعوجاجات ولا قمم ولا غيرها؛ وذلك حتى تسع للناس فيكون كلهم واقفون على استواء واحد ينتظر كل منهم حسابه .

خروج الكنوز والدفائن قال تعالى في سورة الانشقاق: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [٩] فيخرج كل ما في الأرض من الموتى المدفونين والكنوز فتلقي الأرض كل ما في باطنها على ظهرها وتتخلى عنه.

تسيير الجبال قال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [١٠] فمن أهوال يوم القيامة أن الله -تعالى- يسير الجبال إلى مصيرها.

اختفاء الجبال قال تعالى في سورة النبأ: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ ، والسراب هو الشيء الذي يتوهم وجوده، ومع أن الجبال هي أرسخ شيء على الأرض يضرب المثال به يُصبح هباءً وكأنه لم يكن في يوم.

نسف الجبال قال تعالى في سورة القارعة: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ ، فتختلف مصائر الجبال كل حسب طبيعته، فمنها ما يُسيره الله ومنها ما ينسفه، واللما تكون الجبال كالعهن أي ينسفها الله فتتفتت وتُصبح مثل الصوف المندوف.

تعرف الناس إلى بعضهم بعضاً قال تعالى في سورة يونس: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ ، فيشعر الناس حينها بقصر الحياة الدنيا مقارنة بالآخرة، ويتعرف الأب إلى أبنائه والناس إلى بعضهم ولكن الآن كل مشغول بنفسه.

مجيء الله والملائكة قال تعالى في سورة الفجر: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ ، فيأتي الله والملائكة صفاً بعد صفٍ متالين .

لقد ثبتنا بعض النصوص القرآنية التي نتحدث عن هذا اليوم العظيم

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي

الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : 73]

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ [الكهف : 99]

﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ [طه : IO2]

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [المؤمنون : IOI]

﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوٍّ دَاخِرِينَ ﴾

[النمل : 87]

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ [يس : 5I]

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ

قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ [الزمر : 68]

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴾ [ق : 20]

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ [الحاقة : I3]

﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ [النبأ : I8]

آيات قرآنية عن أهوال يوم القيامة

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا * يَوْمَئِذٍ يُصْدِرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: 1-8].

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُرْفِلَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أُخْضِرَتْ ﴾ [التكوير: 1-14].

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [الانفطار: 1-5].

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ * وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مُسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو بُرُورًا * وَيَصْلى سَعِيرًا * إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مُسْرُورًا * إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ * بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ [الانشقاق: 1-15].

البعث الحساب

يوم البعث

ان اليوم الذي يبعث الله من في القبور سماه الله يوم البعث قد ذكر مرتين في القرآن الكريم :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُّرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُؤَفِّي وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : 5]

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبُعْثِ فَهَذَا يُؤْمُ الْبُعْثِ وَلَكِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : 56]

أدلة البعث والجزاء

وقد عني القرآن الكريم بكثرة التذكير به، وأوردت أدلة على تحقيقه، حتى يترسخ الإيمان به في القلوب،

ويبطل شباهات المنكرين له . ومن هذه الأدلة :

قياس الأعادة على الابتداء ، فكما أن الله ابتداء الخلق ولم ينكره أحد من المشركين، فكذلك سيعيدهم بالبعث والنشور كما بدأهم أول مرة.

قياس البعث على إحياء الأرض بعد موتها ، قال تعالى: (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ١٩) [الروم: 19].

قياس البعث على خلق السماوات والأرض ، قال تعالى: (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ٨١ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ٨٢ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٨٣) [يس: 81-83].

يوم الحساب

إن من أعظم مشاهد يوم القيامة التي يجب الإيمان بها، والاستعداد لها: موقف الحساب، قال تعالى: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) الفاتحة: ؛ أي: الجزاء والحساب، والمقصود بالحساب أن يُوقف العباد بين يدي رب العالمين، ويعرفهم بأعمالهم وأقوالهم التي عملوها في الدنيا، وما كانوا عليه من إيمان وكفر، واستقامة وانحراف، ويُعطى العباد كتبهم بإيمانهم إن كانوا صالحين، وبشمالهم إن كانوا غير ذلك. قال تعالى: (إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ) .

ولقد حظي ذكر الحساب بنصوص كثيرة في كتاب الله تعالى وفي سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وأجمع عليه جميع أهل الإسلام، إذ هو من المسائل الأخروية المعلومة من الدين بالضرورة.

أكثر الله من ذكر الحساب في القرآن الكريم، في مواضع كثيرة، مصوراً هول ذلك الموقف، أو مخبراً عنه ومبشراً به، كل ذلك لزيادة العناية به وللفت أنظار الناس إليه ليكونوا على بينة من أمرهم فيستعدوا له بالعمل الصالح إذ أنه من أهم الأمور التي تحدث في يوم القيامة، بل هو المراد ببعث الناس وقيامهم من قبورهم فيه يتميز الناس فيسعد من يسعد، ويشقى من يشقى، حينما يفصل الله بين خلقه في أكمل صور العدل وأجلها . .

والحساب على مواقف، منها: اطلاع العباد على ما قدموه من أعمال؛ قال تعالى: ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ . وهذا من إعدار الله لخلقه، وعدله في عبادته أن يطلعهم على ما قدموه من صالح أعمالهم وطالحها، حتى يحكموا على أنفسهم، فلا يكون لهم بعد ذلك عذر. قال تعالى ﴿علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾ .

واطلاع العباد على ما قدموه يكون بإعطائهم صحائف أعمالهم. وقراءتهم لها كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِّزَمَانِهِ طَائِرَةٌ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴿، يقال له: اقرأ كتابك بنفسك؛ لكي تعلم أنك لم تظلم ولم يكتب عليك إلا ما عملت. قال الحسن البصري: قد عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك. وهو كتاب شامل لجميع الأعمال كبيرها وصغيرها ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولنا يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا﴾

ومنها إحضار الشهود على العبد، كالرُّسُل والملائكة وأمة محمد صلى الله عليه وسلم والأعضاء، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ ، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ ، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ﴾ .

وهناك أمور يسأل عنها العبد يوم القيامة، يُسأل عما عمله في دنياه ﴿فَوربك لئن سألتهم لجمعين * عما كانوا يعملون﴾ . وقال تعالى ﴿فلنساءن الذين أرسل إليهم ولنساءن المرسلين﴾ . وعن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيم أفناه ، وعن علمه ماذا عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه" . رواه الترمذي .

والدماء هي أول شيء يقضى فيه من حقوق العباد فيما بينهم لعظم شأنها . عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء " . رواه البخاري ومسلم .

يُسأل المرء عن العهود والمواثيق قال تعالى: ﴿ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسؤولاً﴾ ، وكل عهد مشروع بين العباد فإن الله سائل العبد عن الوفاء به ، قال تعالى: ﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً﴾

يُسأل عن سمعه وبصره وفؤاده ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ . قال قتادة : لا تغفل رأيت ولم تر ، وسمعت ولم تسمع ، وعلمت ولم تعلم فإن الله سائلك عن ذلك كله .

وعن النعيم الذي يتمتع به ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾

بعض النصوص القرآنية التي ورد فيها يوم الحساب

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم : 41]

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ [ص : 16]

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص : 26]

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص : 26]

﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ [غافر : 27]

﴿ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ يُقْضَى الْحَقُّ وَهُوَ

خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ [الأنعام : 57]

﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ [الأنعام : 62]

وبهذا نكون قد أنجزنا هذا القسم الثاني ومنتقل بعون الله الى القسم الثالث والأخير المتعلق بالإنسان .

ثالثا

الإنسان

{ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا } [الكهف : 54]

تعريف و معنى الإنسان في معجم المعاني الجامع :

المخلوق الحي المفكر للمذكر والمؤنث ، جمع أناسي وأناس .

إنسان : (اسم) الجمع : أناسي وأناس ، المؤنث : إنسانٌ ومؤنثٌ في العامية على إنسانة

الإنسان : الكائن الحي المفكر وإنسان السيف والسهم : حدّهما

الإنسان المثالي : الذي يفوق العادي بقوى يكسبها بالتطور الإنسان : : من يتميز بسمو خلقه

التعريف بالإنسان لغةً واصطلاحاً

مفهوم الإنسان في اللغة هو الكائن الحي الممتك للقدرة الفكرية والاستجابية ، أما اصطلاحاً
كلمة الإنسان تدل على هذا الخلق الأصلي في ذات الإنسان ، وهي تطلق على من كثر أنسه وتعني
الواناسة فهو الكائن الذي أنست الأرض بوجوده وعكسها الوحش أي الوحشة ومكان موحش يعني
المكان الذي يخلو من الإنسان . وكذلك إن كلمة إنسان في كلام العرب يرجع إلى معنى الظهور ، عكس
الجن . ثم إنهم ذكروا للإنسان معنى آخر هو : التسيان ، ولو كان هناك احتمال لهذه المعاني الثلاثة
فيرجع الباحث الأول على الثاني والثالث لأنه الإنس والألف هو الصق لطبيعته وأصلح لفطرته ، قد
وردت كلمة الإنسان في القرآن الكريم .

المعاني المرادفة لكلمة إنسان

مرادفات وأضداد إنسان في قاموس المعاني

أدمي ، إنسي ، شخص

أضداد إنسان

أضداد إنسان (اسم) :

الحيوان ، البهيمة

بشر : (اسم)

البشر: الإنسان (الواحد والجمع والمذكر والمؤنث فيه سواء)

المفهوم العام للإنسان في الفلسفة

يعرف الإنسان بشكل عام في الفلسفة على أنه كائن مادي؛ بمعنى أن له جسد، وملم بالمعرفة، ومُتسم بالمسؤولية، واجتماعي تربطه علاقات مع الآخرين من البشر، كما يرتبط أيضًا بعلاقة مع المجتمع، ومع الآلة، ومع غاياته في الحياة، ومع نهاية هذه الحياة.

الإنسان من وجهه نظر بعض الفلاسفة

تنظر الفلاسفة على اختلافها إلى الإنسان من منظورات متباينة، ويختلف مفهوم الإنسان بالنسبة لها بناءً على الأفكار التي تنحاز لها كل فلسفة، ومن أبرز الفلاسفة التي تناولت مسألة مفهوم الإنسان ما يلي:

الإنسان في الفلسفة الوجودية: تعلي الفلسفة الوجودية من قيمة الإنسان، وترى أن وجود العالم مبني في المقام الأول على وجوده، كما تؤكد الفلسفة الوجودية على قيم الذاتية والحرية وتنادي بهما للإنسان.

الإنسان في الفلسفة المسيحية: تعتبر الفلسفة المسيحية أن الإنسان مخلوق استثنائي ومفرد، وأنه ما من شيء آخر قادر أن يحل مكانه، كما أن الحرية من سماته، بالإضافة إلى أنه ممكّن من اتخاذ قراراته الخاصة التي تشكل ملامح وجوده.

الإنسان في الفلسفة الأنثوية: يؤمن رواد هذه الفلسفة بأن البشر تطوروا بشكل طبيعي، وأنهم مستمرين في التطور، إلى جانب بقية المخلوقات في العالم، وتعتبر الفلسفة الأنثوية أن أفكار وأفعال

الإنسان مصدرهما البصيرة الروحية ، كما تؤمن أن للبشر الحق والمسؤولية في تشكيل معنى وملامح حياتهم .

يَتَنَوَّعُ مَفْهُومُ الْإِنْسَانِ عَنِ الْفَلَسَفَةِ ؛ وَذَلِكَ بِنَاءً عَلَى تَوَعُّفِ الْفَلَسَفَةِ الَّتِي يَنْتَهَجُونَهَا ، وَتَالِيًا عِدَّةً مِنْ وَجِهَاتٍ نَظَرَ بَعْضُ الْفَلَسَفَةِ الَّتِي عَرَفُوا مِنْ خِلَالِهَا مَا هِيَةَ الْإِنْسَانِ :

مَفْهُومُ الْإِنْسَانِ عِنْدَ أَفَلَاطُونِ : يَرَى أَفَلَاطُونُ أَنَّ الْإِنْسَانَ مَكُونٌ مِنْ جَسَدٍ وَرُوحٍ ، وَكِلَاهُمَا مُخْتَلِفٌ عَنِ الْآخَرِ اخْتِلَافًا جَوْهَرِيًّا ، كَمَا يَرَى أَيْضًا أَنَّ الرُّوحَ أُسْمَى مِنَ الْجَسَدِ ، وَأَنَّهَا تَحْكُمُ بِهِ ، وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي الْأَصْلِ قَبْلَ أَنْ تُبَثَّ فِي الْجَسَدِ ، وَتَسْتَبْقَى كَذَلِكَ بَعْدَ مَغَادِرَتِهَا لَهُ .

مَفْهُومُ الْإِنْسَانِ عِنْدَ أَرِسْطُو : عَرَفَ أَرِسْطُو الْبَشَرَ عَلَى أَنَّهُمْ حَيَوَانَاتٌ عَاقِلَةٌ ، وَآكَدَ عَلَى أَنَّ الْعَقْلَانِيَّةَ هِيَ أَهَمُّ مَيِّزَةٍ يَتَّصِفُونَ بِهَا ، وَتَمَيِّزُهُمْ عَنِ بَقِيَّةِ الْمَخْلُوقَاتِ .

مَفْهُومُ الْإِنْسَانِ عِنْدَ مَارْتِنِ هَايدِغِرِ : بِالتَّسْبِيبِ لِلْفِيلَسُوفِ الْأَلْمَانِيِّ مَارْتِنِ هَايدِغِرِ ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْسَ "شَيْئًا" وَلَيْسَ "مَادَةً" ؛ بَلْ هُوَ مُؤَدِّ لِلْأَفْعَالِ ، حَيْثُ يَرْتَبِطُ وَجُودُهُ بِأَدَائِهِ لِلْأَفْعَالِ بِشَكْلِ مُعَمَّدٍ ، وَهِيَ الَّتِي تُبْتِغُ وَجُودَهُ .

مَفْهُومُ الْإِنْسَانِ عِنْدَ إِدْمُونْدِ هُوسِرْلِ : يُعْرِفُ الْفِيلَسُوفُ الْأَلْمَانِيُّ إِدْمُونْدُ هُوسِرْلُ الْإِنْسَانَ التَّأْصِیحَ عَلَى أَنَّهُ مَخْلُوقٌ عَقْلَانِيٌّ وَاعٍ ، تَطْلُغُ سِمَةُ الْوَعْيِ عِنْدَهُ فِي تَعَامُلِهِ مَعَ الْمَوَاقِفِ بُوْعْيِيٍّ ، وَمِنْ خِلَالِ أَحْكَامِهِ ، وَرَغْبَاتِهِ ، وَتَوَجُّهَاتِهِ .

مفهوم الإنسان عند فريدريك نيتشه : يصف فريدريك نيتشه الإنسان على أنه حبل مشدود بين طرفين ،
هُما : الحيوان ، والإنسان الكامل/الأعلى ، كما يُصر في آرائه على أن البشر يُمثلون مرحلةً انتقاليّةً
وليسَت نهائيةً من التطوُّر .

مفهوم الإنسان عند موريس ميرلو بونتي : وفقاً لآراء الفيلسوف الفرنسيّ موريس ميرلو بونتي ؛ فإنّ الإنسان
عبارةٌ عن "فكرة تاريخية" ، وليس "نوعاً طبيعياً" ، كما يرى ميرلو بونتي أن جسد الإنسان الحيّ مرتبطٌ
بالحيز الذي يعيش في نطاقه .

مفهوم الإنسان عند جان بول سارتر : يعتقد الفيلسوف الفرنسيّ أن الإنسان وُجد عن طريق الصدفة ،
ولا وجودَ لمعنى أو غايةٍ من حياته ، باستثناء ما يستطيع تحقيقه بفضل حريته ، لهذا عليه الاعتمادُ
على نفسه .

مفهوم الإنسان عند بليز باسكال : يُعرف الفيلسوف الفرنسيّ بليز باسكال الإنسان على أنه مجردُ
"قصة" ضعيفة وهشة ، لكنه قصةٌ مفكرة ، وهو أبطل من كل شيءٍ يُحاول القضاء عليه في الكون ؛
لأنه يمتلك المعرفة ، على عكس الكون الجاهل .

المنظور الفلسفيّ العربيّ للإنسان

تفاوتت النظرة الفلسفيّة للإنسان في المجتمع العربيّ على مرّ العصور ، حيثُ أُعتبرت الحضارات القديمة
الإنسان جزءاً من الطبيعة التي سعت دوماً لفهمها وتفسير ظواهرها ، ثم بُنيت الفكرة التأملية التفكير
المتمركز على الذات الإنسانيّة ، فأصبح يُنظر للإنسان كقوة قاهرة لا يستطيع أحدٌ أو شيءٌ إخضاعها ،
وبهذا الفهم بات الإنسان المسؤول الأول عن ظروفه وأحواله . أكد سُقراط على حُرّيّة الإنسان ، وعدّ

الْجَهْلُ السَّبَبُ الرَّئِيسِيُّ لِلشَّرِّ وَالْخَطَايَا ، فَالشَّخْصُ الَّذِي يَحْصُلُ عَلَى الْمَعْرِفَةِ يَقُومُ بِفِعْلِ الْخَيْرِ ؛ لِأَنَّ
الْإِنْسَانَ بِطَبِيعَتِهِ بَسَعَى لِذَلِكَ ، وَيَتَعَدَّ عَنِ الشَّرِّ ، ثُمَّ بَانْدَثَارِ الْحَضَارَةِ الْيُونَانِيَّةِ أَخَذَ فِكْرَ حَدِيثِ يَظْهَرُ
عَلَى السَّطْحِ وَيَأْخُذُ بِالْمَنْظُورِ الْفَلْسَفِيِّ لِلْإِنْسَانِ إِلَى إِعْبَادِ جَدِيدَةٍ فَاصْبَحَتِ الْفَلْسَفَةُ الطَّرِيقَ الْمَوْجِهَ
لِلْبَشَرِ فِي تَسْيِيرِ حَيَاتِهِمْ لِلْوُصُولِ إِلَى السُّمُوِّ الرُّوحِيِّ الَّذِي طَالَمَا رَغِبُوا بِهِ . [٤]

مَا هُوَ الْإِنْسَانُ وَفَقِ الرُّؤْيَا الْعِلْمِيَّةُ الْغَرْبِيَّةُ

الْإِنْسَانُ الْعَاقِلُ (الاسم الْعِلْمِيُّ : Homo sapiens) هُوَ التَّنُوعُ الْوَحِيدُ الْمَتَبَقِيُّ مِنْ جِنْسِ الْبَشَرَانِي
(الْأَنَاسِيِّ) ، وَهُوَ الْعَاقِلُ الْوَحِيدُ ، الَّذِي يَمْتَلِكُ خِلَافاً لِبَقِيَّةِ الْحَيَوَانَاتِ عَلَى الْأَرْضِ دِمَاغاً عَالِي التَّطَوُّرِ ،
قَادِرٌ عَلَى التَّفْكِيرِ الْمَجْرَدِ وَاسْتِخْدَامِ اللُّغَةِ وَالتَّنَطُّقِ وَالتَّفْكِيرِ الدَّاخِلِيِّ الذَّاتِيِّ وَإِعْطَاءِ حُلُولٍ لِلْمَشَاكِلِ
الَّتِي يُوجِبُهَا . لَيْسَ هَذَا فَحَسْبُ بَلْ إِنَّ الْإِنْسَانَ يَمْتَلِكُ جِسْماً مَنْتَصِباً ذَا أَطْرَافٍ مَفْصَلِيَّةٍ عُلُويَّةٍ وَسُفْلِيَّةٍ
يَسْهُلُ تَحْرِيكُهَا وَتَعْمَلُ بِالتَّنَاسُقِ التَّامِّ مَعَ الدِّمَاغِ ، وَهِيَ خَاصِيَّةٌ تُجْعَلُ مِنَ الْإِنْسَانِ الْكَائِنِ الْحَيِّ الْوَحِيدِ
عَلَى الْبَسِيطَةِ الَّذِي يَسْتَطِيعُ تَوْظِيفَ قُدْرَاتِهِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْجِسْمِيَّةِ وَاسْتِخْدَامَ يَدَيْهِ بِمَهَارَةٍ لِصِنَاعَةِ أَدْوَاتِ
دَقِيقَةٍ وَغَيْرِ الدَّقِيقَةِ الَّتِي يَحْتَاجُهَا فِي حَيَاتِهِ الْيَوْمِيَّةِ . كَمَا أَنَّ لَهُ تَكْوِينَ حَجْرَةً مُعَقَّدَةً تُعِينُهُ عَلَى الْكَلَامِ
أَظْهَرَتْ دِرَاسَةُ الْأَحْفُورِيَّاتِ وَتَحْلِيلُ الْحَمْضِ التَّوَوِيِّ لِلْمَتَقَدِّرَاتِ أَدَلَّةٌ تُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْبَشَرَ كَانَ فِي إِفْرِيقِيَا
قَبْلَ حَوَالِي 300 أَلْفِ عَامٍ . الْآنَ يَسْتَوِطِنُ الْإِنْسَانُ كُلَّ الْقَارَاتِ وَمَدَارَاتِ الْأَرْضِ الْمُنْخَفِضَةِ بِعَدَدِ
إِجْمَالِيٍّ يَصِلُ إِلَى 7 . 8 مِلْيَارِ نَسْمَةٍ وَذَلِكَ بِحَسَبِ إِحْصَائِيَّةِ 2021 .

الْإِنْسَانُ مِثْلَ مُعْظَمِ الرَّئِيسِيَّاتِ الْعُلْيَا كَائِنِ إِجْتِمَاعِيٍّ بِطَبِيعِهِ . وَلَكِنَّهُ بِشَكْلِ فَرِيدٍ بَارِعٍ فِي اسْتِخْدَامِ نَظْمِ
الْوَأَصْلِ لِلتَّعْبِيرِ عَنِ الذَّاتِ وَتَبَادُلِ الْأَفْكَارِ وَالتَّنْظِيمِ . كَذَلِكَ يَقُومُ الْإِنْسَانُ بِتَنْظِيمِ هِيََاكِلِ إِجْتِمَاعِيَّةٍ مُعَقَّدَةٍ

بالمشاركة مع مجموعات متعاونة ومتنافسة ، بدءاً من تأسيس العائلات وانتهاء بالأمم . التفاعل الاجتماعي بين الإنسان الحديث أسفر عن ظهور عدد واسع ومتنوع من المعايير الأخلاقية والقيم الاجتماعية والطقوس الدينية التي تشكل عملياً الكثير من أسس المجتمع الإنسانية . كذلك يتميز الإنسان بحسه الجمالي وتقديره وتدوقه للجمال ، وهو ما يبعث في الإنسان الحاجة للتعبير عن الذات والإبداع الثقافي في الفنون والعلوم . ومن المعروف عن الإنسان الحديث أيضاً رغبته في الفهم والتأثير على محيطه البيئي وحاجته للبحث والاستفسار عن الظواهر الطبيعية ، ومحاولة فهمها ومعرفة القوانين التي تضبطها ، من هنا ظهرت فكره الأديان والمثولوجيا والفلسفة والعلوم . ويميز الإنسان بالنظر للأمر بنوع من الفضول والتبصر أدى به إلى صنع الأدوات الدقيقة وتطوير مهاراته ، ونقلها للآخرين عن طريق التبادل الثقافي . أضافه إلى ذلك يعد الإنسان الكائن الحي الوحيد الذي يقوم بإشعال التيران وطهي طعامه ، والكائن الحي الوحيد الذي يقوم بارتداء الملابس وابتكاره للعديد من التقنيات التي تساعده على زيادة فعالية ما يقوم به من أعمال . وتعلم استئناس الأنعام والطيور وبعض الحيوانات مثل الكلاب والقطط .

من أين جاء الإنسان

لا يزال العلماء يحاولون فهم كيف تكون الإنسان ومن أين جاء . ولكن الأدلة الحالية تشير إلى أن الإنسان المعاصر نشأ في إفريقيا قبل نحو 200000 سنة . ومنذ ذلك الحين ، انتشر الإنسان في جميع أنحاء العالم وتطور بشكل متنوع ليصبح ما هو عليه اليوم .

الإنسان في القرآن

الرُّؤْيَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ لِلْإِنْسَانِ كَرَّمَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ ، وَسَخَّرَ كُلَّ الْمَخْلُوقَاتِ لِخِدْمَتِهِ ، وَقَدِ بَثَّ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ،
الَّتِي تَجَاوِزُ بِهَا الْإِنْسَانُ حُدُودَهُ الْجَسَدِيَّةَ ، وَسَمَّى عَنْ غَرِيْبَتِهِ الْبَهِيْمِيَّةَ ، وَهَذَا مَا أَكَّدَ عَلَيْهِ الْكَثِيرُ مِنْ
الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ حَاوَلُوا سَبْرَ غَوْرِ الرُّوحِ وَكَشَفَ حَبَايَاهَا ، مِنْهُمْ ابْنُ تَيْمِيَّةَ الَّذِي شَدَّدَ عَلَى أَنَّ الْجَسَدَ مَا
هُوَ إِلَّا مُجَرَّدٌ أَذَاهُ لِلرُّوحِ وَوَسِيْلَةٌ لِخِدْمَتِهَا ، إِلَّا أَنَّ الْفَهْمَ الْبَشَرِيَّ لَهَا يُضِلُّ قَاصِرًا ، فَالْعِلْمُ الْمَطْلُوقُ لِلَّهِ
تَعَالَى وَحْدَهُ . فِي الْمَنْظُورِ الْإِسْلَامِيِّ تَعَدُّ الْفِطْرَةُ السَّلِيْمَةُ أَسَاسَ الْخَيْرِ فِي النُّفُوسِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَالْمِيلُ عَنْ
هَذِهِ الْفِطْرَةِ هُوَ مَبْعَثُ كُلِّ الشُّرُورِ ، وَالْبَشَرُ مَجْبُولُونَ بِطَبِيعَتِهِمْ عَلَى الْفِطْرَةِ السَّلِيْمَةِ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ يُخْتَبِرُ
عِبَادَهُ بِالْبَشَرِ ، لِيُقِيْمَ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ عِنْدَ الْحِسَابِ ، وَيَفَاضِلَ بَيْنَهُمْ فِي الْإِيْمَانِ ، فَالْإِنْسَانُ مُخْتَبِرٌ ، وَإِنْ
كَانَ مُخِيْرًا فَهُوَ مَسْئُورٌ وَمَحَاسِبٌ عَنْ كُلِّ مَا يَصْدُرُ مِنْهُ .

الْإِنْسَانُ فِي الْإِسْلَامِ هُوَ جَوْهَرُ الشَّرِيْعَةِ وَهُوَ حَقِيْقَةُ النَّامُوسِ ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ الْأَوَّلُ لِدِيْنِ اللَّهِ وَشَرِيْعَتِهِ ،
وَلتَعَالِيْمِ رَسُوْلِهِ ، وَلِمَبَادِي الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ .

الْإِنْسَانُ فِي الْإِسْلَامِ مَكْفُولُ الْحُرِيَّةِ ، مَصُونُ النَّفْسِ وَالْمَالِ وَالْعَرَضِ ، مُحَاطٌ بِالْكَرَامَةِ وَالرَّعَايَةِ فِي السَّلَامِ
وَالْحَرْبِ ، لَامْنُوقٌ لِقُوَّةِ فِي الْإِسْلَامِ بَلْ لِلْخَيْرِ وَالْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ وَالْعِنَايَةِ مِنْ كُلِّ قَزْدٍ فِي مُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِيْنَ
حَاكِمًا أَوْ مَحْكُومًا الْإِنْسَانُ هُوَ الْجَوْهَرُ ، وَهُوَ الَّذِي أَخَذَ الْإِسْلَامَ بِيَدِهِ لِيَرْفَعَهُ إِلَى مُسْتَوَى الْهَدَايَةِ لِلْعَالَمِ ،
وَالرِّيَادَةِ لِلْحَلْقِ .

أَمَّا تَعْرِيفُ الْإِنْسَانِ فِي الْقُرْآنِ الْحَكِيْمِ وَأَحَادِيْثِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، فَقَدْ اجْتَمَعَتْ صِفَاتِهِ أَوْ
مُقَدَّمَاتِهِ ، فِي تَعْرِيفَيْنِ جَامِعِيْنَ :

إِنَّهُ مَخْلُوقٌ مُكَلَّفٌ . .

وَأَنَّهُ مَخْلُوقٌ عَلَى صُورَةِ الْخَالِقِ . .

فَالِإِسْلَامَ لَا يُتَقَرُّ الْخَطِيئَةَ الْمُرُوثَةَ ، وَلَا يُتَقَرُّ السَّقُوطُ مِنْ طَبِيعَةٍ إِلَى مَا دُونَهَا ، وَلَا يُحَاسَبُ أَحَدًا بِذَنْبِ
أَبِيهِ أَوْ غَيْرِهِ ، فَلَا تَزِرُ عِنْدَهُ وَازِرَةٌ وَزِرَةٌ أُخْرَى ، وَلَيْسَ مِمَّا يَدِينُ بِهِ الْإِسْلَامَ أَنْ يَزِنَدَ النَّوعَ الْإِنْسَانِي إِلَى مَا
دُونَ طَبِيعَتِهِ . .

أَمَّا ارْتِفَاعُ الْإِنْسَانِ أَوْ هُبُوطُهُ ، فَمِنْوَطَانِ بِالتَّكْلِيفِ ، وَقَوَائِمُهُ الْحُرِّيَّةُ وَالتَّبَعَةُ . . وَهُوَ أَهْلٌ بِعَمَلِهِ لِلصُّعُودِ
أَوْ الْهُبُوطِ . .

« إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ »

« بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ » (القيامة I4) .

وَبِهَذِهِ الْأَمَانَةَ الَّتِي حَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ، تَمَيَّزَ بِالتَّكْلِيفِ ، لِأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ . . وَلَهُ مِنْ تَمِّ فَضْلِ
الْأَخْيَارِ . .

« وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا » (الإسراء II) .

وَيَسْتَعْرِضُ الْأُسْتَاذُ الْعَقَادَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةَ الَّتِي ذَكَرَتْ غُرُورَ الْإِنْسَانِ وَنَقَائِصَهُ وَضَعْفَهُ وَهَبُوطَهُ حِينَ يُخْطِئُ
الْأَخْيَارَ وَعَلَى الْعَكْسِ حِينَ يَلْتَزِمُ التَّقْوَى وَيُحْسِنُ عَمَلَهُ ، فَهُوَ قَابِلٌ . بِعَمَلِهِ . لِلتَّرْقِي ، وَقَابِلٌ لِلتَّرْدِي مَنْ
أَحْسَنَ تَقْوِيمٍ إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ .

وَفِي آيَةِ جَامِعَةٍ يَقُولُ الْقُرْآنُ الْحَكِيمُ :

« لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » (التين 4 - 6) .

وَمِنْ تَمَامِ حَوَاصِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي عَقِيدَةِ الْإِسْلَامِ ، أَنَّ قَابِلِيَّةَ الْإِنْسَانِ لِلتَّكْلِيفِ مُتَّصِلَةٌ بِقَابِلِيَّةِ لِلْعِلْمِ وَبِمَا تَيْسَّرَ لَهُ مِنْ مَكَانَاتِ الْإِتِّفَاعِ بِقُوَى الطَّبِيعَةِ وَالْجَمَادِ وَالْحَيَوَانَ . .

« وَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا » (الإسراء 70) .

« سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ » . . (الحج 65) .

« أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ » (لقمان 20) .

وَهَذَا الْعِلْمُ الَّذِي حُبِبَ بِهِ الْإِنْسَانُ ، وَاسْتَعَدَّ لَهُ ، هُوَ مَنَاطِرُ تَكْلِيفِيَّةٍ وَمَالِ التَّبَعَةِ الَّتِي يَنْهَضُ بِهَا . .

وَحُرِّيَّةَ الْإِنْسَانِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ الَّذِي أَشَارَتْ إِلَيْهَا الْآيَاتُ ، لَا تَنَاقُضُ إِمْكَانَ الْعُدْلِ الْإِلَهِيِّ مَتَى التَّمَسُّنَا

آيَاتِ هَذَا الْعُدْلِ . فِيمَا يَقُولُ الْأُسْتَاذُ الْعَقَادُ . فِي آيَاتِ الْكُونِ كُلِّهِ ، وَلَمْ تَقْصُرْهَا عَلَى حَادِثٍ فِي حَيَاةِ

مَخْلُوقٍ وَاحِدٍ يَتَغَيَّرُ شُعُورُهُ بِتَغْيِيرِ ظُرُوفِهِ وَالْأُمَّةِ وَعَوَاقِبِهَا مِنْ حِينٍ إِلَى حِينٍ .

التَّكْوِينِ وَالْخَلْقِ

لَقَدْ أَثَبَتَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَنَّ خَلْقَ الْإِنْسَانِ لَا يَأْتِي جُمْلَةً أَوْ دَفْعَةً وَاحِدَةً وَإِنَّمَا يَمُرُّ بِمَرَاكِحَ عَدِيدَةٍ وَمُتَبَايِنَةٍ

تَسْمُحُ لِلْجِنِينَ بِالْتَدْرُجِ فِيهَا عُبْرَ أَطْوَارٍ ، وَهُوَ مَا جَاءَ مُحَالَفًا لِمَا كَانَ مَتَصُورًا حَتَّى الْقُرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ

طَبَقًا لِلنَّظَرِيَّةِ الْقَرْمِيَّةِ وَالَّتِي كَانَتْ تَقَرَّبُ بِخَلْقِ الْإِنْسَانِ دَفْعَةً وَاحِدَةً ثُمَّ يَنْمُو وَيُكْبِرُ كَالشَّجَرَةِ .

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانِي تُصْرَفُونَ ﴾ [٢] .

جاء التَّعْبِيرُ عَنْ تِلْكَ الْأَطْوَارِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ خَلَقْنَا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ أَيُّ إِنَّ الْإِنْسَانَ يَمُرُّ خِلَالَ عَمَلِيَّةٍ تَخْلُقُهُ بِمَرَاكِحٍ مُتَّابِعَةٍ فَضَلَّهَا الْقُرْآنُ فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ وَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ .

كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْحَجِّ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لَنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ .

وَمِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ وَغَيْرِهَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالَّتِي تَنَاطَلَتْ خَلْقَ الْإِنْسَانَ ، نَسْتَطِيعُ التَّعَرُّفَ عَلَى أَطْوَارِ الْجَنِينِ الْإِنْسَانِيِّ وَمَعَالِمِهِ ، دُونَ الْإِسْهَابِ فِي تَنَاوُلِهَا ، وَهِيَ :

٠١ طُورُ النُّطْفَةِ .

٠٢ طُورُ الْعَلَقَةِ .

٠٣ طُورُ الْمُضْغَةِ "المخلقة وَغَيْرِ المخلقة" .

٠٤ طُورُ الْعِظَامِ .

•٥ طُورُ اللَّحْمِ يَكْسُو الْعِظَامَ .

•٦ طُورُ التَّسْوِيَةِ وَالتَّصْوِيرِ .

•٧ طُورُ نَفْخِ الرُّوحِ .

يَقُولُ الْعَالِمُ (كِيث مِور) Keith Moore رَئِيسُ قِسْمِ التَّشْرِيحِ وَعُلْمِ الْأَجِنَّةِ بِجَامِعَةِ "تورنتو" فِي كَنَدَا :
(إِنَّ التَّعْبِيرَاتِ الْقُرْآنِيَّةَ عَنِ مَرَاكِحِ تَكْوُنِ الْجَنِينِ فِي الْإِنْسَانِ لَتَبْلُغُ مِنَ الدَّقَّةِ وَالشُّمُولِ مَا لَمْ يَبْلُغْهُ الْعِلْمُ
الْحَدِيثُ ، وَهَذَا إِنْ دَلَّ عَلَى شَيْءٍ فَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا كَلَامُ اللَّهِ ، وَإِنْ
مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ) .

كَمَا قَالَ فِي مُحَاضِرَتِهِ الَّتِي أَلْقَاهَا فِي مُؤْتَمَرِ الْإِعْجَازِ الْعِلْمِيِّ الْأَوَّلِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالسَّنَةِ الْمُطَهَّرَةِ وَالَّذِي
عُقِدَ فِي الْقَاهِرَةِ عَامَ ١٩٨٦ م : (إِنِّي أَشْهَدُ بِإِعْجَازِ اللَّهِ فِي خَلْقِ كُلِّ طُورٍ مِنْ أَطْوَارِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ،
وَلَسْتُ أَعْتَقِدُ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ أَيُّ شَخْصٍ آخَرَ يَسْتَطِيعُ مَعْرِفَةَ مَا يَحْدُثُ فِي تَطَوُّرِ
الْجَنِينِ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ التَّطَوُّرَاتِ لَمْ تَكُنْ تُكْتَشَفُ إِلَّا فِي الْجُزْءِ الْأَخِيرِ مِنَ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ ، وَأُرِيدُ أَنْ أُؤَكِّدَ عَلَى
أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَرَأْتَهُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَنْ نَشْأَةِ الْجَنِينِ وَتَطَوُّرِهِ فِي دَاخِلِ الرَّحِمِ يُنْطَبِقُ عَلَى كُلِّ مَا أَعْرِفُهُ
كَعَالِمٍ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَجِنَّةِ الْبَارِزِينَ) .

لَقَدْ تَقَى الْعِلْمُ الْحَدِيثِ وَدِرَاسَاتِهِ حَوْلَ عِلْمِ الْأَجِنَّةِ وَالْأَرْحَامِ مَعَ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الَّتِي أَتَتْ فِي
مَوَاضِعَ جَدِيدَةٍ مِنْهُ تَنَاوَلَتْ فِيهَا عَمَلِيَّةُ النَّاسِلِ الْإِنْسَانِيِّ ، مَا يَسْتَحِيلُ مَعَهُ وَقُوعِ أَيِّ تَعَارُضٍ بَيْنَ قَطْعِيٍّ
مِنَ الشَّرْعِ مَعَ قَطْعِيٍّ مَعَ الْعِلْمِ ، وَبِالتَّالِيِ فَإِنَّ الْأَقْلَامَ الَّتِي تُحَاوِلُ أَنْ تَقْفَ بِقُوَّةِ إِمَامِ هَذَا السَّبِيلِ الْهَادِرِ مِنْ

الْحَقَائِقِ بِأَنْ تَلْقَى هُنَا وَهُنَاكَ بَعْضَ الشُّبُهَاتِ حَوْلَ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فَإِنَّمَا تَظْهَرُ إِلَى جَانِبِ الْحَقِّ الدِّينِيِّ لِكِتَابِ اللَّهِ الْمَدْعُومِ بِالْحِفْظِ الْإِلَهِيِّ ، وَالْمُصَدَّرِيَةِ الْإِلَهِيَّةِ أَيْضًا ، إِنَّمَا تَبَيَّنَتْ أَنَّ شِبْهَاتِهَا تُلْكَ لَا تَقُومُ عَلَى حَقَائِقِ ، وَإِنَّمَا ضَرَبَ مِنْ الْمَجَازَاتِ اللَّائِيَّةِ ، كَمَا تَفْضَحُ نَفْسُهَا بِقُصُورِهَا الْوَاضِحِ فِي فَهْمِ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ وَالنَّظَرِيَّاتِ الْمُسْتَقَرَّةِ عِلْمِيًّا .

يُثَبِّتُ الدُّكُورُ مُورِيسُ بُوَكَايُ بَعْدَ مُطَالَعَتِهِ لِمَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ ، وَمَا أَثْبَتَهُ الْبُحُوثُ الْعِلْمِيَّةُ ، الْأَحْكَامَ الدَّامِغَةَ التَّالِيَةَ الَّتِي نوردُهَا بِنَصِّهَا عَلَى هَيْئَةٍ مُقْطَعَاتٍ ، كَالتَّالِيِ :

• (تَطَوَّرَ الْجَنِينُ فِي الرَّحْمِ كَمَا يَصِفُهُ الْقُرْآنُ يَسْتَجِيبُ تَمَامًا لِمَا نَعْرِفُ الْيَوْمَ عَنْ بَعْضِ مَرَاهِلِ تَطَوُّرِ الْجَنِينِ ، وَلَا يَحْتَوِي هَذَا الْوَصْفُ عَلَى أَيِّ مَقُولَةٍ يَسْتَطِيعُ الْعِلْمُ الْحَدِيثُ أَنْ يَنْقُدَهَا ؛ إِذْ يَقُولُ الْقُرْآنُ أَنَّ الْجَنِينَ ، بَعْدَ مَرَحَلَةِ التَّشْبِثِ ، وَهُوَ التَّعْيِيرُ الَّذِي رَأَيْنَا إِلَى أَيِّ حَدٍّ هُوَ مُؤَسَّسٌ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، يَمُرُّ بِمَرَحَلَةِ "المَضْغَةِ" • أَيِ اللَّحْمِ الْمَمْضُوعِ • ثُمَّ يَظْهَرُ بَعْدَ ذَلِكَ التَّسْيِجِ الْعَظْمِيِّ الَّذِي يَغْلَفُ بِاللَّحْمِ وَيَعْنِي لَحْمًا نَضْرًا) .

• (عَرَفَ النَّاسُ الْقُرْآنَ بِمَا يَرْتَبُونَ عَلَى أَلْفِ عَامٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا الْعَصْرِ الَّذِي كَانَتْ الْمُعْتَقَدَاتُ الْوَهْمِيَّةُ تَسُودُهُ . أَنَّ مَقُولَاتِ الْقُرْآنِ عَنِ التَّنَاسُلِ الْبَشَرِيِّ تُعَبِّرُ فِي الْفَاطِ بِسَيِّطِهِ عَنْ حَقَائِقِ أَوْلَى أَنْفَقَتْ مِائَاتٍ مِنَ السَّنَوَاتِ لِمَعْرِفَتِهَا) .

التَّدْرُجُ فِي خَلْقِ الْإِنْسَانِ

يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ : (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) ،

وَهَذِهِ آيَةُ الْكَرِيمَةِ تَحْمِلُ فِي طَيَاتِهَا دَلَالَةَ التَّدْرِيحِ فِي خَلْقِ هَذَا الْإِنْسَانِ ؛ وَيُمْكِنُ بَيَانُ بَعْضِ مَرَاهِلِ الْخَلْقِ بِمَا يَأْتِي :

الْتُرَابِ قَالِ -تعالى- : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ) ، [٦] وَهُوَ أَصْلٌ لِّكُلِّ الْبَشَرِ .

الطِّينِ قَالِ -تعالى- : (إِذِ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ) .

الْحَمَاءِ الْمَسْنُونِ قَالِ -تعالى- : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَءٍ مَّسْنُونٍ) ، [٨] وَالْحَمَاءُ هُوَ الطِّينُ

الْأَسْوَدُ الْمُتَغَيَّرُ . الصَّلْصَالُ وَهَذِهِ الْمَرْحَلَةُ هِيَ الَّتِي تُشَكِّلُ مِنْهَا سَيِّدِنَا آدَمَ -عليه السلام- ؛ وَالَّتِي جَاءَ بَعْدَهَا مَرْحَلَةُ التَّسْوِيَةِ وَالتَّفْخُ فِي الرُّوحِ ، قَالَ -تعالى- : (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ) .

مَرَاهِلُ تَطَوُّرِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ بِالْقُرْآنِ وَالْعِلْمِ

تَفَرَّدَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَةِ بِكَشْفِهِ لِكَثِيرٍ مِنَ الْحَقَائِقِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْأَطْوَارِ الَّتِي مَرَّتْ بِهَا الْكُونُ عِنْدَ نَشَأَتِهِ مِنَ الدُّخَانِ وَالْأَطْوَارِ الَّتِي مَرَّتْ بِهَا الْأَرْضُ مُنْذُ إِنَّ اسْتَقَرَّتْ فِي مَدَارِهَا حَوْلَ الشَّمْسِ وَالْأَطْوَارِ الَّتِي مَرَّتْ بِهَا الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ بِمَا فِيهَا الْإِنْسَانُ عِنْدَ خَلْقِهَا مِنْ تُرَابِ الْأَرْضِ . فَلَقَدْ أَشَارَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ إِلَى أَنَّ تَهْيِئَةَ الْأَرْضِ لِتَكُونَ صَالِحَةً لظُهُورِ الْحَيَاةِ عَلَيْهَا قَدْ اسْتَعْرَقَ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ مِنْ أَيَّامِ الْخَلْقِ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًّ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَانَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْسَّائِلِينَ

((IO)) فَصَلَّتْ . وَحَدَّدَ كَذَلِكَ ثَلَاثَ حَقَبٍ رَئِيسِيَّةٍ مَرَّتْ بِهَا عَمَلِيَّةُ خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَكَذَلِكَ بَقِيَّةُ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ مِنَ التُّرَابِ وَهِيَ حِقْبَةُ التُّرَابِ وَحِقْبَةُ التُّطْفَةِ وَحِقْبَةُ الْأَزْوَاجِ كَمَا جَاءَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا (II)) فَاطِرٌ . وَحَدَّدَ كَذَلِكَ مَرَاحِلَ حِقْبَةِ التُّرَابِ أَوْ مَا يُسَمَّى بِالتَّطَوُّرِ الْكِيمِيَاءِيِّ لِلْحَيَاةِ وَهِيَ عَلَى التَّوَالِي مَرَاحِلَ الطِّينِ وَالطِّينِ اللَّازِبِ وَالْحَمَاءِ الْمَسْتُونِ وَالصَّلْصَالِ وَأَخِيرًا سَلَالَةَ الطِّينِ كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (7)) السَّجْدَةَ وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (26)) الْحِجْرُ وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وََلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (I2)) الْمُؤْمِنُونَ . وَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ أبحاثِ عُلَمَاءِ تَطَوُّرِ الْحَيَاةِ أَنَّ الْمَرْحَلَةَ الْأَخِيرَةَ وَهِيَ سَلَالَةُ الطِّينِ مَا هِيَ إِلَّا الشَّرِيطُ الْوَرَاثِيُّ الطِّينِيُّ الَّذِي تَمَّ مِنْ خِلَالِهِ صَنَعُ أَوَّلِ كَائِنٍ حَيٍّ بَدَائِيٍّ مُكَوَّنٍ مِنْ خَلِيَّةٍ وَاحِدَةٍ وَذَلِكَ بِاسْتِخْدَامِ الْمَعْلُومَاتِ الرَّقْمِيَّةِ الَّتِي كَتَبَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ . وَأَشَارَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِشَكْلِ صَرِيحٍ إِلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ لَمْ يُخْلَقْ مُبَاشَرَةً مِنَ التُّرَابِ بَلْ تَطَوَّرَ مِنْ كَائِنَاتٍ حَيَّةٍ أَقَلِّ رُتْبَةٍ فِي سَلَمِ التَّطَوُّرِ كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ بِأَنْثًا (I7)) نُوحٌ . وَأَشَارَ كَذَلِكَ إِلَى مُرُورِ زَمَنٍ مُحَدَّدٍ وَطَوِيلٍ عَلَى خُلُقِ الْإِنْسَانِ ابْتِدَاءً مِنَ الطِّينِ إِلَى أَنَّ سِوَاهُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْرُونَ (2)) الْإِنْعَامِ وَقَوْلِهِ تَعَالَى (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (I)) الْإِنْسَانِ . وَأَشَارَ كَذَلِكَ إِلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ اخْتَارَ مِنْ بَيْنِ مَخْلُوقَاتِهِ الْحَيَّةِ أَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَسَوَاهُ وَنَفَخَ فِي رُوحِهِ لِيَكُونَ خَلِيفَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْأَرْضِ وَسَخَّرَ لَهُ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (9)) السَّجْدَةَ .

وَقَدْ أَشَارَ الْقُرْآنُ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ إِلَى حَقِيقَةِ كِبَرِيَّ وَهِيَ أَنَّ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ يَبْدَأُ تَصْنِيعَهَا مِنْ خَلِيَّةٍ وَاحِدَةٍ فَقَطْ وَهِيَ التُّنْفُطَةُ وَأَشَارَ إِلَى مَرَاكِحِ تَحَوُّلِ هَذِهِ التُّنْفُطَةِ إِلَى كَائِنٍ حَيٍّ وَهِيَ الْعَلَقَةُ وَالْمُضْغَةُ وَالْعِظَامُ وَاللَّحْمُ وَغَيْرِهَا كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (I3) ثُمَّ خَلَقْنَا التُّنْفُطَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (I4))) الْمُؤْمِنُونَ . وَأَشَارَ كَذَلِكَ إِلَى وُجُودِ مُكَوَّنٍ دَقِيقٍ وَضَعِيفٍ فِي دَاخِلِ التُّنْفُطَةِ وَهِيَ سُلَالَةُ الْمَاءِ الْمَهِينِ وَهِيَ الْمَسْئُولَةُ عَنْ تَحْوِيلِ الْخَلِيَّةِ الْوَاحِدَةِ إِلَى مُخْتَلَفِ أَنْوَاعِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (ثُمَّ جَعَلْ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (8))) السَّجْدَةُ . وَلَقَدْ تَمَكَّنَ الْعُلَمَاءُ فِي مُنْتَصَفِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ مِنْ تَحْدِيدِ هَذَا الْمُكَوَّنِ وَهُوَ الشَّرِيطُ الْوَرَاثِي وَوَجَدُوا أَنَّ جَمِيعَ مَوَاصِفَاتِ أَجْسَامِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ وَبِرَامِجِ تَصْنِيعِهَا قَدْ تَمَّ تَخْزِينُهَا بِطَرِيقِهِ رَقْمِيَّةً عَلَى هَذَا الشَّرِيطِ الْبَالِغِ الصَّغَرِ . وَأَشَارَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ كَذَلِكَ إِلَى حَقِيقَةِ عَجِيبَةٍ لَمْ يَكْشِفْهَا الْبَشَرُ إِلَّا حَدِيثًا وَهِيَ أَنَّ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى فِي الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ قَدْ تَمَّ خَلْقُهَا مِنْ أَصْلِ وَاحِدٍ لَا هُوَ بِالذَّكَرِ وَلَا هُوَ بِالْأُنْثَى وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى “ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (98) ” الْإِنْعَامِ . وَبَعْدَ خَلْقِ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى تَحَوَّلَتْ عَمَلِيَّةُ تَكَاثُرِ مُعْظَمِ أَنْوَاعِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ مِنَ التَّكَاثُرِ الْإِلَاجِنْسِيِّ إِلَى التَّكَاثُرِ الْجِنْسِيِّ لِحِكْمَةٍ بِالِغَاةِ أَرَادَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَهِيَ إِحْدَاثُ هَذَا النَّوْعِ الْهَائِلِ فِي أَنْوَاعِ وَأَشْكَالِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (فَاطْرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (II))) الشُّورَى .

وَمَا يَدْعُو لِلدَّهْشَةِ وَالْعَجَبِ أَنَّ عُلَمَاءَ تَطَوَّرَ الْحَيَاةَ أَطْلَقُوا عَلَى مَرَاكِحِ التَّطَوُّرِ الْكِيمِيَاءِيِّ لِلْحَيَاةِ نَفْسَ
 الْأَسْمَاءِ الَّتِي أَطْلَقَهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَلَيْهَا . فَقَدْ أَكْذَبُوا عَلَى مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ أَنَّ بَدَايَةَ خَلْقِ
 الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ كَانَتْ مِنْ الطِّينِ وَأَنَّ هَذَا الطِّينُ قَدْ تَحَوَّلَ إِلَى تَوَجِّعٍ آخَرَ مِنَ الطِّينِ وَهُوَ الْحَمَاءُ الْمُسْنُونُ الَّذِي
 سَمَّوْهُ الْحَسَاءُ الْبَدَائِي . وَاکْتَشَفُوا أَنَّ الْمَوَادَّ الْعَضْوِيَّةَ الْبَسِيطَةَ فِي هَذَا الْحَمَاءِ الْمُسْنُونِ قَدْ تَحَوَّلَتْ إِلَى
 مَوَادِّ عَضْوِيَّةٍ مُعَقَّدَةٍ عَلَى سَطُوحِ الْمَوَادِّ الصَّلْصَالِيَّةِ الَّتِي تُشْبِهُ الْفَخَّارَ فِي تَرْكِيبِهَا . أَمَّا أَهْمُ اكْتِشَافَاتِهِمْ
 عَلَى الْإِطْلَاقِ فَهُوَ أَنَّ بَدَايَةَ الْحَيَاةِ كَانَتْ مِنْ خِلَالِ شَرِيطِ حَامِضِ نَوَوِي طِينِي لَهُ الْقُدْرَةُ عَلَى تَخْزِينِ
 الْمَعْلُومَاتِ الْوَرَاثِيَّةِ وَلَهُ الْقُدْرَةُ كَذَلِكَ عَلَى التَّكَاثُرِ الذَّاتِيِّ أَطْلَقُوا عَلَيْهِ اسْمَ الْحَامِضِ النَّوَوِيِّ الرَّابِوَزِيِّ وَهُوَ
 سُلَالَةُ الطِّينِ الَّتِي ذَكَرَهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ . وَبَعْدَ تَحَوُّلِ سُلَالَةِ الطِّينِ إِلَى سُلَالَةِ الْمَاءِ الْمُهَيَّبِ وَوَضْعِهَا فِي
 دَاخِلِ أَوَّلِ خَلِيَّةٍ حَيَّةٍ أَوَّلِيَّةٍ بَدَأَتِ الْحَيَاةُ بِالظُّهُورِ عَلَى الْأَرْضِ وَبَدَأَ إِتْجَاعُ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ يُنَمُّ مِنْ خِلَالِ
 النَّطْفِ وَتَحْتَ سَيْطَرَةِ الشَّرِيطِ الْوَرَاثِيِّ وَيَسَّ مُبَاشَرَةٍ مِنَ التَّرَابِ . وَمِنْ هَذِهِ الْخَلِيَّةِ الْحَيَّةِ الْأَوَّلِيَّةِ خَلَقَ
 اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ بِشَكْلِ مُتَدَرِّجٍ كَمَا جَاءَ تَفْصِيلُ ذَلِكَ فِي الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ
 الشَّرِيفَةِ الصَّحِيحَةِ وَالَّتِي نَصَّتْ عَلَى ظُهُورِ التَّنَابُتَاتِ أَوَّلًا ثُمَّ الْمَيْكْرُوبَاتِ ثُمَّ الْحَيَوَانَاتِ وَأَخِيرَ الْإِنْسَانَ فِي
 آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ أَيَّامِ الْخَلْقِ كَمَا سَنَشْرَحُ ذَلِكَ لَاحِقًا . وَمَنْ تَقْدِيرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ سَخَّرَ عُلَمَاءَ
 مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ لِكَشْفِ هَذِهِ الْمَرَاكِحِ وَإِطْلَاقِ الْأَسْمَاءِ الْقُرْآنِيَّةِ عَلَيْهَا لِيَلْمُوا بِهَا النَّاسَ الْمُسْلِمِينَ بِاخْتِيَارِ
 هَذِهِ الْمُسَمِّيَّاتِ لِصَالِحِ مُعْتَقَدَاتِهِمْ . بَلْ إِنَّ مِمَّا يَبْئُرُ الدَّهْشَةَ أَنَّ عُلَمَاءَ تَطَوَّرَ الْحَيَاةَ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ
 وَعَلَى رَأْسِهِمْ دَارُونُ فِي سَيْرِهِمْ فِي أَرْجَاءِ الْأَرْضِ بَاحِثِينَ عَنْ أُدْلَةٍ تُفَسِّرُ الْكَيْفِيَّةَ الَّتِي ظَهَرَتْ بِهَا الْحَيَاةُ
 عَلَى الْأَرْضِ قَدْ حَقَّقُوا مُرَادَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ
 الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) الْعُنْكَبُوتُ .

أَنَّ الطَّرِيقَةَ الَّتِي اخْتَارَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِخَلْقِ أَوَّلِ شَكْلِ مِنْ إِشْكَالِ الْحَيَاةِ مِنْ تُرَابِ الْأَرْضِ وَكَذَلِكَ خَلَقَ
 عَشْرَاتِ الْمَلَايِينِ مِنْ أَنْوَاعِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ ابْتِدَاءً مِنْ خَلِيَّةٍ وَاحِدَةٍ فَقَطَّ فِيهَا مِنَ الْإِعْجَازِ وَالْإِبْدَاعِ
 وَالْإِتِّكَارِ وَالرُّوعَةِ وَالْإِتْقَانِ مَا يُجْعَلُ الْمَرْءَ لَا يَكَادُ أَنْ يَصُدِّقَ أَنَّهَا مُوجُودَةٌ لَوْلَا أَنَّهُ يَرَاهَا تَعْمَلُ بِكَهَاءِ
 مُنْقَطَعَةِ النَّظِيرِ أَمَامَ عَيْنَيْهِ . فَبِئْسَ كُلِّ يَوْمٍ تَطَّلِعُ فِيهِ الشَّمْسُ تَحْوِلُ مَلَايِينِ الْأَنْوَاعِ مِنَ الْبُدُورِ وَالْبَيوضِ
 وَالتَّطْفِ الْمَكُونَةِ مِنْ خَلِيَّةٍ وَاحِدَةٍ فَقَطَّ وَخِلَالَ فتراتٍ زمنيةٍ تَتَرَاوَحُ بَيْنَ عِدَّةِ سَاعَاتٍ وَعَدَّةِ أَشْهُرٍ إِلَى
 بَنَاتٍ وَحَشَرَاتٍ وَأَسْمَاكٍ وَطُيُورٍ وَحَيَوَانَاتٍ بِمُخْتَلِفِ الْأَشْكَالِ وَالْأَحْجَامِ وَالْأَلْوَانِ . أَنَّ السِّرَّ الْأَعْظَمَ
 الَّذِي يَقِفُ وَرَاءَ عَمَلِيَّاتِ التَّحْوِيلِ هَذِهِ هُوَ الشَّرِيطُ الْوَرَاثِي الرَّقْمِي الَّذِي يَحْتَوِي عَلَى بَرَامِجِ رَقْمِيَّةِ ضَخْمَةٍ
 تَحْدُدُ خُطُوطَ تَصْنِيعِ الْكَائِنِ الْحَيِّ تَبَعًا لِلْمَوَاصِفَاتِ الْمَخْزَنَةِ فِيهِ رَقْمِيًا . أَنَّ سِرَّ الْحَيَاةِ الْأَعْظَمَ يَكْمُنُ فِي
 قَدْرَةِ الشَّرِيطِ الْوَرَاثِي عَلَى إِبْتِجَانِ نُسْخَةٍ عَنْ نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ وَبِهَذَا السِّرِّ تَسْتَطِيعُ الْخَلَايَا الْحَيَّةُ أَنْ تُنْتِجَ نَسْخًا
 عَنْ نَفْسِهَا بِنَفْسِهَا وَتَسْتَطِيعُ الْكَائِنَاتُ الْحَيَّةُ أَنْ تُنْتِجَ نَسْخًا عَنْ نَفْسِهَا بِنَفْسِهَا . وَلَوْلَا هَذِهِ الْخَاصِيَّةُ
 الْفَرِيدَةُ لِهَذَا الشَّرِيطِ لَمَا أُمِكنَ لِلْحَيَاةِ أَنْ تَدُومَ عَلَى سَطْحِ هَذِهِ الْأَرْضِ مُنْذُ آلافِ الْمَلَايِينِ مِنَ السَّنِينَ وَإِلَى
 أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ . فَالْمَعْلُومَاتُ الْوَرَاثِيَّةُ الَّتِي تُزْمُ لِتَصْنِيعِ أَيِّ كَائِنٍ حَيٍّ يَتِمُّ تَوَارِثُهَا مِنْ خِلَالَ إِبْتِجَانِ
 نُسْخَةٍ طَبَقَ الْأَصْلِ عَنْ الشَّرِيطِ فِي كُلِّ خَلِيَّةٍ قَبْلَ انْتِسَامِهَا إِلَى خَلِيَّتَيْنِ وَهَكَذَا دَوَائِكَ . وَهَذَا فَإِنَّ
 أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ مُكَوِّنَاتِ الْحَيَاةِ هُوَ الشَّرِيطُ الْوَرَاثِي الَّذِي يَكْمُنُ فِيهِ سِرُّ الْحَيَاةِ الْأَعْظَمِ
 وَالَّذِي كَانَ عَلَى شَكْلِ سُلَالَةٍ مِنْ طِينِ كَتَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهَا أَوَّلَ بَرْنَامِجِ رَقْمِي لِتَصْنِيعِ أَوَّلِ خَلِيَّةٍ حَيَّةٍ
 ظَهَرَتْ لِلْوُجُودِ . وَمِنْ هَذِهِ الْخَلِيَّةِ الْحَيَّةِ الْبَدَائِيَّةِ خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ جَمِيعَ إِشْكَالِ الْحَيَاةِ الَّتِي نَعُدُّ
 بِعَشْرَاتِ الْمَلَايِينِ وَبِشَكْلِ مُتَدَرِّجٍ عَلَى مَدَى مِائَاتِ الْمَلَايِينِ مِنَ السَّنِينَ وَذَلِكَ مِنْ خِلَالَ تَعْدِيلِ الْبَرَامِجِ

الرَّقْمِيَّةُ المخزنة فِي خَلَايَا تَصْنِيعِ الكَائِنَاتِ الحَيَّةِ . وَمِمَّا يُؤَكِّدُ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ الكَائِنَاتِ الحَيَّةِ قَدْ خُلِقَتْ مِنْ أَصْلِ وَاحِدٍ هُوَ أَنَّ الشيفرة الوراثية فِي جَمِيعِ الكَائِنَاتِ الحَيَّةِ بِمَا فِيهَا الْإِنْسَانُ قَدْ كَتَبَتْ بِنَفْسِ طُولِ الشيفرة المكوَّنة مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْرَفٍ وَبِنَفْسِ عَدَدِ الْأَحْرَفِ الْأَرْبَعَةِ وَبِنَفْسِ نَوْعِ الْجُرْتِيَّاتِ العَضْوِيَّةِ الَّتِي تَمَثِّلُهَا وَبِنَفْسِ الْأَبْعَادِ . لَقَدْ وَصَفَ دَاروِين فِي كِتَابِهِ أَصْلَ الْأَنْوَاعِ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ الْفَرِيدَةَ لِطُهُورِ هَذِهِ الْأَعْدَادِ الضَّخْمَةِ مِنْ أَنْوَاعِ الكَائِنَاتِ الحَيَّةِ مِنْ أَصْلِ وَاحِدٍ بِالْفَخَامَةِ وَالرَّوْعَةِ فَقَدْ قَالَ فِي آخِرِ كِتَابِهِ مَا نَصَّهُ "وَأَنَّ هُنَاكَ شَيْئًا مِنَ الْفَخَامَةِ فِي هَذَا الْمَنْظُورِ لِلْحَيَاةِ ، بِالِاشْتِرَاكِ مَعَ قُدْرَاتِهَا الْعَدِيدَةِ الْمُخْتَلَفَةِ ، فِي أَنَّهُ قَدْ تَمَّ نَفْحُهَا بِوَاسِطَةِ الْخَالِقِ بِدَاخِلِ الْعَدَدِ الْقَلِيلِ مِنَ الْإِشْكَالِ أَوْ فِي شَكْلِ وَاحِدٍ" . وَاعْتَقَدَ جَارِزِمًا أَنَّ دَاروِن سَيَزِدَادُ سُرُورًا وَدَهْشَةً وَتَوْقِيرًا لِخَالِقِ هَذَا الكَائِنَاتِ مِنْ خِلَالِ هَذِهِ الْأَلِيَّةِ الْعَجِيبَةِ الَّتِي هَدَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِاكتشافها إِذَا مَا عُرِفَ أَنَّ التَّفْحَةَ الَّتِي نَفَحَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَوَّلِ كَائِنٍ حَيٍّ هُوَ شَرِيطِ وَرَاثِي بَالِغِ الضَّعْفِ كَتَبَ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ تَعْلِيمَاتٍ تَصْنِيعِ الكَائِنَاتِ الحَيَّةِ بِطَرِيقِهِ رَقْمِيَّةٍ يَتِمُّ تَعْدِيلُهَا بِإِدِهِ سُبْحَانَهُ الْمُنَزَّهَ عَنِ التَّشْبِيهِ كُلِّ حِينٍ لِإِتِّجَاعِ كَائِنَاتٍ جَدِيدَةٍ حَسَبِ تَقْدِيرٍ وَتَسْلُسُلِ بَالِغِ الْأَحْكَامِ . أَنَّ مُتَمَهِي الْقُدْرَةَ وَالْإِبْدَاعَ وَالْفَخَامَةَ أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الكَائِنَاتِ الحَيَّةِ ابْتِدَاءً مِنْ خَلِيَّةٍ وَاحِدَةٍ تَحْتَ سَيْطَرَةِ الشَّرِيطِ الْوَرَاثِيِّ وَلِذَلِكَ فَإِنَّهُ مِنَ الْأُولَى أَنْ يَخْلُقَ سُبْحَانَهُ جَمِيعَ الْأَنْوَاعِ ابْتِدَاءً مِنْ خَلِيَّةٍ وَاحِدَةٍ خَلَقَهَا سُبْحَانَهُ مِنَ التُّرَابِ وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ تَعْدِيلِ الْبَرَامِجِ الرَّقْمِيَّةِ الْمَكْتُوبَةِ عَلَى الشَّرِيطِ الْوَرَاثِيِّ الَّذِي نَفَحَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَوَّلِ خَلِيَّةٍ حَيَّةٍ ظَهَرَتْ لِلْوُجُودِ . وَبَعْدَ هَذَا فَإِنِّي أَعْجَبُ أَشَدَّ الْعَجَبِ مِنْ بَعْضِ الْمُتَقَفِينَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَا زَالُوا يَتَصَوَّرُونَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَبَقِيَّةَ الكَائِنَاتِ الحَيَّةِ مِنْ خِلَالِ عَجَنِ التُّرَابِ بِالْمَاءِ وَصُورِ الطِّينِ عَلَى هَيْئَةِ إِنْسَانٍ ثُمَّ تَرَكَهُ لِيَجْفَ لِيُصْبِحَ صَلْصَالًا كَالْفَخَّارِ ثُمَّ نَفَحَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ لِيُصْبِحَ إِنْسَانًا مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍّ . أَنَّ مِثْلَ هَذَا التَّصَوُّرِ الْبَسِيطِ لَا يَلِيقُ بِجَلَالِ اللَّهِ

عَزَّ وَجَلَّ وَإِبْدَاعِهِ وَإِقْتَانَهُ لِخَلْقِ مَخْلُوقَاتِهِ الْمُخْتَلَفَةِ مَعَ التَّكْيِيدِ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَرِدْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَلَا فِي
 الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ مَا يُفَرِّقُ هَذَا التَّصَوُّرَ بَلْ إِنَّ مُعْظَمَ تَفَاسِيرِ الْقُرْآنِ تَعَاضَتْ عَنْ ذِكْرِهِ . وَلَا أُدْرِي
 مَا الَّذِي سَيَجِدُهُ أَنْصَارُ الْخَلْقِ الْمُبَاشِرِ مِنْ أُدِلَّةٍ حَوْلَ بَدَايَةِ الْخَلْقِ إِذَا مَا سَارُوا فِي الْأَرْضِ إِذَا كَانَ
 تَصَوُّرُهُمْ لِلْخَلْقِ كَمَا تَوَهَّمُوهُ . وَسَنُشْرِحُ فِي هَذِهِ الْمَقَالَةِ مُعْظَمَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِمَرَاحِلِ خُلُقِ
 الْكُونِ وَخَلْقِ الْأَرْضِ وَخُلُقِ الْإِنْسَانِ مِنَ التُّرَابِ وَسَيَتَبَيَّنُ لِلْقَارِيءِ الْمُنْصِفِ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ فَهْمُ مَدُلُولَاتِهَا
 وَمَغَازِيهَا إِلَّا عَلَى ضَوْءِ نَتَائِجِ الْأَبْحَاثِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي نَشَرَهَا عُلَمَاءُ تَطَوَّرَ الْحَيَاةِ عَلَى مَدَى مَا يَزِيدُ عَنْ 150
 عَامٍ بَعْدَ ظُهُورِ نَظَرِيَّةِ التَّطَوُّرِ .

الْخَلْقُ الْمُبَاشِرُ وَالْخَلْقُ غَيْرَ الْمُبَاشِرِ لِلْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ

لَقَدْ كَانَ الْإِعْتِقَادُ السَّائِدُ عِنْدَ جَمِيعِ اتِّبَاعِ الْأَدْيَانِ السَّمَاوِيَّةِ قَبْلَ ظُهُورِ نَظَرِيَّةِ التَّطَوُّرِ فِي مُنْتَصَفِ الْقَرْنِ
 التَّاسِعِ عَشَرَ أَنَّ كُلَّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ بِمَا فِيهَا الْإِنْسَانُ قَدْ تَمَّ خَلْقُهُ مُبَاشَرَةً مِنَ التُّرَابِ مِنْ خِلَالِ
 نَفْخِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي صُورٍ طِينِيَّةٍ خَلَقَهَا اللَّهُ بِيَدِهِ لِهَذِهِ الْكَائِنَاتِ . وَفِي عَامِ 1859م طُرِحَ الْبِحَاثَةُ
 الْإِنْجِلِيزِي تشارلز دارون فِي كِتَابِهِ الشَّهِيرِ "أَصْلُ الْأَنْوَاعِ" فَكَّرَهُ جَدِيدَةً لِلطَّرِيقَةِ الَّتِي تَمَّ مِنْ خِلَالِهَا ظُهُورُ
 عَشْرَاتِ الْمِلْيَانِ مِنْ أَنْوَاعِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ بِمَا فِيهَا الْإِنْسَانُ عَلَى الْأَرْضِ . وَمُلْخَصَ نَظَرِيَّةِ التَّطَوُّرِ الَّتِي
 طَرَحَهَا دارون هُوَ أَنَّ تُرَابَ الْأَرْضِ قَدْ تَحَوَّلَ بِطَرِيقِهِ مَا إِلَى كَائِنٍ حَيٍّ بَدَائِيٍّ مُكَوَّنٍ مِنْ خَلِيَّةٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ
 مَرَّ هَذَا الْكَائِنُ الْحَيُّ بِعَمَلِيَّاتٍ تَطَوَّرَ مِتْلَاحِقَةً عَلَى مَدَى مِلْيَانِ السَّنِينَ أَدَّتْ إِلَى ظُهُورِ هَذَا الْكُلْمِ الْهَائِلِ مِنْ
 أَنْوَاعِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ وَعَلَى رَأْسِهَا الْإِنْسَانُ .

لَقَدْ وَضَحْنَا فِي هَذَا الْبُحْثِ كَيْفَ أَنْ نَظَرِيَّةَ دَارْوِينِ قَدْ تَرَنَحَتْ إِمَامَ الْأَكْشَافَاتِ الْعِلْمِيَّةِ الْحَيَوِيَّةِ الْحَدِيثَةِ وَخَاصَّةً تِلْكَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِعِلْمِ الْوَرَاثَةِ وَالْمُورَثَاتِ وَغَيْرِهَا وَالشَّرِيطِ الْوَرَاثِيِّ وَلَا حَاجَةَ لِإِعَادَةِ مَا نُوهِنَا عَنْهُ .
فَالصَّدْفَةُ الَّتِي يَزْعِمُ الْمَلْحُدُونَ أَنَّهَا تَقِفُ وَرَاءَ عَمَلِيَّةِ ظُهُورِ الْحَيَاةِ عَلَى الْأَرْضِ أُعْجَزُ مِنْ أَنْ تَصْنَعَ ابْسُطَ الْأَشْيَاءِ تَرْكِيبًا فَإِنِّي لَهَا أَنْ تَصْنَعَ خَلِيَّةً حَيَّةً أَوْ شَرِيطَ وَرَاثِي تَمَّ كِتَابَهُ بِرَامِجِ تَصْنِيعِ الْكَاثِمَاتِ الْحَيَّةِ عَلَيْهِ بِطَرِيقِهِ رَقْمِيَّةً .

قُرَيْشٍ مِنْ حَقِيقَةِ إِنْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ خَلَقَهُمْ مِنَ الطِّينِ وَلَا بَدَّ أَنَّهُمْ تَصَوَّرُوا فِي أَدْهَانِهِمْ طَرِيقَةَ بَدَائِيَّةٍ لِحَلْفِهِمْ مِنْ هَذَا الطِّينِ كَمَا يَتَصَوَّرُ الْبَعْضُ فِي هَذَا الْعَصْرِ . وَفِي الْمُقَابِلِ نَجِدُ أَنْ رَسُولَنَا الْكَرِيمَ قَدْ عَجِبَ مِنْ حَقِيقَةِ تَحَوُّلِ الطِّينِ إِلَى إِنْسَانٍ يَتَحَرَّكُ وَيَسْمَعُ وَيُبْصِرُ وَيُفَكِّرُ وَيَفْرَحُ وَيَحْزَنُ وَيَضْحَكُ وَيَبْكِي .
وَاعْتَقَدَ جَارِمًا أَنْ مَنْ يَطَّلِعُ عَلَى نَتَائِجِ أبحاثِ الْعُلَمَاءِ الْمُشْتَغَلِينَ بِتَارِيخِ التَّطَوُّرِ الْكِيمِيَايِيِّ لِلْحَيَاةِ لَا بَدَّ وَأَنْ يُعْجَبَ أَشَدَّ الْعُجْبِ مِنَ الطَّرِيقَةِ الَّتِي تَحَوَّلَ بِهَا تُرَابُ الْأَرْضِ إِلَى أَوَّلِ كَائِنٍ حَيٍّ بَدَائِيٍّ مُكَوَّنٍ مِنْ خَلِيَّةٍ وَاحِدَةٍ . وَقَدْ اعْتَرَفَ كَثِيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْعَرَبِ مِنْ مَن يَدْرُسُونَ تَارِيخَ تَطَوُّرِ الْحَيَاةِ بِأَنَّ عَمَلِيَّةَ نَشْوءِ الْحَيَاةِ مِنْ التُّرَابِ فِيهَا مِنْ الْمُعْجَزَاتِ مَا فِيهَا وَكَتَبُوا كَتَبَ وَمَقَالَاتٍ حَوْلَ هَذِهِ الْمُعْجَزَاتِ (Miracles in Evolutionary Theory) . وَقَدْ جَاءَ هَذَا الْإِعْتِرَافُ عَلَى لِسَانِ أَحَدِ أَشْهُرِ عُلَمَاءِ الْأَحْيَاءِ وَهُوَ عَالِمُ الْأَحْيَاءِ فِرَانْسِيْسُ كَرِيكُ الَّذِي نَالَ فِي عَامِ 1962مِ جَائِزَةَ نُوبَلٍ فِي الْفَيْسِيُولُوجِيَا مُشَارَكَةً مَعَ عَالِمَيْنِ آخَرَيْنِ تَقْدِيرًا لِأَكْشَافِهِمْ تَرْكِيْبَ شَرِيطِ الْحَامِضِ التَّوَوِيِيِّ حَيْثُ قَالَ فِي كِتَابِهِ (طَبِيعَةُ الْحَيَاةِ) (لَنْ الرَّجُلُ الْأَمِينُ الْمُسَلِّحُ بِكُلِّ الْمَعْرِفَةِ الْمَتَاحَةِ لَنَا الْآنَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ نَشَأَةَ الْحَيَاةِ تَبْدُو شَيْئًا أَقْرَبُ مَا يَكُونُ إِلَى الْمَعْجَزَةِ) .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ

أَمَّا الْمَرْحَلَةُ الثَّالِثَةُ مِنْ مَرَاكِحِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ فِيهِ مَرْحَلَةُ الْحَمَاءِ الْمَسْنُونِ فَقَدْ جَاءَ ذِكْرُهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (26)) الْحَجَرِ . فمرحلة الحَمَاءِ الْمَسْنُونِ هِيَ الْمَرْحَلَةُ الَّتِي تَكُونُ فِيهَا الْمَوَادُّ الْعَضْوِيَّةُ الْبَسِيطَةُ فِي الْمَسَطَّحَاتِ الْمَائِيَّةِ حَيْثُ يَعْتَقِدُ عُلَمَاءُ التَّطَوُّرِ أَنَّ الْأَشِعَّةَ فَوْقَ الْبَنْفَسَجِيَّةِ الْقَادِمَةَ مِنَ الشَّمْسِ وَالتَّفْرِغِ الْكَهْرِبَائِيِّ النَّاتِجِ عَنِ الْبُرُوقِ وَالْبَرَائِكِ عَمِلَتْ عَلَى تَصْنِيعِ الْمَوَادِّ الْعَضْوِيَّةِ الْبَسِيطَةِ مِنْ غَازَاتِ الْمِثَانَ وَالْأَمُونِيَا وَالْهَيْدْرُوجِينِ وَبُخَارِ الْمَاءِ الْمَوْجُودَةِ فِي جَوْ الْأَرْضِ الْأَوَّلِيِّ . وَلَقَدْ بَدَأَتْ هَذِهِ الْمَوَادُّ الْعَضْوِيَّةُ الْبَسِيطَةُ بِالْتَرَاكُمِ وَالتَّرْسِبِ بِكَمِّيَّاتٍ كَبِيرَةٍ فِي الْبِرْكِ وَالْبَحِيرَاتِ وَالْحَيْطَاتِ لِتَلْتَصِقَ بِالطَّيْنِ الْمَوْجُودِ فِي قِيَعَانِهَا مُكَوِّنَةً الْحَمَاءَ الْمَسْنُونِ الَّذِي ذَكَرَهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ . وَلَقَدْ أَطْلَقَ عُلَمَاءُ التَّطَوُّرِ اسْمَ الْحَسَاءِ الْبِدَائِيِّ (primordial soup) وَكَذَلِكَ الْمَرْقَ الْحَيَوِيِّ الْأَوَّلِيِّ (prebiotic broth) عَلَى هَذَا الْمَاءِ أَوْ الطَّيْنِ الْمُمْتَلِئِ بِمُخْتَلِفِ أَنْوَاعِ الْمَوَادِّ الْعَضْوِيَّةِ الْبَسِيطَةِ . فَالْحَمَاءُ كَمَا جَاءَ فِي تَفَاسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ هُوَ الطَّيْنُ الْأَسْوَدُ وَالْمَسْنُونُ هُوَ الطَّيْنُ الْأَسَنُّ الَّذِي تَفُوحُ مِنْهُ الرُّوَائِحُ الْكَرِيهَةُ وَهَذِهِ التَّسْمِيَةُ الْقُرْآنِيَّةُ جَاءَتْ أَكْثَرَ دَقَّةٍ فِي الْوَصْفِ مِنْ تَسْمِيَةِ عُلَمَاءِ التَّطَوُّرِ حَيْثُ إِنَّ الْحَمَاءَ الْمَسْنُونِ مُرْتَبِطٌ بِوُجُودِ الْمَوَادِّ الْعَضْوِيَّةِ الْمُنْتِنَةِ فِي الْمَاءِ الرَّائِدِ . أَنَّ وُجُودَ مَرْحَلَةِ الْحَمَاءِ الْمَسْنُونِ كَأَحَدِ مَرَاكِحِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ نَتْفِي بِشَكْلِ قَاطِعِ فِكْرِهِ الْخُلُقِ الْمُبَاشِرِ فَلَا حَاجَةَ لَأَنْ يَكُونَ الطَّيْنُ أَسَنًّا حَتَّى يَصْنَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُ الْإِنْسَانَ وَبِقِيَّةِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ .

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ

أما المرحلة الرابعة وقبل الأخيرة من مراحل التطور الكيميائي للحياة فهي مرحلة الصلصال والتي وردت في قوله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من صلصالٍ من حمأ مسنونٍ (26)) الحجر وكذلك قوله تعالى (خلق الإنسان من صلصالٍ كالفخار (14)) الرحمن . لقد وجه علماء تطور الحياة مسار أبحاثهم في اتجاه لم يكن ليخطر على بال أحد وهم يبحثون عن الآلية التي تكونت بها المواد العضوية المعقدة من المواد العضوية البسيطة المتوفرة بكثرة في الحساء البدائي أو الحمأ المسنون . فقد اكتشفوا أن الأحماض الأمينية شبه الجافة التي تم ترسيبها على سطوح بعض المواد المتوفرة في الطبيعة لها القدرة على تكوين مواد عضوية معقدة أسرع بكثير مما لو كانت مذابة في الماء . وقد وجد العلماء أن السبب في ذلك يعود إلى أن البروتينات والأحماض النووية وبقية المواد العضوية المعقدة تتكون من سلاسل طويلة مكونة من وحدات أساسية تتكرر وفق ترتيبات محددة على طول هذه السلاسل وكذلك هو الحال مع الأجسام البلورية حيث يوجد على أسطحها تراكيب دقيقة تعيد نفسها بأنماط مختلفة . وبعد أن قام العلماء بدراسة عدد لا بأس به من المواد المتبلورة في الطبيعة وقع اختيارهم وبشكل غير متوقع على الصلصال المتبلور أو حسب التعبير القرآني الصلصال الذي كالفخار . يتميز الصلصال المتبلور على غيره من المواد البلورية بامتلاكه لأنماط متعددة من التكرار تتحدد من طبيعة المواد التي صنع منها والظروف الذي يتعرض لها أثناء تكوينه بينما لا تمتلك المواد البلورية الأخرى إلا عدد قليل من الأنماط . ويتكون الصلصال من شبكة بلورية من ذرات السيليكون والأكسجين والألمنيوم والهيدروجين مرتبة على شكل طبقات وقد يحدث عند تكون هذه الطبقات أن تحل ذرة المنيوم محل ذرة سيليكون فينتج عن ذلك إخطاءاً تركيبية في بنيه الصلصال المتبلور . وقد وجد العلماء أن هذه الأخطاء التركيبية لها القدرة على إعادة نفسها عند تكون طبقات جديدة مما يؤدي لظهور عدد كبير جداً من الأنماط التركيبية المختلفة .

وَتَتَضَمَّنْ هَذِهِ التَّرَاكِيبِ البلورية أَمْطَاطٍ مِنَ الشَّحْنَاتِ الكَهْرِبَائِيَّةِ لَهَا القُدْرَةُ عَلَى جَذْبِ جُزْئِيَّاتِ المَوَادِّ العُضْوِيَّةِ وَخَاصَّةً النيوكليداتِ المَكُونَةَ للحامضِ التَّوَوِيَّيِّ مِنَ المَاءِ المُحِيطِ بِالصَّلْصَالِ وَتَسَاعِدُهَا بِالِارْتِبَاطِ بِبَعْضِهَا عَلَى سَطْحِ الصَّلْصَالِ . وَفِي تَأْكِيدِ القُرْآنِ الكَرِيمِ عَلَى أَنَّ الصَّلْصَالِ الَّذِي اسْتُخْدِمَ فِي خَلْقِ الحَيَاةِ الأُولَى هُوَ التَّنُوعُ الَّذِي يُشْبِهُ الفَخَّارِ إِشَارَةً إِلَى ضَرُورَةِ أَنْ يَكُونَ الصَّلْصَالُ بِالشَّكْلِ المَتَبَلُورِ الَّذِي يَتَطَلَّبُهُ تَشْكِيلُ المَوَادِّ العُضْوِيَّةِ عَلَى أَمْطَاطِهِ البلورية . وَقَدْ اكْتَشَفَ العُلَمَاءُ كَذَلِكَ إِنَّ الصَّلْصَالِ المَتَبَلُورِ يَمْتَلِكُ خَاصِيَّةً فَرِيدَةً وَهِيَ قُدْرَتُهُ عَلَى تَفْرِيعِ الطَّاقَةِ الَّتِي تَحْوِيهَا جُزْئِيَّاتِهِ فِي جُزْئِيَّاتِ المَوَادِّ العُضْوِيَّةِ الملتصقة بِهِ مِمَّا مَكَّنَهَا مِنَ الِارْتِبَاطِ بِبَعْضِهَا البَعْضُ وَذَلِكَ عِنْدَ تَعَرُّضِ هَذَا الصَّلْصَالِ لِسُلْسِلَةِ مِنَ دَوْرَاتِ التَّجْفِيفِ وَالتَّرْطِيبِ . أَنَّ هَذِهِ الخَوَاصُّ الفَرِيدَةَ لِلصَّلْصَالِ المَتَبَلُورِ الَّتِي مَكَّنَتْهُ مِنْ تَصْنِيعِ المَوَادِّ العُضْوِيَّةِ المَعْقَدَةِ مِنْ مَكُونَاتِهَا البَسِيطَةِ جَعَلَتْهُ يَقُومُ مَقَامَ الأَنْزِيْمَاتِ فِي عَمَلِيَّةِ تَصْنِيعِ هَذِهِ المَوَادِّ وَذَلِكَ فِي غِيَابِ الأَنْزِيْمَاتِ فِي تِلْكَ الحَقَبَةِ مِنَ الزَّمَنِ . وَكَمَا أَنَّ المَوَادِّ العُضْوِيَّةِ الَّتِي يَتِمُّ تَصْنِيعُهَا بِمُسَاعَدَةِ الأَنْزِيْمَاتِ تَنْفَكُ عَنِ الأَنْزِيْمِ بَعْدَ اكْتِمَالِ التَّفَاعُلِ فَإِنَّ سِلْسِلَةَ الجُزْئِيَّاتِ العُضْوِيَّةِ الَّتِي تَتَكَوَّنُ عَلَى أَسْطِحِ الصَّلْصَالِ تَقُومُ بِمُعَادَرَةِ هَذِهِ السُّطُوحِ بِمَجْرَدِ اكْتِمَالِهَا وَتَبْدَأُ بِالِاتِّشَارِ بِالمَاءِ .

وَبِمَعْرِفَةِ العُلَمَاءِ لِهَذَا الدَّورِ المُهْمِّ الَّذِي لِعِبِهِ الصَّلْصَالُ فِي تَطَوُّرِ الحَيَاةِ عَلَى الأَرْضِ تَمَّ حَلُّ اللُّغْزِ الثَّانِي مِنَ الغَازِ الحَيَاةِ وَهُوَ طَرِيقَةُ تَصْنِيعِ المَوَادِّ العُضْوِيَّةِ المَعْقَدَةِ مِنَ المَوَادِّ العُضْوِيَّةِ الأَسَاسِيَّةِ الَّتِي سَبَقَ أَنْ تَكُونَتْ فِي جَوِّ الأَرْضِ الأَوَّلِيِّ دَاخِلِ الحَمَاءِ المُسْتَوْنِ . لَقَدْ كَانَ لِأَحَدِ عَنَاوِينِ مَجَلَّةِ إِخْبَارِ العُلُومِ (

Science News) فِي عَامِ 1977م هُوَ (نَمْذَجَةُ التَّطَوُّرِ المُبَكِّرِ بِالصَّلْصَالِ) (Modeling

Early Evolution with Clay) وَفِي مُقَدِّمَةِ المَقَالَةِ وَرَدَتِ الجُمْلَةُ التَّالِيَةُ : قَدْ يَكُونُ الصَّلْصَالُ

الْوَضِيعُ هُوَ الَّذِي شَكَلَ الْخُطْوَةَ الْأَهَمَّ فِي التَّطَوُّرِ الْكِيمِيَائِيِّ لِلْحَيَاةِ . وَفِي عَامِ 2003م وَعَلَى مَوْقِعِ (CNN) ظَهَرَ الْعُنْوَانُ التَّالِيُ : دِرَاسَةٌ تَقْتَرِحُ أَنَّ الْحَيَاةَ قَدْ أُبْتَقَتْ مِنَ الصَّلْصَالِ (Study suggests life sprang from clay) وَوَرَدَ فِي الْمَقَالَةِ مَا نَصَّهُ : الْعِلْمُ يُدْعِمُ الدِّينَ فِي دِرَاسَةٍ تَقْتَرِحُ أَنَّ الْحَيَاةَ قَدْ أُبْتَقَتْ بِالْفِعْلِ مِنَ الصَّلْصَالِ - كَمَا جَاءَ فِي تَعَالِيمِ بَعْضِ الْأَدْيَانِ (Science backed up religion in a study that suggests life may have indeed sprung from clay — just as many faiths teach) .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ

أَمَّا الْمَرْحَلَةُ الْأَخِيرَةُ وَالْعَجِيبَةُ مِنْ مَرَاكِحِ التَّطَوُّرِ الْكِيمِيَائِيِّ لِلْحَيَاةِ فَهِيَ مَرْحَلَةُ سُلَالَةِ الطِّينِ الَّتِي جَاءَتْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12)) الْمُؤْمِنُونَ . وَلَكِي تَمَكَّنَ مِنْ فَهْمِ مَعْنَى كَلِمَةِ السُّلَالَةِ الْوَارِدَةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لَا بُدَّ مِنَ الْإِسْتِعَانَةِ بِمَعْنَاهَا فِي آيَةٍ أُخْرَى وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (7)) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (8)) السَّجْدَةِ . وَبَيَّنَّ هَذِهِ الْآيَاتُ أَنَّهُ بَعْدَ أَنْ تَمَّ خَلْقُ الْأَصْلِ الْأَوَّلِ لِلْإِنْسَانِ مِنَ الطِّينِ أَصْبَحَتْ عَمَلِيَّةُ إِتْجَاعِ الْبَشَرِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ تَتِمُّ مِنْ خِلَالِ سُلَالَةِ الْمَاءِ الْمَهِينِ وَلَيْسَ مِنَ التُّرَابِ مُبَاشَرَةً . وَكَلِمَةُ نَسْلِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ) يُمَكِّنُ فَهْمَ مَعْنَاهَا مِنْ خِلَالِ إِبْدَالِهَا بِكَلِمَةِ نُسْخَةٍ كَمَا نَقُولُ (ثُمَّ جَعَلَ نُسْخَهُ) وَهِيَ عَمَلِيَّةُ إِتْجَاعِ نُسْخٍ جَدِيدَةٍ مِنْ أَفْرَادِ الْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ مِنْ أَصُولِهَا . أَمَّا مَعْنَى السُّلَالَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ) فَهُوَ أَنَّ عَمَلِيَّةَ التَّنْسِخِ هَذِهِ تَتِمُّ تَحْتَ سَيْطَرَةِ مُكَوَّنٍ فِي دَاخِلِ التَّنُطْفَةِ عَلَى شَكْلِ سِلْسِلَةٍ مِنَ الْمَاءِ بِالْعَةِ الضَّعْفِ وَهِيَ بِلَا شَكٍّ شَرِيطُ الْحَامِضِ التَّوَوِيّ الْوَرَاثِيِّ الْمَوْجُودِ فِي كُلِّ خَلِيَّةٍ مِنْ خَلَايَا الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ .

لقد أجمع علماء تطور الحياة بعد اكتشاف شريط الحامض النووي في منتصف القرن العشرين على أنه لا يمكن لأي كائن حي مهما بلغت بساطه تركيب جسمه إن يخلق من تراب الأرض قبل أن يتم تصنيع شكل من أشكال الشريط الوراثي . ففي هذا الشريط الوراثي يكمن سران من أهم أسرار الحياة فالسر الأول هو قدرته على إنتاج نسخة طبق الأصل عن نفسه بنفسه وبهذا السر تستطيع الخلايا وكذلك الكائنات الحية أن تُنتج نسخاً عن نفسها بنفسها بدون تدخل أي قوة خارجية . أما السر الثاني فهو قدرته على تخزين المعلومات اللازمة لتصنيع مختلف مكونات الكائنات الحية كمواصفات المواد العضوية المختلفة ومواصفات المكونات الخلية الحية ومواصفات أجسام الكائنات الحية . فالكائن الحي لا يمكن اعتباره كائناً حياً حتى لو عاش لفترة طويلة من الزمن طالما أنه لا يمتلك الآلية التي يستطيع من خلالها أن يُنتج نسخة جديدة عن نفسه بنفسه . أن مرحلة سلاله الطين هي المرحلة التي تم خلالها تصنيع أول شكل من أشكال الحامض النووي والتي أطلق عليها علماء التطور اسم عالم الحامض النووي الريبوزي (world of ribonucleic acid (RNA)) . وهذا الحامض النووي الريبوزي هو شريط يُحمل معلومات وراثية مثله مثل شريط الحامض النووي الديكسورايبوزي (DNA) إلا أنه مكون من سلسلة واحدة بدلاً من سلسلتين . ويعتقد هؤلاء العلماء أن سلاسل الأحماض النووية هي الجزيئات الوحيدة التي يمكن لها أن تبقى لفترات طويلة بعد انفصالها عن الصلصال إذا ما توفرت فيها خاصية مهمة وهي قدرتها على إنتاج نسخ عنها بدون مساعدة الصلصال . وكما أن سلاله الماء أو شريط الحامض النووي هو المسؤول عن تحويل الخلية الواحدة إلى كائن حي بكامل تفصيلاته فإن سلاله الطين هي المسؤولة عن تحويل التراب الميت إلى أول شكل من أشكال الحياة وهو الكائن الحي البدائي المكون من خلية واحدة . وعلى شريط الحامض النووي الريبوزي الأولي كتب الله بطريقه رقمية كامل

تَعْلِيمَاتٍ تَصْنِيعٍ أَوَّلٍ كَائِنٌ حَيٌّ ظَهَرَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ وَالَّذِي كَانَ يَتَكَوَّنُ مِنْ خَلِيَّةٍ حَيَّةٍ وَاحِدَةً فَقَطُّ
تَحْتَوِي عَلَى مُعْظَمِ الْمَكُونَاتِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْخَلَايا الْحَيَّةِ الْحَالِيَّةِ . وَمِنْ هَذَا الْكَائِنِ الْحَيِّ الْأَوَّلِيِّ خَلَقَ اللَّهُ
جَمِيعَ أَنْوَاعِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ الَّتِي ظَهَرَتْ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ وَالَّتِي تَعَدُّ بِعَشْرَاتِ الْمِلايِينِ وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ
إِعَادَةِ كِتَابِهِ بِرَامِجِ التَّصْنِيعِ الْمَخْزَنَةِ عَلَى أَشْرَطَةِ الْحَامِضِ التَّوَوِيِّ الْمَوْجُودَةِ فِي الْخَلَايا الَّتِي تَبْدَأُ مِنْهَا
عَمَلِيَّةُ تَصْنِيعِ مُخْتَلَفِ أَنْوَاعِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ .

لَقَدْ اكْتَشَفَ عُلَمَاءُ الْإِحْيَاءِ أَنَّ الشِّيفِرَةَ الْوَرَاثِيَّةَ فِي جَمِيعِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ مَكْتُوبَةٌ بِنَفْسِ نَوْعِ الْأَحْرَفِ
وَالَّتِي يُبْلَغُ عَدْدُهَا أَرْبَعَةَ أَحْرَفٍ فَقَطُّ وَإِنَّ طَوْلَ الشِّيفِرَةِ هُوَ ثَلَاثَةُ أَحْرَفٍ وَهُوَ الطَّوْلُ اللَّازِمُ لِتَشْفِيرِ
الْأَحْمَاضِ الْأَمِينِيَّةِ الْعِشْرِينَ الَّتِي تَلْزَمُ لِتَصْنِيعِ مُخْتَلَفِ أَنْوَاعِ الْبَرُوتِينَاتِ وَالْأَنْزِيمَاتِ الَّتِي تَحْتَاجُهَا الْكَائِنَاتُ
الْحَيَّةُ . وَيَعْتَقِدُ عُلَمَاءُ التَّطَوُّرِ أَنَّ شَرِيْطَ الْحَامِضِ التَّوَوِيِّ الَّذِي كَتَبَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ لَا بُدَّ وَأَنَّ
يُكُونُ بِنَفْسِ مَوَاصِفَاتِ الْأَشْرَطَةِ الْحَالِيَّةِ مِنْ حَيْثُ عَدَدُ أَحْرَفِ التَّشْفِيرِ وَطَوْلُ كَلِمَةِ التَّشْفِيرِ . وَلَقَدْ
ثَبَتَ لِلْعُلَمَاءِ بِمَا لَا يَدْعُ مَجَالَ لِلشَّكِّ أَنَّ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ ابْتَدَأَ بِالْفَيْرُوسَاتِ وَأَنْتَهَاءَ بِالْإِنْسَانِ
تُسْتَعْمَدُ نَفْسُ نِظَامِ التَّشْفِيرِ وَنَفْسُ الْمَوَادِّ الْعَضُويَّةِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ الْأَمْرُ كَذَلِكَ لَظَهَرَ لِلْوُجُودِ كَائِنَاتٌ حَيَّةٌ
بِأَشْرَطَةِ وَرَاثِيَّةٍ بِأَطْوَالِ كَلِمَاتٍ مُخْتَلَفَةٍ . وَفِي نَفْسِ الْوَقْتِ يَنْفِي وُجُودَ نِظَامِ تَشْفِيرٍ مُوَحَّدٍ لِجَمِيعِ أَنْوَاعِ
الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ أَنْ تَكُونَ الصَّدْفَةَ هِيَ الْمَسْئُولَةُ عَنْ ذَلِكَ وَإِلَّا لَظَهَرَ فِي مِيَاهِ الْأَرْضِ الْمُبَاعَدَةِ نِظْمَ حَيَاةٍ
لَهَا أَنْظَمُهُ تَشْفِيرٍ مُخْتَلَفَةٍ مِنْ حَيْثُ عَدَدُ الْأَحْرَفِ وَطَوْلُ الْكَلِمَاتِ . وَيَعْتَقِدُ عُلَمَاءُ التَّطَوُّرِ أَنَّ تَرْكِيبَ
شَرِيْطِ الْحَامِضِ التَّوَوِيِّ الَّذِي ظَهَرَ لِلْوُجُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ كَانَ فِي ابْسِطِ إِشْكَالِهِ أَيَّ أَنَّهُ كَانَ يَتَكَوَّنُ مِنْ سِلْسِلَةِ
جَانِبِيَّةٍ وَاحِدَةٍ قَصِيْرَةٍ نَسْبِيًّا وَهُوَ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ فِي الشَّكْلِ لِشَرِيْطِ الْحَامِضِ التَّوَوِيِّ الْمَراسِلِ . وَقَدْ زَادَ

مِنْ قَتَاعَةِ الْعُلَمَاءِ بِهَذَا الرَّأْيِ أَنَّ بَعْضَ الْفَيْرُوسَاتِ وَالَّتِي هِيَ ابْسُطُ الْكَاثِنَاتِ الْحَيَّةِ تَرْكِيْبًا يَتَكُونُ شَرِيْطَهَا الْوَرَاثِي مِنْ شَرِيْطِ حَامِضٍ نَوَوِيٍّ اَحَادِي السَّلْسِلَةِ بَيْنَمَا تَتَكُونُ الْاَشْرَطَةُ الْوَرَاثِيَّةُ لِبَقِيَّةِ الْكَاثِنَاتِ الْحَيَّةِ مِنْ اَشْرَطَةِ مُزْدَوِجَةِ السَّلْسِلَةِ .

مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ

لَقَدْ اَنْتَهتْ حِقْبَةُ الْخُلُقِ مِنَ التُّرَابِ اَوْ مَا يُسَمَّى بِالتَّطَوُّرِ الْكِيْمِيَايِيِّ لِلْحَيَاةِ وَالَّتِي تَتَعَلَّقُ بِتَحْوِيلِ تُّرَابِ الْاَرْضِ اِلَى اَوَّلِ كَائِنٍ حَيٍّ بَدَائِيٍّ مُكَوَّنٍ مِنْ خَلِيَّةٍ وَّاحِدَةٍ قَادِرَةٌ عَلٰى تَزْوِيْدِ نَفْسِهِ بِالْغِذَاءِ الْلاَزِمِ مِنَ الْمِحِيْطِ الَّذِي يَعْشُرُ فِيْهِ وَقَادِرَةٌ كَذَلِكَ عَلٰى التَّكَاَثُرِ الذَّاتِيِّ . اَمَّا الْحِقْبَةُ التَّالِيَةُ مِنْ مَّرَاحِلِ تَطَوُّرِ الْحَيَاةِ فَهِيَ حِقْبَةُ النُّطْفَةِ وَالَّتِي تَتَعَلَّقُ بِاِتِّجَاعِ الْكَاثِنَاتِ الْحَيَّةِ مِنَ النُّطْفِ ذَاتِ الْخَلِيَّةِ الْوَاحِدَةِ وَلَيْسَ مِنَ التُّرَابِ مُبَاشَرَةً وَالَّتِي جَاءَ ذِكْرُهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالٰى (وَاللّٰهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ اَزْوَاجًا (II)) فَاطِرٌ وَقَوْلُهُ سُبْحٰنَهُ (قَتَلَ الْاِنْسَانَ مَا اَكْفَرَهُ (I7) مِنْ اَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (I8) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ (I9)) عَبَسَ وَقَوْلُهُ تَعَالٰى (خَلَقَ الْاِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَاِذَا هُوَ خَصِيْمٌ مُّبِيْنٌ (4)) التَّنْحَلُ . لَقَدْ اَثْبَتَ عُلَمَاءُ الْاِحْيَاءِ بِمَا لَا يَدْعُ مَجَالًا لِلشَّكِّ اَنَّ جَمِيْعَ اَنْوَاعِ الْكَاثِنَاتِ الْحَيَّةِ يَبْدَأُ تَصْنِيْعَهَا مِنْ خَلِيَّةٍ وَّاحِدَةٍ فَقَطْ حَيْثُ تَنْقَسِمُ اِلَى خَلِيَّتَيْنِ ثُمَّ اِلَى اَرْبَعٍ ثُمَّ اِلَى ثَمَانِي خَلَايَا وَهَكَذَا دَوَالِيْكُ اِلَى اَنَّ يَتِمَّ اِنتِاجُ جَمِيْعِ الْخَلَايَا الَّتِي تَلْزِمُ لِبِنَاءِ جِسْمِ الْكَاثِنِ وَالَّتِي قَدْ يَصِلُ عَدَدُهَا اِلَى اَلْفِ الْبَلَايِنِ فِي بَعْضِ الْكَاثِنَاتِ . اَنَّ الْاِبْتِدَاعَ الْمَوْجُوْدِ فِي طَرِيْقِهِ التَّصْنِيْعِ هَذِهِ هُوَ فِي اَنَّهَا لَا نَحْتَاجُ اِلَى تَدْخُلِ قُوَّةٍ خَارِجِيَّةٍ لِاِتِّمَامِ عَمَلِيَّةِ التَّصْنِيْعِ فَالْخَلِيَّةُ الْاَوَّلِيَّةُ الَّتِي تَبْدَأُ مِنْهَا عَمَلِيَّةُ تَصْنِيْعِ الْكَاثِنِ الْحَيِّ قَدْ تَمَّ بِرَمَجَّتِهَا بِشَكْلِ كَامِلٍ بِحَيْثُ تَقُوْمُ هَذِهِ الْخَلِيَّةُ وَمَا يُنتِجُ عَنْهَا مِنْ خَلَايَا مِنْ خِلَالِ الْاِنْقِسَامِ الْمُتَكَرِّرِ بِكَامِلِ خُطُوَاتِ التَّصْنِيْعِ . اَنَّ كُلَّ مَا تَحْتَاجُهُ هَذِهِ الْخَلِيَّةُ لِكَيْ تَنْتِجَ كَائِنًا

حَيَّ بَعْدَ وَضْعِهَا فِي وَسَطِ مُنَاسِبٍ هُوَ إِمدَادُهَا بِالغِذَاءِ اللَّازِمِ لِإِتِّجَاعِ بَقِيَّةِ الخَلَايَا . وَبِمَا أَنَّ الكَائِنَاتِ الحَيَّةِ لَا تَتَدَخَّلُ أَبَدًا فِي عَمَلِيَّةِ تَصْنِيعِ الكَائِنَاتِ الحَيَّةِ الَّتِي تُنتِجُهَا فَلَا بُدَّ وَالْحَالِ هَذَا أَنَّ تَحْتَوِي الخَلِيَّةُ عَلَى كَامِلِ المَوَاصِفَاتِ وَالتَّعْلِيمَاتِ اللَّازِمَةِ لِتَصْنِيعِ هَذِهِ الكَائِنَاتِ مَحْزَنِهِ عَلَى الشَّرِيطِ الوَرَاثِيِّ بِطَرِيقِهِ رَقْمِيَّةً .

ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ

لِطَالَمَا تَسْأَلُ عُلَمَاءُ الإِحْيَاءِ عَنِ السَّرِّ الَّذِي يُجْعَلُ خَلَايَا التَّكَاثُرِ وَالتَّيِّ تَكَادُ أَنْ تُكُونَ مُتَشَابِهَةً فِي الشَّكْلِ وَتَحْتَوِي عَلَى نَفْسِ المُكَوِّنَاتِ أَنْ تُنْتِجَ أَنْوَاعٌ لَا حَصْرَ لَهَا مِنَ الكَائِنَاتِ الحَيَّةِ بِمُخْتَلَفِ الأَحْجَامِ وَالأَشْكَالِ وَالأَلْوَانِ . وَقَدْ كَانَ شَكَّ العُلَمَاءِ يَدُورُ حَوْلَ الحَامِضِ التَّوَوِيِّ (DNA) المَوْجُودِ فِي نَوَاهِ الخَلِيَّةِ وَالَّذِي تَمَّ اكْتِشَافُهُ فِي عَامِ 1869م عَلَى يَدِ الطَّيِّبِ السُّوَيْسَرِيِّ فِرِيدْرِيكِ مِيشرٍ بِأَنَّهُ هُوَ المُسْتَوُولُ عَنِ نَقْلِ الصِّفَاتِ الوَرَاثِيَّةِ فِي الكَائِنَاتِ الحَيَّةِ . وَفِي عَامِ 1953م تَمَكَّنَ عَالِمِي الإِحْيَاءِ فِرَانْسِيْسُ كْرِيكُ وَجِيْمِسُ وَاطْسُونُ بِاسْتِخْدَامِ الأَشْعَةِ السَّيْنِيَّةِ مِنْ كَشْفِ تَرَكِيبِ الحَامِضِ التَّوَوِيِّ وَوَجَدُوا أَنَّ كَامِلَ مَوَاصِفَاتِ أَجْسَامِ الكَائِنَاتِ الحَيَّةِ مَكْتُوبَةٌ بِطَرِيقِهِ رَقْمِيَّةً عَلَى شَرِيطِ طَوِيلٍ وَدَقِيقٍ مِنَ الحَامِضِ التَّوَوِيِّ مَحْزَنٌ فِي نَوَاهِ الخَلِيَّةِ وَهُوَ مِنَ الصَّغْرِ بِحَيْثُ لَا يُمَكِّنُ رُؤْيَهُ حَتَّى بِأَقْوَى المِيكْرُوَسْكَوْبَاتِ الضَّوئِيَّةِ . وَبِهَذَا الاكْتِشَافِ العَظِيمِ تَمَكَّنَ هَذَانِ العَالِمَانِ مِنْ فَكِّ أَعْظَمِ سِرٍّ مِنْ أَسْرَارِ الحَيَاةِ وَهُوَ الكَيْفِيَّةُ الَّتِي يَتِمُّ مِنْ خِلَالِهَا تَوْرِيثُ مَوَاصِفَاتِ أَجْسَامِ الكَائِنَاتِ الحَيَّةِ إِلَى مَا تُنتِجُهُ مِنْ كَائِنَاتٍ جَدِيدَةٍ وَكَذَلِكَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي يَتِمُّ بِهَا تَصْنِيعُ كَائِنَاتٍ جَدِيدَةٍ ابْتِدَاءً مِنْ خَلِيَّةٍ وَاحِدَةٍ .

لَقَدْ وَرَدَ ذِكْرُ الشَّرِيطِ التَّوَوِيِّ الْوَرَاثِيِّ فِي عِدَّةِ آيَاتٍ كَمَا فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (8)) السَّجْدَةِ وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى (الَّذِي نَخَلَقَكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (20) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (21) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (22) فَفَدَّرْنَا فَفِئَمَ الْقَادِرُونَ (23)) الْمُرْسَلَاتِ . فَسُلَالَةُ الْمَاءِ الْمَهِينِ أَوْ الْمَاءِ الْمَهِينِ الْمَذْكُورَةِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ لَا بُدَّ وَأَنَّ تَكُونُ إِحْدَى مُكَوِّنَاتِ النُّطْفَةِ الَّتِي تَخْلُقُ مِنْهَا جَمِيعُ أَنْوَاعِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ كَمَا جَاءَ فِي الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ . وَتُكشَفُ كَلِمَةُ "نَسْلُهُ" مُهِمَّةٌ هَذِهِ السُّلَالَةُ وَالَّتِي يُمَكِّنُ فَهْمَ مَعْنَاهَا مِنْ خِلَالِ إِبْدَالِهَا بِكَلِمَةِ نَسْخَةٍ فَهَذِهِ السُّلَالَةُ مَسْئُولَةٌ عَنِ إِتْجَانِ نُسْخِ جَدِيدَةٍ مِنَ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ . أَنَّ هَذِهِ السُّلَالَةَ لَا بُدَّ وَأَنَّهَا شَرِيطُ الْحَامِضِ التَّوَوِيِّ الَّذِي يَأْتِي عَلَى شَكْلِ سُلْسَلَةٍ دَقِيقَةٍ وَطَوِيلَةٍ لَا تَرَى بِالْعَيْنِ الْمَجْرَدَةِ . وَتُؤَكِّدُ كَلِمَةُ "مَهِينٍ" بِفَتْحِ الْمِيمِ أَيْ الضَّعِيفِ كَوْصَفٍ لِهَذِهِ السُّلَالَةِ الْمَائِيَّةِ عَلَى أَنَّهَا الشَّرِيطُ الْوَرَاثِيُّ الْبَالِغُ الضَّعِيفُ فَهَذِهِ الْكَلِمَةُ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْفِعْلِ وَهَنْ أَيْ ضَعْفٌ وَلَيْسَ مَهِينٌ بِضَمِّ الْمِيمِ مِنَ الْإِهَانَةِ كَمَا يَبَادِرُ لِأَذْهَانِ الْبَعْضِ .

لَقَدْ تَمَكَّنَ عُلَمَاءُ الْإِحْيَاءِ بِالِاسْتِعَانَةِ بِالْمِيكْرُوسْكُوبَاتِ الْإِلِكْتْرُونِيَّةِ مِنَ التَّعَرُّفِ عَلَى بَنِيهِ الشَّرِيطِ الْوَرَاثِيِّ وَتَبَيَّنَ لَهُمْ مَدَى ضَعْفِهِ حَيْثُ يَبْلُغُ عَرْضُهُ نَانُومَتْرَيْنِ اثْنَيْنِ فَقَطْ بَيْنَمَا يَخْتَلِفُ طُولُهُ حَسَبَ تَوَعُّكِ الْكَائِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ طُولَهُ الْكُلِّيَّ فِي الْإِنْسَانِ مَا يَقْرُبُ مِنَ الْمِتْرَيْنِ . وَلَكِنِّي يَتِمُّ وَضْعُ هَذَا الشَّرِيطِ الطَّوِيلِ فِي دَاخِلِ نَوَاهِ الْخَلْيَةِ الَّتِي لَا يَتَجَاوَزُ قَطْرَهَا عِدَّةُ مِيكْرُومِتْرَاتٍ فَلَا بُدَّ مِنْ طَوِيلِهَا مِائَاتِ الْأَلْفِ مِنَ الْمِرَّاتِ . وَمَنْ الْبَدِهي أَنْ لَا يَتِمُّ لَفَّ هَذَا الْأَشْرَطَةِ بِطَرِيقِهِ اعْتِبَاطِيَّةٍ وَإِلَّا لَتَشَابَكَتْ أَجْزَاؤُهَا وَلَمَّا تَمَكَّنَتْ هَذِهِ الْأَشْرَطَةُ مِنَ الْقِيَامِ بِمَهَامِهَا حَيْثُ إِنَّ كُلَّ جُزْءٍ مِنْهَا يَحْتَوِي عَلَى مَعْلُومَاتٍ وَرَاشِيَّةٍ مُحَدَّدَةٍ مَسْئُولَةٌ عَنِ وَظِيفَةٍ مُحَدَّدَةٍ فِي عَمَلِيَّةِ تَصْنِيعِ جِسْمِ الْكَائِنِ . لَقَدْ أَصِيبَ الْعُلَمَاءُ بِدَهْشَةٍ كَبِيرَةٍ عِنْدَمَا اكْتَشَفُوا أَنَّ

هذا الشريط قد تم لفه بطريقة بالغة الذكاء بحيث يمكن قراءة جميع التعليمات المكتوبة عليه بشكل مباشر وبدون أي لبس حيث تم لفها على أسطوانات بروتينية يصل قطر الواحدة منها ثلاثين نانومتر ولا يتجاوز طولها الميكرومتر الواحد .

أن سر الحياة الأعظم يكمن في قدره الشريط الوراثي على إنتاج نسخة عن نفسه بنفسه وبهذا السر تستطيع الخلايا الحية أن تُنتج نسخاً عن نفسها بنفسها وتستطيع الكائنات الحية أن تُنتج نسخاً عن نفسها بنفسها . ولولا هذه الخاصية الفريدة لهذا الشريط لما أمكن للحياة أن تدوم على سطح هذه الأرض منذ آلاف الملايين من السنين وإلى أن يشاء الله فالمعلومات الوراثية التي تلزم لتصنيع أي كائن حي يتم توارثها من خلال إنتاج نسخة طبق الأصل عن الشريط في كل خلية قبل انقسامها إلى خليتين . أن أكثر ما أثار دهشة علماء الأحياء في شريط الحامض النووي هو أن الطريقة التي تمت بها كتابته تعليمات تصنيع الكائنات هي نفس الطريقة التي يستخدمها الحاسوب الرقمي لتخزين مختلف أنواع المعلومات في ذاكرته وفي تنفيذ برامجه . ولقد ترتب على هذا الاكتشاف العظيم تحول كبير في المفاهيم المتعلقة بالطريقة التي تمت بها عملية خلق الكائنات الحية من التراب وخاصة تلك المتعلقة بنظرية التطور . ولقد تبين للعلماء أنه لا يمكن تعديل أي جزء من أجزاء الكائن الحي مهما بلغت بساطة تركيبه إلا من خلال تعديل المعلومات الرقمية المكتوبة على هذا الشريط وهذا يعني أن عملية تطور أي كائن حي إلى كائن حي آخر يتطلب إعادة كتابة أو تعديل برنامج التصنيع الرقمي المخزن على شريط الحامض النووي . وعليه فإنه لا يمكن لعاقل أن يصدق إن الصدفة التي لا عقل لها يمكنها أن تنتج هذا المنحى في اختراع هذه الطريقة الرقمية لتصنيع الكائنات فمثل هذه الفكرة البالغة الذكاء لم تخطر

عَلَى عُقُولِ الْبَشَرِ إِلَّا فِي هَذَا الْعَصْرِ حَيْثُ إِنَّ تَنْفِيزَهَا يَتَطَلَّبُ تَصْنِيعَ مُكَوِّنَاتِ بَالِغَةِ التَّعْقِيدِ وَبَالِغَةِ الصَّغَرِ
دَاخِلٌ خَلَايَا هَذِهِ الْكَائِنَاتِ .

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا

وَأَشَارَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ كَذَلِكَ إِلَى حَقِيقَةِ إِنَّ النُّطْفَةَ الَّتِي يُخَلَقُ مِنْهَا الْإِنْسَانُ وَعَظِيمُهُ مِنَ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ قَدْ
تَجَتَّ عَنْ عَمَلِيَّةِ مُرْجٍ أَوْ خَلْطٍ قَدْ تَمَّتْ بَيْنَ مَحْتَوِيَاتِ مَا يُنْتَجِبُهُ الذَّكَرُ وَمَا تُنْتَجِبُهُ الْأُنْثَى مِنْ خَلَايَا التَّكَاثُرِ
وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (2)) الْإِنْسَانَ .
وَكَذَلِكَ جَاءَ فِي آيَةٍ أُخْرَى إِلَى أَنَّ سُلَالَةَ الْمَاءِ أَوْ الشَّرِيطِ الْوَرَاثِيِّ تَحْمِلُ فِي ثَنَائِهَا نُسَبَ الْإِنْسَانِ وَهِيَ
الْمَوَاصِفَاتِ الَّتِي تَحَدَّدُ كَامِلَ تَفَاصِيلِ تَرْكِيبِ جِسْمِهِ وَالَّتِي يَأْخُذُهَا مِنْ خِلَالِ انْصِهَارِ سُلَالَةِ الْمَاءِ الَّتِي
يَأْخُذُهَا مِنْ أَبِيهِ وَتِلْكَ الَّتِي يَأْخُذُهَا مِنْ أُمِّهِ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ
نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (54)) الْفُرْقَانَ . فَضْمِيرُ الْغَائِبِ فِي كَلِمَةٍ فَجَعَلَهُ تَعُودُ عَلَى الْمَاءِ وَالَّذِي
يُقْصَدُ بِهَا سُلَالَةُ الْمَاءِ الْمَهِينِ الْمَوْجُودِ فِي دَاخِلِ النُّطْفَةِ وَهُوَ الشَّرِيطِ الْوَرَاثِيِّ . وَأَخِيرًا أَشَارَ الْقُرْآنُ
الْكَرِيمُ إِلَى هَذِهِ الرَّحْلَةِ الْمُعَقَّدَةِ وَالْعَجِيبَةِ لِعَمَلِيَّةِ خَلْقِ الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةِ الطِّينِ ثُمَّ لِلْخَلِيَّةِ الْحَيَّةِ وَهِيَ
تَتَحَوَّلُ إِلَى إِنْسَانٍ كَامِلٍ أَوْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ عَشْرَاتِ الْمِلايينِ مِنْ أَنْوَاعِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ بَعْدَ مُرُورِهَا بِأَطْوَارِ
مُخْتَلِفَةٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (I2)) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (I3)
ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ
خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (I4)) الْمُؤْمِنُونَ .

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ

وَكَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ بَدَأَ خَلَقَهُ مِنْ سُلَالَةِ الْمَاءِ الْمَهِينِ فَإِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ قَدْ أَكَّدَ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ بَدَأَ خَلَقَهَا مِنْ سُلَالَةِ مَاءٍ مُشَابِهَةٍ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (45)) التُّور . فالْمَاءُ الْمَذْكُورُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ نَفْسُ الْمَاءِ الْمَهِينِ وَكَذَلِكَ سُلَالَةُ الْمَاءِ الْمَهِينِ الَّذِي يَتِمُّ خَلْقُ الْإِنْسَانِ مِنْهَا فَالشَّرِيطُ الْوَرَاثِيُّ الْمَوْجُودُ فِي خَلِيَّةِ التَّكَاثُرِ وَالَّذِي يَقُومُ بِتَحْوِيلِ هَذِهِ الْخَلِيَّةِ إِلَى أَنْوَاعٍ لَا حَضَرَ لَهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ لَهُ نَفْسُ التَّرْكِيبِ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْكَائِنَاتِ بِمَا فِيهَا الْإِنْسَانُ كَمَا ذَكَرْنَا سَابِقًا .

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ

لَقَدْ سَبَقَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عُلَمَاءَ الْبَشَرِ بِمَا يَزِيدُ عَنْ أَلْفِ عَامٍ فِي التَّكْيِيدِ عَلَى أَنَّ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى فِي الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ لَمْ يَتِمَّ خَلْقُهُمَا مِنَ التَّرَابِ بِشَكْلِ مُسْتَقِلٍّ بَلْ تَمَّ خَلْقُهُمَا مِنْ أَصْلِ مُشْرَكٍ أَوْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ لَا هُوَ بِالذَّكَرِ وَلَا هُوَ بِالْأُنْثَى أَوْ مَا يُسَمَّى بِالكَائِنِ ثُنَائِي الْجِنْسِ أَوْ الْمُخَنَّثِ . وَتَقَرَّرَ كَذَلِكَ بِالْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ هَذَا الْأَصْلَ الْمُشْرَكِ كَانَ يَحْمِلُ فِي جِسْمِهِ الْأَعْضَاءَ التَّنَاسُلِيَّةَ الذَّكْرِيَّةَ (المستودع) وَكَذَلِكَ الْأَعْضَاءَ التَّنَاسُلِيَّةَ الْأُنْثَوِيَّةَ (المستقر) وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى “وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (98)” الْإِنْعَامِ . وَأَشَارَ الْقُرْآنُ كَذَلِكَ إِلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى وَهِيَ كَائِنَاتٌ أَحَادِيَّةُ الْجِنْسِ (unisexual) كوسيلة للتكاثر الجنسي ليحل محل التكاثر اللاجنسي والعدري والخنثوي فِي مُعْظَمِ أَنْوَاعِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى “فَاطَّرَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ جَعَلْ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ
 الْبَصِيرُ (II) ”الشورى . أَنَّ الَّذِي أَبْدَعَ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ الْعَجِيبَةَ فِي التَّكَاثُرِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ تَمَامَ الْعِلْمِ
 مَا فِيهَا مِنْ مُعْجَزَاتٍ كَبْرَى وَيَعْلَمُ أَنَّهَا سَتَصْدَعُ رُؤُوسَ عُلَمَاءِ الْبَشَرِ وَهُمْ يُحَاوِلُونَ فَكَّ الْغَاظِهَا كَمَا
 اعْتَرَفَ بِذَلِكَ أَحَدِهِمْ فَقَالَ (لقد حَكَ عُلَمَاءُ الْأَحْيَاءِ رُؤُوسَهُمْ حَوْلَ كَيْفِ وَلِمَاذَا تَمَّ تَطْوِيرُ الْجِنْسَيْنِ
 الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى بِشَكْلِ مُنْفَصِلٍ) (biologists have scratched their heads over)

. (how and why the separate male and female sexes evolved

وَنظَرًا لِمَا فِي هَذِهِ الظَّاهِرَةِ الْعَجِيبَةِ مِنْ مُعْجَزَاتٍ أَقْسَمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا فِي آيَاتٍ عَدِيدَةٍ كَمَا فِي قَوْلِهِ
 تَعَالَى ”وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) ”النجم وَقَوْلُهُ تَعَالَى ”وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (3) ”الليل
 وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى ”فَجَعَلَ مِنْهُ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (39) ”القيامة .

وَيُعْتَبَرُ التَّحَوُّلُ مِنَ التَّكَاثُرِ الالاجنسي (asexual) والخنثوي (hermaphroditism) والعذري ()
 (Parthenogenesis) إِلَى التَّكَاثُرِ الْجِنْسِيِّ (sexual) فِي الكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ مِنْ أَعْقَدِ الْغَازِ تَطَوُّرِ
 الْحَيَاةِ عَلَى الْأَرْضِ حَيْثُ لَا يُوجَدُ مَبْرَرَاتٌ مُثْنِعَةٌ لِتَرْكِ طُرُقِ سَهْلَةٍ وَسَرِيعَةٍ وَمُضْمُونَةٍ لِلتَّكَاثُرِ إِلَى طَرِيقِهِ
 بِالْغَةِ التَّعْقِيدِ وَبَطِيئَةٍ وَغَيْرِ مُضْمُونَةٍ . وَلَا زَالَ عُلَمَاءُ التَّطَوُّرِ حَتَّى الْآنَ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ مِنْ هَذِهِ
 الظَّاهِرَةِ الَّتِي تَسْتَلْزِمُ لِإِتِّجَاعِ كَائِنٍ حَيٍّ جَدِيدٍ وَجُودِ ثَلَاثِ مَسْتَوِيَّاتٍ مِنَ التَّرَاوُجِ تَبْدَأُ بِالتَّرَاوُجِ بَيْنَ الذَّكَرِ .
 وَالْأُنْثَى وَمِنْ ثَمَّ مَا بَيْنَ الْحَيَوَانَ الْمَنْوِيِّ وَالْبُويِضَةِ وَأَخِيرًا فِيمَا بَيْنَ الكَرُومُوسُومِينَ الذَّكَرِيِّ وَالْأُنْثَوِيِّ . وَلَقَدْ
 قَالَ عَالِمُ الْأَحْيَاءِ غِرَاهَامُ بَلُّ فِي كِتَابِهِ الشَّهِيرِ (تحفة الطَّبِيعَةِ : تَطَوُّرُ الْجِينِ وَالْجِنْسِ) (إنَّ ظَاهِرَهُ الْجِنْسِ

هِيَ مُلْكَةُ الْمَشَاكِلِ فِي الْأَحْيَاءِ التَّطَوُّرِيَّةِ وَرُبَّمَا لَا يُوجَدُ أَيُّ ظَاهِرٍ طَبِيعِيٍّ أُخْرَى أَثَارَتْ هَذَا الْإِهْتِمَامَ الْكَبِيرَ وَالطَّبْعَ لَا غَيْرَهَا سَبَبَتْ مِثْلَ هَذَا الْقَدْرِ الْكَبِيرِ مِنَ الْإِرْبَاكِ .

وَلَقَدْ اعْتَرَفَ عُلَمَاءُ تَطَوُّرِ الْحَيَاةِ كَذَلِكَ بِأَنَّ هَذَا التَّحَوُّلَ كَانَ أَكْبَرَ مُخَاطَرَةٍ فِي تَارِيخِ تَطَوُّرِ الْحَيَاةِ فَالْحِفَاطُ عَلَى عَمَلِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ لِفَتْرَاتٍ زَمْنِيَّةٍ طَوِيلَةٍ يَتَطَلَّبُ كَلْفَهُ عَالِيَةٌ مُقَابِلَ مُعَدَّلِ تَكَاثُرِ مُنْخَفِضٍ بِالْمُقَارَنَةِ مَعَ طُرُقِ التَّكَاثُرِ الْأُخْرَى إِلَى جَانِبِ التَّعْقِيدِ الْبَالِغِ فِي طَرِيقِهِ عَمَلَهَا . بَلْ إِنَّ عُلَمَاءَ تَطَوُّرِ الْحَيَاةِ أَنْفُسِهِمْ قَدْ اعْتَرَفُوا بِأَنَّ أَلْبَاتِ الْأَخْيَارِ الطَّبِيعِيِّ فِي نَظَرِيَّةِ التَّطَوُّرِ لَا يُمَكِّنُهَا بِأَيِّ شَكْلِ مِنَ الْأَشْكَالِ تَفْسِيرَ هَذَا التَّحَوُّلِ فَقَالُوا (إِنَّ الْحِفَاطُ عَلَى التَّكَاثُرِ الْجِنْسِيِّ مِنْ خِلَالِ الْأَخْيَارِ الطَّبِيعِيِّ فِي عَالَمٍ شَدِيدٍ الْمُنَافَسَةِ كَانَ أَحَدَ أَكْبَرِ الْغَازِ عِلْمِ الْأَحْيَاءِ حَيْثُ إِنَّ كُلَّ مِنَ الطَّرِيقَتَيْنِ الْأَخْرَيَيْنِ الْمَعْرُوقَتَيْنِ وَهُمَا التَّكَاثُرُ اللَّاجِنْسِيِّ وَالْحِنْثَوِيُّ تَمْتَلِكَانِ مِيزَاتٍ ظَاهِرَةً عَلَيْهَا) . وَفِي الْمُقَابِلِ يَعْتَرِفُ عُلَمَاءُ الْأَحْيَاءِ بِأَنَّ طَرِيقَةَ التَّكَاثُرِ الْجِنْسِيِّ تَعْمَلُ بِكِفَاءَةٍ عَالِيَةٍ فِي 99% مِنَ الْكَائِنَاتِ مُعَدَّدةِ الْخَلَايَا مُنْذُ مَا يَزِيدُ عَنْ بِلْيُونِ سَنَةٍ وَأَنَّهَا أَحْدَثَتْ تَنَوُّعًا لَا حُدُودَ فِي إِشْكَالِ مِلْيُونِ الْأَنْوَاعِ مِنَ الْكَائِنَاتِ بَلْ وَفِي إِشْكَالِ مِائَاتِ الْأَصْنَافِ فِي نَفْسِ التَّنَوُّعِ . وَمِنْ الْمِيزَاتِ الْمُهَمَّةِ لِلتَّكَاثُرِ الْجِنْسِيِّ هُوَ قَدْرُهُ الْخَلَايَا عَلَى تَصْحِيحِ الْأَخْطَاءِ الَّتِي قَدْ تَحْصُلُ فِي الْكروموسوماتِ عِنْدَ انْتِسَامِ الْخَلَايَا وَعِنْدَ تَعَرُّضِهَا لِلْمُؤَثَّرَاتِ الْخَارِجِيَّةِ بِسَبَبِ وُجُودِ نُسَخَتَيْنِ مِنَ الْكروموسوماتِ فِيهَا أَحَدُهُمَا مِنَ الذَّكَرِ وَالْأُخْرَى مِنَ الْأُنْثَى .

لَقَدْ كَانَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي غَايَةِ الدَّقَّةِ عِنْدَمَا تَكَلَّمَ عَنِ الْأَصْلِ الْمُشْتَرَكِ الَّذِي خَلَقَ مِنْهُ الْبَشَرَ فَلَمْ يَذْكُرْ أَبَدًا إِنَّ أُمَّنَا حَوَاءَ قَدْ خُلِقَتْ مِنْ أَبِينَا آدَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ كَمَا جَاءَ فِي التَّوْرَةِ بَلْ أَشَارَ إِلَى أَنَّهُمْ قَدْ خُلِقُوا مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ أَيُّ أَصْلِ مُشْتَرَكٍ وَاحِدٍ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى "خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا

رُوحَهَا» الرَّمْر 6 . وَمَنْ الْوَاضِحِ أَنَّ خَلْقَ أُمَّنَا حَوَاءَ مِنْ أَيْبِنَا آدَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِشَكْلِ مُبَاشِرٍ يَتَعَارَضُ مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى «وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ» (98) الْإِنْعَامَ . فَالْنَفْسُ الْوَاحِدَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ تُوكِّدُ عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ تَحْمِلُ فِي جِسْمِهَا الْأَعْضَاءَ النَّسَائِلِيَّةَ الذَّكْرِيَّةَ (الْمُسْتَوْدَعِ) وَكَذَلِكَ الْأَعْضَاءَ النَّسَائِلِيَّةَ الْأُنثَوِيَّةَ (الْمُسْتَقَرِّ) وَمَنْ الْمُؤَكَّدُ أَنَّ أَيْبِنَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ . وَلَوْ افترضنا جَدًّا إِنَّ أُمَّنَا حَوَاءَ قَدْ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعِ أَيْبِنَا آدَمَ بِمُعْجِزَةِ رَبَّائِيَّةٍ فَكَيْفَ لَنَا أَنْ نَفْسِرَ الْحَالِ مَعَ مِلْيَيْنِ الْأَنْوَاعِ مِنَ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ الَّتِي لَا بُدَّ وَأَنَّ ذُكُورَهَا وَإِنَاثَهَا قَدْ خُلِقَتْ مِنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ كَمَا هُوَ الْحَالُ مَعَ الْبَشَرِ .

ثُمَّ سِوَاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ

أَنَّ آخِرَ مَرَحَلَةٍ مِنْ مَرَاكِحِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ هِيَ تَسْوِيَّتُهُ وَنَفْخُ الرُّوحِ فِيهِ مِنْ لَدُنْ خَالِقِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (72)) ص وَقَوْلُهُ تَعَالَى (ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (9)) السَّجْدَةَ . فَبَعْدَ أَنْ مَرَّ خَلْقَ الْإِنْسَانِ بِمَرَاكِحِ الطِّينِ وَكَذَلِكَ مَرَاكِحِ التَّحَوُّلِ مِنْ كَائِنٍ إِلَى كَائِنٍ أَرْقَى مِنْهُ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَخْتَارَ مِنْ بَيْنِ مَخْلُوقَاتِهِ الْعُلْيَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَسِوَاهُ وَنَفَخَ فِي رُوحِهِ لِيَكُونَ خَلِيفَتَهُ عَلَى الْأَرْضِ وَسَخَّرَ لَهُ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ الَّتِي خُلِقَتْ . جَمِيعَهَا مِنْ أَجْلِهِ . وَالْمَقْصُودُ بِالتَّسْوِيَةِ هُوَ تَعْدِيلُ مَوَاصِفَاتِ جِسْمِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيَكُونَ عَلَى الصُّورَةِ الَّتِي أَرَادَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَالَّتِي تُمَيِّزُهُ عَنْ جَمِيعِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ الَّتِي تَعِيشُ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ . وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ جِسْمَ الْإِنْسَانِ لَا يَخْتَلِفُ تَشْرِيحِيًّا عَنْ أَجْسَامِ بَقِيَّةِ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي هِيَ فِي رُتْبَتِهِ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ

عَزَّ وَجَلَّ مَيِّزَهُ بَعْدَهُ مَزَايَا جَسْمِيهِ أَهْمَا أَنَّهُ يَمْشِي مُنْتَصِبًا عَلَى رِجْلَيْنِ وَصُورَ وَجْهِهِ فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ
وَعَدَلَ يَدَيْهِ بِحَيْثُ يُمَكِّنُهَا الْفِيَامِ بِأَعْمَالٍ لَا حَصْرَ لَهَا فَبَدُونَ هَذِهِ الْأَيْدِي الْمَاهِرَةِ سَيَكُونُ حَالُ الْإِنْسَانِ
حَالُ بَقِيَّةِ الْحَيَوَانَاتِ مَهْمَا بَلَغَ ذَكَاءَ عَقْلِهِ وَصَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ الْقَائِلُ (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ
(6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (8)) الْإِنْفِطَارَ . وَأَمَّا التَّعْدِيلُ الثَّانِي
فَيَتَعَلَّقُ بِتَسْوِيَةِ دِمَاحِ الْإِنْسَانِ حَيْثُ تَمَّ تَطْوِيرُهُ بِشَكْلِ كَبِيرٍ عَنِ بَقِيَّةِ أَدْمَغَةِ الثَّدْيَاتِ الَّتِي يَنْتَمِي إِلَيْهَا مِنْ
حَيْثُ قُدْرَتُهُ عَلَى التَّفَكُّرِ وَالتَّخِيلِ وَالتَّذَكُّرِ وَاتِّخَاذِ الْقَرَارَاتِ وَحَلِّ الْمَسَائِلِ الْحِسَابِيَّةِ وَالرِّيَاضِيَّةِ وَغَيْرِهَا
الْكَثِيرِ . وَأَمَّا التَّعْدِيلُ الثَّلَاثُ فَيَتَعَلَّقُ بِقُدْرَةِ الْإِنْسَانِ عَلَى الْكَلَامِ وَالسَّمَاعِ وَالْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ وَالَّتِي خُصَّصَ
لَهَا مَسَاحَاتٌ كَبِيرَةٌ مِنْ دِمَاحِ الْإِنْسَانِ كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (الرَّحْمَنُ (I) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ
(3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4)) الرَّحْمَنُ وَقَوْلِهِ تَعَالَى (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا
لَمْ يَعْلَمْ (5)) الْعَلَقُ . أَمَّا التَّعْدِيلُ الْأَخِيرُ وَالْأَهَمُّ فَيَتَعَلَّقُ بِنَفْخِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ رُوحِهِ فِي هَذَا الْمَخْلُوقِ
الْأَرْضِيِّ فَأَصْبَحَ عَلَى صُورَةِ خَالِقِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَالْهَمَّ نَفْسَهُ فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا وَعُرِضَ عَلَيْهِ الْأَمَانَةُ
فَقَبِلَهَا فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الْإِهْتِدَاءِ لِمَعْرِفَةِ خَالِقِهِ بِوَاسِطَةِ عَقْلِهِ وَنَفْسِهِ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْخَيْرِ
وَالشَّرِّ وَالْحَسَنِ وَالْقَبِيحِ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَتَّصِفَ بِبَعْضِ صِفَاتِ خَالِقِهِ مِنْ رَحْمَةٍ وَرَأْفَةٍ وَعَفْوٍ وَمَغْفَرَةٍ
وَكَرَمٍ وَصَبْرٍ وَغَيْرِهَا مِنْ الصِّفَاتِ الْكَرِيمَةِ .

الْخُلُقِ مِنْ نُورٍ وَنَارٍ وَطِينٍ

﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴾ [الرحمن : 15]

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [ص : 76]

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمُرُونَ ﴾ [الأنعام : 2]

ثَبَّتَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ : خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنَ النُّورِ ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ (يعني من الطين) .

الضوء

- النور هو ظاهرة فيزيائية تحدث عندما يتم انتشار الإشعاع الكهرومغناطيسي (مثل الأشعة فوق البنفسجية والأشعة تحت الحمراء والأشعة السينية) أو الجسيمات الذرية (مثل الفوتونات) في الفضاء .

- يمكن للنور أن يكون مرئيًا أو غير مرئيًا للعين البشرية ، حيث يتم تحويله إلى إشارات عصبية تفسرها الدماغ .

- يتكون النور من طيف واسع من الترددات والأطوال الموجية المختلفة ، بدءًا من الأشعة الغاما ذات الترددات العالية جدًا والأطوال الموجية المنخفضة إلى الأشعة الراديوية ذات الترددات المنخفضة والأطوال الموجية العالية .

الضوء : هو جزء مرئي من النور ، يُشير إلى الموجات الكهرومغناطيسية ذات الطول الموجي في النطاق المرئي للعين البشرية .

- الضوء يتصف بموجاته المرئية التي تتراوح بين 400-700 نانومتر .

- يمكن للضوء أن ينتج من مصادر مختلفة ، مثل الشمس والمصابيح الكهربائية والشموع وغيرها ، ويتفاعل مع الجسم والمواد ليسفر عن ظواهر مختلفة مثل الانعكاس والانكسار والتشتت .

باختصار ، النور هو ظاهره فيزيائية تشير إلى انتشار الإشعاع الكهرومغناطيسي أو الجسيمات الذرية ، بينما الضوء هو التطاق المرئي من النور الذي تشاهده العين البشرية ويتفاعل مع الجسم والمواد

النار

تعريف النار

يمكن تعريف النار بأنها التأثير المرئي لعملية الاحتراق ، وهي نوع خاص من التفاعل الكيميائي يحدث بين الأكسجين الموجود في الهواء وتوقع من الوقود ، وتختلف نواتج التفاعل الكيميائي تماماً عن المواد التي دخلت في التفاعل وحتى تحدث النار يجب تسخين الوقود حتى يصل لدرجة الاشتعال ، ويستمر التفاعل مادام هناك وقود وأكسجين وحرارة كافية لإتمامه .

ومن الممكن تعريف النار أيضاً بأنها تفاعل كيميائي طارد للحرارة ، وفيه تتأكسد مادة واحدة أو أكثر بسرعة (تفقد إلكترونات) ، وينتج عنه إطلاق الحرارة والضوء والمنتجات الكيميائية الثانوية وأحياناً الصوت .

أن مكونات النار تشمل كلاً من :

الأكسجين الوقود درجة الحرارة

وَتُعْرَفُ تِلْكَ الْمَكُونَاتُ الثَّلَاثَةُ بِاسْمِ "مِلْثِ النَّارِ" ، وَتَحَدَّثُ النَّارُ عِنْدَمَا يَتَفَاعَلُ الْوُقُودُ مَعَ الْأَكْسِجِينِ
فَتَنْطَلِقُ طَاقَةٌ حَرَارِيَّةٌ ، وَيُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ عَمَلِيَّةُ الْإِخْتِرَاقِ بَطِيئَةً أَوْ سَرِيعَةً حَسَبَ كَمِّيَّةِ الْأَكْسِجِينِ
المتاحة .

التفاعل الكيميائي في النار

يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْوُقُودُ الَّذِي يَكُونُ النَّارُ أَمَّا صَلْبًا أَوْ سَائِلًا أَوْ غَارِيًا ، وَأثناء التفاعل الكيميائي الذي
تُنتِجُ عَنْهُ النَّارُ يَتِمُّ تَسْحِينُ الْوُقُودِ لِدَرَجَةِ تَجَعُّلِهِ يُطْلَقُ غَازَاتٌ مِنْ سَطْحِهِ (إِذَا لَمْ يَكُنْ الْوُقُودُ فِي الْحَالَةِ
الغازية من البداية) .

وَبِالطَّبَعِ فَإِنَّ الْوُقُودَ لَا يَشْتَعِلُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ ، لَكِنَّ حَتَّى يُحْدِثَ تَفَاعُلًا النَّارَ لَكِنَّ حَتَّى يَبْدَأَ تَفَاعُلًا
الِإِخْتِرَاقِ يَجِبُ أَنْ يَتِمَّ تَسْحِينُ الْوُقُودِ إِلَى دَرَجَةِ الْإِشْتِعَالِ ، وَإِلَيْكَ تَسْلُسَلُ التَّفَاعُلُ الْمُمْكِنُ لِلنَّارِ عِنْدَ
اسْتِحْدَامِ الْخَشَبِ كَوُقُودٍ .

يُرْجَعُ مُصْطَلِحُ الطِّينِ الْعِلْمِيِّ إِلَى أَنَّهُ خَلِيطٌ مِنَ الْمَوَادِّ الْأَرْضِيَّةِ الَّتِي تَتَّحِدُ مَعَ بَعْضِهَا طَبِيعِيًّا لِتَكُونَ مَادَّةُ
الطين ، وَيَتَكُونُ الطِّينُ مِنَ الْالومِينَا ، وَالسَّلِيلِكا ، وَالْمَاءِ . وَقَدْ قَامَ كَثِيرٌ مِنَ الْبَاحِثِينَ بِتَحْلِيلِ هَذِهِ الْمَادَّةِ
وَوَجَدُوا أَنَّهُ يَتَكُونُ مِنْ 34% الْومِينَا ، 50% سِيلِيلِكا ، 6% جَبْرٍ وَمَغْنِيسِيُومٍ ، 8% أُكْسِيدِ الْحَدِيدِ ، 2%
مَوَادِّ عَضْوِيَّةٍ ، أَمَّا الطِّينُ النَّقِيٌّ وَالْمُسَمَّى بِالصَّلصَالِ فَتَبْلُغُ نِسْبَةُ السَّلِيلِكا 46 . 5% ، وَنِسْبَةُ الْالومِينَا 39
5% وَنِسْبَةُ الْمَاءِ 14% . وَكُلُّ حَبِيْبَةٍ مِنَ حَبِيْبَاتِ الطِّينِ تَتَكُونُ مِنْ طَبَقَاتٍ مُتْرَاصَّةٍ مِنْ تِلْكَ الْمَوَادِّ ،
وَيَبْلُغُ قَطْرُ حَبَّةِ الطِّينِ النَّاعِمِ 0 . 002 مُلِّمٌ ، أَمَّا قَطْرُ حَبَّةِ الطِّينِ الْخَشِنِ فَتتراوح (0 . 02_0 .

002) مِلْمٌ ، وَلِلطِّينِ حَالَتَانِ ، فَعِنْدَمَا يَكُونُ رَطْبًا يُصْبِحُ مُرْنَا وَنَسْتَطِيعُ تَشْكِيلَهُ حَسَبَ التَّمَاذِجِ

المرغوبة ، وعند تعريضه للشمس أو حرّقه عند درجة حرارة عالية ويتبخر الماء يصبح صلبًا كالصخور

هل يوجد جنس بشري آخر في الكون

تقترح دراسة حديثة أن كثيرًا من الكواكب في إضفاح الكون قد شهدت حياة ذكية قبل الأرض بزمن طويل . وتشير إلى أن احتمال أن يكون الجنس البشري هو أول نوع متطور تقنيًا يظهر في الكون ، يتطلب أن تكون احتمالية نشوء حضارة على كوكب قابل للسكن أقل من واحد إلى عشرة مليار تريليون ، أو جزءًا من IO مرفوع إلى الأس 22 . ويقول آدم فرانك Adam Frank ، المعد الرئيسي لهذه الدراسة وأستاذ الفيزياء والفلك في جامعة روتشستر Rochester في نيويورك : " بالنسبة لي ، أن وجود أجناس ذكية ولديها القدرة على تطوير التقنيات ، قبل وجود الجنس البشري ، هو أمر وارد جدًا" . ويضيف : "لنفكر على هذا النحو : قبل دراستنا هذه ، كنت ستعدُّ متشائمًا لو أنك تخيلت أن احتمال تطور حضارة على كوكب قابل للسكن ليس أكثر من واحد إلى تريليون . لكن حتى هذا التخمين ، أي فرصة واحدة مقابل تريليون ، يقتضي أن وجود الجنس البشري الذي حدث هنا على الأرض لا بدّ وأنه حدث نحو IO بلايين مرة على مدى التاريخ الكوني" . وضع الفلكي فرانك دريك Frank Drake في العام 1961 معادلة لتقدير عدد الحضارات التي يحمل وجودها خارج كوكب الأرض في مجرة درب التبانة . الأمر الذي لفت انتباه الباحث آدم فرانك ، وشريكه وودرف سوليفان Woodruff Sullivan من جامعة واشنطن ، هو إمكانية أن يكون الفضائيين الأذكى قد وجدوا في أي مكان في الكون . لذا ، عملاً على تعديل معادلة دريك الشهيرة ، ليحصل على "نسخة آثارية" لا

تأخذ عَيُّ الحُسبانِ الزَّمنِ الَّذِي يُمكنُ أَنْ تدومه الحَضارةُ الفضائيةُ . واستعان فرانك وسوليفان ببيانات الأَرْضِ الواردةِ مِنْ مُرصدِ كبلر Kepler الفضائيِّ ، التابعِ لوكالةِ الفِضاءِ والطيرانِ الوطنيَّةِ الأمريكيَّةِ NASA وَغَيرِهِ مِنَ المَراصِدِ ، وَالَّتِي تُشيرُ إلى أَنَّ 20 بالمئةِ مِنْ كُلِّ النُّجُومِ يَدُورُ حَوْلَها كواكبٌ فِي المِنطَقَةِ الصَّديقَةِ لِلحِياةِ والقابلةِ لِلسُكْنِ habitable zone ، حَيْثُ يُمكنُ أَنْ يتوافرَ الماءُ فِي حالَتِهِ السائِلةِ عَلى سَطْحِ تلكِ الكواكبِ . عِندَها حَسَبَ الباحِثانِ اِحتمالُ أَنْ تُكونَ الأَرْضُ أَوَّلَ ماوِي لِلحِياةِ الذِّكيَّةِ فِي الكونِ عَلى الإِطلاقِ ، آخِذِينَ فِي الحُسبانِ عَدَدَ النُّجُومِ فِي الكونِ المرصودِ ، وَالَّذِي يَبُلُغُ 20 مليارَ تريليونِ نَجْمًا وَفِقالاً لأحدثِ التَّقديراتِ . وَيُوضِحُ فرانك بِقَوْلِهِ : « مِنْ وَجْهِ نَظَرٍ أساسيةِ ، فَإِنَّ السُّؤالَ هُوَ ، هَلْ نَشأتُ الحِياةُ مِنْ قَبْلِ فِي أَيِّ مَكانٍ آخَرَ ؟ هُنَا يُكَمِّنُ إِنْجازنا ، فَهَذِهِ هِيَ المَرَّةُ الأُولَى الَّتِي يَمَكِنُ فِيها أَحَدٌ مِنْ تَقْدِيمِ أَجابِهِ تجريبيةِ عَمَلِيَّةِ عَن هَذَا السُّؤالِ . وَمَا يُثيرُ الدَّهْشَةَ ، هُوَ أَننا لَسنا الجِنسُ الوَحيدُ ، أَو المَكانُ الفَريدُ ، الَّذِي تَطَوَّرتُ فِيهِ حِضارةٌ ذَكِيَّةٌ . إِلاَّ أَنَّ هَذَا لا يَعْني أَنَّ هُنَاكَ كَثيرٌ مِنَ الفِضائِيِّينَ الأَذكياءِ ، وَيُوكِّدُ الباحِثانِ أَنَّ عَلَينا الاتِّصالَ بِهِم لِنتأكَّدَ مِنْ وُجودِهِم . يُوضِحُ سوليفان قائلاً : « يَتجاوَزُ عُمُرُ الكونِ ثَلاثَةَ عَشَرَ مِلياراً مِنَ السَّنِينَ . وَيَعْني هَذَا أَنَّهُ حَتَّى وَإِنْ كانَتْ هُنَاكَ 1000 حَضارةٌ فِي مِجرتنا ، وَدامَتِ الواحِدَةَ مِنْها ما يُقارِبُ ما عاشه البَشَرُ ، أَيُّ نَحْوِ 10 أَلْفِ سَنَةٍ ، فَعَلى الأَرَجحِ أَنَّهُم انقَرَضُوا جَميعاً . وَلَنْ يَطوِّروا غَيرِهِم قَبْلَ أَنْ يَنْقَضِيَ زَمَنٌ طَويلٌ . وَبالنَّسبَةِ لَنا ، فَحَتَّى نَكونَ مَحظوظينَ وَنَجدَ حِضارةً "راهنةً" وَمتطورةً تقانِياً ، فَعلَينا أَنْ تَدومَ فِي المَوسَطِ فَترةً أَطولَ كَثيراً مِمَّا عاشه البَشَرُ . بَقِيَ أَنْ نُشيرَ إلى أَنَّ فَترةَ 10 أَلْفِ سَنَةٍ الَّتِي تَحَدُثُ عَنها سوليفان ، هِيَ الفَترَةُ الَّتِي طَوَّرَ البَشَرُ خِلالَها الزَّراعةَ والتقنياتِ "البدائية" ، وَلَمْ يَسْتَطِعِ البَشَرُ إِرسالَ أَمواجِ

راديوية ، أو غيرها من الأمواج الكهرومغناطيسية ، إلى إرجاء الكون إلا منذ نحو قرن من الزمن .

نشرت هذه الدراسة الجديدة في مجلة علم الأحياء الفضائي the journal Astrobiology .

المصدر : [https://nasainarabic.net/main/articles/view/intelligent-alien-](https://nasainarabic.net/main/articles/view/intelligent-alien-life-probability-high)

life-probability-high

أن هذه الدراسة تتوافق تمامًا مع ما نجد في القرآن الكريم من حقيقة إن البشر هم نوع وصنف واحد خلقهم الله في الكون وهم جميعًا من نسل آدم عليه السلام لذلك لا يمكن أن يكون لهم أي مثيل والله سبحانه وتعالى خص هذا الكوكب بهم واستخلفهم عليه .

الْخَلِيفَةُ وَالْإِسْتِخْلَافُ

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 30]

لقد بين الله سبحانه وتعالى الهدف من خلقه للإنسان وهو أن يكون له خليفة في الأرض التي أعدها له بشكل مثالي للعيش والتكاثر ومن ثم إعمار الأرض ورفع كلمة الله فيها .

ويقول المولى القدير ﴿ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ [هود : 61] فالبشر خلقهم الله من أديم هذه الأرض ولذلك سمي آدم وهو إلي استعمرهم

فِيهَا وَفَعَلَ اسْتَعْمَرَ هُنَا يُفِيدُ الْأَعْمَارَ فِيهَا هِيَ بِمَثَابَةِ مُسْتَوِطَنَةٍ كَبِيرَةٍ أَرَادَهَا اللَّهُ أَنْ تَكُونَ مَحَلًّا لِاخْتِبَارِ
وَإِبْتِلَاءِ بَنُو آدَمَ .

أَنَّ هَذِهِ الْغَايَةَ الرَّبَّائِيَّةَ مِنْ وَرَاءِ خَلْقِ آدَمَ وَاسْتِعْمَارِهِ فِي الْأَرْضِ جَعَلَ الْمَلَائِكَةَ اللَّهَ تَسْتَفْسِرُ وَتَسْتَعْرِبُ
وَتَسْأَلُ : قَالُوا أَنْجَعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدَّمَاءَ . وَفِي الْحَقِيقَةِ وَالْوَاقِعِ بَأَنَّ السُّؤَالَ الَّذِي
طَرَحَتْهُ الْمَلَائِكَةُ كَانَ فِي مَحَلِّهِ وَسَوَاءٌ أَكَانَ عَلَيْهِمْ بِعَمَلِيَّةِ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ وَسْفِكِ الدَّمَاءِ قَدْ بَنُوها
عَلَى مَعْرِفَتِهِمْ بِوُجُودِ مَخْلُوقَاتٍ تَعِيشُ عَلَى الْأَرْضِ وَتَفْسِدُ فِيهَا قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ وَلَقَدْ حَسِبْتُ أَنَّ بَنُو آدَمَ
سَيَفْعَلُونَ مَا فَعَلَتْهُ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتُ أَوْ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ أَعْلَمَهُمْ بِأَنَّ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ هَذَا الَّذِي
خَلَقَهُ وَوَأَسْتَخْلَفَهُ فِي الْأَرْضِ سَيَكُونُ مِنْهَا الْفَاسِدِينَ وَالْقَتْلَى وَالْمُجْرِمِينَ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدًا الْإِجَابَةَ عَلَى السَّبَبِ الَّذِي جَعَلَ الْمَلَائِكَةَ يُظَنُّونَ ذَلِكَ لَكِنَّ الْمَرْجِعَ كَمَا يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ
أَنَّ هُنَاكَ مَخْلُوقَاتٍ تَعِيشُ عَلَى الْأَرْضِ تَفْسِدُ وَتَقْتُلُ فِيهَا .

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ السُّؤَالَ الْآخَرَ لِلْمَلَائِكَةِ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِبْنِي أَعْلَمَ مَا لَا تَعْلَمُونَ قَدْ طَرَحَ
إِشْكَالِيَّةً وَاضِحَةً بَعْدَ أَنْ نَزَلَ قَوْلُهُ وَتَعَالَى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات :

56] فَالْمَلَائِكَةُ هِيَ الْمُكَلَّفَةُ بِالتَّسْبِيحِ وَالْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَهُمْ لَا يَسْمُونَ فَلَيْسَ هُنَاكَ حَاجَةٌ لِخَلْقِ بَشَرٍ يَعْبُدُوا
اللَّهَ وَهُمْ يَعْبُدُونَهُ حَقَّ عِبَادَتِهِ وَتَقْدِيسِهِ ؟

لَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَطَعَ عَلَيْهِمُ الطَّرِيقَ بِقَوْلِهِ (إِبْنِي أَعْلَمَ مَا لَا تَعْلَمُونَ) ثُمَّ اخْتَبَرَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
إِمَامَهُمْ وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ حَقًّا لَا يَعْلَمُونَ بِالْمِقْدَارِ الَّذِي عَلَّمَهُ اللَّهُ لِآدَمَ فَكَيْفَ بِهِمْ سَيَعْلَمُونَ وَيَحِيطُونَ بِعِلْمِ اللَّهِ

فَالْمَوْضُوعِ وَالْقَضِيَّةِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا خَلَقَ اللَّهُ الْبَشَرَ لَا تَعَلَّقُ بِالْعِبَادَةِ أَوْ تَعْمِيرِ الْأَرْضِ وَإِفْسَادِهَا بَلْ أَكْبَرُ
 مِنْ ذَلِكَ بكَثِيرٍ فِي قَصْدِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ فَاللَّهُ عَلَى عِلْمٍ مُسَبِّقٍ بِمَا سَيَفْعَلُهُ بَنُو آدَمَ فِي الْأَرْضِ
 ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَتَعَلَّمَ مَا تُوسَّوسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق : 16]

﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ الْبَقْرَةَ : 205

فَالسُّؤَالُ الَّذِي يُطْرَحُ نَفْسَهُ بِقُوَّةٍ بَعْدَ كُلِّ ذَلِكَ هُوَ لِمَاذَا خَلَقْنَا اللَّهُ ؟

نَحْنُ لَا يُمَكِّنُنَا الْإِجَابَةُ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ إِطْلَاقًا بَلْ كُلُّ مَا يُمَكِّنُنَا فَعَلَهُ هُوَ اسْتِخْلَاصُ جَوَابًا لَهُ مِنْ خِلَالِ
 فَهَمْنَا لِلتَّنُصُوصِ الْقُرْآنِيِّ وَتَرْجُو مِنْ اللَّهِ أَنْ نَوْفِقَ فِي الْوُصُولِ إِلَى ذَلِكَ .

قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ عَلَيْنَا إِزَالَةُ الْإِلْتِمَاسِ بَيْنَ مَفْهُومِي الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِخْلَافِ وَالْأَعْمَارِ فَمَا مَعْنَى الْعِبَادَةِ فِي قَوْلِهِ
 تَعَالَى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

وَأَنَّ التَّعْلِيلَ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ لِيَعْبُدُونِ ﴾ مَنْ جَعَلَ عُمُومَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ مَخْصُوصًا بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ ، أَوْ
 تَقْدِيرِ مَحْذُوفٍ فِي الْكَلَامِ ، أَيْ إِلَّا لِأَمْرِهِمْ بِعِبَادَتِي ، أَوْ حَمَلِ الْعِبَادَةِ بِمَعْنَى التَّدَلُّلِ وَالتَّضَرُّعِ الَّذِي لَا
 يَخْلُو مِنْهُ الْجَمِيعُ فِي أَحْوَالِ الْحَاجَةِ إِلَى التَّدَلُّلِ وَالتَّضَرُّعِ كَالْمَرَضِ وَالْقَحْطِ وَقَدْ (وَالْكَلامُ كُلُّهُ هُنَا لِابْنِ
 عَطِيَّةٍ)

وَيَرِدُ عَلَى جَمِيعِ تِلْكَ الْإِحْتِمَالَاتِ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْإِنْسِ غَيْرِ عَابِدٍ بِدَلِيلِ الْمَشَاهِدَةِ ، وَإِنَّ اللَّهَ حَكِي عَنْ
 بَعْضِ الْجِنَّ أَنَّهُمْ غَيْرُ عَابِدِينَ . ثُمَّ قَالَ : " وَمَعْنَى الْعِبَادَةِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ قَبْلَ حَدُوثِ الْمُصْطَلَحَاتِ
 الشَّرْعِيَّةِ دَقِيقُ الدَّلَالَةِ ، وَكَلِمَاتُ أُمَّةِ اللُّغَةِ فِيهِ حُفْنِيهِ وَالَّذِي يُسْتَخْلَصُ مِنْهَا أَنَّهَا إِظْهَارُ الْخُضُوعِ لِلْمُعْبُودِ

وَأَعْتَقَادُ أَنَّهُ يَمْلِكُ نَفْعَ الْعَابِدِ وَضُرَّهُ مِلْكًا ذَاتِيًّا مُسْتَمِرًّا ، فالمعبود إله للعابد كما حكى الله قَوْلَ فِرْعَوْنَ ﴿ وَقَوْمَهَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾ [المؤمنون : 47] . بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ تَعَمَّقَ فِي دَلَالَةِ الْحَضَرِ فِي الْآيَةِ فَقَالَ :
 “فالحصر المُستفادُ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ قَصْرُ عِلَّةِ خَلْقِ اللَّهِ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ عَلَى إِرَادَتِهِ إِنْ يُعْبُدُوهُ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ قَصَرَ إِصَافِيٍّ وَأَنَّهُ مِنْ قَبِيلِ قَصْرِ الْمُوصُوفِ عَلَى الصِّفَةِ ، وَأَنَّهُ قَصَرَ قَلْبٍ بِاعْتِبَارِ مَفْعُولٍ ﴿ يَعْبُدُونَ ﴾ ، أَيُّ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي وَحَدِي ، أَيُّ : لَا لِيَشْرِكُوا غَيْرِي فِي الْعِبَادَةِ ، فَهُوَ رَدٌّ لِلْإِشْرَاقِ ، وَلَيْسَ هُوَ قَصْرًا حَقِيقِيًّا فَإِنَّا وَإِنْ لَمْ نَطَّلِعْ عَلَى مَقَادِيرِ حِكْمِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ خَلْقِ الْخَلَائِقِ ، لَكِنَّا نَعْلَمُ أَنَّ الْحِكْمَةَ مِنْ خَلْقِهِمْ لَيْسَتْ مُجْرَدًا أَنْ يُعْبُدُوهُ ، لِأَنَّ حِكْمَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَعْمَالِهِ كَثِيرَةٌ لَا نُحِيطُ بِهَا)

أَنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةُ الْأَخِيرَةَ الَّتِي تُقِيدُ بِأَنَّ الْحِكْمَةَ مِنْ خَلْقِنَا لَيْسَتْ مُجْرَدَ الْعِبَادَةِ الَّتِي مَفْهُومُهَا هُنَا يَعْنِي الْخُضُوعَ وَالْإِسْتِسْلَامَ لِلْخَالِقِ وَهَذَا تَعْرِيفٌ يَفِيدُنَا كَثِيرًا فِي مَعْرِفَةِ الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ مِنْ خَلْقِنَا .

الْأَمَانَةُ

ماهي الْأَمَانَةُ التَّكْلِيفِ الشَّرْعِيَّةِ أَمْ الْعَقْلُ

إِنْ حَلَّ هَذَا الْأَشْكَالِ الْمُتَعَلِّقِ بِالْحِكْمَةِ النَّهَائِيَّةِ مِنْ خَلْقِ الْإِنْسَانِ سَجْدَ جَوَابِهِ فِي نَصِّ آخِرِ

يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ

إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : 72]

الْأَمَانَةُ وَفُقْ مَرَأَهُ الْمُفْسِّرِينَ

فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ آيَةِ كَلَامٍ كَثِيرٍ وَمُجَاصَّةٍ فِي بَيَانِ الْمَقْصُودِ مِنَ الْأَمَانَةِ ، وَيُرْوَى فِي ذَلِكَ أَثَرٌ عَنِ التِّرْمِذِيِّ

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - عَنْ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : " قَالَ اللَّهُ تَعَالَى

لِأَدَمَ : يَا آدَمُ إِنِّي عَرَضْتُ الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَلَمْ تَطِقْهَا ، فَهَلْ أَنْتَ حَامِلُهَا بِمَا

فِيهَا ؟ فَقَالَ : وَمَا فِيهَا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ : أَنْ حَمَلْتَهَا أُجِرْتَ ، وَإِنْ ضَيَعْتَهَا عَذِبْتَ . فَاحْتَمَلَهَا

بِمَا فِيهَا ، فَلَمْ يَلْبَثْ فِي الْجَنَّةِ إِلَّا قَدْرَ مَا بَيْنَ صَلَاةِ الْأُولَى إِلَى الْعَصْرِ حَتَّى أَخْرَجَهُ الشَّيْطَانُ مِنْهَا " .

فَالْأَمَانَةُ هِيَ التَّكْلِيفُ ، وَتَرْتَبُ الثَّوَابُ عَلَى أَدَائِهَا وَالْعِقَابُ عَلَى تَضْيِعِهَا لِأَنَّهَا مِنْ حُرِّيَّةٍ وَاخْتِيَارٍ

وَالْمَخْلُوقَاتِ غَيْرِ الْإِنْسَانِ لَيْسَتْ لَهَا هَذِهِ الْحُرِّيَّةُ ، فَهِيَ مَسِيرَةٌ بِقَوَانِينٍ ثَابِتَةٍ لَا تَمْلِكُ الْخُرُوجَ عَلَيْهَا ، وَلَا

تَتَحَقَّقُ بِهَا الطَّاعَةُ وَالْمَعْصِيَةُ . وَمِنْ هُنَا كَانَ الْإِنْسَانُ أَصْلَحَ الْمَخْلُوقَاتِ لِلْعَيْشِ عَلَى الْأَرْضِ ، وَمُنَاسِبًا

مَعَ مَا فِيهَا مِنْ مَادِيَّاتٍ وَمَعْنَوِيَّاتٍ مُتَقَابِلَةٍ بِالضَّادِ أَوْ التَّنَاقُضِ . وَهَذَا تَكْرِيمٌ مِنَ اللَّهِ لِلْإِنْسَانِ حَيْثُ

اخْتَارَهُ لِحَمْلِ هَذِهِ الْأَمَانَةِ . وَلَيْسَ قَوْلُهُ : (إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) نَقْضًا لِهَذَا التَّكْرِيمِ ، فَإِنْ مَجْرَدُ

اسْتِدَادِهِ لِتَلْقَى التَّكْلِيفِ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ هُوَ مَنَاطُ التَّكْرِيمِ ، وَكَوْنُهُ يَفِي بِالْعَهْدِ أَوْ يُنْقِضَ مِنْ

مَظَاهِرِ الاسْتِعْدَادِ الَّذِي لَيْسَ لغيرِهِ . فَهُوَ ظُلُومٌ أَنْ تَعْدَى حُدُودَ التَّكْلِيفِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهَا ، وَجَهُولٌ إِنْ كَانَ لَا يَعْلَمُهَا وَعِنْدَهُ أَمَانَةُ الْعَقْلِ الَّذِي يَهْدِيهِ إِلَى عِلْمِهَا ، وَلَيْسَ هُنَاكَ كَاتِبٌ غَيْرِ الْإِنْسَانِ يوصِفُ بِالظُّلْمِ وَالْجَهْلِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يُعْرِفُ حَدًّا يَقِفُ عِنْدَهُ . وَمَا وَصَفَ الْإِنْسَانَ بِالظُّلْمِ وَالْجَهْلِ إِلَّا لِأَنَّهُ يَصِحُّ أَنْ يوصِفَ بضمهما مِنْ الْعَدْلِ وَالْعِلْمِ كَمَا قَالَ الْحَقِيقُونَ . هَذَا بَعْضُ مَا قِيلَ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ ، وَلَعَلَّ فِيهِ الْكِفَايَةُ . وَعَنْ حُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانَ قَالَ : حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . حَدِيثَيْنِ ، قَدْ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الْآخَرَ ... حَدَّثَنَا أَنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ ، ثُمَّ نَزَلَ الْقُرْآنُ فَعَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ ، ثُمَّ حَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِ الْأَمَانَةِ ” رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ . وَعَرَضَ اللَّهُ الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ : أَنْ أَدُوها أَثَابَهُمْ ، وَإِنْ ضَيَعُوهَا عَذَبَهُمْ ، فَكَرِهُوا ذَلِكَ وَأَشْفَقُوا مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ ، وَلَكِنْ تَعْظِيمًا لِلدِّينِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا يَقُومُوا بِهِ . ثُمَّ عَرَضَهَا عَلَى آدَمَ فَقَبِلَهَا بِمَا فِيهَا ، قَالَ التُّحَاسُ : وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الَّذِي عَلَيْهِ أَهْلُ التَّفْسِيرِ . وَلَعَلَّ آبَاءَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ لِلْأَمَانَةِ أَسَاسِهِ . كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ . خَشْيَةُ التَّقْصِيرِ فِيهَا ؛ لِأَنَّهَا مَفْطُورَةٌ عَلَى الطَّاعَةِ ، رَاضِيَةٌ بِمَا هَيَّئَتْ لَهُ مِنْ رِسَالَةٍ فِي الْحَيَاةِ يَوْضَحُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) (سورة فصلت : II) ، وَهَذَا يُلْتَقِي مَعَ الرَّأْيِ الْقَائِلِ بِأَنَّ الْعَرَضَ مَعْنَاهُ مُقَايَسَةُ التَّكْلِيفِ بِجَهْدِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ وَطَبِيعَتِهَا ، فَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ تَنَاسُبٌ . أَمَّا الْإِنْسَانُ فَبِطَبِيعَتِهِ تَنَاسُبٌ لِحَمْلِ الْأَمَانَةِ مَعَ مَا يُلْزِمُهَا مِنْ ثَوَابٍ عَلَى الطَّاعَةِ وَعِقَابٍ عَلَى الْمَعْصِيَةِ . وَقَدْ قَبِلَ الْإِنْسَانُ هَذِهِ الْأَمَانَةَ دُونَ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يُصِرِحِ الْقُرْآنُ بِذَلِكَ كَمَا قَالَهُ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ ، وَلَعَلَّ مُبَادَرَتَهُ لِلْقَبُولِ كَانَتْ تَفَاوُلًا بِالتَّوْفِيقِ لِأَدَائِهَا وَأَمْلًا فِي عَدَمِ التَّقْصِيرِ فِيهَا ، وَلِأَنَّ طَبِيعَتَهُ الَّتِي خَلَقَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا تَنَاسَبَتْ مَعَ قَبُولِ هَذِهِ التَّكْلِيفِ . ثُمَّ قَالَ الْعُلَمَاءُ : إِنْ عَرَضَ الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ كَانَ عَرَضٌ تَخْيِيرٌ ، أَمَّا

عَرَضَهَا عَلَى الْإِنْسَانِ فَكَأَنَّ عَرَضَ الْإِزَامِ ، وَعَبَّرَتِ الْآيَةَ عَنِ الْإِنْسَانِ الَّذِي حَمَلَ الْأَمَانَةَ بِأَنَّهُ ظُلُومٌ جَهُولٌ ؛
لأنَّهُ كَانَ ظُلُومًا لِنَفْسِهِ بِالتَّقْصِيرِ الَّذِي آلَ إِلَيْهِ أَمْرُ الْكَثِيرِينَ ، وَجَهُولٌ حِينَ خَاطَرَ بِحَمْلِ الْأَمَانَةِ وَلَمْ يَدْرِ مَا
سَيَكُونُ عَلَيْهِ مُسْتَقْبَلِ حَالَةٍ مِنَ التَّقْصِيرِ الَّذِي يَعْرِضُ لَهُ كُلُّ إِنْسَانٍ بَدَافِعِ الْغَرَائِزِ الَّتِي فُطِرَ عَلَيْهَا . ؟

تَفْسِيرُ الْمَرْحُومِ مُحَمَّدٍ مُتَوَلِّيِ الشَّعْرَاوِيِّ

العَرَضُ : إِدَارَةُ مَعْرُوضٍ عَلَى مَعْرُوضٍ عَلَيْهِ ، كَمَا نَرَى مِثْلًا فِي الْعَرَضِ الْعُسْكَرِيِّ ، حَيْثُ تَمَرُّ نَمَازِجٌ مِنَ
الْجُيُوشِ وَالْأَسْلِحَةِ إِمَامِ الْقَائِدِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي قِصَّةِ سَيِّدِنَا سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ إِذْ عَرَضَ
عَلَيْهِ بِالْعِشِيِّ الْأَصْفَانَاثُ الْجِيَادُ ﴾ [ص : 31] .

وَمِنْهُ قَوْلُكَ : عَرَضْتُ عَلَى فُلَانٍ الْأَمْرَ يَعْنِي : أَطْلَعْتُهُ عَلَيْهِ ، لِيَرَى فِيهِ رَأْيَهُ يُقْبَلُ أَوْ لَا يُقْبَلُ ، فَالْعَرَضُ
تَخْيِيرٌ لَا إِزَامٌ فِيهِ .

فَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ يَقُولُ : عَرَضْتُ الْأَمَانَةَ عَلَى خَلْقِي كُلِّ خَلْقِي ، وَمِنْهُ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانَ وَالْجَمَادِ وَالنَّبَاتِ
لَأَرَى مِنْ مَنِمْ سَيَقْبَلُ تَحْمَلَهَا ، وَمَنْ سِيرْفُضُ ، إِذْنُ : مَعْنَى الْعَرَضُ أَنَّ هُنَاكَ مَنْ سَيَقْبَلُ ، وَهُنَاكَ مَنْ
سِيرْفُضُ .

لِذَلِكَ قُلْنَا : مِنَ الْخَطَا : أَنْ نُقُولَ : أَنَّ الْأَرْضَ وَالسَّمَاءَ وَالْجِبَالَ . . . إِنْ مَسِيرَةٌ مَفْهُورَةٌ ، بَلْ يَجِبُ أَنْ
نُعَدِّلَ الْعِبَارَةَ فَتَقُولَ هِيَ مَفْهُورَةٌ بِاخْتِيَارِهَا ؛ لِأَنَّ اللَّهَ حِينَ عَرَضَ عَلَيْهِنَّ الْأَمَانَةَ أَبِينُ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ
مِنْهَا ، وَقَالَتْ : نَخْرُجُ مِنْ بَابِ الْجَمَالِ ، فَاخْتَارَتْ أَلَّا تَكُونَ مُخَارَةً .

وَالْأَمَانَةُ الَّتِي عَرَضَهَا الْحَقُّ سُبْحَانَهُ عَلَى خَلْقِهِ هِيَ أَمَانَةُ الْإِخْتِيَارِ فِي أَنْ يَكُونَ مَخْتَارًا فِي أَنْ يُؤْمِنَ أَوْ
يُكْفُرَ ، فِي أَنْ يُطِيعَ أَوْ يَعِصِيَ ، فَكُلُّ مَا عَدَا الْإِنْسَانَ رَفَضَ التَّحَمُّلَ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ تَأْخُذْهُ الْحَمِيَّةُ وَقْتُ الْعَرَضِ
وَالتَّحَمُّلِ ، مَخَافَةَ أَنْ يَأْتِيَ وَقْتُ الْأَدَاءِ ، فَلَا يَجِدُ لَهُ ذِمَّةً) .

وَحَتَّى نَسْتَطِيعَ الْأَمْرَ مِنْ كُلِّ جَوَانِبِهِ عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ مَا الْمَقْصُودُ لُغَوِيًّا وَمَصْطَلِحًا مِنْ كَلِمَةِ أَمَانَةٍ

مَاذَا تَعْنِي كَلِمَةُ الْأَمَانَةِ أَوْ مَا هِيَ الْأَمَانَةُ ؟

تَعْرِيفٌ وَمَعْنَى الْأَمَانَةِ فِي مُعْجَمِ الْمَعَانِي الْجَامِعِ - مُعْجَمِ عَرَبِيَّ عَرَبِيٍّ

الْأَمَانَةُ : الْوَدِيعَةُ ، وَأَيْضًا الْأَمَانَةُ مِنْ أَمْنٍ تَكُونُ بِمَعْنَى الْوَفَاءِ ، وَفُلَانٌ آمِنٌ أَيُّ وَفِي لَا يَتَعَدَّى عَلَى حَقِّ
الْغَيْرِ . (فقهية)

الْأَمَانَةُ : مَا وَجَبَ حِفْظُهُ بِعَقْدٍ أَوْ بِغَيْرِ عَقْدٍ ، وَسَوَاءٌ أَكَانَ هَذَا الْعَقْدُ عَقْدَ اسْتِحْفَافٍ كَالْوَدِيعَةِ ، أَمْ
عَقْدَ اسْتِجَارَةٍ كَالْإِجَارَةِ ، وَالْأَمَانَةُ بِغَيْرِ الْعَقْدِ كَاللَّقِطَةِ فِي يَدِ الْمَلْتَقِطِ . فِي مَدَّةِ التَّعْرِيفِ .

وَالْأَمَانَةُ إِذْنٌ هِيَ الْوَدِيعَةُ

الْأَمَانَةُ هِيَ الْعَقْلُ

أَنَّ الْأَمَانَةَ أَوْ الْوَدِيعَةَ الَّتِي اسْتَوْدَعَهَا اللَّهُ هِيَ الْعَقْلُ وَالَّذِي هُوَ نَفْحُهُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ وَعِلْمُهُ وَأَنَّ هَذَا التَّعْرِيفُ
يُقَدِّمُ لَنَا أَجُوبَةً مُنْطَقِيَّةً لِسُؤَالِنَا هَلْ خَلَقْنَا اللَّهُ لِلْعِبَادَةِ أَوْ الْأَعْمَارِ وَالذَّلَالِ عَلَى ذَلِكَ هِيَ :

أولاً : أَنَّ تَفْسِيرَ الْمَرْحُومِ مُحَمَّدِ تَوَيْلِ الشَّعْرَاوِيِّ لِمَعْنَى الْأَمَانَةِ هُوَ هِيَ أَمَانَةُ الْاِخْتِيَارِ فِي أَنْ يَكُونَ مَخْتَاراً فِي أَنْ يُؤْمَنُ أَوْ يَكْفُرَ ، فِي أَنْ يُطِيعَ أَوْ يَعْصِي وَالْاِخْتِيَارَ يَسْتَوْجِبُ وُجُودَ الْعَقْلِ لِتَرْجِيحِ كَفِّهِ الْقَبُولِ أَوْ الرَّفْضِ وَلَا اِخْتِيَارَ أَوْ خَيْرِهِ بَدُونِ عَقْلٍ .

ثانياً : أَنَّ الَّذِي يُمَيِّزُ الْإِنْسَانَ كَمَخْلُوقٍ عَنِ سَائِرِ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ بِمَا فِيهِمُ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ بِمَا يُؤْمَرُونَ دُونَ اِخْتِيَارِ أَنْ الَّذِي يُمَيِّزُ الْإِنْسَانَ عَنِ الْجَمِيعِ هُوَ الْعَقْلُ .

ثالثاً : أَنَّ الْعَقْلَ هُوَ نَفْحَهُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ وَعِلْمُهُ وَهُوَ آخِرُ شَيْءٍ بَثَّ اللَّهُ فِيهِ لِذَلِكَ عَجَزَ الْعِلْمُ إِلَى الْآنَ عَنْ فَهْمِهِ وَسَبَرِ اِغْوَارِهِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْأَسْرَارِ الْإِلَهِيَةِ الْعَجِيبَةِ .

رابعاً : أَنَّهُ أَسَاسُ الْمَسْئُورِيَّةِ فِي آدَاءِ الْوَاجِبَاتِ وَالْأَعْمَالِ وَالتَّكْلِيفِ وَفَاقِدَ الْعَقْلُ لَا تَفْعَ عَلَيْهِ أَيْ

مَسْئُورِيَّةً

خامساً : أَنَّ هُنَاكَ عَدَدًا كَبِيرًا جَدًّا مِنَ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ تَحِضُّ الْإِنْسَانَ عَلَى التَّعْقُلِ وَالتَّفَكُّرِ لِأَنَّهُ الْأَسَاسَ الَّذِي سِيُوصِلُ الْإِنْسَانَ إِلَى بَرِّ الْأَمَانِ .

لِنَقْرَأُ بَعْضَ هَذِهِ النُّصُوصِ وَلِنَفْهَمُ مِنْهَا مَا دُورَ الْعَقْلِ فِي أَصْبَاغِ صِفَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَى الْإِنْسَانَ :

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك : 10]

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

[البقرة : 171]

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال : 22]

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يونس : 42]

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

[النحل : 12]

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ

تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : 46]

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْإِطْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان : 44]

أَنَّ الْآيَةَ تَوْضِحُ بِشَكْلِ صَرِيحٍ أَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْإِطْعَامِ هُوَ الْعَقْلُ أَلَمْ يُقَالُ فِي الْفَلْسَفَةِ أَنَّ الْإِنْسَانَ حَيَوَانٌ نَاطِقٌ أَوْ عَاقِلٌ .

أَنَّ كُلَّ هَذِهِ التُّصَوُّصِ تُشِيرُ إِلَى مَكَانِهِ الْعَقْلِ وَلَيْسَ هُنَاكَ وَدِيعةً أَوْ أَمَانَةً أَوْ اسْتَوْدَعَهَا اللَّهُ لَهُ سِوَى الْعَقْلِ

لِذَلِكَ كَانَ الْإِنْسَانُ ظُلُومًا جَهُولًا فَهُوَ ظَلَمَ نَفْسَهُ لِأَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِيعْ أَنْ يَسْتَعْمَلَ عَقْلَهُ بِكُلِّ طَاقَتِهِ وَلِأَنَّ الْغَرَائِزَ

غَلَبَتْ عَقْلَهُ وَهُوَ جَاهِلٌ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْأَمَانَةَ تُمَيِّزُهُ عَنْ سَائِرِ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ وَأَنَّ حَمَلَهَا

سَيَكُونُ ثِقَلًا كَبِيرًا سَيُؤَدِّي فِي التَّيْجَةِ إِلَى الْهَلَاكِ لَوْ قَصَرَ فِي حَمَلِهَا أَيُّ فِي الْعَمَلِ بِهَا لِذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ

عَنْهُمْ (أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ) فَالْأَكْثَرِيَّةُ هُنَا وَقَعَتْ فِي فَخِ الْإِحْتِبَارِ وَفَشَلَتْ بِهِ .

الْإِنْسَانُ حَلِيفَةُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : 30]

يُفَرِّدُ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ الْكَبِيرِ أَنَّ كَلِمَةَ « خَلِيفَةَ » بِمَعْنَى « الْوَلِيَّ » « إِذَا قَامَ مَقَامَهُ فِيهِ بَعْدَهُ » ،
أَيُّ الْوَلِيِّ لِلْأَفْرَادِ وَالْقُرُونِ (أَوْ الْأَجْيَالِ) أَوْ الْجَمَاعَاتِ السَّابِقَةِ ، وَمِنْ ثَمَّ يُسْتَبَعَدُ مَعْنَى « النَّائِبِ » .
وَهُوَ يَذْكُرُ اسْتِحْدَامَ كَلِمَةِ « خَلِيفَةَ » لِلدَّلَالَةِ عَلَى السُّلْطَانِ الْأَعْظَمِ مَعَ شَرْحِ الْكَلِمَةِ بِمَعْنَى « الْوَلِيِّ
لِلسَّابِقِ » ، وَذَلِكَ دُونَ أَنْ يُشِيرَ إِلَى أَصْلِهَا الْوَارِدِ فِي صِغَةِ « خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ » . ثُمَّ إِنَّ الطَّبْرِيَّ فِي
شَرْحِهِ لِلآيَةِ الْكَرِيمَةِ الَّتِي يُخَاطَبُ فِيهَا اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ (البقرة : 30) وَيُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ سَيَجْعَلُ آدَمَ فِي الْأَرْضِ
خَلِيفَةً يَبْتَدِئُ شَرْحَيْنِ يَسْمَحَانِ بِتَأْوِيلِهِمَا عَلَى أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ عَلَى الْأَرْضِ « خَلِيفَةَ » لَهُ أَوْ « خَلِيفَةَ »
يُبْتَدِئُ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ خَلْقِهِ ، أَيُّ عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ الطَّبْرِيِّ نَفْسَهُ « خَلِيفَةَ » مَعْنَى يَخْلُفُنِي فِي الْحُكْمِ
بَيْنَ خَلْقِهِ بِحُكْمِهِ وَمَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ فَإِنَّ الطَّبْرِيَّ يَتَمَسَّكُ بِفَهْمِهِ لِكَلِمَةِ « الْخِلَافَةِ » بِمَعْنَى تَتَابُعِ الْأَجْيَالِ أَوْ
الْقُرُونِ .

وَمَنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى نَلَاخِظُ أَنَّ الْوَعْيَ الشَّدِيدَ بِالْمَسَافَةِ الشَّاسِعَةِ الَّتِي تُفْصِلُ الْإِنْسَانَ عَنِ اللَّهِ ، قَدْ جَعَلَ
أَعْلَبَ الْعُلَمَاءِ يَنْفَرُونَ مِنْ أَنْ يُعْطُوا لِلْإِنْسَانِ مِثْلَ هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ (أَيُّ مَنْزِلَةِ النَّائِبِ عَنِ اللَّهِ) ؛ وَلِذَلِكَ
أَصْرَحُوا عَلَى فَهْمِ كَلِمَةِ « خَلِيفَةَ » كَمَا جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِمَعْنَى « التَّالِيِ أَوْ الْوَلِيِّ لِلسَّابِقِينَ » .
تَرَدُّ كَلِمَةُ "خليفة" فِي الاسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِيِّ بِالْمَقْهُومِ الْحَيَاتِيِّ الْبِنَائِيِّ الشَّامِلِ ، فَهَمَّةُ الْإِنْسَانِ عِمَارَةَ الْأَرْضِ ،
وَلِهَذَا خُلِقَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [سورة هود : 61] .

قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سِيَاقِ الْكَلَامِ عَنْ خَلِيفَتِهِ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [سورة البقرة : 30] ، ظَنَّ الْمَلَائِكَةَ بِأَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ أَهْلًا لِلْخِلَافَةِ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّقْدِيسِ ، فَكَشَفَ اللَّهُ لَهُمْ أَنَّ الْمُهَمَّةَ لَا تَتِمُّ بِمُجَرَّدِ هَذَا ؛ هِيَ مُهَمَّةُ الْبِنَاءِ ، وَالكَدْحِ ، وَالْأَعْيَاءِ ، مُهَمَّةٌ لَا يَقُومُ بِهَا إِلَّا مَنْ كَانَ مَخْلُوقًا مِنَ الْأَرْضِ ، الْمُهَمَّةُ مُنَوَّطَةٌ بِمَنْ أَصْلُهُ الطِّينَ وَالتُّرَابَ وَالمَاءَ ، الْخِلَافَةُ فِي الْأَرْضِ هِيَ عِبَادَةُ آدَمَ : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات : 56] ؛ فَالصَّلَاةُ وَالتَّذَكُّرُ وَإِصْلَاحُ الْأَرْضِ وَالتَّضَرُّبُ فِيهَا وَكَشْفُ أَسْرَارِهَا أَعْمَالٌ صَالِحَةٌ تَتَعَاوَدُ وَتَتَكَامَلُ .

وَالْخِلَافَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا حِينَ يَكُونُ هَذَا الْكَائِنُ يُخَلِّفُ بَعْضُهُ بَعْضًا فِي عِبَادَةِ تَرَاكُمِيَّةٍ اخْتِيَارِيَّةٍ ، تُقُومُ عَلَى تِلْكَ الْأَمَانَةِ الْعَجِيبَةِ الَّتِي أَبَتْ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ حَمْلَهَا فَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [سورة الأخراب : 72] .

وَالْخِلَافَةُ تُقُومُ عَلَى حُرِّيَّةِ إِرَادَةِ هَذَا الْكَائِنِ وَحُرِّيَّةِ اخْتِيَارِهِ ؛ ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [سورة البلد : 10] .
وَالْخِلَافَةُ وَالتَّسْتَعْمَارُ فِي الْأَرْضِ تُجْعَلُ الْكُشْفُ وَالتَّسْبِيحُ وَالتَّذَكُّرُ عَوْنٌ وَمُدَدٌ لِإِنْجَازِ الْمُهَمَّةِ وَالتَّصَبُّرِ وَالتَّيَسُّتِ أَمْرًا هَامِشِيًّا أَوْ ثَانَوِيًّا .

أَنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ لِيَسْتَخْلِفَ وَلَيْسَ لِيَكُونَ نُسْخَةً أُخْرَى مِنَ الْمَلَائِكَةِ .

وَالْإِسْتِخْلَافُ هُوَ عِمَارَةُ الْأَرْضِ بِحَسَبِ نِظَامِ اللَّهِ ، وَالتَّسْبِيحُ وَالتَّذَكُّرُ عَوْنٌ وَمُدَدٌ لِإِنْجَازِ الْمُهَمَّةِ وَالتَّصَبُّرِ عَلَى تَبَاعُثِهَا وَتَكَالِيفِهَا وَمَشَقَّاتِهَا ، وَالصَّلَاةُ بِاللَّهِ هِيَ لِلْأَمَلِ وَالتَّحَبُّبِ وَالتَّسَامُحِ وَالتَّجَاحِ وَالتَّسَعُّدِ فِي الدُّنْيَا وَالتَّأَخَّرِ .

وَلَيْسَتْ الْخِلَافَةُ مُهِمَّةً سِيَاسِيَّةً فَحَسَبَ ، بَلْ هِيَ تَكْلِيفٌ مَعْرِفِي وَإِنْسَانِي وَاسِعٌ .

اللَّهُ حَاضِرٌ لَا يَغِيبُ ، وَفِي حَدِيثِ السَّفَرِ : (اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ) .
وَلَيْسَ الْمُقْصُودُ بِالْخَلِيفَةِ شَخْصٌ آدَمٌ فَقَطْ ، بَلْ الْمُقْصُودُ بِهِ نَوْعُ الْإِنْسَانِ عَامَّةً ، فَالْآيَةُ جَاءَتْ فِي مَعْرِضِ
الْأَخْبَارِ بِخَلْقِ نَوْعٍ جَدِيدٍ وَلَيْسَتْ فِي مَعْرِضِ الْبَيَانِ لِأَحْوَالِ خَاصَّةٍ بِشَخْصِ آدَمَ .

أَنَّ هَذِهِ الْخِلَافَةَ فِي الْأَرْضِ تَتَطَلَّبُ تَنْفِيذَ مُرَادِ اللَّهِ فِي إِقَامَةِ الْحَيَاةِ عَلَى الْأَرْضِ ، إِذْ مِنْ مَعَانِي
الِاسْتِخْلَافِ التَّكْلِيفَ بِتَنْفِيذِ الْأَوْامِرِ الَّتِي تُصَبُّ فِي تَعْمِيرِ الْأَرْضِ وَتَحَقُّقِ عُبُودِيَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ،
وَالِاسْتِخْلَافِ فِي هَذَا الْمَقَامِ هُوَ اسْتِخْلَافٌ تَشْرِيفٌ لِلْخَلِيفَةِ .

أَنَّ غَايَةَ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ فِي نِطَاقِ عَقِيدَةِ الْخِلَافَةِ أَنْ يَقُومَ بِحَرَكَةِ تَعْمِيرِ فِي الْأَرْضِ وَفَقْ أَوْامِرِ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ ،
بِحَيْثُ يَكُونُ فِي كُلِّ مُنْشَطٍ مَادِّيٍّ أَوْ مَعْنَوِيٍّ مُتَجَهًّا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ؛ يَسْتَجَلِي مُرَادَهُ وَيَتَحَرَّاهُ وَيَبْتَغِي
مَرْضَاتِهِ ، وَيَجِدُ فِي الْفُوزِ بِهَا ، وَبِهَذَا الْمَعْنَى تَكُونُ حَرَكَةُ الْإِنْسَانِ عَلَى الْأَرْضِ فِي كُلِّ اتِّجَاهَاتِهَا الْفُرْدِيَّةِ
وَالْجَمَاعِيَّةِ وَالْمَادِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ حَرَكَةً عِبَادَةً لِلَّهِ تَعَالَى .

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ ، يُؤَكِّدُ هَذَا النَّصَّ الْقُرْآنِيَّ الْكَرِيمَ أَنَّ أَصْلَ الْبَشَرِيَّةِ
كُلُّهَا زَوْجٌ وَاحِدٌ خَلَقَهُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلْقًا خَاصًّا بِـ "الْخَلِيفَةِ" ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى وَضَعَ فِي بِنَائِهِ الْقُدْرَةَ عَلَى
التَّزْوِجِ وَإِنْتِاجِ سُلَالَةِ خَصْبَةٍ مَلَأَتْ الْأَرْضَ بِبِلَالِينَ مِنْ الْأَفْرَادِ الَّذِينَ عَاشُوا وَمَاتُوا ، وَبِالْبِلَالِينَ الَّذِينَ يَمْلَأُونَ
جَنَبَاتِ الْأَرْضِ الْيَوْمَ ، وَبِالْبِلَالِينَ الَّذِينَ سَوْفَ يَأْتُونَ مِنْ بَعْدِنَا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ .

وَهَذَا مِنْ مَعَانِي لُفْظِ "الْخَلِيفَةِ" ؛ لِأَنَّ الْبَشَرَ يُخْلَفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى الْأَرْضِ ، وَلِأَنَّ كُلَّ فَرْدٍ مِنْهُمْ
 مُسْتَخْلَفٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْأَرْضِ اسْتِخْلَافَ تَكْرِيمٍ وَتَشْرِيفٍ مَعَ الْإِئْتِلَاءِ وَالْإِئْتِحَانِ لِكُلِّ فَرْدٍ مِنْ بَنِي
 الْإِنْسَانِ وَأَكَّدَ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَقِيقَةَ خَلْقِ أَبِيْنَا آدَمَ وَحَوَاءَ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿يَا
 أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً
 وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [سورة النساء : I] .

كَذَلِكَ أَكَّدَ اللَّهُ الْخَالِقُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خِلَافَهُ الْبَشَرَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ وَهُمْ مِنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ ، فَقَالَ وَقَوْلُهُ
 الْحَقُّ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ
 أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة الحجرات : I3] .

وَيُؤَكِّدُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَنَّ الْبَشَرَ جَمِيعًا (إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ) كَانُوا فِي صُلْبِ أَبِيهِمْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِحُظَّةِ خَلْقِهِ
 ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَسْجَدَ الْمَلَائِكَةَ لِأَبِي الْبَشَرِ ، وَنَحْنُ جَمِيعًا مِنْ صُلْبِهِ ، فَكَاثِمًا أَسْجَدَهُمْ لَنَا جَمِيعًا
 نَحْنُ الْخُلَفَاءُ فِي الْأَرْضِ ، آدَمَ وَجَمِيعِ نَسْلِهِ ، إِلَى آخِرِ فَرْدٍ مِنْ هَذَا النَّسْلِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى : ﴿وَلَقَدْ
 خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [سورة
 الأعراف : II] .

وَمِنْ هُنَا تَتَّضِحُ وَمُضَّةُ الْإِعْجَازِ الْإِنْبَائِيِّ وَالْعِلْمِيِّ فِي قَوْلِ رَبَّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي
 جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة : 30] ، وَذَلِكَ يَدُلُّ بِالتَّأَكِيدِ عَلَى الْحَقِيقَةِ التَّارِيخِيَّةِ لِأَبِينَا آدَمَ
 وَحَوَاءَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، الَّذِينَ أَرَادَتِ الْحَضَارَةُ الْمَادِيَّةُ الْمُعَاَصِرَةَ إِنْكَارَ وَجُودَهُمَا إِنْكَارًا تَامًا ، وَرَدَّ
 الْبَشَرِيَّةَ إِلَى عَدَدٍ مِنَ الْأُصُولِ الْحَيَوَاتِيَّةِ الْمُخْتَلَفِ عَلَيْهَا دُونَ دَلِيلٍ قَاطِعٍ .

مَفْهُومُ الْخِلَافَةِ الشَّامِلِ

أَنَّ مَفْهُومَ الْخِلَافَةِ يَدْخُلُ فِي السِّيَاسَةِ ، وَالْاِقْتِصَادِ ، وَالْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَالرِّيَاضِيَّةِ ، وَالْفَنِيَّةِ ،
وَالْأَدْبِيَّةِ وَالشَّعْرِيَّةِ ، وَفِي كُلِّ تَوَاحِي الْحَيَاةِ ، إِذَا عَاشَ كُلُّ إِنْسَانٍ فِي أَيِّ مَجَالٍ مِنْ مَجَالَاتِ الْحَيَاةِ بِالْقِيَمِ
الْإِنْسَانِيَّةِ الْجَمِيلَةِ ، وَتَقَرَّبَ بِهَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَتَنَاعَمَ مَعَ الْكُونِ فِي الْإِصْلَاحِ ، وَحَارَبَ الْفَسَادَ ،
فَكُلُّ إِنْسَانٍ بِهَذَا الْمَفْهُومِ هُوَ خَلِيفَةٌ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ .

إِنَّ الْحِكْمَةَ مِنْ خَلْقِ الْإِنْسَانِ حَدَدَهَا وَوَضَعَ مَعَالِمَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، فَالْحِكْمَةُ سَابِقَةٌ عَلَى
الْخَلْقِ ، وَقَبْلَ أَنْ يَبْرُزَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ بَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى وَالْحِكْمَةَ مِنْ وَرَاءِ خَلْقِهِ ؛ إِلَّا
وَهِيَ الْخِلَافَةُ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة :

. [30]

وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ إِنَّمَا هِيَ إِحْدَى الْأَجْوِبَةِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ لِتَحْدِيدِ الْغَايَةِ وَالْحِكْمَةَ مِنْ
خَلْقِ الْإِنْسَانِ ، وَتِلْكَ الْآيَاتُ هِيَ : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذَّارِيَاتِ : 56] .
وَقَوْلُهُ : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة : 30] .

أَنْتَ خَلِيفَةَ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ عِنْدَمَا

- تُوقِنُ إِنَّكَ تَعِيشُ فِي هَذَا الْكُونِ الْفَسِيحِ سَيِّدًا وَعَبْدًا . سَيِّدًا عَلَى هَذَا الْكَوْكَبِ ، عَبْدًا لِلَّهِ .

فَلَيْسَ لَكَ مُطْلَقَ التَّصَرُّفِ فِي هَذَا الْكُونِ تَفْعَلُ بِهِ مَا تَشَاءُ ، فَأَنْتَ مُسْتَخْلَفٌ مِنْ خَالِقِ هَذَا الْكُونِ
مُؤَكَّلٌ بِأَنْ تَعْمُرَهُ وَتَتَصَرَّفَ فِيهِ وَفَقَّ أَمَرَ اللَّهُ .

- تَبَعَ مُنْهَجَ اللَّهِ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ ، سِوَاءَ فِي الْمَعَامَلَاتِ أَوْ الْعِبَادَاتِ ، هَذَا الْمُنْهَجِ الَّذِي يَضْمَنُ لَكَ
السَّعَادَةَ فِي الدَّارَيْنِ .

تَسْلِحَ بِالْعِلْمِ فَبِدُونَ الْعِلْمِ لَنْ يَسْتَطِيعَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَكُونَ مَسِيطِرًا عَلَى الْكُونِ مِنْ حَوْلِهِ وَلَا التَّمَكُّنُ مِنْهُ ،
وَوَظِيفَةُ الْعِلْمِ فِي الْإِسْلَامِ هِيَ خِدْمَةُ الْإِنْسَانِ ؛ لِذَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ هَدَفَ الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ نَفْعَ الْإِنْسَانِيَّةِ .
فَلَا يَعْتَرَفُ الْإِسْلَامُ بِمَقُولَةِ (العلم للعلم ذاته) فَعِنْدَمَا يَكُونُ الْعِلْمُ ضَارًا لِلْإِنْسَانِيَّةِ وَلِوُجُودِ الْحَيَاةِ يَكُونُ الْعِلْمُ
مَرْفُوضًا شَرْعًا . فَالْعِلْمُ الَّذِي يَتَسَبَّبُ مِنْ وَرَائِهِ الْحَرَابُ وَسُلْبُ حُقُوقِ النَّاسِ لَيْسَ مِنَ الْإِسْلَامِ .

- تُؤَدِّي الْأَمَانَةَ بِمَفْهُومِهَا الشَّامِلِ ، فَالْإِنْسَانُ الَّذِي لَا يَقُومُ بِحَقِّ هَذِهِ الْخِلَافَةِ وَلَا يَرْعَى أَمَانَتَهَا ، لَا يَسْتَحِقُّ
أَنْ يَحْطَى بِشَرَفِ اسْمِهَا ، وَحَمَلِ عِنْوَانِهَا ، وَوَجِبَ أَنْ يَسْحَبَ مِنْهُ لَقَبُ « خَلِيفَةُ اللَّهِ » فَخِلَفَاءُ اللَّهِ هُمْ
الْمُؤْمِنُونَ الصَّادِقُونَ .

- تَخَلَّصَ مِنْ كِبْرِيَاكَه . فَلَا تَعْتَرَّ .

- تُسْتَحَدَمُ الْبَيْئَةُ الْمُحِيطَةُ مِنْ حَوْلِكَ فِي تَعْرِيفِكَ بِاللَّهِ ، فَمَنْ خِلَالَ التَّدَبُّرِ فِي آيَاتِ اللَّهِ الْمَلْمُوسَةِ بِالْعَقْلِ
(سِوَاءَ فِي الظُّوَاهِرِ الْكُوْنِيَّةِ أَوْ الْمَخْلُوقَاتِ أَوْ غَيْرِهَا) يُصِلُ الْإِنْسَانَ إِلَى اسْتِشْعَارِ عَظْمَةِ الْخَالِقِ . فَيَصِلُ
مِنْ (اللمس) إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ (المحسوس) .

- تَقُودُ نَفْسَكَ لَا إِنْ تَقُودَكَ هِيَ ، فَكُلَّ شَهَوَاتِ الْإِنْسَانِ لَهَا (تصريف حلال) فِي هَذِهِ الدُّنْيَا . وَذَلِكَ
لِلتَّغَلُّبِ عَلَيْهَا . فَأكْبَرُ جِهَادِ الْإِنْسَانِ هُوَ جِهَادُ نَفْسِهِ ، فَقَدْ يَكُونُ عِنْدَ الْإِنْسَانِ شَهْوَةٌ جَمَعَ الْمَالِ لِكِنْ

يُخَالِفُ هَوَاهُ وَيَصْرِفُهُ فِي أَوْجِهٍ الْخَيْرِ وَبِذَلِكَ يُصْبِحُ صَرْفَهُ لِلْمَالِ عِبَادَةً وَمُجَاهِدَةً ، أَوْ يَصْرِفُهُ فِيمَا يُغَضِبُ اللَّهَ . وَلِلْأَكْلِ أَيْضًا شَهْوَةٌ ، لَكِنَّ الصَّوْمَ مُجَاهِدَةً وَارْتِقَاءً .

- تَتَأَكَّدُ أَنَّ مَحْوَرَ تَكْلِيفِ الْإِنْسَانِ (هُوَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ) وَتَيْسُ الشَّكْلُ أَوْ الْجِنْسُ أَوْ اللَّوْنُ فَكُنَّا أَخُوهُ .

- تَحَقَّقِ الْعَدْلَ فِي الْأَرْضِ .

- أَنْتَ خَلِيفَةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ بِعَمَلِكَ النَّافِعِ الْمُتَّقِينَ وَأَخْلَاقِكَ الطَّيِّبَةِ وَضَمِيرِكَ الْيَقِظِ

- أَنْتَ خَلِيفَةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ عِنْدَمَا تَبْحَثُ عَنِ اللَّهِ بِقَلْبِكَ وَعَقْلِكَ مَعًا .

- أَنْتَ خَلِيفَةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ بِضَعْفِكَ إِلَى اللَّهِ وَالتَّذَلُّ وَالدُّعَاءُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَهُوَ السَّيِّدُ وَنَحْنُ

عِبَادَةٌ .

- أَنْتَ خَلِيفَةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ عِنْدَمَا تَطْمَعُ فِي مُسْتَقْبَلٍ أَفْضَلَ . لَا تَشَيْخُ فِيهِ وَلَا تَمْرَضُ وَلَا تُثَلِقُ (عَالَمَ

الْآخِرَةِ) .

- أَنْتَ خَلِيفَةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ عِنْدَمَا تَتَأَكَّدُ مِنْ أَنَّكَ لَمْ تُؤْتِ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا الْقَلِيلَ مَهْمَا بَلَغَتْ بِنَا الْمَرَاتِبِ

الْعِلْمِيَّةِ فَكُلُّهَا قُشُورٌ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ الْوَاسِعِ .

- أَنْتَ خَلِيفَةُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ عِنْدَمَا تُدْرِكُ أَنَّكَ إِنْسَانٌ تُصِيبُ وَتَخْطِي . فَتَزْدَادُ إِيمَانِيَّتَكَ أَحْيَانًا وَتَقَلِّ

أَحْيَانًا ، فَتَتُوبُ إِلَى اللَّهِ عِنْدَ ارْتِكَابِ الْمَعَاصِي ، لِتَرْتَقِيَ بِنَفْسِكَ وَتَرْكِيهَا .

– أنت خليفة الله في الأرض عندما يكون لك دور في الحياة وكذا وتعب وتفكير وسعي وبحث
وسؤال ، فلولا السؤال ما كانت الإجابة .

– أنت خليفة الله في الأرض عندما تستخدم التكنولوجيا والتطور العلمي فيما يعرفك بالله لا إن يبعدك
عنه سبحانه وتعالى . فكثير من يستخدم التكنولوجيا استخدماً سيئاً لا يفيد بل ويبعدنا حتى عن
عبادتنا .

– أنت خليفة الله في الأرض عندما تقدر قيمة الوقت . هذا الوقت الذي ستسأل عنه يوم القيامة .
وليس المقصود إلا نستمتع ونفرح في يومنا فنظل نعمل ونعمل . ألم أقل لك إتنا بشر
وأخيراً أنت خليفة الله في أرضه عندما تهتم بجوهرك بقدر ما تهتم بمظهرك . فلعلك تلاحظ معي أن
كثيراً من الناس يهتمون بالشكل الخارجي كوسيلة للتقرب إلى الله-ولا أقل من أهميته أن يكون لك سمناً
إسلامياً هذا جيد لكن ماذا عن جوهرك ؟

الإنسان

الهدف والغاية و العبت

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون : II5]

أَكْثَرُ مَا يَعْنِي مِنَ الْإِنْسَانِ الْمَعَاصِرِ هَذِهِ الْأَيَّامُ هُوَ سُؤَالُهُ الْمُتَوَاصِلَ عَنْ مَعْنَى الْحَيَاةِ بِشَكْلِ عَامٍّ وَمَعْنَى
حَيَاتِهِ بِشَكْلِ خَاصٍّ وَالْقَضِيَّةَ لِانْتِهَائِي عِنْدَمَا يَضَعُ صُورَةَ لِمُسْتَقْبَلٍ مَنُشُودٍ يَسْعَى لِتَحْقِيقِهِ وَتَعَدَّتْ هَذِهِ
الصُّورُ الْمُسْتَقْبَلِيَّةُ وَتَتَوَعَّعَ لَكِنْ سَوَاءٌ اسْتَطَاعَ أَنْ يُحَقِّقَ طَمُوحَاتِهِ أَمْ لَا فَالْسُّؤَالُ الْمَصِيرِي الدَّائِمُ لَنْ يُفَارِقَ

مَخِيلَتَنَا

هُنَاكَ دَائِمًا إِحْسَاسٌ شُعُورِي عَصْرِي عَامٌّ بِأَنَّ هُنَاكَ شَيْئًا مَا يَنْقُصُنَا لَا يُعْرِفُ الْكَثِيرِينَ مَا هُوَ وَهَذَا الشَّيْءُ
لَيْسَ مِنْ نَوْعِ الْمَتِّعِ وَالْغَرَائِزِ وَالتَّمَلُّكِ بَلْ هُوَ أَكْبَرُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا مُجْتَمِعَةٌ هَذَا الشَّيْءُ الْمَفْقُودُ الْمَطْلُوبُ
يَدُلُّنَا عَلَيْهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾

طه I24

مَا هُوَ هَذَا الْعَيْشُ الضَّنْكَ ؟

الْبَعْضُ يَقُولُ تَعْنِي : الْمَعِيشَةُ الضَّنْكَ ، عَيْشُ الشَّقَاءِ ، عَيْشُ الضَّيَاعِ ، عَيْشُ الْأَحْبَاطِ ، عَيْشُ الْإِخْفَاقِ
، عَيْشُ السُّودَاوِيَّةِ ، عَيْشُ التَّطَرُّفِ ، عَيْشُ الْإِنْبِيَّارِ .

هَذِهِ هِيَ الْآيَةُ I24 مِنْ سُورَةِ طه . يَقُولُ الْإِمَامُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ : " (مَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي) أَي
خَالَفَ أَمْرِي وَمَا أَنْزَلْتَهُ عَلَيَّ رَسُولِي ؛ أَعْرَضَ عَنْهُ وَتَنَاسَاهُ وَأَخَذَ مِنْ غَيْرِهِ هَدَاهُ ، فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا
، أَي ضَنْكَ فِي الدُّنْيَا فَلَا طُمَآنِينَةَ لَهُ وَلَا انْتِشَاحَ لِصَدْرِهِ ، بَلْ صَدْرُهُ ضَيْقٌ حَرَجَ لِضَلَالِهِ ، وَإِنْ تُعْنَمَ
ظَاهِرُهُ وَبَسَ مَا شَاءَ وَأَكَلَ مَا شَاءَ وَسَكَنَ حَيْثُ شَاءَ فَإِنَّ قَلْبَهُ مَا لَمْ يُخْلِصْ إِلَى الْيَقِينِ وَالْهُدَى فَهُوَ فِي
قَلْقٍ وَحَيْرَةٍ وَشَكٍّ فَلَا يَزَالُ فِي رَيْبَةٍ يَتَرَدَّدُ فَهَذَا مِنْ ضَنْكَ الْمَعِيشَةِ " .

أَنَّ السَّبَبَ الرَّئِيسِيَّ وَرَاءَ ضَيْكِ الْمَعِيشَةِ وَاضِحٌ فِي النَّصِّ الْمَذْكُورِ وَهُوَ الْإِعْرَاضُ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ أَيُّ خُلُوِّ حَيَاةِ الْمَرْءِ مِنْ وُجُودِ اللَّهِ كُلِّهِ فِي قَلْبِهِ عَقْلُهُ وَبِمَعْنَى آخَرَ هُوَ نُسِيَّ اللَّهِ تَمَامًا وَلَمْ يَتْرِكْ لَهُ ذِكْرٌ فِي وَجْدَانِهِ وَهَذَا أَحْطَ أَنْوَاعِ التَّيِّهِ وَالضَّيَاعِ .

هَذَا هُوَ السَّبَبُ الْأَسَاسِيُّ فِي فَقْدِ مَعْنَى الْحَيَاةِ وَالْوُجُودِ وَخَاصَّةً بَيْنَ الشَّبَابِ فِي وَقْتِنَا الرَّاهِنِ أَنَّ الْفِرَاقَ الَّذِي تَرَكَهُ اسْمُ اللَّهِ وَذَكَرَهُ فِي عُقُولِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ كَبِيرٌ جَدًّا وَلَا يَمْلُؤُهُ كُلُّ وَطَاهِرٍ وَمَبَاهِجٍ وَوَسَائِلِ الْحَيَاةِ التَّرْفِيهِيةِ الْحَدِيثَةِ لِذَلِكَ تَرَاهُمْ قَدْ تَاهُوا وَضَاعُوا وَظَنُّوا أَنَّ حَلَقَتَهُمْ وَوُجُودَهُمْ عَبَثًا فِي عِبَثٍ وَلَا طَعْمُهُ وَلَا لَوْنٌ لَهُ .

لِذَلِكَ كَثُرَتِ الْهُمُومُ وَالْمَشَاكِلُ وَالْأَمْرَاضُ وَالْعُقُودُ النَّفْسِيَّةُ وَالْعُقَلِيَّةُ وَكَثُرَتِ اللَّامِبَالَاةُ وَفَقَدَتِ الْمَعَايِرُ الْأَخْلَاقِيَّةُ كُلَّ هَذَا سَبَبُهُ الْإِعْرَاضُ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ بِمَعْنَى نَسْيَانِهِ وَمِنْ ثَمَّ التَّحَلِّيُّ عَنْهُ .

مَعْنَى الْحَيَاةِ مِنْ مَنْظُورٍ غَرْبِيِّ :

الْمُصَدَّرُ : مَجَلَّةٌ "لَايف هَاك" الْأَمْرِيكِيَّةُ ، بِقَلَمِ الْبَاحِثَةِ الْكِنْدِيَّةِ فِي عِلْمِ النَّفْسِ ، إيفلين مارينوف .
لَقَدْ كَانَ السُّؤَالُ حَوْلَ "مَعْنَى الْحَيَاةِ" وَالغَرَضُ مِنْهَا مَلْحًا وَأَسَاسِيًّا عَلَى مَرِّ التَّارِيخِ ، جَذَبَ أَعْظَمَ الْعُقُولِ الْبَشَرِيَّةِ لِقُرُونٍ مِنَ الزَّمَنِ . وَقَدْ كَانَتْ الْإِجَابَاتُ عَلَى اخْتِلَافَاتِهَا تَرْجِعُ إِلَى بَدَايَاتِ الْأَشْيَاءِ ، وَإِلَى أَصُولِ وُجُودِنَا ، وَإِلَى أَسْبَابِ خَلْقِ الْبَشَرِ ، وَإِلَى سَعْيِنَا لِتَحْسِينِ الذَّاتِ ، وَكَذَلِكَ إِلَى الدِّينِ . وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ أَنَّ الْعُقُولَ الْفَذَّةَ قَدِمَتْ تَفْسِيرَاتٌ شَافِيَةً لِكُلِّ مَا تَدُورُ حَوْلَهُ "الْحَيَاةُ الْجَيِّدَةُ" ، وَلِكُلِّ مَا يَجْعَلُنَا سَعْدَاءَ وَمَغْمُورِينَ .

لو تحدثت إلى أحد علماء الفيزياء أو الإحياء حول الغرض من وجودنا ، فمن المحتمل أن يُخبرك القصة الرائعة حول الانفجار الكبير (Big Bang) ، وحوّل أصول وجود الكون ، وتطور الأنواع إلى حيث نحن اليوم . لكن التطور ليس ما يدفعنا حقاً إلى الكفاح من أجل العيش وسط محن الحياة ، اليس كذلك ؟ المسألة أكبر من ذلك بكثير .

أن السؤال حول "معنى الحياة" يتمحور حول وجود البشر ككائنات لديها عقول وطموحات وأحلام وأهداف وإحساس بالوعي الذاتي . ولذلك ، عندما تفكر في الأسباب التي تدفعك إلى الوجود ، فعليك أن تفكر فعلياً في مجموعته خطوط تمحور حول القيم والمجتمع والعائلة والتنازل وغيرها من المسائل .

كيف رأى الحكماء الغرض من الحياة عبر التاريخ ؟

اليونانيون

آمن الإغريق القدماء بمفهوم "يودايمونيا" الذي يعني "السعادة" و"الرخاء" . اعتقد جميع الفلاسفة اليونانيون العظام -سقراط وأفلاطون وأرسطو- أن الحياة الجيدة تعني العيش في حالة من "الرفاهية" . وقد اختلفت التفسيرات حول ما يعنيه ذلك ؛ فاعتقد البعض إن "الغرض" يمكن العثور عليه في الفضائل (مثل ضبط النفس والشجاعة والحكمة) .

على سبيل المثال ، اعتقد أرسطو أن "الرفاهية الإنسانية" لا تتطلب شخصية جيدة فحسب ، بل تحتاج كذلك إلى ممارسة الأفعال وتحقيق التفوق . بينما اعتقد الفيلسوف أبيقوروس أن الحياة الجيدة تتحقق باللذة والتحرر من الألم والمعاناة

الفلسفة الكليية (التشاومية)

اعتقدت هذه المدرسة الفكرية اليونانية الشهيرة أن الهدف من الحياة هو عيش حياة مليئة بفضائل تنفق مع الطبيعة . بالنسبة لهذا المذهب الفلسفي ، فإن الحياة السعيدة هي الحياة البسيطة ، المتحررة من الممتلكات ، الرافضة للرغبة بالثروات والممتلكات والشهرة والجنس .

الفلسفة الرواقية

اعتبرت المدرسة الرواقية أن الحياة الطيبة هي "العيش في اتفاق مع الطبيعة" . ركز الرواقيون على أهمية ما هو خاضع لسيطرتنا ، وتجاهل ما لا يمكن التأثير فيه . في نظرهم ، "تكم السعادة في قبول اللحظات الحالية كما هي ، وتقبلها دون السماح لرغباتنا بالتحكم بنا من ناحية المتعة والخوف والألم ، من خلال استخدام عقولنا لفهم معالم ما حولنا ، وبالتالي القيام بدورنا حسب خطة الطبيعة ، بوساطة العمل معاً ، ومعالجة الآخرين بطريقة عادلة ومنصفة" .

مذهب المؤلدة (الإيمان بوحدانية الله)

آمن المؤمنون بوجود الله ، الذي خلق الكون . بالنسبة لهم ، يماشى هدف الحياة مع هدف الله في خلق الكون . حسب هذا المذهب ، الله هو من يعطي حياتنا المعنى والغرض والقيم . وبدون الله ، تصبح الحياة فارغة .

الفلسفة الوجودية

وفقاً لفلسفة القرن العشرين هذه ، التي تدعمها عقول شهيرة مثل سورين كيركغور ، وفيودور دوستويفسكي ، وجان بول سارتر ، وفريدريك نيتشه ، فإن جميع البشر يمتلكون إرادة حرة .
وبالتالي ، فإن غرض كل فرد من الحياة فريد ومتميز ، يتماشى مع ظروف المرء والكيفية التي يفهم الأمور من خلالها . وبمعنى آخر ، معنى حياتنا هو ما نقرره نحن .

مفهوم الحياة عند الفلاسفة اليونان

سقراط : أُعتبر الفيلسوف سقراط أن للحياة جانبين ؛ هما الجانب الفردي ، والجانب الروحي ، وأن على الإنسان أن يعطيها حقهما بتساو ، وينمي الجوانب الفردية والروحية في حياته ، وذلك كي تكون حياته كاملة مكملة ، ولا يعاني من الضياع فيها .

أفلاطون : بالنسبة لأفلاطون ، أُعتبر أن معنى الحياة يتحقق بتحقيق معنى مهم خاص بها ، وهو الوصول إلى أعلى مراتب المعرفة ، ويمثل هذا الوصول الخير في الحياة ، والذي يجلب للإنسان كل ما فيه منفعة له ، وقد ذكر أفلاطون أن حياة الفرد تصبح سيئة عندما يحرم نفسه من التفكير بشأن خطئه في الحياة بعقلانية ومن منطلق منطقي ؛ الأمر الذي يوقعه في الأخطاء التي توجه حياته لعواقب غير محمودة .

أرسطو : عرف أرسطو الحياة على أنها ذلك الشيء الذي يميز بين الكائنات الحية ، والكائنات غير الحية ، وأُعتبر أن الحياة التي تتميز كل ما هو حيي تمنحه القدرة على احتمال الصمود في .

وَجْهَ الاضْطِرَابَاتِ وَالتَشْوِيشَاتِ الَّتِي يَتَعَرَّضُ لَهَا ، سِوَاءَ أَكَانَتْ خَارِجِيَّةَ الْمَصْدَرِ أَمْ دَاخِلِيَّةَ ، بِالإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ ، أُعْتَبِرَ أَرِسْطُو أَنَّ الْحَيَاةَ هِيَ تَغْيِيرُ تَخَضُّعِ لَهْ ذَاتِ الْإِنْسَانِ بِشَكْلِ مُسْتَمَرٍّ .

ديكارت : يَشْتَرِكُ الْفِيلَسُوفُ الْفَرَنْسِيُّ رَيْنِيه ديكارت (بالفرنسية : René Descartes) مَعَ الْفَلَسَافَةِ الْقَدَمَاءِ فِي تَصَوُّرِهِ حَوْلَ الْحَيَاةِ وَعِلَاقَتِهَا بِالْفَلْسَفَةِ ؛ حَيْثُ اتَّفَقَ مَعَهُمْ أَنَّ مِنَ الْغَايَاتِ الْأَسَاسِيَّةِ لِلْفَلْسَفَةِ تَحْقِيقَ حَيَاةٍ سَعِيدَةٍ وَفُضْلَى لِلنَّاسِ ، وَاعْتَبَرَ ديكارت كَذَلِكَ أَنَّ الْمَعْنَى الْحَقِيقِيَّ لِلْحَيَاةِ يَتَحَقَّقُ إِذَا اتَّسَمَ الْفَرْدُ بِالْقُدْرَةِ الْجَيِّدَةِ عَلَى التَّخْطِيطِ وَالتَّنْظِيمِ ، وَسَادَ هَذِهِ الْحَيَاةَ الْهُدُوءَ الْعَقْلِيَّ ، وَرَاحَةَ الْبَالِ .

لوك : تَطَّرَقَ الْفِيلَسُوفُ الْإِنْجِلِيزِيُّ جُونُ لُوكُ لِلْحَدِيثِ عَنِ الْحَيَاةِ فِي مَعْرِضِ حَدِيثِهِ عَنِ الْمَسَاوَاةِ وَالْحُقُوقِ الطَّبِيعِيَّةِ لِلْبَشَرِ ؛ حَيْثُ قَالَ إِنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ يَمْلِكُ حَقَّ أَتِيَّةٍ فَرْدٍ آخَرَ فِي مَمْلَكَتِهِ ، وَصِحَّتِهِ ، وَحُرِّيَّتِهِ ، وَحَيَاتِهِ ، وَأَنَّ الْحَيَاةَ ، وَالْحُرِّيَّةَ ، وَالْمَلِكِيَّةَ هِيَ حُقُوقٌ طَبِيعِيَّةٌ وَهَبَهَا اللهُ لِجَمِيعِ الْأَفْرَادِ بَسَاوٍ ، وَهِيَ غَيْرُ قَابِلَةٍ لِلتَّصَرُّفِ فِيهَا أَوْ التَّنَازُلِ عَنْهَا .

هَيُوم : مِنْ وَجْهِهِ نَظَرَ الْفِيلَسُوفُ الْإِسْكَانْدِي دِيْفِيدُ هَيُومُ تُعْتَبِرُ الْمَشَاعِرَ وَالْأَحَاسِيسَ الشَّيْءَ الَّذِي يَسِيطِرُ عَلَى حَيَاةِ الْفَرْدِ ، وَلَيْسَ الْعَقْلَانِيَّةُ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَرَى أَنَّ الْعَقْلَ هُوَ بِمَثَابَةِ "عَبْدٍ لِلْعَاطِفَةِ ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ فِي الْحَيَاةِ تَدْفَعُهُ الْمَشَاعِرُ أَكْثَرَ مِنْ الدَّوَاعِ وَالتَّصَوُّرَاتِ الْعَقْلَانِيَّةِ .

كانط : فِي مَعْرِضِ حَدِيثِهِ عَنِ الْحَيَاةِ ، تَطَّرَقَ الْفِيلَسُوفُ الْأَلْمَانِي إِيْمَانُويلُ كَانْطُ فِي أَحَدِ جَوَابِ حَدِيثِهِ عَنْهَا عَنِ عِلَاقَتِهَا بِالسَّعَادَةِ ؛ حَيْثُ أُعْتَبِرَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ مُحَدَّدٌ وَمَحْدُودٌ ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ بِسَبَبِ هَذَا لَا يَقْدِرُ أَنْ يُحَقِّقَ جَمِيعَ الْمَعَايِرِ الَّتِي يُحَدِّدُهَا لِتَحَقُّقِ سَعَادَتِهِ فِي الْحَيَاةِ ، وَارْتَأَى أَنَّ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَسْعَى فِي حَيَاتِهِ لِلتَّزَامِ الْأَخْلَاقِ ، لِأَنَّ هَذَا مِنْ الْأُمُورِ الَّتِي تَقْبَلُ الْحَيَاةَ تَحَقُّقَهَا خِلَالِهَا .

نيتشه : من منظور الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه فإن للحياة معنى ، وهو العيش بتصميم وقوة ،
وقيام الفرد بوضع القيم وتحديد الأهداف لنفسه ، إلى جانب ذلك ، يرى نيتشه أنه ليس مفروضاً على
الإنسان عيش حياته بناءً على ما يضعه المجتمع من قواعد تقتصر إلى المرونة ، واعتبر أن الإنسان كائن
يمتلك القدرة على تقرير مصيره بنفسه ، كما أنه قادر على الأتيان بكل ما يرشده في حياته ويشجعه
على عيشها ، من أفكار ، وأهداف ، ومبادئ . [١٢][١٣]

الحياة عند راسل : في حديثه عن الحياة ، اعتبر الفيلسوف البريطاني بيرتراند راسل أن الحياة لا بد
أن تكون حياة جيدة ليتحقق معناها الحقيقي ، والحياة الجيدة هي التي يملؤها الحب تجاه الآخرين ،
والمعرفة بخصوص كل شيء .

الهدف الحقيقي من الحياة

لقد وجدنا هذا التخبُّط الكبير في تناول معنى الحياة في الفلسفة الغربية منذ أرسطو ليومنا هذا
وكذلك فالحياة التي يعيشها الإنسان اليوم معقدة وصعبة بالرغم من كل الوسائل والخدمات والإمكانات
التي وفرتها له التكنولوجيا هذه الأيام وذلك لسبب بسيط وهو حيرته في فهم معنى حياته ووجوده لذلك
يقع في شبائك الإلحاد والكفر والعيش العبي فال موضوع لا يتعلق بتجربة شخصية من يوفق في تحقيقها
فهو سعيد وفرحت له الحياة والعكس بالعكس بالنسبة للفاشلين فالأمر أكبر من ذلك لأنه يتعلق بحياة
أخرى دائمة لاموت فيها والمصير هنا لن يتمكن المرء من تغييره أو فعل أي شيء تجاهه .

فَمَا هُوَ إِذْنُ الْهَدَفِ الْحَقِيقِيِّ مِنَ الْحَيَاةِ ؟

يُكَبِّرُ الْحَدِيثَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ عَنِ التَّخْطِيطِ الْأَسْتَرَاتِيجِيِّ وَالتَّشْغِيلِيِّ وَالشَّخْصِيِّ ، وَعَنْ وَضْعِ الْأَهْدَافِ الْأَسْتَرَاتِيجِيَّةِ وَالْأَهْدَافِ الْمَرْحَلِيَّةِ وَالْأَهْدَافِ الْعَامَّةِ وَالْأَهْدَافِ الْخَاصَّةِ ، وَفِي سَبِيلِ تَوْضِيحِ ذَلِكَ لِلنَّاسِ تُعْقَدُ الدُّورَاتُ التَّدْرِيبِيَّةُ وَتَقَامُ الْمَحَاضِرَاتُ وَتُؤَلَّفُ الْكُتُبُ وَتُنَشَرُ الْمَقَالَاتُ مُوضِحَةً أَهْمِيَّةَ الْأَهْدَافِ وَطُرُقَ صِيَاغَتِهَا وَمَوَاصِفَاتِهَا .

هَذَا التَّشَاطُّ الْمُهْتَمُّ بِصِنَاعَةِ الْأَهْدَافِ يُعَدُّ مِنَ الْأُمُورِ الْجَيِّدَةِ وَالْمُفِيدَةِ ، وَلَكِنَّهُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْحَالَاتِ لَا يُحَقِّقُ الْأَهْدَافَ الْحَقِيقِيَّةَ مِنْهُ ، مِمَّا يَعْكَسُ وُجُودَ مُشْكَلَةٍ فِي التَّفَكِيرِ ، وَضَعْفَ فِي إِدْرَاكِ الْأَهْدَافِ مِنْ وَضْعِ الْأَهْدَافِ ! إِنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي لَا يُعْرِفُ وَجْهَتَهُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ وَلَيْسَ لَدَيْهِ أَهْدَافٌ يَعْمَلُ لِتَحْقِيقِهَا ، يَعِيشُ دُونَ أَنْ يُدْرِكَ هَلْ هُوَ ضَائِعٌ أَمْ لَا ! وَلَا يُعْرِفُ الْوَقْتَ الَّذِي سَيَصِلُ فِيهِ إِلَى حَيْثُ لَا يَدْرِي ! يَدُورُ فِي حَلَقَاتٍ مُفْرَعَةٍ وَهُوَ لَا يَعِي ! يَنْتَقِلُ مِنْ حَلْقَةٍ إِلَى أُخْرَى دُونَ أَنْ يَشْعُرَ ! يَعِيشُ فِي فَلَكَ الْأَخْرَيْنِ ، وَيَسِيرُ مَعَ التِّيَّارِ ، وَحَسَبَ الظُّرُوفِ ! وَلَا يُمَكِّنُ لِلْآخِرِينَ مُسَاعَدَتَهُ ، لِأَنَّهُ لَا يُعْرِفُ وَجْهَتَهُ ! يَقْضِي عُمُرَهُ مُنْتَظِرًا مَا سَيَسْفِرُ عَنْهُ شُؤُونَ الْحَيَاةِ ، وَمَا سَتَمْلِيهِ الْأَحْدَاثُ حَتَّى يَتَكَيَّفَ مَعَهَا مُحَقِّقًا لَهَا أَهْدَافَهَا مِنْهُ ، دُونَ أَنْ يُحَقِّقَ هُوَ أَهْدَافَهُ مِنْهَا ، لِأَنَّهُ بِلَا أَهْدَافٍ ، وَأُمُورِ الْحَيَاةِ تَمْلِكُهُ وَلَا يَمْلِكُهَا .

إِنَّ مِنْ أَهَمِّ الْحَقَائِقِ الَّتِي لَا بَدَأَ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ الْعَاقِلُ عَلَى دِرَايَةِ تَامَّةٍ بِهَا : أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمْ يَبْرِكْهُ عَرَضَهُ لِلضُّيَاعِ وَالتَّخْبِطِ ، يَضَعُ أَهْدَافَهُ بِنَفْسِهِ ، وَيَصُوغُ اتِّجَاهَاتِهِ الْأَجْتِمَاعِيَّةَ وَالْإِنْسَانِيَّةَ وَالْمَالِيَّةَ وَالْإِدَارِيَّةَ وَالسِّيَاسِيَّةَ دُونَ تَوْجِيهِهِ إِلَهِي .

هَذَا الْإِنْسَانُ رَبَّمَا يُكْمِلُ دِرَاسَتَهُ ، وَرَبَّمَا يَقْرَأُ كِتَابًا ، أَوْ يَحْضُرُ مُحَاضِرَةً أَوْ دَوْرَهُ تَدْرِيبِيَّةً ، وَرَبَّمَا يَكْسِبُ مَالًا وَفِرًا أَوْ قَلِيلًا مِنْ عَمَلِهِ ، وَرَبَّمَا يُحَقِّقُ نَجَاحًا هُنَا أَوْ هُنَاكَ ، لَكِنَّهُ بِالْتَّأَكِيدِ لَنْ يُشْعِرَ بِمُشَاعِرِ الرَّقِيِّ وَالْإِنْبَازِ ، وَلَنْ يَقْوَى عَلَى لِسْتِمْرَارِ فِي النِّجَاحَاتِ الْعَابِرَةِ الَّتِي حَقَّقَهَا ، لِأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ هَلْ مَا حَقَّقَهُ كَانَ هَدَفًا حَقِيقِيًّا لَهُ ، أَمْ أَنَّهُ سَبَقَ إِلَيْهِ دُونَ إِرَادَةِ !

هَذِهِ الْوَضْعِيَّةُ الْمَاسَاوِيَّةُ الَّتِي يَعِيشُهَا هَذَا الْإِنْسَانُ ، يُشَارِكُ فِي نَتَائِجِهَا الْكَارِثِيَّةِ إِنْسَانٌ آخَرُ وَضَعَ لِنَفْسِهِ أَهْدَافًا وَخَطَطًا رَبَّمَا تَكُونُ جَيِّدَةً ، لَكِنَّهُ لَمْ يَضَعْهَا بِنَاءً عَلَى الْوَجْهَةِ الْحَقِيقِيَّةِ لَهُ ، وَلَمْ يَهْتَمَّ بِطَبِيعَةِ الطَّرِيقِ الْآيِيَّةِ الَّتِي يَسْلُكُهَا ، فَاصْبَحَتْ أَهْدَافُهُ غَيْرَ حَقِيقِيَّةٍ ، تَهْتَمُّ بِالْمُعْتَمَةِ الْآيِيَّةِ الَّتِي لَا تَتَجَاوَزُ حُدُودَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشْرَبِ وَالْمَلْبَسِ وَالْمَسْكَنِ ، وَرَبَّمَا تَصِلُ إِلَى حُدُودِ التَّفَكِيرِ فِي الْأَمْنِ وَالِاسْتِقْرَارِ ، وَفِي أَحْيَانٍ قَلِيلَةٍ تَتَجَاوَزُ هَذِهِ الْحُدُودَ كُلَّهَا لِتَصِلَ إِلَى حُدُودِ مَالِيَّةٍ أَوْ إِجْتِمَاعِيَّةٍ أَوْ إِدَارِيَّةٍ وَرَبَّمَا سِيَاسِيَّةٍ . وَلَكِنَّهَا رَغْمَ هَذَا لَنْ تَنْتَشِلَهُ مِنَ الْوَحْلِ ! وَلِذَلِكَ سَيَصِلُ إِلَى نَفْسِ الضِّيَاعِ الَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ الَّذِي عَاشَ بِهَا أَهْدَافَ ، مَعَ اخْتِلَافِ سُبُلِ الْوُصُولِ إِلَى هَذَا الضِّيَاعِ .

يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] ، فَهَذَا هُوَ الْهَدَفُ الْأَهَمُّ وَالْأَسْمَى مِنَ الْحَيَاةِ . وَقَدْ فَصَّلْتُهُ الْآيَاتُ تَفْصِيلًا دَقِيقًا وَرُسِمَتِ الطَّرِيقُ لِتَحْقِيقِهِ رَسْمًا وَاضِحًا ، وَبَيَّنَّتْ نَتَائِجَ تَحْقِيقِهِ بَيَانًا تَامًا . وَفِي آيَةٍ أُخْرَى يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ [فصلت : 30] . . وَيَقُولُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

[الأحقاف : I3] ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [طه :

[I24

إِنَّ الْهَدَفَ مِنَ الْخَلْقِ هُوَ : الْعُبُودِيَّةُ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَالطَّرِيقُ الْمَحَقَّةُ لِهَذِهِ الْعُبُودِيَّةِ هِيَ : الْإِسْتِقَامَةُ ،
وَالْتَبِيحَةُ هِيَ : سَعَادَةُ الدَّارَيْنِ . وَتَأْتِي عِمَارَةُ الْأَرْضِ ، وَرِعَايَةُ الْأَسْتِخْلَافِ فِيهَا كَعَامِلٍ مِنْ عَوَامِلِ
تَحْقِيقِ السَّعَادَةِ لِلبَشَرِيَّةِ . مِنْ هُنَا نُدْرِكُ أَنَّ الْجُهْدَ الْبَشَرِيَّ وَحْدَهُ لَيْسَ كَافِيًا لِمَعْرِفَةِ كَيْفِيَّةِ تَحْقِيقِ
الْهَدَفِ النِّهَائِيِّ ، وَلَا لِمَعْرِفَةِ الطَّرِيقِ الْمَوْصِلِ إِلَى تَحْقِيقِهِ ، وَأَنَّ نُصُوصَ الشَّرْعِ الْحَكِيمِ جَاءَتْ لِتَرْسُمَ
الطَّرِيقَ وَالْمَنْهَجَ لِتَحْقِيقِهِ ، ثُمَّ يَأْتِي دُورَ الْإِنْسَانِ لِيَضَعَ أَهْدَافَهُ الْمَرْحَلِيَّةَ ، وَخَطَّ سَبِيلَهُ عَلَى هَذِهِ
الطَّرِيقِ ، لِيَوْصِلَهُ بِرَأْمِهِ الْعَمَلِيَّةِ فِي نِهَآيَةِ الْمَطَافِ ، إِلَى تَحْقِيقِ هَذَا الْهَدَفِ النِّهَائِيِّ الْأَسْمَى .

لِذَا نَجِدُ أَنَّ الْقُرْآنَ يَرْبِطُ الْإِيمَانَ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، بِاعْتِبَارِهِمَا شَرْطَيْنِ لَزَمَيْنِ لِتَحْقِيقِ
أَهْدَافِ الْحَيَاةِ وَسَعَادَةِ الْإِنْسَانِ ، وَبِفَقْدِهِمَا يَكُونُ الْخُسْرَانُ ، يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ : " وَالْعَصْرُ . أَنَّ الْإِنْسَانَ
لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ " . وَالمَتَأَمَّلُ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يَجِدُ أَنَّ التَّلَازِمَ بَيْنَ

الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ قَدْ وَرَدَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَوَاضِعِ . مِمَّا يُؤَكِّدُ أَنَّ قُوَّةَ الْعَمَلِ لِتَحْقِيقِ الْهَدَفِ الْأَسْمَى
وَالْإِسْتِقَامَةَ عَلَيْهِ وَعُمَارَةَ الْأَرْضِ فِي ضَوْئِهِ تَعْتَمِدُ عَلَى قُوَّةِ إِيمَانِ الْإِنْسَانِ ، وَلَا غَرَابَةَ فِي ذَلِكَ ! فَكَلَّمَا
زَادَ الْإِيمَانَ زَادَ وَضُوحَ الرُّؤْيَا لِلْهَدَفِ ، لِيَرْتَفِعَ بِذَلِكَ الرَّصِيدَ الْعَمَلِيَّ الْمَحَقَّقَ لَهُ ... وَصَدَقَ اللَّهُ تَعَالَى إِذْ
يَقُولُ : " مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ " .

والأهداف السامية تتصف بالكمال التام ، بينما أهداف الإنسان تأتي ناقصة مهما بلغت ، لأنَّ الجهد الإنساني لا يصل حدَّ الكمال أبداً . إذن فالراغب في إكمال جوانب القصور الحتمية في أهدافه ، ينبغي عليه أن يصوغ أهدافه بناءً على الأهداف السامية ، لتكون منضوية تحتها ، ومُحقَّقة لها ، فستنير بُورها ، وتسموا بسموها . وعند هذه النقطة بالتحديد ، يظهر الفرق بين ثلاثة أنواع من البشر : نوع يسير بلا أهداف وينتهي إلى الضياع ، ويندرج تحته أغلب البشر ، ونوع يسير بأهداف آتية أرضية وينتهي إلى نفس الضياع ، ويندرج تحته خلق كثير ولكنهم أقل من النوع الأول ، ونوع ثالث يسير بأهداف شاملة سماوية وأرضية عاجله وآجله ، صاغها مستيراً بنور الهدف الأسمى من خلقه ، ليسير في طريق واضحة المعالم تنتهي به إلى تحقيق النجاح ، وتحقيق الأهداف الحقيقية ، ويعد المدرجون تحت هذا النوع أقل القليل من البشر !

مكونات الإنسان

الروح الجسد العقل النفس

مهما اختلفت التحليلات والدراسات والآراء حول مفهوم الطبيعة البشرية فهناك أربع مكونات رئيسية لها تم ذكرها في النصوص القرآنية وهي الروح والعقل والنفس والروح والجسد (الجسم) وسنرى ماذا تعني هذه المكونات الرئيسية على التوالي :

أولاً : الروح

(الروح) من الألفاظ التي خاض الناس في تعريفها وبيان طبيعتها ، وتخبط الفلاسفة في تحديد ماهيتها والوقوف على حقيقتها ، وهي في النهاية من المعاني التي اسأثر الله بعلمها ، ولم يجعل للإنسان سبيلاً

إلى معرفتها ، عَرَفَ ذَلِكَ مِنْ عَرَفَ ، وَجِهَلُهُ مِنْ جَهَلٍ ، وَكَابَرُ فِيهِ مِنْ كَابِرٍ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء : 85) .

وتخبرنا معاجم اللغة العربية عن مادة (روح) بأنها أصل كبير مطرد ، يدل على سعة وفسحة واطراد .
وأصل ذلك كله الريح . وأصل (الباء) في الريح (الواو) ؛ وإِذَا قَلْبُتِ يَاءٌ لِكَسْرِهِ مَا قَبَلَهَا . و(الروح) -
بَضَمِ الرَّاءِ الْمُشَدَّدَةِ - : مَا بِهِ حَيَاةُ الْأَنْفُسِ ، يُؤَنَّثُ وَيُذَكَّرُ ، وَيُجْمَعُ عَلَى (أرواح) .

هَذَا عَنْ لَفْظِ (الروح) لُغَةً ، أَمَا مَا وَرَاءَ اللَّغَةِ ، فَقَدْ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : (الروح) جِسْمٌ لَطِيفٌ ،
أَجْرَى اللَّهُ الْعَادَةَ بِأَنْ يَخْلُقَ الْحَيَاةَ فِي الْبَدَنِ مَعَ ذَلِكَ الْجِسْمِ .

وَلَفْظِ (الروح) وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي ثَلَاثَةِ وَعِشْرِينَ مَوْضِعًا ، وَرَدَّتْ جَمِيعُهَا بِصِيغَةِ الْأِسْمِ ، مِنْ
ذَلِكَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ يَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ (النحل : 2) . وَلَمْ يَرِدْ لِهَذَا الْأِسْمِ صِيغَةُ
فَعْلَانِهِ فِي الْقُرْآنِ . أَمَا قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ (النحل :
6) ، فَهُوَ مَأْخُودٌ مِنْ رَاحٍ يَرُوحُ : إِذَا رَجَعَ وَهُوَ مُقَابِلٌ لِعَدَا يُعْدُو : إِذَا ذَهَبَ . وَعَلَى هَذَا أَيْضًا قَوْلُهُ
عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ غَدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحِها شَهْرٌ ﴾ (سبا : I2) .

وَلَفْظِ (الروح) وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ عَلَى عِدَّةِ مَعَانٍ ، نَذَكُرُ مِنْهَا :

- الرُّوحُ بِمَعْنَى (الحياة التي يكون بها قوام الكائنات) ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ
الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ (الإسراء : 85) ، فَسَّرَ (الروح) فِي الْآيَةِ هُنَا عَلَى أَنَّهُ الْعُنْصُرُ الْمُرَكَّبُ فِي الْخَلْقِ
الَّذِي يُحْيَا بِهِ الْإِنْسَانُ . قَالَ الشُّوكَانِيُّ : "اختلف الناس في الرُّوحِ الْمَسْئُولِ عَنْهُ ، فَقِيلَ : هُوَ الرُّوحُ

الْمَدْبَرِ لِلْبَدَنِ الَّذِي تَكُونُ بِهِ حَيَاتِهِ ، وَبِهَذَا قَالَ أَكْثَرُ الْمَفْسِرِينَ " . وَنَقَلَ الشُّوْكَانِيُّ أَقْوَالَ أُخْرَى فِي مَعْنَى
الآيَةِ ، ثُمَّ قَالَ : " وَالظَّاهِرُ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ " ، يَعْنِي مَا تَقَدَّمَ .

- الرُّوحُ بِمَعْنَى (بمعنى ملك من الملائكة) ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ﴾
(النبا : 38) ، قِيلَ فِي مَعْنَى الْآيَةِ : أَنَّهُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ . وَقَدْ نَقَلَ الطَّبْرِيُّ أَقْوَالَ أُخْرَى فِي الْآيَةِ ، بَيَّنَّ
أَنَّهُ لَمْ يُقَطَّعْ بِوَاحِدٍ مِنْهَا . وَمَالَ ابْنُ كَثِيرٍ إِلَى أَنْ يَكُونَ الْمُتَّصِدُّ بِ (الروح) فِي الْآيَةِ بَنِي آدَمَ .

- الرُّوحُ بِمَعْنَى (القرآن والوحي) ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ﴾
(الشورى : 52) ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : يَعْنِي الْقُرْآنَ . وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ يَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ
أَمْرِهِ ﴾ (النحل : 2) ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : الرُّوحُ : الْوَحْيُ .

- الرُّوحُ بِمَعْنَى (جبريل) ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ تَزَلَّهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ ﴾ (النحل : IO2) ،
يَعْنِي : جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ
بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ (البقرة : 87) ، قَالَ الطَّبْرِيُّ : الرُّوحُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ : جِبْرِيلُ .

- الرُّوحُ بِمَعْنَى (النصر) ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ (المجادلة : 22) ، قَالَ
الشُّوْكَانِيُّ : قُوَاهُمْ بِنَصْرِ مِنْهُ عَلَى عَدُوِّهِمْ فِي الدُّنْيَا ، وَسَمَّى نَصْرَهُ لَهُمْ رُوحًا ؛ لِأَنَّ بِهِ يَحْيَا أَمْرُهُمْ .
وَقِيلَ : (الروح) فِي الْآيَةِ هُنَا بِمَعْنَى : الْبُرْهَانُ .

- الرُّوحُ بِمَعْنَى (الرحمة) ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ أَنَّهُ لَا يُيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا
الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ ﴾ (يوسف : 87) ، قَالَ قَتَادَةُ : أَي : مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ . وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ :

﴿ وَكَلِمَةُ الْفَاهَا إِلَى مَرِيَمَ وَرُوحٍ مِنْهُ ﴾ (النساء : 171) ، قِيلَ فِي مَعْنَى الْآيَةِ : مَعْنَاهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ : وَرَحْمَةٌ مِنْهُ . قَالُوا : فَجَعَلَ اللَّهُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَحِمَهُ مِنْهُ عَلَى مَنْ أَتَبَعَهُ وَأَمَّنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ ؛ لِأَنَّهُ هَدَاهُمْ إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ . وَهَذَا عَلَى قَوْلٍ فِي مَعْنَى الْآيَةِ .

- الرُّوحُ بِمَعْنَى (الراحة من الدنيا) ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ ﴾ (الواقعة : 89) ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَغَيْرِهِ : فِرَاحَةٌ مِنَ الدُّنْيَا . وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ : مَعْنَاهُ الرَّاحَةُ مِنَ الدُّنْيَا ، وَالِاسْتِرَاحَةُ مِنْ أَحْوَالِهَا .

- الرُّوحُ بِمَعْنَى (القدرة الإلهية على الخلق) ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ (الحجر : 29) ، أَيْ : أَنَّ الْإِنْسَانَ مَخْلُوقٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ وَكَأَنَّ بَقْدَرَتِهِ .

هَذِهِ أَهَمُّ الْمَعَانِي الَّتِي وَرَدَتْ عَلَيْهَا لَفْظُ (الروح) فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَالْمَهْمُ فِي هَذَا السِّيَاقِ أَنْ نُدْرِكَ أَنَّ مَعْرِفَةَ حَقِيقَةِ (الروح) لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ سَبِيلِ إِلَيْهَا ، بَلْ هِيَ مِمَّا اخْتَصَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِعِلْمِهَا . وَلَعَلَّ الْحِكْمَةَ مِنْ إِخْفَاءِ عِلْمِهَا عَنِ الْمَخْلُوقَاتِ ، أَنْ يَتَأَمَّلَ الْإِنْسَانُ وَيَتَحَقَّقَ أَنَّ الرُّوحَ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ بِهَا الْحَيَاةَ وَالرَّاحَةَ وَالْقُوَّةَ وَالْقُدْرَةَ وَالْحِسَّ وَالْحَرَكََةَ وَالْفَهْمَ وَالْفِكْرَ وَالسَّمْعَ وَالْبَصْرَ . . . هِيَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، وَهُوَ يُبَاشِرُهَا وَيَعَايِشُهَا مُدَّةَ حَيَاتِهِ وَطُولِ عُمُرِهِ ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا يَصِلُ عِلْمُهُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ كُنْهِ حَقِيقَتِهَا وَدَرَكِ مَعْرِفَتِهَا ، فَكَيْفَ يَطْمَعُ فِي الْوُصُولِ إِلَى حَقِيقَةِ خَالِقِهَا وَبَارِئِهَا ، ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الأنعام : 103) .

ثَانِيًا : الْجَسَدُ (الْجِسْم)

لاشك في أن القرآن الكريم كتاب الله المعجز ، وآيته الباقية أبد الدهر ، وذروة سنام اللغة في البيان ،
 والمقام الأسمى في الفصاحة ، ودقة التعبير ، فكل لفظة فيه جاءت في موقعها السليم ، ومكانها
 المتين ، وبالتالي فلا قلق أو اضطراب في السياق ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، تكفل
 الله بحفظه إلى أن يشاء .

ولعل عدم التقريب بين الألفاظ ، وعدم الانتباه إلى استعمالها بدقة ، يعود إلى الجهل بأسرار اللغة ،
 وتفشي فساد الذوق لدى أبناء العربية ، واللباس استعمالاتها ، فالمفردة القرآنية تمتاز بالدقة في وضعها
 في مكانها الصحيح ، بحيث لا تحل محلها غيرها ، وهذا لا يتأتى إلا في الكلام المعجز عن التقص
 والشوائب ، والزلل والخطأ ، والتصحيف والتخريف ؛ أي في كلام الله تعالى فحسب .
 ويمكن أن نحصر جُملة من الخصائص ، تجعل اللفظة المعينة ، والمفردة ذاتها معجزة في سياقها ، لا
 يمكن أن تحل محلها غيرها ، وذلك بما يأتي :

1- الدقة في الوضع ، وبذلك نؤمن بأن هذا المكان كما خلق له تلك الكلمة بعينها ، وإن كلمه أخرى
 لا تستطيع توفيق المعنى الذي وقت به أحياها ، فكل لفظة وضعت لتؤدي نصيبها من المعنى أقوى أداء .

2- اتساق المفردة القرآنية مع المعنى ، وتتجاوز ذلك إلى السورة ، بل إلى القرآن كله .

3- الدقة في الوصف ، فكان الشيء الموصوف يتحرك أمامك ، تملأه عينك بكل ظلاله ، وألوانه
 وحركاته وخبوطه .

4- الدقة في الانتقاء ، أي إن اللفظة القرآنية مُخْتَارَةٌ فِي مَوْضِعِهَا وَصِيغَتُهَا فِي التَّرْكِيبِ بِفِعْلِ السِّيَاقِ ،
فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَسْتَبَدِلَ لَفْظُهُ بِلَفْظِهِ أُخْرَى ، بَلْ قَدْ انْتَقَيْتَ مِنْ بَيْنِ الْفَاطِ أُخْرَى دَعَتْ إِلَى ذَلِكَ الْاِنتِقَاءِ ،
أَوَّلَهَا تَلَاوُماً مَعَ السِّيَاقِ ، وَقَدْ تَكُونُ الْمُنَاسَبَةُ فِي ذَاتِهَا كِجْرَالَةً صِيغَتَهَا وَسِلَاسَتَهَا ، وَجَمَالَ تَرْكِيبِهَا ،
وَحُسْنَ اشْتِقَاقِهَا ، وَبَدِيعَ تَصْوِيرِهَا ، كُلُّ ذَلِكَ كَانَ دَاعِيًا إِلَى رُجْحَانِ اخْتِيَارِهَا ، وَانْتِقَائِهَا .

وَمِنْ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ لَا الْحَضِرِ - لَفْظًا (جسد / جسم) الْوَارِدَانِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَحَيْثُ
وَرَدَتْ لَفْظُهُ (جسد) أَرْبَعَ مَرَّاتٍ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ ، وَسُورَةِ طه . قَالَ تَعَالَى : « وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى
مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ » . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا
هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ » ، وَفِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ ، قَالَ تَعَالَى « وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ
الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ » . وَفِي سُورَةِ ص « وَقَدْ قَتَلْنَا سُلَيْمَانَ وَالْقَيْنَانَ عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ »
فَالْمَعْنَى فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ وَطَهُ جِسْمٌ جَامِدٌ لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ وَلَا يَتَحَرَّكُ ، بَيْنَمَا فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ
بِمَعْنَى (جسد) أَجْسَامٍ جَامِدَةٍ لَا تَأْكُلُ وَلَا تَشْرَبُ ، بَلْ أَنَاسٌ يَتَغَدَّونَ ، وَفِي سُورَةِ ص (جسد) جِسْمٌ لَا
قُدْرَةَ لَهُ عَلَى تَدْبِيرِ الْأُمُورِ .

أَمَّا لَفْظُهُ (جسم) فَقَدْ وَرَدَتْ مَرَّتَيْنِ ، الْأُولَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، فَقَالَ تَعَالَى : « قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ
عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ » وَالثَّانِيَةُ فِي سُورَةِ الْمُنَافِقِينَ ، فَقَالَ تَعَالَى : « وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ
تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ » ، فَقَدْ قَصَدَ الْجَسَدَ الْحَيَّ ؛ أَي مَالَهُ طُولٌ وَعَرْضٌ وَعُمُقٌ ، وَفِيهِ الْحَرَكَةُ وَالْحَيَاةُ
نَخْلُصُ مِمَّا سَبَقَ أَنَّ لَفْظَةَ (جسد) الْجِسْمِ الْجَامِدِ الَّذِي لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ وَلَا يَتَحَرَّكُ ، وَبِالتَّالِي لَيْسَ لَهُ
الْقُدْرَةُ عَلَى تَدْبِيرِ الْأُمُورِ ، فِي حِينِ أَنَّ لَفْظَةَ (جسم) عَكْسُ ذَلِكَ تَمَامًا ؛ أَي تَعْنِي الْجَسَدَ الْحَيَّ الَّذِي

فِيهِ حَيَاةٌ وَقُدْرَةٌ عَلَى الْفِعْلِ . وَهَذَا يُفْضِي بِنَا إِلَى التَّسْلِيمِ وَالْإِذْعَانَ عَلَى أَنَّ الْأَلْفَاظَ الْقُرْآنِيَّةَ الْفَاظَ
مَنْتَقَاةٌ وَمَخْتَارَةٌ بِعِنَايَةٍ وَدَقَّةٍ ، وَأَنَّهَا وَضَعَتْ مَكَانَهَا الصَّحِيحَ بِقَصْدٍ ، لَا كَيْفَمَا اتَّفَقَ .

ثَالِثًا الْعَقْلُ :

لَقَدْ تَحَدَّثْنَا عَنْ الْعَقْلِ فِي هَذَا الْكِتَابِ وَقُلْنَا إِنَّهُ الْأَمَانَةُ الَّتِي أُوذِعَهَا اللَّهُ فِي بُنُو آدَمَ وَدَعَاهُمْ لِلتَّعْقَلِ
وَالْتَفَكْرِ بِهَا وَبِذَلِكَ سَوْفَ يَنْجُونَ وَيَفُوزُونَ بِالْأَدْنَى وَالْآخِرَةِ وَلِأَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْقِلُونَ وَلَا يَعْلَمُونَ وَلَا
يَتَفَكَّرُونَ فَهَذَا سَيُؤَدِّي إِلَى تَبِيجَةِ مُفَادِهَا أَنَّ أَكْثَرَهُمْ قَدْ ضَاعَتْ بِهِمُ السُّبُلُ وَاخْتَلَطَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسَالِكُ
وَالطَّرِيقُ

رَابِعًا : النَّفْسُ

قَبْلَ أَنْ نَعْرِفَ بِمَاذَا تَصِفُ النُّصُوصُ الْقُرْآنِيَّةُ النَّفْسَ وَكَيْفَ نَقْرَبُنَا لِنَفْهَمَهَا أَكْثَرَ عَلَيْنَا أَنْ نَقُومَ بِجَوْلَةٍ
مَعْلُومَاتِيَّةٍ لِنَعْرِفَ مَا تَقُولُهُ الْفُلَسَفَةُ وَعِلْمُ النَّفْسِ فِي تَعْرِيفِهَا وَالْخُوصُ فِي كُنْهَيْهَا .

هُنَاكَ نَظْرِيَّتَانِ مُتَنَاقِضَتَانِ تَفْسِرَانِ فِي الْفُلَسَفَةِ تَفْسِرَانِ مَعْنَى النَّفْسِ :

أولاً : النَّظْرِيَّةُ الرُّوحِيَّةُ :

وَهِيَ النَّظْرِيَّةُ الَّتِي تَقُولُ بِوُجُودِ جَوْهَرٍ لَا مَادِيٍّ فِي الْإِنْسَانِ ، بِهِ تَتَكَوَّنُ حَقِيقَتُهُ . وَمِنَ الْفُلَاسِفَةِ الْمُحَدِّثِينَ
يُعَدُّ دِيكَارْتُ خَيْرٌ مِنْ يُمَثِلُ الرُّوحِيِّينَ . يَقُومُ مَذْهَبُ دِيكَارْتِ فِي النَّفْسِ ، عَلَيَّ التَّمْيِيزِ الْحَاسِمِ بَيْنَ
الْجِسْمِ وَالنَّفْسِ ، وَالتَّأَكِيدِ عَلَيَّ أَنَّ لِكُلِّ مِنْهُمَا خَصَائِصَهُ الْمُمَيِّزَةَ . فَالْجِسْمُ ، هُوَ كُلُّ مَا يُمَكِّنُ تَحْدِيدَهُ
بِشَكْلِ ، وَالَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يَحْتَوِيَهُ مَكَانٌ ، وَيَشْغَلُ حَيْزًا فِي الْفَرَاغِ ، بِحَيْثُ يَبْعُدُ عَنْهُ أَيُّ جِسْمٍ آخَرَ ،
وَهُوَ الَّذِي يُدْرِكُ بِأَحَدِي الْحَوَاسِ الْخَمْسِ أَوْ أَكْثَرَ . وَيُمْكِنُ تَحْرِيكَ الْإِلَى جِهَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، وَحَرَكَتِهِ هَذِهِ

لَيْسَتْ نَابِعَةٌ مِنْ ذَاتِهِ ، بَلْ طَارِئَةٌ عَلَيْهِ مِنَ الْخَارِجِ ، لِأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ الْإِعْتِقَادَ بِأَنَّ حَرَكَةَ الْجِسْمِ ، حَرَكَةَ ذَاتِيَّةً نَابِعَةً مِنْ طَبِيعَةِ الْجِسْمِ . فِي حِينِ أَنْ النَّفْسَ لَا تَتَّصِفُ بِكُلِّ هَذِهِ الصِّفَاتِ ، وَإِنَّمَا تَتَّسِمُ بِسُمِّهِ اسَاسِيَّةٍ ، إِلَّا وَهِيَ التَّفَكِيرُ وَفِي تَفَرُّقِهِ أُخْرِي بَيْنَ الْجِسْمِ وَالنَّفْسِ ، يَذْهَبُ دِيكَارْتُ إِلَى أَنَّ الْجِسْمَ لَا يُتَّصَرُّ إِلَّا مُتَّسِمًا إِذْ مِنْ الْمُسْتَطَاعِ تَصَوُّرُ النِّصْفِ لِأَصْغَرِ الْأَجْسَامِ ، بَيْنَمَا النَّفْسُ لَا تُتَّصَرُّ مُتَّسِمَةً ، فَلَا يُمَكِّنُنَا تَصَوُّرُ نِصْفِ نَفْسِ الْبَتَّةِ ، وَهَذَا رَاجِعٌ أَيْضًا إِلَى مَادِيَّةِ الْجِسْمِ وَرُوحَانِيَّةِ النَّفْسِ . وَبِإِجَازٍ شَدِيدٍ ، فَالْمَادَةُ عِنْدَ دِيكَارْتِ شَيْءٌ مُتَّدٌّ لَا مُفَكَّرَ ، فِي حِينِ أَنَّ النَّفْسَ شَيْءٌ مُفَكَّرٌ لَا مُتَّدٌّ .

ثَانِيًا : النَّظَرِيَّةُ الْمَادِيَّةُ :

النَّظَرِيَّةُ الْمَادِيَّةُ فِي النَّفْسِ ، هِيَ عَلَيَّ النَّفِيسُ مِنَ النَّظَرِيَّةِ الرُّوحِيَّةِ ، تُشْكِرُ وُجُودَ جَوْهَرٍ مُجَرَّدٍ فِي الْإِنْسَانِ ، وَتُفَسِّرُ الْحَيَاةَ التَّفْسِيَّةَ ، تَفْسِيرًا أَلِيًّا مُحْضًا . وَهَذِهِ النَّظَرِيَّةُ قَدِيمَةٌ ، ظَهَرَتْ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ لَدَيِ قَدَمَاءِ الْإِغْرِيْقِ ، حَيْثُ اشْتَهَرَ بِهَا الذَّرِيُونُ مِثْلُ : لُوقِيْبِيُوسِ وَيُوقْرِيْطُسِ ، فِي الْفَرْتَيْنِ الرَّابِعِ وَالْخَامِسِ قَبْلَ الْمِيلَادِ ، وَعَبَّرَهُمْ مِنْ الْمَادِيْنَ ، الَّذِينَ عَرَفُوا بِأَرَائِهِمُ الْمَادِيَّةَ فِي تَفْسِيرِ الْحَيَاةِ وَفِي طَبِيعَةِ النَّفْسِ . إِلَّا أَنَّ هَذِهِ التَّرْجَعَةَ الْمَادِيَّةَ ، انْحَسَرَتْ بِظُهُورِ كِبَارِ فَلَاسِفَةِ الْيُونَانِ ، كَسُقْرَاطِ وَمَنْ بَعْدَهُ أَفْلَاطُونُ وَارِسْطُو .

الْأَرَاءُ الْعَلَمِيَّةُ فِي مَعْرِفَةِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ

أَنَّ الْعِلْمَ بِالطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ هُوَ أَكْثَرُ الْعُلُومِ نَفْعًا وَأَشَدُّهَا تَأْثِيرًا عَلَى الْإِنْسَانِ وَأَقْوَاهَا تَحْسِينًا لِحَيَاتِهِ وَإِنْ الْجَهْلُ بِالطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ هُوَ أخطرُ أَنْوَاعِ الْجَهْلِ وَأَكْثَرُهَا ضَرَرًا عَلَى حَيَاةِ الْإِنْسَانِ الْفَرْدِيَّةِ وَالْجَمَاعِيَّةِ حِينَ عُرِفَ الْإِنْسَانُ طَبِيعَةَ الْكُونِ وَأَدْرَكَ قَوَانِينَ الْحَرَكَةِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَسْخَرَ الْأَشْيَاءَ وَإِنْ يُفْجِرُ الطَّاقَاتِ الْهَائِلَةَ الْمَذْخُورَةَ فِي الطَّبِيعَةِ وَإِنْ يُخْتَرِعُ الصَّوَارِيخَ وَالْأَقْمَارَ الصَّنَاعِيَّةَ وَالْمُرَكَّبَاتِ الْفَضَائِيَّةَ وَقَبْلَ ذَلِكَ

اخترع الطائرات والسيارات والطائرات وتعددت ابتكاراته إلى درجة لم يكن أحد في العصور الماضية يستطيع أن يتخيل شيئاً منها فما حققه الإنسان بعد أن فهم طبيعة الكون واكتشف قوانينه لم يكن يخطر على بال إنسان ولكن الإنسانيّة التي حققت كل هذه الإنجازات والابتكارات ما زالت تجهل ذاتها ، أما الذي عرفته عن هذه الذات فقد بقي محصوراً بعلماء النفس وبالمهتمين بهذا الجانب الأساسي من المعرفة الإنسانيّة ولم يصبِح هذا العلم الأساسي ثقافة عامة مُشاعة لكل الناس مع أن الحاجة ماسة لتعميمه فعلم الطبيعة البشريّة هو كلوح الإنسان ودليل الذات ومرشد النفس ولكن الناس لا يملكون بعد كلوجاً يُرشدهم إلى كيفية تشغيل عقولهم وكشف عُيوبهم والتعرف على طاقاتهم الكامنة وكما يقول وولد مار كمفرت في كتابه (فتوحات علمية) : " . . . الدراسة الحقيقيّة يجب أن تُنصب على الإنسان ذاته فالعلم لم يزل بعد في أولى أطواره البدائيّة فهو لا يعلم عن هذا المخلوق الذي هو أهم وأثن شيء في الكون إلا أقل كثيراً مما يعلم عن الذرة أن العلم يحتاج إلى تهضة أخرى ربّما يُنبج فجرها في قرن آخر من الزمان وحين يحدث ذلك فإن العلم سوف يُوجّه من الجهود لبحوث الإنسان : قدراته وقائمه ما لا يقل عن الجهود التي يُوجّهها للبلاستيك والعقاقير ففي الماضي مكن العلم الإنسان من أن يغزو بيته وعليه الآن أن يُميط اللثام عن الدوافع التي تكمن وراء تصرفاته وسلوكه ويريه كيف يغزو نفسه ويعرف على مجاهلها . . . " لقد تقدّم بعد ذلك علم النفس ولكن المُعضلة الكبرى ليست في قُصور العلوم المُعلّقة بالإنسان فقد حققت هذه العلوم تقدماً عظيماً لكننا ما زلنا مأخوذين بأساليب التعليم القديمة فنحن نهم بدراسة الجغرافيا والتاريخ والشعر والبلاغة وغير ذلك من المعارف الكمالية التي قد لا يحتاج إليها مُعظم الدارسين طول حياتهم وبالمقابل لا تُعبر تعريف الإنسان بنفسه أي اهتمام فبقينا نجهل أهم ما يجب أن نعرفه . . .

وَيَقُولُ عَالِمُ النَّفْسِ الْأَمْرِيكِيُّ الشَّهِيرُ إِبْرَاهَامَ ماسلو: " . . . فِي يَقِينِي أَنْ مَوْقِعَ عُلَمَاءِ النَّفْسِ فِي عَالَمِ الْيَوْمِ مِنْ أَهَمِّ الْمَوَاقِعِ وَأَهْمَهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ . . . أَوْكَدَ هَذَا لِأَنَّ كُلَّ الْمُعْضَلَاتِ الَّتِي تَوَاجَهَ الْبَشَرِيَّةَ الْيَوْمَ مِنْ حَرْبٍ وَسِلَاحٍ وَنِظَامٍ وَفَوْضَى وَاسْتِغْلَالٍ وَنَاحٍ وَفُهُمٍ وَسَوْءٍ فَهْمٍ وَسَعَادَةٍ وَشِقَاءٍ وَحُبِّ وَكَرَاهِيَّةٍ جَمِيعِهَا يَكُنُّنَ حِلْهَا فِي ضَوْءِ فَهْمِ الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ فَهْمًا جَيِّدًا وَإِلَى هَذَا الْهَدَفِ تَتَّجِهُ وَظِيفَةُ عِلْمِ النَّفْسِ بِكَامِلَةٍ وَبِذَاتِهِ . . . " ، فَإِذَا كَانَ كُلُّ الْبَشَرِ يَسْتَفِيدُونَ مِنْ نَتَائِجِ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ وَالْعُلُومِ الرِّيَاضِيَّةِ وَالْعُلُومِ الْحَيَاةِ وَالْعُلُومِ الطَّبِّ وَإِذَا كَانَ جَهْلُهُمْ بِهَذِهِ الْعُلُومِ لَا يُؤَثِّرُ تَأْثِيرًا مَبَاشِرًا عَلَى تَفْكِيرِهِمْ وَسُلُوكِهِمْ وَأَوْضَاعِهِمْ الْفَرْدِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ فَإِنَّ جَهْلَهُمْ بِطَبَاعَتِهِمْ تُنْتِجُ عَنْهُ أَوْحَمَ الْعَوَاقِبِ وَلَيْسَتْ الصَّرَاعَاتُ وَالْحُرُوبُ وَالْكَرَاهِيَّاتُ وَالنَّخْلُفُ سَوَى بَعْضِ هَذِهِ النَّتَائِجِ الْمَدْمُورَةِ . . .

وَرَعْمَ هَذِهِ الْأَهْمِيَّةِ الْحَيَوِيَّةِ فَإِنَّ الدَّارِسِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ يَعْرِفُونَ عَلَى شَتَّى التَّفَاصِيلِ عَنِ الْحُرُوبِ وَالْمُحَارِبِينَ وَعَنِ الْقَتْلِ وَالْقَاتِلِينَ وَعَنِ الْجِبَالِ وَالْأَوْدِيَةِ وَالْأَنْهَارِ وَالصَّحَارِي وَالسُّهُولِ وَالتَّضَارِيسِ الْأَرْضِيَّةِ وَعَنِ السُّكَّانِ وَالسَّاكِنِينَ وَعَنِ الْمُدُنِ وَالْقُرَى وَعَنِ تَفَاصِيلِ شَتَّى لَا يَصُرُّهُمْ الْجَهْلُ بِهَا وَلَكِنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ شَيْئًا عَنِ الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَهَمُّ الْمَعَارِفِ وَهَذِهِ مِنْ أَكْبَرِ الْفَجَوَاتِ الْمَعْرِفِيَّةِ فِي الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ .

وَيَقُولُ الْمَفْكَرُ الْأَمْرِيكِيُّ أَمْرَسُون: " . . . الْغُرُضُ مِنَ الْحَيَاةِ هُوَ تَعْرِيفُ الْإِنْسَانِ بِنَفْسِهِ . . . " .
وَيَقُولُ: " . . . إِنِّي لِأَجِثُ فِي دَخِيلَةِ نَفْسِي فَهَنَّاكَ أَرْكَزَ ذَهْنِيَّي وَأَسْتَحْدَمُهُ أَنْ كُلَّ إِنْسَانٍ يُنْظَرُ أَمَامَهُ أَمَا أَنَا فَانْظُرْ فِي أَعْمَاقِ نَفْسِي فَلَا عَمَلَ لِي غَيْرَ ذَاتِيَّي فَاأَنَا مَشْغُولٌ بِهَا أَبَدًا أَفْكَرُ بِهَا وَأَدُورُ حَوْلَهَا وَلَا يَخْلُو لِي شَيْءٌ غَيْرُ تَأْمَلِهَا . . . " أَنْ مَعَارِفِ الْإِنْسَانِ تَبْقَى كَلِيلَةً وَنَاقِصَةً لَوْ عَرَفَ كُلُّ شَيْءٍ وَلَمْ يَعْرِفْ

ذَاتِهِ فَمَنْ الذَّاتُ تَتَّبِعُ الْخَيْرَاتِ وَمِنْهَا تَجِيشُ الشُّرُورِ وَيَتَضَاعَفُ الضَّرَرُ حِينَ يُتَوَهَّمُ النَّاسُ إِنَّهُمْ يَعْرِفُونَ
أَنْفُسَهُمْ بَيْنَمَا هُمْ غَارِقُونَ فِي جَهَالَةٍ عَمِيَاءٍ بِالنَّسْبَةِ لذَوَاتِهِمْ . .

ويتساءل الأستاذ فتحي رضوان في كتابه (أسطورة حب) : ما هو هذا الإنسان ؟ . . هل عرفناه أو
هل عرفنا أنفسه ؟ ؟ ثم يجيب : أنه لا يزال عند نفسه اللغز الأكبر فهو ينطوي على الكثير من
المتناقضات فقد خرج من صفوف البشرية : الأنبياء فحاضوا وحاض معهم الناس معارك هائلة وقفوا
فيها صفاً ووقفت قوى أخرى في الناحية المقابلة تقابلهم في إصرار وشدة بأس وخرج من صفوف
البشرية مفكرون وفنانون وعلماء وارتفع على معارج من الاستشهاد والطموح قديسون وإبرار والناس
جيلاً بعد جيل وعهداً بعد عهد يتحدثون عن الحب والسلام ويعلنون من شأن الفن ويحرقون البحور
للعلم ويعلنون الولاء للعقل ولكن هذا هو الجانب المضيء من حياة الإنسان إما سوءاته فلا تقف عند
حد فهدا الإنسان نفسه لا يكف أبداً عن هدم ما بناه وتقض ما أبرمه وتلوث ما قدسه وإنكار ما دعا
إليه فهو في معركة دائمة مع نفسه ومع غيره مع الذين سبقوه والذين عاصروه وأحياناً مع الذين سيأتون
بعده وهو على فرط حيويته وشدة احتماله وتوشه لمنازلة الصعاب وتطلعه للمجهول واستهدافه للمخاطر
واستعدابه للآلام : لا يشتد نشاطه ولا يلهب خياله ولا تتسع طاقته ولا يبلغ صبرة أقصى مداه إلا إذا
تحركت فيه أسوأ عناصر نفسه فهو عند القتال وفي الحروب عند احتدام الغضب والرغبة في الثأر
تبلغ قوته أقصى الغاية ففي الساعات الحالكة يقبل بطيب نفس وسماحة أن يهدم داره ويتم أطفاله
ويحرب أعز ما يملك يحرق التحف الغالية وينسف كل ما بناه في عشرات السنين ومئاتها بل وآلافها
ويلقي في أتون النار المشتعلة بذخائره ونفائسه وهي عنده - في وقت السلام - أعز عليه وأعلى عنده

مِنْ نُورِ عَيْنَيْهِ وَالرُّوحِ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْهِ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَيْسَ مَوْفِقِينَ كَرِيمٍ الْخَلْقِ وَلَكِنَّهُ يَهْبُطُ
 حَتَّى يَتَمَرَّغَ فِي الْأَوْحَالِ وَهُوَ فِي حَالَةِ السُّمُومِ مَعْرُضٌ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ لِلْهَبُوطِ كَمَا أَنَّ فِي هُبُوطِهِ قَدْ تَتَحَرَّكُ
 فِيهِ نَوَازِعُ الْخَيْرِ فَيُضْحِي بِرُوحِهِ مِنْ أَجْلِ رَفْعِ الظُّلْمِ أَوْ إِفْرَارِ الْعَدْلِ أَوْ نَجْدَةِ الْمَكْرُوبِ فَالْإِنْسَانُ سَوَاءٌ
 كَانَ يُغْلَبُ عَلَيْهِ الْخَيْرُ أَمْ يُرَجَّحُ فِيهِ جَانِبُ الشَّرِّ لَا يَبْقَى عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ وَإِنَّمَا هُوَ كَأَنَّ مَتَقَلَّبٌ وَغَرِيبٌ
 الْأَحْوَالِ فَهُوَ حَلِيطٌ مِنَ الذِّكَاةِ وَالْغَبَاءِ وَهُوَ مَزِيجٌ مِنَ الرِّزَانَةِ وَالْحِمَاقَةِ وَهُوَ أَمْشَاجٌ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَهُوَ
 تَعَاقِبٌ مِنَ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ وَهُوَ تَذَدْبُذِبٌ بَيْنَ الصُّعُودِ وَالْهَبُوطِ فَمَا تَكَادُ تَبْهَجُ بِإِنجَازَاتِهِ حَتَّى تَهْلِكَ تَهَوُّرَاتِهِ
 وَمَا تَكَادُ تَسْلَمُ بِنُضْجِ تَفْكِيرِهِ وَارْتِقَاءِ سُلُوكِهِ حَتَّى يَفَاجِئَكَ بِفَجَاجَتِهِ وَرِعُونَةَ سُلُوكِهِ فَيَأْتِيكَ مِنْ مَخْلُوقٍ
 مُخَيَّرٍ وَكَمَا يَقُولُ فَتْحِي رِضْوَانٍ : " . . . أَنَّ الْبَحْثَ عَنِ الْإِنْسَانِ وَكَشْفَ غَوَامِضِهِ وَتَفْسِيرَ
 بَوَاعِيهِ . . . أَنَّ النَّظَرَ فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ وَعَقْلِهِ وَالتَّأَمُّلَ فِيمَا يَقُولُ وَفِيمَا يَفْعَلُ وَالْإِعْجَابَ بِهِ طَمُوحاً
 مُضْحِياً مُتَعَالِياً عَنِ الْعُنْفِ وَالرِّثَاءِ لَهُ وَهُوَ يَنْحَنِي تَحْتِ ثِقَلِ شَقَوَاتِ بَدَنِهِ وَأَحْقَادِهِ وَمَخَافِهِ
 وَأَوْهَامِهِ . . . أَنَّ السَّيْرَ مَعَ الْإِنْسَانِ فِي سِرَادِيْبِ حَيَاتِهِ الْمُظْلِمَةِ الْمُعْتَمَةِ سِرَادِيْبِ التَّأَمُّرِ وَالْإِعْتِدَاءِ
 وَالْحَقْدِ عَلَى الْغَيْبِ وَالْخَوْفِ مِنْهُمْ وَالتَّحْلِيْقِ مَعَهُ فِي أَجْوَاءِ تَحَرُّرِهِ وَسَبْحَاتِ تَطْلُعِهِ إِلَى مَا هُوَ أَعْلَى وَأَنْبَلُ
 وَتَقَى وَالطَّفِ .

فَأَيْنَ تَكْمُنُ طَبِيعَةُ الْإِنْسَانِ فَهَلْ هُوَ عَقْلٌ أَمْ جَسَدٌ أَمْ هُمَا مَعاً وَهَلْ جَوْهَرُهُ فِي مظهرَةٍ أَمْ فِي مَا خَفِيَ مِنْهُ
 وَهَلْ مَا خَفِيَ يَعْمَلُ فِي عَزْلِهِ عَنْ مظهرَةٍ وَهَلِ الْمَظْهَرُ وَالْمُخْبِرُ يَبَادِلَانِ التَّأَثُّرَ وَالتَّأَثِيرَ أَمْ أَنَّ التَّأَثِيرَ يَأْتِي مِنْ
 جَانِبِ وَاحِدٍ وَأَيُّ الْجَانِبَيْنِ أَكْثَرُ تَأَثِراً وَهَلِ الطَّبِيعَةُ الْبَشَرِيَّةُ عِنْدَ الْوِلَادَةِ مُجَرَّدٌ قَابِلِيَّةٌ وَتَتَحَدَّدُ بِالتَّشْئَةِ
 وَالظُّرُوفِ وَهَلِ التَّشْئَةُ تَخْلُقُ طَبِيعَةً ثَابِتَةً ثُمَّ هَلِ هِيَ طَبِيعَةٌ مُتَوَقِّفَةٌ وَثَابِتَةٌ أَمْ نَامِيَّةٌ وَمُتَغَيِّرَةٌ وَكَيْفِ

يُكْسِبُ الْإِنْسَانُ مَعْرِفَتَهُ وَمَا هُوَ مَعْيَارُ التَّحَقُّقِ مِنْ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ وَلِمَاذَا هُوَ دَائِمًا يَكُونُ مُقْتَعًا بِمَا اسْتَقَرَّ فِي ذَهْنِهِ وَيَسْتَنْكَرُ قِنَاعَاتِ الْآخَرِينَ وَمَا هِيَ طَبِيعَةُ الْعُقْلِ وَهَلْ لَهُ طَبِيعَةٌ وَاحِدَةٌ أَمْ لَهُ طَبَائِعٌ مُتَعَدَّةٌ .

بِمَقْدَارِ تَعَدُّدِ الثَّقَافَاتِ وَمَا هِيَ الدَّلَالَةُ الْكُبْرَى الَّتِي تُشِيرُ إِلَيْهَا حَقِيقَةُ التَّبَاطُئِ الثَّقَافِي بَيْنَ الْأُمَّمِ وَهَلْ لِكُلِّ أُمَّةٍ عَقْلٌ خَاصٌّ بِهَا أَمْ الْعَقْلُ الْبَشَرِيُّ جَوْهَرٌ ثَابِتٌ لَا يَتَوَعَّجُ وَهَلْ الْأَصْلُ فِي الْإِنْسَانِ أَنَّهُ خَيْرٌ أَمْ شَرِيرٌ أَمْ هُوَ قَابِلٌ لِاتِّجَاهَاتِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ (وهديناه النجدين) وَهَلْ يُوجَدُ فِي الدُّنْيَا خَيْرٌ مَحْضٌ أَوْ شَرٌّ مَحْضٌ أَمْ أَنَّ مَبْدَأَ التَّرْجِيحِ هُوَ مَعْيَارُ الْحُكْمِ عَلَى الْأَشْيَاءِ وَالْأَشْخَاصِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَفْكَارِ وَهَلْ يُمَكِّنُ لِوَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَبْلُغَ الْكَمَالَ فِي الْعِلْمِ وَالصَّلَاحِ أَمْ هُوَ كَمَالٌ نَسْبِيٌّ وَصَلَاحٌ نَسْبِيٌّ وَإِنْ الْكَمَالُ مُحَالٌ عَلَى الْبَشَرِ وَمَاذَا يَتَرْتَّبُ عَلَى إِدْرَاكِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَهَلْ النَّاسُ يَعُونَ هَذِهِ التَّسْبِيبَةَ وَيَخْضَعُونَ أَحْكَامِهَا لَهَا أَمْ يُغْفَلُونَ عَنْ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ الْأَسَاسِيَّةِ وَيَقْدَسُونَ مِنْ هُمْ مُعْرِضُونَ لِمَا يَتَعَرَّضُ لَهُ الْبَشَرُ مِنَ التَّقَاصِ وَالْأَخْطَاءِ وَالْهَفْوَاتِ وَكَيْفَ يُحْكَمُ عَلَى الْفَرْدِ بِأَنَّهُ عَالِمٌ مَعَ أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ سِوَى جُزْءٍ يَسِيرٍ مِمَّا تَعْرِفُهُ الْبَشَرِيَّةُ كَكُلِّ فَضْلًا عَمَّا يَجِبُ مَعْرِفَتُهُ مِمَّا يَتَرْتَّبُ عَلَى الْمَسْئُولِيَّةِ الَّتِي حَمَلَهُ اللَّهُ إِيَّاهَا : . . . إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا . . . ، وَمَا هُوَ دُورُ الْأَهْوَاءِ وَالْغَيْرَةِ وَالْحَسَدِ وَالنَّفَاسِ وَاللَّذَّةِ وَاللَّهْمِ وَالْحَبِّ وَالْكُرْهِ وَالْحَالَةَ الْمَزَاجِيَّةِ الْمُتَقَلِّبَةَ مَا هُوَ دُورٌ كُلُّ هَذِهِ الْأَقَاتِ الْوَبَائِيَّةِ فِي تَقْيِيمَاتِ وَأَحْكَامِ النَّاسِ عَلَى الْأَعْمَالِ وَالْأَشْخَاصِ وَالْأَشْيَاءِ وَالْأَفْكَارِ وَالْأَخْدَاثِ وَالْمَوَاقِفِ وَمَا هُوَ دُورُهَا فِي تَوْجِيهِ تَفْكِيرِهِمْ وَتَحْدِيدِ سُلُوكِهِمْ وَأَيُّهَامَا يَتَغَلَّبُ فِي الْإِنْسَانِ الْعَقْلُ أَمْ الْعَاطِفَةُ فِي تَوْجِيهِ حَيَاتِهِ وَهَلِ الْفَرْدُ يَصُوغُ نَفْسَهُ أَمْ يَصُوغُهُ غَيْرُهُ وَهَلْ بَاسِطَاعَتِهِ أَنْ يَسْتَعِيدَ فَرْدِيَّتَهُ وَيُعِيدَ صِيَاغَةَ ذَاتِهِ حِينَ يُكْبِرُ أَمْ يَظَلُّ مَاسُورًا بِالْبُرْجَةِ الثَّقَافِيَّةِ الَّتِي نَشَأَ عَلَيْهَا وَتَشْرَبْتَهَا نَفْسُهُ وَامْتَرَجَ بِهَا كِيَانَهُ وَاخْتَلَطَ بِهَا لَحْمِهِ وَدَمِهِ . . . ؟ ؟

أَنَّهَا تساؤلات كثيرة لا تكاد تنتهي لكن رغم هذا الاتساع الهائل لهذه التساؤلات حول الطبيعة البشرية فإن
 فعاليات الإنسان العلمية والعملية والاجتماعية والحضارية تتوقف على معرفة الإجابات الصحيحة لهذه
 التساؤلات الجوهرية أن الإنسان مخلوق معقد الكيان ويجمع بداخله أشد التناقضات ومن هنا جاءت
 العتبات الكثيرة التي جعلت فهم طبيعته من أصعب الإدراكات التي لا غنى عنها ، وكما يقول السير آرثر
 كيت : " . . . وليس في استطاعتنا أن تبين حقيقة العناصر المعقدة المتنافرة التي تتألف منها
 الطبيعة البشرية وليس ثمة ما يحير الفلاسفة أكثر من طبيعة الإنسان من تناقضات فالحب والبغض
 والقسوة والرحمة والأمل واليأس والشجاعة والجبن كل هذه ترى في الفرد الواحد ترى الإيمان والثقة
 المتبادلة يتعاقبان في النفس الواحدة مع الزينة والخيانة وترى الغيبة والأثرة الكاملة تظهرا في أثر
 الإحسان وكرم السجايا والمراء يكون في لحظة ما مؤدبا دمث الأخلاق ولكنه يتقلب فظا وقحا في
 لحظة أخرى وتراه في الوقت عينه مصدقا ومرتابا كما تراه في ظروف خاصة يقتل ويسطو ويسرق
 ويخرب على كل الوصايا وترى الإنسان نفسه في ظروف أخرى يهب للمعوز والفقير ويضحى بحياته
 لعدوان وقع على الضعيف . . " لذلك فإن الحكم على الإنسان يتقوى مرتين بمبدأ الترجيح فحين
 يوصف المرء بأنه عالم فإن هذا الوصف محصور بأنه عالم بشيء وليس عالما بكل شيء وهو قد
 يكون ناضجا ودقيقا في المجال الذي اهتم به لكنه يكون فجاء وساذجا في المجالات الأخرى التي لم
 يحضها قدرا كافيا من الاهتمام وحتى في مجاله الضيق لا يكون الصواب مضمونا دائما وإنما هو بشر
 يخطئ ويصيب حتى فيما ركز عليه اهتمامه . .

وَكذلكَ حِينَ يُوصَفُ إنسانٌ بأنه خَيْرٌ فَإِنَّ ذلكَ لا يَعْنِي أَنَّهُ صارَ مِنَ الملائكةِ لا يَجْهَلُ ولا يَجُورُ ولا يَعْتَدِي
 ولا يُخْطِئُ ولا يَنْسى ولا يَسْهُو ولا يَمِيلُ ولا يَضْعُفُ تَحْتَ ضَغْطِ الرَغْبَةِ أو الرَهْبَةِ وإِنَّمَا يَعْنِي ذلكَ أَنَّ
 الخَيْرَ يَغْلِبُ عَلَى تَفْكِيرِهِ وَسُلُوكِهِ وَأَعْمَالِهِ فَالخَيْرُونَ فِيهِمْ تَقَائِصٌ وَلَهُمْ هَفَوَاتٌ وَبالمقابلِ فَإِنَّ الإنسانَ حِينَ
 يُوصَفُ بأنه شَرِيرٌ لا يَعْنِي ذلكَ أَنَّهُ شَرٌّ مُطْلَقٌ وإِنَّمَا يَعْنِي أَنَّ الشَّرَّ يَغْلِبُ عَلَى تَفْكِيرِهِ وَسُلُوكِهِ وَأَعْمَالِهِ
 فالأشْرارُ أحياناً كَثيرةٌ يَكُونُونَ بارينَ بوالديهِم وَلَهُمُ أَعْمالٌ خَيْرَةٌ ولا يَخْلُونَ مِنْ عَوَاطِفِ نَبِيلَةٍ مِثْلِ الحُبِّ
 وَالْبَرِّ وتنبعثُ مِنْهُمُ أحياناً إِشراقاتٌ نافِعةٌ وخَيْرَةٌ لَكِنْ رَغِمَ ذلكَ فَإِنَّ جَانِبَ الشَّرِّ فِيهِمْ يَغْلِبُ جَانِبَ
 الخَيْرِ لِذلكَ يُوصَفُونَ بِأَنَّهُمُ أَشْرارٌ فَالحُكْمُ عَلَى الفُرْدِ وتَقْيِيمُ فَكْرِهِ وَسُلُوكِهِ وَأَفْعَالِهِ يَقُومُ عَلَى المُوازَنَةِ بَيْنَ
 خِصَالِ الخَيْرِ وَخِصَالِ الشَّرِّ فَإِذا كانَتْ مَزايَاها أَرْجَحُ مِنْ تَقَائِصِها عُدَّ مِنَ الأَخيارِ وَبالمقابلِ يُحْكَمُ عَلَى
 المُرءِ بأنه مِنَ الأَشْرارِ إِذا كانَتْ سِوَأُها تَرْجَحُ بِفَضائِلِها ولا يُوجَدُ فِي النَّاسِ مِنْ هُوَ خَيْرٌ مَحْضٌ وَكاملٌ
 كمالاً مُطلقاً كما أَنَّهُ لا يُوجَدُ فِيهِمْ مَنْ يَخْلُو مِنْ نِوازِعِ الخَيْرِ وتَعدَمُ لَدَيْهِ الفُضائلُ وَقَدْ أَجادَ المُبدِعُ
 الروسي دُوستويفسكي فِي رِوَايَةِ (الجُرَيْمَةُ والعِقابُ) فِي تَصْويرِ تَعاقِبِ الخَيْرِ وَالشَّرِّ واجْتِماعِ الضَّعْفِ
 وَالقُوَّةِ وَتَداعُلِ التُّبْلِ والوَضاعَةِ فِي النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ وَمِمَّا مِنْ تَصَرُّفِ حَسَنِ أَوْ سَيِّئِ إِلا وَلَهُ تَبَرِيرٌ عِنْدَ
 فَاعِلِهِ لِذلكَ لا يَكُونُ الصَّلاحُ بِقَتْلِ الأَهْواءِ وَالرَّغباتِ وَإِنَّمَا يَكُونُ بِتَحْويلِ مَجْراها وَالإِرتِقاءِ بوسائِلِها وإِعلاءِ
 أَهدافِها وَبالتَّنشئةِ عَلَى أَهْواءِ الخَيْرِ وَرغباتِ البَرِّ ومِباهِجِ الإِحْسانِ وَنِوازِعِ الشَّرِّ .

حَقِيقَةُ النَّفْسِ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ وَمَعانِيها

قَبْلَ الحَدِيثِ عَنِ النَّفْسِ كما هُوَ مُطْلَبُ البَحْثِ هُنا ، نُشيرُ أولاً إِلى تَعريفِ النَّفْسِ فِي اللُّغَةِ
 وَالإِصْطِلاحِ ، وَقَدْ ذَكَرَ أَهْلُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ لِلنَّفْسِ كَثيراً مِنَ المَعانِي ، بَعْضُها لَهُ صِلَةٌ بِما أُرِيدُ الإِشارةَ

إِيَّاهُ ، وَهُوَ الْحَدِيثُ عَنِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي تَكُونُ الشَّخْصِيَّةَ وَتُؤَثِّرُ فِي سُلُوكِهَا ، وَبَعْضُهَا الْآخِرُ بَعِيدٌ
عَمَّا وَدِدْتُ الْإِشَارَةَ إِلَيْهِ ، وَسَوْفَ أَكْتُفِي هُنَا بِذِكْرِ بَعْضِ هَذِهِ الْمَعَانِي تَحْتَ الْعِنُونِ التَّالِيِ :

النَّفْسُ بَيْنَ اللُّغَةِ وَالِاصْطِلَاحِ وَالْفَاطِظِ الْقُرْآنِ :

بَعْضُ تَعْرِيفَاتِ النَّفْسِ فِي اللُّغَةِ :

أولاً : النَّفْسُ بِمَعْنَى الرُّوحِ ، يُقَالُ : خَرَجَتْ نَفْسُ فُلَانٍ ؛ أَي : رُوحَهُ وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ : فَاضَتْ نَفْسُهُ ؛ أَي :
خَرَجَتْ رُوحُهُ .

ثانياً : النَّفْسُ بِمَعْنَى "حَقِيقَةِ الشَّيْءِ وَجُمْلَتِهِ ، يُقَالُ : قُتِلَ فُلَانٌ نَفْسَهُ ؛ أَي : ذَاتَهُ وَجُمْلَتَهُ ، وَأَهْلَكَ
نَفْسَهُ ؛ أَي : أَوْقَعَ الْإِهْلَاكَ بِذَاتِهِ كُلِّهَا [3] ، وَمِنْهُ قَوْلُ صَاحِبِ الصَّحَاحِ "والتكبر : هُوَ أَنْ يَرَى الْمَرْءُ
نَفْسَهُ أَكْبَرَ مِنْ غَيْرِهِ" ؛ أَي : ذَاتَهُ [4] .

ثالثاً : النَّفْسُ بِمَعْنَى "الحسد ، وَالْعَيْنِ ، يُقَالُ : أَصَابَتْهُ نَفْسٌ ؛ أَي : عَيْنٌ [5] ، وَالنَّافِسُ الْعَائِنُ .

رابعاً : النَّفْسُ بِمَعْنَى الدَّمِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا فُقِدَ الدَّمُ مِنَ الْإِنْسَانِ فَقَدْ نَفْسَهُ ؛ أَوْلَانِ النَّفْسُ تَخْرُجُ
بِخُرُوجِهِ ، يُقَالُ : سَأَلَتْ نَفْسَهُ ، وَفِي الْحَدِيثِ : ((مَا لَيْسَ لَهُ نَفْسٌ سَائِلَةٌ لَا يُنْبَسُ الْمَاءُ إِذَا مَاتَ
فِيهِ)) [6] .

خامساً : النَّفْسُ مَا يَكُونُ بِهِ التَّمْيِيزُ ، وَالْعَرَبُ قَدْ تُجْعَلُ النَّفْسُ الَّتِي يَكُونُ بِهَا التَّمْيِيزُ نَفْسَيْنِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ
النَّفْسَ قَدْ تَأْمَرُهُ بِالشَّيْءِ وَتَنْهَى عَنْهُ ، وَذَلِكَ عِنْدَ الْإِقْدَامِ عَلَى أَمْرٍ مَكْرُوهٍ ، فَجَعَلُوا الَّتِي تَأْمَرُهُ نَفْسًا ،
وَجَعَلُوا الَّتِي تَنْهَاهَا كَانَتْهَا نَفْسٌ أُخْرَى [7] .

سادسًا : النَّفْسُ بِمَعْنَى الْأَخِ [8] ، وَشَاهِدُهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ فَسَلِّمُوا عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ﴾ [النور : 61] .

وَجَمَعَ النَّفْسُ : أَنْفُسٌ وَنُفُوسٌ ، أَمَّا النَّفْسُ ، فَهِيَ خُرُوجُ الْهَوَاءِ وَدُخُولُهُ مِنَ الْأَنْفِ وَالْفَمِّ ، وَجَمْعُهُ أَنْفَاسٌ ، وَهُوَ كَالْغِذَاءِ لِلنَّفْسِ ؛ لِأَنَّ بَانْتِطَاعَهُ بِطَلَانِهَا .

تَعْرِيفُ النَّفْسِ فِي الْأَصْطِلَاحِ : قَالَ صَاحِبُ كِتَابِ التَّعْرِيفَاتِ : " النَّفْسُ هِيَ الْجَوْهَرُ الْبَخَارِيُّ اللَّطِيفُ ، الْحَامِلُ لِقُوَّةِ الْحَيَاةِ وَالْحِسِّ وَالْحَرَكَةِ الْإِرَادِيَّةِ ، وَسَمَّاهَا الْحَكِيمُ : الرُّوحَ الْحَيَوَانِيَّةَ ، فَهُوَ جَوْهَرٌ مُشْرِقٌ لِلْبَدَنِ ، فَعِنْدَ الْمَوْتِ يَنْقَطِعُ ضَوْؤُهُ عَنْ ظَاهِرِ الْبَدَنِ وَبَاطِنِهِ ، وَأَمَّا فِي وَقْتِ النَّوْمِ ، فَيَنْقَطِعُ عَنْ ظَاهِرِ الْبَدَنِ دُونَ بَاطِنِهِ " .

تَعْرِيفُ النَّفْسِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ الْمُعَاَصِرِينَ

ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ الْمُعَاَصِرُونَ لِلنَّفْسِ عِدَّةَ تَعْرِيفَاتٍ ؛ مِنْهَا : أَنَّ النَّفْسَ " هِيَ جَوْهَرُ الْإِنْسَانِ ، وَمَحْرُكٌ أَوْجُهُ نَشَاطُهُ الْمُخْتَلِفَةُ ؛ إِدْرَاكِيَّةٌ ، أَوْ حَرَكِيَّةٌ ، أَوْ فِكْرِيَّةٌ ، أَوْ إِنْفِعَالِيَّةٌ ، أَوْ أَخْلَاقِيَّةٌ ؛ سَوَاءً أَكَانَ ذَلِكَ عَلَى مُسْتَوَى الْوَاقِعِ ، أَوْ عَلَى مُسْتَوَى الْفَهْمِ ، وَالنَّفْسُ هِيَ الْجُزْءُ الْمُقَابِلُ لِلْبَدَنِ فِي تَفَاعُلِهِمَا وَتَبَادُلِهِمَا التَّأَثُّرِ الْمُسْتَمِرِّ وَالتَّأَثُّرِ ، مَكُونِينَ مَعًا وَحِدَةً مُتَمَيِّزَةً نَظَرًا عَلَيْهَا لَفْظُ (شَخْصِيَّة) تُمَيِّزُ الْفَرْدَ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ ، وَتُوَدِّي بِهِ إِلَى تَوَافُقِهِ الْخَاصِّ فِي حَيَاتِهِ " .

مَعَانِي النَّفْسِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ :

وَرَدَتْ (النَّفْس) فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي مَوَاضِعَ عَدِيدَةٍ ، وَتَعَدَّدَتْ مَعَانِيهَا بِحَسَبِ سِيَاقِ آيَاتِ الْكُرَيْمَةِ
الْوَارِدَةِ فِيهَا ، وَمِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي :

أولاً : النَّفْسُ بِمَعْنَى الرُّوحِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَنَسُؤُنْ أَنْفُسَكُمْ وَآتَمُّ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
﴿ [البقرة : 44] ؛ أَي : تُتْرَكُونَ ، وَيُقَالُ : خَرَجَتْ نَفْسُهُ ، خَرَجَتْ رُوحُهُ ، وَالذَّلِيلُ عَلَى أَنَّ النَّفْسَ
هِيَ الرُّوحُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر : 42] ؛ يُرِيدُ الْأَرْوَاحَ .

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [الأنعام : 93] ، ذَلِكَ أَنَّ الْكَافِرَ إِذَا احْتَضَرَ بَشْرَتَهُ الْمَلَائِكَةَ
بِالْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، وَالْأَغْلَالِ وَالسَّلَاسِلِ ، وَالْبَحِيمِ وَالْحَمِيمِ ، وَعَظَبِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، فَتَفَرَّقَ رُوحُهُ
فِي جَسَدِهِ ، وَتَعَصَى وَتَأَبَّى الْخُرُوجَ ، فَضَرِبَهُمُ الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تَخْرُجَ أَرْوَاحُهُمْ مِنْ أَجْسَادِهِمْ ، قَائِلِينَ لَهُمْ
: ﴿ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْرُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ
تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام : 93] ؛ أَي : الْيَوْمَ تُهَانُونَ غَايَةَ الْإِهَانَةِ ، كَمَا كُنتُمْ تَكْذِبُونَ عَلَى اللَّهِ ، وَتَسْتَكْبِرُونَ
عَنْ اتِّبَاعِ آيَاتِهِ ، وَالْإِقْبَادِ لِرَسُولِهِ .

ثانياً : النَّفْسُ بِمَعْنَى الْإِنْسَانِ ؛ أَي : الشَّخْصِيَّةَ الْبَشَرِيَّةَ بِكَامِلِ هَيْئَتِهَا ، وَهِيَ الْإِنْسَانُ بِكَامِلِ
دَمِهِ وَلَحْمِهِ وَشَخْصِيَّتِهِ ، وَهَذَا كَثِيرٌ وَغَالِبٌ فِي الْقُرْآنِ ، فَمِنْ ذَلِكَ الْآيَاتِ التَّالِيَةِ :

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُحَاطَبًا النَّاسَ عَامَّةً وَبَنِي إِسْرَائِيلَ خَاصَّةً ، بَانَ يُحْذَرُوا يَوْمَ الْحِسَابِ وَيَعْمَلُوا صَالِحًا ،
وَأَنَّ الْإِنْسَانَ يَأْتِي رَبَّهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ فَرْدًا وَلَا تَنْفَعُهُ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ : ﴿ وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ
نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة : 48] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿
وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : 145] .

وَقَدْ شَاعَ اسْتِعْمَالُ النَّفْسِ فِي الْإِنْسَانِ خَاصَّةً ؛ حَيْثُ تَطْلُقُ وَيُرَادُ بِهَا هَذَا الْمَرْكَبُ وَالْجُمْلَةُ الْمَشْتَمَلَةُ عَلَى الْجِسْمِ وَالرُّوحِ [I3] ، وَيُظْهِرُ هَذَا فِي غَيْرِ مَا سَبَقَ ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى أَيْضًا : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ [الفصص : 33] ، وَالْمَقْصُودُ هُنَا الرَّجُلُ الَّذِي قَتَلَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَرْضِ مِصْرَ

ثالثًا : النَّفْسِ بِمَعْنَى الْقُوَى الْمُفَكِّرَةِ فِي الْإِنْسَانِ (العقل) :

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ [المائدة : II6] ؛ قَالَ الطَّاهِرِيُّ عَاشُورَ فِي تَفْسِيرِهِ : " وَالنَّفْسُ تَطْلُقُ عَلَى الْعَقْلِ وَعَلَى مَا بِهِ الْإِنْسَانُ إِنْسَانٌ ، وَهِيَ الرُّوحُ الْإِنْسَانِي ، وَتَطْلُقُ عَلَى الذَّاتِ ، وَالْمَعْنَى هُنَا : تَعَلَّمَ مَا اعْتَقَدَهُ ؛ أَي : تَعَلَّمَ مَا أَعْلَمَهُ ؛ لِأَنَّ النَّفْسَ مَقْرَأَةَ الْعُلُومِ فِي الْمَعَارِفِ ، وَإِضَافَةَ النَّفْسِ إِلَى اسْمِ الْجَلَالَةِ هُنَا بِمَعْنَى الْعِلْمِ الَّذِي لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ غَيْرُهُ ؛ أَي : وَلَا أَعْلَمُ مَا تَعْلَمُهُ ؛ أَي : مِمَّا انْفَرَدَتْ بِعَمَلِهِ ، وَقَدْ حَسَّنَهُ هُنَا الْمَشَاكَلَةُ كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ فِي الْكَشَافِ .

رابعًا : النَّفْسِ بِمَعْنَى قُوَى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فِي الْإِنْسَانِ :

النَّفْسِ بِمَعْنَى قُوَى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ لَهَا صِفَاتٌ وَخَصَائِصٌ كَثِيرَةٌ ؛ مِنْهَا : الْقُدْرَةُ عَلَى إِدْرَاكِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَالْتِمِيزِ بَيْنَهُمَا ، وَالِاسْتِعْدَادَ لَهُمَا ؛ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس : 7 ، 8] ، وَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد : IO] ؛ أَي : بَيْنَا لَهُ الطَّرِيقَيْنِ ، طَرِيقِ الْخَيْرِ وَطَرِيقِ الشَّرِّ ، وَهُنَاكَ إِلَى جَانِبِ الْإِسْتِعْدَادَاتِ الْفَطْرِيَّةِ الْكَامِنَةِ قُوَّةٌ وَإِعْيَةٌ مُدْرِكَةٌ مُوجَّهَةٌ فِي ذَاتِ الْإِنْسَانِ ، فَمَنْ اسْتَحْدَمَ هَذِهِ الْقُوَّةَ فِي الْخَيْرِ وَغَلَبَهَا عَلَى الشَّرِّ ، فَقَدْ أَفْلَحَ ، وَمَنْ أَظْلَمَ هَذِهِ

الْقُوَّةَ وَجَنَاهَا وَأَضْعَفُهَا ، فَقَدْ خَابَ [I5] ؛ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس : 9 ، 10] .

حَقِيقَةُ النَّفْسِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

بِالنَّظَرِ فِي التَّعْرِيفَاتِ السَّابِقَةِ تَرَى الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يُحَدِّثُ عَنِ النَّفْسِ ، عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ لَهُ وَجُودٌ ذَاتِيٌّ مُسْتَقِلٌّ ، وَبِمَعْنَى آخَرَ فَإِنَّ الْقُرْآنَ يُخَاطَبُ الْإِنْسَانَ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ ، بِأَعْبَارٍ أَنَّ النَّفْسَ هِيَ الْقُوَّةُ الْعَاقِلَةُ الْمُدْرِكَةُ فِيهِ ، فَيَقُولُ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس : 7 ، 8]

وَيَقُولُ جَلَّ شَأْنُهُ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر : 27 - 30] .

وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ [يوسف : 53] .

وَيَقُولُ : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف : 18] .

وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ [الطلاق : 1] .

وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِكُمْ نَارًا ﴾ [التحریم : 6] .

فَالنَّفْسُ هُنَا وَفِي مَوَاضِعٍ أُخْرَى كَثِيرَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ ، هِيَ الْإِنْسَانُ الْعَاقِلُ الْمُكَلَّفُ ، وَهِيَ الْإِنْسَانُ الَّذِي يُتَوَقَّعُ مِنْهُ الْخَيْرُ أَوْ الشَّرُّ ، وَالْهُدَى أَوْ الضَّلَالُ ، ثُمَّ هِيَ الْإِنْسَانُ بِجَمِيعِ مَشْخَصَاتِهِ جَسَدًا وَرُوحًا .

إِذَا فَمَا النَّفْسُ ؟

يقول الدكتور عبد الكريم الخطيب في تفسيره - مجيباً عن هذا السؤال - : والجواب الذي نُعطيه عن هذا السؤال مستمد من القرآن الكريم ، بعيداً عن مقولات الفلاسفة وغير الفلاسفة ممن لهم حديث عن النفس ، وعلى هذا نقول : يُشخص القرآن الكريم النفس ويجعلها الكائن الذي يمثل الإنسان إمام الله ، بل إمام المجتمع أيضاً ؛ فالقتل الذي يُصيب الإنسان هو قتل للنفس ؛ كما يقول سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء : 29] ، ويقول جلَّ شأنه : ﴿ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : 32] ، وفي مقام التفاصيل تُحسب ﴿ النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ﴾ .

[المائدة : 45] ، وفي مقام التثويه بالإنسان ، ودعوته ليلقى الجزاء الحسن ، تُخاطب النفس وتدعى ، فيقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر : 27 - 30] ، والنفس في القرآن هي الإنسان المسؤول المحاسب : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران : 30] ، وإن بالفهم الذي يستريح إليه العقل في شأن النفس ، هو أنها شيءٌ غير الروح وغير العقل ، وأنها هي الذات الإنسانية أو الإنسان المعنوي ، إن صحَّ هذا التعبير ، أنها تتخلق من التقاء الروح بالجسد ، أنها التركيبة التي تتخلق في الإنسان ذاتيةً يعرف بها أنه ذلك الإنسان بأحاسيسه ووجدانه ومدركاته ، فالنفس هي ذات الإنسان ، أو هي مشخصات الإنسان التي تُنبئ عن ذاته ، ولا نريد أن نذهب إلى أكثر من هذا ، وحسبنا أن نؤمن بأن الروح من أمر الله ، فلا سبيل إلى الكشف عنها ؛ كما

يَقُولُ سُبْحَانَهُ : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء : 85] ، وَأَنَّ النَّفْسَ جِهَازٌ خَفِيٌّ عَامِلٌ فِي الْإِنْسَانِ ،
فِيهِ الْإِنْسَانُ الْمَعْنَوِيُّ ، وَهَذَا كَانَتْ مَوْضِعَ الْخُطَابِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، كَمَا أَنَّهَا كَانَتْ مَوْضِعَ الْحِسَابِ
وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ [I6] ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . .

آيَاتُ تَكْرِيمِ الْإِنْسَانِ فِي الْقُرْآنِ

﴿ وَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ
خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : 70]

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : 4]

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ [التين : 5]

اِخْتَصَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْإِنْسَانَ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ كَيْ يَكُونَ مَعْرُزًا مَكْرَمًا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، فَلَقَدْ
خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْإِنْسَانَ مَخْتَلِفًا عَنِ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ ، فَلَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ بِنَفْسِهِ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ
رُوحِهِ ، كَمَا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ سَجَدَتْ لِأَوَّلِ إِنْسَانٍ وَهُوَ آدَمٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، كَمَا أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ مِنْ هَذَا الْإِنْسَانِ
هُوَ مَوْضِعَ حِكْمَتِهِ وَأَرْسَلَ لِلْبَشَرِ رَسُولًا كَيْ يُخْتَصُّوا بِعِبَادَتِهِ دُونَ عَنِ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ ، كَمَا وَرَدَتْ
بَعْضُ آيَاتِ قُرْآنِيَّةٍ عَنِ كَرَامَةِ الْإِنْسَانِ وَلَكِنَّ الْكِرَامَةَ كَمَا وَصَفَهَا اللَّهُ تَعَالَى مُخْتَلِفَةٌ عَنِ مَفَاهِيمِ الْبَشَرِ ،
لِذَلِكَ إِلَيْكَ سِتْ مَوَاضِعَ تَوْضِحَ مَفْهُومَ الْكِرَامَةِ فِي الْإِسْلَامِ كَمَا يَأْتِي :

الْمَوْضِعُ الْأَوَّلُ : تَكْرِيمُ الذَّاتِ

خَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ مَعَزَّزًا مَكْرَمًا وَيَتَجَلَّى ذَلِكَ فِي الصُّورَةِ الَّتِي خَلَقْنَا اللَّهُ عَلَيْهَا ، وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى :
 (وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ) مِنْ سُورَةِ التَّغَابُنِ ، كَمَا أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ لِلْإِنْسَانَ دُورًا كَبِيرًا فِي أَعْمَارِ الْأَرْضِ
 وَذَلِكَ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) مِنْ سُورَةِ هُودٍ ، مِمَّا سَبَقَ يَتَّصِحُّ
 أَنَّ تَكْرِيمَ الْإِنْسَانِ فِي الْإِسْلَامِ هُوَ مَفْهُومٌ يَتَضَمَّنُ كُلَّ خَيْرٍ وَشَرَفٍ وَفَضِيلَةٍ حَصَلَ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ .

المَوْضِعُ الثَّانِي : الْبَيْجَاد

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ مَنْ أَوْجَدَ الْإِنْسَانَ مِنْ بَعْدِ عَدَمٍ ، وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : (هَلْ أَتَى عَلَى
 الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا) مِنْ سُورَةِ الْإِنْسَانِ ، أَيُّ إِنَّ الْإِنْسَانَ أَوْجَدَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ
 تَرَابٍ ، وَقَالَ يَحْيَى بْنُ سَلَامٍ : لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا فِي الْخَلْقِ ، وَإِنْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ شَيْئًا مَذْكُورًا .

المَوْضِعُ الثَّلَاثُ : الْفِطْرَةُ الَّتِي خَلَقْنَا اللَّهُ عَلَيْهَا .

خَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ مَفْطُورًا عَلَى الْإِيمَانِ ، وَمَنْ عَلَى غَيْرِ فِطْرَةِ اللَّهِ فَلَقَدْ تَبَدَّلَ عَنِ الْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَهَا اللَّهُ
 عَلَيْهِ ، وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ : (فَاقِمِ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا
 لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) مِنْ سُورَةِ الرُّومِ ، وَالْمَعْنَى مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ
 أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ خَلَقَ جَمِيعَ الْبَشَرِ عَلَى نَفْسِ الْفِطْرَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ ، وَأَنَّ النَّاسَ جَمِيعَهُمْ
 مُتَسَاوُونَ فِي هَذَا الْأَمْرِ ، وَإِنْ أُنِيَ تَغَيَّرَ فِي الْإِنْسَانِ فَهُوَ مِنْ نَفْسِهِ .

المَوْضِعُ الرَّابِعُ : إِعْمَارُ الْأَرْضِ

أَنَّ الْإِنْسَانَ هُوَ الْمَخْلُوقُ الْوَحِيدُ الْمُكَلَّفُ بِإِعْمَارِ الْأَرْضِ وَهَذِهِ السَّمَّةُ تَعَكِّسُ أَعْلَى مَظَاهِرِ التَّكْرِيمِ الْإِلَهِيِّ
الَّذِي كَرَّمَهُ اللَّهُ لَنَا نَحْنُ مَعْشَرُ الْبَشَرِ ، فَتَحْنُ مُكَلَّفُونَ بِإِعْمَارِ هَذِهِ الْأَرْضِ حَتَّى تَعْبُدَ اللَّهَ ، وَمِنْ ذَلِكَ
قَوْلُهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ : (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ
يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ

المَوْضِعُ الْخَامِسُ : نِعْمَةُ الْعَقْلِ

إِنَّ أَهَمَّ مَا يُمَيِّزُ الْإِنْسَانَ عَنِ بَاقِي الْمَخْلُوقَاتِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ هُوَ امْتِلَاكُهُ الْعَقْلَ ، عَقْلٌ هُوَ الْمَرْجِعُ الْأَوَّلُ
وَالْآخِرُ لِلْإِنْسَانِ ، وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ : (خَلَقَ الْإِنْسَانَ ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) .

المَوْضِعُ السَّادِسُ : إِيدَاعُ مَفَاتِيحِ الْمَعْرِفَةِ وَالْإِدْرَاكِ فِي الْإِنْسَانِ

خَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ هُوَ الْكَائِنُ الْوَحِيدُ الَّذِي لَدَيْهِ مَفَاتِيحُ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ ، كَمَا أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ اسْتِيعَابَ وَتَعَلُّمَ
وَاكتشافِ الْعُلُومِ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَذَلِكَ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى مَا يَأْتِي : (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ) ، (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ
وَاجِلٍ مُسَمًّى) ، (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا) ، (مَا يَذُكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) .

مَا الصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ لِلْإِنْسَانِ الْوَارِدَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ؟

I - صِفَةُ الضَّعْفِ

(ضَعْفَ) الضَّادُ وَالْعَيْنُ وَالْفَاءُ أَصْلَانِ مُسَبَّيْنَانِ ، يَدُلُّ أَحَدُهُمَا عَلَى خِلَافِ الْقُوَّةِ وَهُوَ الضَّعْفُ
وَالضَّعْفُ ، يُقَالُ : ضَعْفَ يَضْعَفُ ، وَرَجُلٌ ضَعِيفٌ ، وَقَوْمٌ ضَعْفَاءٌ وَضِعَافٌ ، وَيَدُلُّ الْآخَرُ عَلَى أَنْ يَزَادَ

الشَّيْءُ مِثْلُهُ يُقَالُ : ضَعَفْتُ الشَّيْءَ إِضْعَافًا ، وَضَعَفْتُهُ تَضْعِيفًا ، وَضَاعَفْتُهُ مُضَاعَفَةً ، (الفارابي ،
1407هـ) ، (ابن فارس ، 1406هـ) ، (ابن فارس ، 1399هـ) (الرازي ، 1420هـ) ، (ابن منظور ، 1414هـ)
وَالْمَعْنَى اللُّغَوِي الْمَقْصُود فِي وَصْفِ الْإِنْسَانِ بِالضَّعْفِ ؛ أَي أَنَّهُ لَيْسَ قَوِيًّا .

وَقَدْ وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ وَصْفُ الْإِنْسَانِ بِأَنَّهُ ضَعِيفٌ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلُقِ
الْإِنْسَانِ ضَعِيفًا ﴾ سُورَةُ التَّسَاءِ : آيَةٌ 28 .

قال الطبري (1420هـ) في معنى الآية : " أَي خُلِقْتُمْ ضَعْفَاءَ عَجْزَةً عَنْ تَرْكِ جَمَاعِ التَّسَاءِ ، قَلِيلِي الصَّبْرِ
عنه " .

وَجَاءَ عِنْدَ الْقُرْطُبِيِّ (1384هـ) فِي مَعْنَى الضَّعْفِ أَيْضًا : أَنَّ هَوَاهُ يَسْتَمِيبُهُ وَشَهْوَتُهُ وَغَضَبُهُ يَسْتَخِفَانِهِ ،
وَهَذَا أَشَدُّ الضَّعْفِ فَاحْتِاجٌ إِلَى التَّخْفِيفِ ، وَهُوَ يَشْبَهُ كَلَامَ الطَّبْرِيِّ ، بَيْنَمَا يَرَى ابْنَ عَاشُورَ (1384هـ)
أَنَّ الْمَعْنَى السَّعْدِي (1420هـ) وَذَكَرَ بِأَنَّ الْمَقْصُودَ بِالضَّعْفِ هُنَا ضَعْفُ الْإِنْسَانِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ ،
كضعف البنية ، وضعف الإرادة ، وضعف العزيمة ، وضعف الإيمان ، وضعف الصبر .

ويرى أبو زهرة (د . ت) أَنَّ الضَّعْفَ مُلَازِمٌ لِلْإِنْسَانِ عِنْدَمَا خَلَقَهُ اللَّهُ ، وَإِنَّ الضَّعْفَ يَشْمَلُ الْبَدْنَ وَ
النَّفْسَ ، وَلِذَلِكَ كَانَتْ كُلُّ التَّكْلِيفَاتِ يَسْهَلُ تَعْوِيدُ النَّفْسِ عَلَيْهَا لِمُرَاعَاتِهَا ذَلِكَ الضَّعْفَ عِنْدَهُ ، فَابْتِغَاءُ
لَهُ مِنْ الشَّهَوَاتِ مَا لَا يَجْعَلُهُ عَبْدًا لَشَهْوَتِهِ ، بَلْ سَيِّدًا عَلَيْهَا ، وَإِنَّ أْبْرَزَ مَظَاهِرِ الضَّعْفِ فِيهِ إِنَّمَا يَكُونُ
أَمَامَ التَّسَاءِ ، لِذَا أُبِيحَ لَهُ الزَّوْجُ بِمَشْنَى وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ بِشَرْطِ الْعَدْلِ بَيْنَهُنَّ .

ويرى الهلالي (د . ت) أَنَّ هَذَا الضَّعْفُ الْمُعَدَّدُ الْجَوَابِ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَجْعَلَ الْإِنْسَانَ دَوْمًا بِحَاجَةٍ إِلَى مَصْدَرٍ لِلْقُوَّةِ يَلْجَأُ إِلَيْهِ لِيَحْتَمِيَ بِهِ وَيُدْفِعَ عَنْهُ كُلَّ مَا يَشِيرُ مَخَافَتَهُ وَيَعَكِّرُ صَفْوَةَ ، وَلَوْ تَخِيلْنَا أَنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ قُوِيًا أَقْوَى مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ ، هَلْ تَظُنُّهُ سَيَلْجَأُ يَوْمًا إِلَى رَبِّهِ يَطْلُبُ مِنْهُ الْعَوْنَ وَالْمَدَدَ ؟ !
 وَلِمَاذَا يَفْعَلُ ذَلِكَ وَهُوَ يَرَى قُوَّتَهُ تَحَقُّقًا لَهُ مَا يَرِيدُ : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَن لِيَغْشَى ﴾ (6) أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْنَى ﴿
 سُورَةُ الْعَلَقِ : آيَةٌ 6 ، 7 .

وَأَمَّا عَنْ كَيْفِيَّةِ تَرْكِيَّةِ الْإِنْسَانِ مِنْ ذَلِكَ الضَّعْفِ وَخَاصَّةً إِمَامَ الشَّهْوَةِ الْمُحْرَمَةِ فَنُفِي الْآتِي :

أ- أَنَّ الْإِنْسَانَ بَضَعَفَهُ إِمَامُهُ خِيَارَانِ : أَمَّا الْمَيْلُ بَضَعَفَهُ لِلشَّهْوَةِ الْمُحْرَمَةِ فَتَهْلِكُهُ ، وَأَمَّا الْمَيْلُ لِلشَّهْوَةِ الْمُبَاحَةِ فَيَسْعِدُ وَيَنْجِحُ ، وَالْحِلُّ فِي رَأْيِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ (1407هـ) أَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ شَهْوَةٍ مُبَاحَةٍ تَغْنِيهِ عَنِ الْمُحْرَمَةِ ، وَاسْتَدَلَّ عَلَيْهِ بِمَجْدِيثٍ " فَإِذَا أَبْصَرَ أَحَدُكُمْ امْرَأَةً فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ «
 رَوَاهُ مُسْلِمٌ ، وَاسْتَنْبَطَ مِنْهُ ابْنُ قَيْمٍ الْجُوزِيَّةَ (1429هـ) الْإِرْشَادَ إِلَى التَّسْلِيِّ عَنِ الْمَطْلُوبِ بِجِنْسِهِ ، وَالْأَمْرُ بِمُدَاوَاةِ الْإِعْجَابِ بِالْمَرْأَةِ الْمُوَرَّثِ لِشَهْوَتِهَا بِإِنْفَاعِ الْأَدْوِيَّةِ ، وَهُوَ قَضَاءُ وَطَرِهِ مِنْ أَهْلِهِ ، وَذَلِكَ يَنْقُضُ شَهْوَتَهُ لَهَا ، ثُمَّ بَيَّنَّ ابْنُ الْقَيْمِ (د . ت) أَنَّ هَذَا هُوَ الْمَعْنَى الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ عَقِيبَ إِحْلَالِ التَّسَاءِ حَرَائِرِهِنَّ وَإِمَائِهِنَّ عِنْدَ الْحَاجَةِ بِقَوْلِهِ : " يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا " سُورَةُ النِّسَاءِ : آيَةٌ 28 ، فَذَكَرَ تَخْفِيفَهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ، وَإِخْبَارَهُ بَضَعْفِ الْإِنْسَانِ عَنِ احْتِمَالِ هَذِهِ الشَّهْوَةِ ، وَأَنَّ اللَّهَ خَفَّفَ عَنْهُ أَمْرَ الشَّهْوَةِ بِمَا أَبَاحَهُ لَهُ مِنْ أَطْيَابِ النِّسَاءِ مِثْمَى وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ ، وَأَبَاحَ لَهُ مَا شَاءَ مِمَّا مَلَكَتْ يَمِينُهُ ، ثُمَّ أَبَاحَ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِالْإِمَاءِ إِنْ احتَاجَ إِلَى ذَلِكَ عِلَاجًا لِهَذِهِ الشَّهْوَةِ ، وَتَخْفِيفًا عَنْ هَذَا الْخُلُقِ الضَّعِيفِ ، وَرَحْمَةً بِهِ .

ويعتقد الباحث أنّ المرأة كالرجل في ذلك تمامًا ؛ غير أنّه من حَقّها الخلع - في مُقابل زواج الرجل بأكثر من زوجة - لو لم يحصل لها العفة من زوجها لأى سببٍ منه ، والزواج بغيره ممن يتحقق معه العفاف .

ب- الميل إلى الشهوة عامٌّ في طبع جميع بني آدم ، فالواجب على من ابتلى بالميل للشهوة المحرّمة مُجاهدة نفسه ؛ كما أشار إلى ذلك ذكر ابن تيمية (١٤١٦هـ) مُعللاً ذلك بأن الله أمر بالتقوى ، ومن التقوى أن يعف عن كل ما حرّمه الله من نظرٍ بعينٍ ومن لفظٍ بلسانٍ ومن حركةٍ بيدٍ ورجلٍ .

ت- جاء المنهج التربوي الإسلامي بواقعيته ، لتقوية الإرادة ثم تربيتهما للتغلب على ذلك الضعف أمام الرغبات والشهوات قبل وبعد السقوط في الحرام ، وقد أشار إلى هذا ابن الجوزي (١٤٢٥هـ) فقال في التفسير من الزنى : "إنه يفسد الفُرش ، ويغير الأنساب ، وهو بالجارّة أقيح" ، وقال أيضاً : "فكم يتعلق بالزنى من محنٍ لا يفى معشارٍ عُشرها بلذّةٍ لحظّةٍ ، منها هتك العُرض بين الناس وكشف العورات المحرّمة ، وخيانة الأخ المسلم في زوجته إن كانت مُتزوجةً ، وفضيحة المزنى بها وهي كأخت له أو بنتٌ ، فإن علقته منه ولها زوُجٌ أحقته بذلك الزوُج ، وكان هذا الزانى سبباً في ميراث من لا يستحق ومنع من يستحق ، ثم يتسلسل ذلك من ولدٍ إلى ولدٍ ، وأما سخط الحقّ سُبحانه فمعلوم" ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرُبُوا الزَّانِيَ إِنَّمَا كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ سورة الإسراء : آية 32 ، ثم بين - رحمه الله - أنّ سبب انغماس العاصي في المعاصي ، وعدم إحساسه بها ، هو شهواته التي تحجب عنه ما فيها من عيوب وتفاصيل ، فإذا أنجلت هذه الغشاوة رأى الشهوات على حقيقتها ، فوجهها بما يرضى الله تعالى . (عطار ١٤١٩ هـ)

ث - التَّوْبَةُ الصَّادِقَةُ النَّصُوحُ ، التي تقوى الإرادة الخيرة ، وتمنع النفس المحببة للشهوات ، وتُظهِرُ الْقَلْبَ
وَالْجَوَارِحَ مِنَ الْإِثَامِ ، فتدفع النفس لمرضاة الله تعالى ، والتَّقَرُّبُ مِنْهُ بِالطَّاعَاتِ .

وَحُلَاصَةُ الْقَوْلِ فِي تَرْكِيَةِ الْإِنْسَانِ مِنْ صِفَةِ الضَّعْفِ عِنْدَهُ تَلَخُّصٌ فِي أَمْرَيْنِ : الْأَوَّلُ : التَّحْلِيَةُ : بِأَنْ
يَدْرِكَ عَوَاقِبَ إِقْدَامِهِ عَلَى الشَّهَوَاتِ الْمُحْرَمَةِ وَضُرُرَهَا عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَيَسْتَعِدُّ عَنْهَا وَيَحْذَرُهَا ،
وَالثَّانِي : التَّحْلِيَةُ : بِأَنْ يَسْتَعْفَ عَنِ الشَّهَوَاتِ الْمُحْرَمَةِ بِالشَّهَوَاتِ الْمُبَاحَةِ مِنْ خِلَالِ الْمُبَادَرَةِ إِلَى الزَّوْجِ

2- الْيَأْسُ وَالْقُنُوطُ .

الْيَأْسُ : بِمَعْنَى الْقُنُوطِ . وَقَدْ يَسُّ مِنَ الشَّيْءِ يَأْسٌ ، وَفِيهِ لُغَةٌ أُخْرَى : يَسُّ يَسُّ بِالْكَسْرِ فِيهِمَا ، وَهُوَ
شَاذٌ . وَرَجُلٌ يَوْسٌ . (الفارابي ، 407هـ) ، (ابن فارس ، 406هـ)

وَالْقُنُوطُ : بِمَعْنَى الْيَأْسِ . وَقَدْ قَنَطَ يَقْنُطُ قُنُوطًا مِثْلَ جَلَسَ يَجْلُسُ جُلُوسًا . (الفارابي ، 407هـ) ،
(ابن فارس ، 406هـ)

يَسْتَحِقُّ ، ثُمَّ يَتَسَلَّلُ ذَلِكَ مِنْ وُلْدٍ إِلَى وُلْدٍ ، وَأَمَّا سَخَطُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ فَمَعْلُومٌ " ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا
تَقْرُبُوا الزَّانَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ سُورَةُ الْإِسْرَاءِ : آيَةٌ 32 ، ثُمَّ بَيْنَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَنَّ سَبَبَ
انْغِمَاسِ الْعَاصِي فِي الْمَعَاصِي ، وَعَدَمِ إِحْسَاسِهِ بِهَا ، هُوَ شَهَوَاتِهِ الَّتِي تَحْجُبُ عَنْهُ مَا فِيهَا مِنْ عِيُوبٍ
وَقِتَاصٍ ، فَإِذَا انْجَلَتْ هَذِهِ الْغِشَاوَةُ رَأَى الشَّهَوَاتِ عَلَى حَقِيقَتِهَا ، فَوَجَّهَهَا بِمَا يَرْضَى اللَّهُ تَعَالَى .

(عطار 1419 هـ)

ث - التَّوْبَةُ الصَّادِقَةُ النَّصُوحُ ، التي تقوى الإرادة الخيرة ، وتمنع النفس المحببة للشهوات ، وتظهر القلب والجوارح من الآثام ، فتدفع النفس لمرضاة الله تعالى ، والتَّقَرُّبُ مِنْهُ بِالطَّاعَاتِ .

وَحُلَاصَةُ الْقَوْلِ فِي تَرْكِيَةِ الْإِنْسَانِ مِنْ صِفَةِ الضَّعْفِ عِنْدَهُ تَلَخُّصٌ فِي أَمْرَيْنِ : الْأَوَّلُ : التَّحْلِيَةُ : بِأَنْ يَدْرِكَ عَوَاقِبَ إِقْدَامِهِ عَلَى الشَّهَوَاتِ الْمُحْرَمَةِ وَضَرُرَهَا عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَيَبْتَعِدُ عَنْهَا وَيَحْذَرُهَا ، وَالثَّانِي : التَّحْلِيَةُ : بِأَنْ يَسْتَعْفَ عَنِ الشَّهَوَاتِ الْمُحْرَمَةِ بِالشَّهَوَاتِ الْمُبَاحَةِ مِنْ خِلَالِ الْمُبَادَرَةِ إِلَى الزَّوْجِ .

2- اليأس والقنوط .

اليأسُ : بِمَعْنَى الْقَنُوطِ . وَقَدْ يَسُّ مِنَ الشَّيْءِ يَأْسٌ ، وَفِيهِ لُغَةٌ أُخْرَى : يَسُّ يَيْسُّ بِالْكَسْرِ فِيهِمَا ، وَهُوَ شَاذٌ . وَرَجُلٌ يَوْسٌ . (الفارابي ، ١٤٠٧هـ) ، (ابنُ فَارِسٍ ، ١٤٠٦هـ)

وَالْقَنُوطُ : بِمَعْنَى الْيَأْسِ . وَقَدْ قَنَطَ يَقْنُطُ قُنُوطًا مِثْلَ جَلَسَ يَجْلِسُ جُلُوسًا . (الفارابي ، ١٤٠٧هـ) ، (ابنُ فَارِسٍ ، ١٤٠٦هـ)

وَأَمَّا الْفَرْقُ بَيْنَ الْيَأْسِ وَالْقَنُوطِ : فَإِنَّ الْقَنُوطَ أَشَدُّ مَبَالِغَةً مِنَ الْيَأْسِ ، وَالرَّجَاءُ وَالْيَأْسُ تَقِيضَانِ يَتَعَاقَبَانِ . (العسكري ، د . ت) ، وَقِيلَ الْيَأْسُ : انْقِطَاعُ الطَّمَعِ مِنَ الشَّيْءِ ، وَالْقَنُوطُ : أَخْصُ مِنْهُ ، فَهُوَ أَشَدُّ الْيَأْسِ . (العسكري ، ١٤١٢هـ)

وَفِي الْأَصْطِلَاحِ : عَرَفَةَ الْأَصْفَهَانِي (١٤١٢هـ) بِأَنَّهُ " انْتِقَاءُ الطَّمَعِ " ، وَعَرَفَهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ (١٤٠٤هـ) بِأَنَّهُ : " الْقَطْعُ عَلَى أَنْ الْمَطْلُوبَ لَا يَتَحَصَّلُ لِتَحْقِيقِ قَوَاتِهِ " ، وَقَالَ الْمَنَاوِيُّ (١٤١٠هـ) : هُوَ " الْقَطْعُ بِأَنَّ الشَّيْءَ لَا

يكون ، وَهُوَ ضِدُّ الرَّجَاءِ " ، وَجَمَعَ الخالدي وَآخَرُونَ (2016م) بين التعاريف السَّابِقَةَ فَقَالَ : " اليأس هُوَ اِتِّقَاءُ الطَّمَعِ فِي أَمْرٍ مَا لِيَحْتَقِقَ قَوَاتِهِ ، وَالْقَطْعُ بِأَنَّهُ غَيْرُ مُمْكِنِ الْحُصُولِ " ، وَهَذَا جَمْعٌ جَيِّدٌ .

وَقَدْ دَلَّ عَلَى أَنَّ مِنْ صِفَاتِ الْإِنْسَانِ الْيَأْسَ وَالْفُتُوْطَ ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُوسِسُ فُتُوْطًا ﴾ سُورَةُ فَصَّلَتْ : آيَةٌ 49 .

وَالْمَعْنَى : أَي أَنَّ الْإِنْسَانَ ذُو يَأْسٍ مِنْ رُوحِ اللَّهِ وَفَرْجِهِ ، فُتُوْطٌ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَمِنْ أَنَّ يَكْشِفُ ذَلِكَ الشَّرَّ التَّارِزَ بِهِ عَنْهُ . (الطبري ، 1420هـ)

وَذَكَرَ الرَّازِي (1420هـ) - حَوْلَ مَعْنَى هَذَا الْوَصْفِ وَعِلَاقَتِهِ بِنَقِيضِهِ - أَنَّهُ فِي حَالِ الْإِقْبَالِ وَمَجِيئِ الْمُرَادَاتِ لَا يَنْتَهِي فِي الطَّلَبِ لِلزِّيَادَةِ وَالطَّمَعِ ، وَلَكِنْ فِي حَالِ الْإِدْبَارِ وَالْحَرَمَانِ يَصِيرُ آسِئًا قَانِطًا ، فَالِاتِّقَالُ مِنْ ذَلِكَ الرَّجَاءِ الَّذِي لَا آخِرَ لَهُ إِلَى هَذَا الْيَأْسِ الْكَلِيِّ يَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِ مُتَبَدِّلُ الصِّفَةِ مُتَغَيِّرُ الْحَالِ ، وَوَصَفِ الْإِنْسَانَ بِأَنَّهُ "يُوسِسُ فُتُوْطًا" ؛ مُبَالَغَةٌ مِنْ وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا : مِنْ طَرِيقِ بِنَاءِ فَعُولٍ وَالثَّانِي : مِنْ طَرِيقِ التَّكْرِيرِ .

وَأَشَارَ ابْنُ حِيَانَ (1420هـ) إِلَى أَنَّ الْيَأْسَ مِنْ صِفَةِ الْقَلْبِ ، وَهُوَ أَنَّ يَقْطَعُ رَجَاءَهُ مِنَ الْخَيْرِ ، وَالْفُتُوْطُ : أَنَّ يَظْهَرُ عَلَيْهِ آثَارُ الْيَأْسِ فَيَتَضَاعَلُ وَيَنْكَسِرُ ، وَأَنَّهُ بَدَأَ بِصِبْغَةِ الْقَلْبِ لِأَنَّهَا هِيَ الْمُؤَثَّرَةُ أَوَّلًا فِيمَا يَظْهَرُ عَلَى صُورَةِ الْوَجْهِ مِنَ الْإِنْكَسَارِ .

وَالْيَأْسُ فِي الْأَصْلِ نَوْعَانِ : مَذْمُومٌ وَمَحْمُودٌ ؛ فَالْمَذْمُومُ مِنْهُ بِأَنَّ يَقْطَعُ الرَّجَاءَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَفَرْجِهِ ، وَهُوَ الَّذِي وَرَدَ النَّهْيُ عَنْهُ فِي الْقُرْآنِ صَرَاحًا ، لِأَنَّهُ يَفِيدُ سُوءَ الظَّنِّ بِاللَّهِ ، وَأَمَّا الْمَمْدُوحُ مِنْهُ فَهُوَ أَنَّ

يقطع الرجاء بما في أيدي الناس ، ولم يذكر في القرآن بصورة مباشرة لكنه كما يشير إليه الخالدي وآخرون (2016م) موجود في ثنايا كتب الأخلاق والزهد .

ويرى الخالدي وآخرون (2016م) أن هناك تلازم قوى بين الكفر واليأس ، وهذا يؤكد خطوره اليأس على الإنسان وأنه لا يجتمع مع الإيمان إطلاقاً ، بل إن الفتور واليأس ليس من شأن المسلم مهما عظم كربه واشتد خطبته ، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنَ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ ﴾ سورة يوسف : آية 87 ، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَنْتَظِرْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ سورة الحجر : آية 56 ، فليس اليأس - إذن - إلا خديعة من الشيطان يريد بها قطع صلة العبد بربه ورجائه فيه ، يقول المنفلوطي في هذا المعنى : "اليأس هو الخديعة الكبرى التي يدسها الشيطان دائماً في نفوس الأمم الضعيفة التي يريد الفتك بها والقضاء عليها" . (سحنون ، 1992م)

ولما شك بأن معرفة أسباب اليأس من رحمة الله تعالى كفيلة بمعرفة الطريق لتركية الإنسان منها ، فمن أهم أسبابه الآتي (الحمد ، 2010م) :

أ- إسراف العبد على نفسه في المعاصي ، والإفراط فيها ، والاستكثار منها ، ففي قوله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ إشارة إلى أنه بسبب إسرافهم في المعاصي ، وعدم التحرز منها ، سيستولى عليهم الفتور من رحمة الله .

ب- الجهل بسعة رحمة الله ، وهذا هو صريح قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهَا رَحْمَةً

وَاحِدَةً ، فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْسَسْ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ » رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ : (حَدِيثُ رُقْمِ 6469) .

ج- الْجَهْلُ بِالسَّبَبِ الْجَائِبَةِ لِرَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَمَنْ أَغْفَلَ مَعْرِفَةَ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَحْرَصْ عَلَى تَعَلُّمِهِ وَابْتِحَاحِ عَنُّهُ ؛ اسْتَوْلَى عَلَيْهِ الْقُنُوطُ .

وَقَدْ جَاءَتْ الْعَقِيدَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ بِعِلَاجٍ شَامِلٍ وَوَافٍ لِمِثْلِ هَذِهِ الْأَنْحِرَافَاتِ الْعَقْدِيَّةِ وَالسَّلْوَكِيَّةِ ، وَبَيَّنَّتِ الْوَاجِبَ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَتَّبِعَهُ فِي حَيَاتِهِ عَقِيدَةً وَعِبَادَةً وَسَلُوكًا ، وَحَذَرَتْهُ مِنَ الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ ، وَالغُلُوفِ وَالتَّقْصِيرِ ، فَمِمَّا يَعَالِجُ بِهِ الْقُنُوطُ مِنَ رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَا يَلِي : (الْحَمَادُ ، 2010م)

أ- الْأَقْلَاعُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ ، وَالْمُبَادَرَةُ فِي التَّوْبَةِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَالْإِسْرَاعُ إِلَيْهَا ، وَعَدَمُ التَّسْوِيفِ فِيهَا .

ب- حُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَقَدْ حَثَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، عَلَى حُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ حَيْثُ قَالَ : « لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ (حَدِيثُ رُقْمِ 2877) .

وَمَعْنَى حُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى : أَيْ يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرْحَمُهُ ، وَيَرْجُو ذَلِكَ ، وَيَتَدَبَّرُ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي كَرَمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

ج- التَّنَظُّرُ إِلَى سِعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمَغْفِرَتِهِ ، وَعَظِيمِ فَضْلِهِ وَبِرَّةِ ، وَكَرِيمِ جُودِهِ وَإِحْسَانِهِ .

وَالْخُلَاصَةُ أَنَّ الْيَأْسَ شُعُورٌ نَفْسِيٌّ سَلْبِيٌّ يَتَسَلَّلُ لِلنَّفْسِ بِسَبَبِ التَّصَوُّرَاتِ الْخَاطِئَةِ النَّاشِئَةِ عَنِ الْجَهْلِ ،
 وَالْهَزِيمَةِ إِمَامِ الْعَدُوِّ الْأَزَلِيِّ وَهُوَ الشَّيْطَانُ مِنْ خِلَالِ الْوُقُوعِ فِي حَبَائِلِ مَكْرِهِ وَغَوَايَتِهِ ، وَأَنَّهُ لَا سَبِيلَ
 لِلتَّلَخُّصِ مِنَ الْيَأْسِ إِلَّا بِالِاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ أَوَّلًا ، ثُمَّ الْعِلْمِ الَّذِي يَدْفَعُ بِهِ الْيَأْسَ كَالْعِلْمِ بِسَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَعَفْوِهِ
 3- الْجُحُودُ لِتَنَعَمَ اللَّهُ .

الْجُحُودُ فِي اللُّغَةِ : ضِدُّ الْإِقْرَارِ وَهُوَ الْإِنْكَارُ مَعَ الْعِلْمِ ، يُقَالُ : جَحَدَهُ حَقَّهُ وَبِحَقِّهِ ، جَحْدًا وَجُحُودًا ،
 وَالْجَحْدُ : مِنَ الضِّيقِ وَالشَّحِّ ، وَرَجُلٌ جَحْدٌ : قَلِيلُ الْخَيْرِ . (الفراهيدي ، د . ت) ، (الجوهري ،

(هـ 1407)

ويرى الكهوي (د . ت) بأن الجُحود في عامة كتب اللغة يعني إنكار العلم .

وَقَدْ دَلَّ عَلَى وَصْفِ الْإِنْسَانِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : " وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا " سُورَةُ الْإِسْرَاءِ : آيَةٌ 67
 وَالْمَعْنَى : وَكَانَ الْإِنْسَانُ ذَا جَحْدٍ لِتَنَعَمَ رَبِّهِ . (الطبري ، هـ 1420) ، ويذكر ابن كثير (هـ 1419) أن سَجِيئَتَهُ
 الْجُحُودُ ، فَيُنْسَى التَّعَمُّقَ وَيَجْحَدُهَا ، إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ ، بينما يرى ابن عاشور (م 1984) بأن كثرة كفران
 الْإِنْسَانِ هِيَ تَكَرُّرُ إِغْرَاضِهِ عَنِ الشُّكْرِ فِي مَوْضِعِ الشُّكْرِ ضَلَالًا أَوْ سَهْوًا أَوْ غَفْلَةً لِإِسْنَادِهِ التَّعَمُّقَ إِلَى
 أَسْبَابِهَا الْمُقَارِنَةِ دُونَ مُنْعِمِهَا وَلِفَرَضِهِ مُنْعِمِينَ وَهَمِيمِينَ لَا حَظَّ لَهُمْ فِي الْإِنْعَامِ ، وَإِنْ ذَكَرَ فِعْلًا (كَانَ)
 إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الْكُفْرَانَ مُسْتَقَرٌّ فِي جِبَلَةِ هَذَا الْإِنْسَانِ ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَلَمًا يَشْعُرُ بِمَا وَرَاءَ عَالَمِ الْحِسِّ فَإِنْ
 الْحَوَاسُّ تَشْغَلُهُ بِمُدْرَكَاتِهَا عَنِ التَّفَكُّرِ فَيَمَّا عَدَا ذَلِكَ مِنَ الْمَعَانِي الْمُسْتَقَرَّةِ فِي الْحَافِظَةِ وَالْمُسْتَبْتَةِ
 بِالْفِكْرِ .

ويلاحظ مما سبق أنّ الجُحود عند الإنسان في وصف القرآن له لا يلزم أن يكون إنكاره العلم بالمنعم ؛ بل بنسيانه وعدم شكره للمُنعم جلّ وعلاً ، وهذا لا يكاد يسلم منه أحد .

ومن الصور المتكررة لهذه الصفة المذمومة في واقعنا المعاصر ؛ ما يرى من بعضهم نسبه نعمة العلم والحصول على الشهادات العالية إلى جده واجتهاده وذكائه ، أو نسبه نعمة صلاح الأولاد إلى حسن تربية الوالدين لهم ، أو نسبه نعمة الصحة في البدن إلى ممارسة الرياضة والغذاء الصحي ، ونحوها من صفات تكرر في المشهد الاجتماعي .

وهذا الذكاء وحسن التربية والرياضة ونحوها مجرد أسباب قد تعطى نتيجة حسنة وقد لا تنفع البتة ، فالمنعم الحقيقي هو الله عز وجل .

ومن آثار هذه الصفة المذمومة : قول الله تعالى : " وَإِذِ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ " سورة ابراهيم : آية 7 ، فجحد النعم سبب لزلها ، كما أن الشكر سبب لبقائها وزيادتها .

وإن أهم سبب التزكية من الجحود للنعم الله يكون من خلال ما يأتي :

أ- الإقرار والاعتراف بالمنعم جلّ وعلاً ، ونسبه النعم كلها له ، ودليل ذلك إن الله عاقب قارون على نسبه نعمة المال لغير المنعم جلّ وعلاً ، وأنه أوتى المال - كما يزعم - على علم عنده .

ب- دوام الشكر والحمد للمُنعم جلّ وعلاً قولاً وعملاً واعتقاداً ، فالشكر يكون باللسان بقول الحمد لله والشكر لله ونحو ذلك ، وبالقلب بأن يعتقد أن المنعم هو الله وحده ، وأنه المستحق للحمد ،

وبالجوارح بأن يستخدم هذه التعم فيما يعينه على الخير وطاعة الله ، فلا يستخدمها في معصية الله عز وجل ، وقد دل عليه الآية السابقة في سورة إبراهيم .

4- كثرة الظلم للنفس .

أصل (الظلم) في اللغة : وضع الشيء في غير موضعه . الرازي (420هـ) ، (الدينوري ، 397هـ)

وفي الاصطلاح : عبارة عن التعدي عن الحق إلى الباطل ، وهو الجور ، وقيل : هو التصرف في ملك الغير ومجاوزة الحد . (الجرجاني ، 403هـ)

ويقصد به هنا : تعدي الإنسان وجوره على نفسه بفعل ما يخالف أمر الله ويعرضه للعقوبة .

ويدل على هذا الوصف قوله تعالى : " وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا " سورة الأحزاب : آية 72 ، أى ظلوماً لنفسه . (الطبري ، 420هـ)

وعمل ابن عاشور (984هـ) وصف الإنسان بالظلم ؛ بسبب تقصيره عن عمد في الوفاء بحق ما تحمله من أمانه ، ورجح أن الظلم في الآية خاص بظلم العبد لنفسه .

وظلم النفس نوعان هما : ظلم النفس بالشرك الذي لا يغفره الله إذا مات العبد عليه قبل التوبة منه ، وظلمها بالمعاصي غير الشرك إذا لم يتب منها ، إن شاء الله غفر له ، وإن شاء عذبه بقدر معصيته ثم يخرج من النار ويدخله الجنة . (القحطاني د . ت)

لكن لفظ " ظلم النفس " : إذا أطلق فيعني جميع الذنوب ، وأما لفظ " الظلم المطلق " فيدخل فيه الكفر وسائر الذنوب . (ابن تيمية ، 416هـ)

أَنَّ مَعْرِفَةَ آثَارِ الظُّلْمِ وَعَوَاقِبِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَكْثَرِ المَعِينَاتِ عَلَى تَرْكِيَةِ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ مِنْ تِلْكَ الصِّفَةِ الْمَذْمُومَةِ ، فَمَنْ أَهَمَّ آثَارَ ظَلَمِ النَّفْسِ :

أ- عَدَمُ الفَّلَاحِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ : قَالَ تَعَالَى : " إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ " . سُورَةُ الْأَنْعَامِ : آيَةٌ 135 .

ب- حِرْمَانُ الهِدَايَةِ وَالتَّوْفِيقِ ، قَالَ تَعَالَى : " إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ " . سُورَةُ الْمَائِدَةِ : آيَةٌ 51 .

ج- سَبَبُ لمصائبِ الدُّنْيَا مِنْ أَوْجَاعٍ وَأَسْقَامٍ وَفَقْرٍ وَذَهَابِ الْأَوْلَادِ وَالْأَمْوَالِ وَالْقَتْلِ وَالتَّعْذِيبِ ، قَالَ

تَعَالَى : " وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ " . سُورَةُ الطُّورِ : آيَةٌ 47 .

د- حِرْمَانُ مَتِّعِ الدُّنْيَا ، فَمَا ضَاعَتْ نِعْمَةٌ صَاحِبِ الْجَنَّتَيْنِ إِلَّا بِظُلْمِهِ " وَدَخَلَ جَنَّتِهِ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ

مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رَدَدْتُمْ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهُمَا مُنْقَلَبًا " .

سُورَةُ الْكَهْفِ : آيَةٌ 35 .

ه- أَنَّهُ سَبَبٌ لِإِهْلَاكِ الْأُمَّمِ ، فَكَلَّمَا كَثُرَ الفَسَادُ فِي الْأَرْضِ نَزَلَ الْهَلَاكُ وَالْعِقَابُ الْأَلِيمُ ، قَالَ سُبْحَانَهُ :

" وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ " سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ : آيَةٌ II .

و- أَنَّهُ يَصِيبُ صَاحِبِهِ التَّدَمُّمَ وَالْحَسْرَةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : فَكُلُّ ظَالِمٍ سَيَنْدَمُ هُنَاكَ ، وَلَاتِ سَاعَةٌ مُنْدَمٌ ، قَالَ

تَعَالَى : " وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا التَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقَضَى

بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ " . سُورَةُ يُونُسَ : آيَةٌ 54 .

وَأَمَّا سَبِيلُ التَّرْكِيبِ مِنْ ظَلَمِ النَّفْسِ ؛ فَمَنْ خِلَالَ الْآتِي :

أ- الإِقْلَاعُ عَنِ الْمَعَاصِي وَكَثْرَةُ التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارُ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحِينٍ ، وَقَدْ جَاءَ الْأَمْرُ بِالِاسْتِغْفَارِ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ عَلَى الدَّوَامِ ، فَقَالَ تَعَالَى : " وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ .

فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَكَ فَإِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ وَلَمْ يَصِرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ " سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ : آيَةٌ

. I35

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ ، فَإِنِّي أَتُوبُ ، فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةٌ ، مَرَّةً » رَوَاهُ مُسْلِمٌ ، حَدِيثٌ رَقْمٌ 2702 .

ب- مُجَاهَدَةُ النَّفْسِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَاجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ ، قَالَ تَعَالَى : " وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى " سُورَةُ النَّازِعَاتِ آيَةٌ 40 .

ج- اسْتِشْعَارُ عَاقِبَةِ ظَلَمِ النَّفْسِ بِالذُّنُوبِ أَوْ بِالتَّقْصِيرِ فِي الْوَاجِبَاتِ ، سَوَاءً فِي الدُّنْيَا أَوْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

د- اسْتِشْعَارُ ثَوَابِ مُجَاهَدَةِ النَّفْسِ عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ وَتَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ .

5- صِفَةُ الْجَدَلِ وَالْخُصُومَةِ .

وَالْجَدَلُ فِي اللُّغَةِ : اللَّدْدُ فِي الْخُصُومَةِ وَالْقُدْرَةُ عَلَيْهَا ، وَهُوَ أَيْضًا شِدَّةُ الْخُصُومَةِ وَمُقَابَلَةُ الْحِجَّةِ بِالْحِجَّةِ ، يُقَالُ رَجُلٌ جَدَلٌ : إِذَا كَانَ أَقْوَى فِي الْخِصَامِ ، أَمَّا الْمُجَادَلَةُ : فَتَعْنِي الْمُنَازَعَةَ وَالْمُخَاصَمَةَ .

(ابن منظور ، 1414هـ) ، (الهروي ، 2001م)

وَالْجَدَلُ فِي الْإِصْطِلَاحِ : الْمَفَاوِضَةُ عَلَى سَبِيلِ الْمُنَازَعَةِ وَالْمُغَالَبَةِ . (الأصفهاني ، 1420هـ)

وَقَالَ الْجُرْجَانِيُّ (١٤٠٣هـ) : " هُوَ دَفَعَ الْمَرْءَ خَصْمِهِ عَنِ إِفْسَادِ قَوْلِهِ بِحِجَّةٍ أَوْ شُبْهَةٍ ، أَوْ يَقْصِدُ بِهِ تَصْحِيحَ كَلَامِهِ " .

وفى الحديث : " مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أَوْتُوا الْجِدَلَ " رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَةَ وَحَسَنَةُ الْإِلْبَانِيُّ .

وَالْمَعْنَى : الْجِدَلَ عَلَى الْبَاطِلِ وَطَلَبَ الْمَغَالِبَةَ بِهِ ، لَا إِظْهَارِ الْحَقِّ ، كَمَا أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ الْجَوِينِيُّ (١٣٩٩هـ) فِى تَفْرِيقِهِ بَيْنَ الْجِدَالِ الْمَحْمُودِ وَالْمَذْمُومِ ، وَإِنِ الْمَذْمُومُ مِنْهُ مَا يَكُونُ لِدَفْعِ الْحَقِّ أَوْ تَحْقِيقِ الْعِنَادِ ، أَوْ لِيَلْبَسَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ، أَوْ لِلْمَمَارَاةِ وَطَلَبِ الْجَاهِ ، وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : " مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جِدَلًا " الزُّخْرُفِ : آيَةٌ ٥٨ ، وَأَمَّا الْمَمْدُوحُ مِنْهُ فَهُوَ الَّذِى يَظْهَرُ الْحَقُّ ، وَيَكْشِفُ عَنِ الْبَاطِلِ ، وَيَهْدِفُ إِلَى الْإِقْتِنَاعِ بِالرُّجُوعِ عَنِ الْبَاطِلِ ، وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : " وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ " سُورَةِ النَّحْلِ : آيَةٌ . I25 .

وَقَدْ جَاءَ وَصْفُ الْإِنْسَانِ فِي الْقُرْآنِ بِأَنَّهُ أَكْثَرُ شَيْءٍ مُرَاءً وَخُصُومَةً ، فَهُوَ - كَمَا أَشَارَ الطَّبْرَانِيُّ (١٤٢٠هـ) - لَا يَنْبِيبُ لِحَقٍّ وَلَا يَنْزِجِرُ لِمَوْعِظَةٍ فَقَالَ تَعَالَى : " وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جِدَلًا " الْكَهْفِ : آيَةٌ ٥٤ ، وَيُؤَكِّدُ ابْنُ عَاشُورٍ (١٩٨٤م) أَنَّ فِي كُلِّ إِنْسَانٍ طَبْعَ الْحِرْصِ عَلَى إِقْتِنَاعِ الْمُخَالَفِ بِأَحْقِيَةِ مُعْتَقَدِهِ أَوْ عَمَلِهِ لَكِنِ الْجِدَلَ مِنْ حَيْثُ الْأَصْلِ صِفَةٌ قَبِيحَةٌ ، خَاصَّةً إِذَا لَمْ يَكُنْ يَهْدَفُ إِلَى الْوُصُولِ لِلْحَقِّ ، فَالْمُؤْمِنُ لَا يَكُونُ مُجَادِلًا ، بَلْ مُسْتَسْلِمًا لِلْحَقِّ لَا يَجَادِلُ فِيهِ . (ابن عثيمين ، ١٤٢٣هـ)

وَمِنْ آثَارِ الْمُجَادَلَةِ بِالْبَاطِلِ تَعْرِيزِ النَّفْسِ لِسَخَطِ اللَّهِ ، ففى الحديث : " وَمَنْ خَاصَمَ فِى بَاطِلٍ وَهُوَ يَعْلَمُهُ لَمْ يَزَلْ فِى سَخَطِ اللَّهِ حَتَّى يَنْزِعَ " رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَصَحَّحَهُ الْأَبَانِيُّ .

وَمِنْ آثَارِ تَرْكِ الْجِدَالِ الْمَذْمُومِ ، قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَنَا زَعِيمٌ بَيْتِ فِى رَبِضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحَقًّا " رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَحَسَّنَهُ الْأَبَانِيُّ .

وَقَدْ ذَكَرَ الْخَرِيفُ (٤٣٥هـ) وَالْمُنْجِدُ (٤٣٥هـ) أَهَمَّ الْآثَارِ السَّيِّئَةِ لِلْجِدَالِ الْمَذْمُومِ وَالتِّى مِنْهَا مَا يَأْتِى أ- حِرْمَانِ الْخَيْرِ الْعَظِيمِ ، فَقَدْ قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ : " إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ شَرًّا زَمَّهُمُ الْجِدَالَ وَمَنَعَهُمُ الْعَمَلَ " .

ب- أَنَّهُ يَقُودُ صَاحِبُهُ إِلَى الْكُذْبِ أَوْ الزَّلَلِ ، قَالَ مُسْلِمٌ بْنُ الْيَسَارِ : " إِيَّاكُمْ وَالْمِرَاءَ فَإِنَّهُ سَاعَةٌ جَهْلٍ الْعَالِمِ وَبِهَا يَبْتَغَى الشَّيْطَانُ زَلَّتَهُ " .

ت- أَنَّهُ يَدْعُو إِلَى التَّشْفِى مِنَ الْآخِرِينَ .

ث- أَنَّهُ رَبَّمَا يُوْدَى إِلَى تَكْفِيرٍ أَوْ تَفْسِيقٍ الْآخِرِينَ .

ج- أَنَّهُ يورث الشَّقَاقَ وَالْعُدَاوَةَ وَالضَّغَائِنَ وَقَسْوَةَ الْقَلْبِ ، قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : " الْمِرَاءُ فِى الدِّينِ يَقْسَى الْقَلْبَ وَيورث الضَّغَائِنَ " .

ح- أَنَّهُ يُوْدَى إِلَى رَدِّ الْحَقِّ وَإِنْكَارِهِ .

خ- أَنَّ أَقْلَ مَا يُقَالُ عَنْهُ أَنَّهُ مِنْ فَضُولِ الْكَلَامِ الذِّى يُعَابُ عَلَى صَاحِبِهِ الْإِنْشِغَالُ بِهِ .

وَهَذِهِ الْآثَارُ السَّيِّئَةُ تَكْفَى الْعَاقِلَ لِلإِبْتِعَادِ عَنْ صِفَةِ الْجِدَالِ .

وَمَنْ أَهَمَّ سُبُلَ تَرْكِيَةِ الْإِنْسَانِ مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ الْمَذْمُومَةِ مَا يَأْتِي :

أ- مَعْرِفَةُ أَنَّ الْجِدَالَ مِنْهُ مَا هُوَ مَذْمُومٌ وَمِنْهُ مَا هُوَ مَحْمُودٌ ، فَيَتْرَكُ الْمَذْمُومَ وَيَأْتِي الْمَحْمُودَ مِنْهُ بِضَوَابِطِهِ وَشُرُوطِهِ .

ب- أَنْ يَجَادِلَ الْإِنْسَانَ لِإِظْهَارِ الْحَقِّ وَإِبْطَالِ الْبَاطِلِ وَلَكِنْ وَفْقَ ضَوَابِطِ وَشُرُوطِ مِنْهَا : أَنْ يَكُونَ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنَ ، وَإِنْ يَكُونَ الْمُخَالَفَ يَرِيدُ الْوُصُولَ لِلْحَقِّ وَلَيْسَ مُجَرَّدَ الْجِدَالِ ، وَإِنْ يَكُونَ الْمَجَادِلَ لَدَيْهِ مِنْ الْعِلْمِ مَا يَحْصُلُ بِهِ إِظْهَارُ الْحَقِّ ، وَالْأَدِلَّةُ عَلَى تِلْكَ الشُّرُوطِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ كَثِيرَةٌ لَيْسَ هَذَا مَجَالَهَا .

ت- أَنْ يَدْرِكَ الْإِنْسَانُ الْآثَارَ الْوَحِيمَةَ لِلْجِدَالِ الْمَذْمُومِ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى حَاضِرِ أَمْرِهِ وَمُسْتَقْبَلِهِ .

ث- إدْرَاكُ الْإِنْسَانِ لِلتَّمَارِ الَّتِي يَجْنِيهَا مِنْ خِلَالِ تَرْكِهِ لِلْجِدَالِ الْمَذْمُومِ ، سَوَاءً كَانَتْ دُنْيَوِيَّةً أَوْ أُخْرَوِيَّةً ، وَأَنَّهُ مُتَابٌّ عَلَى تَرْكِهِ الْجِدَالَ الْمَذْمُومَ .

6- الْعَجَلَةُ .

الْعَجَلَةُ فِي اللُّغَةِ : ضِدُّ الْبُطْءِ وَالتَّأْنِي ، أَوْ هِيَ السَّرْعَةُ (الرازي ، ١٤٢٠هـ) (ابن منظور ، ١٤١٤هـ) .

وَفِي الْإِصْطِلَاحِ : هِيَ فَعَلَ الشَّيْءِ قَبْلَ أَوَانِهِ . (الزَّيْدِيُّ ، د . ت)

وَهِيَ صِفَةٌ مَذْمُومَةٌ فِي عَامَّةِ الْقُرْآنِ ، حَتَّى قِيلَ : أَنَّ الْعَجَلَةَ مِنَ الشَّيْطَانِ (الحدادي ، ١٤١٠هـ) .

وَقَدْ دَلَّ عَلَى تِلْكَ الصِّفَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : " خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ " . سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ : آيَةٌ ٣٧ .

وَالْمَعْنَى كَمَا ذَكَرَ الْقُرْطُبِيُّ (ه1384) : أَيْ رُكِبَ عَلَى الْعَجَلَةِ فَخُلِقَ عَجُولًا ، أَيْ طَبِعَ الْإِنْسَانُ الْعَجَلَةَ ،
فَيَسْتَعْجِلُ كَثِيرًا مِنَ الْأَشْيَاءِ وَإِنْ كَانَتْ مُضِرَّةً ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : " وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا " . سُورَةُ

الْإِسْرَاءِ : آيَةٌ II

قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ : " خُوطِبَ الْعَرَبُ بِمَا تَعَقَّلَ ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِلَّذِي يَكْثُرُ الشَّيْءَ : خُلِقَتْ مِنْهُ ، كَمَا
تَقُولُ : خُلِقَتْ مِنْ لَعِبٍ إِذَا بُولَغَ فِي وَصْفِهِ بِاللَّعِبِ . وَخُلِقَ فَلَانٌ مِنَ الْكَيْسِ إِذَا بُولَغَ فِي صِفَتِهِ بِالْكَيْسِ "
. (ابن مَنْظُورٌ ، 1414 هـ)

وَأَكَّدَ الْمَاتَرِيدِيُّ (1426 هـ) عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ عَجُولًا فَلَا يَصْبِرُ عَلَى حَالِهِ وَاحِدَةً ؛ وَإِنْ كَانَتْ
الْحَالَةُ حَالَةً نِعْمَةً وَرَخَاءً حَتَّى يَمَلَّ عَنْهَا وَيَسْأَمُ وَيُرِيدُ التَّحَوُّلَ إِلَى حَالَةٍ هِيَ دُونَ تِلْكَ الْحَالَةِ وَيَرْضَى
بشئٍ دُونَ .

وَالْعَجَلَةُ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي يَحِبُّهَا الشَّيْطَانُ ؛ لِأَنَّهَا تُوقِعُ الْإِنْسَانَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَخْطَاءِ ، كَمَا إِنَّ التَّخَلُّقَ
بِالتَّأْنِي وَتَرَكَ الْعَجَلَةَ مِمَّا يَحِبُّهُ اللَّهُ ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ : (إِنْ فِيكَ لِحْصَلَتَيْنِ
يَحِبُّهُمَا اللَّهُ ؛ الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ ، رُقْمَ الْحَدِيثِ (17 ، 18) .

وَهُنَاكَ أَنْوَاعٌ مِنَ الْعَجَلَةِ مَحْمُودَةٌ ، كَمَا قَالَ حَاتِمٌ : « كَانَ يُقَالُ الْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا فِي خَمْسٍ ،
إِطْعَامُ الطَّعَامِ إِذَا حَضَرَ الضَّيْفُ ، وَتَجْهِيزُ الْمَيْتِ إِذَا مَاتَ ، وَتَرْوِيحُ الْبَكْرِ إِذَا أُدْرِكَتْ ، وَقَضَاءُ الدَّيْنِ
إِذَا وَجِبَ ، وَالتَّوْبَةُ مِنَ الذَّنْبِ إِذَا أَذْنَبَ » . (الْأَصْبَهَانِيُّ ، 1394 هـ)

أَنَّ انْصَافَ الْإِنْسَانَ بِالْعَجَلَةِ الْمَذْمُومَةِ سَتَقُودُهُ إِلَى الْمَهَالِكِ ، بَلْ وَالتَّدَمُّ .

وَعَلَّ ابْنُ الْقَيْمِ (د . ت) كَوْنَ الْعَجَلَةِ مِنَ الشَّيْطَانِ ؛ لِأَنَّهَا خَفَةٌ وَطِيْشٌ وَخَدَهُ فِي الْعَبْدِ تَمَنُّعُهُ مِنْ التَّكَبُّتِ وَالْوَقَارِ وَالْحِلْمِ ، وَتُوجِبُ لَهُ وَضْعَ الْأَشْيَاءِ فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا ، وَتَجَلِّبُ عَلَيْهِ أَنْوَاعًا مِنَ الشُّرُورِ ، وَتَمَنُّعُهُ أَنْوَاعًا مِنَ الْخَيْرِ ، وَهِيَ قَرِينُ النَّدَامَةِ فَقُلْ مَنْ اسْتَعْجَلَ إِلَّا نَدَمَ .

فَتَبَيَّنَ مِنْ كَلَامِ ابْنِ الْقَيْمِ السَّابِقِ تِلْكَ الْأَثَارَ السَّيِّئَةَ لِلْعَجَلَةِ ، وَهِيَ آثَارٌ تَنْفِرُ مِنْهَا الطَّبَاعُ السَّلِيمَةُ .

وَأَمَّا عَنْ كَيْفِيَّةِ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ مِنَ الْعَجَلَةِ ، فَيَرَى الْمَاتَرِيدِيُّ (1426هـ) أَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ مِنْ خِلَالِ رِيَاضَةِ نَفْسِهِ حَتَّى يَصِيرَ صَبُورًا مَتَانِيًّا ، فَبِالرِّيَاضَةِ لِلنَّفْسِ يَتَحَوَّلُ عَنْ الْحَالَةِ الَّتِي خَلَقَ عَلَيْهَا وَهِيَ الْعَجَلَةُ إِلَى حَالَةٍ أُخْرَى هِيَ التَّائِي وَالصَّبْرُ ، فَيَعْتَادُ الْأَنَاءَ وَيَدَعُ الْعَجَلَةَ .

وَيَقْصِدُ بِرِيَاضَةِ النَّفْسِ هُنَا : تَرْوِيضَهَا وَمَجَاهِدَتَهَا لِتَزْكُوَ وَتَتْرَكَ مَا يَحُولُ دُونِ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِي .

وَهَذَا مَا يُؤَكِّدُ الْحَسِينِيُّ (1990م) الَّذِي يَرَى بِأَنَّ الْعَجَلَةَ مِنْ غَرَائِزِ الْإِنْسَانِ الْقَابِلَةِ لِلتَّأْدِيبِ وَالتَّشْقِيفِ ، حَتَّى لَا تَطْغَى بِهِ قُوْرُدُهُ الْمَوَارِدِ ، لَكِنَّهُ عَلَّلَ اسْتِعْجَالَهُ بِالْخَيْرِ وَالْحَسَنَةِ بِسَبَبِ شِدَّةِ حِرْصِهِ عَلَى مَنَافِعِهِ وَقَلَّةِ صَبْرِهِ عَنْهَا ، وَعَلَّلَ اسْتِعْجَالَهُ بِالضَّرِّ وَالسَّيِّئَةِ بِسَبَبِ عَارِضِ كَالْغَضَبِ وَالْجُهْلِ وَالْعِنَادِ .

وَالْإِسْتِهْزَاءِ وَالتَّعْجِيزِ ، لِلتَّجَاعَةِ مِمَّا هُوَ شَرٌّ مِنْهُ ، كَمَا يَفْعَلُ الْبَائِسُونَ مِنَ الْحَيَاةِ ، أَوْ التَّجَاعَةِ مِنْ ذُلِّ وَخِزْيِ أَوْ أَلْمٍ لَا يُطَاقُ ، حَيْثُ يَتَخَمَّوْنَ الْمَهَالِكَ أَوْ يَلْجَأُونَ إِلَى الْإِنْتِحَارِ .

وَقَدْ وَجَّهَ الْخَالِقُ تِلْكَ الْفِطْرَةَ الْعَجُولَةَ لِذِي الْإِنْسَانِ إِلَى مَعْنَى يَتَوَافَقُ مَعَهَا ، لَكِنَّهُ جَالِبٌ لِلْبَرِّ وَالْخَيْرِ ، وَهُوَ الْمُسَارَعَةُ إِلَى الْخَيْرَاتِ ، ثُمَّ إِنَّ الْحِلْمَ هِيَ الصِّفَةُ الْمُعْتَدِلَةُ الَّتِي تَمْنَعُ الْإِنْسَانَ عَنِ الْعَجَلَةِ .

7- الْبُخْلُ .

وَهُوَ عِنْدَ الْعَرَبِ : مَنَعُ السَّائِلِ مِمَّا يُفْضَلُ عِنْدَهُ . (الفيومي ، د . ت)

وفي الشَّرْعِ : مَنَعُ الْوَاجِبِ ، (الحدادي ، ٤١٤١٠هـ) وقيل : إمساك المقتنيات عمَّا لا يحل حبسها عنه

وَصِدُّهُ الْجُودُ . (الحدادي ، ٤١٤١٠هـ)

لكن الغزالي (د . ت) يرى أنَّ مَنْ أَدَّى وَاجِبَ الشَّرْعِ وَوَجِبَ الْمُرُوءَةِ اللَّائِقَةَ بِهِ فَقَدْ زَكِيَ نَفْسِهِ مِنَ الْبُخْلِ .

إمَّا وَاجِبُ الشَّرْعِ فَمَعْلُومٌ بِالزَّكَاةِ خَاصَّةً وَالصَّدَقَةِ وَالْبَدْلِ عَامَّةً ، إمَّا وَاجِبُ الْمُرُوءَةِ فيرى الباحث أنَّه بِحَسَبِ الْعُرْفِ الْاجْتِمَاعِيِّ الَّذِي يَتَغَيَّرُ بِتَغْيِيرِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ .

والدليل على هذه الصفة قوله تعالى : " وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا " . سُورَةُ الْإِسْرَاءِ : آية ١٠٠ ، وَالْمَعْنَى : وَكَانَ الْإِنْسَانُ بَخِيلًا مُمَسِّكًا . (الطبري ، ٤١٤٢٢هـ)

وَمِنْ أَثَارِ الْبُخْلِ مَا يَرَاهُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ (٤١٣٩٩هـ) مِنْ كَوْنِهِ مِنْ أَمْرَاضِ النَّفُوسِ ؛ إِنْ أَطَاعَهُ أَوْجَبَ لَهُ النَّالَ ، وَإِنْ عَصَاهُ نَالَ كَأَمْرَاضِ الْجِسْمِ .

وَمَعْنَى كَلَامِهِ أَنَّ الْبُخْلَ وَالْجُودَ كِلَيْهِمَا يَشْعُرُ بِالنَّالِ مَعَ الْفَارِقِ فِي النَتِيجَةِ .

فَالْبُخْلُ مِنْ أَشَدِّ الْأَمْرَاضِ النَّفْسِيَّةِ فَتَكَا بِصَاحِبِهِ وَبِالْمَجْتَمَعِ ، وَمَنْشَأُهُ مِنْ عَدَمِ التَّصَدِيقِ بِوَعْدِ اللَّهِ ، وَإِثَارُ النَّفْسِ عَلَى غَيْرِهَا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ، وَالْإِسْتِهَانَةَ بِسُوءِ السَّمْعَةِ بَيْنَ النَّاسِ . (السباعي ، ٤١٤١٨هـ)

كما أنَّه مِنْ مَسَاوِي الْأَخْلَاقِ ، وَمِنْ الْمُخْلَاتِ بِالْدِينِ وَالْمُرُوءَةِ ، وَهُوَ مِمَّا يَجْلِبُ الشَّقَاءَ لِصَاحِبِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَالْبُخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ ، بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ ، بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ ، قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ ، وَالْبُخِيلُ

ضيق الصدر ، صغير النفس ، قليل الفرح ، كثير الهم والغم ، لا يكاد يقضى له حاجة ، ولا يعان على
مطلوب . (الحمد ، د . ت)

ويعلل الماتريدي (١٤٢٦هـ) كون الإنسان جبيل وفطر على البخل ؛ أنه من أجل أن يمتحنه الله بذلك فيرى
منه مجاهدة النفس على الجود والكرم أو البقاء على البخل والتقتير .

وأما ما يتعلق بتزكية الإنسان من البخل فمن خلال ما يأتي :

أ- ترويض النفس ومجاهدتها على الجود واعتيادها على ذلك والاستعانة بالله على تحقيق ذلك ، دل
عليه قوله تعالى : " وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ " . سورة التغابن : آية ١٦

يقول الغزالي (د . ت) حول هذا المعنى : " إِنَّمَا تَزُولُ صِفَةُ الْبُخْلِ بِأَنْ تَتَعَوَّدَ بِذَلِكَ الْمَالِ ، فَحُبُّ
الشَّيْءِ لَا يَنْقَطِعُ إِلَّا بِقَهْرِ النَّفْسِ عَلَى مُفَارَقَتِهِ حَتَّى يَصِيرَ ذَلِكَ عَتِيدًا ، فَالزُّكَاةُ بِهَذَا الْمَعْنَى طَهْرَةٌ أَيْ
تُطَهِّرُ صَاحِبَهَا عَنْ حَبْثِ الْبُخْلِ الْمُهْلِكِ وَإِنَّمَا طَهَارَتُهُ بِقَدْرِ بَذْلِهِ وَبِقَدْرِ فَرَجِهِ بِإِخْرَاجِهِ وَاسْتِبْشَارِهِ
بِصَرْفِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى " .

وقد ذكر السعدى (١٤٢٠هـ) أن الشح المحبول عليه أكثر النفوس أفة تمنع من التفقة المأمور بها ،
فنفوسهم تشح بالمال ، وتحب وجوده ، وتكره خروجه من اليد غاية الكراهة ، لكن من وقاه الله شر
شح نفسه بأن سمحت نفسه بالإنفاق النافع لها ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ﴿ لَأَنَّهُمْ أُدْرِكُوا الْمَطْلُوبَ ،
وَنَجَّوْا مِنَ الْمَرْهُوبِ .

وَهَذَا الْكَلَامُ يَفْهَمُ مِنْهُ أَنَّ تَرْكِيَةَ النَّفْسِ مِنَ الْبُخْلِ يَكُونُ بُدْعَاءَ اللَّهِ أَنْ يَقِيكَ الشَّحَّ ، وَإِنْ تَدْرَكَ حَقِيقَةَ الْأُمُورِ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ إِلَّا لِيَنْفَعَكَ ، وَلَا يَنْهَى إِلَّا لِيُدْفَعَ عَنْكَ الضَّرْرَ ، فَمَا يَعِينِ الْإِنْسَانَ عَلَى الْبُعْدِ عَنِ الْبُخْلِ فَيَفْلَحَ وَيَنْجَحَ مِثْلَ الدُّعَاءِ وَالْمُجَاهَدَةِ لِلنَّفْسِ تَقَرُّبًا لِلَّهِ .

ب- أَنَّ الْمَرْءَ وَإِنْ جَبَلَ عَلَى حُبِّ مَا يَتَلَذَّذُ بِهِ ، وَبُغِضَ مَا يَتَأَلَمُ وَيَتَوَجَّعُ مِنْهُ ، فَقَدْ جَبَلَ أَيْضًا عَلَى تَرْكِ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ اللَّذَّةِ ؛ لِذَلِكَ هِيَ أَعْظَمُ مِنْهَا ، وَعَلَى التَّصَبُّرِ لِاحْتِمَالِ الْأَذَى وَالْمَكْرُوهِ ؛ لِيَتَخَلَّصَ عَمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ الْمَكْرُوهِ وَالْأَلَمِ ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ إِذَا قَابَلَ نَعِيمَ الدُّنْيَا بِنَعِيمِ الْآخِرَةِ ، وَأَقْرَبَ اللَّذَتَيْنِ بَأْبَعْدَهُمَا ، فَزَأَى لَذَّةَ الْآخِرَةِ أَعْظَمَ وَأَبْقَى ، فَخَفَّ عَلَيْهِ تَرْكُ اقْتِرَابِهِمَا لِأَبْعَدَهُمَا وَأَقْلَبَهُمَا لِأَكْثَرَهُمَا ، وَإِذَا قَابَلَ مَكْرُوهَ الدُّنْيَا بِمَكْرُوهِ الْآخِرَةِ ، وَعَذَابِهَا بِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَشَدَّ وَأَبْقَى ، حُفَّ عَلَيْهِ تَحْمِيلُ الْمَكَارِهِ فِي الدُّنْيَا .

ج- مِمَّا يِعَالَجُ بِهِ الْبُخْلُ الْإِسْتِغَالَ بِضِدِّهِ وَهُوَ الْكِرْمُ وَالْجُودُ ، وَيَذَكَرُ الْقَاسِمِيُّ (١٤١٥هـ) أَنَّ سَبَبَ الْبُخْلِ حُبُّ الْمَالِ ، وَلِحُبِّ الْمَالِ سَبَبَانِ : أَحَدُهُمَا : حُبُّ الشَّهَوَاتِ الَّتِي لَا وُضُوءَ إِلَيْهَا إِلَّا بِالْمَالِ مَعَ طُولِ الْأَمَلِ ، وَالثَّانِي : أَنْ يُحِبَّ عَيْنَ الْمَالِ وَيَلْتَذَّ بِوُجُودِهِ وَإِنْ عَلِمَ أَنَّهُ زَائِدٌ عَنْ حَاجَاتِهِ بَقِيَّةَ عُمْرِهِ ، وَوَيَرَى أَنَّ عِلَاجَ كُلِّ عِلَّةٍ بِمُضَادَّةِ سَبَبِهَا ، فَيُعَالِجُ حُبَّ الشَّهَوَاتِ بِالْقَنَاعَةِ بِالْيُسَيْرِ وَبِالصَّبْرِ ، وَيُعَالِجُ طُولَ الْأَمَلِ بِكَثْرَةِ ذِكْرِ الْمَوْتِ ، وَالتَّنْظُرِ فِي مَوْتِ الْأَقْرَانِ وَطُولِ تَعَبِهِمْ فِي جَمْعِ الْمَالِ وَضَيَاعِهِ بَعْدَهُمْ ، وَيُعَالِجُ التَّقَاتُ الْقَلْبَ إِلَى الْوَلَدِ بِأَنَّ خَالِقَهُ خَلَقَ مَعَهُ رِزْقَهُ ، وَكَمَ مِنْ وَلَدٍ لَمْ يَرِثْ مِنْ أَبِيهِ مَالًا ، وَحَالَهُ أَحْسَنُ مِمَّنْ وَرِثَ ، وَبِأَنَّ يَعْلَمَ أَنَّهُ يَجْمَعُ الْمَالَ لَوْلَدِهِ يُرِيدُ أَنْ يَتْرَكَ وَوَلَدُهُ بِخَيْرٍ وَيُنْقَلِبُ إِلَى شَرٍّ ، وَيُعَالِجُ قَلْبَهُ أَيْضًا بِكَثْرَةِ التَّأَمُّلِ فِي الْأَخْبَارِ الْوَارِدَةِ فِي ذَمِّ الْبُخْلِ وَمَدْحِ السَّخَاءِ وَمَا تَوَعَّدَ اللَّهُ بِهِ عَلَى الْبُخْلِ مِنَ الْعِقَابِ الْعَظِيمِ .

د- وَمِنَ الْأَدْوِيَةِ النَّافِعَةِ لِلْبُخْلِ : كَثْرَةُ التَّأَمُّلِ فِي أَحْوَالِ الْبُخْلَاءِ وَنَفْرَةُ الطَّنَعِ عَنْهُمْ وَاسْتِقْبَاحُهُمْ لَهُ ، فَإِنَّهُ مَا مِنْ بَخِيلٍ إِلَّا وَيَسْتَقْبِحُ الْبُخْلَ مِنْ غَيْرِهِ ، وَيَسْتَقْتَلُ الْبَخِيلُ مِنَ أَصْحَابِهِ فَيَعْلَمُ أَنَّهُ مُسْتَقْتَلٌ وَمُسْتَقْتَدِرٌ فِي قُلُوبِ النَّاسِ مِثْلُ سَائِرِ الْبُخْلَاءِ فِي قَلْبِهِ .

ذ- أَنْ يَتَفَكَّرَ فِي مَقَاصِدِ الْمَالِ وَأَنَّهُ لِمَاذَا خُلِقَ فَلَا يَحْفَظُ مِنْهُ إِلَّا قَدْرَ حَاجَتِهِ وَالْبَاقِي يَدَّخِرُهُ لِنَفْسِهِ فِي الْآخِرَةِ بَأَنْ يَحْصُلَ لَهُ ثَوَابٌ بِذَلِكَ ، فَهَذِهِ الْأَدْوِيَةُ مِنْ جِهَةِ الْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ ، فَإِذَا عَرَفَ بُورِ الْبَصِيرَةِ أَنَّ الْبَذْلَ خَيْرٌ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنَ الْأَمْسَاكِ ؛ هَاجَتْ رَغْبَتُهُ فِي الْبَذْلِ إِنْ كَانَ عَاقِلًا ، فَإِذَا تَحَرَّكَتِ الشَّهْوَةُ فَيَنْبَغِي أَنْ يُجِيبَ الْخَاطِرَ الْأَوَّلَ ، وَلَا يَتَوَقَّفَ ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَعِدُّهُ الْفَقْرَ وَيُخَوِّفُهُ وَيَصُدُّهُ عَنْهُ .

ويرى مرسى (ه1425) بأن البخل يمكن علاجه من خلال نوع التربية التي يخضع لها الإنسان ، والتنشئة التي نشأ عليها ، وهو رأى معقول جدًا ، فتربية الطفل على الجود والكرم تبعده عن صفة البخل بعد أن يكبر ويصبح رجلاً ، وكم من إنسان عرف عنه الجود والكرم فتبعه على ذلك أولاده ، بل إن القبائل تتوارث صفة الجود والكرم من آباؤهم الأقدمين وتنشئ على ذلك أطفالها .

ح- تَدَبَّرَ عِقَابَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِمَنْ يَمْنَعُ مَالَهُ مِنْ إِفْقَاقِهِ فِي سَبِيلِهِ ، فَإِنَّهُ سَيَتَعَطَّ وَيَنْفَقُ بِسَخَاءٍ ، وَهُوَ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ عَطَّارٌ (ه1419) كَعَلَّاحٍ لِلْبُخْلِ .

8- الْجَهْلُ .

وهو في اللغة : نقيض العلم .

وفي الاصطلاح : اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه . (المرجاني ، ه1403)

وَهُوَ تَوْعَانٍ : بسيط : وَهُوَ عَدَمُ الْعِلْمِ عَمَّا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَكُونَ عَالِمًا ، وَمُرَكَّبٌ : وَهُوَ اعْتِقَادُ جَازِمٍ غَيْرِ مُطَابِقٍ لِلْوَاقِعِ . (الجرجاني ، ٤٠٣هـ)

وَقَدْ دَلَّ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : " وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا " . سُورَةُ الْأَحْزَابِ : آيَةٌ ٧٢

قَالَ ابْنُ عَشُورٍ (١٩٨٤م) مَبِينَا الْمُرَادِ بِالْجَهْلِ فِي الْآيَةِ أَنَّهَا " اتِّقَاءُ عِلْمِ الْإِنْسَانِ بِمَوَاقِعِ الصَّوَابِ فِيمَا تَحَمَّلَ بِهِ " .

وَهُوَ الْمَقْصُودُ فِي وَصْفِ الْإِنْسَانِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ .

وَمِنْ خِلَالِ الْآيَةِ وَمَعْنَاهَا يَتَضَحُّ قُبْحُ الْجَهْلِ ، يَقُولُ ابْنُ الْقَيْمِ (٤١٠هـ) : " أَنَّ الْإِنْسَانَ مِنْ حَيْثُ هُوَ ؛ عَارٍ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ مِنَ الْعِلْمِ النَّافِعِ ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَإِنَّمَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يَكْمَلُهُ بِذَلِكَ ، وَيُعْطِيهِ إِيَّاهُ ، وَلَيْسَ لَهُ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ ، بَلْ لَيْسَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ إِلَّا الْجَهْلُ الْمُضَادُّ لِلْعِلْمِ ، وَالظُّلْمُ الْمُضَادُّ لِلْعَدْلِ ، وَكُلُّ عِلْمٍ وَعَدْلٍ وَخَيْرٍ فِيهِ فَمَنْ رَبَّهُ ، لَا مِنْ نَفْسِهِ " .

وَالْجَهْلُ لَهُ آثَارٌ سَيِّئَةٌ مِنْهَا : مَوْتُ الْقَلْبِ بِالْجَهْلِ الْمَطْلُوقِ ، وَمَرَضُهُ بِنَوْعٍ مِنَ الْجَهْلِ ، وَمَرَضُ الْقَلْبِ إِذَا وَرَدَ عَلَيْهِ شُبُهَةٌ أَوْ شَهْوَةٌ قُوتِ مَرَضِهِ وَإِنْ حَصَلَتْ لَهُ حِكْمَةٌ وَمَوْعِظَةٌ كَانَتْ مِنْ أَسْبَابِ صَلَاحِهِ وَشِفَاؤِهِ . (ابن تيمية ، ٣٩٩هـ)

فَإِذَا كَانَ الْجَهْلُ مَرَضًا ؛ فَشَفَاؤُهُ الْعِلْمُ وَالْهُدَى ، وَمَرَضُهُ يُؤَلِّمُ الْقَلْبَ ، وَبَعْضُ النَّاسِ يَدَاوِيهِ بِعُلُومٍ لَا تَنْفَعُ ،
وَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ قَدْ صَحَّ مِنْ مَرَضِهِ بِتِلْكَ الْعُلُومِ ، وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ إِنَّمَا تَزِيدُهُ مَرَضًا إِلَى مَرَضِهِ . (ابن قيم
الجوزية ، د . ت)

وَأَمَّا تَرْكِيَةُ الْإِنْسَانِ مِنَ الْجَهْلِ فَقَدْ قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ : لَا دَاءَ أَكْبَرَ مِنَ الْجَهْلِ ، وَلَا دَوَاءَ أَكْبَرَ مِنْ دَوَاءِ
الْجَهْلِ ، وَلَا طَبِيبَ أَقْلَ مِنْ طَبِيبِ الْجَهْلِ ، وَلَا شِفَاءَ أَكْبَرَ مِنْ شِفَاءِ الْجَهْلِ . (السمعاني ، ٥١٤١٨)
وَإِنَّمَا دَوَاءُ الْجَهْلِ التَّعَلُّمُ .

٩- الهلع والجزع .

الهِلَعُ : الْحِرْصُ ، وَقِيلَ : الْجَزَعُ وَقِلَّةُ الصَّبْرِ ، وَقِيلَ : هُوَ أَسْوَأُ الْجَزَعِ وَأَفْحَشُهُ . (ابن منظور ، ٥١٤١٤)
والهلع في الاصطلاح : شدة الجزع مع شدة الحرص والضجر . (الطبري ، ٥١٤٢٠)

والجزع : تقيض الصبر ، فإذا كثرت منه الجزع فهو جزوع . (الهروي ، ٢٠٠١م)

وَالْجَزَعُ فِي الْإِصْطِلَاحِ : حُزْنٌ يَصْرِفُ الْإِنْسَانَ عَمَّا هُوَ بِصَدَدِهِ وَيَقْطَعُهُ عَنْهُ ؛ وَهُوَ أَنْلَغَ مِنَ الْحُزْنِ لِأَنَّ
الْحُزْنَ عَامٌ . (الكفوي ، د . ت)

وَقَدْ اسْتَخْلَصَ ابْنُ عَاشُورٍ (١٩٨٤م) مِنْ تَبَعِهِ لِاسْتِعْمَالِ كَلِمَةِ "الهِلَعِ" ؛ أَنَّ الْهِلَعِ قِلَّةُ إِمْسَاكِ النَّفْسِ
عِنْدَ اغْتِرَاءِ مَا يُحْزِنُهَا أَوْ مَا يَسْرِهَا أَوْ عِنْدَ تَوَقُّعِ ذَلِكَ وَالْإِشْفَاقِ مِنْهُ ، بَيْنَمَا الْجَزَعُ يَكُونُ مِنْ آثَارِ الْهِلَعِ ،
فَإِنْ كَانَ بَعْضُ أَهْلِ اللُّغَةِ قَدْ فَسَّرَ الْهِلَعُ بِالشَّرِّ ، وَبَعْضُهُمْ بِالضَّجْرِ ، وَبَعْضُهُمْ بِالشَّحِّ ، وَبَعْضُهُمْ بِالْجُوعِ ،

وَبَعْضُهُمْ بِالْجُبْنِ عِنْدَ اللَّقَاءِ ؛ فَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ عَاشُورٍ فِي ضَبْطِهِ يَجْمَعُ هَذِهِ الْمَعَانِيَ وَيُرِيكَ أَنَّهَا آثَارٌ لِصِفَةِ
الْهَلَعِ كَمَا يَقُولُ .

وَقَدْ دَلَّ عَلَى هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : " إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (I9) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا)
(20) " سُورَةُ الْمَعَارِجِ : آيَةٌ 19-20 .

وَمَعْنَى خُلِقَ هَلُوعًا : أَيْ أَنَّ الْهَلَعَ طَبِيعَةٌ كَامِنَةٌ فِيهِ مَعَ خَلْقِهِ تَظْهَرُ عِنْدَ ابْتِدَاءِ شُعُورِهِ بِالنَّافِعِ وَالضَّارِّ فَهُوَ
مِنْ طِبَاعِهِ الْمَخْلُوقَةِ كَعَبْرَتِهَا مِنْ طِبَاعِهِ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي عَلَيْهِ أَنْ يَرُوضَ نَفْسَهُ عَلَى مُقَاوَمَةِ التَّنَاقُصِ وَإِزَالَتِهَا
عَنْهُ . (ابن عَاشُورٌ ، 1984م)

وَالْهَلَعُ وَالْجَزَعُ : صِفَتَانِ غَيْرُ مَحْمُودَةٍ ، فَوُصِفَ الْإِنْسَانُ هُنَا بِهِمَا لَوْعٍ عَلَيْهِ فِي تَقْصِيرِهِ عَنِ التَّخَلُّقِ بِدَفْعِ
آثَارِهَا .

أَنَّ خُلُوعَ الْقَلْبِ مِنَ الْإِيمَانِ يَنْتِجُ الْهَلَعَ وَالْجَزَعَ ، فَهُوَ دَائِمًا فِي قَلْقٍ وَخَوْفٍ ، أَمَّا حِينَ يَعْمُرُ قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ
فَهُوَ مِنْهُ فِي طَمَئِنَةٍ وَعَافِيَةٍ ، لِأَنَّهُ مُتَّصِلٌ بِخَالِقِ الْكُونِ وَمُدَبِّرِ الْأَحْوَالِ ، مُطْمَئِنٌّ إِلَى قُدْرَةِ ، شَاعِرٌ
بِرَحْمَتِهِ ، مُتَدَبِّرٌ لِابْتِلَائِهِ ، مُتَطَلِّعٌ إِلَى فَرْجِهِ ، مُنْتَظِرٌ لِإِحْسَانِهِ ، فَالْمُؤْمِنُونَ لَا يَصِيبُهُمُ الْجَزَعُ وَلَا الْهَلَعُ .
(التويجى ، د . ت)

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ مِنْ أَوْصَافِ أَهْلِ الْإِيمَانِ مَا يَدْفَعُونَ بِهِ هَذِهِ الصِّفَةَ الْمَذْمُومَةَ ؛ وَذَلِكَ بَعْدَ مَا ذَكَرَ وَصَفِ
الْإِنْسَانَ بِالْهَلَعِ وَالْجَزَعِ ، فَقَالَ تَعَالَى : " إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (I9) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا
مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ

مُعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ
 مُشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ
 أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنْ ابْتغىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31) وَالَّذِينَ هُمْ
 لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (34)
 أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ (35) " سُورَةُ الْمَعَارِجِ : آيَةٌ 19-35 ، حَيْثُ اسْتَشْنَىٰ مِنْ الَّذِينَ يَهْلَعُونَ
 وَيَجْرَعُونَ وَيَمْنَعُونَ مَنْ اتَّصَفَ بِالصِّفَاتِ الْآتِيَةِ :

أ- الْمُصَلُّونَ : فَقَدْ أَعْطَاهُمُ اللَّهُ الصَّلَاةَ ، فَالصَّلَاةُ فَوْقَ أَهْلِهَا رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ وَعَلَامَةُ الْإِيمَانِ هِيَ
 وَسِيلَةُ الْإِتِّصَالِ بِاللَّهِ ، وَمُظْهِرُ الْعِبَادِيَّةِ الْخَالِصَةِ ، وَهِيَ صِلَةٌ بِاللَّهِ مُسْتَمِرَّةٌ غَيْرُ مُنْقَطِعَةٍ لِلتَّعْظِيمِ
 وَالْحَمْدِ ، وَالسُّؤَالِ وَالِاسْتِغْفَارِ .

ب- الْمَزْكُونِ لِأَمْوَالِهِمْ : فَهُمْ يُؤَدُّونَ الزَّكَاةَ وَالصَّدَقَاتِ الْمَعْلُومَةَ الْقَدْرَ ، وَيَجْعَلُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ نَصِيبًا مَعْلُومًا
 يَشْعُرُونَ أَنَّهُ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ .

ت- أَنَّهُمْ يَصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ : وَهَذَا لَهُ أَثَرُهُ الْحَاكِمُ لِمَنْبَهِجِ الْحَيَاةِ شَعُورًا وَسُلُوكًا ، فَالَّذِي يَصَدِّقُ بِيَوْمِ
 الدِّينِ يَعْمَلُ وَهُوَ نَاطِرٌ لِحِسَابِ الْآخِرَةِ لَا لِحِسَابِ الدُّنْيَا ، وَيَتَقَبَّلُ الْأَحْدَاثَ خَيْرَهَا وَشَرَّهَا ، وَفِي حِسَابِهِ
 أَنَّهَا مُقَدَّمَاتٌ تَتَابَعُهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَيَقْضِي حَيَاتِهِ مَطِيعًا لِرَبِّهِ ، مُنْتَظِرًا جَزَاءَهُ يَوْمَ يَلْقَاهُ ، أَمَّا الْمَكْذِبُ بِيَوْمِ
 الدِّينِ فَلَا يَعْرِفُ إِلَّا الدُّنْيَا ، فَهُوَ يَحْسِبُ كُلَّ شَيْءٍ يَقَعُ لَهُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الْقَصِيرَةِ الْمَخْدُودَةِ ، فَهُوَ بِأَسْفَلِ
 الْمَسْكِينِ ، مُعَذَّبٌ قَلِقٌ ، لِأَنَّ مَا يَقَعُ لَهُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا قَدْ لَا يَكُونُ مَطْمَئِنًا وَلَا مَرِيحًا وَلَا عَادِلًا وَلَا

معقولاً ما لم يصف إليه حساب الشَّطْرِ الآخِرُ ، وَهُوَ أَكْبَرُ وَأَطْوَلُ وَأَهْوَلُ ، وَمَنْ تَمَّ يَشْقَى بِهِ مِنْ لَأَ
يحسب حساب الآخرة .

ث- أَنَّهُمْ يَخَافُونَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ : فَهُمْ يَقْضُونَ أَوْقَاتِهِمْ يَرِاقِبُونَ رَبَّهُمْ ، وَيَشْعُرُونَ بِالتَّصْغِيرِ فِي جَنْبِ اللَّهِ
مَعَ كَثْرَةِ عِبَادَتِهِمْ ، وَالْخَوْفِ مِنْ تَقَلُّبِ الْقَلْبِ ، وَاسْتِحْقَاقِهِ لِلْعَذَابِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ ، وَالتَّطَلُّعِ إِلَى اللَّهِ
ليحميمهم و يقيهم العذاب .

فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ الْمُؤْصِلُ بِاللَّهِ يَحْذَرُ وَيَرْجُو ، وَيَخَافُ وَيَطْمَعُ ، وَهُوَ مُطْمَئِنٌّ لِرَحْمَةِ اللَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ ،
مُنْتَظِرٌ لِكِرَامَتِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَالْإِيمَانُ بِاللَّهِ هُوَ أَصْلُ الدِّينِ الَّذِي يَنْبَثِقُ مِنْهُ كُلُّ فَرْعٍ مِنْ فُرُوعِ الْخَيْرِ ،
وَتَعَلَّقُ بِهِ كُلُّ ثَمَرِهِ مِنْ ثَمَارِهِ .

IO- الطغيان

وَمَعْنَى الطَّغْيَانِ فِي اللُّغَةِ : مُجَاوِزَةُ الْحَدِّ ، يُقَالُ : هُوَ طَاغَ ، وَطَغَى السَّيْلُ ، إِذَا جَاءَ بِمَاءٍ كَثِيرٍ ،
وَطَغَى الْبُحْرُ : هَاجَتْ أَمْوَاجُهُ . وَطَغَى الدَّمُ : تَبَيَّغَ ، قَالَ الْخَلِيلُ : " الطُّغْيَانُ وَالطُّغْوَانُ لُغَةٌ . وَالْفِعْلُ
مِنْهُ طَغَيْتُ وَطَغَوْتُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَجَاوِزُ الْقَدْرَ فَقَدْ طَغَى مِثْلَ مَا طَغَى الْمَاءُ عَلَى قَوْمِ تَوْحٍ ، وَكَمَا طَغَتْ
الصَّبِيحَةُ عَلَى ثَمُودَ . وَالطَّاغِيَةُ : الْجَبَّارُ الْعَنِيدُ . (الرازي ، 399هـ) (الفراهيدي ، د . ت)

والطغيان في الاصطلاح : مُجَاوِزَةُ الْحَدِّ فِي الْعِضْيَانِ . (التميمي ، 377هـ)

وَقَدْ دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : " كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ (6) أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى (7) " سُورَةُ الْقَلَمِ : آيَةٌ 6-

وَمَعْنَى الْآيَةِ : أَنْ نَوْعَ الْإِنْسَانِ مِنْ شَأْنِهِ أَنَّهُ إِذَا فَازَ بِمَقْصُودِهِ وَوَصَلَ إِلَى مَطْلُوبِهِ اغْتَرَّ وَصَارَ غَافِلًا عَنْ
عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى مُتَمَرِّدًا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ ، فَمِنْ طَبَعِ الْإِنْسَانِ أَنْ يَطْغَى إِذَا أَحْسَسَ مِنْ نَفْسِهِ الْاسْتِغْنَاءَ . ()
الرازى ، (١٤٢٠هـ) ، (ابن عَاشُورٌ ، ١٩٨٤هـ)

وَقَالَ ابْنُ عِثْمِينَ - مُوضِّحًا الْمَعْنَى بِالتَّفْصِيلِ - (١٤٢٣هـ) : " إِذَا رَأَى نَفْسَهُ اسْتَعْنَى فَإِنَّهُ يَطْغَى ، مِنْ
الطَّغْيَانِ وَهُوَ مُجَاوِزَةُ الْحَدِّ ، إِذَا رَأَى أَنَّهُ اسْتَعْنَى عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ طَغَى وَلَمْ يَبَالِ ، إِذَا رَأَى أَنَّهُ اسْتَعْنَى
عَنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي كَشْفِ الْكِرْبَاتِ وَحُصُولِ الْمَطْلُوبَاتِ صَارَ لَا يَلْتَمِتُ إِلَى اللَّهِ وَلَا يَبَالِي ، إِذَا رَأَى أَنَّهُ
اسْتَعْنَى بِالصِّحَّةِ نَسَى الْمَرَضَ ، وَإِذَا رَأَى أَنَّهُ اسْتَعْنَى بِالشَّبَعِ نَسَى الْجُوعَ ، إِذَا رَأَى أَنَّهُ اسْتَعْنَى بِالكِسْوَةِ
نَسَى الْعُرَى ، وَهَكَذَا فَالْإِنْسَانُ مِنْ طَبِيعَتِهِ الطَّغْيَانِ وَالتَّمَرُّدِ مَتَى رَأَى نَفْسَهُ فِي غِنَى ، وَلَكِنْ هَذَا يَخْرُجُ
مِنْهُ الْمُؤْمِنُ ، لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَرَى أَنَّهُ اسْتَعْنَى عَنْ اللَّهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ ، فَهُوَ دَائِمًا مُتَّقِرٌّ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
، يَسْأَلُ رَبَّهُ كُلَّ حَاجَةٍ ، وَيَلْجَأُ إِلَيْهِ عِنْدَ كُلِّ مَكْرُوهٍ ، وَيَرَى أَنَّهُ إِنْ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى نَفْسِهِ وَكَلَهُ إِلَى ضَعْفٍ
وَعَجْزٍ وَعَوْرَةٍ ، وَأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ، هَذَا هُوَ الْمُؤْمِنُ ، لَكِنَّ الْإِنْسَانَ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ
مِنْ طَبِيعَتِهِ الطَّغْيَانِ " .

والطغيان من موجبات النار ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ
هِيَ الْمَأْوَى ﴾ سُورَةُ النَّازِعَاتِ : آيَةٌ ٣٧-٣٩ .

والطغيان يحمل صاحبه على الظلم ، كما يمنع من وصول العبد إلى مقام رضوان الرحمن ويوقعه في
الخُسْرَانَ وَالْخِذْلَانَ وَعَضَبِ الْجَبَّارِ سُبْحَانَهُ ، قَالَ تَعَالَى : " كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ
فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي " ، سُورَةُ طه : آيَةٌ ٨١ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَيُّ لَا تَطْلُمُوا . (الطبري ، ١٤٢٠هـ)

إِمَّا عَنْ كَيْفِيَّةِ تَرْكِيَةِ الْإِنْسَانِ مِنَ الطَّغْيَانِ فَتَمَثَّلُ فِي الْآتِي :

أ- الْإِيمَانُ بِاللَّهِ : فَلَا يَعِصُمُ الْإِنْسَانَ مِنَ الطَّغْيَانِ إِلَّا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ ، فَمَنْ خِلَالِهِ يَعْرِفُ كَيْفَ يَرَعَى اللَّهَ فِي كُلِّ إِمْكَانَاتٍ أَوْ تَرَاءٍ يَمْنَحُهُ لَهُ اللَّهُ ، وَيَنْشُرُ مَعُونَتَهُ لِيَسْتِظِلَّ بِهَا الْمُحْتَاجُ غَيْرَ الْوَاحِدِ . (الشعراوي ، 1997م) ، وَالْإِيمَانُ بِاللَّهِ - بِمَفْهُومِهِ الْإِسْلَامِي - هُوَ الْعَامِلُ الْحَاسِمُ فِي تَقْرِيرِ حَالَاتِ الصَّحَّةِ أَوْ الْمَرَضِ ، فَاحْسَاسُ الْإِنْسَانِ بِالمَسْئُولِيَّةِ إِمَامِ اللَّهِ بِيَقِيهِ فِي مَنْزِلَةِ -الْوَسْطِيَّةِ- فَيَمْنَعُهُ مِنَ "الطَّغْيَانِ" ، وَتَجَاوُزُ الْخُدُودَ وَالْإِعْتِدَاءَ عَلَى وُجُودِ الْآخَرِينَ إِذَا كَانَ فِي حَالَةِ الْقُوَّةِ وَالْغِنَى ، وَيَقِيهِ مِنَ "الهُوَانِ" وَالسَّكُوتِ عَلَى اسْتِبَاحَةِ الطَّاعِينَ لِحُرْمَاتِهِ إِذَا كَانَ فِي حَالَةِ الضَّعْفِ وَالْفَقْرِ ، فَإِذَا غَابَ -الْإِيمَانُ بِاللَّهِ- مِنْ وُجُودِ الْإِنْسَانِ تَذَبُّدٌ بَيْنَ مَرْضَى الطَّغْيَانِ وَالهُوَانِ ، وَتَرَاءٍ لَهُ -عِنْدَ الْمَرَضِ الْأَوَّلِ- أَنَّهُ مُسْتَعْنٍ بِنَفْسِهِ لَا حَاجَةَ لَهُ لِغَيْرِهِ ، وَأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى الْإِمْسَاكِ بِسُنَنِ الْوُجُودِ وَإِحْدَاثِهِ وَضَرْبَةِ الْفَرْحِ ، وَالْفَخْرِ وَالْبَطْرِ وَادَّعَى الْقُدْرَةَ وَالْعِلْمَ . (الكيلاي ، 1419هـ)

ب- شَكَرَ اللَّهُ عَلَى نِعَمِهِ ، وَاسْتَعْمَلَهَا فِي طَاعَتِهِ . (طنطاوي ، 1998م)

د- أَنْ يَتَذَكَّرَ ضَعْفَهُ وَأَنَّهُ رَاجِعٌ إِلَى رَبِّهِ ، فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ بَعْدَ وَصْفِ الْإِنْسَانِ بِالطَّغْيَانِ أَنْ مَرْجِعُهُ إِلَيْهِ تَعَالَى فَقَالَ : "إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرَّجْعَى" . (ابن حميد وآخرون ، د . ت)

ه- أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ هَذَا الرِّزْقَ الَّذِي قَدْ يَنْشَأُ بِسَبَبِهِ الطَّغْيَانُ ؛ إِنَّمَا هُوَ عَلَى حَسَبِ مَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ أَعْلَمُ بِأَحْوَالِ عِبَادِهِ ، "وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ نُنزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ" ، فَعَلَى صَاحِبِ الْمَالِ إِلَّا يَبَالِغُ فِي الْفَرْحِ بِهِ ، لِأَنَّ ذَلِكَ الْفَرْحَ يُوْدِي بِهِ إِلَى الْبَطْرِ وَالتَّرَفِ . كَمَا أَنَّهُ يُوْدِي الْفُقَرَاءَ وَالْحُرُومِينَ وَيُوْدِي بِالْإِنْسَانِ إِلَى الْإِسْتِهْتَارِ بِالنِّعْمَةِ وَتَرْكِ الْحَيْطَةِ لِصُرُوفِ الزَّمَانِ .

هَلِ الْإِنْسَانُ مُخَيَّرٌ أَمْ مَسِيرٌ

أَنْ تَرْكِبَ الْإِنْسَانَ مِنْ حَيْثُ الْخَلْقِ يَخْتَلِفُ عَنْ أَيِّ مَخْلُوقٍ آخَرَ فَهُوَ مُرَكَّبٌ مِنْ مَادَّةٍ تَخْضَعُ لِكُلِّ مَا تَخْضَعُ لَهُ أَيِّ مَادَّةٍ مِنْ قَوَانِينِ طَبِيعِيَّةٍ وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى فَهُوَ مِنْ مَزِيجِ رُوحِيٍّ أَوْ رُوحَانِيٍّ مُكَوَّنٌ مِنْ عَقْلِ وَرُوحٍ وَنَفْسٍ وَهِيَ أُمُورٌ تُعْرَفُ مِنْ آثَارِهَا لَكِنْ لَا تُعْرَفُ بِطَبِيعَتِهَا وَتَكْوِينِهَا .

مِنْ هَذَا الْمُنْطَلِقِ فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ طَبِيعَةَ هَذَا الْكَائِنِ الَّذِي خَلَقَهُ

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلِمَ مَا تُوسِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق : 16]

هَذَا الثَّنَائِيَّةُ فِي التَّكْوِينِ تَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ التَّعَامُلُ مَعَهَا بِتَدْبِيرٍ وَهَذَا لَا يُقَدَّرُ عَلَيْهِ سِوَى الْخَالِقِ الْمُدَبِّرِ فَمِنْ جِهَةٍ أُخْضَعَ الْإِنْسَانُ لَهُ كَمَا خَضَعَتْ سَائِرُ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ الْأُخْرَى مِنْ أَرْوَاحٍ وَجَمَادٍ وَبَنَاتٍ وَحَيَوَانٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا نَعْلَمُهُ مِنْ خَلْقِهِ لِذَلِكَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَذْكُرُهُ دَائِمًا بِذَلِكَ لِنَاخِذِ مَثَلًا هَذِهِ التُّصَوُّصُ الْقُرْآنِيَّةُ

الثَّلَاثُ

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ الصَّافَّاتُ : 96

﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإنسان : 30] .

﴿ وَقَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير : 29] .

إِنَّ اللَّهَ يُخَاطَبُ الْإِنْسَانَ هُنَا بِكَوْنِهِ مَخْلُوقًا خَاضِعًا مُرْغَمًا لَا مَحَالَةَ لِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَلَا يُمَكِّنُهُ بِأَيِّ شَكْلِ مِنْ
الْأَشْكَالِ التَّمَلُّصِ أَوْ الْإِفْلَاتِ مِنْهَا لِذَلِكَ فَالْإِنْسَانُ وَكُلُّ مَا يَفْعَلُهُ يَدْخُلُ فِي هَذِهِ الدَّائِرَةِ الْجَبْرِيَّةِ بِاعْتِبَارِهِ
كَمَا قُلْنَا كَسَائِرِ خَلْقِ اللَّهِ .

أَمَّا فِي الْآيَاتِ التَّالِيَةِ :

(وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ) [الكهف : 29]

وَقَالَ تَعَالَى : وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا [آل عمران : 145] .

وَقَالَ تَعَالَى : إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا [الإنسان : 29] .

فَإِنَّ الْمَوْلَى الْقَدِيرَ يُخَاطَبُ الْإِنْسَانَ كَمَا تَنْوِيهِ اللَّهُ الْعَقْلَ وَأُودِعَهُ أَمَانَتَهُ وَأَنَّ هَذَا الْعَقْلَ مَخْلُوقٌ أَوْ
مُبْرَمَجٌ إِنْ صَحَّ التَّعْبِيرُ عَلَىٰ حُرِّيَّةِ الْإِخْتِيَارِ حَتَّىٰ يَكُونَ مَسْئُولًا عَنْ تَصَرُّفِهِ وَبِالتَّالِيِ الْحِسَابِ عَلَىٰ أَسَاسِ
هَذَا التَّصَرُّفِ الْإِرَادِيِّ فَإِنَّ لِلْإِنْسَانَ إِذْنًا حُرِّيَّةَ الْإِخْتِيَارِ فِي كُلِّ الْأُمُورِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِحَيَاتِهِ وَمِنْ أَهْمَمَاتِ حُرِّيَّةِ

الِإِعْتِقَادِ

وَسَأَضْرِبُ مَثَلًا لَوْ أَنَّنا رَبَطْنَا طَيْرًا أَوْ عُصْفُورًا بِخَيْطٍ طَوِيلٍ جِدًّا بِحَيْثُ يَسْتَطِيعُ هَذَا الطَّائِرُ أَنْ يَذْهَبَ
حَيْثُ يَشَاءُ بِدُونِ أَيِّ إِعَاقَةٍ وَبِذَلِكَ يَطْمَئِنُّ مَنْ أَنَّهُ يَطِيرُ بِحُرِّيَّةٍ لَكِنْ فِي الْوَاقِعِ هُوَ مَرْبُوطٌ بِخَيْطٍ وَرَأْسِ
هَذَا الْخَيْطِ هِيَ يَدُ الْإِنْسَانِ الَّذِي بِإِمْكَانِهِ أَنْ يَسْحَبَ الْخَيْطَ فَيَتَوَقَّفَ الطَّيْرُ عَنِ الطَّيْرَانِ تَلْكَمِ هِيَ الْقِصَّةُ
فَتَحْنُ تَمَامًا مِثْلَ هَذَا الطَّائِرِ فَمِنْ جِهَةٍ نَحْنُ مَرْبُوطُونَ بِقَوَائِنِ اللَّهِ وَبِمَشِيئَتِهِ أَيْضًا لَكِنَّا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَفْكَرَ

بُحْرِيَّةٍ وَإِنْ نَذَهَبَ بِتَفْكِيرِنَا إِلَى أَبْعَدِ نَقْطَةٍ وَهَذَا كُلُّهُ مَسْمُوحٌ لَنَا كَمَا هُوَ مَسْمُوحٌ لِلطَّائِرِ بِالطَّيْرَانِ لَكِنْ
عَمَلِيًّا وَفِعْلِيًّا نَحْنُ خَاضِعِينَ لِمَشِيئَةِ اللَّهِ فَهُوَ الْمُتَحَكِّمُ فِينَا وَبِأَصْغَرِ ذَرَّةٍ بِالْكُونِ وَبِأكْبَرِ مَخْلُوقَاتِهِ .

يَبْدُو الْأَمْرُ بَسِيطًا لَكِنْ لِمَاذَا أَذِنَ كُلُّ هَذَا التَّفَاقُشِ وَالْجَدَلِ الَّذِي أَثَارُهُ قَضِيَّةَ هَلِ الْإِنْسَانُ مُخَيَّرٌ أَمْ مَسِيرٌ
وَالسَّبَبُ فِي اعْتِقَادِي يُعُودُ إِلَى الْغَايَةِ مِنْ وَرَاءِ طَرِحِ هَذَا الْمَوْضُوعِ فَالْعَقْلُ الدِّيْنِي الْعَرَبِي اسْتَطَاعَ أَنْ
يُوظِفَ هَذَا الْأَمْرَ لْغَايَةٍ سِيَاسِيَّةٍ حِينَمَا اخْتَرَعَ مَا يُسَمَّى بِالْجَبْرِ الْإِلَهِيِّ وَمَذَهَبِ الْقَدْرِيَّةِ .
كَمَا أَنَّ لَهُ غَايَاتٍ فِقْهِيَّةً جَدَلِيَّةً لَا أَكْثَرَ .

أَنَّ مَسْأَلَةَ التَّخْيِيرِ وَالتَّسْيِيرِ وَمَوْقِفِ الْإِنْسَانِ مِنْهَا هَلْ هُوَ مُخَيَّرٌ أَمْ مُسَيَّرٌ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ أَخَذَتْ مِنَ الْعَقْلِ
الْإِسْلَامِيِّ حَيْرًا كَبِيرًا لَا تَسْتَحِقُّهُ ، وَأَضَاعَ الْفَلَسَافَةُ الْمُسْلِمُونَ وَقَتًا ثَمِينًا فِيهَا مَعَ أَنَّ الْمَسْأَلَةَ وَاضِحٌ حُلْمًا
وُضُوحِ الشَّمْسِ فِي رَائِعَةِ التَّهَارِ إِذَا تَأَمَّلْنَا الْوَاقِعَ وَتَدَبَّرْنَا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ : مَوْقِفِ الْإِنْسَانِ الْبَسِيطِ سَلِيمِ
الْفِطْرَةِ : أَنَّ مَعْرِفَةَ مَوْقِفِهِ لَمْ يَأْخُذْ مِنْهُ جَهْدًا عَقْلِيًّا لِأَنَّهُ تَعَامَلُ مَعَ الْوَاقِعِ مَبَاشَرَةً . فَهُوَ عِنْدَمَا يُرِيدُ أَنْ
يُصَلِّيَ فَإِنَّهُ يَقُومُ لِيَتَوَضَّأَ وَيُصَلِّيَ وَعِنْدَمَا يُرِيدُ أَنْ يُحْصِدَ الزَّرْعَ فَإِنَّهُ يَحْصِدُهُ بِبَسَاطَةٍ . فَاحْتِمَالٌ أَنَّهُ مُسَيَّرٌ
لَا نَجِدُهُ يَدَاعِبُ خَاطِرَهُ أَبَدًا ! فَالْأَمْرُ وَاضِحٌ جَلِيٌّ ، وَلَرَبَّمَا أَتَيْتُمْ هَذَا الْإِنْسَانَ الْمَنْطُورَ عَلَى التَّفْكِيرِ
الْبَسِيطِ الْقَوِيمِ مِنْ يَقُولُ بِالتَّسْيِيرِ بِالْبَلَّةِ وَقَلَّةِ الْعَقْلِ ، وَذَلِكَ لَا يَتَعَارَضُ مَعَ إِدْرَاكِهِ أَنَّهُ يُفْرَضُ عَلَيْهِ عِدَّةُ أُمُورٍ
كَمَا كَانَ وَزَمَانِ مِيلَادِهِ وَأَبِيهِ وَأُمِّهِ . . . وَلَكِنَّهُ يُعَلِّمُ أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ لَيْسَتْ مِنْ أَعْمَالِهِ بَلْ هِيَ مِنْ قَدْرِهِ .

شَرَحَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لِلْمَسْأَلَةِ لِلْبَسْطَاءِ مِنَ النَّاسِ : أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يُعْطِي حَلًّا يَنْسَابُ مَعَ الْإِنْسَانِ
الْبَسِيطِ عَقْلُهُ حَتَّى لَا يَحَارَ فِي هَذَا الْأَمْرِ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مِثْلًا : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ
فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهَمِّ سُرَادِقِهَا وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ

يُشَوِي الْوُجُوهَ بِسَسِ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَقًا ﴿ [الكهف : 29] صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ . ونلاحظ هنا
منهجًا هامًا اتبعه القرآن الكريم في تبسيط المعلومة وهو عدم الإخلال بصحة المعلومة من أجل تبسيطها
كما يفعل عكس ذلك الكثير من الآباء - حتى يبسطوا المعلومة لأولادهم الصغار فتراهم يُغيرون ويُبدلون
في المعلومة ليستطيع الطفل إن تخيلها كأن يسأل "أين الله ؟" فنجيبه خطأ "في كل مكان" . . !

الإنسان أبا كان يتعرض لنوعين من التصرفات :

كما أن له غايات فقهية جدلية لا أكثر .

أن مسألة التخيير والتسيير وموقف الإنسان منها هل هو مُخَيَّرٌ أم مُسَيَّرٌ في هذه الحياة أخذت من العقل
الإسلامي حيزًا كبيرًا لا تستحقه ، وأضاع الفلاسفة المسلمون وقتًا ثمينًا فيها مع أن المسألة واضح حلها
وضوح الشمس في رابعة النهار إذا تأملنا الواقع وتدبرنا القرآن الكريم : موقف الإنسان البسيط سليم
القطرة : أن معرفة موقفه لم يأخذ منه جهدًا عقليًا لأنه تعامل مع الواقع مباشرة . فهو عندما يريد أن
يُصَلِّيَ فَإِنَّهُ يَتَوَضَّأُ وَيُصَلِّي وَعِنْدَمَا يُرِيدُ أَنْ يُحْصِدَ الزَّرْعَ فَإِنَّهُ يَحْصِدُهُ بِبَسَاطَةٍ . فاحتمال أنه مُسَيَّرٌ
لأنه نجده يُدَاعِبُ حَاطِرَهُ أَبَدًا ! فالأمر واضح جلي ، ولربما أنهم هذا الإنسان المفطور على التكبير
البسيط القويم من يقول بالتسيير بالبلبة وقلة العقل ، وذلك لا يتعارض مع إدراكه أنه يفرض عليه عدة أمور
كمكان وزمان ميلاده وأبيه وأمه . . . ولكنه يعلم أن هذه الأمور ليست من أفعاله بل هي من قدره .

شرح القرآن الكريم للمسألة للبسطاء من الناس : أن القرآن الكريم يُعْطِي حَلًّا يَتَّسَبُّ مَعَ الْإِنْسَانِ
البسيط عقله حتى لا يحار في هذا الأمر فيقول الله تعالى مثلًا : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ
فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ

يُشَوِي الْوُجُوهَ بِسَسِ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَقًا ﴿ [الكهف : 29] صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ . ونلاحظ هنا
منهجًا هامًا اتَّبعَهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي تَبْسِيطِ الْمَعْلُومَةِ وَهُوَ عَدَمُ الْإِحْلَالِ بِصِحَّةِ الْمَعْلُومَةِ مِنْ أَجْلِ تَبْسِيطِهَا
كَمَا يُفْعَلُ عَكْسُ ذَلِكَ الْكَثِيرِ مِنَ الْأَبَاءِ - حَتَّى يُبْسِطُوا الْمَعْلُومَةَ لِأَوْلَادِهِمِ الصَّغَارِ فَتَرَاهُمْ يُغَيِّرُونَ وَيُبَدِّلُونَ
فِي الْمَعْلُومَةِ لِيَسْتَطِيعَ الطِّفْلُ إِذَا تَخَيَّلَهَا كَانَ يُسْأَلُ "أَيْنَ اللَّهُ ؟" فنجيبه خطأً "في كُلِّ مَكَانٍ" . . !
الإنسان أياً كان يَتَعَرَّضُ لِتَوَعُّينٍ مِنَ التَّصَرُّفَاتِ :

سبينوزا Spinoza فيلسوف هولندي يرى أَنَّ قَانُونَ الطَّبِيعَةِ (الله) قَدَّرَ لَنَا جَمِيعَ الْأَفْعَالِ ، وَأَنَّ
الإنسان يَبْدُ اللَّهُ كَالغُضَارِ يَبْدُ صَائِعِ الْخَرْفِ . غَرِيزَةُ اللَّذَّةِ تَقَرَّرُ الرَّغْبَةَ ، وَالرَّغْبَةُ تَقَرَّرُ الْفِكْرَةَ ، وَالْفِكْرَةُ
تَتَحَوَّلُ إِلَى عَمَلٍ ، يَقُولُ : يُظَنَّ النَّاسَ أَنَّهُمْ أَحْرَارٌ لِأَنَّهُمْ يُدْرِكُونَ رَغْبَاتِهِمْ وَمَشِيئَتِهِمْ ، لَكِنَّهُمْ يَجْهَلُونَ
الأسباب التي تسوقهم إلى أن يرغبوا .

الْحَمِيَّةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ الْفَرْدُ يَتَأَثَّرُ بِوَسْطِهِ الْاجْتِمَاعِيِّ ، يُضْطَرُّ إِلَى تَنْظِيمِ نَشَاطِهِ وَفِقِ مَا تَمْلِيهِ الْعَادَاتُ
والتقاليد والقوانين ، كَمَا يَتَصَرَّفُ تَبَعًا لِلْجَمَاعَةِ الَّتِي يَنْتَمِي إِلَيْهَا بِهَدَفِ الْإِنْدِمَاجِ فِي الْمَجْتَمَعِ ، وَلَا
يَسْتَطِيعُ الْإِنْعِزَالَ عَنْهَا ، فَيُصْبِحُ بِذَلِكَ صُورَةَ طَبَقِ الْأَصْلِ لِجَمْعِهِ يَقُولُ دُوركايم Durckeieme (الفرد
صُورَةَ مَجْتَمَعِهِ) .

الْحَمِيَّةُ النَّفْسِيَّةُ تَرْجِعُ مَدْرَسَةَ التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ أَغْلَبَ الْأَفْعَالِ إِلَى الدَّوَاغِ النَّفْسِيَّةِ الْإِشْعُورِيَّةِ كَالرَّغْبَاتِ
المكبوتة ، والنزوات الحَقِيقِيَّةِ الَّتِي تُؤَثِّرُ فِي السُّلُوكِ بِطَرِيقِهِ غَيْرِ إِرَادِيَّةٍ . أَمَّا الْمَدْرَسَةُ السُّلُوكِيَّةُ ، فَتَخْضَعُ
السُّلُوكَ إِلَى إِلَيْهِ الْمُتَّبَعِ وَالِاسْتِجَابَةِ ، وَإِنْ نَفْسُ الْمُنْبَهَاتِ تُعْطِي نَفْسَ الْاسْتِجَابَاتِ .

الْحَمِيَّةُ الْبِيُولُوجِيَّةُ يَقُولُ الْبِيُولُوجِيُونَ (إِنَّا تَحْتَ رَحْمَةِ غَدَدِنَا الصَّمَاءِ) ، فَإِذَا زَادَ إِفْرَازُ الْغُدَّةِ الدَّرْقِيَّةُ
كَانَ الشَّخْصُ كَثِيرَ الْحَرَكَةِ ، وَإِذَا نَقَصَ إِفْرَازُهَا كَانَ خَامِلًا وَبَطِيءَ الْحَرَكَةِ ، وَإِذَا زَادَ إِفْرَازُ الْأَدْرِينَالِينِ
كَانَ الشَّخْصُ سَرِيعَ التَّهَيُّجِ وَالْعَكْسِ .

مُنَاقَشَةٌ لَوْ كَانَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يُخَلِّقُ الْأَفْعَالَ ، فَلِمَاذَا يَحَاسِبُنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلِمَاذَا أُرْسِلَ الرُّسُلُ
وَالْأَنْبِيَاءُ ؟ وَمَا الْفَائِدَةُ مِنْ وُجُودِ الْعَقْلِ ؟ يُمَكِّنُ لِلْفَرْدِ أَنْ يَتَجَاوَزَ الْحَمِيَّةَ الْاجْتِمَاعِيَّةَ بِالْتَمَرْدِ عَلَى
الْعَادَاتِ وَالتَّقَالِيدِ كَمَا يَفْعَلُ الْمَصْلِحُونَ ، فَرَضِيَّةُ الْأَشْعُورِ لَا تَنْطَبِقُ عَلَى جَمِيعِ الْأَفْعَالِ ، وَنَفْسُ الْمُنْبَهَاتِ
لَا تُعْطِي دَائِمًا نَفْسَ الْاسْتِجَابَاتِ ، الْبِيُولُوجِيُونَ أَهْمَلُوا الْعَوَامِلَ التَّنْفِيسِيَّةَ فِي تَوْجِيهِ السُّلُوكِ .

إثبات الحرية

الْبُرْهَانُ التَّنْفِيسِيُّ يَوَقَّفُ عَلَى شَهَادَةِ الشُّعُورِ ، وَاعْتَمَدَ عَلَيْهِ الْكَثِيرُ مِنَ الْفَلَّاسِفَةِ فِي إِثْبَاتِ الْحُرِّيَّةِ ، مِنْ
بَيْنِهِمُ الْمُعْتَرِلَةَ - فِرْقَةُ كَلَامِيَّةِ أَسْسَهَا وَاصِلِ بْنِ عَطَاءٍ - تَرَى أَنَّ شُعُورَ الْإِنْسَانِ بِالرِّضَا تَارَةً وَبِالندَمِ تَارَةً
أُخْرَى لِدَلِيلٍ عَلَى أَنَّهُ حُرٌّ ، وَصَاحِبِ الْفِعْلِ ، تَقُولُ : أَنَّ الْإِنْسَانَ يُحَسِّنُ مِنْ نَفْسِهِ وَقُوعِ الْفِعْلِ . . فَإِذَا
أَرَادَ الْحَرَكَةَ تَحَرَّكَ ، وَإِذَا أَرَادَ السُّكُونَ سَكَنَ . .

دِيكَارْتُ يَقُولُ : أَنَّ الْحُرِّيَّةَ خَاصِيَّةٌ مُلَازِمَةٌ لِلْكَائِنَاتِ الْعَاقِلَةِ ، كُلُّ تَفْكِيرٍ هُوَ اخْتِيَارٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ ، وَالْاِخْتِيَارُ
هُوَ دَلِيلُ الْحُرِّيَّةِ ، يَقُولُ : أَنَّ الْحُرِّيَّةَ تُدْرِكُ بِإِبْرَاهَانَ ، بَلْ بِالتَّجَرِبَةِ التَّنْفِيسِيَّةِ الَّتِي لَدَيْنَا عَنْهَا .

بِرَغْسُونِ : الْحُرِّيَّةُ حَالَةٌ نَفْسِيَّةٌ تَجْرِي فِي الْإِنْسَانِ الْعَمِيقِ كَالْتَهَرِ الْمَدْفَقِ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ عَنِ السَّيْلَانِ ، وَمَا
الْإِنْسَانُ السُّطْحِي ، إِلَّا أَدَاهُ تَنْفِيذَ لِقَرَارَاتِنَا الْحَزَّةِ ، يَقُولُ : الْحُرِّيَّةُ إِحْدَى ظَوَاهِرِ الشُّعُورِ .

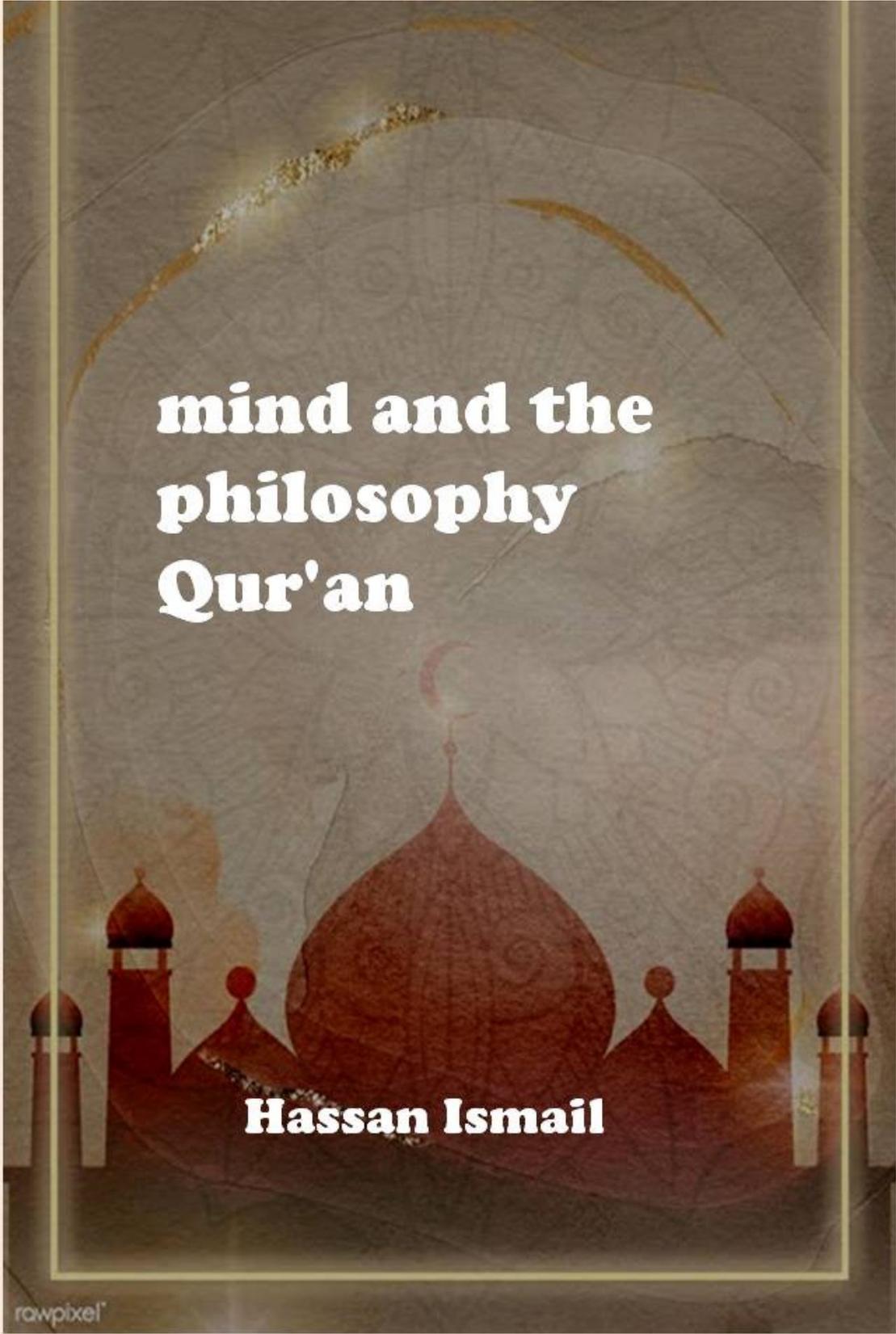
الْبُرْهَانُ الْأَخْلَاقِيُّ تَرَى الْمُعْتَرِظَةَ أَنَّ لِلْإِنْسَانَ الْقُدْرَةَ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالْقُدْرَةَ عَلَى الْإِخْتِيَارِ ؛
لِأَنَّهُ مُكَلَّفٌ ، وَالْمُكَلَّفُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ حُرًّا يَخْتَارُ بَيْنَ الْفِعْلِ أَوْ التَّرْكِ ، وَإِلَّا فَقَدْ التَّكْلِيفُ مَعْنَاهُ ، وَمِنْهُ
يُصِحُّ الْإِنْسَانُ خَالِقًا لِأَفْعَالِهِ ، خَيْرِهِ كَانَتْ أُمَّ شَرِيْرَةً ، وَمَسْئُولٌ عَنْهَا يَسْتَحِقُّ الثَّوَابَ إِذَا أَصَابَ ،
وَالْعِقَابَ إِذَا أَسَاءَ ، وَالتَّكْلِيفُ مُثَبَّتٌ شَرْعًا ؛ قَالَ تَعَالَى : لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَعَلَيْهَا مَا كَسَبَتْ . صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ .

كَانَطُ : يَرَى أَنَّ الْوَاجِبَ الَّذِي يَمْلِيهِ الضَّمِيرُ لِذَلِيلٍ عَلَى وُجُودِ الْحُرِّيَّةِ (إِذَا كَانَ يَجِبُ عَلَيْكَ فَإِنَّهُ إِذَنْ
تَسْتَطِيعُ) ، وَيَقُولُ (يَجِبُ التَّسْلِيمُ بِالْحُرِّيَّةِ مِنْ أَجْلِ تَأْسِيسِ الْأَخْلَاقِ) ؛ لِأَنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُدْرِكَ قِيَمَةَ
الْفِعْلِ مِنَ التَّاحِيَةِ الْخَلْقِيَّةِ مَا لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ حُرًّا .

الْبُرْهَانُ الْوُجُودِيُّ سَارَتْهُ الْإِنْسَانِ حُرٌّ ، وَهَذِهِ الْحُرِّيَّةُ تُعْبَرُ عَنْ صَمِيمِ وُجُودِهِ ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ عِنْدَمَا يَخْتَارُ
بَيْنَ الرَّغَبَاتِ ، فَإِنَّهُ يُشْعِرُ بِذَاتِهِ الْمُسْتَقَلَّةِ وَالْمُمْتِيزَةِ ، يَقُولُ : الشُّعُورُ بِالذَّاتِ يَقْتَضِي الْحُرِّيَّةَ ، وَالْحُرِّيَّةُ
تُقْتَضِي الْإِمْكَانِيَّةَ ؛ لِأَنَّ الْحُرِّيَّةَ تَتَضَمَّنُ الْإِخْتِيَارَ ، وَكُلُّ إِخْتِيَارٍ هُوَ إِخْتِيَارٌ بَيْنَ مُمْكِنَاتٍ .

التَّرْكِيبُ : أَنَّ الْحَتْمِيَّةَ وَالْحُرِّيَّةَ غَيْرُ مُتَعَارِضَتَيْنِ مِنَ التَّاحِيَةِ الْعَمَلِيَّةِ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ غَيْرِ الْمُمْكِنِ أَنْ يَتَحَرَّرَ
الْإِنْسَانُ مِنَ الْقَيْدِ الطَّبِيعِيِّ وَالنَّفْسِيِّ وَالْإِجْتِمَاعِيِّ ، إِنْ لَمْ يَكْشِفِ الْقَوَائِنَ الَّتِي تَكُونُ وَرَاءَ هَذِهِ الْقَيْدِ ،
يَقُولُ بُولُ فُولْكِي : الْحَتْمِيَّةُ شَرْطُ مُمَارَسَةِ الْحُرِّيَّةِ ، وَهَكَذَا نَتَأَوَّلُ الْفَلَّاسِفَةَ الْمُعَااصِرِينَ مُشْكَلَةَ الْحُرِّيَّةِ
مِنْ جَانِبٍ وَاقِعِيٍّ ، وَتَحَوَّلَتْ إِلَى سُلُوكٍ تَحَرُّرِيٍّ يُسْتَعْمَلُ الْعِلْمُ وَالْعَمَلُ الْوَاعِي مِنْ أَجْلِ فَرَضِ الْوُجُودِ
وَبِنَاءِ الْحَضَارَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ .

انتهى بعون الله تعالى



**mind and the
philosophy
Qur'an**

Hassan Ismail

rawpixel